



# البلشفية

الطريق نحو الثورة

آلان وودز



# البلشفية: الطريق نحو الثورة

تاريخ الحزب الشيوعي من البدايات إلى ثورة أكتوبر

آلان وودز

ترجمة: هيئة تحرير موقع ماركسي

[www.marxy.com](http://www.marxy.com)



البلشفية: الطريق نحو الثورة  
تأليف: آلان وودز

العنوان الأصلي للكتاب:  
Bolshevism: The Road to Revolution

الموزع في المملكة المتحدة:  
Wellred Books, P.O. Box 2626, London N1 7SQ, England

رقم الهاتف:  
+44 (0) 20 7251 1094

رقم الفاكس:  
+44 (0) 20 7251 1095

بريد الكتروني:  
wellred@marxist.com

الموزع في الولايات المتحدة:  
Wellred Books, P.O. Box 1331, Fargo ND 58107 - 1331, USA

للشراء على الانترنت:  
<http://www.wellredbooks.net>

ISBN: 978-1-900-007-50-4

في حال الرغبة بالتواصل مع الكاتب بملاحظاتكم ومقترحاتكم، الرجاء الكتابة الى Wellred Books



أخذت مهمة تجميع المواد لهذا الكتاب فترة طويلة، تمتد ثلاثين سنة على وجه الدقة. لكن الصياغة النهائية أخذت مدة تزيد قليلا عن اثنتي عشر شهرا. ومن أجل الانضباط لمثل هذا الجدول الزمني الصعب، كان علي الاعتماد على مساعدة العديد من المتعاونين. أولهم وأهمهم زوجتي، أنا، التي كرست ساعات طويلة مضيئة من العمل المرهق للتحريير والتحقق من المصادر والمراجع (وهي المهمة غير السهلة بالنظر إلى نظامي الفوضوي، أو بالأصح غياب النظام عندي).

أتقدم بشكري كذلك لروب سيويل، ليس فقط لمساعدته لي في قراءة عدة مسودات صعبة وتقديم اقتراحات لا تقدر بثمن، بل أيضا، وقبل كل شيء، لدعمه المعنوي الهائل لي وحماسه وروح دعابته التي لا تفتز.

ومن بين العديد من الذين ساعدوني في تصحيح النص أود أن أتقدم بشكر خاص لتريسي هوتون، الذي قام بعمل رائع في فرز ما كان مخطوطة صعبة للغاية وساعدني على استعادة بعض النظام وتصحيح الأخطاء النحوية! بالإضافة إلى ذلك، أتوجه بالشكر الجزيل لفرناندو داليساندرو لقيامه، في نهاية العمل، بفحص كل شيء بدقة من الغلاف إلى الغلاف وفرز الفهرس. كما أود أن أتقدم بالشكر إلى فيل ميتشينسون وسيو نوريس وستيف جونز لدورهم في تنقيح النص.

وأتوجه بكلمة شكر خاصة إلى يانيس باباديمتروبولوس لعمله المضي من أجل تخطيط وتصميم غلاف الطبعة الإنجليزية.

وأخيرا وليس آخرا، أشير إلى أنني تمكنت من إدخال بعض الصور التوضيحية الجميلة بفضل سخاء دافيد كينغ، الذي تكرم بالسماح لنا بالوصول إلى أرشيفه الفوتوغرافي الغني جدا. إن تعاون دافيد كينغ مرحب به للغاية، لأنه هو نفسه قام بأعمال بارزة في الدفاع عن التقاليد الحقيقية لثورة أكتوبر البلشفية، كان آخرها دراسته الرائعة عن تزوير السجلات التاريخية من قبل الستالينيين.<sup>1</sup>





14	كلمة هيئة تحرير موقع ماركسي
	<b>مقدمة الطبعة العربية</b>
16	دروس الثورة العربية
16	ثورة أكتوبر
17	أهمية النظرية
18	الدور الرجعي للستالينية
18	بناء الحزب الثوري!
20	تفريغ شريط تقديم الكتاب
	<b>مقدمة الطبعة الإنجليزية الأولى</b>
23	لماذا دراسة تاريخ البلشفية؟
24	هل الحزب ضروري؟
26	بخصوص هذا العمل
28	كيف يفسر البرجوازيون ثورة أكتوبر
30	مدرسة ستالين للتزوير
32	”أكاذيب جديدة وأكاذيب قديمة!“
34	اللينينية والمستقبل
	<b>مقدمة الطبعة الإنجليزية الثانية</b>
36	النقاش مع أورلاندو فيجز
37	البلشفية في هافانا - وكراكاس
38	كتاب تروتسكي عن ستالين
39	الدور الحاسم للحزب
41	إشارات توضيحية
	<b>الفصل الأول: ميلاد الحركة الماركسية الروسية</b>
43	مقتل حاكم أوتوقراطي
45	”التوجه نحو الشعب“
50	”الأرض والحرية“
54	ميلاد الحركة الماركسية الروسية
58	مجموعة تحرير العمل



61	التطور المركب واللامتكافئ
64	مرحلة الحلقات الصغرى
67	من الدعاية إلى التحريض
69	حركة العمال اليهود
71	رابطة سان بيترسبورغ للنضال
75	الماركسية الشرعية
79	لينين ومجموعة تحرير العمل
80	الخلاف مع الاقتصاديين
82	رابوتشايا ميسل
84	تحريفية برنشتاين
87	المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي
90	رابوتشيبه ديلا
94	ميلاد إيسكرا
98	ما العمل؟
101	يقظة جديدة
103	توترات في صفوف هيئة التحرير
105	الاقتصاديون في تراجع
109	المؤتمر الثاني
113	المعنى الحقيقي لانقسام 1903
116	ارتباك في صفوف القواعد
119	روزا لوكسمبورغ
122	الحرب مع اليابان
125	قطيعة تروتسكي مع المناشفة

#### الفصل الثاني: الثورة الروسية الأولى

130	التاسع من يناير 1905
132	”الزوباتوفية“
134	الأب غابون
137	الأحد الدامي
138	الثورة بدأت
141	لجنة شيدلوفسكي
143	لينين و”أعضاء اللجنة“

146	المؤتمر الثالث
149	كيف كان الحزب يمول نفسه
152	المد الثوري
154	دوما بوليغين
155	إضراب أكتوبر ومجلس السوفييت
159	البلاشفة ومجلس السوفييات
261	”نيكولا الدموي“
165	فتح أبواب الحزب
167	صحافة الحزب
169	تروتسكي عام 1905
173	انتفاضة موسكو
177	الهزيمة

#### الفصل الثالث: مرحلة الردة الرجعية

180	الويل للمهزومين
182	النضال ضد البطالة
186	إعادة التوحيد
188	النقاش حول مسألة الأرض
191	البلشفية والمنشفية
192	انتفاضة الفلاحين
194	المقاطعة أم عدم المقاطعة؟
198	الأوهام البرلمانية
201	حل مجلس الدوما
202	مسألة حرب العصابات
205	موقف لينين من حرب العصابات
207	الردة الرجعية بقيادة ستوليبين
209	مجلس الدوما الثاني
212	المؤتمر الخامس (لندن)
214	النقاش حول الأحزاب البرجوازية
216	الثورة الدائمة وموقف لينين
221	انقلاب الثالث من يونيو
224	التصفوية والأوتزوفية

226	مزاج الإنتليجنسيا
229	انقسام البلاشفة
234	المناشفة الموالون للحزب
235	توترات داخل هيئة تحرير جريدة "بروليتاري"
237	تروتسكي والنزعة التوفيقية
239	جلسة يناير العامة
241	انهيار "الوحدة"
243	عشية التحول

#### الفصل الرابع: النهوض

245	فترة انتقالية
247	العمل الجماهيري في ظل ظروف الردة الرجعية
250	كونفرانس براغ
252	المخبر مالمينوفسكي
254	بعد الكونفرانس
257	نهوض جديد
258	لينين وبرافدا
261	الانتخابات لمجلس الدوما الرابع
262	البلاشفة في مجلس الدوما
266	التكتيكات في مجلس الدوما
268	النهوض الثوري
270	"الجماهير صارت ناضجة الآن"
271	الانقسام في مجموعة الدوما
273	المسألة القومية
275	لينين والمسألة القومية
277	حروب البلقان
280	اقتراب العاصفة
281	نمو تأثير البلاشفة
284	البلاشفة عشية الحرب

#### الفصل الخامس: سنوات الحرب

289	انهيار الأمم المتحدة الثانية
291	الجدور الاجتماعية للشوفينية

292	التيارات داخل الاشتراكية الديمقراطية الروسية
296	موقف لينين
299	مزاج الطبقة العاملة
301	تفكك الحزب
302	كتلة الدوما
304	التذبذبات بين صفوف البلاشفة
306	البلاشفة "اليساريون"
307	الإمبريالية أقصى مراحل الرأسمالية
308	محاكمة النواب البلاشفة في الدوما
310	حدود مغلقة
311	الدسائس الألمانية
315	كيف تمكن الحزب من الاستمرار؟
317	كارثة في الجبهة
319	البلاشفة في القوات المسلحة
322	الليبراليون يبدأون في التحرك
324	بداية المد
327	أزمة النظام القيصري
328	تغير المزاج
331	العمل بين النساء
333	تحركات سلمية
334	مؤتمر زهروالد
337	كونفرانس كينثال

#### الفصل السادس: سنة الثورة

340	ثورة فبراير
345	البلاشفة في فبراير
349	المناشفة وثورة فبراير
351	البلاشفة والحكومة المؤقتة
355	لينين وتروتسكي عام 1917
358	لينين يعيد تسليح الحزب
362	الحكومة الائتلافية الأولى
366	كل السلطة للسوفييتات

371	أيام يونيو
375	أيام يوليو
377	بعد أحداث يوليو
381	لينين يغير رأيه
383	تروتسكي والحزب البلشفي
386	تمرد كورنيلوف
389	النضال من أجل كسب الجماهير
394	تكتيكات الانتفاضة
395	أزمة القيادة
397	مؤتمر السوفييتات
400	الفصل الأخير
402	الاستيلاء على السلطة
404	هل كان أكتوبر انقلاباً؟
407	انتصار البلشفية
409	النضال داخل المؤتمر
412	المصادر والمراجع



يمر النظام الرأسمالي اليوم بأعمق أزمة شهدها في تاريخه، أزمة لم تعد مقتصرة على بلد دون الآخر أو قارة دون الأخرى، بل هي أزمة عالمية بكل معنى الكلمة. كما أنها ليست مجرد أزمة اقتصادية عابرة، مثل الأزمات الدورية التي شهدتها الرأسمالية منذ ميلادها، بل هي أزمة شاملة وطويلة الأمد. أزمة في الاقتصاد والسياسة والبيئة والأفكار والقيم، الخ. إنها بكل تأكيد أزمة الانحطاط والاحتضار النهائيين للرأسمالية.

لكن النظام الرأسمالي يرفض أن يموت ويدفن، إنه يقاوم. وهذا طبيعي، إذ لم يشهد التاريخ أبدا طبقة تخلت بملئ إرادتها عن امتيازاتها وثروتها وسلطتها بدون خوض حرب شرسة، تكون مستعدة خلالها لجر كل الحضارة معها إلى الهاوية. لذلك تصير مهمة الطبقة التقدمية، الطبقة العاملة في وقتنا الحالي، هي إطلاق رصاصة الرحمة على رأس النظام المحتضر واستبداله بنظام جديد وعلاقات جديدة. وهذا هو ما تعنيه الثورة.

وبالفعل، يعيش العالم اليوم على وقع نهوض ثوري عارم، ليس مقتصرًا على البلدان المستعمرة سابقًا، بل امتد صداه إلى معازل الرأسمالية العالمية، وإن في شكل ما يزال جنينًا (حركات احتلال الساحات بالولايات المتحدة الأمريكية، حركة الساخطين وحركة نقدر في إسبانيا، النهوض النضالي الرائع في اليونان، الخ).

نفس النهوض الثوري نراه في المنطقة المغاربية والشرق أوسطية، حيث تمكنت الجماهير الكادحة من إسقاط عدد من أعتى الدكتاتوريين في المنطقة، وما تزال الحركة الثورية مستمرة، عبر فترات جزر ومد، هزائم وانتصارات.

إن ما يجعل السيرورة الثورية طويلة ومؤلمة هو غياب قيادة ثورية حازمة وجريئة، تمتلك برنامجًا اشتراكيًا أمميًا، قادرة على قيادة الطبقة العاملة إلى حسم السلطة وإنجاز مهام التغيير الاشتراكي للمجتمع. أي قيادة مثل تلك التي توفرت للطبقة العاملة الروسية خلال ثورة 1917.

ستضيع أفضل الانتصارات هباء وستتبدد أعظم الجهود والتضحيات، وستبقى السيرورة طويلة وستبقى مؤلمة طالما لم تتوفر مثل هذه القيادة. هذا ما تبينه لنا تجربة أزيد من قرن من الثورات المجهضة (في أوروبا وإفريقيا وآسيا وأمريكا).

إن بناء الحزب الثوري مهمة ملحة وآنية، على الجيل الجديد من الشباب الثوري أن يضعها على كاهله ويشرع في إنجازها. ومساهمة منا في خدمة هذه القضية لا بد أن أفضل ما يمكننا أن نقدمه للجيل الجديد من الشباب الثوري من الناطقين باللغة العربية هو كتاب المنظر الماركسي آلان وودز عن الحزب البلشفي، الذي يتقصى بدقة وعمق تاريخ الحزب البلشفي من كل جوانبه، ويشرح كيف تمكن، عبر تاريخ من العمل الدؤوب، والإخفاقات والنجاحات، من قيادة الطبقة العاملة إلى حسم السلطة، كتاب: "البلشفية: الطريق نحو الثورة".

هيئة تحرير موقع ماركسي

02 دجنبر/كانون الأول 2014





### دروس الثورة العربية<sup>1</sup>

تعتبر الترجمة العربية لكتاب "البلشفية الطريق نحو الثورة" حدثا في غاية الأهمية. لقد شكلت الثورة العربية مصدر إلهام حقيقي لملايين العمال والشباب في جميع أنحاء العالم. فهنا رأينا، على أرض الواقع، عظمة القوة التي تختزنها الجماهير. وإذا كان هناك من يشك في قدرة الجماهير على القيام بثورة، فهذا هو الجواب المدوي. والآن ما الذي أظهرته تلك الأحداث؟

إن صور ملايين العمال والفلاحين وهم ينهضون للإطاحة بدكتاتوريات الطغاة، في بلد عربي تلو الآخر، قدمت دليلا قاطعا على أن هناك قوة في المجتمع أعظم من أي حكومة أو جيش أو شرطة.

لقد أظهرت أنه عندما تتخلص الجماهير من خوفها، لا يعود في استطاعة أي قدر من القمع أن يوقفها. فبدون قيادة أو تنظيم أو برنامج واضح، نزلت الجماهير إلى الشوارع وأطاحت بحكوماتها.

لكن الثورة العربية العظيمة تظهر لنا أيضا شيئا آخر. إنها تثبت بشكل قاطع أنه بدون قيادة صحيحة، لا يمكن للثورة أن تنجح. لقد كانت السلطة في أيدي الجماهير، لكنها تسربت من بين أصابعها. كان يكفي لقيادة الاحتجاجات أن يقولوا: "نحن نمتلك السلطة الآن. نحن الحكومة". لكن هذه الكلمات لم تقل قط.

لقد فشل الثوار، رغم كل بطولاتهم، في استغلال الوضع لتوجيه الضربة القاضية للنظام القديم. كانت الجماهير تمتلك السلطة في أيديها، لكنها لم تعرف ماذا تفعل بها.

لقد ترددوا وفقدوا المبادرة، فتمكنت قوى النظام القديم من العودة. كانت الجماهير ترقص وتحتفل في الشوارع، بينما كانت قوات النظام القديم تعيد تجميع صفوفها وتتحرك لاستعادة السلطة بين أيديها. ونتيجة لذلك أعيدت ثمار النصر إلى المضطهدين القدامى.

هذه حقيقة غير مستساغة، لكنها الحقيقة مع ذلك.

### ثورة أكتوبر

تعد الثورة البلشفية في روسيا عام 1917، مثالا إيجابيا عن كيف يمكن للطبقة العاملة أن تصل إلى السلطة، مثلما تعد الثورة العربية مثالا سلبيا، حيث توضح كيف يمكن للسلطة أن تنزلق من أيدي الطبقة الثورية، حتى عندما تكون السلطة في قبضتها.

أين يكمن الاختلاف بين الثورتين؟ لا يوجد الاختلاف في الظروف الموضوعية، بل يوجد بالكامل في غياب العامل الذاتي، أي: الحزب والقيادة. كانت روسيا القيصرية بلدا متخلفا للغاية وشبه إقطاعي، أكثر تخلفا بكثير مما هي عليه مصر اليوم. كانت الطبقة العاملة أقلية صغيرة من السكان، ومع ذلك فقد تمكنت، تحت قيادة البلاشفة، من الإطاحة بالنظام القيصري الجبار واستولت على السلطة.

1: : إشارة من المترجم: قد تخلق صيغة "الثورة العربية" بعض سوء الفهم حول المقصود بعبارة "عربية"، حيث أن سكان شمال أفريقيا والشرق الأوسط ليسوا بالضرورة عربا، وما إلى ذلك... لذلك وجب التوضيح أن الكاتب يستعمل صيغة "ثورة عربية"، في إشارة إلى تلك الثورات التي شهدتها المنطقة التي تعرف تاريخيا بـ "العربية"؛ وذلك بنفس الطريقة التي استعمل بها لينين وتروتسكي صيغة "ثورة روسية" في إشارة إلى الثورة ضد النظام القيصري (سواء 1905 أو 1917) رغم علمهما أن الإمبراطورية القيصرية الشاسعة الأطراف لم تكن مشكلة من روسيا وحدها، ولا من القومية الروسية/ السلافية وحدها، بل وتعاملا بكل حزم مع محاولات "روسنة" الشعوب الأخرى، سواء في مرحلة ما قبل الثورة أو بعدها، نفس الشيء يقال عن استعمال تروتسكي لاحقا لصيغة "ثورة إسبانية" في حديثه عن ثورة 1936-1939 والتي شارك فيها الباسك والكاتالانيون، الخ.



في آخر كتاب كتبه على الإطلاق، والذي بقي غير مكتمل على مكتبه في غشت 1940 عندما تعرض للاغتيال على يد أحد عملاء ستالين، كتب تروتسكي -الرجل الذي قاد مع لينين ثورة أكتوبر- التحليل الرائع التالي عن القوى الرئيسية في الثورة:

«يصل الصراع بين الطبقات إلى نقطة تنشأ فيها توترات لا تطاق. هذا هو المنطلق الاقتصادي للثورة. وعلى أساس هذا الواقع الموضوعي تنشأ إعادة تجميع محددة، يتم التعبير عنها في علاقات سياسية محددة وحالات وعي محددة في العلاقة بين الطبقات. لهذه السيرورات طابع سيكولوجي. إنها، في التحليل الأخير، محكومة بالطبع بالأزمة الاجتماعية الموضوعية، لكن لديها منطقتها الداخلي الخاص وديناميتها الخاصة: قوة الإرادة، والاستعداد للنضال، أو بالعكس الارتباك والانحلال والجبن. دينامية الوعي هذه هي بالضبط التي تحدد بشكل مباشر اتجاه الثورة ونتائجها.

إن ما يميز حقبة المد الثوري هو، من ناحية، اندلاع التناقضات المتزايدة والتنافر والارتباك بين صفوف الطبقات السائدة القديمة، ومن ناحية أخرى، وجود تضامن متزايد بين صفوف الطبقة الثورية الرئيسية، والتي تتجمع حولها جميع الطبقات المضطهدة الأخرى على أمل تحسين أوضاعها. وأخيرا، الطبقات والفئات الوسيطة التي إما تظل محايدة أو تنجرف في دوامة الأحداث إلى جانب هذه الطبقة الرئيسية أو تلك.

تتمكن الثورة من الانتصار عندما تنجح الطبقة الثورية في كسب أغلبية الفئات الوسطى، وتصبح بذلك الناطق باسم غالبية الأمة. في الحقبة الثورية يمكن تمييز الشعارات التي يدور الصراع تحتها، شعارات الطبقة الثورية التي تسعى إلى حسم السلطة. وتصبح الثورة ممكنة عندما تجتذب طليعة البروليتاريا، المنظمة داخل الحزب، الغالبية العظمى من الطبقة وراءها، وتعزل العناصر المحطمة والمحبطة وتحولها إلى قوى غير مؤثرة.

مستوى التضامن العالي بين صفوف الطبقة الثورية يقابله بقدر متساو الانحلال والانقسامات الداخلية داخل الطبقات القديمة. لكن الطبقات ليست متجانسة، سواء اجتماعيا أو أيديولوجيا. داخل البروليتاريا من الممكن دائما التمييز بين طليعتها، وبين الفئات الوسطية والمتوسطة، وأخيرا الفئات المتخلفة وحتى الرجعية. بمجرد أن تتحد البروليتاريا بأغليبتها حول الطليعة الثورية، تكتسح جزءا كبيرا من الطبقات الوسيطة الساخطة والمضطهدة والفئات الدنيا من البرجوازية الصغيرة، وتعمل على تحييد الفئات الأخرى، ويؤدي هجومها إلى تآزيم الطبقة السائدة التي أفلست. تحطم مقاومة الجيش، وتكسب جزءا كبيرا منه إلى جانبها، وتدفع الباقي إلى اتخاذ موقف حيادي، وتعزل العناصر الأكثر رجعية. هذه، بشكل عام، هي صيغة الثورة البروليتارية»<sup>1</sup>\*

في هذه الفقرات القليلة الموجزة، يلخص تروتسكي ببراءة الدور الحقيقي للحزب الثوري.

## أهمية النظرية

كان العامل الحاسم في نجاح الثورة الروسية هو وجود الحزب الماركسي: الحزب البلشفي بقيادة لينين وتروتسكي. ذلك الحزب لم يسقط من سماء زرقاء صافية. ولم يكن من الممكن ارتجاله في خضم الأحداث. لقد تم بناؤه بصعوبة كبيرة على مدى عشرين عاما، معظمها في ظروف العمل السري القاسية.

من المستحيل العثور في تاريخ كل الأحزاب السياسية، على مثال مشابه للبلاشفة الذين نماوا في فترة قصيرة، من عقدين، من مجرد مجموعة صغيرة إلى حزب جماهيري قوي قادر على قيادة ملايين العمال والفلاحين إلى الاستيلاء على السلطة.

لكن قبل فترة طويلة من قيام البلاشفة بطرح مسألة السلطة، كان على الحزب أن يمر بفترة طويلة، مروراً بمجموعات صغيرة سرية تتكون بشكل أساسي من الطلاب والمثقفين. كان التركيز الرئيسي على تثقيف الكوادر على أساس الأفكار العلمية للماركسية. في الأيام الأولى كان على لينين أن يخوض صراعا قاسيا ضد التحريفية والتيار الذي أصبح يعرف باسم "الاقتصادوية". جادل مؤيدو هذا التيار بأن العمال لا يهتمون إلا بالحصول على إصلاحات في المسائل الاقتصادية، أو ما يسمى بالمسائل "الخبيزية"، وأنهم

\*: جميع الحواشي والشروح والهوامش في هذا الكتاب للمؤلف، إلا ما تمت الإشارة إلى اضافتها من طرف المترجم.

لا يهتمون بالمسائل السياسية العامة، بل فقط بالعمل النقابي "العملي".

كان هذا هو جوهر الاقتصادوية. وقد لخصه بشكل واضح قول إدوارد برنشتاين الشهير: "الحركة كل شيء. الهدف النهائي لا شيء". هذا النهج الضيق أظهر في الواقع ازدراءً للطبقة العاملة، واحتقاراً لقدرتها على فهم السياسة والنظرية. وهكذا فإنه تحت ستار النزعة "العملية"، كان ذلك التيار يمثل بالفعل نزعة مناهضة للبروليتاريا والثورة.

شن لينين حرباً شاملة على الاقتصاديين وقد كان محقاً تماماً في القيام بذلك. قال: "لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية".

لولا هذا النضال من أجل النظرية الثورية، لما كان لينين لينجح في بناء الحزب الذي تمكن لاحقاً من قيادة البروليتاريا إلى النصر في عام 1917. ومع ذلك فإنه حتى اليوم، ما يزال المرء يجد أناساً يسمون أنفسهم لينينيين لكنهم لم يفهموا ذلك.

## الدور الرجعي للستالينية

كانت المهمة التي حددتها لنفسها عند كتابة "البلشفية: الطريق نحو الثورة"، هي هدم كل الأساطير القديمة وتقديم سرد حقيقي وموضوعي للقارئ عن كيف تم بناء الحزب البلشفي، بكل نجاحاته وإخفاقاته وانتصاراته وهزائمه. كان ذلك يتعارض تماماً مع التاريخ الستاليني القديم، الذي يعرض صعود الحزب البلشفي وكأنه مسيرة ظافرة نحو نصر حتمي.

هذه الروايات السطحية تشبه الخرافة أكثر مما تشبه الحقيقة، وقد انفضح زيفها بشكل كامل. أما بالنسبة لتلك القلة من الناس الذين ما زالوا يخصصون وقتاً لقراءتها فإنهم لا يجدون فيها شيئاً يستحق الذكر.

لعبت الستالينية في العالم العربي دوراً أكثر كارثية ورجعية من أي مكان آخر. تبنى ستالين النظرية المنشفية للثورة عبر مراحل، والتي تخضع بموجبها البروليتاريا وحزبها لما يسمى بالبرجوازية "التقدمية"، وفرضها على الأحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة حيث أدت إلى هزائم دموية متتالية.

أخضعت الأحزاب الشيوعية في العراق والسودان والعديد من البلدان الأخرى، نفسها للقادة العرب البرجوازيين "التقدميين"، فوجدت نفسها خارج القانون وتعرضت للسحق والتقتيل. وقد حدث الشيء نفسه على نطاق أكثر فظاعة في إندونيسيا.

إن القطيعة الجذرية مع التقاليد الستالينية الضارة، والعودة إلى الأفكار الحقيقية للبلشفية اللينينية ("التروتسكية") هو الشرط المسبق لبناء حزب شيوعي حقيقي قادر على قيادة الجماهير إلى النصر في المستقبل. ولذلك من الضروري القيام بدراسة جادة لتاريخ البلشفية.

## بناء الحزب الثوري!

يكمن سبب هزيمة الثورة العربية العظيمة في فشل الطبقة العاملة في الاستيلاء على السلطة عندما أتحت لها الفرصة للقيام بذلك. وهذا ما مكّن قوى الثورة المضادة من استعادة زمام المبادرة، وقمع الاحتجاجات في محاولة لاستعادة النظام. وقد دفعت شعوب مصر وتونس وبلدان أخرى ثمناً باهظاً جراء هذا الفشل.

لكن هذا لا يعني أن الثورة العربية قد انتهت. الغليان لم ينته بعد. ولم يتم حل أي من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الأساسية التي دفعت الجماهير إلى النضال. ستعاود الثورة الظهور في المستقبل على مستوى أعلى. لكنها ستواجه فترة أكثر صعوبة وآلاماً أكبر بكثير مع المزيد من التضحيات.

ستكون مهمة الثورة أكثر سهولة، وستسيل دماء أقل وستكون المعاناة أقل بكثير، إذا توفر حزب ثوري حقيقي، مستعد لقيادة الجماهير على طريق النصر وقادر على ذلك. وأقصد بهذا حزبا على غرار الحزب البلشفي بقيادة لينين وتروتسكي.

صحيح أن الثورة العربية المستقبلية ستواجه العديد من الصعوبات، لكنها من وجهة نظر موضوعية سوف تحدث في ظرف تاريخي مناسب للغاية. فبينما أنا أكتب هذه السطور، يجد النظام الرأسمالي نفسه غارقاً في أعماق أزمة يشهدها منذ مائتي عام.

صحيح أن الظروف الموضوعية تختلف من بلد إلى آخر. يمكن للأحداث أن تتحرك بسرعة أو بوتيرة أبطأ. لكن الأحداث في كل مكان تتحرك في نفس الاتجاه: نحو مزيد من الاضطرابات وتكثيف هائل للتناقضات على جميع المستويات: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وهناك شيء واحد مؤكد تماما وهو أن الوضع برمته يحبل بالتغيرات الحادة والمفاجئة. رأينا ذلك في بداية العام في كازاخستان، ونراه الآن مرة أخرى في العديد من البلدان، من الإكوادور إلى سريلانكا. هذه ليست أحداثا معزولة. إنها تشبه ومضات البرق الحراري التي تعلن قدوم العاصفة.

والأهم من ذلك هو أن هناك تغيرات مهمة تحدث في سيكولوجية الجماهير تمهد الطريق لانفجارات اجتماعية وسياسية كبيرة.

وفي هذا السياق تمثل الأنظمة البرجوازية الفاسدة والمتعفنة السائدة في بلدان شمال إفريقيا والشرق الأوسط حلقة ضعيفة في سلسلة الرأسمالية العالمية، تماما مثلما كانت عليه روسيا القيصرية في عام 1917. إنها أنظمة مفلسة تماما وممزقة بتناقضات داخلية عميقة .

ليس لديها أي حل للمعاناة الرهيبة والفقر الذي تعاني منه الجماهير، والذي يزداد سوءا مع مرور الأيام. وعلى الرغم من المظهر الخارجي الذي يوحي بالقوة، فإن هذه الأنظمة ضعيفة وغير مستقرة. إنها مثل عمالقة بأقدام من طين، محكوم عليها بالسقوط، وكلما زاد حجمها، كلما كان الانهيار أشد.

الحقيقة هي أن هذه الأنظمة لا تستمر في البقاء بفعل قوتها الخاصة، بل فقط بفعل الخمول والتعب المؤقتين للجماهير التي تحتاج إلى وقت للتعافي من الهزائم السابقة. يجب على الثوريين أن يستفيدوا من هذا التأخير لإعادة تنظيم وتجميع قواتهم، والتثقيف واستخلاص الدروس من تلك الهزائم، والبدء بصبر في مهمة البناء، لبنة لبنة، لصرح الحزب البلشفي.

هذا الكتاب، على عكس بقية الكتب عن تاريخ البلشفية، ليس مجرد سرد لأحداث واقعية بدون هدف أشمل. لقد كان هدي من وراء تأليفه هو استخلاص دروس جيل البلاشفة الذين أسسوا حزبا ثوريا ونجحوا في قيادة الطبقة العاملة إلى السلطة. ليست المهمة المطروحة هي وضع هذه الدروس في صفحات الكتب المدرسية الجافة، بل هي إعادة إحياء هذه الدروس في أذهان مناضلي الطبقة العاملة اليوم. إن أفكار وأساليب البلشفية هي أعظم سلاح في يد للطبقة العاملة، فهي توضح الطريق نحو الثورة وتحرير البشرية من أغلال المجتمع الطبقي.

آلان وودز

لندن 23 غشت 2022



عندما تلقيت الخبر بأن كتابي عن البلشفية قد تمت ترجمته إلى العربية، أحسست بسعادة غامرة! فهذا هو أفضل خبر يمكن أن أتلقاه على الإطلاق! لقد ألفت هذا الكتاب قبل وقت طويل وقد تمت ترجمته إلى العديد من اللغات، كما تمت ترجمته السنة الماضية إلى الروسية وإلى اليونانية وما إلى ذلك... ويمكن أن يكون قد ترجم الآن إلى 20 لغة مختلفة. لكنني أعتقد أن هذه الترجمة بالتحديد تتحلى بأهمية خاصة بالنسبة لي وبالنسبة للتيار الماركسي الأممي، وبالنسبة للبلشفية باعتبارها تيارا سياسيا.

لقد كتبت هذا الكتاب قبل وقت طويل، قبل عقود، وقد استندت في ذلك على قراءات واسعة، بطبيعة الحال، حول الموضوع، وخاصة الأعمال الكاملة للينين وتروتسكي وغيرهما من البلاشفة، وكذلك تقارير مؤتمرات الحزب البلشفي التي جمعتها عندما كنت طالبا أتابع دراستي في الاتحاد السوفياتي؛ إضافة إلى تجربتي في العمل الثوري في العديد من البلدان والعديد من القارات، وكذلك في اسبانيا حيث شاركت بشكل شخصي في النضال الثوري ضد دكتاتورية فرانكو، وبعد ذلك في فنزويلا حيث كنت مقربا جدا من الرئيس الراحل هوغو تشافيز، والذي بالمناسبة كان يمتلك هذا الكتاب. كان أول كتاب أعطيته له وكان جد سعيد بالحصول عليه.

تبادرت لي فكرة تأليف هذا الكتاب عندما كنت طالبا في جامعة موسكو سنة 1970، وفي ذلك الوقت كنت محظوظا للغاية بأن التقيت سيدتين مسنتين جدا، سيدتين كانتا أمينتا سر لينين بعد الثورة. كان لقاء قصيرا، لكنني شعرت أنه كان هناك رابط ملموس، كان إن شئت القول ما يشبه إعادة ربط عقدة التاريخ، ما يشبه رابطا مباشرا بين التيار الماركسي الأممي، ممثلا في شخصي وبهذا الكتاب، وبين لينين والحزب البلشفي وثورة أكتوبر التي تمثل بالنسبة لنا أعظم حدث في تاريخ البشرية.

باعتباري ماركسيا وثوريا لا أنظر إلى التاريخ على أنه شيء ميت، كما لو كان نوعا من الحفريات القديمة الجافة، أو عظاما في متحف ما. كلا! إن التاريخ، بالنسبة لي، شيء مفعم جدا بالحياة. إنه يمثل، بمعنى معين، من وجهة نظر الطبقة العاملة، والتي هي طبقتي التي أنتمي إليها، الصراع الذي بدأ منذ أمد بعيد، ولم ينته بعد. أجل أيها الرفاق والأصدقاء إن صراعنا لم ينته بعد. ولهذا فإن التاريخ يتضمن دروسا مهمة جدا لعمال وشباب اليوم الذين يريدون النضال من أجل تغيير المجتمع. لهذا السبب ألفت هذا الكتاب؛ لم أكتبه من أجل غايات أكاديمية، إذ لست محبا للأكاديميين، بل بالأحرى لذي موقف سلبي منهم. لم أؤلف هذا الكتاب كشيء أكاديمي، أو بدافع اهتمام تاريخي محض، كلا! لقد ألفت هذا الكتاب ليكون مرشدا للثورة، هذا ما حاولت القيام به، بغض النظر عما إذا كنت قد نجحت أم لا، وهناك العديد ممن يقولون إنه كان ناجحا.

يهدف الكتاب إلى أن يحتوي كل الدروس الأساسية لثلاثة عشر سنة من نضال الحزب البلشفي، منذ بداياته الأولى وحتى الثورة الروسية، بل وحتى بعد تلك الفترة بقليل (لكن ليس كثيرا جدا لأن مرحلة ما بعد الثورة شكلت موضوع كتاب آخر).<sup>1</sup>

لماذا أقول إنه مهم، لماذا علينا أن ندرس التاريخ؟ أنا واع أن أنصار ما بعد الحداثة الأغبياء، الذين يهيمنون على الجامعات، يعتقدون أن التاريخ لا يتضمن أي دروس، وأنه لا يمكننا أن نتعلم أي شيء من التاريخ (وهذا طبيعي لأنهم لا يتعلمون أي شيء من أي شيء) وأن التاريخ مجرد سلسلة من الحوادث العرضية. أما أنا فعلى عكس ذلك أعتقد أن التاريخ لديه منطوق داخلي يمكننا فهمه ويمكننا أن نستخلص منه الدروس. دروس مهمة جدا. وأعتقد أن أهمية التاريخ قد شرحها رجل ليس ماركسيا، لكنه رجل ذكي جدا، وهو الفيلسوف الأمريكي جورج سانتيانا، حين قال: «هؤلاء الذين لا يستطيعون تذكر التاريخ، محكوم عليهم دائما بأن يكرروا أخطاءه»، فكروا في ذلك.

1: يقصد آلان وودز هنا كتاب: روسيا من الثورة إلى الثورة المضادة - المترجم.

أعتقد أن هذه الكلمات مهمة بشكل خاص بالنسبة للعالم العربي، إني شخصياً أعتبر العالم العربي، أي منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التي تمتلك تلك الثقافة المشتركة العظيمة والتاريخ اللغوي والثقافي المشترك، الذي يعود إلى آلاف السنين، منطقة جد هامة، لقد كان الشرق الأوسط مهد الحضارة الانسانية، مصر وبلاد ما بين النهرين وما إلى ذلك من البلدان التي يطلق عليها الآن اسم "الأراضي العربية"، والتي تمتلك ثقافة جد غنية، ثقافة عظيمة، أعتقد أنها تستحق اهتماماً أكبر من الغرب.

إني باعتباري ماركسيا أعتقد أن العالم العربي، أقصد عمال وفلاحي تلك المنطقة، قد قدم لنا، فوق كل شيء، نماذج عظيمة للتقاليد الثورية والنضالات الثورية، نضالات عظيمة، ضد الإمبريالية والرأسمالية والاستغلال والاضطهاد من كل نوع. وأبانوا عن شجاعة عظيمة وتصميم هائل للنضال من أجل حقوقهم. لكن هذا النضال، بالطبع، كما تعلمون، ما زال لم ينته. وذلك لأن للعملة وجه آخر، أليس كذلك! لأنه كان أيضاً تاريخ الهزائم الكبرى، أجل هزائم كبرى.

وفي كل المرات أبانت الجماهير، كما شهدنا قبل سنوات في الثورة المصرية العظيمة، وفي بلدان أخرى كسوريا والعراق والسودان الخ، أبانت الجماهير عن شجاعة كبرى، وكانت تستحق أن تنتصر. إلا أنها انهزمت... لكنني أعتقد أن المسؤولية في تلك الهزيمة لا يتحملها هؤلاء العمال والفلاحين، إنهم لا يتحملون المسؤولية في أن كل تضحياتهم الهائلة ونضالاتهم وبطولاتهم لم تؤد إلى الانتصار، في حين أدت نضالات العمال والفلاحين في روسيا سنة 1917 إلى النصر. ما هو الفرق، ما هو الفرق الجوهرية؟ للثورة العربية والثورة الروسية أوجه تشابه كثيرة، ويمكنكم أن تروا تلك التشابهات إذا قرأتم هذا الكتاب، لكن هناك فرق جوهرية واحد، هو ما يشكل الفرق الرئيسي، وهو أن ما ضمن نصر ثورة أكتوبر في روسيا هو شيء واحد، شيء واحد فقط، وهو وجود الحزب البلشفي، بقيادة لينين وتروتسكي. لم يكن للثورة أن تنتصر لولا وجود هذا العامل، لقد برهنت على ذلك في هذا الكتاب، اقرأوه وسوف تفهمون ما أرمي إليه.

لهذه الخلاصة أهمية كبرى بالنسبة للجيل الجديد في مصر والسودان والجزائر ولبنان، وكل بلدان المنطقة الأخرى. يمكنكم أن تروا الإمكانيات الثورية الهائلة التي يحبل بها الوضع في جميع تلك البلدان، كما يمكنكم أن تروا تلك النضالات الملهمة. لكن نفس الشيء يتكرر، يا أصدقائي، أليس كذلك! بدون القيادة الضرورية والمنظمة الضرورية، أي بدون الحزب، وأقصد تحديدا الحزب الثوري والقيادة الثورية، ستبقى تلك الثورات محكوماً عليها بالهزيمة. وعواقب الهزيمة في العالم العربي، كما تعلمون، قاسية جداً، ورهيبة جداً، مثلما توضح لنا الثورة المصرية. ومن تم فإنني أعتقد أنه من الضروري بناء تلك القيادة.

قد لا يبدو هذا بديهياً، ففي بعض الأحيان يكون الناس، والشباب على وجه الخصوص، مستعجلين، يريدون نتائج فورية. أيها الرفاق لا وجود لطرق سهلة! لا وجود لطرق مختصرة إلى النصر! لقد واجه لينين، كما يبرهن الكتاب، مشاكل عويصة في مسار بناء الحزب، في بلد كان، بالمناسبة، بلداً شبه إقطاعي. كانت روسيا أكثر تخلفاً مما عليه مصر اليوم، في ما يتعلق بالتطور الصناعي.

لقد واجه لينين صعوبات موضوعية كبيرة، لكنه ورغم كل تلك الصعوبات نجح في مهمته. كل شيء، في آخر المطاف، رهين بشيء واحد وهو: قدرتنا على تكوين الكوادر الثورية. إن الكادر الثوري الواحد يساوي عشرة أو مائة من الأفراد الفاقدين للتكوين والتجربة، علينا أن ندرب من يمكن أن نسميهم ضباط وجنرالات الجيش الثوري. علينا أن نكون مستعدين. إن جيش العدو الذي يقف أمامنا مستعد جداً ومنظم جداً ومنضبط جداً ومركز جداً، وعلينا أن نكون كذلك.

يجب أن يكون لدينا حزبنا الثوري المنظم المنضبط. هذا لا يسقط من السماء ولا يمكن ارتجاله في اللحظة الأخيرة، بل يجب تحضيره مسبقاً. وهذا يا رفاقي، وأنا الآن أتوجه إليكم مباشرة، أيها الإخوة والأخوات في العالم العربي، أتحدث إليكم من القلب إلى القلب، أتحدث إليكم من رفيق ثوري إلى رفيقه، إن مهمتكم هي، أولاً وقبل كل شيء، أن تحضروا أنفسكم، أن تقرأوا وتدرسوا وتحضروا أنفسكم للمهام العظيمة أمامكم.

النظام الرأسمالي اليوم في أزمة، أزمة وجودية عالمية، أزمة غير مسبوقه على الإطلاق، أزمة ليس لها مثيل طيلة 300 سنة، والوضع يحبل بالإمكانيات الثورية، أجل! لا تلتفتوا إلى هؤلاء المتشائمين الذين ترونهم حولكم، هؤلاء الرجال والنساء

المحترقين المتعبين الذين تلتقونهم ربما في مقاهي القاهرة، وغيرها، وهم يرتشفون أكواب الشاي ويشتكون من كل شيء، قائلين: "ضاع كل شيء، لم يعد هناك أمل". كلا ليس الوضع كذلك يا أصدقائي، هذه الحرب لم تنته بعد! نحن في حرب، حرب مصرية، وسوف تتواصل حتما مثلما يتلو النهار الليل.

أقول لكم بكل وضوح: لا تنصتوا إلى هؤلاء المحترقين المحبطين اليائسين المتشائمين، ألقوا بهم مثل النفايات، تخلصوا منهم، وأديروا ظهوركم لهم، ووجهوا أنظاركم إلى الجيل الجديد من الشباب، هذا الجيل الجديد الذي ينهض إلى النضال بدون خوف، ليس مثل هؤلاء الجبناء الذين يخافون حتى من ظلمهم. توجهوا إلى الجيل الجديد، هذه نصيحتي لكم، توجهوا إلى الشباب على وجه الخصوص. وعلى الشباب أن يعلموا أنفسهم، عليكم أن تتعلموا، أيها الرفاق الشباب، رجاء عليكم أن تتعلموا وتطوروا أنفسكم، هذه هي الطريقة الوحيدة، هذه هي المدرسة الحقيقية الوحيدة للثورة.

وفي هذا الصدد أمل بتواضع أن يقدم هذا الكتاب خدمة كبيرة في مساعدتكم على أن تفهموا ماهية البلشفية وما حقيقة الحزب البلشفي وما هي أفكار لينين وتروتسكي الحقيقية. وهي القضايا المهمة جدا، ليست مهمة للماضي لما قبل مائة سنة، بل مهمة لكم ولي ولنا جميعا في هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ.

وعلى كل من يشك في الامكانيات الثورية التي يحبل بها الوضع، أن ينظر إلى ما يحدث اليوم في الولايات المتحدة. لقد كان ذلك مفاجئا، أليس كذلك؟ كلا لم يكن مفاجئا بالنسبة لي، ولا بالنسبة لأي ماركسي واع. في هذه اللحظة التي أتحدث إليكم فيها هناك حركة تمردية في الولايات المتحدة، البلد الإمبريالي الأغنى والأكثر قوة في العالم. وهذه الحركة الملهمة التي تنتشر إلى كل مكان، إلى بريطانيا وفرنسا وألمانيا... هذا هو الجواب! هذا هو الجواب الذي تقولونه لهؤلاء المتشائمين المحترقين، الذين أسميهم الأسماك الميتة، دعكم منهم!

في بريطانيا، يوم أمس، أسقط المتظاهرون تمثالا عمره 300 سنة في مدينة بريستول، تمثال تاجر عبيد استمر منتصبا لأزيد من 300 سنة، لكن وفي غضون ساعات أسقطوه وألقوا به في مياه نهر أيفون بريستول. لا بد أن هذا يخبركم شيئا ما عما يحدث في بلدي، وما يحدث في كل مكان، وما سوف يحدث حتما في بلدانكم أيضا.

إنكم ترون الإمكانيات الثورية في مصر ولبنان والسودان وغيرها. لكن هناك شيء ناقص، وهذا ما يجب أن تؤكد عليه بشكل كبير: إن ما ينقص هو العنصر الرئيسي، إنه الحزب الثوري والقيادة الثورية، وهذا ما يجب بناؤه في أسرع وقت ممكن. وهذا، مثلما كان عليه الحال في روسيا سنة 1917، هو، يا أصدقائي، الضمانة الوحيدة الحقيقية لنجاح الثورة الاشتراكية التي يعتمد عليها كل مستقبل الحضارة الانسانية، ومن تم مستقبل الجنس البشري.

وعليه، فإني أوصيكم، بكل حماس، بقراءة هذا الكتاب واتصلوا بي إذا كانت لديكم أية أسئلة أو تعليقات. أتمنى لكم كل النجاح في عملكم الثوري. أيها الرفاق، بامتلاكنا للأفكار الثورية الواضحة يصير النصر إلى جانبنا والمستقبل كذلك إلى جانبنا!

آلان وودز

الأحد 07 يونيو 2020

## لماذا دراسة تاريخ البلشفية؟

«في عام 1917 كانت روسيا تمر من أزمة اجتماعية جد خطيرة. لكن يمكن للمرء أن يقول بكل يقين، استنادا إلى كل الدروس التي يقدمها التاريخ، إنه لو لم يكن هناك حزب بلشفي لكانت كل الطاقة الثورية الهائلة للجماهير ستضيع جذوتها هباء في انفجارات متفرقة، وكانت الاضطرابات الكبرى ستنتهي بصعود أقصى أنواع الدكتاتوريات المعادية للثورة. إن الصراع الطبقي هو المحرك الرئيسي للتاريخ، لكنه يحتاج إلى برنامج مناسب وحزب صلب وقيادة شجاعة جديرة بالثقة، ليس أبطال القاعات والخطابات البرلمانية، بل ثوريين مستعدين للذهاب حتى النهاية. هذا هو الدرس الرئيسي لثورة أكتوبر»<sup>1</sup>.

تمثل الثورة بالتحديد نقطة انعطاف تأخذ من خلالها سيرورة تطور البشرية قوة دفع جديدة. ومهما كان موقف المرء من ثورة أكتوبر 1917 الروسية، فإنه لا يمكن أن ينكر أهميتها التاريخية الهائلة. فقد هيمنت على ثلاثة أرباع القرن العشرين. وحتى الآن، ونحن على مشارف الألفية الجديدة، ما يزال العالم متأثرا بشكل عميق بأصداؤها. وبالتالي فإن الانكباب على دراسة الثورة الروسية لا يحتاج إلى تبريرات أو اعتذار. إنها تنتمي إلى ذلك النوع من المنعطفات التاريخية العظمى التي تشكل فاصلا بين ما قبلها وما بعدها، مثل ثورة كرومويل في إنجلترا أو الثورة الفرنسية العظمى ما بين 1789 و1793.

توجد العديد من نقاط التشابه بين ثورة أكتوبر في روسيا والثورات البرجوازية الكبيرة التي حدثت في الماضي. بل في بعض الأحيان يبدو التشابه عجيبا، حتى أنه يمتد إلى الشخصيات الدرامية (*Dramatis personae*) الرئيسية، مثل التشابه بين تشارلز الأول، ملك إنجلترا، ولويس السادس عشر، ملك فرنسا، وبين القيصر نيكولا، مع زوجاتهم الأجنيات. لكن وبالرغم من كل أوجه التشابه، هناك فرق جوهري بين الثورة البلشفية والثورات البرجوازية في الماضي. يمكن للرأسمالية، على عكس الاشتراكية، أن تنشأ تلقائيا من تطور القوى المنتجة، وقد نشأت بالفعل كذلك. إن الرأسمالية كنظام إنتاج لا تتطلب التدخل الواعي للرجال والنساء. حيث أن السوق تشتغل بنفس طريقة اشتغال خلية للنمل أو أي مجتمع حيواني منظم ذاتيا في عالم الحيوان، أي بشكل تلقائي وأعمى. وهذا ما يفسر سبب تطورها بطريقة فوضوية ومتشعبة ومضطربة، وكونها تتميز بالتبذير الهائل وانعدام الكفاءة، وتخلق ما لا نهاية له من المعاناة الإنسانية الأكثر قسوة. منذ حوالي مائتي عام والرأسمالية "تعمل"، وما تزال، دون الحاجة إلى أي تحكم أو تخطيط من طرف الانسان. ولكي يأتي مثل هذا النظام إلى حيز الوجود، لا حاجة لأية بصيرة خاصة أو وعي. هذه الحقيقة هي ما يحدد الفرق الأساسي بين الثورة البرجوازية والثورة الاشتراكية.

تختلف الاشتراكية عن الرأسمالية لأنها، على عكس الرأسمالية، تتطلب الرقابة الواعية والإدارة الواعية على العملية الإنتاجية من قبل الطبقة العاملة نفسها. إنها لا تعمل ولا يمكنها أن تعمل بدون التدخل الواعي للرجال والنساء. تختلف الثورة الاشتراكية نوعيا عن الثورة البرجوازية لأنه لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الحركة الواعية للطبقة العاملة. إن الاشتراكية إما أن تكون ديمقراطية أو لا تكون. منذ البداية، خلال الفترة الانتقالية بين الرأسمالية والاشتراكية، يجب أن تكون إدارة الإنتاج والمجتمع والدولة بشكل كامل في يد الشعب العامل. يجب أن تكون هناك أعلى درجة من مشاركة الجماهير في الإدارة والرقابة. وبهذه الطريقة فقط يمكن منع صعود البيروقراطية، ويمكن خلق الظروف المادية للاتجاه نحو الاشتراكية، التي هي شكل أعلى من أشكال المجتمع يتميز بانعدام الاستغلال والقهر والإكراه، وبالتالي بالاضمحلال التدريجي للدولة، التي هي بقية من مخلفات البربرية، ثم اختفائها.

هناك أيضا فرق آخر: فمن أجل الاستيلاء على السلطة، كان على البرجوازية تعبئة الجماهير ضد النظام القديم. لكن هذا كان غير ممكن لو قام على أساس الدعوة إلى إنشاء الظروف الملائمة لحكم الريع والفائدة والربح. بدلا من ذلك قدمت البرجوازية نفسها باعتبارها المعبر عن كل البشرية المعذبة. في حالة إنجلترا خلال القرن 17، كان من المفترض أن البرجوازية تناضل لإقامة مملكة

\*: عندما يتم الاستشهاد بنفس العمل عدة مرات متتالية نضع الرقم المرجعي في نهاية آخر اقتباس.

الله على الأرض. أما في فرنسا القرن 18، فقد قدمت البرجوازية نفسها كممثل لسلطة العقل. بلا شك كان العديد من أولئك الذين قاتلوا تحت تلك الرايات يؤمنون بصحة هذه الشعارات. لا يناضل الرجال والنساء ضد كل الصعاب ويخاطرون بكل شيء، بدون أن يكون لهم دافع خاص نابع من قناعة راسخة بصواب قضيتهم. وقد اتضح أن الأهداف المعلنة في كلتا الحالتين مجرد وهم خالص. كان المضمون الحقيقي للثورتين الانكليزية والفرنسية بورجوازيًا، وبالنظر إلى الشروط التاريخية المعطاة، لم يكن ليكون أي شيء آخر. وبما أن النظام الرأسمالي يشتغل بالطريقة التي سبق لنا أن وصفناها، فإنه لم يغير من الأمر كثيرًا ما إذا كان الناس يفهمون كيف يشتغل أم لا.

العمل الحالي، وعلى خلاف الكثير من الأعمال الأخرى حول هذا الموضوع، لا ينطلق من وجهة النظر القائلة بأن الثورات تنتمي فقط إلى الماضي. بل على العكس. إن الوضع العالمي الحالي يقدم، أكثر من أي وقت مضى، المزيد من الأدلة على أن الدور التقدمي للرأسمالية قد استنفذ تمامًا الآن. الظروف المادية للاشتراكية ناضجة منذ مدة طويلة على النطاق العالمي. توجد اليوم الإمكانيات لخلق عالم الوفرة بشكل لم يحلم به من قبل. لكن رغم ذلك ما يزال ملايين البشر يعيشون في بؤس مدقع. وبالنظر إلى العالم اليوم نجد أن كتاب لينين "الإمبريالية أقصى مراحل الرأسمالية" يتمتع براهنية كبيرة. الأبنك الكبرى والشركات متعددة الجنسيات والاحتكارات هي اليوم أقوى من أي وقت مضى. وليست لديها أية نية في التنازل عن قوتها بدون قتال، مثلها مثل ملكيات الحكم المطلق المنحطة في الماضي. الشرط الأول لتحقيق التقدم البشري هو كسر قوة هؤلاء الأسياد الجدد. ولتحقيق ذلك من الضروري هزم وإسقاط تلك الطبقة التي تحتكر السلطة في المجتمع في الوقت الحاضر: طبقة الرأسماليين التي تسيطر، ليس فقط بسبب قوتها الاقتصادية، بل أيضا بسبب سيطرتها على الدولة واحتكارها للثقافة.

من أجل إنجاز هذه المهام من الضروري للطبقة العاملة أن تمتلك حزبا وقيادة كفؤة لذلك. وعلى عكس الثورتين الفرنسية والإنكليزية خلال القرنين 17 و18، لا يمكن للطبقة العاملة الحديثة تحويل المجتمع إلا على أساس الفهم العلمي للعالم الذي تعيش فيه. وهو الفهم الذي لا توفره إلا الماركسية، التي تمثل وحدها الاشتراكية العلمية الحازمة. ويوفر لنا تاريخ البلشفية نموذجًا لكيفية تحقيق هذا. من الصعب على المرء أن يجد في جميع سجلات التاريخ مثالا آخر على النمو المذهل الذي حققه الحزب البلشفي في عام 1917، بمروره من 8.000 عضو إلى أكثر من ربع مليون عضو في غضون تسعة أشهر. لكن هذا الإنجاز لم يتحقق نتيجة مصادفة عفوية، بل كان النتيجة النهائية لعقود من العمل الصبور، ابتداءً مع الحلقات الصغيرة ومرورا من سلسلة من المراحل، كان خلالها النمو العظيم تتلوه الهزائم المريرة وخيبة الأمل واليأس. تعرف حياة كل رجل وامرأة أوقاتا مماثلة. ومجموع هذه التجارب هو الحياة نفسها، والطريقة التي يتغلب بها الفرد على مشاكل الحياة ويستوعب دروس جميع أنواع الظروف المختلفة هو ما يتيح له، أو لها، أن ينمو ويتطور. ينطبق نفس الشيء على الحزب. لكن الأفراد يتعلمون أيضا دروسا قيمة من خبرة وحكمة الآخرين. كم كانت الحياة ستكون صعبة لو أننا أصررنا على تجاهل المعرفة المتراكمة من حولنا! وبنفس الطريقة من الضروري دراسة الخبرة الجماعية التي راكمتها الطبقة العاملة في مختلف البلدان، وبالتالي تجنب الأخطاء التي ارتكبت في الماضي، لأنه كما قال جورج سانتيانا: «ذلك الذي لا يتعلم من التاريخ محكوم عليه بتكرار أخطائه».

## هل الحزب ضروري؟

الإجابة عن هذا السؤال يقدمها كل تاريخ الصراع الطبقي خلال السنوات المائة الماضية. الماركسية لا تنكر على الإطلاق أهمية دور الفرد في التاريخ، لكنها توضح فقط أن الدور الذي يلعبه الأفراد، أو الأحزاب، مشروط بالمستوى المعين للتطور التاريخي، مشروط بالبيئة الاجتماعية الموضوعية والتي يحددها، في آخر المطاف، تطور القوى المنتجة. لا يعني هذا -كما يزعم نقاد الماركسية- أن الرجال والنساء هم مجرد دمي في يد "الحتمية الاقتصادية" العمياء. لقد أوضح ماركس وإنجلز أن الرجال والنساء يصنعون تاريخهم، لكنهم لا يفعلون ذلك ولهم مطلق الحرية في فعل ما يشاؤون، إنهم يعملون على أساس نوع المجتمع الذي وجدوه قائما. يمكن للصفات الشخصية للسياسيين، كالأعداد النظري والمهارة والشجاعة، أن تقرر النتيجة في ظل ظروف معينة. هناك فترات حاسمة في تاريخ البشرية حيث يمكن لنوعية القيادة أن تشكل عاملا محددًا لسير الأحداث في هذا الاتجاه أو ذاك. لكن مثل تلك الفترات ليست هي القاعدة، إنها تنشأ فقط عندما تكون جميع التناقضات الخفية، قد نضجت ببطء على مدى فترة طويلة إلى



نقطة يحدث عندها، بلغة الديالكتيك، تغير الكم إلى نوع. وعلى الرغم من أن الأفراد لا يمكنهم أن يحددوا تطور المجتمع من خلال قوة الإرادة وحدها، فإن دور العامل الذاتي<sup>1</sup> حاسم في نهاية المطاف في تاريخ البشرية.

لوجود الحزب الثوري والقيادة الثورية بالنسبة لنتيجة الصراع الطبقي نفس الأهمية التي هي لنوعية الجيش وجزالاته بالنسبة للحروب بين الأمم. لا يمكن ارتجال الحزب الثوري بين عشية وضحاها، مثلما هو من غير الممكن ارتجال هيئة الجنرالات عند اندلاع الحرب. لا بد من إعداد منهجي على مدى سنوات وعقود. وقد تأكد هذا الدرس من خلال كل التجربة التاريخية، وخاصة تاريخ القرن 20. لقد أكدت الثورة العظيمة وشهيدة الطبقة العاملة، روزا لوكسمبورغ، دائما على المبادرة الثورية للجماهير باعتبارها القوة المحركة للثورة. وفي هذا كانت على حق تماما. ففي سياق الثورة تتعلم الجماهير بسرعة. لكن الوضع الثوري بطبيعته لا يمكنه أن يستمر لفترة طويلة. لا يمكن للمجتمع أن يظل في حالة غليان دائمة، كما لا يمكن للطبقة العاملة أن تبقى في حالة نشاط دائم. فإما أن تطرح الإجابة في الوقت المناسب، أو أن الفرصة سوف تضيع. ليس هناك ما يكفي من الوقت للتجربة أو لكي يتعلم العمال من خلال التجربة والخطأ. ففي لحظات الحياة أو الموت يتم دفع ثمن باهظ جدا مقابل الأخطاء! وبالتالي فمن الضروري الجمع بين الحركة "العفوية" للجماهير، وبين التنظيم والبرنامج والمنظورات والاستراتيجية والتكتيكات، أو بعبارة أخرى: الحزب الثوري بقيادة كوادري ثورية ذات خبرة.

الحزب ليس مجرد شكل تنظيمي واسم وراية ومجموعة من الأفراد أو الهياكل. إن الحزب الثوري، بالنسبة للماركسي، هو في المقام الأول برنامج وأسايب عمل وأفكار وتقاليد، وفقط في المركز الثاني هو تنظيم وهياكل (لها أهميتها بلا شك) من أجل حمل تلك الأفكار لأوسع فئات الشعب العامل. يجب على الحزب الماركسي أن يتأسس منذ البداية على قاعدة النظرية والبرنامج، والتي هي تلخيص التجربة التاريخية العامة للبروليتاريا. من دون هذا، الحزب لا شيء. إن بناء الحزب الثوري يبدأ دائما بالعمل البطيء والمضني لتجميع وتثقيف الكوادري، الذين يشكلون العمود الفقري للحزب طوال حياته. هذا هو النصف الأول من المسألة، لكنه فقط النصف الأول. النصف الثاني أكثر تعقيدا وهو: كيفية الوصول إلى جماهير العمال بأفكارنا وبرنامجنا؟ وهذا ليس سؤالاً بسيطاً على الإطلاق.

أوضح ماركس أن تحرير الطبقة العاملة مهمة الطبقة العاملة نفسها. وجماهير الطبقة العاملة تتعلم من التجربة. إنها لا تتعلم من الكتب، ليس لأنها تفتقر إلى الذكاء، كما يظن أبناء الطبقة الوسطى المدللين، بل لأنها تفتقر إلى الوقت، ومحرومة من الوصول إلى الثقافة، وعادة القراءة ليست شيئا فطريا بل إنها تكتسب. إن عاملا يعود إلى المنزل بعد العمل طيلة ثماني أو تسع أو عشر ساعات في ورشة بناء أو العمل المتسلسل، لا يكون متعبا جسديا فقط، بل ذهنيا أيضا. آخر شيء يريد القيام به هو الدراسة أو الذهاب إلى اجتماع ما. من الأفضل ترك تلك الأمور "لأولئك الذين يعرفون". لكن إذا كان هناك إضراب، يتغير هذا المزاج كليا. والثورة تشبه إضرابا كبيرا يخوضه المجتمع بأسره.

تريد الجماهير أن تفهم ما يجري وأن تتعلم وتفكر وتتحرك. بالطبع تجد الجماهير، المفترقة للخبرة ومعرفة التكتيكات والاستراتيجية والمنظورات، نفسها في وضع غير موات عندما تواجه الطبقة السائدة، التي تمتلك، بفضل ممثليها السياسيين والعسكريين، خبرة طويلة وهي أفضل استعدادا لمثل هذه الحالات. لديها بين أيديها ترسانة كاملة من الأسلحة: السيطرة على الدولة والجيش والشرطة والقضاء، والصحافة وغيرها من وسائل الإعلام الجماهيرية الأخرى، والتي هي وسائل قوية لتشكيل الرأي العام والافتراء والكذب والاعتقال. كما أنه لديها العديد من الأسلحة الأخرى والقوات المساعدة، كالسيطرة على المدارس والجامعات، وجيش من "الخبراء" والأساتذة والاقتصاديين والفلاسفة والمحامين والكهنة وغيرهم، على استعداد للتنكر للوازع الأخلاقي والانخراط في الدفاع عن "الحضارة" (أي عن امتيازاتهم وامتيازات أسيادهم) ضد "الفوضى" و"الغوغاء".

لا تصل الطبقة العاملة تلقائيا إلى خلاصات ثورية. لو أن ذلك كان ممكنا لكانت مهمة بناء الحزب مضیعة للوقت. كانت مهمة تحويل المجتمع ستكون سهلة لو أن حركة الطبقة العاملة تسير في خط مستقيم. لكن الواقع ليس كذلك. بعد فترة تاريخية طويلة تصل الطبقة العاملة لفهم الحاجة إلى التنظيم. ومن خلال إنشاء المنظمات، سواء النقابية أو، على مستوى أعلى، الأحزاب السياسية، تبدأ الطبقة العاملة في التعبير عن نفسها كطبقة بهوية مستقلة. أي أنها بلغة ماركس، تنتقل من طبقة في ذاتها إلى طبقة لذاتها.

1: العامل الذاتي

يستغرق هذا التطور مرحلة تاريخية طويلة من خلال جميع أنواع النضالات، التي تنخرط فيها ليس فقط أقلية من المناضلين الواعين، بل أيضا "الجماهير الجاهلة سياسيا"، التي، بشكل عام، لا تهض للمشاركة الفعالة في الحياة السياسية (أو حتى النقابية) إلا على أساس الأحداث العظيمة. وعلى أساس الأحداث التاريخية الكبرى، تبدأ الطبقة العاملة في إنشاء المنظمات الجماهيرية للدفاع عن مصالحها. هذه المنظمات التي تطورت تاريخيا، النقابات والتعاونيات والأحزاب العمالية، تمثل بذرة المجتمع الجديد داخل القديم. إنها تعمل على تعبئة وتنظيم وتدريب وتهيئة الطبقة العاملة.

على الجماهير التي دخلت حديثا إلى الحياة السياسية أن تبحث عن الحزب السياسي الذي هو الأكثر قدرة على الدفاع عن مصالحها؛ الحزب الأكثر تصميمًا وجرأة، لكن أيضا ذلك الذي يبين أنه الأكثر بعدا في النظر، والذي يمكنه أن يحدد الطريق إلى الأمام في كل مرحلة، وي طرح الشعارات التي توافق تطور الواقع الموضوعي. لكن كيف يمكن تحديد ما هو ذلك الحزب وما هو البرنامج الأصح؟ هناك الكثير من الأحزاب والبرامج! على الجماهير اختبار الأحزاب والقادة في الممارسة العملية، لأنه لا توجد طريقة أخرى. هذه السيرورة من المقاربات المتتالية تستنزف القوى وتستغرق وقتا طويلا، لكنها الطريقة الوحيدة الممكنة. في كل ثورة، وليس فقط في روسيا عام 1917، بل أيضا في فرنسا في القرن 18 وانجلترا في القرن 17، نرى سيرورة مشابهة، حيث من خلال التجربة تعمل الجماهير الثورية، عبر مقاربات متتالية، على إيجاد طريقها نحو الجناح الأكثر ثورية. ويتميز تاريخ كل الثورات بالتالي بصعود وسقوط الأحزاب السياسية والقادة، في سيرورة تحل خلالها الأحزاب الأكثر جذرية دائما محل الأحزاب الأكثر اعتدالا، إلى أن تستنزف الحركة طاقتها.

ليس من الممكن العثور، في كل تاريخ الحركة العمالية العالمية الطويل، على ما هو أغنى وأكثر تنوعا من تاريخ الحزب البلشفي قبل 1917. تاريخ امتد ثلاثة عقود وشمل جميع مراحل التطور من حلقة صغيرة إلى حزب جماهيري، مرورا بكل مراحل النضال العلني وغير العلني وثلاث ثورات وحربين، وواجه مجموعة واسعة من المشاكل النظرية المعقدة، ليس فقط على الورق بل في الممارسة: الإرهاب الفردي والمسألة القومية والمسألة الزراعية والإمبريالية والدولة. وسيكون كذلك من المستحيل العثور في أي مكان آخر على مثل هذا الكنز العظيم والغني من الأدب الماركسي، الذي شمل سلسلة كاملة من القضايا والمشاكل بعمق مذهل، مثل الذي يمكننا أن نجده في كتابات أعظم قائدين ثوريين في القرن 20: فلاديمير إيليتش لينين وليون دافيدوفيتش تروتسكي. لكن القارئ المعاصر الذي يرغب في التعرف على تلك الكتابات سوف يجد نفسه أمام مشكلة لا يمكن التغلب عليها. كل الكتابات عن تاريخ البلشفية تقريبا كتبت من طرف أعداء ألداء للبلشفية. ومع استثناءات مشرفة قليلة، مثل العمل الذي قام به المؤرخان الماركسيان الفرنسيان بيير بروي ومارسيل ليبمان، ليس من الممكن العثور على تاريخ للحزب البلشفي يستحق عناء القراءة. لكن موضوع أعمال كل من بروي وليبمان مختلف إلى حد ما عن موضوع العمل الحالي، وفي حين نوصي بدراسة أعمالهما، فإنها لا تتناول إلا جزئيا فقط الموضوع الذي نتطرق له هنا، وهو كيف أعد البلاشفة أنفسهم لمهمة الاستيلاء على السلطة في عام 1917.

### بخصوص هذا العمل

كاتب هذا العمل ماركسي ملتزم كرس مجمل حياته للنضال من أجل أفكار ماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي. وبالتالي فإنه لا اعتبر نفسي محايدا، بل على العكس تماما، إنني لا أنظر إلى تاريخ البلشفية كمجرد اهتمام أكاديمي، بل بكونه شيئا حيا وراهنيا في يومنا هذا. ومعرفتي بتاريخ البلشفية ليست مقتصرة على الكتب. فأربعون عاما من المشاركة الفعالة في الحركة الماركسية توفر للمرء نظرة أعمق وأشمل لا تتوفر للكاتب الأكاديمي قط. كارل كاوتسكي، عندما كان ما يزال ماركسيا، ألف كتابا يجب أن يكون بالتأكيد واحدا من أروع الأمثلة على تطبيق المنهج المادي التاريخي، وأقصد كتاب "أسس المسيحية". يصف كاوتسكي في ذلك الكتاب الحركة المسيحية في بداياتها الأولى بطريقة لا يقدر على القيام بها إلا شخص يمتلك معلومات مباشرة عن الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية في أيامها البطولية الأولى، عندما كانت تكافح في ظروف السرية القاسية ضد القانون المعادي للاشتراكيين في ألمانيا. صحيح أن المحتوى الاجتماعي للحركتين مختلف جذريا، مثلما هي مختلفة اللحظة التاريخية التي تطورت فيها كل منهما. لكن ورغم كل ذلك، فإن أوجه التشابه بين هاتين الحركتين الثورتين للمحرومين ضد دولة الأغنياء والأقوياء كثيرة، مثلما هي كثيرة أوجه الاختلاف.

العديد من الحالات التي واجهت رواد الماركسية الروسية معتادة جدا بالنسبة لي من خلال تجربتي الشخصية: ليس فقط النضال من أجل الأفكار الماركسية داخل الحركة العمالية البريطانية، بل كذلك تجربة الحركة الثورية في فرنسا عام 1968، وفي البرتغال عام 1975، وفي اسبانيا خلال السنوات الأخيرة من ديكتاتورية فرانكو والحركة السرية للنضال ضد ديكتاتورية بينوشيه في شيلي. لقد وفرت لي كل تلك التجارب فرصا كثيرة لأعيش مباشرة مواقفها مشابهة بالضبط لتلك التي واجهها البلاشفة في صراعهم الطويل ضد النظام القيصري. بالإضافة إلى ذلك، كانت لي تجربة شخصية، على مدى سنوات عديدة، مع نضال الثوريين في بلدان العالم الثالث، في أمريكا اللاتينية وآسيا، وخصوصا باكستان التي لديها ملامح مجتمع شبه إقطاعي مماثل بشكل كبير لروسيا القيصرية. إضافة إلى ذلك، وقبل ثلاثين عاما عندما كنت طالبا في الاتحاد السوفياتي، حصلت على الكثير من المواد التي استخدمتها في كتابة هذا المؤلف، وتمكنت من الالتقاء والتحدث إلى أناس شاركوا في الحزب البلشفي، بما في ذلك لقاؤي، في إحدى المناسبات، مع اثنتين من المناضلات اللاتي عملن أمينات سر مع لينين في الكرملين بعد الثورة. وأعتقد أن هذه التجارب قد وفرت لي العديد من الأفكار حول الطبيعة الحقيقية للبلشفية.

وأخيرا أنا مدين جدا لتيد غرانت، رفيقي وصديقي ومعلمي على مدى السنوات الأربعين الماضية. أنا أعتبر أن تيد غرانت ليس فقط أعظم قائد ماركسي في وقتنا الحالي، بل أعتبره أيضا الصلة المباشرة، واحدا من آخر من بقوا على قيد الحياة، بتقاليد الماضي الثورية العظيمة، أي بالمعارضة اليسارية والحزب البلشفي نفسه. فبفضل عمله على مدى السنوات الستين الماضية، استمرت على قيد الحياة أفكار القائدين النظريين والعمليين لثورة أكتوبر، لينين وتروتسكي، وتطورت واتسعت. ويهدف هذا العمل ليكون مؤلفا مكملا لكتاب "روسيا من الثورة إلى الثورة المضادة"، الذي يتتبع فيه تيد السيرورات التي جرت في روسيا بعد ثورة أكتوبر. وأعتقد أن هذين المؤلفين معا يقدمان تاريخا وتحليلا شاملين للبلشفية والثورة الروسية، منذ بداياتها الأولى حتى يومنا هذا.

أنا أعني أنه ليس من عادة المؤرخين الأكاديميين للبلشفية أن "يعلنوا تحزبهم"، كما فعلت هنا. وهذا أمر مؤسف، لأن الغالبية العظمى من بينهم، على الرغم من القشرة السطحية للحياد المزعوم، هم في الواقع متحيزون بوضوح ضد البلشفية، أو حتى معادون بشكل صريح لها وللثورة بشكل عام. وعلاوة على ذلك فإن الالتزام بوجهة نظر محددة لا يحول بأي حال من الأحوال دون الموضوعية. قد يكون الجراح متحمسا بشدة لإنقاذ حياة مريضه، لكنه لهذا السبب بالذات سوف يميز بعناية فائقة بين مختلف أعضاء الجسم البشري. لقد حاولت التعامل بموضوعية مع الموضوع الذي هو قيد الدراسة. وبما أن الهدف من هذا الكتاب هو تمكين الجيل الجديد من تعلم كل دروس التجربة التاريخية للبلشفية، فإن التعطيم على المشاكل والصعوبات والأخطاء من شأنه أن يكون تعبيرا عن الغباء وذا نتائج عكسية.

عندما شاهد أوليفر كرومويل صورته مرسومة، عاتب بشدة الفنان الذي رسمها قائلا: "ارسمني كما أنا، بالتأليل وكل شيء!". نفس الموقف الصادق، ونفس الواقعية الصريحة ميزت دائما فكر لينين وتروتسكي. فعندما كانا يرتكبنا الأخطاء لم يكونا يترددان في الاعتراف بذلك بكل وضوح. بعد الثورة، قال لينين في إحدى المرات إنهم قد ارتكبوا "العديد من الحماقات". هذا الاعتراف بعيد كل البعد عن كتب التاريخ الستالينية التي تعرض صورة كاذبة للحزب البلشفي بكونه كان دائما محقا ولم يخطئ أبدا. ويعرض الكتاب الحالي الجانب القوي للبلشفية، لكنه لا يخفي المشاكل. إن القيام بإخفاء المشاكل والأخطاء سيسبب أضرارا جسيمة لقضية اللينينية ليس في الماضي فقط، بل في الحاضر والمستقبل أيضا. فلكي يتمكن الجيل الجديد من التعلم من تاريخ البلشفية من الضروري رسم ذلك التاريخ كما كان "بالتأليل وكل شيء".

لقد تعمدت استخدام المصادر غير البلشفية قدر الإمكان، وخاصة كتب المناشفة مثل دان وأكسلرود ومارتوف، وكذلك الاقتصادي أكيروف. وعلى الأقل هناك بعض الكتاب البرجوازيين، الذين بينما ينتقدون البلشفية، تحملوا عناء الاستشهاد بالكثير من المواد ذات الصلة. فبعض الكتب، مثل مؤلف ديفيد لين عن المراحل الأولى من تاريخ الاشتراكية الديمقراطية الروسية، أو مؤلف روبرت ماكين "سانت بيترسبورغ بين الثورات"، تحتوي على ثروة من المواد التي لا يمكن العثور عليها بسهولة في مكان آخر. يشكل كتاب ماكين بدون شك ترياقا ضد المزاعم المبالغ فيها عن قوة البلاشفة في السنوات التي سبقت عام 1917، وكان ليكون أكثر قيمة لو أن الكاتب لم يتأثر بعداوتة للبلشفية. ومعظم الكتاب الآخرين أسوء منه بكثير.

إن الاستنتاج الذي توصلت إليه، بعد أن درست هذه المواد لأكثر من ثلاثين عاما، هو أن أفضل مصدر لإعادة اكتشاف تاريخ

البلشفية هو كتابات لينين وتروتسكي. إنها كنز لا ينضب من المعلومات والأفكار التي تشكل مجتمعة تاريخاً مفصلاً لروسيا والعالم خلال المرحلة قيد الدرس. المشكلة هي أنها تشكل كما هائلاً من المواد: 45 مجلداً للينين باللغة الإنجليزية، وحوالي عشرة مجلدات أخرى باللغة الروسية. وقد كتب تروتسكي ربما أكثر من ذلك، لكن نشر أعماله أكثر تشتتاً. وتقدم سيرته الذاتية الرائعة "حياتي"، والتاريخ الضخم للثورة الروسية ومؤلفه الأخير "ستالين"، ثروة من المواد لكتابة تاريخ البلشفية. المشكلة هي أن قراءة كل هذه المواد تتطلب من دارس تاريخ البلشفية قدراً هائلاً من الوقت للقيام بذلك. ولهذا أدرجت عمداً عدداً كبيراً من الاقتباسات المطولة جداً من هذه المصادر، على الرغم من أن هذا جعل النص أطول وأكثر تعقيداً. لكن وعلى الرغم من هذه الاعتراضات، فقد بدأ ذلك ضرورياً بالنسبة لي، لسببين أولهما تجنب أي اعتراض بعدم الدقة في النقل، وثانيهما تحفيز اهتمام القارئ للاطلاع على النصوص الأصلية. لأنه ليس هناك، في آخر المطاف، من بديل عن قراءة أعمال ماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي.

بدون الحزب البلشفي، ومن دون قيادة لينين وتروتسكي، لم يكن في استطاعة العمال الروس مطلقاً حسم السلطة في عام 1917، بالرغم من كل ما قدموه من بطولة. هذا هو الدرس الأساسي لهذا العمل. إذا درس المرء تاريخ الحركة العمالية العالمية، سيرى سلسلة كاملة من الهزائم الدموية والمأساوية. أما هنا فقد نجحت الطبقة العاملة لأول مرة، إذا ما استثنينا الحلقة القصيرة لكن البطولية لكومونة باريس، في إسقاط المضطهدين وبدأت مهمة التحويل الاشتراكي للمجتمع. وكما قالت روزا لوكسمبورغ، كانوا وحدهم من تجرأوا على القيام بذلك. ونجحوا ببراعة. هذه هي "الجريمة" التي لا يمكن أبداً للبرجوازية والمدافعين المأجورين عنها أن يغفروها للبلشفية. وحتى يومنا هذا، تعيش الطبقة السائدة في خوف مميت من الثورة وتكرس كمية كبيرة من الموارد لمكافحةها. وفي هذا الصدد سهلت جرائم الستالينية الروسية مهمتهم كثيراً. خيانة أفكار لينين من قبل البيروقراطية الستالينية في روسيا - أكبر خيانة في تاريخ الحركة العمالية كله - أدت في النهاية إلى نتيقتها المنطقية: تدمير الاتحاد السوفياتي ومحاولة الطغمة البيروقراطية الحاكمة السير في اتجاه الرأسمالية. والآن، وبعد 80 عاماً على الثورة، جرى تدمير كل مكاسب أكتوبر واستبدالها بهمجية "السوق الحرة". لكن الطبقة السائدة لا تكتفي أبداً بالإطاحة بالثورة، بل يجب عليها اجتثاثها من الذاكرة، وتغطيتها تحت ركام من الأوساخ والأكاذيب. وتستنجد من أجل إنجاز هذا العمل بخدمات الأكاديميين المخلصين الذين يتوقون لوضع أنفسهم في خدمة الحفاظ على "اقتصاد السوق الحرة" (اقرأ: "حكم البنوك والاحتكارات الكبرى"). وهذا ما يفسر الحقد الأعمى ضد لينين وتروتسكي الذي ما يزال يميز كتابات جميع المؤرخين البرجوازيين للثورة الروسية، والذي يختفي بشكل سيء وراء قناع الحياد الزائف.

## كيف يفسر البرجوازيون ثورة أكتوبر

عندما كتب المؤرخ الاسكتلندي، توماس كارلايل، عن الثوري الإنجليزي العظيم أوليفر كرومويل، اشتكى من أنه اضطر قبل الشروع في الكتابة إلى انتشار كرومويل من تحت كومة من الكلاب الميتة. التاريخ بشكل عام ليس محايداً، وخاصة تاريخ الثورات. ومنذ اندلاع ثورة أكتوبر كان الحزب البلشفي وقادته هدفاً لحقد خاص من قبل كل القوى المعادية للثورة. ويشمل هذا ليس فقط البرجوازية والأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، بل أيضاً كل أنواع اللاسلطويين البرجوازيين الصغار، وأخيراً وليس آخراً الستالينيين الذين وصلوا إلى السلطة على جثة حزب لينين. من المستحيل أن تجد تاريخاً صادقا للحزب البلشفي في أي من هذه المصادر. وعلى الرغم من انكباب الجامعات الغربية على إنتاج سلسلة لا تنتهي من الكتب حول هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحركة الثورية الروسية، فإن العداء تجاه البلشفية والحقد على لينين وتروتسكي، مواقف ثابتة من البداية حتى النهاية.

التفسير الأكثر شيوعاً لثورة أكتوبر في كتب التاريخ الغربية هو أنها لم تكن ثورة على الإطلاق، بل فقط انقلاباً قامت به أقلية. لكن هذا "التفسير" لا يفسر شيئاً. إذ كيف يمكن أن نفهم أن تتمكن حفنة صغيرة من "المتأمرين"، الذين لم يكن عددهم يتجاوز 8.000 شخص في شهر مارس، من قيادة الطبقة العاملة إلى الاستيلاء على السلطة بعد تسعة أشهر فقط؟ هذا يعني أن لينين وتروتسكي كانا يمتلكان قوى خارقة. لكن اللجوء إلى القوى الخارقة المزعومة عند الأفراد كتفسير للأحداث التاريخية لا توفر لنا مرة أخرى أي تفسير، بل تؤدي بنا فقط إلى المكان الوحيد الذي يمكن أن تنشأ فيه الصفات فوق البشرية (الخارقة)، ألا وهو عالم الدين والتصوف. نحن لا ننكر الأهمية الحيوية لدور الفرد في العملية التاريخية. وأحداث عام 1917 هي ربما الدليل الأكثر وضوحاً على حقيقة أنه في ظل ظروف معينة يصير دور الأفراد حاسماً بشكل هائل. فبدون لينين وتروتسكي لم تكن ثورة أكتوبر

لتنجح. لكن لا يكفي قول هذا. فقد كان نفس لينين وتروتسكي هؤلاء مناضلين نشيطين داخل الحركة الثورية على مدى عقدين تقريباً قبل الثورة، لكنهما لم يتمكنوا من إنجاز أية ثورة وكانا لفترات طويلة بدون أي تأثير بين الجماهير. إن تفسير انتصار أكتوبر فقط بعقريّة لينين وتروتسكي (الخيرين أو الشريرين، حسب وجهة نظرك الطبقيّة) مجرد هراء.

إن الأدلة على أن الثورة الروسية كانت نتاج نهوض جماهيري غير مسبوق تقريباً في التاريخ، كثيرة جداً لا يسعنا المجال لسردها هنا. قبل ثلاثين عاماً، وحين كنت طالبا في الدراسات العليا في موسكو، أتذكر محادثة أجريتها مع امرأة، كانت متقدمة جداً في السن آنذاك، شاركت كعضو في الحزب البلشفي في الثورة في مكان بمنطقة الفولغا. لا أستطيع تذكر المكان بالتحديد، أو حتى اسمها، لكنني أتذكر أنها أمضت 17 عاماً في إحدى معسكرات ستالين للأشغال الشاقة، إلى جانب العديد من البلاشفة الآخرين. كما أتذكر شيئاً آخر: عندما سألتها عن ثورة أكتوبر أجابت بكلمتين، لا يمكن ترجمتهما بشكل دقيق: "Kakoi pod'yom". ليس للكلمة الروسية "pod'yom" مرادف دقيق في اللغة الإنجليزية، لكنها تعني شيئاً مثل "السمو الروحي". وهكذا يمكن ترجمة جوابها تجاوزاً بكلمة "يا له من سمو!"، والتي تبين، أفضل من جبل من الإحصائيات، الكثافة التي عانقت بها الجماهير الثورة، ليس فقط العمال والفلاحين والجنود الفقراء، بل أيضاً أفضل ممثلي الانتلجنسيا (هذه المرأة كانت معلمة). لقد جذبت ثورة أكتوبر كل ما هو أفضل وكل ما هو حي وتقدمي وحيوي في المجتمع الروسي. وأتذكر كيف أشرقت عينا تلك المرأة عندما تذكرت فرح وأمل تلك السنوات. واليوم، كلما رأيت تلك العصابة المعتادة من الكلبين المحترفين يهيلون التراب على ذكرى ثورة أكتوبر، أتذكر وجه تلك المرأة العجوز، الذي يعكس سنوات طويلة من المعاناة، لكنه ما يزال يشع بذكرياتها على الرغم من كل ما حل لاحقاً بها وبجيلها.

من بين أساليب التاريخ البرجوازي المعتادة خلال الفترة الماضية مهاجمة البلشفية من خلال الاستشهاد بكتابات أعداءها السياسيين: الإقتصاديين، والمناشفة بشكل خاص. ومن بين أبرز هؤلاء لدينا سليمان شوارتز. أطروحته الرئيسية هي أن "البلشفية من حيث الجوهر تؤكد على مبادرة أقلية نشطة، بينما المنشفية تؤكد على تفعيل دور الجماهير"، ومن هذا الزعم الكاذب منذ البداية يستخلص المؤلف بشكل طبيعي أن «البلشفية طورت مفاهيم وممارسات ديكتاتورية؛ بينما بقيت المنشفية ديمقراطية تماماً»<sup>1</sup>. إن العمل الحالي سيبين أن هذا الزعم لا أساس له. وسوف يظهر أن الحزب البلشفي تميز طيلة تاريخه بأقصى ديمقراطية داخلية ممكنة. تاريخه صراع الأفكار والتيارات كان الجميع يعبر خلالها عن رأيهم بحرية. لقد قدمت الديمقراطية الداخلية الأوكسجين الضروري لتطوير الأفكار التي ضمنت في النهاية تحقيق النصر. لقد كان بعيداً كل البعد تماماً عن الأنظمة الشمولية والبيروقراطية للأحزاب "الشيوعية" في عهد ستالين.

وأحدث عرض لمدرسة التاريخ المعادي للبلشفية هو كتاب أورلاندو فيجس: "مأساة شعب، الثورة الروسية 1891-1924"، (لندن، 1996). نجد عنده رؤية للثورة جاءت مباشرة من جحيم دانتي. يصور هذا الأكاديمي "الموضوعي" و"العلمي" ثورة أكتوبر بكونها "مؤامرة"، و"انقلاباً"، و"عريضة سكر". لقد كانت «نتيجة انحطاط الثورة المدنية»<sup>(؟)</sup>، وعلى وجه الخصوص الحركة العمالية، أكثر من كونها قوة منظمة وبناءة، مع أعمال التخريب والجريمة، والعنف المعمم والنهب في حالة سكر، كتعبيرات رئيسية لهذا الانهيار الاجتماعي<sup>2</sup>. يدرك فيجس جيداً أن تفشي الفوضى والعريضة التي ارتكبتها العناصر المتخلفة قمعت بسرعة من قبل البلاشفة. لقد شكلت حوادث عرضية بدون أية أهمية، لكنه هنا يقدم الظاهرة العرضية كجوهر للثورة. لكن جوهر الثورات، بالنسبة لأي مدافع "علمي" عن النظام الاجتماعي القائم يجب أن يكون، بطبيعة الحال، هو الاضطراب والجنون والفوضى. ماذا يمكن أن نتوقع من الجماهير؟ إنهم مجرد جهلة ومتخلفون لكي يفهموا فبالأحرى أن يحكموا. كلا، ينبغي أن تترك هذه المهمة المسؤولة لأولئك الذين هم أذكي. فليركز العمال والفلاحون على أشغالهم وليتركوا مهمة تسيير المجتمع لخريجي جامعة كامبريدج.

هل ظلمنا السيد فيجس؟ ربما أسئنا فهم رسالة كتابه الضخم؟ فلنسمح للمؤلف بأن يتحدث بلسانه. خلال مؤتمر السوفييت، صوتت أغلبية حاسمة لصالح نقل السلطة إلى السوفييتات. هذه مشكلة بسيطة بالنسبة لأطروحة فيجس المركزية (التي لا تتميز بأصالة مفرطة) حول أن ثورة أكتوبر كانت مجرد انقلاب. ولكن لا داعي للقلق! فأورلاندو لديه الجواب على كل المعضلات. إن السبب وراء تصويت الجماهير لصالح السلطة السوفييتية هو أنها كانت جماهير جاهلة جداً: فحسب السيد فيجس «رفعت

1: S. S. Schwarz: The Russian Revolution of 1905, the Workers' Movement and the Formation of Bolshevism and Menshevism, p: 29.

2: O. Figs: A People's Tragedy, the Russian Revolution 1891-1924, p: 495.

حشود المندوبين، التي كانت ربما أجهل من أن تفهم الأهمية السياسية لما كانت تفعله، أيديها للمصادقة (أولم تكن تدعم السلطة السوفييتية؟)»<sup>1</sup>.

تجدد الإشارة إلى أن الحجة القائلة بأن غالبية الناس الذين يصوتون في الانتخابات "ربما أجهل" من أن يفهموا القضايا السياسية المطروحة، هي حجة ضد الديمقراطية بشكل عام. ما الذي يحاول فيجس أن يقوله؟ يحاول أن يقنعنا بأن العمال والجنود كانوا، حتى حصول البلاشفة وحلفائهم على الأغلبية في السوفييتات، يدركون تماما ما هو مطلوب، لكنهم في أكتوبر صاروا فجأة "ربما أجهل" من أن يعرفوا ماذا كانوا يفعلون؟ لا يمكن لهذه الحجة أن تخدع أحدا. يجب الاعتراف بأن المندوبين في مؤتمر السوفييت لم يستفيدوا مع الأسف من التعليم في كامبريدج، لكنهم في المقابل كانوا قد تعلموا بعض الأشياء في سياق حرب دموية وتسعة أشهر من الثورة. كانوا يعرفون تماما ما يريدون: السلام والخبز والأرض. وكانوا يعلمون أن الحكومة المؤقتة، والمناشفة والاشتراكيين الثوريين الداعمين لها، لن يعطوهم ما يريدون. لقد فهموا أيضا، في سياق التجربة، أن الحزب الوحيد الذي من شأنه أن يعطيهم هذه الأشياء كان هو الحزب البلشفي. كل هذا فهموه بشكل جيد دون المرور من أية امتحانات.

بالطبع، يحق لأي شخص أن يكتب التاريخ من وجهة نظر مناهضة للثورة. لكنه سيكون من الأفضل كثيرا آنذاك أن يقر المرء، منذ البداية، أن النية الحقيقية هي إظهار أن الثورة شيء مضر، وبالتالي إقناع القارئ بأنه سيكون من الأفضل بكثير له، أو لها، قبول النظام الرأسمالي خوفا من حدوث الأسوأ. لكن للأسف يبدو أن مثل هذا الإقرار أصعب من أن يحتمله هؤلاء المؤرخون.

### مدرسة ستالين للتزوير

المصدر الرئيسي الآخر لتاريخ البلشفية هو ذلك الكم الهائل من الكتابات حول هذا الموضوع التي صدرت، على مدى عقود، في الاتحاد السوفييتي ونشرتها على نطاق واسع، في الماضي، الأحزاب الشيوعية الستالينية في الخارج. من المستحيل كذلك أن تجد في كل تلك الكتابات ولو لمحة عن حقيقة تاريخ البلشفية، فالبيروقراطية، التي اغتصبت السلطة في ظروف التخلف حيث كانت الطبقة العاملة المنهكة غير قادرة على الاحتفاظ بالسلطة بين أيديها، وجدت نفسها [البيروقراطية] مضطرة لكيال المديح شفويا للبلشفية ولأكتوبر. بنفس الطريقة التي كانت بيروقراطية الأممية الثانية تكيال المديح لـ"الاشتراكية" في حين كانت تطبق سياسة برجوازية، والطريقة التي يكيال بها البابا في روما المديح لتعاليم الكنيسة المسيحية في بداياتها الأولى. إن البيروقراطية الحاكمة في الاتحاد السوفييتي، في حين وضعت جثة لينين في الضريح، عملت على خيانة كل الأفكار الأساسية للينين ولثورة أكتوبر، ولوثت راية البلشفية النظيفة بالقدارة والدم. ومن أجل توطيد حكمها، اضطرت الفئة الحاكمة إلى إبادة الجيل القديم من البلاشفة. كان ستالين، مثله في ذلك مثل جميع المجرمين، لا يريد شهودا يمكنهم أن يشهدوا ضده. هذه الحقيقة حددت مقدا مصرير كتب التاريخ في الاتحاد السوفييتي.

كثيرا ما يتم التأكيد على أن الستالينية والبلشفية هي نفس الشيء من حيث الجوهر. وهذا في الواقع، هو ما يكمن وراء كل افتراءات مؤرخي البلشفية البرجوازيين. لكن دولة العمال الديمقراطية التي أنشأها لينين وتروتسكي في أكتوبر 1917 لا علاقة لها على الإطلاق بالنظام الوحشي البيروقراطي والشمولي البشع برئاسة ستالين وخلفائه. انتصار ستالين والبيروقراطية، الذي جاء نتيجة لعزلة الثورة في ظروف التخلف والفقر والامية، كان يعني التخلي جملة عن أفكار وتقاليده وأساليب لينين وتحول الأممية الثالثة من كونها أداة للثورة العالمية إلى مجرد أداة للسياسة الخارجية للبيروقراطية في موسكو. وفي عام 1943، وبعد أن استخدمت الأممية الشيوعية بكلية من قبل ستالين كأداة للسياسة الخارجية في موسكو، دفنت بطريقة مخزية، دون حتى الدعوة إلى عقد مؤتمر. وتعرض التراث السياسي والتنظيمي للينين لضربة قوية طيلة فترة تاريخية كاملة. لقد أثر هذا الواقع بشدة على الرأي الذي يمتلكه الكثير من الناس عن تاريخ البلشفية. فحتى الكتاب ذوو النوايا الحسنة (ناهيك عن ذوي النيات الخبيثة) لا يمكنهم أن يتجاهلوا قراءة كل تلك الجرائم المرعبة التي ارتكبتها النظام الستاليني، والتي هي غريبة تماما عن التقاليد الديمقراطية للبلشفية.

من أجل ضمان الانتصار كانت الستالينية ملزمة بتدمير كل آثار ذلك النظام الديمقراطي الذي أنشأته ثورة أكتوبر. لقد أدرج

1: Ibid. p: 491 (التشديد من آلان وودز).

الحزب البلشفي في برنامجه عام 1919 الشروط الأربعة الشهيرة للسلطة السوفياتية:

- انتخابات حرة وديمقراطية لجميع المسؤولين مع الحق في عزلهم.
- يجب ألا يحصل أي مسؤول على راتب أعلى من راتب عامل مؤهل.
- لا جيش دائم بل الشعب المسلح.
- تدريجيا يجب أن يتم تنفيذ جميع مهام إدارة الدولة من قبل الجميع بالتناوب. عندما يصبح الجميع بيروقراطيا، لا يمكن لأحد أن يكون بيروقراطيا.

تستند هذه الشروط، التي وردت في كتاب لينين الدولة والثورة، إلى برنامج كومونة باريس التي، كما أوضح إنجلز، لم تعد دولة بالمعنى القديم للكلمة، بل شبه دولة، نظاما انتقاليا يهدف إلى تهيئة الطريق للانتقال إلى الاشتراكية. كان هذا هو النموذج الديمقراطي الذي وضعه لينين وتروتسكي موضع التنفيذ بعد ثورة أكتوبر. والذي لم تكن له أية علاقة بذلك المسخ الشمولي البيروقراطي الذي حل محله في عهد ستالين وخلفائه. وعلاوة على ذلك، لم يكن من الممكن فرض ذلك المسخ إلا من خلال ثورة سياسية مضادة، تضمنت الإبادة المادية لحزب لينين في أتون حرب أهلية من جانب واحد ضد البلشفية: محاكمات الإبادة سنوات الثلاثينيات. دعونا نذكر رقما واحدا فقط لإثبات هذه النقطة: بحلول عام 1939، لم يكن قد تبقى من أعضاء اللجنة المركزية الذين ناضلوا إلى جانب لينين عام 1917، سوى ثلاثة مناضلين فقط على قيد الحياة، هم: ستالين وتروتسكي والكسندرا كولنتاي. أما البقية، باستثناء لينين وسفيردولوف اللذين توفيا بشكل طبيعي، فإما تعرضوا للقتل أو دفعوا إلى الانتحار. أعدم كامينيف وزينوفيف في 1936. وبوخارين، الذي وصفه لينين بأنه "المفضل في الحزب"، أعدم في 1938. نفس المصير واجه عشرات الآلاف من البلاشفة في عهد ستالين. بقي صوت واحد وحيد للتنديد بجرائم ستالين والدفاع عن التراث الحقيقي للبلشفية. وقد أخرج ذلك الصوت عام 1940، عندما تعرض ليون تروتسكي، المناضل الثوري مدى الحياة، وزعيم ثورة أكتوبر ومؤسس الجيش الأحمر، للاغتيال أخيرا في المكسيك على يد أحد عملاء ستالين.

يحق لنا أن نوجه لأولئك الذين يصرون على خلط اللينينية بالستالينية السؤال التالي: إذا كان صحيحا أن نظام لينين ونظام ستالين هما الشيء نفسه حقا، فكيف يعقل إذن أن يعجز ستالين عن الوصول إلى السلطة إلا عن طريق الإبادة التامة للحزب البلشفي؟

في عهد ستالين وخلفائه أخفي كل ما يتصل بثورة أكتوبر وتاريخ البلشفية تحت ضباب كثيف من التشويه بفعل الأساطير الرسمية التي قدمت، في الاتحاد السوفياتي بعد وفاة لينين، على أساس أنها تاريخ. دفنت التقاليد الحقيقية للبلشفية تحت طبقة سميكة من الأكاذيب والافتراءات والتشويهات. كما تم تصوير العلاقة بين الحزب والقيادة، والعلاقة بين الحزب والطبقة، على شكل بيروقراطية كاريكاتورية. قدم التاريخ السوفياتي الرسمي صورة مبتذلة وأحادية الجانب للعلاقة بين الحزب البلشفي وبين الحركة الجماهيرية. حيث يخلق الانطباع بأن البلاشفة كانوا في كل حين القوة الفائزة التي توجه وتدير الثورة بنفس السهولة التي يلوح بها رئيس الجوق بعصاه أمام أوركسترا مطيعة ومنضبطة. لا يمكن للمرء أن يتعلم شيئا من هذه الإصدارات عن الحزب البلشفي أو الثورة الروسية أو ديناميات الثورة بشكل عام. وهذا، بطبيعة الحال، لم يكن مصادفة، إذ أن الغاية من وراء التاريخ في ظل حكم البيروقراطية الستالينية ليست تعليم الناس كيفية صنع الثورات، بل فقط تمجيد الطغمة الحاكمة وإدامة أسطورة القيادة المعصومة على رأس الحزب المعصوم، الذي لا يشبه حزب لينين في أي شيء باستثناء الاسم المغتصب. وبنفس الطريقة تعمل جميع الأسر المالكة، لكن خصوصا الأسر التي اغتصبت العرش، على إعادة كتابة التاريخ لتقديم أسلافها في أبهى صورة وأكثرها جلالا. وغني عن القول إن أي تشابه بين ما يزعمونه وبين الحقيقة هو من قبيل الصدفة البحتة.

جميع المؤلفات التاريخية الستالينية بدون قيمة كمصادر. إن تصوير تاريخ البلشفية كما فعل هؤلاء الناس باعتباره خطأ تصاعديا بشكل دائم، ويسير بشكل ثابت إلى حسم السلطة، هو خروج من عالم التاريخ الجدي إلى تاريخ سير القديسين. لقد استخدمت في كتابي هذا مؤلفا تاريخيا سوفياتيا واحدا: المجلد المتعدد الأجزاء "Istoriya KPSS" (تاريخ الحزب الشيوعي) الذي نشر في الاتحاد السوفياتي في ظل نظام نيكيتا خروتشوف "الليبرالي" نسبيًا، في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. يشكل هذا الكتاب ربما التاريخ الأكثر تفصيلا للحزب الذي نشر في الاتحاد السوفياتي. وهو مفيد نظرا لغنى المادة الوثائقية التي يتضمنها،

والتي من بينها وثائق كثيرة من أرشيفات الحزب غير المنشورة. لكنه من حيث الجوهر تاريخ أحادي الجانب مثل كل مؤلفات التاريخ الستالينية الأخرى، وحتى المعلومات الواقعية فيه ينبغي أن تعامل بحذر.

### ”أكاذيب جديدة وأكاذيب قديمة!“

ليس هذا هو المكان المناسب للتعامل مع الأحداث التي شهدتها روسيا منذ وفاة لينين حتى يومنا هذا. هذا موضوع الكتاب المكمل لكتابتنا هذا: *Russia—from Revolution to Counter-revolution* (روسيا من الثورة إلى الثورة المضادة)، الذي سبقت الإشارة إليه. ويكفي هنا أن نقول إن عزلة الثورة الروسية في ظروف التخلف الاقتصادي والثقافي المخيفة أدت حتما، أولا إلى صعود فئة حاكمة بيروقراطية متميزة عملت على التصفية الكاملة لتقاليد البلشفية وأبادت جسديا الحزب البلشفي، وأخيرا صفت آخر ما تبقى من المكتسبات التقدمية لثورة أكتوبر: الاقتصاد المؤمم والتخطيط. وكانت النتيجة، كما تنبأ تروتسكي في عام 1936، هي حدوث أفضع انهيار للقوى المنتجة والثقافة. لقد دفع الشعب الروسي ثمنا مروعا لمحاولة البيروقراطية تحويل نفسها إلى طبقة حاكمة وترسيخ سلطتها وامتيازاتها عبر السير في اتجاه الرأسمالية.

كما توقعنا منذ البداية، هذا من شأنه أن يلاقي حتما مقاومة من جانب الطبقة العاملة في مرحلة معينة. صحيح أن هذه السيرورة تأخرت. وكيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ فالفترة الطويلة من الحكم الشمولي، ونتيجة لذلك تشويه سمعة الاشتراكية والشيوعية؛ والارتباك الهائل والتهيان الناجمين عن انهيار الاتحاد السوفياتي؛ ثم الانهيار غير المسبوق للقوى المنتجة الذي أذهل العمال لبعض الوقت؛ وأخيرا، وهذا هو الأهم، عدم وجود حزب شيوعي حقيقي يقوم على برنامج وأساليب وتقاليد لينين وتروتسكي، كل هذا ألقى بالحركة إلى الوراء. لكن الأوضاع الآن تتغير في روسيا. وعلى الرغم من غياب القيادة، فإن الطبقة العاملة تقترب تدريجيا من الاستنتاجات اللازمة على أساس خبرتها. وعاجلا أم آجلا ستضع الحركة العمالية بحزم على جدول أعمالها الحاجة إلى برنامج لينيني وسياسة لينينية وقيادة لينينية حقيقية.

مع انهيار الستالينية تعرضت كل تلك المؤلفات التاريخية القديمة إلى نسيان مستحق جدا. لكن حل مكانها نوع جديد وأكثر خبثا من التزوير المعادي للبلشفية. فالاتجاه نحو الرأسمالية في روسيا خلق سلالة جديدة من ”المؤرخين“ الحريصين على تقديم الخدمة لسادتهم الجدد من خلال نشر جميع أنواع ”الاكتشافات“ المزعومة عن الماضي. وحقيقة أن ما يكتبونه الآن يناقض تماما ما كتبوه بالأمس لا يبدو أنها تقلقهم على الإطلاق، لأن الهدف ليس (ولم يكن أبدا) إثبات الحقيقة، بل فقط كسب لقمة العيش وإرضاء السادة. على مدى عقود لفقت هذه المخلوقات تاريخا مزورا للبلشفية والثورة الروسية، وصورت حياة لينين، مثلما صورت الكنيسة الأرثوذكسية حياة القديسين، مليئة بالمعجزات، وبدون أية أهمية علمية. توددوا للبيروقراطية الستالينية، التي دفعت لهم بسخاء لإنتاج تلك القمامة، وجعلوا أنفسهم خدما أوفياء للنظام الشمولي. والآن تغير السادة، فقفزوا ببراعة الكلب في السيرك. ومن التغني بمناقب ستالين وبريجنيف وغورباتشوف، انتقلوا إلى التغني بمناقب ”السوق“.

يتبنى هؤلاء الكتاب الروس الجدد نفس الأخلاق والقيم التي يتبناها كل ”الروس الجدد“ الآخرين، أي قيم السوق، أي قيم الغابة. ومن أجل حماية الثروات الجديدة التي تم تحقيقها ببساطة من خلال نهب شعب روسيا، من الضروري إهالة التراب على الماضي الثوري في روسيا، خوفا من أن يمثل أيضا مستقبل روسيا. وكما أن هناك سوقا جاهزة في روسيا لشراء سيارة مرسيدس بنز والمواد الإباحية، فإن هناك أيضا إمكانية لكسب المال من خلال الافتراء على لينين وثورة أكتوبر. وعندما يتعلق الأمر بالمال، فإن المثقفين ”الروس الجدد“ ليسوا أقل حماسا من بقية عصابات اللصوص والمضاربين وغيرهم من المجرمين الذين يحكمون موسكو الآن. لقد تطور نوع أدبي جديد كليا، يقوم على ما يلي: ”اكتشف“ أحد أعضاء الحزب أو عملاء الكي جي بي KGB السابقين في الأرشيف بعض ”الحقائق الجديدة المذهلة“ المتعلقة بلينين. ثم يتم عرض هذا على الجمهور في شكل دراسة ”علمية“ يوقعها هذا الأكاديمي أو ذاك، والذي يستثمر المعلومات ”الجديدة“ مع هالة زائفة من ”الموضوعية العلمية“. وبعد بضعة أشهر، يتم نشر ”الاكتشافات الجديدة“ في الغرب، بين جوقة موافقة. ثم يتم نشر تعليقات وسائل الإعلام الغربية في الصحافة الروسية، لكن ليس قبل أن يتم تنميقها بشكل مناسب بجميع أنواع الإضافات المتوهجة والكاذبة تماما. في الواقع، لا شيء من هذه ”الاكتشافات“ جديد عمليا، وليس هناك بالتأكيد ما هو مدهل فيها، إلا إذا كان بعض الناس مستعدين لتصديق أي شيء كيفما كان.



من بين التهم الكثيرة الموجهة إلى لينين هناك تهمة الدعوة إلى استخدام العنف خلال الحرب الأهلية! لكن ما هي الحرب باستثناء كونها استخداما للعنف لهذه الغاية أو غيرها، وكونها استمرارا للسياسة بوسائل أخرى، على حد التعبير الشهير لكلاوزفيتز؟ صحيح أن الإنجيل يخبرنا أن إزهاق روح إنسان آخر خطيئة خطيرة. لكن هذا القول المأثور لم يمنع أبدا الملوك والسياسيين المسيحيين من استخدام أعنف الوسائل للدفاع عن مصالحهم. إن هؤلاء الذين يذرفون دموع التماسيح على مصير القيصر نيكولا، يتجاهلون، عن عمد، القسوة الدموية التي اتسم بها حكمه منذ اليوم الأول. ربما سينعش هذا المؤلف ذاكرتهم. وربما سوف يفاجئون بأن يعلموا أن ثورة أكتوبر كانت ثورة سلمية نسبيا، وأن سفك الدماء الرهيب لم يحدث إلا نتيجة لتمرد مالكي العبيد، الجيش الأبيض، المدعومين من طرف الإمبريالية العالمية. في السنوات الثلاث بعد ثورة أكتوبر، تعرضت الجمهورية السوفياتية للغزو من طرف ما لا يقل عن 21 جيشا أجنبيا: الجيوش البريطانية والفرنسية والألمانية والأمريكية والبولندية والتشيكية واليابانية وغيرها. وكما هو الحال دائما، عندما يتعلق الأمر بإخماد ثورة للعبيد، تتصرف الطبقة السائدة بأشد الطرق قسوة ووحشية. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفا، فالعبيد السابقون لم يخضعوا بخنوع، بل كافحوا وفازوا.

اصطدم عنف الملاكين العقاريين والرأسماليين بعنف العمال والفلاحين المظلومين. وهذا هو الشيء الذي لا يمكنهم أن يغفروه. نظم تروتسكي الطبقة العاملة في إطار الجيش الأحمر ونجح، بفضل الجمع بين المهارة العسكرية والشجاعة وبين نهج سياسة ثورية وأممية، في هزم كل قوى الثورة المضادة. وقد تضمن هذا، بدون شك، استخدام العنف، وهو ما لم يكن يتفق كليا مع الوصايا العشر. يزعم أعداء الثورة أنهم شعروا بالرعب. لكن رفضهم للوسائل العنيفة ليس مبدئيا على الإطلاق. فنفس هؤلاء الناس الذين يفترون على ذكرى لينين وتروتسكي لا يطرف لهم جفن عندما يذكرون الرئيس الأمريكي الذي أمر بإلقاء القنبلة الذرية على السكان المدنيين في هيروشيما وناغازاكي، أو رئيس وزراء بريطانيا الذي أمر بحرق الرجال والنساء والأطفال في قصف درسدن. مثل هذه الأعمال، كما ترى، ليست مقبولة فحسب، بل تستحق الثناء ("لقد قصرت أمد الحرب وقللت خسائر الحلفاء..."). يعلم منظمو الحملة ضد لينين والبلاشفة جيدا أن ثورة أكتوبر كانت تخوض حربا يائسة للدفاع عن النفس. وهم يعرفون أنه لو انتصر الجيش الأبيض، لكان سيقوم نظاما ديكتاتوريا شرسا في روسيا وكان العمال والفلاحون سيدفعون ثمنا باهظا. ولذلك يجب أن ينظر إلى الضجة حول عنف لينين المزعوم بكونه في الواقع مجرد أحط أشكال الكليية والنفاق.

الافتراء الأكثر بشاعة هو الاتهام الذي أطلقه ديميتري فولكوغونوف وآخرون غيره، حول أن لينين كان عميلا ألمانيا. إن هذا الاتهام ليس فقط بدون أساس، بل هو أيضا واضح الغباء. فلو كان لينين حقا عميلا للإمبريالية الألمانية، لكان من المستحيل تفسير سلوك كل من لينين، من جهة، والجيش الألماني، من أخرى، في فترة ما بعد أكتوبر. في الواقع كانت البرجوازية الروسية، وليس لينين والبلاشفة، هي التي أرادت تدخل الجيش الألماني في روسيا عام 1917. هناك الكثير من الشهود لإثبات أن الطبقات المالكة في روسيا كانت تفضل تسليم بتروغراد للألمان بدلا من رؤيتها تقع في أيدي البلاشفة.

صحيح أن هيئة الأركان العامة الألمانية كانت تأمل أن تؤدي عودة لينين إلى روسيا إلى زعزعة استقرار النظام القيصري وإضعافه عسكريا. فليس من غير المألوف بالنسبة للقوى الإمبريالية أن ترى في الاضطرابات الداخلية وسيلة لإضعاف العدو. وبنفس الطريقة من واجب الثوريين الاستفادة من جميع التناقضات بين الإمبرياليين لدفع الثورة إلى الأمام. كان لينين يدرك جيدا حسابات برلين. هذا هو السبب الذي جعله، عندما منع من طرف إنجلترا وفرنسا من عبور أراضي الحلفاء للعودة إلى روسيا، واضطروه للعودة عبر ألمانيا، إلى فرض شروط صارمة، من بينها أن لا أحد يستطيع الدخول أو الخروج من القطار خلال الطريق. كان يعلم أن أعداء البلاشفة سوف يصفونه بأنه "عميل ألماني"، لكنه اتخذ الخطوات اللازمة للرد على هذا الافتراء مقدما.

وكما شرح تروتسكي بعد سنوات من ذلك للجنة ديوي، فإن لينين «أوضح بشكل علني للعمال في أول سوفيات في بتروغراد أن: "وضعي كان كذا وكذا. كانت الطريقة الوحيدة الممكنة هي المرور عبر ألمانيا. آمال ليدندورف هي آماله الخاصة به، أما آمالي فهي مختلفة تماما. وسنرى من سينتصر". لقد شرح كل شيء. ولم يخف شيئا. لقد قال ذلك أمام العالم بأسره. لقد كان ثوريا نزيها. بطبيعة الحال اتهمه الشوفينيون والقوميون بأنه جاسوس ألماني، لكنه في علاقته مع الطبقة العاملة كان بريئا بشكل مطلق»<sup>1</sup>.

خلال الحرب العالمية الأولى، ليس فقط الألمان، بل كذلك الحلفاء، استخدموا عملائهم داخل الحركة العمالية لنيل التأييد بين

1: The Case of Leon Trotsky, p: 316.

المجموعات اليسارية في البلدان الأخرى. لكن الادعاء بأن الألمان اشتروا البلاشفة بالمال وأنه كان هناك تحالف فعلي بين البلاشفة وبين الإمبريالية الألمانية ليست فقط كذبة شنيعة، بل غبية للغاية أيضا. إنها كذبة تتناقض مع كل الحقائق المعروفة عن السلوك السياسي للبلاشفة سواء خلال الحرب أو بعدها على حد سواء. فعلى سبيل المثال، يزعم فولكوغونوف أن الأموال الألمانية أرسلت إلى البلاشفة عبر السويد، بينما يمكن بسهولة إثبات أن ممثل البلاشفة في السويد، شيلياينيكوف، كان يندد علنا بأنشطة الجناح الموالي للألمان بين صفوف الحزب الاشتراكي الديمقراطي السويدي، وأنه لم تكن له أية علاقة مع العميل الألماني ترويلسترا، كما أن موقف لينين من بارفوس خلال الحرب موثق في الفصل المخصص لذلك من هذا المؤلف. يمكن للمرء أن يقول الكثير حول موضوع أكاذيب وتشويهاات السيد فولكوغونوف، لكن وكما يقول المثل الروسي: يمكن لمعتوه واحد أن يطرح من الأسئلة أكثر مما يمكن لمائة حكيم أن يجيبوا. وهذه الملاحظة تصدق ليس فقط على المعتوهين، بل كذلك على الأشخاص ذوي النيات السيئة.

## اللينينية والمستقبل

بعد سقوط جدار برلين، أحس نقاد الماركسية البرجوازيون بالابتهاج لفترة قصيرة. لكن كل ابتهاجهم تحول بسرعة إلى رماد. تعكس أزمة الرأسمالية نفسها، في هذه المرحلة، في تشاؤم منظري الرأسمالية. لكن ومع تفاقم الأزمة، ستنعكس في أزمة المنظمات العمالية الجماهيرية التي شهدت، على مدى العقود الماضية، سيرورة انحطاط وإصلاحى وبيروقراطي أسوأ بكثير من ذلك الذي عانت منه الأممية الثانية في الفترة السابقة لـ 1914. طيلة فترة طويلة عامل قادة المنظمات العمالية الماركسية وكأنها كلب ميت. لقد احتضنوا بكل اخلاص الرأسمالية وتبنوا جميع الحلول الاقتصادية الزائفة للبرجوازية. كانت الحيوية الواضحة للإصلاحية اليمينية في فترة ما بعد الحرب، على الأقل في الدول الرأسمالية المتقدمة، مجرد تعبير عن حقيقة أن الرأسمالية كانت تمر من فترة طويلة من التوسع، على غرار مرحلة العشرين عاما أو نحو ذلك قبل الحرب العالمية الأولى. لكن هذه الفترة وصلت الآن إلى نهايتها. وبينما كنت أنتهي من الفصل الختامي، كان خبر أزمة متصاعدة للرأسمالية العالمية على كل لسان.

لم يعيش العالم، منذ عام 1945، مثل هذه الحالة من الاضطراب التي يعيشها اليوم. منذ زمن بعيد تنبأ ماركس وإنجلز أن الرأسمالية ستتطور كنظام عالمي. والآن تحقق ذلك التوقع بشكل كامل. إن الهيمنة الساحقة للسوق العالمية تشكل الحقيقة الأكثر وضوحا في عصرنا. تم تصوير انتصار العولمة باعتباره الانتصار النهائي لاقتصاد السوق. لكن هذا الانتصار يحمل في ذاته بذور كارثة. لم تتمكن العولمة مطلقا من التغلب على التناقضات الأساسية للرأسمالية ولم تعمل سوى على خلق مرحلة جديدة، وأكبر بكثير، للتناقضات التي بدأت تكشف عن نفسها. وقد تجلى الركود العميق في آسيا على شكل تراكم غير مسبوق للسلع غير المباعة (فائض الإنتاج، أو "القدرة الزائدة") ورافقه شلل للبلد الذي كان يعتبر القوة المحركة الرئيسية للنمو الاقتصادي العالمي، أي اليابان. على الجانب الآخر من العالم، تثير الحركة التصاعديّة غير المتحكم فيها للبورصة المخاوف من حدوث انهيار مالي في الولايات المتحدة. وتجد عصبية البرجوازية تعبيرها في الاضطرابات التي تعرفها أسواق الأسهم العالمية.

الآن تبدو الحجة القديمة حول التفوق المزعوم لـ "اقتصاد السوق الحرة" وكأنها مزحة سمجة بالنسبة لملايين البشر. وتحت شعار "الخصخصة"، تشارك البنوك والاحتكارات الكبيرة في نهب الدولة؛ وتحت شعار "تحرير الاقتصاد"، يجبرون البرجوازيات الضعيفة في البلدان المستعمرة سابقا، في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، على فتح أسواقها أمام الصادرات من الغرب والتي لا يمكنها أن تنافسها. هذا هو السبب الحقيقي للمديونية المزمنة في العالم الثالث وللأزمة الدائمة التي تصيب ثلثي سكان العالم. في كل مكان نرى الحروب والصراعات على الأسواق وحدودا لا معنى لها، حيث يفرض على الشعوب أن تدفع ثمنا فادحا للأزمة العالمية للرأسمالية. يشبه هذا الوضع العالم كما كان قبل مائة سنة، أكثر بكثير مما يشبه فترة الاستقرار النسبي التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. وليست الاضطرابات التي تحدث في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بعيدة كما تبدو عن أوروبا وأمريكا الشمالية. وقد أظهرت الكارثة التي نجمت عن تفكك يوغوسلافيا أن نفس السيروتات يمكنها أن تؤثر على شعوب الغرب، التي يفترض أنها متحضرة، ما لم يتم القضاء على النظام الهمجي الرأسمالي واستبداله بنظام عقلاي ومتناغم على الصعيد العالمي.

لسخرية التاريخ كان المفجر الرئيسي للأزمة الحالية هو الانهيار المذهل لسياسات "السوق الحرة" في روسيا. وهذا يمثل نقطة تحول مهمة ليس فقط لروسيا بل للعالم بأسره. وقد تبخر الآن مزاج الابتهاج الذي ساد بين منظري الرأسمالية بعد سقوط جدار

برلين كما تتبخر قطرة ماء على موقد ساخن. وبدلاً من الأغنية القديمة عن الوفاة المزعومة للماركسية والاشتراكية والشيوعية، صاروا الآن ينشدون أغنية مختلفة تماماً. تمتلئ كتابات الاقتصاديين والسياسيين البرجوازيين بنذر الشؤم والتحذيرات القاتمة. وفي روسيا يجري تحضير الشروط لانفجار اجتماعي سوف يضع على رأس جدول الأعمال العودة إلى تقاليد 1917. وعلى الصعيد العالمي تدخل أزمة الرأسمالية مرحلة جديدة ومتشعبة. وليست الثورة في إندونيسيا سوى أول فصل في الدراما التي سوف نشاهدها على مدى الأشهر والسنوات المقبلة، والتي سوف تجد تعبيراً لها ليس فقط في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، بل أيضاً في أوروبا وأمريكا الشمالية.

في مرحلة النهضة الثورية هذه لن تحتل روسيا المركز الأخير. كان لينين مغرماً بالمثل الروسي الذي يقول: "الحياة تعلم". وقد كان الدرس المستفاد من محاولة العودة إلى الرأسمالية في روسيا درساً صعباً للغاية. لكن البندول الآن بدأ يتأرجح في الاتجاه المعاكس. وقلق الرأسماليين في روسيا وحلفائهم الغربيين مبرر جداً. لو أن قادة الحزب الشيوعي الروسي كانوا قادة لينينيين حقاً، لكان العمال الروس الآن على مشارف حسم السلطة. الطبقة العاملة الروسية هي اليوم أقوى بألف مرة مما كانت عليه في 1917. وبمجرد ما ستبدأ في التحرك لن يكون هناك شيء يمكنه وقفها. المشكلة هي، مثلما كما عليه الحال في فبراير عام 1917، عدم وجود القيادة الثورية. والدور الذي يقوم به زيوغانوف هو أسوأ من ذلك الذي قام به المناشفة في 1917. ففي كل خطب ومقالات قادة الحزب الشيوعي الروسي ليست هناك ذرة واحدة من أفكار لينين والحزب البلشفي. يبدو الأمر كما لو أنهم لم يوجدوا أبداً. هذا مؤثر على المدى الذي رمت به الردة الستالينية ضد ثورة أكتوبر الحركة إلى الخلف. إعادة الحياة إلى الحركة العمالية الروسية ممكن فقط من خلال العودة إلى التقاليد الحقيقية للبلشفية. ويبقى تاريخ البلشفية النموذج الكلاسيكي للنظرية والممارسة الماركسية في نضالها من أجل كسب الجماهير. من الضروري أن نعود إلى لينين، وأيضاً إلى أفكار الرجل الذي، إلى جانب لينين، وقف على رأس ثورة أكتوبر وضمن نجاحها، أي ليون تروتسكي.

لا يمكن لسلوك القادة أن يستمر في كبح الحركة إلى الأبد. يسعى العمال جاهدين لإيجاد وسيلة للخروج من الأزمة من خلال نضالهم الطبقي. وفي سياق قيامهم بذلك يعيدون اكتشاف التقاليد الثورية للماضي: تقاليد ثورتي 1905 و1917. إن عودة السوفييتات إلى الظهور، على الرغم من أنها مختلفة جداً: لجان المعارك، لجان الإضراب ولجان اليقظة، دليل واضح على أن البروليتاريا الروسية لم تنس تراثها الثوري. ستستمر الحركة وستنمو، بالرغم من زيوغانوف وأتباعه. مع موجات المد والجزر الحتمية. أليس هذا هو واقع الحال دائماً؟ هذا بالضبط هو الدرس الرئيسي لهذا الكتاب. وهناك درس آخر يجب ألا ننساه أبداً: لا شيء يمكنه أن يكسر الإرادة العفوية للطبقة العاملة في تغيير المجتمع. البلشفية هي مجرد تعبير واع عن المساعي العفوية أو شبه الواعية للبروليتاريا لتغيير ظروف حياتها. لا توجد قوة على وجه الأرض يمكنها أن تمنع الحركة الحتمية للعمال الروس. وفي وقت معين، ومن خلال التجربة، سيتمكن الجيل الجديد من إعادة اكتشاف طريق العودة إلى البلشفية. إن التقاليد ما تزال موجودة، وسوف تجد الثورة طريقها.

ألان وودز، لندن

يناير 1999



«أيا كان موقف المرء من البلشفية، فإن الشيء الذي لا يمكن إنكاره هو أن الثورة الروسية واحدة من أعظم الأحداث في تاريخ البشرية، وأن حكم البلاشفة ظاهرة ذات أهمية عالمية»<sup>1</sup>.

لقد مر ما يقارب عقدين من الزمن منذ نشر الطبعة الإنجليزية الأولى لكتاب "البلشفية: الطريق نحو الثورة"، عام 1999. تلقى الكتاب استقبالا حماسيا للغاية، حتى من طرف أشخاص لا يتفقون بالضرورة مع وجهة النظر السياسية لمؤلفه. وقد تمت ترجمته إلى الإسبانية والأردية. وها هي الآن طبعته الثانية، كما يتم تحضير عدد من الترجمات الجديدة له بلغات أخرى، بما في ذلك اليونانية والعربية والإندونيسية.

من المناسب للغاية إعادة نشر الكتاب لكي يتزامن مع الذكرى المئوية لثورة أكتوبر. تعتبر الثورة البلشفية، من وجهة النظر الماركسية، أعظم حدث في تاريخ العالم. لماذا؟ لأنها كانت المرة الأولى، إذا استثنينا تجربة كومونة باريس البطولية والمأساوية في نفس الآن، التي تمكنت فيها الجماهير من إسقاط النظام القديم وبدأت المهمة العظيمة للتغيير الاشتراكي للمجتمع.

قال كارل ماركس إن الفلاسفة لم يعملوا سوى على تفسير العالم بطرق مختلفة، لكن الهدف هو تغييره. وتحت قيادة لينين وتروتسكي قام الحزب البلشفي بتغيير تاريخ العالم كله بطريقة ما تزال آثارها ملموسة حتى اليوم. ولذلك فبغض النظر عما يعتقد المرء بخصوص الثورة الروسية ودور الحزب البلشفي، فإنه يتعين على كل شخص ذو تفكير مستقل أن يدرس ما كان أهم حدث تاريخي بكل معاني الكلمة.

لقد قضيت ثلاثين عاما أجمع المواد الضرورية لكتابة تاريخ شامل للبلشفية، وذلك لسبب بسيط هو أنني لم أجد أي عمل ينصف حقا هذا الموضوع المهم. المؤرخون البرجوازيون غير قادرين على كتابة عمل جاد حول الحزب البلشفي أو ثورة أكتوبر. فهم مدفوعون بمشاعر الكراهية والحقد، والتي لا يحاولون حتى إخفاءها تحت ستار "موضوعية" أكاديمية زائفة ومنافقة. وغني عن القول إن وراء هذه الكراهية تكمن عاطفة أخرى وهي: الخوف من الثورة، التي صارت، في ظل أزمة الرأسمالية الحالية، تهدد بالعودة إلى الظهور في جميع البلدان، الواحد منها تلو الآخر.

### النقاش مع أورلاندو فيجز

يحاول المدافعون عن الرأسمالية، وعملاؤهم المخلصون داخل الحركة العمالية، أن يطمئنوا أنفسهم بفكرة أن انهيار الاتحاد السوفييتي دليل على نهاية الاشتراكية. لكن ما فشل في روسيا لم يكن الاشتراكية، بل صورة كاريكاتورية عن الاشتراكية. وعلى عكس الافتراءات المتكررة، فإن النظام الستاليني كان نقيض النظام الديمقراطي الذي أنشأه البلاشفة في عام 1917.

منذ وقت ليس ببعيد أتيحت لي الفرصة لأشاهد هذا النوع من "الموضوعية" عندما ناقشت مع أورلاندو فيجز، أستاذ التاريخ في جامعة بيركبيك بلندن، حول موضوع: "الثورة الروسية: نصر أم مأساة؟"، ولا بد لي أن أعتز بأنني كنت قد نسيت مدى سوء هؤلاء الأكاديميين البرجوازيين. كانت أقوى لحظة في مساهمة فيجز هي عندما أبلغني أنني تعرضت لغسيل دماغ، واعتبر أن دفاعي عن ثورة أكتوبر هو نتاج للجهل عكس علمه الأكاديمي الواسع. أما أضعف لحظة في مساهمته فلا داعي للإشارة إليها.

إن الادعاء القائل بأن "ثورة أكتوبر ليست سوى انقلاب نظمته مجموعة صغيرة من المتآمريين، بقيادة لينين وتروتسكي"، طفولي لدرجة أنني أندعش حقا عندما يكرره أي شخص له ذرة من الذكاء. لكن ذلك بالضبط ما قام به أورلاندو. عندها طلبت من خصمي أن يقدم لي الوصفة التي تمكنني من القيام بمثل ذلك الإنجاز الاستثنائي، حتى أتمكن من حسم السلطة في بريطانيا في صباح اليوم التالي. لكنه مع الأسف تركني أنتظر رده حتى الآن.

لقد شرحت بلغة بسيطة للغاية أن ثورة أكتوبر كانت حركة شعبية جماهيرية لملايين العمال والفلاحين الذين اقتحموا ساحة التاريخ، لكي يأخذوا مصائرهم بأيديهم. وبالاعتماد على روايات شهود عيان، وحتى كتاب فيجيز نفسه، أوضحت كيف أن البلاشفة كانوا، بحلول أكتوبر 1917، الحزب الوحيد الذي يعمل وسط صفوف الجماهير ويتمتع بثقتها، وكيف أن نضالهم من أجل "السلام والخبز والأرض" و"كل السلطة للسوفييتات"، هو ما مكّنهم من كسب الشعب إلى رايتهم.

كما أنه ليس صحيحاً، ما يدعيه أورلاندو فيجيز وغيره من منتقدي البلشفية الآخرين، أن لينين وتروتسكي كانا "وحشين دمويين صعدا إلى السلطة عبر بحر من الدماء". في الواقع كانت الثورة البلشفية، على الأقل في بتروغراد، ثورة دون إراقة أي دماء تقريباً. بل حتى فيجيز نفسه يصفها في كتابه بأنها تشبه "عملية مراهمة بوليسية". والسبب في ذلك بسيط للغاية: لم يكن لدى النظام ببساطة من يدافع عنه. لقد حصل البلاشفة على دعم ساحق لدرجة أن جماهير الشعب دفعتهم إلى السلطة في انتفاضة شبه سلمية.

الدماء التي سالت كانت بسبب الحرب الأهلية التي أعقبت الانتفاضة، وذلك عندما غزت 21 من الجيوش الأجنبية روسيا لمحاولة الإطاحة بالبلاشفة. وتعبأت العناصر الأكثر رجعية في المجتمع: الملاكون العقاريون والطبقة السائدة القديمة، للإطاحة بالحكومة السوفياتية. لم يكن أمام البلاشفة من خيار سوى القتال للدفاع عن أنفسهم ضد الثورة المضادة، وإلا كانوا سيتعرضون للذبح ويعرضون كل مكاسب الثورة للدمار. لقد قاتلت الثورة وانتصرت، وهذا ما لا يستطيع أعداؤها أن يغفروه أو ينسوه.

### البلشفية في هافانا - وكراكاس

قابلت هوغو تشافيز لأول مرة في أبريل 2004، وفي أول اجتماع لنا وجهها لوجه، في قصر ميرافلوريس الرئاسي، قدمت له نسخة من كتاب "البلشفية" باللغة الإسبانية، قبلها بحماس كبير، وبدأ يقلب الصفحات ثم توقف.

قال لي: «أراك كتبت عن بليخانوف».

قلت: «هذا صحيح».

قال: «لقد قرأت كتاباً لبليخانوف منذ فترة طويلة، وقد ترك عندي انطباعاً جيداً. كان عنوانه: "دور الفرد في التاريخ". هل تعرفه؟»

قلت: «طبعاً».

قال وهو يتأمل: «دور الفرد في التاريخ، حسناً، أعلم أن لا أحد منا ضروري حقاً».

أجبت: «هذا ليس صحيحاً تماماً. هناك فترات في التاريخ يمكن للفرد فيها أن يحدث فيها فرقاً جوهرياً».

فقال: «أجل، لقد أسعدني أنك قلت في كتابك "Reason in Revolt" إن الماركسية لا يمكن اختزالها إلى عوامل اقتصادية».

قلت: «هذا صحيح. تلك صورة كاريكاتورية مبتذلة عن الماركسية».

قال: «هل تعلم متى قرأت كتاب بليخانوف دور الفرد في التاريخ؟».

أجبت: «ليست لدي أي فكرة».

قال: «قرأته عندما كنت ضابطاً في وحدة مكافحة حرب العصابات في الجبال. تعلم لقد كانوا يعطوننا كتباً لنقرأها حتى نتمكن من فهم

أساليب التخريب. قرأت أن المخربين يعملون بين الناس ويدافعون عن مصالحهم ويكسبون قلوبهم وعقولهم. بدت لي فكرة جيدة!»

«ثم بدأت أقرأ كتاب بليخانوف وأعطاني انطباعاً عميقاً. أتذكر أنها كانت ليلة جميلة مضاءة بالنجوم في الجبال، وكنت في خيمتي أقرأ

تحت ضوء مصباح. الأشياء التي قرأتها جعلتني أفكر وبدأت أتساءل عما أفعله في الجيش. صرت تعيساً للغاية».

ولاحقاً أخبرني أن كتاب "البلشفية" و"Reason in Revolt" ساعده على التوصل إلى أن الاشتراكية هي الحل الوحيد لمشاكل البشرية.

إحدى أكثر التجارب التي لا تنسى هي عندما كنت بصدد تقديم كتاب "البلشفية" في معرض هافانا للكتاب، حيث أتيت لي الفرصة لشرح ما حدث بالفعل خلال الثورة الروسية، ولا سيما التأكيد على دور ليون تروتسكي فيها. كان الحضور يضم العديد من الشباب، والمناضلين الشيوعيين المخضرمين، والأساتذة الجامعيين، والسفير الكوبي السابق، أوريليو ألونسو (عضو جماعة الفكر النقدي

”Pensamiento Crítico“ في الستينيات)، وتروتسكين كويين سابقين، وطلاب أجنب من عدد من بلدان أمريكا اللاتينية. كانت تلك بالنسبة للكثيرين منهم، هي المرة الأولى التي سمعوا فيها شرحا للدور الحقيقي الذي لعبه تروتسكي في الثورة الروسية، وعلى وجه الخصوص سردا مفصلا لمختلف المواقف التي كانت داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية تجاه فكرة الثورة الدائمة (أي مهام الثورة الروسية وقواها المحركة)، وكيف اتفق لينين وتروتسكي على هذا الأمر بعد أن نشر لينين كتابه موضوعات أبريل.

قلت في ملاحظاتي التمهيديّة: «يجب أن نستعيد التقاليد الحقيقية للبلشفية من تحت كومة من الأكاذيب والتشويهات التي خلقتها البرجوازية، وكذلك الستالينيين». كانت إحدى الأفكار التي ركزتُ عليها هي الطبيعة الديمقراطية للحزب البلشفي، الذي كان يتميز دائما بنقاشات حرة أعدته للعمل الثوري. كانت تلك الديمقراطية الداخلية ضرورية للغاية لكي يتعلم الحزب من أخطائه. إن الفكرة التي تدعي أن الحزب البلشفي تطور من خلال مسيرة مستمرة دون أخطاء، حتى الاستيلاء على السلطة، هي أسطورة ستالينية لا يمكن لأحد أن يتعلم منها أي شيء.

وحقيقة أن كتب تروتسكي صارت معروضة للبيع مرة أخرى في كوبا، كانت إشارة واضحة إلى أن في الجزيرة تعطشا كبيرا للأفكار الماركسية الحقيقية. يجب أن تتم استعادة تلك التقاليد للجيل الجديد من المناضلين الثوريين الناشئين، ولا سيما في أمريكا اللاتينية. بهذا المعنى يعتبر كتاب ”البلشفية“ ليس مجرد كتاب عن التاريخ، بقدر ما هو أداة لبناء الحزب الثوري اليوم. وكما أشرت: «إن الحزب الثوري هو أولا وقبل كل شيء الأفكار وأساليب العمل والتقاليد، والذاكرة التاريخية للطبقة العاملة، وبعد ذلك فقط هو جهاز لوضعها قيد التطبيق».

كان هناك مشروع لنشر كتاب ”البلشفية“ في كوبا، لكني لا أعرف ما إذا كان قد تحقق بالفعل أم لا.

### كتاب تروتسكي عن ستالين

كان الحزب البلشفي أكثر الأحزاب ثورية في التاريخ. لكن حتى أكثر الأحزاب ثورية لديه جانبه المحافظ. تتطور هذه النزعة المحافظة نتيجة لسنوات من العمل الروتيني، وهو أمر ضروري للغاية، لكنه يمكن أن يؤدي إلى نمو بعض العادات والتقاليد التي قد تصير، خلال الوضع الثوري، مثل فرامل، إذا لم تتمكن القيادة من التغلب عليها. في اللحظة الحاسمة، عندما يتطلب الوضع تغييرا حادا في توجه الحزب، تغييرا من العمل الروتيني إلى الاستيلاء على السلطة، يمكن أن تتعارض العادات القديمة مع احتياجات الوضع الجديد. وفي هذا السياق بالتحديد حيث يصير دور القيادة حاسما.

ربما يكون الإصدار الأخير للنسخة الكاملة للسيرة الضخمة التي كتبها تروتسكي عن ستالين، إضافة إلى أعمال لينين الكاملة، أفضل مصدر لدراسة تاريخ الحزب البلشفي. لسوء الحظ لم يكتمل ذلك العمل بسبب اغتيال تروتسكي في غشت 1940. واستمر على مدى 75 عاما الماضية متوفرا فقط في تلك النسخة المختصرة والمشوهة بشدة من طرف تشارلز مالموث.

عمل فريق صغير متفان، لمدة عشر سنوات، لإعادة تجميع المواد المفقودة بهدف جعل أكبر قدر ممكن من كتاب تروتسكي متاحا لعامة القراء. وقد كان لي شرف وامتيار تحرير ذلك العمل، الذي نُشر أخيرا (باللغة الإنجليزية) في عام 2016، وتتم ترجمته الآن إلى الإسبانية والبرتغالية والإيطالية واليونانية والفرنسية والألمانية والأردية ولغات أخرى.

لقد شكل كتاب تروتسكي عن ستالين، حتى في نسخته السابقة غير المكتملة والمشوهة، مصدرا لا يقدر بثمن لأي شخص مهتم بتاريخ البلشفية، وقد استفدت منه كثيرا في تأليف كتابي هذا. لكنه بالإصدار الجديد المزيد بشكل كبير، كنز حقيقي لتاريخ وأفكار الحركة الثورية الروسية خلال النصف الأول من القرن العشرين.

في ذلك الكتاب كتب تروتسكي ما يلي:

«يصل الصراع بين الطبقات إلى نقطة تنشأ فيها توترات مستعصية. هذا هو الشرط الاقتصادي المسبق للثورة. وعلى أساس هذا الواقع الموضوعي، لابد أن تنشأ إعادة تجميع معينة، يتم التعبير عنها في علاقات سياسية معينة وحالات معينة من الوعي في العلاقة بين الطبقات. لهذه السيرورات طابع سيكولوجي. إنها، في التحليل الأخير، محكومة بالطبع بالأزمة الاجتماعية الموضوعية،

لكن لديها منطقتها وديناميتها الداخلية الخاصة: قوة الإرادة، والرغبة في النضال، أو، على العكس من ذلك، الارتباك والانحطاط والجنون. إن دينامية الوعي هذه بالضبط هي التي تحدد بشكل مباشر مسار الثورة ونتيجتها.

إن ما يميز حقبة المد الثوري هو، من ناحية، تزايد التناقضات والعداوات والارتباك بين صفوف الطبقات الحاكمة القديمة، في حين يكون هناك، من ناحية أخرى، تضامن متزايد بين صفوف الطبقة الثورية الرئيسية، التي تتجمع حولها جميع الطبقات المضطهدة على أمل تحسين أوضاعها. وأخيرا الطبقات والشرائح الوسطى التي تظل محايدة أو يتم امتصاصها في دوامة الأحداث إلى جانب هذه الطبقة الرئيسية أو تلك.

يمكن للثورة أن تنتصر عندما تتمكن الطبقة الثورية من كسب أغلبية الفئات الوسطى، وبذلك تصبح المتحدث باسم غالبية الأمة. يمكن للمرء خلال الحقبة الثورية أن يميز الشعارات التي يجري في ظلها النضال ويميز الطبقة الثورية التي تناضل من أجل السلطة. تصبح الثورة ممكنة عندما تتمكن طليعة البروليتاريا، المنظمة في حزب، من أن تجذب الغالبية العظمى من الطبقة العاملة لتقف وراءها، وتعزل العناصر المسحوقة والمحبطة وتحولهم إلى هباء.

يتوافق المستوى العالي لتضامن الطبقة الثورية مع الانقسام والانشقاقات الداخلية في صفوف الطبقات القديمة. لكن الطبقات ليست متجانسة، سواء اجتماعيا أو أيديولوجيا. فداخل البروليتاريا، من الممكن دائما التمييز بين طليعتها وبين الفئات الوسيطة والمتوسطة، وأخيرا الفئات المتخلفة، بل وحتى الرجعية. وبمجرد أن تتحد البروليتاريا في أغليتها حول الطليعة الثورية، تكتسح قسما كبيرا من الطبقات الوسيطة والمشوشة والمضطهدة والفئات الدنيا من البرجوازية الصغيرة، وتعمل على تحييد الشرائح الأخرى، ويدفع هجومها إلى تآزيم الطبقة السائدة التي استنفذت فرص بقائها. تكسر مقاومة الجيش وتكسب جزءا كبيرا منه إلى جانبها وتعمل على دفع البقية إلى لزوم الحياد، وتعزل أكثر العناصر رجعية. هذه، بشكل عام، هي صيغة الثورة البروليتارية<sup>1</sup>.  
في هذه الفترات القليلة الموجزة، يلخص تروتسكي ببراءة الدور الحقيقي للحزب الثوري.

## الدور الحاسم للحزب

كان العامل الحاسم في نجاح ثورة أكتوبر هو بلا شك وجود حزب ماركسي: الحزب البلشفي بقيادة لينين وتروتسكي. لكن هذا الحزب لم يسقط من السماء، كما لم يتم ارتجاله في اللحظة الثورية. لقد تم بناؤه بصعوبة كبيرة على مدى عشرين عاما، معظمها في ظل ظروف العمل السري القاسية.

من المستحيل العثور في كل تاريخ الأحزاب السياسية على مثال لحزب نما في فترة قصيرة، تقدر بعشرين عاما، من مجموعة صغيرة جدا إلى حزب جماهيري قوي قادر على قيادة ملايين العمال والفلاحين إلى حسم السلطة. وتعتبر غايتي الأولى من وراء تأليف هذا الكتاب هي تقديم سرد دقيق لتاريخ البلشفية بكل إخفاقاته ونجاحاته وهزائمه وانتصاراته.

يعتبر هذا ترياقا ضروريا ضد التاريخ الستاليني الذي يصور صعود الحزب البلشفي كمسيرة ظافرة، كسيرورة تلقائية كان من الحتمي أن تنتهي بالنصر. ليست لتلك الرواية الميكانيكية الميتة أية علاقة بالتاريخ، بل هي أشبه بالقصص الخرافية بأبطالها الطاهرين وأشرارها السيئين. في الوقت الحاضر لم يعد أحد يأخذ تلك الكتب على محمل الجد، بل يتم التعامل معها بسخرية. ومع ذلك فإنني لم أؤلف هذا الكتاب ليكون مجرد تاريخ آخر، مجرد شيء ذا أهمية أكاديمية فقط تتم قراءته من أجل إشباع الفضول أو التسلية. لقد كان هدي من تأليفه هو تزويد الجيل الجديد من المناضلين العماليين بالمعلومات الضرورية حول كيفية بناء حزب ثوري حقيقي. وبعبارة أخرى، فإن هذا الكتاب ليس هدفه أن يكون تذكارا للماضي، بل أن يشكل دليلا ومرشدا للثوريين في الحاضر والمستقبل.

هل نجحت في هذا الهدف؟ سأقتبس فقرة واحدة فقط من دراسة نقدية إيجابية للغاية صدرت في مجلة "التاريخ الثوري" التي تحظى باحترام كبير، حيث قالت:

1: Trotsky, *Stalin, The Thermidorian reaction*, pp. 651-2, the new English edition

«أيا كان رأي القارئ في دفاع المؤلف عن النموذج الكلاسيكي للحزب اللينيني، فإنه سيكون من الظلم عدم الاعتراف بالسلطة التي يمتلكها هذا الكتاب. يحتوي تاريخ الحزب البلشفي على دروس قيمة للكفاح من أجل الاشتراكية اليوم، وقد قام آلان وودز بخدمة جليلة من خلال جعل هذا التاريخ في متناول جيل جديد من المناضلين».

وخلاصة القول: إن البلشفية ليست تاريخاً مضى، بل هي مستقبل البشرية، إنها طريق الثورة.

آلان وودز، لندن، 07 شتنبر 2017



### 1) بخصوص الأوزان والمقاييس الروسية:

ديسياتين واحد يساوي: 2,70 فدان (1,09 هكتار)

فرست واحد يساوي: 1,067 كيلومتر

بود واحد يساوي: 16,38 كيلوغرام

### 2) بخصوص التقويم الروسي:

حتى قيام الثورة كان التقويم الروسي (التقويم اليولياني) مختلفا عن ذلك المستخدم في الغرب (التقويم الغريغوري). وقد أنتج هذا اختلافا بين التقويمين كان يبلغ 12 يوما في القرن 19 و13 يوما في القرن 20. قام البلاشفة بتحديث التقويم، إلى جانب أشياء أخرى كثيرة. وبالتالي فإن التاريخ للأحداث التي وقعت قبل 1918 يطرح بعض الصعوبات. فالاختيار إجراء تعسفي تماما وكل كاتب يستخدم هذا النظام أو ذاك. لكن أيا كانت الحالات الشاذة، فإنه يبدو لي من غير المرغوب الإشارة إلى ثورة نوفمبر بثورة مارس ومذبحة 21 يناير! وبشكل عام فضلت أن أحافظ على النمط القديم، لكن يمكن في بعض الأحيان تقديم كلا التاريخين. للانتقال إلى نظام التقويم الحديث يجب إضافة 13 يوما؛ ن. ت. ق = نظام التقويم القديم؛ ن. ت. ح = نظام التقويم الجديد.

### 3) بخصوص الإملاء:

تحتوي الأبجدية الروسية (السيريلية) على عدة أحرف لا وجود لها في الأبجدية الغربية (اللاتينية) [ولا العربية -م-]. وعلاوة على ذلك، لا يوجد نظام مقبول عالميا لنسخ حروفها. وحيثما كانت بعض طرق النسخ شائعة فإني احتفظت بها. الأسماء التي تتكرر كثيرا نكتبها بالإنجليزية [بالعربية في النص الحالي -م-] (القيصر نيكولا مثلا). لكن ما عدا ذلك حاولت أن أحافظ قدر الإمكان على قواعد الإملاء الروسي.

### 4) معجم موجز:

**القوزاق:** فئة خاصة ذات تقاليد عسكرية (لكن أيضا طائفية ديمقراطية) قوية. كانت تستخدم من قبل النظام القيصري كقوات مساعدة للشرطة لقمع الإضرابات والمظاهرات. وعلى الرغم من أنهم يعتبرون أنفسهم قومية منفصلة، فإن القوزاق هم في الحقيقة روس وأوكرانيون، أحفاد الأقتان الهاربين الذين شيدوا بيوتهم في المناطق الحدودية البرية لروسيا الجنوبية والشرقية حيث كانوا في كثير من الأحيان في حالة حرب مع أعداء روسيا والبولنديين والأتراك.

**يونكيرز (Junkers):** اسم (من أصل ألماني) أطلق في عهد القيصرية على الطلاب الضباط في المدارس العسكرية.

**الكولاك:** الفلاح الغني. وتعني الكلمة حرفيا "القبضة"، ربما في إشارة ساخرة إلى بخل هذه الفئة.

**الموجيك:** الاسم الروسي للفلاح. ويستخدم أحيانا بالعامية بمعنى "رجل".

**أوخرانا:** الاسم المختصر للأوخرانوي أوتديليينيني، أو شعبة الأمن. كان جهاز الشرطة السرية القيصرية، تأسس في عام 1881، وكان يدير شبكة واسعة من الجواسيس والمخبرين والعملاء الاستفزازيين الذين تسللوا إلى الحركة الثورية، والذين امتدت رقعة عملياتهم إلى العديد من البلدان.

**المذبحة (Pogrom):** هجوم بدافع عنصري يعمل خلاله الغوغاء، المنظمين عادة والموجهين من طرف البوليس، على مهاجمة الأقليات. وكان الضحايا في معظم الأحيان من اليهود، لكن شملت أيضا أقليات أخرى مثل الأرمن في أذربيجان.

**الكاديت (مكتوبة أحيانا كاديتس):** اختصار للحزب الدستوري الديمقراطي، الذي كان الحزب الرئيسي للبرجوازية الليبرالية في روسيا، والذي نشأ عن الرابطة الليبرالية (أوسفوبوجديني بالروسية).

الاشتراكيون الثوريون: حزب برجوازي صغير، ينحدر من الحركة النارودنية، والذي دعى إلى نوع من "الاشتراكية الفلاحية". انقسم عام 1917 إلى جناح يميني وآخر يساري. دعم اليساريون ثورة أكتوبر ودخلوا لفترة من الزمن في حكومة ائتلافية مع البلاشفة.

**السوفييتات:** من كلمة روسية تعني المشورة أو المجلس. كانت السوفييتات مجالس عمالية منتخبة ديمقراطياً تتألف من مندوبين من أماكن العمل. ظهرت لأول مرة خلال ثورة 1905 كأجهزة للنضال أو لجان إضراب موسعة. حلت خلال فترة الردة الرجعية بعد هزيمة ثورة 1905، وعادت للظهور في فبراير 1917، وبعد أكتوبر 1917 تم تحويلها إلى أجهزة للسلطة وشكلت أساس النظام السوفييتي، النظام المباشر والأكثر ديمقراطية للسلطة الشعبية في التاريخ. في ظل ظروف التخلف المدقع وعزلة الثورة في روسيا، فقدت السوفييتات في نهاية المطاف السلطة خلال فترة الردة الستالينية ضد أكتوبر. وعلى الرغم من أن السلطة كانت اسمياً في أيدي السوفييتات العمالية، ففي عام 1930 صار ذلك مجرد خيال. آلت السلطة إلى أيدي فئة بيروقراطية ذات امتيازات. وفي عام 1936، طرح ستالين دستوراً جديداً صفى رسمياً السلطة السوفييتية، واستبدل الديمقراطية السوفييتية بصورة كاريكاتورية للديمقراطية البرلمانية البرجوازية، والذي كان يسمح للشعب بالتصويت لصالح حزب واحد كان "يفوز" دائماً بـ 99% من الأصوات. وعلى الرغم من أن البلاد كانت ما تزال تسمى "الاتحاد السوفييتي"، فإنه لم يكن لها أي قاسم مشترك على الإطلاق مع نظام الديمقراطية السوفييتية الذي وضعه لينين وتروتسكي في عام 1917.

**الدوما:** كلمة روسية قديمة تشبه في مضمونها تقريباً معنى السوفييت، أي المجلس. وخلال عهد نيكولا الثاني كان مجلس الدوما هو الاسم الذي يطلق على البرلمان الروسي. كانت هناك أيضاً مجالس دوما محلية، تعادل المجالس المحلية.

**زيمستفو (الجمع الروسي لاسم زيمستفا):** وهي الأجهزة المحلية شبه الرسمية للحكم الذاتي. فبعد فترة وجيزة من تحرير العبيد، حاول الكسندر الثاني تخفيف غلواء النظام الاستبدادي، والسماح بقدر من الحكم الذاتي المحلي من خلال إنشاء مجالس زيمستفو، وخاصة في محافظات وسط روسيا. في الواقع، كانت التجربة "الديمقراطية" محدودة للغاية. لم تكن هناك أية مجالس زيمستفو في غرب روسيا وبولندا ودول البلطيق ومناطق القوزاق وسيبيريا وآسيا الوسطى وتركستان. كانت السيطرة على مجالس زيمستفو في أيدي النبلاء في الريف. لم تكن لديها أية صلاحيات تقريباً وكانت تعتمد على أهواء الحاكم المحلي، الذي كان يعين من قبل الحكومة المركزية. في الواقع، كانت اختصاصاتها تقتصر على الشؤون المحلية: الطرق والمدارس والصحة العامة والإغاثة في زمن المجاعة، الخ. كانت الزيمستفو النقطة المحورية للمعارضة الليبرالية المعتدلة.

**زيمسكي سوبور:** اسم أطلق في القرن 19 على برلمان منتخب ديمقراطياً، أي ما يعادل تقريباً الجمعية التأسيسية.



## ميلاد الحركة الماركسية الروسية

### مقتل حاكم أوتوقراطي

في الأول من مارس سنة 1881 كانت عربة القيصر ألكسندر الثاني تسير على طول قناة كاترين في سانت بيترسبورغ، عندما فجأة، ألقى عليها شاب ما يشبه كرة الثلج. أخطأت القذيفة هدفها، فترجل القيصر، الذي لم يكن قد أصيب بأذى، للتحدث إلى بعض القوزاق الجرحى. في تلك اللحظة، اندفع إرهابي ثان، غرينيفيتسكي، إلى الأمام، قال: "من السابق لأوانه أن تشكر الله"، وألقى قبلة أخرى تحت قدمي القيصر. وبعد ساعة ونصف على ذلك، توفي إمبراطور روسيا العظمى. شكل هذا العمل تتويجا لواحدة من أبرز الفترات في التاريخ الثوري، فترة واجهت خلالها حفنة من الشباب والشابات المخلصين والأبطال كل قوة الدولة القيصرية الروسية. لكن نجاح الإرهابيين في تصفية الوجه الأبرز للاستبداد الممقوت، شكل في نفس الآن ضربة مميتة لما كان يسمى بحزب إرادة الشعب الذي نظم ذلك الهجوم.

كانت ظاهرة الناردونيك الروسية ("الشعبيون"، رجال الشعب) نتاجا للتخلف الشديد للرأسمالية الروسية. فقد سار اضمحلال المجتمع الإقطاعي بوتيرة أسرع من وتيرة تشكل البرجوازية. وفي ظل هذه الظروف، عملت قطاعات من المثقفين، وخاصة الشباب، على القطع مع النبلاء والبروقراطية ورجال الدين وبدأوا في البحث عن وسيلة للخروج من ذلك المأزق الاجتماعي. لكنهم عندما نظروا حولهم بحثا عن قاعدة دعم داخل المجتمع، لم تجذبهم البرجوازية الضعيفة والرجعية والمتخلفة، ولا الطبقة العاملة التي كانت ما تزال في مهدها، غير منظمة وأمية سياسيا وضيئلة عدديا، لا سيما بالمقارنة مع ملايين الفلاحين الذين كانوا يشكلون الأغلبية المضطهدة والمسحوقة داخل المجتمع الروسي.

ولذلك كان من المفهوم أن ينظر المثقفون الثوريون إلى "الشعب"، في شخص الفلاحين، باعتباره القوة الثورية المحتملة الرئيسية داخل المجتمع. وتجد هذه الحركة جذورها في نقطة التحول الكبرى في التاريخ الروسي سنة 1861. تحرير الأفتان الذي تحقق في ذلك العام، لم يكن بأي حال من الأحوال، نتيجة للرغبة الخيرة المستنيرة لألكسندر الثاني، مثلما يزعم الكثيرون. لقد جاءت نتيجة الخوف من حدوث انفجار اجتماعي بعد الهزيمة المدللة التي تعرضت لها روسيا في حرب القرم الكارثية 1853 - 1856، والتي عملت، مثلها مثل الحرب اللاحقة مع اليابان، على فضح ضعف النظام القيصري. لم تكن تلك هي المرة الأولى، ولا المرة الأخيرة، التي كشفت فيها الهزيمة العسكرية إفلاس الاستبداد، وقدمت دفعة قوية لحركة التغيير الاجتماعي. لكن مرسوم تحرير الأفتان لم يحل أيا من المشاكل المطروحة، بل جعل حياة جماهير الفلاحين أسوأ بكثير. فقد استولى الملاكون الكبار بطبيعة الحال على أفضل قطع الأراضي، وتركوا المناطق الجرداء للفلاحين. وكانت النقاط الاستراتيجية مثل المياه والمطاحن عادة في أيدي الملاكين الكبار الذين أجبروا الفلاحين على دفع ثمن الوصول إليها. والأسوأ من ذلك هو أن الفلاحين "الأحرار" كانوا مرتبطين بقوة القانون بالبلدية، أو المير (mir)، التي كانت عليها مسؤولية جماعية في جمع الضرائب. لم يكن مسموحا لأي فلاح أن يغادر المير دون إذن. وقد أعيقت حرية الحركة بواسطة نظام جوازات السفر الداخلية. تحولت البلدية، في الواقع، إلى "الحلقة الأدنى في حلقات النظام البوليسي المحلي".<sup>1</sup>

ولجعل الأمور أسوأ، سمح الإصلاح للملاكين الكبار باقتطاع وامتلاك خمس (وفي بعض الحالات خمسي 2/5) الأراضي التي كان الفلاحون يزرعونها سابقا. وقد اختاروا دائما أفضل الأجزاء وأكثرها إنتاجية - الغابات والمروج والمناطق المسقية والمراعي والطواحين، وما إلى ذلك - مما أعطاهم السيطرة المطلقة على الفلاحين "الأحرار". وعاما بعد عام غرقت أعداد أكبر من الأسر الفلاحية بشكل ميؤوس منه في الديون والفقر نتيجة لهذا الاحتيال.

كان تحرير الأفتان محاولة للقيام بالإصلاح من فوق لمنع اندلاع الثورة من تحت. ومثله مثل كل الإصلاحات الهامة، كان نتيجة

1: Bernard Pares, A History of Russia, p: 404.

للحراك الثوري. كان الريف الروسي يغلي بانتفاضات الفلاحين. وفي العقد الأخير من عهد نيقولا الأول، كانت هناك 400 انتفاضة للفلاحين، وعدد مماثل في السنوات الست التالية (1855-1860). وفي غضون 20 سنة، ما بين 1835 و1854، تعرض 230 من الملاكين العقاريين والجبابة للقتل، إضافة إلى 53 آخرين في السنوات الثلاث السابقة لعام 1861. وقد استقبل إعلان التحرير بموجة أخرى من الاضطرابات والانتفاضات التي تعرضت لقمع وحشي. وتعرضت الآمال التي خلقها جيل كامل من المفكرين التقدميين حول أفكار الإصلاح، لخيانة قاسية على يد نتائج التحرير، والذي تحول إلى مجرد عملية احتيالية ضخمة. الفلاحون، الذين اعتقدوا أن الأرض صارت ملكا لهم، تعرضوا لكل أنواع الخداع. كان عليهم أن يقبلوا فقط بتلك المخصصات المنصوص عليها في القانون (بالاتفاق مع المالك) وكان عليهم أن يدفعوا رسوم الاسترداد على مدى 49 عاما بفائدة 6%. ونتيجة لذلك، احتفظ الملاكون العقاريون بحوالي 71.500.000 ديسياتين من الأرض، بينما حصل الفلاحون، الذين يمثلون الأغلبية الساحقة في المجتمع، على 33.700.000 ديسياتين فقط.

في السنوات التي تلت عام 1861، قام الفلاحون، الذين كبلتهم التشريعات القمعية و"القطع الأرضية الهزيلة" والذين سحقهم ثقل الديون، بتنظيم سلسلة من الانتفاضات المحلية اليائسة. لكن الفلاحين كانوا دائما، على مر التاريخ، غير قادرين على لعب دور مستقل في المجتمع. يعطون الدليل على الشجاعة الثورية العظيمة والتضحية، لكن جهودهم للتخلص من حكم مضطهدهم لا تنجح إلا إذا قادت حركتهم الثورية طبقة أكثر قوة وتجانسا ووعيا من المدن. في غياب هذا العامل تعرضت انتفاضات الفلاحين "jacqueries"<sup>1</sup> [بالفرنسية في الأصل] خلال العصور الوسطى وما بعدها، بشكل حتمي لأقصى الهزائم، وهو ما يعتبر نتيجة لتشتت الفلاحين بطبيعتهم وافتقارهم إلى التماسك الاجتماعي وعدم وجود وعي طبقي لديهم.

في روسيا، حيث كانت أشكال الإنتاج الرأسمالية ما تزال في مرحلتها الجنينية، لم تكن توجد أية طبقة ثورية في المدن. إلا أن طبقة، أو بدقة أكبر فئة من الطلاب والمثقفين الفقيرين في أغليبتهم، الرازنوشينتسي (Raznochintsy) أو "البروليتاريا الفكرية"، أثبتت حساسية كبيرة لمزاج السخط المتراكم في أعماق الحياة الروسية. بعد سنوات أعلن الإرهابي ميشكين في محاكمته أن "حركة المثقفين لم تخلق بشكل مصطنع، بل هي صدى الاضطرابات الشعبية"<sup>2</sup>. وكما هو الحال دائما، لم تكن قدرة المثقفين على لعب دور اجتماعي مستقل أكبر من قدرة الفلاحين. ومع ذلك فإنه يمكنها أن تكون بمثابة مقياس دقيق للأمزجة والتوترات المتصاعدة داخل المجتمع.

في عام 1861، وهو ذاته عام تحرير الفلاحين، كتب الكاتب الروسي الديمقراطي العظيم ألكسندر هيرزن، من منفاه في لندن، على صفحات جريدته Kolokol (الجرس) يحث الشباب الروسي على الذهاب إلى "الشعب"! وقد جاء اعتقال كتاب بارزين مثل تشيرنيشيفسكي (الذي تأثرت كتاباته بماركس والذي كان له تأثير كبير على لينين وجيله) وديميتري بيسارييف، ليظهر استحالة إصلاح ليبرالي سلمي. وبحلول نهاية عقد الستينات كانت أسس حركة ثورية جماهيرية من الشباب الشعبي قد وضعت.

أثارت الظروف المروعة للجماهير في روسيا، خلال مرحلة ما بعد الإصلاح، الغضب والسخط في نفوس أفضل قطاعات المثقفين. ولم يؤد إلقاء القبض على أكثر العناصر الديمقراطية راديكالية، بيسارييف وتشيرنيشيفسكي، سوى إلى تعميق غضب المثقفين ودفعهم أبعد إلى اليسار. وبينما تكيف الجيل القديم من الليبراليين مع الردة الرجعية، كان جيل جديد من الراديكاليين الشباب قد بدأ يظهر في الجامعات، جسدتهم شخصية بازاروف في رواية "الآباء والأبناء" للكاتب تورغينيف. كانت السمة المميزة لهذا الجيل الجديد هي نفاذ الصبر وكره الليبراليين، الذين تعامل معهم بازدراء. لقد آمن بحماس بأفكار الانقلاب الثوري الكامل وإعادة بناء جذري للمجتمع من أعلى إلى أسفل.

في غضون 12 شهرا من التحرير، انتقل "القيصر المصلح" نحو الردة. انطلقت حملة قمع ضد المثقفين. ووضعت الجامعات تحت الرقابة القمعية لوزير التعليم الرجعي، الكونت ديميتري تولستوي، الذي فرض نظاما تعليميا يهدف إلى سحق التفكير الحر وخنق الخيال والإبداع. اضطرت المدارس إلى تخصيص 47 ساعة في الأسبوع لتعليم اللاتينية و36 ساعة ليونانية، مع التركيز الشديد على النحو. واستبعدت العلوم الطبيعية والتاريخ من المناهج باعتبارها مواد يحتمل أن تكون هدامة، وتقوى بشكل صارم نظام الرقابة على التفكير تحت أعين مفتشي المدارس. وأفسحت أيام "الإصلاح" المفرحة الطريق لسنوات قائمة من الرقابة البوليسية والقمع. وتكرس السير نحو الردة الرجعية بعد فشل الانتفاضة البولندية عام 1863. أغرقت الثورة في الدماء: قتل آلاف البولنديين في المعركة، وشنق المئات في أعمال القمع التي تلت ذلك. وقد أعدم الكونت الوحشي مورافيويف شخصا 128 بولنديا ورحل 9423 من الرجال والنساء. وكان مجموع عدد المنفيين إلى روسيا ضعف هذا الرقم. شهد بيتر كروبوتكين، الذي صار لاحقا منظر اللاسلطوية، معاناة المنفيين البولنديين في سيبيريا، حيث كان يربط كنعيب شاب في الحرس الإمبراطوري، وكتب: «رأيت البعض [منهم] في ليننا، واقفين

1: يشير هذا المصطلح إلى الانتفاضات الفلاحية الكثيرة التي شهدتها فرنسا في أواخر العصور الوسطى. وكان لديها دائما طابع عنيف للغاية.

2: Trotsky, The Young Lenin, p: 29.

نصف عراة في كوخ، حول قدر هائل مليء بالماء المالح، يخلطون السائل الثقيل بعصي طويلة، في درجة حرارة جهنمية في حين كانت بوابة الكوخ مفتوحة على مصراعيها لإحداث تيار قوي من الهواء الجليدي. كان هؤلاء الشهداء على يقين من أنهم بعد عامين من هذا العمل سيموتون من الإرهاق»<sup>1</sup>.

لكن تحت جليد الردة الرجعية، كانت بذور نهضة ثورية جديدة تنبت بسرعة. وحالة الأمير كروبوتكين هي مثال صارخ على كيف يحرك هبوب الرياح قمم الأشجار أولاً. هذا العضو السابق في فيلق الحرس الإمبراطوري، الذي ولد لعائلة أرستقراطية، تأثر مثله مثل كثير من معاصريه، بالمعاناة الرهيبة للجماهير ودفع لكي يصل إلى استنتاجات ثورية. وباعتباره باحثاً مدققاً، وصف كروبوتكين في مذكراته بوضوح التطور السياسي لجيل كامل، سأل نفسه قائلاً: «لكن كيف يحق لي الاستمتاع بهذه المباهج الكبرى، بينما كل ما يحيط بي هو البؤس والكفاح من أجل لقمة متعفنة من الخبز؛ وبينما كل ما أنفقه لأعيش في هذا العالم من المملذات الكبرى يجب أن ينتزع من أفواه أولئك الذين يزرعون القمح والذين ليس لهم ما يكفي من الخبز لإطعام أطفالهم؟».

أظهرت القسوة الباردة تجاه البولنديين الوجه الآخر «للقيصر المصلح»، ذلك الرجل الذي، على حد تعبير كروبوتكين، «وقع بمرح المراسيم الأكثر رجعية، ثم بعد ذلك أصبح غير راض عنها»<sup>2</sup>. لقد دفع نظام الحكم الاستبدادي الفاسد والمنحط، واليد الميته للبيروقراطية، وهيمنة التصوف الديني والظلامية، كل القوى الحية في المجتمع إلى التمرد. وكتب الشاعر نيكرا سوف: «مر هو مذاق الخبز الذي صنعه العبيد». دفعت الثورة ضد العبودية بالطلاب الثوريين الشباب للبحث عن مخرج. وباستعمال عبارة هيرزن، صار شعارهم: «V Narod!» (إلى الشعب!). تركت الكلمات التي قالها هيرزن انطبعا لا يحى على هؤلاء الشباب الشجعان والمخلصين: «أذهبوا إلى الشعب... ذلك هو مكاننا... تظاهروا... لكي لا يخرج من بينكم بيروقراطيون جدد، بل جنود للشعب الروسي»<sup>3</sup>.

### «التوجه نحو الشعب»

كانت هذه الحركة، المشكلة أساساً من شباب الطبقة العليا، ساذجة ومشوشة، لكنها كانت أيضاً تتميز بالشجاعة ونكران الذات بشكل تام، وتركت وراءها إرثاً لا يقدر بثمن من أجل المستقبل. وفي نفس الوقت الذي عمل فيه لينين على انتقاد الطابع الطوباوي لبرنامجهم، وجه دائماً تحية حارة للبالسة الثورية التي اتصف بها النارودنيون الأوائل. لقد فهم أن الحركة الماركسية في روسيا قامت على ما راكمه هؤلاء الشهداء، الذين تخلوا بقناعة عن الثروة ووسائل الراحة لمواجهة الموت والسجون والمنفى للكفاح من أجل عالم أفضل. كان من المتوقع وجود الارتباك النظري في حركة كانت ما تزال في مهدها. إن غياب طبقة عاملة قوية، وعدم وجود أية تقاليد واضحة أو نموذج من الماضي ليضيء طريقهم، وليل الرقابة المظلم الذي منعهم من الوصول إلى معظم كتابات ماركس، كل هذا حرم الشباب الثوريين الروس من فرصة فهم الطبيعة الحقيقية للسيرورات التي تجري في المجتمع. كان معظم الشباب ينظرون إلى ماركس باعتباره «مجرد اقتصادي»، في حين أن عقيدة باكونين حول «التدمير الحازم»، ودعوته إلى العمل المباشر، كانت تبدو أكثر انسجاماً مع روح جيل تعب من الكلام ويتحرق شوقاً للنتائج. يتذكر بافل أكسلرود، في مذكراته، كيف أن نظريات باكونين اجتاحت عقول الشباب الراديكالي ببساطتها الشديدة<sup>4</sup>. «الشعب»، وفقاً لباكونين، كان ثورياً واشتراكياً بالفطرة، منذ العصور الوسطى، مثلما يتضح من انتفاضة بوغاشوف (Pugachov)، وحتى قطاع الطرق، الذين يشكلون نموذجاً جيداً ليقته به! كل ما هو مطلوب لإشعال ثورة شاملة، كما قال، هو أن يقوم الطلاب بالذهاب إلى القرى ويرفعوا راية الثورة. الانتفاضات المحلية ستشعل فوراً الحريق العام، وبذلك سينهار النظام القائم بأكمله.

استعاد تروتسكي في فقرة مؤثرة روح هؤلاء الرواد الشباب قائلاً: «شباب وشابات، معظمهم من الطلاب السابقين، يبلغ عددهم نحو ألف في المجموع، حملوا الدعاية الاشتراكية إلى جميع أنحاء البلاد، وخاصة في الروافد الدنيا للفلوغا، حيث يوجد إرث انتفاضتي بوغاشوف ورازين<sup>5</sup>. تميزت هذه الحركة، التي تلفت الأنظار باتساع نطاقها ومثالياتها، التي هي المهمل الحقيقي للثورة الروسية، كما

1: P. Kropotkin, *Memoirs of a Revolutionary*, vol. 1, p: 253.

2: *Ibid.*, vol. 2, pp: 20 and 25.

3: S.H. Baron, *Plekhanov. The Father of Russian Marxism*, Spanish edition, p: 21.

4: P. Axelrod, *Perezhitoe i Peredummanoe*, pp: 111-112.

5: إميليان بوغاشوف، قائد من القوزاق، قاد انتفاضة كبيرة للقوزاق والأقنان ضد طبقة النبلاء في عام 1773، في عهد كاترين العظمى. حقق التمرد في البداية النجاح، مع مصادرة الكثير من الأراضي والاستيلاء على سلسلة من الحصون الإمبراطورية. استولى المتمردون على كازان وكان في إمكانهم الاستيلاء على موسكو، لكن وعلى الرغم من اندلاع الانتفاضات في عدد من المدن، فقد أثبت تمرد الفلاحين أنه غير قادر على ربط الأواصر مع الجماهير

هي طبيعة المهدي، بالسذاجة الشديدة. لم تكن عند الدعاة لا منظمة قائدة ولا برنامج واضح. لم تكن لديهم أية خبرة تآمرية. ولماذا ينبغي أن تكون لديهم؟ فهؤلاء الشباب، بعد أن قطعوا مع أسرهم ومدارسهم، وبدون عمل ولا علاقات شخصية أو التزامات، ودون خوف من السلطات الأرضية أو السماوية، اعتبروا أنفسهم التجسيد الحي للانتفاضة الشعبية. الدستور؟ البرلمانية؟ الحرية السياسية؟ كلا، إنهم لن ينحرفوا عن طريقهم بهذه الخدع الغربية. إن ما يريدونه كان هو الثورة الكاملة، من دون انتقاص أو مراحل وسيطة»<sup>1</sup>.

في صيف عام 1874، ذهب المئات من الشباب، المنحدرين من الطبقة العليا أو الوسطى، إلى القرى وهم يحترقون بفكرة تحريض الفلاحين على الثورة. بافل أكسلرود، الذي صار لاحقا أحد مؤسسي الحركة الماركسية الروسية، يتذكر القطيعة الجذرية التي قام بها هؤلاء الثوار الشباب مع طبقتهم قائلا: «كان على كل من يرغب في العمل من أجل الشعب التخلي عن الجامعة ونبذ وضعه المتميز وأسرته، ويدير ظهره حتى للعلم والفن. كان عليهم قطع جميع الأواصر التي تربطهم بالطبقات الاجتماعية العليا، وحرق الجسور وراءهم. وبكلمة واحدة: كان عليهم أن ينسوا طوعا أي طريق ممكن للتراجع. كان على الداعية، إذا جاز التعبير، إحداث التحول الكامل لجوهره الداخلي، حتى يشعر بأنه واحد من الطبقات الدنيا من الشعب، ليس فكريا فقط، بل في سلوكه اليومي المعتاد أيضا»<sup>2</sup>.

لم يكن لهؤلاء الشبان والشابات الشجعان أي برنامج محدد، ما عدا العثور على طريق إلى «الشعب». وهم يرتدون ملابس عمل قديمة اشتروها من محلات الملابس المستعملة في الأسواق، ويحملون جوازات سفر مزورة، كانوا يسافرون إلى القرى على أمل تعلم حرفة تمكنهم من العيش والعمل دون أن يتم كشفهم. لم يكن ارتداء ملابس الفلاحين حركة مسرحية كما قد يبدو لأول وهلة. يشير كروبتكين إلى أن: «الفجوة بين الفلاحين وبين المثقفين كبيرة في روسيا، والاتصال بينهم أمر نادر الحدوث بحيث أن مجرد ظهور رجل يلبس ثوب المدينة في القرية كاف ليوقظ الفضول العام؛ لكن حتى في المدينة، إذا كان شخص يظهر من كلامه ولباسه أنه ليس عاملا ووجد وهو يتحدث إلى العمال فسيثير ذلك شكوك الشرطة فورا»<sup>3</sup>.

للأسف، تأسست هذه الروح الثورية المثيرة للإعجاب على نظريات خاطئة من حيث الجوهر. كانت الفكرة الصوفية القائلة بوجود «طريق خاص نحو الاشتراكية لروسيا»، التي يمكنها أن تقفز بطريقة ما من البربرية الإقطاعية إلى مجتمع لا طبقي، وتخطي مرحلة الرأسمالية، مصدر سلسلة لا تنتهي من الأخطاء والمآسي. النظرية الخاطئة تؤدي حتما إلى الكارثة في الممارسة العملية. كان النارودنيون مدفوعين بالارادوية الثورية، أي بالفكرة القائلة بأنه يمكن تحقيق الثورة بفضل الإرادة والعزيمة الحديدية لمجموعة صغيرة من الرجال والنساء المخلصين. إن العامل الذاتي<sup>4</sup>، بالطبع، حاسم في تاريخ البشرية. وقد أوضح كارل ماركس أن الرجال والنساء يصنعون تاريخهم، لكنه أضاف أنهم لا يصنعونه خارج سياق العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة بشكل مستقل عن إرادتهم.

محاولات المنظرين النارودنيين لإيجاد «مسار تاريخي خاص» لروسيا، مختلف عن مسار أوروبا الغربية، قادهم حتما إلى طريق المثالية الفلسفية والنظرة الصوفية إلى الفلاحين. الارتباك النظري لباكونين، الذي كان انعكاسا للعلاقات الطبقيّة المتخلفة جدا وغير المكتملة في روسيا، وجد جمهورا جاهزا بين صفوف النارودنيين، الذين كانوا يبحثون عن تبرير إيديولوجي لتطلعاتهم الثورية الغامضة.

من خلال قلبه للواقع رأسا على عقب، صور باكونين المير (mir) - أي الوحدة الأساسية للنظام القيصري في القرية، كعدو للدولة. كل ما كان ضروريا هو ذهاب الثوار إلى القرية وإيقاظ الفلاحين الروس «الثوريين بالغريزة» للنضال ضد الدولة، وهكذا تكون المشكلة قد حلت دون اللجوء إلى «السياسة» أو أي شكل من أشكال التنظيم الحزبي. المهمة ليست النضال من أجل المطالب

الحضرية في النضال ضد العدو المشترك: طبقة النبلاء والحكم الأوتوقراطي. ورغم أن المتمردين أعلنوا إلغاء القنانة، فإنهم افتقروا إلى برنامج سياسي متماسك قادر على خلق حركة ثورية جماهيرية واسعة. نقطة الضعف القائلة هذه، بالإضافة إلى الميولات المحلية وانعدام التنظيم والانضباط، قوضت في نهاية المطاف الثورة. فتفكك التمرد وأعدم بوغاشوف في موسكو في يناير 1775.

ستيبان رازين، وهو متمرد قوزاقي آخر، أبحر حتى نهر الفولغا على رأس أسطول قراصنة في 1670 داعيا الفلاحين إلى الانتفاضة. لكن بعد تعرضه للخيانة من طرف قائد قوزاقي، ألقى القبض عليه وأرسل إلى موسكو حيث تم إعدامه في 06 يونيو 1671.

1: Trotsky, The Young Lenin, p: 28.

2: From Axelrod, The Working Class and the Revolutionary Movement in Russia, quoted in Baron, Plekhanov, p: 25.

3: Kropotkin, op. cit. vol. 2, p: 119.

4: يقصد الماركسيون بـ «العامل الذاتي» العامل الواعي في التاريخ، أي نشاط الرجال والنساء لتغيير حياتهم ومصائرهم، في مقابل الظروف الموضوعية، التي يخلقها التطور الاجتماعي، والتي توفر الأساس لمثل تلك النشاطات. إنه يعني بدقة أكبر دور الحزب الثوري والقيادة الثورية في النضال من أجل التغيير الاشتراكي للمجتمع.

الديمقراطية (بما أن الديمقراطية تمثل، هي أيضا، شكلا من أشكال الدولة، وبالتالي تعبيرا آخر عن الاستبداد) بل تحطيم الدولة "بشكل عام" واستبدالها باتحاد طوعي للمجتمعات المحلية، على أساس المير، بعد تطهيره من سماته الرجعية.

لقد اتضحت العناصر المتناقضة المكونة لهذه النظرية سريعا عندما حاول الشباب النارودنيون وضعها موضع التطبيق. فقد استقبلت النضال الثورية للطلاب بالشك، أو حتى العداء الصريح، من قبل الفلاحين الذين سلموا في كثير من الأحيان القادمين الجدد إلى السلطات.

وصف جيليايوف، أحد القادة المستقبليين لحزب نارودنايا فوليا (إرادة الشعب)، بشكل واضح جهود الشباب النارودنيين اليائسة لكسب الفلاحين قائلا: "مثل سمك يضرب رأسه في الجليد".<sup>1</sup> على الرغم من ظروف الظلم والاستغلال الرهيبة فإن الفلاح الروسي، الذي كان يعتقد أن "الجسد ملك للقيصر، والروح ملك لله والظهر ملك للإقطاعي" أثبت أنه محصن ضد الأفكار الثورية للنارودنيين. ويتردد صدى صدمة وخيبة أمل المثقفين في ما قاله أحد المشاركين في الحركة: «لقد كنا مؤمنين بشكل أعمى باقتراب الثورة إلى درجة أننا لم نلاحظ أن الفلاحين لم يكونوا يمتلكون الروح الثورية التي أردناهم أن يمتلكوها. لكننا لاحظنا أنهم جميعا يريدون أن يتم تقسيم الأرض بينهم. كانوا يتوقعون أن الإمبراطور سيعطي الأمر وسيتم تقسيم الأرض... معظمهم كانوا يتصورون أنه كان سيقوم بذلك قبل فترة طويلة لو لم يتم منعه من قبل كبار ملاك الأراضي والمسؤولين، الذين يمثلون الأعداء الألداء للإمبراطور وللفلاحين على حد سواء».

في كثير من الأحيان كان للمحاولة الساذجة للظهور بمظهر الفلاحين جانب تراجيدي-كوميدي، كما يتذكر ديبوغوري موكريفيش، الذي كان أحد المشاركين في الحركة: «لم يكن الفلاحون يسمحون لنا بالمبيت عندهم ليلا: إذ من الواضح تماما أنهم لم يكونوا يحبون ملابسنا القذرة الممزقة الخشنة. كان هذا آخر ما كنا نتوقعه عندما ارتدينا في البداية على شاكلة العمال».<sup>2</sup>

تحطمت معنويات النارودنيين، الذين كانوا ينامون في العراء وهم يعانون الجوع والبرد والتعب، وأقدامهم تنزف بسبب المسافات الطويلة التي كانوا يمشونها بأحذية رخيصة، أمام الجدار الصلب للامبالاة الفلاحين. وتدرجيا، وبشكل حتمي، عاد هؤلاء الذين لم يعتقلوا إلى الورا، محيطين ومستنزفين، إلى المدن. تحطمت حركة "الذهاب إلى الشعب" بسرعة بسبب موجة من الاعتقالات، حيث اعتقل أكثر من 700 عضو في عام 1874 وحده. لقد كانت هزيمة مكلفة. لكن خطب التحدي الحماسية والبطولية التي القى بها الثوار المعتقلون، في قفص الاتهام، عملت على تأجيج حركة جديدة انطلقت على الفور تقريبا.

كان النارودنيون يقسمون بـ "الشعب" في كل جملة. لكنهم بقوا معزولين تماما عن الجماهير الفلاحية التي كانوا يجدونها. في الواقع تركزت الحركة برمتها في أيدي المثقفين. كتب تروتسكي قائلا: «لم تكن عبادة النارودنيين للفلاحين وكومونتهم سوى صورة طبق الأصل للدعاءات المتكلفة حول "البروليتاريا الفكرية" بكونها صاحبة الدور الرئيس، إن لم يكن الوحيد، للتقدم. لقد تطور كامل تاريخ المثقفين الروس بين هذين القطبين من الفخر ونكران الذات، واللذان يشكلان وجهان لعملة ضعفها الاجتماعي».<sup>3</sup>

لكن هذا الضعف الاجتماعي للمثقفين كان يعكس فقط الحالة المتخلفة للعلاقات الطبقية في المجتمع الروسي. كان التطور السريع للصناعة ونشوء طبقة عاملة حضرية قوية، والذي سينتج عن تدفق هائل لرؤوس الأموال الأجنبية خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، ما يزال بشري من مستقبل يبدو بعيدا. وبالتالي فإن المثقفين الذين كانوا مضطرين للاعتماد على مواردهم الذاتية، سعوا إلى الخلاص في نظرية "الطريق الروسي الخاص نحو الاشتراكية"، استنادا إلى عنصر الملكية المشتركة التي كانت موجودة في المير.

نظريات حرب العصابات والإرهاب الفردي التي أصبحت مألوفة بين بعض الأوساط في الآونة الأخيرة تكرر بشكل كاريكاتوري الأفكار البالية للنارودنيين والإرهابيين الروس. فمثلهم مثل هؤلاء الآخرين، يحاولون إيجاد قاعدة بين صفوف الفلاحين في العالم الثالث، وبين صفوف البروليتاريا الرثة، وأي طبقة أخرى باستثناء البروليتاريا. لكن ليست لمثل هذه الأفكار أية علاقة بالماركسية. لقد أوضح ماركس وإنجلز أن الطبقة الوحيدة القادرة على إنجاز الثورة الاشتراكية وإقامة دولة عمالية سليمة، مما يؤدي إلى مجتمع لا طبقي، هي الطبقة العاملة. وهذا ليس من قبيل الصدفة. وحدها الطبقة العاملة، بحكم دورها في المجتمع والإنتاج، وخاصة الإنتاج الصناعي الواسع النطاق، من يمتلك الوعي الطبقي الاشتراكي الفطري. وليس من قبيل الصدفة أن الأساليب الكلاسيكية لنضال البروليتاريا تعتمد على العمل الجماعي الجماهيري: الإضرابات والمظاهرات والمماريس والإضراب العام.

1: D. Footman, Red Prelude, p: 86.

2: D. Footman, op. cit. pp: 47 and 49. (التشديد من آلان وودز).

3: Trotsky, The Young Lenin, p: 25. (التشديد من آلان وودز).

وعلى النقيض من ذلك، فإن المبدأ الأول لكل الطبقات الاجتماعية الأخرى هو النزعة الفردية المميزة لصاحب الملكية ومستغل عمل الآخرين، سواء كان كبيراً أو صغيراً. وإذا نحينا جانبا البرجوازية، التي يعتبر العداء للاشتراكية الشرط الأول لوجودها، نجد الطبقة الوسطى، بما في ذلك الفلاحين، الطبقة الاجتماعية الأقل قدرة على اكتساب الوعي الاشتراكي. تقف فئاتها العليا من الفلاحين الأثرياء، والمحامين والأطباء والبرلمانيين، على مقربة من البرجوازية. لكن حتى الفلاحين الفقراء الذين لا يملكون أرضاً في روسيا، وعلى الرغم من أنهم يشكلون في الواقع بروتيتاريا ريفية، كان وعيهم متخلفاً جداً عن وعي إخوانهم في المدن. كانت الرغبة الوحيدة عند الفلاح الذي لا يملك أرضاً هي امتلاك الأرض، أي أن يتحول إلى مالك صغير. إن الإرهاب الفردي و"حرب العصابات" بأشكالها المتعددة، هي أساليب البرجوازية الصغيرة، وخاصة الفلاحين، لكنها أيضاً أساليب الطلاب والمثقفين والبروليتاريا الرثة. صحيح أنه في ظل ظروف معينة، وخاصة في عصرنا الحاضر، يمكن كسب جماهير الفلاحين الفقراء إلى فكرة الملكية الجماعية، كما رأينا ذلك في إسبانيا عام 1936، لكن الشرط المسبق لمثل هذا التطور هو وجود حركة ثورية للطبقة العاملة في المدن. وصلت الطبقة العاملة إلى السلطة في روسيا عن طريق تعبئة الفلاحين الفقراء، ليس على أساس شعارات اشتراكية، بل على أساس "الأرض لمن يزرعها!". هذا الواقع، في حد ذاته، يظهر إلى أي مدى كانت جماهير الفلاحين الروس بعيدة عن الوعي الاشتراكي حتى في عام 1917.

بالنسبة للناوردنيين، الذين كانوا يفتقرون إلى الأساس النظري السليم وينطلقون من مفهوم مرتبك وغامض عن العلاقات الطباقية ("الشعب")، كان الموقف الماركسي حول الدور القيادي للبروليتاريا يبدو وكأنه مجرد كلام فارغ. "ما علاقة الطبقة العاملة بهذا؟"، "لا بد أن ماركس وإنجلز لم يفهما الوضع الخاص بروسيا!". وحتى عندما كان الناوردنيون يعطون اعتباراً لدور العمال في المدن، فإنهم كانوا ينظرون إليهم وكأنهم مسخ، وكأنهم "فلاحون في المصانع"، قادرين فقط على لعب دور المساعدين للفلاحين في الثورة، أي على العكس تماماً مع العلاقة الحقيقية للقوى الطباقية الثورية، كما أثبتت الأحداث اللاحقة.

وكتتويج للمفارقة، فإنه على الرغم من كل أحكام المنظرين الناوردنيين، كانت المنطقة الوحيدة تقريبا التي وجدت فيها النداءات الثورية صدى لها هي: بين صفوف "فلاحى المدن" المحترقين، كما كانوا يسمون عمال المصانع. ومثل مغاوير حرب العصابات الحديثة، نهج أنصار Zemlya i Volya (الأرض والحريّة) سياسة سحب العمال الثوريين من المصانع وإرسالهم إلى الريف. بليخانوف، قبل أن يصبح ماركسياً، شارك في هذا النوع من النشاط، وكان قادراً على رؤية العواقب، وقد كتب أن:

«عامل المصنع، الذي عمل في المدينة لعدة سنوات، لم يكن مرتاحاً للعودة إلى الريف، وكان يذهب إلى هناك على مضض... فقد أصبحت عادات الريف ومؤسساته لا تطاق بالنسبة إلى شخص قد بدأ يتطور قليلاً...

كان هؤلاء أناساً محنكين وشديدي الإخلاص ومقتنعين بعمق بالأفكار الشعبوية. لكن محاولاتهم الانغماس في الريف لم تؤد إلى نتيجة. وبعد انتقالهم بين القرى بقصد البحث عن مكان مناسب للإستقرار (حيث كان ينظر إلى بعضهم كخرباء)، استسلموا وانتهوا بالعودة إلى ساراتوف حيث أقاموا علاقات مع العمال المحليين. ومهما كنا ذهولنا من هذا الاغتراب عن "الشعب" الذي يشعر به أبنائه الحضريون فإن الحقيقة كانت واضحة، وكان علينا أن نتخلى عن فكرة إشراك العمال في شؤون الفلاحين البحتة»<sup>1</sup>.

وفقاً للنظرية الناوردنية كان عامل المدينة أبعد عن الاشتراكية من الفلاحين. وهكذا اشتكى منظم نارودني مسؤول عن العمل بين العمال في أوديسا من أن «الرجال في ورشات العمل، أفسدتهم الحياة الحضرية وصاروا غير قادرين على فهم صلاتهم مع الفلاحين، كانوا أقل انفتاحاً على الدعاية الاشتراكية»<sup>2</sup>. ومع ذلك فإن الناوردنيين قاموا ببعض العمل بين العمال وحصلوا على نتائج مهمة. وكان المبادر لهذا العمل الريادي هو نيكولاي فاسيليفيش شايكوفسكي. أنشأت مجموعته حلقات للدعاية في أحياء العمال في بيترسبورغ، حيث كان كروبوتكين واحداً من الدعاة. لقد أجبر الواقع قطاعات من الناوردنيين على أن يقفوا لأول مرة وجهاً لوجه أمام "المسألة العمالية" التي طرقتها نظريات باكونين من الباب الأمامي، فعادت للدخول من خلال النافذة. وحتى في هذه المرحلة المبكرة جداً، كانت الطبقة العاملة الروسية، على الرغم من ضلالتها عددها، قد بدأت تضع بصمتها على الحركة الثورية.

كان موقف العمال من هؤلاء "السادة الشباب" ايجابياً. أوصى العامل البيترسبورغي إ. أ. باشكين زملائه العمال قائلاً: «عليكم أن تأخذوا الكتب من الطلاب، لكن عندما يبدأون في تعليمكم الترهات، عليكم طردهم». ربما كان بليخانوف يفكر في باشكين عندما أبدى ملاحظته حول عدم رغبة العمال في الذهاب إلى الأرياف للعمل. اعتقل باشكين في شنتبر 1874، وعند إطلاق سراحه في عام 1876 قال لبليخانوف: «ما زلت على استعداد، كما من قبل، للعمل من أجل الدعاية الثورية، لكن فقط بين العمال... لا أريد أن

1: Fyodr Dan, The Origins of Bolshevism, pp: 162-163.

2: F. Venturi, The Roots of Revolution, p: 511.



أعود إلى الريف بأي شكل من الأشكال. إن الفلاحين مجرد غنم، إنهم لن يفهموا الثورة أبداً!<sup>1</sup>

وفي حين كان المثقفون النارودنيون يتصارعون مع المشاكل النظرية للثورة المستقبلية، كانت البشائر الأولى للوعي الطبقي آخذة في الظهور في المراكز الحضرية. كان انعتاق الأفيان يمثل عملاً جماعياً للعنف ضد الفلاحين في مصلحة تطور الرأسمالية في المجال الفلاحي. كان الملاكون العقاريون، في الواقع، "يطهرون العقارات" لصالح الرأسمالية، كما أوضح لينين، ويسرعون عملية التمايز الداخلي للفلاحين من خلال تبلور فئة من الفلاحين الأغنياء (الكولاك) في القمة وكتلة من الفلاحين الفقراء في القاع. ومن أجل الهروب من الفقر المدقع في الريف، هاجر الفلاحون الفقراء بأعداد ضخمة إلى المدن، بحثاً عن فرص عمل. في الفترة ما بين 1865 و1890، ارتفع عدد العاملين في المصانع بنسبة 65%، وارتفع عدد العاملين في قطاع التعدين بنسبة 106%. يعطي أ. ج. راشين الأرقام التالية عن عدد العمال في روسيا الأوروبية:<sup>2</sup>

السنة	المصانع والورشات	التعدين	المجموع
1865	509	165	674
1890	840	340	1180

عرف تطور الصناعة دفعة قوية، خاصة خلال سبعينيات القرن التاسع عشر. ارتفع عدد سكان سان بيترسبورغ من 668.000 في عام 1869 إلى 928.000 عام 1881. شهد وعي هؤلاء العمال، الذين انتزعوا من جذورهم الريفية وقذف بهم في مجرل حياة المصنع، تحولاً سريعاً. وقد عكست تقارير الشرطة تصاعد السخط والجرأة بين صفوف القوى العاملة، ويقول أحد تلك التقارير: «إن الأساليب القاسية والمبتذلة، التي يستخدمها أرباب المصانع، أصبحت لا تطاق بالنسبة للعمال، لقد أدركوا بوضوح أنه لا يمكن تصور المصنع دون عملهم». قرأ القيصر الكسندر التقارير وكتب بقلم الرصاص في الهامش: "سيئة جداً".

سمح نمو هذه الاضطرابات العمالية بإنشاء أول مجموعات العمال المنظمة. تأسس اتحاد عمال الجنوب على يد أ. زاسلافسكي (1844-1878). ابن عائلة نبيلة أفلست، ذهب "نحو الشعب" ما بين 1872 و1873، وبعد أن أصبح مقتنعاً بعدم جدوى هذا التكتيك، بدأ العمل الدعائي بين العمال في أوديسا. من هذه الحلقات العمالية، التي كانت تعقد اجتماعات أسبوعية وبأعداد قليلة، ولد الاتحاد. انطلق برنامجه من فرضية أنه «لا يمكن للعمال الحصول على الاعتراف بحقوقهم إلا من خلال ثورة عنيفة قادرة على تدمير كافة الامتيازات واللامساواة، وتحويل العمل إلى أساس للرفاه الخاص والعام»<sup>3</sup>. تطور نفوذ الاتحاد سريعاً إلى أن تحطم باعتقالات دجنبر 1875. حكم على الزعماء بالأعمال الشاقة. وحكم على زاسلافسكي بعشر سنوات، تقوضت حالته الصحية بسبب الظروف القاسية في السجن، فأصبح مختلاً ومات بمرض السل في السجن.

التطور الأكثر أهمية كان هو الاتحاد الشمالي للعمال الروس، الذي تأسس بشكل غير قانوني في خريف عام 1877 بقيادة خالتورين وأوبنورسكي. فيكتو أوبنورسكي، ابن ضابط صف متقاعد، كان حدادا ثم صار ميكانيكياً. وبينما كان يعمل في مصانع مختلفة في سانت بيترسبورغ، أصبح يشارك في حلقات العمال الدراسية، واضطر إلى الهرب إلى أوديسا لتجنب الاعتقال، حيث اتصل مع اتحاد زاسلافسكي. سافر إلى الخارج كبجار، حيث تأثر بأفكار الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية. وعاد إلى سانت بيترسبورغ، حيث التقى بلافروف وأكسيلرود، القياديان البارزان في الحركة النارودنية. كان ستيبان خالتورين شخصية مهمة في الحركة الثورية أواخر السبعينات. كان مثله مثل أوبنورسكي، حدادا وميكانيكياً، بدأ نشاطه داخل مجموعة شايكوفسكي، حيث عمل داعية. في سلسلة تراجمه للمناضلين العماليين الروس، قدم بليخانوف صورة خالدة لهذا الثوري العمالي: «عندما كانت نشاطاته [خالتورين] ما تزال قانونية، التقى عن طيب خاطر بالطلاب، وحاول إقامة التعارف معهم، والحصول على كل أنواع المعلومات منهم واقتراض الكتب منهم. وفي كثير من الأحيان كان يبقى معهم حتى منتصف الليل، لكنه نادراً ما كان يعطي آرائه الخاصة. كان مضيفه يتحمس مسروراً بحصوله على فرصة تنوير عامل جاهل، ويتحدث بإسهاب، ويشرح النظريات بالطريقة الأكثر "شعبية". ينظر ستيبان باهتمام، ويدقق النظر في المتحدث. وبين الحين والآخر تعكس عيناه الذكيتان سخرية لطيفة. كان عنصر السخرية حاضراً دائماً في علاقاته مع الطلاب... لكنه مع العمال يتصرف بطريقة مختلفة جداً... ينظر إليهم على أنهم أكثر صلابة وأنهم، إذا جاز التعبير، ثوريين أكثر طبيعية ويراعيهم برفق كمرضة عطوفة. يعلمهم ويشترى لهم الكتب ويخدمهم، يحقق السلام بينهم عندما يتشاجرون ويوبخ المذنبين. أحبه رفاقه كثيراً، كان يعرف هذا، وفي المقابل قدم لهم حبا أعظم. لكنني لا أعتقد أن خالتورين، حتى

1: Ibid., p: 800. in both quotes.

2: A.G. Rashin, Formirovaniye Rabochego Klassa Rossiy, p: 12.

3: Venturi, op. cit. pp: 515 and 516.

في علاقاته معهم، تخلى أبدا عن تحفظه المعتاد... كان لا يتحدث في الجموعات إلا نادرا وعلى مضض. كان بين عمال بيتربورغ أشخاص يشبهونه من حيث التعليم والكفاءة، كان هناك أشخاص رأوا عوالم أخرى وعاشوا في الخارج. إن سر التأثير الهائل لما يمكن أن يسمى بديكتاتورية ستيبان يكمن في الاهتمام الدؤوب الذي كرسه لكل شيء. حتى قبل بدء الاجتماع كان يتحدث مع الجميع لمعرفة الحالة الذهنية العامة، وكان يقيم جميع جوانب المسألة، وهكذا كان، بطبيعة الحال، الأكثر استعدادا من بين الجميع والمعبر الأفضل عن المزاج العام<sup>1</sup>.

كان خالتورين مثالا نموذجيا لنوع محدد من المناضلين: العامل الداعية النشط داخل الحلقات خلال المرحلة الأولى للحركة العمالية الروسية. لكن حتى هو انجر إلى الأنشطة الإرهابية في الفترة اللاحقة، ونظم محاولة مذهلة لاستهداف حياة القيصر.

## ”الأرض والحرية“

في تلك الأثناء كان من تبقوا من الحركة الناردونية يحاولون إعادة تجميع قواتهم في المدن تحت راية جديدة. في عام 1876 تم تأسيس منظمة زهمليا إ فوليا، من طرف تانسونس والكسندر ميخائيلوف وجورج بليخانوف. كانت المنظمة السرية الجديدة بقيادة مجلس عام مع لجنة تنفيذية منتخبة أصغر (أو المركز الإداري). وتحت قيادة هذه الهيئات كان هناك قطاع الفلاحين وقطاع العمال وقطاع الشباب (الطلاب)، إضافة إلى جناح عسكري ”للحماية ضد الممارسات التعسفية للبوليس“. استند برنامج زهمليا إ فوليا على فكرة مشوشة حول ”اشتراكية الفلاحين“، وتحويل كل الأرض إلى ملكية الفلاحين وضمان حق تقرير المصير لجميع أجزاء الإمبراطورية الروسية. نادوا بأن تكون السلطة في روسيا في يد كومونات فلاحية ذات حكم ذاتي. إلا أن كل هذا كان خاضعا للهدف المركزي المتمثل في الإطاحة الثورية بالحكم المطلق، والتي كان من المقرر أن تنفذ ”بأسرع وقت ممكن“، وكان ذلك التسرع الشديد راجع إلى فكرة منع تقويض كومونات الفلاحين (المير) بفعل التطور الرأسمالي! وبالتالي، فإن الآباء الأصليين لفكرة ”الاشتراكية في بلد واحد“ كانوا هم الناردونيون، الذين سعوا لتخليص المجتمع من ويلات الرأسمالية من خلال تبني فكرة وجود ”مسار خاص للتطور التاريخي“ بالنسبة لروسيا، على أساس تفرد مفترض لفلاحي روسيا ومؤسساتها الاجتماعية.

في السادس من دجنبر عام 1876، خرجت مظاهرة غير قانونية ضمت حوالي 500 متظاهر - أغلبهم من الطلاب - على بعد خطوات من كاتدرائية كازان، حيث رفعت شعارات ”الأرض والحرية“ و”تحيا الثورة الاشتراكية!“، واستمع المتظاهرون لخطاب طالب يبلغ من العمر 21 سنة، يدعى جورج بليخانوف، الذي تسبب له خطابه الثوري في سنوات من المنفى والعمل السري. بليخانوف الذي ولد عام 1855، لعائلة أرستقراطية من تامبوف، كان، مثله مثل كثير من أبناء جيله، قد تربى نظريا على قاعدة كتابات مدرسة عظيمة من المؤلفين الديمقراطيين الروس: بيلينسكي ودوبرولوبوف، وقبل كل شيء، شيرنيشيفسكي. التحق بالحركة الناردونية عندما كان مايزال مراهقا، وشارك في مهام خطيرة، بما في ذلك تحرير الرفاق المعتقلين وحتى تصفية عميل استفزازي. ورغم أنه اعتقل عدة مرات، فقد نجح دائما في الهرب من معتقله.

بعد خطابه الجريء اضطر بليخانوف للفرار إلى الخارج، إلا أن التقدير الذي كان يتمتع به مكنه من أن ينتخب، في غيابه، عضوا في ”الحلقة الأساسية“ لمنظمة زهمليا إ فوليا. وبعد عودته إلى روسيا، عام 1877، عاش مؤسس الماركسية الروسية المستقبلي حياة سرية صعبة. مسلحا بقبضة معدنية (knuckle duster) ومسدس يحتفظ به تحت وسادته ليلا، سافر أولا إلى ساراتوف، بالفولغا، حيث صار لاحقا مسؤولا عن ”قطاع العمال“ في زهمليا إ فوليا. وكان لتجربته الأولى في العمل مع عمال المصنع تأثير عميق على تفكيره، مما ساعده بلا شك على القطع مع الأحكام المسبقة للناردونيين وإيجاد الطريق إلى الماركسية.

في شهر دجنبر عام 1877، وقع انفجار في مخزن للبارود في مصنع للأسلحة في جزيرة فاسيليفسكي، قتل خلاله ستة عمال وجرح عدد أكبر بكثير. تحولت جنازة العمال إلى مظاهرة. وكتب بليخانوف بيانا انتهى بالعبارة التالية: «أيها العمال! الآن هو الوقت المناسب لفهم السبب. يجب ألا تتوقعوا المساعدة من أي أحد. ولا تتوقعوها من طبقة النبلاء! لقد أمضى الفلاحون فترة طويلة وهم يتوقعون المساعدة من طبقة النبلاء، وكان كل ما حصلوا عليه هو أسوء الأراضي وأثقل الضرائب، أثقل حتى من ذي قبل... هل أنتم أيضا، يا عمال المدن، ستتحملون هذا إلى الأبد؟»<sup>2</sup>.

تلقى كاتب البيان الرد بعد وقت أقل مما كان هو، أو أي شخص آخر، يتوقعه. لقد خلقت الطفرة الاقتصادية، التي نشأت عن

1: Ibid. p: 543.

2: Ibid. p: 548.

الحرب الروسية التركية (1877-1878)، الظروف لانفجار غير مسبوق للإضرابات، قادها القسم الأكثر اضطهادا واستغلالا بين صفوف الطبقة العاملة، أي عمال النسيج. لم تكن تلك المرة الأخيرة التي تحرك فيها عمال النسيج الأكثر اضطهادا بسرعة أكبر بكثير من عمال الصناعات المعدنية. ومبادرة من عدد من العمال الثوريين اتجه العمال إلى "الطلبة" لطلب المساعدة.

بليخانوف، الذي كان رئيس قطاع العمال داخل زيمليا إ فوليا، وجد نفسه عمليا على رأس الحركة. لكن للأسف لم تكن لدى الناردونيين أية فكرة عما يجب القيام به مع الحركة العمالية، التي لم تكن تدخل ضمن تصورهم عن الكون. في غضون عامين شهدت سان بيترسبورغ 26 إضرابا. وهي الموجة التي لم يسبق لها مثيل إلا خلال موجة الإضرابات الهائلة لسنوات التسعينات من القرن التاسع عشر. لعب أعضاء منظمة اتحاد الشمال دورا بارزا في هذه الإضرابات، وخلال الشهور الأولى لعام 1879، بلغت المنظمة أوجها حيث صارت تضم 200 عامل منظم و200 عامل آخر في الاحتياط، موزعين بعناية في مصانع مختلفة. كانوا جميعا مرتبطين بهيئة مركزية. كانت الحلقات العمالية تمتلك مكتبة أيضا، وكانت كتبها توزع بعناية بين المجموعات السرية المختلفة وتستخدم على نطاق واسع حتى من قبل العمال خارج الاتحاد. أنشأ خالتورين، واسع الحيلة، مطبعة سرية. ودخل أوبنورسكي في اتفاق مع مجموعة من العمال في وارسو، وهي الخطوة التي شكلت "أول مثال للعلاقات الودية بين العمال الروس والبولنديين"، كما لاحظ بليخانوف بارتياح<sup>1</sup>.

لكن وبعد أشهر من ظهور العدد الأول لجريدة الاتحاد، غير الشرعية، رابوتشايا زاريا (فجر العمال)، حطمت الشرطة محل الطباعة واجتاحت معظم أعضاء الاتحاد بموجة من الاعتقالات والأشغال الشاقة والسجن والمنفى. كانت نتيجة تحطيم هذا التنظيم الصلب الأول للطبقة العاملة كارثية. استخلص خالتورين وغيره استنتاجات متشائمة وتحولوا نحو الإرهاب. استغرق الأمر من الحركة عشر سنوات وعددا لا يحصى من التضحيات المجانية للتخلص من التكتيك الإرهابي.

منذ البداية انقسمت الحركة الثورية في روسيا بفعل الجدل بين "المعلمين" و"الانقلابيين"، وهما الخطان اللذان اشتهرا على نطاق واسع مع مواقف كل من لافروف من جهة وباكونين من جهة أخرى. أدى فشل الحركة "نحو الشعب" بهذا الخلاف إلى حد الانشقاق. في فترة 1874-1875، كان هناك آلاف السجناء السياسيين في روسيا، من الشباب الذين دفعوا ثمن تحديهم بفقدان حريتهم. أفرج عن بعضهم في وقت لاحق بكفالة ووضعوا تحت المراقبة. ونفي آخرون إلى سيبيريا بأمر إداري، بينما البقية استمروا ببساطة يتعفنون في السجن في انتظار المحاكمة. وقرر بعض أولئك الذين بقوا نشطاء وأحرارا العودة إلى القرى، لكن هذه المرة كمعلمين وأطباء، وكرسوا وقتهم وطاقاتهم للعمل التعليمي المتواضع وانتظار أيام أفضل. لكن بالنسبة للآخرين، كان انفضاح خطأ نظرية باكونين حول كون "الفلاحين ثوريين بشكل غريزي" يعني ضرورة البحث عن طريق مختلف تماما.

لم تكن زيمليا إ فوليا أبدا منظمة جماهيرية. كان بضع عشرات من الأعضاء، معظمهم من الطلبة والمثقفين في سن العشرينيات أو الثلاثينيات، هم من يكونون نواتها الصلبة النشطة. لكن بذور الانحلال كانت موجودة منذ البداية. سعى أنصار لافروف إلى "فتح عيون الشعب" من خلال الدعاية السلمية. قال لافروف: "يجب علينا ألا نثير عاطفة الشعب، بل وعيه الذاتي"<sup>2</sup>. المحاولات اليائسة لاستفزاز حركة جماهيرية للفلاحين عن طريق الدعاية فتحت المجال لنظرية جديدة قلبت الباكونينية رأسا على عقب. فمن "نفي السياسة" وخاصة المنظمة السياسية، انعطفت قسم من الناردونيين 180 درجة وأسسوا منظمة إرهابية سرية وجد مركزا -نارودنايا فوليا- والتي كانت مصممة لإثارة الحركة الثورية للجماهير من خلال "الدعاية بالأفعال".

كشف الإذلال العسكري الذي تعرضت له روسيا القيصرية، من جديد، في الحرب الروسية التركية، إفلاس النظام وأعطى دفعة جديدة للمعارضة. كان قادة نارودنايا فوليا مصممين على شن حرب ضد الحكم المطلق على شكل عمليات إرهابية فردية، والتي من شأنها أن تشعل "من فوق" شرارة الثورة. كان قسم من الشباب يحترقون بفارغ الصبر. وكلمات جيليايوف، الذي صار لاحقا قياديا في نارودنايا فوليا، تلخص كل شيء:

«إن التاريخ يتحرك ببطء شديد. إنه يحتاج إلى دفعة. وإلا فإن الأمة كلها ستتعفن قبل أن يتمكن الليبراليون من فعل أي شيء.»

ماذا عن الدستور؟

إنه شيء جيد.

1: Ibid. p: 556.

2: Ibid. p: 556.

حسنا، ماذا تريد، هل العمل من أجل وضع دستور أو إعطاء دفعة للتاريخ؟

أنا لا أمزح، نحن نريد أن نعطي الآن دفعة للتاريخ»<sup>1</sup>.

تبين هذه الأسطر الأربعة بشكل واضح العلاقة بين الحركة الإرهابية والحركة الليبرالية. لم يكن لدى الإرهابيين برنامج مستقل خاص بهم. لقد افترضوا أفكارهم من الليبراليين، الذين بدورهم اتكئوا عليهم لدعم مطالبهم.

في خريف عام 1877، تم تقديم ما يقرب من 200 شاب وشابة للمحاكمة بتهمة "الذهاب إلى الشعب". كانوا قد أمضوا بالفعل ثلاث سنوات في السجن دون محاكمة، وكانت هناك حالات عديدة من سوء المعاملة التي يلقاها السجناء من طرف حراس ومسؤولين همجيين. بالنسبة للثوار كانت سوء المعاملة والتعذيب والإهانة، التي كان السجناء يتعرضون لها بشكل ممنهج، القطرة التي أفاضت الكأس. وقد تسببت حالة فظيعة خاصة في اندلاع سخط واسع النطاق في يوليو 1877. عندما قام قائد شرطة بيترسبورغ سيء السمعة، الجنرال ترييوف، بزيارة مركز الاحتجاز الأولي، رفض شاب "سياسي" يدعى بوغوليوبوف الوقوف له. فحكم عليه بالجلد 100 جلدة بأمر من ترييوف. نقطة التحول الحاسمة كانت في يناير 1878 عندما قامت فتاة شابة تدعى زاسوليتش بإطلاق النار على ترييوف. كان الهدف من وراء هذا العمل، الذي خططت له زاسوليتش ونفذته لوحدها، الانتقام لسوء معاملة السجناء السياسيين. وبعد قضية زاسوليتش، أصبح التحول نحو "الدعاية من خلال الفعل" تيارا لا يقاوم، خاصة عندما اعتبرتها هيئة المحكمة، وضد كل التوقعات، غير مذنبه.

في البداية اعتبر استخدام الإرهاب تكتيكا محدودا لإطلاق سراح الرفاق المعتقلين، وتصفية جواسيس الشرطة، والدفاع عن النفس ضد الإجراءات القمعية للسلطات. لكن للإرهاب منطق خاص به. وبعد فترة قصيرة من الزمن، استولى الهوس الإرهابي على المنظمة. منذ البداية كانت هناك شكوك بشأن "التكتيكات الجديدة"، وقد ارتفعت أصوات نقدية في صفحات الجريدة الرسمية للحزب، حيث تقول إحدى المقالات: «يجب أن نتذكر أن تحرير الجماهير الكادحة لن يتحقق من خلال هذا المسار (الإرهابي). ليست للإرهاب علاقة مع النضال ضد أسس النظام الاجتماعي. وحدها الطبقة من يمكنها أن تقاوم الطبقة. وبالتالي فإن الجزء الأكبر الرئيسي من قوائنا يجب أن يتركز على العمل بين صفوف الشعب»<sup>2</sup>.

تسبب اعتماد التكتيكات الجديدة في حدوث انقسام داخل صفوف الحركة، بين الإرهابيين وبين أتباع لافروف الذين دافعوا عن ضرورة فترة طويلة من التحضير والدعاية بين الجماهير. في الواقع كان الاتجاه الأخير قد بدأ يبتعد عن الحركة الثورية، ويتبنى الدعوة إلى سياسة "الإنجازات الصغيرة" ونهج "شيئا فشيئا" والمقاربة التدريجية. لم يعد الجناح اليميني للحركة النارودية يتميز عن الليبرالية، في حين استعد جناحها الأكثر راديكالية للاعتماد كليا على قوة الرصاصة وخليط "الكيمياء الثورية" النيتروجلسرين.

في الآونة الأخيرة، بذلت محاولات عديدة من قبل الإرهابيين المعاصرين لتمييز أنفسهم عن أسلافهم الروس. يقال إن الإرهابيين الناروديين كانوا يؤمنون بالإرهاب الفردي، والحلول محل حركة الجماهير، في حين أن أنصار "الكفاح المسلح" أو "حرب عصابات المدن" المعاصرين يرون أنفسهم فقط باعتبارهم الجناح المسلح للنضال الجماهيري، الذي يهدف إلى تحريض الجماهير على النضال. إلا أن أنصار نارودنايا فوليا لم يدعوا أبدا أنهم يعملون كحركة مكتفية ذاتيا. كان هدفهم المعلن هو إشعال فتيل حركة جماهيرية، استنادا إلى الفلاحين، من شأنها قلب نظام الحكم وتشديد الاشتراكية. كان هدفهم المفترض أيضا هو "تحريض" الحركة الجماهيرية من خلال إعطاء مثال شجاع.

لكن السياسة لها منطقتها الخاص. وكل نداءات نارودنايا فوليا باسم الجماهير، كانت مجرد ستار من الدخان يخفي وجود غياب كلي للثقة في القدرة الثورية لتلك الجماهير نفسها. وللحجج التي قدمت منذ أكثر من قرن من الزمان في روسيا لتبرير الإرهاب، أوجه تشابه كثيرة مع حجج جماعات "حرب عصابات المدن" في الآونة الأخيرة: "نحن مع الحركة الجماهيرية، لكن الدولة قوية جدا" وهلم جرا. وهو نفس ما أكده الإرهابي موروزوف: «من خلال مراقبة الحياة الاجتماعية المعاصرة في روسيا نتوصل إلى استنتاج مفاده أنه بسبب السلوك التعسفي والعنف الذي تنهجه الحكومة، ليس ممكنا القيام بأي نشاط من طرف الشعب على الإطلاق. لا وجود لا حرية التعبير ولا حرية الصحافة للعمل عن طريق الإقناع. ونتيجة لذلك، فإنه من الضروري على كل مناضل طليعي، أولا وقبل كل شيء، وضع حد لنظام الحكومة الحالية، وللنضال ضدها ليست هناك من وسيلة سوى حمل السلاح. ونتيجة لذلك سوف نقاتل ضدها بأسلوب ويليام تيل، حتى نصل إلى اللحظة التي نحقق فيها المؤسسات الحرة التي سيكون من

1: Footman, op. cit.p: 87.

2: J. Martov, Obshchestvennoe i Umstvennoe Teheniyev v Rossii 1870-1905 gg, p:44.

الممكن لنا في ظلها أن نناقش بحرية في الصحافة وفي الاجتماعات العامة، جميع القضايا السياسية والاجتماعية، ونقرر فيها عن طريق التمثيل الحر للشعب»<sup>1</sup>.

كان النارودنيون شجعانا، لكنهم فاقدون للبوصلة ومثاليون اقتصر أهدافهم على الجلادين سيئي السمعة، ورؤساء الشرطة المتورطين في الممارسات القمعية، وما شابه ذلك. وفي كثير من الأحيان كانوا يقدمون أنفسهم بعد ذلك للشرطة من أجل استخدام محاكماتهم كمنصة لتوجيه الاتهام إلى النظام القائم. لم يكونوا يزرعون القنابل لقتل النساء والأطفال، أو حتى لقتل الجنود العاديين. والمناسبات النادرة التي قتلوا خلالها أفرادا من الشرطة، كانت للاستيلاء على الأسلحة. لكن وعلى الرغم من هذا، كانت أساليبهم خاطئة تماما، وذات نتائج عكسية، وأدانها الماركسيون بشدة.

لا تعمل النظريات "الحديثة" المزعومة لحرب عصابات المدن سوى على تكرار كاريكاتوري للأفكار القديمة ما قبل الماركسية للإرهابيين الروس. ومن المثير للسخرية جدا أن هؤلاء الناس، الذين كثيرا ما يدعون أنهم "ماركسيون لينينيون"، لا يملكون أدنى فكرة عن أن الماركسية الروسية إنما نشأت من النضال العنيد ضد الإرهاب الفردي. كان الماركسيون الروس يصفون الإرهابي بازدراء بأنه "ليبرالي يحمل قبلة". كان الليبراليون الآباء يتحدثون باسم "الشعب"، لكنهم كانوا يعتبرونه أجهل من أن يولوه ثقتهم للعمل المسؤول من أجل إصلاح المجتمع. كان دوره - من وجهة نظرهم - يقتصر على أن يصوت كل بضع سنوات، ويتفرج على الليبراليين في البرلمان وهم يقومون بأعمالهم. أما الليبراليون الأبناء فلم يكن لديهم سوى الاحتقار للبرلمان. كانوا يتبنون الثورة، وبطبيعة الحال، "الشعب". إلا أن هذا الأخير، وبسبب جهله، كان غير قادر على فهمهم. وبالتالي فإنهم سيلجئون إلى "الكيمياء الثوري" والقبلة والمسدس. لكن، وقاما كما كان من قبل، تم تخفيض دور الجماهير إلى مجرد متفرجين سلبيين. تنظر الماركسية إلى التغيير الثوري للمجتمع كفعل واع تقوم به الطبقة العاملة. والشيء التقدمي هو الذي يعمل على رفع وعي العمال بقوتهم الخاصة، أما الشيء الرجعي فهو الذي يميل إلى خفض وعي العمال بدورهم. ودور الإرهاب الفردي، انطلاقا من وجهة النظر هذه، هو رجعي بالكامل.

وبالتالي، فإن سياسة الإرهاب الفردي تكون أكثر ضرا لقضية الجماهير بالضبط عندما تنجح. إن محاولة إيجاد طرق مختصرة في السياسة كثيرا ما تؤدي إلى الكارثة. ما هي الاستنتاجات التي من المفترض أن يستخلصها العمال من عمل إرهاب فردي ناجح بشكل مذهل؟ فقط هذه: أنه من الممكن لهم تحقيق غاياتهم دون أية ضرورة لعمل تحضيري طويل وشاق لبناء النقابات والمشاركة في الإضرابات وغيرها من النضالات الجماهيرية الأخرى والتحريض والدعاية والتعلم. كل هذا من شأنه أن يبدو بدون جدوى، بينما كل ما هو مطلوب هو الحصول على قبلة ومسدس، ليتم حل المشكلة.

يقدم تاريخ القرن العشرين بعض الدروس المأساوية لما يحدث عندما يحاول الثوار تعويض الحركة الواعية للطبقة العاملة بممارسات بطولية لأقلية مسلحة. في أغلب الأحيان، وكما كان الحال مع نارودنايا فوليا، تؤدي محاولة تحدي قوة الدولة من خلال مثل هذه الأساليب إلى هزيمة رهيبية وتعزيز نفس جهاز القمع الذي كان من المفترض أن يتم قلبه. لكن حتى في تلك الحالات التي تمكنت فيها، على سبيل المثال، حرب العصابات من إسقاط النظام القديم، فإنه لا يمكن أبدا أن تؤدي إلى إقامة دولة عمالية سليمة، ناهيك عن الاشتراكية. ستؤدي، في أحسن الأحوال، إلى دولة عمالية مشوهة (نظام بونابارتي بروتيتاري) يخضع فيه العمال لحكم فئة بيروقراطية. إن هذه النتيجة، في الواقع، تحدد مسبقا بفعل الهيكل العسكرية للمنظمات الإرهابية ومنظمات حرب العصابات، ويفعل هيكل القيادة الاستبدادي وغياب الديمقراطية الداخلية، وقبل كل شيء حقيقة أنها تعمل خارج الطبقة العاملة وبشكل مستقل عنها. لا يعتبر الحزب الثوري الحقيقي نفسه مجموعة من المخلصين الذين نصبوا أنفسهم

لإنقاذ الجماهير، بل يسعى إلى إعطاء تعبير منظم وواع لحركة العمال أنفسهم. وحدها الحركة الذاتية الواعية للبروليتاريا من يمكنها أن تؤدي إلى التحويل الاشتراكي للمجتمع.

حاول قسم من حركة زهليا إ فوليا القديمة مقاومة الاتجاه نحو الإرهاب، لكنه نحي جانبا. وقد فشلت محاولة التوصل إلى حل وسط، في المؤتمر فورونيج، يونيو 1879، في منع الانشقاق الذي حدث أخيرا في أكتوبر من ذلك العام، مع اتفاق رسمي من كلا الجانبين على حل التنظيم. تم تقسيم الأموال واتفق الطرفان على عدم استخدام الإسم القديم. اعتمد الفصيل الإرهابي اسم نارودنايا فوليا (إرادة الشعب)، في حين تبني النارودنيون أنصار مدرسة "القرية" اسم شيرني بيريديل (إعادة التوزيع الأسود)، مرددين للفكرة النارودنية القديمة حول الثورة الزراعية. ومن رحم هذه المنظمة الأخيرة، وبقيادة بليخانوف، خرجت القوى الأولى للماركسية الروسية.

(التشديد من آلان وودز). 1: Baron, op. cit. p: 56.

## ميلاد الحركة الماركسية الروسية

كانت الآفاق قائمة جدا أمام تيار بليخانوف. كان تكتيك "الذهاب إلى الشعب" القديم قد أفلس. واستمر موقف الفلاحين الراضين للناوردنيين مثلما كان في الماضي. وتخلى العديد من الناوردنيين في النهاية عن الأمل وعادوا أدراجهم إلى حياة أكثر بهجة في المدن. بليخانوف الذي كان قد تأثر ربما بتجربته السابقة كرئيس "لقطاع العمال"، اقترح على أعضاء منظمة شيرني بيريديل ضرورة القيام بالتحريض بين عمال المصانع. أعاد بليخانوف إحياء علاقاته السابقة مع العمال، ومن بينهم ستيبان خالتورين من الاتحاد الشمالي للعمال الروس. لكن التيار كان يدفع بقوة لصالح الإرهاب حتى بين العمال المتقدمين. خالتورين نفسه شارك، في فبراير 1880، في محاولة لاغتيال القيصر. كان أنصار شيرني بيريديل معزولين تماما. وجاءت الضربة القاضية في يناير 1880 عندما اكتشفت الشرطة المطبوعة السرية، بعد وقت قصير من إصدار المجموعة للعدد الأول من جريدتها، فقامت باجتماع المنظمة بأكملها في روسيا. وكما لاحظ تروتسكي في وقت لاحق، لم يكن مستقبل الاتجاه غير الإرهابي بين صفوف الحركة الناوردنية ليكون ظاهرة مستقلة، بل فقط مرحلة انتقالية وجيزة وملتبسة نحو الماركسية.

أما على الجانب الآخر، فقد بدأ أنصار نارودنايا فوليا يحققون نجاحات مذهلة. وبشكل لا يصدق تمكنت منظمة صغيرة، لا يزيد عدد أعضائها عن بضع مئات من الرجال والنساء، من تحويل القيصر إلى سجين فعلي داخل قصره. تدفق التيار، لبعض الوقت، بشكل لا يقاوم في صالح نارودنايا فوليا، التي كانت تمثل العناصر الأكثر عزيمة وثورية بين الشباب. المنظمة الجديدة، الممركزة للغاية والتي تعمل في سرية تامة، كانت تحت قيادة لجنة تنفيذية مكونة من أ. إ. جيلباوف وأ. د. ميخائيلوف وم. ف. فرولينكو ون. أ. موزوروف وفيرا فينغر ووصوفيا بيروفسكايا، وآخرون. وبالمقارنة مع الحركة الناوردنية القديمة، شكل برنامج نارودنايا فوليا تقدما، حيث تبنى نضالا سياسيا واضحا ضد الحكم المطلق. في وقت لاحق كتب لينين، الذي كان يحيي دائما البطولة ونكران الذات عند الناوردنيين، في نفس الوقت الذي كان ينتقد بحزم تكتيك الإرهاب الفردي، ما يلي: «لقد قام أعضاء نارودنايا فوليا بخطوة إلى الأمام عندما تبنوا النضال السياسي، لكنهم فشلوا في ربطه بالاشتراكية»<sup>1</sup>.

طالب برنامج نارودنايا فوليا بتشكيل "هيئة تمثيلية شعبية دائمة" منتخبة بالاقتراع العام، وإعلان الحريات الديمقراطية، ونقل ملكية الأراضي إلى الشعب، واتخاذ تدابير لوضع المصانع في أيدي العمال. جذبت الحركة العديد من العناصر الأكثر شجاعة وتضحية بالنفس، بمن فيهم خالتورين، من الاتحاد الشمالي للعمال. لقد أظهر جرأة كبيرة وقدرة مبهرة على المبادرة بحصوله على وظيفة نجار على متن اليخت الإمبراطوري. وبعد أن تمكن من كسب الثقة الرسمية كعامل نموذجي، تمكن، في فبراير 1880، من زرع قنبلة قوية داخل قصر الشتاء، حيث كان يعمل في بعض الإصلاحات، وتفجير قصر القيصر في وسط عاصمته! لكن رد فعل الدولة كان هو تعويد وتيرة القمع، وفرض دكتاتورية شرسة تحت قيادة الجنرال ميليكوف. كانت حالة خالتورين مأساوية بشكل خاص. لقد أحس، في وقت مبكر، بالتناقض بين الحاجة إلى بناء الحركة العمالية وبين الإرهاب، كما يشرح ذلك فنتوري: «كان خالتورين منقسما باستمرار بين حماسه للأعمال الإرهابية وبين واجباته بوصفه منظما عماليا. وقد عبر عن مشاعره بالقول إن المثقفين يجبرونه على أن يبدأ من الصفر بعد كل عمل من أعمال الإرهاب والخسائر الحتمية المرتبطة به. وفي كل مناسبة كان يقول: "لو يعطوننا فقط قليلا من الوقت لتقوية أنفسنا". لكنه استسلم هو أيضا للرغبة الجارفة في اتخاذ إجراءات فورية مما قاده إلى المشنقة معهم»<sup>2</sup>.

النجاحات التي حققها الإرهابيون كانت هي نفسها تتضمن بذور تفككهم. لقد أطلق اغتيال القيصر، في عام 1881، العنان لحملة من القمع أخلى فيها الإرهاب الفردي ضد الوزراء ورجال الشرطة الطريق أمام إرهاب جهاز الدولة بأكمله ضد الحركة الثورية بشكل عام. قال كروبوتكين: «لقد تم تقسيم روسيا إلى عدد من المناطق، ووضعت كل منطقة تحت حكم حاكم عام تلقى الأمر بشنق المتهمين بلا رحمة. وأعدم كوفالسكي وأصدقائه الذين بالمناسبة لم يقتلوا أحدا بطلاقاتهم. وصار الشنق ممارسة يومية. أعدم 23 شخصا في غضون عامين، من بينهم صبي يبلغ 19 عاما قبض عليه وهو يوزع بياننا ثوريا في محطة للسكك الحديدية: كان هذا العمل هو التهمة الوحيدة الموجهة إليه، لقد كان طفلا، لكنه مات ميتة الرجال»<sup>3</sup>.

حكم على فتاة تبلغ من العمر 14 عاما بالنفي مدى الحياة إلى سيبيريا لأنها حاولت تحريض حشد من الناس لتحرير بعض السجناء الذين كانوا يساقون إلى جبل المشنقة. فأقدمت على الانتحار غرقا. كما قضى السجناء سنوات في سجون الاعتقال الاحتياطي، التي كانت أوكارا لحمى التيفويد، حيث مات 20% منهم في سنة واحدة وهم ينتظرون المحاكمة. كان السجناء يردون

1: Lenin, Collected Works, Working Class and Bourgeois Democracy, vol. 8, p: 72.

2: Venturi, op. cit., p: 706.

3: Kropotkin, op. cit., vol. 2, p: 238.

على المعاملة الوحشية التي يتلقونها من قبل حراس السجن بخوض إضرابات عن الطعام، والتي كانت السلطات تجابهها بالتغذية القسرية. حتى أولئك الذين تمت تبرئتهم استمروا منفيين في سيبيريا، حيث كانوا يموتون جوعا ببطء بسبب الطعام الرديء الذي تقدمه لهم السلطات. زاد كل هذا من اشتعال سخط الشباب الذين كانوا يحترقون رغبة في الانتقام. تم استبدال ضحايا الإرهاب الأبيض بمنخرطين جدد، انتهى بهم المطاف هم أيضا ضحايا جدد في حلقة "قمح - إرهاب - قمح" الجهنمية. هلك جيل كامل بهذه الطريقة، وفي نهاية المطاف، تمكنت الدولة، التي لا تركز على الأفراد من جنرالات ورؤساء شرطة، من أن تخرج أقوى من أي وقت مضى، على الرغم من أن نارودنايا فوليا نجحت في اغتيال عدد من أبرز المسؤولين في النظام القيصري.

وعد المدعي العام الجديد، الوزير بوبيدونوستسيف، بعهد من "الحديد والدم" للقضاء على الإرهابيين. وقدمت سلسلة من القوانين الصارمة للحكومة سلطات كاسحة جديدة للاعتقال وممارسة الرقابة والترحيل، مما أصاب ليس فقط الثوار، بل حتى التيارات الليبرالية الأكثر اعتدالا. تزايد الاضطهاد القومي مع منع جميع الإصدارات باللغات غير الروسية. صدرت قوانين لتعزيز سيطرة كبار الملاكين على الفلاحين. واجتاحت موجة الردة الرجعية المدارس والجامعات، وكانت تهدف إلى سحق كل أشكال التفكير المستقل وكسر روح التمرد بين الشباب. وخلافا لتوقعات الإرهابيين، لم تكن هناك انتفاضة جماهيرية، ولا حركة عامة للمعارضة. وبسرعة تحولت كل آمال جيل التضحية البطولية بالنفس إلى رماد. تضرر الجناح الإرهابي للحركة النارودنية بموجة من الاعتقالات. وبحلول عام 1882، تعرضت نواتها المركزية للتصفية وأرسل قادتها إلى السجن، فانشطرت حركة النارودنيين إلى ألف شظية. لكن، وفي نفس الوقت الذي كان فيه نعي الحركة النارودنية يسمع بوضوح، كانت هناك حركة جديدة تحقق انتصارات سريعة في بقية أوروبا، وكان هناك بروز لموازين قوى طبقية جديدة في روسيا المتخلفة نفسها.

لسنوات كانت أفكار ماركس وإنجلز (ولو في شكل غير مكتمل ومبتذل) مألوفة للثوريين الروس. كان ماركس، وإنجلز خاصة، قد شاركوا في جدالات مع منظري الحركة النارودنية. لكن الماركسية لم يكن لها أبدا أنصار كثير في روسيا. كان إنكارها للإرهاب الفردي ورفضها لوجود "طريق روسي خاص نحو الاشتراكية" وللدور القيادي المزعوم للفلاحين في الثورة، أشياء من الصعب على الشباب الثوري القبول بها. وبالمقارنة مع نظرية باكونين حول "الدعاية بالأفعال"، كانت فكرة أنه يجب على روسيا أن تمر عبر مدرسة الرأسمالية المؤلمة تبدو دعوة إلى السلبية والانهازية.

كان الجيل القديم من النارودنيين لا يخفي ازدراؤه للنظرية. وعندما كانوا يلجؤون إلى الحجج الإيديولوجية، فإنهم كانوا في الحقيقة يقومون بذلك فقط بشكل لاحق ولتبرير الانعطافات العملية للحركة. وفي المقابل كانوا يتبنون فكرة الدور المركزي للفلاحين، و"المهمة التاريخية الخاصة" المزعومة لروسيا والوحدة السلافية والإرهاب. وبعد أن كسروا رؤوسهم في الجدار الصلب، وبدلا من الاعتراف بالنزاهة بأخطائهم ومحاولة العمل على استراتيجية وتكتيك بديلين، شرع منظرو الحركة النارودنية في إعادة التأكيد على الأفكار القديمة المفلسة، وبذلك غرقوا أعمق من أي وقت مضى في مستنقع الارتباك.

كان أول عمل قام به هذا الاتجاه الجديد، الذي يمثله بليخانوف وعدد صغير من المتعاونين، هو بناء أسس متينة للمستقبل على أساس الأفكار الصحيحة والنظرية الصحيحة والتكتيكات والاستراتيجية العلمية. وكانت هذه هي المساهمة العظيمة لبليخانوف، والتي بدونها كان من غير الوارد تحقق التطور المستقبلي للبلشفية. ورغم أنه كان ما يزال، على حد تعبيره، "نارودنيا حتى النخاع"، سعى بليخانوف إلى الإجابة على المشاكل التي تطرحها أزمة الإيديولوجية النارودنية من خلال القيام بدراسة جادة لأعمال ماركس وإنجلز. وبعد أن اضطر إلى الفرار إلى الخارج، في يناير عام 1880، التقى وناقش مع ماركسين فرنسيين وألمان كانوا آنذاك منخرطين في صراع إيديولوجي عنيف مع اللاسلطويين. وكان هذا اللقاء مع الحركة العمالية الأوروبية نقطة تحول حاسمة في تطور بليخانوف.

في حياة السرية بروسيا لم يكن متوفرا سوى عدد قليل من كتابات ماركس وإنجلز، وخاصة تلك المتعلقة بالمسائل الاقتصادية. كان بليخانوف، مثله مثل غيره من أبناء جيله، يعرف كتاب ماركس رأس المال، والذي اعتبرته الرقابة القيصرية كتابا أصعب وأشد تجريدا من أن يشكل خطرا. ومن المشكوك فيه ما إذا كان بوليس الرقابة أنفسهم قد تمكنوا من فهمه، وبالتالي فإنهم ظنوا أنه لا يمكن للعمال أن يفهموه. وبعد أن تحرروا، لبعض الوقت، من ضغوط المشاركة المباشرة في النضال الثوري في روسيا، تمتع بليخانوف والآخرون من ميزة هائلة تمثلت في القدرة على الوصول إلى الأدبيات التي كان من غير الممكن الحصول عليها في روسيا. وهو ما شكل مصدر إلهام لهم.

دراسة بليخانوف للفلسفة الماركسية، والكتابات حول الصراع الطبقي والمفهوم المادي للتاريخ ألقت ضوءا جديدا كلياً على

منظورات الثورة في روسيا. وبدأت الأفكار الإرهابية والفضوية والناوردنية القديمة تنهار الواحدة تلو الأخرى تحت وطأة النقد الماركسي. وقد لخص بليخانوف في وقت لاحق تلك التجربة قائلا: «أي شخص لم يعيش معنا تلك الأوقات بالكاد يمكنه أن يتصور الحماس الذي انخرطنا به في دراسة الأدب الاشتراكي الديمقراطي، والذي بطبيعة الحال احتلت فيه أعمال المنظرين الألمان المقام الأول. وبقدرة ما تعرفنا عن كتب أكثر على الأدب الاشتراكي الديمقراطي، بقدر ما أصبحنا على بينة أكثر من نقاط ضعف مواقفنا السابقة، وأصبحنا أكثر قناعة بصحة تطورنا الثوري... لقد قادتنا نظريات ماركس، مثل خيط أريادن، خارج متاهة التناقضات التي كانت محشوة في عقولنا بفعل تأثير باكونين»<sup>1</sup>.

ومع ذلك، فإن القطيعة مع الماضي لم يكن من السهل تحقيقها. فدويتش وزاسوليتش على وجه الخصوص كانا ما تزال لديهما أوهام بخصوص الإرهابيين. في الواقع، عندما وصل إلى المجموعة خبر اغتيال القيصر، صاروا جميعا، باستثناء بليخانوف، لصالح العودة إلى نارودنايا فوليا. وكان على التجربة أن تستمر. لكن بليخانوف استوعب أن كوادز حزب العمال الماركسي الروسي المستقبلي لا يمكن أن يسقطوا من الغيوم. مثلت نارودنايا فوليا تقليدا لجيل كامل من المناضلين ضد القيصرية. ومثل هذه الحركة، التي تجللت بدماء عدد لا يحصى من الشهداء الثوريين، لا يمكن أن تمسح من الذاكرة بسهولة. وبسبب تقاليدتها تحديدا، كانت الحركة الناردونية، حتى في فترة انحطاطها، ما تزال قادرة على اجتذاب العديد من الشباب والشابات، الذين يبحثون بارتباك عن الطريق إلى الثورة الاجتماعية. ومن بين هؤلاء كان هناك ألكسندر أوليانوف، شقيق لينين، الذي اعدم بسبب دوره في مؤامرة ضد حياة ألكسندر الثالث عام 1887. كان لينين نفسه يتعاطف مع الناردونيين ومن المؤكد أنه بدأ حياته السياسية مؤيدا لنارودنايا فوليا. وقد كان إنقاذ هؤلاء الناس من الممارسات الإرهابية العقيمة أول واجب على كاهل الماركسيين الروس.

على الرغم من صغر حجم منظمة بليخانوف فإنها تسببت في خلق حالة استنفار بين صفوف قادة الناردونيين، الذين حاولوا على الفور خنق صوت الماركسية عن طريق إجراءات بيروقراطية. اصطدمت محاولات المنظمة لإيجاد الطريق نحو الشباب الثوري في روسيا بجدار صلب من العقبات التي أقامها قادة الجناح اليميني للحركة الناردونية والذي كان يسيطر على الصحافة الحزبية. رفض محررو جريدة «فيستنيك نارودنايا فوليا» حتى طباعة مؤلف بليخانوف الرائد الموجه ضد اللاسلطوية: «الاشتراكية والنضال السياسي». في البداية، بدأ تيخوميروف، قائد نارودنايا فوليا آنذاك، مستعدا لقبول طلب مجموعة بليخانوف الانضمام إلى المنظمة كتيار، لكن بعد نشر «الاشتراكية والنضال السياسي»، سرعان ما غير رأيه وحظر قبول أية مجموعة منظمة داخل نارودنايا فوليا. كان من الواجب عليهم أولا أن يحلوا مجموعتهم، ثم سيتم النظر في كل طلب عضوية كل واحد بشكل فردي. صارت استحالة المصالحة عندها واضحة للجميع، وفي شتنبر عام 1883، شكل الماركسيون مجموعة تحرير العمل الروسية.

عندما حدث الانقسام لم تكن المجموعة تضم أكثر من خمسة أعضاء: بليخانوف وأكسلرود وفيرا زاسوليتش الذين كانوا جميعهم وجوها معروفة في الحركة الناردونية. كانت فيرا زاسوليتش تتمتع بشهرة كبيرة في أوروبا نتيجة لعملية ترييوف. وليف دويتش (1855-1941)، زوج زاسوليتش، والذي كان محرضا نارودنيا نشيطا في جنوب روسيا في نهاية عقد السبعينات [من القرن التاسع عشر]. وكان دور فاسيلي نيكولايفيتش إينغانوف (1854-1885) أقل شهرة. كان قد نفي إلى روسيا الوسطى بسبب مشاركته في المظاهرات الطلابية. وقدم مبالغ كبيرة من الأموال مكنت المجموعة من بدء نشاطها، قبل وفاته، في عز شبابه بشكل مأساوي، بسبب السل الذي منعه من لعب دور فعال في الحركة. اعتقل دويتش في ألمانيا عام 1884، ثم أرسل إلى روسيا حيث تعرض لحكم بالسجن لمدة طويلة، وأدت وفاة إينغانوف إلى تخفيض عضوية المجموعة إلى ثلاثة أشخاص فقط.

انتصبت أمامهم سنوات عديدة من النضال الشاق المعزول في سرية تامة مملدة. لقد تطلب الأمر شجاعة خاصة من طرف أقلية صغيرة لتأخذ قرارا واعيا بالنضال ضد التيار، معزولة عن الجماهير، وفي ظروف المنفى القاسية، وبأقل الموارد وضد الجميع تقريبا. لم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي تحولت فيها القوى الماركسية الروسية إلى مجرد «صوت في الصحراء». وكان الشيء الوحيد الذي دعمهم هو ثقتهم في أفكارهم ونظرياتهم ومنظوراتهم. هذا على الرغم من حقيقة أن أفكارهم بدت وكأنها تتعارض مع الواقع. كانت الحركة العمالية في روسيا ما تزال في مراحلها المبكرة. صحيح أنه كانت هناك بدايات لحركة الإضرابات، لكنها كانت إلى حد بعيد خارج نطاق الاشتراكيين. والمجموعات العمالية الصغيرة التي كانت موجودة كانت ما تزال تحت هيمنة أفكار الناردونيين. وصوت مجموعة تحرير العمل الضعيف لم يكن مسموعا في المصانع. كما كان من الصعب الوصول حتى إلى الطلاب، الذين كانوا ما يزالون تحت تأثير الميولات اللاسلطوية والإرهابية.

1: Baron, op. cit., p: 95.



في رسالة إلى أكسلرود، كُتبت في أواخر مارس عام 1889، قال بليخانوف: «الكل (سواء من الليبراليين أو الاشتراكيين) مجمعون على أن الشباب لن يستمعوا إلى أولئك الذين يتحدثون علنا ضد الإرهاب. ونظرا لهذا علينا أن نكون حذرين».

تعرضت مجموعة تحرير العمل، بمجرد تشكيلها، لهجمات شرسة من جميع الجهات بسبب «خيانتها» المزعومة للحركة النارودنية «الثورية». ومن المنفى كتب تيخومиров إلى رفاقه في روسيا يحذرهم من الدخول في أية علاقة مع جماعة بليخانوف. وكان لحملة الاعتداءات والتشويهات تأثير كبير. علق الباكونيني القديم، زوبوفسكي، ساخرا: «أنتم أيها الناس لستم ثوريين، بل مجرد طلبة لعلم الاجتماع». وكان الموضوع الثابت لهذه الهجمات هو أن أفكار ماركس لا يمكن تطبيقها على روسيا، وأن برنامج بليخانوف كان «نسخة طبق الأصل للبرنامج الألماني»<sup>1</sup>.

شهدت سنوات الثمانينيات النصر الحاسم للأفكار الماركسية داخل الحركة العمالية الأوروبية. وبسبب عزلتهم عن الحركة في روسيا، اقترب أعضاء مجموعة تحرير العمل بشكل غريزي من الأحزاب القوية داخل الأممية الاشتراكية. كتب بليخانوف ورفاقه لصحافتها، وتحدثوا في مؤتمراتها، وخاصة مؤتمرات الحزب الألماني، حزب ماركس وإنجلز وليكنخت وبيبل. لقد استمدوا القوة المعنوية من الإنجازات العظيمة التي كانت تحققها الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية. كانت القوى الماركسية الروسية صغيرة، لكنها شكلت كتيبة داخل صفوف الجيش البروليتاري العظيم، الذي كان يضم ملايين الأعضاء في ألمانيا وفرنسا وبلجيكا. كان ذلك دليلا حيا على تفوق الماركسية، ليس في فقرات كتاب رأس المال، بل في إحصاءات العضوية النقابية وفروع الحزب والأصوات الانتخابية والفرق البرلمانية.

لكن حتى دعم الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية لم يكن مطلقا. فطيلة سنوات عديدة حافظ قادتها على علاقات ودية مع قادة الحركة النارودنية مثل لافروف. في الواقع كان قادة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية ينظرون بارتياح إلى ما كان يبدو لهم وكأنه ليس أكثر من مجموعة عصبوية منشقة غريبة الأطوار. وقد تسببت حدة بليخانوف في الجدل ضد شخصيات نارودنية معروفة أمميا في نشر الذعر. كتب بليخانوف: «في الواقع، إن نضالنا ضد أنصار باكونين تسبب في بعض الأحيان في ظهور مخاوف حتى بين الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الغربية. لقد اعتبروه في غير محله. كانوا يخشون أن تؤدي دعايتنا، من خلال التسبب في انقسام الحزب الثوري، إلى إضعاف طاقة النضال ضد الحكومة».

ولا بد أن الأكثر إيلا ما كانت هي التحفظات التي أعرب عنها إنجلز في مراسلاته مع فيرا زاسوليتش. لقد قبل إنجلز استحالة بناء الاشتراكية في بلد متخلف مثل روسيا كنقطة انطلاق لتحليله. وماركس نفسه، في مقدمة عام 1882 للطبعة الروسية من البيان الشيوعي، وكتابات أخرى، لم يستبعد إمكانية بناء مجتمع لا طبقي في روسيا على أساس مجتمع القرية (المير)، لكنه ربط ذلك بشكل وثيق بمنظور الثورة الاشتراكية في البلدان الرأسمالية المتقدمة في أوروبا الغربية. وقد كتب: «إذا أصبحت الثورة الروسية شرارة للثورة البروليتارية في الغرب، بحيث يكمل كل منهما الآخر، فيمكن للملكية المشتركة الروسية الحالية للأرض أن تكون بمثابة نقطة انطلاق لتطور شيوعي»<sup>2</sup>. في رسالته إلى زاسوليتش، بتاريخ 23 أبريل 1885، عبر إنجلز نفسه عن حذره من كتاب بليخانوف «اختلافاتنا». لكن وبالرغم من ذلك فإن العجز إنجلز عبر عن اعتزازه بأنه: «يوجد بين الشباب الروس حزب يقبل صراحة ودون لبس بالنظريات التاريخية والاقتصادية العظيمة لماركس والذين قطعوا بشكل حاسم مع جميع التقاليد اللاسلطوية والسلافية التافهة لأسلافهم»<sup>3</sup>.

لم يكن هذا موقف العديد من قادة الأممية الاشتراكية الديمقراطية الذين نظروا بارتياح إلى تلك الحفنة الصغيرة من الماركسيين الروس. فقادة الحركة العمالية الغربيين، الذين كانوا يستندون بالفعل على أحزاب قوية تتمتع بدعم جماهيري واسع، كانوا يشككون في احتمالات إنشاء حزب عمالي ماركسي ثوري في روسيا. ورغم احترامهم الظاهري لبليخانوف وجماعته، فقد كانوا فيما بينهم يحكون رؤوسهم حيرة. كانوا يتسائلون عما هو الهدف من كل تلك الصراعات التي لا تنتهي حول مسائل نظرية غامضة؟ هل كان من الضروري حقا الانقسام حول تلك المسائل؟ لماذا لا يستطيع هؤلاء الروس توحيد جهودهم والعمل معا؟

بدا موقفهم المتشكك مبررا بالنظر إلى صغر حجم المجموعة وبطء تطورها. وفي المقابل كان النارودنيون منظمة أكبر بكثير، ويمتلكون موارد أكثر، ونفوذا أكبر بما لا يقاس داخل وخارج روسيا. لكن ومع ذلك فإن مجموعة بليخانوف، التي كانت تبدو

1: Baron, op. cit., p: 166.

2: Marx and Engels, Selected Works, vol. 1, pp: 100-101.

3: Marx and Engels, Selected Correspondence, p: 364.

تافهة، كانت تمثل جنين حزب ثوري جماهيري قوي، سوف يتمكن في فترة وجيزة نسبياً، قدرها 34 سنة، من قيادة العمال والفلاحين الروس إلى الاستيلاء على السلطة وإقامة أول دولة عمالية ديمقراطية في التاريخ.

### مجموعة تحرير العمل

«لا يمكن للحركة الثورية في روسيا أن تنتصر إلا كحركة ثورية عمالية. بالنسبة لنا لا يوجد طريق آخر ولا يمكن له أن يوجد».  
(من خطاب بليخانوف في مؤتمر الأممية الاشتراكية، باريس عام 1889).

قال هيغل ذات مرة: «عندما نريد أن نرى شجرة بلوط في قوة جذعها وامتداد أغصانها، وكثافة أوراقها، لن نرضى بأن تقدم لنا، عوض ذلك، ثمرة بلوط»<sup>1</sup>. إلا أنه يوجد داخل البذرة السليمة لكل نبتة أو جنين كل حيوان جميع المعلومات الوراثية اللازمة لتطورهما المستقبلي. وهو الأمر الذي يصدق كذلك على تطور التيار الثوري. و"المعلومات الجينية" هنا هي النظرية، التي تحتوي داخلها على مخزن غني من الدروس القائمة على الخبرات المتراكمة. النظرية هي الأساس: وكل التطور اللاحق يقوم على هذا. وعلى الرغم من صغر حجم مجموعة تحرير العمل وبدائية أشكال تنظيمها وغياب الاحترافية في عملها، فإن مساهمتها العظيمة كانت هي وضع الأسس النظرية للحركة. وبالضرورة اقتصر العمل الأولي للمجموعة على كسب المناضلين واحدا تلو الآخر، وتكوين وتدريب الكوادر والتأكيد على المبادئ الأساسية للماركسية.

كتب بليخانوف: «إننا نريد من كل قلوبنا العمل على إنتاج أدبيات تكون في متناول فهم عموم الفلاحين والجماهير العاملة؛ لكننا مع ذلك مضطرون، في الوقت الراهن، لحصر جهودنا الأدبية على دائرة ضيقة من القادة العماليين "المثقفين" إلى هذا الحد أو ذاك»<sup>2</sup>. لقد أسهمت كتابات بليخانوف، خلال تلك الفترة، في وضع الأساس النظري لبناء الحزب. وما يزال الكثير منها من بين الكتابات الماركسية الكلاسيكية حتى وقتنا الحالي، على الرغم من أنها لا تحظى بالاهتمام الكافي من قبل دارسي الماركسية. وليس من قبيل الصدفة أن لينين كان قد أوصى بشدة بإعادة نشر كتابات بليخانوف الفلسفية بعد الثورة، عندما كان الرجلان قد صارا منذ فترة طويلة أعداء سياسيين. إن "الاشتراكية والنضال السياسي"، و"اختلافاتنا"، وقبل كل شيء تحفة بليخانوف: "في تطور النظرية الأحادية للتاريخ"، هي إعادة تأكيد ناجح على الأفكار الأساسية للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية.

ألقي هجوم بليخانوف القادة الناروديين في حالة من الفوضى. وبسبب عدم قدرتهم على تقديم إجابة متماسكة على النقد الماركسي، لجأوا إلى الشكاوى المريرة والمزاعم الحاقدة حول المجموعة الجديدة. زعمت جريدة "فيستنيك نارودنايا فوليا" (العدد الثاني، 1884) أنه «بالنسبة لهم [الماركسيين] يعتبر الجدل مع نارودنايا فوليا أكثر أهمية من الصراع ضد الحكومة الروسية وضد مستغلي الشعب الروسي الآخرين»<sup>3</sup>.

كثيرة جدا هي المرات التي سمعنا فيها، نحن الماركسيين، مثل هذه الادعاءات طوال تاريخنا! بسبب "جرمة" الإصرار على الوضوح النظري ومحاولة رسم خط واضح لتقسيم الحدود بينها وبين التيارات السياسية الأخرى، تتهم الماركسية دائما "بالعصبوية"، وبالوقوف ضد "وحدة اليسار"، وهلم جرا. ومن المفارقات العظيمة للتاريخ هي أن أحد النقاد الناروديين الرئيسيين ضد بليخانوف، تيخوميروف، والذي اتهم المجموعة بتعطيل الوحدة الثورية والقبول بنير الرأسمال، انتقل هو نفسه بعد ذلك إلى معسكر الرجعية الملكية. وهذه ليست المرة الأولى أو الأخيرة التي انتهى فيها دعاة "الوحدة" غير المبدئية إلى الاتحاد مع أعداء الطبقة العاملة!

ومع ذلك فإن العمل على اختراق الحركة الثورية في روسيا واجه صعوبة هائلة. وقد طرح نقل الأدبيات غير الشرعية إلى داخل روسيا مشاكل عويصة. تم تجنيد عمال وطلاب يدرسون في الخارج لإدخال الكتابات غير الشرعية إلى روسيا عند عودتهم إلى عائلاتهم خلال العطل. وفي عدة مرات تم إرسال أفراد من المجموعة إلى روسيا لإقامة اتصالات. كانت هذه الرحلات خطيرة للغاية وانتهت في كثير من الأحيان بالاعتقال. كان عدد الناس في الداخل الذين تمكنوا من إقامة اتصال مباشر مع المجموعة قليلا وفي فترات متباعدة، وكانوا يعملون مثل شذرات الذهب. في 1887-1888، كانت هناك محاولة لإقامة اتحاد للاشتراكيين الديمقراطيين الروس في الخارج، بقيادة الطالب رافايل سولوفيشيك، الذي كان قد غادر روسيا في عام 1884. لكنه اختلف مع المجموعة وعاد إلى روسيا، حيث اعتقل عام 1889 وحكم عليه بالسجن لمدة طويلة، ثم أصبح مختلا عقليا وأقدم على الانتحار. عضو آخر في المجموعة

1: G.W.F. Hegel, The Phenomenology of Mind, p: 75.

2: Istoriya KPSS, vol. 1, p: 132. (التشديد من آلان وودز)

3: Ibid., p: 136.

نفسها، غريغور غيكوفسكي، وهو طالب شاب في زيوريخ، اعتقل في آخن وسلم إلى الحكومة القيصرية. حكم عليه بالسجن، وأقدم هو أيضا على الانتحار. كان هناك العديد من مثل هاتين الحالتين. كانت ذراع السلطات القيصرية طويلة. وقد واجهت المجموعة باستمرار خطر تسلل جواسيس الشرطة والعملاء الاستفزازيين إليها. وكان أحد هؤلاء الجواسيس هو كريستيان هاوبت، وهو عامل تم تجنيده من قبل الشرطة لاختراق المنظمات الاشتراكية الديمقراطية الروسية في المنفى. وبعد فضحه من طرف الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني كجاسوس للشرطة، طرد من سويسرا.

والأسوأ من ذلك كله كان هو الإحساس بالعزلة السياسية الكاملة، والذي تفاقم من جراء المشاحنات والصراعات الحتمية لحياة المنفى. المهاجرون النارودنيون، الذين اكتووا بانتقادات بليخانوف، نفسوا عن مشاعرهم عن طريق الاحتجاجات القوية ضد تسميتهم "بالباكونيين" وطالبوا باعتذار علني. كانت غالبية المنفيين الساحقة من النارودنيين، ومعادية شرسة للمجموعة الجديدة التي كانوا يعتبرونها مجموعة من الخونة والمنشقين. بعد مرور سنوات، أشارت زوجة بليخانوف إلى أن «أعضاء نارودنايا فوليا وميخايلوفسكي (ن. ك) كانوا، في ذلك الوقت، يسيطرون على قلوب وعقول المهاجرين والطلاب الروس في جنيف»<sup>1</sup>.

«بعد اغتيال الكسندر الثاني، اجتاحت فترة من اليأس القاتل روسيا كلها... وفرضت السقوف الرصاصية [السجون] لحكومة الكسندر الثالث صمت القبور. وسقط المجتمع الروسي في قبضة الاستسلام التام، وواجه نهاية كل الآمال في تحقيق إصلاح سلمي، وما بدا وكأنه فشل لجميع الحركات الثورية. في مثل هذا الجو لا يمكن أن تظهر إلا النزعات الميتافيزيقية والصوفية»<sup>2</sup>.

بهذه الكلمات وصفت روزا لوكسمبورغ هذا العقد القاتم من الردة الرجعية. كان القيصر الجديد الكسندر الثالث، رجلا عملاقا، قويا بما يكفي لثني حدوة حصان بيديه، لكنه كان غيبا. وكان الحاكم الحقيقي لروسيا هو بوييدونوستسيف، معلم القيصر السابق، ووكيل المجمع المقدس، والذي يعتقد أن الديمقراطية الغربية فاسدة، وأن النظام البطيريركي الروسي وحده النظام الصالح، وأنه يجب فرض الصمت على الصحافة، وأن المدارس يجب أن تكون تحت سيطرة الكنيسة، وأن حكم القيصر يجب أن يكون مطلقا. كان من المفروض على كهنة القرية الإبلاغ عن أي من الرعايا المشبوهين سياسيا إلى الشرطة، وكانت حتى خطبهم تخضع للرقابة. وتم اضطهاد كل الديانات غير الأرثوذكسية وغير المسيحية. واعتبرت أفكار تولستوي بشكل خاص خطيرة على الكنيسة والدولة. تولستوي نفسه تعرض للطرده. وتعرض كل احتجاج طلابي للقمع بقسوة.

كانت تلك أوقاتا صعبة. كان هناك تراجع على جميع المستويات وانحسار إيديولوجي وردة جبانة. كان الاتجاه النارودني القديم في مأزق تام. وبعد أن أحرق هؤلاء "الثوار الجذريين" أصابعهم بالإرهاب، انعطفوا 180 درجة وانتهوا في نهاية المطاف في معسكر الليبراليين الخونة، وصاروا يعطون بسياسة "الإنجازات الصغيرة" الجبانة والعمل الثقافي التربوي المسالم. وفي تعليقه على اضمحلال الحركة النارودنية كتب مارتوف: «لقد كان سقوط [منظمة] إرادة الشعب في الوقت نفسه انهيارا للحركة الشعبية ككل. تعرضت دوائر واسعة من المثقفين الديمقراطيين لإحباط عميق وخيبة أمل في "السياسة" وفي مهمتهم البطولية الخاصة. القيام بمساهمة متواضعة في خدمة القطاعات الليبرالية من بين الطبقات المالكة: كان هذا هو الشعار الذي هوجبه دخل قسم من المثقفين، الذين استمروا مواليين للشعبوية، إلى حقبة الثمانينيات الرمادية»<sup>3</sup>.

اضطرت مجموعة تحرير العمل، على مدى السنوات العشر الأولى أو نحو ذلك من وجودها، لخوض معركة صعبة ضد التيار. ومن أجل إيجاد الطريق إلى جيل الشباب، كان بليخانوف مضطرا إلى التعاون مع جميع أنواع العناصر المشوشة وشبه النارودنية. من بين تلك المجموعات كانت هناك واحدة تصدر جريدة ضيقة الانتشار تدعى سفوبودنايا روسيا (روسيا الحرة) والتي أعلنت في المقال الافتتاحي لعددتها الأول استحالة "تنظيم العمال والفلاحين حول العمل الثوري"، ووقفت ضد رفع مطالب قد تخيف المتعاطفين مع الليبرالية. وكان الاتصال مع روسيا يشبه مهمة حاطب الليل. ولم يكن الوضع مع المنفيين أحسن حالا. ويظهر الإحباط الذي أصاب المجموعة في مراسلات بليخانوف مع أقرب معاونيه. وحتى النشاط الأدبي للمجموعة كان محفوقا بالصعوبات. عاشت مجموعة تحرير العمل في جو من الأزمة المالية المستمرة. وبسبب كونها مجموعة صغيرة من حيث العدد، وبنطاق محدود لجمع الأموال، عادة ما كانت تعتمد على ما يعرف في المسرح الأمريكي بـ "الملائكة"، أي المتعاطفين الأثرياء المستعدين لتمويل مشاريعها الأدبية. في بعض الأحيان لم يكن هؤلاء الناس حتى اشتراكيين، مثل غرييف الذي قدم المال لإصدار الجريدة الدورية [تصدر كل ثلاثة أشهر - م] "سوسيال ديمقراط". وبشكل عام، كانت إصدارات المجموعة غير منتظمة للغاية. وفي بعض الأحيان

1: Perepiska GV Plekhanova i PB Aksel'roda, p: 87.

2: J.P. Nettl, Rosa Luxemburg, vol. 1, p: 44.

3: F. Dan, op. cit., p: 141.

كانت المهمة تبدو أقرب إلى الاستحالة. في صيف عام 1885، كتب بليخانوف إلى أكسلرود بعبارات من يشارف على اليأس: «لكننا في الحقيقة نقف على هاوية من كل أنواع الديون، ولا أعرف ولا يمكننا التفكير فيما يمكننا التشبث به لمنع أنفسنا من السقوط. إن الأوضاع سيئة»<sup>1</sup>.

طيلة سنوات الثمانينيات المظلمة عاش بليخانوف وعائلته في فقر مدقع. في بعض الأحيان كان يعطي دروسا خاصة في الأدب الروسي مقابل راتب صغير، ويعيش في أرخص "نزل" في ملكية جزار كان يطعمهم حصرا بالحساء واللحم المسلوق! سوء الظروف الغذائية والمعيشية قوضت وضعه الصحي. ولفترة من الوقت أصيب بشكل خطير بمرض ذات الجنب (Pleurisy)<sup>2</sup>، الذي استمر أثره عليه بقية حياته. مجموعة تحرير العمل، التي كانت تشتغل في ظل صعوبات هائلة وتعاني من ضغط قاس من جميع الجهات، تمكنت من الحفاظ على وحدتها بفضل الإيمان بأفكارها، لكن أيضا بفضل السلطة الأخلاقية والسياسية الهائلة لبليخانوف. كان بليخانوف داخل المجموعة هو الزعيم دون منازع. وقد أدت تلك العزلة نفسها بالأعضاء إلى الاتحاد في دائرة متماسكة بشكل وثيق، ملتحمين معا بروابط سياسية وشخصية قوية. ليس عبثا أنهم اكتسبوا لاحقا لقب "العائلة"، والتي كان بليخانوف ربها بدون جدال. لقد كان من الناحية الفكرية يفوق الآخرين، كما وجد بينهم شعور قوي بالاعتماد المتبادل ناتج عن سنوات من النضال والتضحية في قضية مشتركة. وبالتالي لم يكن من المستغرب في مثل هذه الظروف أن تختلط المسائل الشخصية بالمسائل السياسية. كان بليخانوف عماد قوة الآخرين، هو من يمنحهم الدعم المعنوي في أوقات الشك والأزمات الشخصية.

كانت مأساة أناس مثل أكسلرود وزاسوليتش ذات طابع مزدوج. ففي ظل ظروف تاريخية مختلفة كان يمكن لهاتين الشخصيتين الموهوبتين أن تلعبا دورا أكبر بكثير في تشكيل الأحداث. كان لسنوات العزلة الطويلة في المنفى تأثير كارثي على نموها النفسي والفكري. وبعد أن عملا في ظل بليخانوف، توقف تطورهما إلى درجة أنهما لم يتمكنوا من التكيف، عندما تغيرت الظروف، وخسرتهما الحركة الثورية. وبالنظر للظروف التي اضطرت مجموعة تحرير العمل إلى الاشتغال في ظلها على مدى عقود، كان من الحتمي تقريبا أن تتسلل إليها آثار عقلية الحلقات الصغرى. لم يكن لهذه العوامل أهمية كبيرة في السنوات الأولى، خلال الفترة الطويلة البطيئة من الإعداد النظري والحلقات الدعوية الصغرى. فقط في وقت لاحق، عندما واجهت الحركة الماركسية الروسية ضرورة تجاوز حدود مرحلة الدعاية، حيث ظهرت الصفات السلبية لمجموعة تحرير العمل.

طيلة عقدين من الزمن استمر عدد أعضاء مجموعة تحرير العمل هو نفسه تقريبا. ومن مؤسسيها، توفي ف. ن. إيغناطوف في وقت مبكر جدا مما منعه من أن يترك تأثيرا كبيرا. وكان ليف دويتش قلب وروح الجانب التنظيمي للعمل، من قبيل القيام بالترتيبات اللازمة لطباعة الأدبيات وتوزيعها. وكان بافل أكسلرود داعية موهوبا ترك انطبعا كبيرا على الشابين لينين وتروتسكي. كان اسمه لفترة طويلة مرتبطا باسم بليخانوف. وقد عانت فيرا زاسوليتش، المناضلة الصادقة وطيبة القلب والمتسعة، أكثر من الآخرين من صدمة المنفى. كانت متشوقة دائما إلى رآب الفجوة بين مجموعة تحرير العمل وبين الجيل الجديد من الثوريين في روسيا، مما جعلها تقف دائما للدفاع عن الشباب، والتغلب على مقاومة بليخانوف وتشجيع المبادرات الجديدة، التي كانت غير ناجحة في غالب الأحيان، مع مجموعات الشباب في المنفى.

العمل الدؤوب للماركسيين أعطى في نهاية المطاف ثماره. وقد كان السبب الحقيقي لاحتجاج الناردونيين ضد "العصوية" و"المنشقين"، هو التأثير الذي كان للأفكار الماركسية على أتباعهم. من الصعب أن نبالغ في تقدير التأثير الذي مارسه كتابات من قبيل "خلافاتنا" (1885) على الثوار الشباب داخل روسيا، الذين كانوا يبحثون بجد عن وسيلة للخروج من مأزق الحركة الناردونية، التي كانت آنذاك في مرحلة انحطاط بديهي. بلغ التحول نحو اليمين لقادة الحركة الناردونية أوجه مع إعلان تيخوميروف -الذي كان هدفا للكثير من النقد من طرف بليخانوف- تخليه عن المعسكر الثوري، حيث نشر في عام 1888 كتيباً بعنوان "لماذا لم أعد ثوريا".

كان لانهار الناردونية الثورية القديمة تأثير عميق في أوساط الشباب داخل روسيا، مما خلق حالة استقطاب بين العناصر الإصلاحية المؤيدة لليبرالية وبين أفضل العناصر من الشباب، الذين كانوا يسعون لإيجاد الطريق إلى الثورة. وحوالي نهاية عام 1887، كتب س. ن. غينسبرغ، الذي كان قد عاد مؤخرا من روسيا، بلهجة قلقة إلى القيادي الناردوني ب. ل. لافروف: «لقد مارست "خلافاتنا" و"الاشتراكية والنضال السياسي" تأثيرهما القوي، والذي لا يمكننا إلا أن نتعاش معهما... بسببهما تحطمت أهمية الفرد

1: Perepiska GV Plekhanova i PB Aksel'roda, pp: 21 and 66.

2: ذات الجنب Pleurisy هو التهاب يصيب الجنب أو البلورا Pleura وهي غشاء مزدوج الطبقة يحيط بالرئتين ويفصلهما عن جدار الصدر. وفي العادة، تحدث ذات الجنب كمضاعفة لبعض الأمراض الأخرى مثل الالتهاب الرئوي - المترجم.

وأهمية المثقفين في الثورة تماما. ولقد رأيت شخصا الأشخاص الذين حطمتهم نظرياته. والشيء الخطير هو لهجته الجريئة كما لو أنه مقتنع بصواب موقفه، ونفيه لكل ما كان من قبل، وتحويله لجميع أسلافه إلى عدم. كل هذا له بالتأكيد تأثير<sup>1</sup>.

تبين رسالة غينسبرغ كيف أنه، ودون علم الماركسيين في المنفى، كانت هناك تجمعات جديدة تتبلور في الداخل، تناقش إخفاقات الماضي وتعمل على تقييم التجربة وتبحث عن طريق جديد. وهنا سقطت أفكار بليخانوف على أرض خصبة. ومع مطلع عقد التسعينيات بدأت المجموعة تتمتع بنفوذ هائل في أعين أعداد متزايدة من الشباب الماركسي، وصار اسم بليخانوف معروفا في كل حلقات الدعاية السرية وفي كل مراكز الشرطة في روسيا.

### التطور المركب واللامتكافئ

بحلول نهاية عقد الستينيات [من القرن 19 م-]، لم يكن هناك سوى 1600 كيلومتر من خطوط السكك الحديدية في البلاد كلها. لكن خلال العقدين التاليين ازداد هذا الرقم 15 مرة. وفي السنوات العشر ما بين 1892 و1901، تم بناء ما لا يقل عن 26.000 كيلومتر من خطوط السكك الحديدية. وإلى جانب المركزين الصناعيين التقليديين: موسكو وسان بيترسبورغ، نشأت مراكز جديدة في مناطق مثل البلطيق وباكو ودونباس. ما بين 1893 و1900 شهد إنتاج النفط زيادة بمقدار الضعفين، وارتفع إنتاج الفحم ثلاث مرات. الواقع أن تطور الصناعة [في روسيا م-] لم يكن له ذلك الطابع العضوي لتطور الرأسمالية في بريطانيا، والذي وصفه ماركس في كتابه "رأس المال". قدم تحرير الأفتان عام 1861 الأساس المادي لتطور الرأسمالية، لكن البرجوازية الروسية جاءت إلى مسرح التاريخ متأخرة مما حال بينها وبين الاستفادة من هذه الفرصة. لا يمكن للرأسمالية الروسية السقيمة والمتخلفة أن تتنافس مع البرجوازية القوية والمتقدمة في أوروبا الغربية وأمريكا. ومثلما هو الحال اليوم في البلدان المستعمرة سابقا، كانت الصناعة الروسية تعتمد بشكل كبير على رؤوس الأموال الأجنبية التي تمارس هيمنة ساحقة على الاقتصاد، وبصورة رئيسية من خلال سيطرتها على النظام المصرفي والمالي:

كتب تروتسكي: «تم اندماج رأس المال الصناعي مع رأس المال البنكي في روسيا بشكل كامل لا يمكنك أن تجده في أي بلد آخر. لكن خضوع الصناعة الروسية للأبنك كان يعني، لنفس الأسباب، خضوعها لسوق الأوراق المالية في أوروبا الغربية. والصناعة الثقيلة (المعادن، الفحم، النفط) كانت كلها تقريبا تحت سيطرة الرأسمال المالي الأجنبي، الذي أنشأ نفسه في روسيا نظاما بنكيا مساعدا ووسيطا. وكانت الصناعة الخفيفة تسير في نفس الطريق. كان الأجانب يملكون عموما حوالي 40% من مجموع رؤوس الأموال المستثمرة في روسيا، لكن هذه النسبة كانت أكبر من ذلك بكثير في فروع الصناعة الرئيسية. ويمكننا أن نؤكد دون أية مبالغة أن مركز مراقبة الأسهم التي تصدرها البنوك والمصانع والمعامل الروسية كان موجودا خارج البلاد، وكانت مشاركة رؤوس الأموال الإنجليزية والفرنسية والبلجيكية أكبر من ضعف مثلتها الألمانية<sup>2</sup>.

أعطى اختراق المجتمع الروسي من قبل الرأسمال الأجنبي دفعة قوية للتطور الاقتصادي، وأخرج روسيا من 2.000 سنة من الهمجية وأدخلها إلى العصر الحديث. لكن هذا بالضبط أدى إلى خلق وضع اجتماعي متفجر. حيث انتزع أعدادا كبيرة من الفلاحين من روتين الحياة الريفية الجامدة ورمى بهم إلى جحيم الصناعة الرأسمالية الكبرى.

وجدت النظرية الماركسية حول التطور المركب واللامتكافئ تعبيرها الأكثر وضوحا في العلاقات الاجتماعية المعقدة للغاية في روسيا في مطلع القرن [العشرين م-]. فجنبنا إلى جنب مع الأنماط الإقطاعية وشبه الإقطاعية، وحتى ما قبل الإقطاعية، شيدت أكثر المصانع حدائثة، والتي بنيت برأسمال فرنسي وبريطاني على أحدث طراز. هذه بالضبط هي الظاهرة التي نراها الآن في كل ما يسمى بالعالم الثالث، وظهرت بشكل أكثر جلاء في التطور الذي شهدته بلدان جنوب شرق آسيا خلال النصف الأول من عقد التسعينيات [من القرن العشرين م-]. وهو ما يقدم صورة مشابهة للتطور الذي شهدته روسيا قبل مائة سنة بالضبط. ومن الممكن جدا أن تكون النتيجة السياسية متشابهة. إن تطور الصناعة في مثل هذا السياق يعمل كحافز للثورة. وتوضح روسيا مدى السرعة التي يمكن لذلك أن يحدث بها. ومع التطور العاصف الذي شهدته الرأسمالية الروسية في الثمانينات والتسعينات [من القرن 19 م-] جاء النهوض العاصف بدوره للبروليتاريا. كانت موجة الإضرابات التي شهدتها عقد التسعينيات هي المدرسة التحضيرية لثورة عام 1905.

1: Ibid., p: 61.

2: Trotsky, The History of the Russian Revolution, p: 32.

في غضون 33 سنة فقط، ما بين 1865 و1898، تضاعف عدد المصانع التي تشغل أكثر من 100 عامل، من 706.000 مصنع، إلى 1.432.000. وبحلول عام 1914، كان أكثر من نصف جميع العمال الصناعيين يعملون فعلا في مصانع تشغل أكثر من 500 عامل، وما يقرب من ربع المصانع تشغل أكثر من 1.000 عامل، وهي النسبة الأعلى بكثير مما كانت عليه في أي بلد آخر. وبالفعل في عقد التسعينيات وظفت سبعة مصانع كبيرة في أوكرانيا ثلثي كل عمال المعادن في روسيا، في حين كانت باكو تضم تقريبا جميع العاملين في قطاع النفط. في الواقع كانت روسيا، حتى عام 1900، أكبر منتج للنفط في العالم<sup>1</sup>.

ومع ذلك، فعلى الرغم من التطور العاصف للصناعة، فإن السمة العامة للمجتمع الروسي ظلت هي التخلف الشديد. كانت أغلبية السكان ما تزال تعيش في القرى، حيث شهد التطور السريع للتمايز الطبقي دفعة قوية بفعل الأزمة في الزراعة الأوروبية في الثمانينيات وأوائل عقد التسعينيات. أدى انخفاض سعر الحبوب إلى خراب فئات واسعة من الفلاحين، والذين وصف تشيخوف بشكل باهر، في قصصه القصيرة: "في الوادي الضيق" و"موزهيكس"، الظروف المروعة التي كانوا يعيشون فيها. أصبح منظر الريفي شبه البروليتاري، المحروم من الأرض، وهو يتجول بين القرى بحثا عن عمل، مشهدا مألوفًا. وعلى الطرف الآخر من الطيف الاجتماعي ظهرت طبقة جديدة من الرأسماليين القرويين الصاعدين -الكولاك- الذين كانوا يزدادون ثراء على حساب فقراء القرية، وكان في إمكانهم شراء الأراضي من ملاك الأراضي القدامى، وهو الوضع الذي تصفه بخفة دم وبصيرة مسرحية تشيخوف الشهيرة "بستان الكرز".

وعلى الرغم من كل محاولات النظام القيصري لدعم مجتمع القرية القديم، المير، والذي كان من المفترض، وفقا للمنظرين النارودنيين، أن يوفر الأساس للاشتراكية الفلاحية، فإنه كان يتفكك بسرعة على أساس طبقي. أولئك الذين لم يتمكنوا من العثور على عمل في القرية تدفقوا إلى المدن، مما وفر جيشا هائلا من العمالة الرخيصة للشركات الرأسمالية التي أنشئت حديثا. خلق التطور السريع للصناعة حالة استقطاب طبقي متزايد داخل صفوف الفلاحين، مع تبلور فئة من الفلاحين الأغنياء، أو الكولاك، وكتلة من فقراء الريف الذين لا يملكون أرضا والذين تدفقوا على نحو متزايد إلى المدن بحثا عن عمل. والصراع العنيف بين الماركسيين والنارودنيين حول حتمية أو عدم حتمية تطور الرأسمالية في روسيا، صار يحسم بشكل تام من قبل الحياة نفسها. وكانت كتابات لينين الأولى، مثل "التطورات الاقتصادية الجديدة في حياة الفلاح"، و"حول ما يسمى مسألة السوق" و"تطور الرأسمالية في روسيا"، موجهة لتصفية الحساب مع النارودنيين، لكنها وعلى عكس كتابات بليخانوف، كانت تعتمد على لغة الحقائق والأرقام والحجج الدامغة.

تطور الرأسمالية في روسيا كان يعني أيضا تطور البروليتاريا والتي سرعان ما أخبرت المجتمع بأسره بعزمها على وضع نفسها في طليعة النضال من أجل التغيير. سرعان ما خلق الطابع شديد التمركز للصناعة الروسية جيوشا من العمال الصناعيين، المنظمين والمنضبطين، ووضعتهم في مواقع إستراتيجية داخل المجتمع والاقتصاد. وقد بين تصاعد حركة الإضرابات بوضوح ارتفاع الثقة والوعي الطبقي عند الطبقة العاملة الروسية في تلك الفترة.

السنوات	1889-1885	1894-1890
عدد الإضرابات	221	181
عدد العمال المشاركين	223.000	170.000

(المصدر: (Istoriya KPSS, vol. 1, p: 96)

ابتداء من ربيع 1880، تعرضت الصناعة لأزمة استمرت عدة سنوات. شهدت تلك الفترة ارتفاع معدلات البطالة، حيث عمل أرباب العمل بقسوة على تخفيض أجور العمال البئيسة أصلا. وبالإضافة إلى جميع المشاكل الأخرى، كان العمال يتعرضون باستمرار لجميع أنواع الاضطهاد والقوانين التعسفية التي كانت تهدف إلى تأييد خضوعهم، وعلى رأسها جميعا كانت هناك عادة فرض غرامات على سلسلة كاملة من الاعتداءات الحقيقية أو المتخيلة ضد أرباب العمل. السخط والاستياء المتراكمين بين العمال انفجرا أخيرا في موجة من الاحتجاجات العمالية ما بين عامي 1885 و1886 في موسكو وفلاديمير وباروسلاف، والتي بلغت ذروتها في الإضراب الذي شهده مصنع نيكولسكوي الذي كان يملكه ت. س. موروزوف.

شهد عمال شركة موروزوف، الذين كان يبلغ عددهم 11.000 عامل، اقتطاعات في أجورهم بما لا يقل عن خمس مرات في غضون عامين. وفي نفس الوقت فرضت غرامات قاسية جدا على العامل الذي يغني أو الذي يتحدث بصوت عال أو الذي يمر أمام مكتب

1: F. Dan, The Origins of Bolshevism, 150 and B.H. Sumner, A Survey of Russian History, pp: 324-331.

المدير وهو يعتمر قبعته، وهلم جرا. بلغت هذه الغرامات في كثير من الأحيان ربع أجر العامل، وأحيانا النصف. ويوم 07 دجنبر 1885، انفجر كل الغضب والإحباط المكبوتين، طيلة سنوات من المضايقات الصغيرة والسرقعة والتعسف، بقوة هائلة. وكان القيادي في ذلك الإضراب، بيوتر أنيسيموفيتش مواسيينكو (1852-1923)، ثوريا محنكا، وعضوا سابقا في منظمة خالتورين، الاتحاد الشمالي للعمال الروس، وكان قد قضى فترة في المنفى في سيبيريا. كان رجلا مميزا، وواحد من تلك القيادات الطبيعية للطبقة العاملة. في وقت لاحق كتب مواسيينكو: "لقد تعلمت أولا أن أفهم، ثم أتحرك".

عبر العمال الغاضبون عن غضبهم بتحطيم مخزن الغذاء بالمصنع، حيث كان نظام المصنع يرغمهم على شراء المواد الغذائية بأسعار مبالغ فيها، ومنزل رئيس العمال المكروه، شورين. قام حاكم إقليم فلاديمير، الذي ارتعب من عنف الانفجار، بإرسال الجيش وقوات القوزاق إلى المعمل. قدم العمال للحاكم مطالبهم، لكنهم قوبلوا بالقمع. ألقى القبض على ستمائة عامل. وحاصرت القوات المصنع واضطر العمال للرجوع إلى العمل تحت تهديد السلاح. ومع ذلك استمرت الأجواء متوترة إلى درجة أن المصنع لم يعمل بكامل طاقته إلا بعد مرور شهر.

انتهى إضراب عمال مصنع موروزوف بالهزيمة. ومع ذلك فإن التأثير الذي كان له على عقول العمال في جميع أنحاء روسيا أعد الطريق لاندلاع الإضرابات الجماهيرية الحاشدة التي شهدتها العقد القادم. أثناء محاكمة المضربين، التي تمت في فلاديمير شهر ماي 1886، تقدم مواسيينكو والمتهمين الآخرين بدفاع حماسي تحول إلى اتهام كاسح لظروف العمل في المصنع، إلى درجة أن التهم ضدهم أُلغيت وجاء الحكم لصالح العمال. خلق الحكم الذي صدر عن محاكمة موروزوف صدى قويا في المجتمع الروسي. وبسبب قلقها كتبت الجريدة الرجعية موسكوفيسكي فيدموستي: «لكن من الخطورة بمكان المزاح مع جماهير الشعب، ما الذي سيفكر فيه العمال، بعد الحكم بالبراءة الذي أصدرته محكمة فلاديمير؟ إن خبر هذا القرار ينتشر بسرعة البرق عبر كل هذه المنطقة الصناعية. مراسلنا، الذي غادر فلاديمير مباشرة بعد إعلان الحكم، سمع عنه في كل المحطات...»<sup>1</sup>.

أظهر إضراب موروزوف القوة الكامنة الهائلة للبروليتاريا. ولم يغيب الدرس عن النظام القيصري، والذي، رغم دعمه الكامل للمالكي المصانع، قرر أنه يجب تقديم تنازلات للعمال. وهو ما قام به في 03 يونيو 1886، عندما صدر قانون الغرامات الذي يحد من المبلغ الذي يمكن فرضه على العمال، وينص على أن العائدات لا ينبغي أن تذهب لجيوب أرباب العمل، بل تودع في صندوق خاص لصالح العمال. وكما هو الحال دائما، كان الإصلاح نتيجة جانبية للنضال الثوري للعمال من أجل تغيير المجتمع. ومثلما كان الحال مع تشريع "قانون العشر ساعات" الذي صدر في بريطانيا في القرن الماضي، فإن قانون الغرامات جاء محاولة لتهدئة العمال ومنعهم من السير في اتجاه ثوري، وفي الوقت نفسه محاولة للاستناد على العمال للحد من مطالب الليبراليين البرجوازيين. لم تمنع هذه التشريعات "الخيرة" حملة القمع الوحشي للإضرابات والاعتقالات بالجملة والترحيل ضد قادة العمال في الفترة المقبلة. كما لم يؤد القانون الجديد إلى الغاية المرجوة منه أي تلطيف حدة الإضرابات. لقد ألهم إضراب موروزوف العمال، في حين أظهرت التنازلات التي منحها النظام الاستبدادي الجبار للعمال ما يمكنهم تحقيقه من خلال النضال بشجاعة من أجل مصالحهم. في عام 1887، تجاوز إجمالي عدد الإضرابات عدد تلك التي سجلت خلال العامين السابقين معا. بعد ذلك بعامين، اضطر قائد الشرطة، بليهف، أن يقدم تقريرا إلى الكسندر الثالث، يخبره فيه أن عام 1889 كان «أكبر من عامي 1887 و1888 فيما يتعلق بالاضطرابات التي تسببت فيها ظروف العمل في المصانع»<sup>2</sup>.

كان تصاعد حركة الإضراب يشير إلى تزايد وعي العمال بأنفسهم كطبقة وكقوة داخل المجتمع. وكانت الفئات الطليعية، التي يمثلها أناس من قبيل مواسيينكو، تتلمس طريقها نحو الأفكار التي يمكنها أن تسلط الضوء على حالتهم وتبين لهم الطريق إلى الأمام. وكانت لهذه الحركة سمة مزدوجة. فمن ناحية، كانت هذه التحركات العفوية ترافقها في كثير من الأحيان بعض أشكال اللوديزم (Luddism)<sup>3</sup>. والتي، بالرغم من طبيعتها غير المنظمة وغير الواعية، أعلنت للعالم دخول الطبقة العاملة الروسية إلى مسرح التاريخ؛ ومن ناحية أخرى، قدمت دليلا لا يدحض على صحة الحجج النظرية لبلخانوف ومجموعة تحرير العمل. وفي نار الصراع الطبقي، تم وضع الأساس آنذاك لكي تتكاتف القوى الماركسية، التي كانت ما تزال ضعيفة عدديا، والقوى الجبارة، لكن غير المنسجمة بعد، للبروليتاريا الروسية.

1: LCW, Explanation of the Law on Fines Imposed on Factory Workers, vol. 2, p: 38.

2: Istoriya KPSS, vol. 1, p: 100.

3: اللوديزم (Luddism) هو الاسم الذي يطلق على إحدى حركات العمال الإنجليزي في السنوات الأولى للثورة الصناعية. ألقى هؤلاء العمال اللوم في ارتفاع البطالة على الآلات، فقاموا بتحطيمها.

من وجهة النظر الماركسية، تتجاوز أهمية الإضراب مجرد النضال من أجل المطالب الفورية بخصوص ساعات العمل والأجور وظروف الاشتغال والعيش. الأهمية الحقيقية للإضرابات، حتى عندما تفشل، هو أن العمال يتعلمون. ففي خضم الإضراب يصبح العمال وزوجاتهم وأسرهم، بشكل حتمي واعين بدورهم كطبقة. يتوقفون عن التفكير والتصرف مثل العبيد، ويبدأون في رفع أنفسهم إلى مكانة بشر حقيقيين لديهم عقل وإرادة. من خلال تجربتها في الحياة والنضال، ولاسيما خلال الأحداث الكبرى، تبدأ الجماهير في تغيير نفسها. وبدءاً من الفئة الأكثر نشاطاً ووعياً، يصبح العمال ساخطين بعمق على أوضاعهم، ويبدأون في الإحساس بنقاط ضعفهم. وتفرض الهزائم، أكثر من الانتصارات، على العامل المناضل ضرورة التوصل إلى فهم واضح لطريقة اشتغال المجتمع وأسرار الاقتصاد والسياسة.

ينتج نمو الصناعة الرأسمالية نفسها جيشاً عظيماً من البروليتاريا. لكن حتى أفضل الجيوش ستتعرض للهزيمة إذا كانت تفتقر إلى الجزالات والضباط ذوي التكوين الجيد في شؤون الحرب. لقد أعلنت معارك الإضرابات العاصفة لعقد الثمانينيات للعالم أن الكتائب الجبارة للبروليتاريا الروسية مستعدة وراغبة في خوض الكفاح. لكنها كشفت أيضاً عن ضعف الحركة وطبيعتها العفوية وغير المنظمة وغير الواعية، وافتقارها إلى التوجيه والقيادة. كان الجيش موجوداً؛ الشيء الذي كان ضرورياً هو إعداد هيئة الأركان العامة المستقبلية. وقد توصل أفضل العمال إلى هذا الاستنتاج. وبفضل الجدية والاستقلالية في التفكير التي تميز المناضلين العماليين في جميع أنحاء العالم، قرر هؤلاء أن يبدأوا في التعلم.

### مرحلة الحلقات الصغرى

لم تُخض المعارك الفكرية الضارية في العقد الماضي دون جدوى. إذ بدأ عدد متزايد من الشباب في روسيا ينظرون للماركسية كوسيلة لتغيير المجتمع. وبالنسبة لهؤلاء الرجال والنساء الشباب، لم يعد شعارهم هو "توجهوا نحو الشعب"، بل "توجهوا نحو العمال"؛ وفي ظل الظروف السائدة، كان من الضروري القيام بذلك العمل في ظل السرية الصارمة. وكان الأسلوب المعتاد لحلقة الدعاية السرية هو تشكيل نوع من المدارس في المناطق الصناعية حيث يتم، تحت ستار محاربة الأمية للكبار، شرح الأفكار الأساسية للاشتراكية لمجموعات صغيرة من العمال. شهدت هذه المرحلة العديد من المناضلين والمناضلات الذين صارت أسماء معظمهم غريبة وغير مألوفاً للقارئ المعاصر. لا بد أن السلطات القيصرية نظرت إلى تلك المجموعات الصغيرة، التي نشأت في المدن الواحدة بعد الأخرى، باعتبارها نتيجة لبعض الفيروسات الخبيثة والمجهولة.

لم يتمكن النارودنيون، على الرغم من كل الجهود التي بذلوها، من ربط الأواصر مع "الشعب"، ولا كان في إمكانهم أن يأملوا أبداً في القيام بذلك، على أساس نظرياتهم وبرامجهم وأساليب اشتغالهم الخاطئة. إلا أن هذه المشكلة، التي بدت مستعصية، وجدت حلاً لها بسهولة تامة من قبل الماركسيين. لقد تم تشييد جسر متين بسرعة لربط الماركسيين بالعمال. في جميع المراكز الرئيسية للصناعة ظهرت حلقات الدراسة والأقسام التعليمية و"مدارس الأحد"، مما زرع بذور جيل جديد كلياً من الماركسيين الثوريين العمال، الذين شكلوا العمود الفقري لحزب ثورة أكتوبر المستقبلية. وهكذا بدأ ما يسمى بمرحلة الدعاية (Orkruzhovshchina) -المشتقة من الكلمة الروسية التي تعني حلقة الدراسة-. هناك، وبعد يوم عمل مرهق، في ظل ظروف مروعة، كان العديد من العمال الصناعيين بأيديهم الخشنة، يصارعون التعب الذهني والبدني، يقضون ساعات طويلة وهم يتصارعون مع الفصول الصعبة لكتاب ماركس رأس المال، ذلك الكتاب نفسه الذي اعتبرته الرقابة القيصرية أصعب من أن يمثل خطراً. وكانت رغبة العمال في التعلم كبيرة إلى درجة أنهم كانوا ينتزعون صفحات مجلد رأس المال من أجل توزيعها، فصلاً فصلاً، بين أكبر عدد ممكن من الناس.

من خلال صفحات أرشيف الشرطة، مرت وجوه وأعداد الثوريين الذين ألقى القبض عليهم بانتظام رتيب، وكأنهم فيروسات كثيرة يتم عزلها وإزالتها حفاظاً على سلامة النظام السياسي. تعرض معظم هؤلاء الرجال والنساء للنسيان منذ فترة طويلة، لكن بفضل التضحيات الجسام لهؤلاء الأبطال والشهداء، تم بناء الحركة العمالية الروسية. ربما يشكل كتاب كروبسكايا حول لينين التقرير الأكثر وضوحاً للكيفية التي كانت تعمل بها حلقات الدعاية الماركسية المبكرة تلك. كان الاتصال يتم من خلال حلقة الدراسة العمالية، حيث تتم المزاجية بمهارة بين تدريس المعارف الأساسية وبين التعريف بالأفكار الأولية، على الأقل، للاشتراكية. من بين تلك المجموعات كانت هناك مدرسة مساء الأحد للكبار بسمولينسك، في معقل الطبقة العاملة في شيليسيلبورغ، حيث كانت ناديجدا كروبسكايا تقدم الدروس. كان المحاضرون الشباب يتمتعون بالشعبية بين العمال، والذين أسسوا معهم علاقة وثيقة جداً. كتبت كروبسكايا: «كان العمال الذين ينتمون إلى المنظمة يذهبون إلى المدرسة للتعرف على الناس ويحددون أولئك الذين يمكن



كسبهم إلى الحلقة والمنظمة»<sup>1</sup>. وفي مكان آخر كتبت: «لقد كان هناك نوع من المؤامرة الصامتة. كنا فعلا قادرين على التحدث عن أي شيء في المدرسة، رغم أنه من النادر أن يكون هناك قسم بدون جاسوس؛ كان على المرء أن يمتنع عن استخدام الكلمات الرهيبة من قبيل: «القيصر»، «الإضراب» وغيرها، ويمكنه عندها أن يشير لأكثر المشاكل الأساسية. لكن من الناحية الرسمية كان ممنوعا مناقشة أي شيء على الإطلاق: في إحدى المناسبات عملوا على إغلاق ما يسمى بمجموعة الاستدكار، لأن مفتشا جاء، بشكل غير متوقع، واكتشف أن حساب الأجزاء العشرية كان يدرس هناك، في حين أنه، وفقا للمنهج، لا يسمح بتدريس سوى القواعد الأربع للحساب»<sup>2</sup>.

في نفس الوقت الذي كان فيه بليخانوف ومعاونوه يأسسون مجموعة تحرير العمل الروسية في الخارج، كانت أول حلقة اشتراكية ديمقراطية حقيقية (أي ماركسية) قد ظهرت في سان بيترسبورغ، شكلها طالب بلغاري شاب، يدعى ديميتر بلاغوييف (1856 - 1924)، الزعيم المستقبلي للحزب الشيوعي البلغاري. في عام 1884، اتخذت جماعته اسم «حزب الاشتراكيين الديمقراطيون الروس»، بل وبدأت بنشر جريدة تدعى راوتشي (العمال). لكن المجموعة لم تستمر طويلا حيث حطمتها الشرطة. لكن السيرورة آنذاك كانت قد بلغت مرحلة متقدمة جدا بحيث لم يعد في إمكان إجراءات الشرطة أن توقفها. في العام التالي تم تشكيل مجموعة اشتراكية ديمقراطية أخرى في العاصمة، بروابط أوثق، هذه المرة، مع الطبقة العاملة. ضمت مجموعة ب. ف. توشيسكي عمالا متدربين وحرفيين وأطلقت على نفسها «أخوية حرفيي سان بيترسبورغ».

أبعد من ذلك في منطقة الفولغا بروسيا الوسطى، في قازان، نظم نيكولاي فيدوسييف (1871-1898) مجموعة من الطلاب، كان من بين أعضائها طالب شاب يدعى فلاديمير أوليانوف، والذي صار يعرف فيما بعد باسم لينين. كانت البذور الأولى قد زرعت، وكان الأعضاء الأوائل قد بدأوا يلتحقون، وإن بأعداد صغيرة، في قازان ونيجنني نوفغورود وسمارة وساراتوف وروستوف أون دون، وبلدات أخرى في المنطقة. تفككت هذه المجموعة عندما ألقى القبض على فيدوسييف في صيف عام 1889. وبعد سنوات عديدة، في دجنبر عام 1922، كان على لينين كتابة سيرة موجزة عن فيدوسييف للجنة تاريخ الحزب حيث أشاد بحرارة «بذلك الثوري الموهوب بشكل استثنائي والمخلص بشكل استثنائي»<sup>3</sup>.

لقد ثابر الدعاة الماركسيون بعناد في مهمتهم، بينما كانوا يعملون ضد عوائق هائلة وفي ظل صعوبات لا تطاق ومعرضين دائما لأخطار شخصية. كثيرون منهم لم يعيشوا ليروا نتيجة عملهم. لم يقاتلوا في المعارك العظيمة النهائية، ولم يتمكنوا من رؤية الهياكل القديمة الممقوتة للمجتمع وهي تسقط. كانت مهمتهم هي أصعب المهمات على الإطلاق: مهمة البداية الشاقة؛ مهمة بناء الحركة من لا شيء؛ مهمة كسب المناضلين والمناضلات بصر واحد بعد الآخر؛ مهمة الشرح والجدل والإقناع؛ والقيام بألاف المهام اليومية الروتينية المملة لبناء المنظمة، والتي تمر دون أن يلاحظها المؤرخون، لكن التي تقع في قلب المشروع التاريخي العظيم. وعلى الرغم من كل الصعوبات، بدأ العمل البطيء الدؤوب الذي أنجزه هؤلاء الماركسيون يؤتي ثماره الآن. بدأت الجماعات الماركسية في الظهور في جميع أنحاء روسيا. وفي تقليد لمجموعة تحرير العمل، أطلقوا على أنفسهم رابطات النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة. وفي نفس الوقت كانت حركة العمال قد بدأت تأخذ طابعا جماهيريا. ثم، ومثل صاعقة من سماء صافية، حدث شيء حول الوضع بشكل كامل.

في عام 1891 وعام 1892، اجتاحت مجاعة رهيبة البلاد، مما تسبب في موت أعداد هائلة من الناس في القرى وارتفاع حاد في أسعار المواد الغذائية. أودت المجاعة والكوليرا والتيفوس بأرواح 40 مليون نسمة، وأبيدت قرى بأكملها، وخاصة في منطقة الفولغا. أغرق الفلاحون الجوعى المدن، وهم على استعداد لقبول العمل بأي ثمن. هذا الوضع، إلى جانب الانتعاش الاقتصادي، الذي وللمفارقة تزامن مع المجاعة، أنتج موجة من الإضرابات، خاصة في وسط روسيا وغربها، حيث مراكز صناعة النسيج. ورافقت تلك الإضرابات اشتباكات مع الشرطة والقوزاق، ولا سيما في إضراب عمال النسيج البولنديين في لودز عام 1892.

أدت المجاعة إلى فضح إفلاس النظام الأوتوقراطي وفساد وعدم كفاءة البيروقراطية. وكان لمصير ملايين الجوعى تأثير عميق على الشباب. اندلعت الحركة الطلابية من جديد في موسكو وقازان. وكان للجو الكفاحي العام في المجتمع تأثير على الليبراليين أيضا. والزيمستفوات، التي كانت قد أخضعت من طرف نظام ألكسندر الثالث الرجعي، عادت إلى الحياة مع المجاعة. نظم الليبراليون، المستندون على الزيمستفوات، حملات الإغاثة من المجاعة في جميع أنحاء روسيا. ليبراليو الزيمستفو، والذين كان الكثير منهم من

1: N.K. Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, p: 17.

2: N.K. Krupskaya, *Memories of Lenin*, (1893-1917), p: 6.

3: LCW, *A Few Words About N.Y. Fedoseyev*, vol. 33, p: 453.

بقايا حركة "التوجه نحو الشعب" لسنوات السبعينيات، كانوا يخفون وخز ضمايرهم من خلال إنشاء مطابخ الحساء. لقد بذلوا قصارى جهدهم لإعطاء النضال ضد المجاعة طابعا مسالما غير مسيس، وذلك في انسجام مع سياستهم العامة القائمة على "الإنجازات الصغيرة". لكن الهياج الاجتماعي والسياسي الذي أثارته المجاعة ورد الفعل الفوضوي للإدارة القيصرية عليها، أدى إلى إثارة المثقفين، وتوفير العديد من المنخرطين الجدد لصفوف الماركسيين، الذين كانوا منخرطين في معركة شرسة ضد ممثلي التيار النارودني الليبرالي. وتنعكس مرارة الصراع في حكاية ذكرتها كروبسكايا عن واحدة من تدخلات لينين الأولى، بعد وقت قصير من وصوله إلى سان بيترسبورغ: «كإجراء أمني تم تنظيم الاجتماع تحت ستار حفلة لأكل الفطائر (...) وكان السؤال المطروح هو ما الطريق الذي ينبغي علينا أن نتبع. وبدا أننا لم نكن متفقين حول الإجابة. قال أحدهم إن العمل في لجنة محاربة الأمية كان ذا أهمية كبيرة. ضحك فلاديمير إيليتش، وبدت ضحكته قاسية إلى حد ما (لم أسمعها أبدا يضحك بهذه الطريقة مرة أخرى). وقال: "حسنا، إذا كان شخص ما يريد أن ينقذ البلد من خلال العمل في لجنة محاربة الأمية، فلندعه يمضي قدما"<sup>1</sup>.

بليخانوف الذي كان يراقب الوضع بعناية من بعيد، فهم على الفور أن تغييرا جوهريا كان يجري، مما يتطلب تحولا في الأساليب المستخدمة حتى الآن من قبل الماركسيين الروس. فضحت المجاعة إفلاس الحكم المطلق إلى درجة لم يسبق لها مثيل. وبدأت فكرة وجود مجلس نيابي، زيمسكي سوبور، تكسب التعاطف بين صفوف المثقفين الليبراليين. انتهز بليخانوف الفرصة بسرعة. وفي كراسه "خراب عموم روسيا"، الذي نشر في العدد الرابع لجريدة سوتسيال ديموقراط (Sotsial Demokrat)، أوضح بليخانوف أن أسباب المجاعة لم تكن طبيعية، بل اجتماعية. وانطلاقا من حالة الفوضى الناجمة عن فساد وعدم كفاءة السلطات القيصرية، أوضح الحاجة إلى تنظيم الدعاية والتحرير على نطاق واسع، وربط المطالب الملموسة للجماهير بالهدف المركزي الذي هو الإطاحة بالحكم المطلق.

وبطبيعة الحال، صار لشعار زيمسكي سوبور في أيدي الليبراليين طابع إصلاحي تماما، وبالتالي طوباوي. لكن بليخانوف، الذي عبر عن غريزة ثورية حقيقية، أعطى لذلك المطالب مضمونا نضاليا كفاحيا، كوسيلة لتعبئة الجماهير وكسب أفضل قطاعات المثقفين الديمقراطيين لفكرة خوض صراع مفتوح ضد النظام القيصري. وكتب: «يجب على كل هؤلاء الروس النزهاء، الذين لا ينتمون إلى عالم صناع المال والكولاك والبيروقراطيين الروس، أن يبدأوا في وقت واحد في التحريض من أجل الزيمسكي سوبور»<sup>2</sup>.

شكل مقال بليخانوف أول محاولة ملموسة للتعامل مع مسألة كيفية ربط الحركة العمالية بحركة الطبقات المضطهدة الأخرى ضد العدو المشترك، أي النظام القيصري. في ظل ظروف الاستعباد القيصري، كانت التحالفات المؤقتة والعرضية مع العناصر الأكثر راديكالية من بين البرجوازية الصغيرة، أو حتى الليبراليين البرجوازيين، أمرا لا مفر منه. لكن هذه الاتفاقات، رغم ذلك، لا تفترض مطلقا وجود أي اتفاق برنامجي. بل على العكس من ذلك، كان الشرط المسبق لها على وجه التحديد هو أن يسير كل حزب تحت رايته الخاصة: "نسير متفرقين ونضرب معا"، وفي الوقت الذي كان الماركسيون يدافعون فيه عن الليبراليين والديمقراطيين البرجوازيين الصغار ضد الاضطهاد القيصري، وكانوا يتوصلون معهم أحيانا إلى اتفاقات عرضية حول مسائل عملية مثل نقل الأدبيات غير القانونية [إلى داخل روسيا]، والدفاع عن الرفاق المعتقلين، وما إلى ذلك...، كانوا [الماركسيون] يسלטون عليهم دائما انتقادات صارمة ومتواصلة بسبب تذبذبهم والتباسهم. كان الهدف من هذه السياسة هو الاستفادة من كل فرصة لدفع الحركة إلى الأمام وفي نفس الوقت تعزيز موقف الماركسية ووجهة النظر الطبقة المستقلة للبروليتاريا، بنفس الطريقة التي يستخدم بها متسلق الجبال بمهارة كل شق وكل نتوء في الصخر لرفع نفسه إلى القمة.

كان التوجه الرئيسي لحجة بليخانوف هو أن "الخراب الاقتصادي الشامل لبلادنا لا يمكن تفاديه إلا عن طريق التحرر السياسي التام". لقد طرحت المشاكل المروعة للجماهير بشكل مباشرة مسألة النضال الثوري ضد القيصرية، والذي سوف تلعب فيه الطبقة العاملة دورا رئيسيا. في حين لم يكن أي أحد، في تلك المرحلة، يتحدث عن إمكانية حدوث الثورة الاشتراكية في روسيا، كان الاستخدام الصحيح للمطالب الديمقراطية الثورية، مثل عقد مجلس زيمسكي سوبور، يلعب بلا شك دورا تحريزيا هاما في حشد القوى الثورية حول البرنامج الماركسي. ليست لهذه السياسة أية علاقة مطلقا مع سياسات المناشفة والستالينييين الذين حاولوا، تحت ستار "توحيد جميع القوى التقدمية"، إخضاع الحركة العمالية لما يسمونها بالبرجوازية التقدمية. لقد وجه بليخانوف، ولينين على وجه الخصوص، انتقادا صارما لفكرة "الجهة الشعبية" التي كان النارودنيون يدافعون عنها حتى في ذلك الوقت. وقد رد بليخانوف، قبل أن يصبح منشفيا، وعندما كان ما يزال يدافع عن أفكار الماركسية الثورية، على أولئك الذين اتهموه بإخافة الليبراليين بالعبارات التالية: «على

1: N.K. Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, pp: 12-13.

2: V. Akimov, *On the Dilemmas of Russian Marxism 1895-1903*, p: 16.

أي حال، نحن نعتبر أن أكثر أنواع "الخوف" ضررا هو إخافة الاشتراكيين بشبح إخافة الليبراليين<sup>1</sup>.

### من الدعاية إلى التحريض

فاجأت السياسة الجديدة، التي أكدت على ضرورة التحريض الثوري الجماهيري، الكثيرين. ولم يتأخر الاقتصاديون المستقبليون، من قبيل بوريس كريشيفسكي، في انتقاد فرقة تحرير العمل بسبب "نزعتها الدستورية" المزعومة، حيث لم يفهموا ضرورة رفع الشعارات الديمقراطية جنبا إلى جنب مع المطالب الطبقة الأولية للبروليتاريا. وفي الوقت نفسه، فإن العديد من المناضلين القدامى، حتى في روسيا، كانوا مترددين في الاعتراف بتغير الوضع. العادات القديمة لحلقات الدعاية الصغيرة رفضت أن تختفي بسهولة. وفي كثير من الحالات، لم يتحقق الانتقال إلى التحريض الجماهيري إلا بعد جدالات حادة وانقسامات. في مقالته "حول: مهام الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي خلال المجاعة في روسيا (1892)"، قدم بليخانوف التعريف الماركسي الكلاسيكي للفرق بين الدعاية والتحريض: «يمكن للعصبة أن تكتفي بالدعاية بالمعنى الضيق للكلمة، لكن الحزب السياسي لا يمكنه ذلك أبدا... يقدم الدعاية العديد من الأفكار إلى شخص واحد أو عدد قليل من الناس... لكن التاريخ تصنعه الجماهير... وبفضل التحريض يصقل ويتقوى الارتباط الضروري بين "الأبطال" وبين "الحشود"، بين "الجماهير" وبين "قاداتها».

شدد بليخانوف على ضرورة قيام الماركسيين بالانغماس بين أوسع فئات الجماهير بواسطة شعارات التحريض، بدءا بالمطالب الاقتصادية الأكثر إلحاحا، مثل يوم العمل من ثماني ساعات: «وهكذا سوف يقتنع جميع العمال - حتى أكثرهم تخلفا- بوضوح بأن تطبيق على الأقل بعض التدابير الاشتراكية هو أمر مهم للطبقة العاملة... إن مثل هذه الإصلاحات الاقتصادية، مثل تقصير يوم العمل، جيدة وإن حققت فوائد مباشرة فقط للعمال»<sup>2</sup>.

وهذا ما يفند كذبة الإصلاحيين المعارضين للماركسية الذين يزعمون أن الماركسيين "ليسو مهتمين بالإصلاحات". على العكس من ذلك، لقد كان الماركسيون على مر التاريخ في طليعة النضال من أجل تحسين أوضاع العمال، يناضلون من أجل أجور أعلى وظروف عمل أفضل وساعات أقصر ومن أجل الحقوق الديمقراطية. لا يوجد الفرق بين الماركسية والإصلاحية في "القبول" أو عدم القبول بالإصلاحات (يكفيك أن تطرح المسألة بهذه الطريقة لكي يظهر لك أنه ادعاء سخيف). الموقف الماركسي هو أن الإصلاحات الجدية لا يمكن تحقيقها إلا من خلال تعبئة قوة الطبقة العاملة في النضال ضد الرأسماليين ودولتهم، هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن السبيل الوحيد لترسيخ المكاسب التي حققها العمال وضمان كل حاجياتهم هو تحطيم سلطة رأس المال وإنجاز التغيير الاشتراكي للمجتمع، وهو ما لا يمكن تحقيقه بدون النضال اليومي من أجل الإصلاحات في ظل الرأسمالية، والذي يساعد على تنظيم وتدريب وتهيئة الطبقة العاملة، وتحضير الشروط للقضاء النهائي على أعدائها.

كان تطور الرأسمالية الروسية نفسها هو ما خلق الظروف للانتقال إلى العمل التحريضي الشامل. فخلال عقد التسعينيات واصل منحى حركة الإضرابات في التصاعد، وقد وقفت سان بيتسبورغ على رأس الحركة. فهناك كانت أقوى كتائب الطبقة العاملة، أي: عمال الصلب، والذين كان 80% منهم يتركزون في مصانع كبيرة، مثل مصنع بوتيلوف. كانت سان بيتسبورغ هي المكان الذي تنمو فيه الطبقة العاملة بأسرع وتيرة. فما بين عام 1881 وعام 1900، نمت الطبقة العاملة في العاصمة بنسبة 82%، بينما نمت في موسكو بنسبة 51% في نفس الفترة. وكانت نسبة عالية نسبيا من البروليتاريين في بيتسبورغ يعرفون القراءة والكتابة: 74% مقابل 60% لبقية روسيا.

كانت ساكنة جديدة وشابة. في عام 1900، كان أكثر من ثلثي سكان سان بيتسبورغ قد ولدوا خارج المدينة، أما بالنسبة للعمال فقد جاء أكثر من 80% منهم من خارجها. لقد جاءوا من جميع أنحاء الإمبراطورية، فلاحون جوعى ومفلسون، يبحثون بيأس عن عمل. أولئك الذين كانوا محظوظين دخلوا مصانع النسيج والمعادن الكبيرة. وكان القطاع العمالي الحاسم في سان بيتسبورغ هو صناعة الصلب، بينما ساد في موسكو قطاع صناعة النسيج. كان أكثر من نصف عمال سان بيتسبورغ يشتغلون في مصانع كبرى تضم 500 عامل أو أكثر، في حين اشتغل ما يقرب من خمسي العمال في مصانع عملاقة تضم أكثر من 1.000 عامل. بينما الذين واللائي لم يحالفهم/هن الحظ في إيجاد عمل، فقد صاروا متسولين أو باعة متجولين أو عاهرات.

كان يوم العمل طويلا: ما بين 10 و14 ساعة، وكانت ظروف العمل مروعة وشروط السلامة منعدمة. في كثير من الأحيان كان

1: G. Plekhanov, *Sochineniya*, vol. 1, p: 403.

2: V. Akimov, *On the Dilemmas of Russian Marxism 1895-1903*. p: 17.

العمال مجبرين على العيش في أكواخ مكتظة، حيث زاد من سوء ظروف السكن الهواء الملوث والمياه القذرة وضعف خدمات الصرف الصحي، وهو ما أعطى لسان بيترسبورغ سمعتها بكونها العاصمة الأسوأ من حيث الشروط الصحية في أوروبا. كانت أوضاع عمال النسيج وحشية بشكل خاص، حيث العمل لساعات طويلة جدا والقيام بأعمال رتيبة وسط ضجيج يصم الآذان، في ظروف غير صحية، وحرارة ورطوبة عاليتين. تظهر انعكاسات هذا الوضع على صحة العمال من خلال تقرير لمفتش حكومي: «... يمكن التأكد من ذلك بالعين المجردة من خلال المظهر الخارجي [للعمال]. إنهم يعانون من الهزال ومنهكين وشاحين وصدورهم غارقة: إنهم يعطون الانطباع بكونهم مرضى خرجوا للتو من المستشفى»<sup>1</sup>.

كان حوالي نصف عمال النسيج من النساء. إلا أن هذه الشريحة الأكثر استغلالا بين صفوف الطبقة العاملة، والتي كانت تتشكل أساسا من فلاحات وصلن حديثا إلى المدينة وعاملات بدون مؤهلات، أعطت الدليل على كفاحيتها. وقد ظهرت الإمكانيات الثورية لعمال النسيج بالفعل في إضرابات عامي 1878 و1879، عندما تمت أول محاولة لربط الإضرابات بالحركة الثورية. لقد أصابت تلك الإضرابات السلطات بالخوف وأجبرتها على تقديم تنازلات. قانون الشغل الأول، الذي صدر في 01 يونيو 1882، نص على منع تشغيل الأطفال دون سن 12 سنة في المصانع، وتحديد يوم عمل الأطفال، الذين يبلغون ما بين 12 و15 سنة، في ما بين ثمانية و15 ساعة. وكان هناك قانون آخر عام 1885 حظر العمل ليلا في بعض فروع الصناعة، الخ.

لم يتمكن العمال من التمتع بثمار انتصارهم. لقد كانت الإضرابات انعكاسا لطفرة اقتصادية، تتعلق بالحرب الروسية التركية، لكن خلال الركود الذي تلى ذلك، أخذ الرأسماليون ثأرهم. خلال عقد الثمانينات تسبب ركود شديد في موجة ضخمة من تسريح العمال والبطالة، خاصة في قطاع صناعة الصلب. تم رمي الآلاف من العمال وأسرههم إلى براثن الفقر المدقع. أما أولئك الذين بقوا في المصانع فقد كانوا مضطرين لإحناء رؤوسهم وصر أسنانهم غيظا بينما أصحاب المصانع يخفضون الأجور بلا رحمة. ومع بداية عقد التسعينات، بدأ الاقتصاد يتعافى مرة أخرى. وصار التغيير ملحوظا بشكل خاص عام 1893 وما بعده. انطلاق المشاريع الكبرى لبناء السكك الحديدية حفز النمو في صناعة الصلب في سان بيترسبورغ وجنوب روسيا. وكانت حقول النفط والفحم مزدهرة. وعلى الفور بدأت نسائم جديدة للصراع الطبقي في الهبوب. فتلورت فكرة التحريض على الفور في مخيلة الشباب داخل روسيا. وبالفعل كان العديد من الشباب قد بدأوا يفقدون صبرهم من قيود العمل في حلقات الدعاية. وقد انطلقت الشرارة من عند الاشتراكيين الديمقراطيين في المناطق الغربية من ليتوانيا وبولندا، حيث أظهر إضراب لودز ومظاهرة عيد العمال 1892 الطبيعة المتفجرة للوضع.

كانت روسيا القيصرية، على حد تعبير لينين الشهير: "سجنا حقيقيا للشعوب". وقد شهد الاضطهاد القومي ارتفاعا في حدته في فترة الردة الرجعية الشاملة التي أعقبت اغتيال ألكسندر الثاني. وتحت إشراف بوييدونوستسيف القمعي عمل كلبا حراسة النظام الأوتوقراطي، أي: الشرطة والكنيسة الأرثوذكسية، على سحق كل ما تشتم فيه رائحة المعارضة، من المفكرين المستقلين، مثل ليو تولستوي، إلى الكاثوليكية البولندية واللوثريين البلطيق واليهود والمسلمين. الزواج الذي يتم في الكنائس الكاثوليكية لم يكن معترفا به من قبل الحكومة الروسية. وتحت حكم نيكولا الثاني، صادرت الدولة ممتلكات كنيسة المسيحيين الأرمن. وتم إغلاق أماكن العبادة الخاصة بالكالميك والبوريات<sup>2</sup>. ورافقت عملية الترويس<sup>3</sup> القسرية ما يشبه عملية التحويل الإلزامي إلى الإيمان الأرثوذكسي.

تطورت الصناعة في وقت مبكر جدا في الجهات الغربية للإمبراطورية الروسية، في ليتوانيا ومملكة بولندا. هذه المناطق التي كانت أكثر تصنيعا من الشرق، وأكثر ثقافة وكانت تعرف وجود تأثير ألماني قوي، شهدت تغلغلا سريعا للحركة الاشتراكية الديمقراطية. لكن الحركة العمالية هناك كانت معقدة جدا بسبب المسألة القومية. كان العمال والفلاحون في بولندا والبلطيق المضطهدون قوميًا من قبل روسيا القيصرية، يتحملون نيرا مزدوجا. خلق تقطيع أوصال بولندا، التي قسمت بين روسيا والامبراطورية النمساوية المجرية وبروسيا، شعورا مريرا بالاضطهاد القومي، والذي كانت لآثاره عواقب وخيمة على التطور المستقبلي للحركة العمالية. وقد تركت ذكريات هزيمة 1863، والقمع المروع الذي أعقبها، كراهية هائلة لروسيا بين البولنديين.

السلطات الروسية، التي كانت لها حساسية خاصة تجاه الاضطرابات في المحافظات البولندية، عملت على سحق المجموعات الاشتراكية الديمقراطية البولندية الأولى بحملة شرسة من الاعتقالات والتعذيب وأحكام طويلة بالسجن مع الأعمال الشاقة. لكن

1: G.D. Surh, 1905 in St Petersburg: Labour, Society and Revolution, p: 54.

2: الكالميك: شعب منغولي بوذي الديانة يعيش أساسا في كالميك، منطقة جنوب غرب روسيا على بحر قزوين. يتحدث لغة خاصة تدعى: الكالميكية. البوريات: شعب من أصل منغولي يعيش في سيبيريا. وبورياتيا هي إحدى الجمهوريات الروسية ذات حكم ذاتي، في جنوب المنطقة الوسطى من سيبيريا. المترجم.

3: فرض الثقافة والدين واللغة، الخ، الروسية -المترجم-

الحركة، مثلها مثل وحش متعدد الرؤوس، كانت تعوض كل رأس يقطع بخلق رأسين جديدين على الفور. وسرعان ما تحولت منطقة البلطيق إلى قاعدة للتحرير والدعاية الماركسية السرية في الداخل. قال برنار باريز في تعليقه على الوضع في بولندا: «كانت جامعة وارسو مروسنة [فرض الطابع الروسي -م-] بشكل كامل، وكانت تدرس للبولنديين أدبهم باللغة الروسية؛ في عام 1885 فرضت اللغة الروسية في المدارس الابتدائية كلغة للتدريس؛ وأرسل عمال السكك الحديدية البولنديون للخدمة في أجزاء أخرى من الإمبراطورية؛ وفي عام 1885 تم منع البولنديين من شراء الأراضي في ليتوانيا أو بوليفينيا، حيث كانوا يشكلون أغلبية الطبقة البورجوازية»<sup>1</sup>.

## حركة العمال اليهود

من المفارقات أن النظام القيصري كان هو من شجع التنمية الصناعية في بولندا ليجعل منها ما يشبه «نافذة متجر»، وفي محاولة يائسة منه كذلك لدراء تطور الحركة القومية. لكن تطور الصناعة بالذات هو ما أدى إلى تقويض النظام وخلق موجة من الاستياء في البلدات والمدن بالمناطق الحدودية الغربية لروسيا. كانت ظروف العمل مروعة والأجور هزيلة، بينما كانت الأرباح تتراوح عادة ما بين 40% و50%، ولم يكن من الغريب تحقيق 100% من الأرباح. خلق استغلال العمال الوحشي هذا ظروفًا مواتية لانتشار الدعاية الاشتراكية. وفي خضم الردة الرجعية القائمة، تأسس الحزب المعروف باسم البروليتاريا، «باكورة الحركة الاشتراكية الحديثة في بولندا»<sup>2</sup>، على يد الطالب لودفيغ فارجينسكي. شكلت مجموعة الطلاب الاشتراكيين التي أسسها فارجينسكي حلقات للعمال وأنوية نقابات عمالية جنينية. وفي عام 1882، التأمّت المجموعات المختلفة لتشكيل منظمة البروليتاريا، والتي قادت سلسلة من الإضرابات، بلغت ذروتها في الإضراب الجماهيري في وارسو، والذي تعرض لقمع شرس من قبل قوات القمع. حكم على العديد من قادة منظمة البروليتاريا بفترات طويلة من السجن. وشنق أربعة منهم. لم يكن حظ فارجينسكي أفضل، إذ حكم عليه بالسجن لمدة 16 عامًا مع الأعمال الشاقة، في قلعة شلوسيلبورغ الشهيرة بالقرب من سان بيترسبورغ، حيث مات ميتة بطيئة.

بعد هذه الاعتقالات، تحولت منظمة البروليتاريا عملياً إلى أشلاء. وفي الوقت الذي انضمت فيه الشابة روزا لوكسمبورغ إلى الحركة، لم يكن قد بقي منها سوى بعض الأطلال فقط. استخدم ليو يوغيش، ابن عائلة يهودية ثرية، ثروته الشخصية الكبيرة لتمويل بناء مجموعة اشتراكية جديدة في فيلنا في عام 1885. لعب الاشتراكيون الديمقراطيون بفيلنا لاحقاً دوراً رائداً، وطوروا أسلوب التحرير الجماهيري بين العمال، والذي اتبعه الماركسيون لاحقاً في جميع أنحاء روسيا. استفادت قوات البروليتاريا البولندية الفتية من دفعة قوية من طرف قوات الطبقة العاملة اليهودية التي كانت قد استيقظت للنضال حديثاً.

عاش غالبية اليهود في بولندا والمحافظات الغربية، التي كانت قد أعلنت ابتداءً من عام 1881 بكونها المكان الوحيد الذي يسمح لليهود بالعيش فيه. في عام 1886 طرد اليهود بشكل جماعي من جميع الوظائف الإدارية واستبعدوا من معظم المهنة. لم يسمح سوى لـ 10% من اليهود فقط بالالتحاق بالجامعة (5% في موسكو وسان بيترسبورغ). وابتداءً من عام 1887، تم تطبيق نفس القاعدة على المدارس الثانوية. وفي عام 1888، تم تسجيل كل اليهود الذين يستلمون منحة دراسية حكومية كمسيحيين أرثوذكس. كان الأطفال يُعمدون ضد رغبات آبائهم. اليهود الذين صاروا أرثوذكس كان يفرض عليهم الطلاق دون أي طلب منهم. وفرضت ضرائب خاصة على المعابد ولحوم الكوشير. وفي محاولة منها لتقسيم وإرباك العمال، نظمت السلطات مذابح دموية ضد اليهود؛ تم نهب المنازل وقتل الرجال والنساء والأطفال وتشويههم من قبل غوغاء من حثالة البروليتاريا بالتواطؤ مع الشرطة.

كان السكان اليهود في هذه المناطق، الذين كان أغلبهم من الحرفيين والتجار الصغار، يعيشون بشكل دائم على حافة الهاوية. وقد وفرت الفئة الأكثر اضطهاداً في المجتمع، أي العمال والحرفيون اليهود، أرضاً خصبة بطبيعة الحال لانتشار الأفكار الثورية. ليس من قبيل المصادفة أن الثوريين اليهود وفروا للحركة الماركسية عدداً من القادة أكبر من نسبة الحجم الذي كانوا يمثلونه داخل المجتمع. مدينة فيلنا، بتركيزها الكبير من العمال والحرفيين اليهود، كانت واحدة من أولى معاقل الحركة الاشتراكية الديمقراطية في الإمبراطورية الروسية. ابتداءً من عام 1881 وصولاً إلى ثورة أكتوبر، كان اندلاع تلك الأعمال الوحشية الهمجية العنصرية تهديداً دائماً معلقاً فوق رؤوس الشعب اليهودي. حرض مرتكبوا المذابح الفئات المتخلفة من بين الفلاحين البولنديين والروس ضد اليهود، مستغلين في ذلك النعرات الدينية (غالباً ما كان يتم اختيار مناسبة عيد الفصح لتنظيم تلك المذابح)، وكراهية الصورة النمطية

1: B. Pares, op. cit., p: 465.

2: P. Frolich, Rosa Luxemburg, p: 20.

للتاجر ومقرض المال اليهودي. لكن الأغلبية الساحقة من اليهود كانوا عمالا وحرفيين فقراء. في عام 1888، ذكرت لجنة حكومية أن 90% من اليهود هم: «كتلة تعيش على حد الكفاف، وسط الفقر وأساء الظروف الصحية. وحتى البروليتاريا نفسها تشكل أحيانا هدفا للانتفاضات الشعبية الصاخبة [أي المذابح]...»<sup>1</sup>.

حركة العمال اليهود في غرب روسيا وبولندا وليتوانيا تاريخ طويل. لقد خلقت موجة الإضرابات التي اجتاحت هذه المناطق ابتداء من عام 1892 غليانا كبيرا بين جميع القوميات المضطهدة، وخاصة اليهود، الذين عانوا من الاضطهاد القومي الأكثر تطرفا. بدأت الحياة الثقافية تظهر على شكل نهضة قومية. والمثقفون اليهود الذين تحرروا من ثقل ثقافة متحجرة استمرت لـ 2.000 سنة، صاروا منفتحين على أكثر الأفكار راديكالية وثورية. وبدلا من نزعة التفرد والانعزالية القديمة، سعوا بشغف للاتصال مع الثقافات الأخرى، ولا سيما الثقافة الروسية. ومنذ عام 1885، ساهم قسم من طلاب اليشيفا (Yesivah)<sup>2</sup> الفقراء، الذين كانوا يتعلمون ليصيروا حاخامات، في تأسيس المنظمة الناردونية الثورية في فيلنا. ثم صار العمال اليهود المنخرطون في النضال يتعلمون بشغف اللغة الروسية من أجل قراءة الكتب واكتشاف الأفكار الجديدة بأنفسهم.

قام العمال اليهود بتأسيس جمعيات صداقة (كاسي Kassy)، والتي كانت تجمع الأموال من أجل المنفعة المتبادلة منذ وقت طويل - ربما منذ طرد اليهود من الاتحادات المهنية في ألمانيا وبولندا-. تعود طريقة تنظيم هياكلها إلى اتحادات القرون الوسطى نفسها، أو الاتحادات الحرفية البريطانية الأولى، بطقوسها وعطلها السنوية والسرية الصارمة فيما يتعلق بجميع شؤونها. وكان الحرفيون والعمال المنظمون في كاسي محافظين في أفكارهم، ومعادون للأفكار الاشتراكية ومرتبطنون عادة بالكنيس. لكن العبئ المزدوج الذي كان على العمال اليهود تحمله، حيث كانوا يعانون من الاضطهاد كعمال وكيهود، خلق ظروف مواتية للغاية لانتشار الأفكار الثورية والاشتراكية بينهم. كتب أكيموف: «اجتاحت حركة عفوية أعماق المجتمع اليهودي، مثل رياح قوية، من خلال الفئات التي كانت تبدو جامدة وغير قادرة على فهم أية أفكار واعية أو توجيه نفسها بها»<sup>3</sup>. ولهذا السبب بالتحديد، لعب العمال والمثقفون الاشتراكيون اليهود دورا في الحركة الثورية الروسية أكبر بكثير من حجمهم العددي.

لم تكن الأموال التي يتم جمعها من قبل كاسي تستعمل فقط لتقديم الإعانات للمرضى وما شابه ذلك، بل أيضا لشراء نسخ من التوراة! لكن في ظل المناخ الجديد للصراع الطبقي، استخدمت أموال العمال على نحو متزايد لدعم نزاعات العمل. حدث أول إضراب موثق للعمال اليهود في فيلنا عام 1882، وكان إضرابا لعمال الغزل والنسيج، والذي لعبت فيه النساء دورا رئيسيا إلى حد كبير. كانت العناصر الأكثر نشاطا هي الحرفيون اليهود وصاغة المجوهرات وصناع الأقفال والخياطون والتجارون وعمال المطابع وصناع الأحذية. ومع مطلع عام 1895، كانت هناك 27 منظمة حرفية في فيلنا وحدها، تضم ما مجموعه 962 عضوا. «داخل الحركة العمالية اليهودية نفسها، كان الحرفيون هم من يشكلون الطليعة، وورائهم جاء عمال مصنع السجائر وأعواد الثقاب». هذه التركيبة الطبقيّة للحركة العمالية اليهودية، كانت بلا شك عاملا من عوامل الدور المحافظ الذي لعبته المنظمة اليهودية: البوند، في السنوات الأولى للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي.

كانت الفئات الأكثر تقدما داخل المجتمع اليهودي بعيدة عن التأثر بتلك النزعة القومية اليهودية التي دعا إليها الصهاينة في وقت لاحق. بل على العكس من ذلك، فقد رأت خلاص الشعب اليهودي في رفض النزعة التقليدية القديمة والدخول في صلب الحياة الثقافية والسياسية الروسية. كتب ناشط اشتراكي في تلك الفترة: «لقد كنا من دعاة التعايش، لم نكن حتى نتخيل حركة جماهيرية يهودية منفصلة. لقد رأينا أن مهمتنا هي إعداد الكوادر للحركة الثورية الروسية، وتكييف تلك الكوادر مع الثقافة الروسية»<sup>4</sup>. ارتدى اليهود الاشتراكيون الديمقراطيون اللباس الروسي وحملوا الكتب الروسية وتحدثوا الروسية قدر الإمكان.

داخل الحلقات الاشتراكية استيقظ جيل كامل من الشباب اليهودي على الحياة السياسية والثقافية. والشئ الأكثر إثارة للاعجاب هو شجاعة الفتيات اليهوديات الشابات ذوات الأصول العمالية، اللاتي كن مصمات على المشاركة في الحركة، على الرغم من العداء التام الذي واجهنه من طرف الشيوخ. قالت إحدى المشاركات: «أتذكرهن الآن، عاملات مصنع الصناديق وعاملات مصنع الصابون وعاملات مصنع السكر، عضوات الحلقة التي كنت أسيرها... شاحبات، هزيلات، بأعين حمراء، وعليهن علامات تعرضهن للضرب، ومنهكات بشكل رهيب. كن يجتمعن في وقت متأخر من المساء. وكنا نجلس حتى الساعة الواحدة صباحا في غرفة سيئة التهوية

1: Nora Levin, Jewish Socialist Movements 1871 -1917, p: 16.

2: اليشيفا مدارس يهودية لتدريس الكتب المقدسة عند اليهود (التلمود والتوراة) -المتجم-

3: V. Akimov, On the Dilemmas of Russian Marxism 1895 -1903, p: 209.

4: N. Levin, op. cit., pp: 226 - 234.

مع مصباح غاز صغير مشتعل. وفي كثير من الأحيان كان الأطفال الصغار ينامون في نفس الغرفة وكانت نساء المنزل منتبهات لخطر هجوم الشرطة. كانت الفتيات تستمعن إلى النقاش وتطرحن الأسئلة، ينسين تماما المخاطر، وينسين أن الوصول إلى منزلهن سيحتاج منهن ثلاثة أرباع الساعة، ملفوفات في معاطف بالية باردة ممزقة، عبر الوحل والثلوج الكثيفة؛ وأنه عليهن أن يترقن الباب ويتحملن سيلا من الشتائم واللعنات من طرف آبائهن؛ وأنه يمكن ألا يجدن في المنزل ولو قطعة من الخبز وسيكون عليهن أن يذهبن إلى النوم جائعات... ثم ينهضن بعد بضع ساعات ليسرعن إلى العمل. رغم كل ذلك كن يستمعن بشغف إلى العروض حول التاريخ الثقافي، وفائض القيمة... والأجور، والحياة في بلدان أخرى... كم كانت عيونهن تضيء بالفرحة عندما يقدم مسير/ة الحلقة عددا جديدا من جريدة ييديشير أربايتير (Yidisher Arbayer)<sup>1</sup> وأربايتير شتيم (Arbayter Shtimme)<sup>2</sup>، أو حتى منشورا جديدا! كم من المآسي كانت تلك العاملات الشابات يعانينها في منازلهن عندما يتم اكتشاف أنهن يخالطن مجموعات الأخوديسنيكرز (-Akhudisnikers)، «الإخوة والأخوات»، وأنهن يقرأن الكتب الممنوعة؛ كم من الشتائم واللكمات والدموع! إلا أن كل ذلك لم يكن يجدي نفعا. كانت الأمهات تشتكين الوضع لبعضهن البعض قائلات: «ذلك يجذبهن مثل المغناطيس».

هناك، في ليتوانيا وروسيا البيضاء، كان العمال اليهود والمثقفون اليهود المتشبعون كليا بالثقافة الروسية ينظمون نوعا من التحريض أوسع نطاقا بكثير من نشاط الدعاية المحدود الذي كان يتم في بقية روسيا. كانوا يصدرن منشورات وكتب بلغة جماهير العمال اليهود - اليديشية (لغة اليهود الذين يعيشون في ألمانيا وبولونيا والجزء الغربي من روسيا، تقوم أساسا على اللغة الألمانية، رغم أنها تتضمن العديد من العبارات العبرية) -<sup>3</sup> والتي كانت تتطرق للمطالب الملحة للجماهير. في ذلك الوقت، جاء طالب يبلغ من العمر 19 عاما، يدعى يوري مارتوف، كان قد طرد من سان بيترسبورغ بسبب نشاطه الثوري، ووصل إلى فيلنا، التي كانت بالفعل مركزا مزدهرا للحركة الاشتراكية الديمقراطية. يتذكر مارتوف كيف أثرت مسألة التحريض من قبل العمال أنفسهم، حيث أقنعوا الماركسيين بأن يتجاوزوا حدود العمل داخل الحلقات، وكتب قائلا: «في عملي، دخلت في نقاشين مفصلين حول أهداف وأساليب الحركة الاشتراكية، لكن الحياة الحقيقية استمرت في التدخل... فلما أن أعضاء الحلقة يثيرون هم أنفسهم مسألة بعض الأحداث التي وقعت في مصنعهم... أو أن يظهر شخص ما من معمل آخر ويكون علينا قضاء الوقت في مناقشة الأوضاع هناك»<sup>4</sup>.

نجاح مجموعة فيلنا شجع أعضائها على نشر كتيب بعنوان: «حول التحريض»، كتبه أركادي كرهمر ومارتوف، وتسبب في ضجة في ذلك الوقت، وأصبح يعرف باسم «برنامج فيلنا». الفكرة المركزية لتلك الوثيقة، على الرغم من آثار «الزعة العفوية» المتضمنة فيها، هي أن مهمة تحرر الطبقة العاملة يجب أن تكون من صنع العمال أنفسهم، و قد أثارت الكثير من الاهتمام في الفترة ما بين 1893-1897، عندما كانت تجري نقاشات حامية في كل مكان حول الانتقال إلى التحريض. لقد مثلت أساسا رد فعل صحي ضد عقلية «الحلقات الصغرى» الضيقة، ورغبة في إقامة اتصالات مع الجماهير. وجه الكتيب الجديد تحديا جريئا للظروف القائمة، إذ أعلن: «إن الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية تسير في الطريق الخطأ. لقد حصرت نفسها في حلقات مغلقة. ينبغي عليها الاستماع لنبض الحشود وقيادتها. يمكن للحركة الاشتراكية الديمقراطية ويجب عليها قيادة الجماهير العاملة، لأن نضال البروليتاريا يؤدي حتما إلى نفس الهدف ونفس المثل التي اختارها الاشتراكيون الديمقراطيون الثوريون بوعي»<sup>5</sup>.

## رابطة سان بيترسبورغ للنضال

في خريف عام 1893 كان الاشتراكيون الديمقراطيون في سان بيترسبورغ قد بدأوا بالكاد يتعافون من الضربة التي تلقوها بعد إلقاء القبض على زعيمهم، ميخائيل ايفانوفيتش بروسنييف. من الممكن التعرف على توجه المجموعة حتى ذلك الوقت في ما قاله بروسنييف نفسه: «دورنا الرئيسي والجوهري [كان هو] تحويل المشاركين... في الحلقات العمالية إلى اشتراكيين ديمقراطيين متطورين بالكامل وواعين بالكامل، والذين يمكنهم، في نواح كثيرة، تعويض الدعاة المثقفين»<sup>6</sup>.

ومنذ عام 1891، كانت المجموعة قادرة على حشد 100 شخص في جنازة الثوري العجوز ن. ف. شيلغونوف. وكانت لديها

1: ييديشير أربايتير: «العامل اليهودي»، اسم جريدة كانت تصدرها الحركة الاشتراكية اليهودية آنذاك. -المترجم-

2: أربايتير شتيم: «صوت العامل»، اسم جريدة كانت تصدرها الحركة الاشتراكية اليهودية آنذاك. -المترجم-

3: توضيح موجودة في الترجمة الإسبانية، ص: 93.

4: نفس المصدر، كلا الاستشهادين من الصفحة 240.

5: Ibid.,pp: 240-241.

6: Istoriya KPSS, vol. 1, p: 159.

اتصالات في المصانع الكبيرة وجميع الأحياء العمالية الرئيسية. كان العمل قد بدأ على يد طلاب شباب، لكن تدريجياً بدأ التكوين الطبقي للمجموعة يخضع للتغيير. حمل الطلاب على كاهلهم المهمة الشاقة لخلق كوادر عمالية أو "أمثال بيبل الروس"، كما كانوا يقولون. بعد موجة الاعتقالات التي أبعدت بروسنييف، وغيره من القادة عام 1892، تمت إعادة بناء المجموعة على يد س. أ. رادشينكو. وقد ضمنت المجموعة عددا من الطلاب بالمعهد التقني، والذين كان قدر بعضهم أن يلعبوا دورا كبيرا في تطور الحزب، بمن فيهم ناديا كروبسكايا، زوجة لينين في المستقبل ورفيقة حياته.

كانت الطريقة الأساسية لاشتغال المجموعة هي تنظيم حلقات دراسية للعمال في المصانع الرئيسية. وكان استقطاب العمال إلى الحلقة يتم من خلال العلاقات الفردية، بالطريقة المذكورة أعلاه من قبل كروبسكايا. كان هؤلاء العمال يطورون مستواهم النظري، ثم يصبحون هم أنفسهم منظمين لحلقات أخرى. وبهذه الطريقة تم إنشاء شبكة تتوسع باستمرار من الحلقات الدراسية العمالية. لينين، الذي كان قد وصل إلى سان بيترسبورغ في خريف عام 1893، شارك كمحاضر في تلك الحلقات تحت اسم مستعار هو: نيكولاي بتروفيتش. وقد وصفت كروبسكايا عمل لينين داخل الحلقة قائلة: «كان فلاديمير إيليتش مهتما بأدق التفاصيل التي تصف ظروف عمل وعيش العمال. ومع أخذه للخصوصيات بعين الاعتبار، سعى إلى فهم ظروف حياة العامل ككل، حاول أن يجد ما يمكن للمراء أن يستخدمه من أجل الاقتراب بشكل أفضل من العامل بالدعاية الثورية. كان معظم المثقفين في تلك الأيام يفهمون العمال بشكل سيء. كان المثقف يأتي إلى الحلقة ويلقي على العمال نوعا من المحاضرات. ولفترة طويلة دارت ترجمة مخطوطة لكتاب إنجلز "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة" بين الحلقات. كان فلاديمير إيليتش يقرأ مع العمال من كتاب رأس المال لماركس، ويشرحه لهم. بينما كان يخصص النصف الثاني من الحصة لطرح الأسئلة على العمال حول أوضاعهم وظروف عملهم. كان يوضح لهم كيف ترتبط حياتهم مع كامل بنية المجتمع، ويشرح لهم كيف يمكن تحويل النظام القائم. كان الجمع بين النظرية والممارسة هو ميزة عمل فلاديمير إيليتش داخل الحلقات. وتدرجياً، بدأ أعضاء آخرون في حلقتنا يستعملون أيضاً هذا النهج»<sup>2</sup>.

قامت تلك الحلقات بعمل هام في تجميع كوادر الطبقة العاملة الواحد بعد الآخر. لكنها خلقت أيضاً بعض العادات المحافظة التي صارت لاحقاً عقبة أمام تطور الحركة. اعترف الشاب مارتوف بشعوره بالإهانة من تعامل عامل ماركسي، عضو في مجموعة بروسنييف، معه حيث بدلا من دعوته للانضمام إلى المنظمة، قدم له كومة من الكتب عن التاريخ القديم وأصل الأنواع. كتب مارتوف: «س... الذي ترعرع في الفترة السابقة من الركود الاجتماعي الكامل، لم يكن قادراً، على ما يبدو، على أن يتصور أية طريقة أخرى لتدريب ثوري ما عدا تكليفه، على مدى سنين طويلة، بامتلاك تصور نظري شامل عن العالم، يكون نتووجه هو القبول به في العمل الفعلي. بالنسبة لنا، نحن الذين كنا قد قرأنا بالفعل خطابات عمال الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في فاتح ماي 1891، واهتزت مشاعرنا بمظاهر إفلاس النظام في مواجهة المجاعة، لم يكن من المقبول نفسياً بالنسبة لنا إخضاع أنفسنا لمثل هذه الفترة الطويلة من الانتظار»<sup>3</sup>.

ترك "منعطف فيلنا" تأثيراً كبيراً على الحركة في روسيا، وكان محل نقاش ساخن في الحلقات. جلب مارتوف معه نسخة من الكراس إلى سان بيترسبورغ في خريف 1894. وفي مذكراتها عن لينين، كتبت كروبسكايا أنه: «عندما ظهر كراس فيلنا حول التحريض في العام التالي، كانت الأرض معبدة بالفعل بالكامل للقيام بالتحريض من خلال المنشورات. كان المطلوب فقط هو البدء بالعمل. أصبحت طريقة التحريض، على أساس الحاجيات اليومية للعمال، متجذرة بعمق في عمل حزبنا. لم أفهم تماماً كم هو مثمر هذا الأسلوب في العمل إلا بعد بضع سنوات عندما كنت أعيش كمهاجرة في فرنسا حيث لاحظت كيف أنه خلال الإضراب الهائل لعمال البريد في باريس، وقف الحزب الاشتراكي الفرنسي جانبا ولم يتدخل مطلقاً في الإضراب. كان يقول إن تلك مهمة النقابات. كانوا يعتقدون أن عمل الحزب هو النضال السياسي فحسب. لم تكن لديهم أية فكرة عن ضرورة ربط النضال السياسي بالنضالات الاقتصادية والصناعية»<sup>4</sup>.

في عام 1895، كانت مجموعة لينين مكونة من حوالي 10 إلى 16 عضواً، كانوا ينظمون بينهم العمل في ما بين 20 و30 حلقة

1: أوغست بيبل: اشتراكي ديمقراطي ألماني، ولد يوم 22 فبراير 1840 وتوفي يوم 13 غشت 1913، قيادي داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، رفيق ماركس وإنجلز. - المترجم -

2: Krupskaya, Memories of Lenin, (1893-1917), pp: 6-7.

3: J. Martov, Zapiski Sotsial Demokrata, p. 92, quoted in A.R. Wildman, The Making of a Worker's Revolution-Russian Social Democracy 1891-1903, p: 37.

4: Krupskaya, Memories of Lenin, (1893-1917), p: 7.



دراسية عمالية، والتي كانت بدورها تضم ما بين 100 و150 عاملاً<sup>1</sup>. كانت المجموعة ترتبط بالحلقات العمالية من خلال منظمي المنطقة. وبحلول نهاية العام كانت قد صارت تنشط عملياً في جميع المناطق العمالية. في شهر نوفمبر خطت المجموعة خطوة حاسمة عندما قامت مجموعة اشتراكية ديمقراطية أنشئت حديثاً، كان من بين أعضائها مارتوف، بالاندماج مع "القدامي" لتشكيل رابطة سان بيترسبورغ للنضال من أجل تحرير العمل، وهو الاسم الذي اعتمد باتفاق مع مجموعة تحرير العمل لبليخانوف، وبناء على اقتراح من مارتوف على ما يبدو. تم تقسيم العمل داخل المجموعة: المالية والاتصال مع مجموعات المثقفين الثوريين وطباعة المنشورات، وما إلى ذلك. وقد حافظت المجموعة على الاتصال مع مطابع سرية تديرها مجموعة من النارودنيين بسان بيترسبورغ، الخ. وكان لينين ومارتوف هما قائدي المجموعة.

«حسنًا، يا أخي، لا أستطيع التفكير ما الذي يحصل لهم في هذه الأيام، إذ صاروا فجأة يرسلون لنا هؤلاء السياسيين الموجهين! فيما سبق كانوا يبعثون لنا بأناس من الطبقة العليا والطلاب، أناس محترمون حقاً. أما الآن فلا يأتي إلى هنا سوى أمثالك؛ مجرد موجه عادي، مجرد عامل!»<sup>2</sup>.

بهذه الكلمات استقبل أحد السجناء في معتقل تاغانسكايا المناضل م. ن. ليادوف، أحد قادة رابطة عمال موسكو في عام 1895. وبطريقته الخاصة، استوعب الحارس العجوز التغيير العميق الذي حدث في الحركة الثورية الروسية في تسعينيات القرن 19. كان النمو السريع نسبياً لرابطة بيترسبورغ يعكس تغييراً في الظروف الموضوعية. لقد قدم تصاعد حركة الإضرابات فرصاً واسعة غير مسبوقة للتحرير من خلال المنشورات الشعبية. لاقى التحريض الجماهيري نجاحاً فورياً ومكن القوات الماركسية الضعيفة من الاتصال مع فئات أوسع فأوسع من العمال. انخرط الشباب، ومعظمهم من الأعضاء الجدد مع فهم غير عميق بالنظرية الماركسية، بحماس في نشاط التحرير في المعامل، غالباً حول قضايا "خبزية". وكان لهذا نتائج مذهلة، حيث حققوا نجاحاً فورياً حتى بين الفئات الأكثر تخلفاً وجهلاً والأكثر اضطهاداً داخل الطبقة العاملة.

خلال إضراب واحد فقط، وفقاً لفيدور دان، وزعت الرابطة أكثر من 30 منشوراً<sup>3</sup>. وتم التحريض عبر إجراء حوار مع العمال. كان مناضلو الرابطة ينصتون بانتباه لشكاوى العمال، ويكتبون الملاحظات حول مطالبهم ويجمعون التقارير عن النضالات في مختلف المصانع. ثم كانوا يعيدون هذه المعلومات إلى العمال في قالب تحريضي، إضافة إلى توجيهات تنظيمية وفضح مناورات الإدارة والسلطات، ونشر نداءات التضامن. هكذا أصبحت حركة إضرابات تسعينيات القرن 19 مدرسة تحضيرية عملاقة للنضال، ساهمت في تثقيف جيل كامل من العمال والماركسيين. وفي ظل غياب حركة عمالية شرعية منظمة، كانت المنشورات الصغيرة تحدث ضجة كبيرة. كان ظهور المنشور يخلق موجة من الحماس في أماكن العمل. وكان العمال كلما تمكنوا من مراوغة العين الساهرة للمشرف عليهم، يتجمعون في مجموعات صغيرة (كان المكان المفضل للاجتماع هو "النادي"، أي: مرحاض المصنع). حيث تتم قراءة المنشور بصوت مرتفع أمام مجموعة من العمال لا يكفون عن إبداء استحسانهم بالقول: "أحسنتم قولاً" و"أنت محق تماماً". ويتذكر تاختريف أن «رد فعل العمال في الغالب يكون هو قولهم: "إلى المدير! أرسلوها إلى المدير!"، وأنه بعد وقت قصير جداً تنتشر الشائعات حول المنشورات في جميع المصانع بسان بيترسبورغ. وسرعان ما لم يعد المثقفون محتاجين إلى البحث عن العمال، حيث أن العمال هم من بدأوا يبحثون بشوق عن "الطلاب" ويطلبون منهم المنشورات»<sup>4</sup>.

نجاح هذا النهج الجديد يظهر في سيرة تروتسكي الذاتية، حيث يقول: «لقد وجدنا العمال مهتمين بالدعاية الثورية أكثر مما كنا نتخيل ولو في أحلامنا. الفعالية المذهلة لعملائنا أصابتنا بما يشبه نشوة الخمر. كنا نعرف، من خلال الحكايات الثورية، أنه بفضل الدعاية يمكن كسب العمال واحداً بعد الآخر. وكان الثوري الذي يكسب اثنان أو ثلاثة عمال إلى الاشتراكية يعتقد أنه قام بعمل جيد، أما بالنسبة لنا فإن عدد العمال الذين انضموا إلى المجموعة أو يريدون الانضمام إليها كان يبدو غير محدود. كان النقص الوحيد الذي لدينا يتعلق بالمادة التعليمية والأدبيات. كان المعلمون مضطرين لأن ينتزعوا من أيدي بعضهم البعض بالتناوب نسخة واحدة متسخة من البيان الشيوعي لماركس وإنجلز كانت قد ترجمت من طرف العديد من الناس في أوديسا، مع العديد من الثغرات والتشويه للنص الأصلي.

سرعان ما بدأنا نتج أدبيات بأنفسنا، كان هذا حقاً بداية عملي الثوري، والذي تزامن تقريباً مع بداية أنشطتي الثورية. كتبت

1: Istoriya KPSS, vol. 1, p: 222.

2: I. Verkhovtsev, (ed) Bor'ba za Sozdanie Marksistskoi partii v Rossii (1894-1904), p: 3.

3: F. Dan, op. cit., p: 205.

4: A.R. Wildman, op. cit., p: 63.

التصريحات والمقالات ونسختها كلها بأحرف كبيرة لطباعتها بالهكتوغراف. في ذلك الوقت لم تكن نعرف حتى بوجود الآلات الكاتبة. كنت أنسخ الحروف بأقصى قدر من العناية، معتبرا أنه من المشرف جعلها واضحة بما فيه الكفاية بحيث يستطيع حتى الشخص الأقل قدرة على القراءة والكتابة قراءة تصريحاتنا من دون أي مشكلة. كان هذا العمل يستغرق مني حوالي ساعتين للصفحة الواحدة. وفي بعض الأحيان لم أكن أقف منتصبا لمدة أسبوع، ولم أكن أقطع عملي لفترة وجيزة إلا من أجل الاجتماعات والدراسة في الحلقات.

لكن كم هو عظيم ذلك الشعور الذي كنت أحسه عندما تصلني الأخبار من المصانع وورشات العمل بأن العمال يقرأون بنهم تلك الأوراق الغامضة المطبوعة بالحبر الأرجواني، ويمررونها بينهم من يد إلى يد وهم يناقشونها! كانوا يصورون المؤلف وكأنه شخص غريب جبار يتمكن بطريقة ما من الدخول إلى المصانع ويعرف ما كان يدور في ورشات العمل، وبعد مرور 24 ساعة يصدر تعليقه على الأحداث في منشورات يدوية مطبوعة حديثاً<sup>1</sup>.

نجد رد فعل العمال العاديين تجاه المنشورات في ما كتبه تاختريف، الذي كتب هذه التعليقات عندما كانت ما تزال ماثلة في ذهنه، في عام 1897: «فقط فكر في هذا الوقت الذي نعيش فيه!... لقد كنا نعمل ونعمل، ولم تكن نرى أبدا ضوء النهار. كنت ترى بأمر عينيك كيف يحتالون علينا، لكن ماذا يمكنك أن تفعل حيال ذلك؟... لكن الآن لدينا أولادنا الذين يلاحظون كل شيء، في كل مكان، ويفضحونه. قل ذلك لسويوز (الرابطة)، أتسمعي، علينا أن نجعلهم يعرفون عن هذا».

”من يمر المنشورات؟“

”الطلاب، على ما أعتقد. وبكل تقوى رسم العامل علامة الصليب على صدره وقال: فليمنح الله الصحة الجيدة لأولئك الناس الذين يطبعون المنشورات“<sup>2</sup>.

من خلال المشاركة بنشاط في الدعاية، تمكنت القوى الماركسية الصغيرة من لعب دور أكبر بكثير من حجمها الحقيقي. وقد لاقت المناشير الصغيرة المطبوعة بالهكتوغراف استجابة فورية. في كثير من الأحيان كان مجرد ظهور هذه المناشير يكفي لإغراق المصنع كله في حالة من الحماس والنقاش، ويمارس تأثيرا كبيرا على مجرى النضال. نجاح هذا التحريض، على وجه التحديد، سرعان ما جذب انتباه الشرطة القيصرية. والسلطات، التي كانت تدرك جيدا المزاج الكفاحي لعمال بيترسبورغ، تعاملت بجدية مع ما يمكن لتلك المنشورات تحقيقه. في فبراير وأبريل من عام 1896، ظهر منشور يتحدث عن مطالب العمال في أحواض بناء السفن في بيترسبورغ، فأصدر وزير الداخلية، خوفا من الإضراب، أمرا بإجراء تحقيق نصح قائد الميناء بالاستجابة لمطالب العمال.

ومع ذلك، فإن الانتقال من الدعاية داخل مجموعات صغيرة إلى التحريض الجماهيري لم يتحقق دون ألم أو بدون صراعات وتوترات داخلية. بالنسبة للكثيرين، كان العمل السري قد صار نمط حياة، وكان له روتين معين صار البعض معتادين عليه. إن الفترة الطويلة من الوجود داخل حلقات سرية صغيرة عززت نوعا من ”العقلية الحلقية“ الضيقة. ومن المفارقات أنه على الرغم من الصعوبات والمخاطر المرتبطة بتلك الحلقات، فقد كان لها جانب ”مريح“. فظروف الحياة داخل الحلقة لا تتطلب الكثير من النشاط الخارجي المستمر. والمرء ينتقل حصرا بين الرفاق أو العمال المتقدمين، داخل الحلقات حيث الجميع يعرفون عمليا بعضهم البعض. وفي المقابل بدا التحريض بين الجماهير وكأنه قفزة في الظلام. فالروتين سوف يتعطل وستتغير الأفكار وأساليب العمل بشكل جذري. وليس من المصادفة أن الاقتراح قوبل بنوع من عدم الثقة والعداء من جانب فئة ”كبار السن“. حذر كراسين و س. إ. رادشينكو من العواقب الوخيمة التي ستحدث في حالة اتباع التكتيك الجديد: فهو من شأنه أن يقوض العمل السري ويتسبب في حدوث اعتقالات جماعية واسعة ويعرض الرفاق للخطر ويخرب العمل.

تم طرح مسألة ”المنعطف الجديد“ أولا وقبل كل شيء داخل الحلقات الضيقة للمناضلين القدامى، ثم قدمت للمناقشة في تجمعات أوسع للعمال، حيث قرأت ونوقشت مقتطفات من كتيب كرمير حول التحريض. يتذكر عضو حلقة سان بيترسبورغ، ف. إ. بابوشكين، رد فعله على المقترحات الجديدة: «لقد تمردت بشكل كامل ضد التحريض، على الرغم من أنني رأيت ثماره الأكيدة في التصاعد العام للحماس بين جماهير العمال. لأنني كنت خائفا كثيرا من موجة أخرى من الاعتقالات [مثل تلك التي أصابت بعض ”المخضرمين“، بمن فيهم لينين، في دجنبر 1895] وظننت أن الجميع سيهلك الآن. لكن اتضح أنني كنت مخطئا».

يتذكر مارتوف كيف احتج له بابوشكين بغضب على الطرق الجديدة: «هنا تبدأ برمي المنشورات في كل الاتجاهات وخلال

1: Trotsky, My Life, p: 110.

2: Wildman, op. cit., p: 64.

شهرين تكون قد دمرت ما تطلب بناءه سنوات طويلة... إن الشباب الجدد، الذين ترعرعوا في هذا النشاط التحريضي، سوف يكونون سطحيين في تصوراتهم»<sup>1</sup>. وقد أظهرت التطورات اللاحقة أن مخاوف بابوشكين كان لها ما يبررها. فبعض أولئك الذين تبنا بحماس نشاط "التحريض" واستخفوا بالنظرية وبـ "ضيق الأفق الحلقي" لم يكونوا سطحيين فقط، بل كانوا انتهازيين صريحين. ومع ذلك، فعلى الرغم من عنصر المبالغة عند الشباب، فقد كان رد الفعل ضد "العقلية الحلقيّة" تصحيحاً ضرورياً ضد التيار المحافظ الذي، لو كان قد بقي دون رادع، لكان قد حول الحركة الجماهيرية إلى مجرد عصبة. بعد سنوات عديدة، كان تروتسكي يفكر في هذه الفترة عندما كتب أن: «كل حزب عمالي، كل تيار، يمر خلال مراحل الأولى، من خلال فترة الدعاية الخالصة أي: تدريب كوادره. إن فترة الوجود كحلقة ماركسية تطور دائماً عادات مقارنة مجردة لمشاكل الحركة العمالية. وكل من لم يتمكن من تخطي حدود هذه المرحلة في الوقت المناسب يتحول إلى عسوبي محافظ»<sup>2</sup>.

وكمثال عن كيف كان العمل محتجزاً بفعل المواقف المحافظة نسوق النقاش الذي جرى بين الماركسيين في موسكو حول كيفية تخليد يوم فاتح ماي عام 1895. يتذكر ميتسكيفيش الرعب الذي أثاره عندما اقترح تنظيم اجتماع سري في الغابات: «عندما طرحت المسألة على رفاقي، قرروا الاحتفال بصورة سرية دون إثارة الانتباه. لقد كانوا خائفين من إفساد عملنا وكانوا يخشون من الاعتقال. قال الرفاق: "إنه من السابق لأوانه التحدث علانية، فقواتنا ما تزال صغيرة جداً للعمل العلني، إن فكرة تنظيم احتفال كبير هي فكرة للمتقنين»<sup>3</sup>.

لكن الحياة نفسها كانت تعد مفاجأة كبيرة: انعطافة مفاجئة في الوضع قلبت جميع المخططات القديمة رأساً على عقب. يوم 23 ماي 1896، دق إضراب نظمه عمال مصنع للنسيج، في منطقة نارفا بسان بيترسبورغ، ناقوس اندلاع موجة قوية من الإضرابات. نظم عمال النسيج اعتصاماً سرعان ما تطور إلى إضراب. كانت السرعة الهائلة التي انتشر بها الإضراب مؤشراً على المزاج المتفجر الذي تراكم على مدى العقد السابق. اجتاحت موجة إضرابات كبرى العاصمة، وللمرة الأولى وجد ماركسيو سان بيترسبورغ أنفسهم على رأس حركة جماهيرية للطبقة العاملة.

الظروف التي أحدثتها موجة الإضرابات وفرت للقوى الماركسية الصغيرة فرصاً هائلة لنشر نفوذها. لكن في الفترة الأولى كثيراً ما ضاعت الفرص بسبب مقاومة الفئات الأكثر تحفظاً للأساليب الجديدة. وهكذا، خلال الإضراب المهم الذي شارك فيه 2.000 عامل نسيج في إيفانوفو- فونسينسك في أكتوبر 1895، عارض قادة رابطة العمال المحليين في البداية اقتراحاً بأن يقوموا بإرسال محرضين لربط الاتصال مع العمال المضربين، والذهاب إلى مصانع أخرى لتنظيم الدعم للإضراب. وفي نهاية المطاف تم التوصل إلى حل وسط بأن الرابطة لن تتبنى أية مسؤولية عن الإضراب، لكن في المقابل ستسمح لأعضائها بالمشاركة فيه على مسؤوليتهم الخاصة! لقد نشبت خلافات مماثلة في جميع المجموعات الاشتراكية الديمقراطية. لكن تدريجياً تم قبول الطرق الجديدة، وبدأت تحقق نتائج مذهلة.

لم يحصر الماركسيون أنفسهم في حدود التحريض على المسائل الاقتصادية، بل حاولوا أيضاً أن يطرحوا على العمال أفكاراً سياسية. بعد اعتقالات دجنبر 1895، أصدرت مجموعة بيترسبورغ منشور: "من هو الاشتراكي ومن هو المجرم السياسي؟". خلال الفترة الأولى للتحريض، وفي الوقت الذي كانوا ينطلقون فيه من المظالم الفورية التي يعانها العمال، بذل الماركسيون كل جهودهم لتوسيع آفاق العمال على مسائل سياسية شاملة، وربط النضال من أجل المطالب الفورية بالنضال من أجل الهدف المركزي الذي هو الإطاحة بالحكم المطلق. ومن خلال المشاركة الجريئة في التحريض، نما تأثير الماركسية بخطوات سريعة بين فئات أوسع فأوسع من الطبقة العاملة. وعلى الرغم من صغر حجم قواهم، والوضع الموضوعي الصعب جداً، تمكن الماركسيون أخيراً من كسر الحواجز التي تفصلهم عن الجماهير. صار الطريق الآن مفتوحاً لبناء حزب قوي وموحد للبروليتاريا الروسية.

## الماركسية الشرعية

توفي ألكسندر الثالث يوم 01 نوفمبر 1894، وخلفه ابنه نيكولا الثاني. وبمناسبة زواج العاهل الجديد، في شهر يناير من العام التالي، استجمع ليبراليو الزيمستفو شجاعتهم وقدموا له ملتصماً، في شكل تهنئة، قالوا فيه: «نأمل أن يكون صوت احتياجات الشعب

1: Ibid., p: 53.

2: Trotsky, Writings, 1935-1936, p: 153.

3: Wildman, op. cit., pp: 54-55.

مسموعا دائما من طرف جلاتكم». لكن رد نيكولا الفاطح شكل مثالا كلاسيكيا حقيقيا للإذلال السياسي، حيث قال: «أنا سعيد لرؤية ممثلي كل الطبقات مجتمعين للتعبير عن مشاعر الولاء. وأنا مؤمن بصدق هذه المشاعر التي ميزت دائما كل روسي. لكنني أدرك أنه برزت، في الآونة الأخيرة، في بعض مجالس الزيمستفو، أصوات لأشخاص حملتهم بعيدا أحلام لا معنى لها حول مشاركة ممثلي الزيمستفو في شؤون الإدارة الداخلية. فليكن معلوما للجميع أنني، مع حرصي على تكريس كل طاقاتي لخدمة مصالح الشعب، سوف أحافظ على مبدأ النظام الأوتوقراطي بنفس الحزم وبدون تردد كما كان عليه في عهد والدي».

كان نبلاء الزيمستفو مجبرين على الإنصات بصمت بينما كان دلو المياح الجليدية هذا يسكب فوق رؤوسهم. لم يكلف القيصر نفسه حتى عناء قراءة الخطاب، الذي كلف به خادما له. وقد كتب شاهد عيان قائلا: «خرج ضابط صغير الشأن وفي يده قطعة من الورق. بدأ في الغمغمة بكلام ما، بينما ينظر إلى الورقة من حين لآخر. ثم صرخ فجأة: "أحلام لا معنى لها". هنا فهمنا أننا نتعرض للتوبيخ لسبب ما. حسنا، لكن لماذا يصرخ؟»<sup>1</sup>.

وفي مشهد خليق بفنان كبير، قيل إن الإمبراطورة الشابة وقفت صلبة وجامدة ولم تنحن أمام المندوبين وهم يتسللون بصمت. ولم يسمح لروديشيف، مؤلف "عريضة تفير"، حتى بحضور الاستقبال ومنع من العيش في سان بيترسبورغ. تبين هذه الحادثة، أكثر من أية كلمات، العجز المطلق لليبراليين الروس وجبنهم عشية القرن العشرين.

كانت تلك هي السنوات التي انكفأ خلالها المثقفون البرجوازيون على أنفسهم، وانشغلوا بالروحانيات والنزعة الصوفية والمواد الإباحية و"الفن لأجل الفن". وشهد الفن والأدب صعود النزعة الرمزية بإيحاءاتها الباطنية والمدرسة "التجريدية". كل ذلك كان مجرد انعكاس ليس فقط لوعكة نهاية القرن عند المثقفين، بل للشعور العام بالمأزق والعجز الذي أعقب انهيار نارودنابا فوليا. وكما سبق لماركس أن لاحظ فإن التاريخ يكرر نفسه المرة الأولى كمأساة والمرة الثانية كمهزلة. وفي نسخة كاريكاتورية مثيرة للشفقة للحركة النارودنية، لبس الشباب الليبراليون ثياب الفلاحين وأصبحوا "تولستويين" [نسبة إلى تولستوي - م-]، يساهمون في الأنشطة الاجتماعية والخيرية للإغاثة من المجاعة وحملات مكافحة الأمية، وما شابه ذلك.

خلق تنامي نفوذ الأفكار الماركسية بين المثقفين ظاهرة غريبة. فالنجاحات الباهرة التي حققتها الإيديولوجية الماركسية في النضال ضد النارودنية كانت قد بدأت تثير اهتمام فئة من المثقفين البرجوازيين في الجامعات، الذين استهوتهم الماركسية كنظرية اجتماعية وتاريخية، دون أن يفهموا حقا مضمونها الطبقي الثوري. كانت البرجوازية الفتية تسعى جاهدة لإيجاد صوت لها ولتأكيد مصالحها الخاصة وتقديم مبرر نظري لحتمية التطور الرأسمالي في روسيا. استغلت بعض الأفكار، التي طرحتها الماركسية في النضال ضد النارودنية، بحماس من طرف قسم من مفكري البرجوازية. ولفترة قصيرة من الزمن، تمتعت "الماركسية" في شكل أكاديمي مخفي، برواج معين بين الأساتذة الليبراليين "اليساريين".

في المراحل الأولى، عندما كانت القوى الماركسية صغيرة وتفتقر إلى النفوذ، وكانت الثورة الاشتراكية مجرد صدى لمستقبل يبدو بعيد المنال، بدا وكأن هؤلاء المثقفين الهواة يمثلون اتجاها محددًا داخل الحركة الماركسية الروسية. ونظرا للصعوبات الهائلة التي كانت تواجهها الحركة الثورية غير الشرعية، فإنها قبلت خدماتهم بترحيب. لقد قدموا المال وساهموا في نشر الأدب الماركسي، وفي غياب صحافة ماركسية حقيقية، سهلوا نشر الأفكار الماركسية، ولو في شكل مخفف، على صفحات المجلات القانونية في كافة أنحاء روسيا. قدم هذا الوضع بعض الإمكانيات للماركسيين، الذين سمح لهم بالكتابة على صفحات الجرائد البرجوازية الشرعية، مثل نوفو سلوفو ونشالو (التي ينبغي عدم الخلط بينها وبين نشالو التي أصدرها تروتسكي في عام 1905) وسمارسكي فيستنيك، وذلك دائما شريطة ألا "تذهب بعيدا جدا"، بطبيعة الحال. وبهذه الطريقة نشأ ذلك المسخ الهجين الذي عرف بـ "الماركسية الشرعية"، والتي من أهم ممثليها الرئيسيين كان ب. ب. ستروفه، وم. إ. توغان بارانوفسكي وس. ن. بولغاكوف ون. أ. برديايف.

بسبب الرقابة كان على جميع الكتابات الماركسية المبكرة في روسيا أن تخرج على شكل كتاب، مما يجعلها عملية مكلفة. تكلف ستروفه بنشر كتابه من ماله الخاص. كان التعطش للأفكار الماركسية، ولو في شكلها المخفف، كبيرا إلى درجة أن كل نسخ الكتاب بيعت في غضون أسبوعين. بوتريسوف، الذي كان قد ورث ثروة، استخدم أمواله لتمويل نشر كتاب بليخانوف "النظرة الأحادية للتاريخ". ونظرا للصعوبات الهائلة للعمل السري، كان من الضروري استغلال كل ثغرة شرعية لنشر الأفكار الماركسية. وما لم يكن من الممكن قوله علنا في المنشورات الشرعية كان من الممكن استكمال شرحه من خلال صحافة الحزب السرية. وهكذا، وللسنوات عديدة، لم يكن في مقدور الماركسيين الروس تسمية أنفسهم باسم "الاشتراكيين الديمقراطيين"، بل كانوا مضطرين عوض ذلك إلى

استخدام عبارات مثل "الديمقراطيين الحازمين". لكنهم، كما أشار تروتسكي بعد سنوات عديدة، لم يسلموا من سلبيات ذلك، إذ أن عددا من الأشخاص المرتبطين بالحزب تخلوا عن الماركسية وتحولوا بالفعل إلى "ديمقراطيين حازمين"، بل إن بعضهم لم يكونوا حازمين جدا! لتطوير تيار ماركسي سليم من الضروري قبل كل شيء أن تكون قادرا على تسمية الأشياء بمسمياتها. لم يكن من الممكن إصلاح الضرر الذي تسبب فيه الماركسيون الشرعيون والاقتصاديون إلا من خلال جريدة ماركسية سرية حقيقية. وكان هذا هو الانجاز العظيم لجريدة لينين إيسكرا (الشرارة).

كان التعاون مع الماركسيين الشرعيين، على الرغم من كل المشاكل، مفيدا ومرحلة ضرورية لم يكن من الممكن تجنبها في سبيل تطوير الحركة خلال أيامها الأولى. الغالبية العظمى من أولئك الذين تعاملوا مع الماركسية في شبابهم قطعوا في وقت لاحق علاقتهم مع الحركة وانتقلوا إلى جانب الثورة المضادة. لكنهم لعبوا دورا مفيدا في البداية. بعضهم، على الأقل، خضع لتحول حقيقي. لكن الغالبية منهم سرعان ما تعافوا من "فيروس الاشتراكية". كان من السهل عليهم أن يبرروا أوجه القصور في طريقة تعبيرهم بإكراهات العمل الشرعي والحاجة إلى الهروب من الملاحقات والاعتقال وهلم جرا. وطالما كانت المهام الرئيسية للحركة ما تزال ذات طابع نظري، إلى حد ما، وموجهة أساسا ضد النارودنيين أعداء البرجوازية، فإن هذا التعاون تم، في الواقع، بشكل جيد إلى هذا الحد أو ذاك. وقد كان الماركسي الشرعي - ستروفه - هو الذي كتب بيان المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي!

كانت ماركسيتهم هزيلة وعاجزة، ماركسية "مخصية"، تفتقر إلى الحياة والنضال والحيوية الثورية. وليس من قبيل الصدفة أن الماركسيين الشرعيين رفضوا الديالكتيك لصالح الفلسفة الكانطية الجديدة. وعلى الرغم من مظهر التفرد الذي بدت عليه والدور الخاص نوعا ما الذي لعبته في بدايات الحركة في روسيا، فإن نفس تلك "الماركسية" المجردة وغير الديالكتيكية وغير الثورية تظهر دائما في أوساط الجامعات في جميع البلدان، في كل مرحلة من مراحل تطور الحركة. لقد كانوا [الماركسيون الشرعيون]، في الواقع، مثلا مبكرا على ما أصبح يعرف لاحقا باسم "رفاق الطريق". على الرغم من مغاللتهم الفكرية للماركسية، فإنهم استمروا، في أسلوب حياتهم ونفسيتهم، ينتمون إلى طبقة عدوة. وبعد سنوات عديدة لخص ستروفه عقلية الماركسيين الشرعيين في المقطع التالي: «بصراحة إن الاشتراكية لم تخلق أبدا أية مشاعر داخلي، فبالأحرى أن تجذبني... لقد أثارته الاشتراكية اهتمامي بشكل رئيسي باعتبارها قوة إيديولوجية، قوة... يمكن استخدامها إما للحصول على الحريات المدنية والسياسية أو ضد تلك الحريات»<sup>1</sup>.

للوهلة الأولى، قد تظهر أفكار الماركسيين الشرعيين ذات أهمية تاريخية فقط الآن. لكن بعد القيام بفحص دقيق يمكن للمرء أن يستشف بالفعل الخطوط العريضة للنزاعات الهامة التي اندلعت لاحقا. تقوم الفكرة الأساسية التي دافع عنها ستروفه وشركاؤه على ما يلي: الشروط المادية للاشتراكية غائبة في روسيا، التي هي بلد متخلف وشبه إقطاعي؛ والنضال ضد النظام القيصري نضال من أجل الديمقراطية البرجوازية، وليس من أجل الاشتراكية؛ ولذلك ينبغي على حزب العمال أن يضع جانبا كل الأوهام المستحيلة ويعتمد واقعا على المساعي الحميدة لليبراليين البرجوازيين التدريجين لإقامة النظام الجديد. وتشبه هذه، في جوهرها، النظريات التي تبناها لاحقا المناشفة والستالينيون (هي، في الواقع، نفس النظرية). كان المفهوم المتناقضان من حيث الجوهر: الثورة أو الإصلاح، التعاون الطبقي أو السياسة البروليتارية المستقلة، قد ظهرا بالفعل في جدالات لينين وبليخانوف ضد الماركسية الشرعية والاقتصاديين في النصف الثاني من تسعينيات القرن التاسع عشر. في ذلك الوقت لا أحد من الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ماركسيين شكك في الفكرة القائلة بأن روسيا كانت عشية ثورة **ديمقراطية برجوازية**. نبعث هذه الفكرة من مجمل الوضع الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي. كان الصراع الرئيسي ضد الاستبداد، ضد الهمجية الإقطاعية وضد ميراث "الثقافة البروقراطية والقنانة"، كما وصفها لينين لاحقا. كان حجر الزاوية في حجة الماركسيين ضد النارودنيين هو على وجه التحديد حتمية المرحلة الرأسمالية واستحالة مسار مستقل خاص "لاشتراكية الفلاحين" في روسيا.

تحول منظور الثورة الاشتراكية، بالنسبة للماركسيين الشرعيين، إلى احتمال نظري ضبابي ينتمي إلى وقت ما في المستقبل البعيد. وكان هذا المنظور آمنا للغاية، وعمليا لم يكن يلزمهم بشيء. بالنسبة لهم كان الجانب الثوري للماركسية يبدو غير واقعي تماما، في حين بدت لهم الحجج الاقتصادية عن النصر الحتمي للرأسمالية في روسيا أفكارا عملية جدا. تتضمن كتابات إنجلز التي ألفها في أواخر حياته، وعلى وجه الخصوص مراسلاته مع زاسوليتش والماركسيين الروس الآخرين، نقدا عميقا بارعا لهذا التصور الميت البعيد عن الماركسية الثورية الحقيقية. ففي الوقت الذي أكد استحالة بناء الاشتراكية في بلد فلاح متخلف مثل روسيا، شدد إنجلز على الحاجة إلى الإسقاط الثوري الديمقراطي للحكم المطلق، وهو ما سيفتح الطريق أمام الثورة الاشتراكية في أوروبا الغربية. وفي خاتمة كتاب "حول العلاقات الاجتماعية في روسيا"، الذي كتبه عام 1894، طرح إنجلز المسألة على هذا النحو: «سوف

1: Ibid.

تعطي الثورة الروسية كذلك دفعة جديدة للحركة العمالية في الغرب وتخلق لها شروطا جديدة وأفضل للصراع، وبالتالي ستدفع عجلة انتصار البروليتاريا الصناعية الحديثة، وهو النصر الذي بدونه لا يمكن لروسيا الحالية، سواء على أساس مجتمع [القرية] أو على أساس الرأسمالية، أن تحقق التحول الاشتراكي للمجتمع»<sup>1</sup>.

وبتطبيق رائع للديالكتيك، بين إنجلز كيف أن انتصار الاشتراكية في الغرب سيؤثر بدوره على روسيا وسيمكثها من الانتقال مباشرة من الظروف شبه الإقطاعية إلى الشيوعية. يقف هنا الديالكتيك الثوري، مقابل منطق "التطور" الصوري، حيث السبب يصير نتيجة والنتيجة تصير سببا. الثورة الروسية، حتى على أساس الديمقراطية البرجوازية، سوف تحرض الثورة البروليتارية الأوروبية والتي بدورها ستؤثر على روسيا لإنتاج تحول اجتماعي جذري. سوف يمكن انتصار الثورة الاشتراكية في الغرب العمال والفلاحين الروس من إنجاز الثورة البروليتارية في روسيا والشروع في التحويل الاشتراكي للمجتمع. في ظل هذه الظروف لن تكون مستبعدة، من الناحية النظرية، تلك الفكرة النارودنية القديمة عن التحول من الكومونة القروية إلى الشيوعية.

لم يتمكن ستروفه أو طوقان- بارانوفسكي أبدا من فهم هذه الصيغة الجريئة، بسبب تصورهم المجرد الذي يمثل صورة كاريكاتورية جامدة وميكانيكية للماركسية. تذكر كروبسكايا في مذكراتها أن ستروفه "كان هو أيضا اشتراكي ديمقراطيا في ذلك الوقت"، لكنها تضيف أنه «كان عاجزا تماما عن القيام بأي عمل داخل المنظمة، ناهيك عن العمل السري، لكنه كان يسعد، بدون شك، بأن يقدم النصائح»<sup>2</sup>. هذه الأسطر القليلة تشرح بأمانة جوهر تلك الفئة من البرجوازيين والمثقفين أبناء الطبقة الوسطى الذين "سافروا" مع الحزب، معتبرين أنفسهم جزءا منه، لكنهم لم يكونوا أبدا كذلك، وكانوا دائما يضعون قدما في المعسكر الآخر. وعبر هذه الفئة كان ضغط الطبقات الأخرى يمر، دون وعي أو بشكل نصف واع، إلى داخل الحزب، وهو ما كانت له نتائج وخيمة على قوى الماركسية الشابة وغير الناضجة بعد.

مال ستروفه، لبعض الوقت، إلى اليسار، نتيجة للحركة العامة للمثقفين في اتجاه الماركسية تحت ضغط الطبقة العاملة في الفترة العاصفة لسنوات التسعينات. كما أن النقد الإيديولوجي الحازم من طرف لينين وبلخانوف لعب أيضا دورا في ذلك. ليس هناك شك في أن النقد الذي وجهه ستروفه للبرجوازية الروسية، في البيان الذي كتبه للمؤتمر الأول، قد كان صدى للنقاشات الحادة مع لينين قبل بضع سنوات:

«وما الذي لا تحتاجه الطبقة العاملة الروسية؟ إنها محرومة تماما مما تستفيد منه نظيراتها في الخارج بحرية وبشكل سلمي، أي: المشاركة في تسيير الدولة وحرية التعبير والصحافة وحرية تكوين الجمعيات والتجمع، وبكلمة واحدة كل تلك الأسلحة والوسائل التي تستخدمها البروليتاريا الأوروبية الغربية والأمريكية لتحسن موقفها في الوقت الذي تكافح من أجل تحريرها النهائي ضد الملكية الخاصة والرأسمالية من أجل الاشتراكية. لكن البروليتاريا الروسية لا يمكنها أن تحقق الحرية السياسية التي تحتاجها إلا بالاعتماد على نفسها فقط.

كلما توغلت نحو شرق أوروبا، كلما وجدت البرجوازية أكثر ضعفا وأكثر جبنا وانحطاطا في المجال السياسي، وكلما ازداد حجم المهام الثقافية والسياسية التي تقع على كاهل البروليتاريا. يجب على الطبقة العاملة الروسية أن تحمّل على أكتافها القوية قضية الفوز بالحرية السياسية. هذه خطوة ضرورية، وإن كانت الخطوة الأولى فقط، نحو تحقيق المهمة التاريخية العظيمة للبروليتاريا، نحو خلق نظام اجتماعي لن يكون في ظله أي مجال لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان»<sup>3</sup>.

لكن ستروفه، مثله مثل العديد من المثقفين رفاق نصف الطريق، لم يتمكن أبدا من فهم الديالكتيك. هذا الضعف النظري الأساسي، إلى جانب ميل أبناء الطبقة الوسطى المعتاد إلى الراحة والملذات وحبهم للحياة الرغدة إضافة إلى العجز العضوي عن التضحية الشخصية، هو ما يفسر تطوره اللاحق. قطع ستروفه في وقت لاحق مع الماركسية، وفي عام 1905 انضم إلى حزب الكاديت البرجوازي وأنهى أيامه مهاجرا أيضا. وانتهى بيرديايف مدافعا عن التصوف الديني وعرف آخرون تحولا مماثلا. إن بيان ستروفه الذي كتبه سنة 1898 يمثل إدانة قاسية للبرجوازية الروسية، مما يشكل رثاء مناسباً سواء لستروفه أو لظاهرة الماركسية الشرعية بشكل عام.

1: Marx and Engels, Selected Works, vol. 2, p: 410.

2: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, pp:29-30.

3: KPSS v rezolyutsiyakh i resheniyakh s'yezdov. Konferentsii y plenumov tsk, vol. 1, p: 15 (التشديد من آلان وودز)

## لينين ومجموعة تحرير العمل

في شتاء 1894-1895، وخلال اجتماع في بيتربورغ لممثلي المجموعات الاشتراكية الديمقراطية من مختلف أنحاء روسيا، صدر قرار لصالح نشر أدبيات أكثر شعبية للعمال في الخارج. وتم تكليف كل من لينين وإ. أ. سبوتني من اتحاد عمال موسكو بمسؤولية التفاوض حول هذه المسألة مع مجموعة بليخانوف لتحرير العمل. وفي ربيع عام 1895 ذهب في البداية سبوتني ثم لينين إلى سويسرا لإقامة الاتصالات مع المجموعة. ويظهر الأثر الذي خلفه هذا الاتصال بين صفوف المهاجرين في مراسلات بليخانوف وأكسلرود: «إن وصول إ. أ. سبوتني وبعده، بدرجة أكبر بكثير، ف. إ. لينين (أوليانوف)، كان حدثا كبيرا في حياة مجموعة تحرير العمل؛ لقد كانا عمليا أول الاشتراكيين الديمقراطيين الذين وصلوا إلى الخارج يطلب من أولئك الذين كانوا يقومون بالعمل النشط داخل الحلقات الاشتراكية الديمقراطية لمفاوضات شبيهة بالمفاوضات التجارية مع المجموعة»<sup>1</sup>.

حتى تلك اللحظة، كان دور أعضاء مجموعة تحرير العمل في المنفى يقتصر على تتبع النضالات العظيمة التي كانت تجري داخل روسيا والتعليق عليها. كما أن تجارب إخفاقات الماضي مع الناس القادمين من الداخل جعلتهم حذرين في تعاملهم. لكن القادمين الجديدين تمكنوا سريعا من إقناعهم بأنه يوجد الآن أساس حقيقي لانتشار الأفكار الماركسية داخل روسيا. وانضمت قوات الجيل الجديد من الشباب إلى قوة المناضلين القدامى في المنفى. عاد المبعوثان إلى روسيا بالتزام من طرف مجموعة تحرير العمل بالبدء في إصدار جريدة ماركسية: رابوتنيك (Rabotnik - العامل)، في حين سيتم نشر جريدة أخرى أوسع انتشارا في الداخل تحت عنوان رابوتشييه ديلو (Rabocheye Dyelo - قضية العمال). حينذاك بدأ مستقبل الماركسية الروسية مضمونا.

لكن وبعد فترة وجيزة من عودة لينين إلى روسيا وقعت الكارثة. ففي ليلة 19 دجنبر وبينما كان يجري إعداد العدد الأول من رابوتشييه ديلو للطابعات، قامت الشرطة بمداهمة واسعة النطاق قبضت خلالها على معظم القادة. عندما اعتقل لينين نفى بهدوء انتمائه إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وعندما سئل لماذا كان يحمل معه كتابات غير شرعية، هز كتفيه وقال إنه أخذها من شقة شخص نسي اسمه. وفي محاولة شجاعة لخداع الشرطة لجعلها تظن أنها اعتقلت الأشخاص الخطأ، أصدر القادة الناجون من الاعتقال، وعلى رأسهم مارتوف، إعلانا مطبوعا بالاستئسن للعمال، يقولون فيه: «إن رابطة النضال... ستستمر في عملها. لقد فشلت الشرطة. لن يتم تحطيم الحركة العمالية بالاعتقالات والنفي ولن تتوقف الإضرابات والنضالات حتى تحقيق التحرر الكامل للطبقة العاملة من نير رأس المال»<sup>2</sup>. لكن الحيلة فشلت، ويوم 05 يناير 1896، ألقى القبض على مارتوف والآخرين.

خطط لينين، أثناء وجوده في السجن، لكتابة عمل نظري كبير هو كتاب «تطور الرأسمالية في روسيا»، كما أنه تمكن من الحفاظ على المراسلات مع المنظمة من خلال استخدام ماهر لأساليب سرية بدائية لكنها فعالة. كانت الرسائل تكتب بالهليب بين سطور الكتب، ليتم إظهارها بلون بني مائل إلى الصفرة عند تعريضها لنار شمعة. كان يصنع «المحبرة» من لباب الخبز ويبتلعها عندما يقترب منه أحد الحراس. وقد كتب مرة: «لقد ابتلعت اليوم ست محابر». بهذه الطريقة كتب البيان المعنون بـ «إلى حكومة القيصر» والذي طبع على الهكتوغراف وتم توزيع مئات النسخ منه. انطلق جهاز الشرطة يبحث بشكل محموم عن المؤلف دون أن يتبادر إلى ذهنهم أنه كان بالفعل ضيفا في سجون جلالة القيصر. وعلى الرغم من كل شيء، حافظ لينين على حس النكتة لديه وكتب لأمه قائلا: «أنا في وضع أفضل بكثير من وضع معظم مواطني روسيا. لا يمكن للبوليس أبدا أن يجديني»<sup>3</sup>. بينما كان حظ بعض السجناء الآخرين أقل. فأحد قادة رابطة بيتربورغ: فانييف الذي اعتقل مع لينين، أصيب بداء السل - الذي ما يزال أحد ويلات السجون الروسية حتى اليوم- ولم يتعاف منه أبدا. بينما أصيب آخر بالجنون.

كان لاعتقال «القدامى» تأثير خطير للغاية على تطور المنظمة. إذ بعد إبعاد الكوادر الأكثر خبرة والأكثر تقدما من الناحية السياسية، سقطت القيادة في أيدي شباب كان بعضهم بدون أي تكوين. كان متوسط عمر «المخضرمين» في الواقع حوالي 24 أو 25 سنة. كان اسم لينين داخل الحزب هو ستاريك (أي الرجل العجوز)، مع أنه كان يبلغ 26 سنة! وكان الشباب الذين احتلوا الآن مناصب قيادية يبلغون من العمر 20 سنة أو أقل. لقد كانوا متحمسين ومخلصين للقضية لكن تكوينهم السياسي كان ضعيفا. وقد ظهر الفرق سريعا. مارس النجاح الملفت للنظر الذي حققه التحريض تأثيرا قويا على عقول الشباب والمثقفين الذين كانوا يتطورون بعيدا عن أفكار النارودنية والإرهاب الفردي التي فقدت مصداقيتها. التحق أعضاء جدد بالحركة لكن المستوى النظري العام تراجع. كان الانتصار قد تحقق في النضال ضد عقلية حلقات الدعاية الضيقة، لكن وفي سياق حرصهم على توسيع النفوذ

1: Perepiska GV Plekhanova i PB Aksel'roda, p: 127.

2: Istoriya KPSS, vol. 1, p: 228.

3: R. Payne, The Life and Death of Lenin, p: 112.

الجماهيري للحركة الاشتراكية الديمقراطية من خلال التحريض الاقتصادي، اتجه قسم من الطلاب الأكثر حماسا إلى طرح القضية بطريقة أحادية الجانب. في 1895-1896 ظهرت في بيترسبورغ مجموعة في المعهد التكنولوجي بقيادة طالب طب موهوب ونشيط يدعى ك. م. تاخارييف، والتي بدأت تقول بأنه يجب على الحزب الاشتراكي الديمقراطي ألا يعتبر نفسه "قائدا" للعمال، بل عليه فقط أن يضع نفسه في "خدمتهم" من خلال مساعدتهم في الإضرابات.

كان نمو نفوذ الماركسيين كبيرا إلى درجة أنه تم تعويض القادة المعتقلين بسرعة كبيرة، لكن نوعية القيادة كانت قد تعرضت لضربة قاسية. تمكن التيار الذي كان يقوده تاخارييف من كسب المواقع بسرعة أمام "القدامى" الذين تم الدفع بهم إلى الهامش في كل مكان. لقد أسكرت النجاحات العملية للتحريض هؤلاء "النشطاء" الذين كانوا يسعون وراء طريقة سهلة بعيدا عن مشكلة بناء الحزب الثوري المعقدة. وشرعوا في البداية، بشكل غير واع، في التكيف مع الأفكار المسبقة للفئات الأكثر تخلفا من بين صفوف الطبقة العاملة، بحجة أن الأفكار السياسية كانت صعبة للغاية بالنسبة للجماهير وأن السياسة، على أي حال، لا تهم العمال الذين يهتمون فقط بتحسين أوضاعهم الاقتصادية.

### الخلاف مع الاقتصاديين

كما يحدث في كثير من الأحيان، عبّر الخلاف السياسي العميق عن نفسه، في البداية، كخلاف حول مسائل ثانوية عرضية. قبل إرسالهم إلى المنفى في سيبيريا، في فبراير 1897، سمح البوليس لينين وعدد من القادة الآخرين بقضاء ثلاثة أيام في بيترسبورغ لترتيب امورهم، وهي الفترة التي استغلوها لإجراء مناقشة مع أعضاء قياديين في الرابطة. انعقد اجتماع ساخن بينهم وبين القادة الجدد، الذين كانوا يستعدون لإقامة مجموعات للعمال وللمثقفين منفصلة عن بعضها البعض. وبرز خلاف حاد حول مسألة إنشاء "صندوق للعمال" على أساس غير سياسي. ودون إنكار إمكانية العمل في مثل هذه الحقول، أكد لينين، بدعم من مارتوف وغيره، بشكل أساسي على ضرورة بناء رابطة النضال باعتبارها منظمة ثورية. بينما اقترحت القيادة الجديدة، عمليا، تلطيف برنامج الرابطة لجعله، كما زعموا، أكثر جاذبية للعمال. كان من شأن مثل ذلك التمييع للمنظمة في تلك المرحلة المبكرة من تطورها أن يكون قاتلا. دافع لينين بحزم عن ضرورة تثقيف كوادر عمالية وإعطائها بعد ذلك مناصب قيادية، لكن دون الانحطاط بالمنظمة لتصبح في مستوى العمال الأكثر تخلفا. وقال: «إذا كان هناك أي عامل واع يستحق الثقة، دعوه يدخل إلى الحلقة المركزية [للرابطة]، هذا كل شيء»<sup>1</sup>.

الشيء الذي كان يكمن وراء مواقف "الشباب" هو الرغبة الانتهازية في إيجاد "طريق مختصر" نحو الجماهير، رغبتهم في أن يحصدوا حيث لم يزرعوا، إضافة إلى ازدياد للنظرية بالكاد كانوا يخفون. كانت هذه السمات المشتركة لجميع الأنواع المختلفة من النزعة "الإقتصادية"، وهي ظاهرة لم تكن قائمة على نظرية أو سياسة منسجمتين بقدرما كانت مزاجا غير محدد سائد بين صفوف فئات معينة من الشباب، الطلابي خصوصا، الذين التحقوا بالحركة الاشتراكية الديمقراطية في تسعينيات القرن 19، والذين كانوا يفتقرون إلى ذلك الأساس النظري المتين الذي ميز الجيل السابق من الماركسيين الروس. بالنسبة للجيل الأول من الماركسيين الروس كان التحريض الاقتصادي مجرد جانب واحد فقط من عملهم الذي ربط دائما بين الدعاية والتحريض وحاول طرح القضايا الأوسع. وكانت الرابطة قد نجحت في كسب بعض الأعضاء من الحركة النارودنية القديمة بفضل النقاش السياسي. ومن ناحية أخرى كانت المهمة الرئيسية لحركة الإضرابات هي الانطلاق من مستوى الوعي الواقعي للعمال والعمل على رفع وعيهم وجعلهم يدركون، من خلال تجربتهم الخاصة في النضال، ضرورة التغيير الاجتماعي الشامل. كانت المنشورات التحريضية المحلية محدودة جدا في نطاقها للقيام بذلك وكانت هناك الحاجة إلى جريدة ماركسية لا تعكس فقط حياة ونضالات البروليتاريا، بل أيضا تقدم للعمال تعميما لتلك التجربة، أو بعبارة أخرى: جهاز سياسي ثوري قادر على توحيد حركة الإضرابات مع الحركة الثورية ضد الحكم المطلق.

كان لينين ومارتوف يشتغلان على هذا المشروع بالضبط حينما ألقى القبض عليهما. لكن القادة الجدد لرابطة سان بيترسبورغ للنضال كانت لديهم أفكار أخرى. ينبغي أن نضع في الاعتبار أننا نتعامل مع منظمة كوادر ما تزال في بداياتها الأولى، تحاول وضع المبادئ الأساسية سواء في السياسة أو التنظيم، وهي، علاوة على ذلك، مجموعة تشتغل في ظروف سرية خطيرة، تعرضت للتو لموجة من الاعتقالات. بالنسبة للينين ليست الأشكال التنظيمية عقيدة جامدة أو بديهيات رياضية، بل جزء من سيرورة حية تتغير وتتكيف مع الظروف. وبالتالي فإن موقفه بشأن هذه المسألة لم يتحدد وفقا لمبادئ مجردة، بل بناء على حاجيات اللحظة.

1: Wildman, op. cit., p: 99.



لم تكن هذه الظاهرة التي وصفناها للتو تقتصر على روسيا، فقد تزامنت مع حملة إدوارد برنشتاين في ألمانيا لمراجعة الأفكار الماركسية. وفي كل مكان رفع شعار "حرية النقد" الذي استعمل ستارا لتسريب أفكار دخيلة وتحريفية إلى داخل الحزب. وبدأت نفس الخلافات تطفو على السطح في المنفى، داخل صفوف منظمة اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين الروس، التي تأسست عام 1894، وكانت تتكون أساسا من الطلاب الذين انضموا مؤخرا للحركة الماركسية. كان الاتحاد منظمة مستقلة تنظيما عن مجموعة تحرير العمل، وكانت لها سيطرة فعلية على شبكة الاتصالات مع روسيا. كانت مسؤولة عن جمع الأموال والمطبعة وتنظيم نقل الكتابات السرية والحفاظ على الاتصال مع الداخل. إلا أن مجموعة تحرير العمل، ومن أجل الحفاظ على رقابتها على المجال الإيديولوجي، أصرت على حقها في تحرير منشورات الاتحاد، بما في ذلك جريدة رابوتنيك.

مع وجود غالبية القادة في المنفى السيبيري، لم يتبق سوى أعضاء مجموعة تحرير العمل في المنفى لخوض النضال ضد هذا التيار الجديد. وحوالي نهاية عام 1897 بدأ الطالب س. ن. بروكوبوفيتش، الذي كان حتى ذلك الحين متعاوننا مع مجموعة تحرير العمل، في طرح مواقف مماثلة. لا بد أن ذلك شكل ضربة موجعة للمجموعة، في وقت بدا كما لو أن تعاونهم مع الشباب داخل روسيا قد بدأ أخيرا يسير على أساس سليم. في البداية لجأ بليخانوف، الحريص على تجنب الانشقاق، إلى اعتماد لهجة تصالحية على غير عادته. وفي رسالة إلى أكسلرود، مؤرخة في 01 يناير 1898، كتب يقول: «... علينا أن ننشر عمله حول التحريض، إنه ليس سيئا من وجهة نظري، وعلينا أن نشجع "المواهب الشابة" وإلا فإنهم، كما تعرف، سوف يبدأون في الشكوى بأننا نهمشهم»<sup>1</sup>.

جزء كبير من الاحتكاك الأولي بين المجموعتين نتج، بدون شك، عن استياء الشباب من النفوذ السياسي لبليخانوف. لقد شعروا بالإهانة والتهميش من طرف المخضرمين واستاءوا من الرقابة الإيديولوجية الصارمة التي كانت تمارس عليهم. وعلى الرغم من محاولات بليخانوف لأن يكون تصالحيا، فإن الصراعات أصبحت أكثر تواترا. وسرعان ما هاجم الطلاب ما كان يمثل، باعتراف الجميع، الجانب الضعيف لمجموعة تحرير العمل، أي: الجانب التنظيمي. بدأوا في تعقب الثغرات التنظيمية، وطالبوا بالاطلاع على الحسابات المالية، التي كانت بالتأكيد في حالة من الفوضى. وبعد أن سجلوا نقطة هنا، انتقل الشباب إلى قضايا أخرى. وجدت الحلقة الصغيرة حول بليخانوف نفسها محاصرة بشكل متزايد من جميع الجهات. فالمجموعة التي كانت تقتصر إلى المداخل وتعتد اعتمادا كبيرا على "الشباب" في اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين الروس للاتصال مع روسيا، وجدت نفسها الآن أمام صعوبات هائلة. بدأ تأثير الضغوط على معنويات وأعصاب أعضائها يظهر في العلاقات المتوترة بشكل متزايد بين بليخانوف وأكسلرود. وبحلول شهر أبريل عام 1898، ظهرت علامات واضحة على الإحباط بين أعضاء المجموعة، حين بدأ أكسلرود يتساءل حول ما إذا كان للمجموعة أي سبب في الوجود وبدأت فيرا زاسوليتش، التي كانت تدعي المرض، في الحديث عن التوقف عن النشاط.

في سيرته التي كتبها عن بليخانوف، لخص س. هـ. بارون موقف الطلاب من مجموعة تحرير العمل، قائلا: «أم يكن إغراق بليخانوف، العضو الرئيسي في المجموعة، في الأعمال النظرية والفلسفية المجردة دليلا على اغترابه عن الواقع الروسي؟ ... وبحجة أن الماركسيين المخضرمين قد فقدوا الاتصال مع الوضع في روسيا وكانوا سيئي الاطلاع على احتياجاته، تم رفض بقائهم في قيادة الحركة. وحتى لو كانت لدى المجموعة رؤية أكثر واقعية للمطالب الراهنة، فإن بطأها وعدم كفاءتها جعلها غير قادرة على القيام بالدور القيادي الذي تدعيه لنفسها. وطالما استمرت مقاليد القرار في يدها فإنه لا يمكن إنجاز المهام الأساسية. إن أولئك الذين أسسوا الحركة وأعطوها دفعة عظيمة في البداية تحولوا الآن إلى عقبة أمامها. إلا أنهم رغم ذلك يرفضون افساح المجال لأولئك المؤهلين بشكل أفضل والذين يمتلكون في نفس الوقت فهما واضحا للحاجيات ويمتلكون الطاقات الضرورية للتعامل معها. وكان آخر اتهام مماثل وجهوه لهم هو أن الموقف النقدي المبالغ فيه الذي تتبناه المجموعة وتعصبها تجاه الآراء المخالفة قد أعاقا تطور عقول أديبة جديدة ما أحوج الحركة إليها... لقد شن النقاد نوعا من حرب العصابات ضد المجموعة من خلال تنظيم المعارضة ضد القادة المخضرمين والهجوم على صلاحياتهم والتعبير عن قلة الاحترام لسلطتهم. إن ما كانوا يهدفون له بوضوح هو الحد من نفوذ القادة المخضرمين وربما فكروا حتى في عزلهم تماما والاستيلاء على قيادة الحركة».

كانت التوترات بين مجموعة تحرير العمل وبين الجيل الجديد من الشباب في روسيا مفهومة إلى حد ما. فبليخانوف، الذي خاض نضالا عنيدا للدفاع عن النظرية الماركسية، كان مترددا في السماح للوافدين الجدد بالمشاركة في العمل الأدبي والنظري. وقد أظهر التطور السياسي اللاحق لهؤلاء الأخيرين أنه كانت لبليخانوف أسباب وجيهة لهذا التخوف. ومن ناحية أخرى لم يكن بليخانوف شخصا يسهل العمل معه. فنزعته الأرستقراطية المتحفظة وانعدام الحساسية لديه كانت توغر الصدور عليه وتبعث على الاستياء منه وخاصة بين الرفاق الشباب الذين كان ينتقدهم بشكل دائم. ولم يكن من قبيل الصدفة أن تروتسكي الشاب،

1: Perepiska GV Plekhanova i PB Aksel'roda, p: 182.

الذي اصطدم بدوره لاحقا مع العجز، وصفه بأنه "Maître de tous types de froideur"<sup>1</sup> (أستاذ لجميع أنواع البرودة). ومع ذلك فإن ما يكمن وراء هذه الحملة هو أنانية المثقفين التي تفاقمت من جراء الإحباطات المعتادة والصراعات الشخصية وصعوبات حياة المنفى. ومن ناحية أخرى كان ازدياد النظرية والنداءات الغوغائية إلى نهج "السياسة العملية" و"النشاط" نابعا من غطرسة المثقفين التي كانوا يخفون بها جهلهم المطبق. وقد لخص بارون موقف بليخانوف من هؤلاء الناس على النحو التالي: «إن انشغالهم بالمسائل الإدارية العملية يجعلهم مجرد بيروقراطيين وأشخاصا يفتقدون للعاطفة الثورية وذوي روح أضيقت من أن تكون قادرة على فهم المنظورات العظيمة للحركة»<sup>2</sup>.

حاولت فيرا زاسوليتش، كالعادة، التوفيق بين بليخانوف وبين "الشباب". لكن مع حلول نهاية عام 1897، أخذت الأمور منحى خطيرا. فحتى ذلك الحين كانت الصراعات بين الاتحاد وبين مجموعة تحرير العمل تقتصر أساسا على المسائل التنظيمية وليس السياسية. لكن ظهور جريدة رابوتشايا ميسل (فكر العمال) أحدث تغييرا جذريا في الوضع.

### رابوتشايا ميسل

في تلك المرحلة لم يكن من الصحيح الحديث عن الانحراف "الاقتصادي" باعتباره تيارا مكتمل الهوية. لكن هذه المناقشة كشفت عن وجود اتجاهات مقلقة وتيار انتهازي جنيني أقلق "المخضرمين"، الذين تأكدت أسوأ مخاوفهم مع ظهور "رابوتشايا ميسل"، التي صدر عددها الأول بسان بيتربورغ في أكتوبر 1887. عبرت تلك الجريدة عن أفكار التيار الجديد بأكثر الطرق وضوحا وفضافة. وقد أوضح العدد الأول موقف الجريدة حيث جاء فيه: «طالما كانت الحركة مجرد وسيلة لتهدئة ضمير المثقف المعذب (!) فإنها استمرت غريبة عن العامل نفسه... لقد تم نسيان القاعدة الاقتصادية للحركة بفعل المحاولة المستمرة لتذكر المثل الأعلى السياسي... بقي العامل المتوسط خارج الحركة... كان النضال من أجل المصالح الاقتصادية هو النضال الأكثر حزما والأقوى من حيث عدد الأشخاص الذين يفهمونه ومن حيث الكفاحية التي يدافع بها الشخص العادي عن حقه في الوجود. هذا هو قانون الطبيعة. إن السياسة دائما ما تتبع الاقتصاد بلطف، وكنتيجة عامة تتقطع أغلال السياسة "في الطريق"<sup>3</sup>. النضال من أجل الوضع الاقتصادي (?)، النضال ضد الرأسمالية في مجال المصالح الحيوية اليومية، والإضرابات كوسيلة لهذا النضال، هذا هو شعار الحركة العمالية»<sup>4</sup>.

الفكرة الأساسية التي تعرب عنها هذه الأسطر هي أن العمال لا يمكنهم أن يفهموا "السياسة" وليسوا بحاجة إليها. والخلاصة المنطقية لهذه الفكرة هي أنه لا حاجة للحزب الثوري. إن ما يكمن وراء الدعوة الديمغوجية إلى استقلال العمال عن القيادة الفكرية هو، في الواقع، استقلال العمال عن الماركسية. إن الخطر الضمني لهذه الفكرة واضح، إذ لو تم القبول بحجج الاقتصاديين وتم إغراق الحزب بالفئات المتخلفة سياسيا من العمال. وبالفعل ففي الاجتماع الذي انعقد بين القادة الجدد لرابطة بيتربورغ وبين لينين ومارتوف، عندما تمتعا بإطلاق سراح مشروط، في فبراير 1897، اقترح تاختراريف أن يتم قبول مندوبي النقابة (المجموعة المركزية للعمال) بشكل تلقائي داخل الرابطة. دافع لينين عن إدخال العمال إلى الحزب لكنه، في نفس الوقت، عارض إلغاء الحدود بين الحزب، الذي يمثل القطاع الأكثر تقدما من العمال، وبين المنظمات العمالية الواسعة، وخاصة في الوقت الذي كان فيه الحزب يصارع من أجل الوجود في ظل ظروف السرية الصعبة والخطيرة.

يلقى تيار الاقتصاديين بشكل عام، ورابوتشايا ميسل على وجه الخصوص، بطبيعة الحال، ترحيبا حارا في أيامنا هذه من طرف الصحافة البرجوازية المعادية للبلشفية، المستعدة لترويج أكثر الافتراءات وقاحة من أجل دعم أي تيار وقف ضد لينين. جوهر الافتراء هو تقريبا على النحو التالي: كان الاقتصاديون ديمقراطيين يدافعون عن "فتح الحزب" للعمال، في حين كان لينين متأمرا نخويا وعازما على الحفاظ على القيادة في أيدي زمرة صغيرة من المثقفين الذين يهيمن عليهم هو نفسه. والمثال الكلاسيكي عن هذا هو كتاب أ. ك. ولدمان: *The Making of a Worker's Revolution*، والذي هو محاولة واضحة لاستخدام جدال الاقتصاديين عسا لضرب لينين. لكن للأسف "الحقائق أشياء عنيدة"، فبعد بحث حثيث اكتشف ولدمان أخيرا أنه كان هناك في الواقع عامل (واحد فقط) في هيئة تحرير رابوتشايا ميسل، بينما كان كل قادة رابوتشايا ميسل مثقفين من مجموعة تاختراريف، انتهى المطاف بمعظمهم ليبراليين وأعداء شرسين للاشتراكية، وهو ما يفسر المعاملة المتعاطفة التي يلقونها في كتب التاريخ البرجوازية. كما اضطر

1: بالفرنسية في النص الأصلي - المترجم.

2: Baron, op. cit., pp: 254 - 255.

3: بالفرنسية في النص الأصلي - المترجم.

4: F. Dan, op. cit., p: 217.

ولدمان، ويا للمفاجئة! للاعتراف، في الصفحة 130 من كتابه، بأن «أنصار رابوتشاياميسل، وعلى الرغم من سيطرتهم على القيادة، فشلوا في استقطاب ممثلي العمال إلى سويوز بوربي (رابطة النضال)، في تناقض صارخ مع التزاماتهم النظرية».

كما لم تسفر محاولتهم كسب ود «الجماهير»، من خلال ابتذال مستوى الخطاب معها، عن نجاح كبير. لا ينبغي لجريدة عمالية ثورية حقيقية أن تكفي بأن تعكس الموقف الحالي والوعي الحالي للعمال، بل عليها أن تنطلق من المستوى الحالي للوعي وتعمل جاهدة على رفعه إلى مستوى المهام التي يطرحها التاريخ. وإلى جانب المواد التحريضية التي تتعامل مع الحياة اليومية ومشاكل العمال، ينبغي عليها أن تتضمن مقالات أكثر شمولية (الدعاية) وكذلك بعض المقالات النظرية. حتى ولدمان، المدافع المتحمس عن رابوتشاياميسل، اضطر إلى الاعتراف بأنه «بعد بضعة أعمدة تصبح مملّة تلك القصص التي لا نهاية لها عن «الاحتيايل» و«الغش» من طرف أرباب العمل والعنف والاعتداءات من طرف رؤساء العمال [المراقبين]، والتي تتخللها تعابير صاخبة عن السخط»<sup>1</sup>. قد يشترى العامل مثل هذه الجريدة مرة واحدة أو مرتين، لكنه بعد أن يدرك أنها لا تعمل سوى على تكرار ما يعرفه بالفعل، وأنها لا تبذل أية محاولة لرفع مستوى فهمه أو لتعليمه أي شيء جديد، فإنه سوف يصاب بالملل حتماً ويتوقف عن قراءتها. إذ لماذا ينبغي على المرء، في آخر المطاف، أن يشترى جريدة تخبره بما يعرفه بالفعل؟

المنظرون الفكريون لرابوتشاياميسل، الذين حولوا بالكلمات العمال إلى صنم، أظهروا في الممارسة العملية احتقارهم لهؤلاء العمال من خلال تخفيض مستوى الجريدة، التي كانت مجرد نشرة تمجد الإضرابات. وفي سياق رغبتهم في أن يوسعوا «شعبيتهم» ويصدروا «جريدة جماهيرية»، وضع الاقتصاديون أنفسهم في مؤخرة الطبقة العاملة، وهو ما اتضح خلال الإضراب الكبير في مصنع ماكسويل وبول شهر دجنبر عام 1898. فالعمال المضربون، الذين تعرضوا لقمع وحشي من طرف الشرطة، قرروا الدفاع عن أنفسهم. وقد أظهرت رسائل العمال، التي وصلت إلى أيدي الاشتراكيين الديموقراطيين، أن هؤلاء العمال هم أكثر تقدماً وثورية مما كان الاقتصاديون يعتقدون. كتبت إحدى العاملات من منطقة فيبورغ ما يلي: «لا نعرفون كم كان ذلك مخجلاً بالنسبة لي ولنا جميعاً. كانت لدينا الرغبة في التسكع في شارع نيفسكي [شارع الطبقة الراقية الرئيسي وسط بيترسبورغ] أو في المدينة. إنه لأمر مقزز حقاً أن يموت المرء في حفرة مثل الكلاب حيث لا يمكن لأحد حتى أن يراه... وهناك شيء آخر أريد أن أقوله لكم: على الرغم من أنهم اعتقلوا الكثير منا، وربما لم يتركوا أحداً، فإننا سنبقى صامدين».

وقال عامل آخر: «من المؤسف أنه لم تكن لدينا لافتة. في المرة القادمة ستكون لدينا لافتة ومسدسات»<sup>2</sup>. رحب الفرع المحلي للحزب الاشتراكي الديمقراطي بهذا التطور وأرسل مقالا حماسياً لمحزري رابوتشاياميسل في الخارج، لكن أعضاء هيئة التحرير في المنفى أرفقوا الخبر ببيان انتقدوا فيه العمال على تعريض أنفسهم للقمع. وعندما توصلت مجموعة سان بيترسبورغ بذلك العدد شعر أعضاؤها بالسخط إلى درجة أنهم رفضوا توزيع الجريدة لعدة أشهر.

في كتيب كرمير الشهير، حول التحريض، تم شرح العلاقة بين التحريض الاقتصادي وبين النضال السياسي بشكل واضح، حيث أكد على أنه «بغض النظر عن مدى اتساع الحركة العمالية، فإن نجاحها لن يصير مضموناً إلا عندما تقف الطبقة العاملة بحزم على أساس النضال السياسي»، وأن: «حسم السلطة السياسية هو الاختبار الرئيسي للبروليتاريا المناضلة... وهكذا فإن مهمة الاشتراكي الديمقراطي تتمثل في التحريض المستمر بين عمال المصانع على أساس الاحتياجات والمطالب الصغيرة الفعلية. والنضال الناجم عن هذا التحريض سوف يدرّب العمال على الدفاع عن مصالحهم الخاصة ويزيد من شجاعتهم ويمنحهم الثقة في قواهم الخاصة وإدراك ضرورة الوحدة ويجعلهم، في آخر المطاف، يواجهون أسئلة أكثر جدية تحتاج إلى حل. إن الطبقة العاملة، التي تم تحضيرها بهذه الطريقة لخوض نضال أكثر جدية، ستتوصل إلى حل أكثر قضاياها إلحاحاً».

لكن الاقتصاديين فسروا هذا بطريقة أحادية الجانب تماماً. فقد حولوا التحريض الاقتصادي و«النضالية» المفترضة إلى دواء لكل داء، وأعطوا للنظرية الثورية عملياً دوراً ثانوياً غير مهم. وبهذه الطريقة تحولت فكرة صحيحة إلى نقيضها، مما فسح المجال «لنظرية المراحل» المعادية للماركسية والتي صار لها، في وقت لاحق، تأثير كارثي بين أيدي المناشقة والستالينيين. كتب أحد الاقتصاديين (كريشيفسكي): «إن المطالب السياسية، والتي هي في طبيعتها مشتركة بين كل أنحاء روسيا، يجب أن تتوافق في البداية مع الخبرة المستخلصة من النضال الاقتصادي لشريحة معينة من العمال. فقط على أساس هذه التجربة يصير من الممكن والضروري الانتقال إلى التحريض السياسي»<sup>3</sup>.

1: A.K. Wildman, op. cit., p: 132.

2: Zinoviev, History of the Bolshevik Party, p: 71.

3: F. Dan, op. cit., pp: 216 - 218.

تعبر هذه الأسطر بشكل واضح جدا عن الطبيعة الانتهازية للنزعة الإقتصادية، والتي تنبع من الرغبة في إيجاد طريق مختصر نحو الجماهير عن طريق تهيين البرنامج الماركسي والتخلي عن المطالب "الصعبة" بحجة أن الجماهير ليست مستعدة لها. كانت هذه الظاهرة في الجوهر مشابهة لسياسة "الإنجازات الصغيرة" التي كان الشعبويون الليبراليون ينادون بها. وكانت تنسجم تماما مع النزعة الانتهازية الجبابة للماركسيين الشرعيين، الذين كانوا في الواقع يمثلون الجناح اليساري لليبرالية البرجوازية. وكان المتضمن في أفكار الاقتصاديين هو الخوف من الدخول في مواجهة مع السلطات القيصرية، من خلال تجنب المطالب السياسية ومحاولة تقديم نشاط الحركة الاشتراكية الديمقراطية على أنها "علاقة خاصة" بين العمال وأرباب العمل في المصانع، تاركين مسألة السلطة السياسية للآخرين. في الواقع كان مضمون كل حجج الاقتصاديين هو أن الحركة الاشتراكية الديمقراطية يجب أن تكييف نفسها بشكل سلبي مع الحدود الضيقة للشرعية أو شبه الشرعية الممنوحة لها من طرف الدولة القيصرية.

من خلال حصر أنفسهم في المطالب الاقتصادية كانوا يأملون تجنب غضب السلطات. وبهذا المعنى كانت النزعة الإقتصادية صورة طبق الأصل للموقف الذي اتخذته الحركة الماركسية الشرعية. كانت بمثابة التخلي عن النضال الثوري وتسليم قيادة الحركة إلى الليبراليين. لكن مثل هذه الخطة لم تكن لتنجح، فإذا كان الاقتصاديون على استعداد للتخلي عن السياسة في النضال الديمقراطي الثوري ضد القيصرية، فإن الدولة القيصرية لم تكن مستعدة، بأي حال من الأحوال، لتقف بمعزل عن الصراع بين العمال والرأسماليين، حيث تعرضت الإضرابات للهجوم من طرف الشرطة والقوزاق ونفذت موجات متتالية من الاعتقالات ضد أكثر الفئات نشاطا ووعيا داخل الحركة العمالية.

ووفقا لتقرير الوفد البلشفي إلى مؤتمر الأممية الثانية في أمستردام، سنة 1904، لم يكن متوسط أمد حياة المجموعات الاشتراكية الديمقراطية في روسيا في ذلك الوقت يزيد عن ثلاثة إلى أربعة أشهر. وقد اكتسحت الموجة المستمرة من الاعتقالات الأعضاء الأكبر سنا والأفضل تكوينا من الناحية النظرية والأكثر خبرة، وتم استبدالهم بشباب عديمي الخبرة وضعيفي الاستعداد. كان هذا الواقع عنصرا هاما في النهوض السريع للاقتصاديين خلال النصف الأخير من عقد التسعينيات. إن الحزب الذي يعاني من هذا النزيف الكبير، والملمزم بتجديد قيادته بسيل مستمر من الشباب عديمي الخبرة والسذج من الناحية النظرية، سيعاني حتما من انحطاط إيديولوجي معين وتراجع عام في مستواه السياسي. وعندما تكون الغالبية العظمى من هؤلاء الشباب من الطلاب والمثقفين، فإن خطر الانحطاط السياسي للحزب وتدفق الأفكار الغريبة إلى داخله يصبح أكبر ألف مرة. الحزب الثوري الذي يفقد كوادره يفقد عموده الفقري، وعندما يفقد بوصلته النظرية يزيغ حتما عن مساره. وبدلا من أن يتدخل في حركة الطبقة العاملة، من أجل توفير القيادة السياسية الواعية لها، يصير مثل هذا الحزب قادرا فقط على السير في ذيلها. كان للماركسيين الروس كلمة معبرة لوصف هذا الاتجاه وهي: خفوستيزم (Khvostism = الذيلية). وبينما تمثل الماركسية الثورية القسم الأكثر وعيا بين صفوف الطبقة العاملة، فإن الإقتصادية وجميع التيارات الإصلاحية الأخرى تجسد القسم الآخر النقيض. لم تكن الإقتصادية أبدا اتجاها إيديولوجيا متجانسا.

لكن وعلى الرغم من كل المشاكل والنكسات كانت الحركة الجديدة تنمو بسرعة. تأسست مجموعات اشتراكية ديمقراطية في تفير وأرخانجيلسك ونيجني نوفغورود وكازان وساراتوف وخاركوف وكييف وبيكاتيرينوسلاف وأوديسا وتفليس وباتوم وباكوف ووارسو ومينسك وريغا، والعديد من المراكز الهامة الأخرى. ولأول مرة صار من الممكن للمرء الحديث عن منظمة ماركسية لعامة روسيا حقا. لكن الوضع الذي اضطرت هذه المجموعات للإشتغال في ظله لم يكن مساعدا على الوضوح الفكري والتماسك التنظيمي. كانت الاتصالات بينها صعبة وغير منتظمة وكانت تتعطل باستمرار. كانت الاعتقالات تؤدي، في كثير من الأحيان، إلى تحطيم بعض تلك المجموعات وظهور أخرى جديدة. وفي ظل هذه الظروف بدت مهمة إنشاء قيادة ثابتة وفعالة داخل روسيا شبه مستحيلة. وبشكل حتمي مالت تلك المجموعات الاشتراكية الديمقراطية المحلية إلى امتلاك نظرة ضيقة نوعا ما. إن غياب روابط مستقرة مع قيادة ممرزة على الصعيد الوطني والمشاكل الناجمة عن ظروف السرية وعدم نضج أغلب الأعضاء وقلة خبرتهم، كان يعني غلبة الطابع المحلي والهوية على الجزء الأكبر من العمل. وقد كان عدم اهتمام الاقتصاديين بالنظرية وإصرارهم الضيق الأفق على المهام العملية للعمل الجماهيري والتحرير، مجرد الوجه الآخر لنفس العملة. ربما كان من الممكن وصف الانحرافات الاقتصادية لجزء من الشباب الروسي بكونها أخطاء إيديولوجية، لولا حقيقة أنها تزامنت مع ظاهرة أممية أكثر خطورة بكثير.

## تحريفية برنشتاين

في عام 1898، وبمناسبة الذكرى الخمسين لكتابة البيان الشيوعي، أصيب بليخانوف بالرعب عند اطلاعه على مقال للزعيم الألماني البارز في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، برنشتاين، الذي صدر في صحيفة Die Neue Zeit (الأزمة الحديثة)، والذي شكك في الأفكار الأساسية للماركسية. كتب بليخانوف قائلاً: «لماذا؟ إن هذا إنكار كامل لكل من التكتيكات الثورية وللشيوعية. كادت هذه المقالات أن تسقطني مريضاً طريح الفراش». كانت تلك مجرد الطلقة الأولى في حملة متواصلة شنها برنشتاين في صحافة الحزب الألماني لصالح "مراجعة" الماركسية. قال برنشتاين إن الماركسية تجاوزها التاريخ. وليست النظريات، "الحديثة" المزعومة، للقادة الإصلاحيين داخل الحركة العمالية في وقتنا الحالي، سوى منتجات مقلدة خرقاء لمفاهيم أعرب عنها باقتدار أكبر برنشتاين قبل مائة عام.

كان من بين ما قاله برنشتاين إن تركيز الإنتاج الصناعي يسير بوتيرة أبطأ بكثير مما توقعه ماركس؛ كما أظهر العدد الكبير للشركات الصغيرة حيوية المشاريع الخاصة ("كل صغير جميل"، كما يقولون في أيامنا هذه!)؛ وبدلاً من حدوث الاستقطاب بين العمال والرأسماليين، فإن وجود العديد من الفئات المتوسطة ("الطبقات الوسطى الجديدة") يعني أن المجتمع أكثر تعقيداً بكثير مما اعتقد ماركس؛ وبدلاً من "فوضى الإنتاج"، صار من الممكن التحكم في الرأسمالية إلى حد أن الأزمات أصبحت أقل تواتراً وأقل حدة (الكينزية و"الرأسمالية الموجهة")؛ والطبقة العاملة، فضلاً عن كونها أقلية في المجتمع، مهتمة فقط بالتحسين الفوري للشروط المادية لوجودها ("الارتقاء الاجتماعي").

وبطبيعة الحال لم تسقط هذه الأفكار من السماء. إنها كانت تعكس ضغط فترة طويلة من الازدهار الاقتصادي الرأسمالي الذي استمر لما يقارب عقدين من الزمن، والتي انتهت مع الحرب العالمية الأولى. أدت هذه الفترة من الهدوء النسبي والاجتماعي ومن التحسينات النسبية في مستويات المعيشة، على الأقل للفئات العليا من البروليتاريا في ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا، إلى تنامي الوهم في أن الرأسمالية كانت في طريقها إلى حل تناقضاتها الأساسية. كما أدى النمو السريع لقوة ونفوذ الأحزاب العمالية والنقابات إلى نشوء شريحة جديدة من مسؤولي النقابات والبرلمانيين وأعضاء المجالس البلدية والبيروقراطيين الحزبيين الذي ابتعدوا، سواء في ما يتعلق بطرفهم المعيشية أو بأفكارهم، عن الطبقة التي كان من المفترض أنهم يمثلونها. هذه الشريحة، التي صارت تعيش ظروفًا مريحة وتحقق نجاحاً واضحاً في ظل الرأسمالية، وفرت القاعدة الاجتماعية للنزعة التحريفية، والتي هي ردة فعل برجوازية صغيرة ضد عواصف وإجهاد الصراع الطبقي، وميلها إلى حياة الراحة والرغبة في تحقيق انتقال سلمي وهادئ إلى الاشتراكية، في المستقبل البعيد.

في البداية كان رد فعل أكسلرود على مقالات برنشتاين في Die Neue Zeit أكثر تسامحاً من رد فعل بليخانوف، الذي كان غاضباً جداً. في الواقع وصل كل من أكسلرود وزاسوليتش إلى درجة الإحباط بسبب ذلك الخلاف. وزاسوليتش، على وجه الخصوص، كانت قد بدأت تعذبها الشكوك. وحده بليخانوف من بقي ثابتاً وسلح رفاقه وانخرط في المعركة. إن مقالات بليخانوف ضد برنشتاين وكونراد شميدت (في الفلسفة، دفاعاً عن المادية الديالكتيكية) أظهرته في أبهى صورة له: مقاتل لا يكل ولا يمل في الدفاع عن الأفكار الأساسية للماركسية. كما شن أبرز ممثلي الجناح اليساري داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، روزا لوكسمبورغ وبارفوس، هجوماً مضاداً شرساً، لكن ما صدم بليخانوف أكثر من أي شيء آخر كان هو رد فعل كاوتسكي.

كاوتسكي، الذي كان يعتبر حارس الماركسية الأرثوذكسية بامتياز، كان أيضاً صديقاً شخصياً لبليخانوف. لكنه الآن لم يسمح فقط باستخدام Die Neue Zeit - التي كان رئيس تحريرها - لشن تلك الانتقادات اللاذعة المعادية للماركسية، بل إنه أيضاً امتنع في البداية عن انتقاد برنشتاين في الصحافة. في ضوء التطورات اللاحقة صار صمت كاوتسكي مفهوماً. كانت ماركسية كاوتسكي ذات طابع سكولاستيكي مجرد في كل ما قدمه من أطروحات مدرسية عن الثورة والصراع الطبقي. وفي حين اعتبر بليخانوف برنشتاين عدواً يجب مهاجمته وفضحه وطرده، إذا لزم الأمر، فإن كاوتسكي كان ما يزال يرى فيه الرفيق الذي أخطأ، والذي يجب ألا تفسد أخطأه النظرية العلاقة الودية معه. وقد تبين موقف كاوتسكي بوضوح في خطاب كتبه إلى أكسلرود، يوم 09 مارس 1898، حيث هنا على مقالاته ضد برنشتاين بالعبارات التالية: «أنا مهتم جداً برأيك في إيدي [برنشتاين]. في الواقع أخشى أننا نفقده... لكنني مع ذلك لم أفقد الأمل وأتمنى أنه عندما يدخل في اتصال شخصي معنا، ولو كتابة، سوف يعود شيء ما من ذلك المقاتل القديم إلى هاملت (كذا)، وأنه سوف يعود، مرة أخرى، إلى توجيه انتقاداته ضد العدو وليس ضدنا»<sup>1</sup>.

وعندما أجبره بليخانوف أخيراً على كتابة رد علني، حرص كاوتسكي على اختيار أكثر العبارات نعومة، وكاد يعتذر له تقريباً على القيام بذلك: «لقد أجبرنا برنشتاين على إعادة النظر في الأمور ولهذا يجب علينا أن نشكره». بليخانوف الذي أصابه هذا بالحنق كتب رسالة مفتوحة إلى كاوتسكي بعنوان: «لماذا علينا أن نشكره؟» والتي طرح فيها، من بين أمور أخرى، السؤال التالي بوضوح: «من الذي سيدفن الآخر؟ هل برنشتاين هو الذي سيدفن الاشتراكية الديمقراطية، أم أن الاشتراكية الديمقراطية هي التي ستدفن برنشتاين؟»<sup>1</sup>.

وفي حين كان رد أعضاء مجموعة تحرير العمل بشكل حاد على محاولة برنشتاين تجميع تعاليم ماركس الثورية، فإنه تمكن من إيجاد معجبين به بين الروس. قبل ذلك كانت انحرافات الاقتصاديين تفتقر إلى أساس نظري متماسك. أما الآن فقد تمسكوا، بدءاً من المنفيين، بقوة بأفكار برنشتاين لتبرير نزعاتهم الانتهازية. وعلى الرغم من أن رابوتشاياميسل سعت إلى تجنب السياسة مثلما يتجنب المرء الطاعون، فإنه كان لها خط سياسي واضح جداً: خط إصلاحية ومعاد للثورة، كتبت: «إن تطوير تشريعات المصنع وتأمين العمال ومشاركة العمال في الأرباح وتطور النقابات، سوف يؤدي تدريجياً إلى تحويل المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع اشتراكي... ليس تفاقم فقر البروليتاريا وليس تفاقم الصراع بين الرأسمال والعمل وليس تفاقم التناقضات الداخلية للإنتاج الرأسمالي هو ما سيؤدي إلى الاشتراكية، بل نمو وتطور قوة ونفوذ البروليتاريا هو ما سيؤدي إليها»<sup>2</sup>.

كان منظرو رابوتشاياميسل من الطلاب والمثقفين، ومن خلالهم كان تأثير اللبراليين البرجوازيين يمر إلى الحركة العمالية. لم يكن إعجابهم الواضح ببرنشتاين من قبيل الصدفة، فلقد شكلوا النسخة الروسية الخاصة لظاهرة التحريفية العالمية والتي كانت بدورها تعبيراً عن مصالحي «التقدميين» من أبناء الطبقة الوسطى في الغرب، الذين اقتربوا من الحركة العمالية عندما صار من الواضح أن هذه الأخيرة قد تمكنت من التحول إلى فاعل اجتماعي قوي وبالتالي أصبحت مصدراً محتملاً للوظائف والمكانة الاجتماعية والدخل. في الواقع سبق لإنجلز أن حذر الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، منذ بداياتها الأولى، من التأثير الضار لهؤلاء «Katheder Sozialisten»، أناس مثل دوهرنغ الذين تطوعوا بكرم لتقديم خدماتهم للحركة العمالية بهدف دفعها نحو طريق التعاون الطبقي الإصلاحي.

ومع ذلك فإن المقارنة ليست صحيحة إلا في حدود معينة فقط. فالسياق الاجتماعي الذي نشأت في ظلّه الحركة الإقتصادية مختلف جداً عن ذلك الذي ظهرت في ظلّه التحريفية الألمانية وازدهرت. وتماثلت كانت البرجوازية الروسية ضعيفة وهزيلة مقارنة مع البرجوازيات الألمانية والفرنسية والبريطانية القوية، فإن البرنشتاينيين الروس كانوا الحلقة الأضعف في الحركة الانتهازية العالمية. لم تكن لديهم أفكار خاصة بهم ما عدا الأفكار المزاجية والأحكام المسبقة السائدة بين المثقفين. كل المتاع الأيديولوجي الذي امتلكوه كان من إنتاج الألمان والبريطانيين. للإصلاحية قاعدة مادية، فقد كانت الرأسمالية في بريطانيا وألمانيا وفرنسا ما تزال لديها دوراً تقديمياً لتلعبه في تطوير القوى المنتجة وكانت مرحلة الازدهار الاقتصادي، التي سبقت الحرب العالمية الأولى وتحسن أوضاع قسم من الجماهير وما ترتب عن ذلك من تلطيف في العلاقات بين الطبقات، هي الأساس الاجتماعي والاقتصادي لصعود التحريفية البرنشتاينية. لكن البذور التي ازدهرت في تربة التقدم الاقتصادي في الغرب أثبتت أنها عقيمة تقريباً في التربة الروسية القاسية. ففي روسيا لم تكن هناك أرستقراطية عمالية كبيرة، بل فقط كتلة من البروليتاريين الفقيرين المستعبدين على نطاق واسع في الصناعة. ولم تتمكن الأفكار الإقتصادية من العثور على صدى لها بين صفوف الطبقة العاملة سوى في مكان واحد فقط.

مع وجود جميع القادة الأكثر خبرة تقريباً في السجن، تراجع المستوى النظري والسياسي للأعضاء المتوسطين إلى نقطة منخفضة للغاية وأصبحت الأفكار الإقتصادية منتشرة على نطاق واسع في اللجان المحلية. وقد ظهرت النتيجة العملية لهذا الوضع في يوم فاتح ماي 1899، عندما رفعت مجموعة من الشباب في بيتسبورغ لافتة تدعو إلى إقرار يوم عمل من عشر ساعات، عوض الشعار المقبول أممياً والمطالب بيوم عمل من ثماني ساعات، وهو الفعل الذي ندد به العدد الأول من جريدة زاريا (Zaryaas) باعتباره «خيانة للحركة الاشتراكية الديمقراطية الأممية»<sup>3</sup>.

من أجل وضع الحركة في روسيا على أساس وطيء، كان لا بد من وضع حد لهذه الحالة. فالحاجة الملحة لحزب موحد مع قيادة مستقرة، وقبل كل شيء الحاجة لصحيفة ماركسية لعموم روسيا، ظهرت واضحة للجميع. لم يصبح توحيد حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي اقتراحاً قابلاً للتطبيق إلا مع إصدار إيسكرا لينين. لكن قبل ذلك كانت هناك محاولة لبناء الحزب

1: Baron, Plekhanov—the father of Russian Marxism, p: 238.

2: Wildman, op. cit., p: 141.

3: Akimov, On the Dilemmas of Russian Marxism 1895-1903, p: 262.

من خلال مؤتمر تأسيسي.

### المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي

على الساعة العاشرة من صباح يوم 01 مارس 1898 (17 مارس حسب التقويم القديم)، اجتمع تسعة أشخاص في شقة عامل بالسكك الحديدية، يدعى روميانتسيف، في بلدة مينسك. كان الغرض من اللقاء ظاهريا هو الاحتفال بيوم تسمية<sup>1</sup> زوجة روميانتسيف. في الغرفة المجاورة كان المجتمعون يحتفظون بموقد مشتعل، ليس بسبب البرد، بل لإحراق الوثائق في حال حدوث مدهامة من طرف الشرطة. كان هذا الاجراء الاحترازي ضروريا بشكل واضح بالنظر إلى قرب مكان الاجتماع من ثكنة للشرطة وكون التسعة أشخاص المعنيين هم قادة المجموعات الاشتراكية الديمقراطية في موسكو وكييف وبيتسبورغ وبيكاتيرينوسلاف، فضلا عن هيئة تحرير جريدة رابوتشايا غازيتا (مجلة العمال) ومنظمة الاشتراكيين الديمقراطيون اليهود-البوند. في هذه الظروف انعقد أول وآخر مؤتمر للحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية على الأراضي الروسية في ظل القيصرية. كانت قد اتضحت الحاجة، منذ عدة سنوات، لعقد مؤتمر لإضفاء الطابع الرسمي على وجود الحزب وانتخاب قيادة له وتوحيد المجموعات المحلية. ومن زنزانته في السجن، كان لينين قد تمكن، في وقت سابق، من تهريب مشروع برنامج للحزب، كتبه بشق الأنفس بالحليب بين سطور أحد الكتب.

وقد تم بالفعل إحراز بعض التقدم. فقد وافقت المجموعات السرية على تسمية نفسها رابطات النضال من أجل تحرر الطبقة العاملة، بل وإصدار جريدة سرية بعنوان رابوتشي ديلو (قضية العمال). وتم تشكيل لجنة سرية في كريف لغرض طباعة الجريدة، التي ظهر عددها الأول في غشت 1897 (على الرغم من أنها أرخت بشهر نوفمبر لأسباب أمنية). كما عهد إلى منظمة كريف بوضع الترتيبات لعقد المؤتمر، بالنظر إلى تمكنها من النجاة من أسوء موجات الاعتقالات. ومع ذلك فإن محاولة عقد المؤتمر داخل روسيا، في ظل تلك الظروف، كانت محفوفة بالصعوبات. لم يتم استدعاء بعض المجموعات، مثل مجموعة الشباب في بيتسبورغ ومجموعات أوديسا ونيكولاييف واتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين بالخارج، بالنظر إلى المخاطر الأمنية. بينما رفضت مجموعة خاركوف، من ناحية أخرى، المشاركة بحجة أن تأسيس الحزب مهمة سابقة لأوانها.

لم يكن من قبيل الصدفة أن عقد المؤتمر الأول في مينسك. كانت المناطق البولندية والغربية، كما سبق لنا أن رأينا، بؤرا للتحريض الثوري المناهض للنظام القيصري، حيث اجتمع الاضطهاد الاجتماعي والقومي لخلق وضع متفجر. وقد كانت حركة إضرابات عقد التسعينيات بمثابة نقطة تجميع لغضب القوميات المضطهدة ومشاعر المرارة والكراهية المتراكمة لديها، وخاصة بين صفوف اليهود. أدت حركة العمال والحرفيين اليهود إلى إقامة اتحاد العمال اليهودي العام لليتوانيا وبولندا وروسيا في عام 1897، قبل عام من عقد المؤتمر الأول للحزب الروسي نفسه. كان البوند خلال السنتين أو الثلاث سنوات الأولى بعد تشكيله، كما قال زينوفييف: "التنظيم الأقوى والأكثر عددا داخل صفوف حزبنا"<sup>2</sup>. وفي وقت المؤتمر الأول كان البوند يتمتع بأكبر الموارد وأكبر عدد من الأعضاء بين الجماعات الاشتراكية الديمقراطية الروسية الأخرى، كان يمتلك 14 منظمة محلية (أو "لجان" كما كانت تعرف آنذاك) في وارسو ولودز وبيلوستوك ومينسك وغوميل وغرودنو وفيلنا ودفنسك وكوفنو وفيتيبسك وموغيليف وبيرديشيف وجيتومير وريغا. كما وجدت أيضا لجان أصغر في العديد من المناطق الأخرى، بما في ذلك كريف وأوديسا وبريست ليتوفسك.

لكن منظمة البوند كانت دائما أقرب إلى حركة نقابية منها إلى حزب ثوري. وحتى أكيموف اعترف بأن المستوى السياسي لقادتها كان منخفضا: «أعتبر هذا بمثابة قصور لا شك فيه عند البوند: إن البروليتاريا اليهودية تفتقر إلى المنظرين»<sup>3</sup>. في الواقع، وكما رأينا من قبل، لم يكن القسم الأكبر من أعضائها مشكلا من البروليتاريين، بل من الحرفيين. تألفت القيادة من لجنة مركزية من ثلاثة أعضاء ينتخبون في مؤتمر يعقد كل سنتين. على المستوى المحلي كان البوند ينظم المجموعات النقابية (والتي غالبا ما تترجم بشكل خاطئ باسم "المجالس المهنية") ولجان الدعاية ولجان المثقفين وحلقات النقاش ولجان التحريض، والتي كانت، على ما يبدو، تعمل بشكل مستقل إلى حد ما عن بعضها البعض. كانت المجموعات النقابية تضم ما بين 05 و10 أعضاء من البوند يشتركون في مهنة معينة، وكانت تعين من طرف اللجنة المركزية، ويبدو أنها كانت تجتمع بشكل منتظم لمناقشة المسائل النقابية.

1: يوم التسمية (the name-day) احتفال ذو أصول مسيحية يقوم على احتفال الشخص باليوم الذي يوافق تاريخ ميلاد أو وفاة القديس صاحب الاسم الأصلي (يوحنا مثلا أو بولس الخ).

2: Zinoviev, History of the Bolshevik Party, p: 51.

3: Akimov, On the Dilemmas of Russian Marxism 1895-1903, p: 223.

فقط بعد شهر غشت من عام 1902 قام البوند، تحت ضغط الإيسكرا، بتشكيل لجان ثورية تجمع العمال الأكثر تقدماً بشكل منفصل ومستقل عن المجموعات النقابية. كانت كل هياكل البوند مبنية على أساس غير ماركسي تماماً، من خلال فصلها الصارم بين العمال في المجموعات النقابية وبين المثقفين الذين كانوا يعملون بشكل مستقل في اللجان الخاصة بهم.

على الرغم من أوجه القصور التي كان البوند يعانها فإن العمال والحرفيين الاشتراكيين اليهود لعبوا دوراً هاماً خلال الأيام الأولى للحركة. وقد كان انعقاد المؤتمر الأول في مينسك اعترافاً بهذا الدور. وحده البوند من كان يمتلك الموارد اللازمة لتنظيم مثل هذا المؤتمر رغم رقابة الشرطة القيصرية. وبفضل مهاراتهم التنظيمية تمكن المؤتمر من إكمال أشغاله بنجاح في ست جلسات جرت على مدى ثلاثة أيام. وبما أنه لم تتم صياغة أية تقارير فإن كل ما نعرفه عن أشغاله موجودة عملياً في القرارات. وتحت ضغط البوند تم الاتفاق على أن «يدخل الاتحاد العام لعمال روسيا وبولندا إلى الحزب كمنظمة مستقلة خاصة في تلك المسائل التي تتعلق بالبروليتاريا اليهودية»<sup>1</sup>.

كان من شأن هذا التنازل الذي قدم للأحكام القومية المسبقة للبوند أن يثير جدالاً كبيراً في الفترة اللاحقة، عندما احتلت المسألة القومية مكاناً مركزياً في نقاشات الماركسيين الروس. فلينين الذي ناضل بحزم ضد اضطهاد الأقليات القومية بجميع مظاهره ودافع عن حقوق القوميات المضطهدة، بما في ذلك حقها في تقرير المصير، أصر في نفس الوقت على ضرورة الحفاظ على وحدة منظمات العمال وناضل ضد أي توجه لتفريقهم على أسس قومية.

تمكنت الحركة الاشتراكية الديمقراطية، كما رأينا، من تحقيق تقدم مذهل بين العمال والحرفيين اليهود في المنطقة الحدودية الغربية للإمبراطورية الروسية. لكن قيادة منظمة العمال اليهود (البوند) تهاوت بشكل وثيق مع وجهة نظر الإصلاحيين الاقتصاديين. أدى عدم وجود مركز قيادي قوي إلى تفاقم النزعات المحلية، والتي كانت لها آثار ضارة خاصة على العلاقة بين الاشتراكيين غير الروس ونظرائهم الروس. بدأت قيادة البوند تطور نظرة قومية ضيقة كانت ستؤدي، لو تركت لحالها، إلى عواقب خطيرة للغاية بالنسبة للعمال اليهود أنفسهم، باعتبارهم أقلية مضطهدة. قال أوسيب بيانتيتسكي إنه في عام 1902: «كان العمال اليهود هم أول من حققوا التنظيم، وكان العمل بينهم أسهل مما كان بين العمال الليتوانيين والبولنديين والروس. ولم يرق المركز القيادي للعمال اليهود بأي عمل بين العمال غير اليهود ولم يرغب في القيام بذلك».

وفي الوقت نفسه أدت الانقسامات القومية إلى تقسيم حتى المنظمات القاعدية للطبقة العاملة. لم تكن هناك ولو نقابة واحدة في غرب روسيا تقبل بعضوية العمال من جميع الجنسيات. الأحزاب نفسها، والتي كانت مقسمة على أسس قومية، حافظت على نقاباتها الخاصة: الاشتراكيون الديمقراطيون الليتوانيون والاشتراكيون الديمقراطيون البولنديون، والبوند بطبيعة الحال. ولعبت دوراً سلبياً للغاية في تكريس الانقسامات التي كانت تضر بشكل خطير بقضية العمال بشكل عام وقضية العمال اليهود على وجه الخصوص. كان العمال اليهود يؤيدون الوحدة بشكل غريزي، لكن القادة أصرّوا على إبقائهم منفصلين. يذكر بيانتيتسكي اجتماعاً حضره للجنة للبوند: «حيث تمت مناقشة حقيقة أنه نظراً لعدم وجود الوعي الطبقي عند العمال الروس فإنهم كانوا يعرفون النضال الاقتصادي للعمال اليهود، إذ عندما يخوض هؤلاء الأخيرين الإضراب يقوم العمال الروس بالاستيلاء على مناصب شغلهم. وجاء قرارهم بشأن هذه المسألة مبنياً على حكمة سليمان: يجب أن يقوم بعض العمال الروس بالتحريض بين رفاقهم»<sup>2</sup>.

كانت التقاليد الحرفية الضيقة والطبيعة الحرفية الصغيرة للكثير من المشاريع في تلك المنطقة هي القاعدة الاجتماعية التي قامت عليها المنظمة الاشتراكية الديمقراطية اليهودية (البوند) وتطورت. أظهر صاغة المجوهرات والإسكافيون والخياطون والنقاشون وعمال التجميع والديباغون، في فيلنا، ميلاً إلى أفكار الإقتصادية أكبر مما أظهره عمال النسيج والمعادن في بيتربورغ. لكن حتى في فيلنا نفسها كان السبب الحقيقي لهذه الظاهرة يقع على عاتق الارتباك الأيديولوجي للقيادة. حتى فلاديمير أكيوموف، الاقتصادي المتعصب، وجد نفسه مجبراً على الاعتراف، في كتابه عن السنوات الأولى للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، بأن العمال الاشتراكيين الديمقراطيين في فيلنا كانوا يشكون من أن الحزب «ليس سياسياً بما فيه الكفاية».

«كان العمال أنفسهم هم الذين طالبوا بإدخال العنصر «السياسي» في التحريض الاشتراكي الديمقراطي. كانوا هم الذين عقدوا العزم على فضح أخطاء النظام السياسي وطرح مسألة افتقار الناس للحقوق وصياغة مصالح العمال باعتبارهم مواطنين. لكن المنظمة الثورية، التي كانت تأمل في قيادة (!!) الحركة العمالية نحو الأفكار الاشتراكية الديمقراطية، كانت تخشى من أن لا تفهم

1: KPSS v rezolyutsiyakh i resheniyakh, vol. 1, p: 16.

2: O. Piatnitsky, Zapiski Bol'shevika, pp: 25 - 26.



من قبل الجماهير العاملة (!)، ومن أن تفقد نفوذها إذا ما هي رفعت الآن مطالبها الخاصة بالحقوق "السياسية" باعتبارها مطالب البروليتاريا. هل كانت الطبقة العاملة واعية سياسيا بما فيه الكفاية لتفهم وتعي مصالحها الخاصة؟ لم يكن القادة متأكدين من ذلك وترددوا في التحرك<sup>1</sup>.

توضح هذه الأسطر القليلة، أفضل من أي شيء آخر، موقف الازدراء الذي يكنه الاقتصاديون للعمال الذين من المفروض أنهم يتكلمون باسمهم. الفكرة الأساسية هي الانعدام التام للثقة في قدرة العمال العاديين على فهم الحاجة إلى النضال السياسي. ومع ذلك فإن الحاجة للتغيير الاجتماعي والسياسي تواجه العمال في كل مرحلة من مراحل النضال. إن العمال الذين ينطلقون من النضال الإقتصادي ضد أرباب الأعمال الفرادي يصلون حتما، في لحظة معينة، إلى الاستنتاج بضرورة إحداث تغيير شامل للمجتمع. وقبل ذلك بوقت طويل تفهم البروليتاريا، كما يثبت ذلك كل تاريخ الحركة العمالية منذ الحركة الشارتية فصاعدا، ضرورة النضال من أجل كل مطلب سياسي وديمقراطي جزئي يسهم في تعزيز موقفها وتطوير منظماتها الطبقية وخلق شروط أفضل لخوض نضال ناجح ضد مضطهديها.

وبالنظر إلى التاريخ الدموي للنظام القيصري الروسي كان الحفاظ على موقف مبدئي بشأن المسألة القومية يطرح بلا شك صعوبات هائلة. وكدليل على درجة انعدام الثقة والتوتر بين القوميات قرر الحزب الاشتراكي الديمقراطي الليتواني، بعد بعض التردد، عدم حضور مؤتمر الحزب "الروسي"، مما أثار استياء دزيرجينسكي، الذي كتب في وقت لاحق: «كنت ألد عدو للنزعة القومية واعتبرت أن أكبر خطأ في عام 1898، حينما كنت في السجن، كان عدم مشاركة الاشتراكيين الديمقراطيين الليتوانيين في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي الموحد»<sup>2</sup>.

وبالمثل فإن المؤتمر قدم بعض التنازلات لضغوط اللجان المحلية الحريصة على استقلاليتها. يقول القرار: «إن اللجان المحلية ستقوم بتنفيذ توجيهات اللجنة المركزية بالطريقة التي تراها مناسبة في شروطها المحلية. وفي حالات استثنائية تحتفظ اللجان المحلية بالحق في رفض تنفيذ مطالب اللجنة المركزية، مع إبلاغها عن أسباب ذلك الرفض. وفي كل الأمور الأخرى ستعمل اللجان المحلية بطريقة مستقلة تماما، مسترشدة فقط ببرنامج الحزب»<sup>3</sup>.

تم انتخاب لجنة مركزية من ثلاثة أعضاء؛ وتم الاتفاق على إصدار بيان. واعترف باتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين الروس في الخارج ممثلا للحزب في الخارج. واعتبرت رابوتشايوا غازيتا الجريدة الناطقة باسم الحزب. لكن الآمال التي أثارها المؤتمر لم يتم الوفاء بها. كتب أحد المشاركين (توشابسكي) في مذكراته: «خرجنا من المؤتمر بشعور من الإيمان الفرح بقضيتنا. وعند صولي إلى كييف قدمت تقريرا إلى الرابطة ولجنة العمال. تمت الموافقة بالكامل على قرارات المؤتمر. وبدا الأمر كما لو أن العمل سوف يتقدم الآن إلى الأمام بشكل أفضل وأكثر نجاحا مما كان عليه في الماضي. لكن بعد أسبوع واحد فقط على عودتي كانت منظمة كييف قد سحقت»<sup>4</sup>.

وقبل انتهاء شهر على المؤتمر كان خمسة من أصل تسعة مشاركين قد اعتقلوا، بمن فيهم أحد أعضاء اللجنة المركزية. كان الإنجاز الوحيد للجنة المركزية هو نشر البيان المتفق عليه، الذي كتبه ستروفه، الذي كان قد بدأ يتجه نحو اليمين، لكنه قام فيه بعمل جيد مثل آخر خدمة يقدمها للقضية التي سرعان ما خانها. حقق المؤتمر الأول كل ما كان قادرا على تحقيقه. فالحزب تحقق على الأقل كإمكانية وراية وبيان. لكن الظروف في روسيا جعلت من المستحيل توحيد الحزب على أساس مبدئي. كل ما كان في مقدور المؤتمر القيام به هو تحديد الاتجاه. ومن 1898 حتى عام 1917 لم يعقد أي مؤتمر آخر للحزب على الأراضي الروسية. لقد أثبتت التجربة استحالة بناء مركز سياسي قادر على الاستمرار، في ظروف السرية، داخل روسيا. انتقل مركز ثقل المنظمة حتما إلى الخارج، حيث كان في مقدور القوى الماركسية الثورية إعادة تنظيم نفسها، في ظل ظروف آمنة نسبيا، والاستعداد للمرحلة المقبلة، أي: تنفيذ ما تم الشروع فيه في مينسك عام 1898.

من الناحية العملية لم يغير المؤتمر سوى أشياء قليلة جدا. قال تروتسكي، الذي كان قد سمع عنه في السجن في خيرسون، إنه "بضعة أشهر بعد ذلك، لم يعد أحد يتحدث عن المؤتمر"<sup>5</sup>. وبعد الموجة الأولى من الإثارة، غرقت اللجان المحلية مرة أخرى

1: Akimov, On the Dilemmas of Russian Marxism 1895-1903, p: 215.

2: Istoriya KPSS, vol. 1, p: 260.

3: KPSS v rezolyutsiyakh i resheniyakh, vol. 1, p: 17.

4: Istoriya KPSS, vol. 1, p: 265.

5: Trotsky, My Life, p: 117.

في روتين العمل المحلي والاكتفاء بإصدار منشورات وبيانات لا حصر لها في اتصال مع حركة الإضرابات التي استمرت في الانتشار. وواصلت المجموعات داخل روسيا في العمل باتصالات ضعيفة أو معدومة مع بعضها البعض، وبدون أي شكل من أشكال القيادة السياسية الممركزة. وإلى الارتباك السياسي السائد انضفت الفوضى التنظيمية وأساليب الهواية في العمل.

### رابوتشييه ديلو

من المفارقات أن انعقاد المؤتمر الأول تزامن مع دخول مجموعة تحرير العمل في أزمة عميقة. كانت العلاقات مع الشباب المنفيين على حافة الانهيار. ولم يؤد مؤتمر اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين في الخارج، الذي انعقد في زيوريخ في نوفمبر 1898، إلا إلى تأكيد عزلة مجموعة تحرير العمل. كانت للشباب في ذلك الاجتماع الأغلبية وقد استخدموها للسيطرة على الاتحاد. ونظرا للخلافات الحادة في الرأي التي ظهرت آنذاك داخل الاتحاد، لم يجد مناظرو مجموعة تحرير العمل أي خيار سوى الاستقالة من مناصبهم. كان قادة الاتحاد، ولا سيما كريشيفسكي وإيفاشين وتيلوف، يميلون نحو مواقف الاقتصاديين، لكنهم كانوا يشعرون بالحرج من النزعة الإصلاحية والبرنشتينية الصريحة لرابوتشاياميسل، التعبير الأكثر تطرفا للإقتصادية، والممثلة في الاتحاد من طرف س. ن. بروكوبوفيتش وزوجته ي. د. كوسكوف. لذلك قرروا التخلي عن صحيفة رابوتنيك، وإصدار جريدة خاصة بهم هي: رابوتشييه ديلو، وذلك تماشيا مع قرارات مؤتمر مينسك.

في حين تبنت رابوتشاياميسل دفاعا واضحا وصريحا عن نظرية برنشتاين وعن الإقتصادية، مثلت رابوتشييه ديلو، كما لاحظ لينين، نزعة «فضفاضة وغير محددة، لكنها لهذا السبب أكثر ثباتا وأكثر قدرة على فرض نفسها في أشكال متنوعة»<sup>1</sup>. صدرت الجريدة باعتبارها لسان حال اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين الروس في الخارج، ما بين 1899 و1902، بهيئة تحرير موجودة في باريس ومطبوعة في جنيف. ضمت هيئة تحريرها متحدثين بارزين باسم الإقتصادية مثل ب. ن. كريشيفسكي وأ. س. مارتينوف. وقد انتقل مارتينوف هذا في وقت لاحق من الإقتصادية، عبر المنشفية، نحو الستالينية، دون الحاجة إلى تعديل مبادئه الأساسية في أي مرحلة من المراحل.

ومنذ البداية لعب الرابوتشييون لعبة القط والفأر مع الأفكار الماركسية، زاعمين أن خلافاتهم مع مجموعة تحرير العمل ليست سياسية بل تنظيمية وتكتيكية. ومع ذلك فإن الصلة بين رابوتشييه ديلو وبين البرنشتاينية واضحة من خلال المقالات التي ظهرت في الصحافة الاشتراكية الأوروبية، والتي كتبها محررو رابوتشييه ديلو دفاعا عن برنشتاين وميلرند (الزعيم الاشتراكي الانتهازي الفرنسي الذي شارك في حكومة ائتلافية برجوازية في السنوات الأولى من القرن العشرين). يعود الفضل إلى أنصار رابوتشييه ديلو في اختراع نظرية المراحل سيئة الذكر، والتي تبناها المناشفة بشكل معدل، في وقت لاحق، ثم تبناها الستالينيون بعدهم. تقول هذه النظرية الميكانيكية الإصلاحية الفجة إنه قبل أن يصبح العمال جاهزين للقيام بالثورة الاشتراكية عليهم أولا أن يمروا من خلال عدد من المراحل. حيث عليهم أن يكتفوا في المرحلة الأولى بالتحريض الاقتصادي المحض، ثم بعد ذلك التحريض السياسي المرتبط ارتباطا مباشرا بالتحريض الاقتصادي، ومن ثم التحريض السياسي الخالص! لكن العمال الروس، في الواقع، لم ينتظروا الاقتصاديين ليحددوا لهم متى سيصيرون مستعدين للتحريض السياسي، بل إنهم بدءوا في خوض الصراع السياسي، كما اتضح في التطور المتصاعد للإضرابات السياسية والمظاهرات في السنوات الأولى من القرن العشرين.

كانت تلك أسوء اللحظات في حياة مجموعة تحرير العمل. دفعت العزلة وضغوط الصراعات التكتلية إلى السطح بكل الخلافات المتراكمة داخل المجموعة، وكانت أخطر الخلافات على وجه الخصوص تلك التي ظهرت حينها بين أكسلرود وبلخانوف. كان لأكسلرود سبب وجيه للشكوى، حيث كان عليه طيلة سنوات أن يحمل عبء العمل مع الاتحاد، وتحمل وطأة هجمات الشباب، في حين كان بلخانوف غارقا في العمل الأدبي، بل إنه أهمل مؤخرا حتى ذلك العمل. تجاهل بلخانوف لفترة طويلة مناشدات أكسلرود له بالتدخل ضد التيار الجديد، وبدلا من ذلك حاول أن يتعاون مع الجريدة الجديدة، التي كانت قد بدأت تكسب الشعبية. أسباب موقفه ربما كانت متنوعة: فقد يكون سبب ذلك أنه كان غارقا في النضال ضد برنشتاين، مما جعله يستنكف عن إضاعة الوقت والجهد في التورط في ما بدا له وكأنها مشاحنات تافهة، أو أنه قلل من حجم الخطر، الذي اعتبره مرحلة عابرة ونزق الشباب. وأغلب الظن هو أنه كان يخشى حدوث انشقاق مع الشباب مما كان من شأنه أن يؤدي إلى قطع علاقاته مع روسيا ويتعرض للاتهام بأنه يقوض عمل الرفاق في الداخل. كان افتقاد قاعدة دعم داخل روسيا مشكلة خطيرة لبلخانوف ورفاقه.

1: LCW, What Is To Be Done? vol. 5, p: 349.

ولكن مع مطلع عام 1899، لم يعد بليخانوف قادرا على التحمل أكثر. كانت القشة الأخيرة التي قصمت الظهر هي عندما تفاخر برنشتاين بأن غالبية الاشتراكيين الديمقراطيين الروس كانوا أقرب إلى أفكاره من قريهم لأفكار بليخانوف. وقد اصطف الماركسيون الشرعيون أيضا ستروفه وبولياكوف وبيردياييف علنا وراء النزعة التحريفية. وكان الشيء الأخطر من كل ذلك هو سيطرة الشباب الاقتصاديين، ابتداء من دجنبر 1898، على فرع الحزب الاشتراكي الديمقراطي بسان بيتسبورغ. بليخانوف الذي صار يدرك آنذاك أن التيار الاقتصادي، الذي كان غير متبلور حتى تلك الفترة، قد صار الآن تنويعا روسية خاصة لتحريفية برنشتاين، قرر الاشتغال على رد شامل، فألف مقاله الشهير "دليل موجه إلى هيئة تحرير رابوتشييه ديلو"، والذي ظهر في عام 1900. أتبعه بمقال آخر: "مرة أخرى الاشتراكية والنضال السياسي"، الذي نشر في الصحيفة النظرية الجديدة زاريا، والذي انتقد فيه محاولة رابوتشييه ديلو طمس الفوارق بين الطليعة الثورية الواعية وبين جماهير الطبقة العاملة، كتب قائلا: «إن الطبقة العاملة كلها شيء، والحزب الاشتراكي الديمقراطي شيء آخر، لأنه لا يشكل سوى كتيبة من الطبقة العاملة، وفي البداية هو كتيبة صغيرة جدا... أعتقد أنه يجب على حزبنا، الذي يمثل الطليعة المتقدمة للبروليتاريا وشريحتها الأكثر انسجاما وثورية، أن يبدأ الصراع السياسي فوراً»<sup>1</sup>.

وقد ألقى بليخانوف بنفسه حينذاك في ذلك الصراع، بغض النظر عما إذا كان سيتسبب في حدوث الانقسام. وقد تلقت ثقته الجديدة بالنفس دفعة قوية نتيجة للأحداث التي كانت تجري على بعد آلاف الأميال، في سيبيريا.

من أعماق المنفى في سيبيريا، تابع لينين، وغيره من المنفيين الاشتراكيين الديمقراطيين، بقلق سير الأحداث. وللمفارقة كان من السهل نسبيا بالنسبة لهم الحفاظ على حد أدنى معين من النشاط السياسي، إذ لم يكن عهد معسكرات اعتقال ستالين وهتلر قد بزغ بعد. كان التعامل مع المنفيين السياسيين يختلف إلى حد كبير ما بين القسوة البالغة وبين الظروف الملائمة نسبيا. لكن السلطات القيصرية كانت تكتفي، في معظم الأحوال، بالاعتماد على المسافات الشاسعة التي تفصل المراكز الحضرية عن المستوطنات المعزولة على ضفاف نهر ينسي باعتبارها دفاعات كافية ضد انتشار الأفكار الثورية. عادة لم يكن يتم حبس السجناء السياسيين، لم تكن هناك حاجة لذلك. كانوا يوضعون تحت رقابة مسؤولين محليين لم يكونوا يؤدون المهمة بحماس كبير في كثير من الأحيان. ونتيجة لذلك كان في إمكان الثوريين في المنفى متابعة الأحداث بسهولة نسبية، وتلقي الكتب والصحف وإجراء المراسلات، وحتى عقد اجتماعات غير شرعية. لينين، وفي الوقت الذي كان يشتغل فيه على كتابه الرأسمالية في روسيا، كان يتتبع باهتمام جدالات بليخانوف ضد برنشتاين. وجاءت أنباء الأزمة داخل الاتحاد واستقالة بليخانوف بمثابة ضربة مؤلمة. وقد تسبب انتصار تيار الاقتصاديين في بث الذعر بين المنفيين. بدأ لينين في كتابة سلسلة من المقالات الجدالية من قبيل: "مهمتنا العاجلة"، ومقال: "تيار تراجع داخرا الاشتراكية الديمقراطية الروسية" ومقال "Profession de Foi"<sup>2</sup>، حيث عرض أفكار التيار الإقتصادي لنقد لا يرحم.

كان الحدث الذي أغضب المنفيين هو ظهور مقال "الكريبدو" (Credo) سيئ السمعة الذي كتبه كوسكوف في وقت مبكر من عام 1899. وحتى مؤلفة الوثيقة نفسها احتجت دائما بأنها لم تكن مخصصة للنشر. بيد أنه مع ذلك ليس هناك شك في أن مقال الكريبدو كانت لديه ميزة التعبير بطريقة واضحة جدا عن الأفكار الأساسية للإقتصاديين. وقد كتب لينين مقاله الشهير احتجاج الاشتراكيين الديمقراطيين الروس<sup>3</sup> للرد على المقال، وعقد اجتماع للمنفيين السبعة عشر، الذين اجتمعوا في قرية بيرماكوفسكو بيبيريا، في أواخر صيف 1899. صادق المجتمعون بالإجماع على نص لينين، الذي تم إرساله إلى الخارج حيث تم نشره من طرف بليخانوف.

تستحق كلمات الكريبدو أن تنقل حرفيا:

«هذا التغيير [في الحزب] لن يتحقق فقط من خلال تقديم دعم أكثر نشاطا للنضال الاقتصادي وتعزيز المنظمات الاقتصادية، بل أيضا، وهذا هو الأهم، من خلال تغيير موقف الحزب من الأحزاب المعارضة الأخرى. الماركسية المتعصبة والماركسية السلبية والماركسية البدائية (والتي تتبنى تصورا تبسيطيا جدا عن الانقسام الطبقي في المجتمع) ستفسح المجال لماركسية ديمقراطية. ويجب أن يشهد الوضع الاجتماعي للحزب داخل المجتمع الحديث عملية تغيير حادة. سوف يعترف الحزب بالمجتمع: وسيتم تحويل مهامه النقابية الضيقة، والعصبوية في معظم الحالات، إلى مهام اجتماعية، وسيتم تحويل سعيه إلى الاستيلاء على السلطة إلى السعي من أجل التغيير والسعي لإصلاح المجتمع الحالي على أسس ديمقراطية متكيفة مع الوضع الراهن، بهدف حماية حقوق (جميع حقوق) الطبقات الكادحة بالطريقة الأكمل والأكثر فعالية...

1: Akimov, On the Dilemmas of Russian Marxism 1895-1903.

2: See LCW, vol. 4, pp. 215-221 and 255-296.

3: Ibid., pp: 167 -182.

إن الحديث عن حزب سياسي عمالي مستقل هو مجرد نتاج لزراع أهداف غريبة وإنجازات غريبة على أرضنا... بالنسبة للماركسي الروسي ليس هناك سوى طريق واحد: المشاركة، أي المساعدة، في النضال الاقتصادي للبروليتاريا، والمشاركة في النشاط الليبرالي المعارض<sup>1</sup>.

منطق الكريبدو واضح جدا: ينبغي على الطبقة العاملة ألا تسعى إلى إنشاء حزبها الثوري الخاص بها، بل عليها أن تقتصر على العمل النقابي "العملي" وترك المهمة السياسية لإصلاح النظام الحالي لليبراليين البرجوازيين.

تمثل كتابات لينين الجدلية ضد الاقتصاديين، بدءا من "الاحتجاج"، استمرارية كلاسيكية لأفكار ماركس وإنجلز الأساسية حول مسألة البروليتاريا وحزبها. لا تبدأ البروليتاريا تدريجيا في فهم إمكاناتها التاريخية، لتصبح قوة حقيقية عوض أن تبقى مجرد إمكانية خام، إلا بقدر ما تبدأ في تنظيم نفسها باعتبارها طبقة مستقلة عن الطبقات الأخرى.

يبدأ تاريخ الحركة العمالية مع النقابات، التي تمثل التنظيم الأساسي للطبقة العاملة، والتي هي «ليست فقط ظاهرة طبيعية، بل أيضا ضرورية في ظل الرأسمالية... وسيلة هامة للغاية لتنظيم الطبقة العاملة في نضالها اليومي ضد الرأسمالية ولإلغاء العمل المأجور». لكن وبمجرد تأسيسها لا يمكن للنقابات أن تحصر مجال نشاطها في المطالب الاقتصادية، بل تهيل حتما إلى الانتقال إلى النضال على الصعيد السياسي. إن الأمر يتعلق هنا ليس بنضالات متفرقة لمجموعات فردية من العمال ضد أصحاب العمل، بل بنضال البروليتاريا ككل ضد الطبقة البرجوازية ككل وضد دولتها. بحكم الضرورة تدخل البروليتاريا وحزبها في اتصال مع طبقات أخرى، الفلاحين والطبقة الوسطى، ويكون عليها إقامة علاقات عمل مع مجموعات أخرى، لكنها تقوم بذلك انطلاقا من وجهة نظر مصالحها المستقلة باعتبارها طبقة. إن دورها، في الواقع، هو أن تضع نفسها على رأس جميع الطبقات المضطهدة والمستغلة الأخرى لإجراء تحويل جذري في المجتمع. وكما كتب لينين: «وحده حزب الطبقة العاملة المستقل من يمكنه أن يكون بمثابة حصن قوي في الكفاح ضد الاستبداد، و فقط من خلال التحالف مع هذا الحزب، فقط من خلال دعمه، يمكن لجميع المكافحين الآخرين من أجل الحرية السياسية لعب دور فعال»<sup>2</sup>.

وهكذا فمنذ البدايات الأولى للحركة في روسيا، تم رسم خط فاصل واضح بين اتجاهين: الأول هو الاتجاه الماركسي الثوري، الذي استند إلى الطبقة العاملة وربط منظور الإطاحة الثورية بالنظام القيصري بالنضال من أجل هيمنة الطبقة العاملة داخل المعسكر الديمقراطي الثوري، وعارض بحزم كل المحاولات الرامية إلى إخضاعها لليبراليين والبرجوازية "التقدمية". والثاني هو التيار الإصلاحية الذي، وفي الوقت الذي كان يتبنى الماركسية بالأقوال، كان يبشر عمليا بسياسة **التعاون الطبقي** والتبعية لليبراليين. هذا، في جوهره، هو أساس الخلاف بين الماركسيين وبين الاقتصاديين. وقد تكرر نفس الصراع، بأشكال مختلفة، مرات عديدة في تاريخ الحركة الثورية الروسية، وما زال متواصلا، بأسماء مختلفة، لكن بنفس الحجج من حيث الجوهر، حتى يومنا هذا.

إن ما هو مطلوب في الواقع هو تكوين الكوادر الثورية وتثقيفها على قاعدة النظرية والممارسة الماركسية وانخراطها في حركة الطبقة العاملة، بدءا من فئتها الأكثر نشاطا ووعيا. يجب أن يكون التكوين الطبقي للحزب بروليتاريا بشكل حاسم. يمكن للطلاب والمثقفين أن يلعبوا دورا هاما بتخصيهم للحركة بأفكارهم والمساعدة في نموها، لكن على شرط أن يعملوا على القطع بحزم مع أصولهم الطبقيّة ويتبنوا، ليس بالكلمات فقط، بل بالممارسة اليومية، وجهة النظر البروليتارية. كانت المشكلة مع الاقتصاديين هي أنهم لم يكونوا يروا وجه البروليتاريا، بل فقط مؤخرتها.

لم يكن من المستغرب على الإطلاق أن تبدأ الحركة في روسيا على يد المثقفين. إن هذا قانون تقريبا، خاصة في حالة روسيا، بالنظر إلى كل تاريخ وظروف الحركة الثورية الروسية خلال عقدي السبعينات والثمانينات. لكن في ظل الظروف الجديدة، بدأ الوضع برمته يتحول. بدأ جيل جديد من العمال الثوريين يصعدون بسرعة إلى الواجهة، وقد كانوا الخريجين الأوائل "لمدرسة" الحلقات الماركسية لعقد التسعينات. للمرة الأولى بدأ العمال، في العديد من المجالات، يأخذون تسيير اللجان بين أيديهم. لم يكن ذلك، كما يزعم البعض زورا، نتيجة للنظريات الديمقراطية للمفكرين الاقتصاديين، الذين كانوا، كما سبق لنا أن رأينا، على الرغم من نزعتهم العمالية، مترددين للغاية في إفساح المجال للعمال في اللجان القيادية كما كان لينين يطالب. كان ذلك نتيجة إلى الموجة المستمرة من الاعتقالات، التي كانت تبعد باستمرار القادة الأكثر خبرة.

1: النص الكامل لمقال الكريبدو منشور في أعمال لينين الكاملة، مقال: احتجاج من طرف الاشتراكيين الديمقراطيين الروس. المجلد 04، ص: 171-174 (الطبعة الانجليزية) - التشديد من آلان وودز-

2: Ibid., pp:176-177 and 181.

كان الاتجاه السائد في الاشتراكية الديمقراطية، في ذلك الوقت، يتبنى مفهوما مركزيا متشددا للتنظيم، ليس باعتباره نظرية مسبقة للتنظيم، بل بسبب الحاجة إلى تلافي الانفصاح والاعتقال، وهو ما يمثل أهم المتطلبات الأساسية للوجود في ظل نظام بوليسي. كانت كلمة المرکز بمثابة قانون، ولم يكن يمكن أن يكون هناك أي مجال للتسيير الديمقراطي العادي. كانت هناك لجنة قيادية مركزية صغيرة، لا تخضع للانتخابات، وتطعم صفوفها عبر الانتقاء. وتحت إشرافها كانت هناك سلسلة من لجان الدعاية والتحرير وجمع الأموال والطباعة، وهلم جرا. في ظل الظروف القائمة آنذاك كان هذا النمط من التنظيم ضرورة قصوى. وحتى ذلك لم يمنع من اختراق المنظمة من قبل عملاء استفزازيين، نجحوا، في كثير من الأحيان، في الحصول على مناصب قيادية داخل الحزب. ومع ذلك فإنه غالبا ما تمت المبالغة كثيرا في تبني مبدأ المركزية من طرف المثقفين الذين كانوا يهيمنون على اللجان. أمر لينين منذ البداية على ضرورة تدريب كوادر عمالية وترقيتهم إلى الهيئات القيادية. لكن هذا غالبا ما اصطدم مع ضيق أفق وعدم اكتراث الفئة القيادية التي كانت تحرس مواقعها بحرص شديد وفسرت فكرة المركزية بطريقة أحادية الجانب، وكانت تجد دائما مائة سبب لعدم إشراك عمال جدد في اللجان.

تغير الوضع بشكل كامل بفعل موجة من الاعتقالات شهدها النصف الأخير من عقد الثمانينات. وبين عشية وضحاها اضطرت فئة من العمال، الذين لم يسبق لهم أبدا تجربة القيادة، إلى تولي زمام الأمور. يصف العامل بروكوفيف رد فعله على الاعتقال المفاجئ لقيادة المنظمة في موسكو عام 1893 قائلاً: «كنت مكتئبا ومريضا وأشعر بالخجل. لقد وجدت نفسي فجأة بدون قادة. كانت تلك ضربة رهيبية. عندما أخبرت رفاقي بدأنا نتأوه وجلسنا كما لو كنا في جنازة»، لكنهم بعد ذلك خلصوا إلى أنه: «... ليس هناك من خيار سوى الصمود ومواصلة العمل بأنفسنا. لذلك شرعنا في العمل بمفردنا». وقد طور عمال مثل بابوشكين في سان بيترسبورغ ملكاتهم في هذه الفترة. أظهر بابوشكين، عندما كان منفيا في بيكاتيرينوسلاف في الجنوب، الذي كان مركزا يغلي بالثورة، قدرته على قيادة المنظمة دون مساعدة من أحد.

أدت الفوضى العامة، إلى جانب التأثير السلبي لأفكار الاقتصاديين، إلى تقسيم المنظمة في العديد من المناطق إلى مجموعتين منفصلتين واحدة للعمال وواحدة للمثقفين. طبقت هذه الطريقة الخاطئة في بيكاتيرينوسلاف، حيث أدت بشكل حتمي إلى خلق الظروف لنمو عدم الثقة والعداء المتبادل. كتب بابوشكين: «أتذكر أن المثقفين كثيرا ما كانوا ينتقدون اللغة غير الراقية للمنشورات [العملية]، وفي النهاية تم اختصار أحد تلك المنشورات وتغييره بعض الشيء من قبل لجنة "المدينة"، مما أثار اصطداما مباشرا هدد بحدوث انشقاق تام بين العمال والمثقفين»<sup>1</sup>.

وبشكل عام فإن تطور الرابطة العمالية بموسكو لم يختلف جوهريا عن تطور رابطة سان بيترسبورغ للنضال، التي شكلت نموذجا لبقية البلاد، والتي ما زلنا نتخذها نقطة مرجعية أساسية لنا. عانت المنظمة في موسكو من سلسلة من الاعتقالات، خاصة بعد 1896، عندما ترأس زوباتوف قسم شرطة موسكو واستفاد من خدمات بعض الخونة للحصول على معلومات عن الرابطة وإرسال عملاء استفزازيين إلى داخلها.

بعد كل موجة من الاعتقالات كانت المنظمة تجدد نفسها بعمال جدد تعلموا في الممارسة العملية الثقة في قدرتهم وابداعهم. وبعد سنوات قليلة، ذكر لينين بحزم "أعضاء اللجان"، الذين ليست لديهم الثقة في قدرة العمال على قيادة الحزب، بأن عمالا مثل بابوشكين قد قاموا بذلك بالضبط في تلك الفترة. لكن وعلى الرغم من ذلك فقد دخل الحزب القرن 20 وهو في حالة سيئة للغاية. بحلول عام 1900 بدا كما لو أن تيار الاقتصاديين قد انتصر بشكل تام. في المنطقة الغربية كانت للاقتصاديين اليد العليا. وفي أوكرانيا أيضا كانت لهم مكانة بارزة. وقد دعمت لجنة كيبف فعلا خط الكريبدو الأكثر تطرفا بين الاقتصاديين. ومع ذلك فقد كانت هناك دلائل تشير إلى أن الحالة المزاجية بين القواعد قد بدأت تتحول ضد هذا الوضع. بتأثير من عمل بابوشكين الدؤوب، وقفت منظمة بيكاتيرينوسلاف، التي كانت تضم في مطلع القرن العشرين حوالي 24 حلقة مع ما يقارب 200 عامل منخرط فيها، ضد النزعة الإقتصادية.

في يناير 1900، قامت منظمة بيكاتيرينوسلاف بإصدار جريدة يوجني رابوتشي (العامل الجنوبي). نشرت ما مجموعه 13 عددا حتى أبريل 1903، عندما توقفت عن الصدور. وقفت يوجني رابوتشي ضد الإقتصادية، لكنها كانت تفتقر إلى أساس نظري صلب بما فيه الكفاية وكانت تسقط في التذبذب. وكنيجة طبيعية للنزعة الحلقية المحلية والهوية التي كانت سائدة آنذاك، كانت هيئة التحرير تتكون من ممثلي اللجان المحلية الذين لم يكن يجمعهم موقف واحد، وهو الأمر الذي انعكس في تذبذب الصحيفة في

1: Wildman, op. cit., pp: 93 and 106.

الموقف من الصراع بين إيسكرا وبين التيار الإقتصادي، على الرغم من أنها اندمجت في النهاية مع إيسكرا.

ظهر اتجاه مشابه مثلته مجموعة صغيرة تحلقت حول صحيفة بوربا (النضال)، وهي صحيفة أصدرها ديفيد ريزانوف. وإدراكاً من لينين للمواهب الأدبية التي يتمتع بها ريزانوف وحرصاً منه على تأمين دعمه لإيسكرا وزاريا، فقد عمل كل ما في مقدوره لكي يقنعه بالعمل المشترك، على الرغم من أن مجموعة بوربا لم تكن تقوم بالكثير في الممارسة العملية، وكانت تتألف من مجموعة من المثقفين في باريس. وداخل روسيا لم تنضم إليها سوى لجنة أوديسا. كانت [مجموعة بوربا] مثالا نموذجيا لعصابة مثقفين صغيرة، كان نشاطها يقتصر حصرياً على العمل الأدبي، وكانت أفكارها خليطاً من أجزاء وقطع مستعارة من التيارات الأخرى، لكن ادعائها الوقوف فوق كل التيارات الأخرى وضعها في واقع الأمر في موقف أقل بكثير من أي منها. تظهر مجموعات مماثلة على السطح باستمرار في تاريخ الحركة الثورية، ودائماً ما تلعب دوراً مشؤوماً، في حالة ما إذا لعبت أي دور أصلاً.

محاولة بوربا للعب دور "الوسيط النزيه" بين إيسكرا ورابوتشييه ديلو أدت على الفور إلى اصطدامها مع التيار الماركسي الحازم. حاول ريزانوف الضغط على إيسكرا بوقف التعاون معها إلا إذا خففت من انتقادها لرابوتشييه ديلو. لكن عندما لم يكن لهذا الابتزاز أي تأثير، عمل على حل "مجموعة دعم إيسكرا" في باريس وبدأ يشكو من أن إيسكرا "قد انتهكت الحياد التنظيمي"<sup>1</sup>. وفي النهاية تخلى لينين عن مهمة كسبه. لم تلعب مجموعة بوربا، على الرغم من ادعائها الكبيرة، أي دور آخر. ففي المؤتمر الثاني لم يتم الاعتراف بها، وسرعان ما حلت المجموعة نفسها. في وقت لاحق عاد ريزانوف للظهور في عام 1909 باعتباره استاذاً في مدرسة كابري لكتلة فريود (إلى الأمام) المتطرفة (والتي ينبغي عدم الخلط بينها وبين جريدة أصدرها لينين بنفس الاسم عام 1904). كان ريزانوف، على الرغم من أخطائه، مثقفاً موهوباً بدون شك. وبعد الثورة أصبح مديراً لمعهد الماركسية اللينينية، إلى حين تصفيته، مثله مثل آخرين كثيرين غيره، على يد ستالين.

## ميلاد إيسكرا

أدت مشاركة القادة الروس المنفيين في الصراع إلى ترجيح الكفة بشكل حاسم لصالح بليخانوف. وشكل لينين، الذي كان ما يزال في سيبيريا، تحالفاً ثلاثياً، "ترويكاً"، مع مارتوف وبوتريسوف، وهو التحالف الذي اتخذ، بإصرار من لينين، خطوات لإقامة الأواصر مع مجموعة تحرير العمل. وكانت فكرته الأساسية هي إعادة بناء الحزب حول صحيفة ماركسية حقيقية. كان من الواضح أن هذا المشروع لم يكن ممكناً إلا إذا انضموا إلى بليخانوف في المنفى الأوروبي. بعد أن أنهى فترة محكوميته في المنفى، سافر لينين، في أوائل عام 1900، بشكل غير قانوني إلى سان بيترسبورغ، حيث التقى فيرا زاسوليتش، التي كانت قد جاءت مبعوثاً لإقامة الاتصالات مع الداخل. شهدت الأشهر التالية الاستعدادات لنشر جريدة جديدة (إيسكرا)، وشهدت سلسلة من الزيارات للمجموعات الاشتراكية الديمقراطية في أنحاء مختلفة من روسيا الأوروبية، حيث تفاجأ لينين، ورفاقه في الفكر، بحجم الترحيب الذي لاقته أفكارهم من قبل قسم كبير من القواعد. وبحلول صيف عام 1900، كان كل شيء جاهزاً لإقامة الاتصال المباشر مع مجموعة بليخانوف.

سافر لينين إلى سويسرا في يوليو تغمره آمال كبيرة. لكن ارتفاع معنوياته لم يدم طويلاً، إذ أن أعصاب بليخانوف، بعد التجربة المريرة للانقسام في الاتحاد، كانت جد متوترة. كان متجهماً ومستاءاً وشديد الشك في القادمين الجدد. أظهرت المناقشات التي تمت بين بليخانوف وأكسلرود وزاسوليتش من جهة، وبين لينين وبوتريسوف من جهة أخرى جواً متوتراً للغاية. أحس لينين وبوتريسوف بالصدمة من طريقة بليخانوف المتشددة والوقحة في التعامل. في بعض الأحيان كان يبدو أن المفاوضات قريبة من الانهيار. وقد عبر لينين في مقاله "كيف كادت الشرارة أن تنطفئ"<sup>2</sup> -الذي كتبه بعد عودته وبينما الأحداث الأخيرة ما تزال حية في ذهنه- عن الانطباع المؤلم الذي خلقه له سلوك بليخانوف: «لقد اختفى "افتتاني" ببليخانوف كما لو كان بفعل السحر، وشعرت بالإهانة والمرارة إلى درجة لا تصدق. لم يسبق لي في حياتي أبداً، أبداً، أن نظرت إلى أي رجل آخر بذلك القدر من الاحترام الصادق وذلك التبجيل، لم يسبق لي أبداً أن وقفت أمام أي رجل يمثل ذلك "التواضع" ولم يسبق لي أن "طردت" ممثل تلك القسوة».

يمكن فهم سلوك بليخانوف. لقد كانت له سلسلة من التجارب السيئة مع الشباب القادمين من الداخل، وكان ما يزال يعاني من آثار الانقلاب الذي نظمته الشباب في الاتحاد بالخارج. إضافة إلى أنه كان هناك أيضاً اختلاف في الرأي بشأن كيفية المضي قدماً. اضطر لينين والآخرين، بسبب رغبتهم في الحفاظ على أكبر قدر ممكن من قوات الحركة في روسيا، إلى أن يقدموا عدداً من التنازلات

1: LCW, To P.B. Axelrod, April 25, 1901, vol. 34, p: 60.

2: Ibid. pp: 333 -349.

لستروفه، بما في ذلك ما ورد في مشروع الإعلان الأصلي حول أن جريدة إيسكرا ستكون مفتوحة أمام مختلف التيارات السياسية. التقط بليخانوف هذا الخطأ وعمل على تنفيس غضبه المتراكم على القادمين الجدد المندهبين. ألقى هذا الحادث الضوء على الوضع داخل مجموعة تحرير العمل. كانت الفترة الطويلة من العزلة عن الحركة العمالية في روسيا قد تركت آثارها على المنظمة.

بعد سنوات عديدة، في عام 1922، عندما كانت ثورة أكتوبر قد بلغت بالفعل خمس سنوات من عمرها، وكان بليخانوف قد توفي قبل أربع سنوات، أوضح تروتسكي كلا من جانبي القوة والضعف لدى بليخانوف بالعبارات التالية: «كان بليخانوف يتحدث مثل مراقب، مثل ناقد، مثل داعية، لكن ليس مثل زعيم. لقد منعه مصيره كله من فرصة التواصل مباشرة مع الجماهير وتعبئتهم للعمل وقيادتهم. لقد جاءت جوانب ضعفه من نفس المصدر الذي جاءت منه نقاط قوته: كان رائداً، كان أول من أدخل الماركسية إلى الأراضي الروسية... لم يكن زعيم البروليتاريا النشيطة، بل كان مجرد داعية نظري. لقد دافع بالجدال عن المنهج الماركسي، لكن لم تكن له الفرصة لتطبيقه على أرض الواقع. وعلى الرغم من أنه عاش لعدة عقود في سويسرا، فإنه بقي منفيًا روسيًا. لم تثر اهتمامه اشتراكية البلديات والكانتونيات الانتهازية السويسرية بمستواها النظري المنخفض للغاية. لم يكن هناك حزب روسي، لكن مجموعة تحرير العمل كانت قد حلت بالنسبة لبليخانوف محل ذلك الحزب، وهي المجموعة التي كانت مجرد حلقة مغلقة من المتعاطفين (بليخانوف، أكسلرود، زاسوليتش ودويتش، الذي كان محكوماً بالأشغال الشاقة). وكلما سعى بليخانوف أكثر لتقوية الجذور النظرية والفلسفية لمجموعته كلما افتقد لتلك الجذور السياسية. وكمراقب للحركة العمالية الأوروبية، لم يول انتباهها كبيراً لمظاهر ضيق الأفق السياسي والجبن والميل إلى المساومات داخل الأحزاب الاشتراكية، لكنه كان دائماً على أهبة الاستعداد للتصدي للتشويبات النظرية في الأدب الاشتراكي. لقد كان هذا الفصل الخاطئ بين النظرية والممارسة، الذي نشأ من وضع بليخانوف نفسه، مسألة مضرّة له. لقد أثبت أنه غير مستعد للأحداث السياسية الكبيرة على الرغم من استعداده النظري الكبير»<sup>1</sup>.

كشف الاجتماع مع لينين وبوتريشوف مدى تخلف أعضاء مجموعة تحرير العمل عن متطلبات المرحلة الحالية للحركة. فطرق التعامل غير الرسمية والرخاوة التنظيمية والخلط بين المسائل الشخصية وبين القضايا السياسية، والتي هي السمة المميزة للحياة داخل حلقة الدعاية الصغيرة، تصبح عوائق هائلة بمجرد ما يصير تنظيم حزب جماهيري والتدخل الجدي في الحركة الجماهيرية على جدول الأعمال. يعود الفضل في تجنب حدوث الانشقاق إلى قدرة لينين الهائلة على الصبر وأيضاً إلى حقيقة أن عواقب الانشقاق كانت واضحة للجميع. لكن على الرغم من إقامة علاقات عمل جيدة إلى حد معقول، فإن الأسباب العميقة للصراع بقيت بدون حل وكان من الحتمي ظهورها من جديد بقوة مضاعفة في المستقبل. الحل الوسط الذي تم التوصل إليه في نهاية المطاف بين الجانبين نص على أن تكون لإيسكرا هيئة تحرير مكونة من ستة أعضاء، هم الثلاثي لينين ومارتوف وبوتريشوف وثلاثة أعضاء من مجموعة تحرير العمل هم بليخانوف وأكسلرود وزاسوليتش، مع منح بليخانوف صوتاً إضافياً. كان زمام السيطرة على الجريدة النظرية، زاربا (الفجر)، فعلياً في أيدي بليخانوف. لكن العلاقات بين الأعضاء القدامى لمجموعة تحرير العمل وبين الأعضاء الجدد لهيئة التحرير أصيبت بأضرار جسيمة. كتب لينين: «ظاهرياً كان كما لو أن شيئاً لم يحدث: حيث استمر الجهاز التنظيمي يعمل كما كان يعمل من قبل، لكن حبلاً كان قد انقطع في غضون ذلك، وبدلاً من بناء علاقات شخصية جيدة، سادت علاقات جافة شبيهة بعلاقات الشغل، مع الحساب المستمر وفقاً لمبدأ: *si vis pacem, para bellum* [إذا كنت ترغب في السلام عليك الاستعداد للحرب]»<sup>2</sup>.

تم نشر إعلان هيئة تحرير إيسكرا<sup>3</sup> في شهر شتنبير. وقد بدا وكأنه إعلان حرب على كل التيارات الأخرى داخل الحركة العمالية الروسية. وعلى عكس المشروع الأصلي الذي وضعته الترويكا [لينين ومارتوف وبوتريشوف - م -]، ندد الإعلان بالاسم ليس فقط برنشتاين ورابوتشاياميسل، بل أيضاً برابوتشيبه ديلا وستروفه (أصر بليخانوف على التنديد بهذا الأخير على وجه الخصوص). كانت المسودة الأولية التي كتبها لينين قد صيغت بعبارات عامة أكثر ميلاً للمصالحة، لكن النسخة المعدلة كتبت بلهجة أكثر حدة: «قبل أن نتكلم من أن نتحد، ولكي يتسنى لنا أن نتحد، يجب علينا أولاً وقبل كل شيء أن نرسم بيننا حدوداً حازمة وواضحة. وإلا فإن وحدتنا ستكون من وحي الخيال المحض، حيث سيتم إخفاء الارتباك السائد، وتعرقل عملية القضاء عليه. وبالتالي فإنه من المفهوم أننا لا ننوي أن نجعل جريدتنا مجرد مخزن لوجهات النظر المختلفة، بل على العكس من ذلك يتعين علينا أن نصرها على أساس توجه محدد بدقة. ويمكن التعبير عن هذا التوجه بكلمة: الماركسية، وبالكاذ هناك حاجة إلى أن نضيف أننا ننبني

1: Trotsky, Political Profiles, pp:85 -87.

2: LCW, How the 'Spark' was nearly Extinguished, vol. 4, p: 348.

3: LCW, vol. 4, pp: 351 -356.

التطوير المنسجم لأفكار ماركس وإنجلز ونرفض بشكل قاطع "التصحیحات" المراوغة والغامضة والانتهازية التي قام بها إدوارد برنشتاين، وب. ستروفه وغيرهما<sup>1</sup>.

كانت الإدانة الصريحة للماركسية الشرعية بذكر ممثلها الأبرز بالاسم نقطة تحول. لكن رغم ذلك فإن ستروفه لم يقم بالقطع فورا مع الماركسية، حتى أنه أسهم بمقالة أو مقالتين في الأعداد الأولى للجريدة. إلا أن أول لقاء لستروفه مع لينين في المنفى، أواخر عام 1900، أدى إلى مواجهة مفتوحة. كانت مطالب ستروفه المتغترسة بإعطائه السيطرة على الخط التحريري للجريدة بداية القطيعة. إن العلاقة بين الماركسيين وبين الجناح اليساري للتيار الليبرالي، الذي عرف باسم الماركسية الشرعية، كانت كما أوضح لينين، في وقت لاحق، أول مثال على اتفاق عرضي بين الماركسيين الروس وبين تيار سياسي آخر. دون تقديم أي تنازلات مبدئية ومع الحفاظ على النقد الحازم للانحرافات السياسية للماركسيين الشرعيين، كان لينين على استعداد للدخول في اتفاقات عملية معهم من أجل دفع عجلة العمل في روسيا ومراوغة الشرطة والرقابة والوصول إلى جمهور أوسع من ذلك الذي كان من الممكن الوصول إليه مع القيود الضيقة للعمل غير الشرعي. لكن كان هناك تناقض أساسي منذ البداية. كان التياران متعارضان جذريا، وفي نهاية المطاف كان لا بد من التغلب على ذلك التناقض عن طريق انتصار أحدهما على الآخر.

في مرحلة من المراحل بدا كما لو أن أنصار النزعة الإقتصادية والتحريرية قد فازوا، لو حدث ذلك كانت الحركة العمالية الروسية ستجد نفسها مقيدة إلى عربة الليبرالية. وكانت الوسيلة التي من خلالها سيتم فرض هذه التبعية السياسية هي الماركسية الشرعية. أدى إصدار الإيسكرا، مع موقفها الحازم من النزعة الإقتصادية والتحريرية ودفاعها العنيد عن استقلالية الطبقة العاملة والانتقاد الصارم لليبراليين، إلى تحويل الوضع بشكل جذري. الآن وجد ستروفه وحلفاؤه أنفسهم في موقف دفاعي. ومع ذلك استمر ستروفه يحاول استخدام اسمه ونفوذه للسيطرة على الجريدة الجديدة، لدفعها وحثها على الوصول إلى توافق فاسد مع الأفكار القديمة التي فقدت مصداقيتها. لم تكن شكوى ستروفه من أن لينين كان يحاول "استخدامه" لتقنع أيا كان، بالنظر إلى أنه هو نفسه [ستروفه] كان في الفترة السابقة قد استخدم بكلمة نفوذه الكبير للتأثير على قوات الاشتراكية الديمقراطية الروسية، الضعيفة وغير الناضجة، لتميع وتشويه أفكارها الأساسية وتحويلها إلى مجرد ذيل لليبرالية.

على عكس الانطباع الذي يخلقه المؤرخون البرجوازيون، لم يكن هناك أي شيء شائن أو خياني في موقف لينين من الخصوم السياسيين مثل ستروفه. كان الدخول في مثل تلك الاتفاقات العملية يتم بحرية من كلا الطرفين، وكان كلاهما يدخلونها بعينهم مفتوحة. وكما رأينا فقد تعرض لينين لانتقادات شديدة من قبل بليخانوف الذي اعتبر أنه قدم الكثير من التنازلات لستروفه. كان ذلك جزءا من شخصية لينين، حيث أنه كان دائما صارما جدا فيما يتعلق بالمبادئ السياسية، بينما كان دائما مرنا للغاية بشأن المسائل التنظيمية وفي تعامله مع الناس. كان لينين يعرف كيف يقدر الناس ذوي المهوبة، والذين مهما كانت أوجه القصور عندهم، كان يسعى منتهى الصبر للاستفادة من قدراتهم على بناء الحركة. إلا أنه كان هناك أيضا جانب آخر: فبمجرد ما يقتنع لينين بأن أحدهم عدو للأفكار الماركسية لا يمكن إصلاحه، كان لا يتردد في استخلاص جميع الاستنتاجات الضرورية وخوض نضال سياسي لا هوادة فيه ضده. وفي هذا الصدد كان موقف لينين مناقضا بشكل صارخ لموقف أعضاء مجموعة تحرير العمل.

لم يكن أعضاء المجموعة القديمة، وخاصة زاسوليتش وأكسلرود، قادرين على دفع أنفسهم لإحراق الجسور التي كانت ما تزال تربطهم بتلك الفئة من المثقفين شبه الليبراليين، رفاق نصف الطريق، مثل ستروفه، حتى بعد عام 1902 عندما صار انتقالهم إلى معسكر الليبرالية البرجوازية واضحا للجميع. ومع ذلك فقد كان بليخانوف هو الذي طلب بأن يشن لينين هجوما علنيا على ستروفه في بيان هيئة التحرير! لقد أظهرت هذه الحادثة أيضا الاختلاف الكبير في أسلوب وشخصية الرجلين. وقد عبرت زاسوليتش مرة عن ذلك بوضوح بالكلمات التالية: «جورج (بليخانوف) كلب سلوقي: إنه يقبض ضحيته من القفا وفي النهاية يطلقها، لكنك أنت (لينين) كلب بلدغ: لا تدعها تفلت»<sup>2</sup>.

ومنذ عام 1895 كان أكسلرود قد انتقد لينين على هجماته الشديدة التي شنها على ستروفه في مقاله "المحتوى الاقتصادي للثورة ونقد كتاب السيد ستروفه"<sup>3</sup>، حيث اشتكى قائلا: «لديك موقف هو العكس تماما مع موقف المقال الذي كنت أكتبه للمختارات [المقال كما هي العادة لم ينته ولم يصدر أبدا]. إنك تخلط مواقفنا من الليبراليين بمواقف الاشتراكيين من الليبراليين في

1: انظر مسودة لينين الأولية في الأعمال الكاملة - بالانجليزية - تحت عنوان (Draft of a Declaration of the Editorial Board of Iskra and Zarya).

(vol. 4. 320-330). الاستشهاد هنا مقتطف من الأعمال الكاملة - بالانجليزية - المجلد 4، ص. 354-355.

2: Trotsky, Lenin, p: 99.

3: LCW, vol. 1, pp: 333 -507.



الغرب. وقد كنت للتو بصدد كتابة مقال للمختارات بعنوان "مطلب الحياة الروسية"، والذي كنت سأوضح فيه أنه في هذه اللحظة التاريخية، قد تلاقت المصلحة المباشرة للبروليتاريا في روسيا مع المصالح الرئيسية للعناصر التقدمية الأخرى بين صفوف الشعب...

أجاب أوليانوف مبتسما: أتعرف، لقد قال بليخانوف نفس الشيء بالضبط عن مقالتي. لقد عبر ببلاغة عن فكرته حيث قال: "أنت تدير ظهرك للبراليين ونحن ندير وجهنا لهم..."<sup>1</sup>.

كانت معارضة لينين العنيدة للبراليين على خلاف تام مع موقف بقية أعضاء هيئة التحرير القدامى. وقد عارضتها زاسوليتش على وجه الخصوص: «بدأت زاسوليتش في الشكوى، بلهجتها المميزة الخجولة، التي تستعملها دائما في مثل هذه المناسبات، من أننا نهاجم البراليين أكثر من اللازم. وقد كانت تلك نقطة حساسة بالنسبة لها.

قالت: "انظر كم هم حريصون على ذلك"، وهي تتلأفي النظر في اتجاه لينين، على الرغم من أنها كانت تقصده هو بالتحديد، وأضافت "طالب ستروفه الليبراليين الروس بعدم التخلي عن الاشتراكية لأنهم إذا فعلوا ذلك سيواجهون نفس مصير الليبراليين الألمان؛ كان يقول إنه عليهم أن يحذوا حذو الاشتراكيين الراديكاليين الفرنسيين".

قال لينين بابتسامة مرحة: "علينا أن نضربهم أكثر"، كما لو أنه كان يريد إغاظة فيرا إيفانوفا.

فردت بيأس: "هذا لطيف! إنهم يأتون إلينا، ونحن نضربهم"<sup>2</sup>.

كانت إيسكرا صحيفة ناجحة جدا لأنها أجابت عن عدد من الاحتياجات. فقد كانت صحيفة عمالية نموذجية. كانت تستعمل لغة سهلة، دون أي أثر للابتذال، يمكن لأي عامل ذي أن يفهمها، وكانت الرد النظري على أفكار الاقتصاديين وحلفائهم. وبعد تلك السنوات الطويلة من الارتباك الأيديولوجي، كان رد فعل العمال الاشتراكيين في روسيا تجاه الصحيفة الجديدة مشابها لموقف أرسطو عندما شبه الفيلسوف أنكساغوراس بكونه "الرجل العاقل بين السكارى". عرضت الصحيفة في صفحتها الأولى جملة مقبسة من رسالة الديسمبريين إلى الشاعر بوشكين عندما كان في المنفى في سيبيريا: "سوف تشعل الشرارة اللهب"، وهي العبارة التي صارت حقيقة بعد ما يقرب من قرن على كتابتها.

فيإلى جانب الفضح المنهجي لجرائم النظام القيصري في الداخل، كانت تعرض شرحا مفصلا للسياسة الخارجية، وتعري تعقيدات ومناورات الدبلوماسية البرجوازية، وكانت تتببع عن كذب حياة الحركة العمالية العالمية. لكن إيسكرا كانت، قبل كل شيء، صحيفة تعكس بدقة حياة الطبقة العاملة ونضالاتها وتطلعاتها. كانت تخصص في كل عدد مجالا واسعا لنشر تقارير موجزة من المصانع والأحياء العمالية، التي كان مراسلو إيسكرا يجمعونها بشق الأنفس داخل روسيا ويهربونها بطرق سرية. وبهذه الطريقة كان العمال من مختلف أنحاء روسيا يتعرفون، غالبا بعد أشهر من التأخير، على أخبار نضالات إخوانهم وأخواتهم في أجزاء أخرى من البلاد والخارج. لا عجب أن الجريدة كانت تلاقى نجاحا باهرا في الداخل. فزاد عدد لجان الحزب المحلية المرتبطة بالجريدة بسرعة، وفتح آفاقا جديدة يوميا، لكنه فرض أيضا أعباء ثقيلة على جهاز الحزب الضعيف في المنفى.

في العدد السابع لإيسكرا (غشت 1901)، عبرت رسالة من عامل نسيج عن الحماس الكبير الذي كان العمال المتقدمون في روسيا يستقبلون به أعدادها: «عندما أظهرت جريدة إيسكرا لبعض رفاقي العمال قرأناها حتى صارت النسخة في حالة يرثى لها بكثرة الانتقال من يد إلى يد، إننا نقدرها أكثر بكثير من جريدة ميسل، على الرغم من أنه لا يوجد فيها مقال لنا. إن إيسكرا تكتب عن قضيتنا، عن قضية عموم روسيا التي لا يمكن تقييمها بالكوبيكات أو قياسها بالساعات: عندما تقرأ الصحيفة تفهم لماذا رجال الدرك والشرطة يخافون منا نحن العمال ومن المثقفين الذين تتبعهم. إنهم يشكلون تهديدا حقيقيا، ليس لجيوب أرباب العمل فقط، بل أيضا للقيصر ولأرباب العمل ولكل الآخرين... لن يمر الآن الكثير من الوقت قبل أن تشتعل نار العمال. كل ما هو مطلوب هو الشرارة وعندها ستندلع النار. كم هي صادقة تلك العبارة التي تقول: "سوف تشعل الشرارة اللهب!". في الماضي كان كل إضراب حدثا هاما، لكن الجميع يرى اليوم أن الإضرابات وحدها ليست كافية وأنه يجب علينا الكفاح من أجل الحرية، وكسبها من خلال النضال. الجميع اليوم، كبارا وصغارا، حريصون على القراءة لكن الشيء المحزن هو أنه لا توجد كتب. يوم الأحد الماضي، جمعت 11 شخصا وقرأت لهم مقال: "بما نبدأ"، وقد ناقشناه حتى وقت متأخر من المساء. كم تمكن [المقال] من التعبير بشكل جيد عن كل شيء، كم استطاع الوصول إلى جوهر الأمور... لذا قررنا أن نبعث رسالة إليكم ونطلب منكم كيف يمكنكم

1: Perekiska GV Plekhanova i PB Akse'roda, p: 270.

2: Trotsky, My Life, p: 171.

تعليمنا ليس فقط كيف نبدأ، بل كيف نعيش وكيف نموت»<sup>1</sup>.

أراد بليخانوف وأكسلرود أن يتم إصدار الصحيفة في سويسرا، حيث يمكنهما ممارسة الرقابة عليها. بينما كان لينين ومارتوف وبوتريشوف عازمين على إصدارها في مكان آخر، وانتقلوا إلى ميونيخ. في واقع الأمر لم يستوعب أعضاء مجموعة تحرير العمل تماما أهمية إيسكرا باعتبارها وسيلة لتنظيم الحزب. لقد ركزوا اهتمامهم على زاريا، التي كانت تصدر بطريقة شرعية في شتوتغارت، بين أبريل 1901 و غشت 1902، عندما صدرت أربعة أعداد في ثلاث نشرات. وكان العضو الوحيد من مجموعة تحرير العمل الذي كان حريصا على المشاركة في إيسكرا هي فيرا زاسوليتش، التي سافرت إلى ميونيخ بجواز سفر بلغاري مزور. هبط الجزء الأكبر من ثقل العمل التنظيمي للجريدة على كاهل لينين. وقد لعبت زوجته ناديجدا كروبسكايا دورا هاما جدا في التعامل مع المراسلات الكثيرة مع روسيا والتي كانت تصل إليهم بشكل غير مباشر، عبر عناوين الرفاق الألمان، والذي كانوا يحيلونها إلى كروبسكايا.

وكانت مهمة تنظيم شبكة نقل غير شرعية مهمة حافلة بالصعوبات. وحسب أوسيب بيانتيتسكي (اسمه الحركي فريتاغ)، والذي صار في وقت لاحق المسؤول عن هذا العمل، كان نقل إيسكرا من برلين إلى ريجا ثم فيلنا فيبترسبورغ يستغرق عدة أشهر. كما أنه لم يكن عملا خاليا تماما من الأخطاء من جميع الأنواع. وضع بيانتيتسكي، في سيرته الذاتية، مذكرات بلشفي (-Zapiski Bol'shevi-ka)، كيف كانوا يستفيدون من خدمات الطلاب الروس لتميرير الوثائق والجريدة إلى روسيا من خلال حقائب تحتوي على فجوات سرية. كانت تلك الحقائب تصنع في مصنع صغير في برلين. وقد حقق طلبا كبيرا على متوجهه. لكن سرعان ما انتبه حرس الحدود إلى الخدعة، إذ تعلموا البحث في تلك الحقائب التي اتضح أنها من نفس النوع! بعد ذلك بدءوا في استخدام الحقائب العادية، مع إدخال ما بين 100 و150 نسخة من الجريدة مخبأة تحت قاع مزيف من الورق المقوى. لكن الطلب على إيسكرا فاق باستمرار الإمدادات، فكان ينبغي إيجاد وسائل جديدة. كان في الإمكان إدخال ما بين 200 و300 نسخة في صدريات وتنانير خيطة خصيصا لذلك الغرض. وحتى مع ذلك، كان من الضروري استكمال هذه الأساليب بإنشاء مطابع سرية داخل روسيا، كانت تطبع إيسكرا باستعمال النسخ التي كان يتم تهريبها من الخارج. تم تأسيس مطابع من هذا النوع في موسكو وأوديسا وباكوف. وقد استنزفت تفاصيل هذا العمل الكثيرة قدرا هائلا من الوقت والطاقة، كما أنها استنزفت الكثير من المال، الذي كان يجمع من المتعاطفين من طرف وكلاء إيسكرا في برلين وباريس وسويسرا وبلجيكا، الذين كانوا يبحثون بشكل دائم عن الأموال والمسافرين الذين هم على استعداد لحمل الجريدة وإقامة الاتصالات والعناوين الآمنة وما إلى ذلك.

## ما العمل؟

في وقت إصدار إيسكرا، كان الحزب في روسيا بالكاد موجودا كقوة منظمة. ففي خضم الارتباك الإيديولوجي أدت الانقسامات التكتلية إلى سلسلة من الانشقاقات وتشكل مجموعات صغيرة. في بترسبورغ وحدها، في مطلع القرن العشرين، كانت هناك "مجموعة التحرير الذاتي للطبقة العاملة" و"مجموعة العمال للنضال ضد رأس المال" و"راية العمال" و"الاشتراكي" و"الاشتراكي الديمقراطي" و"مكتبة العمال" و"منظمة العمال"، وغيرها من المجموعات التي كانت كلها تدعي التحدث باسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي. كانت الكثير من هذه المجموعات متأثرة بأفكار الاقتصاديين. وكانت هناك سمة مشتركة بينها هي الرغبة في امتلاك صورة "بروليتارية نقية". دافعت المجموعة الأولى المذكورة أعلاه [مجموعة التحرير الذاتي للطبقة العاملة] عن فكرة أن مصالح المثقفين تتعارض مع مصالح العمال. وهذا ما يفسر لماذا انشقت رابطة بترسبورغ للنضال نفسها، بعد أن تم الاستيلاء عليها من طرف رابوتشاياميسل، الفصيل الإقتصادي المتطرف، إلى مجموعتين واحدة للعمال والأخرى للمثقفين! بطبيعة الحال لا تعبر هذه المواقف عن اتجاه بروليتاري حقيقي، بل إنها، على العكس تماما، تكشف عن أوهام المثقفين الذين يتخيلون أن السبيل لكسب العمال هو تقديم التنازلات للأحكام المسبقة السائدة بين الفئات الأكثر تخلفا داخل الطبقة العاملة. وبنفس الطريقة التي حاول بها الناردونيون القدامى، "الذهاب إلى الشعب"، وكانت النتائج كارثية، حاول الثوري البرجوازي المتوسط كسب ود العمال بـ "التواضع" أمامهم، لكنه كان في الواقع يظهر بذلك نقسا مثيرا للشفقة في فهمه للطبقة العاملة، وفي نفس الآن ازدراء عميق الجذور بها.

تكتسي كتابات لينين حول التنظيم، التي تعود إلى تلك المرحلة، أهمية فائقة. لقد شرح براعة فكرة كون الجريدة منظم

جماعي في أعمال مثل "بما نبدأ؟" و"رسالة إلى الرفيق" و"ما العمل؟"<sup>1</sup>. في المقالة الأولى المذكورة أعلاه يوجد جوهر أفكار لينين واضحة: «لا يقتصر دور الجريدة على نشر الأفكار ولا على التثقيف السياسي وتجنيد الحلفاء السياسيين. إن الجريدة ليست فقط داعية جماعيا ومحرضا جماعيا، إنما هي أيضا منظم جماعي... وبمساعدة الجريدة، ومن خلالها، سيتكون بشكل طبيعي تنظيم دائم سينخرط ليس فقط في أنشطة محلية، بل أيضا في عمل عام منتظم، وسيدرب أعضائه على تتبع الأحداث السياسية باهتمام، وتقدير أهميتها وتأثيرها في مختلف فئات السكان، وتطوير أساليب فعالة لتأثير الحزب الثوري في هذه الأحداث. إن مجرد القيام بالمهمة التقنية المتمثلة في تزويد الجريدة بالمواد بانتظام وتوزيعها بانتظام، ستفرض الحاجة إلى شبكة من العملاء المحليين للحزب الموحد، الذين سيحافظون على صلة ثابتة ببعضهم البعض، ويعرفون الوضع العام للأمور، ويعتادون على أن ينفذوا بانتظام وظائف عملهم الجزئية ضمن العمل الروسي العام، ويمتحنون قواهم في تنظيم مختلف الأعمال الثورية»<sup>2</sup>.

ربما ليس هناك عمل آخر في تاريخ الماركسية تعرض للهجوم مثلما تعرض له كتاب لينين "ما العمل؟"، الذي ألف بين أواخر 1901 وأوائل عام 1902، وكان القصد منه تصفية الحساب نهائيا مع الاقتصاديين، وبالتالي تميز في جميع فصوله بطابع جدالي للغاية. ومما لا شك فيه هناك حمولة غنية من الأفكار موجودة في هذا العمل، الذي يتضمن، رغم ذلك، نواقص نظرية جديّة. ففي حين جادل بشكل صحيح ضد عبادة الاقتصاديين للـ "العفوية"، سمح لينين لنفسه بالوقوع في خطأ المبالغة في فكرة صحيحة وتحويلها إلى نقيضها. وقد أكد على وجه الخصوص على أن الوعي الاشتراكي: «لا يمكن للعمال أن يحصلوا عليه إلا من الخارج. ويبين تاريخ جميع البلدان أن الطبقة العاملة لا تستطيع أن تكتسب بقواها الخاصة غير الوعي التريديونيوني فقط، أي القناعة بضرورة الانتظام في نقابات والنضال ضد أرباب العمل ومطالبة الحكومة بإصدار هذه أو تلك من القوانين الضرورية للعمال، الخ».

هذا العرض الأحادي الجانب والخاطئ للعلاقة بين الطبقة العاملة وبين الوعي الاشتراكي لم يكن من اختراع لينين في الأصل، بل لقد استعاره مباشرة من كاوتسكي، الذي كان يعتبره في ذلك الوقت المدافع الرئيسي عن الماركسية الأرثوذكسية ضد برنشتاين. في الواقع اقتبس لينين باستحسان كلام كاوتسكي حول أن: «العلم ليس بيد البروليتاريا، بل بيد المثقفين البرجوازيين [خط التشديد من كارل كاوتسكي]: فمن عقول بعض أعضاء هذه الفئة انبثقت الاشتراكية الحديثة نفسها هي أيضا، وهم من نقلها إلى أكثر البروليتاريين تطورا من الناحية الفكرية، والذين أخذوا بعد ذلك يدخلونها في نضال البروليتاريا الطبقي حيث تسمح الظروف. وبالتالي فإن الوعي الاشتراكي عنصر يؤخذ من الخارج (von Aussen Hineingetragenes) وينقل إلى نضال البروليتاريا الطبقي، وليس شيئا ينبثق منه بصورة عفوية (urwüchsig)»<sup>3</sup>.

تبرز هنا صيغة كاوتسكي بكل فظاظتها. صحيح أن النظرية الماركسية، التي هي أسمى تعبير عن الوعي الاشتراكي، لم تكن من صنع الطبقة العاملة، بل هي نتاج لأفضل ما تم تحقيقه من طرف الفكر البرجوازي، في شكل الفلسفة الألمانية والاقتصاد السياسي الكلاسيكي الإنجليزي والاشتراكية الفرنسية. ومع ذلك فإنه ليس صحيحا القول بأن البروليتاريا، إذا ما تركت لنفسها، ليست قادرة على الوصول سوى إلى مستوى الوعي النقابي (أي النضال من أجل تحسين الوضع الاقتصادي في كنف الرأسمالية). فقبل أكثر من عشر سنوات من صدور البيان الشيوعي، تمكنت الطبقة العاملة البريطانية، من خلال الحركة الشارتية<sup>4</sup> - التي وصفها لينين نفسه بأنها أول حزب عمالي ثوري جماهيري في العالم - من أن تذهب بالفعل أبعد من حدود مجرد الوعي النقابي، حيث انتقلت من فكرة الإصلاحات الجزئية والعرائض إلى فكرة الإضراب العام ("العطلة الوطنية الكبرى") وحتى الانتفاضة المسلحة (رجال "القوة المادية"، وانتفاضة نيويورك<sup>5</sup>). وبالمثل نجح عمال وعاملات باريس في الواقع - ودون وجود حزب ماركسي واع في القيادة - في الاستيلاء على السلطة، ولو لبضعة أشهر، في عام 1871. ولنتذكر أن ماركس نفسه قد استفاد من تجربة كومونة باريس، والتي منها استخرج فكرته عن الديمقراطية العمالية ("ديكتاتورية البروليتاريا"). وبنفس الطريقة لم تكن فكرة السوفييتات (المجالس) من اختراع لينين أو تروتسكي، بل كانت ابداعا عفويا للبروليتاريا الروسية خلال ثورة 1905.

هل هذا يعني أن الماركسيين ينكرون أهمية العامل الذاتي، أي الحزب الثوري والقيادة؟ على العكس تماما. يظهر كل تاريخ

1: Where to Begin (LCW, vol. 5, pp. 17-24), Letter to a Comrade (LCW, vol. 6, pp. 235-252) and What Is To Be Done? (LCW, vol. 5, pp. 349-529).

2: LCW, Where to Begin, vol. 5, pp. 22-23.

3: LCW, vol. 5, pp. 375 and 383 - 384. (التشديد من آلان وودز)

4: حركة ظهرت في بريطانيا عام 1836م، أصدر أعضائها وثيقة مطالب (Chart) تضمنت، على سبيل المثال، حق الاقتراع العام لكل الرجال الذين بلغوا 21 عاما، وتطبيق نظام الانتخابات السرية المتساوية، الخ. وقاموا بجمع التوقيعات لها لإرسالها إلى البرلمان البريطاني.

5: انتفاضة نيويورك: انتفاضة قام بها الشارتيون في نيويورك يوم 03 نوفمبر 1839.

الحركة العمالية العالمية أن البروليتاريا بحاجة إلى الحزب الثوري والقيادة الثورية من أجل الاستيلاء على السلطة. لكن العامل الذاتي لا يمكن صنعه بواسطة "التشكل عفوي". لا يمكن أن يأتي نتيجة للأحداث أو أن يرتجل عندما تدعوا الحاجة إليه. يجب أن يتم بناؤه مسبقا بعمل شاق على مدى سنوات، وربما عقود. لكن مسألة بناء الحزب الثوري ومسألة الحركة العمالية شيئان مختلفان. يمكن أن تسير العمليتان في خطين متوازيين لفترة طويلة دون أن تتقاطعا. الطبقة العاملة تتعلم من التجربة وتستخلص الاستنتاجات الثورية ببطء وبصعوبة كبيرة. وقد سبق لإنجلز أن أوضح أن هناك فترات في التاريخ تكون فيها عشرون عاما مثل يوم واحد. وتحت وطأة العادة والروتين والتقليد، تبقى الجماهير في نفس الحالة القديمة، حتى تجرأ الأحداث الكبرى قسرا على الخروج منها. وفي المقابل، يضيف إنجلز، هناك فترات أخرى يمكن لعشرين عاما أن تتركز في غضون 24 ساعة.

لقد أثبتت الطبقة العاملة مرارا وتكرارا أنها تريد السير نحو حسم السلطة. كانت البروليتاريا الإسبانية، كما أوضح تروتسكي، قادرة على إنجاز عشر ثورات في الفترة ما بين 1931 و1937. في صيف عام 1936، تمكن العمال في كاتالونيا، ومرة أخرى دون قيادة ماركسية، من تحطيم الجيش الفاشي، وتمكنوا فعلا من أخذ السلطة بين أيديهم. أما عدم نجاحهم في تأسيس دولة عمالية وتعزيز قبضتهم على السلطة ونشر الثورة إلى بقية أسبانيا، فلم يكن ذنبهم، بل تقع مسؤولية ذلك على عاتق القادة اللاسلطويين والنقابيين لنقابتي الفدرالية اللاسلطوية الأيبيرية (FAI) والكونفدرالية الوطنية للشغل (CNT) وحزب POUM (الحزب العمالي للتوحيد الماركسي). لقد دق هؤلاء القادة المسمار الأخير في نعش الثورة الإسبانية بسبب رفضهم الاجهز على بقايا الدولة البرجوازية وتأسيس دولة عمالية جديدة على أساس مجالس منتخبة ديمقراطيا للمصانع وممثلي الميليشيات. وفي جميع الأحوال كان ما حدث في كاتالونيا وأجزاء أخرى من إسبانيا، في عام 1936، أبعد بكثير من "الوعي النقابي". ويمكن أن يقال نفس الشيء عن فرنسا عام 1968، وعن كل حالة تحاول الطبقة العاملة فيها البدء في أخذ مصيرها بين أيديها.

لا تسقط الأفكار من السماء، بل تتشكل على أساس التجربة. وفي سياق تجربتها تستخلص البروليتاريا حتما بعض الاستنتاجات العامة حول دورها في المجتمع. في ظل ظروف معينة، في معمعة الأحداث العظيمة، يمكن تسريع عملية التعلم بشكل هائل. لكن حتى خلال الفترات العادية من التطور الرأسمالي، يستمر خُلد<sup>1</sup> التاريخ العجوز في الحفر عميقا في وعي البروليتاريا. وفي لحظات حاسمة، يمكن للأحداث ان تنفجر فوق رأس الطبقة العاملة قبل أن يتوفر لهذه الأخيرة الوقت الكافي لاستخلاص جميع الاستنتاجات الضرورية. ليس دور الطليعة الواعية على الإطلاق هو "تعليم العمال كما لو أنهم مجرد أطفال"، لكن دورها هو زرع الوعي في الرغبة العفوية للطبقة العاملة في تغيير المجتمع. ليس في هذه الفكرة أية ذرة للنزعة المثالية. الحياة نفسها تعلم، كما كان لينين يقول دائما. من خلال تجربة حياة الاستغلال والاضطهاد، تكتسب الطبقة العاملة الوعي الاشتراكي، بدءا من فئاتها الأكثر نشاطا والتي تقود الطبقة ككل. هذا بالضبط هو أساس العملية التاريخية التي أدت إلى ولادة النقابات والأحزاب القوية للأمميتين الثانية والثالثة. توجد عناصر الوعي الاشتراكي وفكرة التغيير الجذري للنظام الاجتماعي في القوانين الأساسية لعدد لا يحصى من النقابات وودساتيرها، مع تأكيد على رغبة جامحة في التغيير. الصراع الطبقي نفسه يخلق لا محالة ليس فقط الوعي الطبقي، بل يخلق الوعي الاشتراكي أيضا. من واجب الماركسيين إخراج ما هو موجود بالفعل، وإعطاء التعبير الواعي لما هو موجود في شكل عفوي أو شبه واع.

أولئك الذين يكررون ميكانيكيا خطأ "ما العمل؟" بعد ما يقرب من قرن من الزمان، يفعلون ذلك دون أن يدركوا أن لينين نفسه اعترف، في وقت لاحق، أن هذه الصيغة غير الصحيحة كانت مجرد مبالغة جدالية. وعندما جرت، في المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي، محاولة لاستخدام هذه الصيغة ضده، أجاب لينين: «نحن جميعا نعرف الآن أن "الاقتصاديون" قد تطرفوا في أحد الاتجاهات. ولتصويب الأمور كان على شخص ما أن يسحب في الاتجاه الآخر، وهذا ما قمت به»<sup>2</sup>.

وفي سيرته عن ستالين علق تروتسكي قائلا: «إن مؤلف "ما العمل؟" نفسه اعترف في وقت لاحق بالطبيعة المتحيزة، وبالتالي الخاطئة لنظريته، والتي كان قد استخدمها بين قوسين كبطارية في المعركة ضد "الإقتصادية" واحترامها لعفوية الحركة العمالية»<sup>3</sup>.

لكن وعلى الرغم من هذا العيب، شكل كتاب "ما العمل؟" معلمة بارزة في تاريخ الماركسية الروسية. في ذلك الكتاب أثبت لينين بشكل قاطع ضرورة التنظيم، والحاجة إلى ثوريين محترفين تكون مهمتهم الأساس هي بناء الحزب، والحاجة إلى حزب عمالي حقيقي لعموم روسيا. لكي تتمكن البروليتاريا من الاستيلاء على السلطة، يجب عليها أن تنتظم. وال فشل في تحقيق هذه المهمة

1: الخُلد - أو الفأر الاعمى - حيوان صغير من الثدييات يعيش في أنفاق يحفرها بمخالبه وأسنانه.

2: LCW, Second Congress of the RSDLP, vol. 6, p: 491. (التشديد من آلان وودز)

3: Trotsky, Stalin, p: 58.

يعني، كما أوضح تروتسكي، أن الإمكانيات الثورية للطبقة العاملة سوف تتبدد دون جدوى، مثل البخار التي يتبدد في الهواء هباء عندما لا يتركز بواسطة المكبس.

الفكرة الأساس التي تتخلل كتاب "ما العمل؟" هي الحاجة إلى تدريب كوادر عمالية، وليس مجرد مناضلين نقابيين واعين، بل عمالا يمتلكون فهما واضحا للأفكار الماركسية: «لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية. إننا لا نبالغ مهما شددنا على هذه الفكرة في مرحلة يسير فيها التبشير الشائع بالإنتهائية جنباً إلى جنب مع الميل إلى أشكال النشاط العملي الضيقة جداً» [التشديد من عندي: آلان وودز].

إن ما يطرحه لينين هنا ليس على الإطلاق التقليل من قدرة العمال على الفهم، بل على العكس تماماً. إن همه الأساس هو مكافحة الأحكام المسبقة البرجوازية الصغيرة بأن "العمال لا يمكنهم أن يفهموا النظرية" وأنه يجب على أدبيات الحزب أن تقتصر على الشعارات الاقتصادية والمطالب العاجلة. وعلى العكس من ذلك، أصر لينين على أنه: «من الضروري على العمال ألا يحصروا أنفسهم في الحدود الضيقة بشكل مصطنع لـ "الأدب الموجه للعمال"، بل عليهم أن يتعلموا بدرجة متزايدة إتقان الأدب العام. سيكون أكثر صدقاً أن نقول "ألا يتم حصرهم"، عوض "ألا يحصروا أنفسهم" لأن العمال أنفسهم يرغبون في قراءة، وهم يقرأون، كل ما هو مكتوب للمثقفين، و فقط بعض المثقفين (السيئيين) هم من يعتقدون أنه يكفي أن يقال "للعمال" أشياء قليلة عن ظروف المصنع وتكرر على مسامعهم مرارا وتكرارا أشياء معروفة منذ زمن طويل»<sup>1</sup>.

مع الانطلاق من المشكلات المباشرة التي تواجه الطبقة العاملة، والنضال من أجل جميع أنواع المطالب الجزئية، من الضروري أن نتجاوز الخاص ونربط الصلة مع العام، ينبغي الانطلاق من نضال مجموعات العمال ضد أصحاب العمل الأفراد، إلى نضال الطبقة العاملة ككل ضد البرجوازية ودولتها. أقام لينين بطريقة بارعة العلاقة الجدلية الموجودة بين التحريض والدعاية والنظرية وشرح الطريقة التي يمكن بها للقوى الماركسية الصغيرة، من خلال كسبها للفئات الأكثر تقدماً بين صفوف الطبقة العاملة، أن تكسب بعد ذلك البروليتاريا ومن خلالها تكسب كل الشرائح المضطهدة الأخرى في المجتمع من فلاحين وقوميات مضطهدة ونساء. كان الاقتصاديون في البداية ناجحين لأنهم اكتفوا بمجرد التكيف مع الأحكام المسبقة للفئات الأكثر تخلفاً بين العمال. لكن العمال، كما يقول لينين، ليسوا مجرد أطفال يمكن تغذيتهم بذلك الحساء الهزيل. إنهم لا يريدون أن يسمعو ما يعرفونه بالفعل. لدى العمال تعطش للمعرفة، ومن واجب الماركسيين أن يرووا ذلك العطش. مع الانطلاق من المشاكل العاجلة للطبقة العاملة، من الضروري رفع مستوى وعيها لكي تصل إلى فهم كامل لدورها في المجتمع، وارشادها لطريق الخروج من المأزق.

### يقظة جديدة

شهدت بداية القرن العشرين في روسيا مرحلة نمو صناعي سريع، ساهم في المزيد من تقوية الطبقة العاملة التي وصل عددها حينها إلى حوالي ثلاثة ملايين. ما بين سنة 1894 و1902 ارتفعت نسبة العمال المشتغلين في المصانع التي تضم ما بين 100 و150 عامل، إلى 52,8%، بينما ارتفعت نسبة العمال الذين يشتغلون في مصانع تضم ما بين 500 عامل وألف عامل إلى 72%. أما الزيادة الأهم فقد كانت تلك التي شهدتها المصانع الأكبر التي تشغل أكثر من ألف عامل، والتي سجلت ما لا يقل عن 141%. في تلك الفترة كان 1.155.000 عامل يشتغلون في 458 معملاً. وقد عكس التكوين الطبقي للحركة الثورية هذا التغيير العميق في العلاقات الاجتماعية، فبين سنة 1884 و1890، كان العمال يمثلون فقط 15% من عدد المعتقلين لأسباب سياسية، لكن نسبة العمال بين المعتقلين لأسباب سياسية وصلت ما بين 1901 و1903، إلى 46%، أي حوالي النصف. وتكشف إحصائيات حركة الإضرابات السيرورة السريعة لموجة التسييس بين صفوف الطبقة العاملة:

السنوات	1901	1902	1903
الإضرابات السياسية	22,1%	20,4%	53,2%
الإضرابات الاقتصادية	77,9%	79,6%	46,8%

(المصدر: Istoriya KPSS, vol. 1, p: 357)

تزامن إصدار إيسكرا مع بداية حراك ثوري جديد. وكانت المظاهرات العاشدة التي نظمها عمال خاركوف في 01 ماي 1900 إشارة انطلاق لمرحلة عاصفة من مظاهرات الشوارع. كتب قائد الدرك الجنرال سبيريدوفيش قائلاً: «لقد استوعبت الحركة الاشتراكية

1: LCW, vol. 5, pp: 369 - 384, note.

الديمقراطية المعنى التحريضي الهائل للخروج إلى الشوارع. ومنذ تلك اللحظة أخذت على عاتقها المبادرة في الدعوة إلى المظاهرات، وتمكنت من أن تستقطب إلى صفوفها أعدادا متزايدة باستمرار من العمال. وفي العديد من المرات كانت تلك المظاهرات ناتجة عن الإضرابات»<sup>1</sup>.

كان المزاج الكفاحي الذي اكتسح المصانع يعكس تصاعد التوتر الاجتماعي نتيجة الأزمة الصناعية لسنوات 1900 و1903، عندما قام 3.000 مصنع بإغلاق أبوابه وتسريح حوالي 100.000 عامل. قام أرباب العمل بتخفيض الأجور في محاولة لحل الأزمة وضرب المكتسبات التي تحققت بفضل إضرابات عقد التسعينيات. ونتيجة لذلك سرعان ما تسيست الحركة وصارت أكثر جذرية. تحول إضراب دفاعي، في مصنع أوبوخوف للأسلحة بسان بيترسبورغ، في ماي 1901، إلى اصطدام دموي مع قوات القمع، عندما رد العمال الهجوم باستعمال الحجارة والقضبان الحديدية. وقد صارت هذه المعركة العمالية البطولية تعرف باسم "دفاع أوبوخوف". وقد تعرضت للانتقام وحشي حيث تم اعتقال 800 عامل حكم على العديد منهم بالأشغال الشاقة. إلا أنها كانت دليلا واضحا على أن الحركة قد بلغت مرحلة جديدة، حيث صار العمال مستعدين للانتقال نحو الهجوم والاصطدام بالدولة. وهكذا ذهب العمال، بتجربتهم النضالية الخاصة، أبعد بكثير من حدود "نظرية المراحل" الاقتصادية التافهة.

سنة 1902 اندلع إضراب عام في روستوف-نا-دونو مع مظاهرات حاشدة ضمت عشرات الآلاف من عمال المصانع والسكك الحديدية. أرسلت الدولة قوات البوليس والقوزاق التي قتلت العديد من العمال. وقد تحولت جنازات هؤلاء العمال إلى مظاهرات سياسية. وصلت الحركة الإضرابية إلى أوجها سنة 1903، عندما اكتسحت موجة من الإضرابات السياسية المنطقة الجنوبية، ووصل تأثيرها إلى تيفليس وباكو وأوديسا وكييف وبيكاترينوسلاف. لقد أعطت حركة الطبقة العاملة دفعة هائلة لنضالات الفلاحين، حيث اندلعت انتفاضات فلاحية في إقليم بولتافا وخاركوف. أرسلت الدولة 10.000 جندي لقمع الانتفاضات، لكن الحركة امتدت إلى منطقة الأرض السوداء الوسطى والفلوغا وجورجيا. وتعرضت قصور الملاكين العقاريين للإحراق عندما نهض الفلاحون وناضلوا ضد مضطهديهم، وفي هذا السياق كتب أحد الملاكين العقاريين من فورونيزه سنة 1901: «الجو مليء بالأخطار، ترى في كل يوم الحرائق في الأفق: سحابة دموية تزحف على الأرض»<sup>2</sup>.

وسرعان ما انتشر المزاج الثوري بين الطلاب. وفي ظل تلك الظروف اتخذ مطلب يبدو ظاهريا مطلباً محدوداً، من قبيل استقلالية الجامعة، طابعا ديمقراطيا ثوريا. ولسحق كفاحية الطلاب لجأت السلطات القيصرية إلى إجراءات قمعية من قبيل فرض الخدمة العسكرية على الطلاب، على سبيل المثال. تم اعتقال عشرات الآلاف في المظاهرات الجماهيرية، لكن هذا لم يؤد إلا إلى المزيد من صب الزيت على النار. وعلى الرغم من أن الأغلبية الساحقة من الطلاب كانوا ينحدرون من الطبقات الغنية وكانوا قريبين من اللبراليين في مواقفهم السياسية، فإنهم صاروا يرون في الطبقة العاملة حليفا لهم في النضال ضد الاستبداد. وانتهى الأمر بالعديد منهم في صفوف الحركة الاشتراكية الديمقراطية. في شتاء 1901-1902 شارك ما يقارب 30.000 طالب في إضراب عام ضد الحكومة. في عددها الثاني أرسلت إيسكرا دعوة إلى العمال لـ "مد يد المساعدة للطلاب". وعلى عكس الاقتصاديين المتصلبين، الذين كانوا ينظرون بارتياح إلى الحركة الطلابية أو أي شيء آخر يسير أبعد من حدود المطالب النقابية، فهم لينين الإمكانية الثورية للحركة الطلابية بالرغم من تكوينها غير العمالي. كتب زينوفيف: «في نفس الوقت الذي دافع فيه لينين وأنصاره عن سيادة البروليتاريا، دافعوا عن موقف يقول إذا ما كانت الطبقة العاملة هي العامل الرئيسي وإذا كانت القوة الأساسية والجوهرية للثورة، فإنه عليها أن تستعين بجميع أولئك الذين يريدون النضال بأي قدر كان ضد الاستبداد»<sup>3</sup>.

ساعدت حركة الجماهير الثورية في إخراج الانتلجنسيا من تشاؤمهم العميق. أدى تأسيس الحزب الاشتراكي الثوري، سنة 1902، إلى عودة الحياة إلى الحركة البرجوازية الصغيرة الثورية تحت راية الناردونية والإرهاب الفردي. قام الطالب كاربوفيش بإطلاق النار على وزير التعليم بوغوبلييوف، كما قام لاغوفسكي بإطلاق النار على بوبيدونوستسيف. كان المزاج الإرهابي بين صفوف الطلاب دليلا على الأزمة الثورية التي كانت تتطور. وفي الوقت الذي عبر فيه الماركسيون الروس عن تعاطفهم مع الطلاب فإنهم لم يخفوا انتقاداتهم للطريق المسدود الذي كان تكتيك الإرهاب الفردي يمثله. لقد تم تعويض وزير رجعي بآخر، وبقيت الدولة سليمة، بل في الواقع ازدادت قوة. بينما تعرضت الحركة لقمع شديد.

شقاء الجماهير أعطى قدرا من الشجاعة للبراليين الذين بدأوا يستعملون السلطات المحدودة التي كانت توفرها لهم سلطات

1: Trotsky, Stalin, p: 28.

2: N. Levin, Jewish Socialist Movements 1871-1917, p. 282.

3: G. Zinoviev, History of the Bolshevik Party, 66.

الزيمستفو. في بداية القرن كانت العديد من الزيمستفوات تحت سيطرة اللبراليين الذين حاولوا استعمالها منبرا يمكنهم من خلاله التقدم بمطالبهم إلى الحكومة. وبدأ الممثلون السياسيون للبرجوازية الروسية، الذين أحسوا بأن الأرض قد بدأت تهتز تحت أقدامهم، ينتظمون بتردد. كان إصدار جريدة غير شرعية في المنفى، أوسفوبوجديني، (التحرير)، سنة 1902، هو الخطوة الخجولة الأولى نحو تأسيس الحزب اللبرالي لاحقاً. شكل هذا الحدث القطيعة النهائية مع الماركسية للتيار الماركسي الشرعي بزعامة بيتر ستروفه، الذي صار رئيس تحرير أوسفوبوجديني. حاولت البرجوازية اللبرالية، بالرغم من كل شعاراتها حول الديمقراطية، التوصل إلى مساومة مع النظام الاستبدادي من أجل طرح دستور محدود. كانت المشكلة هي أن النظام كان يفضل الاكتفاء بالاعتماد على سوط القوزاق على الاعتماد على اللبراليين، الذين كانوا عاجزين عن التحكم في الجماهير. لكن قسماً من الحكومة، ممثلاً في وزير الاقتصاد وايت، حاول الاستناد إلى الزيمستفوات من أجل الحصول على قاعدة للدعم. ومع بداية سنة 1901، كتب وايت مذكرة سرية تحت عنوان: "الاستبداد والزيمستفو"، والذي نشر بشكل غير شرعي في المنفى بمقدمة لم يكتبها سوى بيتر ستروفه شخصياً.

في مقدمته أوضح بيتر ستروفه قطيعته النهائية مع الماركسية، وتقمص دور مستشار للحكومة. كتب ستروفه: «لا شك في أنه يوجد بين صفوف الموظفين الكبار أشخاص لا يتعاطفون (!) مع السياسة الرجعية (...). عليها [أي: الحكومة] أن تنتبه، قبل فوات الأوان، للخطر المميت لدفاعها الدائم عن النظام الأرستقراطي. عليها، حتى قبل أن تواجه الثورة، أن تتوقف عن الوقوف ضد التطور الطبيعي والضروري تاريخياً (!) للحرية وتقلص من "سياستها المتشددة"»، الخ الخ.

### توترات في صفوف هيئة التحرير

في مقاله "مضطهدو الزيمستفو وهنبل اللبرالية"<sup>1</sup>، قام لينين برد حازم على ستروفه، وقد كتب: «لا مكان للخضوع في السياسة، وحده التبسيط والسذاجة ما يجعل المرء يعتبر أسلوب فرق تسد (Divide et impera) البوليسي القديم، والتنازل عن التافه من أجل الحفاظ على ما هو أساسي، وإعطاء الشيء بيد واستعادته باليد الأخرى، دليلاً على الخضوع»<sup>2</sup>.

كان مضمون ذلك المقال كله إدانة صارمة للبرالية. منذ البدايات الأولى للحركة العمالية الروسية كان الموقف من الأحزاب البرجوازية يمثل حجر الزاوية في النهج الثوري. لقد عبر لينين دائماً عن موقف حازم بخصوص هذه المسألة. ومن المعبر أن هذا الهجوم على ستروفه واللبراليين تسبب في حدوث خلاف داخل صفوف هيئة تحرير الأيسكرا. وقد وقف بليخانوف وأكسليرود مندهشين أمام فجائية هذا الجدل.

كتب بليخانوف رسالة لأكسليرود عبر له فيها عن شكوكه قائلاً: «إن موقف الكاتب من مقدمة المذكرة صحيح بشكل كلي، ولا مجال لتخفيف حدته، على الرغم من أنه لم يرق كثيراً لفيرا زاسوليتش. لكنه استعمل نبرة خبيثة تجاه اللبراليين واللبرالية في روسيا. وهناك مسألة أخرى، من المهم أن تقرأ بتمعن الفصل الذي يناقش أهمية العمل داخل الزيمستفو. أنت هو خيرنا في مجال التكتيك وأنت من يمكنه أن يحكم ما إذا كان الكاتب على حق. لدي انطباع بأن ثمة خطأ ما»<sup>3</sup>.

اضطر لينين على مضض لأن يضيف في النهاية فقرة بنبرة تصالحية. لكن ورغم ذلك فإن الفكرة الأساسية للمقال واضحة بشكل تام: وهي أن اللبراليين البرجوازيين قد أبانوا بشكل كامل عن جنهم وعجزهم، وبسبب افتقارهم للسلطة لجئوا إلى التضرع للنظام الأوتوقراطي لكي يقدم بعض التنازلات، واستغلوا بلا حياء التهديد بثورة قد تأتي من تحت؛ والتي سوف يخونونها حتماً مقابل مساومة متعفنة مع الحكومة، التي تغازلهم بالوعود الكاذبة، «لكي تقبض على رقبتهم وتجلدهم بسوط الردة الرجعية. وعندما سيحدث هذا أيها السادة لن ننسى أن نقول: إنكم تستحقون ذلك!». لم يكن صدفة ذلك الخلاف حول مقال لينين، مع المعرفة التي قدمتها التجربة. إذ على الرغم من انتقادات بليخانوف لستروفه، فقد كان هناك تيار بين أعضاء مجموعة تحرر العمل لم يكن يرى ضرورة القطيعة الجذرية مع تلك الفئة من المثقفين البورجوازيين لتيار الماركسية الشرعية، الذي كان قد صار يتجه بوضوح نحو اليمين واللبرالية البورجوازية. كان لينين وكروبسكايا يلقيان زاسوليتش وبوتريسوف بـ "Struvefreundliche Partei"، وهو ما يمكننا ترجمته بشكل تقريبي بعبارة: "تيار التعامل بشكل طيب مع ستروفه".

1: مقال كتبه لينين، يونيو 1901، لانتقاد المذكرة السرية "الحكم المطلق والزيمستفو"، التي كتبها الوزير القيصري س. ي. وايت، ونشرت في الخارج بصورة غير قانونية.

2: LCW, vol. 5, p. 70.

3: Perepiska GV Plekhanova i PB Akse'l'roda, p. 270. (التشديد من آلان وودز)

العادات القديمة تقاوم الموت. إذا تركنا جانبا بليخانوف الذي كان شخصا متميزا بالرغم من كل أخطاءه، فإن بقية أعضاء المجموعة القديمة كانوا قد أصبحوا عاجزين أكثر فأكثر عن التكيف مع المرحلة الجديدة. عموما وحدهم القادة المتميزين جدا من يمتلكون القدرة على الانتقال الضروري من مرحلة تاريخية، بمطالباتها الخاصة، إلى مرحلة أخرى مختلفة تماما. وليس من المصادفة أن تكون كل مرحلة انتقال مصحوبة بالأزمات والانشقاقات، حيث يتم التخلي عن شريحة من الأشخاص الذين يعجزون عن التكيف مع الظروف الجديدة. إن بناء حزب عمالي جماهيري لا يتوافق مع أساليب الهواية في العمل وانعدام الرسميات، والتي تميز المرحلة الأولى لنشاط الدعاية. كانت ضرورة تحقيق عمل أكثر احترافية واحدة من المحاور الأساسية لكتابات لينين في تلك المرحلة، وفي هذا السياق كتبت كروبسكايا: «ضرورة تنظيم العمل على أساس عملي، بحيث لا يكون للعامل الشخصي أي دور في العمل، بحيث لا يكون للنزوات والعلاقات الشخصية، التي تشكلت تاريخيا، أي تأثير على القرار»<sup>1</sup>.

كانت النزعة المحلية وغياب الاحترافية، التي استمرت موجودة في العديد من اللجان، تعرقل العمل في وقت كانت تفتح فيه امكانيات كبرى. لم يكن هناك مجال لأي نزعة للبحث عن التوافقات والمساومات أو تأييد هذه الفوضى. وقد لاقت رسالة إيسكرا، التي قامت على ضرورة الدفاع عن النظرية الماركسية ومن أجل حزب موحد وعمل أكثر احترافية، ترحيبا من طرف العمال. لكن في نهاية عام 1901 لم يكن هناك سوى تسعة ممثلين لإيسكرا في كل روسيا وكان تيار إيسكرا ما يزال أقلية. في البداية كان العديد من أعضاء اللجان المحلية مرتابين تجاهها أو حتى معادين لها. وهكذا ففي المؤتمر الثاني، علق أحد المؤتمرين قائلا: «أتذكر مقال "بم نبدا؟" الذي نشر في العددين 03 و04 لإيسكرا. لقد وجدته الكثير من الرفاق النشيطين داخل روسيا مفتقرا للباقة؛ بينما رأى آخرون أن تلك الخطة كانت رائعة، بينما اعتبرته الأغلبية نابعا عن الحماس. ثم أتذكر الكره الذي عبرت عنه أغلبية اللجان تجاه إيسكرا؛ أتذكر حدوث سلسلة من الانشقاقات...»<sup>2</sup>.

لقد تم بناء تيار إيسكرا تدريجيا بعمل صبور تركز حول الجريدة نفسها. إيسكرا التي بدأت جريدة شهرية صارت لاحقا تصدر كل نصف شهر. وتمكنت ببطء، لكن بثبات، من بناء شبكة من المراسلين العمال في المصانع والأحياء العمالية لتوزيع الجريدة وجمع المساهمات المالية بشكل منتظم وربط الاتصال مع مختلف المنظمات وتأسيس محيط من المتعاطفين. كان الدور الحاسم في هذا العمل هو الذي لعبه العدد المتزايد من ممثلي إيسكرا والرجال والنساء الذين كرسوا حياتهم بشكل كامل للعمل الثوري. لقد تمكنوا، في ظروف العمل السري الصعبة والخطيرة، من إنجاز مهمة بناء التيار داخل روسيا، وحافظوا على علاقة منتظمة مع القيادة في الخارج، ونظموا النقل غير الشرعي للأدبيات السياسية، وأقاموا مطابع سرية، الخ. يعطينا تعليق تروتسكي عن تلك المرحلة، التي لعب هو خلالها دورا نشيطا داخل إيسكرا، صورة حية عن طبيعة عمل وأسلوب عيش هؤلاء الناس:

«كانت المهمة العاجلة لإيسكرا هي أن تنتخب من بين العمال المحليين العناصر الأكثر تميزا وتوظفهم في خلق جهاز مركزي قادر على قيادة النضال الثوري في جميع أنحاء البلد. كان عدد المنخرطين في إيسكرا كبيرا ويزداد كل لحظة. لكن عدد الإيسكريين الحقيقيين، العناصر الجديرة بثقة المركز الموجود في الخارج، كان محدودا بحكم الضرورة: لم يكن يتجاوز عشرين إلى ثلاثين شخصا. إن أكثر ما يميز عضو إيسكرا هو انفصاله عن مدينته وإقليمه بهدف بناء الحزب. كانت "النزعة محلية"، في معجم إيسكرا، مرادفا للتخلف والتفاهة والرجعية تقريبا. كتب جنرال الدرك سبيريدوفيتش قائلا: "متحدين في مجموعة تأمرية للمحرضين المحترفين، ينتقلون من مكان إلى آخر حيث يريدون تشكيل لجان للحزب وقيموون العلاقات مع أعضائهم ويقدمون لهم الأدبيات غير الشرعية ويساعدونهم على تشكيل مطابع سرية ويجمعون في نفس الآن المعلومات من أجل إيسكرا. يتسللون إلى اللجان المحلية ويقومون بدعايتهم ضد الاقتصاديين ويقصون خصومهم الايديولوجيين، وبهذه الطريقة يخضعون اللجان لنفوذهم". قدم ذلك الدركي المتقاعد في هذه الأسطر وصفا صحيحا بشكل كامل للإيسكريين. لقد كانوا أعضاء نظام يسير فوق حدود المنظمات التي كانوا لا يرون فيها سوى مكان حيث يجب ممارسة التأثير»<sup>3</sup>.

كانت المراكز الثلاثة الأولى لتوزيع إيسكرا موجودة في الجنوب (بولتافا) والشمال (بسكوف) والشرق (سمارا) ولاحقا موسكو في الوسط. لقد تم تأسيس التيار حول راية الجريدة، وبناء على نظرية لينين "الجريدة منظم جماعي" تم تشكيل شبكة من المراسلين العمال في المصانع من أجل توزيع الجريدة وإنتاج المقالات وجمع المساهمات المالية وربط الاتصال مع المنظمات الأخرى وخلق محيط محلي من العلاقات. كانت الجريدة مركز كل عمل التيار. انعكست مرحلة انعدام التنظيم والفوضى في تكاثر الجرائد

1: N.K. Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p. 67.

2: 1903, Minutes of the Second Congress of the RSDLP, p: 181.

3: L. Trotsky, Stalin, p. 39.



والمناشير المحلية. كانت إيسكرا قوة جبارة للتوحيد، وحدت اللجان المحلية عبر كل روسيا وأعطتها رابطاً ثابتاً بالمركز القيادي في الخارج. هكذا بدأ العمل المنهجي لكسب اللجان داخل روسيا لتيار إيسكرا. كان العمل محفوفاً بالصعوبات. لم يكن عملاء إيسكرا مضطرين فقط لمراوغة الجهاز البوليسي اليقظ دائماً، بل كانوا مضطرين في بعض الأحيان حتى للنضال من أجل الدخول إلى اللجان. بعض المؤرخين البورجوازيين المعاصرين يتهمون إيسكرا باللجوء إلى المناورات من أجل كسب النفوذ، وهو اتهام خاطئ، فقد كان الاقتصاديون، العاجزين تماماً عن الدفاع عن أفكارهم أمام النقد الماركسي، هم من لجئوا إلى استعمال أساليب بيروقراطية من أجل إسكات صوت خصومهم. كان توكاريف، القائد الاقتصادي للجنة سان بيترسبورغ، متحمساً لطرد أي متعاطف مع إيسكرا، حتى نال لقب فيشيبالو (أي الغوريلا). لقد وفر تقدم الحركة الثورية حقلاً خصباً لانتشار أفكار إيسكرا؛ وفي العديد من المناطق أدى الصراع من أجل النفوذ داخل اللجان إلى حدوث الانشقاق. لكن اللجان المعادية لإيسكرا كانت دائماً تضعف وتختفي بينما استمر عدد لجان إيسكرا النشيطة في التزايد. لم يكن نجاح إيسكرا هذا ليمر دون أن يلاحظه جهاز البوليس، فتم اعتقال عدد كبير من المتعاونين معها في نهاية عام 1901 وبداية 1902. لكن ذلك لم يؤد إلى وقف تقدم التيار.

### الاقتصاديون في تراجع

كانت القاعدة الرئيسية التي بقيت مساندة للاقتصاديين تيار رابوتشي ديلو هي منظمة المنفيين السياسيين، "اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيون في الخارج". وكانت محاولة تحقيق الوحدة على أساس مبدئي قد فشلت بعد المؤتمر التوحيدي الذي انعقد بداية عام 1901. غادر أنصار إيسكرا الاتحاد في شتبر، وأنشأوا في الشهر الموالي "رابطة الاشتراكيين الديمقراطيين الثوريين في الخارج". اقتصاديون اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين في الخارج، الذين رأوا أن الوضع في روسيا يخرج من تحت سيطرتهم، قرروا توجيه ضربة استباقية بالدعوة سريعاً لعقد مؤتمر للحزب، كانوا يأملون أن يعطيهم بعض الامتياز.

كان أتباع رابوتشي ديلو على اتصال مع حزب البوند الذي، وبصرف النظر عن دعمه العام للاقتصاديين، كان له اهتمام خاص بمسألة عقد المؤتمر. كان البوند يطالب ليس فقط بالاستقلال الذاتي داخل الحزب، بل وبالحق الحصري في الكلام باسم حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي - الذي تأسس في المؤتمر الأول لكن لم ينظم بشكل صحيح إلا في عام 1903 - فيما يخص الشؤون اليهودية. أدى ذلك إلى اندلاع مواجهة مباشرة مع إيسكرا، التي اعتبرت، كما قالت كروبسكايا، أن «هذه التكتيكات انتحارية بالنسبة للبروليتاريا اليهودية. لا يمكن للعمال اليهود أن ينتصروا بمفردهم. ولا يمكنهم الانتصار إلا باندماجهم مع القوى الأخرى للبروليتاريا في جميع روسيا»<sup>1</sup>.

ولمنع إيسكرا من عقد مؤتمر يعرفون أنهم سيكونون فيه أقلية، لجأ الاقتصاديون والبوند إلى القيام بمناورة. في نهاية مارس 1902، دعوا إلى ما أسموه مؤتمر بيلوستوك، وكانت الفكرة هي استبعاد إيسكرا، لكن غياب التمثيلية الكافية في الاجتماع كان واضحاً جداً (في الواقع، كان الحضور أقل حتى مما كان عليه خلال المؤتمر الأول)، مما أفشل المناورة. بالإضافة إلى ذلك كانت إيسكرا قد علمت بالاجتماع وبعثت ممثلاً عنها، فيدور دان، الذي حضر دون دعوة وتوصل إلى دفع الحاضرين إلى التخلي عن إطلاق اسم مؤتمر على الاجتماع، وأطلقوا عليه اسم كونفرانس مهمته انتخاب لجنة تنظيمية للمؤتمر. بعد ذلك بوقت قصير، ألقى القبض على أغلبية المندوبين في المؤتمر، إلى جانب عضوين في اللجنة التنظيمية. عندها سقطت كل مهام عقد المؤتمر على كاهل إيسكرا. وفي اجتماع جديد عقد في بسكوف، في نوفمبر 1902، تم تشكيل لجنة تنظيمية جديدة، كانت هذه المرة مشكلة في غالبيتها من أنصار إيسكرا. وبدأت الأعمال التحضيرية للمؤتمر الثاني بجدية.

كانت المهمة التي تواجه إيسكرا هائلة جداً. كان مجرد نقل الصحيفة كابوساً. كانت تهرب إلى روسيا في حقائب مزدوجة القاع، ملزمة كما لو كانت كتباً، وكانت ترسل مع البحارة والطلاب، عبر مرسيليا وستوكهولم ورومانيا وبلاد فارس وحتى مصر. وكانت كميات كبيرة من الجرائد تضيع في الطريق. تقدر كروبسكايا أن الجرائد التي كانت تصل إلى وجهتها لا تتجاوز 10%. وكانت المراسلات مع الداخل غير منتظمة. في كثير من الأحيان لم يكن أنصار إيسكرا على اتصال منتظم مع المركز في لندن، وهو ما كان يفقد لينين أعصابه في بعض الأحيان. وحتى عندما كانت الرسائل تصل، لم تكن المشاكل قد انتهت. كثيراً ما كانت العناوين غير مقروءة أو منتهية الصلاحية. لم يكن من الممكن قراءة الرسائل المشفرة لأن الحليب أو عصير الليمون الذي كتبت به يكون قد فقد صلاحيته. وكان العمل ينقطع في كثير من الأحيان بسبب الاعتقالات.

1: N.K. Krupskaya, O Vladimiriye Ilyiche, 1924 edition, vol. 1, p. 89.

لكن وعلى الرغم من كل المشاكل، تمكنت إيسكرا من التقدم بوتيرة ثابتة. كان نشر صحيفة نصف شهرية منتظمة هو مفتاح نجاح إيسكرا. وعلى عكس طابع الهواية الذي كان يميز الصحف المحلية المتنافسة، كانت إيسكرا تكتب وتطبع بطريقة احترافية. كانت الاحترافية هي السمة المميزة لعملها. وليس من قبيل الصدفة أن لينين قد ركز كثيرا على أهمية ذلك في كتابه "ما لعمل؟".

نجاح إيسكرا في روسيا زاد إلى حد كبير من نفوذ لجنة التحرير التي كان مقرها لندن، والتي كانت بمثابة المركز الذي ينطلق منه ليس فقط التوجيه النظري فحسب، بل أيضا التوجيهات العملية. لكن، وعلى غفلة من المناضلين، كانت هناك توترات خطيرة ومتنامية بين الشخصيات البارزة في إيسكرا. فبينما كانت التحضيرات للمؤتمر تتقدم وكان التاريخ الحاسم يقترب، بدأت تلك التوترات أيضا تصير أكثر فأكثر حدة. كان معظم العمل على كاهل لينين وزوجته نادجدا كونستانتينوفنا كروبسكايا. كان لينين هو المحرر الحقيقي للجريدة، وكروبسكايا المتفانية والدؤوبة حققت المعجزات في العمل التنظيمي والحفاظ على المراسلات الهائلة مع الداخل. كان ذلك عنصرا هاما في نجاح إيسكرا. كان هناك أشخاص آخرون متفانون في العمل، مثل بلومفلد، المسؤول عن طباعة إيسكرا، والذي كتب عنه كروبسكايا قائلة: «كان منضدا ممتازا ورفيقا رائعا، كان لديه حماس متقد لعمله. (...) كان رفيقا يمكن للمرء أن يثق فيه بشكل كامل. وأي عمل يقوم به يتمه بإتقان».

لعب مارتوف دورا هاما على المستوى الأدبي، وكان بليخانوف عملاقا نظريا. لكن في الممارسة العملية لم يكن بقية الأعضاء الآخرين، من المخضرمين في مجموعة بليخانوف، يلعبون سوى دور صغير جدا، أو لا شيء على الإطلاق. كان هؤلاء المناضلين القدامى قد اعتادوا طيلة عقود على الحلقات الصغيرة للمنفيين السياسيين، والتي تتميز بغياب كلي للعلاقات الرسمية وهيمنة العلاقات الشخصية، والتي تتفوق أحيانا على السياسية، فصاروا أكثر فأكثر عاجزا عن التكيف مع متطلبات الوضع الجديد. كان أعضاء مجموعة تحرير العمل قد علقوا أهمية كبيرة على القدرة التنظيمية لدويتش، لكنه عندما جاء أخيرا إلى لندن، سرعان ما أضح أن سنوات المنفى الطويلة قد تركت عليه بصماتها. وبعد فترة قصيرة قضاها في لندن، غير دويتش رأيه وعاد إلى الأجواء الأكثر بهجة بين المنفيين السياسيين في باريس، تاركا لينين تحت عبء الإعداد للمؤتمر. وتذكر كروبسكايا الوضع خلال الأشهر المرهقة التي سبقت المؤتمر الثاني: «لقد وقع كل عمل اللجنة التنظيمية والإعداد للمؤتمر، في الواقع، على كاهل فلاديمير إيليتش. كان بوتريسيوف مريضا، إذ لم تتمكن رثته من تحمل ضباب لندن وكان قد ذهب للعلاج في مكان ما، وكان مارتوف متعبا من لندن وحياته وحيدا فذهب إلى باريس حيث كان مثل سمكة خارج الماء»<sup>1</sup>.

كانت لجنة التحرير تتألف من ستة أعضاء (لينين وبليخانوف وأكسلرود وزاسوليتش ومارتوف وبوتريسيوف)، والذين كثيرا ما كانوا يتورطون في نزاعات مريرة. وفي الفترة التي سبقت المؤتمر، كانت هناك معركة بين لينين وبليخانوف حول مسودتي البرنامج اللتان كان كل منهما قد كتب واحدة. وفي جو التوتر الشديد، كانت نبرة النقاش تحتد في كثير من الأحيان. وعندما قدم بليخانوف مسودته، في يناير 1902، أثار لينين ومارتوف تجاهها بعض الانتقادات، والتي اعتبرها بليخانوف، كما كانت العادة دائما، بمثابة إهانة شخصية له. وعندما اقترح الرفاق أن يتم التصويت على مشروع البرنامج نقطة بنقطة، كان رده هو مغادرة الاجتماع. وفي وقت لاحق كتب لينين مسودة بديلة نوقشت في جو متوتر جدا. كانت هناك مشاهد من الغضب والتهديدات والإنذارات. ويقدم لنا وصف كروبسكايا لذلك الاجتماع صورة حية عن الحياة الداخلية للجنة تحرير إيسكرا في تلك الفترة: «كان يتم إعداد برنامج الحزب للمؤتمر. ولمناقشته جاء إلى ميونيخ كل من بليخانوف وأكسلرود. هاجم بليخانوف بعض مقاطع البرنامج التي وضعها لينين. لم تكن فيرا إيفانوفنا متفقة على جميع النقاط مع إيليش، لكنها لم تتفق تماما مع بليخانوف كذلك. كما اتفق أكسلرود مع لينين حول بعض النقاط. كان الاجتماع شاقا جدا. أرادت فيرا إيفانوفنا الاعتراض على بليخانوف، لكنه اعتمد موقفا متصلبا، وعقد يديه فوق صدره ونظر إليها نظرة جعلت أعصابها تهتز تماما. وعندما حان وقت التصويت، قال أكسلرود، الذي كان قد اتفق مع لينين بشأن هذه المسألة، إنه يعاني من صداع في الرأس وأنه يريد الذهاب في جولة على الأقدام. غضب فلاديمير إيليتش غضبا شديدا وقال: "لا يمكننا العمل بهذه الطريقة، هل يمكن وصف مثل هذا النقاش بأنه نقاش عملي؟"<sup>2</sup>.

كان الخلاف المبدئي حول موقف بليخانوف بأن الرأسمالية الروسية كانت قد بدأت "تصير نمط الإنتاج المهيمن". يبدو هذا للوهلة الأولى مجرد تصريح بسيط، لكنه في مشروع لينين كان يعني التأكيد على نضج الظروف الموضوعية في روسيا لقيام البروليتاريا بالدور القيادي، وأضاف لينين: «إذا لم تكن الرأسمالية قد صارت بعد الشكل المهيمن، ألا ينبغي لنا أن نؤجل، ربما، الحركة الاشتراكية الديمقراطية؟».

1: Ibid., p. 63 footnote and p. 88.

2: N.K. Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p. 67.

إصرار لينين على هذه النقطة، وإحجام بليخانوف عن قبول ذلك، يوضح التكوين النفسي والسياسي المختلف تماما للرجلين: فلينين الواقعي الثوري، الذي لا يتحمل الصيغ المجردة، كان دائما على استعداد لاستخلاص استنتاجات عملية جريئة والبحث عن التطبيق الملموس والثوري للنظرية؛ بينما بليخانوف لم تكن مواهبه النظرية العظيمة مصحوبة بغريزة ثورية وكان مفصلا عن متطلبات الحركة الواقعية. كانت صيغ بليخانوف النظرية العامة، باعتبارها إعلانا عاما للمبادئ، قد لعبت دورا تقديما في النضال ضد الناردونية، لكنها لم تعد صالحة في المرحلة الجديدة للصراع الطبقي في روسيا. لقد اشتكى لينين من أن مسودة بليخانوف ليست مرشدا للعمل الثوري، بل كتابا مدرسيا لطلاب «العام الأول الذين يتحدث لهم عن الرأسمالية بشكل عام، وليس عن الرأسمالية الروسية»<sup>1</sup>.

ومع ذلك فإن جوهر الخلاف لم يركز كثيرا على القضايا الأساسية، كما ركز على تحديد طريقة جديدة للعمل وعلى مفهوم مختلف لدور البرنامج. كانت هناك أفكار مجردة في مشروع بليخانوف، اعتبرها لينين أكاديمية جدا وغير ملموسة بشكل كاف. كان [بليخانوف] صوت داعية منفي وليس صرخة موحدة لحزب جماهيري ثوري جديد. أما بالنسبة إلى بليخانوف فلا شك في أنه كان هناك بعض الحقد الشخصي في هجماته ضد لينين، والتي تضمنت عبارات توجه عادة، كما اشتكى مارتوف، للأعداء السياسيين. وقد عمل بليخانوف على ملء مشروع لينين بالخطوط المزدوجة والملاحظات والتعليقات الساخرة حول الأسلوب، وما إلى ذلك.

وصلت العلاقات بين لينين وبليخانوف إلى نقطة القطيعة. لينين الذي، باسم الحفاظ على الوحدة، تحمل بصبر جميع الإهانات من جانب بليخانوف، وصل صبره إلى نهايته، وقال بمرارة: «بالطبع، أنا لست سوى حصان، لست سوى أحد أحصنة الحوذى بليخانوف، لكن الحقيقة هي أنه حتى أكثر الأحصنة صبرا سينهار بسبب فارس متطلب جدا»<sup>2</sup>. عند نقطة معينة أخذ لينين يفكر في إخراج كل شيء إلى العلن، وتوضيح خلافاته مع بليخانوف أمام قواعد الحزب، لكنه في النهاية ضبط نفسه، إذ خشي من الضرر الذي قد يسببه هذا الانقسام عشية المؤتمر. ومع ذلك فإن التجربة المريرة لهذه المعارك التي لا نهاية لها اقنعتة تدريجيا باستحالة الاستمرار على الأسس القديمة. في أواخر مارس، كتب إلى أكسلرود قائلا: «ما يخيفني كثيرا هو أنه في ظل عدم وجود تغيير في تركيبة الناخبين، وفي حالة عدم وجود اتفاق حول كيفية التصويت ومن سيصوت، وما المعنى الذي ينبغي أن يعطى لعملية التصويت، فإن مؤتمر زيوريخ لن يحل، مرة أخرى، أي شيء»<sup>3</sup>.

أدى تراكم أعباء العمل المفرط والمشاكل المتعلقة بالصعوبات المستمرة في التواصل مع روسيا وضغط الصراع داخل لجنة التحرير، إلى تقويض صحة لينين، فأصيب بمرض يطلق عليه اسم **نار سان أنتوني**، والذي تظهر على شكل التهاب في النهايات العصبية للظهر والصدر. لم يكن لينين وكروبسكايا يمتلكان المال للذهاب إلى طبيب إنجليزي فاضطر إلى الخضوع لعلاج منزلي مؤلم. ولدى وصوله إلى جنيف انهارت صحته تماما، وكان عليه أن يقضي أسبوعين في السرير عشية انعقاد المؤتمر. وحده ضغط أكسلرود وزاسوليتش من أجبر بليخانوف على التراجع والاعتذار. وفي النهاية تم التوصل إلى حل توفيق، لكن الحادثة أدت إلى تسريع تدهور الحالة المأساوية للجنة التحرير. كان مارتوف وزاسوليتش هما من يقومان عادة بالتوفيق بين لينين وبليخانوف. كان مارتوف، وهو شخص يتمتع بموهبة كبيرة، قد جاء من داخل روسيا، مثله مثل لينين، لكن مزاجه ومط حياته جعلاه يقترب من زاسوليتش والآخرين.

اشترك كل من زاسوليتش ومارتوف وأليكسييف في حياة بوهيمية في منزل كان بليخانوف يطلق عليه بسخرية اسم «العرين». وقد قدمت لنا كروبسكايا وغيرها صورة حية عن فيرا زاسوليتش التي كانت تقفل غرفتها على نفسها، وهي تقرأ مقالة وتدخن سيجارة تلو الأخرى، وتعيش على أكواب لا نهاية لها من القهوة السوداء القوية، وكتب لوناتشارسكي:

«أعتبر مارتوف أحد البوهيميين الساحرين، كان يشبه الطلاب في مظهره، كان يتردد باستمرار على المقاهي، غير مبال بالراحة، يناقش على الدوام وكان غريب الأطوار بعض الشيء»<sup>4</sup>. كان لدى لينين دائما احترام كبير للمواهب الفكرية التي كان يتميز بها مارتوف. يمثل مارتوف، في الواقع، أحد أكثر الشخصيات تراجيدية في تاريخ الحركة الثورية الروسية. لقد كان، كما كتب تروتسكي: «كاتباً موهوبا وسياسيا محنكا وذا فكر نفاذ ومتفوقا في مدرسة الماركسية، لكنه دخل تاريخ الثورة البروليتارية بسمعة سيئة جدا. كان فكره يفتقد للشجاعة، وكان ذكاه يفتقر إلى الإرادة. ولم تكن مثابرتة كافية، بل إنه دمرها. (...) كان مارتوف يمتلك بدون شك

1: Leninskiy Sbornik, vol. 2, p: 65 - 84.

2: Leninskiy Sbornik, vol. 3, p: 395.

3: Pis'ma PB Aksel'roda i YO Martova, p: 60.

4: A.V. Lunacharsky, Revolutionary Silhouettes, pp: 132-133.

الغريزة الثورية، كان أول رد فعل يقوم به تجاه الأحداث الكبرى يكشف دائما وجود طموح ثوري عنده، لكنه بعد بذل مثل ذلك الجهد يتعرض فكره، الذي لا يجد المساندة من طرف الإرادة، إلى التفكك والغرق، كما ظهر عندما اندلعت الشرارة الأولى للثورة»<sup>1</sup>.

أدى شعور الأعضاء الأكبر سنا بأنهم يتخلفون عن الواقع إلى خلق استياء ضد لينين كانوا بالكاد يستطيعون إخفاءه. وعلى سبيل المثال، أعرب أكسلرود عن أسفه من أن إيسكرا كان مقرها لندن بدلا من سويسرا. وقد كان عمل لجنة التحرير يتعرض للعرقلة لأن الأعضاء الستة كانوا ينقسمون في كثير من الأحيان إلى مجموعتين متساويتين. كان لينين يبحث بفارغ الصبر عن رفيق شاب من روسيا مؤهل لدمجه في لجنة التحرير وبالتالي كسر حالة الجمود التي تعيشها. فاستغل لينين بسرعة فرصة مجيء تروتسكي، الذي كان قد هرب للتو من سيبيريا، لهذا الغرض.

تروتسكي، الذي كان في ذلك الوقت يبلغ من العمر 22 عاما، كان قد فرض بالفعل اسمه ككاتب ماركسي؛ وكان يوقع باسم *Pero* (الريشة). في الطبقات الأولى من مذكراتها عن لينين، قدمت كروبسكايا وصفا صادقا لموقف لينين المتحمس تجاه تروتسكي، «النسر الشاب». وبما أن تلك السطور قد اختفت من جميع الطبقات اللاحقة، فإننا سنعمل هنا على اقتباسها بالكامل:

«التوصيات الودية لصالح "النسر الشاب" وتلك المحادثة الأولى جعلت فلاديمير إيليتش يولي اهتماما خاصا بالوافد الجديد. تحدث معه طويلا وبشكل عميق وذهبا معا في نزهة على الأقدام.

سأله فلاديمير إيليتش عن زيارته لصحيفة يوجيني رابوتشي [العامل الجنوبي، التي اتخذت موقفا مترددا بين إيسكرا وخصومها]. وأعرب عن سروره البالغ للطريقة الدقيقة التي صاغ بها تروتسكي موقفه. لقد أحب قدرة تروتسكي على أن يفهم بسرعة جوهر الخلافات وأن يدرك، خلف البيانات حسنة النية، وجود رغبات في الحفاظ على استقلالية المجموعات الصغيرة تحت ستار الدفاع عن الصحيفة الشعبية.

وفي ذلك الوقت نفسه، جاءت دعوة من روسيا تطالب بإلحاح شديد إعادة إرسال تروتسكي. بينما أراد فلاديمير إيليتش منه البقاء في الخارج للمساعدة في عمل إيسكرا.

نظر بليخانوف على الفور إلى تروتسكي بريية: رأى فيه نصيرا للفئة الشابة داخل لجنة تحرير إيسكرا (لينين ومارتوف وبوتريسوف) وتلميذا للينين. وعندما أرسل فلاديمير إيليتش إلى بليخانوف مقالا لتروتسكي، أجاب: «أنا لا أحب أسلوب ريشتك»، فرد عليه فلاديمير إيليتش: «إن الأسلوب هو مجرد مسألة تكتسب، لكن الرجل قادر على التعلم وسيكون مفيدا جدا»<sup>2</sup>.

وفي مارس 1903، طلب لينين رسميا إدراج تروتسكي بوصفه العضو السابع في لجنة التحرير. وفي رسالة موجهة إلى بليخانوف، كتب: «أقدم إلى جميع أعضاء لجنة التحرير اقتراحا بإدماج الريشة عضوا كامل العضوية في اللجنة. (لأنني أفهم أنه من أجل إدماج عضو لا يكفي الحصول على أغلبية، بل هناك حاجة إلى قرار بالإجماع).

لدينا حاجة كبيرة إلى عضو سابع لأنه سيبسط عملية التصويت (ستة عدد زوجي) وأيضا لأنه سيعزز صفوف اللجنة. لقد واضب الريشة على الكتابة في جميع الأعداد طيلة عدة أشهر. وهو، بصفة عامة، يعمل من أجل إيسكرا بنشاط شديد، ويلقي الخطب (وبنجاح هائل)، وما إلى ذلك، بالنسبة لقسم مقالاتنا ذات الراهنية وأشياء أخرى سيكون ليس فقط مفيدا جدا، بل إنه أيضا لا غنى عنه على الإطلاق. إنه بدون شك رجل ذو قدرة أعلى من المتوسط، مقتنع وحيوي وواعد. ويمكنه أن يسهم بشكل كبير في مجال الترجمة والأدبيات الشعبية. يجب علينا استقطاب القوى الشابة؛ وهذا من شأنه تحفيزهم وتشجيعهم على اعتبار أنفسهم كتابا محترفين. كون أن لدينا عدد قليل من هذه الشريحة واضح كما يظهر من خلال: (1) صعوبة العثور على محررين للترجمات و(2) ندرة المقالات التي تحلل الوضع الداخلي و(3) ندرة الأدب الشعبي. والأدب الشعبي هو المجال الذي يرغب الريشة أن يشتغل فيه.

الحجج المحتملة ضد المقترح: (1) صغر سنه (2) احتمال عودته قريبا (ربما) إلى روسيا (3) في أسلوب الريشة (بدون مزدوجتين) آثار لأسلوب صحافة الإثارة وقدر كبير من التباهي، الخ.

إضافة (1) اقتراح الريشة ليس لموقع مستقل، بل للعمل داخل اللجنة. وداخلها سوف يكتسب الخبرة. إنه يمتلك بدون شك "حدس" رجل الحزب، رجل ينتمي لتيارنا؛ أما فيما يتعلق بالمعرفة والخبرة، فإنه يمكن اكتسابهما. كما أنه لا شك في كونه يعمل

1: L. Trotsky, Political Profiles, pp. 97-98.

2: N.K. Krupskaya, O Vladimiriye Ilyiche, vol. 1, pp. 85-86.

بجد. من الضروري اختياره من أجل إشراكه وتشجيعه...»<sup>1</sup>.

بيد أن بليخانوف، الذي تكهن بأن تروتسكي سيدعم لينين، مما سيضعه في موقع الأقلية، رفض بشدة ذلك الاقتراح. وتضيف كروبسكايا قائلة: «بعد ذلك بوقت قصير، ذهب تروتسكي إلى باريس، حيث بدأ يحقق نجاحا كبيرا»<sup>2</sup>.

تعتبر هذه الشهادة، التي كتبها رفيقة عمر لينين، أكثر إثارة للاهتمام لكونها كتبت في عام 1930، عندما كان تروتسكي قد طرد من الحزب ويعيش في المنفى في تركيا وتحت حظر شامل داخل الاتحاد السوفياتي. لم تنج كروبسكايا من غضب ستالين إلا لكونها كانت أرملة لينين. وفي وقت لاحق اضطرت تحت ضغوط لا تطاق لأن تحني رأسها وتقبل بشكل سلبي تشويه الحقائق التاريخية، رغم أنها في النهاية رفضت بحزم الانضمام إلى جوقه تمجيد ستالين، الذي كان له موقع ثانوي في صفحات سيرتها عن لينين، وهو ما كان في الحقيقة يعكس موقعه الحقيقي.

كانت تجربة السنوات الثلاث الماضية قد أظهرت ضرورة وضع الحزب على أسس جديدة. كان من الضروري إحداث قطعة حاسمة مع الماضي وإنهاء عقلية الحلقات الصغرى وأساليب الهواة والضعف التنظيمي وإرساء الأسس لحزب عمالي جماهيري قوي وموحد. وبالنظر إلى الأضرار التي تسببت فيها النزعة المحلية والحاجة إلى التكيف مع ظروف السرية الصعبة، ركز لينين كثيرا على الحاجة إلى المركزية.

كان على المؤتمر المقبل أن يختار قيادة في ظل وضع كان فيه أهم القادة السياسيين موجودين في المنفى. بالطبع كان من الضروري أن تكون لمنظمات الحزب داخل روسيا تمثيلية في الهيئات القيادية، لكن لينين عارض فكرة أن تتخلى لجنة تحرير إيسكرا -التي كانت مسؤولة كليا عن إعادة بناء الحزب- عن القيادة.

تروتسكي، الذي كان، كما رأينا، قد فر للتو من سيبيريا، فوجئ بصيغة لينين: «لقد جئت إلى الخارج ولدي اقتناع بأن لجنة التحرير يجب أن تكون "خاضعة" للجنة المركزية. وهذه، في روسيا، فكرة غالبية أنصار إيسكرا. "كلا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك"، رد لينين عندما تحدثنا عن هذا. "إن القوى غير متكافئة، كيف يريدون توجيهنا من روسيا؟ لا يمكن أن يكون ذلك... نحن نشكل مركزا ثابتا، نحن الأقوى إيديولوجيا وسنوجه الحركة من هنا"»<sup>3</sup>.

لا أحد كان ليتوقع أن تيار إيسكرا سينشق خلال المؤتمر القادم (الثاني) حول مسألة الهيئات القيادية.

## المؤتمر الثاني

شهد شتاء 1902-1903 "صراعا حادا بين التيارات"<sup>4</sup>، لكن التفوق السياسي والتنظيمي لإيسكرا بدأ تدريجيا يحسم الميدان. بدأت اللجان تعلن، الواحدة بعد الأخرى، انضمامها للمؤتمر. فقط عدد قليل من اللجان من أعربت عن وجود تحفظات. انتقدت يوجني رابوتشي إيسكرا بسبب معاملتها القاسية لليبراليين. وبيأس حاول أتباع رابوتشييه ديلو زرع الانشقاق داخل عدد من اللجان المحلية، عن طريق تحريض العمال ضد "المتقنين". للأسف لعبت الأخطاء والحقاقات التي ارتكبتها أنصار إيسكرا لصالح المعارضة في بعض المناطق. ففي سان بيترسبورغ مكنوا أنصار رابوتشي ديلو من إلغاء قرار دعم المؤتمر. لكن هذا، رغم كل شيء، لم يكن سوى زوبعة في فئجان. وفي الوقت الذي انعقد خلاله المؤتمر، لم تقرر سوى لجنة واحدة فقط (لجنة فورونيز) أن تنأى بنفسها عنه.

انعقد المؤتمر أخيرا، يوم 17 يوليو 1903، في بروكسل، حيث عقد دوراته 13 الأولى. لكن المضايقات البوليسية أجبرت المؤتمر على الانتقال إلى لندن حيث أعاد عقد أشغاله تحت ستار ناد للصيادين، وعمل على تغيير مكان اللقاء بشكل دوري لتجنب الانكشاف. في المؤتمر الأول مثلت المنظمات داخل روسيا من طرف خمس لجان محلية فقط، أما المؤتمر الحالي فكان بإمكانه أن يفتخر بأنه يمثل عدة آلاف من الأعضاء، الذين لديهم تأثير على مئات الآلاف من العمال. وكانت غالبية المندوبين من الشباب، ومعظمهم تحت سن الثلاثين سنة. لينين، الذي كان يبلغ آنذاك 33 سنة، كان يعتبر من المخضرمين. كانت سرعة وتيرة الأحداث الثورية في روسيا مدرسة لتطويع الكوادر الماركسية الشابة. وحدهم الأعضاء السابقون في منظمة بليخانوف، تحرير العمل، هم من وقفوا

1: LCW, To G.V. Plekhanov, 2 March, 1903, vol. 43, pp. 110-111. (التشديد من آلان وودز).

2: Krupskaya, O Vladimirye Ilyiche, 1924 edition, vol. 1, p: 86.

3: Trotsky, My Life, p: 157.

4: N.K. Krupskaya, O Vladimirye, 1924 edition, vol. 1, p. 81.

ممثلين للجيل الثوري الأكبر سناً، الذي ينتمي إلى عصر مختلف، بل تقريبا إلى عالم مختلف.

كان شرط قبول انتداب المجموعات للمؤتمر هو أن تكون قد وجدت طيلة ما لا يقل عن 12 شهرا كمنظمة نشطة. لم توجه الدعوة إلى العديد من اللجان المحلية (فورونيز وسمارة وبولتافا وكيشينيف) لأنها لم تستوف هذا الشرط. كان هناك 43 مندوبا مع 51 صوتا. ويرجع ذلك جزئيا إلى أنه في العديد من المناطق كانت هناك أكثر من لجنة محلية واحدة، وأعطى لكل وفد صوتان، سواء كان هناك مندوب واحد حاضر أو أكثر. وأعطيت للجنة المركزية للبولند ثلاثة أصوات (واحد لمنظمة البولند في الخارج)، وأعطى لمنظمتي بيتسبورغ، صوت واحد لكل منهما. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك 14 شخصا حضرا مع صوت استشاري، من بينهم اثنان من ممثلي الحركة الاشتراكية الديمقراطية البولندية والليتوانية والذين وصلا خلال الدورة العاشرة.

تم تخصيص قدر كبير من الوقت لنقاش مسألة مكان البولند داخل الحزب. وكانت لذلك النقاش أهمية بالغة في توضيح الموقف الماركسي تجاه المسألة القومية. ترجع الأهمية التاريخية لذلك إلى حقيقة أنه من دون موقف واضح من المسألة القومية، لم يكن من الممكن أبدا للثورة الروسية أن تنجح. يعطي تروتسكي في كتابه "تاريخ الثورة الروسية"، تعريفا موجزا لموقف البلاشفة من المسألة القومية: «لقد فهم لينين في وقت مبكر حتمية تطور الحركات القومية في روسيا، وخاض طيلة سنوات عديدة نضالا عنيدا -لا سيما ضد روزا لوكسمبورغ- من أجل تلك الفقرة الأكثر شهرة في برنامج الحزب القديم حول حق تقرير المصير، أي في الانفصال التام كدول. لم يكن الحزب البلشفي بهذا يدافع عن الانفصال، لقد تبنى فقط الالتزام بالنضال الحازم ضد كل شكل من أشكال الاضطهاد القومي، بما في ذلك الاحتفاظ بالقوة بهذه القومية أو تلك داخل حدود الدولة. فقط بهذه الطريقة يمكن للبروليتاريا الروسية أن تفوز تدريجيا بثقة القوميات المضطهدة.

لكن هذا كان جانبا واحدا فقط من المسألة، لقد كان للسياسة البلشفية في مجال المسألة القومية جانب آخر أيضا، يبدو مناقضا للأول، لكنه في واقع الأمر مكمل له. ففي إطار الحزب، والمنظمات العمالية بشكل عام، أصرت البلشفية على المركزية الصارمة، ووقفت بحزم ضد النزعات القومية التي قد تدفع بالعمال ضد بعضهم البعض أو تشق وحدتهم. وبينما ترفض البلشفية رفضا قاطعا قيام الدولة البرجوازية بفرض الجنسية الإلزامية، أو حتى لغة الدولة، على أقلية قومية، فإنها، في الوقت نفسه، جعلت مهمتها الأهم هي تحقيق أكبر قدر ممكن من الوحدة بين عمال مختلف القوميات عن طريق الانضباط الطبقي الطوعي. وبالتالي فإنها ترفض رفضا قاطعا مبدأ الفدرالية القومية في بناء الحزب. المنظمة الثورية ليست صورة طبق الأصل للشكل الذي ستكون عليه الدولة في المستقبل، بل هي وسيلة بنائها. يجب أن تتكيف الوسيلة مع شكل المنتج، لكنها لا يجب أن تشبهه بشكل تام. وهكذا فإنه يمكن لمنظمة ممرضة ضمان نجاح النضال الثوري، رغم أن المهمة هي تدمير القهر الممركز للقوميات»<sup>1</sup>.

لعب البولند دورا مهما في الأيام الأولى للحركة، مما أعطاه مكانة كبيرة ومكنه من ممارسة تأثير حاسم على المؤتمر الأول، حيث دخل إلى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي باعتباره منظمة مستقلة ذاتيا. أدى ضعف الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية إلى أن يحافظ البولند، عمليا، على وجود مستقل حتى المؤتمر الثاني، وطور نزعات قومية قوية. وفي المؤتمر الثاني تحدث البولنديون، في الواقع، كحزب مستقل، غير مستعد للدخول إلى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي إلا على أساس فدرالي فضفاض، الشيء الذي كان يعني إضفاء الشرعية على وجود منظمات مستقلة للعمال اليهود. وقد برر لير، المتحدث باسم البولند، ذلك على أساس الوضع الخاص للعمال اليهود، الذين يعانون ليس فقط من الاضطهاد الطبقي بل أيضا من الاضطهاد العنصري، وهو الاضطهاد الذي ليس للعمال الروس نفس الدرجة من الاهتمام بمكافحته. وفي رده على لير، قال مارتوف: «الفكرة الكامنة وراء هذا المشروع هي افتراض أن البروليتاريا اليهودية تحتاج إلى منظمة سياسية مستقلة لتمثيل مصالحها القومية داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي في روسيا. وبصرف النظر عن مسألة تنظيم الحزب على أساس فدرالي أو على أساس استقلال ذاتي، فإنه لا يمكننا أن نسمح بأن يكون لأي فريق داخل الحزب الحق في تمثيل مجموعة أو نقابة أو مصالح قومية لأي من أقسام البروليتاريا. تلعب الاختلافات القومية دورا ثانويا بالنسبة للمصالح الطبقيّة المشتركة. أي نوع من التنظيم سيكون لدينا إذا ما حدث، على سبيل المثال، أن قرر عمال من قوميات مختلفة، في ورشة عمل معينة، أن يضعوا مصالحهم القومية فوق أي اعتبار آخر؟»<sup>2</sup>.

بطبيعة الحال، يمكن لأسباب عملية بحتة، أن تعطى درجة معينة من الاستقلال الذاتي لمجموعات قومية ما داخل الحزب. لكن هذه العملية، تكون ذات طابع تقني بحت، تنشأ من الحاجة، على سبيل المثال، لنشر الأدبيات باللغات المختلفة للجماعات المعنية. لم يكن هناك أي اعتراض على أن يتمتع البولند بالاستقلالية اللازمة لإنتاج أدبيات الحزب باللغة اليديشية أو القيام بالتحريض

1: Trotsky, The History of the Russian Revolution, pp: 890-891.

2: 1903, Minutes of the Second Congress of the RSDLP, p: 81.

بأدبيات خاصة بين العمال اليهود والحرفيين، الخ. لكن ما كان البوند يطلبه هو الحق الحصري في التحدث باسم البروليتاريا اليهودية، وأن يكون له، في الواقع، الحق في احتكار الشؤون اليهودية داخل الحزب. وعندما تم رفض مطالب البوند بشكل حاسم، غادر مندوبوه المؤتمر. وسرعان ما تبعهم في ذلك ممثلا الجناح اليميني الأخران، الاقتصادويان مارتينوف وأكيموف، اللذين كانا حاضرين كممثلين عن اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين الروس المهاجرين في الخارج، واللذين انسحبا عندما اعترف المؤتمر برابطة الاشتراكيين الديمقراطيين الثوريين، المنافسة، باعتبارها الممثل الوحيد للحزب في الخارج. وقد أدى هذا الانسحاب إلى تغيير حاسم في ميزان القوى داخل المؤتمر.

أضيفت لأحداث هذا المؤتمر، على مر السنين، كومة كبيرة من الخرافات والافتراءات والأكاذيب. فخلاله، كما يزعم، ظهرت البلشفية مكتملة ومسلحة بالكامل، مثلما خرجت أثينا من رأس زيوس. لكن التحليل الدقيق يكشف أن الانقسام بين "البلشفية" ("الأغلبية") و"المناشفة" ("الأقلية")، أو بشكل أكثر دقة بين "المتصلبين" وبين "الناعمين"، في عام 1903، لم يكن بأي حال من الأحوال انقساما نهائيا، بل فقط استباقا للخلافات التي ستحدث في المستقبل.

كانت لمجموعة إيسكرا، من الناحية العددية، أغلبية واضحة بـ 33 صوتا. بينما كان للمعارضين الصريحين لإيسكرا ثمانية أصوات، ثلاثة اقتصادويين وخمسة بونديين. بينما كانت الأصوات المتبقية لعناصر مترددة غير حاسمة لموقف معين، وهم الذين أطلق عليهم لينين فيما بعد اسم "الوسط" أو "المستنقع".

في البداية، كان كل شيء يبدو أنه يسير بسلاسة لصالح إيسكرا. كان هناك إجماع كامل في معسكرها بشأن جميع المسائل السياسية. ثم فجأة بدأ كل شيء يتغير. فخلال الدورة الـ 22، وبينما كانت أشغال المؤتمر متواصلة طيلة أسبوعين، بدأت تظهر الخلافات بين لينين ومارتوف. كان تبلور اتجاهين داخل معسكر إيسكرا مسألة غير متوقعة تماما. كانت هناك توترات بطبيعة الحال، لكن لم يكن هناك شيء من شأنه أن يبرر حدوث انشقاق. فحول عدد من المسائل الثانوية (دور اللجنة المنظمة، ومجموعة بوربا ويوجني رابوتشي)<sup>1</sup>. صار من الواضح أن بعض أنصار إيسكرا صوتوا مع اليمين و"المستنقع". لكن هذه الأمور بدت وكأنها مجرد حوادث عرضية. أما في كل المسائل المهمة، فقد استمر معسكر إيسكرا موحدا. لكن وفجأة تحطمت الوحدة بسبب صدام مفتوح بين لينين ومارتوف حول مسألة تنظيمية.

كانت الفقرة الأولى من قانون الحزب تتعلق بمسألة: "من هو العضو؟". مشروع لينين كان ما يلي: «عضو حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي هو الذي يقبل برنامجه ويدعم الحزب سواء ماليا أو بالمشاركة الشخصية في واحدة من منظمات الحزب». وقد عارض مارتوف هذا الشرط وطرح بديلا عنه الصيغة التالية: «يعتبر عضوا في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي كل من يعترف برنامجه ويؤيده ماديا، ويقدم له بانتظام مساعدة شخصية تحت قيادة إحدى منظماته». في الظاهر يبدو أنه ليس هناك سوى فارق طفيف بين الصيغتين. لكن لم يظهر المغزى الحقيقي من الفرق بينهما بشكل واضح إلا في وقت لاحق. أشار تروتسكي إلى ذلك قائلا: «لم تكن الخلافات قد اتضحت بعد، كان الجميع يتلمسون طريقهم فقط ويتعاملون مع أشياء غير ملموسة»<sup>2</sup>. لكن وراء اقتراح مارتوف كان هناك نوع من "الليونة"، وموقف تصالحي وصل إلى حد إزالة الفرق بين الأعضاء وبين المتعاطفين، بين المناضلين الثوريين وبين المتعاونين العرضيين. في اللحظة التي كان يجب أن تتركز خلالها كل طاقات إيسكرا على مكافحة النزعة الفوضوية المائعة القديمة وعقلية الحلقات الصغرى، كان موقف مارتوف يمثل خطوة كبيرة إلى الوراء. لا عجب أن أدى إلى اندلاع صراع حاد داخل معسكر إيسكرا، داخل وخارج أروقة المؤتمر. في الأشهر والسنوات التي تلت المؤتمر، تم اختلاق أساطير حول هذا الحادث، تزعم بعضها أن لينين دافع عن المركزية الديكتاتورية وعن إنشاء حزب تأمري صغير، في حين كان هدف مارتوف بناء حزب ديمقراطي واسع، من شأنه أن يسمح للعمال بالمشاركة فيه. لكن كلتا الفكرتان خاطئتان تماما.

في البداية لا بد أن نوضح أن جميع أنصار إيسكرا كانوا متفقين على ضرورة وجود حزب قوي مركز. وقد كان هذا واحدا من الأسباب الرئيسية للنضال ضد نزعة البوند الفيدرالية القومية، والذي لعب فيه مارتوف وتروتسكي الدور الرئيسي. ومباشرة قبل مناقشة البند الأول، نجد في المحضر أن مارتوف يقول: «أود أن أذكر الرفيق لير أن المبدأ التنظيمي لدينا ليس استقلالا ذاتيا واسعا بل مركزية صارمة»، وبالمنااسبة كان البوند نفسه منظمة ممرزة إلى حد كبير. إن معارضته المزعومة للمركزية لا تطبق إلا في وجه الحزب ككل، وكانت تعكس فقط دفاعه غير النزيه عن المصالح الفتوية الخاصة به. أما بالنسبة للحجة الديماغوجية القائلة بأن المقصود بصيغة مارتوف كان هو "فتح الحزب للعمال"، فإنها هي أيضا تحريف للحقيقة. في بداية النقاش فضح أكسلرود المسألة

1: للمزيد من الشروحات المفصلة، انظر كتاب لينين: خطوة إلى الأمام خطوتان إلى الوراء.

2: Trotsky, My Life, p: 160.

من خلال المثال التالي، الذي كشف عن حقيقة ما كان وراء الاقتراح: «وبالفعل، دعونا نأخذ، على سبيل المثال، أستاذاً يعتبر نفسه اشتراكياً ديمقراطياً ويعلن نفسه على هذا النحو. إذا ما اعتمدنا صيغة لينين سزيمي في البحر بجزء من أولئك الذين، حتى ولو لم يكن من الممكن قبولهم مباشرة في منظمة ما، فإنهم على الرغم من ذلك أعضاء... يجب علينا أن نحرص على ألا نترك خارج صفوف الحزب هؤلاء الأشخاص الذين يربطون أنفسهم بوعي بالحزب، على الرغم من أنهم ربما ليسوا نشيطين بشكل كبير»<sup>1</sup>.

لا توجد الطبقة العاملة ومنظماتها في الفراغ، بل هي محاطة بطبقات وفئات اجتماعية أخرى. وضغط الطبقات الأخرى والرأي العام البرجوازي، وخصوصاً الضغوط من الفئات الوسطى والطبقة المتوسطة، والمثقفين الذين يحيطون بمنظمات العمال، ضغط موجود دائماً. إن مطالب هذه الفئات بأنه يجب على العمال أن يكتفوا برنامجهم وأساليبهم وهياكلهم التنظيمية لتناسب مع أحكامها المسبقة ومصالح البرجوازية الصغيرة، تمثل ضغطاً مستمراً. لقد تركت الفترة الطويلة من القرب والتعايش مع أبناء الطبقة الوسطى الجذريين، في شخص الماركسيين الشرعيين، بصماتها على وعي الأعضاء كبار السن داخل فرقة تحرير العمل. كانوا يتحركون بين شرائح اجتماعية معزولة عن الطبقة العاملة، وشكلوا صداقات شخصية مع أساتذة الجامعات والمحامين والأطباء الجذريين شبه الماركسيين الذين كانوا يساعدهم بالهبات المالية وكلمات التشجيع، لكنهم لم يكونوا مستعدين لتلويث أيديهم بالعمل الثوري العملي. «أنا أؤيد أهدافك، لكن أن أعلن أي اشتراكي فتلك مسألة غير ملائمة ومحفوفة بالمخاطر. فكر في وظيفتي وموقعي ومستقبلي المهني»، وما إلى ذلك. وبشكل غير واع، أو ربما بشكل شبه واع، كان أكسلرود وزاسوليتش ومارتوف يتصرفون بكونهم المتحدثين باسم هذه الفئة الاجتماعية، وأداة لنقل ضغوط الطبقات الأخرى إلى داخل صفوف حزب العمال.

وجد بليخانوف نفسه في موقف صعب بسبب هذا الانقسام، حيث أن أصدقاءه وزملاءه مدى الحياة وقفوا ضده. وللمرة الأولى في حياتها، وقفت زاسوليتش علناً ضد مرشدها. لا بد أن ذلك كان صدمة له، لكن ما يحسب له هو أنه قاوم الضغط في المؤتمر. كانت كل غريزته الثورية تقول له إن لينين كان على حق. وفي سياق النقاش هدم بلا رحمة حجج أكسلرود ومارتوف، حيث قال: «وفقاً لمشروع لينين، فقط شخص ينضم إلى منظمة معينة من منظمات الحزب يمكن اعتباره عضواً في الحزب. يقول أولئك الذين يعارضون مشروعهم إن هذا سوف يسبب صعوبات لا لزوم لها. لكن ما هي هذه الصعوبات؟ إنهم يتحدثون عن أشخاص لا يرغبون في الانضمام، أو لا يستطيعون الانضمام، إلى واحدة من منظماتنا. لكن لماذا لا يمكنهم ذلك؟ باعتباري شخصاً شارك هو أيضاً في المنظمات الثورية الروسية، أقول إنني لا أعترف بوجود ظروف موضوعية قاهرة تمنع أي شخص من الانضمام. أما بالنسبة لهؤلاء السادة الذين لا يريدون الانضمام، فنحن لا حاجة لنا بهم».

لقد قيل هنا إن بعض الأساتذة الذين يتعاطفون مع أفكارنا قد يجدون أنه من المهين لهم الانضمام إلى منظمة محلية من منظمات الحزب. وفي هذا الصدد أتذكر قول إنجلز بأنه عندما تصير مضطراً لأن تتعامل كثيراً مع الأساتذة، يجب عليك أن تكون مستعداً للأسوء (ضحك).

أعطي مثالا، وهو، في الواقع، مثال سيء للغاية: لو أن أستاذاً ما لعلم المصريات يعتبر أنه، بسبب كونه يحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع الفراعنة ويعرف كل الصلواة التي كان المصريون يقدمونها للثور أبيس، سيكون من الحاط بكرامته الانضمام إلى منظمنا، فإننا لسنا بحاجة لذلك الأستاذ.

إن الحديث عن رقابة الحزب على الأشخاص الذين هم خارج المنظمة يعني اللعب بالكلمات. هذه الرقابة مستحيلة عملياً.

وبعد مناقشات ساخنة، تمت الموافقة على صيغة مارتوف بنسبة 28 صوتاً مقابل 23، لكن ذلك تم فقط بسبب العناصر المترددة في فريق إيسكرا إلى جانب الاقتصاديين والبوند و"الوسط" الممثل بالتيار المتعلق حول جريدة يوجيني رابوتشي. ومع ذلك فإن الانقسام لم يكن قد اكتسب بعد صفة محددة. أظهر لينين، في سياق المناقشة، أنه ما يزال حريصاً على التوصل إلى اتفاق: «أولاً، فيما يتعلق باقتراح أكسلرود اللطيف (أنا لا أتكلم بسخرية) بـ "عقد صفقة"، أود أن أستجيب عن طيب خاطر لهذا النداء لأنني لا أرى مطلقاً أن اختلافنا حيوي إلى درجة أن يكون مسألة حياة أو موت بالنسبة للحزب. سوف لن نموت بالتأكيد بسبب نقطة سيئة في القوانين!»<sup>2</sup>.

من وجهة النظر الماركسية لا يمكن للمسائل التنظيمية أبداً أن تكون حاسمة. لا توجد قوانين ثابتة أبدية تحكم طريقة تنظيم الحزب الثوري. يجب أن تتغير القوانين والهياكل التنظيمية مع الظروف المتغيرة وتماشياً مع تطور الحزب. لينين الذي جادل بحماس

1: (-)التشديد من آلان وودز) 311 - 308، Minutes of the Second Congress of the RSDLP، 1903.

2: (-)التشديد من آلان وودز) 326. and p. 321، Minutes of the Second Congress of the RSDLP، 1903.



من أجل تقييد حق العضوية داخل الحزب في عام 1903، هو نفسه الذي دافع، في ظل ظروف تاريخية مختلفة، في عام 1912، أي عندما كان الحزب يتحول إلى قوة جماهيرية تمثل الأغلبية الساحقة من الطبقة العاملة النشيطة في روسيا، عن أنه ينبغي على الحزب أن يفتح أبوابه لأي عامل يعتبر نفسه بلشفيًا، وهي الصيغة التي تردد، على ما يبدو، عبارة مارتوف الشهيرة بأنه «يجب أن يصير كل مضرب قادرًا على إعلان نفسه عضواً في الحزب». هل هذا يعني أن لينين كان مخطئًا وأن مارتوف كان على حق في عام 1903؟ إن مثل هذا الاستنتاج تعبير عن سوء فهم مطلق للعلاقة الجدلية بين طريقة عمل الحزب الثوري وبين المرحلة المحددة التي يمر من خلالها كل من الحزب وحركة الطبقة العاملة. يجب أن يبنى المنزل على أسس متينة. وفي عام 1903، كان الحزب ما يزال يخطو أول خطوات مترددة تجاه كسب النفوذ بين الجماهير. كان من الضروري التشديد الكبير على المبادئ السياسية والتنظيمية الأساسية، وقبل كل شيء الحاجة إلى كوادرات عمالية تمتلك فهما واضحا للأفكار ولأساليب العمل الماركسية. وكان هذا أكثر ضرورة في ضوء الفترة الفوضوية التي سبقت. كان ترك الأبواب مفتوحة في تلك المرحلة الملموسة سيؤدي إلى نتائج كارثية، على الرغم من أنه في لحظة مختلفة سيكون من الضروري أن تفعل ذلك بالضبط.

### المعنى الحقيقي لانقسام 1903

مهما كانت العواقب المستقبلية لانقسام 1903 كبيرة، فإن الاختلافات التي ظهرت في المؤتمر كانت ما تزال ذات طابع خام غير منظور. إن التأكيد على أن البلشفية والمنشفية قد ظهرا في المؤتمر الثاني باعتبارهما بالفعل تياران سياسيان واضحي المعالم هو قول لا أساس له من الصحة. لقد كان هناك إجماع كامل حول كافة القضايا السياسية داخل تيار إيسكرا. لكن مع ذلك كانت هناك دائما مصالح قوية تدفع لمحاولة تحميل تلك الخلافات أكثر بكثير مما تحمله في الواقع. هذا ليس من قبيل الصدفة، إذ أن كلا من المؤرخين الستالينيين والمؤرخين البرجوازيين لديهم مصلحة قوية في خلط اللينينية بالستالينية، والستالينيون في حاجة لإثبات أن تروتسكي كان منشفيا منذ 1903 فما فوق.

لم يتبلور التيار السياسي المتمثل في المنشفية بشكل واضح إلا خلال مرحلة ما بعد المؤتمر. كانت الحدود ما تزال مشوشة. فليخانوف، الذي صار لاحقا اشتراكيا وطنيا، وقف في البداية مع لينين، بينما تروتسكي، الزعيم المستقبلي لثورة أكتوبر ومؤسس الجيش الأحمر، وجد نفسه مؤقتا في معسكر الأقلية. وخلافا للزعم الستاليني بأن تروتسكي كان منشفيا منذ 1903 فصاعدا، فإن الواقع هو أنه انشق عن جماعة مارتوف في شتبر 1904، وبعد ذلك بقي رسميا خارج كلا التيارين حتى عام 1917. كان تروتسكي، على الصعيد السياسي، يقف دائما أقرب بكثير إلى البلاشفة، لكنه من الناحية التنظيمية كان له وهم بأنه من الممكن توحيد كلا جناحي الحزب. لقد أثبت التاريخ لاحقا أن ذلك مستحيل. لكن تروتسكي لم يكن الوحيد الذي ارتكب ذلك الخطأ، كما سنبين لاحقا.

لكن وعلى الرغم من هذه الحقيقة الواضحة، فإن الستالينيين استمروا طيلة عقود في الاستشهاد برد الفعل المتهور الذي قام به تروتسكي (كان سنه آنذاك 23 عاما) خلال المؤتمر الثاني باعتباره دليلا على منشفيته المزعومة. وهكذا نقرأ تصريحات من قبيل: «تبين خطب المؤتمر التي ألقاها لينين (؟) والبلاشفة الآخرون أنه في ما يخص القضية الأساسية المتعلقة برنامج الحزب (!) وقوانينه، كان تروتسكي في نفس المعسكر مع المناشفة الآخرين وناضلوا بشراسة ضد خط البلاشفة الثوري (!)»<sup>1</sup>.

تعود جذور هذا الافتراء المنحط إلى الحملة ضد التروتسكية التي انطلقت في 1923-1924، عندما كان لينين على فراش الموت، مشلولًا وعاجزًا. زينوفييف، الذي شكل كتلة سرية مع كامينيف وستالين، بهدف تشكيل القيادة التي ستخلف لينين بعد وفاته، وصل إلى درجة كتابة «تاريخ» مزعوم للبلشفية كان الهدف الرئيسي من ورائه تشويه سمعة تروتسكي عن طريق فبركة روايات كاذبة ومغرضة عن تاريخ الحزب. وفيما يتعلق بعام 1903، يشير زينوفييف إلى «الرفيق تروتسكي الذي كان في ذلك الوقت منشفيا»<sup>2</sup>.

ومن جهتهم يحاول المؤرخون البرجوازيون، مثل ليونارد شايبرو، تشويه حجج لينين في الدفاع عن المركزية لتصويره وكأنه ديكتاتور لا يرحم، يضرب بالديمقراطية عرض الحائط. كان انقسام عام 1903، في الواقع، ذا طابع عرضي إلى حد كبير. لا أحد كان يتوقع أن هذا الانقسام قد يحدث. المشاركون أنفسهم أصيبوا بالصدمة والذهول بسبب الانعطاف غير المتوقع للأحداث. وتوضح

1: V. Grigenko and others, The Bolshevik Party's Struggle against Trotskyism (1903-February 1917), p: 30.

2: Zinoviev, History of the Bolshevik Party, p: 85.

حقيقة أن لينين لم يكن يرى في الانقسام قطيعة نهائية في محاولاته المتواصلة لتحقيق الوحدة مع الأقلية خلال الأشهر التي تلت المؤتمر. ذكرت كروبسكايا أنه خلال إحدى المرات عندما أشارت إلى احتمال وجود انقسام دائم، رد لينين: «سيكون هذا ضرباً من الجنون»<sup>1</sup>.

إن ما كان وراء انشقاق 1903 ذلك هو صعوبة تجاوز مرحلة حياة الحلقات الصغرى. كل انتقال من مرحلة لتطور الحزب إلى أخرى يستتبع حتماً بعض الاحتكاك الداخلي. لقد سبق لنا أن أشرنا إلى الضغوط والتوترات التي حدثت، في وقت سابق، خلال الانتقال من مرحلة الدعاية إلى التحريض. والآن تكررت نفس المشاكل، لكن مع نتائج أكثر خطورة بكثير. كان الهدف الرئيسي للتيار الماركسي، الممثل في إيسكرا، هو إخراج الحزب من المرحلة الجينية لحياة الحلقات الصغرى (kustarnichestvo) ووضع الأساس المتين لحزب عمالي ماركسي قوي وموحد في روسيا. لكن مارتوف كان قد بدأ، حتى قبل المؤتمر، في التذبذب والتعبير عن الشكوك حول ما إذا كان من المرغوب فيه أصلاً عقد مؤتمر للحزب، وما إذا لم يكن من الأفضل الاكتفاء بعقد مؤتمر لتيار إيسكرا؟ كان التردد يعكس نزعة المحافظة والروتين والخوف عند المناضلين القدامى من السير في اتجاه جديد.

العادات المتأصلة في جماعة صغيرة من المنفيين تمردت غريزيا ضد التخلي العنيف عن الطرق القديمة. وبينما كان إجراء انتخابات رسمية وانضباط الأقلية لإرادة الأغلبية والعمل المنضبط، أفكاراً مقبولة من الناحية النظرية، فقد اتضح أنه من الصعب تبنيها عملياً. كان أعضاء جماعة بليخانوف القديمة، الذين اعتادوا على حياة مجموعة صغيرة غير رسمية من الأصدقاء، يتمتعون منذ فترة طويلة بسلطة سياسية هائلة باعتبارهم مناضلين قدامى وأعضاء في هيئة تحرير جريدة إيسكرا المرموقة، وهي المكانة التي لم يبق لها ما يبررها من خلال الدور الذي صاروا يلعبونه. أحس أكسلرود وزاسوليتش بالخوف اللاإرادي من فقدان سلطتهما الشخصية، وابتلاع فرديتهما داخل البيئة الجديدة، التي يسيطر عليها الجيل الجديد من الكوادر الشابة القادمة من داخل روسيا. وتظهر تقارير المؤتمر كم كان تافها الدور الذي لعبه القدامى، باستثناء بليخانوف طبعاً. لا بد أنهم شعروا بالضيق التام.

يمكن لعنصر الأنفة الشخصية أن يلعب دوراً مدمراً جداً في كل المنظمات عموماً، وليس فقط في السياسة. يمكن للصراعات الصغيرة من أجل المواقع والخصومات الشخصية والطموحات أن تتسبب في مشاكل في أندية كرة القدم والمعابد البوذية ومجموعات الحياكة، حيث لا توجد مشاكل إيديولوجية أو مبدئية. وبمكثها في بعض الظروف أن تتسبب في الانشقاق والمشاجرات السامة جداً داخل المنظمات الثورية، مما فيها المنظمات اللاسلطوية، التي لا تتبنى، من الناحية النظرية على الأقل، المركزية في التنظيم، على الرغم من أنها في الواقع غالباً ما تهيمن عليها بعض الطغم والأفراد الديكتاتوريين. تصير المشكلة أكثر حدة بوجه خاص في المنظمات الصغيرة المعزولة عن الجماهير، وخاصة تلك التي تسود فيها العناصر البرجوازية الصغيرة. لم يتصور مناضلو مجموعة تحرير العمل القدامى أبداً أن قرارات المؤتمر سوف تبدل وضعهم في الحركة. كانوا يعتقدون أن الأمور سوف تستمر كما كانت من قبل، ولم يكونوا يتصورون إزالتهم من المناصب التي كانوا يشغلونها دائماً من قبل. عندما اقترح لينين انتخاب هيئة تحرير من ثلاثة أعضاء أحدث ذلك ضجة فاجأته بشكل كامل، خاصة وأن ذلك الاقتراح كان قد تم قبوله بالفعل من طرف المحررين قبل المؤتمر، لكن ذلك القبول كان سطحياً فقط. أصاب الاقتراح المحررين القدامى المعزولين بصدمة قوية وجرح عميق. تجولوا في أروقة المؤتمر يشكون من وقاحة لينين المزعومة.

وحرصاً على وحدة الحزب، عملت كل من منظمة إيسكرا ومجموعة تحرير العمل على حل نفسيهما رسمياً في المؤتمر. لكن عندما طرحت مسألة تصفية يوجيني رابوتشي، شن أنصارها صراعاً أخيراً لأجل الاحتفاظ بها باعتبارها جريدة "شعبية"، وهو المفهوم الذي رفضته الأغلبية بشدة. كان المقترح المتفق عليه بين قيادة إيسكرا قبل المؤتمر هو تشكيل لجنة مركزية من ثلاثة أعضاء (من داخل روسيا)، وهيئة تحرير من ثلاثة أعضاء ومجلس للحزب يتكون من كلا الهيئتين، إضافة إلى عضو واحد آخر (بليخانوف). ومع ذلك سرعان ما ظهرت التوترات حول تشكيل اللجنة المركزية. كان الإيسكريون "المتشددون" يدافعون عن لجنة مركزية مكونة بالكامل من أنصار إيسكرا. بينما أراد الإيسكريون "الناعمون"، بقيادة مارتوف، أن يعطوا تمثيلية لهيئة تحرير يوجيني رابوتشي وطرحوا قائمة خاصة بهم للمرشحين. كان هذا مؤشراً على أن تيار الناعمين، الذي كان يمثل مارتوف، يحاول التوصل إلى حل وسط مع التيار المتذبذب الوسطي المتعلق حول يوجيني رابوتشي. وقد أدت محاولته تأجيل اتخاذ قرار بشأن هذه القضية إلى إثارة ضجة في القاعة. لكن الخلاف حول يوجيني رابوتشي لم يكن شيئاً يذكر بالمقارنة مع الأحداث العاصفة التي ميزت الدورة اللاحقة. لم يكن اقتراح لينين لهيئة تحرير من ثلاثة أعضاء انعكاساً لنزعة مركزية ديكتاتورية، بل كان مجرد تعبير عن واقع الحال. ليس

1: Istoriya KPSS, vol. 1, p: 486.

هناك شك في أن المنطق كان إلى جانب لينين بشكل كامل، وهو ما كان بليخانوف مجبرا على الاعتراف به. هيئة التحرير المشكلة من ستة أعضاء لم تتمكن حتى من الاجتماع ولو لمرة واحدة. في 45 عددا من جريدة إيسكرا في ظل ستة محررين، كان هناك 39 مقالا كتبه مارتوف، و32 مقالا كتبه لينين، و24 مقالا كتبه بليخانوف، و08 مقالات كتبها بوتريشوف، و06 مقالات كتبها زاسوليتش وفقط 04 مقالات كتبها أكسلرود. هذا على مدى ثلاث سنوات! كل العمل الفني كان على كاهل لينين ومارتوف. وقد كتب لينين بعد المؤتمر قائلا: «في الواقع أود أن أضيف إن هذا الثلاثي [لينين، مارتوف وبليخانوف] قد استمر دائما طوال هذه الثلاث سنوات بشكل، في 99 حالة من أصل مائة، الجهاز المركزي الحاسم، الحاسم سياسيا (وليس حرفيا)»<sup>1</sup>. إن فكرة وجود عضو في هيئة تحرير الصحيفة الرسمية للحزب وهو لا يشارك شخصيا في العمل ومساهمته الوحيدة هي تقديم مقال بشكل عرضي للنشر، هي فكرة لا تتسجم مع طبيعة منظمة بروليتارية مكافحة.

في البداية، كان العضوان الشابان في هيئة التحرير: مارتوف وبوتريشوف متفقين مع التغيير، لكنهما تحت ضغط محموم من طرف زاسوليتش وأكسلرود، غيرا رأييهما. اقترح تروتسكي إعادة انتخاب هيئة التحرير من ستة أعضاء. لكن انسحاب البوند وأنصار رابوتشييه ديلو كان يعني أن المتشددين داخل إيسكرا قد صاروا الآن أغلبية. تم التصويت بإسقاط اقتراح تروتسكي، وتم انتخاب هيئة تحرير جديدة مكونة من لينين وبليخانوف ومارتوف، عندها أعلن مارتوف رفضه المشاركة فيها. صار الانقسام بين الأغلبية المتشددة (Bol'shinstvo) والأقلية الناعمة (Menshinstvo) واقعا. وعندما ظهر الانقسام بشكل واضح تماما، اتخذ طابعا عنيفا. في الدورة التي نوقش خلالها تكوين هيئة التحرير كان الجو عاصفا وفي بعض الأحيان «هستيريا»، كما كتب البلاشفة في وقت لاحق في تقريرهم إلى مؤتمر أمستردام للأمم المتحدة الاشتراكية (1904).

يتضح السخط، الذي أثارته هذه النتيجة بين الثوريين الشباب، في مذكرات تروتسكي عن هذه المناسبة: «في عام 1903 كان الحل الوحيد هو إخراج أكسلرود وزاسوليتش من هيئة التحرير. كنت أكن لهما كل الاحترام، وكان هناك عنصر من المودة الشخصية كذلك. لينين بدوره كان يحترمهما كثيرا لما فعلاه في الماضي. لكنه بدأ يعتقد أنهما صارا عائقا للمستقبل. قاده هذا إلى الاستنتاج بأنه يجب إزالتهم من موقعهما في القيادة. لم يكن من الممكن أن أوافق على ذلك. بدا أن كل كياني يحتج ضد هذا القطع القاسي مع الشيوخ بينما كنا على عتبة بناء حزب منظم. كان سخطي على موقفه هو ما أدى بي حقا للقطيعة معه خلال المؤتمر الثاني. بدا لي سلوكه لا يغتفر، بدا لي رهيبا وفاحشا في نفس الوقت، رغم أنه سياسيا كان موقفا صحيحا وضروريا، من وجهة نظر المنظمة. إن القطيعة مع الشيوخ كانت مسألة حتمية في جميع الحالات. لقد فهم لينين ذلك قبل الجميع، وقام بمحاولة للحفاظ على بليخانوف من خلال فصله عن زاسوليتش وأكسلرود. لكن هذه المحاولة بدورها كانت عقيمة تماما، كما أثبتت الأحداث اللاحقة»<sup>2</sup>.

خلال الأشهر التي تلت المؤتمر، أثار أنصار الأقلية الصراخ والعيويل بمزاعمهم حول «الميل الديكتاتورية» و«المركزية القاسية» عند لينين. لم يكن لهذه المزاعم أي أساس في الواقع، وكانت بمثابة ستار لتغطية السلوك الفوضوي الذي قامت به مجموعة مارتوف، والذين، على الرغم من التعهدات التي قدموها خلال المؤتمر، رفضوا الانضباط لقرار الأغلبية وشنوا حملة مشؤومة ضد القيادة المنتخبة ديمقراطيا في المؤتمر. لقد كسروا أبسط قواعد السلوك التي تطبق داخل أي حزب، وطالبوا بأن يكون للأقلية الحق في التقرير، وحاولوا فعليا تخريب عمل الحزب، من خلال رفض التعاون مع أجهزته المنتخبة. إن الحزب الثوري ليس ناد للمناظرات، بل هو منظمة للكفاح، ومع ذلك فإن فكرة أن الحزب البلشفي بنية أحادية، حيث القادة يوجهون الأوامر بينما القواعد تطيع، هي افتراء باطل خبيث. على العكس من ذلك، لقد كان الحزب البلشفي الحزب الأكثر ديمقراطية في التاريخ. فحتى في أكثر مراحل العمل السري صعوبة، وفي قلب الثورة وخلال أكثر أيام الحرب الأهلية خطورة، بقي النظام الداخلي للحزب، وخصوصا أعلى هيئة فيه، أي المؤتمر، ساحة نقاش مفتوح وصریح مع صراع بين مختلفة الأفكار. لكن هناك حدود لكل شيء. ففي النهاية يجب على الحزب، الذي لا يريد الاقتصار على الكلام فقط، بل يريد العمل كذلك، أن يتوصل إلى قرارات ويعمل على تنفيذها على أرض الواقع.

إن الموقف من تنظيم الحزب والانضباط هو، في العمق، مسألة طبقية. يتعلم العامل الانضباط في تجربة الحياة اليومية بالمصنع. تعلمه تجربة الإضرابات درسا مهما حول ضرورة العمل المنضبط الجماعي باعتباره شرطا مسبقا للنجاح. ومن ناحية أخرى تعتبر فكرة التنظيم والانضباط مسألة صعبة الفهم بالنسبة للمثقف. إنه يميل لرؤية الحزب وكأنه على وجه التحديد ناد كبير

1: LCW, To Alexandra Kalmykova, September 7, 1903, vol. 34, p: 162.

2: L. Trotsky, My Life, p. 162.

للمناقشات، لشرح وجهات النظر بخصوص كل مسألة. لقد عكست الفردانية الفوضوية للأقلية، في العمق، وجهة نظر البرجوازي الصغير مع عجزه العضوي عن الانضباط وميله إلى خلط المسائل الشخصية مع المبدأ السياسي. مهما بلغت درجة ثقافتهم ومهما قرءوا، فإن المثقفين الذين لم يتبنوا شخصيا وجهة نظر الطبقة العاملة، يصلون إلى الإفلاس الكامل، وذلك على وجه التحديد عندما تبدأ المهمة الحقيقية للحركة، أي عندما تدخل حيز العمل. "لقد اكتفى الفلاسفة بتفسير العالم بطرق مختلفة"، كما أوضح ماركس "لكن المهمة تغييره".

### ارتباك في صفوف القواعد

إن الصورة الكاريكاتيرية عن لينين التي تقدمه وكأنه "ديكتاتور لا يرحم" ومناور خبيث يدوس بقسوة على رفاقه من أجل تركيز السلطة بين يديه، افتراء لا يتوافق مع الحقائق. في مذكراتها عن لينين تقدم كروبسكايا صورة حية عن الأمل الذي عاشه لينين بسبب الخلاف مع مارتوف: «في بعض الأحيان كان يرى بوضوح أن القطيعة مسألة لا مفر منها. بدأ رسالة كتبها مرة إلى كليير [كيرجيجانوفسكي] قائلاً إن هذا الأخير لا يمكنه ببساطة أن يتخيل الوضع الحالي، حيث على المرء أن يدرك أن العلاقات القديمة قد تغيرت بشكل جذري، وأن الصداقة القديمة مع مارتوف على وشك الانتهاء؛ وأن الصداقات القديمة ستنتهي، وأن الصراع سيبدأ. فلاديمير إيليتش لم يبن تلك الرسالة ولم يبعثها. كان من الصعب للغاية عليه القطع مع مارتوف. عملهما مع بعضهما في سان بيترسبورغ وفي إيسكرا القديمة جعلهما قريبين من بعضهما البعض... بعد ذلك ناضل فلاديمير إيليتش بشراسة ضد المناشفة، لكن كلما أظهر مارتوف بعض الميل إلى تصحيح خطه، كان موقفه القديم منه يعود إلى الحياة. كان هذا هو الحال، على سبيل المثال، في باريس، عام 1910، عندما عمل فلاديمير إيليتش ومارتوف معا في هيئة تحرير Sotsial Demokrat (الاشتراكي الديمقراطي). عند عودته إلى البيت من المكتب، كان فلاديمير إيليتش كثيرا ما يقول لي بابتهاج إن مارتوف ينتهج خطأ سليما، بل وحتى يعارض دان. بعد ذلك في روسيا، كان فلاديمير إيليتش سعيدا جدا بموقف مارتوف خلال أيام يوليو [عام 1917] ليس لأنه كان في صالح البلاشفة، بل لأن مارتوف وقف موقفا جديرا بالمناضل الثوري. وقد كان فلاديمير إيليتش بالفعل مريضا جدا، عندما قال لي مرة بحزن: "يقولون إن مارتوف يحتضر هو أيضا".»

كان هذا الموقف مألوفاً في شخصية لينين وهو ما يتم تجاهله في كثير من الأحيان. بعيداً عن الرومانسية لم يكن لينين يسمح لنفسه أبداً أن يخلط بين مشاعر الحب والكراهية الشخصية وبين قضايا المبدأ السياسي. لكن لينين كان يعترف بمؤهلات الآخرين ولم يكن يتخلى عنهم بسهولة. كانت مشاعر الحقد الشخصي غريبة تماماً عن هذا الرجل الذي أظهر طيلة حياته أعظم مشاعر الإخلاص للرفاق. وخلال الأشهر التي تلت المؤتمر قام لينين نفسه بمحاولات متكررة لإعادة الوحدة، بل وحتى اقترح تقديم سلسلة من التنازلات التي كانت، في الواقع، بمثابة التخلي عن المواقع التي فازت بها الأغلبية في المؤتمر. تذكر كروبسكايا قائلة: «بعد المؤتمر، لم يعترض فلاديمير إيليتش عندما اقترح غلييوف إعادة دمج أعضاء هيئة التحرير القدامى، فأنت تسير الأمور بالطريقة القديمة أفضل من أن يحدث الانشقاق. لكن المناشفة رفضوا. وفي جنيف، حاول فلاديمير إيليتش تسوية الأمر مع مارتوف، وكتب إلى بوتريسوف يحاول إقناعه بأنه لا يوجد سبب للصراع. وكتب أيضاً إلى كالميكوفا (العمة) عن الانقسام، وشرح كيف جرت الأمور. لم يستطع تصديق أنه لا يوجد أي حل»<sup>1</sup>.

لم يكد المؤتمر ينتهي حتى اقترب لينين من مارتوف في محاولة للتوصل إلى اتفاق. كتب مارتوف إلى أكسلرود في رسالة مؤرخة بـ 31 غشت: «رأيت لينين مرة واحدة [منذ المؤتمر]. طلب مني أن أقدم له اقتراحاتي حول التعاون. قلت له إنني سأقدم له رداً رسمياً عندما سناقش هذا الاقتراح الرسمي معاً، لكنني في غضون ذلك رفضت. لقد تحدثت كثيراً عن حقيقة أنه برفضنا التعاون نكون بصدد "معاينة الحزب"، وأن لا أحد توقع منا أن نقاطع الصحيفة. بل إنه صرح علناً أنه مستعد للاستقالة إذا ما صدر القرار بذلك من طرف هيئة التحرير القديمة، وأنه يعتزم العمل بجهد مضاعف كمتعاون»<sup>2</sup>.

لو كان الأمر متعلقاً بلينين لكان قد تم تفادي الانقسام بسرعة. لكن رد فعل الأقلية، الهستيري تقريباً، جعل من المستحيل التوصل إلى اتفاق. شنت الأقلية، التي هزمت في المؤتمر، سلسلة من الهجمات العنيفة ضد لينين وضد الأغلبية. نشر مارتوف كراسة يتهم فيها لينين بالتسبب في "حالة حصار" داخل الحزب. تولدت أجواء ساخنة، تجاوزت في حدتها أهمية القضايا التي كانت تبدو

1: N.K. Krupskaya, Reminiscences of Lenin, pp. 98--99 and p. 98

2: Pis'ma PB Akseľroda i YO Martova, p: 87.

مطروحة. وصف أوسيب بياتنيتسكي، الذي كان مسؤولاً عن توزيع إيسكرا في برلين، الدهشة والذعر الذين انتشرا بين صفوف القواعد عند توصلهم بالتقرير عن المؤتمر: «استمعنا إلى تقارير كلا الجانبين عن المؤتمر، وبعد ذلك بدأت على الفور الدعاية لصالح هذا الاتجاه أو ذلك. شعرت بنفسى ممزقا إلى اثنين. فمن جهة كنت أسفا للإساءة التي وجهت لزاكسوليتش ووبوتريشوف وأكسلرود وعزلهم من هيئة تحرير الإيسكرا... ومن جهة أخرى كنت متفقا تماما مع الهيكل التنظيمى للحزب المقترح من قبل لينين. كان عقلي مع الأغلبية، لكن مشاعري، إذا جاز التعبير، كانت مع الأقلية»<sup>1</sup>.

لم يكن بياتنيتسكي وحده في موقفه من الانقسام، قال لوناتشارسكي: «ضربنا خبر الانشقاق مثل صاعقة في سماء صافية. كنا نعرف أن المؤتمر الثاني سيشهد الحسم النهائي للصراع ضد تيار قضية العمال [الاقتصاديين]. لكن حدوث انقسام يضع مارتوف ولينين في مواجهة بعضهما البعض، بينما بليخانوف يقف في منتصف الطريق بين الاثنين، هو شيء لم نستطع استيعابه مطلقا. الفترة الأولى من النظام الأساسي الحزب... هل كان هذا شيئا يبرر حقا حدوث الانشقاق؟ والتعديل في توزيع المهام بين أعضاء هيئة التحرير، ما بال هؤلاء الناس في الخارج، هل فقدوا عقولهم؟»<sup>2</sup>.

هذا الكلام لوناتشارسكي، الذي أصبح أحد مساعدي لينين الرئيسيين خلال السنتين اللاحقتين، كان انعكاسا أميناً لرد فعل أغلبية أعضاء الحزب تجاه الانشقاق الذي حصل في المؤتمر الثاني. كان المزاج السائد ضد الانقسام، الذي لم يكن المغزى الحقيقي وراءه واضحا حتى للفاعلين الرئيسيين فيه.

يمكن فهم سبب الغموض الذي ساد بين صفوف القواعد. ففي تلك المرحلة لم تكن هناك اختلافات سياسية واضحة بين الأغلبية والأقلية. ومهما كان سيئا سلوك المارتوفيين، الذين عكست هجماتهم الحاقدة ومقاطعهم لأعمال الحزب جرح كبرياء المثقفين الفرديين، غير الراغبين في إخضاع ميولهم الشخصية لإرادة الأغلبية، فإن الاختلافات الحقيقية بين البلشفية والمنشافية كانت ما تزال بعيدة عن أن تكون محددة بوضوح خلال تلك المرحلة. صحيح أن بذور تلك الاختلافات كانت موجودة بالفعل في عام 1903، لكنها لم تكن قد اكتسبت آنذاك بعد مضمونا سياسيا محددا. بل كانت بالأحرى اختلافا في المواقف كما يتضح في توصيف لينين للاتجاهين بكونهما "الحازمين" و"الناعمين". ومع ذلك، فإن الصدام بين هذين الاتجاهين كان يندرج بلا شك بالانشقاق المستقبلي بين البلشفية والمنشافية، الذي لم يحدث بشكل نهائي إلا عام 1912، بعد حوالي عشر سنوات من المحاولات المتواصلة من جانب لينين لتوحيد الحزب على أساس مبدئي. لينين نفسه شرح أسباب ذلك الانقسام في الفقرة التالية: «من خلال دراستي لسلوك المارتوفيين منذ المؤتمر، رفضهم التعاون في الجهاز المركزي (على الرغم من دعوتهم بشكل رسمي من طرف اللجنة التنظيمية)، ورفضهم العمل في اللجنة المركزية، ودعايتهم من أجل المقاطعة، كل ما يمكنني قوله هو أن هذه محاولة حمقاء، غير جديرة بأعضاء الحزب، لتخريب الحزب، ولماذا؟ فقط لأنهم غير راضين عن تشكيل الهيئات المركزية؛ لتحدث بشكل موضوعي، كان هذا فقط هو السبب الذي أدى إلى افتراق طرفنا، في حين أن الاعتبارات الذاتية (الشتم والإهانات والافتراءات والطرده الخ) ليست سوى ثمار للأنا المجروحة والخيال المريض»<sup>3</sup>.

رفض المارتوفيون كل محاولات لينين للمصالحة، وواصلوا الضغط من خلال شن حملة تحريض. كانوا أقوياء بشكل خاص في الخارج. كان لديهم المال وصلات وثيقة مع قادة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية. في شتبر 1903، قام فريق مارتوف بالخطوة الأولى في اتجاه الانقسام من خلال إنشاء "مكتب للأقلية"، بهدف الاستيلاء على الهيئات القيادية للحزب بكل الوسائل المتاحة. بدءوا في نشر كتاباتهم التكتلية الخاصة لتوزيعها في روسيا. وعلى الرغم من كل هذا، استمر لينين يعلق الآمال على المصالحة. في 04 أكتوبر 1903، تم عقد اجتماع بين لينين وبليخانوف ولينغنيك عن الأغلبية، ومارتوف وأكسلرود وزاسوليتش ووبوتريشوف عن الأقلية. كانت الأغلبية على استعداد لتقديم تنازلات، لكن عندما كان رد فعل الأقلية هو المطالبة بتغيير مجموع قرارات المؤتمر، صار من الواضح أن هذا الاتفاق مستحيل. إن القبول بهذا الطلب كان يعني إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء إلى الوضع الذي كان سائدا قبل المؤتمر الثاني.

للصراع بين الكتل منطقته الخاص. فمن خلال تنصلهم من المؤتمر الثاني، ومحاربتهم للشكليات التنظيمية تحت شعار "النضال ضد المركزية" المزعوم، بدأ موقف الأقلية تجاه القضايا التنظيمية يصبح تدريجيا مشابها لوجهات نظر الاقتصاديين الذين كانوا، بالأمس فقط، على خلاف معهم. و"التكتل" العرضي الذي شكله المناشفة في المؤتمر مع الاقتصاديين اليمينيين، والذي كان لينين

1: O. Piatnitsky, Zapiski Bol'shevika, p. 54.

2: A.V. Lunacharsky, Revolutionary Silhouettes, p. 36

3: LCW, Account of the Second Congress of the RSDLP, September 1903, vol. 7, p. 34.

قد أشار له بالفعل، تحول تدريجيا إلى اندماج. أشار الاقتصادي المتطرف أكيموف، بسخرية خبيثة، إلى تقارب الأقلية مع وجهات النظر الإقتصادية الانتهازية القديمة، قائلا:

«إن اقتراب الإيسكريين "الناعمين" ممن يسمون بالإقتصاديين فيما يخص القضايا التنظيمية والتكتيكية صار أمرا معترفا به من قبل الجميع باستثناء "الناعمين" أنفسهم. إلا أنهم على استعداد للاعتراف بأنه "يمكننا أن نتعلم الكثير من الإقتصاديين".»

حتى أثناء [المؤتمر] الثاني، دعم مندوبو الاتحاد [أي الإقتصاديون] المناشفة وصوتوا لصيغة مارتوف. واليوم جميع أعضاء الاتحاد السابق [أي اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين الروس في الخارج الذي يسيطر عليه الإقتصاديون] يرون بأن تكتيكات "الناعمين" أقرب للصواب، وأنها تنازل عن وجهة نظرهم. وعندما حلت منظمة عمال بيتسبورغ [اقتصادية] نفسها أعلنت عن اندماجها مع المناشفة<sup>1</sup>.

وصلت الخلافات أوجها خلال المؤتمر الثاني للرابطة الاشتراكية الديمقراطية الثورية الروسية في الخارج، الذي انعقد بجنيف في أكتوبر 1903. بعد مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي، حاولت الأقلية إيجاد قاعدة دعم لموقفها. كانت الرابطة الاشتراكية الديمقراطية الثورية الروسية في الخارج بالكاد مجموعة متحلقة حول جريدة، أصدرت باسمها بضعة منشورات، لكن أنشطتها كانت شبه منعدمة، وهو الوضع المنطقي بما أن مركز الثقل آنذاك كان قد أصبح داخل روسيا. مباشرة بعد الانقسام، قرر المارتوفيون الدعوة إلى عقد مؤتمر للرابطة في جنيف. وقد تم ذلك بطريقة تكتلية؛ حيث لم يتم إخبار أنصار الأغلبية المعروفين بالاجتماع، في حين تم استقدام أنصار الأقلية من مناطق بعيدة مثل بريطانيا. قدم لينين التقرير عن مؤتمر الحزب بكلمات محسوبة، لكنه تعرض لهجوم شرس من طرف مارتوف، مما أدى إلى تسميم الأجواء منذ البداية.

في المؤتمر الثاني للحزب، تقرر اعتبار الرابطة الاشتراكية الديمقراطية الثورية الروسية في الخارج منظمة رسمية للحزب في الخارج، لها نفس وضع لجان الحزب المحلية في روسيا. كان ذلك يعني بوضوح أنها ستكون تحت رقابة اللجنة المركزية، لكن الأقلية، التي كانت تسيطر على الرابطة، لم تقبل بهذا، ووضعت قواعد جديدة تعطي للرابطة الاستقلالية عن اللجنة المركزية، بهدف تحويلها إلى قاعدة للعمل التكتلي ضد الأغلبية. اقترح لينغنيك أن هذا سيرفع اللجنة المركزية وعندما قوبل الاقتراح بالرفض، استاء ممثلو الأغلبية وانسحبوا من المؤتمر.

وصف بيانتيتسكي، الذي كان آنذاك عاملا تقنيا شابا في الإيسكرا، حيرته من الصراع التكتلي المرير في المؤتمر، حيث كانت قوى الأقلية والأغلبية منقسمة بالتساوي: «افتتح المؤتمر. جلس المناشفة في جانب، بينما جلس البلاشفة في الجانب الآخر. كنت أنا الوحيد الذي لم يقرر بعد بشكل نهائي الانتماء إلى هذا الجانب أو ذاك. أخذت مقعدي مع البلاشفة وصوتت معهم. كان البلاشفة بقيادة بليخانوف. في نفس اليوم، على ما أعتقد، غادر البلاشفة، بقيادة بليخانوف، المؤتمر. لكنني رغم ذلك بقيت هناك. وكان واضحا بالنسبة لي أن رحيل البلاشفة، أي الأغلبية، من منظمة الحزب المركزية ومجلس الحزب سيجبر الأقلية إما على الإذعان لقرارات المؤتمر الثاني أو القطع معها. لكن ما الذي يمكنني فعله؟ لا شيء. يمكن لكلا الجانبين أن يتباهيا بوجود قادة عظام بين صفوفهم، أعضاء مسؤولون في الحزب يعلمون بالتأكيد ما كانوا يفعلون. وعند حضوري جلسات مؤتمر الرابطة، بعد رحيل البلاشفة، قررت أخيرا الانضمام إلى هؤلاء الأخيرين وانسحبت بدوري من المؤتمر»<sup>2</sup>.

في اجتماع مرتجل على عجل في مهوى قريب، ندد بليخانوف بسخط بالأقلية واقترح خطة للنضال ضدهم. ومع ذلك، فإنه في قرارة نفسه كان غارقا في الشكوك. في البداية كان حاسما في الدفاع عن موقف لينين، الذي كان يعلم أنه صحيح، لكن أعصابه بدأت تضعف بمجرد ما بدأ يظهر بوضوح أن فجوة لا يمكن تجاوزها قد بدأت تنفتح بين الأغلبية وبين أصدقائه ورفاقه القدامى. بدأ يتساءل ما إذا كان قد فعل الشيء الصحيح بوقوفه إلى جانب لينين؟ هل كان الأمر يستحق تمزيق الحزب من أجل بضعة قواعد؟ لقد عمل لينين وبليخانوف على بذل كل تنازل ممكن للأقلية، لكن هؤلاء الأخيرين كانوا يطالبون بالاستسلام التام. ما السوء في ذلك؟ ما السوء في إعادة دمج جميع المحررين القدامى من أجل تحقيق السلام؟ وعلى كل حال إن النظام القديم، بجميع أعطابه، كان أفضل من هذا الوضع.

كان لينين، بدوره، لصالح تقديم التنازلات، بل وفكر حتى في إعادة إدماج المحررين القدامى. لكن التجربة أظهرت أن كل تنازل يقدم للأقلية لم يكن يؤدي سوى إلى زيادة تعنتها. وعلى مضض، قبل لينين التحدي الذي فرضه الجانب الآخر، لأن المزيد من

1: V. Akimov, A Short History of the RSDLP, p: 332.

2: O. Piatnitsky, op. cit., p: 63.

التنازلات ستؤدي إلى الإساءة لمصالح الحزب. كان القطع مع مارتوف مؤلماً للغاية، بل صدمة للينين الذي اعترف لكروبسكايا أن هذا كان أصعب قرار اتخذته في حياته. لكن بالنسبة للينين كانت مصالح الحزب والطبقة العاملة والاشتراكية أكثر أهمية من أي اعتبارات شخصية.

كان بليخانوف من نوع مختلف تماماً. كان ضحية "البحر الميت لحياة المهجر التي تجر المرء إلى القاع"<sup>1</sup>، أثبت بليخانوف أنه غير قادر على تحقيق الانتقال إلى المرحلة التاريخية الجديدة، مرحلة الثورة التي وضعت مهام جديدة على كاهل الحزب وقيادته. الشيء الذي كان عجباً ليس كونه استسلم، بل بالأحرى كونه وقف في البداية إلى جانب لينين. يحسب له أنه حاول على الأقل القيام بالانتقال، ليس فقط في هذه المناسبة، إذ أنه في وقت لاحق، في عام 1909، مال مرة أخرى إلى اليسار ودخل في تكتل مع البلاشفة. لكن تلك كانت آخر محاولاته قبل أن ينحرف نهائياً إلى اليمين، لينتهي بشكل مأساوي في معسكر الشوفينية الرجعية في السنوات الأخيرة من حياته. تروتسكي قال مرة إنه من أجل أن تكون ثورياً، لا يكفيك أن تمتلك الفهم النظري. يجب أن تمتلك أيضاً قوة الإرادة. فبدونها يكون الثوري مثل "ساعة بعقرب مكسور". هذه الجملة تصف بدقة نقطة ضعف بليخانوف الذي، وعلى الرغم من مساهمته الهائلة، انتهت أخيراً بتقويضه وتحطيمه.

شهد مساء يوم 18 أكتوبر حدوث القطيعة مع بليخانوف. ففي اجتماع للأغلبية، بعد أيام فقط من اقتراحه شن نضال شامل ضد المارتوفيين، انعطفت 180 درجة ودافع عن تحقيق السلام بأي ثمن. قال: «لا يمكنني إطلاق النار على رفاقي. أفضل أن أتلقى رصاصة في الدماغ على الانشقاق. هناك لحظات يكون فيها حتى على الحكم المطلق الاستسلام»<sup>2</sup>. وقدم مطالبه في شكل إنذار: إما أن تقبل، أو أنه سيستقيل من هيئة التحرير. كان انشقاق بليخانوف ضربة قوية للأغلبية. لينين الذي كانت له شكوك جدية لكنه ما يزال يأمل في تسهيل الوحدة، استقال من هيئة التحرير بعد ذلك بفترة وجيزة. لكن خطوة بليخانوف لم تؤد إلى توحيد الحزب، بل كان لها تأثير معاكس. استعمل المارتوفيون نجاحهم فقط لتمير مطالب جديدة: إعادة دمج أنصار الأقلية في اللجنة المركزية ومجلس الحزب والاعتراف بالنقاش الذي حدث في المؤتمر الثاني لرابطة الاشتراكيين الديمقراطيين في الخارج. بليخانوف الذي استسلم في المرة الأولى، استسلم مرة أخرى لجميع هذه المطالب، التي كانت ستؤدي، في الواقع، إلى تغيير كل القرارات الصادرة عن مؤتمر الحزب.

بدا موقف الأغلبية قائماً للغاية. صارت الأقلية تسيطر الآن على الجهاز المركزي للحزب، أي إيسكرا، والرابطة في الخارج ومجلس الحزب. وحدها اللجنة المركزية بقيت، من الناحية النظرية، مع الأغلبية. لكن الأغلبية كانت محرومة من وسيلة لإيصال صوتها. وتدرجياً، توقفت إيسكرا عن نشر المقالات والرسائل التي كان أنصار الأغلبية يبعثونها. في هذه الأثناء، استغل المناشفة إلى أقصى حد علاقاتهم وصدقاتهم الشخصية مع قادة الأممية الاشتراكية. بينما لم يكن للبلاشفة منفذ كبير إلى صحافة الأممية الاشتراكية.

في مذكراته، يذكر ليادوف محادثة أجراها مع كاوتسكي عبر خلالها هذا الأخير عن سخطه: «ماذا تريد؟ نحن لا نعرف لينينك هذا، إنه رجل جديد بالنسبة لنا. أما بليخانوف وأكسلرود نحن جميعاً نعرفهم جيداً. نحن معتادون على معرفة الوضع في روسيا من خلال شروحاتهم. وغني عن القول إننا لا نستطيع أن نصدق تأكيدك بأن بليخانوف وأكسلرود أصبحا فجأة انتهازيين. هذا سخيف!»

## روزا لوكسمبورغ

عندما ذهب ليادوف عند رئيس تحرير الصحيفة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية Vorwarts مع طلب بنشر المراسلات حول الوضع داخل الحزب الروسي، قيل له إن Vorwarts «لا يمكنها أن تخصص مساحة كبيرة لأخبار الحركة في الخارج، وخاصة الحركة الروسية، التي ما تزال غير ناضجة ولا يمكنها أن تقدم سوى القليل جداً من الفائدة للحركة الألمانية». يمكن بالفعل تمييز الخطوط العريضة للتطورات المستقبلية من هذه النبذة المتعجرفة المتعالية المشوبة بضيق الأفق القومي. لم يكن لموظفي الحزب الألماني "العمليين" هؤلاء أي اهتمام بالقضايا النظرية. وفي حين كانوا يكيلون المديح للماركسية بالكلمات، كانوا منغمسين في الروتين اليومي لمهام الحزب والنقابات العمالية. ما الذي يمكن للحزب الألماني بنقابات القوية وفريقه البرلماني الكبير أن يتعلمه من النزاعات الداخلية لحزب أجنبي صغير؟ كانت الأممية قد صارت بالنسبة لقسم كبير من القادة الألمان كتاباً مختوماً بسبعة أقفال.

1: N.K. Krupskaya, O Vladimiry Ilyiche, vol. 1, p. 54.

2: S.H. Baron, Plekhanov, p. 327.

كان الشيء الذي أضر أكثر بقضية البلاشفة هو موقف الجناح اليساري داخل الحزب الألماني. استمر لينين إلى حدود عام 1914، يعتبر نفسه مناصراً لكارل كاوتسكي، زعيم اليسار الأوثودوكسي داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي. لكن كاوتسكي رفض السماح بتخصيص مساحة للينين في جريدته Die Neue Zeit لشرح وجهة نظر البلاشفة. وفي إحدى رسائله كتب كاوتسكي: «على الرغم من أنه ما تزال بالكاد بارقة أمل ضئيلة في قدرة الاشتراكيين الديمقراطيين الروس على التغلب على خلافاتهم، فإنه لا يمكنني أن أكون لصالح تعرف الرفاق الألمان على كنه تلك الاختلافات. لكن إذا تعرفوا عليها من مصدر آخر، سيكون علينا بالطبع آنذاك اتخاذ موقف واضح»<sup>1</sup>.

وتحت ضغط المناشفة وقف كاوتسكي ضد لينين، لكنه فعل ذلك بحذر. فطالما أن الانقسام في روسيا لم يؤثر على الحياة الداخلية للحزب الألماني، فليست هناك حاجة لإعطائه أهمية كبرى، على أمل أن تحل الأمور من تلقاء نفسها. إذ على كل حال إذا تمكن الحزب الألماني من استيعاب الجميع، بدءاً من برنشتاين على اليمين وصولاً إلى روزا لوكسمبورغ وبارفوس على اليسار، فإنه يتعين على الرفاق الروس أن يعملوا على السير معاً دون انشقاق حول مسائل تافهة.

وبهذه الطريقة كانت حجج المناشفة فقط هي من وصلت إلى أسماع الأحزاب الاشتراكية في أوروبا الغربية. وروزا لوكسمبورغ، التي تعرضت للتضليل بفعل تقارير المناشفة الكاذبة والمغرضة عن الخلافات، كتبت مقالا نشره كاوتسكي في Die Neue Zeit تحت عنوان محايد: «مسائل تنظيمية للاشتراكية الديمقراطية الروسية». وقد تم نشر هذا المقال باللغة الإنجليزية تحت عنوان مضلل لم يستخدم أبداً خلال حياة روزا لوكسمبورغ: «اللينينية أو الماركسية؟» في هذه المقالة رددت روزا لوكسمبورغ هراء المناشفة حول «المركزية المتطرفة» و«الأساليب الديكتاتورية» المنسوبة زوراً إلى لينين. كان رد لينين على هذا المقال بالضبط هو الذي رفض كاوتسكي نشره. حطم لينين، في رده، كل تلك الخرافات التي اختلقها المناشفة حول أفكاره عن التنظيم، وهي الخرافات التي ينشرها بدأب أعداء البلشفية. لقد سبق للينين الرد على هذه المزاعم: «تقول الرفيقة لوكسمبورغ، على سبيل المثال، إن كتابي [خطوة إلى الأمام خطوات إلى الوراء] هو تعبير واضح ومفصل عن وجهة نظر «المركزية المتصلبة». وبالتالي فإن الرفيقة لوكسمبورغ تفترض أنني أدافع عن نظام معين للتنظيم ضد آخر، لكن الواقع ليس كذلك، لقد دافعت، من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة من كتابي، عن المبادئ الأساسية لأي تنظيم حزبي يمكن تصوره. ليس كتابي معنياً بالاختلافات بين نظام معين وآخر، بل بمسألة كيف يمكن لأي نظام أن يستمر وينتقد ويصحح بطريقة تنسجم مع فكرة الحزب»<sup>2</sup>.

لم يكن موقف روزا لوكسمبورغ من قبيل الصدفة. فقد كانت منخرطة منذ سنوات عديدة في نضال عنيد ضد التيار البيروقراطي والإصلاحي داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. كانت تشاهد بجزع تشكل جيش واسع من موظفي النقابات العمالية والحزب في تيار محافظ قوي. كانت تعرف هذه الظاهرة أفضل من أي شخص آخر، أفضل حتى من لينين الذي كان يخوض أول تجربة مباشرة له مع الحزب الألماني. فهتمت روزا لوكسمبورغ أن هذا الجهاز البيروقراطي الضخم يمكنه أن يتحول في اللحظة الحاسمة للصراع الطبقي، إلى كابح عملاق لنضالات الجماهير. وهذا ما اتضح في غشت عام 1914، عندما تأكدت أسوأ مخاوف روزا لوكسمبورغ كلها.

تكفي ولو لمحة خاطفة على كتيب روزا لوكسمبورغ لكي يظهر أن الأفكار التي كانت تجادل ضدها حقاً ليست أفكار لينين (التي تعرفت عليها فقط من خلال الكاريكاتير الذي قدمه المناشفة عنها)، بل ذلك الانحطاط البيروقراطي والإصلاحي الذي كانت تعرفه جيداً جداً في حزبها، الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. كم هي كلمات هذه الثورة العظيمة ملائمة لوصف الوضع الراهن داخل حزب العمال البريطاني وأمثاله من الأحزاب الأوروبية! كتبت: «مع نمو الحركة العمالية، تصبح النزعة البرلمانية نقطة انطلاق للسياسيين الوصوليين. وهذا هو السبب الذي يجعل الكثير من الطموحين الفاشلين من الأوساط البرجوازية يتزاحمون على راية الأحزاب الاشتراكية. إن القوة المادية والنفوذ الكبيرين للمنظمات الاشتراكية الديمقراطية الكبيرة مصدر آخر للانتهازية المعاصرة».

يلعب الحزب دور حصن لحماية الحركة العمالية ضد الانحراف في اتجاه المزيد من البرلمانية البرجوازية. ولكي تنتصر هذه الميول يجب تدمير الحصن. يجب عليهم تذويب القطاعات النشيطة والواعية طبقاً بين صفوف البروليتاريا في الحشود الواسعة من «الناخبين»<sup>3</sup>.

1: Istoriya KPSS, vol. 1, p. 518, p. 523 and p. 524.

2: LCW, vol. 7, p: 474.

3: R. Luxemburg, Leninism or Marxism?, p. 98 (التشديد من آلان وودز).



إن النضال من أجل التحويل الاشتراكي للمجتمع لا يستبعد، بطبيعة الحال، المشاركة في الانتخابات أو في البرلمان. بل على العكس من ذلك، كانت الطبقة العاملة في جميع البلدان في طليعة الكفاح من أجل الحقوق الديمقراطية، وسوف تستخدم كل الحقوق القانونية والدستورية من أجل تحسين موقعها ووضع نفسها في موقع قيادي لتغيير المجتمع. كما أن بناء منظمات نقابية قوية هو بدوره جزء حيوي في مسيرة إعداد الطبقة العاملة لإنجاز المهام التاريخية الملقاة على كاهلها. لكن لهذه السيورة وجهان اثنان. إن الطبقة العاملة ومنظماتها لا توجد في الفراغ، وتحت ضغط الطبقات الأخرى، تصير المنظمات، التي بناها العمال لأجل تغيير المجتمع، منظمات مشوهة ومنحطة. إن ضغط الرأي العام البرجوازي ينيخ بثقله على الفئات القيادية داخل تلك المنظمات.

لقد طورت الطبقة الحاكمة ألف طريقة وطريقة لإفساد واستيعاب حتى أكثر المناضلين النقابيين نزاهة وكفاحية إذا ما كانوا يفتقرون إلى تكوين نظري صلب في النظرية الماركسية ومنظوراتها. إن انعزال فئة من المسؤولين النقابيين المتفرغين، والذين ينفصلون بشكل متزايد عن الواقع في أماكن العمل، إضافة إلى جميع أنواع المنح والامتيازات الصغيرة التي يتلقونها، يؤدي إلى خلق عقلية متميزة ومغتربة عندهم، ولا سيما عندما لا يشارك العمال في النضالات الجماهيرية، والذين هم بمثابة الرقيب على القيادة. لكن خلال عقود طويلة من الازدهار النسبي والعمالة الكاملة والسلام بين الطبقات، يكون الاتجاه السائد هو عدم مشاركة القواعد بنشاط في الحياة الداخلية لمنظماتهم، والثقة في القادة والمسؤولين للحصول على وظيفة. كان هذا هو الوضع الذي ساد في ألمانيا على مدى عقدين تقريبا قبل كارثة الحرب العالمية الأولى، عندما عززت بيروقراطية محافظة، ماركسية بالكلمات، لكن إصلاحية في الممارسة العملية، قبضتها على الحركة العمالية تدريجيا؛ وهي السيورة التي تكررت في فرنسا وفي كل بلدان أوروبا الغربية الأخرى. وما كان صحيحا بالنسبة للنقابات كان مائة مرة صحيحا بالنسبة للفريق البرلماني في الرايخستاغ<sup>1</sup>. قيادات الحزب الاشتراكي الديمقراطي في البرلمان، الذين كان يهيمن داخل صفوفهم المثقفون والسياسيون المحترفون، ذوو مستوى معيشي يختلف عن ملايين العمال الذين يمثلونهم، اتجهوا نحو اليمين، وتخلصوا من رقابة الطبقة العاملة عليهم وتحولوا، في نهاية المطاف، إلى فئة اجتماعية متميزة ومحافظة.

وكرر فعل ضد هذا الوضع، أعطت روزا لوكسمبورغ أهمية بالغة للحركة العفوية للطبقة العاملة، ورفعت فكرة الإضراب العام الثوري إلى مستوى المبدأ تقريبا. رد الفعل المبالغ فيه هذا أدى بها بشكل حتمي إلى سلسلة من الأخطاء. ويمكن للمرء أن يقول إنها في كل خلافاتها مع لينين، بما في ذلك هذا الخلاف، كانت دائما على خطأ. ومع ذلك لا يمكن أيضا إنكار أن كل تلك الأخطاء يمكن إرجاعها إلى غريزة ثورية حقيقية، وإيمان لا حدود له في الطاقة الإبداعية للطبقة العاملة وعدائها الشديد للووليين والبيروقراطيين الذين يمثلون، على حد تعبير تروتسكي، "أكثر القوى محافظة في المجتمع بأسره". لقد جرى تبني شكوك روزا لوكسمبورغ حول "مركزية لينين القاسية" المزعومة، ولنفس السبب، من طرف يساريين ألمان آخرين مثل الكسندر. ل. هيلفاند، الشهير باسمه الحركي بارفوس، والذي كانت أعماله تثير إعجاب لينين، وكذلك إعجاب تروتسكي الذي، بعد أن قطع مع المناشفة، عمل بشكل وثيق معه لفترة من الزمن.

في سنوات لاحقة، اعترف تروتسكي بأنه كان مخطئا وأن لينين كان محقا بخصوص المسائل التنظيمية. تضمن كراسه "مهامنا السياسية"، الذي نشر في خضم الصراع التكتلي، العديد من الانتقادات ضد لينين، والتي وصفها مؤلفها لاحقا بأنها "غير ناضجة وخاطئة"<sup>2</sup>. ومع ذلك، فحتى ذلك الكراس يحتوي على أكثر من ذرة من الحقيقة فيما يتعلق بجانب معين من البلشفية، وهي سيكولوجية وقواعد سلوك الموظفين الحزبيين، تلك الشريحة من "العمليين" و"رجال ونساء التنظيم" الذين كان على لينين نفسه الدخول في صراع مرير ضدهم بعد أشهر قليلة فقط على ظهور كراسة تروتسكي المثيرة للجدل.

حاول لينين تجنب الحرب، ورفض الرد على الهجمات المتواصلة الموجهة ضده. لكن نتيجة محاولة بليخانوف أقنعه بأنه لا حل آخر ممكن لهذا الوضع. وقد اتضح ذلك بجلاء من خلال مقال وقعه بليخانوف في العدد 52 من إيسكرا، بعنوان: "من أين يجب ألا نبدأ"، والذي هو محاولة مخزية لتوفير تبرير نظري لاستسلام صاحب المقال. تحولت إيسكرا الآن، تحت سيطرة المحررين الجدد، إلى جهاز تكتلي في يد الأقلية. كانت الأغلبية ما تزال تسيطر على اللجنة المركزية. لكن بعد أن تمكنت الأقلية من إعادة دمج المحررين القدامى في هيئة التحرير، صارت لها أغلبية في مجلس الحزب، وهو أعلى سلطة في الحزب. وبحلول نهاية العام، كان لينين قد وصل إلى الاقتناع بأن السبيل الوحيد لحل الأزمة هي الدعوة إلى عقد مؤتمر جديد للحزب.

وكما كان متوقعا فإن أنصار الأقلية، الذين كانوا يسيطرون آنذاك على مجلس الحزب اعترضوا على اقتراح لينين. لكن عندما

1: مجلس النواب الألماني - المترجم-

2: L. Trotsky, Stalin, p: 62.

قدم لينين طلبه إلى اللجنة المركزية، التي تسيطر عليها الأغلبية نظرياً، اصطدم بمقاومة غير متوقعة من طرف مؤيديه. وفي أعمال لينين، نجد الرسائل تلو الرسائل التي بعثها لينين حيث يسعى جاهداً لإقناع أعضاء اللجنة المركزية بصحة المقترح. لكن البلاشفة في اللجنة المركزية رفضوا ما اعتبروه قطيعة نهائية مع المناشفة. قال لينين بمرارة: «أعتقد أننا نمتلك فعلاً أناساً بيروقراطيين وشكليين داخل اللجنة المركزية بدلا من الثوريين. المارتوفيون يبصقون في وجوههم وهم يمسخون البصاق ويقولون لي: "لا جدوى من القتال"»<sup>1</sup>.

## الحرب مع اليابان

لم يكن قرار لينين القطع مع المناشفة في هذه المرحلة من قبيل الصدفة. لقد كان النقاش الأساسي، حتى ذلك الوقت، مركزاً على المسائل التنظيمية، لكن الآن بدأت الأمور تأخذ طابعاً جديداً تماماً، وهو ما كان يعكس بدوره تحولاً مفاجئاً وحاداً في الوضع السياسي. كانت المظاهرات الطلابية، وما تلاها من الإضرابات السياسية والمظاهرات العمالية، في عام 1902، مؤشرات عن تطور سريع لوضع قبل-ثوري. اندلع إضراب عام سياسي في شهري يوليو وأغسطس 1903، أعقبته فترة هدوء قصيرة، لتندلع موجة إضرابات جديدة في صيف عام 1904. واندلعت سلسلة من الإضرابات في بيتسبورغ وإيفانوفو- فونزيسينسك ونيجني نوفغورود، والقوقاز حيث هز إضراب كبير مركز النفط في باكو خلال شهر دجنبر. وتحت ضغط الطبقة العاملة، بدأ الليبراليون البرجوازيون يعلنون مطالبهم بطرح دستور. النظام الذي شعر بالأرض تهتز تحت قدميه أصيب بالذعر. وبكلمة كتب وزير الداخلية، بليهف، رسالة إلى وزير الدفاع، الجنرال كيروباتكين، قال له فيها: «إن ما نحتاج إليه، من أجل درة الثورة، هو حرب صغيرة منتصرة».

كانت روسيا القيصرية، على الرغم من تخلفها وطابعها شبه الإقطاعي، واعتمادها على العواصم الغربية، واحدة من الدول الإمبريالية الرئيسية في مطلع القرن العشرين. وقد شاركت، جنباً إلى جنب مع القوى الإمبريالية الأخرى، بريطانيا وفرنسا وألمانيا، في عملية تقسيم العالم إلى مستعمرات ومناطق النفوذ. وكانت بولندا وبلدان البلطيق وفنلندا والقوقاز وأراضي الشرق الأقصى وآسيا الوسطى، في واقع الأمر، مستعمرات للدولة القيصرية. لكن الطموحات التوسعية للقيصرية كانت بدون حدود. كانت عيون سان بيتسبورغ النهممة مركزة على تركيا وبلاد فارس، وقبل كل شيء على الصين حيث كانت أسرة المانشو المتحللة غير قادرة على منع تقسيم الصين من قبل قطاع الطرق الإمبرياليين، خاصة بعد هزيمة ما يسمى بانتفاضة بوكسر عام 1900، عندما احتلت روسيا منشوريا كلها. هذا التوسع الجشع في اتجاه الشرق الأقصى دفع روسيا إلى الاصطدام بالقوة اليابانية الصاعدة الشابة. فسر الإمبرياليون اليابانيون ما قامت به روسيا على أنه محاولة لمنع تقدمهم في آسيا. في صيف 1903، فاز حزب الحرب في طوكيو. وفي جوف ليل فبراير 1904، هاجم اليابانيون الأسطول الروسي في بورت آرثر، باستخدام نفس التكتيكات التي لجئوا إليها في بيرل هاربر عام 1941. وهكذا ضمنت اليابان السيطرة على البحار وبدأ صراع دموي أدى إلى سقوط بورت آرثر بعد 11 شهراً مع فقدان 28.200 جندي روسي، أي نصف الحامية. وبعد ثلاثة أسابيع انطلقت الثورة الروسية الأولى.

صحيفة إيسكرا الجديدة، تحت سيطرة المناشفة، اتخذت في البداية موقفاً غامضاً من الحرب، وحصرت نفسها في الدعوة إلى السلام. وجه لينين نقداً صارماً ضد هذه الفكرة، موضحاً أن نصر القيصرية في الحرب من شأنه أن يعزز النظام لفترة من الزمن، في حين أن الهزيمة العسكرية لروسيا ستعني حتماً اندلاع الثورة. وجه انتقاداً لاذعاً للحملة العسكرية الروسية واستخدمها وسيلة لفضح طبيعة النظام المنحط والفاسدة. لا علاقة لنزعة لينين الأممية الثورية مع النزعة المسالمة، فقد كانت تقوم على تحليل طبقي للحرب باعتبارها استمراراً للسياسة بوسائل أخرى.

وقد كتب في مقاله "سقوط بورت آرثر": «إن قضية الحرية الروسية وكفاح البروليتاريا الروسية (والعالمية) من أجل الاشتراكية يعتمد إلى حد كبير على الهزائم العسكرية للحكم المطلق. لقد تقدمت هذه القضية كثيراً بفعل الكارثة العسكرية التي أُلقت الرعب في قلوب جميع حراس النظام القائم الأوروبيين. على البروليتاريا الثورية أن تقوم بالتحريض المتواصل ضد الحرب، لكن دون أن تنسى، في الوقت نفسه، أن الحروب حتمية طالما بقي النظام الطبقي. إن العبارات المبتذلة عن السلام على طريقة جوريس [جان جوريس، 1859-1914، القيادي البارز في الجناح الإصلاحية داخل الحزب الاشتراكي الفرنسي] لا تفيد الطبقة المضطهدة التي هي ليست مسؤولة عن الحرب البرجوازية بين الدول البرجوازية، والتي تبذل كل ما في وسعها لإسقاط جميع البرجوازيين، والتي تعرف

1: LCW, To the Central Committee of the RSDLP, February 1904, vol. 34, p: 233.

فداحة معاناة الشعب حتى في زمن الاستغلال الرأسمالي "السلمي"<sup>1</sup>.

كان هدف الحكم المطلق هو تخفيض حدة الصراع الطبقي من خلال خلق تكتل على أساس الوحدة الوطنية. أما الليبراليون فقد كشفوا بشكل نهائي عن طبيعتهم الرجعية. لقد تعارضت كراهيتهم للنظام الاستبدادي، الذي كان يمنعهم من اقتسام كعكة الدولة، مع طمعهم في احتمال تحقيق أرباح كبيرة الآن بفضل الحرب والاستيلاء على مستعمرات جديدة في الشرق. وقد حث الماركسي السابق ستروفه الطلاب على دعم سياسة الحرب. لكن الحرب التي كانت قد أدت في البداية إلى إضعاف الحركة الثورية، سرعان ما أعطتها دفعة قوية. وقد فضح منظر الجيش الروسي، الذي كان يزعم أنه لا يقهر، وهو ينهار مثل بيت من ورق في أول اختبار جدي، الطبيعة المتعفنة للنظام القيصري. وبدأت التصدعات تظهر في قمة النظام.

وجد استياء الشباب الطلاب تعبيرا عنه في انتشار النزعة الإرهابية. في 15 يوليوز تعرض وزير الداخلية القمعي، فيكتور بليهدف، لعملية اغتيال على يد الاشتراكي الثوري إيجور سيتونوف. بعد أربعين عاما على ذلك كتب القيادي البرالي، ب. ن. ميلوكوف، يصف المزاج الذي كان سائدا في المجتمع في ذلك الوقت: "لقد فرح الجميع بخبر اغتياله"<sup>2</sup>. قرر النظام المذعور من مد الثورة المتزايد تقديم بعض التنازلات. تم استبدال بليهدف بالأمر سفياتوبولسك ميرسكي، كما قرر النظام القيام ببعض الإصلاحات الليبرالية لتلافي حدوث الثورة. تسببت الهزائم العسكرية المهينة في فقدان الحرب للشعبية بشكل مطلق، ليس فقط بين صفوف الجماهير، بل أيضا بين صفوف الليبراليين البرجوازيين، الذين تحولوا بمهارة من النزعة الوطنية إلى الانهزامية. بدأ النظام، المرعوب من خطر ثورة من تحت، في تقديم تنازلات لليبراليين البرجوازيين. وبدأ سفياتوبولسك ميرسكي يخلق ضجة حول "الحقبة الجديدة".

في شهر نوفمبر سمح للزمستفوات بعقد مؤتمر في سان بيترسبورغ. كان لتيار أوسفوبوجيدي الليبرالي آنذاك تأثير كبير داخل الزيمستفوات وكان القوة الرئيسية وراء حملة الدعاية لها. اقترحت إيسكرا المناشفة المشاركة في حملة الزيمستفوات ودعم الليبراليين بقدر ما كانوا مستعدين للنضال ضد الحكم المطلق. قالت إنه لأجل ذلك يجب على الاشتراكيين الديمقراطيين تخفيف مطالبهم حتى لا يخيفوا حليفهم السياسي، ويجب عليهم تعديل برنامجهم لأجل تحقيق الوحدة ضد الرجعية. لم يكد المناشفة يعلنون دعمهم لليبراليين حتى شن لينين هجوما عنيفا عليهم. في مقالته "حملة الزيمستفو وخطة الإيسكرا"، شن لينين هجوما صارما ضد دعاة التعاون الطبقي ودافع عن سياسة طبقية ثورية مستقلة: «إن السادة البراليين الذين يخافون من المنشورات ويخافون من كل شيء يتخطى دستور الامتيازات المشروطة، سيخافون دائما من شعار "جمهورية ديمقراطية" ومن الدعوة إلى انتفاضة شعبية مسلحة. لكن البروليتاريا الواعية طبقيا سترفض بسخط فكرة أن نتنكر لهذا الشعار وتلك الدعوة، أو أن نقاد عموما في نضالنا بهلع ومخاوف البرجوازية»<sup>3</sup>.

أصبح الموقف من الليبراليين على الفور السؤال الأساسي الذي حددت من خلاله جميع التيارات الاشتراكية الديمقراطية موقفها. قال زينوفييف بحق: «برزت مسألة موقف الطبقة العاملة من البرجوازية بحددة مرة أخرى، وهو نفس السؤال الأساسي الذي اصطدمنا به في كل مرحلة من مراحل تاريخ الحزب والذي يمكننا أن نرجع إليه، في نهاية المطاف، كل خلافاتنا مع المناشفة»<sup>4</sup>.

في الخريف، أصدرت المنظمة البرالية سويوز أوسفوبوجدينيا (رابطة الحرية) دعوة لتنظيم حملة مآذبات للضغط على الحكومة للقيام بإصلاحات. نظم المحامون والأطباء وأساتذة الجامعات والصحفيون اجتماعات شبه شرعية على شكل مآذبات عشاء حيث تلقى الخطب ويتم تبادل الأنخاب لصالح إصلاح دستوري معتدل. ومع ذلك فإن جين الليبراليين البرجوازيين يظهر في حقيقة أنهم لم يرفعوا حتى مطلب جمعية تأسيسية على أساس الاقتراع العام، بل اكتفوا فقط بمطالب غامضة حول تمثيل الشعب على أساس ديمقراطي واسع.

بدأ قادة المناشفة، تحت ضغط الليبراليين البرجوازيين، يتعدون في الواقع عن المواقف الماركسية الثورية. توصيفهم الغامض وشبه السلمي للحرب كان ربما أول تعبير علني عن هذه الحقيقة. بدأت الخلافات مع المناشفة تنتقل بشكل واضح من مجرد خلافات تنظيمية إلى خلافات سياسية. وبدأ المناشفة اليمينيون، مثل فيدور دان، يحصلون على اليد العليا داخل صفوف الأقلية. قلص المناشفة دور البروليتاريا إلى مجرد تابع للقادة الليبراليين. وبهذه الطريقة كان المناشفة يأملون إقامة "جبهة واسعة" من أجل الديمقراطية، تضم جميع "القوى التقدمية". كانت نفسية المناشفة مشبعة بعدم الثقة في الإمكانيات الثورية للطبقة العاملة. كان

1: LCW, The Fall of Port Arthur, vol. 8, p. 53.

2: S.S. Schwarz, The Russian Revolution of 1905, the Workers' Movement and the Formation of Bolshevism and Menshevism, p: 32.

3: LCW, Zemstvo Campaign and Iskra's Plan, vol. 7, p: 503.

4: G. Zinoviev, History of the Bolshevik Party, p: 108 (التشديد من آلان وودز).

من المفروض على العمال عدم رفع مطالب أكثر من اللازم، أو التعبير عن مواقف جذرية جدا قد تخيف الليبراليين. وقد نشرت إيسكرا بيانات من هذا القبيل: «إذا ألقينا نظرة على ساحة النضال في روسيا، ماذا نرى؟ لا نرى سوى قوتين اثنتين: الاستبداد القيصري والبرجوازية الليبرالية، التي هي الآن منظمة ومتملك وزنا نوعيا هائلا. بينما جماهير الشغيلة في المقابل مذررة ولا يمكنها أن تفعل شيئا؛ نحن لا وجود لنا كقوة مستقلة؛ وبالتالي فإن مهمتنا تتمثل في دعم القوة الثانية، أي البرجوازية الليبرالية، وتشجيعها وعدم التسبب، في أي حال من الأحوال، في إخافتها عبر طرح مطالبنا البروليتارية المستقلة الخاصة»<sup>1</sup>.

في عدد نوفمبر 1904 اقترحت إيسكرا المناشفة المشاركة في حملة مآدبات الزيمستفو. اقترحت، في الواقع، دعم ما يسمى بالجنح الليبرالي اليساري داخل أوسفوبوجيدي:

«في ما يتعلق بالزيمستفوات الليبرالية والدوما نحن نتعامل مع أعداء عدونا، على الرغم من أنهم لا يرغبون أو لا يستطيعون المضي بعيدا حتى الآن في صراعهم معه بالشكل الذي تتطلبه مصالح البروليتاريا؛ لكنهم من خلال حديثهم العلني ضد الحكم المطلق ومواجهتهم له بمطالب تهدف إلى القضاء عليه (!) يشكلون في الحقيقة حلفاء لنا [معنى نسبي للغاية طبعا] حتى ولو [أنهم] غير حازمين بما فيه الكفاية في تطلعاتهم...»

وأضافوا: لكن في حدود النضال ضد الحكم المطلق، وخصوصا في المرحلة الحالية، يتمثل موقفنا من البرجوازية الليبرالية في تشجيعها أكثر ودفعها إلى الانضمام إلى المطالب التي سترفعها البروليتاريا، بقيادة الاشتراكية الديمقراطية. سنرتكب خطأ فادحا إذا ما نحن وضعنا لأنفسنا هدف إجبار الزيمستفوات، أو غيرها من مؤسسات المعارضة البرجوازية، من خلال تدابير التخويف، أو استعملنا تأثير الذعر من أجل إجبارها على إعطائنا الآن وعدا رسميا بتقديم مطالبنا للحكومة. من شأن مثل هذا التكتيك أن يضر بالاشتراكية الديمقراطية لأنه سيحول حملتنا السياسية إلى وسيلة للضغط في يد الرجعية»<sup>2</sup>.

ما معنى هذا الاقتباس؟ إنه يعني في جوهره:

(أ) دعم البرجوازية الليبرالية ("بقدر ما").

(ب) على الطبقة العاملة أن تلعب دورا ثانويا وراء الليبراليين.

(ج) يجب ألا نخيف البرجوازية (وبعبارة أخرى: تلطيف اللهجة والتخلي عن المبادئ والاستسلام).

(د) كل هذا بزعم عدم دعم الرجعية وباسم "النضال ضد الرجعية".

رد لينين على الفور على الإيسكرا في منشور مؤرخ بـ 20 نوفمبر (حسب التقويم الجديد). لم تكن لديه جريدة آنذاك، حيث أن فريود لم تبدأ في الصدور إلا في يناير عام 1905. لينين الذي ندد باقتراح المناشفة تشكيل كتلة مع الليبراليين، اقترح الاستفادة من حملة الزيمستفو لتنظيم مظاهرات عمالية كفاحية ضد كل من القيصرية والليبراليين المخادعين الجبناء. إن الفارق الحقيقي بين البلشفية والمنشفية هو الفرق بين الاستقلال الطبقي والتعاون الطبقي، بين الماركسية والتحريرية، بين الثورة والإصلاحية. لكن الأمر استغرق عدة سنوات وتجربة الحرب والثورة المضادة، لكي تصبح الطبيعة الحقيقية لهذه الاختلافات واضحة تماما.

غريزة العمال الطبقة تمردت ضد فكرة التحالف مع البرجوازية. كانت هناك مناقشات حادة في صفوف المناشفة. وفي جنيف وروسيا تبنى العديد من العمال المناشفة بشكل غريزي موقفا متناقضا تماما مع موقف محرري إيسكرا وقريبا من موقف البلاشفة. في ظل الظروف الصعبة للغاية للنضال ضد الدكتاتورية القيصرية، لا يمكن للمرء، بطبيعة الحال، أن يستبعد إقامة اتفاقات عرضية ومؤقتة حتى مع الليبراليين البرجوازيين. لكن الشرط الأول لمثل هذه الاتفاقات بالنسبة للينين كان دائما الاستقلال الكامل للطبقة العاملة وحزبها: لا لخلط الرايات، لا للتكتلات السياسية مع البرجوازية، لا للمساومات على البرنامج أو المبادئ. بالطبع لا يمكن للعمال أن يتجاهلوا أي فرصة لطرح مطالبهم. وقد دافع لينين على أنه يجب على العمال أن يذهبوا إلى تلك التجمعات الشرعية ويحاولوا تحويلها إلى مظاهرات كفاحية.

وضح سوموف، وهو مؤيد سابق لرابوتشيه ديلو تحول لاحقا إلى المناشفة، أن «جميع الخطب التي ألقيت في المآدبات كانت تنتقد بشدة كلا من مبادئ وتكتيكات الليبراليين الانتهازيين وتسخر من قرارات المآدبات الضعيفة ومشاريع العرائض». وتبين الحادثة التالية، التي وقعت في يكاترينوسلاف، كيف اختار العمال الاشتراكيون الديمقراطيون التدخل في مآدبات الليبراليين:

1: G. Zinoviev, History of the Bolshevik Party, pp. 107 -108.

2: S.S. Schwarz, The Russian Revolution of 1905, the Workers' Movement and the Formation of Bolshevism and Menshevism, p. 38.

«في اللحظة المناسبة، ظهرت مجموعة من العمال أمام طاولة أعضاء مجلس البلدة، وبدء أحد أعضاء المجموعة في الكلام. حاول الرئيس منعه، لكنه استسلم أمام إصرار العمال، واختتم كلمته وسط اهتمام واسع من طرف الحضور بالقول: "أنتم ونحن نمثل طبقات اجتماعية متناقضة، لكن يمكن أن توحدنا الكراهية لنفس العدو، أي النظام الاستبدادي. يمكن أن نكون حلفاء في نضالنا السياسي. لهذا يجب عليكم التخلي عن طريق الليونة السابق، عليكم أن تتضمنوا بجرأة وعلنا إلى مطلبنا: فليسقط الاستبداد! من أجل جمعية تأسيسية منتخبة من قبل الشعب بأكمله! من أجل الاقتراع العام المباشر والمتساوي والسري!"».

بعد الخطاب، تناثرت في القاعة بيانات لجنة كوبان لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي. في اليوم التالي، أصدرت اللجنة منشورا (من ألف نسخة) تصف فيه أحداث الاجتماع وتشر خطاب الاشتراكية الديمقراطية بالكامل<sup>1</sup>.

في أماكن أخرى أدت تدخلات مماثلة من قبل هؤلاء الضيوف غير المدعوين إلى مشاجرات مع الشرطة والقوزاق. أفضلت تدخلات هؤلاء "الصغار المجانين" خطط الليبراليين، الذين حاولوا إبقاء العمال بعيدين عن الاجتماعات. وفي لقاء لحوالي 400 طبيب في سان بيترسبورغ، تم رفض حضور نحو 50 عامل، لكن ضغط المندوبين أدى إلى التراجع عن القرار. أدى تدخل العمال للمطالبة بالحق في الإضراب إلى خلق استقطاب قوي بين الأطباء تسبب في انفضاض الاجتماع وسط حالة من الفوضى. وكان هناك العديد من مثل هذه الحالات. في مقاله "مظاهرات جيدة من طرف البروليتاريين وحجج سيئة لبعض المثقفين"، التي ظهرت في العدد الأول من الصحيفة البلشفية فريود<sup>2</sup>، أشاد لينين بهذه التكتيكات بوصفها مظهرا من مظاهر الروح القتالية والقدرة على الإبداع عند الطبقة العاملة. أما المناشفة، فعلى النقيض من ذلك، كانوا مستعدين لتخفيف مطالبهم حتى لا يخيفوا الليبراليين، والتضحية باستقلال الحزب من أجل الوحدة معهم، وباختصار إخضاع الطبقة العاملة لما يسمى بالجنح التقدمي للرأسماليين. وهي السياسة التي تبناها ستالين في وقت لاحق تحت شعار "الجهة الشعبية". أما لينين فقد صب جام نقده على الفكرة قائلا: «هل يمكن بشكل عام أن يتم الاعتراف من حيث المبدأ بصحة تبني حزب العمال لمهمة تقديم مطالب سياسية للديمقراطيين الليبراليين أو لأعضاء الزيمستفو، والتي عليهم أن يدعموها إذا كان لهم أي حق في التحدث باسم الشعب؟» كلا، هذا النهج خاطئ من حيث المبدأ، ولن يؤدي إلا إلى الإضرار بالوعي الطبقي للبروليتاريا، وسيؤدي إلى السفسطة الأكثر عقما<sup>3</sup>.

كون أن الأساس الحقيقي لانقسام البلاشفة والمناشفة لم يظهر واضحا إلا بعد المؤتمر الثاني، هي مسألة أكدها العديد من الكتاب، بدءا من لينين الذي كتب أن "البلشفية باعتبارها تيارا أخذت شكلا واضحا في ربيع وصيف 1905"<sup>4</sup>. لم تبدأ الخلافات السياسية في الظهور إلا خلال عام 1904. وكتب سليمان شوارتز ما يلي: «وراء الاتهامات المتبادلة، بقيت الخلافات السياسية العميقة خفية. ولأن تلك الخلافات لم تكن واعية تماما فقد أقحمت العاطفة أكثر في النزاع، الذي بدا بالنسبة للأجانب والأعضاء الأقل تطورا داخل الحركتين وكأنه مشاحنات داخل الحزب. لم تظهر الخلافات السياسية إلى العلن إلا في أواخر 1904»<sup>5</sup>.

قال فيدور دان، أحد أهم قادة المناشفة: «اليوم، وبعد فوات الأوان من وجهة النظر التاريخية، صار من الناقل التأكيد أن الخلافات التنظيمية التي قسمت صفوف الإيسكرا، في المؤتمر الثاني، إلى بلاشفة ومناشفة، كانت مجرد غطاء للفروقات الفكرية والسياسية الوليدة، التي كانت أكثر عمقا، وفوق كل شيء، أكثر ثباتا من الخلافات بين الاقتصاديين وإيسكرا، التي صارت جزءا من الماضي وجرت تصفيتهما تماما من طرف المؤتمر. لم تكن خلافات تنظيمية، بل سياسية تلك التي قسمت بسرعة كبيرة صفوف الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية إلى تيارين تقاربا أحيانا ثم اصطدما مع بعضهما البعض أحيانا أخرى، لكنهما بقيا من حيث الجوهر حزبين مستقلين استمرا في الصراع مع بعضهما البعض حتى في الوقت الذي كانا فيه ما يزالان اسميا في إطار حزب واحد... لكن في ذلك الوقت، في بداية القرن، كان الطابع السياسي للانقسام بعيدا عن الوضوح، ليس فقط بالنسبة للمتبعين على الهامش، بل حتى للمشاركين في النضال التكتلي أنفسهم»<sup>6</sup>.

## قطيعة تروتسكي مع المناشفة

1: Ibid., p. 41 and p. 48.

2: LCW, vol. 8, pp. 29 -34.

3: Ibid., p. 508.

4: LCW, vol. 16, p. 380.

5: S. Schwarz, The Russian Revolution of 1905, the Workers' Movement and the Formation of Bolshevism and Menshevism, p. 32.

6: F. Dan, The Origins of Bolshevism, p. 250.

في مؤلفه الأخير "ستالين" أشار تروتسكي إلى أن الاختلافات الحقيقية لم تكن خلافات حول المركزية مقابل الديمقراطية، ولا حتى "الصلابة" مقابل "الليونة"، بل كانت أعمق بكثير. كتب قائلا: «صحيح أن الحزم والعزم شرطان مسبقان للشخص لقبول البلشفية، لكن هذه الأوصاف ليست حاسمة في حد ذاتها، فقد كان هناك عدد كبير من الأشخاص الحازمين بين صفوف المناشفة والاشتراكيين الثوريين، بينما لم يكن من النادر جدا أن نجد أناسا مترددين بين صفوف البلاشفة. ليست الصفات النفسية والشخصية هي كل ما يميز البلشفية التي هي، قبل كل شيء، فلسفة للتاريخ ومفهوم سياسي»<sup>1</sup>.

وفي سيرته الذاتية يتذكر تروتسكي كيف مال قسم من القادة السابقين نحو الليبراليين: «أصبحت الصحافة أكثر جرأة والأعمال الإرهابية أكثر تواترا. بدأ الليبراليون يستيقظون ونظموا حملة من المأدبات السياسية. صعدت المسائل الأساسية للثورة بسرعة نحو السطح. وصارت المفاهيم المجردة تأخذ في ذهني شكلا اجتماعيا ملموسا. كان المناشفة، وخاصة فيرا زاسوليتش، يضعون آمالا كبيرة على الليبراليين»<sup>2</sup>.

موقف تروتسكي من الليبراليين واضح في المقال الذي نشر في إيسكرا منتصف مارس 1904، حيث وصفهم بأنهم "فاترون غامضون ويفتقرون إلى الحزم وميالون للخيانة". كان هذا بالذات هو المقال الذي دفع بليخانوف إلى تقديم إنذار نهائي لمحوري إيسكرا يطالب فيه بطرد تروتسكي من هيئة التحرير. بعد ذلك اختفى اسم تروتسكي من إيسكرا وتوقف تعاونه مع المناشفة على جميع المستويات. كانت "جريمة" تروتسكي في تلك السنوات هي "النزعة التوفيقية"، أو بتعبير آخر: الدفاع عن الوحدة. لكن هذه النزعة التوفيقية كانت محاولة لإعادة توحيد الحزب، وهو الموقف الذي كان يشترك معه فيه العديد من أعضاء معسكر البلشفية والحزب بشكل عام. لم يكن أبدا دعوة للتصالح مع أعداء الطبقة العاملة من الليبراليين وما يسمى بالبرجوازية التقدمية، وهي الفكرة التي قضى لينين كامل حياته النضالية في الكفاح ضدها.

لم يكن هناك أي خلاف بين لينين وتروتسكي بشأن هذه المسألة. كتب تروتسكي: «كنت على اتفاق تام مع لينين حول هذه المسألة، والتي أصبحت أكثر أهمية كلما تعمقنا فيها. في عام 1904، وخلال حملة المأدبات الليبرالية، التي وصلت بسرعة إلى طريق مسدود، طرحت سؤال "ماذا بعد؟" وأجبت عنه بالطريقة التالية: لا يمكن تجاوز المأزق إلا بواسطة إضراب عام تليه انتفاضة البروليتاريا التي سوف تقود الجماهير ضد الليبرالية. فاقم هذا الموقف خلافاتي مع المناشفة».

لقد كان دعم المناشفة لليبراليين، وعلى وجه الخصوص دعمهم لحملة مآدبات الزيمستفو، هو ما دفع تروتسكي إلى القطع مع المناشفة في شتنبر 1904. وردا على أكاذيب الستالينيين بأنه كان منشفيا منذ عام 1903، قال تروتسكي: «كانت تلك العلاقة مع الأقلية في المؤتمر الثاني وجيزة. ولم تمض سوى عدة أشهر حتى بدأ يظهر اتجاهان داخل صفوف الأقلية. طالبت باتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق الوحدة مع الأغلبية في أقرب وقت ممكن، لأنني كنت أعتقد أن الانفصال كان حدثا عرضيا لا أكثر. أما بالنسبة للآخرين فقد كان الانقسام الذي عرفه المؤتمر الثاني بداية تطور نحو الانتهازية. قضيت سنة 1904 كلها أجادل مع المجموعات القيادية داخل المناشفة حول المسائل السياسية والتنظيمية. وتركزت النقاشات على مسألتين: الموقف من الليبرالية والموقف من البلاشفة. وقفت بدون هوادة ضد محاولات الليبراليين الاستناد على الجماهير، وفي الوقت نفسه، وبسبب ذلك، طالبت بعزم أشد باتحاد تيارى الاشتراكية الديمقراطية الاثنين»<sup>3</sup>.

وعلى الرغم من أن الخلافات السياسية بين البلشفية والمنشفة كانت قد بدأت تصعد إلى الواجهة، فإن كثيرا من القادة البلاشفة لم يفهموا موقف لينين ومالوا للتقليل من حدة الاختلافات. كان الاتجاه السائد بين تيار البلشفية داخل روسيا مدافعا عن المصالحة. لم تفهم الغالبية العظمى من نشطاء الحزب أسباب الانقسام، ورفضوه. في الواقع، حتى أقرب المتعاونين مع لينين كانوا يقفون ضده. وفي فبراير 1904، وبعد فترة طويلة من التردد، قررت اللجنة المركزية داخل روسيا رفض دعوة لينين لعقد مؤتمر بأغلبية خمسة أصوات مقابل واحد، وهو ما يعادل إدانة علنية لموقف لينين. كان أولئك الذين صوتوا ضده هم كرجيجانوف وكراسين وغالبرين وغوساروف ونوسكوف (صوتت زميلياشكا لصالح الدعوة). كان هؤلاء المناضلون قد عملوا بشكل وثيق مع لينين منذ تأسيس إيسكرا، أو حتى قبل ذلك، ولعبوا دورا بارزا في تنظيم التيار الماركسي الثوري في روسيا، كيف يمكن أن يتصرفوا بهذه الطريقة؟

1: L. Trotsky, Stalin, p. 50.

2: L. Trotsky, My Life, p: 166 (التشديد من آلان وودز).

3: I. Deutscher, The Prophet Armed, p. 86, p. 166. p. 165. (التشديد من آلان وودز).

لقد كانوا، من نواح كثيرة، نموذجاً للمناضلين البلاشفة، مناضلون لا يعرفون الكلل وعمالا حزبيين مخلصين ومنظمين جديدين ومنضبطين ومستعدين للتضحية بالنفس، لكنهم كانوا ما يمكن تسميته "العمليين"، الذين يتمثل عملهم في إنجاز مئات المهام التنظيمية التفصيلية، بدون مثل هؤلاء الأشخاص لا يمكن لأي حزب ثوري أن ينجح. لكن هناك أيضا جانب سلبي لعقلية "أعضاء اللجان" البلاشفة، كما كان يطلق عليهم: محدودية تنظيمية معينة وضيق النظرة وآفاق نظرية محصورة. يميل مثل هؤلاء حتما إلى النظر بنوع من الازدراء للتفاصيل الدقيقة للتاريخ وينظرون إلى مثل تلك الخلافات التي حدثت في المؤتمر الثاني بأنها مجرد خلافات مهاجرين، بدون أهمية عملية. وإذا كان الأغلبية منهم قد انحازوا في البداية إلى لينين وبلخانوف، فإن هذا لم يكن نابعا من أي التزام إيديولوجي عميق، بل لأن الموقف التنظيمي للأغلبية بدا لهم أكثر انسجاما مع "روح الحزب" الذي كان القوة المحركة لحياتهم.

لكن بعد انشقاق بليخانوف بدأت الأمور تبدو أكثر تعقيدا. بدأت الأغلبية السابقة تبدو الآن إلى حد كبير وكأنها أقلية، على الأقل داخل الهيئات القيادية. صار يبدو أن عزلة لينين الكاملة تأكيد لضعفه. وبالنسبة "للعمليين" بدت حجج بليخانوف أكثر قوة. لماذا كل هذه الضجة حقا؟ حاول لينين، في كتابه "خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء"، أن يوضح القضايا المبدئية التي يدور حولها الخلاف، لكن العديد من "أعضاء اللجان" لم يقتنعوا. في يناير 1904، كان لينين قد نظم أخيرا مكتبا للجان الأغلبية للدعوة للمؤتمر. تم إرسال عضوين من اللجنة المركزية، لينغنيك وايسن، إلى روسيا لهذا الغرض، لكنهما تعرضا للاعتقال. وفي الوقت نفسه، انتصر غالبية البلاشفة التوفيقيين داخل اللجنة المركزية على نصير لينين الوحيد: زيملياشكا. بدأت القيادة البلشفية تنهار. غوساروف المحبط توقف عن النشاط النضالي، واستقال كرجيجانوفسكي من اللجنة المركزية. بقية أعضاء اللجنة المركزية كراسين ونوسكوف وغالبرين - وهم جميعا من البلاشفة التوفيقيين - شرعوا في التحضير لانقلاب لامبدي.

في فصل الصيف، عندما كان لينين يقضي فترة نقاهة في جبال الألب السويسرية، عقد الثلاثي اجتماعا سريا للجنة المركزية ومرروا ما أصبح يعرف باسم "إعلان يوليو"، حيث دعوا إلى المصالحة بين البلاشفة والمناشفة، والذي كان في الواقع بمثابة الاستسلام لشروط الأقلية. قبلوا بـ "شرعية" هيئة تحرير إيسكرا الجديدة و"تفوق الجهاز المركزي في كل ما يتعلق بالدفاع عن المبادئ الأساسية لتكتيكات وبرنامج الاشتراكية الديمقراطية الأممية وتوضيحها".

شكلت هذه الإجراءات إدانة علنية للينين، الذي جردوه من الحق في تمثيل اللجنة المركزية في الخارج. بل إنهم أصروا حتى على الحق في فرض الرقابة على كتابات لينين ("نشر كتاباته... سيتم في كل مرة بالاتفاق مع أعضاء لجنة التنسيق")<sup>1</sup>. ومنعوا التحريض لصالح عقد المؤتمر الثالث. وعلاوة على ذلك تم تعيين نوسكوف لإعادة تنظيم العمل التقني للحزب في الخارج، مما يعني تصفية مؤيدي لينين من قبيل بونش-بريفيش، الذي كان مسؤولا عن نشر الأدبيات البلشفية في الخارج، وليادوف الذي كان مسؤولا عن الشؤون المالية. وبالإضافة إلى ذلك تم ضم ثلاثة بلاشفة توفيقيين وثلاثة مناشفة إلى اللجنة المركزية. عندما توصل لينين في النهاية بخبر ما كان يحدث، كتب رسالة غاضبة جدا إلى اللجنة يطعن في شرعية أفعالها. وبعث رسالة أخرى إلى أعضاء اللجان البلشفية يفضح فيها أنشطة اللجنة المركزية. بل إنه بعث حتى برسالة إلى إيسكرا يطلب منها عدم نشر الإعلان الفاقد للشرعية. لكن المحررين، وفي تجاهل منهم لطلب لينين، نشره في العدد 72 تحت عنوان "إعلان اللجنة المركزية". لم يتبق شيء للينين سوى أن يقطع جميع العلاقات مع التوفيقيين.

صار الوضع قائما بالفعل. كان كل ما تم تحقيقه في المؤتمر الثاني قد تحول إلى خراب. سقطت الهيئات القيادية، الواحدة تلو الأخرى، في يد الأقلية. بدا وكأن المارتوفيين قد انتصروا على طول الخط. وبدا لينين معزولا تماما. ومع ذلك فإن نصر المناشفة كان قد تحقق، في الواقع، عن طريق المناورة في القمة. لكن على مستوى القاعدة كانت الأمور مختلفة. كان عدد متزايد من اللجان ينادي بضرورة عقد مؤتمر جديد باعتباره السبيل الوحيد لحل الأزمة. لجان الحزب في بيتسبورغ وموسكو وبيكاتيرينوسلاف وريغا والاتحاد الشمالي وفورونيج ونيجيغورد، وربما الأكثر إثارة للاستغراب باكو وباتومي والاتحاد القوقازي، أعلنت دعمها [للبلشفة]. وحتى في الخارج وقفت المجموعات الاشتراكية الديمقراطية في باريس وجنوة وبرلين ضد المناشفة. ووفقا لرسالة كتبها لبييموف إلى نوسكوف في خريف عام 1904: «لقد تسببت مسألة الإعلان [إعلان اللجنة المركزية] في فوضى عارمة. هناك فقط شيء واحد واضح: جميع اللجان، باستثناء خاركوف والقرم وغورنوزافسك والدون، هي لجان تابعة للأغلبية... حصلت اللجنة المركزية على تصويت بالثقة كاملة في عدد ضئيل جدا من اللجان»<sup>2</sup>.

1: Istoriya KPSS, p: 509

2: Ibid., p:509.

بتشجيع من الاستجابة التي لقيها من داخل روسيا، نظم لينين اجتماعا تشاوريا (Conference) من 22 بلشفيا في سويسرا، شهر غشت عام 1904، والذي تبنى نداء لينين "إلى الحزب"، الذي أصبح دعوة لعقد المؤتمر الثالث للحزب. وصف لينين بنزاهته المعروفة الأزمة الخطيرة التي كان الحزب يمر من خلالها، وأضاف: «ومع ذلك، فإننا نعتبر أن المرض الذي يعاني منه الحزب هو جزء من آلام النمو. نحن نعتبر أن السبب الكامن وراء الأزمة هو انتقال حياة الاشتراكية الديمقراطية من شكل الحلقات إلى شكل الحزب؛ إن جوهر الصراع الداخلي هو الصراع بين عقلية الحلقات الصغرى وبين عقلية الحزب. وبالتالي فإنه فقط عن طريق معالجة هذا المرض سيمكن لحزبنا أن يصبح حزبا حقيقيا».

في هذه اللحظة فقط بدأ لينين يشير إلى القوى الطبقيّة التي تكمن وراء الانشقاق: «وأخيرا، يتشكل القسم الأكبر من كوادر المعارضة، بشكل عام، من تلك العناصر داخل حزبنا التي تتكون أساسا من المثقفين. الانتلجنسيا هي دائما أكثر فردانية من البروليتاريا، وذلك بسبب ظروف حياتها وعملها بالذات، والتي لا تعلمها بشكل مباشر العمل الجماعي المنظم. وبالتالي فإن المثقفين يجدون صعوبة في التكيف مع حياة الانضباط داخل الحزب، وهؤلاء منهم الذين لا يتكيفون معها من الطبيعي أن يعلنوا التمرد ضد الحدود التنظيمية اللازمة، ويرفعوا فوضويتهم الغريزية إلى مرتبة مبدأ للنضال، بعد أن يطلقوا عليها اسم الرغبة في "الاستقلالية الذاتية"، والدعوة إلى "التسامح"، الخ.

قسم الحزب في الخارج، حيث عاشت الحلقات منذ مدة طويلة نسبيا، وحيث يتجمع منظرون من مختلف الأطياف، وحيث تشكل الإنتلجنسيا الأغلبية بالتأكيد، هو القسم الذي كان لا بد أن يكون أكثر ميلا إلى وجهات نظر "الأقلية"، والتي صارت نتيجة لذلك الأغلبية الفعلية. أما داخل روسيا، من جهة أخرى، حيث صوت البروليتاريا المنظمة هو الأعلى، وحيث إنتلجنسيا الحزب بدورها، بفعل كونها على اتصال أوثق وأكثر مباشرة معها، يتم تدريبها بعقلية أكثر بروليتارية، وحيث مقتضيات النضال اليومي تجعل الإحساس بضرورة الوحدة المنظمة أكثر قوة، نجد معارضة شديدة لعقلية الحلقات والنزعات الفوضوية التخريبية»<sup>1</sup>.

وبحلول الخريف صارت الآفاق أمام البلاشفة تبدو أكثر إشراقا. تدريجيا تم تشكيل فريق قيادي جديد مع وصول قادمين جدد من روسيا، أناس مثل بوغدانوف ولوناتشارسكي وأولمينسكي. بعد شهر النقاهة في جبال الألب، تحسنت كثيرا حالة لينين الصحية. كتبت كروبسكايا: «كان الأمر كما لو أنه استحم في تيار الجبل وتخلص من آثار كل ما حيك ضده من المؤامرات الدنيئة»<sup>2</sup>. بدأت تصل تقارير مشجعة من روسيا، حيث كان يتم توزيع نداء "إلى الحزب" بشكل سري داخل لجان الحزب. وفقا لكروبسكايا، بحلول منتصف شتبر وقفت 12 لجنة، من أصل 20 لجنة تمتلك الحق الكامل في التصويت، لصالح عقد المؤتمر، وكان العدد ما يزال في تزايد. ابتداء من هذه اللحظة صار البلاشفة قوة منظمة حقيقية داخل روسيا. وبحلول نهاية العام تم تأسيس مركز تنظيمي بلشفي داخل روسيا، بدعم من 13 لجنة من لجان الحزب. ومع ذلك كان الوضع ما يزال هشاً للغاية.

على عكس خصومهم، كان البلاشفة يعانون من نقص حاد في الأموال. وفي البداية كانت مسألة إصدار جريدة غير واردة. وكبديل مؤقت، أنشأ لينين وبونش- بريفييتش "دار النشر لأدبيات الحزب الاشتراكي الديمقراطي"، التي بدأت مع مطلع شهر شتبر تنشر مقالات فردية للينين ومعاونيه. كانت هذه بداية على الأقل. لكن المناشفة كانوا يمتلكون كل الوسائل فيما يخص المنشورات. لم يكونوا يسيطرون فقط على جريدة إيسكرا المرموقة، بل كانت لديهم أيضا موارد جيدة من المال من متعاطفين أثرياء. ولم يترددوا في استخدام هذا التفوق سلاحا في الصراع الفصائلي. تتذكر كروبسكايا بمرارة كيف مارس المناشفة الضغوط على المتعاطفين ليوقفوا تقديم المساعدة للأغلبية: «لدينا، إيليتش وأنا، بعض الأشياء القوية لنقولها عن هؤلاء "المتعاطفين" الذين لم يكونوا ينتمون إلى أي منظمة ويتصورون أن تبرعاتهم التافهة يمكنها أن تؤثر على مجرى الأحداث داخل حزبنا البروليتاري»<sup>3</sup>.

كانت مسألة الأموال من الخارج بلا شك عاملا في استسلام البلاشفة-التوفيقيين في اللجنة المركزية للمركز الذي يسيطر عليه المناشفة في الخارج.

على الرغم من افتقارهم للموارد، قرر البلاشفة إصدار جريدة جديدة تحت اسم فريود (إلى الأمام). وفي اجتماع عقد في جنيف، يوم 03 دجنبر، تم انتخاب هيئة تحرير مؤلفة من لينين وف. ف. فوروفسكي وم. س. أولمينسكي وأ. ف. لوناتشارسكي، وكروبسكايا سكرتيرة. وكما جرت العادة، تمت مواجهة نقص الموارد المالية بتقديم التضحية الشخصية. ناضل الجميع لتوفير المال الضروري.

1: LCW, To the Party, vol. 7, pp. 455 -456.

2: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 106.

3: Ibid., p: 98.



سلم فوروفسكي جزءاً من مبلغ حصل عليه مقابل حقوق الطبع. وباع أولينسكي ساعة يد ذهبية. بطريقة أو بأخرى، تم تجميع مبلغ 1.000 فرنك، والذي كان كافياً بالكاد لإصدار عدد ونصف. لكن لم يصب أحد بالإجباط أمام هذا الوضع. وقد صدر العدد الأول من أول صحيفة بلشفية حقيقية بشكل منتظم يوم 22 دجنبر 1904. وبعد حوالي أسبوعين أصيب المنفيون السياسيون الروس بالدهشة لسماع هتافات صاحبة لباعة الجرائد في شوارع جنيف: "الثورة في روسيا! الثورة في روسيا!"



## الثورة الروسية الأولى

### التاسع من يناير 1905

«مولانا! نحن العمال وأطفالنا وزوجاتنا، والشيوخ العجزة الذين هم آباؤنا، جننا إليكم، مولانا، نلتمس العدل والحماية. نحن نعيش في فقر مدقع، نحن مضطهدون ومسحوقون بأعمال شاقة فوق طاقتنا؛ نتعرض للإهانة، وغير معترف بنا كبشر. نحن نعامل مثل العبيد الذين يجب عليهم أن يتحملوا معاناتهم في صمت. وقد تحملنا ذلك، لكنه يتم دفعنا أعمق فأعمق إلى التسول والانحطاط والجهل. الاستبداد والتعسف يشنقنا، ونحن نخنتق. مولانا لقد أنهكت قوانا! وقد عيل صبرنا، وحانت بالنسبة لنا اللحظة الرهيبة التي صرنا خلالها نفضل الموت على الاستمرار في معاناة عذاب لا يطاق».

بهذه الكلمات دشنت الطبقة العاملة في روسيا أول دخول حاسم لها إلى مسرح التاريخ، طالبة الرأفة من القيصر، "المبجل"، وهي تحمل عريضة في يدها وبقيادة كاهن. لكن بعد أحد عشر شهرا، ثارت نفس تلك الطبقة العاملة ضد الحكم المطلق وهي تحمل الأسلحة في يدها وبقيادة حزب ماركسي. خلال الشهور الموالية، تطورت الثورة الروسية الأولى بشكل ملحوظ، شاركت فيها كل فئات البروليتاريا وجميع الفئات المضطهدة الأخرى، ومرت عبر كل مراحل الصراع التي يمكن تخيلها واستخدمت كل أساليب الكفاح التي يمكن تصورها، من الإضرابات الاقتصادية والعرائض الموجهة للسلطات، إلى الإضرابات السياسية العامة والمظاهرات الجماهيرية، وصولا إلى الانتفاضة المسلحة. كشفت ثورة 1905 بالفعل، وإن بطريقة جنينية، جميع العمليات الأساسية التي ستكرر على نطاق أعلى بعد مرور 12 عاما. لقد كانت تدريبا لم يكن من الممكن بدونه تحقيق النصر النهائي للبروليتاريا في أكتوبر 1917. في سياق ثورة 1905، وضعت كل الأفكار والبرامج والأحزاب والقادة على المحك. كانت تجربة الثورة الأولى حاسمة للتطور المستقبلي لجميع تيارات الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية.

لكن الحقيقة هي أن بداية الثورة وجدت الحزب في حالة يرثى لها. عشية عام 1905 كان الحزب منهكا بشكل خطير بسبب الانقسامات والاعتقالات. وكانت الصراعات التكتلية الداخلية قد شلت أنشطته لعدة أشهر. كان مناظروه داخل روسيا مشوشين وتائهين. والبلاشفة بعد أن فقدوا السيطرة على مركز الحزب في الخارج، كانوا بدون جريدة، حتى صدر العدد الأول من فريود في دجنبر 1904. وكان النقص الحاد في الأموال يعني أنه حتى فريود أيضا ستعيش وضع غير مستقر. كان المناشفة يمتلكون موارد أكبر، إلا أنهم كانوا أقل عددا في الداخل، باستثناء بعض المناطق مثل الجنوب والقوقاز، لكن حتى هناك أيضا كانوا في موقف ضعيف نسبيا. ونظرا لطبيعة العمل السري، فإنه من الصعب جدا تقدير قوى البلاشفة الحقيقية في ذلك الوقت. منظمة الحزب في سان بيترسبورغ لم تنقسم رسميا حتى دجنبر 1904، عندما انشق المناشفة. لكن إلى حدود تلك اللحظة كان أنصار لينين في تصاعد. إلا أن الصراع الداخلي كان له تأثير ضار على عمل الحزب، وحول الانتباه نحو البيت الداخلي. يظهر هذا في عدد المنشورات البلشفية الصادرة في بيترسبورغ عام 1904: 11 منشورا فقط لمدة عام كامل، مقابل 55 منشورا في 1903 و117 في عام 1905<sup>1</sup>.

بشكل عام كانت المنظمة البلشفية داخل روسيا، خلال النصف الثاني من 1904، في حالة سيئة. الكثير من المتفرغين، كما رأينا، لم يفهموا حقا سبب الانقسام وتأثروا بشدة بفعل انشقاق الأعضاء التوفيقيين داخل اللجنة المركزية. وبالرغم من التشجيع والإصرار من طرف لينين، فإنهم مالوا إلى السير في ذيل المناشفة، الذين انتقلوا الآن إلى موقع الهجوم، وإرسال أعداد كبيرة من العناصر والمال إلى روسيا. في سان بيترسبورغ سرعان ما حققوا السيطرة على اللجنة التي كان يهيمن عليها البلاشفة. تسببت الأخطاء والجمود العام الذي ميز اللجنة في زيادة الاستياء بين عمال سان بيترسبورغ، الذين تحولوا تدريجيا إلى المناشفة. تبنت لجنة نارفا قرارا عبرت فيه عن "عدم الرغبة في مواصلة العمل تحت قيادة لجنة سان بيترسبورغ". وصوتت لجنة فاسيليف أوستروف على "انعدام الثقة نهائيا" في اللجنة التي يقودها البلاشفة. أعلنت فروع نارفا ونيفا وفاسيليف أوستروف و"جهة بيترسبورغ"، التي كانت تمثل الجزء

1: David Lane, The roots of Russian Communism, p: 71.

الأكبر من العمال، انشقاقها عن البلاشفة والتحاقها بالمناشفة. وبحلول دجنبر شكلت لجنة منفصلة. وقد واصلت لجتان متنافستان الوجود في سان بيترسبورغ إلى حين انعقاد مؤتمر ستوكهولم عام 1906.

كانت خسارة عدد من المناطق الرئيسية في سان بيترسبورغ ضربة قوية للينين. لقد حرمت البلاشفة من نقاط نفوذ رئيسية وسمحت للمناشفة بالحصول على السبق خلال الأحداث العاصفة التي شهدتها الأشهر الموالية. وما زاد الأمور سوءا هو أنه كان من الواضح أن تلك الخسائر كانت ناتجة بشكل رئيسي عن أوجه القصور عند القيادة البلشفية المحلية، والتي تظهر نوعيتها من خلال سيل رسائل الشكوى المرسلة إلى لينين. لا بد أنه شد شعره غضبا عندما كان يقرأ التقارير الحزينة التي كانت ترسلها له معاونته الرئيسية في سان بيترسبورغ، روزاليا زيملياشكا، التي كتبت: «لا نهاية لعدد المناشفة الذين توافدوا إلى روسيا. لقد تمكنت اللجنة المركزية من تحويل الكثير من الناس ضدنا. ليست هناك قوات كافية لمواصلة النضال وتقوية المواقع. المطالب بإرسال المزيد من الأشخاص تأتي من جميع الأنحاء. لا بد من القيام على الفور بجولة للجان. ليس هناك من يمكنه أن يقوم بذلك. أنا أهمل المكتب وغارقة في العمل المحلي. الأوضاع سيئة جدا. نحن بحاجة إلى القوات. الجميع يسأل. ليس هناك أحد يمكن العمل معه...».

ويستمر سيل الشكاوى: «نحن نواجه خطر فقدان مدينة تلو الأخرى لعدم وجود القوات. كل يوم أتوصل بأكوام من الرسائل من أماكن مختلفة، يلتمسون فيها [منا] إرسال القوات. والآن فقط توصلت برسالة غامضة من بيكاتيرينوسلاف. لقد كتبوا أنه إذا لم نقم بإرسال القوات والمال فورا فسوف نفقد بيكاتيرينوسلاف. لكن ليس هناك أي قوات: إنهم يتخلون عن النضال واحدا تلو الآخر ولا يأتي آخرون جدد. وفي الوقت نفسه عزز المناشفة مواقعهم في كل مكان. سيكون من السهل طردهم لو كان لدينا قوات. إن المكتب صار مجرد وهم لأننا كلنا مشغولون بالشؤون المحلية».

كتبت هذه السطور في 07 يناير 1905، قبل يومين من يوم الأحد الدامي. وأظهرت الشكاوى المستمرة حول «نقص القوات» شعور انعدام الثقة في العمال المتأصل عند رجال ونساء اللجان. وعضو أن يقوموا بضخ دماء جديدة في شرايين اللجان، ويشركوا أفضل العناصر من بين العمال والشباب، سعوا إلى الحلول السهلة، أي المطالبة بمزيد من المتفرغين من الخارج. يمكن للمرء أن يرى في كل سطر من هذه الرسائل العجز التام عن ربط الحلقات القيادية مع القوى الحية لحركة الطبقة العاملة. وفي معرض تعليقه على الوضع كتب ليتفينوف إلى لينين: «إن المشكلة هي أنها [زيملياشكا] لا تفهم مطلقا الحالة الحرجة والمؤسفة التي نحن فيها. محيطنا، إن لم يكن ضدنا في كل مكان، فإنه بالكاد معنا في أي مكان. ما زال الجزء الأكبر من العمال داخل الحزب يعتقدون أننا حفنة من المخربين دون أي قاعدة دعم، وأنه منذ المصالحة [بين اللجنة المركزية والمناشفة] تغير موقف اللجنة، وأن كل جهودنا ليست سوى تشنجات احتضار البلاشفة. لا يمكن لأي اجتماعات تشاورية (وخاصة السرية منها) ولا لأي تحريض أن يغير هذا الرأي الشائع. وأكرر إن وضعنا هش تماما وغير مستقر. يمكننا الخروج منه فقط عن طريق: 1) الدعوة على الفور لعقد المؤتمر (في موعد لا يتجاوز فبراير) و2) البدء فورا في إصدار جريدة. دون الإسراع في تحقيق هذين الشرطين نحن نسير إلى شكل من أشكال الخراب، وبخطوات عملاقة أيضا... على الأرجح سنخسر بيترسبورغ. لقد وصلت أسراب من المناشفة هناك... ويجب علينا تعبئة قواتنا لبيترسبورغ، لكن كيف يمكننا أن نصل إلى هناك؟».

كان البلاشفة في حالة من الفوضى، لكن موقف المناشفة، في الواقع، لم يكن أفضل بكثير. لم يكن أي من الفصيلين يتمتع بدعم العمال. كتب سليمان شوارتز: «كانت المنظمة الاشتراكية الديمقراطية في سان بيترسبورغ، قبل يناير 1905، ضعيفة بكل المقاييس. في دجنبر 1903، كانت المنظمة الاشتراكية الديمقراطية الموحدة تضم حوالي 18 دائرة في المصانع، وكان أعضاء الدوائر يتراوح ما بين 7 و10، وهو ما من شأنه أن يجعل مجموع الأعضاء العاملين لا يزيد على 180. وإذا كان للطلاب والمثقفين العدد نفسه، كما يبدو مرجحا، فإن مجموع الأعضاء كان يمكن أن يكون 360. خلال شتاء 1904 انخفضت عضوية اللجنة وأنشطتها، وكانت الروابط مع الخارج ضعيفة أو غير موجودة... ويقول نفس المراسل إن المناشفة بدورهم كانوا يفقدون الدعم: في إحدى المناطق حيث كان لديهم ما بين 15 إلى 20 دائرة، لم يتبق لهم، بحلول دجنبر 1904، سوى أربع أو خمس دوائر».

وفي مذكراته يصف القيادي المنشفي، ب. أ. غارفي، الموقف في كييف عشية 1905: «ندرة غريبة للأشخاص داخل المنظمة وبعد عن الجماهير العاملة ومصالحها اليومية، وحياة تنظيمية هزيلة بالمقارنة مع الماضي القريب، هذا هو ما أدهشني في كييف، مما دفعني إلى مقارنات حزينة مع الماضي، مع الحياة الحماسية لمنظمة أوديسا خلال فترة 1901 و1902. كانت هناك لجنة كييف وكانت هناك لجان قطاعية، وفي الفروع كان هناك دعاة يقودون دوائر الدعاية، وعادة ما كانت المنشورات توزع من خلال الدوائر، كان هذا عمليا كل شيء».

طيلة عام 1905 في كيبف وروستوف وموسكو كنا نواجه يوميا نفس الظاهرة: كانت منظمات الحزب تضم في الغالب شبابا بدون خبرة ومتهورين، كانوا مخلصين لكن تربطهم علاقات ضعيفة بالجماهير العاملة وليس لهم تأثير في المصانع. أما الاشتراكيون الديموقراطيون القدامى، الذين كانوا الطليعة الحقيقية للعمال المتقدمين، والذين تشكلوا في مرحلة الدعاية وما يسمى بالإقتصادوية، هؤلاء العمال القدامى، فقد كانوا في أغلبيتهم العظمى قد تنحوا جانبا. في كيبف وروستوف وموسكو، وإلى حين اندلاع إضراب أكتوبر، كنت مضطرا، ولم أكن الوحيد، إلى اللجوء إلى أساليب مصطنعة، إلى هذا الحد أو ذاك، من أجل إعادة "الشيوخ" إلى العمل الحزبي النشط. رتبنا اجتماعات خاصة وحفلات مسائية معهم، وناقشنا معهم، لكنهم كانوا يأتون إلى العمل الحزبي على مضض وكانوا ينظرون بعدم ثقة إلى منظمنا وأساليب عملنا<sup>1</sup>.

### «الزوباتوفية»

تزامن ضعف الحزب مع نهضة جديدة للحركة العمالية، التي كانت بالتالي مجبرة على التعبير عن نفسها من خلال قنوات أخرى. خلال الفترة ما بين 1900 و1902، خطرت على ذهن رئيس الأورخانا موسكو (الشرطة السرية)، س. ف. زوباتوف، فكرة إنشاء نقابات شرعية، تحت رقابة الشرطة، يسمح لها بالعمل وحتى انتخاب اللجان وتخضع لتدقيق الشرطة، وتقوم بالأنشطة شريطة أن تكون ذات طبيعة اقتصادية بحتة وليس سياسية. لم يعمل زوباتوف فقط على إنشاء نقابات شرعية، تحت سيطرة الشرطة (وهو التكتيك الذي أطلق عليه الثوريون بسخرية اسم «الاشتراكية البوليسية»)، بل ذهب أبعد من ذلك إلى تجنيد بعض الثوريين عملاء له. كان يقوم بزيارتهم في السجن، ويظهر لهم اهتماما أبويا براحتهم، ويجلب لهم الشاي والبسكويت وحتى الأدب الماركسي للقراءة. لم يكن ينظم جلسات الاستجواب في السجن بل في منزله، حيث كان يحاول إقناعهم بأن أفضل وسيلة للدفاع عن مصلحة العمال كانت هي المشاركة في «الحركة» التي أنشأها. ومن خلال الجمع بين القسوة وبين مثل هذه الأساليب، تورطت بعض العناصر الضعيفة أو الساذجة في نهاية المطاف وأصبحوا مخبرين بعد الإفراج عنهم. وبمجرد ما يتورطون يصبح تقريبا من المستحيل عليهم الهروب. لم يكن الثوريون يعاملون بلطف العملاء الاستفزازيين المعروفين.

كان زوباتوف أكثر ذكاء من قادة الشرطة القيصرية العاديين، ولمدة من الزمن كانت أساليبه ناجحة، بل كانت في الواقع ناجحة جدا! في مناخ من الاضطرابات العمالية العامة وفي ظل غياب منظمات شرعية جماهيرية حقيقية دخل العمال في نقابات البوليس بأعداد كبيرة. ومن أجل الحفاظ على ثقة العمال، لجأ ضباط الشرطة الأكثر حماسا حتى إلى تنظيم الإضرابات. كانت تلك النقابات تضم الآلاف من العمال، أكثر بكثير من الأعداد الصغيرة نسبي التي كانت تنشط داخل اللجان الاشتراكية الديمقراطية. وقد تمكن العمال، بفضل مبادرتهم المعهودة، من قلب الطاولة على البوليس وانهزوا الفرصة للضغط من أجل تحقيق مطالبهم وخلق تنظيمات قانونية في أماكن العمل. أعطت نقابات زوباتوف للعمال فرصة للتنظيم والتعبير عن مظالمهم، فبرز السؤال حول ما الموقف الذي ينبغي على الحزب الاشتراكي الديمقراطي اتخاذه تجاه هذه النقابات البوليسية الرجعية. بعد سنوات عديدة، وعندما كان العمال الروس قد تمكنوا بالفعل من حسم السلطة، أعطى لينين الجواب في راعته عن الاستراتيجية والتكتيكات الثورية: مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية: «في عهد القيصرية لم تكن لدينا، قبل سنة 1905، أية «إمكانات شرعية»، ولكن عندما نظم زوباتوف، عميل البوليس السري، اجتماعات وجمعيات عمالية موهلة في الرجعية من أجل اقتناص الثوريين ومكافحتهم، أرسلنا أعضاء حزبنا إلى تلك الاجتماعات وإلى تلك الجمعيات (وأنا شخصا أتذكر من جملتهم الرفيق بابوشكين، العامل المشهور في بيتسبورغ، الذي أعدمه الجنرالات القيصريون سنة 1906 رميا بالرصاص) فعملوا على إقامة الروابط مع الجماهير، وتمكنوا من القيام بدعايتهم وانتشال العمال من تأثير عملاء زوباتوف».

لم يحصر لينين ملاحظاته على الظروف الخاصة في روسيا القيصرية، بل أرسى قاعدة عامة تحكم مقاربة الماركسيين تجاه المنظمات الجماهيرية للبروليتاريا. فمن أجل بناء حزب ثوري حقيقي، لا يكفي إعلانه على ناصية الشارع، بل من الضروري إيجاد الطريق نحو الجماهير، بغض النظر عن كل العقبات، من الضروري التوجه نحو الجماهير أينما كانت:

«رفض العمل داخل النقابات الرجعية يعني ترك جماهير العمال غير المتطورة بشكل كاف أو المتخلفة تحت تأثير القيادات الرجعية، وعملاء البرجوازية والأرستقراطيين العماليين، أو «العمال الذين صاروا برجوازيين بشكل كامل...».

إن هذه «النظرية» السخيفة القائلة بأنه على الشيوعيين عدم الاشتراك في النقابات الرجعية تُظهر بمنتهى الوضوح الموقف

1: Schwarz, op. cit., 54, 54-55, 55, 72, 57.

الطائش لهؤلاء الشيوعيين "اليساريين" بخصوص مسألة التأثير في "الجماهير"، ومدى إفراطهم في الزعيق بصد "الجماهير". إذ كنت تريد مساعدة "الجماهير" واكتساب تعاطف "الجماهير" وموازرتها وتأييدها، عليك ألا تخاف من الصعوبات، أو من المكائد والمماحكات والإهانات والملاحقات من جانب "الزعماء" (الذين ولكونهم انتهازيين واشتراكيين- شوفينييين هم في أغلب الحالات، على ارتباط مباشر أو غير مباشر بالبرجوازية وبالشرطة)، بل عليك بالضرورة أن تعمل أينما توجد الجماهير. يجب أن تكون قادرا على بذل أية تضحيات، وعلى تذليل أعظم العوائق لأجل القيام بالدعاية والتحريض، بصورة منظمة وبعناد وصلابة وأناة، في تلك المؤسسات والجمعيات والاتحادات بالذات، حتى وإن كانت أشدها رجعية، حيث توجد الجماهير البروليتارية أو شبه البروليتارية»<sup>1</sup>.

كانت هذه دائما هي السمة المميزة لأسلوب لينين: الحزم المطلق فيما يخص المسائل النظرية والمبدأ، إلى جانب المرونة القسوى فيما يخص المسائل التكتيكية والتنظيمية. حاولت السلطات بناء جدار فاصل بين الماركسيين وبين الجماهير. لكن العمال الاشتراكيين الديمقراطيين نجحوا، بفضل عمل صبور ودقيق وتكتيكات مرنة، في كسر الحواجز واختراق النقابات وتخصيها بالأفكار الماركسية. وتحت الضغط الهائل في المصانع تحولت نقابات زوباتوف جزئيا إلى أجهزة للنضال. وبعد موجة إضرابات عام 1903، تعرض زوباتوف للإقالة من منصبه بطريقة مهينة. لكن حتى ذلك الحين استمرت هذه الحركة تلعب دورا. وقد كانت النقابة الزوباتوفية النموذجية هي "جمعية عمال المصانع وورشات العمل الروسية" بسان بيترسبورغ، والتي أنشأها الأب غريغوري غابون بإذن من الشرطة.

فشل العديد من الاشتراكيين الديمقراطيين في فهم ضرورة المشاركة في منظمة غابون من أجل الوصول إلى الجماهير. لقد أثارت معاملها الرجعية نفورهم منها. لم تكن تلك هي المرة الأولى أو الأخيرة التي عجز فيها الثوريون عن فهم الطريقة التي تتطور من خلالها الحركة الواقعية للطبقة العاملة. انطلقوا من فكرة صحيحة مجردة ("العمال بحاجة إلى حزب ثوري") وفشلوا في أن يأخذوا في الاعتبار التنظيم الحقيقي للعمال الذي تطور من الظروف الملموسة، والتي ليس لها أي تشابه مع أفكارهم المسبقة حول كيف يجب على تنظيم العمال أن يكون. ألم تكن تلك النقابة من صنع البوليس من أجل السيطرة على الطبقة العاملة؟ كيف يمكن للماركسيين أن يشاركوا في مثل هذا الرجز؟ لكن محاولات الحلقات الاشتراكية الديمقراطية الصغيرة كسب الجماهير مباشرة، بالاقتران على الدعاية والتحريض فقط، أثبتت عقمها. كان العمال المنظمون يتشكلون أساسا من بروليتاريين مؤهلين وذوي خبرة، ومعظمهم أعضاء في نقابة غابون، وكانوا ينظرون بارتياح إلى هؤلاء الشباب اليافعين الذين جاؤوا يحاولون تعليمهم الدروس. كانت دعايتهم تتبدد مثل البخار في الهواء. وصف المنشفي س. سوموف (إ. أ. بوشكين) الوضع في منظمته في سان بيترسبورغ في بداية ذلك العام قائلا: «ظهرت صورة حزينة جدا. لم يكن من الممكن العثور على منظمات تعمل بصورة جيدة إلا في قطاع نارفا فقط، بعمالها البالغ عددهم 30.000 على سبيل المثال، كانت المنظمة الاشتراكية الديمقراطية تتألف بأكملها من ست أو سبع دوائر من عمال شركة بوتيلوف وعمال مصانع السيارات والسكك الحديدية (كان هناك 05 أو 06 عمال في كل حلقة) وكان العمل يتم وفقا لأساليب قديمة، مع دورات تعليمية طويلة حول الاقتصاد السياسي والثقافة البدائية. صحيح أنه كان هناك أيضا تنظيم لقطاع ممثلي الحلقات، لكن من الصعب تحديد ما الذي كانت تفعله. لم تجد حياة المصنع أي صدى لها على الإطلاق داخل الحلقات. أما الغليان المتصاعد... الذي كان يجد تعبيرا له في حركة غابون النامية بقوة والتي جسدت بشكل واضح رغبة الجماهير العاملة في بناء تنظيم واسع وتحقيق الوحدة الطبقيّة، فقد تم تجاهله باعتباره نزع زوباتوفية. وعلاوة على ذلك، فإن معظم العمال الذين كانوا ينتمون إلى حلقتنا كانوا صغارا جدا في السن، خرجوا للتو من التدريب المهني وبدون أي تأثير على الإطلاق في أماكن عملهم»<sup>2</sup>.

كان هؤلاء الذين ينشطون في الحلقات العمالية يتشكلون عموما من الأشخاص الأكثر تأهيلا وتعليما بين العمال، كانوا بارعين في عملهم ولديهم شعور قوي بالفخر به، ليس في مجال السياسة فقط، بل في أماكن العمل أيضا. لقد كانوا وسطا من الصعب اختراقه. كتب أ. م. بويكو، وهو عامل في مصنع بوتيلوف، قائلا: «في تلك الأيام كان هناك شعور أنه إذا لم يكن العامل يتقن مهنته، ولم يصبح حرفيا جيدا، فإنه من ثم ليس زميلا جيدا. كانت وجهة النظر هذه تعود بجذورها إلى أيام حلقات الدعاية، كوستاشينا (kustashchina)، عندما كان الحرفيون كبار السن يعتبرون العمال غير المهرة مجرد دخلاء عليهم... فإذا بدأ شاب محادثة مع عامل تركيب أو خراطة ماهر من كبار السن سيقال له: "تعلم أولا كيف تمسك المطرقة واستخدام الإزميل والسكين، بعدها يمكنك

1: LCW, vol. 31, pp: 55 and 53.

2: Schwarz, op. cit., p: 56.

أن تبدأ في الحديث مثل رجل يمكنه أن يعلم الآخرين شيئاً ما»<sup>1</sup>.

## الأب غابون

كانت "نقابة" غابون، التي أنشئت في أبريل 1904، في الواقع جمعية ودية نظمت أنشطة التأمين والمكتبات والأنشطة الاجتماعية مثل الأمسيات الموسيقية التي كان يحضرها العمال مع أسرهم. كانت بمثابة صمام أمان حيث يمكن للعمال، إلى حد ما، التعبير عن شكواهم، لكن كل ذكر للسياسة كان محظوراً بشكل صارم. كان من بين أهدافها المعلنة التأكيد على نشر "الوعي القومي" بين العمال وتشجيع "المواقف العقلانية" بخصوص حقوقهم، و"النشاط لتسهيل التحسينات القانونية لأوضاع العمال العملية والحياتية". وبما أن قادة الجمعية فعلوا كل ما في وسعهم لاستبعاد الثوريين، فإنه لم يكن من المستغرب أن العمال والمثقفين الثوريين نظروا إلى المنظمة الجديدة بعين الشك والعداء الشديدين.

ومع ذلك، فإن جهود الشرطة وعملائها داخل النقابة لكبح الحركة العمالية بقيود الأطر القانونية باءت بالفشل. فتصاعد موجة الاستياء، التي طالت جميع شرائح المجتمع في سياق الحرب الروسية-اليابانية، بدأت تؤثر حتى على الفئات الأكثر تخلفاً بين صفوف الطبقة العاملة. حتى تلك اللحظة كانت معارضة النظام القيصري تأتي أساساً من بين المثقفين الليبراليين والطلاب. وكان يبدو أن أوسع شرائح الطبقة العاملة تقف بعيدة عن ذلك الصراع. لكن، وعلى الرغم من مظاهر الهدوء، كانت المصانع والأحياء العمالية تغلي بالاستياء. وكان كل ما هو مطلوب هو إيجاد نقطة ارتكاز من شأنها أن تمكن هذه السيرورة، التي تحدثت تحت السطح، من أن تجد لها صوتاً ووعياً وتعبيراً منظماً.

بعد اغتيال وزير الداخلية المكروه، بليهف، يوليوز 1904، حاول النظام، الذي كان في وضع ميؤوس منه بسبب الهزائم العسكرية ويشعر بالأرض تهتز تحت قدميه، (حاول) إحباط الثورة من تحت من خلال تقديم تنازلات من فوق. الانفتاح النسبي، الذي قام به النظام في خريف 1904، أعطى العمال مساحة أكبر للتنفس. وابتداءً من شتبر 1904 عقدت سلسلة من الاجتماعات الجماهيرية في مصانع بيترسبورغ، تحت رعاية جمعية غابون، التي أصبحت ذات شعبية متزايدة بين العمال. فئات جديدة من العمال، بدون خبرة في النضال، بدأت تنظم. صار تنظيم غابون آنذاك يضم حوالي 8.000 عضو وفروعاً في 11 حياً على الأقل من أحياء المدينة. كان هذا العدد أكبر بكثير من عدد العمال الذين شاركوا في أي وقت مضى في المنظمات الاشتراكية الديمقراطية، والذين بلغ عددهم 500 أو 600 عضو على أقصى تقدير.

لم يكن العمال الذين انضموا إلى نقابة غابون عمالاً اشتراكيين ديمقراطيين واعين، مثل العمال القدامى، بل كانوا عمالاً بسطاء تماماً، جماهير ساذجة سياسياً، جلبوا معهم كل الأحكام المسبقة التي تشربوها طيلة ألف سنة في الأوساط الفلاحية المتخلفة. وبقدر ما تزايد الظلم، كان الفلاح الروسي يعتبر أن ذلك كان خطأ "خدام القيصر"، وليس القيصر نفسه الذي كان "حامي الشعب". ولم يكن من قبيل الصدفة أن النقابة كانت برئاسة كاهن. لم يكن للماركسيين أي نفوذ حقيقي داخل الجمعية، على الرغم من وجود فئة كبيرة من العمال الذين سبق لهم أن مروا خلال المنظمات الاشتراكية الديمقراطية في العقد السابق، ثم تراجعوا إلى الوراء والآن عادوا إلى الظهور في هذا الوسط الجديد. من المهم أن نضع هذا في الاعتبار عندما نقرأ تلك المزاعم المعتادة حول أن ثورة 1905 كانت "حركة عفوية". كان عنصر العفوية موجوداً بطبيعة الحال، لكن وفي نفس الآن كانت الأحداث التي أدت إلى 09 يناير، في الواقع، بتخطيط مسبق من طرف مجموعة رائدة داخل منظمة غابون، تعمل تحت ضغط العمال، والذين كان الكثير منهم قد سمع الدعاية الماركسية خلال الإضرابات الكبيرة التي شهدتها عقد التسعينيات من القرن 19.

شخصية غابون نفسها يكتنفها الغموض. وكان الرأي السائد في الأوساط الماركسية في ذلك الوقت هو أنه كان مجرد عميل للشرطة، وأنه في الغالب خطط مع السلطات لمذبحة 09 يناير 1905. وينص التاريخ الموجز سيء الذكر الذي كتبه ستالين على أنه: «في عام 1904، وقبل إضراب بوتيلوف، استخدمت الشرطة عميلاً استفزازياً، هو كاهن اسمه غابون ... قام غابون بمساعدة الأورخانا القيصرية [الشرطة السرية] من خلال تمكينها من الذريعة لإطلاق النار على العمال وإغراق حركة الطبقة العاملة في الدم»<sup>2</sup>.

مما لا شك فيه أن غابون تعامل مع الشرطة عندما تم إنشاء النقابة، بل وكانت له اتصالات مع كبار أعضاء الحكومة. إلا

1: Surh, St Petersburg in 1905, p: 73.

2: Stalin, History of the Communist Party of the Soviet Union [Bolsheviks], p: 94.

أنه كان شخصية متناقضة جدا. في 09 يناير، عندما نجا من الموت على أيدي القوات القيصرية، سار جنبا إلى جنب مع الاشتراكي الثوري بنشاس روتنبرغ. وفي وقت لاحق اختبأ عند مكسيم غوركي، وأجرى مناقشات مع لينين في جنيف واقترب من البلاشفة. اقتنع لينين بطبع غابون البريء، الشبيه بالأطفال، لكن فهمه للثورة بقي في مستوى بدائي. حياة المنفى دمّرتة، كما دمّرت العديد من الآخرين، وصار محبّطاً، أدمن على لعب القمار، ثم عاد في الأخير إلى روسيا حيث، على ما يبدو، حاول استئناف اتصالاته مع الشرطة، حيث كتب رسالة إلى وزير الداخلية دونوفو. وأخيراً تم اغتياله في مارس 1906. ومن المفارقات، أن الرصاصة التي قتلته أطلقها عليه نفس الاشتراكي الثوري الذي كان قد سار إلى جانبه ذلك الأحد المشؤوم من شهر يناير.

إن الفكرة القائلة بأن غابون قد دفع بوعي العمال للذبح خاطئة بشكل واضح. طبيعة غابون المتناقضة كانت تعكس عقلية الجيل الجديد من العمال الذين وصلوا حديثاً من القرى ولم يتم استيعابهم سوى جزئياً داخل البروليتاريا، والذين جاؤوا حاملين معهم الكثير من الأفكار المسبقة وحتى الأفكار الرجعية. كان منظماً بارعاً وخطيباً مفوهاً وقائداً بالفطرة، كان يتحدث اللغة التي يمكن للعمال أن يفهموها. مع خليف غريب بين النضال والدين، وبين الصراع الطبقي والملكية، كان ينسجم مع الخطوات الأولى المترددة والمشوشة التي كانت تخطوها، نحو الوعي، ملايين الشرائح الأكثر انسحاقاً داخل المجتمع. غابون الذي هو بدوره ابن فلاح، تأثر في شبابه بالأفكار الثورية، كان يعبر بأمانة عن الوعي المشوش عند تلك الفئة الاجتماعية التي كانت رغبتها في الكفاح من أجل حياة أفضل في هذا العالم ما تزال متشابكة مع الأمل في الآخرة والإيمان بقدسية القيصر. لا أحد كان يعبر عن مشاعر الجماهير أفضل من غابون. ولهذا السبب عشقته الجماهير. كتب ليونيل كوشان: «خلال أوائل أيام يناير 1905 المتوترة، كانت له هالة زعيم ونبي... وكما كتب أحد المراقبين، كان الناس على استعداد للتضحية بحياتهم مقابل كل كلمة يقولها. وكان رداؤه الكهنوتي وصليبه بمثابة المغناطيس الذي جذب هذه المئات الآلاف من المعذبين»<sup>1</sup>.

مهما كانت دوافع غابون فإنه كان يثير قوى لم يكن، لا هو ولا أي شخص آخر، في إمكانه السيطرة عليها. وبينما وصفه الثوريون بكونه عميلاً استفزازياً، كانت السلطات تعتبره ثورياً خطيراً. لكن وبغض النظر عن نواياه الذاتية، فإن الوصف الأخير كان أقرب ما يكون إلى الحقيقة. إلا أنه لم يكن مجهزاً للتعامل مع القوى التي ساعد على بعثها. كان يعطي الانطباع على طول الخط بأنه مدفوع بأحداث خارجة عن سيطرته أو فهمه. وعشية المجزرة، عبر "زعيم الرجال" هذا عن حيرته قائلاً: «ما الذي سينتج عن هذا؟ يا إلهي، أنا لا أعرف. شيء كبير، لكن ما هو بالضبط، لا أستطيع أن أقول. من الذي يمكنه أن يفهم كل هذا؟»<sup>2</sup>.

أخيراً، في شهر دجنبر، انفجر الغضب والمرارة المتراكمتين بين صفوف عمال المصانع في إضراب عمال مصنع بوتيلوف للأسلحة، والذي كان معقلاً استراتيجياً لبروليتاريا سان بيترسبورغ. كانت هناك تجمعات عمالية جماهيرية قد بدأت تنظم، ابتداء من شهر ستمبر 1904، في المصانع تحت رعاية النقابة، والتي أعطت العمال فرصة للتعبير عن مظالمهم والبدء في تكوين فكرة عن قوتهم. أصيب أرباب العمل بالفزع وقرروا اتخاذ إجراءات صارمة. وكانت الشرارة التي أشعلت برميل البارود هي إقالة أربعة نشطاء ينتمون لنقابة غابون. يوم 28 دجنبر، عقدت نقابة غابون لقاءً جماهيرياً لعمال 11 مصنعا. كان المزاج الكفاحي المتزايد بين العمال يدفع ببطء حتى القادة الغابونيين إلى تبني مواقف أكثر كفاحية. مؤشر تغيير المزاج كان هو دعوة ممثلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي والاشتراكيين الثوريين لحضور الاجتماع. في ذلك الاجتماع تقرر إرسال وفد مع ملتصق إلى الإدارة ومفتشي الشغل والسلطات في سان بيترسبورغ، لشرح شكاوى العمال. ومع حلول يوم 03 يناير كان جميع العمال، البالغ عددهم 13.000 عامل، منخرطون في الإضراب. لم يبق داخل المصنع سوى اثنان من عناصر الشرطة. كانت مطالب المضربين هي يوم عمل من ثماني ساعات وفرض حظر على العمل الإضافي وتحسين ظروف العمل والخدمات الطبية المجانية ورفع أجور النساء العاملات والسماح بتنظيم لجنة تمثيلية وأداء الأجور عن أيام الإضراب.

## إضراب بوتيلوف

ربما كانت فكرة العريضة بالنسبة لغابون وسيلة لتحويل الحركة نحو قنوات آمنة. وربما كان غابون يعتقد فعلاً أنه يمكنه أن يكون وسيطاً بين القيصر و"أبنائه". لكن بمجرد ما تم طرحها، في سياق الغليان الذي كان تعرفه الجماهير، اتخذت هذه الفكرة، التي تبدو مهادنة، منطوقاً خاصاً بها. فكرة بعث نداء إلى القيصر وعريضة للمطالب أشعلت على الفور مخيلة الجماهير.

1: L. Kochan, Russia in Revolution, p: 87.

2: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 2, p: 43.

عقدت اجتماعات حاشدة في جميع أنحاء العاصمة، وانتقل غابون من اجتماع لآخر وألقى خطبا تزداد تجذرا باستمرار تحت تأثير الحالة المزاجية للجماهير، التي كانت تقابله بالتبجيل. يعطي تقرير لشاهد عيان انطباعا حيا عن الجو الحماسي الذي ساد تلك الاجتماعات، بشكلها شبه الإنجيلي، حيث كان غابون يدعو الله لقيادة العمال في النضال، ويحث العمال على الوقوف معا، والموت معا إذا لزم الأمر: «كان جميع الحاضرين في حالة نشوة، كان العديد منهم يبكون ويضربون الأرض بأقدامهم ويحركون الكراسي ويضربون بقبضاتهم على الجدران ويرفعون أيديهم إلى أعلى ويقسمون بأن يبقوا ثابتين حتى النهاية».

كانت الحركة تتطور بسرعة نحو الإضراب عام. وبحلول يوم 05 يناير، انخرط 26.000 عامل في الإضراب، ويوم 07 يناير، وصل العدد إلى 105.000 مضرب؛ وفي اليوم التالي وصل العدد إلى 111.000. كما بدأت الحركة تتخذ طابعا سياسيا أيضا، يوم 05 يناير صوّت العمال، في لقاء جماهيري، لصالح العقد الفوري للجمعية التأسيسية والحرية السياسية ووضع حد للحرب وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين. لقد جاءت المبادرة لهذه القرارات من عند العمال الذين تأثروا بالعداوة الاشتراكية الديمقراطية. فعلى مدى فترة طويلة من النشاط الاشتراكي الديمقراطي في التحريض والدعاية والتنظيم، دخل عدد كبير من العمال الطليعيين في اتصال، إلى هذا الحد أو ذاك، مع حلقات الدعاية الاشتراكية الديمقراطية. لقد تأثر عدد كبير منهم بالتحريض الجماهيري الذي قام به الاشتراكيون الديمقراطيون بشكل منتظم لمدة عشر سنوات على الأقل قبل 09 يناير. يظهر الدليل على أن الشعارات الأساسية للماركسيين قد تركت بصماتها على وعي الطبقة العاملة، في أن عددا من المطالب الاشتراكية الديمقراطية الرئيسية وجدت طريقها إلى عريضة غابون، بدءا من مطلب يوم العمل من ثماني ساعات، إلى مطلب الجمعية التأسيسية.

لكن وعلى الرغم من أن شعارات الاشتراكية الديمقراطية كانت تجد صدى لها، فإن الحزب نفسه كان ما يزال معزولا تماما وبلا تأثير. ويؤكد مارتوف، في تاريخه للحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية، والذي كُتب بعد ذلك ببضع سنوات، أنه: «... لم يكن في مقدور [الحركة] الاشتراكية الديمقراطية بفصيليها إلا أن تشاهد وقوع الأحداث العاصفة في بيتسبورغ، يناير 1905، ليس فقط خارج القيادة المباشرة للاشتراكية الديمقراطية، بل وحتى من دون ولو مشاركة مهمة من طرفها كحركة منظمة»<sup>1</sup>.

ويتأكد هذا من الجانب البلشفي من خلال تقارير المؤتمر الثالث التي أكدت أن: «أحداث يناير وجدت لجنة بيتسبورغ في حالة سيئة للغاية. وكانت صلاتها مع الجماهير العاملة قد تحطمت تماما بسبب المناشفة. ولم تتمكن من الحفاظ على بقائها في المدينة وجزيرة فاسيلي ومنطقة فيبورغ بصعوبة بالغة»<sup>2</sup>.

وكما هو الحال دائما، كانت كلمة السر عند الحركة الجماهيرية هي «الوحدة». كانت الجماهير ترى في الاشتراكيين الديمقراطيين عناصر غريبة قادمة من الخارج، وليس جزءا من حركتها. خلال أحد الجموعات العامة انتقد غابون متحدثا اشتراكيا ديمقراطيا قائلا: «لا تقحموا الخلافات بيننا، دعونا نسير نحو هدفنا المقدس تحت راية سلمية واحدة، مشتركة بين الجميع». لقد بدت سلطة غابون بدون منازع، وفي المقابل كان العمال ينظرون إلى الاشتراكيين الديمقراطيين الثوريين بعين الريبة. يعترف تقرير بلاشفة سان بيتسبورغ إلى المؤتمر الثالث، في أبريل، أنهم كانوا يتدخلون ببطء شديد في ما اعتبروه نقابة بوليسية رجعية، وأنهم لم يبدؤوا في إعطائها اهتماما جديا إلا عندما بدأ التحضير الفعلي للإضراب. في بعض أنحاء المدينة، ولا سيما منطقة فيبورغ، بدءوا يجدون آذانا صاغية، لكن في أماكن أخرى من المدينة، وجدوا الطريق وعرا. وفي كثير من الأحيان لم يكن يسمح لهم حتى بالكلام.

قال مندوب مدينة بيتسبورغ إلى المؤتمر: «حتى يوم 09 يناير كان موقف العمال تجاه اللجنة [البلشفية] عدايا للغة. تعرض محرضونا للضرب وتعرضت منشوراتنا للتمزيق، ولم يقبل عمال بوتيلوف، إلا على مضض، بمبلغ 500 روبل الأولى التي أرسلها لهم الطلاب»<sup>3</sup>.

وقد أكد ذلك كاتب منشفي، إذ قال: «في منطقة نارفا، حيث نشأت الحركة، في 08 يناير، رحب العمال بحماس بالمحتوى السياسي لعريضة غابون. وعندما حاول اشتراكي ديمقراطي وحيد إلقاء خطاب سياسي، تصاعد صراخ الاستهجان من حناجر العمال المجتمعين: «أزلوه!»، «ارموا به خارجا!»<sup>4</sup>.

يتضح الضعف العددي للاشتراكيين الديمقراطيين وعزلتهم في بداية الثورة من خلال كلمات ليفشيتس، الذي عبر عن إحباط

1: Ibid., vol. 2, p: 45.

2: Tretiy s'yezd RSDRP (Protokoly), p: 544.

3: Ibid., pp: 158 and 44.

4: J.L.H. Keep, The Rise of the Social Democracy in Russia, p: 157.



مناضلي الحزب في بيترسبورغ بسبب عدم قدرتهم على ممارسة تأثير حاسم قبل 09 يناير: «نحن حزب العمال كنا نعرف جيدا أن المسيرة السلمية المقبلة لن تؤد إلى أي شيء ذي قيمة، وسوف تتسبب للجماهير في مذبحه رهيبه. لكن أين كانت القوة التي يمكن بها الحيلولة دون تلك المذبحة التي يتحمل مسؤوليتها النظام القيصري ورجال الدين؟ مثل هذه القوة لم تكن موجودة»<sup>1</sup>. لكن وفي غضون 24 ساعة تحول الوضع برمته.

### الأحد الدامي

أثارت العريضة قدرا هائلا من الحماس عندما كانت تقرأ في المجالس العمالية الجماهيرية، حيث كانت تقابل في كل مكان بالتزكية. وبسذاجة تثير الاستغراب، كتب غابون إلى وزير الداخلية، عشية يوم الأحد الدامي، يطلب منه الإذن القانوني لتنظيم مظاهرة سلمية أمام قصر الشتاء. كتب له: «ليس للقيصر ما يخشاه، فأنا، باعتباري ممثلا لمجلس العمال الروس، وكذا زملائي والرفاق العمال، بل وحتى ما يسمى بالجماعات الثورية من مختلف الاتجاهات، نضمن حرمة شخصه. دعه يخرج مثل قيصر حقيقي، بقلب شجاع، للالتقاء بشعبه ويأخذ بيديه عريضتنا. التوقيع: الكاهن غابون ونواب العمال الإحدى عشر، سان بيترسبورغ، 08 يناير»<sup>2</sup>.

في محاولة من منظمي المسيرة تأكيد نواياهم السلمية، قاموا بمنع حمل الأعلام الحمراء. الاشتراكيون الديمقراطيون، وعلى الرغم من وجود شكوك جدية لديهم تجاه المظاهرة، قرروا بشكل صحيح، المشاركة جنبا إلى جنب مع بقية أبناء طبقتهم. وافق المنظمون على مشاركة الاشتراكيين الديمقراطيين لكن بشرط أن يسيروا في مؤخرة المظاهرة، وهو التدبير الذي أنقذ حياة الكثيرين منهم.

وفي حين كان قادة النقابة يبذلون كل ما في وسعهم لإقناع الحكومة بنواياهم السلمية، كانت هذه الأخيرة تستعد، في حالة من الذعر، لتعليم الجماهير درسا دمويا. بدأ العمال في التجمع أمام قصر الشتاء على الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأحد 09 يناير. سرعان ما صارت الساحة مكتظة بعدد وافر، ليس فقط من العمال، بل أيضا الطلاب والجماعات الاشتراكية والنساء والأطفال وكبار السن، في ما مجموعه 140.000 شخص. «وكما تم الاتفاق عليه، كانت المسيرة إلى القصر سلمية، دون أغاني ولا لافتات أو خطب. كان الناس يرتدون ملابس يوم الأحد، وفي بعض أنحاء المدينة حملوا أيقونات دينية وأعلام الكنيسة. كان المتظاهرون أينما التقوا بالقوات، يتوسلون لهم لكي يسمحوا لهم بالمرور. كانوا يبكون ويحاولون الالتفاف حول الحواجز، وحاولوا المرور عبرها. أطلق الجنود النار طوال اليوم، فسقط القتلى بالمئات والجرحى بالآلاف. من المستحيل التعرف على العدد الدقيق إذ أن الشرطة استولت على جثث القتلى ودفنتهم سرا في الليل»<sup>3</sup>.

لقد قتل وجرح 4600 شخص، على الأقل، في ذلك اليوم.

كشفت مذبحه 09 يناير أن «نيكولا الدموي»، كما صار يعرف بحق، لم يكن فقط رجلا قاسيا وخسيسا، بل كان أيضا ملكا غبيا جدا. تتذكر إيفا برويدو قائلة: «تردد صدى الرصاص الذي أطلق، يوم 22 يناير 1905، في جميع أنحاء روسيا. في كل مكان انتزعت الجماهير من لامبالاتها، وانتهى ذلك الاعتقاد القديم بطيبوبة «الأب المبجل»، لقد مات القيصر. حتى العمال الأكثر تخلفا فهموا ذلك جيدا»<sup>4</sup>.

بعد المجزرة، ارتد غابون في حالة رعب، صار يندد بالقيصر ويدعو لانتفاضة مسلحة. في اجتماع مشحون بالعواطف عقد في ليلة الأحد الدامي، أعلن غابون أمام تجمع للعمال: «لم يعد لدينا قيصر». جابت حشود من العمال الشوارع، غاضبة ويائسة، لكن دون قيادة. وفجأة صار نفس هؤلاء الثوار الذين كانوا يواجهون بالرفض وصيحات الاستهجان، بل ويتعرضون للضرب، محورا للاهتمام الشديد. وصف المندوبون البلاشفة عن مدينة بيترسبورغ إلى المؤتمر الثالث كيف خرج المحرضون البلاشفة، مساء 09 يناير، إلى الشوارع بحثا عن العمال لمخاطبتهم، لكنهم وجدوا أن الأمور قد تجاوزت بالفعل تلك المرحلة. لقد تعلم العمال، في غضون

1: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 3, p: 540.

2: Ibid., vol. 2, p: 45.

3: Trotsky, 1905, 92.

4: E. Broido, Memoirs of a Revolutionary, p: 116.

ساعات، أكثر مما كان يمكن لعقود من التحريض والدعاية أن تعلمهم.

«كانت تمر أمامنا عربات تحمل الموتى، ووراءها كانت تركض حشود من الناس وهم يهتفون "يسقط القيصر!". كان عليك فقط أن تلوح بيديك لمثل تلك الحشود لكي تتبعك إلى أي مكان تريد. في جزيرة فاسيلي كسر المحتجون أفعال متجر لخرقة الحديد وقاموا بتسليح أنفسهم بسيوف قديمة. خلق هذا انطبعا مثيرا للشفقة. في كل مكان يمكنك أن تسمع صرخة: "إلى السلاح! إلى السلاح!". وبحلول المساء خضع الموقف من المنظمة لتحول جذري. كانت الجماهير تستمع بحماس لمحرضينا. وكان في إمكان المنظمين أن يذهبوا إلى أي مكان يحلو لهم. وكان في الإمكان أن نرى نفس المزاج طيلة الأيام الموالية»<sup>1</sup>.

كتب ماركس ذات مرة أن الثورة تحتاج، في بعض الأحيان، لسوط الثورة المضادة لكي تتقدم إلى الأمام. وعلى الرغم من التأثير المنوم الذي مارسه غابون على العمال في ذلك الوقت، فإنه كان مجرد شخصية عرضية سرعان ما ألقته حركة الجماهير جانبا، مثل كمية من الزبد على قمة موجة قوية، تظهر زاهية للحظة قبل أن تختفي إلى الأبد. كان سبب نجاحه بالذات هو واقع أنه كان تجسيدا للمرحلة الأولى البدائية، العفوية، للحركة العمالية، للتحركات الأولى للجماهير نحو اكتساب الوعي. تميل مثل هذه الحركة في البداية بشكل حتمي إلى البحث عن الطريق السهل والمسارات المألوفة والعبارة المعروفة والقادة المشهورين. استغرق الأمر حدوث مجزرة الأحد الدامي لكي تتخلص عقول الجماهير من الأوهام في القيصر السائدة منذ قرون. ينمو وعي العمال في ظل الوضع الثوري بسرعة فائقة. وفي الواقع تمثل التحولات المفاجئة والحادة في مزاج الجماهير عنصرا أساسيا من عناصر المرحلة الثورية أو الماقبل ثورية. وبحلول نهاية العام، كانت الحركة الاشتراكية الديمقراطية الثورية قد صارت بالتأكيد قوة مهيمنة داخل الطبقة العاملة، وتسعى لوضع نفسها على رأس الأمة الثائرة.

من منفاه في سويسرا، أشاد لينين فوراً بأحداث يناير باعتبارها بداية الثورة في روسيا، وكتب قائلاً: «لقد تعلمت الطبقة العاملة درساً بالغ الأهمية في الحرب الأهلية: لقد حقق التعليم الثوري للبروليتاريا، في يوم واحد، أكثر بكثير مما قد يحققه في أشهر وسنوات من الحياة الراكدة الرتيبة البائسة. إن الشعار البطولي لبروليتاريا سان بيترسبورغ: "الموت أو الحرية!"، يدوي في جميع أنحاء روسيا»<sup>2</sup>.

قبل 09 يناير، كما سبق لنا أن رأينا، لم يكن العمال على استعداد لقراءة المنشورات الاشتراكية الديمقراطية، وغالبا ما كانوا يقومون بتمزيقها وحتى ضرب من يوزعونها. لكن وعي الجماهير قد تغير الآن. وصف أحد الاشتراكيين الديمقراطيين الوضع قائلاً: «الآن عشرات الآلاف من المنشورات الثورية صارت تبتلع بنهم. تسعة أعشار تلك المنشورات لم تكن تقرأ فحسب، بل كانت تقرأ حتى تبلى. والجرائد، التي كانت الجماهير العريضة، وخاصة الفلاحون، في الماضي يعتبرونها شأنا خاصا بالسادة، والتي عندما كانت تسقط في أيديهم عن طريق الصدفة كانوا يستخدمونها في أفضل الحالات للفسح، صارت الآن تطوى بعناية، بل ومحبة، وتفرد بلطف وتقدم لمن يعرفون القراءة، بينما تستمع الحشود الصامتة إلى "ما يكتبونه عن الحرب"... لم يكن الجنود وحدهم هم من يتحركون على طول كل خطوط السكك الحديدية ويتقاتلون تقريبا للحصول على صحيفة، أو غيرها من المطبوعات التي تلقى من نافذة قطار عابر، بل حتى الفلاحون في القرى القريبة من السكك الحديدية صاروا، منذ ذلك الحين، وأيضا لعدة سنوات بعد الحرب، يطلبون من الركاب "صحيفة صغيرة"»<sup>3</sup>.

## الثورة بدأت

قبل يومين فقط على الأحد الدامي، كتب الليبرالي والماركسي السابق، ستروفه، في مجلته أوزفوبوجيدني: "لا يوجد بعد شعب ثوري في روسيا"، وهو ما رد عليه تروتسكي بانتقاد لاذع، في سياق حديثه عن الليبراليين، قائلاً: «إنهم لا يؤمنون بالدور الثوري للبروليتاريا. وعوض ذلك يؤمنون بقوة عريضة الزيمستفوات [في إشارة إلى حملة المآدبات والعرائض التي أطلقها، خلال الخريف الماضي، الليبراليون المنظمون في الزيمستفوات]، وفي وايت وفي سفاتوبولك ميرسكي، وفي صنديق الديناميت، لا توجد أوهام سياسية لا يؤمنون بها. أما إيماننا بالبروليتاريا فهو الشيء الوحيد الذي يعتبرونه وهما»<sup>4</sup>.

1: Tretiy s'yezd RSDRP (Protokoly), p: 545.

2: LCW, The Beginning of the Revolution in Russia, vol. 8, p: 97.

3: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 2, part 1, pp: 36-37.

4: Trotsky, 1905, p: 95.

وقد كانت تلك الحركة الرائعة التي قامت بها البروليتاريا هي الجواب النهائي على جميع المشككين.

في 10 يناير، ظهرت المتاريس في سان بيترسبورغ. وبحلول 17 يناير، كان 160.000 عامل قد انخرطوا في الإضراب في 650 مصنعا في العاصمة. واجتاحت الحركة الجماهيرية العفوية التضامنية مع عمال بيتسبورغ البلاد كلها. تسببت أحداث الأحد الدامي في رد فعل فوري من جانب الطبقة العاملة. وفي شهر يناير وحده شارك أكثر من 400.000 عامل في إضرابات في جميع أنحاء روسيا. وخلال الفترة الممتدة ما بين 14 يناير و20 منه، كانت العاصمة البولونية في قبضة إضراب عام ثوري شارك فيه عمال المصانع وسائقو الترام وسائقو الحافلات وحتى الأطباء. صارت المدينة، التي احتلت من طرف القوات الروسية، تشبه ساحة حرب. في 16 يناير دعت الجماعات الاشتراكية إلى مظاهرة شارك فيها 100.000 عامل. القوات التي أرسلت لتفريق الحشود أطلقت 60.000 رصاصة. وفي غضون ثلاثة أيام، وفقا للأرقام الرسمية، سقط 64 قتيلًا وجرح 69 توفي منهم 29 في وقت لاحق. وتم فرض حالة الحصار.

منطقة البلطيق بدورها اجتاحتها التيار الثوري. وشهدت ريغا وريفيل وجميع المدن الأخرى حركات ثورية جماهيرية. كان مركز الحراك هو مدينة ريغا حيث نظم 60.000 عامل إضرابا سياسيا عاما، في 13 يناير، ونظم 15.000 عامل مسيرة احتجاجية. أمر الحاكم العام الروسي، أ. ن. نيلر- زاكوميلسكي، القوات بإطلاق النار على الحشود، مما أسفر عن مقتل 70 شخصا وجرح 200. وبالرغم من القمع الشرس، واصلت حركة الإضرابات الامتداد كالنار في الهشيم عبر بولونيا ودول البلطيق. وقد برزت حالة مماثلة في منطقة القوقاز حيث اندلع إضراب عام سياسي بها. عبرت الحركة جميع الحدود القومية، حيث عبر العمال، البولونيون والأرمن والجورجيون والليتوانيون واليهود، عن تضامنهم مع إخوانهم الطبقيين الروس بالطريقة الأكثر عملية، أي بالنضال ضد النظام الاستبدادي الروسي الممقوت. والأخطر من ذلك كله، من وجهة نظر الحكومة، اندلاع إضراب للسكك الحديدية في ساراتوف، في روسيا الوسطى، يوم 12 يناير، والذي سرعان ما انتشر إلى خطوط السكك الحديدية الأخرى، مساهما في امتداد الموجة الثورية إلى المحافظات الأكثر تخلفا.

كان لحركة العمال تأثير على جميع الطبقات في المجتمع. فالتراجع العام للنظام شجع ليس فقط العمال، بل أيضا الطبقة الوسطى والبرجوازيين الليبراليين والطلاب. «لقد عزز نضال العمال موقف العناصر الراديكالية بين صفوف المثقفين، مثلما كان مؤتمر الزيمستفو، في وقت سابق، قد وضع ورقة رابحة في أيدي العناصر الانتهازية»<sup>1</sup>.

أثارت هذه الحركة الرعب في الدوائر الحكومية. بعد يوم الأحد الدامي، أزادت الزمرة الحاكمة التحرك بسرعة في اتجاه الردة الرجعية، كما دلت على ذلك إقالة الليبرالي سفاتوبولك ميرسكي وتعيين البيروقراطي المحافظ بوليغين، ومنح صلاحيات ديكتاتورية، غير محدودة تقريبا، للجنرال ترييوف. لكن كل حساباتهم سقطت في حالة من الفوضى. وتحت ضغط حركة الإضرابات المتزايدة، أصدر القيصر، في 18 فبراير، أول بيان له، ألمح فيه إلى الدستور والتمثيلية الشعبية. لقد تمكنت الطبقة العاملة، من خلال نضالها الموحد، من أن تحقق في أسبوع واحد أكثر مما تحقق خلال كل سنوات الخطب والعرائض والمآذب التي نظمها البرجوازيون الليبراليون.

موجات الصدمة التي تدفقت من 09 يناير دفعت الحركة بأكملها نحو اليسار. بدأ المد يتدفق بقوة لصالح العمل الثوري والاشتراكية الديمقراطية الثورية. والعمال البلاشفة والمناشفة، الذين تجنبهم بالأمس زملائهم في العمل وشككوا فيهم، صاروا الآن في القيادة بجميع المصانع. لا يمكن للمرء أن يغفل الدور الهام الذي لعبه هؤلاء المحرضون العماليون الواعون في تطوير موجة الإضرابات، على الرغم من طابعها العفوي ظاهريا. وقد لاقت أنشطة الشوار مساعدة كبيرة من طرف الجنرال ترييوف الذي تفضل بنفي أعداد كبيرة من "مثيري الشغب" من سان بيترسبورغ إلى المحافظات الأخرى، حيث شكلوا خميرة للحركة الثورية فيها.

بعد يوم الأحد الدامي، شهد الوضع تغيرا جذريا. وكانت الفرص التي تكشفت أمام الماركسيين الروس هائلة. لكن الحزب، الذي كان ما يزال يعاني من آثار الانقسام، كان يعيش حالة سيئة للغاية تمنعه من الاستفادة من تلك الفرص. وتوضح لنا نظرة خاطفة على مراسلات لينين في ذلك الوقت الحالة المزمنة للمنظمة، ولا سيما فيما يتعلق بالاتصال بين المناضلين البلاشفة داخل روسيا وبين مركز القيادة في الخارج: «هذا لطيف: نتحدث كثيرا عن التنظيم وعن المركزية، بينما في الواقع هناك تفكك للتنظيم وسيادة الهواية حتى بين أقرب الرفاق في المركز، إلى حد أن المرء يشعر بالرغبة في البصاق اشمزازا. فلنلق مجرد نظرة على البونديين: إنهم لا يثرون حول المركزية، لكن كل واحد منهم يكتب إلى المركز بشكل أسبوعي وتتم المحافظة بالفعل على الاتصالات... حقا، أعتقد أحيانا أن تسعة أعشار البلاشفة هم في الواقع شكلانيون [Formalists]. إما أن نوحده في منظمة حديدية

1: Ibid., p: 96.

قوية فعلا جميع الذين يريدون النضال، من أجل خوض المعركة، بهذا الحزب الصغير لكن الحازم، ضد عناصر إيسكرا الجديدة [أي المناشفة] المترهلة المتنافرة، أو سنثبت بسلوكنا أننا نستحق أن نختفي لكوننا شكلايون حقيرون... يمتلك المناشفة مبالغ أكثر وأعدادا أكبر من الإصدارات ومن وسائل النقل ومن الكوادر و"الأسماء"، وفريقا أكبر من المتعاونين. سيكون من الصبيانية التي لا تغتفر ألا نرى ذلك»<sup>1</sup>.

وفي حين يمكننا التغاضي عن بعض عناصر المبالغة في مشاعر لينين الطبيعية بالإحباط ونفاد الصبر، فإن الاتهام بالنزعة الشكلانية الموجهة ضد فئة من المحترفين البلاشفة في روسيا لم يكن على الإطلاق من قبيل الصدفة. أعضاء اللجان البلاشفة، الذين انطلقوا من موقع متفوق بشكل واضح بين مناضلي الحزب داخل روسيا، عندما واجهتهم بشكل غير متوقع حركة الجماهير المتفجرة عجزوا عن التفاعل معها بالمرونة اللازمة، وبالتالي ارتكبوا الأخطاء، وكثيرا ما فقدوا زمام المبادرة. في الوقت الذي كان فيه مئات الآلاف من العمال والشباب يدخلون إلى الحياة السياسية ويبحثون عن الطريق الثوري، كانت الحاجة ملحة إلى فتح أبواب الحزب، والسماح بدخول على الأقل أفضل العناصر بين الجماهير. لكن أعضاء اللجان، الغارقين في عادة العمل السري والعمل داخل الحلقات الصغيرة، ترددوا في السير قدما وإفساح الطريق لدخول فئات جديدة شابة. لقد وجدوا مئات الأعذار لعدم الانفتاح: "العمال ليسوا على استعداد للانضمام" و"ضرورة الحفاظ على الأمن"، وما إلى ذلك. وقد فكروا بالطريقة التالية: «قبل كل شيء، ألم يكن الخلاف الأساسي بين لينين ومارتوف، خلال المؤتمر الثاني، يدور حول ضرورة الحفاظ على نقاء الطليعة الثورية من خلال عدم إغراقها بالكثير من العناصر الجاهلة والمتخلفة؟ يجب علينا أن لا نتساهل في مسألة العضوية».

صحيح أن لينين قد دافع، عام 1903، عن تقييد عضوية الحزب، لكنه دافع الآن، بشدة أكبر، عن ضرورة فتح أبواب ونوافذ الحزب وترك أكبر عدد ممكن من العمال والشباب يدخلون. قال: «نحن بحاجة إلى قوات شابة، أنا مستعد لإطلاق النار فوراً على أي شخص يزعم أنه لا يوجد أناس. يوجد الكثير من الناس في روسيا: كل ما علينا القيام به هو كسب المزيد من الشباب على نطاق أوسع وبجراحة أكبر، وبجراحة أكبر وعلى نطاق أوسع، ومرة أخرى بجراحة أكبر دون الخوف منهم. هذا زمن الحرب. والشباب -الطلاب وبشكل أخص العمال الشباب- هم من سيقرون مصير الصراع كله. تخلصوا من كل عادات الجمود القديمة واحترام التراتبية وهلم جرا. شكلوا مئات الحلقات للفريوديين [أي البلاشفة] بين الشباب وشجعوهم على العمل بكل حيوية. وسعوا حجم اللجان ثلاثة أضعاف بقبول الشباب داخلها، أنشؤوا عشرات اللجان الفرعية، "استقطبوا" كل شخص نزيه ونشيط. اسمحوا لكل لجنة فرعية بكتابة ونشر منشورات دون أي روتين (ليس هناك ضرر إذا ارتكبوا الأخطاء: نحن في فريود سوف نصحبها "بلطف"). يجب علينا، بسرعة هائلة، أن نوحّد جميع الناس ذوي المبادرة الثورية ونجعلهم يعملون. لا تخافوا من افتقارهم إلى التدريب، لا ترتعشوا من انعدام خبرتهم وضعف تطوّرهم... [لأن] الأحداث نفسها سوف تعلمهم أفكارنا. إن الأحداث تعلم الجميع بالفعل أفكار فريود، على وجه التحديد.

يجب عليكم فقط أن تتأكدوا من تنظيم وتنظيم وتنظيم الملفات من الحلقات، وتدفعوا إلى الوراء تماما بكل العادات وبتفاهات اللجان (الهرمية). هذا زمن الحرب. إما أن تبنيوا منظمات كفاحية جديدة وشابة وحيوية في كل مكان، من أجل العمل الاشتراكي الديمقراطي الثوري من جميع الأصناف ومن جميع الأشكال وبين جميع الشرائح، أو سوف تهلكون وأنتم تحملون اسم بيروقراطيي "اللجان"<sup>2</sup>.

وليذكر رفاقه بأن "قوة المنظمة الثورية تكمن في عدد من علاقاتها"، كتب لينين إلى غوسيف، في 15 فبراير: «يجب على الثوري المحترف أن يخلق عشرات العلاقات الجديدة في كل مكان، ويضع كل العمل بين أيديهم بينما هو معهم يعلمهم ويحفزهم ليس عن طريق إلقاء المحاضرات عليهم، بل من خلال العمل. ثم عليه أن ينتقل إلى مكان آخر، وبعد شهر أو شهرين يعود للاطمئنان على الشباب الذين حلوا محلهم. أؤكد لكم أنه يوجد بيننا نوع من الحماسة والخوف من الشباب، الجدير بأشبهه أوبلوموف. أناشذكُم: حاربوا هذا الخوف بكل قوتكم»<sup>3</sup>.

تكشف هذه الأسطر بشكل لافت للنظر جوهر أسلوب لينين، ولا سيما في ما يخص المسائل التنظيمية. فمع تأكيده على ضرورة وجود منظمة ثورية قوية ومركزية، كان موقف لينين بخصوص المسائل التنظيمية مرنا للغاية دائما. بعد المؤتمر الثاني، حاول

1: LCW, A Letter to A. A. Bogdanov and S. I. Gusev, February 11, 1905, vol. 8, pp:143-145.

2: Ibid., p: 146.

3: LCW, To S.I. Gusev, February 15, 1905, vol. 34, pp: 296-297.

المناشفة تشويه صورة لينين باتهامه بأنه بيروقراطي يسعى لبناء حزب مكون من نخبة من الثوريين المحترفين والمتقنين، والذي من شأنه استبعاد العمال العاديين الذين عليهم تنفيذ الأوامر القادمة من "المركز المطلق القوة". هذا الكاريكاتير، الذي تكرر بشكل خبيث ومبالغ فيه من قبل المؤرخين البرجوازيين، هو عكس الحقيقة، كما يوضح بشكل لا يقبل الجدل الاستشهاد أعلاه -والذي يعود لتلك الفترة التي نتحدث عنها-.

### لجنة شيدلوفسكي

إدراكا منه للخطر الذي كان يواجهه من جميع الجهات، تصرف النظام بمزيج من القسوة والمكر. وفي نفس الوقت الذي سعت فيه الحكومة إلى سحق الحركة عبر القيام باعتقالات جديدة وعمليات ترحيل وفرض الأحكام العرفية وتنظيم المذابح، حاولت جذب البرجوازية الليبرالية ببيان 18 فبراير ومجموعة من المناورات التي كانت تهدف إلى تقسيم وتضليل الطبقة العاملة. كما لجأت إلى الخدعة الشهيرة التي تلجأ إليها الطبقات الحاكمة في جميع البلدان، عندما تشعر بأنها محاصرة، حيث شكلت لجنة برئاسة الحاكم شيدلوفسكي "للتحقيق في أسباب السخط بين العمال". كان الهدف من وراء هذه الحيلة بوضوح هو محاولة تهدئة الوضع، وإبعاد العمال عن العمل الثوري ومنعهم من التحرك في اتجاه الماركسية. وفي خطوة غير مسبوق، أعلنت الحكومة أن العمال سيكونون ممثلين في اللجنة عن طريق مندوبين منتخبين.

طرحت هذه المناورة على الماركسيين مشكلة تكتيكية. فمن جهة، كانت الأهداف الرجعية للحكومة واضحة جدا، لكن، من ناحية أخرى، كان رفض المشاركة يعني التخلي عن فرصة رائعة لحمل الأفكار الاشتراكية الثورية إلى جماهير العمال. بالنسبة للقادة المناشفة، مع ميولهم الانتهازية، لم تكن هناك أية مشكلة، إذ أنهم دعوا على الفور إلى استخدام اللجنة "منبرا" يمكن من خلاله مخاطبة عمال كل روسيا. لكن المزاج السائد بين البلاشفة في بيتسبورغ كان لصالح المقاطعة في البداية. وقد كان نفس المزاج سائدا أيضا بين العمال المناشفة، الذين كانوا يقفون بعيدا على اليسار من قاداتهم في المنفى. في المؤتمر الثالث، قال روميانتسيف (اسمه "فليوف" في التقارير) إنه: "لا توجد خلافات حول الحاجة إلى مقاطعة اللجنة [لجنة شيدلوفسكي]"<sup>1</sup>. ومع ذلك، فقد كان المزاج العام بين الأغلبية الساحقة من العمال لصالح المشاركة، وسرعان ما عدل البلاشفة موقفهم لصالح المشاركة، على الأقل في انتخاب المندوبين، مستفيدين بالكامل من الفرص القانونية المتاحة لممارسة التحريض بين فئات من العمال أوسع مما يمكنهم عادة.

تواصلت حركة الإضرابات واشتدت، وتراوحت المطالب التي طرحها العمال بين المطالبة بالماء الساخن لصنع الشاي ومرافق الغسيل، وبين المطالبة بيوم عمل من ثماني ساعات وجمعية تأسيسية. وقد أظهر المطالبان الأخيران تأثير الأفكار الاشتراكية الديمقراطية. كان المطلب الأكثر أهمية هو حق العمال في انتخاب نوابهم وأنه يجب أن يتمتع ممثلوهم المنتخبون بالحصانة. وقد استبق هذا تشكيل السوفييتات في الأشهر المقبلة. وبينما اعتقدت السلطات أن إنشاء اللجنة من شأنه أن يوقف الحركة الجماهيرية، فإنها سرعان ما استيقظت على واقع لم يسعدها. كتب سوره: «كانت القواعد العمالية أكثر تصلبا من نوابها وأقل رغبة في تأجيل الإضرابات ووضوح مطالبها لمداولات اللجنة».

من خلال النضال الجماعي بدأ العمال يدركون قوتهم باعتبارهم طبقة ويدركون قيمتهم وكرامتهم باعتبارهم بشرا. وكان المطلب المشترك الذي يعكس صحة الوعي عند العمال، هو مطلب التعامل باحترام مع العمال من قبل المديرين والمراقبين. نجد في قائمة مطالب عمال بوتيلوف: «المعاملة المهذبة، دون قيد أو شرط، من قبل إدارة المصنع، تجاه جميع العمال دون استثناء، وإلغاء استخدام مصطلح "تاي" مع العمال». [تاي] هو الصيغة المألوفة لقول "أنت" لمخاطبة الأطفال والخدم والعييد]. وقال عمال أحواض السفن بالبليطس إنه: «يجب على المراقبين ومساعد المراقبين، وكل الإدارة عموما، أن يعاملوا العمال باعتبارهم بشرا وليس كأنهم أشياء... وعدم استخدام الكلمات غير المهذبة وغير الضرورية، كما هو الحال الآن»<sup>2</sup>.

كانت المطالبات بعزل المراقبين الممقوتين مدعومة في الغالب بالنضال المباشر. كان العمال يقبضون على الجاني ويضعونه في كيس ويرمونه خارج المصنع. بحلول 18 مارس، كانت مفتشية المصانع قد سجلت أكثر من 20 حالة من هذا القبيل في سان بيتسبورغ. وبعد حدوث حالتين من هذا القبيل في مصنع بوتيلوف اتضح أن المراقبين تعلموا حسن الخلق، وأصبحوا مهذبين للغاية مع العمال. وقر مزاج الثقة الجديد عند الطبقة العاملة أرضا خصبة للتحريض الثوري. وبلاستفادة من الفرص الشرعية التي قدمها

1: Tretiy s'yezd RSDRP (Protokoly), p: 179.

2: G.D. Surh, 1905 in St Petersburg, pp: 209 and 181.

شيدلوفسكي، اكتسح المحرضون البلاشفة والمناشفة أماكن العمل بمنشوراتهم وتحديثوا في العديد من اللقاءات الجماهيرية. كان تكتيك كلا الفصيلين هو المشاركة في الانتخابات، لاستخدامها منبرا للوصول إلى عدد كبير من العمال، لكن مع رفض المشاركة في اللجنة نفسها حتى تلبية مطالب معينة.

وقد بينت الأحداث اللاحقة صحة قرار المشاركة في الحملة لانتخاب لجنة شيدلوفسكي. يوم 17 فبراير، تقدم 400 مرشح للانتخابات، 20% منهم اشتراكيون ديمقراطيون، و40% "عمال راديكاليون" والباقي عمال اقتصاديون وغيرهم. لكن وعلى الرغم من كونهم أقلية، فقد تمكن المندوبون البلاشفة من ضبط نغمة الاجتماعات. إلقاء القبض على عدد من المندوبين خلق مزاجا من الغضب الشديد مكن البلاشفة من تقديم ما يرقى إلى إنذار نهائي للحاكم شيدلوفسكي، طالبوا فيه بحرية التعبير والتجمع، وحق المندوبين في القيام بأنشطتهم دون منع أو عرقلة، وحقهم في الاجتماع والمناقشة بحرية مع ناخبهم وإطلاق سراح رفاقهم المعتقلين. لكن، في اليوم التالي، وعندما كان من المقرر حساب الأصوات، قررت الحكومة أن الأمور قد خرجت عن نطاق السيطرة ورفضت قبول مطالب العمال، وعندها تطورت حملة المقاطعة إلى الأمام بشكل جدي. وبعد أن مروا من تجربة اللجنة، جنبا إلى جنب مع بقية الطبقة، صار الآن من الأسهل نسبيا فضح الطبيعة الاحتياطية للمناورة بأكملها، وفي نفس الآن التحريض لصالح يوم عمل من ثماني ساعات وسياسة للضمان الاجتماعي وانتخابات ديمقراطية ووضع حد للحرب. بعد ثلاثة أيام سارعت السلطات إلى وضع حد للفرصة الوحيدة لحل مشكلة العمال بالطرق الشرعية. كان العمال، في الوقت نفسه، قد حصلوا على قدر كبير من الخبرة المهمة لانتخاب نواب العمال، والتي لعبت في وقت لاحق دورا في تأسيس سوفيت بيترسبورغ.

فهم لينين بوضوح أن جميع البيانات واللجان وعود الإصلاح لم تكن سوى ستار من الدخان لخداع الجماهير، من ورائه كانت الردة الرجعية تراهن على الوقت وتستعد للانتقام. لذا فقد كان الوقت من ذهب. لذا فإنه في سيل غير منقطع من المقالات صب جام غضبه على الليبراليين وأوهامهم في الإصلاح الدستوري السلمي، وانتقد بشدة المناشفة بسبب أوهامهم في الليبراليين. من بين جوانب عبقرية لينين السياسية قدرته على فصل الجوهر عن غير الجوهر وفهم لب المشكلة. سرعان ما أدرك أن المسألة أصبحت الآن "إما... أو". كان وقت اللعب قد انتهى. إما أن تنجح الطبقة العاملة، تحت قيادة ثورية واعية، في جمع شمل كل الجماهير المضطهدة، وقبل كل شيء الفلاحين الفقراء والقوميات المضطهدة، تحت قيادتها، وتحطم النظام القيصري بالانتفاضة المسلحة، أو أن قوى الرجعية القائمة ستقضي، لا محالة، على الثورة، وتسلب انتقاما دمويا على الطبقة العاملة. لم يكن هناك حل وسط. لذلك كان كل شيء يتوقف على قدرة الماركسيين على كسب أغلبية حاسمة من الطبقة العاملة والقيام بأسرع وقت ممكن بالاستعدادات السياسية والتنظيمية والمادية اللازمة للانتفاضة المسلحة على الصعيد الوطني. شكلت هذه الفكرة نواة كل التصريحات التي كتبها لينين طيلة 1905، وهو ما يفسر جزئيا العجلة وأحيانا اللهجة الحادة على نحو غير معهود التي ميزت مراسلاته مع الداخل. لم يكن هناك وقت لتضييعه.

يمكن لوعي الناس أن يتغير، وفي خضم الثورة يمكنه أن يتغير بسرعة كبيرة جدا. في بداية فبراير، غابون نفسه، وبعد أن تطور مؤقتا إلى اليسار من خلال تجربته الخاصة، قام بإصدار "رسالة مفتوحة إلى الأحزاب الاشتراكية لعموم روسيا"، والتي تضمنت نداء للانتفاضة المسلحة: «أدعو جميع الأحزاب الاشتراكية في روسيا للدخول فوراً في اتفاق فيما بينها والشروع في انتفاضة مسلحة ضد النظام القيصري. ينبغي تعبئة قوى كل الأحزاب، ويجب أن يكون لها جميعها خطة واحدة للعمل... الهدف المباشر هو إسقاط الحكم المطلق، وتشكيل حكومة ثورية مؤقتة ستصدر فوراً العفو الشامل عن جميع المناضلين من أجل الحريات السياسية والدينية، وتسليح على الفور الشعب وتدعو على الفور إلى جمعية تأسيسية على أساس الاقتراع العام السري والمتساوي والمباشر»<sup>1</sup>.

تلقى نداء غابون ترحيبا حارا من طرف لينين، الذي أكد في مقاله "اتفاق نضالي من أجل الانتفاضة" على ضرورة تشكيل جبهة موحدة من جميع القوى الثورية للتضيق للانتفاضة، على أساس الشعار القديم: "نسير متفرقين ونضرب معا". ومع ذلك، فقد أكد لينين هنا، وفي كل مقالاته الأخرى، على الضرورة المطلقة للحفاظ على الاستقلال السياسي الكامل للطبقة العاملة وحزبها: «نحن نرى في الاستقلالية التامة لحزب البروليتاريا الثورية الماركسي الضمانة الوحيدة لانتصار الاشتراكية والطريق الوحيد نحو النصر بأكبر قدر من الحزم. لذلك لا يجوز لنا أبدا، ولا حتى في أكثر اللحظات ثورية، التخلي عن الاستقلال الكامل للحزب الاشتراكي الديمقراطي والصلابة التامة لإيديولوجيتنا».

تحت ضغط الحركة الجماهيرية، بدأ المناشفة، وخاصة أولئك الموجودون داخل روسيا، في التحرك نحو اليسار. لم تكن الصحيفة

1: F. Dan, The Origins of Bolshevism, p: 305.

البلشفية فريود هي وحدها من نشرت مقالات ورسومات بيانية، بل حتى إسكرا المناشفة قامت بذلك أيضا. لكن الميول الانتهازية، التي كانت واضحة بالفعل حتى قبل 09 يناير، اتضحت جليا في مبالغة المناشفة في تقدير دور البرجوازية الليبرالية وإصرار مارتوف على الاقتصار على الإعداد السياسي، عوض الإعداد التقني، للجماهير للانتفاضة المسلحة، وهو ما علق عليه لينين بشكل مقتضب قائلا: «إن الفصل بين الجانب "التقني" للثورة والجانب السياسي للثورة هو أكبر حماقة»<sup>1</sup>.

كانت مسألة تسليح العمال، التي أثارها لينين باستمرار، تنبع من حاجيات اللحظة. ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة تتكلم بخطاب تصالحي، كانت تحضر بشكل منهجي قوى الرجعية. لقد سعت السلطات، التي هزها من الجذور التضامن بين العمال من مختلف الجنسيات، إلى كسر هذه الوحدة من خلال تنظيم مذابح دموية. وفي بداية فبراير قام عملاء النظام بتحريض التتار في باكو على شن هجوم مميت على الأرمن في تلك المدينة. وطيلة عام 1905، قدمت الشرطة الرشاوي للغوغاء، في جميع أنحاء روسيا، بالمال والفودكا من أجل ضرب وقتل اليهود والاشتراكيين والطلاب. فتعاونت المنظمات الحزبية المختلفة لتنظيم الدفاع العمالي. ولأغراض عملية تم التوصل إلى اتفاقات تضم البلاشفة والمناشفة والبونديين والاشتراكيين من قوميات أخرى، وحتى المنظمات البرجوازية الصغيرة مثل الحزب الاشتراكي البولوني القومي والاشتراكيين الثوريين.

ليس هناك، من الناحية النظرية، أي خطأ في الوصول إلى اتفاقات عملية مؤقتة، في ظل مثل تلك الظروف، حتى مع الليبراليين البرجوازيين من أجل، على سبيل المثال، النضال المشترك ضد منفعي المذابح، مع الحفاظ على الاستقلال التنظيمي والسياسي الكامل. لكن مثل هذه الاتفاقيات مع الليبراليين كانت في الواقع شبه معدومة. لم يكن هؤلاء الأخيرين يسعون للعصيان المسلح، بل كانوا يسعون للتوصل إلى اتفاق مع النظام القيصري، واستندوا لفترة على الحركة الجماهيرية من أجل تخويف النظام ليمنحهم الدستور. كانت مقالات لينين في تلك الفترة مليئة بأشد الهجمات على الليبراليين حيث حذر من غدرهم وكافح محاولات المناشفة طمس الخط الفاصل بين الطبقة العاملة وبين البرجوازية الليبرالية ونشرهم الأوهام حول هؤلاء الأخيرين.

### لينين و"أعضاء اللجنة"

حاول البعض العثور على جذور الستالينية في نظام المركزية الديمقراطية اللينيني. في الواقع ليست للأساليب التنظيمية البلشفية، المشبعة كليا بروح الديمقراطية، أية علاقة مع ذلك المسخ البيروقراطي الوحشي. إن المركزية مسألة ضرورية في أي منظمة جدية، سواء كانت إدارة للسكك الحديدية أو حزبا ثوريا. كل حزب سياسي، كل منظمة مستقرة، لديهما بالضرورة جانب محافظ. إن الحاجة إلى توفير الوسائل المادية للانتقال من حقل النظرية إلى الممارسة تتطلب إنشاء جهاز تنظيمي. مبدأ حياة الجهاز هو الروتين، أي تلك المهام التنظيمية الكثيرة من جمع المال وتنظيم توزيع وبيع الأدبيات وهلم جرا، والتي تتطلب الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة. بناء الحزب مسألة مستحيلة بدون تلك المهام. ومنذ البداية يجب تخصيص عدد من الناس لهذه المهام. ومع نمو الحزب يزداد عددهم. لكن إذا لم يتم اتخاذ تدابير خاصة للرفع باستمرار من المستوى النظري لهؤلاء الرفاق وتوسيع آفاقهم، فإنه يمكن أن يتسلسل إليهم نوع من ضيق الأفق التنظيمي، والذي يمكن أن يلعب دورا ضارا في ظل ظروف معينة. يمكن أن يسود، بشكل غير واع أو بشكل شبه واع، الانطباع بأولوية التنظيم، في حين يتم اعتبار الأفكار والمبادئ والنظريات على أنها ذات أهمية ثانوية. وتبدو آراء العمال والقواعد ومبادئهم وانتقاداتهم، كما لو أنها عبء لا لزوم له، تتعارض مع مبدأ المركزية، أو الرقابة من فوق.

وجود عناصر من هذا القبيل داخل الحزب البلشفي (كما هو الحال مع أي حزب آخر) واقع لا يمكن إنكاره. لكن محاولات المؤرخين البرجوازيين الذين لا ضمير لهم، ربط ذلك بالجرائم الستالينية وإلقاء اللوم على "المركزية القاسية" اللينينية هو تشويه بشع للحقيقة. مع الأسف كانت فئة من أعضاء التنظيم البلاشفة في روسيا، أو ما يسمى بأعضاء اللجنة، تتصرف، في بعض الأحيان، بطريقة تطابق التهمة التي اخترعها المناشفة. لقد فسروا أفكار لينين التنظيمية كما لو أنها صيغ ثابتة وغير قابلة للتغيير، معدة لكي يتم تطبيقها ميكانيكيا، بغض النظر عن احتياجات اللحظة. حتى أكثر الأفكار صحة يمكنها، عندما تتجاوز حدا معين، أن تتحول إلى نقيضها. ومن خلال تحويلهم للأشكال التنظيمية إلى صنم، وتخليهم عن الطريقة الديالكتيكية في تطبيق هذه الأفكار في ظل الظروف المتغيرة بسرعة، وعلى الرغم من استعدادهم غير المشكوك فيه للتضحية بالنفس والعمل الجاد، كان أعضاء اللجنة يلعبون، في كثير من الأحيان، دورا سلبيا في تطور الحزب، حتى يتم تصحيحه بفضل تدخل لينين. لخص تروتسكي في نهاية حياته موقف لينين في تلك الفترة على النحو التالي: «لقد فهم لينين، أفضل من أي شخص آخر، الحاجة إلى وجود منظمة مركزية. لكنه

1: LCW, A Militant Agreement for the Uprising, vol. 8, pp: 159 and 163.

رأى فيها، قبل كل شيء، رافعة لتعزيز نشاط العمال المتقدمين. لم تكن فكرة تحويل الأداة السياسية إلى صنم غريبة فحسب عن طبيعته، بل وبغیضة كذلك... كانت العادات الغريبة عن الجهاز السياسي قد بدأت تتشكل في العمل السري. وصار البيروقراطي الثوري الشاب هو النموذج. لم تسمح ظروف العمل السري إلا بنطاق ضيق للشكليات الديمقراطية من قبيل الانتخاب والمساءلة والرقابة. أجل، لقد قام أعضاء اللجنة، بلا شك، بتضييق تلك الحدود أكثر بكثير مما كان ضروريا وكانوا أكثر تصلبا وحدة مع العمال الثوريين مما كانوا مع أنفسهم، مفضلين الاستبداد حتى خلال المناسبات التي كانت تستدعي حتما الاستماع لصوت الجماهير!<sup>1</sup>

يمكن رؤية الميل نحو الروتين والنزعة المحافظة داخل أي جهاز، مثلما يعلم ذلك أي نقابي من خلال تجربته المريرة. هذه العناصر، كما قلنا، كانت موجودة داخل الحزب البلشفي، لكنها كانت أقل أهمية داخل الحزب البلشفي مما هي عليه في أي حزب سياسي آخر في التاريخ، وبالتأكيد أقل مما هي عليه داخل الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية والنقابات الإصلاحية التي توجد تحت السيطرة المطلقة لأسوأ أنواع الآلات البيروقراطية والزمرة البرلمانية، الذين باعوا، منذ فترة طويلة، أرواحهم للطبقات المالكة. إن السياسيين، مثل توني بلير أو فيليبي غونزاليس، الذي يرفعون أصواتهم، في رعب مزعوم، ضد نظرية المركزية الديمقراطية "اللينينية"، يسرون أحزابهم على أساس أشد أنواع المركزية البيروقراطية والديكتاتورية. وتعكس هذه المركزية، من جهة، مصالح ورواتب وامتيازات أعضاء الجهاز، ومن جهة أخرى تعكس ضغط البرجوازية التي ترغب في إخضاع الحركة العمالية لنظامها. أن يتجرأ هؤلاء الناس على توجيه أصابع الاتهام إلى لينين هو أقصى أنواع النفاق.

رد تروتسكي على تلك الهجمات الكلبية على لينين والبلشفية قائلا: «إنه من المغربي، في هذا الصدد، الزعم بأن بذور الانحطاط الستاليني المستقبلي موجودة بالفعل في المركزية البلشفية أو، بشكل أكثر شمولا، في هرمية العمل السري للثوريين المحترفين. لكن هذا الزعم يتحول إلى غبار عند إخضاعه للتحليل، كاشفا عن افتقار مذهل للمحتوى التاريخي. هناك، بطبيعة الحال، نوع من المخاطر في عملية الاختيار الصارم لأشخاص ذوي وجهات نظر متقدمة وانتخابهم وتجميعهم في منظمة ممرزة بإحكام. لكن جذور هذه المخاطر لن يتم العثور عليها في ما يسمى "مبدأ" المركزية، بل ينبغي البحث عنها في عدم تجانس العمال وتخلفهم، أي في الظروف الاجتماعية العامة التي تجعل من الحتمي حاجة الطبقة إلى القيادة من طرف طبيعتها. إن مفتاح دينامية القيادة موجود في العلاقة المتبادلة الفعلية بين الجهاز السياسي وبين الحزب، بين الطليعة وبين الطبقة، بين المركزية وبين الديمقراطية. لا يمكن لتلك العلاقات المتبادلة بطبيعتها، أن تنشأ مسبقا وتبقى ثابتة. إنها تعتمد على الظروف التاريخية الملموسة، وينتظم توازنها المتغير من خلال النضال الحي للتيارات التي تتأرجح، ممثلة بأجنحتها المتطرفة، بين استبداد الآلة السياسية وبين الثروة العقيمة»<sup>2</sup>.

يعمل سليمان شوارتز، مثله مثل العديد من المؤلفين البرجوازيين الآخرين، على تشويه أفكار لينين حول التنظيم إلى حد بعيد. إنه يحاول أن يصور لينين كمدافع عن الانتلجنسيا البيروقراطية ضد العمال، من خلال الاقتباس من محاضر المؤتمر الثالث، في حين أن تلك الاقتباسات تثبت بالضبط عكس ما يرمي إليه. وقد اضطر المؤلف نفسه إلى أن يعترف بأن مشاكل مشابهة توجد في تنظيم المناشفة. هذا واضح من المناقشات حول إعادة التنظيم التي جرت في مؤتمرهم في جنيف، أبريل 1905، وفي مراسلات مناشفة بارزين. في كتيب شهير تحت عنوان "العمال والانتلجنسيا في منظماتنا"، بتوقيع "عامل"، نشر عام 1904، مع مقدمة كتبها أكسلرود، يقول المؤلف: "من الأفضل ألا نمتلك أوهاما لا لزوم لها حول الانتلجنسيا المارتوفية كذلك".

في مارس 1905، كتب جوسيف، سكرتير لجنة بيتسبورغ ومكتب لجان الأغلبية، إلى القيادة في الخارج ما يلي: «هناك حاجة إلى تعميم بشأن المسائل التنظيمية، ولا سيما في مسألة إدماج العمال في اللجان. من الضروري التأكيد على أهمية الظروف التي يمكن فيها القيام بذلك. لا ينبغي أن تكون معايير إدماج العمال مبنية على مستوى ثقافتهم، بل على مستوى ثورتهم وإخلاصهم وحيويتهم وتأثيرهم. في الوقت الحاضر هناك العديد من هؤلاء [الناس]، وخاصة بين العمال غير المنظمين، معظمهم من الشباب الصغار ويفتقرون لصفات القادة السياسيين، إلا أنهم مطلعون بشكل جيد على الأدب الاشتراكي الديمقراطي. وعلاوة على ذلك، لقد سبق لي أن كتبت لكم عن نقل قاعدة منظمنا، والعمل السري، إلى منازل العمال. وهذا يعني، بشكل ملموس، أن جزءا من أفضل قوانا التي تشتغل في السرية يجب أن تصبح مبلترة»<sup>3</sup>.

كان جوهر المشكلة التي تواجه الحزب هو: كيفية إقامة علاقة راسخة بين قوى الطليعة الثورية القليلة نسبيا وبين جماهير

1: Trotsky, Stalin, pp: 62 and 61.

2: Ibid., pp: 61-62.

3: Schwarz, op. cit., pp: 214 and 216. (التشديد من آلان وودز).



العمال والشباب الذين كانوا ينهضون إلى النضال. لا تندلع الثورة بشكل منظم ومحدد مسبقاً، مثل استجابة الأوركسترا لعصا القائد. إنها صراع حي بين القوى، ومعادلة أكثر تعقيداً حتى من الحرب بين الدول. شكلت أحداث الأحد الدامي وما تلاها التعبئة العامة للطبقة العاملة، إذا ما أردنا مواصلة التشبيه العسكري. لكن تلك الطبقة، التي كانت ما تزال تتخلص من أوهامها الساذجة وتسعى لإيجاد الطريق إلى تغيير كامل للمجتمع، كانت تتعثر باستمرار بالعقبات الكثيرة الموضوعية في طريقها، كانت ما تزال تفتقر إلى هيئة أركان عامة قادرة على توضيح الطريق نحو النصر. حتى الجيش الأكثر شجاعة لا يفوز أبداً بالحرب دون جنرالات جيدين، لكن بدون جيش لا أهمية لأفضل الجنرالات.

في ذلك الوقت لم يكن أي من القادة الرئيسيين البلاشفة أو المناشفة قد عادوا بعد إلى روسيا. لم يعد مارتوف إلى روسيا إلا بعد 17 أكتوبر، بينما عاد لينين بعده بقليل، 04 نوفمبر. كان الاستثناء الوحيد هو تروتسكي، الذي وصل إلى كييف في فبراير. وهناك خلق علاقات وثيقة مع ليونيد كراسين، الذي كان أبرز القادة البلاشفة في روسيا في ذلك الوقت. كان كراسين هو المسؤول عن مطبعة سرية كبيرة ومجهزة تجهيزاً جيداً في مكان ما في منطقة القوقاز. لكن دوره كان أكبر من ذلك. فذلك المهندس الشاب الكفو كان، من نواح كثيرة، نموذجاً للمنظم البلشفي. وقد أثبت أنه منظم وتقني متميز.

يتذكره تروتسكي في سيرته الذاتية قائلاً: «في مرحلة الشباب تلك التي كان الحزب، مثله مثل الثورة، يمر منها، كان جأماً ما يظهر نوع من قلة الخبرة وقلة النضج عند المناضلين وفي ممارساتهم بشكل عام. وبدوره كراسين لم يكن، بطبيعة الحال، يخلو كلياً من هذا الضعف. لكنه كان يتميز، بشكل قل نظيره، بالحزم والصرامة و«النزعة الإدارية». كان مهندساً ذا خبرة، كان يشغل وظيفة جيدة ويؤديها بإتقان؛ كان محترماً من طرف رؤسائه في العمل؛ وكانت له شبكة علاقات أكبر وأكثر تنوعاً بكثير مما امتلكه أي من الثوريين الشباب الآخرين آنذاك. كان كراسين يمتلك علاقات في غرف العمال وفي شقق المهندسين وفي قصور الصناعيين الليبراليين بموسكو وداخل حلقات الأدباء، وفي كل مكان. وقد أدار تلك العلاقات بمهارة كبيرة، وبالتالي فإن الفرص العملية التي كانت مغلقة تماماً في وجه الآخرين كانت مفتوحة أمامه. في عام 1905، وبالإضافة إلى مشاركته في العمل العام للحزب، كان كراسين المسؤول عن أخطر المهام، مثل الوحدات المسلحة وشراء الأسلحة وإعداد مخزونات المتفجرات، وما شابه ذلك. لكنه وعلى الرغم من نظرتيه الواسعة، فقد كان في المقام الأول رجل الإنجازات الفورية، في السياسة كما في الحياة. كانت تلك نقطة قوته، لكنها كانت أيضاً نقطة ضعفه»!

كان لينين يعامل بتقدير كبير هؤلاء الناس من أمثال كراسين الذين يعملون بصبر وكفاءة ودون ضجيج. لقد بقي عمل كراسين سرياً، لكنه لعب دوراً لا يقدر بثمن في بناء الحزب في تلك الفترة العاصفة. من الناحية السياسية كان كراسين من دعاة التوفيقية. إلا أن النزعة التوفيقية كانت شائعة بين مناضلي الحزب في روسيا، وخاصة بين العمال، كما انعكس بوضوح في تقرير وفد بيتربورغ إلى مؤتمر الحزب: «في الفترة الأخيرة صارت الدعوة إلى إنهاء الانقسام مطلباً واسع الانتشار. العمال البلاشفة والمناشفة يعقدون اجتماعات مشتركة، سواء مع أو بدون المثقفين، وفي كل مكان يتم الضغط من أجل تحقيق الوحدة»<sup>2</sup>.

كان يجب، بشكل أو بآخر، إيجاد حل لانقسام الحزب. كان الحل البديهي هو عقد مؤتمر للحزب. كان البلاشفة قد بدأوا منذ شهور الدعاية لصالح عقد المؤتمر الثالث، لكن المناشفة، الذين كانوا يخافون من أن يصيروا أقلية، استمروا يعرقلون تلك الخطوة. وفي بداية فبراير أدت حملة للشرطة على شقة الكاتب ليونيد اندرييف، في موسكو، إلى إلقاء القبض على جميع أعضاء اللجنة المركزية (أساساً من المناشفة والتوفيقيين). بينما أولئك الذين لم يلق القبض عليهم اتصلوا بـ«مكتب لجان الأغلبية»، التابع للبلاشفة، بهدف التوصل إلى اتفاق لعقد المؤتمر.

على الرغم من أن ذلك كان رسمياً مسؤولية مجلس الحزب، فإن غالبية منظمات الحزب داخل روسيا كانت مؤيدة بشكل واضح للقرار. وإذا طالبت لجان الحزب بعقد المؤتمر، فإن المجلس كان ملزماً وفقاً للقوانين الداخلية بعقدته. في بداية أبريل كان البلاشفة قادرين على أن يثبتوا بشكل قاطع أن ما مجموعه 21 منظمة داخل روسيا، بما في ذلك اللجنة المركزية، كانت لصالح عقد المؤتمر<sup>3</sup>. كان ذلك يمثل 52 صوتاً من أصل ما مجموعه 75 صوتاً سيمثل الحزب كله في المؤتمر، أي أكثر مما كان مطلوباً في قوانين الحزب. وقد نشرت رسالة مفتوحة إلى بليخانوف، رئيس مجلس الحزب، كتبها لينين باسم اللجنة المركزية، في بداية إبريل. لكن المجلس رفض الدعوة إلى المؤتمر، ضارباً بكل صراحة بالقواعد عرض الحائط، وفي ازدراء للإجراءات الديمقراطية. وبالنظر إلى السلوك

1: Trotsky, My Life, p: 169170-.

2: Tretiy s'yezd RSDRP (Protokoly), p: 549.

3: مارتوف نفسه اعترف بصحة هذه الأرقام. انظر: مارتوف وآخرون، Obschestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 3, 557.

غير المسؤول وغير المشروع للمجلس، لم يعد للبلاشفة من خيار سوى عقد المؤتمر بأنفسهم، باسم اللجنة المركزية وباسم غالبية منظمات الحزب في روسيا. على الرغم من تلقي المناشفة الدعوة لحضور المؤتمر، فإنهم فضلوا البقاء بعيدا ونظموا كونفرانس خاص بهم في جنيف. وفي 12 أبريل عام 1905، اجتمع المندوبون في لندن لأكثر من أسبوعين من مناقشات مكثفة حول المشاكل الأساسية للثورة.

### المؤتمر الثالث

يوم 12 أبريل عام 1905، افتتح أول مؤتمر حقيقي للحزب البلشفي أشغاله في لندن. كانت على جدول الأعمال المسائل التالية: (1) الانتفاضة المسلحة؛ (2) الموقف من سياسة الحكومة، بما في ذلك شعار حكومة ثورية مؤقتة؛ (3) الموقف تجاه حركة الفلاحين؛ (4) العلاقات بين العمال والمثقفين داخل الحزب؛ (5) قوانين الحزب؛ (6) الموقف من الأحزاب الأخرى (بما في ذلك المناشفة)؛ (7) الموقف من المنظمات الاشتراكية الديمقراطية غير الروسية؛ (8) الموقف من الليبراليين؛ (9) الاتفاقات العملية مع الاشتراكيين الثوريين، إضافة إلى المسائل التنظيمية. حضر المؤتمر 24 مندوبا لديهم حق كامل في التصويت يمثلون 21 لجنة، إضافة إلى عدد من مجموعات الحزب الأخرى، بما في ذلك هيئة تحرير فريود والمنظمة البلشفية في الخارج، والتي كان لها صوت استشاري. كان لينين حاضرا، كمندوب عن أوديسا.

انعقد المؤتمر في أوج النهوض الثوري. كان الحزب يواجه سلسلة كاملة من المسائل السياسية والتكتيكية الملحة: الموقف من تنازلات الحكومة (لجنة شيدلوفسكي)، وشعار البرلمان (زيمسكي سوبور)، والجمعية التأسيسية، والانتفاضة المسلحة والحكومة الثورية المؤقتة، والعمل الشرعي والعمل شبه الشرعي، والمسألة القومية والمسألة الزراعية، وما إلى ذلك. لكن المسألة التي هيمنت على جميع المسائل الأخرى كانت مسألة الانتفاضة المسلحة. كان لينين يؤكد بوجه خاص على هذه المسألة وقال: «لقد أثبت كل تاريخ العام الماضي أننا نقلل من أهمية وحتمية الانتفاضة. يجب أن نولي الانتباه للجانب العملي لهذا الموضوع»<sup>1</sup>.

كان لوناتشارسكي (فوينوف) هو من فتح النقاش. كانت الثورة في روسيا قد بدأت بالفعل، بمعنى أن الجماهير دخلت بشكل حاسم إلى ساحة النضال. قال إن المطلوب الآن هو إعطاء شكل منظم لهذه الحركة شبه العفوية، وإلا فإن كل البطولات والتضحيات التي يبذلها العمال يمكن أن تتبدد في انتفاضات محلية غير منظمة وبلا هدف. خلال المرحلة السابقة، عندما كانت الظروف الموضوعية للثورة غائبة، ركز الماركسيون الروس، وبليخانوف في المقام الأول، بشكل كبير على مهاجمة النظريات الإراودية للناورودنيين، هؤلاء «الثوريين الرومانسيين» الذين يتصورون أن كل ما هو مطلوب هو دفعة حاسمة من قبل جماعات إرهابية صغيرة لتحريض الجماهير إلى العمل. بالنسبة لهؤلاء المثاليين الذاتيين، كانت مسألة الانتفاضة المسلحة شيئا مستقلا عن الزمان والمكان. أما بالنسبة للماركسيين، الذين يؤمنون بأن الثورة يجب أن تكون من صنع العمال أنفسهم، فإنها تنشأ حتما عند نقطة معينة من تطور الصراع الطبقي. لكن عندما تكون الظروف الموضوعية الضرورية غائبة، يكون طرح فكرة الانتفاضة والكفاح المسلح مجرد نزعة بلانكية.

هذا المصطلح [البلانكية] الذي استخدمه بشكل واسع الماركسيون الروس للدلالة على المغامرة الثورية، يأخذ اسمه من اسم الثوري والشيوعي الطوباوي الفرنسي الشهير، لويس أوغست بلانكي (1805-1881)، الذي تبنى تصورا تأمريا يساريا متطرفا للثورة باعتبارها ليست من صنع للجماهير، بل مهمة أقلية ثورية صغيرة. لكن بلانكي، وبالرغم من صدق طويته وشجاعته الشخصية، لعب دورا سلبيا، بسبب افتقاره للفهم النظري. كتب انجلز عنه قائلا: «إن بلانكي في جوهره سياسي ثوري واشتراكي بالمشاعر فقط، بسبب تعاطفه مع معاناة الشعب، لكنه لا يمتلك نظرية اشتراكية ولا مقترحات عملية محددة للإصلاحات الاجتماعية. في نشاطه السياسي كان في جوهره "رجل أفعال"»<sup>2</sup>.

لقد حافظ اليساريون المتطرفون المعاصرون بكل أمانة على كل أخطاء بلانكي دون امتلاك أي من فضائله. عندما كانت شروط الثورة غائبة، ركز الماركسيون الروس على العمل البطيء لتطوير الكوادر الماركسية، مؤكداين على النظرية والتنظيم، وادخروا الموارد بعناية وبنوا العلاقات مع الجماهير. لكن الآن كان الوضع برمته قد تحول بفعل الزلازل الاجتماعية التي أحدثتها الحرب والثورة. بعد 09 يناير قال مارتوف إنه لا يمكن "تنظيم" الثورة وكان اتهام "البلانكية" الذي وجهه ضد البلاشفة يفوح برائحة السفسطة. في

1: LCW, The Third Congress of the RSDLP, April 12 (25)-April 27 (May 10), vol. 8, p: 370.

2: Marx and Engels, Selected Works, vol. 2, p: 381.

الواقع كان موقف المناشفة نابعا من مفهومهم الكامل للثورة بأنها ثورة برجوازية ديمقراطية يجب على الطبقة العاملة خلالها أن تخضع نفسها للبرجوازية الليبرالية. لم تكن مسألة تنظيم العمال للانتفاضة المسلحة تدخل في مخططهم، لأنهم رأوا أن دور العمال هو مجرد دعم لليبراليين، وإجبار الاستبداد على التراجع تحت ضغط الإضرابات والمظاهرات بهدف إيصال الليبراليين إلى السلطة. كان موقف البلاشفة مختلفا بشكل جذري.

بعد صدمة الأحد الدامي، تغير وعي الجماهير. كانت هناك موجة من الإضرابات والمظاهرات المحلية، ذات طابع عاصف غالبا. أشار أحد المندوبين إلى المزاج الكفاحي في المصانع قائلا: «بعد أسبوع يناير الثوري في بيتسبورغ كان هناك ما يشبه موجة من الإضرابات الفوضوية، إلى درجة أنه في العديد من المصانع كان كافيا أن يصيح أحد العمال: "أوقفوا الآلات، يا شباب!" لكي يندلع الإضراب، وكل من عارض ذلك ينال من الآخرين تهمة "عميل استفزازي"».

كان الخطر هو أن طاقات العمال من شأنها أن تتبدد بهذه الطريقة. المطلوب هو محاولة توحيد الحركة بحيث تكون قادرة على تركيز "كامل قوتها عند نقطة الهجوم". وأكد نفس المندوب على ضرورة مكافحة المغامرة اليسارية المتطرفة والإرهاب الفردي: «من جهة أعمال الإرهاب التافهة التي لا داعي لها، ومن جهة أخرى الأعمال الاستفزازية التي لا معنى لها، أو الاشتباكات مع الشرطة والجنود، عندما يقوم بعض الأفراد المسلحين، الذين يأتون بأسلحتهم، بإعطاء العدو المبرر والفرصة لإطلاق النار على الحشود غير المسلحة وذبحها»<sup>1</sup>.

ناقش المندوبون بطريقة جدية كل التفاصيل التقنية: رسم الخرائط الاستراتيجية للمدن وتدريب القادة الأكفاء وجمع الأموال، لكن وقبل كل شيء حاجة كل فرع لامتلاك معرفة تفصيلية بالظروف المحلية ومزاج العمال. وجنبا إلى جنب مع الإعداد التقني والتنظيمي، كانت هناك ضرورة تطوير العمل الإيديولوجي والتحريضي والدعائي، باعتباره جزءا لا يتجزأ من التحضير للإطاحة بالنظام القيصري. كان من الضروري القيام بالتحريض ليس فقط بين العمال، بل أيضا بين المثقفين والطلبة والشباب والنساء والقوميات غير الروسية، وقدرة الإمكان بين الفلاحين، بدءا بفقر الأرياف. تم إيلاء اهتمام خاص للعمل بين الجنود، بهدف كسب الجنود إلى صف العمال. كان يجب التدخل في قوات الجيش بالمناشير، وشكلت لجنة من متخصصين ذوي خبرة، بتسيير من اللجنة المركزية، للعمل على وضع برنامج مطالب انتقالية للجنود.

ومع ذلك فحتى في الوقت الذي دفعت فيه الأحداث بمسألة الانتفاضة المسلحة إلى رأس جدول الأعمال، فقد بقيت المهمة الأساسية للحزب هي كسب الجماهير. بدون ذلك كان كل الحديث عن إسقاط القيصرية سيبقى مجرد ثروة عقيمة. لكن المؤتمر أكد العديد من مخاوف لينين حول أن المناضلين البلاشفة داخل روسيا كانوا بطيئين في التعامل مع الظروف المتغيرة. فأعضاء اللجان، الذين كانوا قد اعتادوا، طيلة فترة طويلة، على العمل السري داخل الحلقات الصغرى المغلقة، لم يستسيغوا العمل وسط الحركة الجماهيرية واستخدموا كل الذرائع لتجنب الانخراط فيها بشكل وثيق. لقد ساهم الفهم الصوري للتنظيم والانضباط والمركزية، إلى جانب بعض الميول اليسارية المتطرفة، في تغطية النزعة المحافظة والعصبوية المتأصلة والموروثة عن الماضي. استخدم لينين المؤتمر ساحة لخوض النضال الحازم ضد تلك النزعات.

وفيما يتعلق بمسألة المشاركة في المنظمات الشرعية مثل النقابات والتعاونيات ومؤسسات الضمان والخدمات الاجتماعية، التي كان الموقف السائد بين أعضاء اللجان هو مقاطعتها، حذر لينين من أنه: «لا يمكن للمؤتمر أن يتخذ قرارا جامدا وسريعا حول هذه النقطة. ينبغي استخدام كل الأساليب من أجل التحريض. إن تجربة لجنة شيدلوفسكي لا تعطي أي أساس للموقف السلبي»، ووجه صدمة لدعاة المقاطعة حين أكد أنه سيكون من الصحيح، في ظل ظروف معينة، المشاركة حتى في البرلمان القيصري المزور: «من المستحيل الحسم مسبقا بشكل قاطع في ما إذا كان من المستحسن المشاركة في الزيمسكي سوبور. كل شيء يتوقف على الوضع السياسي وعلى النظام الانتخابي وعلى عوامل أخرى محددة، والتي لا يمكن تقديرها مسبقا. يقول البعض إن مجلس الزيمسكي سوبور مزور. هذا صحيح، لكن هناك أوقات يجب علينا خلالها أن نشارك في الانتخابات لفضح التزوير».

قدم لينين إضافة إلى القرار بشأن هذه المسألة، جاء فيها: «فيما يتعلق بالتنازلات الحالية والصورية التي يقدمها النظام الاستبدادي الضعيف للديمقراطيين بشكل عام، وللطبقة العاملة على وجه الخصوص، يجب على حزب الطبقة العاملة الاشتراكي الديمقراطي الاستفادة منها من أجل، من جهة، ترسيخ كل تحسين يحققه الشعب في الأوضاع الاقتصادية وكل توسيع للحريات بهدف تكثيف النضال، ومن جهة أخرى، أن يفضح أمام أعين البروليتاريا الأهداف الرجعية للحكومة، التي تحاول تفكيك وحدة

1: Tretiy s'yezd RSDRP (Protokoly), p: 10.

الطبقة العاملة وإفسادها ولفت انتباهها بعيدا عن حاجاتها الطبقيّة الملحة أثناء لثورة»<sup>1</sup>.

اصطدم فهم لينين المرن والديالكتيكي للتكتيكات والاستراتيجية الثورية مع الدوغمائية المتصلبة لأعضاء اللجان، الذين يدور عالمهم حول محور حلقاتهم المحلية الضيقة، التي يحرصون عليها بغيرة ضد القيادة في المنفى من جهة، وضد مطالبته العمال بحقهم في مجال أوسع للتقرير في تسيير شؤون الحزب الداخلية من جهة أخرى. كان التكوين الطبقي للمندوبين في المؤتمر معبرا في حد ذاته عن طبيعة الوضع، مثلما قال أحد المندوبين، ليشينسكي (جاركوف): «بينما أنظر حولي، في تكوين المؤتمر الحالي، أستغرب أنه لا يوجد سوى عدد قليل جدا من العمال، رغم أنه كان من الممكن، دون أي شك، العثور على العمال المناسبين لحضور المؤتمر»<sup>2</sup>. وهذا ما تؤكده كروبسكايا، التي تقول في مذكراتها: «في المؤتمر الثالث لم يكن هناك أي عمال، أو عمال بارزين على الأقل... بينما كان عدد أعضاء اللجان كبيرا».

في الواقع أصبح الجو متوترا جدا داخل المؤتمر، خاصة عندما هاجم لينين الأحكام المسبقة التي يتبناها العمليون، بينما لم يخف هؤلاء الآخرون استياءهم من «تدخل» المنفيين. كتبت كروبسكايا: «كان أعضاء اللجان عادة أشخاصا واثقين من أنفسهم. كانوا يرون التأثير الكبير الذي يمارسه عمل اللجنة على الجماهير، وهم عادة لا يعترفون بالديمقراطية داخل الحزب. لسان حال أعضاء اللجان يقول: «إن الديمقراطية داخل الحزب لا تؤدي إلا إلى المشاكل مع الشرطة. نحن على اتصال مع الحركة كما هي»، إنهم في أعماقهم يحتقرون أعضاء الحزب العمال في الخارج، والذين أفضل ما يمكنهم القيام به، من وجهة نظر أعضاء اللجان، هو إطباق أفواههم. كان أعضاء اللجان يعترضون على تزايد نفوذ القيادة بالمنفى قائلين: «عليهم أن يجربوا العمل في ظل الظروف الروسية». وفي الوقت نفسه لم يكونوا يحبون التجديدات. لم يكونوا راغبين ولا قادرين على تكييف تكتيكاتهم مع الظروف المتغيرة بسرعة»<sup>3</sup>.

قدم بوغدانوف مشروع قرار، صاغه لينين، عن العلاقات بين العمال والمثقفين داخل المنظمة الاشتراكية الديمقراطية، وهو القرار الذي رغم اعترافه بالصعوبات في ظل ظروف السرية، دافع عن تطبيق مبدأ الانتخابات على نطاق أوسع، وفتح الحزب للعمال، لإفساح المجال لفئات شابة جديدة داخل لجان الحزب القيادية.

أثار هذا القرار عاصفة من الاحتجاجات من جانب أعضاء اللجان. كان كامنيف (غرادوف) أول المحتجين، إذ قال: «لا بد لي من التحدث بشكل حاسم ضد الموافقة على هذا القرار. مشكلة العلاقة بين المثقفين والعمال داخل منظمات الحزب لا وجود لها. (لينين: بل هي موجودة!) كلا، إنها غير موجودة: إنها موجودة كقضية للديماغوجيا، هذا كل شيء».

وذهب آخرون إلى أنه لا يوجد وقت كاف أو قوات كافية لتدريب العمال، معتمدين على الاقتباس الشهير من كتاب ما العمل؟ الذي يؤكد، بشكل غير صحيح، أن الوعي الاشتراكي يجب أن يصل للعمال من الخارج. وهكذا قال رومانوف (ليسكوف): «يبدو لي أننا نبالغ هنا في تقدير نفسية العمال (كذا!)، وكأن العمال قادرين لوحدهم على أن يصلوا إلى الوعي الاشتراكي الديمقراطي»<sup>4</sup>. ومع ذلك، فإن مؤلف كتاب ما العمل؟ نفسه أجاب منتقديه من خلال مناشدة الغريزة الطبقيّة للعمال، وصدّم مستمعيه بشكل متعمد من خلال الإشارة باستحسان لمشاركة العمال في المنظمة الحزبية خلال مرحلة «الإقتصادية». لقد تم حذف خطاب لينين هذا من الأعمال الكاملة بالإنجليزية، لأسباب معروفة جيدا للمحررين الستالينيين. لذا سأقتبس هنا من تقارير المؤتمر باللغة الروسية: «لقد قيل هنا إن حملة الأفكار الاشتراكية الديمقراطية هم في الغالب المثقفون. هذا ليس صحيحا. خلال مرحلة الإقتصادية كان حملة الأفكار الثورية هم العمال، وليس المثقفون... ومن المؤكد كذلك أن قادة المنشقين هم عادة من المثقفين. هذه الملاحظة مهمة جدا لكنها لا تنهي المسألة. نصحت منذ فترة طويلة في كتاباتي بضرورة إشراك العمال داخل اللجان بأكبر قدر ممكن. لقد تميزت الفترة التي أعقبت المؤتمر الثاني بعدم كفاية تنفيذ هذا الالتزام، وهذا هو الانطباع الذي حصلت عليه من محادثاتي مع «العمال العمليين»... من الضروري التغلب على جمود أعضاء اللجان (تصفيق وصيحات استهجان)... العمال لديهم الغريزة الطبقيّة، ومع قليل من الخبرة السياسية سرعان ما يصبحون اشتراكيين ديمقراطيين مخلصين. سأكون في غاية السعادة إذا ما صار لدينا، فيما يخص تكوين لجاننا، ثمانية عمال مقابل كل اثنين من المثقفين»<sup>5</sup>.

1: LCW, The Third Congress of the RSDLP, April 12 (25)-April 27 (May 10), 1905, vol. 8, p: 375 - 376.

2: Tretiy s'yezd RSDRP (Protokoly), p: 124.

3: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, pp: 124-125.

4: Tretiy s'yezd RSDRP (Protokoly), pp: 255 - 265.

5: Ibid, p: 262 (التشديد من آلان وودز).

هذا هو الجواب النهائي على أولئك الذين ما زالوا يصرون على تكرار الخطأ الذي ارتكبه لينين في ما العمل؟، حيث أكد بشكل خاطئ أن البروليتاريا، إذا ما تركت لنفسها، لا يمكنها أن تطور إلا "وعيا نقائيا". لم يكرر لينين أبدا هذا القول، بل إنه، في الواقع، انتقده في أكثر من مناسبة. لم يكن لينين هو الذي تشبث بهذا الموقف، بل أعضاء اللجان بتصورهم الكاريكاتيري الشكلي عن البلشفية، والذين وقفوا ضد لينين عندما حاول تصحيحه. كان ساخا جدا من موقف الازدراء الذي يتبناه المثقفون تجاه العمال حتى أنه كان يستفزهم بشكل متعمد أثناء تعليقاته الإيجابية بخصوص العمال الاقتصاديين. والواقع هو أن العديد من العمال الاقتصاديين القدامى، من أنصار تيار رابوتشاي ديلو، انضموا في وقت لاحق إلى البلاشفة، في حين أن المثقفين الاقتصاديين، مثل مارتينوف وأكيموف، انضموا، جميعهم تقريبا، إلى المناشفة. هذه نقطة مثيرة للاهتمام لم تذكر أبدا، لكنها مع ذلك صحيحة. ولينين، الذي كان يغلي سخطا، تدخل مرة أخرى قائلا: «بالكاد تمكنت من البقاء في مقعدي عندما قيل إنه لا يوجد عمال مناسبون ليدخلوا إلى اللجان (...) يجب أن يمنح العمال مكانا داخل اللجان. ومن الغريب أن هناك ثلاثة ناشرين فقط في المؤتمر، أما البقية فهم من أعضاء اللجان: لكن يبدو أن الناشرين يدافعون عن دمج العمال، في حين أن أعضاء اللجان يبدون، لسبب ما، غير مرتاحين لذلك»<sup>1</sup>.

سقطت كل الحجج التي طرحها لينين وأنصاره على آذان صماء. ظلت الأغلبية عنيدة، وتم رفض قرار لينين على أساس أنه "ليست هناك حاجة" لقرار خاص حول هذا الموضوع. أظهرت الأحداث اللاحقة كم كان لينين محقا. لكن على الرغم من هذه النكسة، فقد شكل المؤتمر الثالث محطة تاريخية. ودون معارضة قبلت أفكار لينين الأساسية حول الدور القيادي للبروليتاريا في الثورة، وضرورة الاستقلالية الطبقيّة المطلقة وعدم الثقة في الليبراليين. تم تغيير سياسة الحزب حول المسألة الزراعية (كان لينين هو من سير ذلك النقاش) بشكل جذري لتشمل مصادرة ملكيات جميع أصحاب العقارات الكبيرة وتشكيل لجان الفلاحين. من هذه النقطة فصاعدا، صار الحل الثوري للمشكلة الزراعية يقع في صميم استراتيجية البلاشفة الثورية. قوانين الحزب التي كان المؤتمر الثاني قد صادق عليها أكدها من جديد المؤتمر الثالث، على الرغم من أن لينين أوضح بشكل جلي تماما أنها يجب ألا تفسر بمعنى ضيق، بل على التنظيم الحزبي أن يفتح بسرعة ليشمل أفضل العناصر بين العمال والشباب. وبينما كانت تجربة الانقسام المريرة ما تزال ماثلة في ذاكرة الجميع، أمر لينين أيضا على أن تتضمن قوانين الحزب ضمانات واضحة ومحددة تحمي حقوق الأقليات داخل الحزب. كان للأقليات الحق في التعبير عن وجهة نظرها بحرية في جميع مستويات الحزب، بشرط واحد فقط وهو ألا يؤدي طرح تلك الاختلافات بطريقة تؤدي إلى تخريب الحزب وتقويض التدخل العملي للحزب في النضال ضد القيصرية والرأسمالية.

### كيف كان الحزب يمول نفسه

كان طلب لينين فتح أبواب الحزب للسماح بدخول العمال متناغما تماما مع الوضع الحقيقي في روسيا. كانت الأحداث العظيمة قد هزت وعي جماهير العمال وحولته. الآن تمت مكافأة عقود من العمل البطيء والمضني بزيادة مفاجئة في الاهتمام بالأفكار الاشتراكية الثورية. أطلق المؤتمر جريدة أسبوعية جديدة، "بروليتاري"، لتحل محل "فريود"، وانتخب لجنة مركزية جديدة لتحل محل تلك التوفيقية القديمة. وبالتالي فإن المؤتمر وضع حدا للانقسام غير الصحي القديم بين جهاز الحزب المركزي واللجنة المركزية ومجلس حزب، وعوضه بمركز واحد هو اللجنة المركزية، والتي تم تقسيمها لاحقا إلى قسمين، قسم الخارج وقسم الداخل. كان لينين، في ذلك الوقت، ما يزال خارج روسيا، في حين أن المكتب الروسي للجنة المركزية، والذي كان مقره سان بيترسبورغ، كان يتكون من بوغدانوف وكراسين وبوستولوفسكي، مع ضم روميانتسيف في وقت لاحق. كان لينين، في الواقع، هو المسؤول عن المكتب الخارجي للجنة المركزية والذي حافظ على علاقات وثيقة مع المكتب الروسي، لكن كانت لديه أيضا صلات مباشرة مع لجان الحزب المحلية، والتي كان يجري معها مراسلات منتظمة.

كان العمل داخل روسيا آنذاك قد صار أسهل بكثير. وعلى الرغم من أن الاعتقالات استمرت، فإن الأحكام بدأت تصير أكثر تساهلا. في بعض الأحيان كان محافظو المدن الليبراليون يلغون أحكام الشرطة المحلية. وكان جهاز الشرطة نفسه قد بدأ يتعب. في ظل تلك الظروف صار في إمكان اللجان المحلية للحزب أن تجتمع يوميا تقريبا. كانت اللجنة المحلية النموذجية تتألف من عدد لا يزيد عن اثني عشر شخصا. كان لكل عضو من أعضاء اللجنة المحلية مسؤولية مباشرة عن أحد جوانب العمل، سواء الصحافة أو التمويل أو التحريض أو المسؤولية عن منطقة أو مصنع معين. كانوا يرتبطون بالعمال من خلال حلقات الحزب. وكانت هناك أيضا

1: LCW, The Third Congress of the RSDLP, vol. 8, p: 411.

المنظمات الطلابية الاشتراكية الديمقراطية، وإلى جانب ذلك هامش واسع من المتعاطفين. بمجرد ما يلتحق ولو عامل واحد بمصنع ما، يكون من المنتظر منه (أو منها) أن يبدأ العمل تحت إشراف اللجنة المحلية. سبق لنا أن رأينا بالفعل بعضا من السمات السلبية لأعضاء اللجان، لكن سيكون من الخطأ أن نغفل جانبهم الإيجابي. لقد كانوا ثوريين محترفين، كرسوا حياتهم للحزب والعمل الجاد والتضحية بالنفس، كانوا يشتغلون في ظل ظروف صعبة، وكانوا في حركة دائمة تقريبا. كانوا يعيشون حياة الفقر المدقع، على أجور منخفضة جدا، حوالي 25 أو 35 روبل في الشهر، إذا ما توافرت الأموال، وهو الشيء الذي لم يكن ممكنا دائما! كان للبعض منهم دخل خاص، بينما اضطر البعض الآخر، في بعض الأحيان، إلى القيام بوظائف بدوام جزئي. والبعض، مثل كراسين، كما رأينا، كانوا يشتغلون "كغطاء"، الشيء الذي كان يؤدي، في بعض الأحيان، إلى أوضاع مسلية: «في سان بيترسبورغ كانت هناك شركة للتأمين، اسمها نادي جدا (الأمل) جعلت ادارتها من سياستها توظيف أشخاص معروفين بنشاطهم الثوري، لأنها وجدت أنه على الرغم من أنهم نادرا ما يستمرون مع الشركة لفترة طويلة بسبب ارتفاع عدد حالات الاعتقال، فإنهم كانوا يتميزون بالأمانة بشكل استثنائي»<sup>1</sup>.

يتذكر بوزينوف التحول الدراماتيكي الذي حدث لزملائه العمال بعد 09 يناير. أصبح العمل بالنسبة لهم مسألة ذات أهمية ثانوية، حيث صاروا يتجمعون بشغف في حلقات، في أماكن العمل، لقراءة أحدث منشور سياسي أو العدد الأخير من الصحيفة<sup>2</sup>. منشورات الحزب، بنسخها المحدودة، وعدم انتظام صدورهما، صارت الآن غير كافية بشكل يرضي له لمواكبة الطلب. كانت إيسكرا القديمة تطبع ما بين 10.000 و15.000 نسخة (مرة كل أسبوعين، على الرغم من أنها صدرت أسبوعيا لفترة وجيزة). الآن صار جمهور صحيفة اشتراكية ثورية أكبر من ذلك الرقم بما لا يقل عن عشرة أضعاف أو عشرين ضعفا. لم تعد مطابع الحزب السرية قادرة على الاستجابة لاحتياجات اللحظة، لكن امكانية إصدار جريدة شرعية لم تنشأ إلا في وقت لاحق من العام عندما استولى تروتسكي وبارفوس على الجريدة الليبرالية القديمة "روسكايا غازيتا" وحولها إلى أداة شرعية للماركسيين. مع سعرها المنخفض: كوبيك واحد، وأسلوبها الشعبي، ارتفع عدد مبيعاتها من 30.000 إلى 100.000، وبلغت رقم 500.000 بحلول دجنبر. بينما كانت مبيعات الصحيفة البلشفية الشرعية "نوفايا جيزن" (الحياة الجديدة) تصل إلى 50.000، وهو ما شكل خمس مرات أكثر من عدد النسخ الكلي لإيسكرا القديمة، لكن ذلك لم يتحقق إلا مع حلول الخريف. في تلك الأثناء، كان على مجموعات الحزب المحلية أن تتدبر أمورها بأي منشورات ومواد أخرى يمكنها طباعتها بواسطة آلات النسخ اليدوية المتواضعة.

أعطى المؤتمر للبلاشفة دفعة معنوية كانوا في أشد الحاجة إليها، وبدءوا في النمو بوتيرة سريعة. تم إنشاء فروع ولجان أحياء جديدة. وتم تأسيس خلايا في المصانع، إضافة إلى فصائل نقابية بلشفية هدفها الاستفادة من الفرص الجديدة التي يتيحها العمل النقابي الشرعي والذي، مع ذلك، كان للمناشفة قصب السبق فيه. كانت مهام التحريض والدعاية البلشفية تتم من قبل جماعات صغيرة متخصصة مكونة من 10 إلى 12 شخصا. كان كل محرض - منظم مسؤولا عن منطقة واحدة. وكانت فرص إيصال الأفكار الاشتراكية للعمال آنذاك قد صارت هائلة. وأصدر كل من البلاشفة والمناشفة، في غضون ذلك العام، ملايين المنشورات. كتبت كروبسكايا: «الأشكال القديمة للدعاية ماتت، وتحولت الدعاية إلى تحريض. ومع النمو الهائل لحركة الطبقة العاملة، لم تعد الدعاية وحتى التحريض الشفهيين قادرين على تلبية احتياجات الحركة. كان المطلوب هو الأدبيات الشعبية، وصحيفة شعبية وأدبيات للفلاحين والقوميات غير الروسية»<sup>3</sup>.

هذه الاحتياجات الملحة وغيرها سرعان ما أثارت مسألة التمويل. مسألة الأسلحة أيضا تطلبت مبالغ. وقد عرفت مداخيل كل من البلاشفة والمناشفة زيادة في حجمها. يذكر مارتوف أن: «ميزانية المنظمات الثورية، التي كانت تشكل في الفترة 1901-1902 من بضع مئات من الروبلات، نمت، بحلول منتصف 1905، إلى عشرات الآلاف من الروبلات في السنة»<sup>4</sup>.

لكن الحاجيات كانت تفوق باستمرار الموارد المتاحة. يخلص ديفيد لين، على أساس دراسة قام بها للصحافة البلشفية والمنشافية، إلى أنه في فبراير، جمعت لجنة بيترسبورغ البلشفية ما مجموعه 2400 روبل، أنفق منها 265 روبل على الصحافة و375 روبل على المنظمة. كان هناك صندوق منفصل لشراء الأسلحة يحتوي على 1295 روبل، سبق أن استهلك منها 850 روبل. فإذا ما أضفنا لذلك مبلغ 981 روبل في صندوق إضرابات منفصل، فإن هذا يعني أن الدخل الكلي لمنظمة البلاشفة في سان بيترسبورغ كان، في فبراير 1905، حوالي 4680 روبل. ومع ذلك فإنه فقط خلال الأسبوعين الأولين من شهر يوليو، ارتفعت نفقات البلاشفة إلى 800 روبل

1: J.L.H. Keep, The Rise of the Social Democracy in Russia, p: 181.

2: Surh, op. cit., p: 239.

3: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 127.

4: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 2, p: 63.

على الأسلحة و540 روبل على التنظيم و156 روبل على الأدبيات. ووفقا لديفيد لين: «كانت مداخيل المناشفة، من 15 فبراير إلى 15 مارس، أكبر من مداخيل البلاشفة، حوالي 4.039 روبل (2.000 روبل منها من مساهم واحد). من هذا المبلغ أنفقت 1250 روبل على الأسلحة، وأنفق على «المنظمة» في مختلف المناطق 1126 روبل و630 روبل على المطابع»<sup>1</sup>.

يعطي مارتوف، في تاريخه عن الاشتراكية الديمقراطية، سلسلة كاملة من الأرقام عن الحالة المالية لكل من المناشفة والبلاشفة في عام 1905، والتي تظهر مدى تجاوز المصاريف للإيرادات التي جمعت من اشتراكات الأعضاء. وهكذا فإن لجنة باكو جمعت، في فبراير، ما مجموعه 1382 روبل، جاء منها 38 روبل فقط (3%) «من العمال». و 14% فقط من مداخيل لجنة سيفاستوبول جاءت من اشتراكات الأعضاء. كان الوضع في ريغا أفضل، لكن النسبة بلغت 22% فقط. لكن في معقل البلاشفة، إيفانوفو- فونزيسينسك، كان الرقم هو 53%<sup>2</sup>. تلقى كلا الفصيلين تبرعات كبيرة من متعاطفين أثرياء، لكن المناشفة، مع منظمتهم الفضاضة أكثر، كانوا دائما أكثر اعتمادا على ذلك المصدر من البلاشفة الذين كافحوا، وأخيرا توصلوا، لإقامة منظمة مبنية على كوبيكات العمال، التي تعتبر الأساس الحقيقي الوحيد للحزب العمالي. وعلى النقيض من ذلك، وكما سبق لنا أن رأينا، ففي أوائل عام 1905 جاء ما يقرب من نصف مدخول المناشفة من عند مساهم واحد. في 15 فبراير، وفقا للمصدر نفسه، بلغ مدخول مناشفة بيترسبورغ 247 روبل، «جاءت 200 روبل منها من متعاطف واحد»<sup>3</sup>. كان الوضع مع حزب البوند اليهودي مختلفا تماما. فعلى الرغم من سياسته الانتهازية، كان البوند تنظيما عماليا ممركزا راسخا جيد البناء، تحدث عنه لينين بحسد أكثر من مرة. كانت 50% من مداخيله من تبرعات العمال.

طوال عام 1905، لم يتمكن لا البلاشفة ولا المناشفة من مواكبة الطلب المتزايد على الأدب الاشتراكي. ففي كل مكان كان هناك تعطش للكلمة المكتوبة. أراد العمال أن يفهموا. العمال الذين كانوا معادين أو غير مبالين، أو ببساطة خائفين، من قبول المنشورات الاشتراكية، بدأوا الآن يبحثون بلهفة عن رفاقهم الذين يعلمون أنهم يشاركون بطريقة أو بأخرى في الحركة الثورية. يتذكر الحداد أليكسي بوزينوف، الذي كان يعمل في سفينة نيفسكي وصناعة الآلات: «بينما في وقت سابق لم يكن أحد (حتى) يراهم، أو ربما لم يكن يريد أن يلاحظ وجودهم من أجل الابتعاد عن المتاعب، فإن الجميع صاروا الآن يعرفون فجأة أنهم أناس أذكيا وجيدو الاطلاع. بدأ الكثير من الناس يعودون بذاكرتهم للماضي، وبدأت الذكريات تعود، واتضح أن شخصا هنا أو هناك، بطريقة أو بأخرى، كان على اتصال مع الاشتراكيين... أنا لا أذكر ولو عتابا واحدا، بشكل شخصي أو غير ذلك، من جانبهم بسبب التهديدات أو الإهانات التي تعرضوا لها سابقا. فيما يخص موقف العمال تجاههم، بدأ يسود الاعتراف بأن الاشتراكيين كانوا قادة الحركة العمالية. صار العمال يصغون إليهم بانتباه، ويعاملونهم بطريقة خاصة، فيها نوع من الخشونة لكن مع لمسة من الحب»<sup>4</sup>.

كان للبلاشفة أيضا، مثلهم مثل المناشفة، بعض المتعاطفين الأثرياء الذين كانوا يقدمون لهم المساهمات المالية بشكل منتظم؛ موظفون ميسورون وأعضاء زمستفو لبراليون وأطباء وأصحاب مهن أخرى يقدمون المال من خلال التبرعات ويدعمون المتفرغين ويساعدون حتى في إخفاء الهاربين. وقد ظهر تجذر أصحاب المهن من خلال تزايد عدد قرارات التضامن مع الحركة العمالية والدعم الصادرة عن النقابات المهنية. بل إن نقابة المهندسين انتخبت فعلا البلشفي كرجيجانوفسكي عضوا في لجنتها التنفيذية. وقامت العديد من اتحادات المثقفين بجمع المال وتقديم المساعدة للحركة العمالية خلال تلك السنة. صوت المهندسون في مؤتمهم على عدم المشاركة في كتابة القوائم السوداء عن المناضلين العماليين. وفي أوديسا كان مدير إحدى المطابع الكبيرة يقدم دائما المساعدة للبلاشفة للخروج من أزماتهم المالية. وقد تبرع الصناعي سافا موروزوف بمبلغ 2.000 روبل في الشهر لكراسين ابتداء من أواخر عام 1903 فصاعدا. وتشير سيرة كراسين إلى أنه جمع الأموال اللازمة لنوفايا جيزن «بشكل رئيسي بفضل كرم رب عمله، الصناعي سافا موروزوف»<sup>5</sup>.

مكسيم غوركي، الذي كانت شهرته ككاتب قد تحققت بالفعل، لعب دورا رئيسيا في جمع هذا النوع من التبرعات، واستفاد من مساعدة الكثير من الكتاب والمثقفين البارزين الآخرين، الذين أثارت الثورة الحماس فيهم. تم التوجه نحو الطلاب وغيرهم من أبناء الطبقة المتوسطة للحصول على التبرعات. حتى ملاك عقاري مثل أ. تسوروبا قدم مساهمات منتظمة. وصل تعاون بعض

1: Lane, op. cit., p: 78.

2: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 3, p: 569.

3: Lane, op. cit., p: 78.

4: Surh, op. cit., p: 238.

5: Lubov Krassin, Leonid Krassin his Life and Work, 1929, p: 36.

هؤلاء المتعاطفين الأثرياء إلى أبعد من مجرد تقديم مبالغ من المال، إذ منهم من أبدى التزاما حقيقيا، بل وحتى تحمل مخاطر كبيرة من أجل قضية العمال. وكمثال عن ذلك ابن شقيق موروزوف، نيكولاي شميت، الذي كان صاحب مصنع للأثاث في حي بريسنيا بموسكو. على الرغم من أنه كان يبلغ 23 سنة فقط، فقد انتقل إلى جانب العمال في عام 1905، وقدم الأموال ليس فقط للجريدة البلشفية نوفايا جيزن، بل أيضا لشراء الأسلحة. ومصنعه، الذي لعب دورا هاما في انتفاضة موسكو، كان معروفا للشرطة بأنه "عش الشياطين". وقد دفع شميت ثمنا باهظا لإخلاءه لقضية العمال.

أصبحت تلك التبرعات مهمة جدا لأن كمية الأموال التي تجمع من الاشتراكات وبيع الجريدة والأدبيات كانت أبعد ما يكون عن أن تكفي لتلبية مطالب الوضع الجديد. مباشرة بعد المؤتمر الثالث للحزب تم تكليف كراسين بمهمة تنظيم العمل العسكري السري. قام بإنشاء ورشات سرية لصنع لقنابل ومخازن للأسلحة. تم تهريب الأسلحة من الخارج. وبدأت لجان الحزب المحلية في تشكيل مجموعات عسكرية (بوييفي كوميتي). تم تكليف اللجان العسكرية بالعمل على الحصول على الأسلحة وتنظيم وحدات القتال. وقد تطور هذا العمل في الخريف عندما أصبح واضحا أن المواجهة الحاسمة كانت حتمية. تم تجميع بعض الأموال من المتعاطفين الأثرياء. ومن بين المصادر الأخرى للتمويل كانت هناك عمليات السطو على البنوك التي نفذتها وحدات مسلحة بلشفية. لقد كتب لينين مرات عديدة عن هذه المسألة، في كتاباته عام 1905 حول الجيش الثوري والمليشيات. في تلك الكتابات أصر لينين على أن عمل الوحدات المسلحة لا بد أن يرتبط بالضرورة بالحركة الثورية للجماهير ولا يمكن السماح به إلا في هذه الحالة فقط. ذلك لم يكن مؤامرة إرهابية بل جزءا من حركة واسعة وتشكيل جبهة موحدة تتضمن اتفاقيات الكفاح مع كل القوى المستعدة لخوض المعركة ضد النظام الدكتاتوري. يجب التأكيد أن تلك الأنشطة ليست لديها أية علاقة على الإطلاق مع ذلك النوع من الإرهاب وحرب عصابات، وما شابه ذلك، التي أصبحت للأسف من سمات العصر الحديث عندما عادت، في غياب قيادة ماركسية ذات مصداقية، جميع أنواع وسائل النضال البدائية للظهور من مقبرة التاريخ.

## المد الثوري

بعد مذبحه 09 يناير انحسرت الحركة في سان بيترسبورغ مؤقتا، حيث كان عمال العاصمة يقيّمون الموقف بحذر. لم تحقق مظاهرات فاتح ماي في سان بيترسبورغ النجاح، إذ لم يشارك فيها سوى بضعة مئات فقط. ومع ذلك فطوال فصلي الربيع والصيف عام 1905، تأرجح البندول باستمرار نحو اليسار. وفي الوقت الذي كان فيه عمال العاصمة يتراجعون مؤقتا إلى الوراء لتقييم الوضع، بدأت المحافظات الأكثر تخلفا تنهض للنضال. يوم فاتح ماي، أُضرب 200.000 عامل في حوالي 200 مدينة في جميع أنحاء روسيا. أثارت الأحداث التي شهدتها سان بيترسبورغ موجة من النضالات في جميع المحافظات. وكان عمال النسيج في مقدمة الحركة. يوم 12 ماي، اندلع إضراب عام في معقل البلاشفة إيفانوفو- فونزينسك، وهي بلدة للنسيج تضم 70.000 عامل، واستمر 72 يوما. في ذلك الوقت كان عدد البلاشفة في إيفانوفو- فونزينسك أكثر من 400. قاد المفاوضات مندوبو عمال منتخبون كانوا ينظمون لقاءاتهم في "اجتماع لممثلي الوفود"، وهو مجلس سوفييت في كل شيء إلا الاسم. ومن أصل 128 مندوبا (من بينهم 23 من النساء) كان هناك حوالي 30 بلشفيا.

حافظ سوفييت إيفانوفو- فونزينسك على النظام في البلدة وأصدر تصريحات وأنشأ ميليشيات وسيطر على الصحافة، وبالتالي قام عمليا بفرض حرية الصحافة والتعبير والتجمع. مكنت اللقاءات الجماهيرية اليومية جماهير العمال من التعلم وتبادل الخبرات. نظر فلاحو المناطق المجاورة بأمل إلى السوفييت الذي كانوا يرسلون إليه ملتمساتهم. وحدة النضال بين العمال والفلاحين كانت تصهر، ليس بالأقوال بل بالأفعال، عن طريق حركة العمال أنفسهم. ابتداء من 23 ماي أصدر الفرع المحلي للحزب نشرة دورية حول سير الإضراب. وبحلول نهاية يونيو، وصلت منظمة إيفانوفو- فونزينسك البلشفية إلى 600 عضو، مع ما بين 15 و20 من خلايا المصانع. في بلدة النسيج في لودز في بولندا، تحولت جنازة عامل قتل على يد القوزاق إلى مظاهرة سياسية جماهيرية، يوم 15 ماي، رفعت خلالها شعارات مثل "فليسقط النظام القيصري!" و"عاشت الثورة!". اجتاحت موجة من الإضرابات والمظاهرات بولندا وليتوانيا، وبلغت ذروتها في 23 يونيو في إضراب عام وانتفاضة في لودز، ومظاهرات تضامن في وارسو وأوديسا.

موجة الإضرابات التي اجتاحت، طوال فصلي الربيع والصيف، جميع المناطق الصناعية تقريبا، بدأت تتخذ طابعا سياسيا على نحو متزايد. كان عدد الإضرابات السياسية في شهر مارس أقل من 30%، لكن بين شهري أبريل وغشت ارتفع الرقم إلى 50% و70%. كان ممثلو العمال في لجان المصانع ولجان الإضراب يقودون الحراك في كل مكان. ولم تكن مجالس السوفييت، في بدايتها، سوى لجنة



إضراب موسعة، وجهازا لنضال العمال ضد الرأسماليين. السوفييتات في روسيا، تلك المنظمات الفعالة بشكل رائع والمرنة والتي تمثل بحق العمال، لم تكن من اختراع لينين أو تروتسكي، ولم يرد لها أي ذكر في كتابات ماركس وإنجلز. لقد كانت نتاج عبقرية الابتكار والمبادرة من طرف العمال والعمالات. كانت السوفييتات تتجه لأن تلعب دورا محوريا في مجمل مسار تطور الثورة، لا سيما أثناء وبعد إضراب أكتوبر الكبير.

بدأ الفلاحون كذلك، وليس عمال المدن فقط، يدخلون تدريجيا إلى مدار الثورة. اندلعت طوال فترة الصيف اضطرابات للفلاحين وإضرابات العمال الزراعيين في منطقة البلطيق وأوكرانيا والدون وكوبان والقوقاز. في بعض المناطق، سيطر الفلاحون على مناطق بأكملها تقريبا وسيروا شؤونهم بأنفسهم. حاول المناشفة استخدام هذا دليلا على صحة نظريتهم حول "الحكم الذاتي الثوري". لكن الحقيقة هي أنه ما لم تأخذ الطبقة العاملة السلطة، فلن يكون لهذه المبادرات المحلية سوى طابع عرضي. وفي حين توجه المناشفة بأنظارهم نحو ليبراليي الزيمستفو، فإن لينين صار على اقتناع متزايد بأن الحليف الوحيد الممكن للعمال في نضالهم لإسقاط الاستبداد هم الفلاحون، وخاصة الفلاحون الفقراء. كانت رؤيته للثورة تتمثل في أوسع حركة ممكنة للعمال والفلاحين للإطاحة بالنظام القيصري وتشكيل حكومة ثورية مؤقتة (الدكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين) والتي، دون أن تتجاوز حدود الرأسمالية، ستنجز البرنامج الديمقراطي الأكثر جذرية وشمولية، بأن تعمل، أولا وقبل كل شيء، على مصادرة الملكيات الكبيرة وتسليم الأرض للفلاحين.

تألف البرنامج الزراعي للحزب، إلى حدود عام 1905، من سلسلة من المطالب المحدودة التي من شأنها أن تخفف الأعباء عن الفلاحين، ولا سيما استعادة الأوتريزي (otrezki)، أو "قطع الأراضي"، أي تلك الأراضي التي انتزعت من الفلاحين بموجب قانون تحرير الأفنان لعام 1861. لكن الآن صارت الثورة في المدن تنتشر بسرعة إلى القرى. وكان الشعور العام بين الفلاحين لصالح الاستيلاء على أراضي الملاكين الكبار. صار برنامج الحزب القديم متجاوزا بشكل كامل. وأمام الوضع الجديد في القرى قام الحزب بإعادة صياغة برنامجه الزراعي ليشمل مصادرة جميع أراضي الملاكين الكبار وأراضي الحكومة والكنيسة والرهبان والقيصر. لقد خلقت الأجواء المتغيرة في القرى للمرة الأولى إمكانية العمل الاشتراكي الديمقراطي بين الفلاحين.

على الرغم من أن الحزب كان ما يزال ضعيفا هناك، فإنه تم إنشاء بعض الحلقات في مناطق مثل نيجيغورود وسمارا وساراتوف وكازان وتفير. أصر لينين على إنشاء مجموعات اشتراكية ديمقراطية بحتة في القرى، تتألف من عمال المزارع والبروليتاريا الريفية. وبعدها فقط يمكنهم أن يسعوا إلى عقد اتفاقات للعمل المشترك مع المجموعات الديمقراطية الثورية الأخرى. لكن الشرط المسبق كان هو الحرص على عدم طمس الفرق بين العمال والفلاحين الملاكين الصغار.

يمكننا أن نرى وصفا مثيرا للاهتمام لعمل المحرضين البلاشفة في القرى في رواية شولوخوف الشهيرة "وبهدوء يجري الدون"، التي تصف كيف ينظم البلشفي ستوكمان مجموعة من القوزاق حول حلقة لقراءة الشعر ومحو الأمية: «بعد مرحلة غربلة واختبار طويلة، بدأت مجموعة صغيرة من القوزاق تجتمع بانتظام في ورشة ستوكمان. كان ستوكمان قلب وروح المجموعة وكان يعمل مباشرة في اتجاه الهدف الذي كان هو الوحيد الذي يفهمه تماما. كان يدخل في وعيهم البسيط مثلما تدخل الدودة في الخشب، غرس فيهم الاشمزاز والكراهية تجاه النظام القائم. في البداية وجد نفسه في مواجهة مشاعر باردة من عدم الثقة، لكن ذلك لم يثبط عزيمته، فحتى تلك المشاعر يمكن هزمها»<sup>1</sup>.

خلف ذلك الغليان، الذي كانت تعرفه القرى، تداعيات هامة داخل صفوف القوات المسلحة، والتي كانت تتكون في معظمها من الفلاحين. لكن، وكما يحدث في كثير من الأحيان في تاريخ الثورات، اندلعت الثورة لأول مرة في الأسطول، الذي هو أكثر انطبعا بالهوية البروليتارية. كان عمل الحزب بين الجنود والبحارة أكثر صعوبة من العمل بين الفلاحين. عشية ثورة 1905، كان الحزب يمتلك فقط ثلاث مجموعات منظمة داخل القوات المسلحة. لكن في مسار الثورة ارتفع هذا العدد إلى ما مجموعه 27 مجموعة<sup>2</sup>.

لقد خلفت الهزائم العسكرية مزاجا حادا من الاستياء بين صفوف الجنود، مما جعلهم أكثر تقبلا للتحريض الاشتراكي الديمقراطي. كان لخبر إبادة الأسطول الروسي في تسوشيما (14-15 ماي 1905) تأثير قوي جدا على قوات البحرية. وكما يحدث عادة أثناء تمرد قوات البحرية، كان الدور القيادي لضباط الصف، الذين يتم اختيارهم عادة من بين العناصر الأكثر قدرة وذكاء بين البحارة، والذين يخلق عندهم قربهم من الضباط الكبار ازدياد عميق الجذور لهؤلاء الأخيرين. صارت التوترات والصراعات،

1: Sholokhov, And Quiet Flows the Don, p: 259.

2: Istoriya KPSS, vol. 2, p: 90.

التي أثارها غطرسة وعدم كفاءة الضباط الكبار، لا تطاق بشكل متزايد، خاصة عندما بدأت تتعلق بمسائل الحياة أو الموت في زمن الحرب. كان مثل هذا الصدام بين ضباط الصف والضباط الكبار هو بالضبط ما أدى إلى اندلاع التمرد الشهير على بارجة الأمير بوتيمكين تافريشيسكي، يوم 14 يونيو 1905، والذي خلده فيلم آيزنشتاين الكلاسيكي "بارجة بوتيمكين".

كان السبب المباشر للتمرد هو رداءة الطعام، لكن السبب العميق وراءه كان هو السخط العام على سير الحرب وتراكم تناقضات لا تطاق على مدى عقود وأجيال. رسى أسطول البحر الأسود في الميناء الجنوبي بأوديسا بالضبط عندما كانت تلك المدينة في قبضة إضراب عام. لم يكن في مقدور لا الانضباط العسكري ولا الرقابة البوليسية أن يمنعا التحريض الثوري من الوصول إلى السفن الراسية على بعد بضعة أميال فقط. قبض طاقم المتمردين على جميع الضباط الكبار، باستثناء القائد وستة ضباط آخرين كانوا قد قتلوا. انتخب البحارة لجنة من بين صفوفهم أخذت مبادرة جريئة بالإبحار إلى أوديسا لطلب الدعم من العمال. وتجمع حشد كبير حول جثة البحار غريغوري فالولينشيك، الذي قتله أحد الضباط الكبار. اندلعت مظاهرة ضخمة وعقدت اجتماعات جماهيرية شارك فيها محرضون اشتراكيون ديمقراطيون. لقد أظهر ذلك كلا من الجانب القوي والجانب الضعيف للحركة العفوية والأولية للجماهير. كانت جميع العناصر متوفرة لأجل ربط الجيش بشكل حاسم مع الشعب الثوري، لكن وبسبب عدم وجود قيادة واعية، لم يكن في مقدور "الجمهورية العائمة" إلا أن تكون ذات طابع عرضي، لكنها مع ذلك كانت استباقا لالتحاق الجنود والبحارة بمعسكرالسوفييتات في عام 1917.

أصابته هذه الأحداث سلطات أوديسا بالصدمة، واستمرت لفترة من الزمن لا تعرف ما يجب القيام به. في الواقع كانت السلطة بين أيدي العمال، لكنهم تصرفوا دون أي منظور واضح ودون سياسة عامة أو خطة شاملة. وفر ذلك للسلطات الوقت لتركيز قواتها ضد أوديسا. أرسلت قوة بحرية ضد بوتيمكين، لكن المتمردين نجحوا في الفرار إلى رومانيا. وتم قمع الثورة في أوديسا بوحشية. وبالتالي فشل تمرد بوتيمكين في أن يؤدي إلى الانتفاضة رغم أن الوضع كان يحبل بها. لكن ذلك التمرد لم يمر دون أن يترك بصمته، فالحكومة التي أرفعها حجم الحركة الجماهيرية وعلامات التفكك الداخلي في صفوف القوات المسلحة، أعلنت عن إجراء انتخابات لمجلس الدوما (البرلمان). وبعد عشرة أيام تم إبرام سلام مع اليابان وفقا لشروط مذلة. كان في مقدور روسيا، من وجهة نظر عسكرية بحتة، وعلى الرغم من نكساتها السابقة، أن تكسب من استمرار الحرب. كانت احتياطات اليابان من الرجال والمال قد استنفدت تقريبا. لم تكن القوة العسكرية لليابان هي التي أدت إلى إبرام روسيا لاتفاق السلام، بل التهديد بالثورة في الداخل هو ما دفعها إلى ذلك. كان إيقاف الحرب بشكل سريع أساسيا للحفاظ على نظام الحكم المطلق.

## دوما بوليجين

اتضح ضعف الحكم المطلق في بيان 06 غشت الذي وعد بالبرلمان: مجلس الدوما (دوما بوليجين). استقبل الليبراليون البرجوازيون انتهاء الحرب وإعلان الانتخابات بالكثير من الفرحة. وقال أحدهم: "لن يدخل اليابانيون الكرملين، لكن الروس سيدخلونه!"<sup>1</sup>. إلا أن التدقيق في تفاصيل مقترحات بوليجين سرعان ما صببت الماء البارد على ذلك التفاؤل المتسرع والساذج. لقد طرح بوليجين، الذي هو صنيعه الحكم المطلق، ما وصفه لينين بأنه "الدستور الأكثر رجعية في أوروبا". لقد أعطى الحق في التصويت لكبار مالكي الأراضي والبرجوازية والفلاحين مالكي الأراضي والطبقة الوسطى الحضرية، في حين أن العمال وفقراء القرى والنساء والجنود، أي الأغلبية الساحقة من السكان، تم إقصاؤهم. ولزيادة الطين بلة، لم يعط لمجلس الدوما سوى صلاحيات استشارية فقط! كان ذلك الدستور مجرد كذبة وخداع، ووراءه كان كل شيء سيستمر كما كان من قبل.

منذ تلك اللحظة فصاعدا، احتل نقاش الموقف من الدوما مكانة مركزية في النقاشات التكتيكية بين جميع تيارات الاشتراكية الديمقراطية. تبنى البلاشفة على الفور سياسة "المقاطعة النشطة"، بينما كان موقف المناشفة غامضا. وفي القوقاز، معقل الجناح الأكثر تخلفا وانتهازية بين المناشفة، دافعوا علنا عن المشاركة. ومع ذلك فإنه بشكل عام، كان المزاج السائد بين قواعد المناشفة ضد المشاركة. اقترح البلاشفة على المناشفة والمنظمات الاشتراكية الديمقراطية من مختلف القوميات تشكيل جبهة موحدة لتنظيم حملة المقاطعة. على المستوى المحلي اشتغل العمال البلاشفة والمناشفة في انسجام تام. وقد دافع الاشتراكيون الثوريون البرجوازيون الصغار بدورهم عن المقاطعة، بل حتى الليبراليون أعضاء "اتحاد النقابات" اضطروا للوقوف موقف المعارضة، على الأقل بالكلمات. سماح الحكومة للجامعات بنوع من التسيير الذاتي، الذي كان في حد ذاته يبدو إجراءً ثانويا، شكل نقطة تحول رئيسية. فأبواب

1: Pares, op. cit., p: 485.

مؤسسات التعليم العالي انفتحت فجأة ومن خلالها تدفقت الجماهير المتعطشة للأفكار والمستعدة للمشاركة في ساحة النقاش العام. حتى تلك اللحظة كان الطلاب يخوضون إضرابات طلابية محضة ويرفضون توجه نحو الطبقات. كان ذلك الإضراب يكاد يتوقف عندما أخذت كل الحركة اتجاهها مختلفا تماما. فطوال فصل الخريف كانت الجامعات وقاعات المحاضرات بؤرا محورية لمناقشات ساخنة. وصلت تلك النقاشات التي أطلقها الطلاب للعمال الذين سرعان ما فهموا أن الجامعات وسط يمكنهم فيه أخيرا أن يجتمعوا ويناقشوا دون مضايقة من طرف الشرطة. كتب شاهد عيان قائلا: «جنباً إلى جنب مع الطلاب بزيهم الرسمي في قاعات المحاضرات، صار من الممكن رؤية أناس بملابس عادية، وحتى بوزرات العمال، بشكل متزايد باستمرار»<sup>1</sup>.

أظهر الغليان الذي عرفته الجامعات أن البندول كان ما يزال يتجه بسرعة نحو اليسار، مع دخول فئات جديدة إلى ساحة الصراع. كان ذلك هو الاعتبار الأساسي الذي حدد موقف البلاشفة من مسألة المقاطعة في هذه المرحلة، على الرغم من أنه أثناء المؤتمر الثالث أكد لينين على ضرورة أن يبقى الحزب خياراته مفتوحة بشأن هذه المسألة. لقد فهم لينين، أكثر من أي شخص آخر، الحاجة إلى المرونة القصوى في جميع المسائل التكتيكية والتنظيمية وعدم الانسياق وراء المزاجية اليسراوية المتطرفة التي لن تؤدي سوى إلى فصل العناصر المتقدمة عن بقية الطبقة.

في ذلك الوضع المحدد كانت مقاطعة دوما بوليجين موقفا صحيحا بشكل كامل. كانت الموجة الثورية ما تزال تستجمع قواها. وقد جاءت مضامين الدستور الجديد أقل من التوقعات بشكل كبير حتى أن قسما من الليبراليين وقف موقف المعارضة. لقد اصطدمت التطلعات الديمقراطية للجماهير بحائط النظام البوليسي البيروقراطي الصلب. وحدها الإطاحة الثورية بالنظام القيصري وإحداث قطيعة جذرية مع الماضي هي التي كان في إمكانها كسب الأرض لإقامة ديمقراطية حقيقية. كانت طبيعة التحول ودور الطبقات المختلفة في الثورة موضوع نقاش محتدم داخل صفوف الحركة العمالية، وهو ما سنتطرق له لاحقا. إلا أنه كان واضحا للجميع، ما عدا الإصلاحيين العميان، أن المهمة على جدول الأعمال ليست النزعة البرلمانية، بل الإضراب العام الثوري والعصيان المسلح للإطاحة بالحكم المطلق. لقد تأكد هذا المنظور بشكل كامل في المد الثوري الذي بشر به إضراب أكتوبر في سان بيترسبورغ وبلغ ذروته في انتفاضة دجنبر في موسكو.

### إضراب أكتوبر ومجلس السوفييت

مع حلول أواخر الصيف بدأ وكأن موجة الإضرابات قد هدأت. بدأ وكأن إبرام اتفاق السلام مع اليابان ودوما بوليجين إضافة إلى سلسلة من التنازلات الأخرى قد دفعت الإضرابات إلى نهايتها. لكن هذه المظاهر كانت خادعة. كانت الحركة ما زالت لم تستنزف بعد، وقد اندلعت حركة إضرابات شتبر وأكتوبر، ليس على يد الفئات الأكثر خبرة وتقدما بين العمال، بل على يد الفئات الأكثر تخلفا. شهدت أشهر الصيف انخفاض الإضرابات في المصانع الكبيرة، لكنها شهدت زيادة في إضرابات فئات العمال الأكثر انسحاقا واضطهادا: عمال مصانع الآجر وعمال معامل نشر الخشب وعمال المجازر وعمال الغزل والصيدلة وسعاة البريد والنوادل والخبازين، بل وحتى خدم المنازل. كان الجيش البروليتاري يستدعي قواته الاحتياطية. انضمت القطاعات موجة بعد موجة إلى النضال. وجاءت دفعة جديدة من إضراب عمال المطابع هموسكو والذي أدى إلى إضراب عام في موسكو، يوم 27 شتبر. بدأ الإضراب على خلفية نزاع صغير في مطبعة سيتين في موسكو، وانتشر إلى 50 مطبعة في غضون بضعة أيام وبعد ذلك أصبح بسرعة إضرابا عاما في جميع أنحاء المدينة.

وبالضبط عندما بدأ وكأن الحركة في موسكو قد بدأت تخبو، كانت هناك طفرة جديدة في سان بيترسبورغ. وفي أعقاب إضراب تضامني لعمال المطابع، يوم 02 أكتوبر، اندلع إضراب لعمال السكك الحديدية في موسكو، يوم 06 أكتوبر. أضرب عمال السكك الحديدية وانتخبوا ممثلين لهم. وبحلول يوم 10 أكتوبر كان هناك إضراب شامل في قطاع السكك الحديدية. وبحلول منتصف أكتوبر، كان ثلاثة أرباع مليون عامل سكي منخرطون في الإضراب. أصبحت الإضرابات عامة، وقد شملت موسكو وشاركوف ورفيل وسمولينسك ولودز ومينسك وبيترسبورغ وفيلنا وأوديسا وكازان وتفليس، وغيرها من المراكز الرئيسية الأخرى. في 16 أكتوبر انضمت فنلندا. وأصبح إضراب السكك الحديدية 100%، من تم انتشرت الحركة بسرعة لعمال وموظفي قطاع البريد والهاتف والبرقيات. وسرعان ما اتخذ الإضراب طابعا سياسيا، وهذا ما أجبر القيصر يوم 17 أكتوبر على إصدار بيان بمبادرة من الكونت وايت. وبعد ذلك بيومين توقف الإضراب العام.

1: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 1, p: 73.

إن دور الإضراب بشكل عام هو جعل الطبقة العاملة تدرك ذاتها باعتبارها قوة اجتماعية حية، والإضراب العام هو أسمى تعبير عن هذا. كان لينين مولعا بنقل كلمات أغنية ألمانية تقول: «جميع العجلات تتوقف عن الدوران، عندما تقرر ذراعاك القويتان ذلك». من خلال مشاركتهم في حركة الإضراب، وخاصة عندما تكتسي طابعا نشيطا مع المشاركة الجماهيرية، يكتسب العمال الاحساس بقوتهم من خلال الوحدة. الإضراب ظاهرة موازنة، تفيده في توحيد العمال الأكثر تقدما والأكثر وعيا سياسيا مع أوسع فئات الطبقة العاملة الذين نهضوا إلى النضال من جمود الأوقات "العادية". حققت الثورة، في خريف عام 1905، نهوضا لم يسبق له مثيل. وعلى رأس الحركة وفتت البروليتاريا، شاهرة سلاحها الكلاسيكي: الإضراب العام. وكما أشار لينين في وقت لاحق: «لم يكن للنضال الإضرابي مثيل في أي مكان في العالم من حيث مداه وحدته. تطور الإضراب الاقتصادي إلى إضراب سياسي، وتطور هذا الأخير إلى انتفاضة»<sup>1</sup>.

تمكنت الطبقة العاملة، التي أبانت عن قوتها، من أن تجر وراءها قطاعات واسعة من الطبقة الوسطى. انضمت الانتلجينسيا إلى الإضراب. «في كثير من الأماكن رفضت هيئة المحلفين الجلوس ورفض المحامون المرافعة ورفض الأطباء استقبال المرضى. وأغلق قضاة الصلح محاكمهم»<sup>2</sup>.

وقد رافقت الإضراب لقاءات جماهيرية حيث وضع العمال التكتيكات وناقشوا الاستراتيجية والسياسة. وعلى نحو متزايد بدأ الجنود في المشاركة في هذه الاجتماعات، معربين عن التضامن مع الشعب. كان العمال قد بدأوا في تنظيم ميليشيات للدفاع عن النفس ومكافحة المذابح والحفاظ على النظام. في بعض الأماكن تحولت فرق القتال العمالية إلى الهجوم. ووقعت اشتباكات مع القوزاق في يكاتيرينوسلاف وعلى المتاريس في أوديسا.

يمكن للإضراب العام، في ظل ظروف معينة، أن يؤدي إلى فرض تنازلات جديدة على الطبقة الحاكمة. لكن في السياق الخاص لروسيا عام 1905 كان على الإضراب العام أن يؤدي بالضرورة إلى الاستيلاء على السلطة أو أنه سيتعرض للهزيمة. لقد طرح الإضراب العام مسألة السلطة، لكن لم يكن قادرا، في حد ذاته، على حلها. لذلك كان من الضروري أن تتوفر الحركة على حزب ثوري مستعد ليضع على كاهله المهام الأكثر تقدما. لا يمكن فهم التطور السريع الذي حققته القوى الماركسية في روسيا، والسهولة التي وضعت بها نفسها على رأس الحركة العمالية الجماهيرية، في عام 1905، إلا في سياق بروليتاريا بكر من الناحية السياسية وليس لديها تاريخ طويل مع النقابات الإصلاحية والأحزاب الإصلاحية. بسرعة كبيرة تمكن الماركسيون الروس من كسب أفضل المناضلين الطبقيين في المصانع والذين بدورهم مكنوهم من لعب دور مهيم من داخل الحركة الجماهيرية. يبدو أنه من المفارقة أن تتمكن الماركسية الثورية من تحقيق نجاح كبير في بلد متخلف مثل روسيا، لكن المفارقة الظاهرية فقط وليست حقيقية. إن تخلف روسيا الشديد، أي تأخر تطورها الاقتصادي والاجتماعي، لم يكن يعني فقط أن التناقضات الاجتماعية كانت أكثر وضوحا وأكثر حدة، بل أيضا أن الطبقة العاملة كانت شابة تماما وغير مشوهة بالأحكام المسبقة والروتين وذلك النوع من التقاليد المحافظة التي تتدفق من بيروقراطية النقابات الإصلاحية والأحزاب الإصلاحية في البلدان الرأسمالية "المتقدمة".

هذا الواقع يفسر إلى حد كبير السرعة التي مر بها الاشتراكيون الديمقراطيون من حلقات دعاية صغيرة إلى قوة جماهيرية تضم مئات الآلاف في غضون بضعة أشهر. كانت الطبقة العاملة الروسية بكر من الناحية السياسية وليس لها تاريخ مع المنظمات البرجوازية أو الإصلاحية. ومثلما لم يكن على الصناعة الروسية أن تمر عبر سيرة التطور العضوي الطويلة والمؤلمة عبر المانيفاكاتورات والصناعات اليدوية إلى الصناعة الكبيرة، فإن الطبقة العاملة الروسية لم يكن عليها المرور من نفس التطور البطيء والمؤلم الذي مر منه العمال البريطانيون والفرنسيون والألمان، عبر مرحلة العمل النقابي والإصلاحية، بل كانت قادرة على الانتقال مباشرة إلى موقف الماركسية الثورية. وبشكل دياكتيكي حولت نفسها من الطبقة الأكثر تخلفا إلى الطبقة الأكثر تقدما في أوروبا. ومع ذلك فإن كسب الجماهير لم يكن عملية تلقائية، لقد تطلب ليس فقط الأفكار والمنظورات الصحيحة، بل كذلك تكتيكات مرنة والقدرة على التواصل مع الحركة الحية للطبقة العاملة كما كانت في الواقع وليس كما هي في خيال العصبيين.

نظر الكثير من المناضلين البلاشفة إلى مسألة الانتفاضة من الناحية التقنية المحضة، باعتبارها مسألة تنظيمية، وهي وجهة النظر التي كانت مرتبطة بالمبالغة في تقدير الأهمية المستقلة "للجهاز"، والتقليل من أهمية الجانب السياسي والحاجة إلى كسب الجماهير من خلال العمل بصبر على الدعاية والتحريض. إلا أن هذه، مع ذلك، هي بالضبط المهمة الرئيسية. كان لكل حزب كتائب أو ميليشيات مسلحة خاصة به، ليس فقط الاشتراكيون الديمقراطيون بل أيضا الاشتراكيون الثوريون. كانت الحاجة إلى تشكيل كتائب

1: LCW, 'Left-Wing' Communism—an Infantile disorder, vol. 31, p: 27.

2: Trotsky, 1905, p: 111.

مسلحة، في تلك الظروف المحددة، مسألة بديهية. لكنه كان لا بد من ربطها بالحركة الجماهيرية عبر السوفييتات. بدون كتائب مسلحة كانت السوفييتات في الواقع ستكون بلا أسنان و"مورا من ورق"، لكن بدون الحركة الجماهيرية، التي عبرت عن نفسها من خلال السوفييتات المنتخبة، لم يكن يمكن للكتائب المسلحة أن تكون لها أي أهمية. كان من الضروري كسب الجماهير للنضال عن طريق الشعارات المناسبة والتكتيكات الصحيحة، وإعطاء الدليل في الممارسة على تفوق الماركسية على أساس نضال الجماهير وخبرتها الملموسة. وبعبارة أخرى، فإن المسألة التي طرحت أمام الحزب هي كسب الحركة الجماهيرية وليس وضع نفسه بديلا عنها.

يمكن أن نُرجع، في آخر المطاف، كامل مسألة العلاقة بين الحزب والحركة الجماهيرية، إلى الفرق بين البرنامج العلمي المكتمل للماركسية وبين الحركة الجماهيرية التي هي بالضرورة غير ناضجة وناقصة ومتناقضة. وكل من يعجز عن إيجاد الجسر بين هذين الجانبين سيبقى إلى الأبد عاجزا عن بناء حركة جماهيرية. أوضح لينين أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي سيكافح، بطبيعة الحال، من أجل كسب النفوذ داخل السوفييتات ومحاولة كسبها. لكن القاعدة العريضة للسوفييتات، التي تمثل الغالبية العظمى للعمال، ليس فقط الفئات المتقدمة، بل حتى الفئات الأكثر تخلفا في المصانع، الاشتراكيون الديمقراطيون واللاحيزيون، الملحدون والمتدينون، المتعلمون والأميون، المهرة وغير المهرة، كانوا إضافة كبيرة في النضال الثوري ضد النظام القيصري. كان لينين على ثقة أن الجماهير ستتمكن من خلال تجربة النضال نفسها، من أن تستخلص، في الوقت المناسب، النتائج اللازمة وتتوصل إلى فهم صحة البرنامج الماركسي. كان واجب الطليعة الثورية هو أن "تشرح بصر"، وليس توجيه الإنذارات للجماهير. تذكرنا طريقة لينين بواقعية ماركس الثورية الذي أشار إلى أن "خطوة حقيقية واحدة تخطوها الحركة إلى الأمام أفضل من مائة برنامج صحيح".

في ظل الظروف التي كانت سائدة في روسيا، لم تكن هناك فرصة لبروز حركة عمالية إصلاحية جماهيرية تحت قيادة أرسقراطية عمالية متميزة وبيروقراطية متحجرة. لم تسفر محاولة زوباتوف تأسيس نقابات مروضة تحت سيطرة الحكومة عن أي نتيجة. بعد 09 يناير، حولت الجماهير بسرعة العديد من تلك النقابات إلى أجهزة حقيقية للنضال. لعبت السوفييتات دورا رئيسيا في كل تلك الأحداث. لقد ظهرت هذه الأجهزة الجنينية لسلطة العمال إلى الوجود لأول مرة كلجان إضراب موسعة. السوفييتات نفسها نشأت أولا في خضم إضراب أكتوبر العام في عموم روسيا. أمام عدم وجود نقابات عمالية جماهيرية، قام العمال المضربون بانتخاب المندوبين الذين بدأوا يجتمعون معا في لجان إضراب مرتجلة، والتي تم تعميمها لتشمل جميع قطاعات الطبقة العاملة. إن إنشاء السوفييتات في عام 1905 هو مثال رائع للعبقرية الخلاقة للعمال العاديين عندما يدخلون ساحة النضال. لا توجد فكرة السوفييتات في أي من كتابات المفكرين الماركسيين الكبار قبل عام 1905. لم يتم توقعها في صفحات البيان الشيوعي، ولم تكن من إبداع أي حزب سياسي، بل كانت إبداعا عفويا للعمال في خضم النضال ونتاجا للمبادرة والعبقرية الخلاقة للطبقة العاملة. إنها تمثل في المقام الأول لجان النضال وجمعيات للمندوبين المنتخبين في المصانع<sup>1</sup>. وهناك العديد من الأمثلة الأخرى.

كانت فكرة انتخاب مندوبين في المصانع قد أثرت بالفعل من قبل لجنة شيدلوفسكي، وقد قدم ذلك للعمال تجربة أولية. وهكذا ففي 11 أكتوبر، عندما وصل الإضراب إلى سان بيترسبورغ، قام العمال من تلقاء أنفسهم بانتخاب مندوبين، بمن فيهم مندوبون من مصنعي بوتيلوف وأبوخوف. كان نظام الانتخابات إلى السوفييتات على النحو التالي: مندوب واحد منتخب لكل 500 عامل (كانت هذه نفس الصيغة عند لجنة شيدلوفسكي). اجتمعت الورشات الصغيرة فيما بينها لإرسال مندوبيها. في 13 أكتوبر عقد السوفييت اجتماعه الأول في المعهد التقني بحضور 40 شخصا، بعض هؤلاء كانوا مندوبين سابقين في لجنة شيدلوفسكي. وقد ترأس أحد المناشفة (زبورودسكي) الجلسة الأولى. بعد ذلك زاد عدد المندوبين بشكل مستمر، في الاجتماع الثاني كان هناك ما بين 80 و90 مندوبا من 40 مصنعا كبيرا. في الاجتماع الثالث حضر 226 مندوبا من 96 مصنعا وخمس نقابات. كما حضر الجلسات أيضا ثلاثة مندوبين: واحد من المناشفة وآخر من البلاشفة وثالث من الاشتراكيين الثوريين. وبعبارة أخرى كان السوفييت يتشكل من مندوبين من أماكن العمل والنقابات والأحزاب الاشتراكية. شرع السوفييت في انتخاب لجنة تنفيذية من 22 عضوا، اثنان من كل حي من أحياء المدينة السبعة واثنان من كل من النقابات الأربع الكبرى.

كان سوفييت بيترسبورغ أكثر السوفييتات نفوذا وتأثيرا في روسيا. وسرعان ما ضم السوفييت عمليا كل بروليتاريا بيترسبورغ، وأعطى المثال لبقية البلاد. في ذروته جمع سوفييت بيترسبورغ معا 562 نائبا مما مجموعه 147 مصنعا و34 جمعية حرفية، و16

1: لا تقتصر هذه الملاحظة على مسألة السوفييتات، إذ استمد ماركس فكرته عما ستكون عليه الدولة العمالية من كومونة باريس عام 1871، عندما أخذ عمال باريس السلطة. وفي كتابه "الحرب الأهلية في فرنسا" لخص ماركس دروس برنامج الكومونة الذي قدم فيما بعد الأساس لكتاب لينين "الدولة والثورة".

نقابة عمالية. كان 351 من مندوبيه عمالا في قطاع الصلب، العمود الفقري للبروليتاريا الروسية. كان البلاشفة ممثلين في اللجنة التنفيذية من خلال خوستولوفسكي وبوغدانوف. لكن ليون تروتسكي كان بدون شك هو الشخصية السياسية القيادية في السوفييت. طوال فترة إضراب أكتوبر العام وإغلاقات نوفمبر كانت كل العيون مركزة على سوفييت سان بيترسبورغ. كان جهازا للنضال واسعا وديمقراطيا ومرنا للغاية. وفي سياق النضال وسعت السوفييتات تدريجيا وظائفها ونطاق تمثيليتها. من خلال السوفييتات مارس العمال حرية الصحافة التي حققوها أخيرا بوسيلة بسيطة هي الاستيلاء على المطابع. فرضوا يوم عمل من ثماني ساعات، بل وحتى أقاموا الرقابة العمالية على الإنتاج في بعض المصانع. شكلوا ميليشيات عمالية، بل وألقوا القبض على ضباط الشرطة الممقوتين. وبالإضافة إلى العديد من المهام الأخرى نشر السوفييت الصحيفة الشرعية "إزفستيا سوفييتا رابوشيك ديوناتوف"، باعتبارها لسان حاله.

واقتهاء بمثال سوفييت سان بيترسبورغ، أخذ العمال المبادرة لتشكيل السوفييتات في أجزاء أخرى من روسيا. وبحلول الخريف كان قد تم تشكيل السوفييتات في أكثر من 50 بلدة ومدينة، بما في ذلك تفير وكوستروما وخاركوف وكييف وبيكاتيرينوسلاف وأوديسا وروستوف على الدون ونوفوروسيسك وباكوف. لم يتأسس سوفييت موسكو إلا يوم 21 نوفمبر. وفي اجتماعه الأول كان هناك 180 مندوبا يمثلون حوالي 80.000 عامل. وكان موجودا في الأصل جنبا إلى جنب مع ما سمي "لجنة الإضراب" التي كانت تتكون أساسا من عناصر برجوازية صغيرة يسيطر عليها الاشتراكيون الثوريون ومختلف أبناء الطبقة الوسطى "الديمقراطيين". ومع ذلك ففي نوفمبر انصهرت هذه اللجنة مع السوفييت. في الغالبية العظمى من الحالات ساد الاشتراكيون الديمقراطيون، لكن الديمقراطيون البرجوازيين الصغار كانوا ممثلين أيضا من قبل الحزب الاشتراكي الثوري الذي، كما سبق لنا أن رأينا، كان موجودا في اللجنة التنفيذية لسوفييت بيترسبورغ.

بشكل عام يتطور وعي الجماهير ببطء وبشكل غير متساو. وعلى الرغم من أنه في خضم الثورة يتطور الوعي بشكل سريع جدا، فإن سيرورة صحوة الجماهير تبقى متناقضة. تتوصل فئات مختلفة لاستنتاجات مختلفة في أوقات مختلفة. وهكذا فيألى حدود أواخر نوفمبر كان القيصر ما يزال يتلقى ملتزمات من العمال المضربين في المحافظات تطلب منه التدخل للدفاع عنهم. وهذا يدل ليس فقط على التطور غير المتكافئ للوعي، بل أيضا الفرق الهائل بين موسكو وبيترسبورغ وبين المحافظات. ويبدو التناقض أكثر وضوحا بين وعي عمال المدن وبين الفلاحين. إن الحركة التي بدأت في المدن كانت قد بدأ تنتشر في القرى. وبحلول نهاية عام 1905 اندلعت اضطرابات الفلاحين في 37% من روسيا الأوروبية، وخاصة في منطقة الأرض السوداء الوسطى ولاتفيا واستونيا الجنوبية وجورجيا وأوكرانيا. في فصل الصيف جرت محاولة لبناء نقابة للفلاحين. وأرسل الفلاحون تحاياهم لـ "أشقاءنا عمال المصانع". لكن من حيث وعيهم كان الفلاحون متخلفين بفارق كبير عن العمال. كانت القرى ما تزال متأثرة إلى حد كبير بالأوهام الليبرالية، مما يشير إلى حالة نصف اليقظة التي حققها عقل الجماهير الريفية. في ظل هذه الظروف سقطت قيادة نقابة الفلاحين في أيدي الاشتراكيين الثوريين والليبراليين، وهي الظاهرة التي تكررت في وقت لاحق في فبراير 1917.

في موسكو تم تشكيل مجلس لممثلي الجنود وفي محافظة تفير تم تشكيل سوفييت للفلاحين. في سيفاستوبول، كان هناك أيضا حضور للبحارة والجنود في سوفييت العمال المحلي. لكن هذه كانت استثناءات نادرة. كان الجيش هو المكان الذي بدأت فيه الثورة تجد طريقها لاختراق عقول الفلاحين. كانت القوات المسلحة في حالة غليان تحت ضربات مطرقة الهزائم العسكرية وتأثير الحركة الثورية العامة. وكان التأثير الاشتراكي الديمقراطي قويا بين أقسام من قوات البحرية، والتي هي تقليديا الفئة الأكثر قربا من الطبقة العاملة بين صفوف القوات المسلحة. تعرض التمرد الذي حدث في سيفاستوبول، في شهر نوفمبر بقيادة الملازم ب. شميت، لقمع وحشي من قبل السلطات القيصرية. ومع ذلك فإن سلسلة كاملة من التمردات داخل الجيش طرحت الموقف من الجيش بشكل حاد. كانت لهذه المسألة أهمية كبيرة جدا، لأن الجيش كان يتكون في أغلبيته الساحقة من الفلاحين. أحد نقاط الضعف الرئيسية لثورة 1905 كانت عدم وجود قاعدة ثابتة بين الفلاحين. كانت الجماهير الريفية متخلفة عن المدن وأظهرت هذه الحقيقة نقطة ضعف قاتلة في انتفاضة دجنبر. كانت هناك عناصر لتمرد فلاحى-عسكري، لكن ليس على نطاق كاف لإحداث تغيير أساسي في النتيجة. وبحلول الوقت الذي انتشر فيه الحريق إلى القرى كانت الحركة في المدن قد بدأت في التراجع بالفعل.

من منفاه البعيد، استقبل لينين بحفاوة أخبار تشكيل السوفييتات، التي توقع بشكل بارع أنها الأجهزة الجينية لسلطة العمال. وكتب: «قد أكون مخطئا، لكنني أعتقد (بالاعتماد فقط على معلومات "الجرائد" الناقصة التي أتوفر عليها) أنه من الناحية السياسية يجب النظر إلى سوفييت نواب العمال باعتباره جنين حكومة ثورية مؤقتة. أعتقد أنه على السوفييت أن يعلن نفسه الحكومة الثورية المؤقتة لعموم روسيا في أقرب وقت ممكن، أو أن يشكل حكومة ثورية مؤقتة (وهو الشيء نفسه، لكن بشكل

مختلف)»<sup>1</sup>. وقد كان ذلك، في الجوهر، هو ما حدث فعلا في أكتوبر 1917.

### البلاشفة ومجلس السوفييات

في ظل تلك الظروف حين كانت الحركة تكتسب زخما هائلا، شكلت ضرورة التغلغل في فئات جديدة واعتماد أساليب جديدة للتحريض تحديا كبيرا للحزب. كان من الضروري إحداث هزة لتحقيق الاستفادة الكاملة من ذلك الوضع. في كل يوم كانت تعقد اجتماعات جماهيرية في جميع مدن روسيا. انفتحت فرص كبيرة أمام الاشتراكيين الديمقراطيين الذين كانوا يوجدون في الساحة لوحدهم تقريبا. كان منافسوهم الحقيقيون الوحيدون هم الاشتراكيون الثوريون، الذين كان لديهم بعض الحضور، والمنظمات القومية البرجوازية الصغيرة مثل: الحزب الاشتراكي البولندي، في بولندا، وحزب البوند اليهودي. كان اللاسلطويون في بيتسبورغ فرقة أضعف من أن يتم تمثيلها في اللجنة التنفيذية للسوفييت. والشيء نفسه ينطبق على جميع أنحاء البلاد، مع استثناء وحيد هو بيلوستوك، حيث كانت لهم الأغلبية. لم تكن لليبراليين البرجوازيين أية قاعدة بين الجماهير، ولم يقوموا بأي محاولات تقريبا لكسبها. كانت كل إستراتيجيتهم تقوم على التوافقات من أجل انتزاع بعض التنازلات من النظام.

كان الحزب يكسب بسرعة النفوذ بين العناصر الأكثر تقدما. ولكن ذلك غير كاف للقيام بالثورة. من الضروري كسب الجماهير. ولإنجاز هذه المهمة لا بد من تبني تكتيكات مرنة، لكي تتمكن قوى الطليعة البروليتارية، الصغيرة نسبيا، من إيجاد الطريق إلى غالبية العمال الذين لم يصلوا بعد إلى كل الخلاصات الضرورية. كان الموقف من سوفييت بيتسبورغ هو السؤال الرئيسي الأهم لربط المنظمة الماركسية الصغيرة مع الكتلة الواسعة من العمال. لينين، كما رأينا، وعلى الرغم من أنه كان بعيدا بألاف الكيلومترات عن ساحة الأحداث، تمكن على الفور من فهم مغزى هذه الظاهرة الجديدة. لكن لم يكن الحال نفسه ينطبق على أعضاء حزبه في بيتسبورغ. كان أعضاء اللجنة المركزية البلشفية، في بيتسبورغ، الذين أبانوا عن انعدام تام «للإحساس» بالحركة الحقيقية للطبقة العاملة، يشعرون بعدم الارتياح تجاه فكرة وجود منظمة جماهيرية «غير حزبية» جنباً إلى جنب مع الحزب. وعضو أن يروا في السوفييت حقل اشتغال هام، نظروا إليه بعداء، كمنافس لهم.

بسبب ما افترض أنه طبيعة غير حزبية للسوفييت، وبسبب رئيسه خاروستالوف، ذهب بلاشفة سان بيتسبورغ إلى حد تنظيم حملة ضد السوفييت. لقد أقتعوا المجلس الاتحادي، المكون من البلاشفة والمناشفة، بتوجيه إنذار للسوفييت بأنه يجب عليه أن يضع نفسه تحت قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي. إلا أنه تم رفض هذا الاقتراح من طرف القواعد خلال مؤتمر مشترك بين البلاشفة والمناشفة، انعقد في 26 أكتوبر. عارض المناشفة ذلك، بينما مضى البلاشفة قدما بمفردهم. في 24 أكتوبر طرحوا قرارا على نفس المنوال خلال اجتماع في مصنع سيميانيكوف وغيره من مصانع الصلب الأخرى، مطالبين بأن يقبل السوفييت البرنامج والتكتيكات الاشتراكية الديمقراطية وطالبوا بوجوب أن يحدد موقفه السياسي. في العدد الأول من الصحيفة البلشفية الشرعية، نوفيا جيزن، ظهر مقال تحت عنوان: «حول مسألة السوفييت»، اشتمكى من «الوضع الغريب للغاية حيث لا يتبنى «السوفييت» أية علاقة تبعية تجاه الحزب»<sup>2</sup>.

نشرت اللجنة المركزية البلشفية قرارا ملزما لكل البلاشفة في جميع أنحاء روسيا يؤكد على أن السوفييتات يجب أن تقبل برنامج الحزب. لقد تبنا ذلك النوع من سمات التفكير الصورية المميزة للعصويين في كل عصر، أي أنه إذا أراد السوفييت أن يكون منظمة سياسية فيجب على الاشتراكيين الديمقراطيين آنذاك أن يطالبوه بأن يتبنى البرنامج الاشتراكي الديمقراطي، لكنه إذا قبل بذلك فإنه لن يكون هناك أي معنى لوجود منظمة اشتراكية ديمقراطية أخرى موازية للحزب، وبالتالي فإنه يجب على السوفييت أن يحل. كان هذا بمثابة مطالبة جميع أعضاء مجلس السوفييت بالانضمام للحزب الاشتراكي الديمقراطي. وللتوضيح أكد محررو صحيفة نوفيا جيزن أنهم ليسوا متفقين 100% مع ما جاء في المقال، لكن التحريض ضد السوفييت استمر بنفس المنوال. وفي 29 أكتوبر، أعلنت لجنة حي نيفسكي أنه من غير المقبول بالنسبة للاشتراكيين الديمقراطيين المشاركة في أي نوع من أنواع «برلمان العمال» مثل السوفييتات. وتبنى اجتماع لعمال مصنع سيميونوف نفس الموقف. تجاهل هذا الموقف تماما الحاجة إلى إقامة صلة قوية بين العمال المتقدمين الذين يتبنون الأفكار الماركسية وبين جماهير العمال غير الواعين سياسيا. كان ذلك بمثابة مطالبة الطبقة العاملة كلها بأن تلتحق بالحزب الماركسي، وهو تصور غير واقعي تماما، والذي إذا ما تم التشبث به فلن يؤدي إلا إلى عزل أقلية العمال

1: LCW, Our Tasks and the Soviet of Workers' Deputies, vol. 10, p: 21.

2: Istoriya KPSS, vol. 2, p: 104.

المتقدمين عن بقية الطبقة.

تكرر هذا الموقف الصوري الفج في عدد من المقالات التي نشرت في صحيفة نوافيا جيزن، لا سيما ذلك الذي ظهر في العدد السادس بتوقيع ب. مندليف، حيث نقرأ ما يلي: «يجب على سوفيت نواب العمال ألا يوجد كمنظمة سياسية ويجب على الاشتراكيين الديموقراطيين أن ينسحبوا منه، لأن وجوده يؤثر بشكل سلبي على تطور الحركة الاشتراكية الديمقراطية. يمكن لسوفييت المندوبين أن يبقى منظمة نقابية، أو عليه أن يختفي تماما». ويضيف نفس المؤلف اقتراحا بأنه على البلاشفة أن يوجهوا للسوفييت إنذارا نهائيا: إما قبول برنامج الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي وإما أن يحل نفسه! وقد برر القادة البلاشفة عداءهم للسوفييت بأنه يمثل "خضوع الوعي للعفوية"<sup>1</sup>. بل وصلوا إلى حد أنهم طرحوا مشروع قرارا بذلك المعنى أمام السوفييت، وعندما رفض القرار، انسحب المندوبون البلاشفة، بقيادة عضوي اللجنة المركزية بوغدانوف وكنيانتس، بينما اكتفى بقية المندوبين بهز أكتافهم وانتقلوا إلى نقاش النقطة التالية على جدول الأعمال.

لقد صبت أخطاء "أعضاء اللجنة" البلاشفة في صالح المناشفة الذين مكنتهم موقفهم الأكثر مرونة من اتخاذ مبادرات لإقامة السوفييتات، حيث سرعان ما حققوا التقدم على البلاشفة. لم يعتبر المناشفة السوفييتات حكومة ثورية مؤقتة، على حد تعبير لينين، بل اعتبروه جهازا "للحكم الذاتي الثوري". كان ذلك قياسا على الثورة الفرنسية عام 1789 وكومونة باريس، لكن ذلك التشبيه لم يكن على أساس نقطة قوة تلك السوابق التاريخية، بل تحديدا على أساس أخطاء الكومونة. وكانت فكرة المناشفة الأخرى عن "مؤتمر العمال" بدورها مفهوما غير ثوري، إذ قامت على اعتبار السوفييت ليس جهازا للنضال يمكن للعمال من خلاله الاستيلاء على السلطة، بل نقطة انطلاق لبناء حزب عمالي جماهيري، أي حزب يشبه حزب العمال البريطاني. شعار "مؤتمر العمال"، الذي تبناه لاحقا أكسلرود على وجه الخصوص، كان يعكس نفس الفكرة. وهكذا فعلى الرغم من نجاحهم في المشاركة في السوفييتات، فإن تصور المناشفة بمجملة كان تصورا ذا طابع إصلاحية وليس ثوري.

ومن بعيد تتبع لينين أنشطة أعضاء حزبه بمزيج من الإحباط والاستياء. مكنته غريزته السديدة ومعرفته بالحركة العمالية من أن يفهم بسرعة أهمية السوفييتات. لكن رفاقه لم يشاركوه فهمه للطريقة التي تتحرك بها الجماهير. تطلب الأمر تدخل لينين الحاسم لتصويب الأمور. في هذه الأثناء فقد البلاشفة الكثير من المواقع داخل السوفييتات لصالح المناشفة وفقدوا وقتا ثميناً وفرصا عظيمة. لا بد أنه لطم وجهه غضبا عندما علم بسلوك رفاقه في سان بيترسبورغ. وبينما كان عائدا إلى روسيا من ستوكهولم، في مطلع شهر نوفمبر، حاول، بلطف لكن بحزم، تصحيح أخطاء بلاشفة بيترسبورغ. في العدد الخامس من نوافيا جيزن، طرح مقال وقعه عضو بارز في اللجنة المركزية، هو: ب. م. كنيانتس (رادين)، الخيار التالي: "السوفييت أو الحزب". قال لينين في جوابه على سؤال كنيانتس: «أعتقد أنه من الخطأ وضع السؤال بهذه الطريقة وأنه يجب أن يكون القرار بالتأكيد هو: سوفييت نواب العمال والحزب معا». ومن الجدير بالذكر أن المحررين لم ينشروا رسالة لينين، التي لم تر النور سوى في عام 1940.

وأضاف لينين: «السؤال الوحيد، والمهم للغاية، هو كيفية تقسيم وكيفية تجميع مهام السوفييت ومهام حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي» ثم أضاف بعبارة لا بد أنها سببت ذعرا بين أعضاء اللجنة: «أعتقد أنه سيكون من غير المناسب للسوفييت أن يلتحق بحزب واحد، أيا كان». ويمضي لينين في شرح الحقيقة الأولية بأنه على النقابات العمالية والسوفييت أن يسعيا جاهدين لضم جميع قطاعات الطبقة العاملة، بغض النظر عن الجنسية أو الاثنية أو العقيدة أو الانتماء السياسي. وحدها منظمة المائة السود شبه الفاشية من يجب إقصاؤها، وأنه يجب على الماركسيين الكفاح داخل تلك المنظمات الجماهيرية من أجل كسب الأغلبية لأفكارهم وبرنامجهم وتكتيكاتهم. وأضاف: «نحن لا نعزل أنفسنا عن الشعب الثوري، بل نخضع لحكمه في كل خطوة وفي كل قرار نتخذه. ونحن نعتمد بشكل كامل وحصري على المبادرة الحرة لجماهير الشغيلة نفسها»<sup>2</sup>. هذا هو لينين يتحدث، بعيدا عن تلك الصورة الكاريكاتيرية الخبيثة التي تقدمه كعصبوي أو "متأمر بلانكي"، يتلاعب بالجماهير من وراء الكواليس!

أعطى إضراب أكتوبر دفعة قوية لتمرر القوميات المضطهدة. وقد أصبحت فنلندا ومنطقة بحر البلطيق ومناطق واسعة من القوقاز مناطق محررة عمليا، وخاصة بعد الإعلان عن الإصلاحات في بيان أكتوبر. كتب رئيس الوزراء "الليبرالي"، وايت، بقلق إلى القيصر حول الوضع في فنلندا قائلا: «خلال النصف الثاني من أكتوبر الماضي جرت في فنلندا أحداث ليست لها سابقة طيلة ما يقرب من مائة عام، منذ أن صار الإقليم تحت الحكم الروسي. تم تنظيم إضراب سياسي عام. وظهر "حرس وطني" [ميليشيات] جيد التسليح والتنظيم، تمكن في كثير من الأماكن من تولى دور الشرطة الشرعية، وأمرها بإلقاء أسلحتها. وقد اضطر بعض حكام

1: O. Anweiler, Los Soviets, pp: 84, 85.

2: LCW, Our Tasks in the Soviet of Workers' Deputies—Letter to the Editors, vol. 10, pp: 19 and 27.



المحافظات، بفعل تهديدات ممثلي الأحزاب السياسية المحلية، إلى الاستقالة من مناصبهم».

أظهرت مراسلات الكونت وايت اليومية مع القيصر تزايد القلق من تطور الوضع الثوري. وبضغط من وايت أصدر القيصر بيان أكتوبر. لكنه أصبح من الواضح آنذاك أن التنازلات لم تؤد إلى وقف الثورة، بل فقط أعطتها دفعة جديدة. وإذا كان وايت يتوقع تعاطف القيصر، فإنه أصيب بخيبة أمل. كتب نيكولا يرد عليه: «هل من الممكن لـ 162 من الفوضويين تخريب الجيش؟ ينبغي أن يُعدموا جميعاً». كان هذا هو التعليق الوحيد الذي قدمه القيصر على رسالة وايت.

وتأكدت تعليقات وايت عن فنلندا بتقارير أخرى قدمت إلى القيصر. أحد تلك التقارير كتبها الحاكم العام لوارسو وقد تضمن التقييم التالي للوضع في بولندا: «لقد اكتسب المزاج الغريب السائد داخل المجتمع البولندي والعداء تجاه الروس أبعاداً غير مسبوقة... لم يدع بيان أكتوبر لأنشطة محددة، لكنه، على العكس من ذلك، أثار أحداثاً خطيرة إلى درجة أن بلدة وارسو والمناطق المحيطة بها أخذت تظهر معسكر متمرد واحد. هناك اجتماعات حاشدة في الشوارع والساحات وخطباء يدعون إلى الانتفاضة. القساوسة الكاثوليك ينظمون "مظاهرات وطنية" في القرى وينشدون الأغاني الثورية ويرفعون الأعلام الحمراء والسوداء بشعار النسر البولندي والشعارات الثورية»<sup>1</sup>.

خلال شهر أكتوبر كانت أوكرانيا بدورها في حالة من الاضطراب مع اجتماعات احتجاجية جماهيرية في كييف وأوديسا. كانت كل العوامل تنضج لانتقال السلطة إلى أيدي الطبقة العاملة. وكانت الحركة الثورية في القرى في تصاعد. خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من عام 1905، تم الإبلاغ عن 1590 حالة من التمردات الفلاحية. وبدأت الانشقاقات تظهر في صفوف الحكم المطلق، ففي حين طلب وايت من القيصر منح إصلاحات من فوق لتجنب اندلاع الثورة من تحت، أصدر الجنرال ترييوف، الحاكم الفعلي لبيترسبورغ، أمره الشهير لجنوده: "لا توفرُوا الرصاص!".

ضعف النظام، الذي كان يواجه انفجار الغضب الشعبي، تبين في لهجة الذعر في رسائل وايت إلى القيصر، والشكاوى المستمرة من نقص القوات. وفي الأخير اضطر حتى عقل نيكولا الثخين أن يتصالح مع الواقع ويعترف، على مضض، بالحاجة إلى إجراء انتخابات لمجلس الدوما. اعتبر لينين بيان القيصر، في 17 أكتوبر، بأنه "أول انتصار للثورة". وقد استقبل باحتفالات صاخبة في الشوارع. حشود من الناس المتحمسين تجمعوا في مراكز المدن لمناقشة الوضع. وفي 18 و19 و20 أكتوبر، وبدون خطة مسبقة، سار العمال إلى المعتقلات، رافعين الأعلام الحمراء، للمطالبة بالإفراج عن السجناء السياسيين. في موسكو، فتحت المعتقلات قسراً وحمل السجناء على الأكتاف في الشوارع. كان موقف البلاشفة هو عدم وضع أي ثقة في الوعود المكتوبة على الورق والاستمرار في النضال من أجل جمعية تأسيسية. وعلى الرغم من الحالة المزاجية المشبعة بالنشوة، أكد لينين على فكرة أن البيان لم يكن سوى تراجع تكتيكي، وحذر من الأوهام الدستورية والألاعيب البرلمانية قائلاً:

«هناك حديث عن الحرية والتمثيل الشعبي، بعضهم يتحدث حتى عن الجمعية التأسيسية. لكن ما يجب أن نحصر باستمرار، كل ساعة وكل دقيقة، على ألا يغيب عن أذهاننا هو أنه من دون ضمانات جديده، فإن كل تلك الأشياء الجميلة ليست سوى عبارات جوفاء. لا يمكن تقديم ضمانة جديده إلا بانتفاضة شعبية ظافرة، إلا من خلال السيطرة الكاملة للبروليتاريا المسلحة والفلاحين على جميع ممثلي السلطة القيصرية الذين تراجعوا شيئاً ما، تحت ضغط الشعب، لكنهم ما زالوا لم يستسلموا للشعب، وما زالوا لم يسقطوا بعد. وإلى حين أن يتحقق هذا الهدف لا يمكن أن تكون هناك حرية حقيقية ولا تمثيل شعبي حقيقي ولا جمعية تأسيسية حقيقية لديها السلطة لإقامة نظام جديد في روسيا».

كان النظام يلعب على الوقت، كان يقدم التنازلات من أجل تهدئة الوضع، في حين كان يحضر وراء الكواليس للهجوم المضاد. تنشأ حالة مماثلة لهذه عند نقطة معينة في كل ثورة. يمكن وصفها بأنها مرحلة الأوهام الديمقراطية. يتصور الناس أنه قد تم حل المشكلة وأن الثورة قد انتهت، في حين أنها تكون في واقع الأمر مجرد البداية، تكون المعركة الحاسمة ما زالت في المستقبل. لم يقدم بيان أكتوبر أي حل جوهري، لكنه قدم المبرر لليبراليين ليفصلوا أنفسهم عن الثورة. وكما توقع لينين وتروتسكي عملت البرجوازية، التي كانت دائماً تسعى جاهدة للتوصل إلى اتفاق مع النظام القيصري على حساب العمال والفلاحين، على الانسحاب غدرا من المعسكر الثوري. اتحد كبار الرأسماليين وملاك الأراضي في تكتل رجعي: في ما سمي اتحاد 17 أكتوبر، أو "الاكتوبريين"، والذي وقف بكل ثقله إلى جانب الردة الرجعية القيصرية. وفي الوقت نفسه، قام القسم "الليبرالي" بين البرجوازية بتأسيس الحزب الديمقراطي الدستوري، "الكاديت"، الذي دافع عن إقامة "ملكية دستورية"، والذي تصرف في الواقع باعتباره القدم اليسرى للاستبداد، متسترا

1: V.P. Semenikov and A.M. Pankratova, *Revolutsiya 1905 Goda—a Collection of Government Documents*, pp: 22-23 and 224-225.

على الطبيعة الدموية للنظام القيصري بعبارات دستورية ديمقراطية مزيفة. كان لينين لاذعا في هجماته لا سيما على هذا الجناح "التقدمي" للبرجوازية، ولم يدخر أية فرصة لإدانتهم بسبب جبنهم وغدرهم.

كتب لينين: «ما هو الدستور؟ إنه قطعة من الورق مكتوب عليها حقوق الشعب. ما هي الضمانة بأن يتم الاعتراف حقاً بهذه الحقوق؟ توجد تلك الضمانة في قوة تلك الطبقات الشعبية التي أصبحت على وعي بهذه الحقوق وتمكنت من الفوز بها»<sup>1</sup>. حلل لينين ببرودة أعصاب ميزان القوى في اللحظة المعينة وخلص إلى أن: «الاستبداد لم يعد قويا بما يكفي ليقمع الثورة علناً، والثورة ليست بعد قوية بما فيه الكفاية لتوجه للعدو ضربة حاسمة. هذا التذبذب في القوى، التي بالكاد تتوازن، يولد حتما الارتباك داخل صفوف السلطات، ليؤدي إلى الانتقال من القمع إلى التنازلات وإصدار قوانين تنص على حرية الصحافة وحرية التجمع»<sup>2</sup>. وكما توقع لينين، فإن ما أعطاه الحكم المطلق باليد اليسرى، بدأ يستعد الآن لاسترجاعه باليد اليمنى. لقد رفعت المكتسبات التي تحققت بفضل الإضراب العام من ثقة الطبقة العاملة. أطلق سراح المعتقلين من السجون، لكن الحرية التي تحققت بالضغط من أسفل كانت في جوهرها ذات طبيعة غير مستقرة وهشة. لا يمكن ضمان التحرر السياسي والاجتماعي الحقيقي إلا عن طريق الإطاحة الحاسمة بالنظام.

انسحاب الليبراليين أخلى الطريق لأجل العمل. صارت المسألة الآن بالنسبة للثورة هي: «إما... وإما...». وحدها الانتفاضة المسلحة، بقيادة البروليتاريا والتي تجر ورائها جماهير الفلاحين والقوميات وجميع الفئات المضطهدة في المجتمع، هي التي يمكنها أن تقدم الحل. آنذاك كان الوهم في الإصلاح الدستوري قد تبدد. كان بيان أكتوبر محاولة واضحة من جانب النظام القديم لرسم خط في رمال الثورة: «كفى، لا مزيد من التقدم». تلك الإصلاحات التي تحققت لم تكن بفضل مناورات الليبراليين، بل كانت حصرياً بفضل النضال الثوري للبروليتاريا. وبعيدا عن الأوهام حول بيان أكتوبر، دعا لينين الطبقة العاملة لاستجماع كل قواتها لأجل المواجهة الحاسمة. ووراء واجهة الدستور، كان الحكم المطلق يعد العدة لأجل القيام بتصفية دموية للحسابات. كانت مهمة الثوار في هذه الحالة، إلى جانب الوعي بوضوح أن المعارك الحاسمة ما تزال في المستقبل، هي اغتنام الفرصة بكلتا يديهم، والاستفادة الكاملة من الحريات التي انتزعت حديثاً لبناء الحزب بسرعة، ومد نفوذهم في جميع مجالات الحياة الاجتماعية، والاستعداد للمعركة الحاسمة. اعتبر لينين أن الانتفاضة هي الضمانة الوحيدة، وارتبطت تسليح الشعب بالنضال من أجل المطالب الأساسية مثل تخفيض يوم العمل إلى ثماني ساعات وإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين. لقد أثمرت واقعية لينين الثورية خلال الأحداث اللاحقة.

### «نيكولا الدموي»

في الوقت الحاضر، حين أصبح من الشائع تقديم صورة جميلة عن القيصر نيكولا بألوان أكثر جاذبية وإنسانية، من الواجب علينا أن نذكر بالطبيعة الحقيقية والدور الذي لعبه ذلك الذي كان معروفاً لمعاصريه باسم «نيكولا الدموي». ونشير بشكل خاص إلى موقف «الأب المبجل» من جرائم منظمي المذابح ضد الأقليات. منذ بداية حكمه أظهر نيكولا استعداداً للجوء إلى العنف تحت أدنى ذريعة. في عام 1895، أي بعد عام على توليته، أرسل القيصر برقية لفوج من رماة القنابل، الذين تميزوا بشراستهم في قمع احتجاجات العمال، قال فيها: «إني راضٍ للغاية عن الهدوء والجرأة التي تعاملت بهما القوات خلال أعمال شغب المصانع». وفي عام 1905 تصرف بنفس الطريقة، حين كتب إلى والدته في دجنبر 1905، يمدح القمع الوحشي ضد الفلاحين في منطقة البلطيق، قائلاً: «يجب مواجهة الإرهاب بالإرهاب. أورلوف وريختر والآخرون يقومون بعمل جيد جداً. لقد تم تفريق العديد من العصابات التي تثير الفتن وأحرقت منازلهم وممتلكاتهم». وبعد فترة وجيزة، عندما سمع بأن ريغا قد تمت السيطرة عليها، وأن القبطان ريختر شنق زعيم المتمردين، علق القيصر قائلاً: «إنه إنسان رائع!». وفي عام 1907 سأل برنار باريز، مؤلف واحد من أفضل كتب التاريخ الإنجليزية المعروفة عن روسيا، فلاحاً روسياً عن رأيه في ما حدث خلال السنوات الخمس الماضية، أجاب الفلاح بعد لحظة تفكير: «قبل خمس سنوات كانت هناك ثقة [في القيصر] فضلاً عن الخوف، أما الآن فإن الثقة ذهبت وكل ما تبقى هو الخوف فقط»<sup>3</sup>.

ورداً على الحركة الثورية للعمال، نظم النظام مذابح دموية ضد اليهود والاشتراكيين و«المثقفين». في شهر واحد بعد 17 أكتوبر، قتل حوالي 4.000 شخص إضافة إلى 10.000 جريح في مذابح دموية. هلك كثير من الاشتراكيين الديمقراطيين في هذه الهجمات، ولا

1: LCW, Between Two Battles, vol. 9, p: 460.

2: LCW, The All-Russian Political Strike, vol. 9, pp: 394-395.

3: O. Figes, A People's Tragedy. The Russian Revolution 1891-1924, p: 203.

سيما الزعيم البلشفي، نيكولاي بومان، الذي تعرض للاغتيال في موسكو بعد وقت قصير من إطلاق سراحه من السجن. تحولت جنازة بومان إلى مظاهرة عمالية حاشدة. تم الطواف بالنعش في الشوارع برفقة فرقة تنشيد الأغاني الثورية. «جاء قادة الحزب بأكاليل الزهور والأعلام الحمراء ولافاتات تحمل شعارات مكتوبة بأحرف مذهبة. كانت تحيط بهم ميليشيا من الطلاب والعمال المسلحين ووراءهم سارت صفوف طويلة من المشيعين، بلغ عددهم حوالي 100.000 في المجموع، وساروا في تشكيل عسكري. استمر هذا الموكب شبه الديني طيلة يوم، وتوقف عند نقاط مختلفة في المدينة لالتقاط التعزيزات. وعندما مرت الجنازة أمام المعهد الموسيقي انضمت إليه أوركسترا طلابية، والتي رددت، مرارا وتكرارا، النشيد الجنائزي الثوري: "وقعت ضحية لصراع مصري". حزن المشاركون في المسيرة وموسيقاهم الكثيرة وتنظيمهم العسكري ملأ الشوارع بتهديد قائم. ومع حلول الليل، أشعلت آلاف المشاعل، مما جعل الأعلام الحمراء تتوهج. كانت الخطب على القبر مثيرة للمشاعر وملئمة بالتحدي والتحريض. دعت أرملة بومان الحشود للانتقام لزوجها، وبينما كانت الحشود في طريقها إلى وسط المدينة، اندلعت اشتباكات متقطعة مع عصابات المئات السود».

كانت هناك العديد من الحالات الأخرى لأناس تعرضوا للتعذيب الوحشي والقتل على يد عصابات المئات السود الممولة والمسلحة من السلطات كأجهزة مساعدة للدولة. ليس من الصعب إثبات علاقة السلطات بتلك المذابح، بدءا من قائد الشرطة المحلية وصولا إلى القيصر. كان نيكولا يتولى بشكل شخصي عمل اتحاد الشعب الروسي، الذي كان يقف وراء المئات السود. ليس هناك شك في العلاقة المباشرة بين نيكولا وبين المئات السود، كما توضح شهادة تاريخية حديثة: «لقد رعى القيصر ومؤيدوه في المحاكم... الاتحاد، وكذلك فعل العديد من رجال الكنيسة البارزين، بمن فيهم الأب يوحنا كرونشتادت، الذي كان صديقا مقربا للعائلة المالكة، والأسقف هيرموجين والراهب ليودور. نيكولا نفسه ارتدى شارة الاتحاد، وتمنى لقادته "النجاح الكامل" في جهودهم الرامية إلى توحيد "الروس الأوفياء" وراء الحكم المطلق. وبناء على تعليمات القيصر مولت وزارة الداخلية صفه ومدته سرا بالسلاح»<sup>1</sup>.

معاداة القيصر للسامية موثقة جيدا: «كان لديه عداا خاص لليهود. وعندما اقترح ستوليبين، رئيس الوزراء ما بين 1906-1911، تخفيف بعض القيود المفروضة على اليهود في ما يتعلق بالحق في الإقامة، أجاب القيصر: "بالرغم من الحجج الجذمة مقنعة لصالح قرار إيجابي بهذا الشأن، فإن صوتا داخليا أكثر إصرارا يقول لي إنه لا ينبغي علي أن أتخذ هذا القرار. إن ضميري لم يخدمني أبدا، ولذلك ففي هذه الحالة أيضا، أعتزم اتباع إملاءاته". لم تكن صدفة أن القيصر أصبح عضوا في اتحاد الشعب الروسي المعادي للسامية، وساهم في تمويل الاتحاد، كما ربطته برئيسه، الدكتور دوبروفين، علاقة ودية. لم يكن لديه أي تعاطف مع ضحايا المذابح التي أعقبت نشر بيان أكتوبر عام 1905، بل على العكس من ذلك، رأى فيها ثورة ضد "وقاحة" الاشتراكيين والثوريين»<sup>2</sup>.

عانى اليهود فظائع رهيبية على أيدي عصابات المئات السود، الذين كانت الشرطة تحرضهم وتمدهم بالفودكا. نظمت تلك الفظائع في أعلى هرم السلطة. في مقر الشرطة في بيتربورغ كانت تطبع آلاف المنشورات التي كانت تحرض على العنف ضد اليهود "الذين يدمرون روسيا" وتدعو السكان إلى "قتلهم وتقطيعهم جميعا". كان الجنرال ترييوف شخصا هو من حرر المنشور الذي مولت وزارة الداخلية نشره بمبلغ وصلت قيمته إلى 70.000 روبل. وقعت أكثر المذابح وحشية في أوديسا، حيث قتل 800 يهودي وجرح 5.000 وتم تشريد أكثر من 100.000. تم تحريض حثالة البروليتاريا، زباله المجتمع، المحميين من قبل البوليس، على ارتكاب فظائع لا توصف ضد شعب أعزل. وفي هذا الصدد كتب تروتسكي: «صار المتشرد المتسول سيد المكان، كان قبل ساعة عبدا يرتجف طريدا للشرطة والمجاعة، فإذا به الآن صار مستبدا لا حدود لسلطته. صار مسموحا له بكل شيء، صار قادرا على كل شيء، صار سيذا على أملاك الناس وأعراضهم، بيده قرار حياتهم وموتهم. يمكنه إذا أراد أن يرمي امرأة عجوز من نافذة في الطابق الثالث مع بيانو كبير، ويمكنه أن يكسر كرسيًا على رأس طفل، كما يمكنه اغتصاب طفلة صغيرة بينما كل الحشود تنظر، ويدق مسمارا في جسم إنسان حي... ويبيد عائلات بأكملها، ويصب البنزين على منزل ويحوله إلى كتلة من اللهب، وإذا حاول أي شخص الهرب، يقضي عليه بهراوة. دخل حشد متوحش ملجأ أرمنيين فقراء وذبحوا العجزة والمرضى والنساء والأطفال... لا يوجد حد للفظائع التي يمكن لشخص مخبول بالكحول والغضب أن يرتكبها. إنه قادر على كل شيء: حفظ الله القيصر!»<sup>3</sup>.

البلشفي بيانيتسكي الذي كان في أوديسا في ذلك الوقت يتذكر ما حدث: «هناك رأيت المشهد التالي: عصابة من الشبان، تتراوح أعمارهم ما بين 20 و25 سنة، كان بينهم رجال الشرطة بزي مدني وأعضاء الأوخرانا، يلقون القبض على أي شخص يبدو وكأنه

1: O. Figs, op. cit., pp: 198-199 and 196.

2: Lionel Kochan, Russia in Revolution, pp: 62-63.

3: Trotsky, 1905, pp. 150 - 151.

يهودي، من رجال ونساء وأطفال، ويجردونهم من ملابسهم ويضربونهم بلا رحمة... قمنا على الفور بتنظيم مجموعة من الثوار مسلحين بالمسدسات... ركضنا نحوهم وأطلقنا النار عليهم، فهربوا. ولكن فجأة ظهر بيننا وبين منظمي المذابح جدار صلب من الجنود المدججين بالسلاح وواجهونا، فترجعنا. ابتعد الجنود فعاد منظمو المذابح مرة أخرى. حدث ذلك عدة مرات. وأصبح واضحاً لنا أن منظمي المذابح كانوا يتصرفون بتنسيق مع الجيش»<sup>1</sup>.

التقرير الرسمي الذي أمر به وايت يتعرض بوضوح لدور الشرطة في هذه المجزرة، ليس فقط بتنظيم غوغاء حثالة البروليتاريا وتزويدهم بالفودكا، بل أيضاً بتوجيههم إلى الأماكن التي كان اليهود يختبئون فيها، وحتى المشاركة مباشرة في ذبح الرجال والنساء والأطفال. اعترف حاكم أوديسا، نبيد غارت، أن «حشود مثيري الشغب الذين كانوا منخرطين في التحطيم والسرقة، استقبلوه بحماس». كما وجه قائد القوات المحلية، البارون كولبارت، خطاباً إلى الشرطة يبدأ بالعبارات التالية: «دعونا نسمي الأشياء بأسمائها، دعونا نعترف بأننا جميعاً نتعاطف من أعماق قلوبنا مع هذه المذبحة!»<sup>2</sup>.

لا يمكن الزعم بأن القيصر لم يكن يعرف شيئاً عن تلك المذابح، على الرغم من أن علاقاته مع المئات السود تم الاحتفاظ بها سرية بطبيعة الحال. كان نيكولا يدرك جيداً ما كان يجري، وكان موافقاً عليه، كما تكشف عن ذلك مراسلاته الخاصة، ففي 27 أكتوبر كتب لأمه قائلاً: «والدي العزيزة... أبدأ بالقول بأن الوضع برمته صار أفضل مما كان عليه قبل أسبوع... في الأيام الأولى بعد البيان رفعت العناصر التخريبية رؤوسها، لكن حدث بسرعة رد فعل قوي وأبان حشد كبير من الناس المخلصين عن قوتهم. وكانت النتيجة واضحة، وماذا يتوقع المرء في بلادنا. لقد أثارت وقاحة الاشتراكيين والثوريين غضب الشعب مرة أخرى؛ ولأن تسعة أعشار من مثيري الشغب هم من اليهود، فإن غضب الشعب انقلب عليهم. هذه هي الطريقة التي وقعت بها المذابح. ومن المثير للدهشة أنها وقعت في وقت واحد في جميع مدن روسيا وسيبيريا... يمكن لأحداث متباعدة مثل تومسك وسيميروبول وتفير وأوديسا أن تظهر بوضوح ما يمكن لغوغاء غاضبين القيام به؛ لقد حاصروا المنازل التي اختبأ فيها الثوار وأضرموا فيها النار وقتلوا جميع من حاولوا الهرب»<sup>3</sup>.

ويؤكد كيرينسكي التواطؤ السافر بين منظمي المذابح وبين السلطات، بما في ذلك القيصر: «إن من شجع شيغلوفيتوف على موقفه هو القيصر، الذي كان متشدداً في المسائل السياسية. سياسته أثناء محاكمات المذابح التي ضمت أعضاء من اتحاد الشعب الروسي [أي المئات السود، أسلاف الفاشيين]، كانت سياسة معبرة. ومن بين الوثائق التي حصلت عليها اللجنة الاستثنائية للتحقيق في نشاطات الوزراء وكبار الشخصيات السابقين، التي شكلتها الحكومة المؤقتة، نجد البيان الذي أدلى به رئيس قسم في وزارة العدل، ليادوف. أكد ليادوف أن من بين طلبات العفو التي قبلتها وزارته، كان القيصر يوافق على الدوام على تلك المقدمة من أعضاء اتحاد الشعب الروسي ويرفض تلك المقدمة من قبل الثوريين»<sup>4</sup>.

كيف يمكن محاربة منظمي المذابح؟ بالتأكيد ليس من خلال مناشدة الشرطة والقضاء الذين، كما رأينا، كانوا وراء المئات السود. لقد طرحت موجة المذابح مسألة الدفاع الذاتي بشكل ملموس وعاجل جداً. ليس من خلال اللجوء العقيم إلى القانون، بل من خلال تنظيم العمال للدفاع الذاتي! لتنظيم الدفاع، أولاً وقبل كل شيء، ضد المئات السود، والدفاع عن اليهود والأرمن والمثقفين. وحيثما كان ذلك ممكناً، اتحدت منظمات العمال معاً، وحاولت مكافحة العصابات العنصرية. من الضروري في مثل هذه القضايا إشراك ممثلي البرجوازية الصغيرة الثورية والأقليات المضطهدة، لكن دائماً تحت قيادة منظمات العمال. لا تثق إلا في قواتك الخاصة فقط! على الطبقة العاملة أن تكافح الفاشية بوسائلها الخاصة! كانت هذه هي سياسة لينين، الذي وضع السياسة البلشفية، في مقال له عن مذبحه بيلوستوك: «فيما يلي بعض المقتطفات من برقية تلقيناها من ناخب من بيلوستوك، يدعى تسيرين: "لقد بدأت مذبحه نظمت عمداً ضد اليهود". وعلى الرغم من الشائعات التي تم تداولها، لم يرد أي أمر من الوزارة طيلة اليوم!»، "تم تنظيم حملة تحريض نشيطة على المذبحة طيلة الأسبوعين الماضيين. في الشوارع، ولا سيما أثناء الليل، تم توزيع منشورات تدعو للمجزرة، ليس فقط ضد اليهود، بل أيضاً ضد المثقفين. والشرطة غضت الطرف ببساطة عن كل هذا".

نفس الصورة المألوفة القديمة! الشرطة تنظم المذبحة بشكل مسبق؛ الشرطة هي من تحرض عليها؛ وفي مطابع الحكومة تطبع المنشورات التي تدعو إلى تنظيم المذابح ضد اليهود. وعندما تبدأ المذبحة لا تتحرك الشرطة. تنظر القوات بهدوء إلى أعمال المئات

1: O. Piatnitsky, op. cit., p: 82.

2: Trotsky, 1905, p: 150, note.

3: O. Figes, op. cit. pp: 197-198.

4: Kerensky, The Kerensky Memoirs. Russia and History's Turning Point, p: 79.

السود. ولكن في وقت لاحق تمثل هذه الشرطة ذاتها مهزلة مقاضاة ومحكمة منظمي المذابح».

يستنكر لينين مهزلة التحقيقات الحكومية وعمليات الاستنطاق ويطرح البديل بمنظور ثوري: «افضحوا الجناة بعبارات لا لبس فيها، هذا واجبكم المباشر تجاه الشعب. لا تسألوا الحكومة ما إذا كانت قد اتخذت تدابير لحماية اليهود ومنع المذابح، لكن اسألوا كم من الوقت تنوي الحكومة حماية الجناة الحقيقيين، الذين هم أعضاء في الحكومة. اسألوا الحكومة ما إذا كانت تعتقد أن الشعب سيستمر غير واع بمن هو المسؤول فعلا عن المذابح. حملوا المسؤولية للحكومة علنا وعلى الملأ. ادعو الشعب إلى تنظيم ميليشيات ولجان الدفاع الذاتي كوسيلة وحيدة للحماية ضد المذابح»<sup>1</sup>.

طرحت موجة المذابح الدامية ضرورة لجان الدفاع الذاتي العمالية بطريقة ملموسة جدا. كانت مسألة الكفاح المسلح مسألة حياة أو موت بالنسبة للطبقة العاملة والثورة. لكن هذه الأنشطة، مع ذلك، لم يكن لها أية علاقة على الإطلاق مع تكتيك الإرهاب الفردي أو «حرب عصابات المدن». لم تكن مؤامرة سرية تقوم بها مجموعات صغيرة من الإرهابيين وراء ظهور العمال، بل استراتيجية ثورية واعية مرتبطة بالجماهير. كانت فرق الكفاح مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسوفييتات ومنظمات العمال الأخرى. نظمت مجموعة من النوادي العمالية الشرعية ميادين للرمية حيث كانت تعلم العمال كيفية استخدام السلاح تحت سماع وبصر الشرطة. ومن جانبهم ضغط البلاشفة من أجل تشكيل جبهة موحدة تشمل، في خضم النضال، جميع المنظمات العمالية وأيضا مجموعات من البرجوازية الصغيرة الديمقراطية والقومية، من أجل اتفاق بين جميع تلك القوى التي كانت على استعداد للكفاح من أجل الدفاع عن مكاسب الثورة وضد المئات السود.

تمكنت فرق القتال العمالية من إلحاق هزائم هنا وهناك ضد منظمي المذابح. وفي مذكراته، يصف بيانيتسكي المذبحة المروعة ضد اليهود في أوديسا، وتشكيل جبهة موحدة من البلاشفة والمناشفة والبونديين والداشناك (القوميين الأرمن) وأنصار باول-صهيون (وهي مجموعة أنشئت في 1905 وحاولت الجمع بين الصهيونية والماركسية، وقد انضم قسم منها إلى الحزب البلشفي بعد ثورة أكتوبر). أرسلت مفارز مسلحة في محاولة للدفاع عن اليهود، وقد نجحت في البداية في دفع الغوغاء العنصريين، قبل أن تصطدم مع الجيش والشرطة، الذين يمتلكون قوات أكبر، مما اضطرها للتراجع مع بعض الخسائر في الأرواح. طرحت مسألة الكفاح المسلح في البداية في مجال الدفاع عن الذات، لكن ومع ذلك، ففي الحرب يكون الفرق بين الدفاع والهجوم ذا طابع نسبي. يمكن تحويل نضال دفاعي ناجح إلى عمل هجومي. في خاركوف أقامت فرق القتال المتاريس واستسلم الجنود المحبطون دون قتال. في يكاترينوسلاف قاتل العمال وهم يتراجعون ضد القوزاق بقنابل محلية الصنع مما أسفر عن مقتل العديد من القوزاق. في تشيتا نجحوا في تحرير المعتقلين السياسيين بمن فيهم بحارة من أسطول البحر الأسود. وكانت هذه المناوشات الجزئية تمهيدا لطريق المواجهة الحاسمة بين الطبقة العاملة وبين الحكم المطلق، والتي عرف لينين أنها مواجهة حتمية لا مفر منها.

## فتح أبواب الحزب

في بداية ذلك العام، كان كل من البلاشفة والمناشفة مجرد عصب ليس لها أي تأثير في الجماهير. لكنهم بعد 09 يناير بدأوا في النمو بسرعة. عندما وصل ف. فرونز، المسؤول عن التنظيم في لجنة الحزب في مصنع النسيج الهام بإيفانوفو-فوزنيسينسك، إلى البلدة خلال شهر ماي، وجد «ما لا يقل عن 400 إلى 500 من المناضلين» معظمهم من العمال المحليين. قال مارتوف إن أكبر لجنة في المنطقة الصناعية المركزية كانت تضم 600 من البلاشفة في منتصف 1905. وقال نفس الكاتب إن الحزب كان إلى حدود أكتوبر يضم في منظمته السرية «بضع عشرات الآلاف من العمال، وبضعة آلاف من الجنود والفلاحين». وبحلول شتبر كان التحريض الاشتراكي الديمقراطي قد بدأ بالفعل يحصل على صدى له ليس فقط بين العمال المضربين، بل أيضا في اللقاءات الجماهيرية وفي الجامعات وبدأت الشعارات الأكثر جذرية تجد التأييد. ومع ذلك فإن مجال نفوذه، بمن في ذلك العمال المشاركين في المنظمات المرتبطة مباشرة بالحزب، تكون من «مئات الآلاف من سكان المناطق الحضرية والريفية»<sup>2</sup>.

النمو السريع لنفوذ الحزب بين الجماهير جعل من الضروري تكييف أساليب وهياكل الحزب للاستجابة لذلك النمو. إن النضال من أجل بناء الحزب ومد نفوذه بين أوسع الفئات الممكنة من الطبقة العاملة اتخذ الآن طابع سباق ضد الساعة. وفي سلسلة من الاجتماعات الداخلية التي عقدت في الخريف، أصر لينين على فتح الحزب، والأخذ بمبدأ انتخاب الهياكل من أعلى إلى أسفل،

1: LCW, The Reaction is Taking to Arms, vol. 10, pp: 509 and 510-511 (التشديد من آلان وودز)

2: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 3, p: 575.

من أجل تغيير تركيبة اللجان، مع تدفق عمال وشباب جدد. كان ينبغي ممارسة الضغط على أعضاء اللجان من خلال السماح بدخول آراء وانتقادات جديدة من قواعد الحزب، ومن خلال استبدال بعض العناصر القديمة والمحافظة، عند الضرورة، بأناس جدد قادرين على أن يعكسوا المزاج الحقيقي للطبقة العاملة. طوال عام 1905، كان لينين ساخطا على البطء الذي تحرك به أعضاء اللجان داخل روسيا نحو الجماهير والاستفادة من الفرص الهائلة التي فتحت. بعد بيان أكتوبر، تغيرت شروط العمل الحزبي جذريا. تحققت حرية التجمع والصحافة، وكذلك حق التنظيم في النقابات. في كل مكان كان هناك تعطش للأفكار والنقاشات. وفي كل مكان كان العمال والشباب يبحثون عن آلية للتعبير عن تطلعاتهم الفطرية لتغيير المجتمع.

الأساليب القديمة وطرق الفكر القديمة لا تموت بسهولة. فطيلة عام 1905 كان هناك صراع حاد حول مدى الحاجة إلى فتح الحزب ودمقرطة هيكله الداخلية. وينبغي أن يوضع في الاعتبار أنه حتى خريف عام 1905 كان الحزب ما يزال حزبا سريا، لكن مع تغير المناخ السياسي كان على الحزب تكييف عمله مع الظروف الشرعية وشبه الشرعية وبذل كل طاقاته للتغلغل في صفوف الجماهير. وفي مثل هذه الحالة كان ينبغي لعقلية الحلقات الضيقة القديمة، مع هيكلها المرتبطة بها، أن تفسح المجال لفروع حزبية أوسع.

أصر لينين مرارا وتكرارا على ضرورة فتح الحزب في وجه العمال والشباب. لكن ذلك غالبا ما واجه المقاومة من طرف أعضاء اللجان، الذين فسروا المبادئ التنظيمية من وجهة نظر ضيقة وميكانيكية. والحقيقة هي أنه لا يوجد كتاب للوصفات الجاهزة لتحديد هيكل وقوانين حزب ثوري. يجب أن تتغير هيكل الحزب وقوانينه مع الظروف المتغيرة. لا يمكن أن ينظر إلى مبدأ الانتخاب والديمقراطية الداخلية عند منظمة سرية بنفس الطريقة عند حزب يسعى لكسب قاعدة جماهيرية في ظروف الشرعية. العمل السري يفرض بالضرورة بعض القيود على الديمقراطية الداخلية، لكن لا يمكن تبرير ذلك إلا بمتطلبات الأمن. طالب لينين في خريف 1905 بانفتاح الحزب. وكان ذلك أساسا بسبب التغير في الظروف الموضوعية، لكن ليس بسبب ذلك فقط؛ لقد أثارت فيه تجربة الفترة السابقة بالغ القلق إزاء ضيق نظرة أعضاء اللجان البلاشفة. وكانت تجربة الخطأ في الموقف من السوفييتات قد أفتنته الآن بالحاجة الملحة لخلق هزة داخل الحزب وزيادة عضوية العمال فيه. يجب على مناصلي الحزب إيجاد أرضية مشتركة ولغة مشتركة مع الجماهير، لا أن يفصلوا عنها.

كانت يتوجب إحداث تغيير جذري لهيكل الحزب لكي تأخذ في الاعتبار الظروف الجديدة. تم إنشاء العديد من فروع المصانع لتأكيد المنعطف الجديد. عقدت فروع المصانع، التي كانت قد تأسست حديثا، اجتماعات مفتوحة. سجل فرع مصنع ليسنر حضور 70 عاملا في أحد تلك الاجتماعات. وتم تقسيم اللجان المحلية في المناطق الصناعية الكبرى إلى وحدات أصغر ولجان فرعية. وعلاوة على ذلك، تم إنشاء نوادي العمال في عدد من المناطق، إما على أساس الحي أو المصنع. وتم تطبيق مبدأ الانتخاب من أعلى إلى أسفل في سلسلة من المؤتمرات الداخلية، التي عقدت في خريف 1905. كانت تلك وسيلة لتأمين مشاركة أكبر للعمال في تسيير الحزب، لكنها كانت أيضا وسيلة لممارسة الضغط على أعضاء اللجان، بالسماح للآراء الجديدة والانتقادات من أسفل، وإذا لزم الأمر تغيير تشكيلة اللجان من خلال إدخال عمال شباب جدد، بحيث يصير من الممكن إسماع صوت العمال وتمكين مشاعرهم الطبقيّة وخبرتهم في النضال من أن تضع بصمتها على أنشطة الحزب. وكان التطور الآخر هو عقد تجمعات على مستوى المدينة، حيث يمكن لكل أعضاء الحزب أن يلتقوا معا ويناقشوا العمل. تم تقسيم اللجان المحلية في المناطق الصناعية الكبرى إلى وحدات أصغر تغطي الدوائر الفرعية. وفي بعض المناطق، قامت لجنة المدينة حتى بوضع قواعد خاصة بها بما يتماشى مع الظروف الخاصة السائدة في منطقتها. كان ذلك هو الحال، على سبيل المثال، في بيتربورغ وإيفانوفو- فونزيسينسك.

يمكننا أن نرى من كل هذا كم كان مفهوم لينين للتنظيم مرنا دائما. تضم المركزية الديمقراطية فكرتين متناقضتين على ما يبدو: المركزية والديمقراطية. لكنه يمكننا أن نرى في أي إضراب كيف يمكن الجمع في الممارسة العملية بين كلتا الفكرتين: أقصى الحرية في المناقشة إلى حين اتخاذ قرار، لكن بعد ذلك أقصى درجة من الوحدة في النضال. ركز الحزب البلشفي، في لحظات معينة من تاريخه، على المركزية أكثر، وذلك على سبيل المثال خلال تلك الفترة الطويلة التي كان مضطرا فيها للعمل في ظروف السرية. لكن خلال الفترات التي كان يسمح لهم بالعمل في ظروف شرعية "طبيعية"، فضل البلاشفة، كما نرى هنا، أشكال التنظيم الأكثر انفتاحا وديمقراطية. إن الحزب الثوري كائن حي وليس حفرة هامدة. لقد ركز الحزب البلشفي، في بعض المراحل من تاريخه، على جانب المركزية، لكنه في أحيان أخرى أعطى الأسبقية للديمقراطية. فتح العمل الشرعي آفاقا أوسع بكثير للعمل التحريضي والدعاية. وبينما كانت صحافة الحزب في السابق لا تصل إلا إلى عدد صغير نسبيا من العمال، فقد صار من الممكن الآن الوصول إلى الجماهير بالجرائد الشرعية والاجتماعات وغيرها من الوسائل. كانت الاجتماعات تعقد تحت العين الساهرة لمجموعات الدفاع في النوادي

العمالية والمكتبات والأماكن العامة الأخرى.

في سياق 1905، وخاصة بعد صدور بيان أكتوبر، انفتحت فرص كبيرة للعمل في المنظمات الجماهيرية في عدد من المنظمات الشرعية وشبه الشرعية، من نقابات ولجان مصانع جنينية وجمعيات تأمين، وما إلى ذلك. وفي ما يتعلق بالأندية العمالية، التي أقيمت في "أيام الحرية"، كتب شوارتز: «كان العمال والأندية العمالية الاشتراكية الديمقراطية في معظمهم غير حزيون، بل وفي كثير من الأحيان لم تكن حتى تطمح إلى عضوية رسمية في الحزب، مع التركيز على التكوين السياسي والتثقيف العام»<sup>1</sup>.

كان المناشفة هم من بدأوا هذا العمل. كان ناديهم في ورشات البلطيق في بيتسبورغ يضم 120 عاملاً. واقتداء بهم، أنشأ الحي العمالي فيبورغ، الذي كان يسود فيه البلاشفة أساساً، نادياً يضم 300 عضو. كان العدد المعتاد لأعضاء هذا النوع من النوادي حوالي 200 إلى 300 شخص، على الأقل في موسكو وبيتسبورغ.

كان التكاثر السريع للمنظمات النقابية من بين الأدلة على تصاعد الحركة الثورية. كانت مهمة اختراق النقابات العمالية، التي تمثل الوحدة الأساسية لتنظيم الطبقة العاملة، أولوية مطلقة للاشتراكيين الديمقراطيين. حتى الفئات الأكثر تخلفاً استحوذت عليها غريزة التنظيم. ومع ذلك، فإن ضعف الحركة النقابية في روسيا هو بالضبط الذي أعطى السوفييتات سلطتها الهائلة وقوتها باعتبارها المنظمة البروليتارية الرئيسية. أصبحت السوفييتات المركز الرئيسي للنشاط في 1905، وقد أزاحت إلى حد ما النقابات العمالية. ومع ذلك، فإن النقابات العمالية بقيت ميداناً هاماً من ميادين العمل، ولا سيما بين العمال الأكثر تأهيلاً. كان ذلك صحيحاً بصفة خاصة في المراكز الصناعية الكبيرة، ولا سيما في موسكو وبيتسبورغ. ومع ذلك فقد كان البلاشفة في غالب الأحيان بطيئين في الاستفادة من الإمكانيات المتاحة، مفضلين التركيز على حياة الحلقات الصغرى المجربة والمألوفة. احتج لينين مراراً وتكراراً ضد هذه الروتينية التنظيمية. وفي هذا المجال أيضاً كان للمناشفة السابق على البلاشفة، مما تسبب في فزع لينين. قام المناشفة بمبادرات إنشاء المنظمات النقابية في بيتسبورغ وموسكو وساراتوف وباكوف وأوديسا، الخ. انتقلت النقابات بسرعة كبيرة إلى التقاليد الاشتراكية الديمقراطية. وعموماً لم يدخل الاشتراكيون الثوريون المنافسة. ومع ذلك فقد كان هناك داخل النقابات العديد من العمال غير الحزبيين، بطبيعة الحال، وهذا هو قبل كل شيء الدور الأساسي للنقابات: توحيد أوسع فئات الطبقة العاملة في النضال دفاعاً عن مصالحها الخاصة. وتتمثل مهمة الاشتراكيين في النضال من أجل كسب النفوذ داخلها والحصول على الأغلبية وممارسة التأثير في أوسع فئات الطبقة العاملة.

كانت هناك العديد من النقابات غير الحزبية، ولا سيما في الجنوب ومنطقة فولغا. في الغرب ساد البوند والمناشفة. وكانت موسكو معقل البلاشفة. وكان السبب الوحيد الذي مكن المناشفة من أخذ زمام المبادرة في موسكو هو أن البلاشفة المحليين تبنا في البداية موقفاً خاطئاً تجاه النقابات. لقد حاولوا تأسيس نقابات مستقلة ذات هوية سياسية حزبية واضحة وبرروا ذلك بالنضال ضد "الزعة اللا حزبية". لقد قاموا، على سبيل المثال، بتأسيس نقابات بلشفية بين صفوف الخبازين والفنيين والميكانيكيين والخرافين. كان هذا موقفاً خاطئاً بشكل كامل وقد انتقده لينين في وقت لاحق في مؤلفه الشهير "مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية"، حيث أكد صراحة على أنه من الخطأ، بالنسبة للماركسيين، محاولة تقسيم النقابات العمالية وتأسيس نقابات "ثورية" مفصولة عن المنظمات الجماهيرية. وبخصوص هذه المسألة أيضاً كشف أعضاء اللجان البلاشفة عن عدم فهمهم لموقف لينين. بطبيعة الحال يجب على الحزب أن يحارب ضد الاتجاهات "غير الحزبية"، لكن على النقابات أن تشمل جميع قطاعات الطبقة العاملة، بصرف النظر عن الانتماءات الحزبية. التيار السياسي الوحيد الذي ينبغي استبعاده من النقابات هم الفاشيون. وقد كتب لينين مقالاً بهذا المعنى، في صحيفة نوافيا جيزن، 02 دجنبر 1905.

## صحافة الحزب

من المستحيل أن نحدد بالضبط كم كانت القوة العددية للحزب في عام 1905. إذا أخذنا أرقام سان بيتسبورغ، يقول مارتوف إن عدد المناشفة، خلال النصف الأول من 1905، كان ما بين 1200 و1300 عاملاً، بينما كان البلاشفة بضع مئات. وبحلول أكتوبر صارت كلتا المنظميتين تضمان نفس العدد من العمال (لا يحدده مارتوف، لكن من الواضح أنه أكبر بكثير). وهو ما يعني أن البلاشفة كسبوا أكثر نسبياً. يقدم كتاب آخرون أرقاماً مختلفة: يحدد ف. إ. نيفسكي عدد العمال من كلا الفصيلين في سان بيتسبورغ

1: Schwarz, op. cit., p: 242.

بما بين 890 و1.000 فقط، في نهاية فصل الربيع<sup>1</sup>. ومع ذلك، ففي الأشهر التالية، شهدت العضوية زيادة سريعة. ومع نهاية الصيف، كان عدد بلاشفة موسكو 1035. صار بلاشفة ريغا، بحلول الربيع، 250 عضوا وكان لهم حضور في 25 مصنعا، على الرغم من أن المناشفة استمروا يمتلكون الأغلبية هناك. كما تضاعف عدد أعضاء لجنة إيفانوفو- فونيسينسك، في النصف الأول من العام، من 200 إلى 400؛ وانتقلت لجنة فورونيج من 40 إلى 127؛ ونيجني نوفغورود من 100 إلى 250؛ ومينسك من 150 إلى 300. بعد ذلك صار النمو يتزايد بشكل سريع جدا. وعلى الرغم من الطبيعة غير المكتملة، وربما غير الدقيقة لهذه الأرقام، فإن الصورة العامة للنمو السريع جدا وتضاعف العضوية في غضون أشهر قليلة، واضحة بشكل جلي. وبحلول نهاية العام، رفعت منظمة نيغني نوفغورود حجمها من 500 إلى 1500 عضو. وفي ساراتوف ومينسك صار حزب البلاشفة يضم 1.000 عضو بحلول دجنبر<sup>2</sup>.

كان البلاشفة أقوى في الشمال والشمال الشرقي والمنطقة الصناعية الوسطى والفولغا والاورال. تطور المناشفة بدورهم، لكن تأثيرهم كان أكبر في الجنوب: تفليس وكوتاييس وباتومي وغوري في القوقاز، التي صارت آنذاك معقلا للمناشفة، وفي الغرب. ووفقا لإحدى التقديرات الحديثة، كان هناك حوالي 8400 "بلشفي منظم" في عام 1905. وربما كان المناشفة يمتلكون نفس العدد<sup>3</sup>. لكن في سياق النهوض العام المميز للوضع الما قبل ثوري، كان مجال نفوذ الحزب أوسع بكثير. لقد اتسع نطاق العمل بشكل كبير بعد إصدار بيان أكتوبر. يذكر مارتوف أنه: «على العموم وطوال تلك الفترة، عشية أيام أكتوبر، كان في مقدور الحركة الاشتراكية الديمقراطية أن تجمع داخل المنظمات غير الشرعية عدة آلاف من العمال والطلاب والجنود والفلاحين؛ لكن مجال نفوذها التنظيمي المباشر ضم مئات الآلاف من الأشخاص في المدينة والريف»<sup>4</sup>.

كان نمو البلاشفة سريعا في العاصمة بشكل خاص. وبحلول نهاية العام وصل تنظيم سان بيترسبورغ إلى رقم 3.000 عضو، أي بزيادة عشرة أضعاف في غضون عام واحد. وقد رافق هذا النمو العددي تحول داخلي بفعل التدفق السريع لعمال شباب جدد على الهيئات القيادية على المستويين المحلي والإقليمي. كان هؤلاء هم "القادة الطبيعيون" للطبقة العاملة والذين أفرزتهم الثورة نفسها. قال لينين بحق: «كان حزبنا في ربيع 1905 مجرد اتحاد لحلقات سرية؛ لكن بحلول فصل الخريف أصبح حزبا لملايين البروليتاريين». ليس هذا من قبيل المبالغة. كان العمال المنظمون فعلا داخل الحزب يعدون بعشرات الآلاف، لكن إضافة إليهم كان هناك هامش كبير من مئات آلاف العمال الذين يتطلعون للأفكار الاشتراكية ويعتبرون أنفسهم اشتراكيين ديمقراطيين.

وفرت ظروف العمل الشرعي أيضا نطاقا واسعا لصحافة الحزب. كانت الصحافة غير الشرعية القديمة غير كافية نهائيا للوضع الجديد. بعد عشرة أيام من نشر بيان القيصر، صدر العدد الأول من الجريدة البلشفية نوافيا جيزن. وقد صدرت الصحيفة بشكل قانوني باسم زوجة غوري، ماريا فيدوروفنا أندرييفا. وكان رئيس التحرير شاعر يدعى مينسكي. لكن ذلك كان مجرد الواجهة لهيئة التحرير الحقيقية برئاسة كراسين وغوري، إلى أن تولى لينين نفسه القيادة، بعد عودته في نوفمبر. كانت تلك الاحتياطات ضرورية جدا. ورغم أن نوافيا جيزن كانت، من الناحية النظرية، جريدة "قانونية"، فإنها كانت تصدر تحت عين الرقابة الساهرة. عندما تضمن العدد الأول برنامج الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي، صادرت السلطات بسرعة. أصبحت نوافيا جيزن، بحكم الأمر الواقع، لسان حال البلشفية حتى إغلاقها في أوائل دجنبر. كانت إصداراتها تبلغ ما بين 50.000 و80.000، وهو ما شكل إنجازا كبيرا لحزب كان قبل شهر، أو نحو ذلك، ما يزال يشتغل في السرية.

دخل البلاشفة، بناء على نصيحة غوري، في اتصال مع ناشرين ليبراليين ساعدوا في إطلاق ذلك المشروع. وكما جرت العادة، لعب غوري دورا لا غنى عنه في الحصول على الدعم المالي للجريدة من الكتاب والمثقفين الميسورين. كان العديد من الكتاب والشعراء، الذين لم يكونوا حتى ذلك الحين ليفكروا بالمشاركة في السياسة الثورية، قد صاروا، بتأثير من الثورة، منخرطين بنشاط مع البلاشفة من خلال الصحافة الحزبية. ساهم العديد من الشعراء والأدباء المعروفين، مثل بالمونت وليونيد اندرييف وبالطبع غوري نفسه، بالمقالات والنقود. كانت درجة انخراطهم الفعلي في الحزب أمرا مشكوكا فيه، لكن "رفاق الطريق" هؤلاء، كما كان يطلق عليهم، لعبوا بلا شك دورا مفيدا في تعميم ونشر تأثير الأفكار البلشفية. على الرغم من أن الجريدة ظهرت تحت اسم صحفيين برجوازيين، فإنها كانت في الواقع الناطق الرسمي باسم الحزب في تلك الفترة. وكانت هناك أيضا جرائد بلشفية قانونية أخرى في المحافظات: بوربا وفريود في موسكو، وكافكازي رابوتشي ليستوك في تبليسي، الخ. كما ساهم البلاشفة أيضا في تحرير جرائد قانونية أخرى كان

1: Surh, op. cit., p. 261, note.

2: Istoriya of KPSS, vol. 2, pp: 35, 36 and 116.

3: Lane, op. cit., p: 12.

4: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 3, p: 575.



يديرها الليبراليون البرجوازيون والمناشفة، وعموما استخدموا أي منبر كان يعطي لأفكارهم جمهورا أوسع.

كان المناشفة يمتلكون جهازا أكثر قوة، والمزيد من المال والموارد، ووسائل أفضل للنقل وأدبيات أكثر وعددا أكبر من الأسماء الكبيرة أكثر مما كان عند البلاشفة. لكن من ناحية أخرى، كان أعضاؤهم أكثر تراخيا وأقل انضباطا من البلاشفة، الذين اجتذبوا العمال والشباب الأكثر كفاحية ووعيا. إلا أنه كان ما يزال هناك الكثير مما ينبغي القيام به وكان الوقت ينفذ. واصل لينين التأكيد باستمرار على الحاجة لكسب الجماهير. وفي مقاله الأول لنوفيا جيزن، الذي كتبه مباشرة بعد عودته إلى روسيا، في أوائل نوفمبر، أكد بقوة، مرة أخرى، على ضرورة فتح أبواب الحزب. وردا على أعضاء اللجان الذين عارضوا هذا على أساس أن ذلك سيؤدي إلى تميع الحزب، كتب قائلا: «يمكن الحديث عن الخطر عندما يكون هناك تدفق مفاجئ لأعداد كبيرة من الأشخاص، الذين ليسوا اشتراكيين ديمقراطيين، إلى داخل الحزب. إذا حدث ذلك فإن الحزب سيدوب بين الجماهير، وسيتوقف عن أن يكون الطليعة الواعية لطبقته، وسيترجع دوره إلى دور ذيل للحركة. سيعني ذلك، في الواقع، مرحلة بائسة جدا. وهذا التهديد يمكن أن يصبح خطيرا جدا بلا شك لو أننا أظهرنا أي ميل نحو الديماغوجية، أو لو كنا نفتقر تماما إلى المبادئ الحزبية (البرنامج والقواعد التكتيكية والخبرة التنظيمية)، أو لو كانت هذه المبادئ ضعيفة وهشة. لكن الواقع هو أنه لا وجود لمثل "لو" هذه. نحن البلاشفة لم نظهر أبدا أي ميل نحو الديماغوجية... لقد طلبنا الوعي الطبقي من أولئك الذين ينضمون إلى الحزب، وقد أكدنا على الأهمية الشديدة للاستمرارية في تطوير الحزب، لقد بشرنا بالانضباط وطالبنا بأن يتم تدريب كل عضو في الحزب في هذه أو تلك من منظمات الحزب».

لكنه بعد أن أكد على إيلاء الاهتمام الواجب لضرورة البناء على أسس قوية، انتقل إلى التأكيد على الجانب الآخر من المعادلة، بعبارات كان الهدف منها إيقاف أعضاء اللجان ضيقي الأفق عند حدهم: «إن الطبقة العاملة اشتراكية ديمقراطية بشكل فطري وعفوي، ولقد مكنت أكثر من عشر سنوات من العمل، الذي قام به الاشتراكيون الديمقراطيون، من تحقيق الكثير في مسار تحويل هذه العفوية إلى وعي. أيها الرفاق لا تختلقوا مخاوف لا وجود لها! لا تنسوا أنه في كل حزب حي ومتطور ستكون هناك دائما عناصر لعدم الاستقرار والتردد والتذبذب. لكن هذه العناصر يمكن أن تتأثر وسوف تتأثر بالنواة الثابتة والصلبة للاشتراكيين الديمقراطيين».

مرة أخرى فند لينين بشدة الفكرة الضارة القائلة بأن الوعي الاشتراكي يجب إدخاله إلى الطبقة العاملة "من الخارج". لقد أكد أن العمال اشتراكيون "بشكل فطري وعفوي". مهمة الثوريين هي إعطاء تعبير واع ومنظم لتطلعات العمال غير الواعية، أو شبه الواعية، لتغيير المجتمع. في تلك الفترة أكد لينين مرارا وتكرارا على الحاجة لفتح الحزب لكي يتم بسرعة كسب فئات جديدة من العمال والشباب الذين يدخلون إلى ساحة النضال، وتعلم التحدث بنفس لغة العمال، ولربط نشاط المجموعة الصغيرة من الكوادر الثورية بنشاط الجماهير التي استيقظت حديثا. نفس لينين ذاك الذي دافع، في عام 1903، عن ضرورة تقييد حق العضوية في الحزب، كتب الآن ما يلي: «خلال المؤتمر الثالث للحزب اقترحت أن يكون هناك نحو ثمانية عمال مقابل كل اثنين من المثقفين داخل لجان الحزب. كم صار ذلك الاقتراح متجاوزا اليوم! الآن يجب علينا أن نتمنى لمنظمات الحزب الجديدة أن يكون فيها مثقف اشتراكي ديمقراطي واحد مقابل عدة مئات من العمال الاشتراكيين الديمقراطيين»<sup>1</sup>.

صحيح أن بعضا من هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم اسم بلاشفة لم يفهموا أبدا ما كان يرمي إليه لينين، وما يزال الأمر كذلك حتى اليوم. لكن هذا ليس خطأ لينين. فحتى أجمل الأغاني يمكنها أن تبدو سيئة بالنسبة لشخص لا يفهم.

## تروتسكي عام 1905

من بين جميع قادة الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية، كان تروتسكي هو الذي لعب الدور الأبرز في عام 1905. يقول لوناتشارسكي، الذي كان واحدا من رفاق لينين المقربين في ذلك الوقت: «كانت شعبيته [تروتسكي] بين بروليتاريا بيتربورغ، عندما اعتقل [دجنبر]، كبيرة وقد زادت ارتفاعا نتيجة موقفه الرائع والبطولي أمام المحكمة. ويجب أن أقول إن تروتسكي، رغم صغر سنه، برهن، بما لا يدع مجالا للشك، أنه كان الأفضل استعدادا لثورة 1905 - 1906، من جميع القادة الاشتراكيين الديمقراطيين الآخرين. وكان أقلهم عرضة لذلك النوع من ضيق نظرة المنفيين التي أثرت، كما سبق أن ذكرت، حتى على لينين آنذاك. لقد فهم تروتسكي، أفضل من جميع الآخرين، معنى خوض النضال السياسي على الصعيد الوطني الشامل. وقد خرج من الثورة مسلحا

1: LCW, The Reorganisation of the Party, vol. 10, p: 31, p: 32 (التشديد من آلان وودز), and p: 36, footnote.

بشعبية هائلة، بينما لم يكسب لينين أو مارتوف أية شعبية على الإطلاق. أما بليخانوف فقد خسر كثيراً بسبب إبدائه ميولا مشابهة للكاويت. لقد كان تروتسكي آنذاك في مقدمة الصف الأول».

كان تروتسكي يبلغ من العمر 26 سنة فقط عندما صار رئيسا لسوفييت سان بيتسبورغ. كان أول رئيس لسوفييت سان بيتسبورغ هو المحامي والمتعاطف مع المناشفة، ج. س. خروستاليوف-نوسار، وقد كان مثل الأب جابون شخصية عرضية لم يلعب أي دور مستقل. في الواقع، كان تروتسكي هو من لعب الدور القيادي في السوفييت، والذي أصبح رئيسه بعد اعتقال خروستاليوف، في نوفمبر. كان تروتسكي هو من كتب معظم إعلانات السوفييت وبياناته واكتسب شعبية هائلة بين العمال. يذكر لوناتشارسكي أن تروتسكي «وضع نفسه ليس بعيدا عنا فحسب وإنما عن المناشفة أيضا. كان نشاطه في الغالب في سوفييت مندوبي العمال، وإلى جانب بارفوس نظم ما يشبه مجموعة منفصلة أصدرت صحيفة صغيرة ورخيصة جد كفاحية ومحررة بشكل جيد جدا، تدعى ناشالو». ويضيف: «أتذكر أن أحدهم قال في وجود لينين: "إن نجم خروستاليوف يتضاءل والرجل القوي في السوفييت الآن هو تروتسكي". اكفهر وجه لينين للحظة، ثم قال: "حسنا، لقد استحق تروتسكي ذلك بفضل عمله الرائع والدؤوب"»<sup>1</sup>.

لا يمكن فهم المغزى الكامل لردة فعل لينين إلا إذا أدركنا أن بلاشفة بيتسبورغ قد ارتكبوا في هذه المسألة الحاسمة بالضبط، أي مسألة الموقف من السوفييت، خطأ جوهريا تسبب في فقدانهم الفرصة للفوز بأغلبية العمال النشيطين في العاصمة. سمحت أخطاء بلاشفة بيتسبورغ للمناشفة بالحصول على الأغلبية داخل مجلس السوفييت. كان تروتسكي قد حافظ، منذ قطيعته مع المناشفة سنة 1904، على موقف مستقل بين الفصيلين البلشفي والمنشفي. لقد عرضه ذلك الموقف لحملات مبررة من النقد من طرف لينين. لكن وعلى الرغم من الخلافات الحادة حول مسألة الوحدة، وهي الخلافات التي، على أي حال، كانت قد فقدت أهميتها على نحو متزايد في غضون تلك السنة، فإنه لا يوجد أي شك في أن موقف تروتسكي كان قريبا جدا من موقف لينين بخصوص جميع المسائل السياسية، وهو ما يشهد به العديد من الكتاب سواء من البلاشفة أو المناشفة.

على الرغم من هذه الحقائق المعروفة جيدا، حاول المؤرخون الستالينيون تصوير تروتسكي على أنه كان "منشفا" عام 1905، كما نقرأ في هذا المقال النموذج: «رفض تروتسكي للديمقراطية الثورية (?) كان، في الواقع، دافعا عن فكرة المناشفة بخصوص هيمنة البرجوازية (!) في الثورة القادمة»<sup>2</sup>. هذا خاطئ تماما. إن الخلافات التي كانت تفصل تروتسكي عن المناشفة، منذ أوائل فبراير 1904، يشهد عليها بشكل لا لبس فيه قادة المناشفة أنفسهم. منذ أواخر 1904 فصاعدا، صاغ تروتسكي إلى جانب اليساري الاشتراكي الديمقراطي الألماني، بارفوس، مجموعة من الأفكار التي وفرت في وقت لاحق الأساس لنظريته عن الثورة الدائمة. سنتطرق في وقت لاحق لطبيعة هذه النظرية وموقف لينين منها وموقف المناشفة منها. لكن دعونا أولا نضع الأمور في نصابها الصحيح.

«تروتسكي، أيضا، كان له خلاف جوهري في وجهات النظر مع إيسكرا [جريدة المناشفة] بخصوص النتائج السياسية التي يمكن استخلاصها من الوضع الناشئ عن 09 يناير. كتب تروتسكي إن حركة الطبقة العاملة اتجهت بعد 09 يناير "نحو انتفاضة". وبالتالي فإن الجمعية التأسيسية في ذاتها ولذاتها لم تعد قادرة على أن تكون الشعاع الأساسي والعام للحزب. وأنه بعد 09 يناير، صار من الضروري التحضير لانتفاضة مسلحة واستبدال الحكومة القيصريّة بحكومة ثورية مؤقتة، والتي وحدها التي سيمكنها الدعوة لتشكيل جمعية تأسيسية»<sup>3</sup>.

هذه كلمات الزعيم المنشفي، فيدور دان، والتي كتبها عندما كان هو وتروتسكي قد صارا عدوين سياسيين لدودين. الأفكار الأساسية الواردة هنا، المبنية على ما كتبه تروتسكي في كراسة: "حتى التاسع من يناير"، تتفق بشكل كامل مع الموقف العام الذي دافع عنه لينين. وفي تاريخه للحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية، يجادل مارتوف ليس فقط ضد موقف لينين، بل أيضا ضد نظريات تروتسكي وبارفوس<sup>4</sup>.

ربما كان الإنجاز الأكثر إثارة للإعجاب الذي قام به تروتسكي هو نشر صحيفة ثورية جماهيرية يومية. فبمساعدة بارفوس استولى على الصحيفة الليبرالية السابقة روسكايا غازيتا، وغير اسمها إلى ناشالو (البداية) وحولها إلى جريدة عمالية شعبية وكفاحية بسعر منخفض (كوبيك واحد). وقد انتقل إصدارها من 30.000 نسخة إلى 100.000، لتبلغ رقم 500.000 نسخة بحلول دجنبر. ناشالو، التي كانت تابعة اسميا للمناشفة، كبديل لإيسكرا البائدة، كانت في الواقع تحت سيطرة تروتسكي. كان تداول نسخها أكبر

1: A. Lunacharsky, Revolutionary Silhouettes, pp: 60-61.

2: V.A. Grinko and others, The Bolshevik Party's Struggle against Trotskyism (1903-February 1917), p: 58.

3: F. Dan, op. cit., p: 305.

4: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 3, pp: 553-554.

بكثير من نوافيا جيزن. وقد وصف كامينيف، الذي كان واحدا من محرري نوافيا جيزن، لتروتسكي المشهد في محطات السكك الحديدية التي مر منها قطاره: «كان الطلب فقط على الصحافة الثورية. كانت الحشود التي تنتظر تصرخ: "ناشالو، ناشالو، ناشالو، نوافيا جيزن، ثم ناشالو، ناشالو، ناشالو". واعتترف كامينيف قائلاً: "ثم قلت لنفسني، مع شعور بالاستياء، إنهم في ناشالو يكتبون أفضل مما نكتب نحن"»<sup>1</sup>.

لم يكن للخط السياسي لصحيفة ناشالو أية علاقة نهائياً بمواقف المناشفة، بينما كان متطابقاً، في جميع المسائل الأساسية، مع مواقف لينين، وقد أقر لينين بهذه الحقيقة بعد سنوات عديدة. حتى حلول أكتوبر كان ما يزال من الممكن أن نجد من يجادل لصالح القيام باتفاقات، مؤقتة على الأقل، مع الليبراليين البرجوازيين، وبالتالي ففي العدد الأول من صحيفة نوافيا جيزن، كان المحررون ما يزالون يكررون شعار بليخانوف القديم: "نسير منفصلين، ونضرب معاً!". لكن لينين استمر، من منفاه، يسلمح حزبه بعدم الثقة في الليبراليين ويحذر من أنهم سيخونون حتماً. في العدد السادس من نوافيا جيزن كتب كامينيف مدافعاً عن موقف مختلف، إذ قال إن أي محاولة لإقامة حكومة لليبراليين وراء ظهور العمال سيتم رفضها وأن العمال سيسقطون هذه الحكومة المؤقتة. وهذا بالضبط هو ما حدث عام 1917. وفي العدد التالي، رقم سبعة، جاء في مقال من توقيع ن. مينسكي: «بين السياسة البرجوازية والسياسة الاشتراكية الديمقراطية لا توجد، ولا يمكن أن توجد، نقاط التقاء ولو حتى خارجية». وبخصوص هذه المسألة الجوهرية كان موقف ناشالو مطابقاً لموقف لينين. وهكذا عندما صدر العدد الأول من صحيفة تروتسكي ناشالو، لقيت ترحيباً حاراً من قبل صحيفة البلاشفة نوافيا جيزن والتي كتبت: «لقد صدر العدد الأول من ناشالو. إننا نرحب برفيق في النضال. يتميز العدد الأول بوصف رائع لإضراب أكتوبر، كتبه الرفيق تروتسكي»<sup>2</sup>.

كان مارتوف، الذي من المفترض أنه شارك مع تروتسكي في هيئة التحرير، كثيراً ما يعترض على خطها السياسي، لكنه لم يتمكن من دفع تروتسكي لتغييره. ويسرد في تاريخه لتلك الفترة سلسلة كبيرة من الخلافات. على سبيل المثال عندما حاول ستروفه الدخول في مفاوضات مع البيروقراطي الليبرالي وايت، شنت عليه ناشالو هجوماً شرساً واعتبرته "عميلاً لوايت". وذكر المقال الرئيسي للعدد 08 أن «الثورة قد تجاوزت مرحلتها الأولى، المعارضة المنتمية للزيمستفو قد ارتدت وأصبحت قوة معادية للثورة». عندما أشار مارتوف لهذا الموقف بسخط، قال إن هذه الصيغة "تعارض تماماً مع المفهوم التقليدي للمنشفية". واشتكى من أن خط ناشالو السياسي متطابق مع خط البلاشفة، وللبرهنة على ذلك نقل قائمة طويلة من المقالات<sup>3</sup>. كتب زعيم المناشفة دان رسالة تدمر لكاوتسكي قال فيها: «لقد أسسوا في سان بيترسبورغ صحيفة، ناشالو، والتي عوضت إيسكرا، وخلال شهري نوفمبر وديجنبر 1905 كانت تنشر التصريحات الأكثر تطرفاً، والتي بالكاد يمكن تمييزها عن تلك الموجودة في صحيفة البلاشفة: نوافيا جيزن»<sup>4</sup>. ويؤكد كاتب سيرة مارتوف، إسرائيل غيتزلر، نفس النقطة قائلاً: «وهكذا وجد مارتوف نفسه أقلية داخل ناشالو التي أصبحت أداة للدعاية التروتسكية وليس المنشفية»<sup>5</sup>.

من بين الافتراءات الأكثر تفاهة الموجهة من طرف الستالينيين ضد تروتسكي، اتهامه بأنه أيد الدعوة لعقد مؤتمر عمالي. إن هذا يشوه عمداً موقف تروتسكي. في يوليو 1906 كتب تروتسكي من سجنه منشوراً يدعو إلى عقد مؤتمر وطني للسوفييتات. وهي الفكرة التي شوها الستالينيون في وقت لاحق وأعلنوا أن تروتسكي أيد فكرة المناشفة عن عقد "مؤتمر عمالي". في كتيب له بعنوان "مهامنا في النضال من أجل جمعية تأسيسية"، حدد تروتسكي ثلاثة مطالب أساسية: (1) سوفييتات محلية لنواب العمال. (2) مؤتمر لعموم روسيا. (3) سوفييت لعموم روسيا كمنظمة دائمة يؤسسها مؤتمر للعمال<sup>6</sup>. لقد توقعت هذه الفكرة براءة ما حدث بالفعل في عام 1917. سليمان شوارتز، الذي هو بالتأكيد خصم لدود لتروتسكي، يبين بوضوح أنه ليس لفكرة تروتسكي أي قاسم مشترك مع فكرة المناشفة عن "المؤتمر العمالي"، أي بناء حزب عمالي إصلاحية: «من حججه يبدو من الواضح أن تروتسكي يعني بأن يكون سوفييت عموم روسيا جهازاً "دائماً" فقط لمدة الثورة. أما مفهوم أكسلرود عن المؤتمر العمالي فكان أوسع وأكثر تعقيداً ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة إما خلق حزب عمالي جديد واسع أو تحويل الحزب الاشتراكي الديمقراطي إلى مثل ذلك الحزب»<sup>7</sup>.

1: Trotsky, My Life, pp: 171 - 178.

2: Trotsky, My Life, p: 182.

3: Martov and others, Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka, vol. 3, pp: 592-596.

4: A. Ascher, Paul Axelrod and the Development of Menshevism, pp: 241-242.

5: I. Getzler, Martov, p: 110.

6: Trotsky's Works in Russian, Sochinyeniye, vol. 2, p: 435.

7: Schwarz, op. cit., 231.

ويضيف في حاشية الصفحة 234: «طيلة كل مدة حياتها القصيرة (ما بين 13 نوفمبر و03 دجنبر) لم تتضمن ناشالو ولو مقالة واحدة تناقش ولو بشكل عرضي مسألة مؤتمر عمالي».

وعلى الرغم من حدة الصراع الجدالي الذي حدث في الفترة السابقة، فقد حيا لينين إنجازات تروتسكي التي كانت تتناقض بشكل إيجابي مع السياسات الخاطئة التي تبناها أعضاء اللجان البلشفية داخل روسيا قبل عودة لينين. وهكذا نقلت كروبسكايا، في الطبعة الروسية الثانية من مذكراتها، في المقطع الذي تم حذفه من جميع الطبقات اللاحقة، إلى جانب العديد من المقاطع الأخرى، رسالة كتبها لينين في شتنب، والتي هي أيضا لم تر النور أبدا: «كتب إيليتش في رسالة إلى "أوغسطس" خلال شتنب: "أن تنتظر حتى تصل إلى اتفاق كامل مع اللجنة المركزية أو بين الوكلاء هو مجرد يوتوبيا! نحن لا نريد شلة بل حزبا، يا صديقي العزيز". وفي الرسالة نفسها، كتب إيليتش، في معرض رده على الشكوى الساخطة بأن أعضاء حزبنا يطبعون منشورات تروتسكي: "... إنهم يطبعون منشورات تروتسكي... يا إلهي!... لا يوجد خطأ في ذلك إذا كانت تلك المنشورات مقبولة وتم تصحيحها!"<sup>1</sup>.

وأخيرا، خلال محاكمة الأعضاء 52 لسوفييت سان بيتسبورغ، التي جرت في شتنب 1906، حول تروتسكي خطاب دفاعه إلى هجوم رائع على الاستبداد ودافع عن الحق في الثورة، صاح فيهم: «إن السلطة التاريخية التي يتحدث باسمها المدعي العام في هذه المحكمة، هي سلطة العنف المنظم من طرف الأقلية ضد الأغلبية! أما السلطة الجديدة، التي كان السوفييت بشيرها، فتمثل الإرادة المنظمة للأغلبية التي تدعو الأقلية إلى التزام النظام. وبفضل هذا التمييز يقف الحق الثوري للسوفييت في الوجود فوق كل المزايم القانونية والأخلاقية...»<sup>2</sup>.

في الواقع كان تروتسكي يصدر دعوة للانتفاضة المسلحة من داخل قفص الاتهام. وباستفادته من المحاكمة لغرض التحريض، تحقق الهدف الرئيسي. وعندما رفضت المحكمة طلب السجناء استجواب عضو مجلس الشيوخ، الذي أقام مطبعة الصحافة لنشر أدبيات منظمي المذابح، انخرطوا في احتجاج أجبر القضاة على طردهم من القاعة والحكم عليهم غيابيا.

ومع اعتراف لينين بدور تروتسكي، فقد غضب من رفضه العنيد الانضمام إلى البلشفية، رغم عدم وجود أي خلاف مبدئي، وهو ما فسره لينين بالغرور الشخصي. لم يكن الأمر متعلقا بالغرور الشخصي. كان السبب الرئيسي، الذي حال دون انضمام تروتسكي للبلشفية، هو ممارسات أعضاء اللجان البلشفية في سان بيتسبورغ، التي أثارت استهجانهم ونفورهم. وهذا ما يفسر عدم رغبته في الانضمام لفصيل لينين وإصراره على إعادة توحيد البلشفية والمناشفة الذين كانوا قد تحولوا إلى أقصى اليسار وأظهروا موقفا أكثر مرونة تجاه السوفييت من موقف البلشفية المحليين. في السنوات اللاحقة، كانت مسألة "التصالحية" القضية التي فرقت بشكل حاد بين لينين وتروتسكي، لكن في 1905 كان حتى هذا الفارق قد صار ثانويا.

أدى النهوض العام للحركة بشكل حتمي إلى ظهور رغبة قوية في الوحدة بين جماهير العمال. بعد أكتوبر أصبح الاتجاه نحو توحيد المناشفة والبلشفة لا يقاوم. وفي منتصف نوفمبر صوت الاشتراكيون الديمقراطيون في أوديسا في جمع عام ضم 1500 عامل لصالح توحيد الفصيلين. حدث الشيء نفسه في ساراتوف وتفير. وفي موسكو وسان بيتسبورغ كانت اللجان والمجموعات المحلية تعمل معا بالفعل، حتى قبل أكتوبر، في إطار ما يشبه هيكل فدراليا. وفي جميع أنحاء البلاد، مررت فروع الفصيلين قرارات تطالب بالوحدة. يصف بياتنيتسكي كيف تلقى الاشتراكيون الديمقراطيون في أوديسا اقتراح إعادة التوحيد من اللجنة المركزية: «استقبل الاقتراح بتحيب كبير من طرف أعضاء الحزب، المناشفة والبلشفة. وقد كان من السهل أن نفهم السبب، وهو أن ضعف وتشتت قوانا القليلة صار واضحا لكل عضو في الحزب خلال المذابح... وكان واضحا للجنة أن اقتراح الاتحاد سيحصل على أغلبية كبيرة في اجتماعات الحزب سواء من طرف البلشفة أو المناشفة، وأينما تحدث دعاة الوحدة كانوا يجدون الدعم بالإجماع تقريبا»<sup>3</sup>.

لينين، الذي كان قد عاد إلى روسيا، يوم 04 نوفمبر، كان قد صار مقتنعا بالضرورة العاجلة لإعادة توحيد جناحي الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي. لم يكن تغييره لموقفه من قبيل الصدفة، فبصرف النظر عن حقيقة أن الوضع برمته كان يتطلب ذلك، فإنه كان يكافح الآن لتصحيح الأخطاء العصبوية التي ارتكبتها البلشفة بخصوص السوفييت والنظام الداخلي ومسائل أخرى. ربما كان لينين يعتقد أن توحيد الحزب سيساعده على التغلب على هذه الانحرافات العصبوية. لكن السبب الرئيسي كان هو الضغط الآتي من القواعد وحقيقة أن استمرار الانقسام كان يعيق نمو الحزب. وقد كتب: «ليس سرا على أحد أن الغالبية العظمى من

1: Krupskaya, O Vladimiry Ilyiche, vol. 1, p: 144.

2: The Age of the Permanent Revolution, p: 59.

3: Piatnitsky, op. cit., p: 87.

العمال الاشتراكيين الديمقراطيين غير راضين عن الانقسام في الحزب ويطالبون بالوحدة. ولا يخفى على أحد أن الانقسام قد تسبب في بعض الخمول بين العمال الاشتراكيين الديمقراطيين (أو العمال الذين هم على استعداد ليصبحوا اشتراكيين ديمقراطيين) تجاه الحزب الاشتراكي الديمقراطي... وهكذا فقد أصبح من الممكن الآن ليس فقط الحث على الوحدة، وليس فقط الحصول على وعود بتوحيد الحزب، بل في الواقع توحيد الحزب، بقرار بسيط من طرف غالبية العمال المنظمين في كلا الفصيلين<sup>1</sup>.

بالطبع لا إمكانية لأي وحدة إذا كانت هناك اختلافات من حيث المبدأ. لعبت جريدة تروتسكي، ناشالو، دورا كبيرا في ضمان إمكانية وحدة على أساس مبدئي. وتحت تأثير الثورة، حتى قادة المناشفة بدأوا يميلون إلى اليسار، على الأقل بالكلمات. وهكذا كتب فيدور دان لكوتسكي، في نوفمبر 1905، قائلا: «نحن نعيش هنا كما لو في حالة سكر. إن الهواء الثوري يؤثر في الناس مثل النبيذ»<sup>2</sup>. وتجدر الإشارة إلى أن مناشفة بيتسبورغ كانوا يقفون بعيدا على يسار قيادة المناشفة في المنفى، وقد اتجهوا أبعد إلى اليسار تحت تأثير تروتسكي وبارفوس. وفي مسار الثورة، اقترب بلاشفة ومناشفة العاصمة من بعضهم البعض. وبحلول الخريف كانوا قد أقاموا بالفعل لجنة مشتركة. دافعت كل من ناشالو ونوفايا جيزن عن استعادة الوحدة. وصادقت اللجنة المركزية البلشفية، بحضور لينين، بالإجماع على قرار مفاده أن الانقسام كان مجرد نتيجة لظروف حياة المنفى، وأن تطور الثورة نفسها قد أزال أساس انقسام الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

قدم كلا الجانبين تنازلات. صار المناشفة الآن يقبلون صيغة لينين للفقرة الأولى من قوانين الحزب. وهو الشيء المثير للسخرية إلى حد ما، بالنظر إلى أن البلاشفة قد انفتحوا بالفعل وخففوا صرامة نظامهم الداخلي تماشيا مع الظروف الجديدة. وكانت الحجج القديمة حول المؤامرة والمركزية المتشددة قد صارت بدون معنى. وقد أنشأت اللجنة المركزية البلشفية واللجنة التنظيمية المنشفية أيضا بنية فيدرالية وبدء التفاوض من أجل توحيد الحزب. كان على كل فصيل من الفصيلين الدعوة لمؤتمر خاص به لتمهيد الطريق لعقد مؤتمر وحدة في أقرب وقت ممكن. وفي إطار التحضير للتوحيد، دعا البلاشفة لعقد مؤتمر مشترك، لكن المناشفة فضلوا الدعوة لمؤتمر خاص بهم في نوفمبر، عندها قام البلاشفة، أيضا، بعقد مؤتمرهم في تاميرفور، بفرنلندا، ما بين 12 و17 دجنبر، عندما كان عمال موسكو يخوضون صراعا عنيدا ضد قوى الرجعية. وبالنظر إلى الوضع المشحون للغاية، كانت هناك حاجة لمزيد من التركيز على تشديد الأمن وتعزيز الجهاز السري. في 11 دجنبر تم الإعلان عن قانون انتخابي جديد. تبنت مؤتمر تاميرفور موقف المقاطعة النشطة لمجلس الدوما، بناء على منظور راهنية الانتفاضة المسلحة. منطبق هذا الموقف واضح وهو أنه: بصفة عامة لا تجوز مقاطعة البرلمان إلا عندما يكون الحزب في موقف يسمح له بالإطاحة بذلك البرلمان وتقديم شيء أرقى منه عوضا عنه. كانت مؤشرات التحركات الثورية موجودة في كل مكان. فخلال الفترة الممتدة ما بين أواخر أكتوبر وأوائل دجنبر كانت البلاد تعيش سلسلة من الإضرابات والانتفاضات الفلاحية والتمرد داخل الجيش وقوات البحرية والانتفاضات في جورجيا والبلطيق.

## انتفاضة موسكو

بحلول نهاية أكتوبر بلغ الغليان في القرى مستويات جديدة، إذ شمل 37% من القسم الأوروبي لروسيا، ولاسيما المنطقة الوسطى "الأرض السوداء"، لاتفيا واستونيا وجورجيا وأوكرانيا. وقد امتدت موجة سخط الفلاحين بدورها إلى القوات المسلحة. اندلعت سلسلة من حركات التمرد في الجيش وقوات البحرية، الشيء الذي أكد أهمية العمل بين الجنود والبحارة. وإلى جانب العمل الجماهيري الشرعي، طور البلاشفة أيضا الاستعدادات المادية للانتفاضة المسلحة. كان كراسين هو المسؤول عن العمل العسكري والتغلغل في الجيش وتنظيم الجماعات المقاتلة. أنشأت اللجان المحلية وحدات متخصصة للحصول على السلاح. وقد تطور هذا العمل في الخريف مع إنشاء ورشات سرية لصنع القنابل ومخازن للأسلحة. ومرة أخرى لعب غوري دورا رئيسيا في جمع الأموال لهذا العمل، الذي تم تمويله جزئيا من خلال ما كان يعرف بـ "المصادرة"، أو عمليات السطو على البنوك التي كانت تقوم بها جماعات مسلحة تحت رقابة البلاشفة. كانت الشروط الموضوعية للقيام بالعصيان المسلح تنضج بسرعة.

طوال الخريف كانت كل العيون مركزة على سان بيتسبورغ، التي شكلت بوثة الحركة. لكن عمال العاصمة، الذين تحملوا العبء الأكبر للصراع، طيلة الفترة الممتدة من يناير حتى نوفمبر، كانوا قد استنزفوا قواهم. بعد صدور بيان أكتوبر، قام أرباب العمل الليبراليون، الذين ظهروا في السابق متعاطفين مع الحركة الثورية، بل وحتى دفعوا أجور العمال المضربين، بالكشف أخيرا

1: LCW, The Reorganisation of the Party, vol. 10, pp: 37-38.

2: Ascher, op. cit., p: 241.

عن وجههم الحقيقي. يوم 31 أكتوبر دعا سوفيت سان بيتسبورغ إلى إضراب عام للنضال من أجل يوم عمل من ثماني ساعات، لكن أرباب العمل أبدوا مقاومة شديدة وانتهى الإضراب إلى الفشل. يوم 12 نوفمبر دعا السوفييت إلى إيقاف الإضراب وكانت هذه نقطة تحول. لقد شكل إضراب أكتوبر حقا آخر رمق للحركة في سان بيتسبورغ. عرف إضراب نوفمبر في بيتسبورغ مشاركة أعداد أكبر من العمال مما كان عليه الحال في أكتوبر، لكن هذا كان حقا آخر محاولة يائسة لطبقة عاملة أنهكتها بشدة أشهر طويلة من النضال. أرباب العمل، الذين استشعروا أن الحركة بدأت تفقد قواها، نظموا حملة إغلاقات، في حين شرعت قوات الشرطة والجيش في تفريق اجتماعات العمال بالقوة. كشفت إغلاقات نوفمبر أن أرباب العمل كانوا على علم بالوضع الحقيقي. انطلقت حملة واسعة النطاق من القمع والطرده والاعتقالات. وخوفا من أن تتفكك الحركة إلى سلسلة من مواجهات حرب العصابات، التي يمكن أن تتعرض للسحق الواحدة تلو الأخرى، قرر سوفييت سان بيتسبورغ التراجع التكتيكي. وفي 12 نوفمبر، بعد نقاش حاد، ألغى الإضراب، من أجل الانسحاب بطريقة موحدة ومنظمة.

انسحاب البرجوازيين الليبراليين أمال موازين القوى لصالح معسكر الرجعية. صار الجنرال ترييوف الآن الحاكم الفعلي لروسيا. الليبراليون الخائفون من "الفوضى" تشبثوا بأذياله. ويوم 26 نوفمبر وجد النظام أنه قوي بما فيه الكفاية لاعتقال خروستاليف-نوسار في مقر اللجنة التنفيذية للسوفييت. رد السوفييت بخطوة على الصعيد المالي، دعا في بيان، كتبه بارفوس، إلى عدم دفع الضرائب وسحب الودائع المصرفية لتسريع الأزمة المالية للنظام. وحتى في هذا الوقت كانت فئات جديدة طرية تدخل ميدان الصراع في كل يوم: عمال النظافة والبوابون والطباخون وخدم المنازل والنوادل وعمال غسل الملابس وعمال الحمامات العامة ورجال الشرطة والقوزاق، بل حتى صغار المخبرين. كان المجتمع قد اهتز حتى الأعماق. لكن التجذر المتزايد للجماهير التي كانت في السابق خاملة سياسيا أخفى حقيقة أن قوات "الكتائب الثقيلة" للعمال كانت قد استنفذت تقريبا. كان الإجماع على إضراب دجنبر، في بيتسبورغ، أقل بكثير مما كان عليه إضراب نوفمبر، والذي ضم حوالي ثلثي عمال العاصمة. أبانت هذه الحقيقة أنه كان قد تم الوصول إلى أقصى نقطة للحركة في بيتسبورغ، وأن المد الثوري قد بدأ بالانحسار. يوم 02 دجنبر حدث تمرد لكتيبة روستوف في موسكو. وفي اليوم التالي ألقى القبض على قادة سوفييت سان بيتسبورغ، بمن فيهم رئيسه: ليون تروتسكي.

انتقلت المبادرة الآن إلى عمال موسكو. أعطى تمرد كتيبة روستوف الأمل في أن الحامية قد تنتفض. لكن البلاشفة المحليين ترددوا، وبما أن الحركة لم تنتشر، فإن القوات فقدت اندفاعتها بسرعة. فتم سحق التمرد خلال بضعة أيام. أصابت تلك الهزيمة الجنود بالإحباط وقللت إلى حد كبير من احتمال انتقالهم إلى جانب العمال. ومن ناحية أخرى كان المزاج العام في مصانع موسكو قد وصل درجة الغليان. كان العمال يريدون بفارغ الصبر الانخراط في النضال. في 04 دجنبر، أصدر سوفييت موسكو تهنئة للجنود على انتفاضتهم وأعرب عن أمله في أن يلتحقوا بصفوف الشعب. لكن لم يكد الحبر يجف حتى كان تمرد الجنود قد سحق. كان لينين قد أعرب مرارا عن قلقه من حدوث انتفاضة سابقة لأوانها. كان يعرف أن قوات الحزب ما تزال ضعيفة، وأن فرق القتال غير مستعدة بعد لتغلب على قوات الدولة. وقبل كل شيء كانت احتياطيات الفلاحين الهائلة قد بدأت للتو في الدخول إلى ميدان المعركة. وقد أعرب أكثر من مرة عن أمله في أن تتأجل المواجهة النهائية بين العمال وبين النظام حتى فصل الربيع. لكن لينين كان يفهم جيدا أن الثورة لا يمكن أن توجهه مثلما يوجه قائد الأوركسترا فرقته. تصف كروبسكايا بوضوح موقف لينين: «وردا على سؤال حول توقيت الانتفاضة قال: "أود تأجيل الانتفاضة حتى الربيع، لكن لا أحد سيأخذ رأينا على أي حال"»<sup>1</sup>.

نسجت الكثير من الأساطير حول انتفاضة موسكو، خصوصا من جانب الستالينيين. قيل إن الانتفاضة كانت بمبادرة من البلاشفة. لكنها في الواقع لم تندلع وفقا لخطة محددة. لم يكن هناك أمر مباشر من اللجنة المركزية. جاءت المبادرة من أسفل، من العمال أنفسهم. في المؤتمر الأول لمنظمات القتال التابعة للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي، الذي عقد في نوفمبر 1906، بعد عام من الانتفاضة، رفض ممثل اللجنة المركزية، إ. أ. سامر، الفكرة القائلة بأن اللجنة المركزية هي من نظمت كل شيء، واشتكى من أن بعض الرفاق: «لديهم مفهوم جد ميكانيكي عن الظروف التي أدت إلى انتفاضة دجنبر في موسكو ويرسمون صورة مبالغ فيها للغاية عن دور اللجنة المركزية في الدعوة لهذه الانتفاضة. قامت اللجنة المركزية على ما يبدو بالضغط على زر فانفجر التمرد. فإذا لم تكن اللجنة المركزية قد فعلت ذلك، فإن الانتفاضة لم تكن لتحدث!».

في الواقع كانت القيادة قد غلبتها الأحداث. الزعيم البلشفي، رادوف، اعترف في وقت لاحق، في لحظة حقيقة، بأن قوات الحزب لم تكن مستعدة على الإطلاق: «يجب علينا الآن أن نعترف بصراحة أنه في هذا الصدد، منظمنا برمتها، وجزئيا نحن، أعضاء اللجنة المركزية، كنا غير مستعدين نهائيا».

1: Krupskaya, O Vladimiryev Ilyiche, vol. 1, p: 132.

ليس هناك من شك في أنه كان هناك تأييد واسع النطاق بين عمال موسكو لمقترح الانتفاضة. كان عمال موسكو، على عكس عمال بيتربورغ، قد دخلوا حديثاً إلى ساحة المعركة ويتحرقون رغبة في الكفاح. اقترحت سلسلة مطردة من اجتماعات المصانع اشعال الانتفاضة. أثر المزاج السائد في المصانع في سوفييت موسكو. كان العمال يضغطون من أجل التحرك. وكانت المصانع تغلي وعلى بيعة من اقتراب اللحظة الحاسمة. تذكر زميليتشكا أنه عندما أخذ القادة البلاشفة المحليون الكلمة في السوفييت، كانت المسألة لم تعد موضع شك: "كانت مكتوبة على وجوه العمال"<sup>1</sup>. وحدهم مندوبو المصانع الذين يحملون البطاقة الحمراء، من كان لهم الصوت الحاسم، بينما لم يكن للأحزاب، كما في أماكن أخرى، سوى صوت استشاري. وعندما جرى التصويت، رفعت غابة من الأيدي المتصلبة لصالح تنظيم إضراب سياسي عام يوم 07 دجنبر. كان قرار العمال بالإجماع. في ظل تلك الظروف، كان الجميع يعرف أن ذلك التصويت هو تصويت لصالح الانتفاضة. كان لجناح المناشفة اليميني تحفظات حول الانتفاضة، بسبب تأثيرها على الليبراليين، لكنهم ابتلعوا تحفظاتهم وقرروا دعمها. كان الضغط من أسفل قويا لا يقاوم. على الرغم من أن المبادرة جاءت من العمال البلاشفة، في الواقع، فقد شارك في الانتفاضة المناشفة والاشتراكيون الثوريون أيضا. في 05 دجنبر، اقترح المناشفة تنظيم إضراب عام لعمال السكك الحديدية في موسكو. وتم تدعيم القرار في مجلس السوفييت من قبل عمال السكك الحديدية وعمال البريد والعمال البولنديين في موسكو.

جرت محاولة لتنظيم نضال تضامني في بيتربورغ. دعا سوفييت سان بيتربورغ، الذي كان قد أعيد تشكيله حديثاً، العمال والفلاحين إلى دعم إضراب موسكو العام. استنفر عمال سان بيتربورغ آخر ذرة من قواهم، وحاولوا دعم إخوانهم وأخواتهم في موسكو. في 08 دجنبر خرج أكثر من 83.000 عامل في سان بيتربورغ. ودعا عمال السكك الحديدية بدورهم إلى إضراب عام. ومع ذلك فإن محاولة تنظيم مثل هذا الحراك في سان بيتربورغ لم تحقق النتيجة المرجوة. كان الإرهاق، الناتج عن أشهر طويلة من النضال المتواصل، كبيرا جدا. كان العمال قد أضربوا عن العمل ثلاث مرات خلال تسعة أسابيع وكانوا الآن قد تعبوا من الإضرابات. كانت الدولة قد جندت ضدهم كل قواها، بينما كانوا هم قد فقدوا الثقة في قوتهم. بعد فشل الإضراب، اقتصر الدعم من بيتربورغ على إرسال الأسلحة. لكن الأوان كان قد فات.

يظهر أن الشرارة الأولى للانتفاضة كانت نتيجة استفزاز من جانب الحكومة، التي أرسلت القوات لتفريق بعض اجتماعات العمال. اندلعت مظاهرات واشتباكات بين الجنود والميليشيات. أقيمت المتاريس الأولى وبدأت المواجهات بشكل جدي. يوم 07 دجنبر بدأ إضراب عام شارك فيه أكثر من 100.000 عامل، وارتفع العدد إلى 150.000 في اليوم الموالي. يومي 07 و08 دجنبر كانت هناك لقاءات جماهيرية ومظاهرات في الشوارع في موسكو مع وقوع اشتباكات متفرقة مع الشرطة وإضراب عام. أصدر سوفييت موسكو جريدة يومية، "إزفستيا موسكو"، حاولت كسب أوسع فئات السكان إلى النضال. إلا أن قيادة الحركة أبانت عن عدم استعدادها للمعركة الحاسمة. حدث التردد أثناء اللحظة الحاسمة عندما كان من الممكن تحويل الإضراب العام إلى انتفاضة مسلحة. في تلك الأثناء كان النظام يستعد بالفعل للقيام بهجوم مضاد. يوم 08 دجنبر كسرت الشرطة تجمعا جماهيريا وألقت القبض على 37 شخصا. رغم ذلك لم يقيم السوفييت بأي رد فعل. في مثل تلك الظروف، كما أوضح ماركس، يكون التردد خطئا قاتلا. إن القاعدة الأولى للانتفاضة، على حد تعبير الثوري الفرنسي العظيم دانتون، هي: الجرأة ثم الجرأة ثم المزيد من الجرأة. و عوض ذلك نشرت إزفستيا، في 09 دجنبر، دعوات غامضة "للحفاظ باستمرار على قواتنا في حالة من التأهب الشديد". كان السوفييت يأمل في أن يعم التردد صفوف الجيش. كان هناك بالفعل تردد بين صفوف القوات، لكن كانت هناك حاجة لتحرك حاسم لكي يتجم ذلك إلى عمل. حاول العمال بشكل فطري التقرب من القوات، لكن التأخي لم يكن كافيا. وكما قال لينين فقد كان الاقتصار على مجرد الدعاية بديلا ضعيفا عن الصراع المادي. في تلك المرحلة، كانت "الدعاية بواسطة الفعل" مهمة آنية. استفادت قوى الثورة المضادة من ذلك التردد فشنت هجومها المضاد يوم 09 دجنبر. في سياق الاشتباكات سقط العديد من الجرحى والقتلى والمعتقلين.

آنذاك فقط أدركت الجماهير ضرورة اتخاذ إجراءات حاسمة. لم يكن هناك ما يكفي من الأسلحة، لكن المتمردون اعتمدوا على دعم السكان، ووضعا أمهلهم على التحاق عدد كاف من قوات الجيش بصوفهم لترجيح كفة الميزان لصالحهم. وللحصول على الأسلحة قامت ميليشيات العمال على الفور بتنظيم عمليات الاستيلاء بالقوة على سلاح ليس فقط رجال الشرطة بل أيضا الجنود. تحول الإضراب إلى انتفاضة مسلحة، وقد شاركت الجماهير في بناء المتاريس والاشتباكات مع قوات الشرطة والجيش. تظهر عدم ثقة قادة البلاشفة في قدرة القيادة بموسكو في قرار اللجنة المركزية إرسال أ. إ. ريكوف وم. ف. فلاديميرسكي إلى موسكو لتولي مسؤولية الوضع. كما تظهر من خلال تصريحات لينين في وقت لاحق، حقيقة أن هناك أخطاء ارتكبت. وفي سياق رده على عبارة

1: Istoriya KPSS, vol. 2, pp136, 141-142 and 137.

بليخانوف الشهيرة: "ما كان ينبغي عليهم حمل السلاح!"، قال لينين: «على العكس من ذلك، كان ينبغي علينا حمل السلاح بحزم أكبر وبنشاط أكبر وبشراسة أكبر: كان يجب علينا أن نوضح للجماهير أنه كان من المستحيل أن نقتصر على إضراب سلمي، وأنه كان لا بد من خوض كفاح مسلح جريء ولا هوادة فيه»<sup>1</sup>.

فقط عندما بدأ القتال بالفعل قامت إزفستيا بإعطاء تعليمات واضحة لفرق القتال: «لا تتحركوا بجماعات كبيرة، تحركوا بوحدة صغيرة مكونة من 3 إلى 4 عناصر، لا أكثر!». وأوصت أيضا بعدم إقامة المتاريس. «لا تحتلوا مواقع محصنة! ستمتكن القوات دائما من الاستيلاء عليها، أو ستقوم ببساطة بسحقها بواسطة المدفعية! فلتكن حصوننا هي الأزقة والساحات وجميع تلك الأماكن التي من السهل علينا إطلاق النار منها والفرار بعيدا!»<sup>2</sup>. ونصح العمال أيضا بالابتعاد عن اللقاءات الجماهيرية. «نحن الآن بحاجة للقتال فقط للقتال».

في ظل الظروف الجديدة لقتال الشوارع لعبت فرق المغاوير الحزبية، المرتبطة بالحركة الجماهيرية والإضراب العام، دورا حاسما بشكل واضح. وجدت قوات الشرطة والجيش نفسها في مواجهة عدو غير مرئي ومنتشر في كل مكان. وكانت الميزة الكبرى لفرق القتال، هي أنها، وبالرغم من صغر حجمها، حصلت على دعم الجماهير. يومي 09 و10 دجنبر نصبت أولى المتاريس. وبناء على نصيحة مجلس السوفييت، لم يعمل المتمردون على الدفاع عن المتاريس، لكنها لعبت دورا مفيدا في إبطاء حركة القوات وعرقلة انتشار سلاح الفرسان. حوصرت الجنود في بيئة معادية حيث كان ركن كل بيت قلعة للعدو؛ وفي كل مدخل وكل شارع كمين محتمل. كان الجنود والشرطة يفككون الحواجز في الليل فقط ليجدوا في الصباح أنه قد أعيد بناؤها. وعلى الرغم من تفوق الجيش والشرطة الساحق من حيث العدد والعتاد، فإنهم كثيرا ما واجهوا الصعوبات. كثيرا ما اضطر النظام إلى كتم أنفاسه فزعا من رؤية مدينة من مليون نسمة أغلبتهم العظمى من "الأعداء"، وهو يخوض القتال بجيش من القوات المحبطة وغير الموثوق بها. قاتلت بروليتاريا موسكو مثل النمر. وكان القتال عنيفا خصوصا في منطقة بريسنييا، مركز صناعة النسيج. وكانت ذروة التمرد المسلح يوم 11 دجنبر. اضطرت سلطات موسكو عند نقطة معينة لطلب التعزيزات. لكن الحكومة، التي كانت ما تزال تخشى من اندلاع انتفاضة في سان بيترسبورغ، لم ترسل شيئا في البداية.

على الرغم من كل هذا، لم تكن النتيجة النهائية موضع شك. فإذا لم تلتحق قوات الجيش بالعمال، فإن وضعهم ميؤوس منه سواء من حيث العدد أو العتاد. كان الجانب العسكري التقني غير كاف على الإطلاق. في أوائل دجنبر كان هناك فقط 2.000 من الرجال المسلحين، إضافة إلى 4.000 من رجال الميليشيات لكن من دون أسلحة. من بين هؤلاء كان ما بين 250 و300 في ميليشيا البلاشفة، وما بين 200 و250 في ميليشيا المناشفة، ونحو 150 من الاشتراكيين الثوريين. وبالإضافة إلى ذلك كان للطلاب وعمال التلغراف ومجموعات غير حزبية أخرى أيضا ميليشيات خاصة بهم. لم يكن لديهم ما يكفي من الأسلحة للقتال لكنهم كانوا يعولون على دعم السكان، ويأملون أيضا في تلقي الدعم من قوات الجيش. لقد كان الهدف الرئيسي لتشكيل الميليشيات هو منع المذابح، وهي المهمة الملموسة التي كانت تنطوي على النضال الدفاعي، ولم تكن مهينة للقيام بمهمة الهجوم. وما زاد الوضع سوءا هو أن القيادة بأكملها تعرضت للاعتقال يوم 07 دجنبر. منذ البداية كان واضحا أن الحركة سيئة الاستعداد ويغلب عليها الارتجال إلى حد كبير. كانت فرق القتال تميل إلى التركيز على الدفاع عن مناطقها بدلا من الانتقال إلى الهجوم. وعلى الرغم من بطولة عمال موسكو، فإن مشاكل غياب الأسلحة وضعف التنسيق وغياب المهارة العسكرية، حددت في نهاية المطاف مصير الصراع. بمجرد ما بنيت المتاريس، صار السكان العزل يلعبون دور المتفرجين فقط. عزز دعمهم السلبي معنويات وحدات القتال ومكنها من الصمود لفترة أطول مما كان يمكن لأي شخص أن يتوقع.

يوم 13 دجنبر اقترح مناشفة موسكو الدعوة إلى وقف الانتفاضة، لكن البلاشفة قرروا، تحت ضغط العمال، مواصلة القتال. من الممكن أن نطرح للنقاش مسألة إلى أي مدى كان القادة قادرين فعلا على توجيه الأحداث. لم تكن الميليشيات، ليس فقط التابعة للبلاشفة والمناشفة، بل أيضا تلك التابعة للاشتراكيين الثوريين، مستعدة للتخلي عن القتال. ونتيجة لذلك، أصدرت قيادة البلاشفة والمناشفة إعلانا مشتركا تحت عنوان: "ادعموا انتفاضة موسكو!"، وناشدت الطبقة العاملة في روسيا بأن تمنع الحكومة من سحق التمرد. لكن الوضع كان قد تحول بشكل حاسم ضد التمرد. فشل الحركة في بيترسبورغ مكن الحكومة القيصرية من تركيز قواتها في موسكو. وصول كتيبة سيمونوفسكي، في 15 دجنبر، قلب ميزان القوى بشكل حاسم ضد التمرد. لم يكن أبدا في مقدور قوات المتمردين غير النظامية الدخول في مواجهة مباشرة مع الجيش النظامي. يوم 16 دجنبر لم تعد في أيدي المتمردين سوى منطقة

1: Lenin, Selected Works, English edition, Moscow 1947, vol. 1. p: 446.

2: Istoriya KPSS, vol. 2, p: 142.



واحدة، هي بريسنيا. في ذلك اليوم صوتت اللجنة التنفيذية للسوفييت لصالح إنهاء الإضراب. وكعمل من أعمال التحدي، صوتت لجنة الحزب الاشتراكي الديمقراطي لمنطقة بريسنيا على إنهاء الإضراب في مساء يوم 18 دجنبر. لكنها كانت خطوة دون جدوى. في منطقة بريسنيا كان هناك، في ذروة النضال، حوالي 350 و400 عضو ميليشيا مسلح وما بين 700 و800 في الاحتياطي من دون أسلحة. وقد أخضعت بريسنيا الحمراء بقصف المدافع.

طيلة يومين وليلتين تعرض مصنع بروخوروف للقطن ومصانع شमित للأثاث، التي كان العمال قد حولوها إلى قلاع بدعم من أصحابها اليساريين، للسحق بنيران المدفعية. اجتاحت المنطقة كلها ألسنة اللهب. وبحلول ليلة 17 دجنبر، سقطت بريسنيا في يد القوات الحكومية. وأمام الاختلال الهائل في موازين القوى، اضطرت قيادة موسكو يوم 18 دجنبر لوقف القتال. وفي اليوم الموالي تم أيضا إنهاء الإضراب العام للحيلولة دون خسارة المزيد من الكوادر والحفاظ على كل ما يمكن الحفاظ عليه من الحركة. وصلت انتفاضة موسكو إلى نهايتها. وكان عدد القتلى، وفقا لتقرير نقابة أطباء موسكو، 1059، منهم 137 امرأة و86 طفلا. كانت غالبية القتلى من المواطنين العاديين. والمثير للدهشة هو أن الخسائر البشرية بين المقاتلين من الجانبين كانت قليلة. لم يقتل سوى 35 جنديا، بينهم خمسة ضباط. ثم بدأ الفصل الدموي من الاعتقالات الجماعية وعمليات إطلاق النار والترحيل. تعرض السجناء للقتل بدم بارد. وتم أخذ أطفال العمال إلى مراكز الشرطة حيث تعرضوا للضرب دون رحمة. كل الذين تعاطفوا مع قضية العمال كانوا في خطر. نيكولاي شमित، صاحب الشركة الشاب الذي سمح للعمال باستخدام مصنعه كقاعدة، تعرض لمصير مأساوي: اعتقل بعد الانتفاضة، وتعرض لمعاملة وحشية من قبل الشرطة. أخذوه إلى المصنع ليوروه إنجازاتهم، مشيرين بنصر إلى جثث العمال المذبوحين. وتم قتله لاحقا في السجن.

## الهزيمة

«لقد أظهر عمال موسكو الأبطال أن النضال النشط ممكن، وقد استقطبوا إلى هذا النضال فئات واسعة من سكان المناطق الحضرية كانت تعتبر حتى الآن غير مبالية بالسياسة، إن لم نقل رجعية. ورغم ذلك فإن أحداث موسكو كانت مجرد واحدة من أهم الدلائل عن «الاتجاه» الذي يشمل جميع أنحاء روسيا. وقد واجهت ذلك الشكل الجديد للنضال مشاكل ضخمة لم يكن من الممكن، بطبيعة الحال، حلها دفعة واحدة...»<sup>1</sup>.

لم تقتصر الانتفاضات المسلحة على موسكو وحدها، بل كانت هناك، في الواقع، سلسلة كاملة من الانتفاضات المسلحة في خاركوف ودونباس وبيكاتيرينوسلاف وروستوف-أون-دون وشمال القوقاز ونيجني نوفغورود وغيرها من المراكز. واشتعلت المسألة القومية بدورها على شكل انتفاضات في جورجيا ودول البلطيق على وجه الخصوص. وحتى قبل انتفاضة موسكو، كان هناك إضراب عام وعصيان في لاتفيا. وفي جورجيا، أيضا، أدى إضراب دجنبر العام إلى انتفاضة مسلحة في المنطقة العمالية بتفليس (تبليسي)، بقيادة الأسطوري «كامو» (تير-بيترسيان). تعرضت تلك الانتفاضة للسحق على يد الفلاحين الرجعيين. وكانت هناك أيضا انتفاضات في سيبيريا (عمال السكك الحديدية) وأعلن في العديد من المناطق الأخرى عن قيام «جمهوريات» محلية. كانت هناك انتفاضات هامة على طول خطوط السكك الحديدية في منطقة دونيتسك حيث وقعت معارك في عدة محطات، جذبت دعم الفلاحين في المناطق المحيطة بها. في بيكاتيرينوسلاف أدت أخبار انتفاضة موسكو إلى جمع البلاشفة والمناشفة والبوند والاشتراكيين الثوريين معا في إضراب سياسي موحد. كانت هناك إضرابات في المناجم والمصانع في منطقة دونباس بدعوة من السوفييتات أو لجان الإضراب. وشهدت العديد من المناطق اشتباكات ومعارك مع الجيش والشرطة. ويظهر تجذر المناشفة في حقيقة أنهم نظموا وقادوا الانتفاضة في روستوف أون دون، والتي سحقت على يد القوزاق باستخدام المدفعية. لكن انتفاضة موسكو لم تنجح في إثارة بروليتاريا سان بيترسبورغ. شكل ذلك نقطة ضعف قاتلة. عدم اندلاع الانتفاضة في العاصمة كان يعني أن الحكومة يمكنها أن تركز قواتها على سحق عمال موسكو، ومن ثم إخماد الحركات المحلية الواحدة منها تلو الآخر. وفي النهاية أدت هزيمة موسكو إلى ضرب الحركة في الصميم.

بسبب شعور بعض الاشتراكيين الديمقراطيين بخيبة أمل مريرة من فشل الطبقة العاملة ببيترسبورغ في أن تنهض لمساعدة الانتفاضة، ألقوا، في البدء، مسؤولية الهزيمة على عمال العاصمة. قد تكون ردود الفعل مثل هذه في لحظة اليأس مفهومة. لكن في السنوات اللاحقة قدم الستالينيون بكل وقاحة تفسيرا زائفا تماما لتلك الأحداث، بدءا من كتيب الأكاذيب سيء السمعة الذي دبه ستالين والذي ادعى فيه أنه: «كان على مجلس سوفييت سان بيترسبورغ لنواب العمال، والذي كان سوفييت أهم مركز صناعي

1: LCW, The Workers' Party and its Tasks in the Present Situation, vol. 10, p: 94.

وثوري في روسيا، عاصمة الإمبراطورية القيصرية، أن يلعب دورا حاسما في ثورة 1905. لكنه لم يرق بمهمته (!)، وذلك بسبب قيادته المنشفية السيئة. كما نعلم لم يكن لينين قد وصل بعد إلى سان بيترسبورغ، كان ما يزال في الخارج. استغل المناشفة فرصة غياب لينين ليشقوا طريقهم إلى سوفييت سان بيترسبورغ (؟) واستولوا على قيادته (؟). ولم يكن مستغربا، في ظل هذه الظروف، أن يتمكن المناشفة، خروستاليوف- نوسار وتروتسكي (!) وبارفوس وغيرهم، من تحويل سوفييت سان بيترسبورغ ضد سياسة الانتفاضة»<sup>1</sup>.

هذه طريقة فجة للتعبير عن فكرة تكررت، منذ ذلك الحين، بأشكال متنوعة. لكن لينين كان قد رد مسبقا على هذا الافتراء الجاهل، وأعرب في مناسبات لا تعد ولا تحصى عن تضامنه الكامل مع الخط التكتيكي العام الذي طبقه سوفييت سان بيترسبورغ.

وتصف كروبسكايا، في مذكراتها عن لينين، المزاج الذي كان سائدا بين صفوف الطبقة العاملة في سان بيترسبورغ في ذلك الوقت: «لقد دعت اللجنة المركزية البروليتاريا سان بيترسبورغ إلى دعم انتفاضة عمال موسكو، لكن لم يتحقق أي عمل منسق. استجاب للنداء عمال منطقة ما تزال بدون خبرة نسبية مثل موسكوفسكي، لكن منطقة متقدمة مثل نيفسكي لم تفعل ذلك، أتذكر كيف كان ستانيسلاف فولسكي غاضبا، وكان يحرض في تلك المنطقة بالذات. فقد الثقة كليا وشكك في ما إذا كانت البروليتاريا ثورية بالفعل مثلما نعتقد. لقد عجز عن أن يرى أن عمال سان بيترسبورغ قد تعبوا بسبب الإضرابات السابقة، والأهم من ذلك كله هو أنهم أدركوا مدى سوء تنظيمهم وتسليحهم لخوض صراع حاسم ضد القيصرية، سيكون صراعا حتى الموت، كما يخبرهم بذلك مثال موسكو».

حتى في ظل وضع ثوري تتحرك فئات الطبقة العاملة بسرعات مختلفة وفي أوقات مختلفة. لقد كانت نقطة ضعف ثورة 1905، باستخدام لغة عسكرية، هي أن القسم الأكبر من جنود الاحتياط كان يدخل ميدان القتال في الوقت الذي كانت فيه فرق الطليعة قد تعبت وصارت غير قادرة على مواصلة الكفاح. وهذا ما يفسر الحقيقة التي تبدو متناقضة بأن المناطق العمالية الأكثر تخلفا صارت مستعدة للنضال في حين أن القطاعات الأكثر تقدما لم تستجب. تصلح نفس الملاحظة بالنسبة للفلاحين، والذين بدونهم كان محكوما على الثورة في المدن بالفشل. لم تبدأ الحركة في القرى تأخذ أبعادا هائلة إلا في عام 1906. لكن بحلول ذلك الوقت كان العمود الفقري للحركة العمالية قد انكسر، على الرغم من أن ذلك لم يكن واضحا في ذلك الوقت.

كانت هزيمة دجنبر ضربة قوية. وفي مذكراتها عن لينين، تذكر كروبسكايا أن: «هزيمة موسكو كانت تجربة مريرة جدا لإيليتش. كان واضحا أن العمال كانوا مسلحين بشكل سيء وأن المنظمة كانت ضعيفة وحتى التنسيق بين بيترسبورغ وموسكو كان سيئا»<sup>2</sup>.

لكن حتى بعد هزيمة دجنبر، لم يعتقد لينين أن الثورة قد استنفذت ذاتها. فعلى مدار عام 1906، استمرت سلسلة من الإضرابات والتحركات البروليتارية، مما دفع بلينين إلى الاعتقاد بأن الثورة كانت ما تزال على جدول الأعمال. وبعيدا عن انتقاد عمال بيترسبورغ لعدم مسارعهم إلى حمل الأسلحة في دجنبر، قدم لينين التقييم التالي للوضع: «الحرب الأهلية مستعرة. الإضراب السياسي، على هذا النحو، بدأ يستنفذ نفسه، وأصبح شيئا من الماضي، أصبح شكلا للحركة عفا عليه الزمن. في سان بيترسبورغ، على سبيل المثال، لم يكن في مقدور العمال الجائعين والمستهكين تنفيذ إضراب دجنبر. لكن من ناحية أخرى، فإن الحركة ككل، وعلى الرغم من تعرضها لقمع الرجعية في الوقت الحالي، قد ارتقت، بلا شك، إلى مستوى أعلى من بكثير».

كانت حركة الفلاحين تنمو، ويمكنها ربما أن تعطي دفعة جديدة للمدن، وخاصة في فصل الربيع. كان النظام نفسه في أزمة، ويواجه إمكانية الانهيار المالي. وكان التماسك الداخلي للقوات المسلحة ما زال على المحك. كان من الضروري على العمال توحيد قوتهم إلى أقصى حد ممكن من أجل خوض النضال الحاسم عبر كل روسيا. وقد حذر لينين عمال بيترسبورغ من خطر الاستفزاز بشكل خاص: «سيكون من مصلحة الحكومة كثيرا قمع نضالات البروليتاريا التي ما تزال معزولة. سترغب الحكومة في تحدي عمال سان بيترسبورغ على الفور، للدخول في المعركة في ظل الظروف الأسوأ بالنسبة لهم. لكن العمال لن يسمحوا لأنفسهم بالسقوط ضحية الاستفزاز، وسوف يعرفون كيف يستمرون في طريقهم المتمثل في تحضير قواهم بشكل مستقل للنضال المقبل عبر كل روسيا»<sup>3</sup>.

مع الخبرة التي قدمتها الأحداث السابقة، صار من الممكن أن نرى أن الفترة الممتدة من إضراب أكتوبر إلى انتفاضة دجنبر شكلت ذروة مد ثورة 1905. لكن مع هزيمة البروليتاريا في موسكو، تعرضت الحركة في المدن للسحق، على الرغم من استمرار حركة الإضرابات قوية في عام 1906. انتفاضة الفلاحين القوية جاءت بعد فوات الأوان. والحزب الذي كان ضعيفا ومنقسما في بداية الثورة،

1: Stalin, History of the CPSU (B), p: 128.

2: Krupskaya, O Vladimiryev Ilyiche, vol. 1, pp: 142 and 159.

3: LCW, The Workers' Party and its Tasks in the Present Situation, vol. 10, pp: 93 and 94.

نما بشكل باهر في غضون بضعة أشهر، لكن ظهر جليا أن مهمة توحيد وقيادة حركة الملايين هي أكبر من قدرات بضعة آلاف من الكوادر، على الرغم من مجهوداتهم وتضحياتهم البطولية. لم يكن الشيء العجيب هو فشل الماركسيين الروس في قيادة البروليتاريا للنصر في عام 1905، بل العجيب هو الطريقة التي تمكنت بها حفنة صغيرة من الثوريين، الذين راكموا بالكاد عقدين من العمل وراءهم، من أن يتطوروا من حلقات صغيرة للدعاية إلى حزب قوي، مع عشرات الآلاف من المناضلين الذين يقودون مئات الآلاف من العمال، وكل ذلك في غضون بضعة أشهر.

الثورة، وعلى الرغم من هزيمتها، لم تذهب سدى. ومثلما هو الحال بالنسبة للعلم، حتى التجربة الفاشلة لا تضيع بالضرورة. هناك بعض أوجه التشابه مع تاريخ الثورات، على الرغم من أن التكلفة البشرية هي، بطبيعة الحال، أكبر مما لا يقاس. لولا تجربة كومونة باريس ولولا تجربة عام 1905، لكان نجاح ثورة عام 1917 مستحيلا، كما أشار لينين بعد سنوات كثيرة: «خرجت كل الطبقات إلى العلن. وجميع الآراء البرنامجية والتكتيكية جربت على محك ممارسة الجماهير. والنضال الإضرابي لم يسبق له مثيل في العالم في اتساعه وحدته. تطور الإضراب الاقتصادي إلى إضراب سياسي، وتطور الإضراب السياسي إلى انتفاضة. وتم التحقق في خضم الممارسة من العلاقات بين البروليتاريا القائمة وبين الفلاحين التابعين المتأرجحين والمتذبذبين. انبثق الشكل السوفييتي للتنظيم في غمرة التطور العفوي للنضال. وقد استبقت مجادلات تلك المرحلة حول أهمية السوفييتات نضال سنوات 1917-1920 العظيم. وحدث تناوب بين أشكال النضال البرلمانية وغير البرلمانية وتكتيكات مقاطعة البرلمان والمشاركة في البرلمان، وأشكال النضال العلنية وغير العلنية، وكذلك أشكال الترابط والتفاعل بينها، كل ذلك تميز بثراء غير عادي في المضمون. أما من حيث تعليم أسس علم السياسة للجماهير والقادة والطبقات والأحزاب على حد سواء، فقد كان كل شهر من تلك المرحلة يساوي سنة كاملة من التطور "السلمي" و"الدستوري". ولولا "قمرين" سنة 1905، لكان انتصار ثورة أكتوبر 1917 مستحيلا»<sup>1</sup>.

كانت لثورة 1905 آثار عميقة على الصعيد الأممي أيضا. فبين عشية وضحاها أصبحت فكرة الإضراب العام قضية مركزية في مناقشات الحركة العمالية العالمية. وشكلت الثورة مصدر إلهام وحافزا لعمال بقية أوروبا. شهدت ألمانيا، في 1905، اندلاع موجة إضرابات انخرط فيها 508.000 عامل، أي ما يقرب من أربعة أضعاف ما تم تسجيله عام 1904. وشهد أبريل 1906 أول إضراب سياسي عام في تاريخ ألمانيا. كما لم تقتصر آثار الثورة الروسية على أوروبا، بل كان لها تأثير على الحركات الثورية الصاعدة لشعوب المستعمرات. في ديسمبر 1905 شهدت بلاد فارس ثورتها البرجوازية، والتي بلغت ذروتها في عام 1911. دخلت الصين بدورها، عام 1905، في خضم حركة ثورية جماهيرية بزعامة البرجوازي الديمقراطي صن يات سين. وهو ما عبد الطريق بدوره للثورة البرجوازية الصينية ما بين 1911 و1913. وشهدت تركيا أيضا صعود حركة ثورية. ومثل صخرة ثقيلة أقيمت في بركة ساكنة، أنتجت الثورة الروسية موجات كبيرة كانت قادرة على الوصول إلى شواطئ بعيدة جدا.

كانت 1905 نقطة تحول حاسمة. فللمرة الأولى أصبحت الاشتراكية الديمقراطية الثورية قوة حاسمة داخل صفوف الطبقة العاملة في عموم روسيا. في غضون تسعة أشهر، شهدت الحركة تحولا كاملا. تطور وعي العمال بقفزات واسعة على أساس الأحداث العظيمة، مما هز أسس كل المعتقدات والعادات والتقاليد القديمة، ومكن الطبقة العاملة من التوصل إلى فهم حقائق وجودها الخاص. ومن خلال سيروية تجارب متواصلة، اختبر الشعب العامل الخيارات السياسية الواحد منها تلو الآخر، بدءا من الكهنة والعرائض المتواضعة، مروراً بالإضرابات الاقتصادية لتحسين الأجور وظروف العمل، والإصلاحات الدستورية والبيانات الإمبراطورية، والمذابح الدموية، والمظاهرات في الشوارع وفرق الدفاع الذاتي العمالية، وصولا إلى أسمر تعبيري عن الصراع الطبقي أي: الإضراب السياسي العام والانتفاضة المسلحة. وفي كل مرحلة تميز كسر الجماهير لأوهامها القديمة بصعود ونزول تيارات سياسية وشخصيات عرضية من جميع الأنواع. برز أمثال غابون وخورستاليوف-نوسار للحظة وجيزة على مسرح التاريخ قبل أن يختفوا إلى الأبد دون ترك أي أثر وراءهم. لكن التيار الثوري الحقيقي الذي تمثله البلشفية، وعلى الرغم من كل الأخطاء وفترات الصعود والهبوط الحتمية، تقدم بحزم لاحتلال مكانه الطبيعي على رأس البروليتاريا الثورية. الأسلحة النظرية والسياسية والتنظيمية، التي مكنت الحزب البلشفي من قيادة العمال إلى النصر في أكتوبر 1917، صقلت في نار ثورة 1905، وشحذت في ليل الردة الرجعية المظلمة الطويلة التي تلتها.

1: LCW, 'Left-wing' Communism-An Infantile disorder, vol. 31, p: 27. (التشديد من آلان وودز)



## مرحلة الردة الرجعية

### الويل للمهزومين

كانت للرومان القدماء عبارة تقشعر لها الأبدان لوصف مصير الشعوب المهزومة: "Ivictis Vae"، "الويل للمهزومين!". ومصير العمال بعد كل ثورة مهزومة في التاريخ يؤكد تماما هذا التهديد الدموي. لم تكن الثورة الروسية عام 1905 استثناء. استشعر النظام أن الخطر المباشر قد انتهى فكثف حملة القمع. وبسرعة رميت وعود أكتوبر الديمقراطية في مكب القمامة. أطلق العنان لنظام ارهاب دموي في كل مكان، في دول البلطيق وبولندا والقوقاز. نشرت الحملات العقابية الإرهاب في القرى، من خلال القتل والاغتصاب وحرق المنازل. كتب أورلاندو فيجيس: «ارتكب القوزاق، السكارى بالفودكا، فظائع رهيبية ضد الفلاحين. تم اغتصاب النساء والفتيات أمام أعين أقربائهن الرجال، وشنق مئات الفلاحين تحت الأشجار دون أي محاكمة. وتشير التقديرات أن النظام القيصري أعدم، ما بين منتصف أكتوبر وافتتاح أول مجلس للدوما في أبريل 1906، حوالي 15.000 شخص، وجرح ما لا يقل عن 20.000 ورُحِّل أو نفى 45.000»<sup>1</sup>.

استمرت عريضة الرجعية بلا هوادة لشهور متتالية. وبحلول أبريل 1906، وبصرف النظر عن 15.000 شخص الذين قتلوا بالرصاص أو أعدموا شنقا، كان هناك 75.000 آخرون يقبعون في سجون النظام القيصري. قطارات خاصة تحرسها فرق الإعدام القيصرية تقدمت بببطء، على طول خط السكك الحديدية بين موسكو وقازان، نحو أعماق سيبيريا المتجمدة، في انتقام مخيف من العمال. عانى البلاشفة من هذا القمع أكثر نسيبا من جميع التيارات الأخرى، لأنه كان لديهم عدد أكبر من المناضلين العماليين الثوريين. انتهت تقريبا منظماتهم بين عمال السكك الحديدية في سيبيريا. من بين الذين قتلوا كان عضو اللجنة المركزية والقيادي في الحركة الثورية في سيبيريا، أ. إ. بوبوف. وتعطينا الأسطر التالية، التي كتبها لوالدته، من زفزانة الإعدام، صورة مؤثرة عن روح هؤلاء المقاتلين: «أغادر عالم الظلام والقمع هذا مرتاح الضمير، مفسحا المجال لقوى شابة أخرى. وإذا كنا قد حققنا القليل، فسوف يكملون هم ما بدأناه نحن. أموت وأنا على قناعة تامة بأن أجسادنا ستوفر أساسا متينا سيقوم عليه مستقبل أفضل لوطني الذي عانى طويلا»<sup>2</sup>.

تحت ضربات مطرقة الردة الرجعية، بدأت المنظمات الاشتراكية الديمقراطية تتحول تدريجيا إلى غبار. العديد من المناضلين تم اعتقالهم أو قتلهم. وأجبر آخرون على الاختفاء وتغيير المدينة أو الفرار إلى الخارج. ومن أجل الإسراع في خنق الثورة، لجأت الحكومة لخدمات مساعدين خاصين تم تجنيدهم من بين صفوف البروليتاريا الرثة، تلك "الحتالة المتعفنة المستسلمة" كما نعتها ماركس، والتي خدمت في أكثر من مناسبة أغراض الثورة المضادة. نشرت عصابات المئات السود الرعب في القرى، عادة على شكل مذابح معادية للسامية.

قال كيرينسكي، الذي كان في ذلك الوقت محاميا ويقوم أحيانا بالدفاع عن الثوريين المتهمين: «استمر الانتقام، الذي جاء في أعقاب ثورة 1905، من أواخر عام 1906 إلى أوائل عام 1909. وبعد سحق انتفاضات الفلاحين وغيرها من الانتفاضات الأخرى بواسطة الحملات التأديبية، تحولت المسألة إلى عمليات صيد لبقايا المنظمات الثورية، أو العصابات كما كانت تسمى. كان يتم تسليم الضحايا إلى المحاكم العسكرية. كانت حملة إرهاب قضائي منظم».

حوكمت العديد من القضايا السياسية أمام محاكم عسكرية. وكان المدعي العام العسكري في ذلك الوقت، الجنرال بافلوف، رجلا لا يرحم، كان لا ينتظر سوى أن يقوم القضاة "بواجبهم" دون إيلاء أي انتباه إلى حجج الدفاع. لم يدم بافلوف طويلا. وبما أنه كان يتوقع حدوث محاولات لاغتياله، اتخذ كل الاحتياطات. لم يكن يغادر مبنى المحكمة العسكرية الرئيسي، حيث كانت لديه شقة بحديقة محاطة بسور عال. لكن ذلك لم ينقذه، فقد سقط ضحية لرصاصة إرهابي في حديقته الخاصة. لكن الإرهاب الفردي عاجز

1: O. Figes, A People's Tragedy, p: 202.

2: Istoriya KPSS, vol. 2, p: 164.

ضد الدولة. إذ سرعان ما تم استبدال مسؤول رجعي بمسؤول رجعي آخر. وازدادت حدة القمع أكثر.

ضرب الانتقام الوحشي بشكل خاص دول البلطيق لاتفيا واستونيا، حيث كان لانتفاضة العمال والفلاحين ضد ملاك الأراضي الألمان طابع عنيف. الحملات العقابية التي بدأت من دجنبر، واستمرت ستة أشهر، قتلت 1200 شخص، ودمرت عشرات الآلاف من المنازل، وجلد خلالها الآلاف من العمال والفلاحين. وفي نهاية 1906 وبداية 1907 تم عقد ما يسمى بمحاكمة جمهورية توكوم في ريغا. كان خمسة عشر من جيش الفرسان قد قتلوا خلال انتفاضة في توكوم عام 1905. ويتذكر كيرينسكي، الذي كان واحدا من محامي الدفاع، ما حدث قائلا: «ترأس المحاكمة أحد القضاة العسكريين الخاصين في مقاطعات البلطيق، وهو جنرال يدعى كوشيليف. كان شخصا ساديا لديه عادة مشاهدة الصور الإباحية في المحكمة خلال جلسات الاستماع لحالات يمكن أن يتعرض فيها المتهم للحكم عليه بالإعدام. سرعان ما أصبح واضحا في المحاكمة أن كوشيليف لم يكن مهتما بمحاولة إثبات الحقيقة، بل فقط باختيار 15 من المتهمين لقتلهم انتقاما للفرسان الذين قتلوا. تم إعدام جميع المتهمين الخمسة عشر. كان القيصر سعيدا بنتائج حملته على البلطيق وأثنى على ضباطه بسبب "الإنجاز الرائع"»<sup>1</sup>.

وعلى الرغم من كل شيء، استغرق الأمر 18 شهرا كاملا لتصفية الحركة الثورية. ثبت أنه من الصعب للغاية إطفاء جذوة الثورة. ولم تكن تتم استعادة النظام في منطقة، حتى تكون الحركة قد اندلعت في أماكن أخرى. كانت فئات جديدة تدخل باستمرار إلى النضال، في حين كانت فئات أخرى تتخلى عن الساحة، متعبة ومهزومة. كانت الصورة العامة ما تزال غير واضحة، واستمرت كذلك طوال عام 1906. وفي بداية عام 1906، كانت حركة الإضرابات ما تزال قوية، وإن كانت أقل من الربع الأخير من عام 1905. شهدت الفترة الممتدة ما بين يناير ومارس إضراب 260.000 عامل. والشئ المعبر هو أن ثلثا تلك الإضرابات كانت إضرابات سياسية. وفي ربيع عام 1906، ظهرت أعراض نهوض ثوري جديد. وشهد الربع الثاني طفرة جديدة لحركة الإضرابات، بمشاركة 479.000 عامل، أكثر مما كانت عليه حتى خلال صيف 1905. ومرة أخرى كانت هناك إضرابات اقتصادية وسياسية، لم تنته كلها بالهزيمة. فمن بين 222.000 عامل شاركوا في إضرابات اقتصادية، تمكن 86.000 منهم من الانتصار، بينما انتهى 58.000 منهم إلى حل وسط، ولم ينهزم سوى 78.000 فقط. وحتى وقت متأخر من صيف عام 1906، كانت موجة الإضرابات تبدو أبعد ما تكون عن التباطؤ، بل كانت تزداد كثافة. وفي عام 1906 ككل، شارك في الإضرابات أكثر من مليون عامل.

هل كانت هزيمة دجنبر في موسكو دلالة على نقطة تحول حاسم في مصير الثورة؟ هل كان الخط العام للحركة تصاعديا أم تنازليا؟ بالحكم على الأحداث بعد وقوعها تبدو الإجابة واضحة، لكن هذا لا يعني أن القضية كانت واضحة في ذلك الوقت. لم تكن حركة الجماهير آنذاك متشابهة في تطورها. كانت القرى متخلفة وراء المدن، ولم تبدأ في التحرك على نطاق كبير إلا عام 1906. والقمع الدموي الذي شهدته القرى لم يمنع من ظهور حركات جديدة، حيث دخلت مناطق ساراتوف وشيرينغوسك وخاركوف وموغيليوف، الواحدة تلو الأخرى ساحة المعركة. كان من بين عوامل ذلك عودة العمال المطرودين إلى القرى. لقد شكل الفلاحون المبلترو، الذين تعلموا في مدرسة حياة المصنع الصعبة وصقلتهم تجربة الإضرابات والانتفاضة، حافزا للحراك في القرى، ووفروا الخميرة اللازمة لأشقائهم وشقيقاتهم في الريف. مع الحكمة التي تحصل بعد وقوع الأحداث (والتي هي أرخص جميع أنواع الحكمة)، يبدو ذلك مجرد صدى لحركة قد استنفذت بالفعل قوتها. لكن هذا لم يكن واضحا لأولئك الذين كانوا يشاركون بنشاط في النضال في ذلك الوقت، وخاصة للجناح الأكثر ثورية داخل الحركة، الذي كان يمثله البلاشفة، والذين لم يتسرعوا في توقيع شهادة وفاة الثورة.

كانت للطبقة العاملة أيضا احتياطات أخرى. فالمسألة القومية، مثلما توقع لينين، صعدت بسرعة إلى الواجهة واتخذت كثافة شديدة. اندلعت نيران مشاعر الغضب ضد الاضطهاد القومي، التي استمرت جذوتها لفترة طويلة تحت السطح، في بولندا وفنلندا والقوقاز ودول البلطيق. كل هذا أدى بلينين إلى الاعتقاد بأن الثورة لم تستنفد بعد إمكاناتها. كان لتحديد الطبيعة الدقيقة للوضع، ودينامياته الداخلية ومنظوره، أهمية حاسمة لتحديد التكتيكات والشعارات الصحيحة اللازمة لحفظ وتقوية الروابط بين الجماهير وبين الطليعة البروليتارية. لكن هذه المهمة، التي ليست سهلة أبدا، تصبح أصعب ألف مرة في خضم الثورة، عندما يمكن لمزاج الجماهير أن يتغير بسرعة البرق. كان سؤال "في أي مرحلة نحن؟"، هو بالضبط السؤال الذي أثار أشد الصراعات في صفوف الثوار في تلك الفترة. كانت هناك أمزجة متناقضة داخل صفوف الطبقة العاملة. هل يمكن للموجة الثورية في الريف أن تشعل من جديد الحركة في المدن؟ لم يكن يمكن إعطاء أي إجابة واضحة على هذا السؤال. وقد كان لينين بالتأكيد ينظر إليه على أنه احتمال وارد وبنى تكتيكاته وفقا لذلك.

1: A. Kerensky, Memoirs. Russia and History's Turning Point, p: 76.

## النضال ضد البطالة

طوال عام 1906، وجدت الطبقة العاملة نفسها في موقف صعب على نحو متزايد، حيث لم تواجه القمع الجسدي فقط، بل أيضاً الإرهاب الاقتصادي. فبعد أن استعاد أرباب العمل رباطة جأشهم، انتقلوا إلى الهجوم، وشرعوا في الانتقام من الرعب الذي تعرضوا له. صارت إغلاقات المصانع وعمليات الطرد على رأس جدول الأعمال، وبدأ الرأسماليون يستعيدون المكاسب التي انتزعت منهم خلال الفترة السابقة. في ظل تلك الظروف، كان من الضروري البحث عن أي انفتاح، مهما كان محدوداً، واستغلال كل ثغرة قانونية. كان على الحزب أن يولي اهتماماً جدياً لأي منظمة شرعية من شأنها أن توفر منبراً لممارسة التحريض والدعاية، من قبيل منظمات التأمين والجمعيات التربوية والثقافية، وما إلى ذلك. كان العمل في النقابات مسألة في غاية الأهمية. قام العمال، الذين صاروا في موقف دفاعي، بالالتفاف حول النقابات الشرعية. وحدثت زيادة كبيرة في عضوية النقابات. في أوائل عام 1907، كانت هناك أكثر من 600 نقابة عمالية في روسيا، تضم 245.000 عضو. ومن ناحية أخرى، أدى انتشار البطالة، نتيجة الأزمة الاقتصادية، إلى وضع مسألة العمل بين العاطلين على رأس جدول الأعمال.

شن أرباب العمل انتقاماً وحشياً من أجل تدمير المكاسب التي حصل عليها العمال أثناء الثورة. وفي خضم حملات الطرد الجماعي، التي ضربت جميع القطاعات في الفترة ما بين 1907 و1909، تعرض 36% من العاملين في الصناعات الهندسية للطرد مع حلول يناير 1908. وأغلق أرباب مصنع التعدين بسان بيتسبورغ مخزن القذائف؛ وطردت أحواض بناء السفن في نيفا 300 عامل عام 1908، إضافة إلى 700 آخرين عام 1909. كانت أعنف الضربات هي تلك التي تلقاها العمال الأكثر تأهيلاً، وخاصة أولئك المتأثرون بالفكر الاشتراكي الديمقراطي. كانت هذه المجموعة قد أثار انتباه أرباب العمل خلال إغلاقات أكتوبر 1905، واستمر ذلك حتى أبريل 1906. كانت حملة الإغلاقات، التي تم تنظيمها من قبل أرباب العمل في سان بيتسبورغ بتعاون وثيق مع السلطات القيصرية، تهدف إلى تلقين عمال سان بيتسبورغ، وبخاصة قياداتهم الطبيعية، درساً قاسياً.

في ظل ظروف التسريجات الجماعية، التي أعقبت هزيمة دجنبر، اكتسب النضال ضد البطالة أهمية كبرى. نجح الاشتراكيون الديمقراطيون في تنظيم حركة ناجحة ضد البطالة، خاصة في سان بيتسبورغ، لكن أيضاً، إلى حد ما، في مراكز صناعية أخرى، مثل موسكو وأوديسا. وفي حين أن معظم المراكز الأخرى كانت قد قمعت بحلول نهاية 1906، فإن الشرطة السرية والدرك لم يتمكنوا من القضاء نهائياً على الحركة في سان بيتسبورغ إلا في 1908. في بيتسبورغ أسس الاشتراكيون الديمقراطيون المحليون "مجلس العمال العاطلين عن العمل" (سوفييت بيزرابوتنيخ)، وقد تم ربطه منذ البداية بالعمال المشغولين. أرسل العمال الذين يشتغلون في المصانع الكبيرة مندوبين إلى ذلك السوفييت. وتم تشكيل مجالس أخرى للعمال العاطلين في تفليس وموسكو وتفير وكوستروما وخاركوف وباكو وتاغونورغ. لكن المجلس الذي كان يحدد مسار المجالس الأخرى كان هو مجلس سان بيتسبورغ للعاطلين عن العمل.

وقد تم توثيق عمل مجلس سان بيتسبورغ للعاطلين عن العمل في كتيب "مجالس العاطلين عن العمل في سان بيتسبورغ عام 1906"، الذي كتبه العامل البلشفي سيرغي ماليشيف، الذي لعب دوراً نشيطاً في حركة العاطلين، وانتخب رئيساً لسوفييت كوستروما لمندوبي العمال، عام 1905. ترجع أصول هذه الحركة إلى الأحداث العاصفة التي شهدتها عام 1905، عندما استخدم أرباب العمل سلاح الإغلاقات لمكافحة حركة الإضراب. وإدراكاً منه بأن السبيل الوحيد للنضال من أجل قضية العاطلين يمر عبر الربط الوثيق بين نضالهم وبين نضالات العمال في المصانع، أسس سوفييت سان بيتسبورغ لنواب العمال لجنة للعاطلين بأجهزة مفتوحة في جميع مناطق تواجد الطبقة العاملة بسان بيتسبورغ. وفي وقت لاحق اعتمدت اللجنة قرار سوفييت نواب العمال باقتطاع نسبة 01% من أجور جميع العاملين في المعامل والورشات والمؤسسات الأخرى، لصالح العاطلين. كما تم تنظيم عمليات تبرع تطوعية في جميع الاجتماعات والتجمعات. وهكذا فإن نضال العاطلين كان مرتبطاً بشكل وثيق بنضال إخوانهم وأخواتهم الذين بقوا في العمل. كان هذا الموقف، الذي يشكل حجر الزاوية في تكتيكات الماركسية في النضال ضد البطالة، من اقتراح لينين، ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ موقف لينين تجاه حملة العاطلين. عندما سمع لينين عن مبادرة اتخذت بشأن هذه المسألة كانت لديه، في البداية، بعض الشكوك حول ما إذا كان في مقدور مجلس العاطلين وحده أن ينفذ برنامجه بجهوده الخاصة، قال: «لا يمكنكم أن تؤثرنا على البرجوازية بواسطة هذه المنظمة وحدها؛ لن تكونوا أقوى بما فيه الكفاية، وقد لا يكون العمال العاطلون أنفسهم قادرين على تطوير هذا العمل على أساس طبقي بروليتاري واسع. ولذلك يجب عليكم أن توسعوا على الفور مجلس العاطلين ليضم ممثلين للعمال المشغولين في جميع المصانع والورشات في سان بيتسبورغ. عليكم الآن أن تبدأوا في التحريض داخل المصانع والورشات لهذا الغرض، وترتبوا فوراً لانتخاب هؤلاء الممثلين. يجب أن يتألف مجلس العاطلين، ليس فقط من 30 ممثلاً للعاطلين، بل من 100 أو 150 ممثلاً من جميع المناطق، من جميع المصانع والورشات. سوف يوفر هذا للعاطلين جهازاً قيادياً بروليتارياً حقيقياً، سيكون

قادرا حقا على ممارسة الضغط بنجاح على مجلس دوما المدينة وعلى البرجوازية بوجه عام».

وافق المجلس على اقتراح لينين بربط نضال العاطلين بالعمال الذين ما زالوا في العمل، وشكل أساس تكتيكاته.

أخذ مجلس سان بيترسبورغ للعاطلين على كاهله مسؤولية حركة العاطلين، بدءا من تسجيل جميع العمال ضحايا الإغلاقات. وعلى حد تعبير ماليشيف: «كشف هذا التسجيل واقعة مثيرة للاهتمام، وهي أن 54% من العمال الذين تم طردهم كانوا عمالا ذوي مهارات عالية، في قطاع التعدين والصلب؛ وكان 18% منهم نجارون وعمال بناء وغيرها من المهن التي تتطلب المهارة. وكان 21% منهم فقط من العمال العاديين. أظهرت هذه الأرقام أن الرأسماليين نفثوا حقدهم على أولئك العمال الذين قاتلوا في الصفوف الأمامية للطبقة العاملة»<sup>1</sup>.

إن استهداف عمليات الهجوم لأهمهر العمال حقيقة موثقة جيدا. أظهر استطلاع أجرته نقابة عمال المعادن أن أرباب العمل في 1908 استخدموا ذريعة الأزمة الاقتصادية للتخلص من أهمهر عمال التعدين، والذين يتقاضون أجورا مرتفعة، والذين اشتغلوا أطول مدة، والذين كانوا القطاع الأكثر كفاحية. إستنادا إلى هذه المعطيات وغيرها استخلص روبرت ماكين ما يلي: «ألقوا إلى الشوارع بالمسنين والمرضى و"مخربي النظام الداخلي" كذلك. وخلال 1908 امتدت الإغلاقات وحملات التسريح إلى قطاعي الطباعة والنسيج. بين سنتي 1907 و1911 عرفت تخفيضات الأجور، بنسبة 30% أو أكثر، أبعاد واسعة في جميع قطاعات الصناعة الثقيلة والخفيفة. وفي ورشة قياس الضغط والمسبوكات المعدنية، لانجيزيين، تم تخفيض الأجور بمعدل النصف؛ وفي ورشة أفران الصهر بأحواض بناء السفن في البلطيق تم تخفيض الأجور بنسبة 40%. هذا وقد تم منع لجان أو مجالس المصنع (كما هو الحال في أحواض بناء السفن بنيفا)؛ وتعرض مندوبو العمال للاعتقال أو الطرد (مصنع الأنابيب)؛ وصارت الاجتماعات محظورة (سان بيترسبورغ للمعادن). ومنذ أوائل 1907 و1908، عاد فرض الغرامات وعمليات التفتيش، التي كان العمال يكرهونها كثيرا، في العديد من المصانع من بينها الشركة الفرنسية الروسية وأودنير وأحواض السفن بنيفا ومصنع الأنابيب ومصنع أوبوخوف وسان غالي وسان بيترسبورغ للمعادن. لكن لم يحدث الاعتداء المباشر والفوري على يوم العمل من 08 أو 09 ساعات، الذي كان أمّن مكسب للثورة، إلا بشكل أقل تواترا»<sup>2</sup>.

خلال عام 1906، صار موقف العاطلين يائسا على نحو متزايد. وقد وصف ماليشيف بشكل دقيق وضع عمال سان بيترسبورغ العاطلين قائلا: «ونحن نتسكع على طول شارع نيفسكي، نشاهد البرجوازيين السعداء المتخممين. بعضهم، من رتبة أعلى، يرتدون معاطف ونياشين ويركبون في عربات رائعة يجرها حصان أو حصانين من الخيول الرائعة؛ وآخرون، حشد من البرجوازيين، من رتبة أدنى، يتجولون على الأقدام على طول شارع نيفسكي، يملؤون وسط المدينة، على طول سادوفايا، وعلى طول طريق غوستين. يدخلون إلى مخازن مليئة بالبضائع، ويخرجون بأكوام من المشتريات، ووراءهم يسير شباب محملون بتلك المشتريات إلى منازلهم. كل البضائع التي في تلك المحلات والرفوف والمستودعات، والتي تنتجها البروليتاريا، متاحة بشكل كامل للبرجوازية. سرنا عبر عدة مبان على طول شارع نيفسكي، لكن كل ما كان يمكننا رؤيته هو متجر سولوفييف فقط. لم يكن في مقدورنا أن ندخل ونشتري ولو حتى ربع رطل من النقانق، لأن باعة متجر سولوفييف المتخممين لا يقبلون بيع مثل هذه الكمية الصغيرة، وعلاوة على ذلك فإن أسعار النقانق لا تتناسب مع حجم جيوبنا. لتخفيف مشاعرنا أطلقنا شتائم بذئثة ووضعنا يدا في يد ورحلنا من هذا الشارع اللعين. ذهبنا على طول الأزقة الضيقة وأخيرا وجدنا، في شارع باسين، أحد المطاعم الرخيصة حيث ملأنا أمعاءنا بطعام بسعر كوبيكين».

كانت المشكلة الرئيسية بالطبع هي أن معظم العمال المطرودين كانوا مسجلين في القائمة السوداء. تعرض العديد من الأفراد، بل ومجموعات كاملة، من "غير المرغوب فيهم"، للطرد من المصانع والورشات. أضطر هؤلاء العمال العاطلون إلى بيع أو رهن ملابسهم وغيرها من الأشياء الأخرى ذات القيمة. كان وضع العمال العاطلين وأسرهم بائسا. حملة جمع المساهمات، التي نظمها سوفيت نواب العمال، راكمت بعض الأموال، لكنها كانت مبالغ صغيرة جدا بحيث لم تغير الشيء الكثير. تم فتح غرف الطعام من قبل سوفيت نواب العمال وبعض الجماعات الليبرالية، في بعض المناطق العمالية، لتوفير بضع عشرات الآلاف من الوجبات. لكن بعد بيان أكتوبر بدأ الليبراليون يديرون ظهورهم لهذه الأنشطة العمالية وغيرها. ترك العمال لمصيرهم. ولمكافحة مشكلة البطالة بدأت المجموعة البلشفية في النضال لأجل برنامج للأشغال العامة النافعة والتعويض عن البطالة.

1: S. Malishev, The Unemployed Councils in St Petersburg 1906, pp: 16 and 8.

2: R.B. McKean, St Petersburg between the revolutions, pp: 8 - 9.

ويوضح ماليشيف تصور البلاشفة للنضال ضد البطالة من خلال استشهاده بما قاله متحدث في أحد المؤتمرات: «قال الرفيق: "المجموعة البلشفية، التي أتحدث الآن باسمها، تدعم حركة العاطلين وتساعدنا على تنظيم أنفسنا في منظمة قوية. من الضروري تنظيم جميع العاطلين وانشاء هيئة قيادية: مجلس للعاطلين عن العمل. على هذا المجلس، بمساعدة من العاطلين، أن يبدأ النضال من أجل تحسين وضع العاطلين، ليس فقط من خلال توزيع وجبات الغذاء و30 كوبيكا يوميا، بل أساسا عن طريق دفع مجلس دوما المدينة لتنظيم برنامج للأشغال العامة على نطاق واسع لتشغيل العاطلين. العاطلون ليسوا عالة، إنهم لا يريدون الصدقات. إنهم يطالبون بالخبز والعمل. بهذه الطريقة علينا عرض مطالبنا أمام مجلس دوما المدينة وكسب تأييد جميع العاملين في المصانع والورشات. يجب على المدينة تنظيم برنامج للأشغال العامة. هناك ما يكفي من هذا النوع من العمل الذي يمكن القيام به في المدينة، والذي يعطى الآن لمختلف المقاولين الذين يقدمون رشاوى كبيرة لمسؤولي المدينة. بين صفوف العاطلين يمكن إيجاد أكثر العمال مهارة في جميع القطاعات. يمكنهم أن يقوموا بكل أنواع العمل. المدينة لديها عدد من المشاريع الضرورية للمصلحة العامة؛ على سبيل المثال، بناء خط للترام (Tramways). لقد قررت المدينة تعويض قوة الأحصنة بالسيارات الكهربائية، وهو ما لا يمكن القيام به إلا إذا تم تعبيد الشوارع. وهذا يفتح إمكانية توفير أشغال عامة للعاطلين. علينا اتخاذ خطوات لكي توفر المدينة هذه الأشغال العامة، لذلك أقترح أن يتم قبول جميع المقترحات التي طرحتها والمصادقة عليها في الاجتماع، والشروع في تنفيذها على الفور، لأن الجوع والفقر لن ينتظرا»<sup>1</sup>.

من أجل تنظيم حملة العاطلين تقرر تنظيم مجلس للعاطلين من خلال عقد الانتخابات في غرف الطعام حيث كان العاطلون يحصلون على الوجبات، وحيث قام مجموعة من العمال البلاشفة بالتحريض لأجل ذلك وإجراء الانتخابات. وجه المجلس نداء لدوما المدينة. وتقرر إشراك 30 مندوبا من المصانع الكبيرة والورشات في مجلس العاطلين وجرت الانتخابات بين العمال في جميع المعامل والورشات وأماكن العمل. تم انتخاب المندوبين من قبل العاطلين في جموعات عامة، على أساس مندوب واحد لكل 250 عاملا، وفي المصانع والأحياء العمالية. وشكلت هذه مجالس المناطق، التي كانت تشرف على تسيير غرف الطعام وجمع المال في المصانع والورشات وتسجيل العاطلين وتقديم المساعدة المادية، وقادت بشكل عام الحملة ضد البطالة على أساس شعار: "من أجل الخبز والعمل!". وتمت صياغة عريضة موجهة إلى مجلس مدينة سان بيترسبورغ من طرف مجلس العاطلين، استعملت فيها أشد العبارات قوة. ثم طرحت العريضة للنقاش داخل مجلس العاطلين وتم التصويت عليها وإرسالها إلى جميع مصانع وورشات سان بيترسبورغ ونواحيها لتتم مناقشتها من قبل العمال الذين طلب منهم بعد ذلك التوقيع عليها.

جاء نص العريضة على النحو التالي: «بسبب البطالة، توجد العديد من أسر العمال الآن بدون خبز. العمال لا يريدون الصدقات أو الإحسان. إننا نطالب بالعمل. السادة يرفضون توفير العمل لنا. يقولون إنه ليس لديهم مشاريع. لكن المدينة لديها مشاريع ويمكنها أن توفر العمل للعاطلين. نعتقد أن الطريقة التي تصرف المدينة بها المال العام فاضحة. ينبغي استخدام الأموال العامة لتلبية الاحتياجات العامة وحاجتنا اليوم هي: العمل. ولذلك فإننا نطالب مجلس دوما المدينة بأن يعمل فوراً على تنظيم أشغال عامة لجميع المحتاجين. إننا لا نطلب الصدقة، بل نطالب بحقوقنا ولن نرض بالصدقات. الأشغال العامة التي نطالب بها يجب أن تبدأ على الفور. يجب أن يسمح لجميع العاطلين في سان بيترسبورغ بالقيام بهذا العمل؛ يجب أن يحصل كل عامل عاطل على أجر كاف. لقد تم تفويضنا للإصرار على تحقيق مطالبنا. والجماهير التي أرسلت هذه العريضة لن تقبل بأقل من ذلك. فإذا لم تستجيبوا لمطالبنا سوف نقدم تقريرا عن رفضكم للعاطلين وعندها لن نكون نحن من عليكم التعامل معه، بل أولئك الذين أرسلونا: جماهير العاطلين عن العمل»<sup>2</sup>.

تم إرسال المحرضين إلى جميع المصانع الرئيسية للدفاع عن تلك العريضة، فكانوا يتحدثون أثناء استراحة الغداء وأثناء تغيير المناوبات، كما كانوا يعقدون لقاءات أمام أبواب المصانع لنقاش مسألة البطالة. وعلى الرغم من حقيقة أنه بعد حملات الطرد الجماعية، لم يتبق في العمل سوى العمال الأقل وعيا، فقد تلقت العريضة تأييدا وتعاطفا واسعي النطاق. قامت خطة النضال ضد البطالة بشكل كامل على الربط بين العمال العاطلين وبين إخوانهم وأخواتهم الذين بقوا في العمل والذين هم وحدهم من لديهم القوة لمساعدتهم على حل مشكلتهم. وبالإضافة إلى ذلك، حاول المجلس الحصول على الدعم من عند القطاعات المتعاطفة بين صفوف الطبقة الوسطى.

1: S. Malishev, The Unemployed Councils in St. Petersburg 1906, pp: 11-12 and 14.

2: Malishev, op. cit., p: 18.



## تكتيكات ثورية

في حين قارب البلاشفة نضال العاطلين من وجهة نظر ثورية وطبقية، حاول المناشفة، كما هي عادتهم، تجميع مطالب الحركة من أجل عدم إخافة أصدقائهم الليبراليين. لقد طالبوا بحذف الفقرة الأخيرة من العريضة التي تحمل نبرة تهديد، وطالبوا أيضا بألا يقتحم وفد العاطلين مجلس دوما المدينة. كما عارضوا بشدة انتخاب ممثلين من المصانع والورشات إلى مجلس العاطلين. لكن ظهرت تصدعات في صفوف المناشفة مما أدى إلى حدوث انقسام أعطى الأغلبية لأنصار العريضة. في 12 أبريل 1906، تقدم وفد من العمال العاطلين، مكون من 30 شخصا (15 من العاطلين و15 من المصانع)، أمام دوما مدينة سان بيترسبورغ. في تلك المرحلة لم تكن الموجة الثورية قد تراجعت بما يكفي لإعطاء مجلس الدوما الثقة اللازمة بالنفس لرفض اللقاء مع أعضاء الوفد. وخوفا من رد فعل الجماهير، قرر دوما المدينة الاعتراف بالوفد والاستجابة لمطالبه قدر الإمكان. لكن الوفد لم يكن يعرف هذا القرار عندما دخل غرفة المجلس. وقد تحققت أسوء مخاوف المناشفة، إذ تكلم ممثلو العاطلين في قاعة المجلس بأشد العبارات، قال أحد المتحدثين: «نحن لا نلتمس منكم شيئا؛ نحن نطالبكم!»، وقال متحدث آخر: «إننا نعتقد أن كل هذه الأموال التي تحت تصرفكم هي حق لنا. فإذا لم توفرنا العمل للعاطلين لن يتبقى لنا سوى أن نهب ممتلكاتكم». وصرخ أحد ممثلي الوفد، وهو عامل شاب: «أنتم لم تروا العاطلين عن العمل، أنا أعيش معهم، ويمكنني أن أقول لكم كيف يعيشون، أستطيع أن أقول لكم ما الذي قاله هؤلاء الذين أرسلوني إلى هنا، لقد قالوا: اذهب وتحدث إلى أعضاء مجلس البلدية ودوما المدينة، فإذا لم يستمعوا إليك، سوف نذهب نحن بأنفسنا ونأخذهم من أعناقهم»<sup>1</sup>.

وخوفا من احتمال حدوث اضطرابات، كان أعضاء مجلس البلدية مجبرين على الاستماع في صمت لمثل هذه الخطب النارية. وعندما أنهى «الضيوف» كلامهم اقترحوا عليهم مغادرة القاعة. لكن هؤلاء الأخيرين أعلنوا أنهم لن يغادروا حتى يتلقوا جوابا عن مطالبهم. عندها أعلن أعضاء مجلس البلدية فترة استراحة، وأخرجوا الجمهور ثم استؤنفت جلسة العمل مع وفد العاطلين. وأخيرا، وتحت ضغط النضال الجماهيري المباشر، قرر السادة أعضاء دوما المدينة التراجع والاعتراف بكل المطالب الرئيسية للعاطلين. وجد عدد كبير من العاطلين أنفسهم مرميين في الشوارع أو سكنوا في ملاجئ مؤقتة، إلا أنهم أرسلوا أطفالهم للعيش مع الرفاق الذين استمروا في العمل. وهكذا تفرقت الأسر، فتقرر أنه يتعين القيام ببعض الإجراءات لمساعدة العاطلين على دفع الإيجار. كما تمت في مجلس الدوما مناقشة مسألة مساعدة العاطلين على تخليص متعلقاتهم من محلات الرهن، وخاصة آلات الخياطة والملابس الداخلية، وتمت الاستجابة لها.

لم يكن كرم دوما المدينة منزها تماما عن المصلحة. إذ حتى في تلك الفترة كانت هناك حركة إضرابات جديدة تتطور في سان بيترسبورغ. كانت الإضرابات ذات طابع سياسي أساسا، أكثر من كونها ذات طابع اقتصادي. أثمر تضامن العمال مع العاطلين نتائج مهمة، إذ شارك هؤلاء الأخيرين بنشاط في نضال العمال المضربين. وفي مقابل التضامن الذي أبداه العاملون خلال الأشهر السابقة، نظم العاطلون، جنبا إلى جنب مع المضربين في منطقة فيبورغ، عملية جمع المساعدات المالية لصالح المضربين. لكن مع انحسار حركة الإضرابات، استعاد المئات السود والليبراليون رباطة جأشهم وبدأوا بشكل ممنهج في تخريب الإصلاحات التي منحت سابقا. تمت عرقلة برنامج الأشغال العامة إلى أقصى حد ممكن وبدأ التقليل تدريجيا في الميزانية. عند ذلك قدم مجلس العاطلين قائمة جديدة من المطالب لدوما المدينة:

(1) يوم العمل من ثماني ساعات. (2) حظر العمل الإضافي. (3) إقرار أجر يومي. (4) مراعاة جميع الشروط الصحية والنظافة اللازمة في العمل. (5) إعطاء المناصب للعاطلين المسجلين بإشارة من مجلس العاطلين. (6) حق ممثلي العمال في مراقبة جميع الشؤون الداخلية في ورشات العمل.

وقد نظم البلاشفة التحريض من أجل هذه المطالب بواسطة جريدتهم فولنا (الموجة) والتي قامت بشكل ممنهج بفضح سلوك الكاديت والليبراليين. لكن مجلس الدوما رفض تقديم أي تنازلات جديدة. كانت هناك شائعات بأن وزارة الداخلية أرسلت تعليمات إلى مجلس دوما المدينة بعدم تقديم الكثير من التنازلات للعاطلين. فتصاعد نفاذ الصبر والغضب بين صفوف العاطلين. وفي 10 يونيو 1906، أصدر مجلس العاطلين نشرة تستنكر هذه الحالة:

«إن مجلس العاطلين لا يخفي عن الجماهير أن مجلس الدوما يماطل فقط ويتلاعب بالعاطلين وليست لديه أية نية في الوفاء بوعوده. لكن المجلس لم يخرق العقد الذي أبرمه مع الدوما لأن القيام بذلك يعني خدمة مصالح أولئك الذين يريدون استفزاز

1: Ibid., p: 23.

العمال للقيام بعمل سابق لأوانه. هذا بالضبط هو ما ينتظره أعداء الطبقة العاملة، المتعطشون لدماء البروليتاريا.

في الوقت الحاضر، ازداد استفزاز العاطلين إلى أعلى درجة. وقد أعطى وزير الداخلية أوامر خاصة لمجلس الدوما ولأعضاء المجالس البلدية بعدم تقديم أي تنازلات للعاطلين. هدفه واضح جدا، إنه استفزاز العاطلين للقيام بعمل سابق لأوانه في الوقت الذي رفاقهم العاملون ليسوا على استعداد لمساعدتهم، ومجلس الدوما، بطبيعة الحال، يطبق بخنوع ما تريده الوزارة. ومع ذلك، يجب ألا نسمح لأنفسنا بأن نسقط ضحايا لاستفزازات الدوما»<sup>1</sup>.

كان الهدف من هذا القرار النضال ضد نفوذ العناصر اليسارية المتطرفة (اللاسطلويون والاشتراكيون الثوريون) الذين كانوا يستغلون الإحباط الذي كان يشعر به العاطلون من أجل الدعوة لأعمال استفزازية قد تكون نتائجها كارثية. ومرة أخرى بواسطة ممارسة الضغط على مجلس الدوما، من خلال العمل الجماهيري، نجح مجلس العاطلين في الحصول على المزيد من التنازلات. العمل الجماهيري الذي تحقق ساعد على إبقاء صفوف الطبقة العاملة موحدة ومنع المزيد من التفكك، في الوقت الذي وصل فيه هجوم الردة الرجعية ذروته. وفي نفس الوقت ساعدت التكتيكات الصحيحة التي نهجها البلاشفة في تطوير الوعي الثوري للطبقة العاملة. لكن وبالضرورة لم تكن مثل هذه الانتصارات لتدوم طويلا. في النصف الثاني من عام 1907، حققت الردة الرجعية النصر التام. ألقى القبض على معظم البلاشفة، واضطر آخرون إلى الفرار إلى الخارج، كما ألقى القبض أيضا على معظم منظمي وقادة مجلس العاطلين أو أجبروا على الاختباء. ومن زنزانتته، في النصف الأول من 1908، علم سيرجي ماليشيف أن الحكومة القيصرية قد وضعت نهاية لبرامج الأشغال العامة في سان بيترسبورغ. وعندما شرعت الحكومة في إغلاق ورشة العمل العامة في كاغارينسكي وارف، وقبل شروع رجال الدرك في عملهم، استدعت بطارية مدفعية خفيفة، تحسبا لحدوث أي طارئ.

### إعادة التوحيد

على الرغم من الزحف الوحشي للردة الرجعية، فإن حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي استمر محتفظا بهياكله وكوادره الأساسية سليمة طيلة 1906، بل وتمكن حتى من الاحتفاظ بمنظمة مفتوحة. في هذا السياق يصف أوسيب بياتنيتسكي في مذكراته منظمة موسكو، حيث كان يعمل سنة 1906، والتي من الواضح أن المبدأ الانتخابي كان ما يزال معمولاً به فيها في ذلك الوقت: «في الفترة من 1906 إلى ما يقرب من نهاية 1907، تم تقسيم بعض الدوائر إلى دوائر فرعية. وكانت الدوائر والدوائر الفرعية مرتبطة باجتماعات المصانع (التي صارت الآن خلايا) ومع لجان المصانع والمجالس (التي صارت الآن خلايا الشعب). كان ممثلو لجان المصانع يستمعون لتقارير لجان المناطق ولجنة موسكو، وينتخبون لجنة المنطقة ويرسلون ممثلين للمؤتمرات المحلية حيث كان يتم انتخاب لجنة موسكو»<sup>2</sup>.

في ظل الظروف السائدة آنذاك كانت أهمية العمل في المنظمات الشرعية وشبه الشرعية، من جميع الأنواع، أمرا بديهيا. شارك الحزب في جميع أنواع العمل، ليس فقط في النقابات، بل أيضا في التعاونيات وجمعيات التأمين العمالية وأيضا الأنشطة الثقافية التي مكنته من الحفاظ على علاقاته مع الجماهير. قام كل من البلاشفة والمناشفة بالاستفادة بشكل جيد من الأندية، التي شكلت واجهات لعمل الثوريين. تتذكر إيفا برويدو: «كانت أنديةنا هي أهم مراكز العمل الحزبي، وقد ركزنا فيها كل أنشطتنا الدعائية: كانت دعايتنا توزع فيها، وكان العمال يأتون إليها لسماع محاضرات عن الأحداث الجارية. وإلى هناك أيضا كان يأتي أعضاؤنا في مجلس الدوما ليقدموا لنا تقارير عن عملهم. عمليا كان كل العمل التنظيمي متركزا حول هذه النوادي، كانت الاجتماعات الحزبية الخاصة والعامة تعقد هناك، وكان توزيع منشورات الحزب يتم من هناك، وكانت هي «عناوين» الفروع الجهوية والمحلية، وهناك كان يتم تجميع كل الأخبار المحلية، ومن هناك كان يتم إرسال المتحدثين في اجتماعات المصانع. وكانت تلك أيضا هي الأماكن حيث يمكن الالتقاء بالعمال المستنيرين لتبادل ودي للأفكار وقراءة الكتب والصحف. كانت كل الأندية تهدف قبل كل شيء إلى امتلاك مكاتب جيدة. كما أنها شجعت الفن، وكانت هناك مجموعات للموسيقى والغناء وما شابه ذلك»<sup>3</sup>.

أثارت الثورة في أذهان العمال تعطشا كبيرا للأفكار من كل نوع، ليس فقط الأفكار السياسية بالمعنى الضيق، بل أيضا العلم والأدب والفن والثقافة بشكل عام. وتوضح برويدو ذلك قائلة: «في البداية اقتصرتم الأندية على السياسة بشكل حصري، لكن سرعان

1: Ibid., p: 40.

2: O. Piatnitsky, op. cit., pp: 101 -102.

3: Eva Broido, Memoirs of a Revolutionary, p: 133.

ما تغير طابعها. أفسحت اجتماعات الدعاية المكان لمحاضرات ومناقشات ذات طابع عام، وأصبحت الأندية "جامعات" ماركسية. كان ممثلون من جميع لجان النادي يجتمعون لعقد محاضرات منتظمة، ولتوفير وتوزيع الكتب اللازمة وتوفير قوائم بعناوين الكتب. وسرعان ما بدأت مجموعة من العمال تطلب تنظيم دورات في المواد العلمية. وبالفعل في شتاء 1906-1907 تضمنت البرامج محاضرات عن الفيزياء والرياضيات والتكنولوجيا، إلى جانب الاقتصاد والمادية التاريخية وتاريخ الاشتراكية والحركة العمالية. وبالإضافة إلى الأندية، كانت هناك العديد من "المدارس المسائية"؛ لقد تزايدت أعداد المنخرطين فيها إلى درجة أنها أثارت انتباه الشرطة، وكثيرا ما تعرضت للإغلاق. وشملت هذه المدارس المسائية بعض الدورات للأمين والتي غالبا ما كان يحضرها عمال وعمالات كانوا يلعبون بالفعل أدوارا مؤثرة في الحركة<sup>1</sup>. وقد استمرت تلك الأندية تعيش في ظل شبه شرعية غير ثابتة إلى حين اندلاع الحرب العالمية الأولى.

دفعت الثورة عمال فصيلي الحزب إلى التقارب مع بعضهم البعض. وخلال النصف الثاني من عام 1905، انطلقت سيرة مستمرة وتلقائية من التوحيد من الأسفل. ودون انتظار أية إشارة من أعلى، اندمجت منظمات الحزب البلشفية والمنشفية ببساطة مع بعضها. عبر هذا الواقع جزئيا عن ميل العمال الفطري الطبيعي نحو الوحدة، لكنه في الواقع عبر أيضا، وكما رأينا سابقا، عن أن قادة المناشفة اتجهوا إلى اليسار بفعل الضغط من طرف قواعدهم. وبحلول دجنبر 1905، اتحدت القيادتان فعليا. تشكلت آنذاك لجنة مركزية واحدة متحدة. أعلن عن تنظيم مؤتمر توحيد وصدر العدد الأول من جريدة مشتركة، أطلق عليها اسم بارتينيي إزفستيا (أخبار الحزب). كان في هيئة التحرير ثلاثة بلاشفة (لينين ولوناتشارسكي وب. أ. بازاروف)، وثلاثة منشفة (دان ومارتوف ومارتينوف). لكن أحداث دجنبر ضربت الروح المعنوية لقادة المناشفة الذين صاروا بالفعل يتحركون للعودة إلى اليمين، مما وضع علامة استفهام كبيرة على آفاق الوحدة.

كان لينين مؤيدا للوحدة التنظيمية، لكنه لم يتخل ولو للحظة عن الصراع الأيديولوجي، وحافظ على موقف حازم بخصوص جميع مسائل التكتيكات والمنظورات الأساسية. كان ذلك من أبرز سمات تصور لينين: أقصى ما يمكن من المرونة بشأن جميع المسائل التنظيمية والتكتيكية، إلى جانب أشد الحزم بخصوص جميع المسائل المبدئية والنظرية. لكن علينا أن نحرص على ألا ننظر في تاريخ مساعي البلاشفة وأفكارهم بناء على معرفتنا للأحداث اللاحقة. لسنوات عديدة، قدمت الروايات التاريخية السوفييتية الرسمية دور لينين وكأنه قائد يرى كل شيء ويعرف كل شيء ويتوقع كل شيء مسبقا، وقاد الحزب بيد ثابتة نحو النصر النهائي الأكيد. بهذا النوع من السير لا يمكن تحقيق أي معرفة بلينين الحقيقي. يبقى كل تاريخ البلشفية محاطا بالسرية والغموض، مثله مثل قصة خرافية أو أسطورة دينية. لكنه لم يكن كذلك. في الواقع لم يكن لينين يملك فكرة واضحة تماما عن أين هو ذاهب في ذلك الوقت، وكان ما يزال غير متأكد بخصوص الكيفية التي كانت ستسير بها الأمور. لقد كان، بطبيعة الحال، واضحا جدا بخصوص الحاجة إلى الموقف الحازم تجاه الأفكار الأساسية والمبادئ الثورية للماركسية، وأيضا بخصوص الحاجة إلى الحفاظ على البلاشفة باعتبارهم الجناح الثوري الحازم داخل حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي. لكن دعمه لإعادة التوحيد لم يكن موقفا صوريا ولا مناورة. كان المناشفة قد انتقلوا، بفعل الثورة، نحو اليسار، ولم يكن واضحا على الإطلاق كيف من شأن ذلك أن يتطور في النهاية. لم يكن قد اتضح للينين بعد أنه من الضروري إجراء قطعة تامة، ولم يصل إلى هذا الاستنتاج إلا عام 1912. هذا هو الواقع ومن غير الصحيح تماما تقديم الصورة بأي طريقة أخرى.

رغم أن الحزب كان موحدا رسميا، فإنه كان منذ البداية منقسما إلى تيارين متعارضين: الجناح الثوري والجناح الانتهازي. الثورة أم الإصلاح، السياسة البروليتارية المستقلة أم التعاون الطبقي: كانت هذه الأسئلة الأساسية التي فصلت البلشفية عن المنشفية. ظهرت تلك الاختلافات الأساسية فورا في الموقف من مجلس الدوما والأحزاب البرجوازية. تبنى المناشفة موقف الاستسلام للبرجوازية الليبرالية والتي كانت قد انتقلت في الواقع إلى الملكية الدستورية وأخضعت نفسها للحكم المطلق. لمدة شهرين دارت مناقشة ساخنة حول قرارات مختلفة. دعمت المراكز العمالية الرئيسية الموقف البلشفي. لكنه كان حزبا مختلفا جدا عما كان عليه في الماضي. حتى المناقشات التي تمت خلال المؤتمر الثالث، قبل سنة واحدة، صارت تبدو الآن مثل تاريخ قديم. كان يبدو كما لو أن مرحلة تاريخية كاملة قد تكتفت في 12 شهرا. لم يعد يمكن الحفاظ على هياكل وعقلية الحلقات الصغرى القديمة. وقد أزيح أعضاء اللجان جانبا بشكل متزايد من طرف عمال وشباب جدد. حشدت الثورة الملايين حول راية الاشتراكية الديمقراطية. وصار من المستحيل وغير المرغوب فيه الحفاظ على النظام القديم، حيث كان يتم انتخاب المندوبين من قبل مجموعة ضيقة من الثوريين المحترفين

1: Ibid., p: 133.

(”اللجان“). صار يتوجب الآن تنظيم الحزب على أساس أوسع بكثير، وعلى أساس مبادئ ديمقراطية صارمة. يتضح الحجم الذي وصله الحزب آنذاك من خلال نسبة المندوبين المشاركين في المؤتمر الرابع: مندوب واحد عن كل 300 عضو.

عقد المؤتمر الرابع ”التوحيدي“ خلال الفترة ما بين 10 و25 أبريل 1906 بستوكهولم، حيث استضافهم الحزب الاشتراكي الديمقراطي السويدي. الشروط العامة المتميزة بمد الردة الرجعية تسببت بلا شك في تشوه تمثيل التيارات المختلفة. بعض الفروع البلشفية لم تتمكن من إرسال مندوبين بسبب الصعوبات المالية، كما خلق القمع صعوبات أخرى. المناطق التي يسيطر عليها المناشفة، التي كانت مراكز صناعية صغيرة وبلدات صغيرة، لم تتضرر بشكل كبير عموماً من ضربات الردة الرجعية، على عكس ما حدث للبلاشفة. الاعتقالات والسجن والتعطيل العام لفروع الحزب أدى إلى أن البلاشفة كانوا ممثلين تمثيلاً ناقصاً في المؤتمر الرابع، الذي سيطر عليه المناشفة. كان هناك ما مجموعه 112 مندوباً بحق كامل في التصويت و22 مندوباً بصوت استشاري، يمثلون 62 منظمة. كما حضر أيضاً ممثلو المنظمات الاشتراكية الديمقراطية الوطنية (بولندا وليتوانيا ولاتفيا وفنلندا وأوكرانيا والبوند وأيضاً الحزب الاشتراكي الديمقراطي البلغاري). كان البلاشفة 46، والمناشفة 62. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك عدد قليل من التوفيقين. أما تروتسكي فقد كان في السجن. بين صفوف الوفد البلشفي كان هناك لينين وكراسين وغوسيف ولوناتشارسكي وشوميان وبونوف وكروبسكايا وليادوف وأ. إ. ريكوف وأ. ب. سميرنوف وفرونز ووزيرجينسكي وشاب جورجي مجهول باسم مستعار، كوبا، والذي صار يعرف، في التاريخ فيما بعد، باسم ستالين.

كانت القضايا الرئيسية المطروحة للنقاش في مؤتمر ستوكهولم هي: البرنامج الزراعي، والوضع الراهن ومهام البروليتاريا، والموقف من مجلس الدوما، والانتفاضة المسلحة، وحركة الأنصار (The partisan movement)، والنقابات العمالية، وطبيعة المنظمات الاشتراكية الديمقراطية، وقوانين الحزب. ولم يضيع المناشفة وقتاً لانتهاز فرصة أغلبيتهم العديدة. أشار لينين في تقرير عن المؤتمر، كتبه في ماي 1906، إلى أن: «الانتخابات في المؤتمر أخذت بضع دقائق فقط. عملياً كان كل شيء قد رتب قبل الجلسات العامة. تولى المناشفة جميع المقاعد الخمسة في هيئة تحرير الجريدة. أما فيما يتعلق باللجنة المركزية، فقد اتفقنا على انتخاب ثلاثة أشخاص إليها، أما السبعة الآخرون فكانوا مناشفة. وحده المستقبل من سيوضح لنا ماذا سيكون موقف هؤلاء الثلاثة، الذين هم بمثابة مشرفين وحراس على حقوق المعارضة»<sup>1</sup>.

### النقاش حول مسألة الأرض

كانت المسألة الزراعية النقطة المركزية في كل النقاشات، وهي المسألة التي كان يتوقف عليها كل مصير الثورة الروسية. لقد أظهرت تجربة الثورة عدم كفاية البرنامج الزراعي القديم القائم على الأوتريزي (تحديد الأراضي). دافع لينين عن اعتماد برنامج زراعي أكثر جذرية بكثير على أساس شعار مصادرة الأرض من ملاك الأراضي الإقطاعيين. كان هذا الشعار شعاراً مركزياً جداً في منظور لينين للثورة الروسية. كان شعاراً ”للثورة الشعبية“، التي هي تحويل ثوري جذري، بقيادة الطبقة العاملة بتحالف مع الفلاحين الفقراء. كانت المهمة الأساسية هي تقديم حل جذري لمشكلة أراضي كبار الملاكين العقاريين، عن طريق ثورة زراعية كاملة تؤدي إلى مصادرة أملاكهم على يد لجان الفلاحين من أجل تحطيم قوة الملاكين العقاريين، وإذا سمحت الظروف، أي في حالة انتصار الانتفاضة المسلحة، إقامة جمهورية ديمقراطية وتأميم الأرض.

دافع لينين عن ثورة تكنس كل القمامة الإقطاعية المتراكمة. كان تصوره يستند إلى منظور النضال الثوري ضد الحكم المطلق ومنظور الانتفاضة المسلحة، وليس التعاون الطبقي مع الليبراليين والبلهات البرلمانية. بينما عارض المناشفة دعوة الفلاحين للاستيلاء على الأرض لصالح مشاريع إصلاحية من أسوأ نوع. وبدلاً من الاعتماد على المبادرة الثورية للجماهير، فضلوا المناورات البرلمانية والتعامل مع الليبراليين من وراء ظهر الجماهير. كانت سياستهم بشأن مسألة الأرض تنبع من خطهم الإصلاحية العام. في المقابل، أشار لينين إلى أن مسألة الأرض سوف تحل بالوسائل الثورية أو أنها لن تحل على الإطلاق. وفي وجه المطلب الإصلاحي بوضع الأرض تحت رقابة مجالس البلديات (في ظل الحكم المطلق!)، طرح مطلب تأميم الأرض. ومع ذلك، كان لينين حريصاً على أن يوضح، خلافاً لأوهام الشعبويين الذين توهموا أن ذلك الإجراء سيسقط الرأسمالية، أن تأميم الأرض هو مطلب برجوازي، لا يعني، في حد ذاته، إلغاء الملكية البرجوازية، بل فقط الملكية الإقطاعية. أما بخصوص القوى الطبقيّة للثورة، فقد أكد لينين ألف مرة أن: البرجوازيين الليبراليين قوة مضادة للثورة. لا يمكن إنجاز الثورة الديمقراطية البرجوازية إلا بتحالف العمال والفلاحين الفقراء (الجماهير

1: LCW, Report on the Unity Congress of the RSDLP, vol. 10, p: 375.

شبه البروليتارية في المدينة والريف). إن تأميم الأراضي في سياق الثورة البرجوازية الديمقراطية يعني، في الواقع، أكثر أنواع "تطهير الإسطبلات" جذرية لأجل التطور الحر للرأسمالية. ستعني الإطاحة الثورية بالحكم المطلق والاستعاضة عنه بجمعية تأسيسية منتخبة ديمقراطياً، إقامة نظام ديمقراطي برجوازي بأفضل الظروف للطبقة العاملة. فكرة إمكانية القيام بالثورة الاشتراكية في روسيا المتخلفة قبل أوروبا الغربية لم تتبادر قط لا للينين ولا لأي شخص آخر في ذلك الوقت، باستثناء تروتسكي.

بليخانوف بدوره رفض بشدة مطلب التأميم. وباللجوء إلى حجج ديماغوجية، اتهم بليخانوف لينين بتبني نفس حجج الاشتراكيين الثوريين، وقال إن مطلب تقسيم أملاك الملاكين العقاريين مطلب رجعي: «أقول إن فكرة الفلاحين عن التوزيع العام للأرض ذات طبيعة رجعية. وفي ضوء هذه الطبيعة الرجعية، على وجه التحديد، والتي دحضناها طيلة تاريخنا السياسي، أعلن نفسي ضد تأميم الأرض. فكيف إذن يمكن استخدام هذه الطبيعة حجة ضدي؟ إن لينين ينظر إلى التأميم من خلال عيون اشتراكي ثوري. بل وقد بدأ يستعمل حتى مصطلحاتهم، إنه، على سبيل المثال، يستعمل مصطلح الإبداع الشعبي سيء السمعة».

وبسخرته المعهودة استطرد قائلاً: «إنه لأمر سار أن نتذكر الأصدقاء القدامى، لكن من غير السار رؤية الاشتراكيين الديمقراطيين يدافعون عن مواقف النارودنيك. إن التاريخ الزراعي لروسيا هو أكثر شبيها بتاريخ الهند ومصر والصين والأنظمة الديكتاتورية الشرقية الأخرى، من تاريخ أوروبا الغربية... ومن أجل سحق الاستبداد من الضروري القضاء على أساسه الاقتصادي. لذلك فأنا ضد التأميم الآن؛ عندما حاجنا ضد الاشتراكيين الثوريين، اعتبر لينين أن حجبي كانت صحيحة. يقول لينين: "سوف نجعل التأميم غير ضار"، لكن من أجل جعل التأميم غير ضار من الضروري إيجاد ضمانة ضد العودة<sup>1</sup>. لكن مثل هذه الضمانة لا توجد، ولا يمكن أن توجد. لتتذكر تاريخ فرنسا؛ لتتذكر تاريخ بريطانيا؛ ففي كلا هذين البلدين حدثت العودة بعد موجة ثورية واسعة. الشيء نفسه يمكن أن يحدث لنا؛ ويجب أن يكون برنامجنا معداً بحيث يتسبب في أقل ضرر في حالة حدثت العودة».

ويختم بليخانوف بالقول: «وهذا هو سبب رفضي للتأميم. يرتبط مشروع لينين ارتباطاً وثيقاً بيوتوبيا الاستيلاء على السلطة من طرف الثوريين، ولهذا على أولئك الذين لا يستهويهم مذاق مثل هذه اليوتوبيا بيننا، أن يقفوا ضدها. أما وضع الأرض تحت سلطة البلدية فأمر آخر»<sup>2</sup>.

تعليقات بليخانوف لديها، على الأقل، ميزة الوضوح. وعندما يتهم لينين بربط برنامج الزراعي الجذري بالاستيلاء على السلطة من طرف الثوريين، فإنه ليس بعيداً عن الحقيقة، رغم أنه يقدمها في شكل صورة كاريكاتورية. كان جوهر الحل الذي يتبناه لينين للمسألة الزراعية يتأسس على وجه التحديد على ثورة تستند خلالها البروليتاريا على ثورة الفلاحين لإسقاط القيصرية وإقامة جمهورية ديمقراطية. يتطلب ذلك ضرورة أن يدافع الحزب عن البرنامج الأكثر جذرية للمطالب الديمقراطية الثورية، وقبل كل شيء عن حل ثوري لمسألة الأرض. على النقيض من ذلك حاول بليخانوف والمناشقة تخويف الحزب بالفكرة الجبانه القائلة بأن الثورة تنتج حتماً الثورة المضادة. لدينا هنا، في شكل متطرف، فكرة أنه يجب على الطبقة العاملة ألا تفعل شيئاً يمكنه "استفزاز" قوى الثورة المضادة، وبالتالي يجب عليها التمسك بذيول الليبراليين. أجاب لينين بأن الضمانة الكاملة الوحيدة ضد خطر العودة هو الانتصار الكامل للثورة. تقدم هذه الحادثة الصغيرة منظورين مختلفين تماماً، بل ونفستين مختلفتان تماماً كذلك.

في رده على مناقشة المسألة الزراعية، لخص بليخانوف عصارة موقف المناشقة واتهم لينين بالبلانكية: «هكذا هو الوضع، فيبيني وبين لينين توجد خلافات هامة للغاية في الرأي. يجب عدم التغاضي عن هذه الخلافات. لا بد من توضيحها في كل أهميتها ومداهها. يعيش حزبنا لحظة حاسمة. إن القرارات التي سوف تتخذونها اليوم أو غداً بخصوص المسائل المتنازع عليها ستقرر إلى حد كبير مصير حزبنا كله، وبالتالي بلدنا بأكمله. ولهذا السبب بالذات فإن مشروع الرفيق لينين، لا يعبر فقط عن رأيه الخاص حول المسألة الزراعية، بل يعكس كل تفكيره الثوري. البلانكية أو الماركسية، هذا هو السؤال الذي سنقرره اليوم. اعترف الرفيق لينين نفسه بأن مشروعه الزراعي يرتبط بشكل وثيق بفكرته عن الاستيلاء على السلطة. وأنا ممتن جداً لصدقه».

بعد ذلك جاءت اللحظة الحاسمة. كشف بليخانوف موقف المناشقة تجاه الاستيلاء على السلطة من قبل العمال والفلاحين بهذه الكلمات: «هل صحيح، أيها الرفيق لينين، أنه بعد 17 أكتوبر توقف الاستيلاء على السلطة عن كونه يوتوبياً؟ لكنك تحدثت عن ذلك حتى قبل 17 أكتوبر، وقد أجبته حتى قبل 17 أكتوبر. لم يغير 17 أكتوبر شيئاً في تقييمنا لفكرة الاستيلاء على السلطة. إن وجهة نظري تتمثل في هذا: أن الاستيلاء على السلطة إلزامي بالنسبة لنا عندما نكون بصدد الثورة البروليتارية. لكن وبما أن

1: عودة النظام القديم - Restoration - المترجم.

2: Congress Minutes, Chertvyortiy S'yezd RSDRP, Protokoly, pp: 59 -60 and 60 -61.

الثورة الوشيكية الآن لا يمكنها أن تكون إلا برجوازية صغيرة، فعلينا واجب رفض الاستيلاء على السلطة»<sup>1</sup>.

كانت هذه هي حجة المناشفة في 1906-1907. كانت الثورة ثورة برجوازية: كانت مهامها برجوازية ديمقراطية؛ كانت الظروف من أجل الاشتراكية غائبة في روسيا، وبالتالي فإن أي محاولة من جانب العمال للاستيلاء على السلطة تعتبر مغامرة؛ كانت مهمة العمال هي عقد التحالف مع الأحزاب البرجوازية والبرجوازية الصغيرة، لمساعدتها على إنجاز الثورة البرجوازية.

ماذا كان رد لينين على بليخانوف؟ لم يختلف معه حول أن الثورة كانت ثورة برجوازية ديمقراطية، ولا حول استحالة بناء الاشتراكية في روسيا وحدها. كان جميع الماركسيين الروس، المناشفة ولينين وتروتسكي، متفقون حول هذه المسألة. كان من البديهي أن شروط التحويل الاشتراكي كانت غائبة في روسيا، لكنها نضجت في الغرب. وردا منه على تحذير بليخانوف بخصوص "خطر العودة"، أوضح لينين أنه: «إذا كنا نقصد ضمانا اقتصادية حقيقية وفعالة كليا ضد العودة، أي ضمانا تهيئ الظروف الاقتصادية التي تحول دون العودة، فإنه يجب علينا أن نقول: إن الضمانة الوحيدة ضد العودة هي الثورة الاشتراكية في الغرب. لا يمكن أن تكون هناك أية ضمانة أخرى بالمعنى الكامل للمصطلح. أما بدون هذا الشرط، فإنه أيا كانت الطريقة التي يتم بها حل المشكلة (ملكية البلدية أو تقسيم الأرض، أو ما إلى ذلك) فالعودة لن تكون ممكنة فحسب، بل لا مفر منها».

وهكذا فإن تصور لينين للثورة الروسية قام منذ البداية على اعتبارها، بشكل صحيح، مقدمة للثورة الاشتراكية في الغرب. لقد ربط مصير الثورة الروسية بصلبة لا تنفصم مع مصير الثورة الاشتراكية العالمية، والتي بدونها سيكون محكوما عليها حتما بأن تهزم على يد الردة الرجعية الداخلية: «أود أن أصوغ المسألة على النحو التالي: يمكن للثورة الروسية أن تحقق النصر بجهودها الخاصة، لكنه لا يمكنها على الإطلاق أن تحافظ على مكاسبها وتعززها بالانتصار على قوتها الذاتية. لا يمكنها أن تفعل ذلك ما لم تحدث هناك ثورة اشتراكية في الغرب. بدون هذا الشرط تصير العودة أمرا لا مفر منه، سواء كان لدينا ملكية البلدية أو التأميم أو تقسيم الأراضي؛ لأن المالك الصغير سيكون دائما حصنا للعودة مهما كان شكل الحيازة والملكية. بعد الانتصار الكامل للثورة الديمقراطية سيتحول المالك الصغير حتما ضد البروليتاريا؛ وبمجرد الإطاحة بالأعداء المشتركين للبروليتاريا وصغار الملاكين، أي الرأسماليين والملاكين العقاريين والبرجوازية المالية، سرعان ما سيحدث ذلك. لا تمتلك جمهوريتنا الديمقراطية أي احتياطي آخر ما عدا البروليتاريا الاشتراكية في الغرب»<sup>2</sup>.

وفي تقريره للمؤتمر، علق لينين قائلا: «إن الجناح اليميني لحزبنا لا يؤمن بالنصر الكامل للثورة الحالية، أي البرجوازية الديمقراطية، في روسيا؛ إنه يخشى مثل هذا النصر، ولا يطرح أمام الشعب بثقة ودقة شعار هذا النصر. إنه يتبنى باستمرار الفكرة الخاطئة أساسا، والتي هي في الحقيقة ابتذال للماركسية، القائلة بأن البرجوازية وحدها التي يمكنها بشكل مستقل أن "تنجز" الثورة البرجوازية، أو أن البرجوازية وحدها التي يجب أن تقود الثورة البرجوازية. إن دور البروليتاريا، كطليعة في النضال من أجل النصر الكامل والحاسم للثورة البرجوازية، ليس واضحا للاشتراكيين الديمقراطيين اليمينيين»<sup>3</sup>.

تبرز هنا بوضوح كامل الاختلافات بين البلشفية والمنشفية. ومع ذلك فقد كانت هناك اختلافات وشكوك بين البلاشفة أنفسهم بشأن هذه المسألة. حيث عارض سوفوروف وبزاروف وكذلك ستالين، وغيرهم، التأميم لصالح "تقسيم" الأراضي بين الفلاحين. يعكس هذا المطلب ميلا برجوازيا صغيرا، يبتعد كليا عن موقف لينين. قال ستالين آنذاك: «بما أننا نرجم اتحادا ثوريا مؤقتا مع الفلاحين المناضلين، وبما أننا لا نستطيع في هذا الصدد تجاهل مطالب الفلاحين، فإنه يجب علينا أن ندعم تلك المطالب، إذا كانت، ككل وبشكل عام، لا تتعارض مع اتجاهات التطور الاقتصادي ومع تقدم الثورة. الفلاحون يطالبون بالتقسيم؛ التقسيم لا يتعارض مع الظاهرة المذكورة أعلاه؛ لذا يجب علينا أن ندعم المصادرة الكاملة والتقسيم. ومن وجهة النظر هذه، فإن كلا من التأميم وملكية البلدية أمر غير مقبول على حد سواء»<sup>4</sup>.

ومن أجل هزيمة "ملكية البلدية" اضطر لينين إلى سحب قراره الخاص والتصويت مع أنصار "التقسيم". في ظل ظروف معينة، من شأن تقسيم ملكيات الملاكين الكبار، أن يكون بالطبع خطوة إلى الأمام، لكن مطلب لينين بالتأميم كان هو المطلب الثوري الوحيد الحازم. لكن في الختام كان القرار النهائي تسوية غير مرضية.

1: Ibid., pp: 139 and 142.

2: LCW, Unity Congress of RSDLP, vol. 10, p: 280. (التشديد من آلان وودز)

3: LCW, Report on the Unity Congress of the RSDLP, vol. 10, pp: 377 - 378.

4: Congress Minutes, Chertvyortiy S'yezd RSDRP, Protokoly, p: 79.

## البلشفية والمنشفية

أدت المناقشات الأخرى إلى تأكيد الانحراف اليميني للمناشفة. فعلى سبيل المثال صاروا يعارضون شعار تسليح الجماهير، وتمكنوا من تمرير وجهة نظرهم في المؤتمر. بغض النظر عن مسألة مدى ملائمة الكفاح المسلح في اللحظة المعينة، فإن موقف المناشفة مثل بوضوح تخلياً عن النضال الثوري لصالح النزعة البرلمانية الإصلاحية وسياسة التعاون الطبقي، كما اتضح من خلال موقفهم من المسألة الزراعية والموقف من الكاديت. في وقت لاحق وصف تروتسكي التغيير الذي حدث في موقف المناشفة قائلاً: «المناشفة، الذين كانوا قبل أسابيع قليلة فقط يتبنون موقف شبه مقاطعة مجلس الدوما، حولوا الآن آمالهم من النضال الثوري إلى الفتوحات الدستورية. خلال مؤتمر ستوكهولم كان يبدو لهم أن تقديم الدعم لليبراليين هي أهم مهمة للحركة الاشتراكية الديمقراطية»<sup>1</sup>.

اعترف أكسلرود، في تقريره عن مجلس الدوما، أن معظم المناشفة الناشطين في روسيا قد دعموا في البداية موقف المقاطعة، لكنه اشتكى من أن ذلك قد ترك المجال مفتوحاً أمام الأحزاب الأخرى، وأنه قد حان الوقت لتغيير الموقف. لقد كان محقاً بلا شك، لكن في السياسة من الممكن أن يكون حكم المرء صحيحاً مع أن دوافعه خاطئة. كان موقف المناشفة في جوهره يقوم على السعي الدائم للتوصل إلى اتفاق مع الكاديت. وعلى النقيض من ذلك، اقترح البلاشفة الاستفادة من الصراع بين الدوما والنظام من أجل تعميق الأزمة الثورية، بينما سعوا في الوقت نفسه لفضح الكاديت بانتقادات حازمة وكسب ممثلي الفلاحين - التروودوفيك - "لتصليبهم" وتعميق القطيعة بينهم وبين الكاديت. وبينما شن لينين، في كل مقالاته وكل خطباته في ذلك الوقت، حرباً لا هوادة فيها ضد البلاهة البرلمانية، فقد وضع المناشفة كل آمالهم على مجلس الدوما. لكنه عندما تحدث ساخراً من توقعات أكسلرود المبالغ فيها من مجلس الدوما، فإنه لم يشير إلى تكتيك المقاطعة نفسه. وهذا أمر معبر. من الواضح أنه حافظ على تحفظاته السابقة، لكنه شعر بأنه مقيد بالاكراهات التكتيلية التي منعتها من التعبير عن آرائه علناً. تحمل كراسين مهمة طرح قضية المقاطعة أمام المندوبين، لكن المناشفة استخدموا أغلبيتهم. وأخيراً صوت المؤتمر بالموافقة على السماح للحزب بالمشاركة في انتخابات مجلس الدوما.

لكن البلاشفة كانت لديهم مشاكلهم الخاصة. فقد تبناوا موقفاً غير صحيح بخصوص مجلس الدوما، وعارضوا إنشاء فريق برلماني اشتراكي ديمقراطي. يمكننا أن نرى في هذه الجزئية بوادر النزعة اليسراوية المتطرفة في البلشفية -البلاهة المعادية للبرلمانية- التي كانت الصورة المقابلة للأوهام البرلمانية والقانونية عند المناشفة. وخلافاً للاتهامات التي توجه للينين عادة لنزعتهم "العصبوية" المزعومة وميلهم للتقسيم، فإنه قد دافع باستمرار عن وحدة الحزب. وعندما وجه له الاتهام خلال المؤتمر بكونه قال إنه من المستحيل بالنسبة للبلاشفة والمناشفة العمل معاً في حزب واحد، رفض لينين الاتهام بسخط وقال: «ليس صحيحاً القول بأنني "دعمت" بيان الرفيق فورويوف القائل بأن البلاشفة والمناشفة لا يمكنهم أن يعملوا معاً داخل حزب واحد. لم يسبق لي بأي شكل من الأشكال "دعم" مثل هذا القول، ولا أشارك هذا الرأي على الإطلاق»<sup>2</sup>.

بشكل عام، لا بد من القول إن البلاشفة تصرفوا وهم أقلية أفضل بكثير من الطريقة التي تصرف بها المارتوفيون عندما كانوا أقلية في المؤتمر الثاني. وعلى عكس المارتوفيين في عام 1903، قبل لينين بنزاهة بموقعه كأقلية داخل اللجنة المركزية، التي سيطر عليها المناشفة بشكل كامل. وكان المعطى الجديد بالنسبة لهذه اللجنة المركزية هو حضور ممثلين عن المنظمات الاشتراكية الديمقراطية القومية لأول مرة: البولنديون، الذين مثلهم كل من فارسي وديزجينسكي؛ واللتوانيون ممثلين من طرف دانيشيفسكي؛ والبوند يمثلهم ابراموفيتش وكريم. وهكذا فبالرغم من تمكن المناشفة، ولو مؤقتاً، من تحقيق الانتصار في هذا المؤتمر، الذي عقد في ظل ظروف تجميع الردة الرجعية لقواها، فقد كانت هناك بعض الانتصارات الصغيرة. ففيما يتعلق بقوانين الحزب، تم قبول مشروع لينين للفقرة الأولى لتلك القوانين، وتم أساساً تبني مبادئ المركزية الديمقراطية. في الحقيقة لم تكن تلك مسألة مثيرة للجدل، بل تم اعتبارها بديهية، ليس فقط من قبل البلاشفة، بل أيضاً من جانب المناشفة (الذين كانوا يشكلون الأغلبية!). وكانت هناك بعض الخلافات حول القضايا التنظيمية، لكنها لم تؤد إلى أي مشاكل خطيرة. أصر البلاشفة على أن نظام المركزين (الوجود الموازي للجنة مركزية ولجهاز مركزي) قد تجاوز مدة صلاحيته. لكن المناشفة نجحوا في الحفاظ عليه، وحرصوا على ممارسة سيطرة كاملة على هيئة التحرير، والتي كانت تتألف حصراً من المناشفة (مارتوف ومارتينوف وماسلوف ودان وبوتريسوف)، بينما منحوا للأقلية البلشفية ثلاثة مقاعد داخل اللجنة المركزية.

شكل المؤتمر الرابع، من بعض النواحي، خطوة إلى الأمام، لا سيما في تمكين الحزب من إدماج منظمات العمال من قوميات

1: Trotsky, Stalin, p: 72.

2: LCW, Unity Congress of RSDLP, Written Statement at the Twenty-sixth Session of the Congress, vol. 10, p: 309.

أخرى. وفي تقريره إلى المؤتمر، الذي سبقت الإشارة إليه أعلاه، قال لينين ما يلي: «عند تلخيص أعمال المؤتمر والأثر الذي كان له على حزبنا، علينا استخلاص الاستنتاجات الرئيسية التالية: كانت النتيجة العملية المهمة التي حققها المؤتمر هي مقترح (تحقق جزئياً بالفعل) الاندماج مع الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية القومية. هذا الاندماج سوف يقوي حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، وسوف يساعد على طمس آخر بقايا عادات الحلقات الصغرى القديمة، وسوف يبث روحاً جديدة في عمل الحزب، وسوف يقوي بشكل كبير موقف البروليتاريا بين جميع شعوب روسيا».

وأضاف: «وكانت النتيجة العملية المهمة هي اندماج مجموعات الأقلية والأغلبية. لقد تم إنهاء الانقسام. يجب أن تكون البروليتاريا الاشتراكية الديمقراطية وحزبها موحدان. وقد تم القضاء كلياً تقريباً على الخلافات حول التنظيم»<sup>1</sup>.

انضم الاشتراكيون الديمقراطيون البولنديون والليتوانيون إلى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ووضعت الأسس من أجل الوحدة مع الاشتراكيين الديمقراطيين اللاتيفيين. كما وضعت الأسس لانضمام البوند أيضاً للحزب، لكن المؤتمر رفض بشدة فكرة تنظيم الطبقة العاملة على أسس قومية. وفي وقت لاحق من العام (غشت) صوت البوند لصالح الانضمام إلى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي. وقد علق لينين قائلاً: «لقد أصبح حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، أخيراً، حزباً لكل روسيا وموحداً حقاً. صار عدد أعضاء حزبنا الآن أكثر من 100.000. كان منهم ممثلون في مؤتمر الوحدة، إضافة إلى حوالي 26.000 اشتراكي ديمقراطي بولندي، وحوالي 14.000 اشتراكي ديمقراطي لاتيفي وحوالي 33.000 اشتراكي ديمقراطي يهودي».

الأرقام التي ساقها لينين أكدت صحيفه الكاديت، "توفاريتش"، التي قدرت العدد الإجمالي للأعضاء المسجلين في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، في أكتوبر 1906، بنحو 70.000. يشمل هذا الرقم كلا من البلاشفة والمناشفة. ويجب أن يضاف إلى ذلك 33.000 آخرين من البوند، بالإضافة إلى 28.000 من الاشتراكيين الديمقراطيين البولنديين و13.000 من الاشتراكيين الديمقراطيين الليتوانيين<sup>2</sup>.

ومع ذلك، فإن الأرقام المثيرة للإعجاب المذكورة أعلاه لا تكشف عن القصة كلها. تخبرنا أرقام النمو في العضوية عن الفئات المتقدمة من العمال والشباب، لكنها لا تخبرنا عن الوضع بين الجماهير. كانت هزيمة دجنبر نقطة تحول بالنسبة للطبقة العاملة. في الواقع، على الرغم من أن حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي استمر في النمو، فإن تأثيره في الجماهير كان قد بدأ في التراجع. خلق الإرهاق مزاجاً من اللامبالاة والتشاؤم. وعلى الرغم من أن الحركة استمرت تسير لفترة بفعل قوة الدفع الخاصة بها، فإن آمال لينين بحدوث انتعاش قريب للحركة الثورية لم تكن تتوافق مع الوضع الحقيقي. قال تروتسكي: «إنه [أي حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي] استمر في النمو في العضوية. لكن تأثيره بين الجماهير تراجع. لم يعد في إمكان مائة مناضل اشتراكي ديمقراطي أن يقودوا من العمال في الشوارع ما كان في مقدور عشرة من الاشتراكيين الديمقراطيين قيادته في العام السابق»<sup>3</sup>.

## انتفاضة الفلاحين

انتقل مركز النشاط الثوري من المدينة إلى القرية. وفي أبريل سجلت 47 حالة من الاضطرابات الفلاحية؛ و160 في ماي؛ لكن وبحلول يونيو ارتفع الرقم إلى 739. كان هذا الرقم قريباً من أعلى رقم سجل في خريف 1905. نصف روسيا الأوروبية، وخاصة منطقة الفولغا، حيث كانت تقاليد ستينكا رازين وبوغانشوف ما تزال متقدة في ذاكرة الموجهين، ومنطقة الأرض السوداء الوسطى، وأوكرانيا وبولندا وتامبوف ومناطق أخرى، كانت كلها تشتعل بلهب الثورة. هرب الملاكون الكبار من ممتلكاتهم عندما شكل العمال الزراعيون المتمردون لجان الإضراب في القرى. ومن النتائج الحتمية لثورة الفلاحين تصاعد أعمال حرب العصابات، التي هي النمط التقليدي لنضال الفلاحين. كانت هذه الأنشطة شائعة بوجه خاص في لاتفيا ("أخوة الغابات") وجورجيا ("المئات الحمراء"). شكل هذا الوضع خطراً مميتاً على النظام القيصري، الذي كانت نقطة دعمه الرئيسية هي فئة ملاك الأراضي الإقطاعيين، التي كانت الهدف الرئيسي لغضب وكراهية الجماهير المحرومة. وكان هناك سبب آخر للخوف من التمرد في القرى. إذ على الفور وجدت ثورة الفلاحين صدى لها في الجيش، حيث مزاج الغضب السائد بين صفوف الجنود، المحبطين بسبب الهزيمة والذي تأثروا بمثال العمال في المدن، أعرب عن نفسه في موجة جديدة من التمرد والانتفاضات.

1: LCW, *Report on the Unity Congress of the RSDLP*, vol. 10, p: 376.

2: L. Schapiro, *History of the CPSU*, p: 72.

3: Trotsky, *Stalin*, p: 88.



في ظل تلك الظروف كانت السياسة العسكرية للحزب ما تزال تضطلع بدور رئيسي، وكذلك سياسته الزراعية، وهو ما استوعبه لينين بوضوح. وقد كان لدى حوالي 50 لجنة من لجان الحزب منظمات ومجموعات عسكرية خاصة. وفيما يتعلق بالمنظمة العسكرية للحزب في موسكو، كتب بياتنيتسكي: «كان هناك مكتب فني عسكري مرتبط بلجنة موسكو؛ كان هذا المكتب مسؤولاً عن اختراع واختبار وإنتاج الأسلحة البسيطة، بكميات كبيرة، كلما دعت الضرورة، بما في ذلك القنابل؛ وبهذا كان المكتب مشغولاً طوال الوقت. كان المكتب الفني العسكري معزولاً تماماً عن منظمة موسكو، وكان مرتبطاً بلجنة موسكو فقط من خلال أمين اللجنة»<sup>1</sup>.

غير أن أقوى المنظمات العسكرية كانت في بيتسبورغ. وحسب ليونارد شابيرو، فإن الحزب كان ما يزال «يحتفظ بشبكة واسعة من المنظمات بين الجنود، وينشر ما يقرب من 20 دورية وصحيفة غير شرعية للجنود»<sup>2</sup>. وقد تم القيام بالتحريض بين صفوف الجيش والبحرية بمنشورات خاصة مثل *Kazarma* (المتراس) و *Soldatskaya Zhizn* (حياة الجنود). قام الحزب بحملة نشطة بين مجندي الجيش طالبا منهم ألا يطلقوا النار على إخوانهم العمال، بل أن يلتحقوا بهم ويحملوا سلاحهم إلى جانبهم. شهد شهر مارس 1906 المؤتمر الأول للمنظمات العسكرية والقتالية. لكن جميع المندوبين تعرضوا للاعتقال منذ اليوم الأول. عقد أول مؤتمر حقيقي في 16 نوفمبر 1906، في مكان آمن نسبياً بتامرفور في فنلندا. وعلى الرغم من أن لينين كان يأمل بالتأكيد أن توفر الحركة في القرى الشرارة التي من شأنها أن تشعل الثورة، فإنه طالب باستمرار الحذر ضد التسرع وضد المغامرة، ورؤية المخاطر التي ينطوي عليها أي تحرك سابق لأوانه وسيء الإعداد. دائماً ما كان تفائل لينين الثوري مختلطاً بجرعة صحية من الواقعية، استناداً إلى تقييم متعمق للوضع. لم يكن أبداً ليخطر على باله إطلاق شعار شن حرب العصابات من طرف أقلية، وهو الشعار الذي أصبح موضة في وقت لاحق وأدى إلى الهزيمة تلو الهزيمة، وخاصة في أمريكا اللاتينية.

كان تكتيك حرب العصابات، مثله مثل أي تكتيك آخر، يخضع دائماً بشكل صارم لاحتياجات الحركة الجماهيرية للطبقة العاملة. هذا لا يعني أن البلاشفة أهملوا العمل بين الفئات الأخرى، مثل الطلاب والفلاحين، بل على العكس تماماً لقد حاول الحزب القيام بالعمل بين الفلاحين. قال بياتنيتسكي إن مطبعة الحزب غير الشرعية في موسكو نشرت، في ثمانية أشهر فقط خلال 1906، أربع منشورات موجهة إلى الفلاحين بإجمالي عدد نسخ وصل 140.000 نسخة، بالإضافة إلى 20.000 نسخة أخرى للبرنامج الزراعي للحزب. وكان الهدف ما يزال هو الانتفاضة المسلحة.

كتب بياتنيتسكي: «قام كل عمل منظمة موسكو، في عام 1906 والنصف الأول من عام 1907، على التقريب بين جماهير البروليتاريا وحركة الفلاحين، من أجل شن الكفاح المسلح ضد القيصرية»<sup>3</sup>.

ومع ذلك فقد ظل تأثير الحزب بين الفلاحين ضعيفاً. واستمر صدى الدعاية الاشتراكية الديمقراطية ضعيفاً بين الفلاحين إلى حدود عام 1917. كان التعاطف السياسي للغالبية العظمى من الفلاحين، في حالة وجود أي تعاطف سياسي، متجهاً إلى هذا الحزب أو ذاك من أحزاب «الناوردنيك»، إما الحزب الاشتراكي الثوري، أو إلى حد أكبر، حزب التروودوفيك. لقد كانت هذه هي الفئة التي حاول الاستبداد أن يكسبها بوعود الإصلاح الزراعي. انعقد المؤتمر الأول للاشتراكيين الثوريين ما بين 29 دجنبر 1905 و4 يناير 1906. وقد كان الخط السياسي هو ذلك الخليط الانتقائي المعتاد من الاشتراكية الطوباوية (النظرة المثالية للكمونة الفلاحية - *Obshchina* - التي من شأنها أن تسمح لروسيا بتجاوز الرأسمالية وتأسيس «الاشتراكية في بلد واحد»، في تحد لقوانين التطور الاجتماعي والاقتصادي) والنزعة اليسراوية المتطرفة. كان لدى الاشتراكيين الثوريين الوهم بأنه يمكن للكمونة الفلاحية أن تشكل أساساً للاشتراكية في روسيا، ولم يدركوا أنها كانت أساس الاستبداد القيصري، كما يشير عضو التروودوفيك كيرنسيكي: «من خلال مطالبتهم بمبدأ «التأميم» أو «مشركة» (socialization) الأرض، كان الناوردنيون على يقين من أن الفلاحين سينتقلون بسهولة من النظام الكوموني إلى النظام التعاوني لحيازة الأراضي. إلا أنه في الواقع كان للكمونة الفلاحية في ذلك الوقت شبه قليل مع الكومونة المثالية كما تصورها أنصار التفوق السلافي والناوردنيون. من الناحية الإدارية كانت الكومونة ملائمة جداً للمراقبة البوليسية - كما قال وايت - لأنها تبقي الفلاحين تحت المراقبة مثل الأطفال الصغار. وأيضاً من أجل تحصيل الضرائب، لأن المتخلفين عن الدفع كان بقية أعضاء الكومونة يدفعون عوضهم على أساس تناسبي. لقد حولت السلطات الكومونة إلى حصن للتخلف الاقتصادي واستنزفت

1: O. Piatnitsky, *Zapiski Bol'shevika*, p: 104.

2: Schapiro, *History of the CPSU*, p: 99.

3: O. Piatnitsky, *Zapiski Bol'shevika*, p: 106.

تدرجياً حيويتها. وعلاوة على ذلك، كانت العضوية الإلزامية في الكومونات نقطة حساسة دائماً بين الفلاحين أنفسهم»<sup>1</sup>.

إن الأسئلة التكتيكية التي شغلت اهتمام لينين ورفاقه آنذاك: مقاطعة الانتخابات وحرب العصابات وما إلى ذلك، كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمنظور إحياء الثورة وإمكانية أن تعطي حركة الفلاحين دفعة لحركة العمال في المدن. كانت المناقشات النظرية التي جرت في المؤتمر الرابع بشأن المسألة الزراعية انعكاساً شاحباً لواقع متفجر. لقد كان تمرد الفلاحين في تصاعد. وشهراً بعد شهر ازدادت حدة الانفجارات العنيفة في القرى من حيث العدد والشدة. ولجميع هذه الأسباب اكتست المسألة الزراعية بشكل حتمي أهمية أساسية في أنشطة مجلس الدوما.

من أجل تحقيق التصفية الكاملة للحركة الثورية، جمعت القيصرية بين القمع الدموي وبين الخداع، من خلال تقديم قانون انتخابي جديد وسع قليلاً حق الانتخاب، في حين استمر يستبعد أكثر من 50% من السكان البالغين: النساء وجميع من هم دون سن 25 عاماً واللذين في الخدمة العسكرية، وعمال المصانع الصغيرة والفلاحين المعدمين، وغيرهم. وفي 23 أبريل نشرت القواعد الانتخابية الجديدة. تمت صياغة قانون الانتخابات لصالح كبار الملاكين العقاريين بشكل وقح. في القرى كان هناك ناخب واحد من الملاكين لكل 2.000 من السكان، في حين أن النسبة للفلاحين كانت هي 01 لكل 7.000 فلاح، وللعمال 01 لكل 90.000. ففي مقاطعة بيرم، على سبيل المثال، كان صوت الملاك العقاري الواحد يعادل 28 من الفلاحين و56 من العمال. كما أن نظام التصويت كان غير مباشر، مع وجود نظام معقد من لجان الاقتراع التي شكلت "لتمثيل" مختلف الكيانات الاجتماعية: العمال والفلاحين والملاكين العقاريين الذين يصوتون "لمنتخبين"، هم من سيختارون بعد ذلك أعضاء مجلس الدوما. يقول كيرنسكي في مذكراته عن القوانين الانتخابية: «كان القانون الانتخابي الجديد معقداً، وينتهك كل شرائع الإجراءات الديمقراطية. تم انتخاب النواب من طرف المقاطعات التي تتألف من مندوبين يتم اختيارهم بشكل منفصل من قبل أربع مجموعات: ملاك الأراضي والسكان الحضريون والفلاحون، وعمال المصانع في بعض المناطق القليلة. تم انتخاب النواب الإلزاميين لمجلس الدوما من كل قرية، وانتخب باقي النواب من قبل المجموعة الإقليمية»<sup>2</sup>.

وفي حين كان الملاكون الإقطاعيون يسيطرون على الأمور، تم منح الفلاحين مركزاً متميزاً نسبياً مقارنة مع العمال. وبأسلوب بونابارتي نموذجي، حاول النظام الاستناد على الفلاحين (وخاصة الفلاحين الأغنياء أو "الأقوياء") ضد الطبقة العاملة. وبالتالي كان تمثيل الفلاحين في الدوما مرتفعاً نسبياً: حوالي 45% من المقاعد. كان ذلك يعكس وعي الاستبداد بعزلته الاجتماعية، ورغبته العارمة في الحصول على قاعدة صلبة من الدعم الجماهيري بين الفئات الأكثر محافظة بين سكان الريف. كان القيصر منذ القدم يعتبر بمثابة "الأب"، *Batyushka*، للشعب، وهو الوهم الذي كان يتبناه الموحجيك الروسي تقليدياً، والذي، في وقت الحاجة، كان يتهدد قائلاً: "*Bog vysoko; tsar' daleko*" ("الله في السماء، والقيصر بعيد جداً"). وتظهر مذكرات نيكولا الثاني أنه هو نفسه كان مقتنعاً بأن "الشعب" (أي الفلاحين) كانوا يعشقونه حتى اللحظة التي أطاحوا به وبسلالته. يوم 09 يناير 1905، فصلَ خط مرسوم بالدم بين النظام الاستبدادي وبين الطبقة العاملة في المدن. وظل حلم إقامة حصن حول النظام الملكي مكون من طبقة مخصصة من صغار الفلاحين، يشكل روح ومضمون الردة الرجعية التي قادها ستولييين. لكن من خلال تمكينه للفلاحين من إسماع صوتهم في الدوما، وإن بطريقة مشوهة، خلق الاستبداد، عن غير قصد، السوط الذي سيُجلد به وقدم للجناح الاشتراكي الثوري منبراً يمكنه استغلاله. وبالإضافة إلى نظام الامتيازات، كانت حقوق الدوما مقيدة بشدة. لم يكن من الممكن مناقشة أجزاء من الميزانية. فالقروض والعملات كانت من اختصاص وزير المالية وحده. وكان الجيش وقوات البحرية، بطبيعة الحال، تحت السيطرة الشخصية للقيصر. وتم توسيع مجلس الوزراء، الذي حتى ذلك الحين كان العاهل هو من يعينه، ليشمل عدداً متساوياً من الوزراء المنتخبين، وتحول تحت اسم مجلس الشيوخ إلى غرفة عليا لها حقوق متساوية مع مجلس الدوما! كان هذا العمل من ابتكار الكونت وايت، الذي أظهر أيضاً عن فائدته للقيصر من خلال تفاوضه للحصول على قرض كبير من فرنسا.

## المقاطعة أم عدم المقاطعة؟

في مؤتمر تمرفورس البلشفي، الذي انعقد في حين كانت انتفاضة موسكو تقترب من نهايتها الدموية، ناقش القادة البلشفية الموقف الذي عليهم اتخاذه من الانتخابات المقبلة لمجلس الدوما. كان المزاج العام يؤيد بأغلبية ساحقة موقف المقاطعة، لكن

1: Kerensky, *Memoirs*, p: 96.

2: *Ibid.*, p: 84.

لينين كان حذرا. وعند التصويت، صوت اثنان ضد اقتراح المقاطعة، وهما لينين وغوريف. أثار ذلك موجة من السخط من جانب المندوبين الآخرين، مما أجبر لينين على التخلي عن معارضته. لم تكن تلك هي المرة الأولى أو الأخيرة التي أجبر فيها لينين على أن يأخذ في الاعتبار مزاج الفئة القيادية داخل حزبه ضد موقفه الأفضل. وقد استقبل موقفه الجديد بتصفيق عاصف، على الرغم من أنه قال ساخرا بأنه تراجع "بنظام عسكري كامل".<sup>1</sup>

كان المقاطعون يشكلون أغلبية بين تلك الفئة من أعضاء اللجان، بمن فيهم ستالين الذي كان آنذاك يحضر اجتماعه الأول للحزب في الخارج، والذين اعتبروا أن معرفتهم العملية بالوضع داخل روسيا كانت كافية لوضعهم في مستوى متفوق على منظري الحزب، بمن فيهم لينين نفسه. وفي جلسة أخرى صوت مؤتمر تمرفورس لصالح إعادة توحيد صفوف الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي. توجب عقد مؤتمر رابع للحزب، واتخاذ التدابير الأولية فورا لتوحيد التيارين على أساس التكافؤ. كان على اللجان المحلية أن توحد أنشطتها، وأن تنتخب اللجان في كل مكان من الأسفل وأن تكون مسؤولة أمام القواعد. ومع ذلك، ينبغي تطبيق المركزية الديمقراطية، حيث أنه مجرد انتخابها، ينبغي أن تمنح للجان "كامل السلطة في مسألة القيادة الأيديولوجية والعملية".<sup>2</sup>

ومباشرة بعد ذلك، عقدت اجتماعات بين ممثلي كلا التيارين، حضرها كل من لينين ومارتوف، لتذليل العقبات أمام الوحدة وعقد المؤتمر الرابع للحزب. وفيما يتعلق بمقاطعة مجلس الدوما، تبنى المناشفة موقف المقاطعة، الذي طرحه البلاشفة بإصرار. لقد كانوا ما يزالون تحت تأثير الأحداث الأخيرة، وكانوا هم أنفسهم، على أي حال، فاقدين للثقة في الدوما. لكن مع اقتراب موعد المؤتمر كانوا قد بدأوا يبدون. بعد هزيمة دجنبر كان من الضروري بلا شك إعادة النظر في تكتيكات الحزب لمراعاة الوضع الجديد. فبعد الفشل في القضاء على الأعداء عن طريق الهجوم المباشر، كان من الضروري اللجوء إلى تكتيكات الحصار، والاستفادة من جميع الإمكانيات القانونية لحشد العمال حول البرنامج الثوري. ومقاطعة البرلمان في مثل هذه الظروف كان خطأ فادحا. وفي هذا السياق قال تروتسكي إنه لا يجوز مقاطعة المؤسسات التمثيلية إلا إذا كانت الحركة الجماهيرية قوية بما يكفي للإطاحة بتلك المؤسسات أو تجاهلها، لكن عندما تتراجع الجماهير فإن تكتيك المقاطعة يفقد معناه الثوري.<sup>3</sup>

كانت هناك نقاشات داخلية حادة حول التكتيكات فيما يتعلق بمسألة المقاطعة. وقد بينت هذه النقاشات بشكل جلي الفجوة التي تفصل بين البلشفية والمنشفية. فالمناشفة يميلهم الطبيعي نحو الانتهازية سرعان ما استنتجوا أن الثورة قد انتهت وأن الوقت قد حان للانتقال إلى الساحة البرلمانية. لكنهم واجهوا صعوبة كبيرة في إقناع قواعد الحزب. كما رفضوا في البداية المشاركة في الانتخابات، ولكنهم غيروا موقفهم إلى تبني موقف "شبه مقاطع"، والذي يرتبط بشعار "الحكم الذاتي الثوري"، الذي لا معنى له. لقد ندد لينين باحتقار بتذبذبهم، وقال: "إنهم لا يؤمنون بالثورة ولا يؤمنون بالدوما". أما بليخانوف، الذي كان قد انتقل إلى الجناح اليميني من المناشفة، فقد دعا إلى المشاركة دون تحفظ.

وعلى الرغم من القمع الشرس المتزايد، كان الحزب ما يزال قادرا على العمل. كانت الاجتماعات ما تزال تعقد، حيث كانت المسائل التكتيكية موضع نقاش ساخن. وكان المزاج العام لأعضاء الحزب ما يزال معارضا بشدة للمشاركة في انتخابات مجلس الدوما في هذه المرحلة. في 11 فبراير، خلال اجتماع حزبي موحد في بيتسبورغ، جمع البلاشفة والمناشفة، سير لينين النقاش حول موقف الحزب من الدوما. دان ومارتوف، اللذان تحدثا باسم المناشفة، تبنيا موقف المعارضة. ووافق اجتماع ثان على موقف لينين المتمثل في "المقاطعة النشطة". وفي السنوات اللاحقة اعترف لينين بنزاهة بأن هذا الموقف كان خطأ، لكنه في ذلك الوقت كان يعكس بلا شك المزاج السائد بين المناضلين. كانت الطبيعة الرجعية للدوما واضحة، ليس فقط بالنسبة للبلاشفة بل بالنسبة لغالبية الاشتراكيين الديمقراطيين. ويبدو أن مزاج غالبية الاشتراكيين الديمقراطيين في جميع أنحاء البلاد كان يميل بشدة إلى المقاطعة. لم تكن حمم الثورة قد هدأت بعد، وبالتالي ليس فقط البلاشفة، بل أيضا الاشتراكيين الديمقراطيين البولنديين واللاتفيين والليتوانيين، بل وحتى البوند، المحافظين بطبيعتهم، تبنوا تكتيك المقاطعة. وكان أغلب المناشفة مترددين. لكن مزاج مناصلي الحزب هذا كان غير متوافق مع مزاج الجماهير.

وفيما يتعلق بالخلاف حول المشاركة في انتخابات الدوما في عام 1906، تتذكر إيفا برويدو كيف اصطدم الحزب بشكل غير متوقع تقريبا بالموقف من مجلس الدوما: «كان البلاشفة ضد المشاركة بينما كان المناشفة مع المشاركة. واتفقوا في النهاية على أن يشارك الحزب فقط في المرحلة الأولى من الانتخابات (لم يكن هناك تصويت مباشر). وبهذه الطريقة كان الحزب يأمل في استغلال

1: Robert Service, Lenin, a Political Life, p: 149.

2: KPSS v rezoluitsiakh, vol. 1, p: 136.

3: Trotsky, Stalin, p: 98.

الانتخابات لأغراض الدعاية والتحريض، ولا سيما بين العمال. لكن في الممارسة سارت الأمور بشكل مختلف. ففي المناطق التي كان للمناشفة فيها أغلبية كبيرة، كما في القوقاز، ذهب الحزب بعيداً في الانتخابات وأوصل عدة أعضاء إلى الدوما. وبالإضافة إلى ذلك، انضم العديد من الأعضاء، الذين انتخبوا كمستقلين، إلى الاشتراكيين الديمقراطيين. وهكذا صار الحزب ممثلاً في مجلس الدوما وكان عليه أن يحدد موقفه إزاء الأحداث السياسية الراهنة».

وتضيف: «وعلاوة على ذلك، وبشكل متعارض مع توقعات البلاشفة، أصبح الدوما بسرعة محط اهتمام الجماهير، حتى بين الطبقة العاملة. ولم يعد ممكناً ببساطة تجاهل الدوما، وكنا نحن المناشفة مقتنعين بأنه يجب علينا أن نستفيد إلى أقصى حد ممكن من هذه الفرصة للدفاع العلني عن رسالتنا الاشتراكية أمام البلد بأسره»<sup>1</sup>.

في ربيع 1906، أجريت الانتخابات لأول دوما. وبالنظر إلى الانفتاح الواسع نسبياً الذي قدمه بيان أكتوبر، كانت هناك إمكانية للقيام بحملة ناجحة من جانب الاشتراكيين الديمقراطيين. وموجب ذلك النظام، كما رأينا، كان العمال يصوتون بشكل منفصل من خلال نظام اللجان الانتخابية المعروفة باسم "الجماعة"، والتي كانت تنتخب الممثلين على النحو التالي: أجريت الانتخابات على ثلاث مراحل: أولاً ينتخب العمال ممثلهم على مستوى المصنع؛ ثم ينتخب هؤلاء الآخرون "الناخبين"؛ وأخيراً ينتخب "الناخبون" نواب مجلس الدوما. كانت المصانع التي تشغل من 50 إلى 1.000 عامل تنتخب ممثلاً واحداً. بينما كانت المصانع الكبيرة تنتخب ممثلاً واحداً لكل 1.000 عامل، واستبعدت المصانع التي يقل عدد العاملين فيها عن 50 عاملاً. ومن المفارقات أن كون الانتخابات غير مباشرة، والذي كان في حد ذاته إجراء غير ديمقراطي، قد أعطى الاشتراكيين الديمقراطيين فرصة لم يكونوا ليتمتعوا بها في ظل نظام تصويت أكثر طبيعية، لأنهم تمكنوا من تركيز طاقتهم في حملة جماعات العمال، التي هي "أوساطهم الطبيعية".

استند موقف البلاشفة على توقع حدوث تحول ثوري جديد وشيك. لكن ذلك كان خطأً في قراءة الوضع. فهم العمال الأكثر تقدماً الحاجة إلى حزب ثوري، لكن الجماهير كانت تغرق بشكل متزايد في اللامبالاة والسلبية. ومن الحقائق الراسخة أن مزاج الفئة الأكثر نشاطاً والأشد كفاحية يمكن أن يكون في كثير من الأحيان متناقضاً مع مزاج باقي الطبقة. يمكن للفئة الطليعية أن تتحرك أبعد جداً عن بقية الطبقة. وهذا خطأ فادح في الصراع الطبقي مثلما هو خطأ في التكتيكات العسكرية. إذا سارت الفئة الطليعية بعيداً جداً وفقدت الاتصال مع المؤخرة، تصبح مكشوفة على نحو خطير وتتعرض لخطر السحق. يصدق هذا أيضاً وبنفس القدر عندما تسيء الفئة الأكثر كفاحية، بسبب نفاذ الصبر، تقييم مزاج العمال، أو تخلط بين مستوى وعيها وبين مستوى وعي الأغلبية. وذلك ما حدث في هذه الحالة.

كان البلاشفة قد أساءوا تقييم الوضع، ولم يتمكنوا من تقدير أن الثورة كانت في تراجع. وكما هو الحال في الحرب، فحتى خلال الثورة أو حتى إضراب، من الضروري أن نكون قادرين على التراجع بشكل منظم عندما يتطلب الوضع ذلك. إن الدعوة إلى التقدم عندما تتطلب الظروف الموضوعية التراجع هو وصفة للكارثة. وفي تلك الحالة لم يسفر تكتيك المقاطعة النشطة عن أي تأثير. لم تكن الطبيعة الحقيقية للدوما واضحة بأي حال من الأحوال للجماهير. وكانت الأوهام الدستورية قوية بشكل خاص بين الفلاحين الذين آمنوا بأنهم سيحصلون على الأرض. لكن انتصار الثورة المضادة وانحسار الحركة الجماهيرية كان يعني بالنسبة لفئات واسعة من الجماهير البرجوازية الصغيرة الحضرية والفلاحين وحتى لقسم من الطبقة العاملة، أن الدوما هي الأمل الوحيد، وإن كان أملاً ضعيفاً، لتحسين الأوضاع. حقيقة أن هذه الآمال كانت بدون أي أساس لم تجعلها أقل رسوخاً.

وطالما واصل لينين الاعتقاد باقتراب حدوث تحول ثوري جديد، فقد وضع كل تركيزه على هدف الانتفاضة المسلحة، وكتب في أكتوبر 1906: «يجب على الحزب الاشتراكي الديمقراطي الثوري أن يكون أول من يأخذ مكانه في النضال الأكثر حزمًا والأكثر مباشرة وآخر من يلجأ إلى طرق النضال غير المباشرة».

وبعبارة أخرى، إن موقفه من المشاركة حتى في أكثر البرلمانات رجعية لم تكن تمليه مبادئ مجردة أو دوغمائية، بل تمليه حاجيات الثورة. وطوال الفترة الممتدة من 1906 حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، كانت مسألة ما إذا كان يجب على الاشتراكيين الديمقراطيين المشاركة في انتخابات الدوما القيصرية، المنتخبة على أساس ما وصفه لينين بأنه أكثر القوانين الانتخابية رجعية في أوروبا، في قلب الجدل الذي هز الحزب حول التكتيكات والإستراتيجية. بعد سنوات، وفي كتابه الكلاسيكي "مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية"، شرح لينين موقفه في ذلك الوقت: «فعندما أعلن القيصر، في غشت 1905، عقد "برلمان" استشاري، أعلن البلاشفة مقاطعته -على النقيض من جميع الأحزاب المعارضة ومن المناشفة- وبالفعل كنست ثورة أكتوبر 1905 ذلك "البرلمان". كانت

1: E. Broido, Memoirs, pp: 130-131.

المقاطعة آنذاك موقفاً صحيحاً، وذلك ليس بسبب أن عدم الاشتراك في البرلمانات الرجعية بوجه عام هو أمر صحيح، بل لصحة تشخيص الظروف الموضوعية التي كانت تؤدي إلى تحول الإضرابات الجماهيرية بسرعة إلى إضراب سياسي، ثم إلى إضراب ثوري وبعد ذلك إلى انتفاضة. وعلاوة على ذلك كان النضال يجري آنذاك حول ما إذا كانت دعوة أول مؤسسة تمثيلية تبقى في يد القيصر، أو أنه يتوجب بذل الجهد لانتزاعها من يد النظام القديم. وطالما لم تكن، وما كان ممكناً أن تكون، هناك ثقة بتوفر ظروف موضوعية مماثلة، وكذلك بتطورها في ذلك الاتجاه نفسه وتلك السرعة نفسها، فإن المقاطعة لم تعد موقفاً صحيحاً.

لقد أغنت المقاطعة البلشفية "للبرلمان" سنة 1905 البروليتاريا الثورية بخبرة سياسية قيمة جداً، وبينت أنه عند الجمع بين أشكال النضال العلنية وغير العلنية والبرلمانية وغير البرلمانية، يكون من المفيد أحياناً، بل ومن اللازم، الامتناع عن الأشكال البرلمانية. بيد أنه سيكون من أسوأ الأخطاء تطبيق هذه الخبرة تطبيقاً أعمى وعن تقليد ودون تمحيص في ظروف أخرى وموقف آخر. لقد كانت مقاطعة البلاشفة للدوما سنة 1906 خطأً، على الرغم من أنه كان خطأً غير خطير وقابلاً للتصحيح بسهولة. أما المقاطعة في سنتي 1907 و1908 والسنوات التي تلتها فقد كانت خطأً أشد خطورة ومن العسير إصلاحه، لأنه، من جهة، لم يكن ممكناً توقع صعود سريع جداً لموجة ثورية وتحولها إلى انتفاضة، ولأنه، من جهة أخرى، كان كامل الوضع التاريخي برمته، المصاحب لتجديد النظام الملكي البرجوازي، يستدعي ضرورة الجمع بين النشاط العلني وغير العلني»<sup>1</sup>.

وقد عبر تروتسكي عن نفس الموقف قائلاً: «إن المقاطعة هي إعلان حرب صريحة ضد الحكومة القديمة، وهي هجوم مباشر ضدها. لكن في حالة انعدام انتعاش ثوري على نطاق واسع... لا يمكن الحديث عن نجاح المقاطعة». وفي وقت لاحق، في عام 1920، كتب: «لقد كان خطأً... من جانب البلاشفة مقاطعة الدوما في عام 1906». وأضاف: «كان ذلك خطأً، لأنه بعد هزيمة دجنبر كان من المستحيل توقع هجوم ثوري في المستقبل القريب؛ لذلك كان من غير المعقول إهمال منبر الدوما كوسيلة لتعبئة صفوف الثورة»<sup>2</sup>.

وراء كل هذه المناقشة حول مجلس الدوما كان السؤال الأكثر أهمية بكثير هو موقف حزب العمال من الليبراليين. في أعقاب أحداث دجنبر، كانت هناك مؤشرات واضحة على حدوث تحول في مزاج الطبقات المنخرطة في الصراع. أجبر العمال في كل مكان على التحول إلى موقع الدفاع، وأدت أحداث دجنبر أيضاً إلى حدوث تحول حاسم في موقف الليبراليين. كان الكاديت قد أداروا بالفعل ظهورهم للثورة منذ أكتوبر 1905. وقد أدت انتفاضة موسكو إلى اجتثاث أي ذرة تعاطف بقيت لهم مع البروليتاريا الثورية، وظهروا بألوانهم الحقيقية. لقد وقفت البرجوازية صفاً واحداً في معارضة "جنون" دجنبر. ولم تكن هذه طبعاً هي المرة الأولى في التاريخ التي نشهد فيها مثل هذه الظاهرة. فقد حدث نفس الشيء بالضبط خلال ثورة 1848، كما أوضح ماركس وإنجلز.

الموقف التقليدي لليبراليين خلال مرحلة الردة الرجعية هو الدفاع عن الإصلاح للحيلولة دون وقوع الثورة، داعين الدولة إلى "إنقاذ نفسها". وغني عن القول إن هذه النصيحة الحسنة النية قد قوبلت بقهقهات الازدراء من طرف معسكر الأوكتوبريين. ولم يكن نقيب الليبراليين المنافق حول "تجاوزات" الثورة المضادة سوى نصيحة ودية للنظام الاستبدادي حول أفضل طريقة لخنق الثورة. من الواضح تماماً أنه من الأفضل بكثير خنق شخص بطريقة تجعله يصدر أقل قدر ممكن من الضجيج. لكن لكي تتم عملية الخنق، لا يمكن أن يكون هناك رأيان اثنان! كان هذا، في جوهر الأمر، هو الفرق بين قسمة البرجوازية المعادية للثورة. بدأ الكاديت يطلقون على أنفسهم اسم "حزب حرية الشعب"، باعتباره أفضل طريقة لخداع الشعب ووضع حد للثورة التي أرعبتهم. كان الموقف من الكاديت هو الخط الأساسي الفاصل بين الاشتراكيين الديمقراطيين، فالمناشفة دعوا إلى التكتل والاتفاق مع الكاديت داخل الدوما، في حين احتفظ لينين بأقصى قدر من الانتقاد ضد هؤلاء الليبراليين المعادين للثورة.

لم يكن سلوك الليبراليين المضاد للثورة من قبيل الصدفة، فقد كانت البرجوازية الروسية الضعيفة مرتبطة بألف رابط بالارستقراطية الإقطاعية، من خلال الزواج أو الأصل الاجتماعي أو الملكية المباشرة للأرض. ووفقاً لدراسة معاصرة، قام بها ن. أ. بورودين، يظهر تكوين مجلس الدوما بالأرقام، فمن أصل 153 كاديتي في الدوما الأول، كان هناك 92 من النبلاء. ومن بينهم كان هناك ثلاثة ملاكين عقاريين يملكون ما بين 5.000 و10.000 ديسياتين؛ وثمانية ملاكين عقاريين يملكون ما بين 1.000 إلى 2.000 ديسياتين؛ و30 ملاكاً عقارياً يملكون ما بين 500 إلى 1.000 ديسياتين. وهكذا، كان ثلث نواب الكاديت بالفعل ملاكين كبار للأرض<sup>3</sup>. كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يقدموا حلاً للمشكلة الأكثر إلحاحاً التي تواجه روسيا، أي المسألة الزراعية؟ لقد كان الليبراليون في الدوما، وعلى الرغم من

1: LCW, "Left-Wing" Communism: an Infantile Disorder, vol. 31, pp: 35-36.

2: Trotsky, Stalin, p: 93.

3: LCW, vol. 12, p: 532.

احتجاجاتهم "التقدمية"، أقرب إلى النظام القيصري في جميع القضايا الأساسية، مما هم إلى العمال والفلاحين.

لقد انقسم الليبراليون البرجوازيون بالفعل إلى معسكرين داخل الدوما، يمثل "الأوكتوبريون" يمينهم، بينما شكل "اليسار" (الديمقراطيون الدستوريون، أو الكاديت كما أصبحوا معروفين شعبياً). لكن وعلى الرغم من أنهم انشقوا رسمياً إلى "رجعيين" و"ليبراليين"، فإن الاختلافات بينهما كانت شكلية فقط. ففيما يتعلق بالموقف من البروليتاريا الثورية والفلاحين، وقفوا متحدين في كتلة واحدة معادية للثورة تمثل مصالح النظام والملكية الخاصة. وفي حين دعموا بحماس سحق الثورة، فإنهم لم يتورعوا عن التمسك بالحركة الجماهيرية للضغط على النظام لمنحهم بعض التنازلات، لكن ليس عندما تبدأ الجماهير منافستهم على السلطة. إن الليبراليين البرجوازيين الذين كانوا قد باعوا بالفعل روحهم إلى النظام الاستبدادي (بزعيم أنه قد تحول بأعجوبة إلى "ملكية دستورية") سرعان ما أخذوا مكانهم الصحيح في معسكر الردة الرجعية "البرلمانية"، باعتبارهم معارضة جلاله الملك الأوفياء، ومجرد ورقة تين للثورة المضادة. ومنذ ذلك الحين أصبحت مسألة موقف الاشتراكيين الديمقراطيين من الأحزاب البرجوازية المسألة المركزية بالنسبة للثوريين.

### الأوهام البرلمانية

يوم 27 أبريل (10 ماي) 1906، الذي كان يوم صيف حار، افتتح دوما الدولة الأول أبوابه في قصر توريد الرائع. وفي القاعة الفخمة، المليئة بالدوقات ورجال الحاشية والشعارات الملكية، استمع ممثلو الشعب المنتخبون بكل احترام إلى الخطاب الافتتاحي للقيصر نيكولا. أثار هذا المشهد الفسيفسائي، والمتناقض إلى حد ما، انتباه أحد المراقبين الإنجليز الذي خلده للأجيال القادمة: «الفلاحون في معاطفهم السوداء الطويلة، وبعضهم يرتدي الميداليات العسكرية والصلبان؛ الباباوات (أي الكهنة) والتتار والبولنديين، ورجال يرتدون كل أنواع اللباس باستثناء الزي الرسمي... ترى رجالا كبار السن بمعاطف فراء، يبدون "مثقفين" ديمقراطيين بشعرهم الطويل ونظارات الأنف؛ وأسقف بولندي يرتدي زيا أرجواني اللون، يشبه البابا. ورجال دون ياقات. وأعضاء بروليتاريين، رجال بالقمصان الروسية الفضفاضة مع الأحزمة؛ ورجال يرتدون أزياء عصرية غالية الثمن، وآخرون يرتدون زيا يعود إلى قرنين من الزمان... كان هناك عضو بولندي يرتدي جوارب زرقاء خفيفة، وسترة إيتون قصيرة وأحذية هيسيان، لديه شعر مجعد، ويبدو تماما مثل بطل كافاليريا روستيكانا. وهناك عضو بولندي آخر يرتدي معطفا طويلا من الفانيلا البيضاء يصل إلى ركبتيه... وهناك بعض الاشتراكيين الذين لا يرتدون الياقات، وهناك، بالطبع، كل أنواع القبعات التي يمكنك تصورها»<sup>1</sup>.

يظهر بشكل واضح من خلال هذا الاستشهاد التكويني غير المتجانس للغاية لمجلس الدوما. وأخيرا يبدو هنا مقطع حقيقي لفئات المجتمع الروسي التي اجتمعت معا تحت سقف واحد، وعلى استعداد لحل مشاكل المجتمع من خلال النقاش الديمقراطي وحسن النية! لكن وتحت الطلاء البراق والاحتفالية كانت هناك هوة عميقة غير مرئية. عانت أم القيصر من صدمة كبرى لرؤيتها لهؤلاء الناس إلى درجة أنها لم تتمكن من استعادة رباطة جأشها إلا بعد عدة أيام. وقد قالت في وقت لاحق لوزير المالية: «كانوا ينظرون إلينا مثل الأعداء. لم أتمكن من التوقف عن النظر إلى بعض الوجوه التي كانت تعكس كراهية غريبة لنا جميعا»<sup>2</sup>. لم تحقق الأحزاب اليمينية نجاحا كبيرا في الانتخابات، ولم يتم انتخاب سوى 12 من الأوكتوبريين (الليبراليين اليمينيين). بينما استفاد الكاديت من مقاطعة الاشتراكيين الديمقراطيين للانتخابات. وبما أنهم كانوا البديل الوحيد على اليسار، فقد فازوا بـ 184 مقعدا. إن التباس الموقف تجاه انتخابات الدوما كلف الاشتراكيين الديمقراطيين ثمنا باهظا. لقد عمل الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي على مقاطعة الانتخابات، وبعد ذلك، عندما أصبح واضحا أن الجماهير كانت تشارك، سارع إلى تعديل موقفه لكن الأوان كان قد فات لاستعادة الأرض المفقودة. لقد قدم الاشتراكيون الديمقراطيون في الواقع خدمة لحزب الكاديت. لو أن الاشتراكيين الديمقراطيين والاشتراكيين الثوريين عملوا على تقديم مرشحين لتلك الانتخابات، لما كانت نتيجة الكاديت لتكون مثل تلك التي حققها، وهو ما اتضح لاحقا في الانتخابات التالية.

إن التكتيكات الخاطئة للاشتراكيين الديمقراطيين سلمت للكاديت السيطرة الفعلية على الدوما على طبق من ذهب. الكاديت الذين اغتروا بانتصارهم طرحوا على الفور اقتراحا يدعو إلى تشكيل حكومة تكون مسؤولة أمام مجلس الدوما، بدلا من النظام المعمول به والذي يعمل فيه القيصر على تعيين حكومة تكون مسؤولة أمامه وحده. وكان هذا في الواقع مطلباً يعني بأن تنتقل

1: M. Baring, A Year in Russia, London, 191-92, 202. L. Kochan, Russia in Revolution, p: 121.

2: O. Figes, A People's Tragedy, p: 214.

السلطة إلى الكاديت. وبسبب أوهامهم البرلمانية أيد المناشفة مطلب الليبراليين، في حين عارض البلاشفة استعمالهم كلعبة بالبرلمان. لم يكن ذلك المطلوب، حتى من وجهة النظر الديمقراطية البحتة، مطلباً يمكن لأي حزب ثوري يستحق اسمه أن يدعمه. فطالما لم يكن هناك اقتراع متساو ومباشر وشامل في روسيا، فإن مجلس الدوما لم يكن ممثلاً حقيقياً للشعب. ودعم المناورات البرلمانية للكاديت سيخلق الأوهام في أذهان الجماهير بأن مثل تلك الحكومة ستكون أفضل من الحكومات القيصرية غير الديمقراطية السابقة، في حين أن ذلك ليس صحيحاً. كانت البرجوازية لا تريد سوى عقد مساومة مع النظام الملكي، في حين أراد حزب الطبقة العاملة الثوري أن يكتسب ذلك النظام ويستبدله بنظام ديمقراطي حقيقي. كان الهدفان متناقضان وقد عبّرا عن نفسيهما في تكتيكات متناقضة. وقد أدى الصراع حول التكتيكات تجاه الدوما إلى انقسام الحزب الاشتراكي الديمقراطي إلى جناحين: "مع أو ضد حكومة الديمقراطيين الدستوريين؟"، كان هذا هو السؤال الذي طرح في استفتاء داخل الحزب.

وصفت المنشفية إيفا برويدو اجتماعاً نظم في سياق الحملة حول الاستفتاء، في رصيف بناء سفن البلطيق في بيتسبورغ، معقل المناشفة، حيث ألقى لينين خطاباً: «بعد أن افتتح الجلسة أعطيت الكلمة للينين. لقد تحدث بشكل جيد جداً وبثقة كبيرة. وكثيراً ما قوبلت كلماته بالتصفيق. وما فاجئني هو أنه لم يهاجم المناشفة ولو مرة واحدة»<sup>1</sup>.

فقد لينين التصويت بأغلبية كبيرة، 50 إلى 13، لكن هذا الحدث يظهر أسلوبه في الجدل الحزبي، وخاصة عند التعامل مع العمال. اعترفت برويدو بدهشتها، هل كان هذا هو نفسه لينين الذي قطع بحزم مع مارتوف وبلخانوف؟ لكنه في نقاش أمام العمال الذين ما زالوا تحت تأثير المناشفة، "لم يهاجم المناشفة ولو مرة واحدة". يوضح لنا هذا الحدث كثيراً عن أسلوب لينين في الجدل.

على الرغم من أنه لم يتم الاحتفاظ بنص خطاب لينين الذي ألقاه في رصيف بناء السفن، فإنه ليس من الصعب أن نتخيل محتواه. لا بد أنه هاجم، ليس قادة المناشفة، بل العدو الرئيسي، أي الملاكين العقاريين والرأسماليين والنظام القيصري. كان ليوضح أن من يسمون بالليبراليين في الدوما (الكاديت)، قد أداروا ظهرهم للثورة وصاروا يسعون إلى التوصل إلى اتفاق مع النظام القيصري؛ ويدعو العمال إلى الاعتماد فقط على قوتهم الخاصة، وألا يتورطوا في التحالفات والتعامل مع الليبراليين الخونة؛ وكان ليطالب الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي، بأن يتبنى بحزم سياسة الاستقلالية الطبقيّة. كان لينين يعتمد دائماً على قوة حججه وأرقامه وبراهينه من أجل إقناع جمهوره. و فقط بهذه الوسائل كان في نهاية المطاف يكسب الأغلبية إلى صفه، بدءاً من الفئات المتقدمة، ثم الطبقة العاملة ككل. وقد استخدم لينين نفس الأساليب في عام 1917، عندما وجه الحزب البلشفي لكسب الجماهير بشعاره الشهير "اشرب بصبر!".

على الرغم من أن الكاديت كانوا يهيمنون على الدوما، فإنهم لم يكونوا يشكلون أكبر مجموعة برلمانية. كانت هناك، لأسباب سبق شرحها، كتلة كبيرة من نواب الفلاحين، 200 في المجموع. ورأى البعض أن ذلك سيكون عامل استقرار. كان الوهم بخصوص الموجيك "الذي يخاف الله والوفا للقيصر" ما يزال قوياً في أوساط الطبقة السائدة: "شكراً للسماء!" هتف الكونت وبت، "ستكون الدوما مشكلة في أغلبيتها من الفلاحين". لكن هذا التفاؤل كان سابقاً لأوانه. كان الموجيك قد بدأ يكتسب الوعي بمصالحه. ونظم قسم كبير من نواب الفلاحين أنفسهم في ما أسموه "مجموعة العمل" ("ترودوفايا غروباً" أو "الترودوفيك" كما صاروا يعرفون). استوعب لينين على الفور أهمية ذلك. لقد أرسل الفلاحون ممثلهم إلى الدوما ليس لإلقاء الخطب، بل للحصول على الأرض. وكانوا سرعان ما سيكتشفون عملياً أن مجلس الدوما عاجز عن تلبية احتياجاتهم الأكثر إلحاحاً. وفي تلك الأثناء، كان يجب على الاشتراكيين الديمقراطيين أن يحاولوا بكل الوسائل إقامة صلات قوية مع نواب الفلاحين الذين وصف لينين نفسياتهم المتناقضة قائلاً: «[الترودوفيك النموذجي هو فلاح] لا يعارض التوصل إلى اتفاق مع النظام الملكي، للحصول بهدوء على قطعة أرضه الخاصة في ظل النظام البرجوازي. ولكن جهوده الرئيسية في الوقت الحاضر تتركز على النضال ضد كبار ملاكي الأراضي، وعلى الكفاح ضد الدولة الإقطاعية، ومن أجل الديمقراطية»<sup>2</sup>.

كان تكتيك البلاشفة يتمثل في محاولة كسب الترودوفيك وإبعادهم من تأثير الكاديت. لكن مثل هذا التكتيك كان يفترض بالضرورة الاستخدام الماهر للبرلمان. لقد فشل تكتيك المقاطعة، وكان من الضروري تكييف تكتيكات الحزب مع الظروف السائدة وإلا تحول إلى عصابة عاجزة مفصولة عن الجماهير. إن الجمع الماهر بين العمل الشرعي وغير الشرعي، سيمكن من الحصول على أفضل ما في العالمين. يمكن للثوريين الاستفادة من المنابر الشرعية التي ما تزال متاحة، ويكملوا هذا العمل بأنشطة غير شرعية.

1: Eva Broido, Memoirs, p: 132.

2: LCW, An Attempt at a Classification of the Political Parties of Russia, vol. 11, p: 229.

فالأشياء التي لا يمكن قولها على صفحات الصحافة الشرعية ومن منبر الدوما، يمكن طباعتها في الجرائد السرية. كان يمكن نشر التقارير عن عمل النواب الاشتراكيين الديمقراطيين في الدوما على صفحات الجرائد الشرعية، مثل فولنا وفبريود وإكو، التي تفضح الطابع الاحتيالي لهذا البرلمان المزيف وخيانة الليبراليين.

أصبح الدوما بالنسبة للمناشفة مركز الاهتمام. وقد لوحظ هذا الانحراف الإصلاحي على الفور في تصريح الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي داخل الدوما، يوم 16 يوليو، الذي أكد أن الدوما «يمكنه أن يصبح مركز حركة الشعب بأسره ضد الدولة البوليسية الاستبدادية»<sup>1</sup>. وهكذا بدأت سلسلة من الاشتباكات المتواصلة بين البلاشفة والمناشفة حول مسألة الموقف من الدوما. أرسلت اللجنة المركزية التي كان يسيطر عليها المناشفة تعميماً إلى جميع فروع الحزب، طالبة منهم دعم جميع الخطوات التي يتخذها الدوما (أي الكاديت) لاستبدال غورميكين، رئيس مجلس الوزراء، بعضو من الكاديت. احتج البلاشفة بشكل فوري ضد هذا الدعم المقدم لليبراليين في الدوما. والمناشفة على ذلك بأنه من الضروري دعم البرجوازية التقدمية (أي الكاديت) ضد الحكومة. وقد أجاب لينين بأنه على ممثلي الحزب في البرلمان أن يحافظوا على استقلاليتهم التامة عن جميع الأحزاب الأخرى، وخاصة الليبراليين البرجوازيين. قال لهم: «اعتمدوا على قواكم الخاصة. بهذه الطريقة فقط يمكننا أن نكسب الفئات الدنيا المضطهدة من البرجوازية الصغيرة الثورية (التزودوفيك)، وفصلهم بعيداً عن الليبراليين (الكاديت)».

سرعان ما تسببت الطموحات الوزارية عند الكاديت، ورغبتهم الحارقة في إنقاذ النظام الاستبدادي من نفسه، في جعلهم يصطدمون بالحكومة. كانوا في الواقع يقولون للقيصر: انظر، لا يمكنكم الاعتماد على وزراءكم للدفاع عن النظام القديم. إنكم تحتاجون رجالاً جدد، تحتاجون أناساً يتمتعون بثقة الجماهير. فقط نحن من بإمكانه إبقاء الجماهير تحت السيطرة، لكن عليكم أن تتزحزحوا وتتقاسموا السلطة معنا.

لكن النظام القائم في ذلك الوقت كان قد تعافى من الصدمة الأولى، كان قد بدأ يستعيد السيطرة على الوضع بمساعدة الرصاص والمشنقة، وبالتالي فإنه لم تعد هناك حاجة إلى خدمات الليبراليين. زمرة البلاط، التي كانت مصممة على اجتثاث آخر مكاسب الثورة، انتقلت إلى الهجوم. وحتى المقاومة الخجولة من جانب الدوما، كانت أكثر مما يمكن للقيصر نيكولا أن يسمح به.

في 13 ماي 1906، رفضت الحكومة مطالب الدوما والكاديت. وردا على ذلك، أصدر مجلس الدوما قراراً يعبر عن «عدم الثقة» في الحكومة ويصر على استقالتها. وزعت اللجنة المركزية المنشفية للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي توصية على منظمات الحزب تقترح فيها دعم مطلب الدوما الكاديتي من أجل وزارة تابعة للدوما، أي للكاديت. كانت انتهازية المناشفة في الدوما أكثر مما يمكن لأعضاء الحزب أن يهضموه. نجح البلاشفة في الحصول على إدانة الحزب لتكتيكات دوما ميليكوف. في بيترسبورغ صوتت منظمة الحزب بـ 1760 صوت لصالح البلاشفة مقابل 952 للمناشفة في هذه القضية. وفي مؤتمر يوليو أكدت منظمة الحزب بسان بيترسبورغ على هذا الموقف. وبعد نقاش تحدث فيه لينين باسم البلاشفة ودان باسم المناشفة، رفض الاشتراكيون الديمقراطيون في بيترسبورغ على وجه التحديد الدعوة إلى وزارة الدوما. لكن وعلى الرغم من ذلك، واصل الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي موقفه التوفيقى بدعم قرار الكاديت بشأن المسألة الزراعية.

سلط لينين نقداً شديداً على تكتيكات الليبراليين في الدوما، وكتب: «الدوما عاجز، إنه عاجز ليس فقط لأنه يفتقر إلى الحراب والبنادق التي تملكها الحكومة، بل أيضاً لأنه ككل ليس مؤسسة ثورية، وغير قادر على خوض نضال حازم»<sup>2</sup>.

وسرعان ما اتضح أن لينين كان محقاً. كان الدوما قد تأسس على وجه التحديد على مسألة الأرض. وعوض أن يشكل الفلاحون التزودوفيك أساساً متيناً للرددة الرجعية، استخدموا موقعهم في الدوما للدفاع عن حقوق الفلاحين. وقد طرحوا مسألة الاستيلاء على أراضي كبار الملاكين العقاريين في الدوما، مما أثار رعب القيصر. وكان رده الغاضب هو: «إن ما للمالك للمالك». وهو ما أعلن نهاية مجلس الدوما الأول. فالقيصر الساخط على الخطابات الجذرية التي كانت تنبعث من قاعات قصر توريد، قرر أن يضع حداً لذلك السيرك.

1: Istoria KPSS, vol. 2, p: 202.

2: LCW, Resolution (II) of the St. Petersburg Committee of the RSDLP on the Attitude Towards the State Duma, vol. 10, p: 481.



## حل مجلس الدوما

في خضم ذلك الوضع المضطرب صعد نجم بيوتر أركاديفيتش ستوليبيين، وزير الداخلية آنذاك، والذي صار منذ تلك الفترة فصاعدا واحدا من اللاعبين الرئيسيين. كان ستوليبيين ملاكا عقاريا ثريا ذو طموحات سياسية كبيرة، كان يمتلك عقارين، أحدهما في مقاطعة بينزا مساحته 2.850 فدانا، والآخر في كوفنو، مساحته 2.500 فدانا. وبالإضافة إلى ذلك، كانت زوجته، ابنة مسؤول رفيع المستوى من الأسرة الإمبراطورية، تملك 14.000 فدانا في قازان. لذلك فقد كانت لديه أسباب كثيرة للاهتمام بمسألة الأرض. وعلى الرغم من أنه كان يوصف عموما بأنه مصلح تقدمي، فقد اكتسب ستوليبيين ثقة القيصر بتطبيقه لأشد تدابير القمع وحشية خلال فترة "التهدئة"، التي تلت ثورة 1905.

قال ليونيل كوتشان: «إن الإجراءات القاسية التي اتخذها في قمع واحدة من أكثر مقاطعات الفولغا اضطرابا، في 1905-1906، جعلته شهيرا. وكلماته كافية لتوضيح ذلك، حيث كتب في تقرير لوزارة الداخلية عن ممارساته ضد الفلاحين ما يلي: "بناء على تعليماتي تم إرسال القرية بأكملها، تقريبا، إلى السجن... وقمت بإسكان القوزاق في بيوت أسوأ المجرمين، وتركت هناك سربا من الأورينبورغ، وفرضت نظاما خاصا على القرية"»<sup>1</sup>.

تتضح سمعة ستوليبيين بين الناس من خلال حقيقة أن حبل المشنقة كان يطلق عليه اسم "ربطة عنق ستوليبيين"، وحتى وقت متأخر من عقد الثلاثينات، كانت شاحنات السكك الحديدية المستخدمة لنقل السجناء السياسيين إلى سيبيريا ما تزال تسمى "عربات ستوليبيين". ومع ذلك فقد كان بلا شك واحدا من الأشخاص القلائل المحنكين حقا بين مستشاري القيصر في الفترة التي سبقت عام 1914، حتى لحظة اغتياله. وقد وصف كيرنسكي هذا الرجعي المحنك والماهر على النحو التالي: «قبيل اجتماع مجلس الدوما الأول، تم تعيين وزير داخلية جديد في سان بيترسبورغ. كان حاكما لساراتوف، ويدعى بيتر أ. ستوليبيين، وكان غير معروف في وقت تعيينه. وبعد أقل من ثلاثة أشهر على تنصيبه، مباشرة بعد حل مجلس الدوما، في 08 يوليو 1906، تم تعيينه رئيسا لمجلس الوزراء... ستوليبيين الذي ينتمي إلى الطبقة العليا في المقاطعات، لم يكن عضوا في بلاط سان بيترسبورغ ولم يسبق له أن عمل في أي من المناصب الحكومية العليا في العاصمة. كان قد قضى حياته المهنية كلها في المقاطعات، حيث لم تكن لديه أية صلة بالشخصيات البارزة وشخصيات الزمستفو... لم يكن يشاطر رأي سلفه، غورميكين، بأن مجلس الدوما كان مجرد "ناد للثرثرة". بل على العكس من ذلك، كان ستوليبيين، وعلى خلاف البيروقراطي الغامض والأجوف، غورميكين، يجذب بقوة إلى دور وزير دستوري. كانت فكرة إلقاء الخطب في البرلمان، والنقاش العلني حول القضايا الحيوية مع المعارضة، وحكم البلاد على أساس أغلبية حكومية تستهويه إلى حد كبير.

لقد تمكن ستوليبيين إلى حد كبير من تعويض انعدام الروح القتالية عند مسؤولي سان بيترسبورغ. وكان القيصر يحب ستوليبيين بسبب شبابه وثقته بالنفس وإخلاصه للعرش واستعداده لتنفيذ خطة القيصر غير القانونية لإجراء تغييرات في قانون الانتخابات. كما رأى فيه رؤساء مجلس النبلاء المتحدين شخصا من طينتهم من شأنه أن ينقذ نظام ملكية كبار ملاكي الأراضي من الدمار. وتشبث به الأكتوبريون ومختلف الدستوريين المعتدلين الآخرين، الذين أربعتهم "تجاوزات" الثورة، مثلما يتشبث غريق بقشة. رحبوا ببرنامج الذي كان يهدف إلى توحيد الحكومة مع الليبراليين والمحافظين المعتدلين، وبالتالي تعزيز الملكية الدستورية والقضاء على الحركة الثورية بشكل مبرم. كانوا يعتبرونه تير الروسي (أي الرجل الذي عزز صرح الجمهورية البرجوازية الثالثة في فرنسا بعد هزيمة الكومونة سنة 1871)»<sup>2</sup>.

قبل وقت قصير من حل مجلس الدوما، عيّن نيكولا هذا "الرجل القوي" رئيسا لمجلس الوزراء بدلا من "المحافظ والأجوف" غورميكين. في البداية، وفي حركة منه لإظهار التواضع غير المعهود فيه، رفض ستوليبيين قبول الشرف الذي خصه به القيصر والركوع أمام أيقونته المفضلة. ابتهل القيصر قائلا: «دعونا نرسم علامة الصليب على صدورنا ودعونا نطلب من الرب مساعدتنا في هذه اللحظة الصعبة وربما التاريخية». وبعد هذه الصلاة القصيرة لله القدير، انتقل نيكولا إلى العمل الجاد: «متى سيكون من الأفضل حل مجلس الدوما وما هي التعليمات التي تقترح تقديمها لضمان النظام وخاصة في سان بيترسبورغ وموسكو؟». وبإذن الله القدير تم تحديد موعد الانقلاب يوم الأحد 09 يوليو (21).

لم يكن للقيصر أي داع للقلق، فقد اختفى الدوما الأول من التاريخ بدون ضجة. لم تكن لدى الليبراليين أدنى نية في تعبئة

1: L. Kochan, Russia in Revolution, p: 123.

2: Kerensky, Memoirs, pp: 94-95.

الجماهير. وفي مواجهة الأمر الواقع، سافر نحو 200 نائباً إلى فيبورغ الآمنة نسبياً، التي كانت تحت السيطرة الفنلندية، ومن هناك أصدر بيان فيبورغ الذي دعا الشعب إلى العصيان المدني، مثل عدم دفع الضرائب ورفض قبول الخدمة العسكرية، كدليل على الاحتجاج على حل الدوما. كانت هذه الوثيقة قد كتبت من طرف لجنة برلمانية مشتركة تتألف أساساً من الكاديت والترودوفيك. كان الكاديت غير متحمسين حتى لهذه المطالب وسحبوا دعمهم لها في وقت لاحق. لقد كشفت هذه التجربة الفارقة طبيعة الكاديت المعادية للثورة وإفلاس تلك الأساليب. المناشفة الذين أرعبتهم هذه الأحداث، التي كان من الممكن توقعها، وجهوا باسم اللجنة المركزية دعوة إلى العمال من أجل الإضراب والتظاهر دعماً للدوما. لكن هذه الدعوة لم تلق أية استجابة.

عارض لينين الدعوة إلى المظاهرات دعماً لمجلس الدوما. لم يكن لينين أبداً يخاف من قول الحقيقة للعمال. وكانت مواقفه نابعة دائماً من غريزة ثورية سديدة وواقعية. ما الذي يجب أن تناضل من أجله الطبقة العاملة؟ إن ما يجب على الطبقة العاملة أن تناضل من أجله ليس البرلمانية البرجوازية، بل عليها النضال ضد العدو الرئيسي، أي الردة الرجعية القيصرية. يجب على الطبقة العاملة ألا تتحمل أي مسؤولية تجاه الديمقراطية البرجوازية المزيفة أو الأوهام بخصوص الليبراليين المعادين للثورة، بل عليها النهوض علانية لتنظيم انتفاضة مسلحة ضد الحكم الاستبدادي، ليس للدفاع عن دوما الكاديت، بل من أجل الجمعية التأسيسية التي سوف تعطي الأرض للفلاحين، ويوم العمل من 08 ساعات للعمال، والحقوق الديمقراطية الكاملة للجميع. لدينا هنا باختصار الفرق بين الماركسية الثورية وبين الإصلاحية.

وفي حين شارك المناشفة في مسرحية أخرى مع الكاديت، دافع لينين عن تشكيل جبهة موحدة ثورية مع الترودوفيك. تحت ضغط المزاج الكفاحي للطبقة العاملة والفلاحين، وافق الترودوفيك فعلاً على تبني نداء مشترك مع الاشتراكيين الديمقراطيين من أجل الانتفاضة المسلحة. ظهرت هنا، بشكل عام، إمكانية تشكيل "كتلة يسارية" مع الترودوفيك، جبهة موحدة لمنظمات الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين لأجل النضال ضد الاستبداد وضد الليبراليين. وفي حين رفض لينين عقد أي صفقة مع الليبراليين البرجوازيين، فإنه قبل بإمكانية عقد اتفاقات مؤقتة مع الترودوفيك، باعتبارهم الممثلين البرلمانيين للفلاحين، بل وأحياناً التصويت جنباً إلى جنب معهم ضد الكاديت لكسب الفلاحين. إن مثل هذه الاتفاقات البرلمانية الجزئية والمؤقتة مع ممثلي البرجوازية الصغيرة الثورية، دون التخلي ولو للحظة عن الحق في انتقاد الترودوفيك بسبب تناقضاتهم وتذبذبهم، لم يكن لها أي علاقة على الإطلاق مع التحالف السياسي مع الليبراليين الذي دعا إليه المناشفة. كان موقف البلاشفة هو استخدام الدوما منصة لفضح النظام القيصري والليبراليين، وفي الوقت نفسه لتنظيم أنفسهم خارج البرلمان استعداداً للثورة.

## مسألة حرب العصابات

في الفترة ما بين 1905 و1906، استعملت الحركة الثورية شكلاً من أشكال "حرب العصابات" وميليشيات الأنصار والسطو المسلح، وغيرها من أشكال الكفاح المسلح. لكن فرق القتال كانت دائماً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمنظمات العمالية. وهكذا، فإن اللجنة العسكرية في موسكو لم تضم فقط أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي، بل ضمت أيضاً الاشتراكيين الثوريين والنقابيين (عمال المطابع) والطلاب. كما سبق لنا أن رأينا، تم استخدام ميليشيات الأنصار لغرض الدفاع الذاتي ضد منظمي المذابح وعصابات المائة السود، كما ساعدت أيضاً على حماية الاجتماعات ضد مدهامات الشرطة، حيث كان وجود ميليشيات العمال المسلحين، في كثير من الأحيان، عاملاً هاماً في منع العنف. في بعض الأحيان كان يمكن لهذه المجموعات أن تنتقل إلى الهجوم، على الرغم من أن هدفها لم يكن هو الاصطدام مع الجيش (الذي لم يكن في إمكانها أن تأمل في الانتصار عليه في معركة مباشرة)، بل كانت تستهدف كاسري الإضرابات والفاشينيين. فعلى سبيل المثال شنت مجموعة من العمال المسلحين هجوماً على مجموعة المائة السود في فندق تفر في بيترسبورغ في يناير 1906. وعندما تقف مواجهة مع الشرطة كان السبب يكون عادة محاولة الإفراج عن السجناء السياسيين، كما هو الحال في الغارة الجريئة على قسم شرطة في ريغا من أجل الإفراج عن الشوار اللاتيفيين المعتقلين. وفي لاتفيا بالخصوص وصلت حركة حرب العصابات إلى أعلى درجاتها في دجنبر 1905 حين صارت عدد من البلدات عملياً تحت سيطرة فصائل مسلحة من العمال المتمردين والعمال الزراعيين والفلاحين، قبل أن تتعرض الانتفاضة في لاتفيا للقمع بوحشية على يد حملات عقابية بقيادة جنرالات القيصر.

شملت المهام الأخرى الاستيلاء على الأسلحة واغتيال الجواسيس ورجال الشرطة، وكذلك الغارات على الأبنك للحصول على الأموال. غالباً ما كانت مبادرة إنشاء جماعات حرب العصابات هذه تأتي من العمال أنفسهم. لقد سعى البلاشفة إلى كسب قيادة

هذه الجماعات وإعطائها شكلا منظما ومنضبطا وتزويدها بخطة عمل واضحة. كان ذلك ينطوي بالطبع على مخاطر جدية، حيث يمكن لجميع أنواع المغامرين والمتحليين طبقيا والصعاليك أن ينظموا لهذه المجموعات، والتي بمجرد ما تنعزل عن حركة الجماهير، تميل إلى الانحطاط في مسارات إجرامية إلى درجة أنها تصير غير قابلة للتمييز عن مجموعة من قطاع الطرق. كما أنها، بالإضافة إلى ذلك، كانت مفتوحة على نطاق واسع للاختراق من طرف العملاء الاستفزازيين. وكقاعدة عامة، يكون من الأسهل بكثير على العملاء الاستفزازيين التسلل إلى التنظيمات العسكرية والإرهابية من التسلل إلى الأحزاب الثورية الحقيقية، ولا سيما حين تتألف من كوادرات مثقفين ثوريين يرتبطون ببعضهم البعض بعلاقات أيديولوجية قوية، رغم أن حتى هذه الأخيرة ليست في مأمن من الاختراق، كما سنرى لاحقا. ومع ذلك، فقد كان لينين يدرك جيدا مخاطر الانحطاط التي يشكلها وجود الجماعات المسلحة. إن الانضباط الصارم والرقابة الحازمة من قبل المنظمات الحزبية والكوادرات الثورية ذوي الخبرة يشكلان جزئيا حصانة ضد تلك الاتجاهات. لكن الرقابة الحقيقية الوحيدة كانت هي رقابة الحركة الجماهيرية الثورية.

لقد لعبت مجموعات حرب العصابات دورا مفيدا وتقديميا طالما كانت تعمل كقوة مساعدة للحركة الجماهيرية (أي في سياق الانتفاضة الثورية). لكن حيثما انفصلت تلك المجموعات عن الحركة الثورية الجماهيرية، كانت تميل حتما إلى الانحطاط. ولهذا السبب فقد اعتبر لينين أنه من غير المقبول نهائيا إطالة أمد وجودها، بعدما صار من الواضح أن الحركة الثورية قد دخلت في حالة جزر لا رجعة فيه. وبمجرد الوصول إلى تلك المرحلة، دعا على الفور إلى حل جميع مجموعات حرب العصابات. لكنها في المراحل الأولى لعبت دورا إيجابيا وشارك فيها العديد من الناس الذين تميزوا بالبطولة والتضحية بالنفس، والذين كانوا يعملون تحت الرقابة الصارمة للحزب. أحد هؤلاء كان المناضل الثوري الأرميني الشهير سيمينو أركاشكوفيتش تير بيتروسيان (كامو).

وكان أحد الأسباب الرئيسية لاستمرار التكتيك، بعد هزيمة انتفاضة دجنبر، هو ببساطة أن الحزب كان بحاجة إلى الأموال. حتى ذلك الوقت، كان الحزب يعتمد إلى حد كبير على التبرعات الضخمة من متعاطفين أثرياء. ففي فترة التحريض الدستوري قبل عام 1905، وخلال الفترة الأولى من الثورة، كان جزء كبير من البرجوازيين "التقدميين" والمتثقفين ينظرون بتعاطف، بل وبإعجاب، إلى الحركة الاشتراكية الديمقراطية، إذ كانوا يميلون إلى اعتبارها مجرد تعبير أكثر جذرية عن الحركة الديمقراطية البرجوازية. كانوا ينظرون بتساهل إلى أنشطة الطلاب والعمال الثوريين، بل وحتى بنوع من الإعجاب الذي يعود إلى الحنين إلى مرحلة الشباب الماضية. وكما هو طبيعي بالنسبة لأشخاص يجيدون حساب المال مثلهم، فقد كانت تعاطفهم محسوبا. كانت البرجوازية تأمل في استخدام الحركة الثورية ورقة مساومة في مفاوضاتها مع الحكم المطلق للحصول على حصة في الحكومة. لكن بعد أكتوبر 1905، بدأ موقف البرجوازية الليبرالية في التغير. كان بيان القيصر قد استجاب لمطالبهم الأساسية، وبدأ حماسهم يفتت بسرعة. وقد أفتتعتهم انتفاضة موسكو في نهاية المطاف أن العمال يمثلون خطرا. كانت مناورتهم لعبة خطيرة! كشرت الردة الرجعية عن أسنانها، ومثل بيلاطس النبطي<sup>1</sup> (Pontius Pilate)، غسل الليبراليون أيديهم من القضية برمتها، وكان لسان حالهم يقول: "قلنا لكم ألا تذهبوا بعيدا جدا! قلنا لكم ألا تستفوزوا الردة الرجعية! لماذا لا نقبل بما عرض علينا؟ فعلى كل حال نصف رغيف أفضل من عقوبة السجن".

النقص المفاجئ في الأموال وضع الحزب في موقف صعب. وفي الوقت الذي كان يتعرض فيه للهجوم من جميع الأطراف، كان الحزب يفتقر للموارد، خاصة وأن الليبراليين البرجوازيين كانوا قد تحولوا ضد الثورة. والعديد من رجال الأعمال الأثرياء من رفاق نصف الطريق السابقين، الذين كانوا في وقت سابق مستعدين لإعطاء المال للحركة الثورية، مدفوعين في ذلك بمجموعة متنوعة من الدوافع، ابتعدوا على عجل، وتذكروا فجأة أن لديهم مشاغل مهنية وأسرية. لكن بالنسبة للطبقة العاملة، لم يكن هناك أي مجال للتراجع. كانت المعركة آنذاك صراع حياة أو موت. كانت تلك هي اللحظة حين اتخذت مسألة السطو أهمية حاسمة. كان لدى كامو سجل طويل من النشاط الثوري، بما في ذلك الاعتقال والهروب من سجن باكو، قبل أن يشتهر بدوره في الكفاح المسلح. وبأعصابه الباردة وشجاعته وكفاءته، كان كامو تجسيدا لأفضل خصال المناضلين البلشفيين.

بعد التمرد في سفيابورغ وكرونشتاد، تمت حركة الفلاحين بشدة. كان يبدو أن هناك احتمالا بأن تدخل الثورة مرحلة جديدة. فاكتمت مسألة الحصول على الأسلحة طابعا استعجاليا. كان كامو مسؤولا عن الحصول على الأسلحة، لكن الحزب كان يعاني من مشكلة جدية في ماليته. وفي مؤتمر ستوكهولم، كان المناشقة قد سيطروا على اللجنة المركزية، ولم يكونوا متحمسين لفكرة التسليح.

1: بيلاطس النبطي: هو الحاكم الروماني الذي أشرف على محاكمة المسيح، وأصدر الحكم بصلبه. تقول الرواية المسيحية إنه بعد أن أصدر الحكم بصلب يسوع غسل يديه بالماء وصاح: "أنا بريء من دم هذا البار". فصار رمزا لمن يرتكب جرما ويتصل منه بادعاء البراءة. -المترجم-

«كانت الرسائل والبرقيات الموجهة إلى اللجنة المركزية لا تلاقي أي رد. وظلت طلبات الحصول على المال مثل صرخة في الصحراء»<sup>1</sup>. لم يتراجع كامو عن اتخاذ الإجراءات اللازمة لتسليح الحزب. وفي سلسلة من الغارات المذهلة على الأبنك، والتي أصابت الشرطة بالسعار، تمت «مصادرة» مبالغ كبيرة من المال. رغم ذلك فقد عاش كامو نفسه حياة متواضعة جدا بأجرة تبلغ 50 كوبيكا في اليوم. ومثله مثل بقية المغاوير البلاشفة، كانت حياته مكرسة تماما للحزب ولقضية الطبقة العاملة. ظهرت شجاعته الأسطورية وجرأته في الغارة على بنك تيفليس، في صيف 1907. فكامو الذي سافر بجواز سفر مزور، منتحلا لهوية نيبيل جورجي معروف، ذهب إلى تيفليس لتنظيم عملية سطو كبيرة. وفي صباح يوم 23 يونيو، لبس كامو بزة ضابط بالجيش. وعلى الرغم من أنه كان يعاني من جروح ناجمة عن انفجار عرضي، فقد قاد هجوما مذهلا واستولى على مبلغ 250 ألف روبل -وهو مبلغ ضخم- من بنك الدولة. إن عملياته اللاحقة تبدو مثل واحدة من روايات المغامرات. وبعد هروبه إلى ألمانيا، ألقى القبض عليه في برلين وبحوزته حقيبة مليئة بالديناميت. كان قد تعرض للخيانة من طرف العميل الاستفزازي زيتوميرسكي.

اتهم وحكم عليه بالسجن بكونه «فوضوي إرهابي»، فاستمر طيلة أربع سنوات يتظاهر بالجنون. وعقابا له على سلوكه، وضع عاريا في زنزانة قبو، لمدة تسعة أيام، في درجات حرارة تحت الصفر. بعدها أرسل إلى سجن المجانين، حيث استمر في ادعاء الجنون. بقي أربعة أشهر دون أن يتمدد إذ كان يقف ووجهه إلى الزاوية، وكان يقف على ساق ثم على أخرى. وشملت المعاملة الوحشية التي تعرض لها التغذية القسرية، والتي تعرض خلالها لكسر العديد من أسنانه. وقد حاول في مناسبتين الانتحار شنقا وبقطع عروقه بقطعة عظم حادة. في البداية اعتقدت السلطات أنه كان يتظاهر بالجنون، لكن بعد ستة أشهر من التعذيب، بدأوا يعتقدون أن جنونه كان حقيقيا. وأخيرا، في مارس 1909، قرر الأطباء أن الحالة الذهنية «للفوضوي الإرهابي» تير بيتروسيان كانت جيدة، وأنه صار هادئا وعقلانيا، بل وحتى قادرا على ممارسة الحرف اليدوية والبستنة. وبعد إعادته إلى السجن، واصل كامو ادعاء الجنون، وتعرض لمزيد من التعذيب. كان الأطباء الألمان «المتحضرون» يدخلون الإبر تحت أظفاره، ويحرقون جسده بمكواة حامية، لكن دون جدوى. كان جسد كامو يعاني من ألم دائم، لكنه استمر في ادعاء الجنون حتى قررت السلطات في النهاية أن إطعام هذا المجنون الأجنبي لا ينبغي أن يكون على حساب الشعب الألماني، وأمرت بتسليمه إلى روسيا. وأخيرا، تمكن من تنظيم عملية هروب جريئة من مستشفى الأمراض العقلية في تيفليس.

وتذكر كروبسكايا في سيرتها عن لينين كيف زارهما كامو في باريس: «لقد أعرب عن أسفه الشديد لسماع حدوث انشقاق بين إيتش وبوغدانوف وكراسين. لقد كان مرتبطا بهم كثيرا. وإلى جانب ذلك، لم يتمكن من فهم الوضع الذي تطور خلال السنوات التي قضاها في السجن. لقد أخبره إيتش كيف سارت الأمور.

طلب مني كامو أن أشتري له بعض اللوز. جلس في مطبخنا في باريس يأكل اللوز، كما لو كان في موطنه في جورجيا، وأخبرنا عن اعتقاله في برلين، وعن الطريقة التي كان يحاكي بها الجنون، وعن العصفور الذي كان يربيه في السجن، وما إلى ذلك. إيتش الذي كان يستمع إلى قصصه، كان يشعر بالأسف الشديد لهذا الرجل الشجاع المخلص والذي يتميز بسذاجة الأطفال والقلب الدافئ، والذي كان حريصا جدا على القيام بأعمال جريئة، لكنه لا يعرف الآن ما الذي ينبغي عليه فعله. كانت مخططاته خيالية، إلا أن إيتش لم يجادل معه، لكنه حاول أن يعيده إلى الواقع باقتراحات حول تنظيم نقل الأدبيات وما إلى ذلك. وفي النهاية تقرر أن يتم إرسال كامو إلى بلجيكا، حيث سيجري عملية على عينيه هناك (كان أحول العينين، وهذا ما كان يفضحه دائما مع جواسيس الشرطة)، ومن هناك أخذ طريقه إلى روسيا والقوقاز. فحص إيتش معطف كامو وقال: «أليس لديك معطف دافئ؟ ستشعر بالبرد بملابسك هذه وأنت تتجول على سطح السفينة». كان إيتش نفسه يتنزه دائما على سطح السفينة عند السفر عن طريق البحر. وبعد أن رأى أن كامو لم يكن لديه معطف آخر، أخرج إيتش معطفه الرمادي الناعم الذي أهده له والدته في ستوكهولم والذي كان مولعا جدا به، وأعطاه لكامو. بفضل حديثه مع إيتش، ولطف هذا الأخير معه، شعر كامو بالطمأنينة نوعا ما»<sup>2</sup>.

ومثله مثل العديد من الذين لعبوا دورا نشطا في الثورة، وجد كامو نفسه في مرحلة الردة الرجعية كسمكة خارج الماء. أدى الخمول والعزلة وضغوط حياة المنفى إلى إصابته بالاكتئاب والإحباط. وسرعان ما عاد إلى النشاط السري في مسقط رأسه بالقوقاز، حيث كانت الحركة الثورية على مشارف صحوة جديدة. أعيد اعتقاله، وحكم عليه بأربعة أحكام بالإعدام، خففت فيما بعد إلى 20 عاما من الأشغال الشاقة، كدليل على طيبوبة القيصر بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثلاثمائة لحكم سلالة آل رومانوف.

1: S.F. Medvedeva, *Kamo, The Life of a Great Revolutionist*, p: 18.

2: Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, pp: 212-213.

تم إرسال كامو إلى السجن في خاركوف حيث كان يخيط بزات الحرب والملابس الداخلية والأحذية، إلى جانب مجرمي الحق العام الذين تعلموا احترام الرجل الذي كانوا يطلقون عليه اسم إيفان العظيم. وحتى في ذلك المكان الجهنمي لم تمت فيه روح الثورة. فلكي لا يضطر إلى رفع قبعته في وجود الحراس، كان يسير عاري الرأس حتى أثناء الطقس البارد. لم يطلق سراح كامو من هذا المكان إلا بفضل ثورة فبراير، وبعد ذلك عاد على الفور إلى صفوف الحزب البلشفي ولعب دورا بطوليا في الحرب الأهلية. ومن المفارقات أنه بعد أن نجا من كل تلك التجارب والمحن، توفي في حادثة دراجة نارية في عام 1922.

### موقف لينين من حرب العصابات

كانت مسألة حرب العصابات مرتبطة بشكل وثيق بمنظور إعادة إحياء الثورة، وإمكانية أن تعطي حركة الفلاحين زخما لحركة العمال في المدن. والنقاشات في المؤتمر الرابع بشأن المسألة الزراعية، التي كانت تبدو نظرية مجردة، كانت انعكاسا شاحبا لواقع صارخ. كان تمرد الفلاحين في تصاعد، وازدادت حدة الانتفاضات العنيفة في القرى من حيث العدد والشدة. لكن توطيد الردة الستوليبينية الرجعية أجبر لينين على إعادة النظر في الموقف. كانت هزيمة التمرد في سفيابورغ وكرونشتاد نقطة التحول. وفي حين كان المناشفة قد تخلوا عن الحركة، كانت تكتيكات لينين موجهة نحو كسب البرجوازية الصغيرة والفلاحين الفقراء لفكرة الانتفاضة المسلحة، وخلق حركة في القرى يمكنها بدورها أن ترتبط بالحركة في المدن لتحقيق الإطاحة الثورية بالاستبداد. لم يكن هذا المنظور طوباويا كما قد يبدو، فبينما عانت الطبقة العاملة في بيتسبورغ وموسكو من الهزيمة، كانت الحركة في القرى قد بدأت للتو في التحرك بجدية. وهذا بدوره كان له تأثير على الفلاحين الذين يرتدون الزي العسكري الذين يشكلون الغالبية الساحقة من الجيش القيصري. فهؤلاء الرجال ذوي المعاطف الرمادية، الذين أزعجتهم الهزيمة العسكرية وشهور الثورة، صاروا أكثر فأكثر اضطرابا. وتم الوصول إلى النقطة الحرجة في ليلة 17 يوليو، حين اندلع تمرد للجنود والبحارة في قلعة سفيابورغ بالقرب من هلسنغفورس. عندما توصلت لجنة الحزب بسان بيتسبورغ بأخبار الانتفاضة، أرسلت ممثلين عنها إلى البحارة في محاولة لإقناعهم بتأجيل التحرك. لكن الوقت كان قد فات.

وعلى الرغم من أن التنظيم العسكري للحزب قد شارك في التمرد -اثنان من الملازمين، أ. ب. إيميليانوف وي. ل. كوخانسكي، كانا عضوان في الحزب- فإن الانتفاضة كانت أساسا تحت تأثير الاشتراكيين الثوريين. ومن بين عشرة فيالق مدفعية، شاركت سبعة بنشاط في الانتفاضة، ورفعت شعارات ديمقراطية ثورية: ليسقط الاستبداد، الحرية للشعب، والأرض للفلاحين. واتخذ العمال الفنلنديون إجراءات لدعم المتمردين. في 18 يوليو اندلع إضراب عام في هلسنغفورس وانتشر إلى بلدات أخرى. استمرت الحركة لمدة ثلاثة أيام، لكن وبسبب إعداها السيء وافتقادها لخطة عمل مدروسة بوضوح، تعرضت لصف شديد من السفن الموالية للحكومة، فانهزمت انتفاضة سفيابورغ وتم تسليم المتمردين إلى عناية المحاكم القيصرية العسكرية، حيث تم إعدام 43 رجلا وأرسل مئات آخرون إلى الأشغال الشاقة أو السجن. لم تكن تلك حالة معزولة، فقد حدثت تمردات أخرى في أماكن أخرى. لقد تسببت أخبار أحداث سفيابورغ في غليان في حامية كرونشتاد البحرية واندلع التمرد الفعلي على الطرادات باميات أزوفا بالقرب من ريفيل. يبدو أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان آنذاك يخطط لاتخاذ إجراء، لكن ذلك تعطل بسبب إلقاء القبض على منظمة الجنود والعمال المحلية يوم 09 يوليو. كانت الحكومة على بينة من خطط الانتفاضة بسبب شبكة جواسيسها فتحررت بسرعة لخنق الثورة. تم اعتقال أكثر من 2500 من متمردي كرونشتاد. وكما هو الحال في سفيابورغ، كانت المحاكم العسكرية عديمة الرحمة: حكم على 36 رجلا بالإعدام؛ وحكم على 130 منهم بالأشغال الشاقة وسجن 316 آخرين، وأرسل 935 سجيناً إلى فيالق إصلاحية.

كان تأثير حركة الفلاحين واضحا في التمرد الذي احتوى أيضا على الجانب السلبي المميز لجميع انتفاضات الفلاحين في التاريخ -غياب المنظور وغياب التنظيم-، الشيء الذي يمكّن قوة صغيرة من الضباط المنضبطين الحازمين من أن يُخضعوا لإرادتهم عددا أكبر بكثير من القوات التي تفتقر إلى الانضباط والتنظيم وخطة عمل واضحة، والذين تربوا طيلة حياتهم على الطاعة. كانت تلك بالفعل آخر أنفاس الثورة. بعد سفيابورغ، لم تعد النتيجة النهائية موضع شك. انتصرت الردة الرجعية واحتفلت بانتصارها بالطريقة المعتادة: مع موجة جديدة من الاعتقالات والمحاكم العسكرية السريعة، والإعدامات والسجن. ارتفعت البطالة، وكما أوضح تروتسكي في ذلك الوقت، فإن اندلاع هذه البطالة الجماهيرية، التي جاءت في أعقاب هزيمة سياسية قاسية، لم تكن لتعيد الروح إلى كفاحية العمال، بل العكس تماما. كان العمال مصدومين ومرتبكين، وكانوا بحاجة إلى الوقت لكي يتعافوا. توقع تروتسكي - وقد تبين أنه محق- أنه لن يكون هناك انتعاش للحركة الثورية في روسيا إلا بعد أن يعود نوع من الانتعاش الاقتصادي.

لقد نظر الماركسيون دائماً إلى حرب الفلاحين باعتبارها مساعدة للعمال في النضال من أجل حسم السلطة. وقد وضع ماركس هذا الموقف لأول مرة خلال تحليله للثورة الألمانية عام 1848، عندما أوضح بأن الثورة الألمانية لا يمكنها أن تنتصر إلا كطبعة ثانية من حرب الفلاحين. وهذا يعني أنه يجب على حركة العمال في المدن أن تقود وراءها جماهير الفلاحين. وأوضح البلاشفة أيضاً أنه على العمال في المدن أن يقودوا الفلاحين وراءهم. ومن المهم أن نلاحظ أن الطبقة العاملة الصناعية لم تكن تمثل خلال الثورة الروسية أكثر من 10% من السكان، ومع ذلك لعبت البروليتاريا الدور القيادي في الثورة الروسية، حيث قادت خلفها ملايين الفلاحين الفقراء، الذين يشكلون الحليف الطبيعي للبروليتاريا. لا يمكن العثور في كتابات ماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي على أية إشارة أو تلميح إلى احتمال قدرة الفلاحين على إنجاز الثورة الاشتراكية. والسبب في ذلك هو افتقارهم الشديد للتجانس الطبقي. إن الفلاحين طبقة منقسمة إلى فئات عديدة، بدءاً من الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً (والذين هم في الواقع بروليتاريون ريفيون) إلى الفلاحين الأغنياء الذين يستغلون الفلاحين الآخرين كعمال مأجورين. ليست لديهم مصلحة مشتركة، وبالتالي لا يمكنهم أن يلعبوا دوراً مستقلاً في المجتمع، وقد دعموا تاريخياً فئات أو مجموعات مختلفة في المدن. إن الطبقة الوحيدة القادرة على قيادة ثورة اشتراكية ناجحة هي الطبقة العاملة. وهذا ليس لأسباب عاطفية، بل بسبب الموقع الذي تحتله في المجتمع والطابع الجماعي لدورها في الإنتاج.

حرب العصابات، بحكم طبيعتها، هي السلاح الكلاسيكي للفلاحين وليس الطبقة العاملة. وهي مناسبة لظروف الكفاح المسلح في المناطق الريفية التي يتعذر الوصول إليها - الجبال والغابات، وما إلى ذلك - حيث تجعل وعورة التضاريس من الصعب نشر القوات النظامية وحيث تقدم الجماهير الريفية الدعم اللوجستي اللازم والمخبط للمسلحين. يمكن لحرب العصابات، في سياق الثورة في بلد متخلف بعدد كبير من الفلاحين، أن تكون بمثابة مساعد مفيد للنضال الثوري للعمال في المدن. لكنه لم يتبادر أبداً للينين فكرة استعمال حرب العصابات كبديل للحركة الواعية للطبقة العاملة. إن تكتيكات حرب العصابات، من وجهة نظر ماركسية، لا يجوز أن تكون سوى عمل مكمل ومساعد في الثورة الاشتراكية. وكان هذا بالضبط هو موقف لينين في عام 1905. لم يكن له أي علاقة مع التكتيكات الإرهابية الفردية التي كانت تتبعها منظمة نارودنايا فوليا ووريثهم الحزب الاشتراكي الثوري، ناهيك عن التكتيكات المجنونة للإرهابيين المعاصرين ومنظمات "حرب عصابات المدن" التي هي نقيض السياسة اللينينية الحقيقية<sup>1</sup>.

في مقالته عن حرب العصابات، يعطي لينين صورة واضحة عن الوضع قائلاً: «الظاهرة التي نهتم بها هي الكفاح المسلح. ويضطلع بها أفراد وجماعات صغيرة، بعضها ينتمي إلى منظمات ثورية، في حين أن البعض الآخر (الأغلبية في أجزاء معينة من روسيا) لا ينتمي إلى أي منظمة. إن الصراع المسلح يسعى إلى تحقيق هدفين مختلفين، يجب أن يكونا مميزين بشكل واضح: يهدف هذا الكفاح، في المقام الأول، إلى اغتيال الأفراد، أي القادة والضباط في الجيش والشرطة؛ ويهدف، في المقام الثاني، إلى مصادرة الأموال سواء من الحكومة أو من الأفراد. وتذهب الأموال المصادرة جزئياً إلى خزينة الحزب، وذلك جزئياً من أجل الغرض الخاص المتمثل في التسليح والتحصين للانتفاضة، وجزئياً لأجل إعالة الأشخاص المشتركين في الكفاح الذي نصفه. إن المصادرات الكبيرة (مثل المصادرة التي تمت في القوقاز والتي بلغت أكثر من 200.000 روبل، وفي موسكو، التي بلغت 875.000 روبل) ذهبت في الواقع أولاً وقبل كل شيء إلى الأحزاب الثورية، أما المصادرات الصغيرة تصرف في غالبيتها، وأحياناً كلياً، لإعالة من يقومون بـ "المصادرات". هذا شكل من أشكال النضال أصبح بدون شك واسع النطاق ومكثفاً في عام 1906 فقط، أي بعد انتفاضة دجنبر. لقد كان تفاقم الأزمة السياسية إلى حد الكفاح المسلح، ولا سيما تفاقم الفقر والجوع والبطالة في المدينة والقرية، أحد الأسباب الهامة للنضال الذي نصفه. وقد اعتبر هذا الشكل من أشكال النضال الشكل المفضل بل والحصري للنضال الاجتماعي من طرف العناصر المتخلفة من السكان وحتالة البروليتاريا واللاسطلوبين».

وأصر لينين على أن الكفاح المسلح يجب أن يكون جزءاً من الحركة الجماهيرية الثورية، وحدد الشروط التي يصير فيها مقبولاً: «(1) يجب أن تؤخذ مشاعر الجماهير في الاعتبار؛ (2) أن تدرس ظروف الحركة العمالية في المنطقة المعطاة، (3) يجب الحرص على عدم تعطيل قوى البروليتاريا». كما أوضح أيضاً أن حرب العصابات ليست حلاً سحرياً، بل فقط طريقة واحدة محتملة للنضال لا يجوز السماح بها إلا "في الوقت الذي تصل فيه الحركة الجماهيرية بالفعل إلى نقطة الانتفاضة".

إن خطر الانحطاط المتأصل في مثل هذا النشاط يصبح مؤكداً بشكل مطلق عندما تعزل جماعات حرب العصابات عن الحركة

1: أدت هذه التكتيكات إلى الهزيمة تلو الهزيمة عندما وضعت موضع التنفيذ في العصر الحديث، والمثال الأكثر شهرة هو ما حدث خلال السبعينيات في أمريكا اللاتينية. إنه دليل صارخ على الخطوة الكبيرة إلى الوراء التي قامت بها الحركة منذ الحرب العالمية الثانية حين بدأت الأفكار التي تنتمي إلى عصور ما قبل تاريخ الحركة، والتي رميت منذ زمن بعيد في مزبلة التاريخ، تعود إلى الظهور وكأنها جديدة وأصيلة.

الجماهيرية. في الفترة التي تلت عام 1906، عندما كانت حركة العمال في تراجع، وكان الثوريون يتزحون تحت سلسلة من الضربات، أظهرت منظمات حرب العصابات بشكل متزايد علامات على أنها توقفت عن أن تكون أجهزة مساعدة مفيدة للحزب الثوري، وتحولت إلى مجموعات من المغامرين، أو حتى أسوأ من ذلك. لينين، وحتى في الوقت الذي دافع فيه عن إمكانية استعمال تكتيكات حرب العصابات كنوع من العمل ضد الردة الرجعية في اللحظة التي كان يتوقع فيها انتعاش الحركة الثورية، حذر من «اللاسلطوية والبلانكية والنزعة الإرهابية القديمة وأفعال الأفراد المعزولين عن الجماهير، الشيء الذي يضعف معنويات العمال وينفر فئات واسعة من السكان ويؤدي إلى تشويه الحركة والإضرار بالثورة»، وأضاف أنه: «يمكن العثور بسهولة على الأمثلة التي تدعم هذا التقييم في الأحداث التي يتم الإبلاغ عنها يوميا في الصحف»<sup>1</sup>.

ومع مرور الوقت فهم لينين أن تكتيك المصادرات قد فقد فائدته. وكان قد وصل بالفعل إلى وجهة النظر هذه قبل غارة تيفليس. لكن ونظرا للنقص الحاد في الأموال، قبل العملية على سبيل الاستثناء. ومع ذلك فإن المال المتحصل عليه من الغارة لم يقد الحزب بالشيء الكثير. كان المبلغ كله مشكلا من أوراق نقدية من 500 روبل، من المستحيل التعامل بها داخل روسيا. تم ارسال الاموال إلى الخارج لكن دون نتيجة. وكان عميل البوليس جيتوميرسكي، الذي كان يحتل موقعا قياديا داخل المنظمة البلشفية بالخارج، قد أعلم الشرطة بالمخطط. اعتقل ليتفينوف، الذي صار لاحقا سفير الاتحاد السوفياتي في لندن، بينما كان يحاول تبديل الأوراق النقدية في باريس. نفس المصير لاقته أولغا رافيتش، التي أصبحت فيما بعد زوجة زينوفييف، في ستوكهولم. لكن وعلى الرغم من أن غنيمته تيفليس كانت غير مجدية للبلاشفة، فإن المناشفة استغلوا ليصنعوا منها فضيحة طيلة سنوات. كما كانت مسألة المصادرات أرضية لمناقشات ساخنة داخل الفصيل البلشفي، حيث أدت إلى توتر العلاقات. وأخيرا، وبإصرار من المناشفة، أدرجت مسألة المصادرات في جدول أعمال لجنة مراقبة الحزب في يناير 1910. وصدر قرار يدين عمليات المصادرات باعتبارها انتهاكا غير مقبول للانضباط الحزبي، مع الاقرار بأن المشاركين في هذه الأعمال لم يقصدوا إلحاق الضرر بالحركة العمالية، بل كانوا مدفوعين بـ «فهم خاطئ لمصالح الحزب»<sup>2</sup>.

لم يكن كل من شارك في حرب العصابات مناظلا بنزاهة كامو. وبينما استمرت الرد الرجعية، وبقيت حركة العمال في حالة من الانهيار، تضاعفت مخاطر سقوط الحركة في أيدي عناصر متحللة طبقيا ومجرمين فعليين. ومن أبرز أولئك الذين استمروا، في تناقض مع موقف لينين، متمسكين بتكتيكات العصابات ومصادرة الممتلكات، بعد فترة طويلة من انتهاء شروطها، هو كوبا/ ستالين. لقد تسببت تلك التكتيكات في تقويض الحركة بشكل خطير. كتب أولمينسكي، الذي كان قريبا من لينين في ذلك الوقت، ما يلي: «ذهب عدد غير قليل من الشباب ضحايا للمشانق، بينما انحط البعض الآخر. كما أصيب البعض الآخر بخيبة الأمل من الثورة. في ذلك الوقت بدأ الناس بشكل عام يخلطون بين الثوريين وبين قطاع الطرق العاديين. وفي وقت لاحق، عندما بدأت الحركة العمالية في الانتعاش، كانت تلك الحركة أبطأ في تلك المدن التي كانت فيها المصادرات أكثر عددا. (يمكنني أن أذكر على سبيل المثال: باكو وساراتوف.)»<sup>3</sup>.

## الردة الرجعية بقيادة ستوليبين

بدأت الردة الرجعية التي قادها ستوليبين بتدابير قاسية. في 19 غشت، أقيمت محاكم عسكرية ميدانية قضت بأحكام وحشية ضد أي شخص شارك في نشاط ثوري. تعرض آلاف الأشخاص للتعذيب والإعدام والنفي. وحوكم آلاف الفلاحين في محاكم عسكرية ميدانية. كانت «المحاكمات» موجزة، حيث لم تطل مدة معظمها سوى أربعة أيام. كانت العقوبة المعتادة هي الموت، وتم إعدام 600 شخص في الفترة الأولى. وكان رئيس الوزراء «الإصلاحية» هو من يقود تلك الحملة الإرهابية التي لم يسبق لها مثيل حتى في الفترات الأكثر دموية للقيصرية الروسية. خلال الفترة الممتدة من 1907 إلى 1909، تم تقديم أكثر من 26.000 شخص إلى المحاكم القيصيرية. ومن بين هؤلاء، حكم على 5086 شخصا بالإعدام. وبحلول 1909 كانت السجون قد اكتظت بالمعتقلين الذين وصل عددهم إلى 170.000. لكن ستوليبين كان ذكيا بما يكفي لإدراك أن الحركة الثورية لا يمكن إخمادها بواسطة العنف وحده، لم يكن من الممكن أن يكون هناك أي حل دائم ما لم تتم معالجة مسألة الأرض. وفي خطوة مأكرة منه انتقل لمعالجة المشكلة من خلال إطلاق إصلاح زراعي من فوق. من أجل تعزيز سلطتها كانت الردة الرجعية في حاجة إلى توسيع قاعدتها الاجتماعية. فبدأت

1: LCW, Guerrilla Warfare, vol. 11, p: 216, p: 222 (footnote), p: 219 and pp: 216-217.

2: Trotsky, Stalin, p: 110.

3: Trotsky, Stalin, pp: 98-99.

البرجوازية والأوليغارشية، اللتان انصهرتا معا في كتلة رجعية واحدة، تبحثان عن حلفاء في القرية.

كانت علاقات الأرض في روسيا قبل الثورة تتسم بتخلف شديد. كان الفلاحون يعيشون في 120.000 من الكومونات القروية، على أساس اقتصاد الكفاف مع إنتاجية منخفضة للغاية. حقوق الفلاحين لم تكن موجودة. وكانت بقايا الإقطاع المتخلفة ما تزال قائمة، على الرغم من أن القنانة كانت قد ألغيت عام 1861. استمر نظام السخرة الإقطاعي القديم، إلى جانب عقلية القنانة القديمة. كانت الرغبة العارمة في الحصول على الأرض والاستيلاء العميق ضد المالك الكبير، مشاعر تعتمل تحت السطح، لكن وبسبب أنها لم تعثر على أي تعبير منظم، فقد ظلت كامنة مثل بركان غير نشط. في بدايات القرن الجديد، سمع الفلاحون أصداء التمرد من المدن، وأثار ذلك شيئا عميقا داخلهم:

قال أحد الفلاحين بعد انتفاضات 1902: «لم تصلني أي شائعات عن أي كتب صغيرة (مناشير الدعاية الثورية)، أعتقد أنه لو كنا نعيش بشكل أفضل فلن تكون للكتب الصغيرة أهمية مهما كان ما هو مكتوب فيها. إن الشيء السيئ ليس هو الكتب الصغيرة، بل هذا؛ السيئ هو أنه ليس هناك أي شيء لناكله».

وفي حين كان لينين يدعو إلى تسوية ثورية للحسابات مع كبار الملاكين العقاريين، فإن إصلاح ستوليبين كان حلا برجوازيا رجعيا للمسألة الزراعية. تمت صياغة قانون جديد أدى إلى تحطيم الكومونات القروية لصالح الأقلية «البرجوازية» من الفلاحين، أو من كانوا يسمون بالكولاك. كان ذلك الإصلاح، على حد قول صاحبه: «رهاننا ليس على المحتاج والمخمر، بل على الفاعل والقوي». كان الشرط المسبق لإدخال الزراعة الرأسمالية إلى روسيا هو تفكيك الكومونات وإنشاء طبقة من الفلاحين الأغنياء.

أكد ستوليبين «أن المبدأ الطبيعي للكومونة هو الملكية الفردية. كما أنها أيضا ضمانا لاستقرار النظام، لأن المالك الصغير هو الخلية التي يبنى عليها كل نظام مستقر في الدولة»<sup>1</sup>. صدر الأوكاز [المرسوم] في أواخر 1906، وصار في 14 يونيو 1910 قانونا. كان التوجه الأساسي لذلك القانون هو إعطاء الفلاحين الحق في مغادرة كومونة القرية -الأوبشينا-، على الرغم من أنه في الممارسة العملية، كان الفلاحون الأثرياء هم وحدهم من لديهم الوسائل لتحقيق الاستقلالية.

قال كيرنسكي: «لقد تم تطبيق الإصلاح بحيوية هائلة، لكن أيضا مع تجاهل صارخ لأبسط مبادئ القانون والعدالة. لقد صادرت الحكومة، التي كانت تدعم «الأقوى»، الأراضي التابعة للبلدية وأعطتها للفلاحين الميسورين. أعطيت لهم أفضل قطع الأراضي، في انتهاك كامل لحق الكومونة في الحيابة. وتم منح المالكين الجدد لتلك الأراضي قروضا تصل إلى 90% من التكلفة لكي يقيموا مزارعهم».

كان إصلاح ستوليبين يعني هزة عنيفة لعلاقات ملكية الأرض. وفي النهاية ربما صار ثلثا الأراضي في ملكية الفلاحين. لكن وعلى الرغم من كل الفوائد التي وفرها لهم ذلك الإصلاح، فبحلول فاتح يناير 1915، لم تتمكن سوى 2.719.000 أسرة فلاحية من القول بأن حيازاتها أصبحت ملكا خاصا لها (حوالي 22% أو 24% من إجمالي مساحة الأراضي الفلاحية المتاحة). لكن كيف رأت أغلبية الفلاحين إصلاح ستوليبين الزراعي؟

يقول كيرنسكي: «اتخذ الفلاحون، في معظم الأحيان، وجهة نظر معارضة أو حتى عدائية تجاه إصلاح ستوليبين الزراعي، وذلك لسببين: أولا، وهو الأهم، لم يكن الفلاح يريد أن يقف ضد الكومونة، وكانت فكرة ستوليبين عن «دعم الأقوى» تتناقض مع نظرة الفلاح للحياة، لم تكن لدى الفلاح رغبة في أن يصبح ملاكا عقاريا على حساب جيرانه».

لم تقدم تلك السياسة أي حل للمشاكل الملحة التي كان الفلاحون الروس يواجهونها. وقد تم التعبير عن الرغبة الحارقة للفلاحين في الحصول على الأرض من خلال سلسلة كاملة من الانتفاضات في القرى والتي وجهت تحذيرا للاستبداد بأن هذه «الجماهير الصامتة» لم تعد ترغب في تحمل ثقل اضطهاد المالكين العقاريين في صمت. صبر الموجيك الروسي، الذي كان مضربا للأمثال، وصل إلى نهايته. كان ذلك خطرا مميتا على النظام الاستبدادي واحتياطيا لا ينضب من القوة لصالح الثورة. وهكذا فإن مصير البروليتاريا كان أكثر من أي وقت مضى، مرتبطا ارتباطا وثيقا بمسألة الحل الثوري لمشكلة الأرض. وقد اختتم كيرنسكي بخلاصة كئيبة: «من خلال إصلاحه الزراعي عمل ستوليبين على إشعال الحرب الأهلية في الريف الروسي»<sup>2</sup>.

كتب لينين في عام 1920، يتذكر سنوات الردة الرجعية (1907-1910) قائلا: «كانت القيصرية منتصرة. وكانت جميع الأحزاب

1: B.H. Sumner, A Survey of Russian History, pp: 115 and 116.

2: Kerensky, Memoirs, p: 97 and 98.



الثورية والمعارضة قد سحقت. فاحتل الاكثاب والإجباط والانشقاقات والخلافات والردة والبورنوغرافيا، مكان السياسة. كان هناك انحراف متزايد باستمرار نحو المثالية الفلسفية؛ وأصبح التصوف رداء المشاعر المضادة للثورة. لكن وفي نفس الوقت، كانت تلك الهزيمة الساحقة هي التي علمت الأحزاب الثورية والطبقة الثورية درساً حقيقياً ومفيداً جداً، درساً في ديالكتيك التاريخ، درساً في فهم النضال السياسي، وفي فن وعلم خوض ذلك النضال. لحظات الحاجة هي التي يتعلم المرء فيها من هم أصدقائه. الجيوش المهزومة تتعلم الدرس بشكل جيد»<sup>1</sup>.

تعرضت الحركة العمالية لأضرار شديدة، ليس فقط بسبب الاعتقالات، ففي الفترة ما بين عامي 1906 و 1910، تم إغلاق 500 منظمة نقابية. وانخفضت عضوية النقابات مع ارتفاع البطالة بلا هوادة. انخفضت عضوية النقابات الشرعية من 246.000 إلى 50.000، ثم إلى 13.000. وتم تمديد يوم العمل إلى 12 ساعة، بل و15 في بعض الحالات. والارتفاع السريع في البطالة، الذي كان جزئياً يعكس أزمة اقتصادية عالمية، جعل وضع العمال أكثر سوءاً. في منطقة موسكو، في عام 1907، كان حوالي ربع عمال مصانع التعدين عاطلين عن العمل. وكانت هناك حالات مشابهة في أماكن أخرى. وفي أعقاب الهزيمة السياسية الساحقة، استنزفت البطالة الجماهيرية ما تبقى من الروح الكفاحية عند الطبقة العاملة. وأعد أرباب العمل قوائم بأسماء الناشطين والذين كانوا يطردون بانتظام من العمل. وانهارت الأجور.

وبشكل حتمي أدى تراجع الثورة إلى سلسلة من الأزمات والانقسامات الداخلية في جميع الأحزاب اليسارية. هذا صحيح ليس فقط بالنسبة للاشتراكيين الديمقراطيين، بل أيضاً للاشتراكيين الثوريين. وإلى جانب تراجع عدد الأعضاء والصعوبات المالية انضافت الفضائح والانقسامات. فحتى القيادي الإرهابي الاشتراكي الثوري البارز ورئيس الجناح المسلح للحزب، إيفنو أرف، اتضح أنه عميل للبوليس. كان هناك انقسام بين اليمين واليسار داخل الاشتراكيين الثوريين، إلى الاشتراكيين الشعبين (الجناح اليميني)، والماكسيماليين (اليسار) الذين طالبوا بالاشتراكية الفورية للأراضي والمصانع. كان ذلك في حد ذاته تطوراً كبيراً، واستباقاً لانشقاق يسار الاشتراكيين الثوريين في عام 1917. خلال المؤتمر الخامس للحزب الاشتراكي الثوري، في ماي 1909، أشار مندوب بيتسبورغ، أندرييف، إلى أنه، من الناحية التنظيمية، لم يعد للحزب وجود في العاصمة؛ ولم يتبق هناك سوى أفراد معزولين<sup>2</sup>. كما كان هناك انقسام داخل الحركة اللاسلطوية الصغيرة بين دعاة الإرهاب وبين النقابيين اللاسلطويين.

وفي الوقت نفسه لم تؤد إعادة توحيد الحزب الاشتراكي الديمقراطي إلى إنهاء الصراع الداخلي، بل على العكس تماماً. كما أن العلاقات بين البلاشفة والمناشفة لم تتفاقم بشكل مطرد فحسب، بل اندلعت سلسلة كاملة من الانقسامات داخل الفصيلين الرئيسيين. لم يكتف الجناح اليميني المنشفي (أكسلرود وشيريفانين) بالدعوة إلى عقد اتفاق مع الكاديت فحسب، بل طرح أيضاً فكرة تنظيم "مؤتمر عمالي" بطابع غير حزبي، على شاكلة حزب عمالي إصلاحية بدلا من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الثوري القديم. نرى هنا بالفعل، وفي وقت مبكر جداً، البذور الأولى للنزعة التصوفية. كان مرض التعاون الطبقي واسع الانتشار بين جميع وجهات النظر المنشفية. نشر بليخانوف "رسالة مفتوحة إلى العمال الواعين"، في صحيفة الكاديت، توفاريش، حيث دعاهم إلى دعم البرجوازية الليبرالية. وذهب المنشفي باسيليف إلى حد الدعوة إلى اندماج الاشتراكيين الديمقراطيين مع الاشتراكيين الثوريين والكاديت في حزب دستوري واحد، وهو الاقتراح الذي أسماه لينين "قمة قمم الانتهازية". كان الطريق الوحيد للخروج من المأزق هو عقد فوري لمؤتمر جديد للحزب. وقد شن لينين حملة عنيدة من أجل ذلك، مستندا في ذلك على لجنة بيتسبورغ.

## مجلس الدوما الثاني

كانت الردة الرجعية قد كسبت المعركة لكنها لم تكن بعد واثقة في نفسها. وقد زواج النظام بين الجزيرة والعصا. عمل القيصر على عقد مجلس الدوما الثاني، وفي نفس الوقت شدد حملة القمع. ومرة أخرى طرحت المسألة: هل ينبغي أن يشارك الاشتراكيون الديمقراطيون في انتخابات مجلس الدوما: نعم أم لا؟ كان لينين، بحلول ذلك الوقت، قد توصل إلى الرأي القائل بأن المقاطعة ستكون موقفاً خاطئاً. وكان قد توصل بالفعل إلى خلاصة أنه كان من الخطأ مقاطعة مجلس الدوما الأول (دوما وايت)، على الرغم من أنه كان وحيداً في تبني هذا الرأي بين قادة الفصيل البلشفي. في شهر شتبر عام 1906 كتب أنه يجب إعادة النظر في تكتيك المقاطعة. إن التكتيكات بطبيعتها لا يمكن اعتبارها شيئاً جامداً وثابتاً طوال الوقت. يجب على التكتيكات أن تعكس الحالة الراهنة في

1: LCW, "Left-Wing" Communism: an Infantile Disorder, vol. 31, pp: 27-28.

2: McKean, Between the Revolutions, p: 62.

المجتمع وحالة الجماهير النفسية والمرحلة التي تمر منها الحركة. إذا كانت الثورة في تراجع، لا يمكن للحزب أن يتخلى عن أي ساحة شرعية للنضال. من واجبه أن يستخدم كل هامش مفتوح وكل منصة من شأنها أن تساعد على الحفاظ على روابط الحزب مع الجماهير. إن التصرف بأي طريقة أخرى هو تحويل الحزب إلى عصابة. إن العصبوي يعيش في عالمه الصغير، بعيداً عن الجماهير، ولهذا السبب بالذات فإن الأسئلة الملموسة للتكتيكات لا تثير اهتمامه. وبما أنه قد اخترع بروليتاريا (وهمية) خاصة به في عالم مثالي (وهمي)، فلا حاجة له إلى السعي لإقامة علاقات مع الطبقة العاملة الحقيقية ومنظماتها القائمة. في مقاله "العصبوية والمركزية والأممية الرابعة" (1935)، يصف تروتسكي العصبوي على النحو التالي: «ينظر العصبوي إلى حياة المجتمع كمدرسة كبيرة، يلعب فيها هو دور المعلم. ينبغي على الطبقة العاملة، من وجهة نظره، أن تضع جانبا مشاكلها الأقل أهمية وأن تجتمع في صف متراص أمام منبره. وهكذا ستحل المسألة.

وعلى الرغم من أنه يقسم بالماركسية في كل جملة من جملة، فإن العصبوي هو النفي المباشر للمادية الديالكتيكية، التي تأخذ الخبرة نقطة انطلاق لها وتعود دائماً إليها. لا يفهم العصبوي جدلية التفاعل بين البرنامج المكتمل وبين النضال الجماهيري الحي، أي الناقص وغير المكتمل... العصبوية معادية للديالكتيك (ليس بالكلمات بل في الممارسة) بمعنى أنها تدير ظهرها للتطور الفعلي للطبقة العاملة»<sup>1</sup>.

لكن الأمر مختلف تماماً بالنسبة للتيار الماركسي الحقيقي، الذي يجب عليه أن يجد الإجابة على السؤال التالي: كيف يمكن ربط البرنامج الماركسي العلمي المكتمل مع الحركة الجماهيرية التي هي بالضرورة غير مكتملة ومتناقضة وغير منسجمة؟ لا يمكن الإجابة على هذا السؤال بتكرار الصيغ المجردة. يجب إقامة الرابط في كل مرحلة من خلال مراعاة الظروف الحقيقية التي تمر منها الحركة.

بالنسبة للعمال الاشتراكيين الديمقراطيين الطليعيين، كان من الواضح أن مجلس الدوما لا يمكنه حل أية مشكلة من المشاكل التي تواجه البروليتاريا والفلاحين الفقراء، لكن بالنسبة لعموم الجماهير، وخاصة في الريف، كان ذلك غير واضح. لقد أثرت أوهام كبيرة حول إمكانية تحقيق إصلاحات من خلال البرلمان، ولا سيما الإصلاح الزراعي. أرسل الفلاحون ممثلهم إلى مجلس الدوما، ممثلين بكتلة التروودوفيك (العمل)، وانتظروا النتائج بفارغ الصبر. وحتى بين العمال، رغم أنه كانت هناك أوهام أقل بينهم حول الدوما، فإن هزيمة الثورة كانت تعني أن الدوما بدأ يحتل المزيد من الاهتمام.

كقاعدة عامة لا يقاطع الماركسيون البرلمان إلا عندما يكون هناك احتمال واقعي بأن يحل محله شيء أفضل، كما كان الحال في نوفمبر 1917. ولكن إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن مقاطعة الانتخابات تعني فقط أن حزب العمال يقاطع نفسه. ليس لهذا الموقف أي علاقة مع اللينينية. لقد كان لينين يؤيد تكتيكات مرنة تعكس الحالة المتغيرة. وفي مقابل المناشفة الذين فضلوا عقد صفقة انتخابية مع الكاديت-الليبراليين البرجوازيين، دعم لينين عقد صفقات انتخابية مع التروودوفيك والاشتراكيين الثوريين ضد الأحزاب اليمينية وضد الليبراليين. لقد كانت فكرة تشكيل كتلة يسارية بين الأحزاب البروليتارية والأحزاب البرجوازية الصغيرة الثورية ضد الليبراليين البرجوازيين امتداداً لسياسة الجبهة الموحدة على المستوى الانتخابي. لقد كان من المقبول التصويت في مجلس الدوما جنباً إلى جنب مع تلك الأحزاب حول نقاط محددة حيث يوجد اتفاق مبدئي، في حين يبقى الاشتراكيون الديمقراطيون أنفسهم أحراراً في جميع الأوقات لانتقاد السياسات غير المتناسقة والغامضة والمتناقضة للأحزاب البرجوازية الصغيرة.

القاعدة الذهبية هي: الاستقلالية المطلقة لحزب العمال في جميع الأوقات عن جميع التيارات الأخرى (بما في ذلك البرجوازية الصغيرة الراديكالية). لا تكتلات برنامجية، لا خلط للرايات؛ الحرية الكاملة في ممارسة النقد؛ وقبل كل شيء، كان من الضروري شن نضال حازم ضد الليبراليين البرجوازيين. كان الهدف الأساسي في الواقع هو دق إسفين بين الممثلين السياسيين للبرجوازية الصغيرة وبين الكاديت. إن الرفض الصريح للأوهام الإصلاحية والبرلمانية وجميع أشكال التعاون الطبقي، هي السمات الأساسية لسياسة لينين في تلك الفترة، والتي انعكست في مئات الخطابات والمقالات والقرارات. كانت تلك السياسة بدورها انعكاساً لإستراتيجية أشمل هي الكفاح من أجل هيمنة البروليتاريا على الجماهير البرجوازية الصغيرة، ولا سيما الفلاحين. وقد ظهرت نتائج هذه الإستراتيجية بشكل واضح في ثورة أكتوبر.

تمت تسوية هذه المسألة في مؤتمر نوفمبر 1906، الذي عقد في تامرفورس في فنلندا، بسبب مد الردة الرجعية في روسيا. كانت تلك لحظة حاسمة في تاريخ الحزب، فقد دعم المناشفة والبوند إقامة كتلة مع الكاديت. واعتبر لينين أن هذه هي الخطوة

1: Trotsky, Writings, 1935-1936, p: 153.

الحاسمة التي تمثل الانتقال النهائي للمناشفة إلى الانتهازية<sup>1</sup>. لكن الحزب كان يعرف آنذاك تغيراً في الحالة المزاجية، وهو ما تجلّى في التأييد المتزايد لموقف لينين الذي حصل على دعم 14 مندوباً (65% من المؤتمرين)، وهو الموقف الذي عبر عنه في "تقرير الأقلية" حيث أكد على ضرورة استقلالية الطبقة العاملة وأن الاتفاقات الوحيدة المسموح بها هي اتفاقات مؤقتة مع التيارات البرجوازية الصغيرة الديمقراطية الثورية. كشف مؤتمر تامرفورس عن وجود صراعات داخلية حادة، لكنها لم تؤد إلى حدوث انقسام. اقتصر لينين على الدفاع عن أفكاره والنضال من أجل كسب الأغلبية، وكان واثقاً من أن التجربة سوف تثبت أنه على حق. كان تقسيم صفوف الحزب في ذلك الوقت سيكون موقفاً غير مسؤول. كانت هناك حاجة إلى المزيد من الوقت لكي تتوضح في خضم الأحداث المسائل المتنازع عليها بشأن التكتيكات. غير أن الوضع الداخلي في الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان معقداً، فقد حدث انقسام فعلي على خلفية التكتيكات الانتخابية في منظمة سان بيترسبورغ، والذي تمت معالجته أخيراً في مؤتمر محلي، عقد في أوائل يناير 1907، حيث تم رفض التكتل مع الكاديت. وبعد أن خسر المندوبون المناشفة النقاش والتصويت، انسحبوا من أجل إتباع سياستهم بشكل منفصل. كان ذلك مؤشراً عن الأحداث المستقبلية. وبينما استمر الحزب متحداً من الناحية الرسمية، فقد تصاعدت بشكل حاد التوترات بين مختلف الفصائل.

تنص المادة الرابعة من القرار بخصوص التكتيكات الانتخابية، الذي أقره المؤتمر، على أن: «الاتفاقات المحلية مع الأحزاب الثورية والمعارضة الديمقراطية مسموح بها إذا ظهر، خلال الحملة الانتخابية، أن هناك خطر نجاح الأحزاب اليمينية». استخدم المناشفة هذا القرار في الممارسة العملية لدعم مرشحي الكاديت في العديد من المناطق. أما من ناحية أخرى، فقد دافع البلاشفة على أنه: «في المرحلة الأولى من الحملة الانتخابية، أي أمام الجماهير، يجب على الاشتراكيين الديمقراطيين، كقاعدة عامة، أن يتقدموا كحزب مستقل، وأن يقدموا مرشحي الحزب فقط للانتخاب».

ويسمح بالاستثناءات «في الحالات المستعجلة، وذلك فقط مع الأحزاب التي تتفق بالكامل مع الشعارات الرئيسية للنضال السياسي الفوري الذي نخوضه، أي تلك الأحزاب التي اعترفت بضرورة الانتفاضة المسلحة، وناضلت من أجل جمهورية ديمقراطية. وبالإضافة إلى ذلك لا يمكن تشكيل مثل هذه الائتلافات إلا فيما يتعلق بوضع قائمة مشتركة بالمرشحين، ولا يمكن أن تتداخل بأي شكل من الأشكال مع التحريض السياسي للاشتراكيين الديمقراطيين»<sup>2</sup>.

جرت انتخابات مجلس الدوما الثاني في 20 فبراير 1907. وعلى الرغم من كل شيء فقد كان تكوينه أكثر يسارية من الدوما الأول. كان اليسار ممثلاً من قبل 222 نائباً من أصل ما مجموعه 518. وكانت التمثيلية على النحو التالي: 65 نائباً عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي، 104 عن الترودفيك، 37 عن الاشتراكيين الثوريين، 16 عن "الاشتراكيين الشعبيين" وذلك مقابل 54 فقط عن الأحزاب اليمينية (الملكيين والأكتوبريين)، وكان الخاسر الحقيقي هو الكاديت الذي فقد الدعم من كل من اليمين واليسار، وصار لديه 98 نائباً فقط، مقابل 184 في الدوما الأول<sup>3</sup>. كان هناك عدد أكبر من الفلاحين في الدوما الثاني مما كان في الدوما الأول. لكن المفارقة هي أن التركيبة اليسارية للدوما كانت أحد أعراض تراجع الثورة، وليس تقدمها. وعلى الرغم من أن الجماهير، ليس فقط العمال بل أيضاً البرجوازية الصغرى، حاولت الانتقام من الحكم المطلق بالتصويت لصالح اليسار في انتخابات مجلس الدوما، فإنها لم تعد قادرة على شن انتفاضة جديدة.

تكتيك المشاركة في الانتخابات بررته النتائج بشكل كامل، بفضل تخليهم عن قرار المقاطعة، حصل الاشتراكيون الديمقراطيون على 65 نائباً، على حساب الكاديت أساساً. انتخب العمال المرشحين الاشتراكيين الديمقراطيين في الاقتراع الأول. والغريب هو أن حزب الاشتراكيين الثوريين تمكن في بيترسبورغ من الحصول على العديد من المقاعد. وفي القرى فاز العديد من مرشحي الكتلة اليسارية. كان الوضع داخل الحزب متقلباً للغاية، وكانت الآراء تتغير في جميع الاتجاهات. وبدأت الاختلافات في الظهور داخل صفوف المناشفة، الذين انضم جزء منهم إلى الكتلة اليسارية.

1: Lenin, Collected Works in Russian, vol. 14, p: 125.

2: Piatnitsky, Zapiski Bol'shevika, pp: 146-147.

3: لقد تم إحصاء تمثيلية الأحزاب في الدوما بشكل مختلف من قبل مختلف الكتاب. تكون الاختلافات أحياناً واحداً أو اثنان فقط، لكنها في أحيان أخرى تكون أكثر أهمية. فعلى سبيل المثال ذكرت Istoriya أن عدد نواب الترودفيك وصل إلى 104، بينما قالت Kochan إن الرقم هو 98 وقالت Pares إنه 201! ربما يكون ذلك نتيجة لعدم استقرار الحدود بين التكتلات على "اليمين" و"اليسار". وفي الحالة التي بين أيدينا ربما تكون Pares قد خلطت بين العدد الكلي للنواب الفلاحين وبين هؤلاء الذين ينتمون تحديداً إلى مجموعة الترودفيك. إن هذا النوع من الاختلافات شائع على هذا الصعيد والأرقام التي سقناها هنا مستمدة من Istoriya KPSS.

كانت الفروق بين اليمين (الملكيين / الملاكين العقاريين) وبين الكاديت ضئيلة للغاية في الواقع: فالبرجوازيون "الليبراليون" دافعوا عن مصالح أبناء عمومته الملاكين العقاريين، في حين استمروا في تلقينهم أفضل الطرق لإبقاء الجماهير في القهر. في الواقع كان العديد من الكاديت أنفسهم ملاكين كبار. وكانت المسألة المركزية في جميع مداولات الدوما هي المسألة الزراعية. قدم الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي نقطة تجميع حقيقية ليسار. لكن الفريق كان ما يزال تحت سيطرة المناشفة، الذين كان لهم 33 نائباً بالإضافة إلى عدد من المتعاطفين<sup>1</sup>. بينما بلغ عدد البلاشفة 15 نائباً وثلاثة متعاطفين.

سرعان ما ظهرت الفروق بين الفصيلين. فالمناشفة، وتماشيا منهم مع سياستهم الرامية إلى السعي إلى عقد تحالف مع الكاديت، اقترحوا ترشيح عضو من الكاديت للرئاسة، في حين اقترح البلاشفة إما عضواً من التروودوفيك أو فلاحاً غير حزبي. وناضل النواب الاشتراكيون الديمقراطيون في الدوما باستمرار لدعم مطالب الفلاحين، لكن الحياة نفسها كانت تكشف النقص الصارخ في البرنامج الزراعي القديم للحزب الاشتراكي الديمقراطي. كان البرنامج الذي أقره المؤتمر الرابع للحزب قد اقتصر على مطلب وضع الأرض في يد البلديات، بيد أن الأوضاع كانت قد تجاوزت كثيراً هذه التدابير الجزئية. طالب الفلاحون بالتأميم، ولم يقتصر على الخطب، فقد كانت هناك 131 "حادثة" في مارس و193 "حادثة" في أبريل و211 في ماي و216 في يونيو. لقد أضيئت المناقشات التي كانت تتم في قصر توريد بنيران الانتفاضات التي اشتعلت في القرى.

### المؤتمر الخامس (لندن)

أدى تصرف الفريق البرلماني في الدوما إلى استياء كبير بين قواعد الحزب. وكان ذلك أحد الأسباب وراء الدعوة إلى عقد المؤتمر الخامس (مؤتمر لندن). تركز اهتمام الحزب، خلال شهري فبراير ومارس 1907، على الأعمال التحضيرية للمؤتمر. وكما كان متوقفاً فقد حدث تقاطب في جدول الأعمال بين القرارات المتضاربة التي قدمها الفصيلان البلشفي والمنشفي. كان من المقرر في البداية أن ينعقد المؤتمر في الدمارك، لكن السلطات القيصرية اتصلت بحكومة كوبنهاغن وأقنعتها برفض الترخيص لعقده. ثم حاولوا نقله إلى مالمو، لكن الحكومة السويدية أوضحت لهم أنهم غير مرحب بهم، لذلك اضطروا إلى حمل حقائبهم مرة أخرى. وفي النهاية حط المؤتمر الرحال في لندن، حيث انعقد في كنيسة بشارع ساوثجيت، والتي، لسخرية التاريخ، كانت تابعة لأعداء الثورة، جمعية فابيان الاصلاحية اليمينية<sup>2</sup>.

بعد سنوات عديدة يتذكر غوركي قائلاً: «ما أزال أستطيع أن أرى بوضوح أمامي تلك الجدران الخشبية العارية غير المزخرفة إلى درجة التقشف، والنوافذ التي تطل على قاعة صغيرة وضيقة تشبه قاعة دراسية في مدرسة فقيرة»<sup>3</sup>. في مثل هذا المكان الكئيب اجتمع الثوار للبحث في مصير الثورة الروسية.

افتتح المؤتمر الخامس، في تمام الساعة السابعة من مساء يوم 30 أبريل، واستمرت أشغاله ثلاثة أسابيع تقريباً، حتى 19 ماي 1907. كان اجتماعاً بالغ الأهمية. على الرغم من الظروف الصعبة، كان هذا المؤتمر هو الاجتماع الأكثر تمثيلية للحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية من كل المؤتمرات التي سبقته. كان هناك ما لا يقل عن 303 مندوبين، فضلاً عن 39 عضواً آخر لهم صوت استشاري. كان هناك مندوب واحد لكل 500 عضو في الحزب (أي ما مجموعه 150.000 عضو في 145 منظمة حزبية)، تنتمي 100 منظمة منها للحزب الاشتراكي الديمقراطي، وثمانية منظمات للحزب الاشتراكي الديمقراطي البولندي والحزب الاشتراكي الديمقراطي الليتواني، بالإضافة إلى سبع مجموعات لاتفية و30 مجموعة تنتمي لحزب البوند. كان هؤلاء هم جيش الثورة. وعلى الرغم من أن معظمهم كانوا ما زالوا في العشرينات من عمرهم، فإنه لم يكن من بينهم أي شخص لم يتصلب عوده بتجربة السجن والنفي. ومنذ انعقاد المؤتمر السابق، قبل 12 شهراً، تمكن الفرع الروسي للحزب من زيادة عدد أعضائه من 31.000 عضو إلى 77.000، أي

1: نجد هنا اختلافات أخرى حيث تذكر Istoriya أن عدد المتعاطفين ثلاثة، بينما تذكر Kochan أنه 11.

2: لم يكن المقر سوى واحد من العديد من المفارقات التي ارتبطت بهذا المؤتمر. الشيء الأكثر غرابة هو الطريقة التي تم بها تمويل المؤتمر: فالحزب الذي كان مفلساً بجميع المقاييس، اضطر إلى البحث عن قرض، وهو ما تمكن غوركي أخيراً من الحصول عليه، من صاحب مصنع إنجليزي للصابون، بفضل وساطة الاشتراكي الإنجليزي، جورج لانسبري. كان من المقرر سداد القرض بحلول فاتح يناير 1908، لكن المقرض لم يتفاجأ ربما عندما لم يتوصل ولو بفلس واحد. غير أن الدين لم ينس، فبعد ثورة أكتوبر، قامت الحكومة السوفياتية، من خلال كراسين، سفيرها آنذاك في لندن، بإعادة المال إلى ورثة المقرض، الذين كانوا بدون شك مندهشين وهم يعيدون للحكومة السوفياتية الوثيقة التي تقر بالدين، والتي كانت موقعة من قبل جميع المشاركين في المؤتمر!

3: Ibid., p: 146.

بمعدل مرتين ونصف. ومع ذلك فإنه يجب التعامل مع هذه الأرقام بحذر، فحدة الصراع الفصائلي دفعت الجانبين إلى تضخيم أعداد العضوية. لكن ومع أخذ ذلك في الاعتبار فإنه من الواضح أن الحزب استمر في النمو، حتى خلال فترة الرد الرجعية، الشيء الذي لم يكن يعكس مزاج الجماهير، بل كان يعكس تجذر الفئة الأكثر وعياً بين العمال والطلاب. ولنفس السبب فقد نما الجناح اليساري للحزب بمعدل أسرع من نمو الجناح اليميني.

كان التوازن بين الفصائل يقف على حد السكين. ففي بداية عام 1906، كانت قوى البلاشفة والمناشفة في سان بيترسبورغ متساوية تقريبا. لكن خلال الفترة الفاصلة بين الدوما الأول والثاني، تمكن البلاشفة من تحقيق التقدم. وبحلول وقت الدوما الثاني، يذكر تروتسكي بأنهم: «كانوا قد حصلوا بالفعل على الهيمنة الكاملة بين صفوف العمال المتقدمين»<sup>1</sup>. وقد انعكس هذا التحول في تكوين مؤتمر لندن. لقد كان مؤتمر ستوكهولم منشفيا؛ بينما كان مؤتمر لندن بلشفيا. في المؤتمر السابق، كان عدد البلاشفة 13.000 مقابل 18.000 للمناشفة (مندوب واحد لكل 300 عضو في الحزب). أما الآن فقد صار الوضع مختلفا، فمن بين جميع المندوبين، كان هناك 89 بلشفي، و88 منشفي.

اجتمعت في ذلك المؤتمر كوكبة من أبرز المواهب، لم يسبق لأي مؤتمر اشتراكي ديمقراطي أن جمعها. من أبرز المدافعين عن مواقف المناشفة كان هناك بليخانوف ومارتوف وأكسلرود وديوتش ودان. وكان من بين المندوبين البلاشفة لينين وبوغدانوف وزينوفيف وكامينيف وبونوف ونوجين وشوميان وليادوف وبوكروفسكي وتومسكي. كان غوري، الكاتب المعروف، الذي كان قريبا من البلاشفة، حاضرا أيضا. كما حضر تروتسكي، الذي كان قد هرب للتو من سيبيريا، باعتباره اشتراكيا ديمقراطيا من خارج الفصائل. وكان هناك أيضا شاب جورجي، كان يعرف باسم إيفانوف، والذي لم يسمع له أي صوت خلال أشغال المؤتمر، لأنه لم يكن منتدبا من أي منظمة حزبية معترف بها في القوقاز، وهي المنطقة التي كان يمثلها شوميان -الذي قتل في وقت لاحق على يد قوات الغزو البريطانية في باكو- وميخا تسخاكايا، الذي سافر مع لينين في "القطار المغلق" الشهير عام 1917. ذلك الزائر الصامت المسمى إيفانوف اكتسب لاحقا سمعة سيئة تحت اسم ستالين. لكنه في تلك المرحلة كان مجهولا في دوائر الحزب خارج فرعه المحلي، ومر حضوره في المؤتمر دون أن يلاحظه أحد.

من العوامل الرئيسية وراء غلبة الطابع اليساري على المؤتمر مشاركة الأحزاب غير الروسية، التي كانت تقف عموما على اليسار، مما أعطى البلاشفة الأغلبية. ومن بين المندوبين من بولندا وليتوانيا كانت هناك روزا لوكسمبورغ وماركليفسكي وتيسكا (جوغيتش)، الذين شكلوا جزءا من مجموعة متماسكة مكونة من 44 عضوا كانت تدفع المؤتمر بشكل قوي نحو اليسار. وكان فيليكس دزيرجينسكي، الذي صار لاحقا رئيس التشيكا، سيكون عضوا في الوفد البولندي، لكنه تعرض للاعتقال في طريقه إلى المؤتمر. كما ترأس الاشتراكيين الديمقراطيين اللاتيفيين الراديكاليين زعيم مستقبلي آخر للتشيكا والجيش الأحمر، هو هيرمان دانشفيسكي. وقد أحاطت إدارة الشرطة علما بالتغيرات التي طرأت على المؤتمر، حيث جاء في تقاريرها أن: «مجموعات المناشفة في حالتها الراهنة لا تشكل خطرا كبيرا مثلما هم البلاشفة». وشملت التقارير أيضا التقييم التالي: «من بين الخطباء الذين تحدثوا أثناء المناقشة دفاعا عن وجهة النظر الثورية المتطرفة هناك ستانيسلاف (بلشفي) وتروتسكي وبوكروفسكي (بلشفي) وتيشكا (الحزب الاشتراكي الديمقراطي البولندي)؛ أما دفاعا عن وجهة النظر الإصلاحية فهناك مارتوف وبليخانوف» (قادة المناشفة). ويواصل عميل الأورخانا قائلا: «هناك مؤشر واضح بأن الاشتراكيين الديمقراطيين يتجهون نحو أساليب النضال الثورية... أما المناشفة، الذين ازدهروا بفضل الدوما، فقد تراجعوا في الوقت الحالي، عندما أظهرت الدوما عجزها، مما أعطى مجالاً واسعاً للبلاشفة، أو بالأحرى، للاتجاهات الثورية المتطرفة»<sup>2</sup>.

من الممتع قراءة محاضر المؤتمر، ففيها نجد أول نقاش حقيقي بين البلاشفة والمناشفة حول التكتيكات والاستراتيجية. وبالمقارنة مع ذلك لم تكن الاختلافات التي شهدتها المؤتمر الثاني في الواقع سوى استباق لما سيحدث مستقبلا. وحتى المناقشات التي شهدتها مؤتمر ستوكهولم، المتعلقة بالخلاف حول تأميم الأراضي مقابل وضعها في ملكية البلديات، لم تصل حقا إلى جوهر المشكلة، التي برزت بوضوح تام في المؤتمر الخامس. كان جدول الأعمال مكونا من: نقاش تقارير اللجنة المركزية والفريق البرلماني في الدوما؛ وموقف الحزب من الأحزاب البرجوازية؛ ومسألة المؤتمر العمالي؛ ومجلس الدوما؛ والنقابات؛ وحركة الأنصار [الجناح المسلح]؛ والبطالة؛ والأزمة الاقتصادية؛ وإغلاقات المصانع؛ والمسائل التنظيمية؛ والمؤتمر الأممي؛ والعمل وسط الجيش.

افتتح مارتوف المؤتمر بقراءة تقرير اللجنة المركزية. وبما أن اللجنة المركزية كانت تحت سيطرة المناشفة، فقد قدم بوغانوف

1: Trotsky, Stalin, p: 89.

2: Trotsky, Stalin, p: 89.

وثيقة مضادة توضح وجهة النظر البلشفية. وهكذا افتتح المؤتمر مناقشة ساخنة. لكن وعلى النقيض من المؤتمر السابق، صار المناشفة الآن في حالة دفاع. وعندما أكد بليخانوف في خطابه الافتتاحي للمندوبين أنه ليست هناك أي ميولات تحريفية داخل الحزب، انكمش لينين على نفسه وانخرط في ضحك صامت.

كان كل شخص تقريبا في ذلك المؤتمر ينتمي إلى هذا الفصيل أو ذاك، وتنعكس هذه الحقيقة في انتخاب هيئة الرئاسة، التي تألفت من خمسة مندوبين، واحد من كل مجموعة منظمة. اختار المناشفة دان واختار البوند ميديم واختار اللاتيفيون آزييس روزين والبولنديون تيزكا والبلاشفة لينين. وقد عبر المناشفة عن موقف خبيثا منذ البداية من خلال تشكيكهم في أوراق اعتماد لينين. في هذه اللحظة انفجر المؤتمر، وبدأ المندوبون يصرخون ويلوحون بقبضاتهم في وجه بعضهم البعض. ولم تتم استعادة النظام إلا عندما سحب المناشفة اعتراضاتهم، لكن الجلسة الافتتاحية أفسحت المجال أمام بقية أشغال المؤتمر.

## النقاش حول الأحزاب البرجوازية

كانت المسألة الرئيسية التي حددت كل شيء آخر هي الموقف من الأحزاب البرجوازية. وقد نوقشت هذه المسألة بشكل مستفيض خلال المؤتمر. تدخل أربعة أشخاص في هذا الموضوع وهم لينين ومارتينوف وروزا لوكسمبورغ وأبراموفيتش. وقد أبرز لينين، الذي تحدث أولا، الأهمية المركزية لهذه المسألة، إذ قال: «إن مسألة موقفنا من الأحزاب البرجوازية هي النقطة المركزية للاختلافات حول المسائل المبدئية التي قسمت منذ فترة طويلة الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية إلى معسكرين. فحتى قبل النجاحات الكبرى الأولى للثورة، أو حتى قبل الثورة، إذا كان من الممكن الحديث بهذه الطريقة عن النصف الأول من عام 1905، كانت هناك بالفعل وجهتا نظر متميزتان بشأن هذه المسألة. كانت الخلافات تدور حول تقييم الثورة البرجوازية في روسيا. وقد اتفق كلا التيارين داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية على أن هذه الثورة كانت ثورة برجوازية، لكنهما اختلفا في فهمهما لهذا الموقف، وفي تقييمهما للخلاصات العملية والسياسية التي يمكن استخلاصها منه. قام أحد جناحي الحركة الاشتراكية الديمقراطية -المناشفة- بتفسير هذا المفهوم على أنه يعني أن البرجوازية هي القوة الدافعة في الثورة البرجوازية، وأن البروليتاريا لا يمكنها أن تشغل سوى موقف "أقصى المعارضة"، وأنه لا يمكن للبروليتاريا أن تحمل على كاهلها مهمة إنجاز الثورة بشكل مستقل أو قيادتها».

وعبر عن اتفاقه على أن: «أهداف الثورة التي تجري الآن في روسيا لا تتجاوز حدود المجتمع البرجوازي... لكن هذا لا يعني على الإطلاق أن البرجوازية هي القوة الدافعة في الثورة أو قاندها. إن مثل هذا الاستنتاج سيكون ابتذالا للماركسية، سيكون فشلا في فهم الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية». واختتم قائلا: «إن البرجوازية لا يمكنها أن تكون القوة الدافعة في الثورة ولا أن تكون قاندها. إن البروليتاريا وحدها هي القادرة على إكمال الثورة، أي تحقيق النصر التام. لكن هذا الانتصار لا يمكن أن يتحقق إلا بشرط أن تنجح البروليتاريا في كسب قسم كبير من الفلاحين تحت قيادتها».

بينما اشتكى المناشفة من "العداء الأحادي الجانب" للبروليتاريا تجاه الليبرالية. فرد لينين بأن البرجوازيين الليبراليين لا يمثلون قوة ثورية، بل قوة معادية للثورة، وقال: «يقول المناشفة إن البرجوازية "غير مستعدة للنضال". في الواقع لقد كانت البرجوازية مستعدة للنضال، وعلى استعداد للنضال ضد البروليتاريا، وللنضال ضد الانتصارات "المفرطة" للثورة... إن التزام الصمت في الوقت الحاضر حول طبيعة البرجوازية المعادية للثورة يعني التخلي نهائيا عن وجهة النظر الماركسية، يعني النسيان الكامل لوجهة نظر الصراع الطبقي»<sup>1</sup>.

في هذا النقاش كانت روزا لوكسمبورغ، بطبيعة الحال، قريبة من لينين، وسخرت من حجة المناشفة قائلة: «اتضح أن هذه الليبرالية الثورية التي تسعى إلى السلطة، والتي يطلبون منا أن نكيف تكتيكات البروليتاريا مع مصالحها، والتي هم مستعدون لتقييد مطالب البروليتاريا من أجل إرضاءها، هذه الليبرالية الروسية الثورية لا توجد في الواقع، بل في الخيال، إنها اختراع، إنها وهم. [تصفيق]. هذه السياسة، التي أقيمت على أساس خطأ مية وعلاقات مفبركة ولا تأخذ في الاعتبار المهام الخاصة للبروليتاريا في هذه الثورة، تسمى نفسها "الواقعية الثورية"»<sup>2</sup>.

تقدم تروتسكي بتعديل علق عليه لينين باستحسان. كانت هذه هي المرة الأولى التي سنحت فيها لتروتسكي الفرصة لتوضيح وجهات نظره حول الثورة أمام الحزب. مداخلته في النقاش حول الموقف من الأحزاب البرجوازية، التي خصص لها 15 دقيقة فقط،

1: LCW, *The Fifth Congress of the RSDLP*, vol. 12, pp: 456, 457, 458, and 462-463.

2: Congress Minutes, Pyatyy S'yezd RSDRP Protokoly, p: 386.

علق عليها لينين مرتين حيث أبدى موافقته التامة على الآراء التي أعرب عنها تروتسكي، وخاصة دعوته إلى تشكيل كتلة يسارية ضد البرجوازية الليبرالية، وقال: «هذه الحقائق كافية لي لكي اعترف بأن تروتسكي قد اقترب من وجهات نظرنا. وبصرف النظر عن مسألة "الثورة المتواصلة"، فإن لدينا اتفاق بشأن النقاط الأساسية حول الموقف تجاه الأحزاب البرجوازية».

لم يكن لينين مستعداً لإبداء رأيه بخصوص نظرية تروتسكي حول الثورة الدائمة، لكن كان بينهما اتفاق كامل فيما يتعلق بالمسألة الأساسية الخاصة بمهام الحركة الثورية. وسوف نتطرق لاحقاً للاختلافات بين مواقف لينين وتروتسكي. اعتبر لينين أن تلك الاختلافات كانت ثانوية وهو ما اتضح مرة أخرى خلال المؤتمر عندما أدخل تروتسكي تعديلاً على القرار بشأن الموقف من الأحزاب البرجوازية، فلم يعارضه لينين لكونه خاطئاً، بل لكونه لم يضيف شيئاً جوهرياً إلى الأصل، وقال "إنه يجب الموافقة عليه"، مشيراً إلى أن تعديل تروتسكي ليس منشئياً، وإنما يعبر بالضبط عن نفس الفكرة البلشفية<sup>1</sup>. وقد صوت المؤتمر لصالح قرار لينين بشأن الموقف من الأحزاب البرجوازية.

وعلى الرغم من تطابق وجهات النظر حول تحليل مهام الثورة، استمر تروتسكي يسعى للتوفيق بين التيارات المتصارعة، في محاولة يائسة لمنع حدوث انشقاق. وقال خلال المؤتمر: «إذا كنتم تعتقدون أن الانشقاق أمر لا مفر منه، فانتظروا على الأقل حتى تفرق بينكم الأحداث، وليس مجرد قرارات. لا تسبقوا الأحداث». لقد ارتكب تروتسكي خطأ محاولة التوفيق بين ما لا يمكن التوفيق بينه، من خلال محاولة التوسط بين التيارين. وعلى أساس تجربة 1905، اعتقد تروتسكي أن اندلاع حركة ثورية جديدة سيكون له تأثير إيجابي في دفع أفضل العناصر بين المناشفة، ولا سيما مارتوف، نحو اليسار. وكان شاغله الرئيسي هو الحفاظ على القوى الماركسية موحدة خلال تلك الفترة الصعبة ومنع الانقسام الذي سيكون له تأثير محبط على الحركة. كان هذا هو جوهر موقف تروتسكي "التوفيق"، والذي منعه من الانضمام إلى البلاشفة في تلك الفترة.

في السنوات اللاحقة اعترف تروتسكي بنزاهة بخطئه. وتعليقاً على ذلك، كتب لينين: «لقد غرق عدد من الاشتراكيين الديمقراطيين في تلك الفترة في النزعة التوفيقية، انطلاقاً من أكثر الدوافع تنوعاً. وكانت النزعة التوفيقية الأكثر انسجاماً هي التي عبر عنها تروتسكي، والذي كان الشخص الوحيد الذي حاول توفير أساس نظري لتلك السياسة».

كل الاختلافات الحادة التي صارت تفصل الجناح اليميني عن الجناح اليساري خرجت للعلن خلال المؤتمر الخامس الذي لم يحسمها. استمرت المراكز الفصائلية قائمة وسارت كل منها في طريقها الخاص. كان للبلاشفة مركزهم الخاص الذي يضم لينين وأعضاء اللجنة المركزية، بالإضافة إلى كراسين وزينوفيف وكامينيف وريكوف وغيرهم. وكما يحدث كثيراً وجدت الاختلافات السياسية تعبيرها في المسائل التنظيمية. حتى قبل المؤتمر كان أكسلرود ولارين وآخرون قد طرحوا فكرة ما يسمى بمؤتمر عمالي. وفي مواجهة التقدم السريع للردة الرجعية، دعا المناشفة اليمينيون إلى إقبال المنظمات السرية للحزب، وإنشاء منظمة عمالية واسعة تضم حتى الاشتراكيين الثوريين واللاسلطويين واللاحزبيين، وكل من هب ودب. لكنهم تجاهلوا تفصيلاً صغيراً وهو أن إنشاء منظمة "قانونية" في روسيا في عام 1907، لم يكن يشبه إنشاء حزب عمالي جماهيري في بريطانيا في ظل ظروف الديمقراطية البرجوازية. ففي ظل الظروف الملموسة آنذاك كان ذلك الاقتراح يمثل تكيفاً انتهازياً مع المعايير التي وضعتها الردة الرجعية المنتصرة. كان من شأنه أن يعني في جوهره إغراق المناضلين في حشود العمال غير المنتمين وغير المنظمين، وهو بالمناسبة نفس الهدف الذي اتبعه منذ ذلك الحين القادة اليمينيون لحزب العمال في بريطانيا وبلدان أخرى.

لقد رفض المؤتمر هذا الاقتراح أيضاً. لم يكن ذلك الرفض يعني بأي حال من الأحوال التخلي عن الهدف المتمثل في إنشاء حزب عمالي جماهيري حقيقي، لكن الطريق إلى القيام بذلك لا يعني ابتذال برنامج الحزب إلى القاسم المشترك الأدنى، بل هو الكفاح العنيد لكسب جماهير العمال في خضم النضال من أجل البرنامج الثوري. فبعد أن يكسب الحزب ويثقف الفئة المتقدمة من الطبقة العاملة، يصير من الضروري عليه إيجاد طريق إلى الجماهير. إن الطريق إلى التواصل مع الجماهير يمر عن طريق القيام بعمل صبور داخل المنظمات الجماهيرية، بدءاً من النقابات. يجب على الحزب ألا يذنب نفسه في الحشود، بل عليه الكفاح من أجل كسب قيادة النقابات.

كانت ثمة نقطة اختلاف أخرى حول العلاقة بين الحزب وممثليه البرلمانيين. دافع المناشفة عن استقلال الفريق البرلماني عن اللجنة المركزية. وقد رفض المؤتمر هذا الاقتراح كذلك وأصر على ضرورة أن يكون ممثلوه العموميون تحت سيطرة الحزب. أثار سلوك النواب الاشتراكيين الديمقراطيين في الدوما -والذين كانوا جميعاً مناشفة في ذلك الوقت- بعض الانتقادات الحادة، وصوت

1: LCW, The Fifth Congress of the RSDLP, vol: 12, pp. 479 and 479.

المؤتمر لصالح قرار بلشفي ينتقد الفريق البرلماني. وفي النهاية ألغيت القيادة المزدوجة القديمة، ومنذ تلك الفترة فصاعداً صارت اللجنة المركزية هي التي تقود الحزب. تم انتخاب لجنة مركزية من 12 عضواً: خمسة بلاشفة (غولدنبرغ وروزكوف ودوبروفينسكي وتيودوروفيتش ونوجين)، وأربعة مناشفة (مارتينوف وزوردانيا وإسوف ونيكوروف)، وعضوان من الحزب الاشتراكي البولوني (وارسكي ودزيرجينسكي) وعضو من الحزب الاشتراكي اللتواني (دانشيفسكي). أما الثلاثة الآخرين، من ممثلي البوند والاشتراكيين الديمقراطيين اللاتيفيين، فقد تم انتخابهم بعد المؤتمر.

### الثورة الدائمة وموقف لينين

بوصولنا إلى هذه المرحلة صار من الضروري تحديد الاتجاهات الرئيسية التي تبلورت داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية قبل عام 1914 حول المسألة المركزية المتعلقة بطبيعة الثورة الروسية ومهامها. لقد كانت النظرية الأكثر أهمية التي ظهرت في هذا الصدد هي نظرية الثورة الدائمة. وقد وضعت هذه النظرية لأول مرة من قبل تروتسكي، بالتعاون مع المناضل الاشتراكي الديمقراطي اليساري الألماني-الروسي، ألكسندر هلفاند (المعروف باسم بارفوس)، في وقت مبكر من عام 1904. في حين تقبل نظرية الثورة الدائمة بأن المهام الموضوعية التي تواجه العمال الروس هي مهام الثورة الديمقراطية البرجوازية، إلا أنها توضح كيف أنه في بلد متخلف في عصر الإمبريالية، تكون "البرجوازية الوطنية" مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم ببقايا الإقطاع من جهة وبالرأسمال الإمبريالي من جهة أخرى، وبالتالي فهي عاجزة تماماً عن إنجاز أي من مهامها التاريخية.

لقد سبق لماركس وإنجلز أن لاحظا تعفن الليبراليين البرجوازيين ودورهم المعادي للثورة خلال الثورة الديمقراطية البرجوازية، وفي مقالته "البرجوازية والثورة المضادة" (1848)، كتب ماركس: «إن البرجوازية الألمانية قد تطورت بتراخ وجبن وبطء، حتى أنها في اللحظة التي صارت تهدد فيها الإقطاع والاستبداد وجدت نفسها تواجه التهديد من جانب البروليتاريا وجميع شرائح السكان الحضريين الذين كانت مصالحهم وأفكارهم أقرب إلى مصالح البروليتاريا. ورأت العداء ليس فقط من جانب الطبقة التي تقف وراءها، بل أيضاً من جانب كل أوروبا التي تقف أمامها. البرجوازية الروسية، وعلى عكس البرجوازية الفرنسية عام 1789، لم تكن الطبقة التي مثلت المجتمع الحديث كله في وجه ممثلي المجتمع القديم: الملكية والنبلاء. لقد انحطت إلى مستوى ملكية عقارية، تعارض الملك والشعب في نفس الآن، وحريصة على أن تقف ضدهما معاً، وأن تكون غير حازمة في مجابهة أي من خصومها بشكل منفصل، لأنها دائماً ترى كلا منهما أمامها أو خلفها؛ وتميل منذ البداية إلى خيانة الشعب والمساومة مع الممثل المتوج للمجتمع القديم، لأنها هي نفسها صارت تنتمي بالفعل إلى المجتمع القديم».

البرجوازية، كما يفسر ماركس، لم تأت إلى السلطة نتيجة لجهودها الثورية الخاصة، بل نتيجة للحركة الجماهيرية التي لم تلعب فيها أي دور: «لقد أقيمت البرجوازية البروسية في قمة سلطة الدولة، لكن ليس بالطريقة التي كانت ترغب بها، أي من خلال صفقة سلمية مع التاج، بل بفعل ثورة»<sup>1</sup>.

حتى في عصر الثورة الديمقراطية البرجوازية في أوروبا، فضح ماركس وإنجلز بلا رحمة الدور الجبان والمعادي للثورة الذي لعبته البرجوازية، وأكدوا على ضرورة أن يحافظ العمال على الاستقلالية الطبقية التامة، ليس فقط عن الليبراليين البرجوازيين، بل أيضاً عن الديمقراطيين البرجوازيين الصغار المتذبذبين، وقد كتب إنجلز: «إن الحزب البروليتاري، أو الثوري حقاً، لم ينجح إلا بطريقة تدريجية جداً في تخليص جماهير العمال من تأثير الديمقراطيين الذين هيمنوا عليهم في بداية الثورة. لكن وفي الوقت المناسب أدى تردد وضعف وجبن القادة الديمقراطيين إلى إتمام المهمة، ويمكن الآن أن يقال إن إحدى النتائج الرئيسية لانتفاضات السنوات الأخيرة، هي أنه أينما تمكنت الطبقة العاملة من التركيز بحشود كبيرة، تتمكن من التحرر كلياً من تأثير الديمقراطيين الذي أدى بهم إلى سلسلة لا نهاية لها من الأخطاء والهزائم خلال 1848 و1849»<sup>2</sup>.

في الواقع لم يكن ماركس محقاً عندما تحدث عن الدور الثوري للبرجوازية، بما في ذلك عام 1789. لم تكن الثورة البرجوازية في فرنسا من إنجاز البرجوازية التي أرادت في الواقع التوصل إلى حل وسط مع النظام الملكي، بل كانت على يد البرجوازية الصغيرة الثورية، التي كان يعاقبة ممثلها السياسيين، والجماهير شبه البروليتارية في باريس والمدن الكبرى الأخرى. وقد وصف كروبوتكين براعة دور الجماهير في الثورة الفرنسية في كتابه عن تاريخ الثورة، كما تم توثيقها بشكل واف في عصرنا من قبل مؤرخين مثل

1: K. Marx, *The Bourgeoisie and the Counterrevolution*, in MESW, vol. 1, pp: 140-141 and 138.

2: F. Engels, *Revolution and Counterrevolution in Germany*, MESW, vol. 1, p: 332.



جورج رودى. لم تنجح الثورة الفرنسية العظمى، 1793-1789، إلا بقدر ما تمكنت من التخلص من ممثلي البورجوازية الكبيرة المحافظة في الجمعية الوطنية، وقامت بالاستناد على الجماهير بتنفيذ أكثر التدابير جذرية والتي، في فترة مد الثورة، بدأت حتى تتجاوز حدود المهام الديمقراطية البرجوازية وتهدد الملكية الخاصة. عند هذه النقطة توقفت الثورة ودفعت إلى الوراء من طرف الردة التيريميدورية ثم البونابرتية. تعرضت الجماهير للهزيمة ودفعت من مواقع لم تكن قادرة على الدفاع عنها، وذلك على وجه التحديد بسبب غياب الشروط الموضوعية للاشتراكية. لم يكن ممكنا تحقيق سوى تطور رأسمالي. وتحت راية الشعارات الثورية *Liberté, Egalité, Fraternité*، (الحرية والمساواة والإخاء) التي في ظلها نهضت الجماهير لخوض معاركها، تسلق التجار الأثرياء والمالكون الكبار إلى السلطة ومن ثم أطلقوا رصاصة الرحمة على الطموحات الثورية لأولئك الذين بذلوا دماءهم لأجل الثورة.

نفس الشيء يمكن أن يقال عن الثورة البرجوازية في إنجلترا خلال القرن السابع عشر. لقد قامت البورجوازية، ممثلة في البرلمان من قبل المشيخيين (Presbyterians)، بكل ما في وسعها للتوصل إلى اتفاق مع تشارلز الأول. لم يتم هزم الردة الملكية الرجعية بفضل التجار الكبار في مدينة لندن، بل على يد الجيش النموذجي الجديد الذي قاده كرومويل، الذي استند على المزارعين الصغار في شرق إنجلترا والعناصر البروليتارية الناشئة في لندن وبريستول والبلدات والمدن الأخرى التي قاتلت من أجل القضية البرلمانية. هنا أيضا أظهرت البرجوازية نفسها عاجزة عن إنجاز ثورتها. ومن أجل النجاح في إنجاز مهام الثورة كان على كرومويل أن يكسبهم جانبا و يعبئ البرجوازية الصغيرة والجماهير الكادحة من أجل النضال. صحيح أنه بمجرد تحطيم الردة الملكية الرجعية، انقلب كرومويل على الجناح الراديكالي ("المساواتيون" و"الحفارون") الذي كان، حتى في تلك المرحلة، يستخلص خلاصات شيوعية ويضع الملكية الخاصة موضع تساؤل. وبذلك لم يعمل كرومويل سوى على الإقرار بالطابع البرجوازي للثورة، وهو الشيء الذي لا شك فيه. في الواقع لم يكن من الممكن أن يكون للثورة أي طابع آخر في تلك المرحلة التاريخية، لكن ذلك لا يغير الحقيقة التي لا جدال فيها كذلك بأن انتصار الثورة البرجوازية في إنجلترا، حتى في تلك الفترة المبكرة، لم يكن بفضل البرجوازية، بل ضدها.

كانت حجج ماركس وإنجلز فيما يتعلق بألمانيا في عام 1848 أكثر قابلية للتطبيق على روسيا في مطلع القرن العشرين. كان التطور العاصف للصناعة قد حول وجه المجتمع الروسي إلى الأبد. لكن ذلك التطور اقتصر، في المقام الأول، على عدد قليل من المناطق، وهي المنطقة المحيطة بموسكو وسان بيترسبورغ وغرب روسيا (هما في ذلك بولندا) والأورال، ومنطقة باكو الغنية بالنفط. نمت البروليتاريا بسرعة وأصبحت القوة الحاسمة ابتداء من تسعينيات القرن التاسع عشر فصاعدا. لكن ذلك لم يغير من الطابع المتخلف عموما لروسيا، التي كانت لها العديد من ملامح بلد شبه إقطاعي، وإلى حد ما شبه مستعمر. لم يكن تطوير الصناعة بروسيا نتيجة طبيعية لعضوية لتطور المجتمع الروسي، بل نتيجة للاستثمارات الأجنبية الضخمة من فرنسا وبريطانيا وألمانيا وبلجيكا وأمريكا. كانت البرجوازية الروسية، مثلها مثل البرجوازية الألمانية التي انتقدتها بشدة ماركس وإنجلز في عام 1848، قد دخلت التاريخ متأخرة جدا، وكانت قاعدتها الاجتماعية ضعيفة جدا، وقبل كل شيء كان خوفها من البروليتاريا قويا جدا، مما جعلها عاجزة عن لعب أي دورا تقدمي. اندماج الرأسمال الصناعي مع الرأسمال العقاري واعتمادهما معا على البنوك والتبعية للرأسمال الأجنبي، هو بالضبط ما استبعد إمكانية وجود ثورة ديمقراطية برجوازية ناجحة في روسيا.

لقد أكد لينين مرارا وتكرارا في كل خطباته وكتاباتاته على الدور المعادي للثورة لليبراليين البرجوازيين الديمقراطيين. لكنه حتى عام 1917 لم يكن يعتقد أنه بإمكان العمال الروس أن يصلوا إلى السلطة قبل اندلاع الثورة الاشتراكية في الغرب، وهو المنظور الذي كان تروتسكي هو الوحيد الذي دافع عنه قبل عام 1917، في نظريته الرائعة عن الثورة الدائمة. كانت تلك هي الإجابة الأكثر اكتمالا ضد الموقف الإصلاحى والتعاون الطبقي الذي تبناه الجناح اليميني داخل الحركة العمالية الروسية، أي المناشفة. كان المناشفة هم من طوروا نظرية الثورة عبر مرحلتين كمنظور للثورة الروسية. وهي نظرية تنص في الأساس على أنه نظرا لكون مهام الثورة مهام برجوازية ديمقراطية وطنية، فإن قيادة الثورة يجب أن تتسلمها البرجوازية الديمقراطية الوطنية.

غير أن تروتسكي أشار إلى أنه يمكن للبروليتاريا، من خلال وضع نفسها على رأس الأمة وقيادة الطبقات المضطهدة في المجتمع (البرجوازية الصغيرة الحضرية والريفية)، أن تحسم السلطة ثم تنجز مهام الثورة البرجوازية الديمقراطية (وأساسا الإصلاح الزراعي وتوحيد البلاد وتحريرها من السيطرة الأجنبية). لكن بمجرد وصولها إلى السلطة، لن تتوقف البروليتاريا عند تلك الحدود، بل ستبدأ في تنفيذ التدابير الاشتراكية بنزع ملكية الرأسماليين. وبما أن هذه المهام لا يمكن حلها في بلد واحد لوحده، ولا سيما في بلد متخلف، فإن ذلك سيكون بداية الثورة العالمية. وبالتالي فإن الثورة "دائمة" بمعنيين: لأنها تبدأ بالمهام البرجوازية وتستمر مع المهام الاشتراكية، ولأنها تبدأ في بلد واحد وتستمر على المستوى الأممي.

اتفق لينين مع تروتسكي على أن الليبراليين الروس لا يمكنهم تنفيذ مهام الثورة الديمقراطية البرجوازية، وأن هذه المهمة لا يمكن

أن تقوم بها إلا البروليتاريا بالتحالف مع الفلاحين الفقراء. من 1905 حتى 1917، كان موقف لينين قريبا، بل متطابقا في الواقع مع موقف تروتسكي حول السؤال الأساسي المتعلق بالموقف من البرجوازية. وقد اعترف لينين بذلك علنا في المؤتمر الخامس (لندن)، كما سبق لنا أن رأينا. وسيرا على خطى ماركس، الذي وصف الحزب الديمقراطي البرجوازي بأنه «أكثر خطورة على العمال من الليبراليين السابقين»، أوضح لينين أن البرجوازية الروسية ليست حليفا للعمال وستنتقل حتما إلى صفوف الثورة المضادة.

كتب في عام 1905: «إن البرجوازية، في مجملها ستتحول حتما نحو الثورة المضادة وضد الشعب حاملا يتم تحقيق مصالحها الأنايية الضيقة، سوف «ترتد» عن الديمقراطية الحازمة (وقد بدأت ترتد عنها بالفعل!)»

ما هي الطبقة التي يرى لينين أنه في مقدورها أن تقود الثورة البرجوازية الديمقراطية؟ يجيب عن هذا السؤال قائلا: «يبقى «الشعب»، أي البروليتاريا والفلاحون. وحدها البروليتاريا من يمكن الاعتماد عليها للسير حتى النهاية، لأن أفقها يتجاوز بكثير الثورة الديمقراطية. وهذا هو السبب الذي يجعل البروليتاريا تناضل في الطليعة من أجل الجمهورية وترفض بازدراء النصيحة الغبية والتافهة حول ضرورة أن تأخذ في الاعتبار احتمال نكوص البرجوازية»<sup>1</sup>.

الشيء الذي اختلف فيه لينين مع تروتسكي هو مسألة إمكانية وصول العمال الروس إلى السلطة قبل العمال في أوروبا الغربية. فحتى عام 1917، كان تروتسكي وحده من اعتقد بأن هذا سيحدث. حتى لينين نفسه رفض ذلك، مصرا على أن الثورة الروسية سيكون لها طابع برجوازي، وأن الطبقة العاملة، بالتحالف مع الفلاحين الفقراء، ستقوم بإسقاط الحكم المطلق وتعمل من تم على تنفيذ برنامج من التدابير الديمقراطية البرجوازية الأكثر جذرية. في صلب برنامج لينين كان الحل الجذري لمشكلة الأرض، على أساس مصادرة ممتلكات الملاكين العقاريين وتأميم الأراضي. ومع ذلك، كما أوضح لينين عدة مرات، فإن تأميم الأرض ليس إجراء اشتراكيا، بل مطلبا برجوازيا يستهدف الأرستقراطية العقارية. وقد كرر في مناسبات عديدة أنه على الثورة الروسية أن تستنكف عن الاضطلاع بالمهام الاشتراكية، على اعتبار أن الظروف الموضوعية لبناء الاشتراكية غائبة في روسيا، كما كان الجميع يتفق. لكن منظور لينين لم يتوقف عند تلك الحدود. لقد كان لينين دائما أمميا حازما، وكان منظوره كله يقوم على الثورة الأممية، التي كانت الثورة الروسية مجرد جزء صغيرا منها.

سيسقط العمال والفلاحون الروس النظام القيصري وسينفذون الثورة الديمقراطية البرجوازية بالطريقة الأكثر جذرية. ومن شأن ذلك أن يوفر زخما قويا لعمال أوروبا الغربية الذين سيقومون بالثورة الاشتراكية. بعد ذلك، ومن خلال توحيد جهودهم مع جهود العمال الفرنسيين والألمان والبريطانيين، سيصير من الممكن للعمال الروس تحويل ثورتهم البرجوازية الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية: «لكنها بالطبع ستكون دكتاتورية ديمقراطية وليست اشتراكية. لن تكون قادرة (بدون سلسلة من المراحل الوسيطة للتطور الثوري) التأثير على أسس الرأسمالية. يمكنها، في أحسن الأحوال، أن تؤدي إلى إعادة توزيع جذري لملكية الأرض لصالح الفلاحين، وإرساء ديمقراطية ثابتة وكاملة، بما في ذلك تشكيل الجمهورية والقضاء على جميع السمات القمعية للعبودية الآسيوية... ووضع الأساس لتحسين شامل في ظروف عيش وعمل العمال وارتفاع في مستوى معيشتهم، وأخيرا وليس آخرا، حمل الصراع الثوري إلى أوروبا».

موقف لينين واضح تماما ولا لبس فيه: الثورة القادمة ستكون ثورة برجوازية، بقيادة البروليتاريا المتحالفة مع جماهير الفلاحين. وأفضل ما يمكن توقعه منها هو تحقيق المهام الديمقراطية البرجوازية الأساسية: توزيع الأراضي على الفلاحين، الجمهورية الديمقراطية، الخ. وهذا ضروري، حيث أن أي محاولة «للتأثير على أسس الرأسمالية» من شأنها أن تدخل البروليتاريا في صراع مع جماهير الفلاحين المالكين الصغار. ويؤكد لينين: «الثورة الديمقراطية ثورة برجوازية بطبيعتها. إن شعار التوزيع العام، أو «الأرض والحرية»... هو شعار برجوازي»<sup>2</sup>. بالنسبة إلى لينين لم يكن من الممكن التوصل إلى نتيجة أخرى في بلد متخلف شبه إقطاعي مثل روسيا. إن الحديث عن «تطور» الدكتاتورية الديمقراطية نحو الثورة الاشتراكية يتناقض مع كل تحليل لينين لعلاقات القوى الطبقيية في الثورة. وقد أوضح لينين موقفه تجاه دور البروليتاريا في الثورة الديمقراطية البرجوازية في مئات المقالات. قال: «نحن بعيدون من الثورة الاشتراكية أكثر بما لا يقاس من رفاقنا الغربيين، لكننا أمام ثورة فلاحية ديمقراطية برجوازية ستؤدي فيها البروليتاريا الدور القيادي»<sup>3</sup>.

بأي معنى أشار لينين إلى إمكانية الثورة الاشتراكية في روسيا؟ في الاقتباس المذكور أعلاه من «خطنا الاشتراكية»، يؤكد لينين أن الثورة الروسية لن تكون قادرة على التأثير على أسس الرأسمالية «بدون سلسلة من المراحل الوسيطة للتطور الثوري».

1: LCW, *Two Tactics of SD in the Democratic Revolution*, vol. 9, p: 98.

2: Ibid., pp: 56-67 and 112.

3: LCW, *The Social Democratic Election Victory in Tiflis*, vol. 10, p: 424 (التشديد من آلان وودز).

من كل هذا يصير من الواضح أن لينين استبعد إمكانية وجود ثورة اشتراكية في روسيا قبل أن يستولي العمال في أوروبا الغربية على السلطة. وقد حافظ على هذا الرأي حتى فبراير 1917، عندما تخلى عنه وتبنى موقفاً كان في الجوهر نفس موقف تروتسكي. ومع ذلك فإن لينين، حتى عندما كان يتبنى منظور ثورة برجوازية في روسيا (والتي ستلعب البروليتاريا الدور القيادي فيها) شرح العلاقة الجدلية بين الثورة الروسية والثورة الأممية. وكتب أن الثورة الديمقراطية البرجوازية في روسيا ستحمل: «الصراع الثوري إلى أوروبا. إن ذلك الانتصار لن يحول بأي شكل من الأشكال ثورتنا البرجوازية إلى ثورة اشتراكية؛ الثورة الديمقراطية لن تتخطى على الفور حدود العلاقات الاجتماعية والاقتصادية البرجوازية؛ ومع ذلك فإن أهمية انتصار كهذا للتطور المستقبلي لروسيا والعالم أجمع ستكون هائلة. لا شيء سيلهب الطاقة الثورية للبروليتاريا العالمية، ولا شيء سيقصر الطريق المؤدي إلى انتصارها الكامل، أكثر من الانتصار الحاسم للثورة التي بدأت الآن في روسيا»<sup>1</sup>.

أممية لينين تبرز بجرأة في كل سطر هنا. بالنسبة للينين لم تكن الثورة الروسية عملاً مكتفياً ذاتياً، ليست «طريقاً روسياً إلى الاشتراكية!»، بل كانت بداية الثورة البروليتارية العالمية. وفي هذا الواقع تحديداً تكمن إمكانية التحول المستقبلي للثورة البرجوازية الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية في روسيا. لم يتبن لينين، ولا أي ماركسي آخر، الوهم بإمكانية بناء «الاشتراكية في بلد واحد»، وخاصة في بلد متخلف آسيوي فلاح مثل روسيا. وقد شرح لينين، في مكان آخر، أنه من بديهيات الماركسية القول بأن ظروف التحويل الاشتراكي للمجتمع غائبة في روسيا، على الرغم من أنها كانت قد نضجت تماماً في أوروبا الغربية. وفي جداله مع المناشفة، في كتابه خطا الاشتراكية، أكد على الموقف الماركسي الكلاسيكي بخصوص الأهمية الأممية للثورة الروسية قائلاً: «الفكرة الأساسية هنا هي فكرة صاغتها مرارا وتكراراً صحيفة فريود [أي جريدة لينين]، التي أكدت أنه يجب ألا نخاف... من الانتصار الكامل للاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية، أي الدكتاتورية الديمقراطية الثورية للبروليتاريا والفلاحين، لأن هذا الانتصار سيمكننا من استنهاض أوروبا؛ وبعد تخلصها من نير البورجوازية، ستساعدنا البروليتاريا الاشتراكية في أوروبا بدورها على تحقيق الثورة الاشتراكية»<sup>2</sup>.

هذا هو جوهر تصور لينين للثورة القادمة في روسيا: فالثورة لا يمكن أن تكون سوى برجوازية ديمقراطية (وليس اشتراكية)، لكن وفي الوقت نفسه، بسبب أن البرجوازية غير مؤهلة للقيام بدور ثوري، لا يمكن للثورة أن تتم إلا على يد الطبقة العاملة، بقيادة الاشتراكية الديمقراطية، والتي سوف تستنهض الجماهير الفلاحية لدعمها. إن الإطاحة بالقيصرية واقتلاع جميع آثار الإقطاع وإقامة الجمهورية، سيكون لها تأثير ثوري هائل على البروليتاريا في البلدان المتقدمة في أوروبا الغربية. لكن الثورة في الغرب لا يمكن أن تكون إلا ثورة اشتراكية، بفضل التطور الهائل للقوى الإنتاجية التي نشأت في ظل الرأسمالية نفسها، والقوة الهائلة للطبقة العاملة والحركة العمالية في تلك البلدان. وأخيراً سوف تخلق الثورة الاشتراكية في الغرب المزيد من النهوض الثوري في روسيا، وبمساعدة من البروليتاريا الاشتراكية في أوروبا، سيحول العمال الروس الثورة الديمقراطية، ضد معارضة البرجوازية والفلاحين المعادين للثورة، إلى ثورة اشتراكية. «وهكذا، في هذه المرحلة [أي بعد الانتصار النهائي] للديكتاتورية الديمقراطية»، ستعمل البرجوازية الليبرالية والفلاحون الميسورون، بالإضافة جزئياً إلى الفلاحين المتوسطين، على تنظيم الثورة المضادة، بينما ستقوم البروليتاريا الروسية إلى جانب البروليتاريا الأوروبية بتنظيم الثورة. في مثل هذه الظروف، يمكن للبروليتاريا الروسية أن تحقق انتصاراً ثانياً. إن القضية ليست ميوؤسا منها. والانتصار الثاني هو الثورة الاشتراكية في أوروبا. سيبين لنا العمال الأوروبيون «كيف نفعل ذلك»، ومن ثم وبالتعاون معهم سنحقق الثورة الاشتراكية»<sup>3</sup>.

هنا، وفي العشرات من المناسبات الأخرى، شرح لينين فكرته بأقصى درجة من الوضوح حول أن انتصار «ثورتنا البرجوازية العظيمة... سوف يستهل حقبة الثورة الاشتراكية في الغرب»<sup>4</sup>. وبغض النظر عن كيفية عرض المسألة، فإن لا شيء يمكنه أن يغير حقيقة أن لينين في عام 1905 لم يرفض فقط فكرة «بناء الاشتراكية في روسيا وحدها» (وهي الفكرة التي لم تكن حتى لتبادر إلى ذهنه)، بل رفض حتى إمكانية إقامة العمال الروس لديكتاتورية البروليتاريا في روسيا قبل الثورة الاشتراكية في الغرب.

اعتبر تروتسكي دائماً أن موقف لينين تقدمي بالمقارنة مع النظرية المنشفية للثورة عبر مرحلتين، لكنه أشار أيضاً إلى أوجه القصور فيها. وقد كتب عام 1909: «صحيح أن الفرق بينهما في هذه المسألة كبير جداً؛ في حين أن الجوانب الرجعية للنظرية المنشفية قد أصبحت واضحة تماماً، فمن المحتمل أن تصبح النظرية البلشفية تهديداً خطيراً فقط في حالة الانتصار».

1: LCW, *Two Tactics of SD in the Democratic Revolution*, vol. 9, p: 57.

2: Ibid., p: 82 (التشديد من آلان وودز).

3: LCW, *The Stages, the Trend, and the Prospects of the Revolution*, vol. 10, p: 92.

4: LCW, *Victory of Cadets and Tasks of Workers' Party*, vol. 10, p: 276 (التشديد من آلان وودز).

غالبا ما أخرج نقاد تروتسكي الستالينيون هذه الفكرة التنبؤية من سياقها، إلا أنها في الواقع تعبر بدقة عما حدث في عام 1917، عندما دخل لينين في صراع مع الزعماء البلاشفة الآخرين بسبب شعار "الديكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين" على وجه التحديد، والذي تخلى عنه لينين لصالح سياسة متطابقة مع سياسة الثورة الدائمة. وعندما نشر ذلك الكتاب بعد الثورة، كتب تروتسكي في إحدى الحواشي: «هذا التهديد، كما نعلم، لم يتحقق أبدا لأن البلاشفة، تحت قيادة الرفيق لينين، غيروا سياستهم بشأن هذه المسألة الأكثر أهمية (ليس من دون نضال داخلي) في ربيع عام 1917، أي قبل الاستيلاء على السلطة»<sup>1</sup>.

من وجهة النظر المادية، يعتبر المحك النهائي لجميع النظريات هو الممارسة العملية. فكل النظريات والبرامج والمنظورات التي تم طرحها والدفاع عنها بحماس من قبل مختلف التيارات داخل الحركة العمالية الروسية بخصوص طبيعة الثورة والقوى المحركة لها قد خضعت لاختبار قاس خلال أحداث عام 1917. عند تلك النقطة اختلفت تماما الخط الذي كان يفصل تروتسكي عن لينين. فالأفكار التي عبر عنها لينين في رسائله من بعيد وموضوعات أبريل، لا يمكن أبدا تمييزها عن تلك التي نقرأها في مقالات تروتسكي في صحيفة "نوفي مير"، التي كتبت في الفترة نفسها لكن على بعد آلاف الأميال في أمريكا. وكما حذر تروتسكي في عام 1909، فإن الجانب المضاد للثورة لنظرية الديكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين لم يصبح واضحا إلا أثناء الثورة نفسها، عندما استخدمها كامينيف وزينوفيف وستالين ضد لينين لتبرير دعمهم للحكومة البرجوازية المؤقتة. وقد ظهر انقسام مفتوح بين لينين وزعماء الحزب الآخرين الذين اتهموه، في الواقع، بالتروتسكية.

في الحقيقة لقد أثبتت نظرية الثورة الدائمة صحتها بشكل باهر في ثورة أكتوبر نفسها. الطبقة العاملة الروسية وصلت، كما تنبأ تروتسكي في عام 1904، إلى السلطة قبل العمال في أوروبا الغربية. لقد قامت مهام الثورة البرجوازية الديمقراطية، وشرعت على الفور في تأميم الصناعة والانتقال إلى إنجاز مهام الثورة الاشتراكية. لعبت البرجوازية بشكل واضح دورا معاديا للثورة، لكنها هزمت على يد العمال المتحالفين مع الفلاحين الفقراء. عندها وجه البلاشفة نداء ثوريا إلى عمال العالم ليحذوا حذوهم. عرف لينين جيدا أنه بدون انتصار الثورة في البلدان الرأسمالية المتقدمة، وخاصة ألمانيا، لن تتمكن الثورة من البقاء على قيد الحياة، خاصة في بلد متخلف مثل روسيا. ما حدث لاحقا أظهر أن هذا الموقف كان صحيحا تماما. وقد كان إنشاء الأممية (الشيوعية) الثالثة، أي الحزب العالمي للثورة الاشتراكية، تجسيدا ملموسا لهذا المنظور.

صار الموقف أكثر راهنية اليوم. لقد دخلت البرجوازية الوطنية في البلدان المستعمرة إلى مسرح التاريخ متأخرة جدا، عندما كان العالم قد تقسم بالفعل بين بعض القوى الإمبريالية. لم تكن تلك البرجوازية قادرة على لعب أي دور تقدمي وقد وُلدت وهي تابعة بشكل كامل لساداتها الاستعماريين السابقين. إن البرجوازية الضعيفة والمنحطة في آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا تابعة بشكل كامل للرأسمال الأجنبي والإمبريالية مما يجعلها عاجزة بشكل كلي عن دفع المجتمع إلى الأمام. إنها مرتبطة بالآلاف الخيوط، ليس فقط إلى الرأسمال الأجنبي، بل أيضا إلى طبقة ملاك الأراضي، التي تشكل معها كتلة رجعية واحدة وعائقا ضد التقدم. ومهما كانت الاختلافات القائمة بين هذه الفئات فإنها تبقى ضئيلة بالمقارنة مع الخوف الذي يوحدهم ضد الجماهير. وحدها البروليتاريا، المتحالفة مع الفلاحين الفقراء وفقراء المدن، من يمكنها أن تحل مشاكل المجتمع من خلال أخذ السلطة بين يديها ومصادرة أملاك الإمبرياليين والبرجوازية، والشروع في مهمة تحويل المجتمع على أسس اشتراكية.

لو بقيت الأممية الشيوعية ثابتة على مواقف لينين وتروتسكي، لكان انتصار الثورة العالمية مضمونا. لكن، لسوء الحظ، تزامنت سنوات تشكل الكومنترن [الأممية الشيوعية] مع تصاعد الردة الستالينية الرجعية في روسيا، والتي كان لها تأثير كارثي على الأحزاب الشيوعية في العالم أجمع. بعد أن تمكنت البيروقراطية الستالينية من الاستيلاء على السلطة في الاتحاد السوفياتي، طورت نظرية محافظة جدا. إن النظرية القائلة بأن الاشتراكية يمكن أن تبنى في بلد واحد، وهي تشويه بشع لوجهة نظر ماركس ولينين، تعكس حقا عقلية البيروقراطية، التي كانت قد تعبت من عواصف وإجهاذ الثورة وسعت إلى المضي قدما في مهمة "بناء الاشتراكية في روسيا"، وهو ما يعني أنها تريد حماية وتوسيع امتيازاتها وليس "إهدار" موارد البلاد في متابعة الثورة العالمية. ومن ناحية أخرى كانت تخشى أن تتطور الثورة في بلدان أخرى بشكل صحي وتشكل تهديدا لسيطرتها في روسيا، وبالتالي سعت بنشاط، في مرحلة معينة، لمنع الثورة في بلدان أخرى. وبدلا من إتباع سياسة ثورية تقوم على استقلالية الطبقة العاملة، كما دعا لينين دائما، اقترحت تحالفا للأحزاب الشيوعية مع "البرجوازية التقدمية الوطنية" (فيذا لم تجدها كانت مستعدة تماما لاختراعها) لإنجاز الثورة الديمقراطية، وبعد ذلك، في وقت لاحق، في المستقبل البعيد، عندما تكون البلد قد طورت اقتصادا رأسماليا كاملا، يبدأ النضال من أجل الاشتراكية. تمثل هذه السياسة قطيعة كاملة مع اللينينية وعودة إلى موقف المنشفية القديم: نظرية المرحلتين.

1: Trotsky, *Our Differences, in 1905*, p: 332 (الحاشية في نفس الصفحة)

## انقلاب الثالث من يونيو

لقد استمرت ثورة 1905 في الواقع لمدة سنتين ونصف، لكن وبحلول صيف 1907، كانت آخر مراكز التمرد قد أخمدت. ثورات الفلاحين المفتقرة للقيادة من المدن، انتهى بها الأمر بشكل حتمي إلى سلسلة من الانتفاضات بدون تنسيق وبدون هدف وتم سحقها الواحدة تلو الأخرى. ومع كل تراجع للحركة الجماهيرية، كان النظام يزداد ثقة بالنفس. في الثالث من يونيو، قرر ستوليبين، الذي كان قد اقتنع بعجز الكاديت وتراجع حركة الفلاحين، حل مجلس الدوما الثاني واعتقال الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي. مباشرة بعد انتهاء المؤتمر الخامس، تحدى ستوليبين مجلس الدوما بمطالبته بطرد 55 من النواب الاشتراكيين الديمقراطيين، واعتقال 16 من بينهم. في ليلة الثاني من يونيو، ودون انتظار رد الدوما، شرع في تنفيذ عمليات الاعتقال. وفي اليوم الموالي قام بحل مجلس الدوما نفسه. تمت صياغة قانون انتخابي جديد كان أسوأ من السابق، وعندما اجتمع مجلس الدوما الثالث أخيراً، كان مجلساً للردة الرجعية المفتوحة. حتى الكونت وايت نفسه اعترف في مذكراته أن: «القانون الانتخابي الجديد استبعد من الدوما صوت الشعب، استبعد أي صوت للجماهير وممثليها، ولم يعط الصوت إلا للأقوياء والمطيعين».

وقال كيرنسكي، الذي كان نائباً عن الترودوفيك في مجلس الدوما الثالث:

«القانون الانتخابي، الصادر في يونيو 1907، ألغى عملياً مشاركة الفلاحين والعمال من المدن والقرى. وفي المقاطعات سلمت الانتخابات عملياً إلى النبلاء المحترزين، وفي البلديات الأكبر ألغى حق الاقتراع شبه الشامل؛ تم تخفيض عدد النواب، وتم تعيين نصف المقاعد في إطار نظام محاصصة لصالح أقلية ضئيلة من البرجوازيين. وتم تخفيض تمثيلية القوميات غير الروسية، حيث سمح لبولندا، على سبيل المثال، بإرسال 18 نائباً فقط إلى مجلس الدوما الثالث (والرابع)، مقابل 53 ممثلاً كانوا قد أرسلوا إلى الدوما الأول والثاني، كما تم استبعاد السكان المسلمين والتركستان تماماً.

كان ممثلو الشعب المنتخبين بموجب قانون ستوليبين يدعون بحق "المرأة المشوهة" لروسيا. الأحزاب اليسارية، التي كانت تشكل الأغلبية في الدوما الأول والثاني، اختفت عملياً في مجلس الدوما الثالث، خلال الفترة ما بين 1907 و 1912. وكان المجلس قد ضم، علاوة على ذلك، 13 عضواً فقط من مجموعة العمل (الترودوفيك) و 20 من الاشتراكيين الديمقراطيين. بينما قاطع الاشتراكيون الثوريون الانتخابات. وانحط الكاديت، حزب المثقفين الليبراليين، من مكانهم المهيمن إلى لعب دور "معارضة صاحب الجلالة"، مع 54 مقعداً».

ومن بين 442 عضواً في البرلمان، كان للأحزاب الرجعية (المئات السود والأكتوبريين، والكاديت) 409 مقعداً، بينما كان للطبقة العاملة 19 نائباً فقط (الاشتراكيون الديمقراطيون) والترودوفيك 14 فقط، وهي الحالة المختلفة اختلافاً كبيراً عن حالة مجلس الدوما الثاني. ومع ذلك، كما أشار لينين، فإن هذا الدوما الرجعي كانت له على الأقل ميزة التعبير عن الحالة الحقيقية في البلد. كان ذلك الوجه الحقيقي لاستبداد المائة السود دون القناع الليبرالي.

قال كيرنسكي: «خمسون مقعداً كانت من نصيب اتحاد الشعب الروسي الرجعي، الذي كان مدعوماً من صناديق خاصة بالشرطة السرية وكان تحت رعاية القيصر والدوق الكبير نيكولا. وقد حاول هؤلاء النواب، بتوجيه من ثلاثة رجال ماهرين جداً، هم ماركوف وبوريشكيفيتش وزاميسلوفسكي، تخريب الدوما من الداخل عن طريق إثارة الفوضى باستمرار. وبالإضافة إلى ذلك، تم منح 89 مقعداً لحزب جديد تماماً يسمى حزب القوميين. تراجعت بشكل كبير المقاطعات الغربية والجنوبية الغربية التي مزقتها الخلافات بين الشعب الروسي والبولندي والليتواني واليهودي. وتم ملئ الفجوة بين الكاديت والجناح اليميني من طرف 153 من النواب الأكتوبريين، الذين بالكاد كان لهم وجود في الدوما الأول والثاني، ومن ثم صاروا يشكلون أكثر بقليل من ثلث مجموع أعضاء مجلس الدوما».

كان الوجه الرئيسي في هذا الدوما هو الأكتوبري غوتشكوف، وهو صناعي كبير من موسكو، كان حزبه يمثل البرجوازية الكبيرة وملاك الأراضي الرجعيين، لكنهم اعتبروا أنه من الأفضل لهم أن ينأوا بأنفسهم عن الزمرة الحاكمة: «غوتشكوف وخومياكوف وشيدلوفسكي، وزعماء الحزب الأكتوبري الآخرين، فهموا جيداً الخطر الذي يشكله على البلاد ذلك الجو المرضي المحيط بالقيصر. كانوا قد أدركوا جيداً أنهم لا يستطيعون الاعتماد على القيصر ضعيف الإرادة، فرفضوا بشدة كل دعوات ستوليبين المغربية للانضمام إلى الحكومة. وفضلوا مراقبة نشاط الحكومة من خلال لجنة الميزانية في الدوما، لدعمها في الصراع ضد التأثير القوي لزمرة راسبوتين داخل البلاط، وفي محاولتها تحسين وضع البلاد العسكري والاقتصادي من خلال التشريعات»<sup>1</sup>.

1: Kerensky, Memoirs, pp: 101-102 and 104.

لعب الكاديت في الدوما الثالث دورا ثانويا وراء الأكتوبريين. وبدوره قام غوتشكوف بدعم ستوليبين ضد الرجعيين داخل البلاط، باعتباره أهون الشرين. كما أن المناشفة تطلعتوا إلى حزب الكاديت أيضا باعتباره أهون الشرين. لكن ستوليبين كان في الواقع أشرس مدافع عن الاستبداد. كانت إصلاحاته تهدف إلى الحفاظ على حكم رومانوف، وفي نفس الوقت سحق الثورة بشكل كامل. وبهذه الطريقة تحول "أهون الشرين" إلى أخطر شر بالنسبة للقضية الثورية. وقد أعرب غوتشكوف، ممثل الرأسماليين الروس الكبار، عن ولائه الحازم للاستبداد من خلال تبنيه لقضية الإمبريالية والعسكرة، في وقت كانت فيه الساحة الدولية مكفهرة بغيوم الحرب الشبيكة. وقد بدأ مجلس الدوما يزايد مع الحكومة لإظهار من هو الأكثر وطنية. يوم 09 يونيو 1908 تحدث غوتشكوف خلال كلمته في نقاش حول ميزانية الجيش، عن "مجدنا العسكري المدفون". ونتيجة لهذا الخضوع والتملق، سمح لمجلس الدوما الثالث بالعيش لمدة خمس سنوات كاملة، حتى انتخاب مجلس الدوما الرابع عام 1912.

والمفارقة هي أن موقف ستوليبين في الدوما الجديد لم يكن أفضل من ذي قبل. لعب دور بونابارتي، وناور بين مختلف الطبقات والأحزاب، لكنه لم يكن يمتلك قاعدة دعم ثابتة. لم يدعمه بشكل دائم أي حزب في الدوما. تزايد قوة اليمين أدى إلى إضعافه لأن المحافظين والزمرة المسيطرة داخل البلاط كانوا يكرهونه لأنهم اعتبروه راديكاليا خطيرا. والقيصر، الذي لم يكن يتميز بالفطنة السياسية، صار بعيدا عن وزيره المخلص. ستوليبين وعلى الرغم من أنه ركز قوة كبيرة بين يديه، كانت حياته في خطر مستمر، وكان هو يعرف ذلك. كان يرتدي سترة مضادة للرصاص وكان دائما محاطا بحرس شخصي، لكن ذلك لم ينقذه. في ليلة 01 سبتمبر 1911، حضر ستوليبين لعرض خاص بأوبرا ريمسكي كورسكوف لمسرحية القيصر سالتان، في كييف، والتي حضرها القيصر أيضا. خلال الاستراحة اقترب منه شاب يرتدي زي السهرة وأطلق عليه النار مرتين. وفي حركة مسرحية أشار ستوليبين بعلامة الصليب لنيكولا قبل أن ينهار. توفي بعد أربعة أيام، وكانت آخر تصريحاته العامة هي: «أنا سعيد للموت من أجل القيصر»، وهو أمر مثير للسخرية بالنظر إلى أن نيكولا لم يكن آنذاك يدعمه. الطالب الذي نفذ العملية كان حسب الشرطة اشتراكيا ثوريا يدعى بوجروف. أعدم دون إبطاء، بعد أن قضى مدة في الحبس الانفرادي، لكي لا يتم طرح أي أسئلة. ارتاب الكثير من الناس في أن عملية الاغتيال كانت من تدبير الشرطة السرية بتعاون مع زمرة البلاط التي كانت تكره ستوليبين. وهذا هو الأكثر احتمالا. لقد انعكست أزمة المجتمع المتفاقمة في اندلاع انقسامات وصراعات عارمة في قمة الهرم. تكون المؤامرات السياسية والاعتقالات ممارسات معتادة في الأنظمة المشابهة لنظام القيصر وراسبوتين.

خلال تلك الفترة صارت أوضاع الحركة الثورية مأساوية. مرة أخرى وجد الحزب نفسه مجبرا على العمل السري الصعب والخطير. وأدت موجات الاعتقالات إلى إضعاف منظمات الحزب. في صيف 1907، ألقى القبض على جميع النواب الاشتراكيين الديمقراطيين في مجلس الدوما. كان العمال ساخطين لكنهم كانوا عاجزين في ذلك الوقت عن القيام برد فعل. الرجعية استعرضت عضلاتها واستعادت الثقة بنفسها، وعملت على مدى ثلاث سنوات طويلة، ما بين 1908-1910، بتوجيه ضربات موجعة للحركة العمالية المهزومة. وصفت المنشفية أيضا برويدو الوضع قائلة: «أدت الاعتقالات الجماعية المتواصلة إلى تدمير فروع الحزب الواحد منها تلو الآخر، حتى توقف الحزب عمليا عن الوجود». وأضافت: «لقد عانت النقابات أيضا من الفوضى؛ تم حل مئات من فروعها وأصبح تشكيل فروع جديدة مهمة صعبة للغاية»<sup>1</sup>.

البلشفة، بوصفهم الجناح الأكثر كفاحية في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، عانوا من خسائر أكبر نسبيا. تعرضت منظماتهم في سان بيترسبورغ لما لا يقل عن 15 عملية اعتقال جماعي للقادة في تلك الفترة. كما تعرضت لجننتهم المركزية للاعتقال ست مرات. وفي موسكو، تعرضت لجنة المنطقة للاعتقال 11 مرة. وسادت الحالة نفسها في كل مكان. في كل مرة كان يتم إعادة تنظيم اللجان، لكن بأعداد أصغر ومع أناس أقل خبرة. ومع ذلك فقد كانت هناك ميزة واحدة على الأقل، إذ أن معظم الذين دخلوا التنظيم حديثا كانوا من العمال. وللمرة الأولى صارت لجان الحزب بروليتارية حقا في تكوينها. لقد أبقيت تلك الكوادر العمالية الحزب السري على قيد الحياة رغم المحن القاسية. بينما على النقيض من ذلك صار العديد من المثقفين محبطين وتخلوا عن النضال.

عام 1908، كتب لينين في رسالة إلى غوركي قائلا: «إن أهمية المثقفين داخل حزبنا آخذة في التراجع؛ تأتي الأخبار من جميع الجهات عن أن الأنتلجنسيا يغادرون الحزب. فليذهب هؤلاء الأوغاد إلى الجحيم. إن الحزب يظهر نفسه من خبث البرجوازية الصغيرة. وقد صار للعمال موقع الصدارة، وبدأ دور العمال المحترفين يتصاعد. كل هذا رائع»<sup>2</sup>.

ويبدو أن غوركي قد استاء من تعليقات لينين، لأن هذا الأخير سارع في رسالة لاحقة لطمأنته قائلا: «أعتقد أن بعض المسائل

1: E. Broido, Memoirs, p: 136.

2: LCW, Letter to Maxim Gorky, February 7, 1908, vol. 34, p: 379.

التي أثرت حول خلافاتنا في الرأي هي مجرد سوء فهم. لم أفكر أبدا، بطبيعة الحال، في "طرد الأنتلجنسيا خارجا"، كما يفعل النقابيون الحمقى، أو إنكار ضرورتهم للحركة العمالية. لا يمكن أن يكون هناك أي اختلاف بيننا بشأن أي من هذه المسائل<sup>1</sup>.

في ظل هذه الظروف صارت عملية الفرز مسألة حتمية، فقد ترك المثقفون المتذبذبون الحزب، واستسلموا لمزاج الردة الرجعية السائد. وبحلول أواخر 1907، صار فرع الحزب في بيتسبورغ يضم حوالي 3.000 عضو فقط، لم يكونوا كلهم نشطين. وكان العديد من أفضل القادة في السجن أو المنفى، فاحتل مكانهم قادة من الصف الثاني مثل ستالين، الذي بدأ في ذلك الوقت يصنع اسما لنفسه كمنظم. يمكن تفسير الترقى السريع الذي حققه ستالين إلى موقع القيادة بحقيقة أن لينين اضطر، بسبب النقص الشديد في عدد الأشخاص الأكفاء داخل روسيا، إلى الاعتماد على أي شخص جديد كان يبدو واعدا. كان ستالين يمتلك بعض القدرات التنظيمية، لكن ليس أكثر من بقية أعضاء اللجان البلاشفة الآخرين. في الواقع، كان ستالين نموذجا لعضو اللجنة: عنيده وعملي وقادر على بذل مجهود في ظل ظروف معينة، لكنه ضيق الأفق. لقد أظهر مسار ستالين السياسي كله أنه بدون قيادة لينين كان يفتقر لأي فهم سياسي حقيقي، ناهيك عن العمق النظري. ويظهر ذلك في حقيقة أن ستالين واصل تنظيم عمليات المصادرات حتى عندما كانت الموجة الثورية قد تراجعت منذ فترة طويلة، وكانت الثورة المضادة تتصاعد على قدم وساق. كانت تلك التكتيكات ستلحق أضرارا جسيمة بالحزب لو لم يوقفها لينين في الوقت المناسب.

أظهرت الظروف الجديدة ضرورة الجمع بين العمل السري وبين جميع أشكال العمل العلني والشعبي. فقط بهذه الطريقة كان يمكن للحزب الحفاظ على الصلات مع الجماهير. كانت القوات الموجودة تحت تصرفه قد استنزفت بشكل خطير. وبحلول أواخر 1908، كان حوالي 900 من أعضاء الحزب قد رحلوا إلى الخارج. لكن هذه الأرقام لا تخبرنا القصة كلها. إن الثورة، كما أشار تروتسكي، تلتهم بنهم الطاقة البشرية. كان العديد من الكوادر الأكثر خبرة يعانون في سجون القيصرية أو في المنفى السيبيري. وصار العديد من الأعضاء يعانون من الصدمة والضياع والارهاق الذهني والجسدي. أصبحت حالات الانتحار شائعة، خاصة بين الشباب الذين اعتقدوا أن الهزيمة دليل على التصفية النهائية للثورة. في ظل هذه الظروف، يصير من الممكن لمزاج التشاؤم واليأس أن يعثر بسرعة على تعبير عنه بكل الطرق، بدءا من الردة الكاملة والهروب وصولا إلى أشكال مختلفة من الانحراف السياسي - في اتجاه اليسار وكذلك في اتجاه اليمين. يؤدي الإحباط إلى نفاذ الصبر والبحث عن الصفات الصالحة لكل شيء والطرق المختصرة. يمكن لذلك أن يعبر عن نفسه إما في نزعة التكيف الانتهازية مع الظروف القائمة، أو في مغامرات يسراوية متطرفة. إن هذه الظواهر، التي تبدو على طرفي النقيض مع بعضها البعض، هي في الواقع وجهان لنفس العملة.

في ذلك الوقت، وجد لينين نفسه في موقف صعب للغاية. وفي حين بقي الحزب موحدا رسميا، فإن الفصيلين صاروا يعملان بصورة مستقلة عن بعضهما البعض، وهي الحقيقة التي اتضحت بشكل حاد في السياسات المتعارضة التي اتبعها الفصيلان داخل اللجنة المركزية. رفض الأعضاء المناشفة (زوردانيا وراميشفيلي) العمل السري لأن استراتيجيتهم برمتها كانت تقوم على تصفية الحزب السري وحصص أنشطتهم على ما كانت تسمح به السلطات القيصرية. وبالتالي فإن مهمة الحفاظ على منظمات الحزب السرية داخل روسيا صارت على كاهل الأعضاء البلاشفة في اللجنة المركزية (دوبروفينسكي وغولدنبرغ ونوجين)؛ لكن هؤلاء الأخيرين كانوا توفيقيين ولم يوافقوا على طلب لينين بخوض نضال حازم ضد الأعضاء المناشفة داخل اللجنة المركزية.

في ظل تلك الظروف صار لا بد من تشكيل تيار منظم داخل الحزب الموحد. في عام 1907، تم تأسيس مركز للفصيل البلشفي. لم يكن هناك في قوانين الحزب ما يمنع نشر صحف فتوية، لذلك قرر لينين المضي قدما. وعلى الرغم من كل الصعوبات، تمكن المركز البلشفي من إصدار جريدته الخاصة: بروليتاري (ما بين 1906 و1909). ترأس لينين تحرير الجريدة التي ضمت، من بين متعاونين آخرين، مكسيم غوركي، الذي لعب أيضا دورا هاما في جمع الأموال لها. وسيرا على تقاليد الإيسكرا القديمة، حافظت بروليتاري على العلاقات مع المنظمات الحزبية داخل روسيا. وبسبب مشاكل العمل السري ظهرت العديد من العناوين الأخرى من أجل التشويش على الرقابة. كانت هناك جريدة الاشتراكي الديمقراطي، وعدد من جرائد الحزب المحلية. في البداية حاول لينين إنشاء مقر سري في فنلندا، حيث صعبت الحركة من أجل الاستقلال الوطني على السلطات الروسية استعادة السيطرة الكاملة، لكن برائن جهاز الأوخرانا كانت طويلة، وبالكاد تمكن لينين من الفرار من الاعتقال، مما اضطره مرة أخرى إلى أن يعود إلى المنفى.

1: LCW, To Maxim Gorky, February 13, 1908, ibid., p: 385.

## التصفوية والأوتزوفية

حالة الإحباط التي صار المناشفة يعيشونها عبرت عن نفسها في الظاهرة التي أصبحت تعرف باسم التصفوية. ففي ظل ظروف المد الرجعي، اتجه أغلبية رفاق نصف الطريق البرجوازيون الصغار داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي نحو اليمين. لم يكن ذلك تيارا سياسيا برنامجا مضبوط، بل كان مجرد مزاج محدد تغلغل في صفوف تلك الفئة الاجتماعية، مزاج من الارتياح في مستقبل الثورة الاشتراكية، وقبل كل شيء، مزاج الشك -الشك في الإمكانيات الثورية للطبقة العاملة، والشك في صحة الفلسفة الماركسية، والشك في أنفسهم- والشك في كل شيء. كانت أوضح مظاهر هذه الحالة الذهنية، التي سادت بين المثقفين في يمين الحركة العمالية، هي ظاهرة "التصفوية" بين المناشفة، إلا أنه كانت لها صورة مقابلة على اليسار، تمثلت في ظاهرة "الأوتزوفية" التي ظهرت بين صفوف البلاشفة. ضعف الفريق الاشتراكي الديمقراطي داخل مجلس الدوما، الذي كان تحت سيطرة المناشفة وميله العضوي نحو التوافق والمساومة مع الليبراليين ورفضه الخضوع لرقابة الحزب، أثار رد فعل معاكس تمثل في نزعة الانسحاب والتطرف. يعتبر التطرف اليسراوي، كما قال لينين في كثير من المناسبات، الثمن الذي تضطر الحركة إلى دفعه مقابل الانتهازية. لكن في ظل ظروف المد الرجعي المتنامي كان لرفض استخدام الدوما الثالث بغرض حشد قوى الحزب المشتتة، نتائج سيئة جدا.

وجد المزاج التصفوي التعبير الأكثر تطورا عنه بين فئة من المثقفين والكتاب المناشفة. أناس مثل بوتريسوف ولارين ودان ومارتينوف وأكسلرود وشيريفانين، الذين اتهموا البلاشفة بالتطرف وبالذهاب بعيدا جدا ومحاربة الليبراليين البرجوازيين. ودعا بعضهم إلى التخلي تماما عن فكرة الانتفاضة المسلحة وجعل الدوما مركز جميع أنشطة الحركة الاشتراكية الديمقراطية، أي أنهم دافعوا عن التخلي عن منظور الثورة. غير أن مناشفة آخرين، مثل زورديان، لم يصلوا إلى تلك الحدود، لكنهم قالوا إنه نظرا لكون الطابع الموضوعي للثورة كان برجوازيا ديمقراطيا، فإن البرجوازية (أي الليبراليين) هي التي يجب أن تقود الثورة. وهو ما يعني التخلي عن هيمنة الطبقة العاملة - وهو تبرير "نظري" لانعدام الثقة العضوي في الطبقة العاملة من جانب مثقفي الطبقة الوسطى، الذين يخفون قبولهم الدليل بسيطرة البرجوازية الكبيرة وراء كومة من المبررات التي "تثبت" أن البروليتاريا غير صالحة لقيادة المجتمع. يمكن التعبير عن هذا التحيز بشكل مباشر و"بنزاهة" (بالقول إن العمال جاهلون، و"لا يفهمون"، إلخ) أو بأشكال أكثر مراوغة (مثل القول بأن "الثورة برجوازية ديمقراطية" وأن "الوقت ليس مناسباً"، وهلم جرا). وعلى كل حال لم يكن من الصعب بالنسبة للمثقفين، الذين اعتادوا على اللعب بالأفكار مثلما يتم التلاعب بالقطع على رقعة الشطرنج، أن يفركوا مبررات ذكية لأي قرار مهما كان، انسجاما مع مزاجهم الحالي أو مصلحتهم الذاتية (والأمران عادة ما يرتبطان ارتباطا وثيقا). بالنسبة لهؤلاء الناس، في الواقع، لن يكون هناك أبدا وقت مناسب لكي تقوم الطبقة العاملة بحسم السلطة. حاول المناشفة أن يستندوا إلى جميع أنواع الحجج "الذكية" واقتبسوا من ماركس "لإثبات" أنه يجب على العمال الروس أن يخضعوا لليبراليين البرجوازيين ويساعدوهم على حسم السلطة وتطبيق الديمقراطية، ومن تم الدخول في فترة طويلة من التنمية الرأسمالية، وبعد ذلك، بعد حوالي مائة سنة أو نحو ذلك، ستصير الظروف الموضوعية جاهزة للاشتراكية. في الواقع ليس لهذا الموقف أية علاقة بالماركسية، بل كان فقط كاريكاتيرا سكولاستيكا عنها، وقد رد عليه لينين وتروتسكي عدة مرات، بل سبق الرد عليه في الحقيقة من طرف ماركس وإنجلز.

في العمق كان كل ذلك تعبيرا عن انهيار الروح المعنوية. في أكتوبر 1907، كتب بوتريسوف إلى أكسيلرود: «إننا نعيش تفككا كليا وإحباطا كاملا... لا نفتقر للمنظمة فقط، بل وحتى لعناصرها الأولية. وقد صار هذا الوجود التنظيمي مطروحا كمبدأ»<sup>1</sup>. وفي 20 فبراير 1908، كتب أكسلرود رسالة إلى بليخانوف معربا عن تشاؤمه العميق بشأن المستقبل، حيث قال: «دون النية في مغادرته [الحزب] في الوقت الحاضر، ودون أن نعلن حتمية زواله، يجب علينا مع ذلك أن ننظر إليه من هذا المنظور ولا نربط مصير حركتنا المستقبلية بما يحدث له»<sup>2</sup>.

في ربيع 1908، بدأ المناشفة بحل منظمات الحزب السرية في موسكو واستبدالها بما يسمى بمجموعات المبادرة، التي اقتصرت أساسا على الأنشطة الثقافية والعمل في التعاونيات والنوادي التي تسمح بها التشريعات القائمة. وفي يوليو، أصدر ألكسندر مارتينوف وبوريس غولدمان، نداء مفتوحا لحل اللجنة المركزية للحزب واستبدالها بـ "مكتب إعلامي". كان ذلك يعني في الواقع تصفية الحزب باعتباره قوة ثورية والتكيف مع القوانين التي وضعتها الردة الرجعية الستوليينية.

وهكذا كان الكفاح ضد التصفوية كفاحا من أجل الحفاظ على الحزب بكونه منظمة ثورية، كفاحا ضد محاولة الجناح اليميني تبيع أهداف وسياسات الحزب الثورية والتخلي عنها وإخضاعه لليبراليين. تحدث لينين بازدرء عن النزعات التصفوية، التي كان

1: Trotsky, *Stalin*, p: 110.

2: *Istoriya KPSS*, vol. 2, pp: 251-252.



ينظر إليها على أنها انعكاس للحالة المعنوية للمثقفين الذين صاروا يديرون ظهورهم للثورة بحجة رفض أساليب النضال والتنظيم "القديمة". وقال: «إن العلاقة واضحة بين النزعة التصوفية وبين المزاج العام البرجوازي الصغير بـ "التعب". إن "المتعبين" (ولا سيما أولئك المتعبين نتيجة لعدم قيامهم بأي شيء) لا يبذلون جهداً في البحث عن إجابة دقيقة تمكنهم من حل مسألة التقييم الاقتصادي والسياسي للحظة الراهنة... هؤلاء "المتعبون" الذين يصعدون على منبر الصحافة لكي يبرروا "تعبهم" من القديم، وعدم رغبتهم في العمل بالقديم، لا ينتمون إلى فئة "المتعبين" فقط، بل إنهم خونة أيضاً»<sup>1</sup>.

ويقول لينين في مكان آخر: «كلما صارت هذا الرأية أكثر "وضوحاً" كلما أصبح من الواضح أكثر أن ما يوجد أمامنا هو خرقة ليبرالية قذرة بالية». كانت هذه هي الطبيعة الأساسية للنضال بين البلشفية والمنشافية، الذي بلغ ذروته في انشقاق عام 1912.

كل ذلك كان، كما فهم لينين، تعبيرا عن انتشار المزاج المعادي للثورة بين المثقفين، مزاج اليأس وفقدان الثقة في الطبقة العاملة وفي منظور ثورة جديدة. كانت التصوفية أكثر مظاهر ذلك المزاج وضوحاً، لكنها لم تكن المظهر الوحيد. كثيراً ما قال لينين إن التطرف اليسراوي هو الثمن الذي تدفعه الحركة العمالية مقابل الانتهازية. لقد وجدت التصوفية انعكاسها في التطرف اليسراوي، لكن بينما وجد الاتجاه الأول صداه بين المناشفة، فإن الاتجاه الثاني وجد صداه في صفوف البلاشفة، حيث تسبب في ضرر كبير. وبالفعل في مارس وأبريل من 1908، طرحت بعض المجموعات الاشتراكية الديمقراطية في موسكو فكرة استدعاء نواب الحزب ومقاطعة الدوما. المرادف الروسي للكلمة "استدعاء" هو "otzvat"، والتي من خلالها نحصل على اسم هذا التيار: الأوتزوفية (النزعة الاستدعائية/ المقاطعاتية). دافع لينين بشدة عن ضرورة المشاركة في انتخابات مجلس الدوما الثالث، وهو الموقف الذي لقي موافقة القواعد في الكونغرانس الثالث للحزب (كونفرانس عموم روسيا الثاني) الذي عقد يومي 21 و23 يوليو 1907 في مدينة كوتكا في فنلندا. حضر الكونغرانس 26 مندوباً بحق كامل في التصويت -تسعة بلاشفة وخمسة منشافة وخمسة بولنديين واثنين من الحزب اللتواني وخمسة بونديين. لم يكن هذا الموقف واضحاً تماماً كما يبدو للوهلة الأولى، لأنه سرعان ما ظهرت شروخ خطيرة داخل الفصيل البلشفي. بعض أعضاء الوفد البلشفي كانوا "مقاطعين"، ومع ذلك فإن البولنديين و اللتوانيين أيدوا موقف لينين، وشارك الحزب في الانتخابات. تم انتخاب أربعة بلاشفة من أصل فريق اشتراكي ديمقراطي بلغ عدده 19 نائباً.

كان الصراع الداخلي للحزب يصعد إلى الواجهة في كل اجتماع. وفي الفترة ما بين 05 إلى 12 نوفمبر 1907، ناقش كونفرانس "عموم روسيا"، الرابع (أو الثالث)، الذي عقد في هلسنكفورس، مرة أخرى تكتيكات الدوما. ومن بين المندوبين الـ 27 الحاضرين، كان هناك عشرة من البلاشفة وأربعة من المناشفة وخمسة بولنديين وخمسة بونديين وثلاثة لتوانيين. دافع لينين في ذلك الكونغرانس عن استخدام الدوما، ليس كوسيلة للحصول على الإصلاحات -كما قال التصوفيون- بل كمنصة للتحريض الثوري، وذلك دائماً على أساس استقلالية الطبقة، وليس التكتل مع الكاديت، على النحو الذي دعا إليه البولنديون والمناشفة. تمت الموافقة على قبول الاتفاقات المؤقتة مع مجموعات العمال والفلاحين على يسار الكاديت، بهدف تخليص الفلاحين من تأثير الليبراليين البرجوازيين. كان ذلك دفعة هامة لموقف لينين. بدا كما لو أن الأمور تسير في الاتجاه الصحيح، ثم حدثت انتكاسة جديدة.

في ربيع 1908، وبطريقة مفاجئة تم اعتقال جميع أعضاء مكتب الحزب البلاشفة في روسيا. تسبب ذلك في تحطيم كامل لعمل الفصيل البلشفي في روسيا. عند هذه النقطة استفاد المناشفة من الوضع من خلال محاولة تحويل اللجنة المركزية للحزب إلى مجرد مركز للمعلومات فقط. تم رفض هذا الاقتراح في جلسة غشت المكتملة، التي عقدت في جنيف عام 1908. وكالمعتاد كان البلاشفة مدعومين من طرف البولنديين و اللتوانيين. وتقررت الدعوة إلى عقد كونفرانس للحزب لمناقشة مسألة التصوفية، لكن المناشفة عارضوا هذه الفكرة، كما عارضها الأوتزوفيون، الذين دعوا إلى عقد "مؤتمر بلشفي خالص"، في الوقت الذي كان فيه لينين يحاول الحفاظ على الوحدة. أنصار النزعة الأوتزوفية، وبالإضافة إلى سحب الفريق البرلماني من الدوما، طالبوا بأن يقاطع الحزب العمل في المنظمات الشرعية. في ظل ظروف الثورة المضادة السائدة، كان من الضروري أن يستغل الماركسيون جميع المنافذ الشرعية، مهما كانت محدودة: النقابات العمالية ونوادي العمال وجمعيات التأمين، وقبل كل شيء مجلس الدوما. كان من شأن إدارة الظهر لهذه الإمكانيات الشرعية أن يكون خطأ كارثياً، كان سيعني التخلي عن أي محاولة للوصول إلى الجماهير، وبالتالي تحويل الحزب إلى مجرد عصابة. لقد شن لينين نضالاً حازماً ضد هذا التيار اليسراوي المتطرف، الذي وصفه بشكل صحيح بأنه "النزعة التصوفية مقلوبة رأساً على عقب".

كان المزاج اليسراوي المتطرف سائداً بين صفوف قيادة الفصيل البلشفي في ذلك الوقت. ومن الزعماء الرئيسيين لذلك الاتجاه

1: LCW, *Those who would liquidate us*, vol. 17, pp: 71-72.

كانت هناك شخصيات بارزة مثل ألكسندر بوغانوف (ماكسيموفيتش) وغريغوري أليكسينسكي وأ. سوكولوف (فولسكي) ومارتن ليادوف (ماندلشتام) وكذلك غوركي، الذي ظهر فهمه المحدود للأسس النظرية للماركسية في دعمه لاتجاه فلسفي شبه صوفي يسمى "بناء الله". كانت الرغبة في انتقاد ومراجعة البديهيّات النظرية الأساسية للماركسية هي أيضا انعكاسا لمزاج التشاؤم واليأس السائد بين صفوف المثقفين، والذي يمكن ملاحظته مرارا وتكرارا في التاريخ خلال مراحل الثورة المضادة. كان تبني بوغانوف لسياسة يسراوية متطرفة مرتبطا ارتباطا عضويا بتحريفه الفلسفية ورفضه للمادية الديالكتيكية منذ ما قبل ثورة 1905. لينين، الذي كان حريصا على الاستفادة من خدمات الأشخاص الموهوبين، كان مستعدا لتحمل أفكار بوغانوف الغربية بخصوص الفلسفة، مع الحرص على توضيح أنه لا يتفق معها. لكن في سياق تفشي الثورة المضادة، مع تزايد حالات التخلي عن النضال واليأس والردة من جميع الجوانب، أدرك لينين أنه من غير المقبول أن يتسامح مع أي مزيد من التراجعات. كان من الممكن للسماح باختراق الحزب من طرف نزعة التصوف الفاسدة، القادمة من محيطه من المثقفين البرجوازيين الصغار، أن يكون موقفا انتحاريا. كان من شأنه أن يؤدي حتما إلى تصفية الحزب الماركسي، بدءاً بكوادره.

كان من الضروري اتخاذ موقف الدفاع عن النظرية الماركسية، ولم يتردد لينين في خوض نضال شرس على الرغم من أنه قد يؤدي إلى القطع مع معظم الرفاق البارزين. دفاع لينين الدؤوب عن الفلسفة الماركسية أثار عليه الكثير من التعليقات الساخرة من قبل المؤرخين غير الماركسيين. وذلك طبيعي، لأنه إذا كان المرء لا يقبل بالماركسية على أي حال، فكيف يمكن له أن يفهم الحاجة إلى النضال من أجل الدفاع عن المبادئ النظرية الماركسية؟ لكن الماركسية نظرية علمية لها منطق داخلي، وليس من الممكن فصل الأجزاء الثلاثة المكونة للماركسية، كما وصفها لينين، وقبول بعضها ورفض البعض الآخر، مثلما يختار المرء ربطة عنق أو زوجا من الجوارب. إن المادية الديالكتيكية هي جوهر الماركسية لأنها منهج الماركسية، وبدون المادية الديالكتيكية تنهار الماركسية برمتها، أو أنها تتحول إلى عقيدة صورية ميتة. ولهذا السبب تحديدا، شنت البرجوازية، وخدامها في الجامعات، هجمات مستمرة ضد الديالكتيكية الماركسية، التي يحاولون تصويرها على شكل عقيدة دينية أو كفسفسطة لا معنى لها. في الواقع إن المادية الديالكتيكية تمثل الشكل الثابت الوحيد للمادية، وبالتالي فهي الطريقة الوحيدة المتسقة حقا للكفاح ضد جميع أشكال التصوف والدين. تاريخ العلم دليل كاف على أن العلم والدين اتجاهاً فكريان متعارضان بالكامل. لم يفهم الكثير من نشطاء الحزب في ذلك الوقت نضال لينين للدفاع عن الفلسفة الماركسية. كان متوسط المستوى النظري للأعضاء قد انخفض نتيجة للنمو السريع للحزب وفقدان الكوادر من ذوي الخبرة بسبب السجن والنفي. كان العديد من الأعضاء الذين بقوا يفتقرون إلى أسس متينة في النظرية الماركسية، وبسبب ظروف السرية الصعبة، نظروا بارتياح إلى المناقشات التي تجري بين المنفيين والتي بدت لهم غامضة ومفارقة للواقع. كانت هناك نداءات متكررة من أجل الحفاظ على الوحدة وشكاوى ضد الصراع بين الفصائل. لكن لم يكن هناك شيء يمكنه أن يحرف لينين عن مساره.

### مزاج الإنتليجنسيا

عبرت فترة الرد الرجعية عن نفسها ليس فقط من خلال ازدياد أعمال القمع المادية، بل بطرق أكثر شؤماً بكثير. لقد أثرت صدمة الهزيمة على نفسية الناس بطرق مختلفة، على شكل وباء من الاكتئاب والتشاؤم واليأس. لا تعيش الطبقة العاملة بمعزل عن الطبقات الاجتماعية الأخرى، إنها محاطة، في جميع البلدان وفي كل مرحلة من المراحل، بفئات أخرى، ولا سيما البرجوازية الصغيرة بكل مكوناتها، والتي تعمل بمثابة قناة ضخمة لنقل مزاج الطبقة السائدة وأحكامها المسبقة وأفكارها إلى كل ركن من أركان المجتمع. ليست البروليتاريا بمنأى عن ضغوط الطبقات الأخرى والتي تنتقل إليها عبر البرجوازية الصغيرة. وتلعب تلك التأثيرات دورا خبيثا بشكل خاص في فترات الرد الرجعية. بعد أن شعرت قطاعات من المثقفين بخيبة الأمل في الثورة والطبقة العاملة، انسحبوا من ساحة النضال من أجل الانكفاء على أنفسهم، بحثا عن الأمان بعيدا عن العاصفة التي تهب في الخارج. أعرب المزاج الرجعي للمثقفين عن نفسه من خلال مجموعة متنوعة من الطرق: النزعة الذاتية والانغماس في الملذات والتصوف والميتافيزيقا والبورنوغرافيا. وقد وجدت هذه النزعات انعكاسا لها في الأدب في المدرسة الرمزية؛ وفي الفلسفة، حيث رفضوا الديالكتيك الثوري لصالح الفلسفة الكانطية، بتكوينها الذاتي القوي. كان كل ذلك مجرد تعبير عن انحطاط معنويات المثقفين، وابتعادا عن العالم ومحاولة للبحث عن ملجأ في "الحياة الداخلية"، تحت كل أنواع الشعارات الغامضة التي لا معنى لها ("الفن من أجل الفن"، وما إلى ذلك) والتي قدمت لهم عذرا مريحا للتفكير في شؤونهم الأنايية الضيقة. يتذكر مصدر معاصر لتلك الفترة كيف: «استسلم الراديكاليون أبناء التجار الصغار لمصيرهم وأخذوا أمكانهم في ورشات آبائهم. كما أغرق الطلاب الاشتراكيون أنفسهم في المعرفة كما

لو أنهم في دير».

تلك الظاهرة ليست جديدة، إنها أمر شائع خلال كل فترة من فترات الردة الرجعية، عندما تتلاشى آمال المثقفين في الثورة. بعد سقوط روبسبير، رأينا صعود «الشباب الذهبي» [Jeunesse dorée]، والاتجاه نحو الانغماس في الملذات والأناية. كما يمكن ملاحظة ظاهرة مماثلة في إنجلترا بعد عودة تشارلز الثاني. وشهدت هزيمة ثورة 1848 في فرنسا حركة للفنانين والشعراء، الذين سبق لهم أن عبروا عن توجهات ثورية، نحو الانطواء على النفس والتصوف، والتي كانت النزعة الرمزية عند بودليير المظهر الأدبي عنها. وليس من قبيل المصادفة أن المدرسة التي سادت في الشعر الروسي خلال سنوات الردة الرجعية الستوليبينية كانت بالضبط هي الرمزية. يوضح أحد طلاب ذلك الوقت أنه: «لم تعد نقاشاتنا الحماسية الآن تدور حول أفكار ماركس وإنجلز، بل حول أفكار نيتشه وبودليير وفاجنر وليوناردو دافينشي، ولم نعد ننشد الأغاني الثورية، بل نتلوا لبعضنا البعض قصائد الشعراء الرمزيين المعاصرين أو نسخنا المقلدة عنها. لقد بدأت مرحلة جديدة»<sup>1</sup>.

إن السمة الرئيسية لذلك الشعر هي طابعه المنغلق على الذات، حيث يدير الفرد المعزول ظهره للعالم ويلتمس الملجأ في ظلام الروح، كما عبر أحد رموز النزعة الرمزية الروس قائلا:

«نحن وحيدون تماما،

دوما وحيدون.

ولدت وحيدا.

ووحيدا سأموت».

كانت الحركة كلها مشربة بمفاهيم دينية وباطنية. كتب فيودور سولوغوب: «أنا إله عالم غامض، لا يوجد العالم بأسره إلا في أحلامي وحدها». وكتب ف. ف. روزانوف: «كل الأديان سوف ترحل، لكن هذا وحده سوف يبقى، جالسا على كرسي وينظر إلى المدى»<sup>2</sup>، وهلم جرا. لم تقتصر هذه الظاهرة بأي حال على الأدب وحده، فقد أصدر المفكرون رفاق نصف الطريق، الكاديتيون، صحيفة أطلقوا عليها اسم: فيخي (المعالم) والتي حاولت إعطاء أساس فلسفي لمزاج اليأس والتشاؤم السائد بين البرجوازية الصغيرة. كتب م. و. جيرشينزون على صفحات فيخي: «يجب على المثقفين أن يتوقفوا عن الحلم بتحريير الشعب -علينا أن نخشى الشعب أكثر من جميع عمليات الإعدام التي تنفذها الحكومة، ونحیی هذه الحكومة التي وحدها، بحرابها وسجونها، من تحمينا من غضب الجماهير»<sup>3</sup>.

ظهر موضوعيا نوع من تقسيم رجعي للمهام، ففي حين عملت الصحف اليمينية مثل فيخي وروسكايا ميسل على تقديم تبرير للردة الرجعية وكيل المديح لها بشكل واضح، فإن المثقفين اليساريين السابقين، الحريصين على إيجاد بعض المبررات المقنعة لتخليهم عن القضية الثورية، شنوا، في صالونات موسكو وسان بيترسبورغ، هجوما أكثر تسترا وأكثر شوْما على الإيديولوجية الماركسية التي تخلوا عنها. وقد أخذت هذه المزاجية المعادية للثورة، اللاواعية أو نصف الواعية، التي سادت بين الإنتليجنسيا، شكلها النهائي على يد هؤلاء المرتدين الذين شكلوا في وقت سابق أساس التيار الذي أصبح يعرف باسم الماركسية الشرعية، مثل ستروفه والفيلسوف باردبايف، وأ. س. إزغوف، ود. س. ميريزكوفسكي. هؤلاء الأسلاف السابقون «للماركسية» الجامعية الفقيرة المبتذلة، التي يمكن العثور عليها في كل مرحلة بين صفوف الدوائر الأكاديمية، والتي يتوهم أعضاؤها، لسبب مجهول، أنهم ماركسيون، لكن دون أن تكون لهم أية علاقة حقيقية مع العالم الحقيقي للصراع الطبقي. عندما تواجه الحركة أولى الصعوبات، يقفز «رفاق نصف الطريق» من السفينة ويصبحون مدافعين عن الردة الرجعية.

من الصعب أن نحدد من هو الأكثر ضررا بين هذين العدوين. لقد هدد ذلك التراجع النظري مستقبل الحركة الثورية، ونخرها من أساسها. كان من الضروري خوض صراع إيديولوجي حازم على جميع الجبهات لإنقاذ الحزب من الخراب الشامل. وليس من قبيل الصدفة أن يكون الديالكتيك هو هدف الهجوم الذي شنه النقاد الفكريون للماركسية. إن الديالكتيك، وعلى الرغم من المظاهر، ليس على الإطلاق عقيدة فلسفية مجردة بدون أي آثار عملية، بل هو الأساس النظري للماركسية ومنهجها وجوهرها الثوري. إن رفض المادية الديالكتيكية لا يعني فقط رفض الأساس الفلسفي العلمي للماركسية، بل يعني رفض جوهرها الثوري

1: L. Kochan, Russia in Revolution, p: 155.

2: Ibid., p: 155.

3: O. Figs, A People's Tragedy, p: 209.

قبل كل شيء.

وسرعان ما بدأت تلك الأفكار الغربية في اختراق حزب العمال نفسه. تم تهريب الكانطية من خلال النظريات المألوفة لإرنست ماخ، الفيزيائي النمساوي والفيلسوف الذي كانت نظرياته مشربة بروح المثالية الذاتية. تحت ذلك الستار صارت تلك الآراء الفلسفية المناهضة للماركسية تبرز على يد الجناح اليساري المتطرف بين صفوف البلشفة، بمن في ذلك الأعضاء البارزين في فصيل لينين مثل بوغدانوف ولوناشارسكي وأ. ف. بازاروف. وكما جرت العادة دائما فإن الانتقال إلى التحريفية تم تحت راية البحث عن أفكار جديدة. دائما ما تكون الدعوة إلى الجديد وادعاء الأصالة خطوة نحو العودة إلى الأفكار القديمة التي تم تنفيذها منذ عصور ما قبل تاريخ الحركة العمالية: اللاسلطوية والبرودونية والكانطية. وكما يقول المثل الفرنسي: "Plus ça change, plus c'est la même chose" ("كلما تم إدخال المزيد من التغييرات، كلما بقيت الأوضاع على حالها!"), حاول ذلك التيار أن يزاوج بين الماركسية وبين... الدين! وقد أطلق مؤيدوه على أنفسهم بعض الأسماء الغربية مثل: "بناة الله" و"الباحثون عن الله"، التي تكشف عن طبيعتهم الحقيقية بطريقة أكثر دقة. يقول لوناشارسكي، في كتابه "الدين والاشتراكية"، إن النظريات الماركسية "الباردة وغير الإنسانية" لا يمكن استيعابها من قبل الجماهير، واقترح خلق "دين جديد"، سيكون "دينا بلا إله"، و"دينا للعمل"، وما إلى ذلك. وقد تمت الإشارة إلى الاشتراكية على أنها "حركة دينية جديدة قوية"<sup>1</sup>. وقد أثار ذلك الشبح الصوفي الذي يتنكر تحت اسم الفلسفة سخط لينين الشديد.

بعد الكونغرس الحزبي الموحد العاصف الذي عقد في باريس في دجنبر 1909، تم انتخاب هيئة تحرير جديدة لصحيفة "الاشتراكي الديمقراطي"، تألفت من لينين وزينوفيف وكامينيف ومارتوف ومارشويسكي. تذكر كروبسكايا أن «مارتوف كان أقلية داخل الهيئة الجديدة، ونسي في كثير من الأحيان منشفيته». وتضيف قائلة: «أتذكر أن إيليتش أشار في إحدى المرات بارتياح أنه كان من الجيد العمل مع مارتوف، لأنه كان صحفيا موهوبا للغاية. لكن ذلك الوضع توقف بعد وصول دان»<sup>2</sup>.

يملك كثير من الناس فكرة خاطئة عن لينين بكونه رجلا صعبا جدا يسعده "تقريع" خصومه في الجدل. ينبع هذا الانطباع البعيد جدا عن الحقيقة - من معرفة سطحية بكتابات لينين. إذا اكتفى المرء بقراءة المقالات المنشورة فقط، والتي كان الكثير منها ذا طابع جدالي طبعاً، سيبدو له أن لينين يعامل خصومه بقليل من اللطف. لكن هذا لا يعطي إلا وجها واحدا للعملة، لأنه إذا قرأ مراسلات لينين، فستظهر له صورة مختلفة تماما. لقد كان لينين دائما وبشكل غير عادي صبورا ونزيها في تعامله مع الرفاق. كان يبذل قصارى جهده لإقناع رفاقه، لكن في النهاية فقط، عندما تنتقل القضايا المتنازع عليها إلى العلن، وخاصة عندما تكون القضايا المبدئية على المحك، يضطر إلى خوض الصراع. آنذاك تأخذ الدبلوماسية المقعد الخلفي ولا يتم احترام أي مشاعر. بالنسبة إلى لينين، تصير جميع الاعتبارات الأخرى ثانوية عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن المبادئ الأساسية للماركسية. ويمكن رؤية هذه الطريقة بوضوح في هذه الحالة.

لم تكن تحفظات بوغدانوف على المادية الديالكتيكية مسألة جديدة. لكن في خضم الثورة لم تكن لتلك الأمور أهمية تذكر. وعلى أية حال، لم يكن هناك وقت ليكرس للفلسفة. لكن في ظل ظروف الردة الرجعية، صارت المسألة تطرح بشكل مختلف تماما. كانت الأخطار واضحة جدا. لكن الانشقاق حول تلك المسائل وفي تلك الظروف الصعبة، كان أمرا من الصعب تصوره. في البداية حاول لينين أن يخفف من تلك الخلافات، وذلك لتجنب اندلاع صراع مدمر داخل القيادة البلشفية. تذكر كروبسكايا أنه: «في نهاية مارس، كان إيليتش يرى أنه ينبغي فصل النزاعات الفلسفية عن التكتلات السياسية داخل الفصيل البلشفي. وأعرب عن اعتقاده بأن مثل هذه الخلافات داخل الفصيل ستظهر أفضل من أي شيء آخر أن فلسفة بوغدانوف لا يمكنها أن توضع على نفس مستوى البلشفية». إلا أنها تضيف: «لكن صار يبدو بشكل أكثر فأكثر وضوحا أن المجموعة البلشفية سوف تنهار قريبا»<sup>3</sup>.

يعطي ن. فولسكي (فالتينوف) في مذكراته صورة عن الصراعات الحادة حول القضايا الفلسفية التي هزت المنظمة البلشفية في ذلك الوقت<sup>4</sup>. بقراءة ذلك يدرك المرء أن لينين كان له شدد الصبر، لكن كل شيء له حدوده. فعلى الرغم من كل محاولاته للحفاظ على السلام، فقد كانت الاختلافات أخطر من أن يتم غض الطرف عنها. ولجعل الأمور أكثر سوءا، كتب بوغدانوف مقالا في صحيفة كاوتسكي Die Neue Zeit يشيد فيها بالماخية. كان ذلك، بالنسبة إلى لينين، بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس. كان الحزب

1: Lunacharsky, Revolutionary Silhouettes, p: 35.

2: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 193.

3: Ibid., p: 181.

4: Valentinov, Encounters with Lenin, 1968.

الاشتراكي الديمقراطي الألماني هو الحزب الرئيسي في الأممية، وكان نشر المقالة في إعلام الحزب الألماني بمثابة استفزاز علني. والأسوأ من ذلك هو أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني كان موقفه غامضاً بشأن القضايا الفلسفية، في حين أشاد منظر الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي، فريدريك أدلر، بالماخية إذ اعتبرها اكتشافاً علمياً كبيراً. ومن خلال إعطاء الجدل الدائر داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ذلك المستوى الأممي، رفع بوغدانوف التحدي وعمق الانقسام. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً لم يعد هناك مجال للعودة إلى الوراء.

كان من الصعب جداً على لينين أن يقطع مع الأشخاص الذين عمل معهم عن قرب، وهو ما توضحه كروبسكايا قائلة: «قبل ذلك بما يقرب من ثلاث سنوات، كنا نعمل مع بوغدانوف والبوغدانوفيين يداً في يد، لم نكن فقط نعمل معاً، بل كنا نناضل معاً جنباً إلى جنب. ليس هناك ما يقرب الناس إلى بعضهم البعض أكثر من النضال من أجل قضية مشتركة. ومن ناحية أخرى، كان إيليتش رائعاً في قدرته على إشعال الآخرين بأفكاره، ويصيهم مثل العدو بحماسة، وفي الوقت نفسه يجعل أفضل خصالههم تزدهر، ويستخرج منهم ما عجز الآخرون عن استخراجهم. بدا كل رفيق عمل إلى جانبه، كما لو أن جزءاً من إيليتش يوجد فيه، وربما كان ذلك هو السبب في أنه كان قريباً جداً منهم.

كان الصراع داخل المجموعة حدثاً محطماً للأعصاب. أتذكر إحدى المرات عندما عاد إيليتش إلى المنزل بعد أن كان قد اصطدم مع الأوتزوفيين، بدا فظيلاً، وحتى لسانه بدا وكأنه تحول إلى اللون الرمادي. قررنا أنه عليه الذهاب إلى نيس لمدة أسبوع للابتعاد عن الاضطراب واستعادة الهدوء تحت أشعة الشمس. فسافر ثم عاد معاً مرة أخرى»<sup>1</sup>.

شعر لينين آنذاك أنه ليس لديه بديل سوى شن حرب شاملة ضد أنصار بوغدانوف. لكن ما حدث هو أنه لم يكن لينين، بل بليخانوف هو الذي أطلق الرصاصة الأولى. كتب مقالته Materialismus Militans (المادية المقاتلة) باعتبارها رسالة مفتوحة لبوغدانوف. إلا أن الرد النظري الرئيسي كان هو تحفة لينين الفلسفية: «المادية والمذهب النقدي التجريبي»، التي تعتبر واحدة من أعظم الأعمال النظرية للماركسية الحديثة. لعب ذلك الكتاب دوراً رئيسياً في إعادة التسليح الأيديولوجي للطبقة العاملة الروسية وإعادة توجيه الحركة، ومكافحة النزعات التحريفية والأفكار الرجعية. قطع لينين أفكار التصوف مثلما يقطع سكين ساخن الزبدة. لقد أصبحت الآن مسألة حرب حتى النهاية. ويمكن رؤية تشدد موقف لينين في رسالته إلى شقيقته أنا، التي كانت المسؤولة عن التعامل مع ناشر «المادية والمذهب النقدي التجريبي». حاول هذا الأخير تلطيف اللغة المستخدمة ضد الطرف الآخر، لكن لينين أصر على عدم تقديم أي تنازلات على الإطلاق. استخدم في نصه كلمة «Popovshchina» [بوبوفشينا] (وهي كلمة غير قابلة للترجمة، تعني تقريباً «النزعة الكهنوتية») لوصف تصور مؤيدي المذهب النقدي التجريبي. وقد تمت ترجمة تلك العبارة على نحو غير صحيح بـ «المذهب الإيماني»، وهو التعبير الذي، بالإضافة إلى كونه غير دقيق من الناحية اللغوية، كان محاولة واضحة لتخفيف لهجة جدال لينين. أدت تلك المحاولة إلى توبيخ حاد من جانب لينين ليس في رسالة واحدة بل في عدة رسائل، مثل تلك المؤرخة في 09 مارس 1909، حيث نجد: «من فضلك لا تخففي اللهجة ضد بوغدانوف وضد بوبوفشينا لوناشارسكي. لقد قطعنا تماماً العلاقات معهم. ليس هناك أي سبب لتخفيفها. إن الأمر لا يستحق العناء»<sup>2</sup>.

ومرة أخرى، بعد ثلاثة أيام فقط، كتب: «رجاء لا تخففي أي شيء ضد بوغدانوف ولوناشارسكي وشركائهما. يجب ألا يتم تخفيفها. لقد حذفت المقطع عن كون تشيرنوف خصماً «أكثر نزاهة» منهم، وهو أمر مؤسف للغاية. إن المعنى الذي أعطيته ليس هو الذي أريده. لم يعد هناك اتساق عام في اتهاماتي. جوهر القضية هو أن ماخييناً» غير نزهاء وحقيرون وأعداء جنباء للماركسية في مجال الفلسفة»<sup>3</sup>.

## انقسام البلاشفة

في تلك الأثناء صار الانشقاق داخل فصيل البلاشفة علنياً. كان لصحيفة «Proletary» هيئة تحرير «صغيرة» تتألف من لينين وزينوفيف وكامينيف، الذين بدأ تعاونهم في تلك السنوات، إلى جانب بوغدانوف وعضوي اللجنة المركزية غولدنبرغ ودوبروفينسكي. التقى هؤلاء المحررون المذكورون مع أعضاء آخرين في كونفرانس مصغر في باريس، في الفترة ما بين 08 و17 يونيو (21-30) 1909.

1: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, pp: 193-194.

2: Letter to his sister Anna, March 9, 1909, LCW Vol. 37, p: 414.

3: Letter to his sister Anna, March 12, 1909, LCW Vol. 37, p: 416

ومن بين الحاضرين كان هناك ريكوف وتومسكي، زعيم النقابات العمالية لاحقا من بطرسبرغ. كان الهدف من المؤتمر مناقشة مسألة "الأوتوزوفية" وأصحاب "الإذارات النهائية" ("Ultimatism"). دافع بوغدانوف عن موقفه في مناقشة مفتوحة، لكنه كان معزولا. فباستثناء شانتر، الذي اتخذ موقفا توفيقيا، وامتناع عضوين عن التصويت (تومسكي وغولدنبرغ)، صوت جميع المندوبين الآخرين لصالح موقف لينين. كما ناقش الكونفرانس الآراء الفلسفية لمجموعة بوغدانوف ورفضها. ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن جميع مواقف لينين قد قبلت مع وجود أصوات ضد وامتناع أخرى عن التصويت. ليس هناك، بطبيعة الحال، أي شيء غير عادي بشأن القرارات التي تتخذ بأغلبية الأصوات، الفكرة القائلة بأن كل قرار يجب أن يكون بالإجماع هي فكرة تنتمي إلى التقاليد الستالينية، بعبادتها للزعيم المعصوم، وهو الشيء الذي يعتبر غريبا تماما عن التقاليد الديمقراطية للبلشفية. لكن في هذه الحالة بالتحديد، كان الامتناع عن التصويت له معنى، لأن العديد من نشطاء الحزب في روسيا اعتبروا النزاع حول القضايا الفلسفية ترفا لا يمكن تفهمه في ظل الظروف الصعبة التي كان الحزب يعمل فيها آنذاك. في الواقع، تعتبر النزاعات حول القضايا النظرية بالنسبة لهؤلاء الناس "تصرفا غير مناسب".

ومن الأمثلة النموذجية على تلك الحالة الذهنية نجد ستالين الذي عجز تماما عن فهم ما كان لينين يرمي إليه. كتب في رسالة بعثها إلى م. ج. تسخاكيا، إن النقد التجريبي له جوانب جيدة أيضا وأن مهمة البلاشفة هي تطوير فلسفة ماركس وإنجلز "بروح ج. ديتزجن، بحيث تستفيد من الجوانب الجيدة للماخية". هذ العبارة المجنحة، مثل غيرها من نفس النوع، والتي تكشف عن نظرة ستالين الضيقة والجاهلة والمبتذلة للماركسية، تم حذفها طبعاً من أعماله الكاملة، لكنها نجت في بعض الزوايا المنسية من أرشيف الحزب، من حيث تم استخراجها من قبل مؤلفي تاريخ الحزب الرسمي الذي نشر في عهد خروتشوف<sup>1</sup>. أغلب الاحتمالات هو أن ستالين لم يقرأ أبدا سطر واحد لماخ، فهو باعتباره التجسيد الحي لـ "مهني" الحزب، لم يكن مباليا بهذه المسائل النظرية، على اعتبار أنها مجرد تفاهات مزعجة وتشويشا على مهام الحزب اليومية. ويمثل الاقتباس أعلاه محاولة خرقاء لتحقيق الوحدة من خلال الاكتفاء ببساطة بتجاهل المسائل المبدئية تماما.

إلا أن ستالين لم يكن الوحيد الذي فشل في فهم أهمية النضال من أجل المبادئ النظرية، بل على العكس تماما كانت هذه المواقف واسعة الانتشار في صفوف البلاشفة، بما في ذلك بين أقرب المتعاونين مع لينين. الزعيم المستقبلي للنقابات السوفيياتية، ميخائيل تومسكي، كان ضد كل فلسفة وأعلن: «لم أشعر أبدا بالحنين إلى الفلسفة. إن أولئك الذين ينشغلون بالفلسفة إنما يريدون الهروب من الواقع»<sup>2</sup>.

في 26 ماي 1908، كتب كامينيف في النسخة الأولى من رسالة إلى بوغدانوف: «إذا... واجهت إنذارا بأنه علي لكي نعمل معا سياسيا أن أوافق على جميع الخطوات التي اتخذناها ضد خصومنا الفلسفيين... فإنه لن يكون لدي، بطبيعة الحال، أي خيار آخر ما عدا الانسحاب من هذا النضال»<sup>3</sup>.

وفي خطوة توفيقية منه قال بأنه على الصحيفة المركزية للحزب، *Sotsial Demokrat*، ألا تكتفي بنشر مقالات أولئك الذين يدافعون عن المادية الديالكتيكية، بل أن تنشر أيضا مقالات أولئك الذين يعارضونها. هذا في الوقت الذي كان لينين قد توصل فيه إلى خلاصة أن القطيعة التامة مع البوغدانوفيين صارت ضرورية. في صيف 1908، كتب لينين إلى فوروفسكي، الذي عمل معه في فبراير عام 1905، رسالة بعبارات توضح بشكل كامل أن القطيعة المفتوحة مع مجموعة بوغدانوف صارت مسألة وقت فقط. بل إن لينين كان يعتقد أنه قد يجد نفسه أقلية، وفي هذه الحالة سيضطر هو إلى الانشقاق: «الصديق العزيز، شكرا على الرسالة. كل "شكوكك" خاطئة. لم أكن أعاني من مشاكل عصبية، لكن موقفنا صعب. الانشقاق مع بوغدانوف صار وشيكا. والسبب الحقيقي هو أنه يحس بالغضب من الانتقادات الحادة التي وجهت إلى تصوراته الفلسفية خلال الاجتماعات (والتي لم تصدر أبدا في الصحيفة). والآن يعمل بوغدانوف على تصيد أي شكل من أشكال اختلاف الرأي. وقد عمل، جنبا إلى جنب مع أليكسينسكي، الذي يثير فوضى رهيبية والذي اضطررت إلى أن أقطع معه كل العلاقات، على إخراج الصراع إلى العلن.

إنهم يحاولون الانشقاق على أساس النقد التجريبي والمقاطعة. سوف تنفجر العاصفة قريبا جدا. والمواجهة في الكونفرانس القادم أمر لا مفر منه. هناك احتمال كبير لحدوث الانشقاق. وسأترك الفصيل حاملا يصبح لسياسة "المقاطعة الحقيقية" و"اليسار"

1: *Istoriya KPSS, vol. 2, p: 272* (التشديد من آلان وودز)

2: *Protokoly soveshchaniya rasshirennoy redaktsii Proletariya, p: 12.*

3: *Pod Znamenem Marksizma, No. 9-10, 1932, p: 203* (التشديد من آلان وودز)

اليد العليا داخله»<sup>1</sup>.

خلال هذه الفترة، تراجعت حظوظ لينين إلى أدنى مستوياتها. وعلى الرغم من أن الدعم الذي قدمه الاشتراكيون الديمقراطيون البولنديون واللاتيفيون أعطى الأغلبية للمواقف البلشفية في اجتماعات الحزب، فإن لينين وجد نفسه أقلية داخل الفصيل البلشفي. كان معظم أقرب المتعاونين السابقين معه - بوغدانوف ولوناشارسكي وليادوف - مقاطعين. وكان الجيل الجديد من القادة يميل بقوة إلى النزعة التوفيقية. أما لينين وكروبسكايا، والرجلين الذين كانا سيصيران أقرب رفاقهما في السنوات القليلة المقبلة، زينوفييف وكامينيف، فقد اضطروا للهجرة إلى سويسرا. طبيعة لينين المتفائل دوما لم تكن تترك مجالاً للاكتئاب، لكنه عندما عاد إلى جنيف في يناير 1908، ظهرت عليه علامات الإجهاد. ومزاج الحزن والاكتئاب يتخلل كل سطر من أسطر الفقرة التالية من مذكرات كروبسكايا: «بدأت جنيف كثيبة. لم تكن هناك ثلوج، لكن كانت هناك رياح عاتية باردة تهب. كانت تباع بطاقات بريدية تصور مشهد المياه المتجمدة بالقرب من درابزين بحيرة جنيف، وكانت البلدة تبدو ميتة وخالية. ومن بين الرفاق الذين كانوا يعيشون هناك في ذلك الوقت، ميخا تسخاكايا، وف. ك. كارينسكي، وأولغا رافيتش. كان ميخا تسخاكايا يعيش في غرفة صغيرة وخرج من السرير بصعوبة عندما وصلنا. قيل لنا إن لا أحد يريد النقاش، وكان آل كارينسكي يعيشون في المكتبة الروسية حيث كان كارينسكي يشغل منصب مدير، كان هذا الأخير يعاني من صداع حاد جدا عندما وصلنا وكانت كل النوافذ مغلقة لأن الضوء كان يضر به. وبينما كنا في طريق العودة من عند آل كارينسكي، عبر شوارع جنيف الخالية، التي بدأت أكثر وحشة من أي وقت مضى، قال إيليتش: "لدي شعور كما لو أنني جئت إلى هنا لأدفن"<sup>2</sup>.

كانت مخاوف لينين مفهومة. كانت حالة المنفيين الروس أسوأ بكثير من أي وقت مضى. نضبت الأموال، مما خلق مشقة مروعة لهؤلاء الأشخاص الذين كانوا أصلا يعانون معنويا وماديا. وكان البلاشفة هم من عانوا أكثر من الاعتقالات في فترة الردة الرجعية، لأن التصفيين كانوا قد اقتصرنا أساسا على الأنشطة القانونية. كان البلاشفة يمتلكون أموالا أقل مما كان متوفرا للمناشفة، الذين كان ما يزال يمكنهم الاعتماد على داعمين أثرياء من الانتلجنسيا. ولهذا السبب بالتحديد احتل لينين استمرار عمليات "المصادرة" لفترة أطول مما هو مبرر حقا من وجهة النظر السياسية البحتة. في يناير 1908، كتب لينين رسالة إلى الاشتراكي الانجليزي، ثيودور روثشتاين، مؤكدا على الوضع المالي الرهيب: «الكارثة الفنلندية، واعتقال العديد من الرفاق، ومصادرة الأوراق، والحاجة إلى نقل المطابع، وإرسال العديد من الرفاق إلى الخارج، كل ذلك تطلب نفقات ثقيلة وغير متوقعة. إن المحنة المالية للحزب أكثر خطورة لأنه خلال عامين فقد الجميع عادة العمل بشكل غير شرعي وتم "إفسادهم" بالعمل الشرعي أو شبه الشرعي. والآن يتعين علينا أن نعيد بناء المنظمات السرية من الصفر تقريبا. وهذا يكلف الكثير من المال. جميع المثقفين والجنباء يتخلون عن الحزب؛ إن هجرة الانتلجنسيا هائلة. أما الباقيون فهم بروليتاريون خالصون لا يمتلكون أي قدرة على جمع المساهمات المالية بشكل علني"<sup>3</sup>.

كان النقص الحاد في الأموال يعني أنه لم تعد هناك أي إمكانية لمساعدة ذلك العدد الكبير من المنفيين الذين تدفقوا إلى الخارج. في منتصف دجنبر 1908، انتقل لينين إلى باريس مع كروبسكايا ووالدتها. كانت حياة المنفيين هناك أسوأ مما كانت عليه في جنيف لأنه كان هناك الكثير منهم. أنشئ صندوق للمساعدة، لكنه كان ضعيف الموارد ولا يمكن استخدامه إلا في حالات الضرورة القصوى. كان لينين يعيش على كتابة المقالات وتلك المبالغ الصغيرة التي كانت والدته ترسلها له من وقت لآخر. كان الفقر والاكتئاب والمرض الشيء المشترك بين المنفيين. أصيب بعضهم بالجنون وانهوا حياتهم في مصحات المجانين، وانتهى الأمر ببعض الآخر وحيداً في المستشفيات، أو في أعماق نهر السين. كان الوضع محبطاً. وتذكر كروبسكايا حالة رجل كان قد قاتل في انتفاضة موسكو وكان يعيش الآن في ضاحية الطبقة العاملة في باريس، متقوقعا على نفسه. في أحد الأيام صار مجنوناً وصار يتصرف بطريقة غير متزنة. والدة كروبسكايا التي فهمت بأن الهديان جاء بسبب المجاعة، قدمت للرجل بعض الطعام، وتذكر كروبسكايا: «بدأ إيليتش شاحبا من الحزن عندما جلس بجانب الرجل. ذهبت للبحث عن طبيب نفسي، كان صديقا لنا، جاء الطبيب النفسي وتحدث إلى المريض وقال إن هذه حالة خطيرة من الجنون ناجمة عن المجاعة التي لم تصل بعد المرحلة النهائية؛ سوف تتطور إلى هوس الاضطهاد، ومن ثم من المرجح أن يقدم المريض على الانتحار"<sup>4</sup>. كان هذا مصير المنفيين الروس خلال سنوات الردة الرجعية الستوليبينية المظلمة.

1: LCW, Letter to V.V. Vorovsky, July 1, 1908, vol. 34, p: 395.

2: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 162.

3: LCW, Letter to Theodore Rothstein, January 29, 1908, vol. 34, p: 375.

4: Stanley Payne, The Life and Death of Lenin, p: 240.

على الرغم من أن المؤتمر الخامس مثل خطوة هامة إلى الأمام بالنسبة للبلشفية، فإنه لم يغير حقيقة أن الحركة داخل روسيا كانت تواجه أوقاتا صعبة للغاية. كان البلشفية يستقطبون اهتمام القطاعات الأكثر جذرية بين العمال والشباب، لكن الوضع العام كان كئيبا. أدى انقلاب الثالث من يونيو إلى انفتاح فترة من الرد الرجعية الحادة. في عام 1907، كان مجموع أعضاء الحزب اسمايا هو 100.000 عضو. لكن هذا الرقم عانى من انهيار سريع. وحدها منطقة القوقاز هي التي كان الانخفاض فيها أقل حدة إلى حد ما، لكنها كانت معقل المناشفة. كانت عدد أعضاء المنظمة البلشفية في بيترسبورغ قد بلغ 6778 عضوا أوائل عام 1907. بعد عام واحد انخفض الرقم بالنصف إلى 3.000، لكن بحلول عام 1909، لم يعد هناك سوى 1.000 عضو فقط. وبحلول ربيع عام 1910، حصرت الأورانا مجموع الأعضاء في 506 أعضاء فقط<sup>1</sup>. استمرت غارات الشرطة في بث الفوضى في منظمات الحزب السرية المستنزفة بشدة. وخلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام 1908 ضربت الشرطة مرة أخرى، وركزت هذه المرة على منظمي الحزب في مناطق معينة من موسكو وبيترسبورغ. وقد اضطر عضو باللجنة البلشفية في بيترسبورغ للاعتراف بأنه بعد اعتقالات الربيع "توقف العمل في المقاطعات تقريبا..."<sup>2</sup>.

لم يكن هذا كل شيء. فالصراعات الداخلية والانقسامات جعلت لينين معزولا بشكل كامل تقريبا داخل فصيله. وبعد طرد جماعة بوغدانوف، كان الاتجاه السائد في القيادة هو ما يسمى بالفصيل التوفيقى، الذي كان أقل ميلا إلى اتباع قيادة لينين. بعد سنوات عديدة وصف تروتسكي الحالة خلال تلك السنوات القائمة في مقابلة مع س. ل. ر. جيمس ("جونسون")، قائلا:

«جيمس: كم كان عدد أعضاء الحزب البلشفي؟

تروتسكي: في عام 1910 كان هناك في البلاد كلها بضعة عشرات من الأشخاص. كان بعضهم في سيبيريا، لكنهم لم يكونوا منظمين. كان الأشخاص الذين يمكن أن يتواصل معهم لينين عن طريق المراسلة، أو عن طريق وسيط، يبلغ نحو 30 أو 40 شخصا على الأكثر. ومع ذلك، فقد كانت التقاليد والأفكار بين العمال الأكثر تقدما بمثابة رأسمال هائل استخدم في وقت لاحق خلال الثورة، لكننا عمليا كنا معزولين تماما في ذلك الوقت»<sup>3</sup>.

يشهد زينوفيف على دقة هذه الأرقام حيث كتب: «كانت سنوات الثورة المضادة الستوليبينية هي الأكثر حرجا وخطورة على بقاء الحزب. وبالعودة إلى تلك الفترة الصعبة، يمكننا القول دون أدنى تردد إن الحزب، بالمعنى الحقيقي للكلمة، لم يعد موجودا. لقد تفكك إلى حلقات فردية صغيرة لم تكن تختلف عن حلقات سنوات الثمانينيات وأوائل التسعينيات [القرن 19] إلا في أن المناخ العام السائد فيها كان هو الإحباط، في أعقاب الهزيمة القاسية التي تكبدتها الثورة»<sup>4</sup>. كانت الصعوبات التي تواجه الحزب في العمل السري غير مسبوقه. وقال شابيرو: «في غضون عام واحد بعد المؤتمر الخامس، صارت العديد من المنظمات التي كانت تضم مئات الأعضاء لا تضم سوى العشرات». ويقدر نفس المؤلف أنه: «في صيف عام 1909، كانت هناك فقط خمس أو ست لجان بلشفية تعمل»<sup>5</sup>. القصة نفسها كررها العديد من المؤلفين المختلفين، قال ستيفن كوهين: «لم يعد يوجد أكثر من خمس أو ست لجان بلشفية تعمل في روسيا، وفي نهاية عام 1909، لم تعد منظمة موسكو تضم سوى 150 عضوا فقط»<sup>6</sup>.

وتذكر كروبسكايا الموقف قائلة: «كانت أوقاتا صعبة. في روسيا كانت المنظمات تتحول إلى شظايا. وقد تمكنت الشرطة، بمساعدة من العملاء المندسين، من اعتقال عمال الحزب البارزين. أصبحت الاجتماعات الكبيرة والمؤتمرات مستحيلة. ولم يكن من السهل على الناس، الذين كانوا منذ وقت قصير فقط يخطبون في الحشود، أن يذهبوا تحت الأرض. وفي الربيع (أبريل - ماي) ألقى القبض في الشارع على كامينيف ووارسكي (وهو اشتراكي ديمقراطي بولندي وصديق حميم لوزيرجينيوسكي وتيسكا وروزا لوكسمبورغ). وبعد بضعة أيام، ألقى القبض أيضا على زينوفيف، ثم ن. أ. روزكوف (وهو مناضل بلشفي، عضو في لجنتنا المركزية)، في الشارع. كانت الجماهير قد انكفأت على نفسها، أراد الناس أن يفكروا في الأمور، وحاولوا أن يفهموا ما حدث. كان النشاط التحريضي بشكل عام قد تراجع ولم يعد يرض أي شخص. كان الناس ينضمون بسهولة إلى حلقات الدراسة، لكن لم يكن هناك أحد ليتولى مسؤوليتهم.

1: McKean, *Between the Revolutions*, p: 53.

2: Kudelli, in *Krasnaya letopis'*, No. 14, quoted in McKean, *Between the Revolutions*, p: 53.

3: Trotsky, *Fighting Against the Stream*, in *Writings, 1938-1939*, p: 257.

4: Zinoviev, *History of the Bolshevik Party*, p: 165.

5: Schapiro, *History of the CPSU*, p: 101.

6: Stephen F. Cohen, *Bukharin and the Bolshevik Revolution*, p: 12.



وقد وفر هذا المناخ تربة مواتية للأوتزوفية [النزعة المقاطعاتية]<sup>1</sup>.

وبصعوبة بالغة تمكن المركز البلشفي من الحفاظ على العلاقات مع المجموعات المحلية في روسيا، باستخدام أساليب سرية. وجد أوسيب بياتيتسكي نفسه مرة أخرى مسؤولاً عن إرسال الوثائق السرية إلى روسيا، وخاصة الصحف البلشفية: *Proletary* و *Sotsial Demokrat* - تماماً كما في الفترة القديمة السيئة، قبل 1905. كان مقر المركز الخارجي لهذا النشاط هو لايبزيغ، أما مقر المركز الداخلي ففي مينسك. وكما كان الحال عليه قديماً، كان ذلك العمل مراقباً عن كثب من طرف جهاز الأوغرانا القيصري، الذي تسلسل عميله زيتوميرسكي إلى موقع رئيسي في التنظيم البلشفي بالخارج. صادق المؤتمر الخامس على طريقة جديدة لانتخاب قيادة الحزب على جميع المستويات، ونظراً للمشاكل الأمنية الحادة، كان ينبغي لذلك أن يشمل التعيين. ولما كان أغلب القياديين قد وقعوا ضحية لمدهامات الشرطة (التي كان يوجهها على نحو فعال أمثال زيتوميرسكي)، فقد كان يتوجب تعيين اناس جدد لسد الثغرات.

ووصفت رسالة من الأورال الوضع كما يلي: «قوانا الأيديولوجية تذوب مثل الثلج. إن العناصر التي تتجنب الانضمام إلى المنظمات غير القانونية بشكل عام... والذين انضموا إلى الحزب فقط في وقت الانفتاح والحرية التي كانت موجودة آنذاك في العديد من الأماكن، قد تركوا منظمات حزبنا الآن»<sup>2</sup>.

ولخص مقال في الجريدة المركزية للحزب الموقف قائلاً: «المثقفون، كما يسمون، صاروا ينسحبون أفواجا أفواجا خلال الأشهر الأخيرة». وتعليقاً على ذلك كتب لينين: «لكن تحرر الحزب من المثقفين أشبه البروليتاريين، البرجوازيين الصغار، قد بدأ يوقظ للحياة الجديدة القوى الجديدة البروليتارية الصرفة التي كسبت خلال فترة النضال البطولي للجماهير البروليتارية. إن منظمة كوليباكي نفسها التي كانت، كما يبين الاقتباس الوارد في التقرير، في حالة يائسة - وحتى "ميتة" - قد تم إحيائها، وبدأت تتحرك. نقرأ: "أعشاش الحزب بين العمال المنتشرة بأعداد كبيرة في جميع أنحاء المنطقة، والتي هي في معظم الحالات دون أي قوى فكرية ودون أدبيات، بل وحتى من دون أي علاقة مع مراكز الحزب، لا تريد أن تموت... عدد الأعضاء المنظمين لا يتناقص بل يزداد... لا يوجد مثقفون، وعلى العمال أنفسهم، الأكثر واعياً بينهم، أن يواصلوا العمل الدعائي". والاستنتاج العام الذي تم التوصل إليه هو أنه: "في عدد من الأماكن بدأ العمل المسؤول يمر إلى أيدي العمال المتقدمين بسبب هروب المثقفين."» (*Sotsial-Demokrat*, رقم 01، 28)<sup>3</sup>.

لكن كان لذلك عيوبه أيضاً، حيث فقد الحزب، بطريقة أو بأخرى، الكثير من أكثر أعضائه خبرة. كان المنخرطون الجدد ضعيفو التكوين وديمو الخبرة في العمل السري، مما جعلهم أهدافاً أسهل للشرطة. ومن جهة أخرى، كان من الأسهل بكثير على الشرطة إدخال عملائها في اللجان السرية، التي سرعان ما صارت ممتلئة بالجواسيس والمحرضين. ومن أجل تشديد الإجراءات الأمنية، تم تغيير أساليب الانتخاب لتتلاءم مع الظروف الجديدة. كان على المنظمات المحلية أن تتبنى طرقاً مختلفة لانتخاب لجانها، مما كان يعكس متطلبات العمل السري. في موسكو، وبدلاً من انتخاب اللجان في اجتماع عام، صارت تنتخب في اجتماعات محلية أصغر. في البداية كانت هناك خلايا ولجان ومجموعات حزبية في جميع المصانع الكبيرة، لكن مع مرور الوقت وتكثيف الشرطة لبحثها عن المناضلين، تعطلت لجان الحزب بشكل متزايد وانخفضت العضوية النشيطة إلى أدنى مستوياتها. كقاعدة عامة كان من المفترض أن تجتمع لجان المقاطعات مرة واحدة في الشهر، في حين كان على اللجنة التنفيذية للمقاطعة أن تجتمع أسبوعياً. لكن من المشكوك فيه ما إذا تم الحفاظ على هذا النظام حقاً في معظم المناطق. وبشكل عام لم تكن هناك سوى أعداد صغيرة، وكانت تلك المجموعات التي بقيت نشطة تعمل بشكل مستقل.

غير أن هذه التغييرات لم تفعل شيئاً يذكر لحماية الحزب من رقابة الشبكة المتزايدة باستمرار من الجواسيس والمحرضين الذين تمكنوا، في مناخ الإحباط السائد، من التسلسل إلى أعلى المواقع واللجان: «تمكن الدرك من قراءة النص غير المرئي للرسالة وزاد عدد سكان السجون. أدى الخصاص في القوى الثورية إلى خفض معايير اللجنة بشكل حتمي. وقد أدى تقلص فرص الاختيار إلى تمكين عملاء سريين من تسلسل الهرمي للمنظمات السرية. بإشارة من اصبعه كان في مقدور العميل المندس أن يتسبب في اعتقال أي ثوري يعرقل تقدمه. وقد أدت محاولات تطهير التنظيم من العناصر المشكوك فيها إلى انطلاق اعتقالات جماعية على الفور. وقد أدى مناخ الشك وعدم الثقة المتبادل إلى عرقلة جميع المبادرات. وبعد عدد من الاعتقالات المحسوبة بشكل جيد، صار العميل

1: Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, p: 183.

2: LCW, *On to the Straight Road*, vol. 15, p: 18.

3: *Ibid.*, p: 18.

المهندس كوكوشكين على رأس منظمة المقاطعة بموسكو في بداية عام 1910. كتب أحد المشاركين النشطين في الحركة: "لقد تحقق المثل الأعلى للأوخرانا. صار العملاء السريون على رأس جميع منظمات موسكو". لم يكن الوضع في بيترسبورغ أفضل بكثير. "يبدو أن القيادة قد سحقت، لم تكن هناك أي وسيلة لاستعادتها، لقد قضم العملاء الاستفزازيون أعضاءنا الحيوية، وانهارت المنظمات...". في عام 1909، كان في روسيا خمس أو ست منظمات نشطة؛ لكنها هي أيضا سرعان ما غرقت في الجمود. وانخفض عدد الأعضاء في منظمة مقاطعة موسكو، التي كانت تصل إلى 500 عضو خلال نهاية عام 1908، إلى 250 في منتصف العام التالي وبعد ستة أشهر أخرى إلى 150؛ وفي عام 1910 لم تعد المنظمة موجودة<sup>1</sup>.

في أوائل عام 1909 كتبت كروبسكايا بيأس: «لم يعد لدينا مناضلون على الإطلاق. كلهم متناثرون في السجون والمنافي»<sup>1</sup>. وفي نهاية مارس 1910، اشتكى لينين قائلا: «هناك عدد قليل من القوى في روسيا. أه لو كان في مقدورنا أن نرسل من هنا عامل حزب جيد إلى اللجنة المركزية أو لعقد كونفرانس! لكن كل من لدينا هنا "أموات"»<sup>2</sup>.

### المناشفة الموالون للحزب

في نفس ذلك الوقت كان للمناشفة بدورهم مشاكلهم الخاصة. لقد أصبح خطر التصفية واضحا، ليس فقط بالنسبة للبلشفية، بل أيضا لعدد متزايد من قواعد المناشفة. كما أثارت انتهازية الفريق البرلماني استياء العمال المناشفة. وبحلول نهاية 1908، حدثت عملية تمييز داخلي في صفوفهم. بدأ العديد من العمال المناشفة يقطعون مع التصفيين الذين وجدوا أنفسهم معزولين سياسيا. وقد دافع "المناشفة المؤيدون للحزب"، برئاسة بليخانوف، عن الحفاظ على التنظيم الحزبي السري، وانتقلوا بشكل موضوعي نحو البلشفية. بعد وقت قصير على المؤتمر الخامس انسحب بليخانوف من هيئة تحرير صحيفة *Golos Sotsial Demokrata* (صوت الاشتراكي الديمقراطي)، وأصدر جريدته الخاصة *Dnevnik* (اليومية)، التي شن من خلالها هجوما عنيفا على "المرتدين الشرعيين". فظهرت على نطاق واسع المجموعات المحلية المستقلة المتعاطفة مع مواقف بليخانوف، خاصة بين المنفيين في باريس وجنيف ونيس وسان ريمو.

قدم هذا التطور غير المتوقع مساعدة للينين، إذ لم يبين فقط وجود أمل في إعادة توحيد الجناح الثوري للحزب على أساس مبدئي، بل كان من شأنه أن يغير جوهريا موازين القوى بين الفصائل المتصارعة. وعلى الرغم من كل الصراعات والكلمات القاسية التي استعملت في الماضي، أظهر لينين حماسا كبيرا لعودة معلمه القديم إلى المعسكر الثوري. ربما كان لينين يأمل في أن يساعده الاتحاد مع بليخانوف في التغلب على التيارات اليسارية المتطرفة داخل فصيله. خلال المفاوضات الحرجة مع المناشفة الموالين للحزب، أظهر لينين كلا من المهارة والحساسية. وعلى الرغم من أن البلشفة كانوا أكبر بكثير من الناحية العددية من البليخانوفيين، فإن لينين كان حريصا على عدم عرض العلاقة بين الاتجاهين بمصطلحات التفوق، بل باعتبارها نموا مشتركا لمجموعتين متساويتين من الرفاق المتوافقين في الفكر. كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار المميزات الشخصية لبليخانوف الشديد الحساسية، والذي كتب: «أعني التقارب المتبادل، وليس تحول المناشفة إلى وجهة نظر البلشفة»<sup>3</sup>. وقد أظهر لينين براعة كبيرة في هذا الصدد؛ حيث قال: «أنا أتكلم عن التقارب المتبادل، وليس عن تحول المناشفة إلى وجهة نظر البلشفة»<sup>4</sup>.

هذا هو لينين الحقيقي، والذي يبعد ألف سنة ضوئية عن الصورة الكاريكاتيرية التي تظهره كعصوي جامح وغير متسامح، والتي حاول النقاد الخبثاء عدمي النزاهة تقديمه بها. ومن ناحية أخرى، فإن اعتبارات اللباقة والدبلوماسية بالنسبة إلى لينين لم تكن تتفوق أبدا على ضرورة الوضوح السياسي. إن ما كان مطلوبا هو: «اتفاق على أساس النضال من أجل الحزب ومبادئ الحزب ضد التصفيين، دون أي تنازلات أيديولوجية ودون أي تستر عن الاختلافات التكتيكية وغيرها من الآراء داخل حدود خط الحزب»<sup>5</sup>.

من خلال تشكيله لكتلة مع لينين لمكافحة الانتهازية والنزعة اليساروية المتطرفة، قدم مؤسس الماركسية الروسية [بليخانوف] آخر خدمة له لفضية الطبقة العاملة الثورية وحزبها. اقترب بليخانوف من تحقيق القطيعة مع المناشفة في ذلك الوقت، وأيد

1: Trotsky, *Stalin*, p: 95.

2: LCW, *Letter to N.Y. Vilonov, March 27, 1910, vol. 34, p: 415.*

3: G.V. Plekhanov, *Works, in Russian, vol. 19, p: 37.*

4: Lenin, *Collected Works, Russian edition, vol., XIX, p: 23.*

5: LCW, *Methods of the Liquidators and Party Tasks of the Bolsheviks, vol. 16, p: 101.*

لينين ضد كل من التصوفيين والأوتزوفيين [المقاطعين]، لكنه في النهاية أثبت أنه غير قادر على الذهاب في الطريق حتى آخره. لقد رفض الوحدة مع البلاشفة، وهو ما شكل عائقاً هائلاً، ومنع المناشفة الموالين للحزب من الانتقال إلى المعسكر الثوري المنسجم. لقد تكرر هذا السيناريو مرات عديدة في تاريخ الحركة العمالية الأممية، حيث أنه، في ظل ظروف معينة، يمكن للإصلاحيين اليساريين أو للقادة الوسطيين النزهاء، الانتقال إلى معسكر الماركسية الثورية. لكن التاريخ يدل على أن هذا هو الاستثناء وليس القاعدة. في كثير من الأحيان، تعمل العادات الذهنية وروتين فترات طويلة من الركود، والارتباك والتذبذبات التي تنبع من التشوش وعدم الرغبة في تسمية الأشياء بمسمياتها الصحيحة، بمثابة كوابح قوية لمنع هذه السيرورة من أن تؤتي ثمارها. إن مثل هؤلاء الأفراد -حتى أفضلهم، مثل بليخانوف ومارتوف- يميلون إلى الارتداد في لحظة الحقيقة ويغرقون مرة أخرى في مستنقع السياسة الانتهازية.

غير أن الجبهة الموحدة مع مجموعة بليخانوف أعطت، لفترة من الزمن، حيوية جديدة لمؤيدي لينين. كتب أوردزونيكيدز إلى لينين: «أرحب من كل قلبي بانعطاف بليخانوف... إذا كان الآن سيأخذ حقاً موقفاً ثابتاً، فإن ذلك سيكون بلا شك قيمة مضافة للحزب»<sup>1</sup>. لكنه للأسف لم يكن كذلك. لقد اقتصر تقارب بليخانوف مع البلشفية بشكل حصري تقريباً على المسألة التنظيمية، أما سياسياً فقد استمر في مدار المنشقية، متردداً في قطع الحبل السري الذي يربطه إلى أصدقائه القدامى، وانحرف بشكل حتمي إلى اليمين مرة أخرى، لكن بشكل نهائي هذه المرة. خلال الحرب العالمية الأولى، وجد نفسه في معسكر النزعة الوطنية الرجعية. كان الرجل العظيم ميتاً من وجهة نظر الثورة، لكن في تلك اللحظة كان للتعاون بين اللينينيين وبين "البليخانوفيين" تأثير إيجابي، إذ أن العديد من العمال "المناشفة الموالين للحزب" انتقلوا في وقت لاحق إلى صفوف البلاشفة.

### توترات داخل هيئة تحرير جريدة "بروليتاري"

كانت الضرورة الأولى والأكثر إلحاحاً هي حل الصراع المتصاعد مع الأوتزوفيين اليساريين المتطرفين. في يونيو 1909، اجتمعت هيئة التحرير الموسعة لجريدة "بروليتاري" في باريس. وأعرب لينين عن أمله في الاستفادة من هذا الاجتماع من أجل تقوية صفوف قيادة الفصيل البلشفي. كان ذلك، في الواقع، اجتماعاً لقيادة الفصيل البلشفي. وفي ذلك الاجتماع حدث صراع حول مسألة هامة تكشف بشكل واضح تماماً الفرق بين اللينينية وبين النزعة اليسارية المتطرفة. دعا بوغدانوف إلى عقد "مؤتمر بلشفي خالص"، أي أنه كان يريد أن يفصل البلاشفة عن حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ويدفع بهم لأن يشكلوا حزباً منفصلاً. لقي مطلب عقد "مؤتمر بلشفي خالص" الدعم من قبل بلاشفة يساريين متطرفين آخرين وهم: شانتسر وليادوف وسوكولوف (فولسكي). إن هذه الدعوة العصبوية إلى تشكيل أحزاب ثورية "مستقلة"، سواء كان حزباً من عضوين اثنين أو مليونين من الأعضاء، هي نغمة مألوفة عند اليساريين المتطرفين على مر التاريخ. ليس لهذه الفكرة أية علاقة مع تكتيكات لينين الماهرة والمرنة، التي كانت موجهة دائماً بضرورة التواصل مع الجماهير. كانت المهمة الأولى هي كسب الفئات المتقدمة من الطبقة العاملة، التي كانت في روسيا منظمة في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي. لم يكن صعود الجناح التصفوي اليميني في الحزب الاشتراكي الديمقراطي حجة لانشقاق الجناح الثوري، بل على العكس من ذلك، كان ذلك دافعاً لمضاعفة النضال من أجل هزيمة الجناح اليميني داخل الحزب وتخليص العمال من نفوذهم. وعلى نتائج هذا النضال اعتمد مستقبل الثورة في روسيا.

كانت حجة بوغدانوف حول الانشقاق عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي من أجل تأسيس حزب ثوري "مستقل" خاطئة حتى النخاع. في الواقع كان البلاشفة دائماً مستقلين، بمعنى أنهم لم يقدموا أي تنازل فيما يخص الدفاع عن برنامجهم وسياستهم ونظريتهم الثورية. لكن هذا غير كاف، إذ من الضروري إيجاد طريقة لإيصال تلك الأفكار الثورية إلى الطبقة العاملة، بدءاً من الفئات الأكثر تقدماً وتنظيماً. وبقدر ما كان جزء كبير من العمال المنظمين في روسيا ما يزالون تحت تأثير المناشفة، فإنه كان من الضروري مواصلة النضال داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي من أجل كسب الأغلبية. كانت تلك هي سياسة لينين. لكن من أجل القيام بذلك، كان من الضروري تنظيم الجناح الثوري بشكل منفصل، باعتباره فصلاً داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي. كانت للبلاشفة قيادتهم الخاصة ومنشوراتهم الخاصة التي تدافع عن مواقفهم الثورية وتشن نضالاً مستمراً ضد الجناح اليميني للحزب. أي "استقلال" أكثر من هذا كان مطلوباً؟ الإعلان الرسمي عن حزب منفصل؟ كان ذلك سيكون مجرد خطوة بدون معنى، أو أسوأ من ذلك: مغامرة. كان قبول تلك السياسة المتطرفة سيحكم على البلاشفة بالعجز العصبوي ويسلم الحزب إلى الإصلاحيين على طبق من ذهب. كان موقف بوغدانوف بشأن هذه المسألة مظهرًا آخر من مظاهر المزاجية اليسارية المتطرفة التي نشأت عن

1: Istoriya KPSS, vol. 2, p: 269.

نفاذ الصبر والإحباط.

ما زاد من اشمزاز البوغدانوفيين هو أن اللقاء لم يكتف برفض طلب عقد "المؤتمر البلشفي الخالص" فحسب، بل أكد أيضا على ضرورة التقارب مع المناشفة الموالين للحزب. يزعم المؤرخون السوفييات أن هذا اللقاء عمل على "طرده" بوغدانوف، لكن هذا غير صحيح، فعلى الرغم من السلوك الاستفزازي للغاية الذي نهجه بوغدانوف وأتباعه، فإنه لم يتم طردهم من صفوف البلاشفة في اجتماع باريس، الذي اكتفى بإعلان أن الفصيل البلشفي "لا يتحمل أي مسؤولية" في أنشطتهم. كان هذا الانفصال العلني للبلاشفة عن النزعة اليسراوية المتطرفة هو الشرط المسبق للتقارب مع المناشفة الموالين للحزب، لكن على أية حال كان من الواضح أن القطيعة أمر لا مفر منه. كما صوت الاجتماع أيضا على قرار إصدار تعليمات لممثل بروليتاري في اللجنة المركزية «باتخاذ موقف الدفاع الواضح عن مادية ماركس وإنجلز الجدلية في المسائل الفلسفية، إذا ما طرح ذلك داخل اللجنة المركزية». لم يلاق هذا الموقف الإجماع، حيث صوت تومسكي ضده، بينما امتنع كامينيف عن التصويت، كما كان متوقعا.

بعد اجتماع هيئة التحرير الموسعة لجريدة "بروليتاري" في باريس، لم يتحسن الموقف، بل تدهور بسرعة إلى صراع مفتوح. لم يكن في نية مجموعة بوغدانوف القبول بقرار الأغلبية، بل انتقلت إلى الهجوم، وأصدرت منشورا تكتليا للدفاع عن موقف الأقلية في تحد لقرارات الاجتماع. ونتيجة لموقفه ذلك تعرض بوغدانوف للطرد من الفصيل البلشفي. تقول كروبسكايا: "كانت المجموعة البلشفية أخذة في التفكك"<sup>1</sup>، واشتكى لوناتشارسكي من "نفاذ صبر" لينين، في حين نشر بوغدانوف وصفا مغرضا للمناقشات. رد الفريوديون بخوض صراع مفتوح وعلني ضد الأغلبية البلشفية، ورفعوا توصية في لجنة بيتسبورغ ضد المشاركة في حملة انتخابات الدوما، فرد أنصار لينين بالدعوة إلى اجتماع للمقاطعات كان الحضور فيها كبيرا، حيث تمكنوا من الحصول على الدعم للموقف المعاكس. سفيردولوف، الذي خرج من السجن في خريف 1909، لعب دورا هاما في منظمة موسكو، وكان ذا نفع كبير. لكن موقف لينين لم يكن آمنا بشكل عام.

أعاد الأوتزوفيون تجميع صفوفهم بعد المؤتمر، وأنشأوا مركزا قياديا تكتليا خاصا بهم. جماعة بوغدانوف التي كانت تدرك أنها لن تتمكن بسهولة من هزيمة لينين في نقاش مفتوح، استغلت الثروة والعلاقات التي يمتلكها غوري، الذي كان متعاطفا مع وجهات نظرهم الفلسفية، لتنظيم ما كان عمليا جامعة تكتلية في منطقة قرب جزيرة كابري الإيطالية. كما أصدر بوغدانوف ولوناتشارسكي جريدتهما الخاصة: فريود (إلى الأمام). حاول لينين أن ينقل النضال إلى معسكر البوغدانوفيين بحيث أرسل أشخاصا إلى جامعة كابري، لكن النتيجة الوحيدة كانت هي تعميق الانقسام. كان العمال في روسيا غاضبين من سلوك الفريوديين، لكنهم بشكل عام كانوا غاضبين من جميع المهاجرين ونزاعاتهم الفلسفية، التي كانت تبدو بعيدة عن المشاكل الواقعية على الأرض في روسيا. إلا أنه وعلى الرغم من كل شيء، فقد حاول لينين قسارى جهده إنقاذ على الأقل بعض المقاطعين من أنفسهم. وعلى النقيض من الصورة الواسعة الانتشار التي تصف لينين بأنه تكتلي فظيع، تذكر كروبسكايا:

«إيليتش يرد بقوة عندما يتعرض للهجوم، ويدافع عن وجهة نظره، لكن عندما تطرح مشاكل جديدة يتعين معالجتها ويجد أنه من الممكن التعاون مع خصمه، يكون إيليتش قادرا على الاقترب ممن كان خصمه بالأمس كرفيق. لم يكن عليه أن يبذل أي جهد خاص للقيام بذلك. وهنا تكمن ميزة إيليتش الهائلة. كان دائما صلبا جدا عندما يتعلق الأمر بالمبادئ، وكان متفائلا كبيرا عندما يتعلق الأمر بالأشخاص. وعلى الرغم من الأخطاء العرضية في الحكم، فإن تفاعلها هذا كان، عموما، مفيدا جدا للقضية. لكن عندما لم تكن هناك إمكانية لاتفاق بشأن المسائل المبدئية، فإنه لم يكن هناك مجال للمصالحة»<sup>2</sup>.

في يونيو 1909، كتب في جريدة بروليتاري اقتناعه بأن: «الرفيق ليادوف، الذي عمل لسنوات عديدة في صفوف الاشتراكية الديمقراطية الثورية، لن يبق لفترة طويلة في فصيل بناءة الله "الأوتزوفيين" الجديد، بل سيعود إلى الحزب». يظهر هذا التفصيل مرة أخرى جانبا من طبيعة لينين الذي يعمل محترفو تشويه البلاشفة كل جهدهم لإخفائه، أي التسامح والوفاء والصبر مع الناس، وهي الصفات الضرورية جدا لأي زعيم حقيقي. يتذكر غوري عندما قال له لينين: «سوف يعود لوناتشارسكي إلى الحزب. إنه أقل فردانية من الاثنين الآخرين [بوغدانوف وباروزوف]. إن لديه موهبة طبيعية استثنائية. ولدي ضعف خاص تجاهه. أنا أحبه كرفيق رائع!»<sup>3,4</sup>.

1: Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, p: 198.

2: Ibid., p: 251.

3: *Istoriya KPSS*, vol. 2, p: 296.

4: في الواقع ليس فقط لوناتشارسكي وليادوف وحدهما، بل معظم الفريوديين عادوا في وقت لاحق إلى الحزب البلشفي. حتى بوغدانوف بدوره عاد

لم يدخر لينين جهدا لمساعدة الأشخاص كلما أظهروا ميلا واضحا للتطور في اتجاه ثوري، كان يمد لهم يده ويدعوهم للعودة، وكان يضع جانبا الاختلافات السابقة وجدالات الماضي، مهما كانت مرة. لكنه لم يسمح أبدا بأن يؤدي البحث عن الوحدة إلى إخفاء المسألة المركزية التي هي ضرورة الدفاع عن نقاء الرسالة الثورية. فإذا كان ذلك يعني الانشقاق فليكن الانشقاق. وكما قال إنجلز في إحدى المرات: "إن الحزب يصبح قويا من خلال تطهير نفسه". وبمجرد ما كان لينين يرى حتمية القطيعة فإنه يصير صارما كذلك.

### تروتسكي والنزعة التوفيقية

اعتقد تروتسكي أنه كان من الممكن توحيد البلاشفة والمناشفة، أو بعبارة أصح: الاتجاه اليساري للمناشفة، الذي كان يمثل مارتوف على الخصوص. لم يكن تروتسكي الوحيد الذي تبنى تلك الفكرة، فقد تبادرت للينين نفسه، أكثر من مرة، فكرة الوحدة مع مارتوف، الذي كان دائما يعترف بميزات الشخصية والسياسية. يتذكر لوناتشارسكي أن لينين استمر، حتى أواخر عام 1917، يأمل في التوصل إلى اتفاق مع مارتوف: «وجهت سنوات المنفى ضربة قوية لمارتوف؛ ربما لم يسبق لنزعتة المتذبذبة أن كانت تمثل هذا الوضوح، ولا ربما بهذا الأم. سرعان ما بدأ الجناح اليميني المنشفي يتعفن، وينحرف في اتجاه ما سمي بـ"التصفوية". لم يكن مارتوف يرغب في أن ينجذب إلى هذا التفكك البرجوازي الصغير للروح الثورية. لكن "التصفويين" كان لهم تأثير على دان وكان لدان تأثير على مارتوف، وكما هي العادة سرعان ما جر "ذيل" المنشفية الثقيل مارتوف إلى القاع. كانت هناك لحظة عندما توصل فعليا إلى عقد اتفاق مع لينين، وذلك بفضل ضغط تروتسكي وإنوكتنتي، اللذان كانا يحلمان بتشكيل وسط قوي لمواجهة اليسار المتطرف واليمين المتطرف. كان هذا الخط، كما نعلم، مدعوما بقوة من طرف بليخانوف أيضا، لكنه لم يدم طويلا، فقد اكتسب اليمين اليد العليا على مارتوف ونشب نفس الخلاف بين البلاشفة والمناشفة مرة أخرى. كان مارتوف يعيش في باريس. وهناك بدأت مرحلة الانهيار الذي هو دائما خطر كامن يحيق بالمنفيين. صارت السياسة تتحول إلى مسألة مشاحنات حقيرة، وبدأ شغفه بحياة المقاهي البوهيمية يهدده بتقليص قدراته الفكرية. ومع ذلك فإنه عندما اندلعت الحرب تمكن مارتوف ليس فقط من استعادة رباطة جأشه، بل وتمكن منذ البداية من أخذ موقف حازم للغاية»<sup>1</sup>.

كان أمل تروتسكي هو تجميع كل العناصر اليسارية معا على أساس القطيعة مع اليمين التصفوي داخل المناشفة ومع اليسار المتطرف داخل البلاشفة. وعلى الرغم من أن تروتسكي كان من الناحية السياسية قريبا من البلاشفة، فإنه كان ينتقد ما اعتبره نزعة "تكتلية" عند لينين. كان يأمل في أن يعمل الجناح اليساري داخل المناشفة على القطع مع اليمين، ولذلك غضب مما كان يبدو له تشددا من جانب لينين. وابتداء من أكتوبر 1908، نجح في نشر جريدة أطلق عليها اسم برافدا (الحقيقة) كانت موجهة للتداول السري داخل روسيا، وقد حققت نجاحا كبيرا. صدرت برافدا من فيينا ومولها اثنان من المتعاطفين الأثرياء، هما: أدولف يوفي، الذي صار لاحقا دبلوماسيا بارزا في الدولة السوفياتية، قبل أن يقدم على الانتحار احتجاجا على البروقراطية الستالينية، وسكوبيليف، ابن مالك شركة للنفط في باكو، الذي عاد للظهور في وقت لاحق وزيرا في الحكومة المؤقتة. كان من بين أسباب نجاح الجريدة الجديدة أنها كانت تكتب بأسلوب حيوي وشعبي وتتجنب اللهجة التكتلية المتشددة التي ميزت المنشورات الاشتراكية الديمقراطية السرية الأخرى. وبدلا من مهاجمة المنشورات الأخرى والمجموعات الأخرى، ركزت على شجب مشاكل الطبقة العاملة، وحاولت إيجاد أرضية مشتركة بين البلاشفة وبين يسار المناشفة. لاقى هذا الأسلوب شعبية كبيرة جدا بين العمال في روسيا، لكنه أثار غضب لينين الذي كان منخرطا في صراع على جبهتين وكان يشك في نوايا دعاة الوحدة، لكنه وجد نفسه أقلية بين صفوف قيادة فصيله، حيث كانت الميول التوفيقية قوية.

كان موقف تروتسكي الخاطئ من التنظيم مصدر خلافات لا نهاية لها مع لينين. وقد شهدت تلك الفترة أشد المواجهات بين لينين وتروتسكي، حيث ندد لينين بشدة بـ "النزعة التروتسكية". لكن من الواضح أن لينين كان يقصد بـ "النزعة التروتسكية" موقف تروتسكي من التنظيم (أي النزعة التوفيقية) وليس مواقف تروتسكي السياسية التي كانت قريبة من البلشفية. وعلاوة على ذلك،

في النهاية، ظهر في عام 1918 باعتباره مناضلا حزبيا ومنظرا. وقد استخدم أحد كتبه (عن الاقتصاد الماركسي) خلال العشرينات كتابا للحزب. صار في وقت لاحق واحدا من قادة ما يسمى بتيار Proletkult (الثقافة البروليتارية)، مما كان علامة مؤكدة على أنه لم يفقد أيا من ميولاته التشكيكية ونزعتة الصورية. إلا أنه انسحب من الحياة السياسية في سنوات الثورة المضادة البيروقراطية. لكن ليس كل الفبرويديين عادوا إلى الحزب، فبازاروف تخلى عن السياسة تماما وتبنى موقفا معاديا من ثورة أكتوبر.

1: A.V. Lunacharsky, *Revolutionary Silhouettes*, p: 136.

فإن حدة الجدل بين الرجلين كان لها تفسير آخر، غير واضح للقارئ الحديث: إن قسوة لغة لينين في هذه الجدالات أملت لها حقيقة أنه في نقده "للتروتسكية"، كان يهاجم في الواقع الميولات التوفيقية السائدة داخل قيادة فصيله بالذات. لكن هذه الحقيقة أخفيت لفترة طويلة تحت طبقة سميكة من الأكاذيب والافتراءات لتبرير سياسة البيروقراطية الستالينية وتشويه تاريخ البلاشفة القدماء الذين ناضلوا ضدها.

في الواقع، بدا، لبعض الوقت، كما لو أن تروتسكي قد صار قريباً من النجاح في مسعاه. كان العديد من القادة البلاشفة يتفقون معه حول مسألة الوحدة - أي أنهم كانوا يؤيدون، على وجه التحديد، الجانب الأضعف في موقف تروتسكي، وليس جانبه الأقوى. وفي اللجنة المركزية كان البلشفيان ن.ب. روزكوف وف.ب. نوغين ذوي نزعة توفيقية. علقت كروبسكايا على ذلك بسخرية قائلة: "كان نوغين توفيقياً يريد توحيد كل الأشياء وكل الأشخاص معاً".<sup>1</sup> وهكذا كان حال كامينيف وزينوفيف أيضاً. وبالنظر إلى شعبية جريدة تروتسكي بين العمال في روسيا، فإن عدداً من قادة البلاشفة كانوا يفضلون استخدامها لغرض الجمع بين البلاشفة وبين المناشفة الموالين للحزب. وفي اجتماع باريس لهيئة تحرير جريدة "بروليتاري"، اقترح كامينيف وزينوفيف، اللذان كانا آنذاك أقرب المتعاونين مع لينين، إيقاف إصدار "بروليتاري"، وأن يتم تبني برفاداً باعتبارها الجريدة الرسمية للجنة المركزية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي. حظي هذا الموقف بدعم قادة آخرين مثل تومسكي وريكوف. وتم تمرير الاقتراح رغم رفض لينين، الذي عارض ذلك باقتراح إصدار جريدة بلشفية ومجلة نظرية شهرية. وفي النهاية تم التوصل إلى حل وسط بحيث يستمر إصدار "بروليتاري"، لكن ليس أكثر من مرة واحدة في الشهر، وتم الاتفاق في الوقت نفسه على الدخول في مفاوضات مع تروتسكي بهدف جعل جريدته "برافدا" لسان حال اللجنة المركزية للحزب. تظهر هذه الحقيقة قوة الميول التوفيقية بين صفوف البلاشفة، كما تخبرنا الكثير عن موقف البلاشفة تجاه تروتسكي في تلك الفترة. نشرت محاضر اجتماع هيئة تحرير "بروليتاري" المشار إليها، في عام 1934، من أجل تشويه سمعة زينوفيف وكامينيف قبل قتلها على يد ستالين، لكن سرعان ما تم إرجاعها لاحقاً إلى الأرشيف، ولم يعد يشار إليها على الإطلاق.<sup>2</sup>

كان لينين معزولاً بشكل متزايد داخل فصيله بالذات، واضطر إلى تقديم التنازلات ضد موقفه رغم صحته، وذلك للحفاظ على الصفوف موحدة. كانت نفسية التوفيقين البلاشفة مدفوعة بنوع من "السياسة العملية" التي تفخر بازديادها الفاضح للنظرية والمبدأ، وتبحث دائماً عن الطرق المختصرة، والتي دائماً ما تتحول في النهاية إلى العكس. هذه العقلية الجبانة تنظر دائماً إلى النضال من أجل الدفاع عن المبادئ بكونه نزعة "عصبوية"، وهو الاتهام الذي كثيراً ما وجهه خصوم لينين ضده. لقد اعتبر كامينيف ورفاقه التوفيقيون أنفسهم أكثر حكمة وأكثر واقعية من لينين، ربما ليس على صعيد النظرية، بل على صعيد البحث العملي عن حلول لمشاكل الحزب. في نوفمبر 1908، كتب كامينيف إلى بوغدانوف: «إنني، في ما يتعلق "بالمشاحنات" التي اندلعت هنا، أقف في "منتصف الطريق" وأمل في البقاء هنا... إني أشعر بأنه مثلما التزمت بالنضال ضد المصالحة في عام 1904، فإنني ملزم بالنضال من أجلها الآن».<sup>3</sup>

وفي وقت متأخر من عام 1912، عندما كان لينين قد بدأ بالفعل في مسار الانشقاق النهائي عن الانتهازيين، تردد جزء كبير من القيادة، كما توضح ذلك كروبسكايا: «من الواضح أنه لا يمكن أن يكون هناك أي مكان داخل الحزب للأشخاص الذين عقدوا العزم مسبقاً على ألا يلتزموا بقرارات الحزب. لكن النضال من أجل الحزب بالنسبة لبعض الرفاق اتخذ شكل النزعة التوفيقية؛ لقد أغفلوا الهدف من الوحدة وانحدروا إلى تبني موقف رجل الشارع الذي يسعى جاهداً إلى توحيد الكل مع الكل بغض النظر عن المواقف. وحتى إنوكتني، الذي اتفق تماماً مع رأي إيليتش بأن الشيء الرئيسي هو الاتحاد مع المناشفة الموالين للحزب، أي البليخانوفيين، كان حريصاً جداً على الحفاظ على وحدة الحزب بحيث بدأ بدوره يميل نحو موقف تصالحي. إلا أن إيليتش صحح موقفه».<sup>4</sup>

بعودتنا إلى تلك الفترة يبدو أنه لا يمكن تفسير لماذا ضيع تروتسكي الكثير من الوقت في محاولة جمع ما لا يمكن جمعه، لكنه لم يكن الوحيد الذي فشل في فهم ما كان لينين يرمي إليه. يكفي أن نذكر اسم روزا لوكسمبورغ لنوضح هذه النقطة. فمثلته مثل روزا، كان تروتسكي مخطئاً، لكن خطأه كان خطأً ثوري صادق يضع نصب عينيه مصالح الطبقة العاملة والاشتراكية. وعلى الأرجح كان مصدر خطأه مشابهاً لها أيضاً. كانت روزا لوكسمبورغ منذ البداية تكره الجهاز البيروقراطي المركزي للحزب الاشتراكي الديمقراطي

1: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 207.

2: Protokoly soveshchaniya rashirennoy redaktsy Proletary, Moscow, 1934, the Istoriya KPSS, vol. 2, p: 293.

3: Pod Znamenem Marksizma, No. 9-10, p: 202.

4: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 206.

الألماني، وقد بلغت في ذلك إلى درجة رفض المركزية في حد ذاتها. لم تفهم تماما موقف لينين، وصدقت الصورة الكاريكاتيرية التي رسمها عنه المناشفة، فعرضت أفكاره التنظيمية إلى نقد قاس وغير عادل، أثر جزئياً على علاقتهم، على الرغم من أنهما كانا من الناحية السياسية يقفان عادة في الجانب نفسه. كان تروتسكي يكره ضيق أفق محترفي الحزب البلاشفة، الذين كانوا يميلون إلى ابتذال المسائل السياسية الأكثر تعقيداً إلى مجرد مشاكل تنظيمية بسيطة، وصوروا العلاقة الجدلية بين الطبقة والحزب بطريقة ميكانيكية كانت تشبه الكاريكاتير أحياناً، مثلما حدث عندما طالبوا في سان بيترسبورغ مجلس سوفيات المدينة بأن يحل نفسه لما رفض قبول قيادة الحزب له. كان تروتسكي يميل إلى بناء موقفه من البلشفية ليس على أساس مواقف لينين، بل على أساس الصورة الكاريكاتيرية الميكانيكية عن أفكار لينين التي صورت بها البلشفية في دوائر معينة. أدى ذلك إلى إبقائه بعيداً عن البلاشفة، على الرغم من تقارب وجهات نظره السياسية مع آراء لينين، وذلك حتى عام 1917 عندما أدت التجربة الفعلية للثورة إلى حل جميع الخلافات القديمة.

لاحقاً اعترف تروتسكي بأن لينين كان دائماً على حق بخصوص هذه المسألة. وفي سيرته الذاتية فسر أساس خطأه قائلاً: «أعترف أنه فيما يتعلق بتصور مستقبل المنشفية ومشاكل التنظيم داخل الحزب، لم تصل البرافدا أبداً إلى دقة موقف لينين. كنت ما زلت أمل في أن الثورة الجديدة ستجبر المناشفة - كما فعلت عام 1905 - على إتباع مسار ثوري، لكنني قللت من أهمية الانتقاء الأيديولوجي المسبق والتكوين السياسي الصلب. وفيما يتعلق بمسائل التطور الداخلي للحزب، ارتكبت خطأً تبني نوع من القدرية الاشتراكية الثورية. كان ذلك موقفاً خاطئاً، لكنه متفوق بشكل كبير على تلك القدرية البيروقراطية، الخالية من الأفكار، التي تميز غالبية من ينتقدونني اليوم في معسكر الأممية الشيوعية»<sup>1</sup>.

بعد وفاة لينين عمل الستالينيون، وكجزء من حملتهم الإجرامية لتشويه اسم تروتسكي، على تضخيم الاختلافات التي وقعت بين لينين وتروتسكي. لكن تلك الجدالات القديمة لم يعد لها أي أهمية بالنسبة للينين بعد عام 1917، عندما انضم تروتسكي إلى الحزب البلشفي واتخذ موقفاً حازماً ضد المصالحة مع المناشفة. في نوفمبر 1917، أي بعد ثورة أكتوبر، دعا «البلاشفة القدامى»، وعلى رأسهم كامينيف وزينوفيف، إلى تشكيل حكومة ائتلافية مع المناشفة. في ذلك الوقت، قال لينين: «أما بالنسبة للتحالف، فلا أستطيع أن أتكلم عنه بجديّة. لقد قال تروتسكي منذ فترة طويلة إن الاتحاد مستحيل. لقد فهم تروتسكي ذلك، ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك بلشفي أفضل منه»<sup>2</sup>.

### جلسة يناير العامة

كتب تروتسكي: «سنة 1910 وصلت الحركة أشد مراحل انحطاطها وعرفت أكبر انتشار للنزعات التوفيقية. في يناير، عقدت جلسة عامة للجنة المركزية في باريس، حقق فيها التوفيقيون انتصاراً هشاً للغاية. تقرر إعادة تشكيل اللجنة المركزية في روسيا بإشراك التصفيين. كان نوعين و جيرمانوف بلشفيان توفيقيان. وكان إحياء المنظمة الروسية - أي المنظمة السرية في روسيا - مهمة نوعين»<sup>3</sup>.

إن ظروف الردة الرجعية السائدة، والصعوبات المروعة التي كان جميع الاشتراكيين الديمقراطيون يواجهونها، شجعت، على نحو مفهوم، العناصر التي كانت تحبذ الوحدة بأي ثمن. وبفعل هذه التحركات نحو الوحدة جاءت فكرة تنظيم جلسة عامة استثنائية لطرد التصفيين والأوتزوفيين وإقامة الوحدة بين البلاشفة وبين المناشفة المواليين للحزب. لكن لينين لم يكن مقتنعاً بمحاولات الوحدة هذه. كتب لينين بسخرية أن تروتسكي دخل في كتلة مع أشخاص «لا يتفق معهم في أي شيء من الناحية النظرية، لكنه يتفق معهم في كل شيء عملياً»<sup>4</sup>. ما يعنيه لينين هو أنه في حين كان تروتسكي يختلف سياسياً مع التصفيين والأوتزوفيين، فإنه استمر يجادل لصالح النزعة التوفيقية والوحدة، وبالتالي وجد نفسه في كتلة غير مبدئية. لم ير لينين أي جدوى في المشاركة في جلسة عامة لعناصر تتبنى مواقف سياسية متعارضة. لكنه لم يعد أغلبية داخل المعسكر البلشفي بخصوص هذه المسألة. وقد ألمح في وقت لاحق، في رسالة إلى غوركي، إلى النقاش العنيف الذي دار بين القادة البلاشفة: «ثلاثة أسابيع من العذاب، كانت كل الأعصاب مشدودة...»<sup>5</sup>.

1: : Trotsky, My Life, p: 224.

2: Trotsky, The Stalin School of Falsification, p: 105 (التشديد من آلان وودز).

3: Trotsky, Stalin, p: 123.

4: LCW, An Open Letter to All Pro-Party Social Democrats, vol. 16, p: 339.

5: LCW, Letter to Maxim Gorky, April 11, 1910, vol. 34, p: 420.

لكن احتجاجات لينين ذهبت سدى، حيث كان في موقف الأقلية داخل الفصيل البلشفي، واضطر على مضض إلى مسابرة الجلسة. في يناير 1910، وللمرة الأخيرة، اجتمع مع الممثلون الرئيسيون للتيارات المختلفة داخل الحزب في محاولة لحل خلافاتهم. عقدت الجلسة العامة في باريس، في الفترة من 02 إلى 23 يناير 1910. كان قادة جميع الفصائل حاضرين، باستثناء بليخانوف، الذي رفض الحضور، متعللاً بالمرض. كان غياب المناشفة المؤيدين للحزب ضربة أخرى للينين، لأنه كان يفضل الوحدة مع جماعة بليخانوف. ونظراً للطبيعة غير المتجانسة للغاية لهذا التجمع، فقد كانت النتيجة محسومة سلفاً. لا يكفي إعلان الوحدة من أجل التوصل إلى وحدة حقيقية، فإذا لم يكن هناك اتفاق مبدئي حول المسائل الأساسية، فإن مثل تلك المحاولة عادة ما تنجح فقط في توحيد ثلاث مجموعات في عشرة! كانت الخلافات التي تفصل بين مختلف المجموعات كبيرة جداً بحيث لم يكن من الممكن التغلب عليها من خلال قرارات تعلن ضرورة الوحدة. ولهذا السبب عارض لينين عقد ذلك اللقاء. وعوض "حل" المشاكل القائمة أدى ذلك الخليط من العناصر القابلة للاشتعال إلى حدوث انفجار فوري. أقرت الجلسة العامة، بضغط من لينين، قراراً يدين كلا من التصفوية والأوتزوفية باعتبارهما تأثيرات برجوازية داخل الحزب، غير أن أنصار هذين التوجهين أصروا لاحقاً على تغيير هذا القرار، فطرح مسألة الدعوة إلى كونفرانس للحزب لمحاولة حل المشكلة. أصر لينين على دعوة أكبر عدد من العمال المنخرطين في المنظمات السرية للحزب إلى ذلك الكونفرانس، وكان ذلك هو الشرط الذي وافق البلاشفة بموجبه على تلك الفكرة. كما وافقت الجلسة العامة على منح جريدة تروتسكي "برافدا" إعانة شهرية ووضع كامينيف في هيئة تحريرها ممثلاً عن اللجنة المركزية.

عرفت الجلسة نقاشاً حول المالية. وقد أثار المناشفة فضيحة حول أموال البلاشفة، التي تم الحصول عليها من خلال عمليات "المصادرات" المثيرة للجدل. كما اندلع جدل أكبر حول مبلغ كبير من المال تركه للحزب المليونير سافا موروزوف. خلال وقت الجلسة العامة كان البلاشفة يمتلكون الكثير من المال بفضل ابن أخ موروزوف، نيكولاي شميدت، الذي أعدم في سجون القيصر بعد هزيمة دنبر. كان نيكولاي، قبل مقتله، قد سرب رسالة لأصدقائه خارج السجن يوصي فيها بأنه يمنح كل ممتلكاته للبلاشفة. وبالإضافة إلى ذلك، قررت شقيقته الصغرى، إليزابيتا شميدت، التبرع بنصيبها من الميراث للبلاشفة. لكن ولأنها لم تكن قد بلغت السن القانونية فقد توجب تنظيم زواج صوري لها مع عضو في إحدى فرق القتال التابعة للحزب، مما وفر الأساس القانوني للعملية. بهذه الطريقة تمكن البلاشفة من الحصول على المال فوراً، وهذا هو السبب الذي جعل لينين يكتب بثقة أن "بروليتاري" أصبحت قادرة الآن على دفع تكاليف المندوبين إلى الجلسة العامة. عندما اكتشف المناشفة حقيقة الوضع ثارت ثائرتهم، وأقاموا الدنيا ولم يقعدوها. كان هذا هو السبب في ذلك النوع من النزاعات الهستيرية والخلافات التي كثيراً ما سممت أجواء حلقات المنفيين.

لقد دفع البلاشفة ثمناً باهظاً مقابل الوحدة. فبالرغم من احتجاج لينين، وافقوا على وقف نشر جريدتهم الرسمية "بروليتاري". والأكثر إبلاماً هو أن أموال الفصيل البلشفي سلمت إلى لجنة من الأبناء أنشأها الأهمية الاشتراكية. تم حل مسألة ميراث شميدت عندما تم تسليم تلك الأموال مؤقتاً لهذه اللجنة، التي كانت تتألف من مهرينغ وكلارا زيتكين وكاوتسكي. كان لينين غير راض عن هذه القرارات، وأصر على الحق في استرجاع الجريدة والأموال إذا لم يقيم المناشفة بدورهم بوقف إصدار جريدتهم "غولوس سوتسيال ديموكراتا" وحل جهازهم التكتلي، وقد أثبتت التطورات المستقبلية أنه كان على حق. وأخيراً تم إحراق ما تبقى من سندات 500 روبل من مخلفات مصادرة تيفليس.

ليس صحيحاً أن يعزى فشل محاولة الوحدة إلى "عناد" لينين، كما يحدث في كثير من الأحيان. لقد كان المناشفة، في الواقع، هم العائق الرئيسي أمام الوحدة في تلك الفترة. كان البلاشفة قد طردوا الأوتزوفيين لذلك لم يكن لديهم أي مشكل في التصويت لصالح الوحدة، بينما كان الوضع مختلفاً جداً في معسكر المناشفة، حيث كانت للتصفويين اليد العليا. كيف يمكنهم طرد التصفويين؟ كان ذلك سيعني انتحاراً بالنسبة لهم، وهو ما لم يكن أحد منهم مستعداً حتى للتفكير فيه. وهكذا فعندما اتفق الفصيلان على حل جهازيهما التكتليان ودمجهما، قام البلاشفة فعلاً بتنفيذ القرار بكل نزاهة، لكن المناشفة لم يفعلوا ذلك. واعترف مارتوف فيما بعد بأن المناشفة وافقوا على القرار فقط لأنهم كانوا أضعف من أن يتحملوا التعرض لخطر انشقاق فوري!

وفي نهاية الاجتماع، وفي خطوة جوفاء، تم انتخاب لينين وبليخانوف بالإجماع بوصفهما مندوبي الحزب إلى المؤتمر المقبل للأهمية الاشتراكية. كان البلاشفة التوفيقيون قد حققوا هدفهم. وأرسل البلاشفة كامينيف إلى فيينا لتمثيلهم داخل هيئة جريدة تروتسكي "برافدا"، التي حصلت على إعانة منتظمة قدرها 150 روبل من اللجنة المركزية. لكن لينين ظل غير مقتنع، وكان حكمه على



الجلسة العامة، التي عقدت في يناير، هو أنها شكلت تراجعاً جزئياً من جانب البلاشفة من أجل الوحدة. لكن قراراتها كانت متناقضة ولم يكن من الممكن تنفيذها. لم يحل المناشفة مركزهم وواصلوا نشر جريدتهم غولوس. وبقي الاتفاق على إعادة الأموال للبلاشفة حبراً على ورق، فتلك الأموال التي وضعت تحت رعاية لجنة كاوتسكي بقيت في ألمانيا، حتى قامت وزارة المالية الألمانية في نهاية الأمر بمصادرتها، بعد اندلاع الحرب، واستخدمت في تمويل جهود الحرب.

### انهيار "الوحدة"

بعد اجتماع باريس، كتب لينين إلى أخته أنا إيليتشنا قائلاً: «لقد مررنا في الآونة الأخيرة بأوقات "عاصفة"، لكنها انتهت بمحاولة لعقد السلام مع المناشفة. أجل، أجل، هذا غريب كما قد يبدو؛ فقد أغلقنا الصحيفة التكتيلية ونحاول جاهدين تعزيز الوحدة. سنرى ما إذا كان يمكن تحقيق ذلك»<sup>1</sup>.

تظهر لهجة هذه الرسالة أن لينين كان متشككاً منذ البداية في آفاق الوحدة، ومن الواضح من خلال عبارة "الأوقات العاصفة" أنه قد استعملت كلمات قاسية أثناء النقاش بين لينين وبين رفاقه التوفيقيين. لكنه اضطر في النهاية إلى إفساح المجال للمحاولة، على الرغم من تشككه، كما يظهر من قوله: "سنرى ما إذا كان يمكن تحقيق ذلك". فمن أجل إقناع رفاقه كان من الضروري المرور عبر التجربة.

كتبت كروبسكايا: «يعتقد إيليتش أنه يجب القيام بأكبر التنازلات في ما يخص القضايا التنظيمية، دون أن يتراجع ولو شبر واحد في ما يخص القضايا المبدئية»<sup>2</sup>.

مباشرة بعد انتهاء الجلسة العامة استدعى لينين اجتماعاً للفصيل البلشفي. تبين هذه الحقيقة أن الفصيلين استمرا في العمل تماماً كما كانا من قبل. وبعبارة أخرى، فإن الجلسة العامة لم تحل أي شيء على الإطلاق. لم يكن يمكن لأي اتفاق مع المناشفة التصفيوين إلا أن يكون مؤقتاً وينهار حتماً. من المستحيل مزج الثوريين مع الإصلاحيين مثلما هو من المستحيل مزج الزيت مع الماء. إن التباعد المتنامي بين البلاشفة والمناشفة جعل من جلسة يناير العامة مجرد هراء، مما ترك تروتسكي في كتلة غير طبيعية مع المناشفة، الذين لم يكن يجمعهم معهم من الناحية السياسية أي شيء على الإطلاق. واصلت برافدا مناشداتها من أجل الوحدة، غير أن الواقع أثبت استحالة ذلك. حاول تروتسكي الدعوة إلى كونفرانس للحزب في نوفمبر 1910. وقد وصف لينين موقف تروتسكي بأنه "مغامرة غير مبدئية". لينين الذي مر بتجربة توحيد الحزب منذ عام 1906، صار مقتنعاً بالفعل بأن الانشقاق كان، عاجلاً أو آجلاً، أمر لا مفر منه. كان سلوك المناشفة التصفيوين قد صار عقبة في طريق الطبقة العاملة. لم يكن لينين يتردد أبداً من التوصل إلى خلاصات جريئة عندما تتطلب مصالح الحركة ذلك، لكن كان عليه أن يعمل على إقناع رفاقه. وهو الشيء الذي لم يكن سهلاً.

أدى نمو الحركة الثورية إلى زيادة حدة التناقضات داخل الحزب. وبينما كانت الجماهير تتحرك نحو اليسار، كان المناشفة التصفيويون يتجهون أكثر نحو اليمين. كان من الواضح أن الأوضاع تقود في اتجاه الانشقاق. أظهر ذلك عدم جدوى المحاولات التوفيقية و"جلسة يناير العامة". لقد أكدت الأحداث صحة تقييم لينين للجلسة العامة. فالتصفيويون، كما رأينا، خرقوا جميع الاتفاقات. وحافظت الفصائل على مراكزها وأجهزتها التكتيلية المنفصلة، بينما استمرت تمسح فضائل الوحدة في العلن. وفي نفس اليوم الذي تلا أداء القسم بالولاء الذي لا يتزعزع للوحدة، بدأ التصفيويون بتنظيم تكتل شرعي تعلق حول الصحفيتين الشرعيتين ناشا زاريا وديلو زيزني. كان هؤلاء (بوتريسوف وليفيتسكي، وغيرهما) يمثلون الاتجاه اليميني المتطرف داخل المناشفة. أما الفصيل المنشفي الآخر، المتعلق حول غولوس سوتسيال ديموكراتا بزعامة مارتوف ودان وأكسلرود، فقد كانوا فقط "تصفيوين خجولين"، يقفون أقرب إلى التصفيوين اليمينيين منهم إلى الجناح الثوري الحقيقي للحزب. أما على "اليسار" فقد واصل الفبريوديون (بوجدانوف ولوناتشارسكي وألكسينسكي) أنشطتهم التكتيلية بعد أن انشقوا عملياً عن البلاشفة، وبدأوا في تنظيم "الجامعات" التكتيلية الخاصة بهم. ومن المفارقات أن الفبريوديين اليساريين المتطرفين كثيراً ما وجدوا أنفسهم في تكتل غير مبدئي مع المناشفة ضد البلاشفة.

وخلف الواجهة، لم يستمر الصراع الفصائلي فحسب، بل احتد وتحرك لا محالة في اتجاه الانشقاق. استمرت جريدة المناشفة غولوس تصدر، وتشن الهجمات على مجموعات الحزب السرية وعلى المناشفة الموالين للحزب؛ كما عمل مارتوف ودان وأكسلرود ومارتينوف على نشر "بيان" يدعو إلى إنشاء "حزب شرعي مفتوح"، وما إلى ذلك. وبعبارة أخرى فإن الاتفاقات التي تم التوصل

1: Letter to his sister Anna, February 1, 1910, LCW Vol. 37, p: 451.

2: Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 206.

إليها خلال الجلسة العامة لم تكن تستحق حتى الورق الذي كتبت عليه. بحلول نهاية عام 1910، كان لينين قد بدأ يطالب بالفعل بإعادة الأموال البلشفية، لكن دون جدوى كما كان متوقعا. لم يندهش لينين لهذه النتيجة، فقد توقع ذلك، لكنه مر من تجربة الجلسة العامة، التي اعتبرها شخصا "غبية" و"مدمرة"<sup>1</sup>، لإقناع رفاقه التوفيقيين باستحالة الاتفاق. وحذر لينين كامينيف قائلا: «أنا لا أرى أي إمكانية للقيام بعمل مثمر مع التصفويين، سواء اليمينيين أو اليساريين، وخاصة مع تروتسكي، لكنني لا أعتز على ذهابك إلى فيينا لأعطيك فرصة لترى بنفسك بأنني على حق»<sup>2</sup>.

سرعان ما تبين أن لينين كان على حق، فكامينيف، الذي اختلف مع تروتسكي، قدم استقالته من هيئة تحرير برافدا، في 13 غشت 1910.

لكن حتى بعد أن أصبح واضحا أن المناشفة لن يحترموا قرارات الجلسة العامة، فإن التوفيقيين البلاشفة استمروا في محاولاتهم غير المجدية للوصول إلى "الوحدة". أجرى الأعضاء البلاشفة في اللجنة المركزية مفاوضات لا نهاية لها مع التصفويين بهدف تنظيم اللجنة المركزية، لكنهم لم يحصلوا على أي نتيجة. يصف بياتنيتسكي، في مذكراته، فرحة التوفيقيين نوغين بعد جلسة يناير العامة قائلا: «في حين كان نوغين يخبرني عن قرارات الجلسة العامة كان يكاد يختنق من الفرح بحقيقة أنه صار أخيرا من الممكن توحيد المناشفة والبلاشفة للقيام بعملية في روسيا (كانت الجلسة العامة قد نددت بقوة بالتصفويين والمقاطعين) ومن الآن فصاعدا سيشارك "الوطنيون" في العمل. لم يكن هناك سوى شيء واحد يثير قلقه، هو أن الرفيق لينين يعارض بشدة جميع قرارات الجلسة العامة التي تقدم تنازلات للمناشفة والقرارات التي تعرقل عمل البلاشفة يجعلهم يعتمدون على ممثلين عرضيين "لوطنيين"، على الرغم من أنه انضبط لقرار أغلبية أعضاء اللجنة المركزية البلشفية. قال لي نوغين بمرارة إن لينين لم يفهم الأهمية الحيوية لوحدة الحزب بالنسبة للعمل داخل روسيا»<sup>3</sup>.

لم يكن لتلك الأوهام أي أساس من الصحة. سرعان ما بدأت قرارات الجلسة العامة تهاوى. كان البلاشفة في وضع أضعف من ذي قبل. وصاروا الآن يعتمدون على ممثلي الاشتراكيين الديمقراطيين البولنديين والليتوانيين للدفاع عن قرارات لاثقة داخل هيئة تحرير سوتسيال ديموكرات. كان وضعهم المالي أسوأ بكثير، وصاروا يعتمدون على مكتب اللجنة المركزية في الخارج للحصول على المال. كان موقفا لا يطاق. ومما زاد الأمور سوءا هو أن البلاشفة كانوا الوحيديين الذين نفذوا قرارات الجلسة العامة. كانت نتيجة السياسة التوفيقية سلبية تماما. في عام 1911، قال لينين، بحق، إن الجلسة العامة استنزفت قوة الحزب لأكثر من عام. ومع ذلك، فإن انتكاسة البلاشفة كانت ظاهرة أكثر مما كانت حقيقية، فالشيء الحاسم لم يكن هو التوليفات الاصطناعية التي تحدثت في القمة، بل ما كان يحدث بين قواعد الحزب في روسيا. بعد فشل مغامرة يناير، استؤنفت عملية التقارب بين البلاشفة والمناشفة الموالين للحزب في جميع أنحاء روسيا: أوكرانيا وساراتوف وأورال ونيجني نوفغورود ولاتفيا وغيرها من المراكز، وكانت القوى الحقيقية للحزب منخرطة في عملية إعادة التجميع. داخل روسيا، دعمت الأغلبية العظمى من العمال المناشفة بليخانوف، وأصبحوا الآن أقرب إلى البلاشفة في العمل المشترك.

كان من الآثار الجانبية الهامة لهذه الأحداث أنها لعبت دورا أيضا في تطوير وعي لينين بالانتهازية كظاهرة أممية بسبب الدور الذي لعبه قادة الأممية في النزاع الداخلي للحزب الروسي. إلى حدود تلك اللحظة كان لينين يعتبر نفسه "كاوتسكي" أرثوذكسيا، في الفترة التي وقف فيها كارل كاوتسكي - على الأقل ظاهريا - على الأقل ظاهريا - على يسار الأممية الثانية. لكن موقف المماطلة الذي تبناه كاوتسكي في ما يتعلق بالصراع بين الجناحين اليميني واليساري داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي أثار شكوكا جديدة في ذهنه. لقد تفاجئ لينين من تصرف قادة الأممية الاشتراكية، وأصيب بصدمة عميقة بسبب السلوك اللامبدي الذي قام به كاوتسكي والممثلون الآخرون للمنظمة الأممية الذين دعموا في الواقع التوفيقيين، ونشروا مقالاتهم في الصحافة الاشتراكية الديمقراطية الأممية. وقد أكدت هذه الشكوك بعد غشت 1914، عندما قام كاوتسكي، إلى جانب جميع قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني الآخرين، مع استثناء مشرف لكارل ليبكنخت، باقتراح خيانة مخزية لقضية الاشتراكية الأممية.

إن لهجة لينين الحادة تفسرها حقيقة أنه كان معزولا تماما، حتى داخل فصيله. كان بإمكانه أن يرى أبعد من الآخرين، لكنه كان عاجزا عن العمل بناء على حدسه. حتى هو نفسه لم يتوصل إلى استنتاج أن الانشقاق أمر لا مفر منه إلا بعد تردد كبير. وربما كان الخط الفاصل بالنسبة للينين هو عام 1910. لكن ومع ذلك فإن الانشقاق الرسمي لم يحدث إلا بعد مرور عامين. لم يكن هذا من

1: LCW, Letter to A. Rykov, February 25, 1911, vol. 34, p: 443.

2: O Vladimire Ilyiche Lenine. Vospmianiya, 1900-1922.

3: O. Piatnitsky, Zapiski Bol'shevika, p: 153.

قبيل الصدمة، فلينين كان يجد نفسه باستمرار في موقع الأقلية بين قيادة الفصيل البلشفي. لم يكن ذلك مفاجئاً، فينبغي ألا ننسى أن فكرة الانشقاق بين الاشتراكيين الديمقراطيين الثوريين وبين الإصلاحيين كانت فكرة جديدة تماماً (باستثناء فرنسا التي كانت قد شهدت في وقت سابق الانشقاق بين مؤيدي غيسد ومؤيدي جوريس، وبلغاريا، لكن هذه كانت استثناءات من القاعدة). أما على الصعيد الأممي فإن الانشقاق لم يحدث حتى عام 1914 - 1915. لكن فاجعة غشت 1914 كانت ما تزال حدثاً ينتمي للمستقبل.

## عشية التحول

يقال إن أحلك ساعة في الليل هي تلك التي تكون قبيل الفجر مباشرة. عشية اندلاع الثورة الجديدة، كان موقف لينين يبدو ميؤوساً منه، فمن بين ثلاثة مراكز قيادية للحزب الاشتراكي الديمقراطي، كان اثنان (وهما المكتب الخارجي للجنة المركزية واللجنة المركزية داخل روسيا) تحت سيطرة التوفيقيين (وكذلك التوفيقيين بالنسبة للجنة المركزية داخل روسيا). وكان الأعضاء البلاشفة في اللجنة المركزية (في الداخل) توفيقين (في البداية دوبروفينسكي وغولدنبرغ، ثم بعد اعتقالهما نوغين وليتينز)، في سعي دائم لعقد الاتفاقات مع التوفيقيين (إيسوف وبرونشتاين وبيرمولايف). كان لينين غاضباً من تكتيكات رفاقه، وألح على التقارب مع المناشفة الموالين للحزب وخوض نضال حازم ضد "الكتلة غير المبدئية" التي نتجت عن جلسة يناير العامة. أما خصومه فقد اكتفوا بهز أكتافهم واتهموه بـ "العصبوية".

لم تكن الأمور أفضل بكثير داخل روسيا. فمباشرة قبل الانتفاضة الجديدة، كانت المنظمات البلشفية تعيش حالة من الضعف الشديد. وفي ربيع عام 1911، وصف لينين موقف الحزب على النحو التالي: «إن الوضع الحقيقي للحزب، في الوقت الحاضر، هو أن هناك، في كل مكان تقريباً، مجموعات وخلايا عمالية حزبية غير رسمية، صغيرة للغاية، وصغيرة جداً، تجتمع بشكل غير منظم. إنهم في كل مكان يكافحون ضد التوفيقيين-الشرعيين في النقابات وفي النوادي، وما إلى ذلك. ليسوا مرتبطين مع بعضهم البعض، ونادراً جداً ما يتوصلون بأي أدبيات. إنهم يتمتعون بالاحترام بين العمال. في تلك المجموعات يتجمع البلاشفة وأنصار بليخانوف، وإلى حد ما "أنصار" فريود، الذين قرأوا كتابات فريود أو استمعوا لخطباء فريوديين، لكنهم لم يتم سحبهم بعد إلى فصيل فريود المعزول الذي أنشئ في الخارج»<sup>1</sup>.

وفي دراسته للحركة العمالية بسان بيترسبورغ في ذلك الوقت، كتب روبرت ماكين ما يلي: «بما أن كل المنظمات الثورية تمتنع عمداً عن الاحتفاظ باللوائح الصحيحة لأعضائها وحساباتها المالية، لأسباب الحفاظ على السرية، فإنه من المستحيل تماماً رسم صورة دقيقة لحجم المنظمة السرية أو تكوينها الاجتماعي أو حالة مواردها المالية في بداية 1912. كان العدد الإجمالي للأعضاء قد تراجع كثيراً بلا شك وتغير باستمرار بسبب موجات متكررة من الاعتقالات. يجب التعامل بأكبر قدر من الحذر مع التقديرات التي نشرتها صحافة الحزب، على الرغم من أن حتى هذه الأخيرة تشهد بدورها على قلة عدد الأعضاء. ادعى فصيل لينين أنه يضم نحو 300 عضو في صيف عام 1911، مثلما فعلت "المجموعة المركزية للعمال الاشتراكيين الديمقراطيين" في نهاية العام. وخلال الكونغرس البلشفي الذي انعقد في براغ، في يناير 1912، قدم مندوب سان بيترسبورغ، ب. أ. زالوتسكي، الرقم الأقرب إلى الواقع الذي هو 109 من أنصار لينين [...]». كان هناك على أكثر تقدير حوالي 500 عضو فقط في الحزب الاشتراكي الديمقراطي. وفي جميع المناطق والمصانع لم تكن هناك سوى مجموعات صغيرة مكونة فقط من 10 أو 20 أو 30 عضواً يحملون بطاقة الحزب. ويجب وضع هذه الأرقام الهزيلة مقابل إجمالي عدد العمال في سان بيترسبورغ البالغ عددهم 783.000، من بينهم 240.000 عامل صناعي، حسب إحصاء دجنبر 1910»<sup>2</sup>.

كانت وضعية الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وخاصة جناحه الثوري، تبدو مأساوية إلى أقصى الحدود. لكن كانت هناك تحت السطح قوى غير مرئية تعمل على تحويل الوضع برمته. يجب البحث عن مفتاح التغيير في القاعدة الاقتصادية التي تقف عليها البنية الفوقية للسياسة وكل الحياة الاجتماعية عموماً. كان الكساد الاقتصادي، الذي اندلع مباشرة بعد هزيمة دجنبر، قد وجه ضربة قوية للطبقة العاملة التي كانت مستنزفة أصلاً. كان تروتسكي، قد توقع بشكل بارع أن العمال الروس لن يعودوا إلى الحركة إلا بعد أن يبدأ الاقتصاد في الانتعاش مرة أخرى. وقد أكدت الأحداث صحة هذا التوقع. وبحلول أوائل 1910، بدأ الوضع الاقتصادي في التحسن، وبدأت الحركة العمالية أيضاً في الانتعاش، وإن ببطء في البداية. كانت هناك زيادة في عدد الإضرابات، نجح بعضها،

1: LCW, *Material for the Meeting of CC Members of RSDLP*, vol. 17, p: 202.

2: R.B. McKean, *St. Petersburg Between the Revolutions*, pp: 82-83.

جزئياً على الأقل، في تحسين الأجور وظروف العمل. طرح ذلك الواقع على جدول الأعمال الحاجة الملحة لإعادة بناء الحزب. لكن كيف؟ وما هي الأساليب والسياسات؟ لم يكن هناك توافق في الآراء حول الإجابة عن هذه الأسئلة، بل على العكس من ذلك، كانت الخلافات أكثر شراسة من أي وقت مضى، وخاصة في المنفى حيث كانت تتميز بطابع حاد بشكل خاص.

بمجرد أن بدأ العمال بالتحرك في اتجاه ثوري، بدأ الموقف بأكمله يتغير. هذا ما كان لينين يعول عليه، وأثبتت الأحداث أنه محق. ضخ نهوض الحركة العمالية نفس حياة جديد في حلقات الحزب السرية. فالعمال الذين كانوا يبحثون عن وسيلة للتعبير عن تطلعاتهم، انجذبوا بشكل طبيعي نحو الراية والاسم الذي كان مألوفاً لهم في الفترة السابقة، أي: الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي. لم تكن لدى الفئات الجديدة دراية بالانقسامات والصراعات داخل الحزب. معظمهم لم يقرأ أبداً برنامج الحزب أو قوانينه، لكنهم عندما تحركوا لتغيير المجتمع، احتشدوا حول منظماتهم الجماهيرية التقليدية. وهنا أيضاً تأكدت صحة تكتيكات لينين. لو أن البلاشفة استسلموا لتسرع بوغدانوف وانشقوا عن الحزب، لكانوا سيجدون أنفسهم معزولين. صحيح أنهم كانوا سيعرفون بعض النمو، لكن مقابل كل عامل كان سينضم إليهم، كان 100 عامل آخرين سينضمون إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي. لقد تحول الحزب جذرياً بفضل تدفق العمال والشباب الجدد. وبين عشية وضحاها ظهرت مجموعات في مناطق جديدة. وبحلول عام 1912، صارت منظمة تيفليس (تبليسي) تضم 100 عضو. كانت للحزب في الأورال مجموعات تضم ما بين 40 و50 عضواً. وكان المستفيدون الرئيسيون من هذا النمو هم المجموعات الثورية السرية للبلاشفة والمناشفة الموالين للحزب. جلبت هذه الفئات الجديدة معها نسمة من الهواء النقي، واتجهت بشكل تلقائي تقريباً نحو الجناح اليساري، أي نحو اللينينيين، الذين كانوا أكثر نشاطاً وأكثر كفاحية وأفضل تنظيماً من التيارات الأخرى. ازدادت المشاركة النشطة داخل الحزب مع تزايد نهوض الجماهير إلى النضال مرة أخرى. تم كسب أعضاء جدد، وبمجرد انضمامهم تم كسبهم بسرعة من طرف الكوادر البلشفية. ومع تزايد متطلبات الوضع الثوري الجديد ازداد نفوذ وقوة البلاشفة، باعتبارهم الجناح اليساري داخل حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، بخطوات عملاقة.



## النهوض

### فترة انتقالية

في الربيع، نجح لينين أخيراً في تنظيم جامعة حزبية في منزل من غرفتين صغيرتين مستأجر من أحد عمال الدباغة في قرية لونجوميو بالقرب من باريس. كان الهدف من الجامعة التأكيد على الأهمية الحيوية للنظرية في تكوين الكوادر. كان لينين حريصاً بشكل خاص على أن ترسل اللجان المحلية العمال والأشخاص الذين هم على اتصال مع الجماهير لحضور الجامعة. كانت هناك بالطبع جامعات حزبية أخرى في كابرلي وبولونيا، لكنها كانت تحت هيمنة أنصار بوغدانوف، ومن الواضح أن لينين كان يريد من تنظيم جامعة لونجوميو أن تكون موازنة لتلك الأخيرة. كرس لينين كل نشاطه لإنجاح الجامعة وأعد محاضراته بدقة مميزة. قدم ما مجموعه 45 محاضرة عن الاقتصاد السياسي والمسألة الزراعية والاشتراكية في النظرية والممارسة. كما حضر زينوفيف وكامينيف عن تاريخ الحزب، وألقيت محاضرات أخرى من طرف شارل رابابورت وإينيسا أرماند. من بين الحضور في الجامعة كان هناك عامل شاب من كييف، لم يكن أحد يعرفه، يدعى أندري مالينوفسكي، كان عميلاً للشرطة القيصرية، وكان يبلغ عن كل أنشطة الجامعة لمكتب الأورخانا بباريس. ومن المثير للدهشة أن مالينوفسكي هذا لا علاقة له برومان مالينوفسكي الشهير.

على الرغم من أن الجامعة كانت نشاطاً بلشفياً محضاً، فقد كان هناك من بين المحاضرين بلاشفة وفريوديون ومناشفة وبونديون وتوفيقيون، لكن لا وجود للتصفيين. وقد كانت هذه فكرة لينين، الذي كان يريد عزل التصفيين، وكسب أفضل العناصر من بين المناشفة (وخاصة المناشفة الموالين للحزب)، وإنقاذ من يمكن إنقاذه من "الوسطيين" والإصلاحيين اليساريين. لكن التاريخ يظهر أن معظم الإصلاحيين اليساريين يجدون أن التمسك بالإصلاحيين اليمينيين أسهل لهم من الانتقال إلى الاتجاه الثوري الصريح. ينطبق هذا القانون على القادة، لكن ليس على القواعد، كما اتضح من تجربة أعوام 1905-1906 و1910-1914، وكذلك عام 1917. لدينا هنا مرة أخرى مثال آخر على مرونة تكتيكات لينين، فعلى الرغم من أن هدفه الرئيسي كان هو بناء المنظمة البلشفية باعتبارها تياراً مستقلاً واضح المعالم، فإنه كان من الضروري خوض نضال مستمر من أجل كسب أفضل العناصر داخل الحزب. لكن الشرط الأول كان هو بناء تيار منفصل.

لهذا السبب كان لينين سعيداً عندما تمكنوا من إصدار جريدة جديدة في بيتربورغ: "زفيدا" (النجم)، بهيئة تحرير تضم البلشفي ف. بونش برويفيتش، لكنها ضمت كذلك ن. يوردانسكي من مجموعة بليخانوف وإ. بوكروفسكي، وهو نائب في مجلس الدوما متعاطف مع البلاشفة. لكن لينين كان أكثر سعادة بصدور جريدة ميسل (الفكر) في موسكو، لأنها كانت جريدة بلشفية بحتة. وكتب إلى مكسيم غوركي قائلاً: «هئتنا على إصدارنا جريدتنا الخاصة الصغيرة في موسكو، وهي جريدة ماركسية. لقد كان ذلك يوماً سعيداً بالنسبة لنا»<sup>1</sup>.

لكن وبشكل عام لم تكن هناك أيام سعيدة كثيرة في ذلك الوقت. كانت الأجواء المسمومة لحياة المنفيين بمشاحناتها الأبدية، معلقة مثل حجر رحي حول أعناقهم، كما يوضح لينين: «إن العيش في خضم هذه الحالة "المتقلبة"، وسط هذه المشاحنات والفضائح، وهذا العفن الجهنمي القبيح، يتسبب في المرض. ومشاهدة كل ذلك تتسبب في المرض أيضاً. لكن يجب على المرء ألا يتأثر بهذا الجو. حياة المنفيين الآن هي أسوأ مائة مرة مما كانت عليه قبل الثورة. حياة المنفيين والمشاحنات لا يمكن فصلهما عن بعضهما. لكن المشاحنات يمكن أن توضع جانباً، فتسعة أعشار تلك المشاحنات تحدث في الخارج؛ المشاحنات مجرد شيء ثانوي. الشيء الأساسي هو أن الحزب والحركة الاشتراكية الديمقراطية يتطوران ويتقدمان إلى الأمام في مواجهة جميع الصعوبات الجهنمية للحالة الراهنة. إن تطهير الحزب الاشتراكي الديمقراطي من "انحرافات" الخطيرة، التصفية والأوتزوفية، يمضي قدماً بلا هوادة، وصار

1: LCW, To Maxim Gorky, January 3, 1911, vol. 34, p. 437.

يتقدم إلى الأمم، في إطار الوحدة، أكثر من أي وقت مضى»<sup>1</sup>. لكنه في رسالة أخرى إلى شقيقته أنا، قال: «لا أعرف ما إذا كنت سأعيش حتى أرى النهوض التالي للحركة»<sup>2</sup>.

مشكلة النزعة التوفيقية هي أنه لا يمكن ابتذال السياسة إلى حساب بسيط. لا يكون الحال دائماً هو أن حاصل اثنين زائد اثنين يساوي أربعة. فائتين من الركاب في قارب، كل واحد منهما يجذب في اتجاه معاكس، ليساً أفضل من راكب واحد يعرف بالضبط إلى حيث يتجه. كانت التيارات المختلفة داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي تجذب بالفعل في اتجاهات متعارضة، مع تكتيكات متناقضة تماماً، نابعة من وجهات نظر وأهداف مختلفة تماماً. وقد أدت محاولة الجمع بين الاتجاهات المتناقضة إلى ظهور حالة مستحيلة، سرعان ما صارت جلية للجميع. صارت التوترات المتصاعدة داخل الحزب واضحة في كل مكان. بحلول شهر ماي 1911، قام البلاشفة بسحب ممثلهم (ن.أ.سيماشكو) من المكتب الخارجي للجنة المركزية. كما أن المكتب الروسي للجنة المركزية، الذي أصيب بالشلل بسبب الصراع الحزبي الداخلي، توقف عملياً عن الوجود. لقد كان ذلك أمراً لا مفر منه.

كتبت كروبسكايا: «إن وحدة كل المجموعات، التي تحققت بصعوبة كبيرة في يناير 1910، بدأت تتفكك بسرعة. وعندما بدأت تطرح المشاكل العملية للعمل في روسيا، صار من الواضح أكثر فأكثر أن التعاون مستحيل»<sup>3</sup>.

لم تحل جلسة يناير العامة شيئاً. وطالب لينين بالدعوة على وجه السرعة إلى عقد كونفرانس جديد. لكن أقرب رفاقه كانوا يعارضون بعناد الانفصال عن الجناح الانتهازي للحزب. فريكوف وكامينيف وزينوفيف، وغيرهم من البلاشفة التوفيقيين الآخرين، استمروا يعلقون الأوهام على المصالحة. وقد أشار لينين بازدراء إلى: «[...] النوايا الحسنة والكلمات الحلوة والأفكار الطيبة، والعجز عن وضعها موضع التطبيق»<sup>4</sup>. أخيراً، وبضغط من لينين، تم عقد اجتماع خاص لأعضاء اللجنة المركزية في باريس، من 28 ماي إلى 04 يونيو، 1911. حضر الاجتماع كل أعضاء اللجنة المركزية بالخارج (باستثناء البوندي يانوف). حضر لينين وريكوف وزينوفيف عن البلاشفة؛ وحضر تيشكا ودرزينسكي عن الاشتراكيين الديمقراطيين البولنديين والليتوانيين؛ وحضر ليبر ممثلاً للوند؛ وحضر ب. إ. غورر ممثلاً عن هيئة تحرير غولوس، وم. ف. دزولين ممثلاً عن اللاتيفيين. مما شكل خليطاً متفجراً! وانطلق الاجتماع ببداية ساخنة، كما كان من المتوقع.

طرح ممثلو التصويين والوند على الفور شرعية الاجتماع موضع تساؤل. وبعد نقاش حاد، وافق الاجتماع أخيراً على قرار لينين بأن يعتبر هذا اللقاء اجتماعاً للجنة المركزية<sup>5</sup>. وتم الاتفاق على عقد كونفرانس وتشكيل لجنة بغرض التحضير له. كان هذا أكثر مما يمكن للمناشفة تحمله، فقام مارتوف ودان بالانسحاب من هيئة تحرير سوتسيال ديموكرات احتجاجاً على ذلك. بعد ذلك لم يعد هناك جهاز تمثيلي للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي يضم البلاشفة والمناشفة معاً. صار الانشقاق واقعاً لا ينقص سوى تسميته باسمه، رفض المناشفة الاعتراف بشرعية اجتماع يونيو في باريس، الذي أطلقوا عليه اسم «الاجتماع الخاص». وكانوا يعارضون بشدة عقد الكونفرانس، الذي كانوا يخشون، بحق، أن يكونوا فيه أقلية. أما لينين، فعلى العكس من ذلك، وضع كل آماله في القواعد العمالية للحزب. وبحلول ذلك الوقت صار أي حل توفيقى آخر مستحيل، على الرغم من أن التوفيقيين استمروا يماطلون خوفاً من أن يصيروا «معزولين». ومع ذلك فقد كان لينين، كما هو الحال دائماً، مستعداً لاستخلاص جميع الخلاصات الضرورية من الوضع. وبمجرد أن قرر أن «الكيل قد طفح»، لم يعد من الممكن زحزحته، فشن نضالاً حازماً ومتواصلاً ضد «التوفيقيين».

في تلك الفترة قرر لينين دفع الأمور إلى أقصى حدودها. ومع دخول الثورة مرحلة جديدة وحاسمة، صار من الواضح أن أي محاولة أخرى للمهادنة مع المناشفة ستكون موقفاً غير مسؤول. كان البلاشفة قد بدأوا يحققون المكاسب على أرض الواقع داخل روسيا، وقد أتت الجبهة الموحدة مع المناشفة المواليين للحزب بثمارها مع انتقال عدد كبير من بين أفضل العمال المناشفة إلى صفوف البلاشفة. بدأ المد يتدفق لصالح لينين مرة أخرى. وأولئك الذين تخلفوا وقاوموا الخطوات اللازمة، توجب التخلي عنهم. صار الانشقاق الحازم مع تلك العناصر التي لا يمكن إصلاحها حتمياً. لم يضطر لينين إلى خوض تجربة جلسة يناير العامة، التي سرعان ما تحولت إلى مهزلة، إلا من أجل إقناع رفاقه من خلال الممارسة باستحالة الاتحاد مع التصويين. والآن صار من الضروري إنهاء تلك «التجربة»، حتى لا تتسبب في ضرر لا يمكن إصلاحه للحزب ولقضية الثورة. كانت الحاجة الأكثر إلحاحاً آنذاك هي توحيد

1: Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, p: 208.

2: S. Payne, *Lenin*, p: 247.

3: Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, p: 224.

4: Lenin, *Collected Works, in Russian*, vol. 48, p: 16.

5: KPSS v rezolyutsiyakh, vol. 1, p: 247.

الجناح الثوري للحزب على أساس مبدئي، للاستفادة من الموجة الثورية المتصاعدة.

كان موقف لينين الحازم قائماً على اعتبارات سياسية. صار من الواضح أن التطور السياسي للمنشفية يتجه نحو اليمين. كانت المنشفية تمثل النسخة الروسية للنزعة الانتهازية. وعلى الرغم من أنه بسبب الظروف الموضوعية في روسيا، والضغط من جانب الجناح الثوري، اضطر المناشفة إلى تبني مواقف أكثر "يسارية"، فإن المحتوى الرئيسي لنظريتهم وممارساتهم كان معادياً للثورة بشكل واضح: الاقتصار على النضال البرلماني والسعي المستمر للتحالف مع الليبراليين ومعارضة كل ما من شأنه تخويف الكاديت، والمطالبة بتصفية كل الأنشطة السرية وإخضاع أنشطة الحزب إلى الشرعية القيصرية. كيف يمكن التوفيق بين هذه السياسة وبين الماركسية؟ لكن وعلى الرغم من وضوح صحة حجج لينين، فإنها وقعت على آذان صماء. نظر العديد من موظفي الحزب البلاشفة إلى المسألة من الناحية العملية والتنظيمية البحتة. وقد كتب أحد هؤلاء "العمليين" عن موقف لينين في ذلك الوقت ما يلي: «لقد سمعنا بالطبع عن "الزوبعة في الفنجان" التي حدثت في الخارج: كتلة لينين- بليخانوف، من جهة، وتروتسكي- مارتوف- بوغدانوف من جهة أخرى. إن موقف العمال من الكتلة الأولى، موقف إيجابي، على حد علمي. لكن العمال بشكل عام بدأوا ينظرون بازدراء إلى المهجر: "دعوهم يزحفون على الجدار قدر ما يشاؤون، أما بالنسبة لنا، المهتمون بمصالح الحركة/ العمل، فسوف نعتني بأنفسنا!" وهذا ما أعتقد أنه الأفضل»<sup>1</sup>.

كان ستالين هو من كتب تلك الأسطر. وهي تنقل بدقة الازدراء الكبير تجاه النظرية والتجريبية المبتذلة التي ميزت، للأسف، العديد من أعضاء الحزب في روسيا. لقد كانوا يميلون، بصفة عامة، إلى موقف لينين لأنه يتناسب مع تصورهم لحزب مركزي منظم. لكن في حين كان الحزب، بالنسبة إلى لينين، مجرد أداة في خدمة الأفكار والنظرية الثورية، فإن أعضاء لجان الحزب، أو على الأقل جزء منهم، كانوا يميلون إلى النظر إليه من وجهة نظر تنظيمية بحتة. وحتى بعد الانشقاق النهائي، الذي حدث في عام 1912، استمر لينين يواجه مشاكل كثيرة مع أعضاء اللجان هؤلاء الذين كانوا، مثل ستالين، يعتبرون الانشقاق مجرد مشاحنات بين المنفيين، ومجرد إلقاء مزعج لهم عن المهام العملية. في أبريل 1912، أرسل لينين رسالة شديدة اللهجة إلى أوردجونيكيدزه وسبانديريان وستاسوفا، لتوبيخهم على موقفهم الفاضح من النضال ضد التصفيين: «لا تستهينوا بحملة التصفيين في الخارج. إنه خطأ عظيم أن يقوم المرء ببساطة بشطب ما يجري في الخارج بجرة قلم و"إرساله إلى الجحيم"»<sup>2</sup>.

### العمل الجماهيري في ظل ظروف الردة الرجعية

في سنوات الردة الرجعية كان على البلاشفة أن يتعلموا كيفية استخدام أي فرصة وكل ثغرة ممكنة للعمل الجماهيري الشرعي. وقد كانت النقابات إحدى المجالات الرئيسية لذلك العمل. كان المناشفة، بسبب ميلهم الانتهازي للتكيف مع أفكار الفئات الأكثر تخلفاً بين صفوف الطبقة العاملة، دائماً أقوى من البلاشفة داخل النقابات. تبني المناشفة موقف الاقتصاديين بأن دافعوا عن أنه يجب أن تكون النقابات "محايدة سياسياً"، وهو أمر يتناقض بشكل كامل مع المبادئ الماركسية الأساسية. صحيح أنه يجب على النقابات، بوصفها الأجهزة القاعدية لتنظيم الطبقة العاملة، أن تسعى جاهدة لأن تضم أوسع فئات البروليتاريا. الفاشيون وحدهم من يجب استبعادهم، باعتبارهم الأعداء المباشرين للطبقة العاملة، فهم لا يسعون فقط إلى تدمير النقابات، وإنما يسعون كذلك إلى القضاء على كل الحقوق الديمقراطية الأخرى التي انتزعتها العمال، وبالتالي تصفية براعم المجتمع الجديد الذي ينضج داخل القديم. ومع ذلك، ففي حين أنه يجب على النقابات أن تسعى جاهدة لتنظيم جميع فئات الطبقة العاملة، بما فيها الفئات المتخلفة سياسياً، فإن هذا لا يعني على الإطلاق أنه يجب على الماركسيين ألا يكافحوا من أجل كسب الأغلبية داخل النقابات إلى رابتهم، فبالأحرى أن يسعوا إلى أن تكون النقابات "محايدة" سياسياً. لا يمكن أن يقتصر النضال من أجل حقوق العمال على النضال الاقتصادي المحض، بل إنه ينتقل حتماً إلى النضال السياسي. إن المطالبة بأن تمتنع النقابات عن النشاط السياسي (وهو مطلب يوحد، للمفارقة، بين الرجعيين والنقابيين اللاسلطويين) هو شعار يخدم مصالح الأحزاب البرجوازية. إن النقابة غير السياسية هي، كما أوضح لينين مرات عديدة، نقابة صفراء، نقابة برجوازية خبيثة. كان ذلك واضحاً إلى درجة أنه حتى مؤتمر شتوتغارت للأمية الثانية أكد على أنه يجب على الاشتراكيين الديمقراطيين أن يسعوا إلى قيادة النقابات العمالية. لكن مارتوف عارض ذلك على أساس أنه لم يكن مناسباً للظروف الروسية.

1: Trotsky, Stalin, p: 131.

2: LCW, Letter to G.K. Ordzhonikidze, S.S. Spandaryan, and Yelena Stasova, April 1912, vol. 35, p: 33.

بالنسبة للبلاشفة، كان الجمع بين العمل السري والعمل الشرعي يعني أن الاشتغال داخل المنظمات العمالية الجماهيرية مهمة إجبارية في ظل جميع الظروف. ليس من الممكن تصور نجاح الثورة الاشتراكية دون قيام الماركسيين بعمل طويل صبور لإرساء قاعدة متينة من الدعم داخل النقابات، بتطبيق تكتيكات ذكية ومرنة للنضال، ليس فقط ضد البوليس والدولة، بل أيضا ضد البيروقراطيين "البوليسيين"، الذين يسعون جاهدين لجعل النقابات آمنة لصالح الطبقة الحاكمة، من خلال تطهيرها من العناصر الثورية. نشرت جريدة "بروليتاري" في عددها رقم 21، الذي صدر في فبراير 1908، قرار اللجنة المركزية للحزب حول الموقف من النقابات العمالية. أوعز القرار إلى أعضاء الحزب بأن يشكلوا مجموعات حزبية داخل المنظمات النقابية والعمل فيها تحت إشراف الأجهزة الحزبية المحلية. وحيثما جعل اضطهاد البوليس من المستحيل تنظيم نقابات عمالية أو إعادة إنشاء النقابات التي تم تفكيكها، اقترحت اللجنة المركزية تنظيم أنوية للنقابات بشكل سري. أما بالنسبة للتنظيمات الشرعية مثل الجمعيات الخيرية وغيرها، فإن قرار اللجنة المركزية أوعز إلى المنظمات المحلية للحزب بأن تشكل داخلها "مجموعات متماسكة من الاشتراكيين الديمقراطيين للقيام بعمل الحزب بين أوسع جماهير البروليتاريا". وإحباط أي محاولة من جانب المناشفة لتفسير هذا الجزء من القرار بطريقة انتهازية، أشار القرار إلى ضرورة توضيح أن: «النشاط المنظم للبروليتاريا لا يمكن أن يقتصر على هذه الجمعيات وحدها»، وأن الوجود القانوني للنقابات العمالية «ينبغي ألا يقلل من المهام النضالية لتنظيم البروليتاريا داخل النقابات العمالية»<sup>1</sup>.

على الرغم من أن المناشفة حافظوا على موقعهم المتميز في غالبية النقابات حتى عام 1917، فإن البلاشفة حققوا تقدما مطردا. ففي نوفمبر 1907، كان هناك في بيتسبورغ 12 ناد وجمعية نقابية للعمال، لكن بحلول عام 1909 ارتفع العدد إلى 19. كانت هذه الجمعيات غالبا ما تضطر إلى العمل تحت أسماء مختلفة لتمويه طبيعتها الحقيقية، فعلى سبيل المثال كان البلاشفة في سان بيتسبورغ يسرون جمعية تدعى "مصدر التنوير والمعرفة"، وكانت أخرى تدعى "التنوير"، وأخرى في فيبورغ كان اسمها "التعليم"، وهلم جرا. في كثير من الأحيان كانت هذه الجمعيات والنوادي تلعب دور المنظمات النقابية، في غياب النقابات الحقيقية.

إن الاختراق المنتظم حتى لأشد النقابات بيروقراطية ويمينية هو واجب كل تيار ثوري جدي يناضل من أجل النفوذ بين الجماهير. وقد قام البلاشفة بهذا العمل في أصعب ظروف الردة الرجعية، وكانوا ناجحين جدا في الاستيلاء على المواقع داخل النقابات الشرعية، إلى درجة أن السلطات صارت قلقة بشكل متزايد، كما يتجلى في تقارير الشرطة، مثل هذا التقرير الذي يعود إلى ماي 1907، والذي أخرج من أرشيف الأوخرانا بعد الثورة: «لقد اتخذت النقابات العمالية بالفعل، وبشكل واضح تماما، مظهر منظمات اشتراكية ديمقراطية، وبالتالي صارت تشكل خطرا شديدا للغاية على القيادة». وطالب قادة الشرطة المنزعجون باتخاذ تدابير صارمة ضد النقابات قبل أن تؤدي "أوكار المؤامرات الثورية" تلك إلى إشعال انتفاضات مسلحة مرة أخرى<sup>2</sup>.

لم يقتصر العمل في المنظمات الشرعية على النقابات. فقد استخدم البلاشفة كل نشاط قانوني دعت إليه الحكومة أو الليبراليون، مثل مؤتمر عموم روسيا للجامعات الشعبية في بيتسبورغ، في يناير 1908، حيث طرح البلاشفة اقتراحات ذات مضمون طبقي، مثل حق المنظمات العمالية في أن تكون ممثلة داخل مجالس الجامعات والحق في المشاركة في إعداد المناهج الدراسية واختيار الأساتذة المحاضرين المناسبين في العلوم الاجتماعية، والاعتراف لكل قومية بالتعليم بلغتها الخاصة. تم رفض المقترح، بطبيعة الحال، فقام ممثلو العمال بالانسحاب. كان هناك مجال آخر للتدخل هو التعاونيات، وقد كان لهذا الجانب أهمية عملية كبيرة، حيث لجأ العمال، في ظل ظروف الردة الرجعية القاسية، إلى تشكيل الجمعيات التعاونية لعدد من الأغراض (مثل التأمين، وما إلى ذلك). في أول مؤتمر للجمعيات التعاونية لعموم روسيا، الذي عقد في موسكو في أبريل 1908، شكل البلاشفة، ضد رغبات المناشفة، مجموعة لقيادة نضال النقابات والتعاونيات العمالية ضد الأعضاء البرجوازيين الذين كانوا يشكلون الأغلبية. وبعد أن تحدث عدد من البلاشفة قامت الشرطة بحظر جميع الخطابات التي تشير إلى الصراع الطبقي والنقابات العمالية ومساعدة العمال خلال الإضرابات والإغلاقات وأي مسائل أخرى قد يكون لها معنى كفاحي (كما في ذلك انتخاب المكتب المسير)، تحت طائلة الاعتقال. واحتجاجا على ذلك قام المؤتمر بتعليق أشغال المؤتمر.

وكان العمل بين النساء من المجالات الهامة أيضا. كانت هناك العديد من المنظمات النسائية القانونية التي عقدت مؤتمرات تدخل فيها البلاشفة بشكل منهجي. خلال المؤتمر النسائي الأول لعموم روسيا، الذي عقد في دجنبر في بيتسبورغ، كانت هناك نساء كثيرات من بين المندوبين. ومن بين النقاط على جدول الأعمال كان هناك مكافحة الإدمان على الكحول وحماية النساء والأطفال في أماكن العمل والمساواة في الحقوق لصالح اليهود وإعطاء الحقوق السياسية والقانونية للنساء. تقدمت النساء العاملات بطلب

1: LCW, vol. 13, pp: 532-533.

2: *Istoriya KPSS*, vol. 2, p: 319.



الاقتراع العام السري المباشر والمتساوي، دون تمييز على أساس الجنس أو القومية أو الدين. رفضت لجنة الرئاسة قراءة المقترح وعوضته بمشروع قانون آخر بمضمون برجوازي ليبرالي، مما دفع بالعمال إلى الانسحاب. كان هناك حدث مماثل في مؤتمر عموم روسيا الأول للمسؤولين في مصنع الأدوية وممثلي الصناعة التحويلية، الذين اجتمعوا في موسكو، في أبريل 1909، تحت شعار: "مهرجان المصالحة". لكن سرعان ما خفتت أنوار المصالحة بمجرد ما بدأ العمال الحاضرون في أخذ الكلمة للتديد بأوضاع السلامة والنظافة المروعة في أماكن عملهم. وبعد أن أمرت الشرطة بعدم طرح أية أسئلة "من شأنها إثارة الصراع الطبقي" في المناقشات، انسحب جميع العمال وبعض الأطباء، وهو الحدث الذي أجبر هيئة الرئاسة على إنهاء أشغال المؤتمر<sup>1</sup>.

كثيرا ما كانت تلك المنظمات القانونية تضم فئات متخلفة وغير ميسّسة، لكن حتى هنا، أي في أكثر الحقول صعوبة على ما يبدو، قام البلاشفة بعمل سياسي، واستخدموها لبناء وتعزيز روابطهم مع الجماهير. ومثلما يقوم متسلق الجبال بالبحث عن كل نتوء وكل صدع ليثبت قدمه ويرفع نفسه، كان البلاشفة يبحثون عن كل ثغرة قانونية ويستغلونها إلى أقصى حد. بل إنهم تدخلوا حتى في مؤتمر لمكافحة الكحول عقدته جمعية لمكافحة الإدمان في دجنبر 1909. وشيئا فشيئا وبتضحيات جسيمة، تمكن البلاشفة من إعادة تجميع قواهم وإعادة بناء الروابط مع الجماهير، التي كانت قد قطعها بوحشية الثورة المضادة المنتصرة. ومع ذلك، فإن النضال كان ما يزال شاقا. كان الثوريون ما يزالون يسبحون ضد التيار. واستمر الوضع العام للطبقة العاملة كئيبا. رفض البلاشفة أي عمل من أعمال المغامرة التي من شأنها أن تعرض العمال للقمع. كانت الضرورة الأساسية هي الحفاظ على ما تبقى من القوات، والتقدم ببطء، خطوة خطوة، وانتظار حدوث تغير في الوضع. لم يبدأ المد مجددا إلا في عام 1911، مع مذبة لينا. وقد كان انتعاش الصراع الطبقي مرتبطا، كما توقع تروتسكي، بانتعاش اقتصادي. حتى ذلك الوقت، كان الرسم البياني لحركة الإضرابات، الذي يوفر مؤشرا تقريبا لحالة الحركة العمالية، يسجل انخفاضا مستمرا:

السنوات	عدد العمال المضرين
1907	740.000
1908	176.000
1909	64.000
1910	46.000

(المصدر: *Istoriya KPSS*, vol. 2, p: 322)

ثم في الفترة الممتدة ما بين عامي 1910 و1913 أعلنت طفرة اقتصادية نهاية الكساد الطويل الذي سيطر على السنوات الأولى من القرن 20. ارتفع إنتاج الحديد الزهر في الفترة ما بين 1909 و1913 من 175 مليون بود<sup>2</sup> إلى 283 مليون بود - وهو ما لا تخفى علاقته باستعدادات النظام القيصري للحرب-. وفي الفترة نفسها ارتفع إنتاج الفحم من 1.591 مليار طن إلى 2.214 مليار. وقد أعطى الانتعاش الاقتصادي دفعة قوية لإحياء الصراع الطبقي. بدأ العمال في تسخين عضلاتهم والشعور مجددا بقوتهم. في النصف الثاني من عام 1910، كان هناك بالفعل ارتفاع في عدد الإضرابات، بالتزامن مع الانتعاش الاقتصادي. وقد أدت زيادة الإنتاج وازدهار الأعمال إلى تغيير الأجواء داخل أماكن العمل، وزادت ثقة الطبقة العاملة في نفسها. وبحلول منتصف عام 1910، انتقلت الطبقة العاملة مرة أخرى إلى الهجوم. في صيف 1910 ضرب 10.000 من عمال النسيج في موسكو. وفي وقت لاحق انتشرت موجة الإضرابات إلى ريغا وفلاديمير وكازان وساراتوف ووارسو وأوديسا وكوستروما، وغيرها من المراكز الصناعية. كانت الأسباب المباشرة للإضرابات هي انخفاض الأجور وظروف العمل السيئة والمشكلة القديمة المتمثلة في الغرامات التي تفرض على العمال داخل المصانع، لكن ذلك لم يكن سوى التعبير الفوري عن شعور عميق الجذور وواسع الانتشار من السخط. فالعمال الذين بدأوا الآن يشعرون من جديد بقوتهم انتقلوا إلى الانتقام. كان العمال قد عانوا من نتائج هزيمة ثورة 1905، فنهضوا للانتقام من سنوات القمع والتسريحات وتخفيض الأجور وآلاف أشكال الإذلال والظلم، بل ضربوا حتى احتجاجا على استخدام كلمة "تي" من قبل الإدارة عند التحدث مع العمال، وهي عبارة يستخدمها الكبار عند تحدثهم مع الأطفال الصغار.

سار ارتفاع الإنتاج جنبا إلى جنب مع تركيز رأس المال، مع حدوث اندماجات خلقت مصانع أكبر فأكثر. وبحلول عام 1914، صارت المصانع التي تضم أكثر من 500 عامل تشكل 56,5% من مجموع المصانع. كانت روسيا القيصرية في تلك الفترة واحدة من أكبر القوى العالمية من حيث تركيز رأس المال. استمرت روسيا اقتصادا متخلفا إلى حد ما، لكن مع تركيز هائل للصناعة ورأس المال

1: LCW, vol. 15, pp: 510-511.

2: البود: (Pood) وحدة قياس روسية، تعادل حوالي 16 كيلوغرام - المترجم-.

المصري، إلى درجة أكبر في الواقع من معظم البلدان الرأسمالية المتقدمة. كان ذلك تجسيدا واضحا للقانون الماركسي حول التطور المركب وغير المتكافئ. تظهر سيروورة الاحتكار في واقع أنه بحلول عام 1913 أنتجت تسع شركات كبيرة 53,1% من إنتاج الحديد الزهر، وسبعة مصانع للساعات كانت تنتج 90% من الساعات، وست شركات للنفط في باكو أنتجت 65% من النفط، وهلم جرا. ولم يكن العدد الإجمالي للاحتكارات في روسيا أقل من 150 إلى 200 شركة احتكارية. كانت هيمنة المصانع الضخمة، التي تركز أعدادا كبيرة من العمال في ظروف مروعة، وخاصة في صناعة المعادن، عاملا قويا أعطى دفعة هائلة لحركة الإضرابات التي سبقت الحرب العالمية الأولى ووسمتها بطابع ثوري واضح<sup>1</sup>.

ومما له دلالة كبيرة أن العديد من تلك الإضرابات كان ناجحا، فمن بين 265 إضرابا، انتصر 140 (52,8%). والأهم من ذلك هو عدد الإضرابات السياسية، ففي عام 1909، ووفقا للأرقام الرسمية، كانت 7,7% من الإضرابات إضرابات سياسية؛ وفي عام 1910، صار الرقم هو 8,1%، لكن بحلول عام 1912، وصلت إلى الرقم المذهل 75,8%. توفر هذه الأرقام مقياسا لا يخطئ عن مزاج الجماهير. كما أن الحركة لم تقتصر على الإضرابات، حيث أثرت موجة التجذر على فئة المثقفين، وخاصة الشباب. عادت الحركة الطلابية إلى الحياة، وسرعان ما صارت تحت تأثير الأفكار الاشتراكية الديمقراطية الثورية. في يناير/ مارس 1911، كان البلاشفة في وضع يسمح لهم بالدعوة إلى إضرابات طلابية في سان بيترسبورغ وموسكو وكيف وشاركوف وتومسك ووارسو. وكانت هناك أيضا مظاهرات جماهيرية، بعضها ذات طابع سياسي واضح، مثل المظاهرات الجماهيرية الرائعة التي جرت أثناء تشييع تولستوي في نوفمبر 1910. كان ذلك الرواى الروسي العظيم قد استحق كراهية الرجعيين بسبب مواقفه التقدمية، بل لقد تعرض حتى للحرمان من طرف المجمع المقدس للكنيسة الأرثوذكسية. لكن وعلى الرغم من الرفض الرسمي، فقد كان من المستحيل منع الجماهير من المشاركة في جنازته، ليس فقط لتوديع ذلك الرجل العظيم، بل وقبل كل شيء للتعبير عن كراهيتها للنظام والحكم الاستبدادي.

### كونفرانس براغ

أدى فشل محاولة تحقيق الوحدة إلى إقناع لينين بضرورة إحداث قطيعة جذرية، فبدأ يضغط من أجل عقد كونفرانس جديد لجميع العناصر الثورية الحقيقية داخل روسيا. وفي فبراير 1910، كتب أن الكونفرانس ينبغي أن يعقد "أولا وقبل كل شيء وعلى الفور وبأي ثمن"<sup>2</sup>. تعاون البلاشفة والمناشفة الموالون للحزب في تشكيل اللجنة التنظيمية داخل روسيا. ومن الوقائع المعبرة أن بليخانوف لم يشارك في ذلك العمل. كانت أخطائه المنشفية قد منعت، في تلك اللحظة الحاسمة، من القطيعة التنظيمية النهائية مع التصويين. وفي رسالة إلى مكسيم غوركي، كتب لينين: «بليخانوف يتملص، إنه دائما ما يتصرف بهذه الطريقة، التي هي مثل المرض، في اللحظات الحاسمة»<sup>3</sup>.

كان كونفرانس براغ (الذي لم تنشر محاضره) نقطة تحول حاسمة. لقد انعقد في ظل ظروف صعبة للغاية. كان الوضع داخل روسيا ما يزال خطرا للغاية مما كان يمنع عقد الكونفرانس هناك. تعرضت التحضيرات لعقده لعراقيل كثيرة بسبب حملة الاعتقالات، على الرغم من عقد كونفرانسات محلية في نوفمبر 1911. وأخيرا تم عقد الكونفرانس في براغ. وتمت الاستعدادات على يد بياتيتسكي ودزرجينسكي، بمساعدة من الاشتراكيين الديمقراطيين التشيك. كتب لينين إلى هؤلاء الآخرين يؤكد على ضرورة السرية المطلقة، ففي 19 أكتوبر 1911، كتب إلى أنطون نيميتش: «يجب ألا يعرف أي أحد وأي منظمة أي شيء عن هذا [الاجتماع]». لكن وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات فقد تم القبض على بعض المندوبين في الطريق إلى الكونفرانس الذي كانت الأوغرانا تعرف عنه كل التفاصيل.

افتتح الكونفرانس في 05 يناير 1912، واستمر 12 يوما. وحقيقة الأمر هي أن الحضور خلال كونفرانس براغ كان بداية لا تبشر بخير. لم يكن هناك سوى 14 مندوبا بحق تصويت، كلهم بلاشفة، باستثناء اثنين منهم. كان قد تم إرسال دعوات للحضور لكل من الاشتراكيين الديمقراطيين الليتوانيين والبوند والبولنديين والقوقازيين ومجموعة فريود ومجموعة بليخانوف وكذلك صحيفة تروتسكي برافدا، لكنهم لم يحضروا. بليخانوف بقي بعيدا، مدعيا سوء ظروفه الصحية. كانت تلك التيارات إما معارضة لعقد الكونفرانس، أو أنها، على الأقل، كانت مترددة بشأن تلك القطيعة الجذرية. حتى في تلك اللحظة كانت الميول التوفيقية ما تزال قوية في معسكر

1: Rashin, *Formirovaniye Rabochego Klassa Rossiy*, p: 98.

2: LCW, *Towards Unity, February 13 (26), 1910, vol. 16, p: 155.*

3: LCW, *Letter to Maxim Gorky, September 15, 1911, vol. 36, p: 185.*

البلاشفة. ظهرت اختلافات وشكوك داخل الكونفرانس، ولا سيما من جانب المناشفة الموالين للحزب، لكنهم لم يكونوا الوحيدين. تسبب ي. د. زيفين (الذي انضم فيما بعد إلى البلاشفة، وكان واحدا من هؤلاء المفوضين 26 الذين قتلهم البريطانيون في باكو) في بعض الجدل بسبب دفاعه عن موقف بليخانوف. كان بليخانوف، كما توقع لينين، قد بدأ بالفعل في التراجع. وفي الجلسة الافتتاحية، قرأ زيفين بيانا معدا مسبقا مفاده أنه يشارك في هذا الكونفرانس «ليس باعتباره كونفرانس للحزب بأكمله، بل بكونه كونفرانس لتيار واحد فقط من تيارات الحزب».

أصر عدد من المندوبين الروس، بمن فيهم رفيق لينين المقرب آنذاك أوردجونيكيدزه، على توجيه دعوات لحضور الكونفرانس إلى الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية القومية ومحرري الجرائد الحزبية فريود وتروتسكي والمناشفة الموالين للحزب، لكنهم جميعا رفضوا الحضور. قال لينين في وقت لاحق: «لقد كنت ضد الدعوة، لكن المندوبين استدعوا مجموعة فريود وتروتسكي وبليخانوف»<sup>1</sup>. لم يكن ذلك كل شيء، فقد أراد ما لا يقل عن أربعة مندوبين استدعاء مارتوف ودان، محرري الصحيفة الرئيسية للمناشفة غولوس سوتسيال ديموكراتا، في تناقض واضح مع موقف لينين الداعي إلى استبعاد «التصفيين» رسميا من الحزب. كانت هناك تعبيرات أخرى عن عدم التوافق، حيث انتقد العديد من المندوبين صحيفة سوتسيال ديموكراتا على نشرها مقالات غير مفهومة بالنسبة للعمال العاديين. وقد ظهرت شكوك هؤلاء المندوبين الذين يعملون داخل روسيا تجاه القادة في المنفى في الطلب الذي قدمه غولوشكيكن وأوردجونيكيدزه وسبانديريان، بأنه يجب حل المنظمات البلشفية في الخارج. أكد أوردجونيكيدزه أن منظمات المنفى «تافهة وعقيمة»، بل وشكك كذلك في جدوى الوحدة مع جماعة بليخانوف. أما سبانديريان فقد ذهب أبعد من ذلك، فقد دعا إلى حل كل مجموعات المنفى: «على أولئك الذين يرغبون في العمل... الانضمام إلينا في روسيا». نرى هنا مرة أخرى مظهرا آخر من مظاهر ضيق أفق موظفي الحزب «العمليين». ومرة أخرى كان على لينين تصحيح أخطاء هؤلاء الناس.

«يقول البعض: علينا شن الحرب على المهاجرين. لكن يجب أن نفهم ما الذي نكافح ضده. طالما بقي نظام ستوليبين قائما في روسيا، سيبقى هناك دائما أناس في المنفى. لكن هؤلاء المنفيين مرتبطون بالآلاف الخيوط مع روسيا، ولن تتمكنوا من قطع تلك الخيوط، مهما حاولتم»<sup>2</sup>.

لكن وعلى الرغم من تناقل خطى بعض أعضاء اللجان البلاشفة، فقد تم تحقيق الهدف الرئيسي. شكل كونفرانس براغ مفترق الطرق النهائي بين البلشفية والمنشفية. ورغم مقاطعة المناشفة للكونفرانس فقد استمرت التحضيرات لعقد كونفرانس بلشفي خالص، أي ما كان يعني، بعبارة أخرى، الانشقاق بشكل رسمي. كان لينين، على أية حال، قد توصل إلى الاقتناع بأن مرحلة المماثلة قد انتهت. كان من الضروري إجراء قطيعة جذرية للجناح الثوري عن الانتهازية، ولم يكن ليتأثر بضغط التوفيقين. جاء في القرار النهائي بأن مجموعة التصفيين، المتعلقة حول صحيفتي سان بيترسبورغ «ناشا زاريا» و«ديلو جيزني»، قد وضعت نفسها إلى الأبد خارج الحزب. وكانت «ناشا زاريا» و«ديلو جيزني» صحيفتي الجناح اليميني المتطرف للمناشفة (بوتريسوف وشركاؤه). كما أكد القرار أنه ليس من حق مجموعات المنفى استخدام اسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي.

شعر بليخانوف آنذاك بعدم الارتياح لتركه وحيدا مع البلاشفة، لكنه كان قد عبر الروبيكون<sup>3</sup>، ولم تعد تحفظات المناشفة الموالين للحزب مجدية. لم يعد من الممكن العودة إلى الوراء آنذاك، لكنهم وعلى الرغم من أنهم كانوا أفضل العناصر بين جميع المناشفة اليساريين، وكانوا بدون شك مناضلين صادقين ومخلصين لقضية الطبقة العاملة، فقد اتضح أنهم حلفاء متذبذبون وغير حازمين، وتراجعوا عندما جاءت اللحظة الحاسمة. لقد كانوا تيارا وسطيا، أي تيارا يقف في منتصف الطريق بين الإصلاحية اليسارية وبين الماركسية الحقيقية. كان سلوكهم مثالا نموذجيا تماما عن جميع التيارات الوسطية في جميع الأوقات وفي كل مكان. إلا أن لينين لم يكن مستعدا للتوصل إلى حل توفيقى وتم رفض مقترحاتهم. لكن على الرغم من اللهجة المتشددة للقرارات، فإن لينين فهم أن كونفرانس براغ لم يكن نهاية القصة، بل فقط بداية المعركة لكسب غالبية الطبقة العاملة، وكذلك جميع عناصر الحزب الذين يمكن كسبهم.

فيما يتعلق بمسألة التنظيم فقد أكد لينين مرة أخرى على ضرورة فتح أبواب الحزب، وتشكيل منظمات واسعة قادرة على استيعاب جماهير العمال الذين استفاقوا مؤخرا على الحياة السياسية في ظل الوضع الجديد. أنشئت لجنة لوضع قرار تنظيمي.

1: LCW, Letter to G.L. Shklovsky, March 12, 1912, vol. 35, p: 25.

2: Istoriya KPSS, vol. 2.

3: الروبيكون: نهر بإيطاليا، كان جزءا من الحدود بين إيطاليا الرومانية ومقاطعة الغال الجنوبية، وكان محظورا على الرومان عبوره بجنودهم. لكن قيصر عبه برجاله، في 10 يناير عام 49 ق.م، ومن ثم بات تعبير «عبور الروبيكون»، يعني اتخاذ قرار لا يمكن التراجع عنه. المترجم.

كان من الضروري أن يتكيف الحزب مع الظروف المتغيرة. وكانت هناك حاجة ماسة إلى إشراك المزيد من الناس في العمل، ومنحهم المسؤوليات. حتى تلك اللحظة كان عدد قليل من الناشطين في الخلايا السرية قد اعتادوا على القيام بكل شيء بأنفسهم، أما الآن فقد صارت هناك حاجة إلى تفويض أكبر للمسؤوليات والمزيد من المشاركة والمزيد من المبادرة من جانب العمال الاشتراكيين الديمقراطيين في المصانع والنقابات وجميع المنظمات الأخرى التي كان الحزب موجودا فيها. ينبغي لهذه المنظمات الأوسع أن تضطلع بدور أكبر في عمل الحزب، كما ينبغي تشكيل لجان الفروع للحد من مخاطر القمع. وكان من الضروري أيضا القضاء على سيطرة الليبراليين على المنظمات الشرعية. هذه هي السمة الأساسية للسياسة اللينينية، والتي هي النقيض المطلق لجميع أنواع العصبوية. لم يكن المقصود من إعلان حزب مستقل أن يشكل مبادرة فارغة أو خطوة شكلية، بل أن يكون الخطوة الأولى لتنظيم عمل الثوريين داخل المنظمات الجماهيرية، حيث كان عليهم الانخراط في النضال من أجل تخليص الجماهير من نفوذ الليبرالية البرجوازية والقيادات الانتهازية. وقد شدد الكونفرانس على دور الصحافة الحزبية باعتبارها وسيلة تنظيمية. وعين رابوتشايَا غازيتا (جريدة العمال) باعتبارها الجريدة الرسمية للحزب.

كان أحد أهم أهداف كونفرانس براغ وضع برنامج عمل ملموس لبناء الحزب. وقد علق لينين أهمية كبيرة على التقارير القادمة من المحليات، والتي كانت تقدم الأساس المادي لمنظوراته العامة. وكان عمل الفريق البلشفي داخل الدوما عنصرا رئيسيا في كسب غالبية العمال إلى البلشفية. أوضح لينين خلال الكونفرانس التكتيكا الانتخابية البلشفية، وقد استندت، من جهة، إلى معارضة النظام الملكي القيصري وأحزاب البرجوازية والملاكين العقارين التي تقف وراءه، ومن جهة أخرى كان من الضروري فضح الليبراليين والحفاظ على الاستقلالية التامة عنهم. يجب على الفريق البلشفي داخل الدوما أن يسعى جاهدا لعقد الاتفاق النضالي فقط مع ممثلي البرجوازية الصغيرة الثورية (الفلاحين): التروودوفيك والاشتراكيين الثوريين. كان الحزب سيقدم مرشحيه في جميع المقاطعات، لكن وفي ظل ظروف معينة، كان من الممكن التوصل إلى اتفاقات جزئية مع "مجموعات أخرى"، بما في ذلك التصويين. وأوضح قرار الكونفرانس ما يلي: «يجب على الحزب أن يشن حربا لا هوادة فيها ضد الاستبداد القيصري وضد أحزاب الملّاكين العقارين والرأسماليين الذين يدعمونه، وأن يفضح في الوقت نفسه الآراء المعادية للثورة والديمقراطية الكاذبة لليبراليين البرجوازيين (وعلى رأسهم حزب الكاديت). وينبغي إيلاء اهتمام خاص، خلال الحملة الانتخابية، للحفاظ على استقلالية حزب البروليتاريا عن جميع الأحزاب غير البروليتارية، ولفضح الطبيعة البرجوازية الصغيرة للاشتراكية الزائفة للجماعات الديمقراطية (وعلى رأسها التروودوفيك والنارودنيين والاشتراكيين الثوريين)، وفضح الضرر الذي لحق بقضية الديمقراطية بسبب تذبذبهم بخصوص مسائل النضال الثوري الجماهيري»<sup>1</sup>.

### المخبر مالينوفسكي

بالإضافة إلى المجموعات التي سبق ذكرها، كان هناك تيار آخر حاضر في كونفرانس براغ، وإن بصفة "غير رسمية". كانت الشرطة السرية القيصرية، الأوخرانا، قد نجحت في وضع مخبريها في أعلى مستويات المسؤولية داخل الحزب، وكان بعضهم، وبالضبط اثنين منهم، حاضرين خلال المؤتمر البلشفي التأسيسي، بدون علم بقية المندوبين. لم يكن مندوب موسكو سوى العميل المخبر السيئ السمعة: رومان مالينوفسكي، العضو في فريق الدوما البلشفي، والذي رافقه في هذه المناسبة عميل آخر هو أ. رومانوف، مندوب المنطقة الصناعية المركزية. كانت كل خطابات وقرارات الكونفرانس معروفة للشرطة بسبب تقاريرهما المفصلة. وفي محاولة لحماية أعضاء اللجنة المركزية الجديدة من خطر الاعتقال، تم استخدام أساليب سرية خاصة للحماية من الشرطة. فقد كتب كل مندوب لقب من يرشحهم لعضوية اللجنة ثم سلم الورقة إلى لينين. حتى النتيجة لم تعلن خلال الكونفرانس. لكن رومان مالينوفسكي، الذي كان مخبرا ذو مهارات عالية، كان قد قام بعمل فعال جدا لكسب ثقة لينين. نجح مالينوفسكي ليس فقط في الحصول على أسماء أعضاء اللجنة المركزية، بل وتمكن أيضا من الحصول على أسماء فريق الدوما. كان هناك مخبرون داخل جميع أجهزة الحزب في روسيا. وتعرض الحزب لسلسلة من غارات الشرطة في بيتسبورغ في فبراير ومارس 1912. وفي رسالة مؤرخة بـ 28 مارس، كتب لينين بقلق أن "أوضاعنا سيئة هناك".

إن وجود جاسوس على هذا المستوى الرفيع داخل الحزب يشهد على الكفاءة والمثابرة الاستثنائيتين للشرطة السرية القيصرية. لم يكن ذلك حدثا معزولا، فقد تم تطوير تكتيك الاستخبار والتجسس إلى درجة عالية من قبل النظام القيصري على مدى فترة

1: A.Ye. Badayev, *Bolsheviks in the Tsarist Duma*, p. 20.

طويلة. وكان الحزب البلشفي يعاني باستمرار من اختراقات البوليس الذين نجح بعضهم في التسرب إلى مواقع رئيسية داخل الحزب، مثل حالة شخص يدعى زيتوميرسكي، الذي تمكن حتى قبل عام 1905 من احتلال موقع هام داخل المنظمة السرية في برلين، حيث تعاون مع بياتيتسكي في نقل الأدب البلشفي إلى روسيا. تتذكر بوبروفسكايا قائلة: «لقد كان يبدو واحدا منا في كل شيء، كان يبدو بلشفيًا مخلصًا 100%<sup>1</sup>. وبعد هزيمة دجنبر، ونقل المركز البلشفي مرة أخرى إلى الخارج، قدم زيتوميرسكي خدماته لاستعادة العلاقات القديمة في أوروبا وتنظيم نقل الأدب البلشفي السري إلى روسيا. تم قبول العرض. وبعد فترة، أصبح عضواً في الهيئة التقنية الهامة داخل اللجنة المركزية المسؤولة عن جميع المهام السرية. نتيجة لذلك كانت السلطات القيصريّة دائماً ما تسبق الثوريين بخطوة إلى الأمام، وكانت تكتشف المجموعات البلشفية الواحدة منها تلو الأخرى وتعمل على سحقها. لم يتم القبض عليه بالجرم المشهود إلا عام 1911. وقد تمكن من النجاة حيث أنقذه أسياده، لكن كان هناك الكثير من الآخرين ليحلوا محله.

كانت هناك العديد من الأسباب التي جعلت الأورخانا ناجحة جدا في اختراق الحركات الثورية (وليس البلاشفة فقط) في ذلك الوقت. لقد تسببت هزيمة ثورة 1905، كما سبق لنا أن رأينا من قبل، في انتشار الإحباط على نطاق واسع، وخاصة، لكن ليس حصراً، بين المثقفين. فقد الكثير من الناس البوصلة. إن الانهيار الأيديولوجي والشك والكلية والردة، كلها نتائج طبيعية لمثل هاته المراحل، التي هي شائعة جداً في تاريخ الحركة. إن الثوري المفتح للفهم النظري اللازم، والقناعة المبدئية، المعزول في السجن، تحت وطأة استنطاق قاس على يد عملاء مهرة، يمكنه أن ينهار تحت الضغط. بعد ذلك يصير للأشياء منطقها الخاص. كما أنه ليس من الصعب فهم السهولة التي يتمكن بها بعض هؤلاء العملاء من الوصول إلى أعلى مراكز المسؤولية، ففي فترة الردة الرجعية المتفشية، عندما كانت المنظمات الحزبية محطمة وكان الأشخاص الأكثر خبرة في السجن أو المنفى، صار من الحتمي أن تحل محلهم عناصر جديدة لم يتم اختبارها، كان من السهل نسبياً على الشرطة أن تقحم عملاءها بينهم. وبالنظر إلى النقص الشديد في المناضلين المؤهلين، كان في مقدور أي شخص يظهر بعض المواهب أن يحصل على فرصة جيدة للوصول إلى منصب قيادي. ويمكن تسهيل طريق وصوله إلى مراكز القرار بمجرد قيام الشرطة باعتقال أي شخص يمثل عقبة أمامه.

في هذا السياق ليس من الصعب تفسير صعود رومان مالينوفسكي. كان مالينوفسكي، البولندي بالولادة، شخصاً ماهراً ذكياً وحيوياً، لكن مع سمات مغامر. وقبل أن ينتقل إلى موسكو، كان رئيساً لنقابة عمال الصلب بسان بترسبورغ. تعرض مالينوفسكي للاعتقال والنفي بسبب نشاطه الحزبي. ولذلك صارت سمعته لا تشوبها شائبة، ولم يكن هناك شيء قد يؤدي إلى الشك في وجود جانب مظلم عنده، على الرغم من أنه كان قد صار عميلاً للشرطة القيصريّة في عام 1910. في الواقع، ساعدته الشرطة على أن يصير المرشح البلشفي إلى البرلمان، بالطريقة المعتادة التي كانت هي القبض على المرشحين الآخرين! تظهر سجلات الشرطة أنه كان يتلقى مبلغاً من المال مقابل كل عملية اعتقال، 500 روبل و 700 روبل، الخ. لكن من المرجح أن رجلاً مثل مالينوفسكي لم يكن يعمل من أجل المال فقط. هناك نوع من الأشخاص الذين يمتلكون نفسية المغامر، أناس من دون أي مبادئ ثابتة يحبون الإثارة، بل ويحسون بنوع من الفخر بقدرتهم على خداع الناس، وهلم جرا. في عالم الإجرام يمكن لمثل هؤلاء الناس أن يحققوا نجاحات كبرى كمخادعين- إلى أن يتم القبض عليهم. كان مالينوفسكي من ذلك النوع من الثوريين السابقين المحبطين الذين قضت الكلية فيهم بشكل كامل على كل انتماء طبقي وقتلت فيهم كل ضمير. إن عنصر المغامرة والإثارة التي يخلقها التمثيل والحياة المزدوجة والخطر الذي يلازم حياة الجواسيس، ساعده ربما على تخفيف حدة الشعور بالخيانة وتعطيل عقله عن التفكير في بشاعة وهول ما كان يقوم به. وفي كل الحالات يبدو أنه كان يشعر بالفخر بـ"عمله"، الذي كان ناجحاً للغاية لبعض الوقت.

قام مالينوفسكي، طيلة فترة عمله في الدوما، بعمل جيد وكان ذا شعبية كبيرة لدرجة أنه لا أحد اشتبه في كونه عميلاً للبوليس. وعندما اتهمه المناشفة بكونه عميلاً، رفض لينين التهمة باستنكار، وهو الأمر الذي يمكن تفهمه، فالصراع بين الفصائل كان شديداً إلى درجة أنه خلق كل أنواع الشائعات غير المسؤولة ضد الأفراد. وقد أرجع لينين ذلك بشكل طبيعي إلى الصراع التكتلي المعتاد والإشاعات المغرضة حول عضو بارز بالفريق البلشفي داخل الدوما، ينشرها أعداؤه. تتذكر بوبروفسكايا الجو الذي كان سائداً داخل حلقات الحزب في موسكو مباشرة بعد كونفرانس براغ. كان شقيقها قد تعرض للاعتقال وتم تفتيش شقتهم من قبل الشرطة بعد وقت قصير من تسليمه لعناوين وأماكن الاجتماع السرية على الحدود لمالينوفسكي قبل سفره كمنسوب: «عندما سمح لي بالزيارة الأولى لأخي، تمكن من أن يهمس لي قائلاً: "هناك شخص ما يتجسس في موسكو؛ صرت متأكداً من ذلك بعد استجوابي الأول من قبل الشرطة". ومع ذلك لم يكن هناك أحد أبعد عن الشبهات في هذا الصدد مما كان مالينوفسكي؛ أي شخص آخر ما عداه هو،

1: C. Bobrovskaya, *Provocateurs I Have Known*, p: 13.

إنه نجمنا الصاعد، الذي استقطبت خطاباته داخل دوما في وقت لاحق اهتماما عاما<sup>1</sup>.

لكن كل نجاحاتهم في التسلسل إلى المنظمات الثورية، حتى أعلى المستويات، وجميع أعمال الاستخبار والتجسس والاعتقالات، لم تفدهم شيئا في آخر المطاف. هناك اتجاه عام من جانب الأنظمة المفلسة تاريخيا لإيلاء أهمية مفرطة للقوة المفترضة للدولة، وخاصة الجانب التقني لجهاز القمع. ويمكن أن تجد هذه الفكرة أحيانا عند بعض "الماركسيين" الذين قد يتبنون موقف احترام غريب لسلطة الدولة - والذي هو انعكاس لأوهام الطبقة الحاكمة. في الواقع، كل قوى الدولة تنهار وتتحوّل إلى غبار في اللحظة التي تواجهها قوة الجماهير المنظمة والعازمة على تغيير المجتمع ووضع حد لعبوديتها. من الصعب (على ما يبدو) تخيل دولة أكثر قوة من الدولة القيصريّة الروسية بجيشها الجبار والعدد الهائل من قوات الشرطة والمساعدين القوزاق والبيروقراطية الواسعة. كانت الشرطة السرية من بين أذرع تلك الدولة، كما هو الحال في أي دولة أخرى. طور ذلك الجهاز تكتيكات الاختراقات والتجسس إلى مستويات لا يمكن تصورها. لكن، وفي لحظة الحقيقة، ماذا كانت فائدة كل ذلك؟ لقد كنست الطبقة العاملة، بقيادة الحزب البلشفي، كل شيء جانبا بضربة من يدها.

على المنظمة الثورية، بطبيعة الحال، أن تتخذ جميع التدابير الممكنة لمكافحة وعرقلة محاولات الدولة الرأسمالية التجسس عليها والتسلل إلى صفوفها (وهذه حقيقة من حقائق الحياة حتى في الدول "الأكثر ديمقراطية")، لكنه لا يمكن لهذه التدابير، في آخر المطاف، أن تكون حاسمة، بل يمكن أن تكون لها نتائج عكسية. ومن المفارقات أن العملاء مثل مالمينوفسكي، وبالتحديد من أجل إبعاد أنفسهم من دائرة الشكوك، يكونون هم أنفسهم مضطرون للقيام بالعمل لصالح الثورة. بعد سنوات على ذلك، وبعد حسم البلاشفة للسلطة، كان لينين عميقا جدا في الموقف الذي أعطاه من قضية مالمينوفسكي. لقد تمكن مالمينوفسكي بالتأكيد من خيانة العشرات من الرفاق وتعريضهم للاعتقال والأشغال الشاقة والموت. لكنه وبينما كان يقوم بذلك، كان مضطرا لمساعدة الحزب على إصدار صحيفة شرعية: برفادا. كان يرسل الرفاق إلى السجن بيد، وباليد الأخرى، ومن أجل تفادي افتضاح أمره، كان يساعد على بناء الحزب الثوري. هذه هي سخريّة الحياة! وقد رافقت السخريّة مالمينوفسكي حتى وفاته. عندما اختفى فجأة، قبل الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة، وضاعف المناشفة هجماتهم، وظل لينين يرفض تصديق التهمة، على الرغم من أن الحادث كان تطورا غير سار. وعندما طرد مالمينوفسكي أخيرا، كان ذلك بتهمة انتهاك شروط الانضباط الحزبي، بسبب تخليه عن منصبه دون إذن!

فقط بعد ثورة أكتوبر، عندما فتح البلاشفة أخيرا ملفات الشرطة، ظهرت الحقيقة المذهلة حول دور مالمينوفسكي الحقيقي. وما حدث بعد ذلك كان من الغرابة بحيث يجعله جديرا بقصص الجاسوسية الخيالية. في الوقت الذي كانت أرشيفات الأورخانا تكشف عن أسرارها، كان مالمينوفسكي يعمل في ألمانيا دبلوماسيا سوفياتيا. عندما تلقى الاستدعاء المصيري للعودة إلى موسكو، كان عليه أن يدرك على الفور أنه قد انفضح. وعلى الرغم من أنه كان من السهل عليه أن يفر بجلده، فإنه عاد إلى روسيا. لماذا عاد؟ هل كان محببا جدا إلى درجة أنه لم يعد يهتم بما سيحدث له؟ أو، وهذا ما يبدو أكثر احتمالا، هل كان يمني نفسه بطلب رحمة الحزب، وادعاء الولاء للثورة؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد سارت الأمور بشكل سيء بالنسبة له. لقد دفع مالمينوفسكي حياته ثمنا جريما.

## بعد الكونفرانس

بعد وقت قصير من كونفرانس براغ، في 28 فبراير 1912، نظم المناشفة وجميع المجموعات الأخرى كونفرانسا منفصلا في باريس. كان الانقسام قد صار حقيقة معترفا بها من قبل الجميع. حضر اجتماع باريس كل من لجنة البوند في الخارج وجماعة بليخانوف ومجموعة فريود ومجموعة غولوس ومجموعة تروتسكي، والتوفيقيون. كان الجميع غاضبين من الممارسات "الانشقاقية" ومحاولات "الانقلاب" من جانب البلاشفة. وكما حدث في مناسبات سابقة، فقد أثاروا ضجة في الخارج، وكتبوا في صحافة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، وأرسلوا احتجاجا إلى مكتب الأمانة الاشتراكية. لكن من دون جدوى. كان الانقسام الذي حدث بين التيار الماركسي الثوري وبين التيار الانتهازي في روسيا استباقا للانقسام الذي ستعرفه الحركة العمالية الألمانية في عام 1914. وعلى الرغم من أنه لم يكن في مقدور لا لينين ولا أي شخص آخر أن يتنبأ بالخيانة الرهيبة التي ارتكبتها قادة الأمانة الثانية خلال الحرب العالمية الأولى، فإن لينين كان قد استخلص بالفعل دروس تجربة الصراع بين الماركسية وبين الانتهازية في روسيا وموقف قادة الأمانة منه. وفي إشارة منه إلى الوضع داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني قال إنه: «موحد من الخارج، لكن في الداخل هناك اتجاهان محددان بشكل واضح»، وتوقع حتمية الصراع بينهما.

1: Ibid., p: 28.

اعتبر لينين أن كونفرانس براغ انبعاث جديد للحزب. بعد الكونفرانس كتب لينين إلى مكسيم غوركي قائلاً: «لقد نجحنا أخيراً -على الرغم من التصفيوين الأوغاد- في إحياء الحزب ولجنته المركزية»<sup>1</sup>. وأعرب عن أمله في أن الجناح الثوري، بعد أن تمكن من الانفصال عن المناشفة، صار في إمكانه أن ينكب على مهمة كسب الطبقة العاملة إلى رايته. ومع ذلك، فإن عملية فصل الجناح الثوري لم تحدث بسهولة أو بدون نزاع داخلي. كان رد التيارات الأخرى على كونفرانس براغ هستيريا، كما كان متوقعا، وكان العديد من البلاشفة ما يزالون مترددين حتى بعد كونفرانس براغ. وفي رسالة منه إلى شقيقته آنا، وصف لينين المزاج السائد بين المنفيين قائلاً: «يسود بين رفاقنا هنا من المشاحنات والصراعات أكثر مما سبق لنا أن رأينا منذ فترة طويلة - بل ربما لم يكن هناك مثل هذا من قبل. كل المجموعات والمجموعات الفرعية وحدت قواها ضد الكونفرانس الأخير وضد من نظموه، حتى أن الأمور تصل أحيانا إلى استعمال الأيدي خلال الاجتماعات هنا. باختصار لا يوجد سوى القليل جدا من الأشياء المثيرة للاهتمام أو التي تستحق الذكر».

والأسوأ من ذلك هو أن العديد من الناشطين داخل روسيا، بمن فيهم البلاشفة، كانوا توفيقين. وقد اعترف لينين في وقت لاحق لغوركي بأن: «العمال الشباب في روسيا» كانوا «غاضبين بشدة من المنفيين»<sup>2</sup>. تكشف مراسلات لينين في الأشهر التي تلت كونفرانس براغ عن قلقه. وفي 28 مارس كتب إلى مؤيديه في روسيا: «إنني أشعر بالضيق والانزعاج الشديدين من الفوضى الكاملة التي تسود علاقاتنا واتصالاتنا. حقا إنه وضع محبط!» واعترف أن: «الأمور سيئة» في سان بيترسبورغ، وفي غيرها. قال: «لا تصدر قرارات من أي مكان، ليس هناك ولا قرارا واحدا، يطالب بالمال! [أي الأموال البلاشفية التي تحتفظ بها الأممية الاشتراكية]. هذا عارا! لم تأت لا من تيفليس ولا من باكو (والتي هي مراكز هامة جدا) أي كلمة ذات معنى عن تسليم تقارير. أين هي القرارات؟ هذا عار ومصيبة!». في وقت لاحق كتب: «أنتم مخطئون بعدم الرد على التصفيوين. وهذا خطأ فادح»<sup>3</sup>. وكانت هناك العديد من مثل هذه الرسائل.

وفي الوقت نفسه لم يكن معارضو الكونفرانس حاملين. حاول تروتسكي تنظيم اجتماع آخر، في غشت 1912 في برن، لكن وحدهم التصفيوين من حضروا الاجتماع، كما لو أن ذلك لتأكيد الورطة السيئة التي وضع نفسه فيها. وقد كتب يصف موقفه في ذلك الوقت قائلاً:

«في عام 1912، عندما اتخذ المنحنى السياسي في روسيا منعطفا صاعدا بشكل لا لبس فيه، قمت بمحاولة تنظيم كونفرانس وحدوي لممثلي جميع الفصائل الاشتراكية الديمقراطية. ولإظهار أنني لم أكن وحدي من يراوده أمل استعادة وحدة الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية، أستطيع أن أستشهد بروزا لوكسمبورغ، التي كتبت، في صيف عام 1911: «على الرغم من كل شيء، ما يزال من الممكن إنقاذ وحدة الحزب إذا ما تم إجبار كلا الطرفين على الدعوة إلى كونفرانس وحدوي». وفي غشت 1911، أكدت مجددا: «إن الطريقة الوحيدة لإنقاذ الوحدة هي عقد كونفرانس عام للأعضاء المبعوثين من روسيا، لأن الجميع في روسيا يريدون السلام والوحدة ويمثلون القوة الوحيدة التي يمكنها أن تعيد الديكة المتصارعة بالخارج إلى رشدها».

كانت الميول التوفيقية ما تزال قوية جدا، حتى بين البلاشفة أنفسهم، وكنت أأمل أن يحفز ذلك لينين أيضا على المشاركة في كونفرانس عام. لكن لينين وقف بكل قوته ضد الوحدة. لقد أثبتت مجمل الأحداث التي تلت ذلك، وبشكل قاطع، أن لينين كان على حق. اجتمع الكونفرانس في فيينا، شهر غشت 1912، من دون البلاشفة، ووجدت نفسي رسميا في «كتلة» مع المناشفة وبعض المجموعات المتباينة من المعارضين للبلاشفة. لم يكن لهذه الكتلة أي أساس سياسي مشترك، لأنني كنت أختلف مع المناشفة في جميع المسائل الهامة، وقد استأنفت نضالي ضدهم مباشرة بعد الكونفرانس. وفي كل يوم كانت تندلع صراعات مريرة بسبب التعارض العميق بين التيارين: تيار الاشتراكيين الثوريين وتيار الديمقراطيين الإصلاحيين.

كتب أكسلرود، في 04 ماي، قبيل الكونفرانس بقليل: «من رسالة تروتسكي حصلت على الانطباع المؤلم للغاية بأنه ليست لديه أدنى رغبة في التوصل إلى تفاهم حقيقي وودي معنا ومع أصدقائنا في روسيا... من أجل خوض معركة مشتركة ضد العدو المشترك». وبالفعل لم يكن لدي في الواقع، ولا يمكن أن يكون لدي، أية نية في الاتحاد مع المناشفة للنضال ضد البلاشفة. وبعد الكونفرانس، اشتكى مارتوف، في رسالة إلى أكسلرود، بأن تروتسكي يحيي «أسوأ عادات الفردانية الأدبية التي تميز لينين وبلخانوف». إن المراسلات بين أكسلرود ومارتوف، التي نشرت قبل بضع سنوات، تشهد على هذه الكراهية العميقة التي كانا يشعران بها ضدي. أما من

1: LCW, Letter to Maxim Gorky, February 1912, vol. 35, p: 23.

2: LCW, Letter to Maxim Gorky, August 25, 1912, vol. 35, p: 54.

3: LCW, vol. 35, pp: 28, 29 and 36.

جهتي، فعلى الرغم من الهوة الكبيرة التي فصلتني عنهما، فإنه لم يكن لدي أي شعور من هذا القبيل تجاههما. وحتى اليوم، ما زلت أتذكر بامتنان أنني كنت مدينا لهما في السنوات السابقة بأشياء كثيرة.

كتلة غشت صارت مكونا أساسيا في جميع كتب "مكافحة تروتسكي"، حيث يتم تصوير الماضي، بالنسبة للمبتدئين والجاهلين، بطريقة توحى بأن البلشفية خرجت من مختبر التاريخ مسلحة بشكل كامل، في حين أن تاريخ نضال البلاشفة ضد المناشفة هو أيضا تاريخ الجهود المتواصلة من أجل الوحدة. وبعد عودته إلى روسيا عام 1917، بذل لينين آخر جهوده للتوصل إلى اتفاق مع المناشفة الأميين. عندما وصلت من أمريكا، في شهر ماي من نفس العام، كانت غالبية المنظمات الاشتراكية الديمقراطية في الأقاليم تتكون من بلاشفة ومناشفة متحدين. وفي كونفرانس الحزب، في مارس 1917، قبل أيام قليلة من وصول لينين، كان ستالين ينادي بالوحدة مع حزب تسيريتيلي. وحتى بعد ثورة أكتوبر، كان زينوفييف وكامينيف وريكوف ولوناتشارسكي، وعشرات الآخرين، يصارعون بجنون من أجل إقامة ائتلاف مع الاشتراكيين الثوريين والمناشفة. وهؤلاء أنفسهم هم الرجال الذين يحاولون الآن الدفاع عن وجودهم الأيديولوجي من خلال نشر الخرافات حول كونفرانس فيينا لعام 1912!<sup>1</sup>

لقد كانت كتلة غشت مجرد خليط غير مبدئي لأنها كانت تتألف من تيارات مختلفة لا وجود لأي شيء مشترك بينها سوى عدائها للينين. لم يكن قد بقي لأي حديث عن "الوحدة" أي جدوى آنذاك. وعندما انسحب ممثلو فريود، بقي تروتسكي وحيدا مع التصفيين، الذين لم يكن لديه أي شيء مشترك معهم. كانت كتلة غير طبيعية تماما، كما اعترف تروتسكي بنزاهة في وقت لاحق. لقد كان تروتسكي مخطئا بلا شك في محاولته تحقيق الوحدة في ذلك الوقت، لكن خطأه كان خطأ مناضل ثوري حقيقي يحمل في قلبه مصالح الطبقة العاملة وانتصار الاشتراكية. وبعد سنوات عديدة، أصدر تروتسكي حكما نهائيا بشأن كتلة غشت ودوره فيها، حين قال: «أتذكر ما كان يسمى بكتلة غشت لعام 1912. لقد شاركت بنشاط في تلك الكتلة، بل لقد كنت بمعنى ما أنا من صنعها. من الناحية السياسية، اختلفت مع المناشفة في جميع المسائل الأساسية، كما اختلفت أيضا مع البلاشفة اليساريين المتطرفين، الفريوديين. من الناحية السياسية العامة كنت أقف أقرب إلى البلاشفة، لكنني كنت ضد "النظام" اللينيني لأنني لم أكن قد توصلت بعد إلى أن أفهم أنه من أجل تحقيق الهدف الثوري لا بد من وجود حزب مركز ملتحم بحزم. وهكذا شكلت هذه الكتلة العرضية التي كانت تتكون من عناصر غير متجانسة والتي كانت موجهة ضد الجناح البروليتاري للحزب.

في كتلة غشت كان للتصفيين فصيل خاص بهم، وكان للفريوديين أيضا شيء يشبه الفصيل، أما أنا فقد وقفت معزولا، كان معي بعض من يشاركوني المواقف لكن بدون فصيل. كنت أنا من كتب معظم الوثائق، ومن خلال تجنب الاختلافات المبدئية كان الهدف خلق شكل من الإجماع حول "قضايا سياسية ملموسة". أخضع لينين كتلة غشت لنقد شديد، وكانت أشد الضربات من نصيبي. وقد أثبت لينين أنه بما أنني لم أتفق سياسيا لا مع المناشفة ولا مع الفريوديين، فإن سياستي كانت مغامرة. كان ذلك الحكم قاسيا، لكنه كان صحيحا.

و"لظروف التخفيف" اسمحو لي أن أذكر حقيقة أنني كنت قد حددت مهمتي بعدم دعم الفصائل اليمينية أو اليسارية المتطرفة ضد البلاشفة، بل توحيد الحزب بأسره. كان البلاشفة بدورهم مدعوون إلى كونفرانس غشت، لكن وبما أن لينين رفض رفضا قاطعا الوحدة مع المناشفة (وقد كان محقا في ذلك بشكل كامل) وجدت نفسي في كتلة غير طبيعية مع المناشفة والفريوديين. والظرف الثاني المخفف هو أن ظاهرة البلشفية ذاتها، بوصفها الحزب الثوري الحقيقي، كانت تتطور للمرة الأولى، إذ لم تكن هناك أية سابقة لها في ممارسة الأممية الثانية. لكنني لا أسعى بهذه الطريقة أبدا إلى إعفاء نفسي من الذنب. إلا أنه على الرغم من مفهوم الثورة الدائمة، الذي اتضح بلا شك أنه المنظور الصحيح، فإنني لم أحرر نفسي في تلك الفترة، ولا سيما في المجال التنظيمي، من سمات الثوري البرجوازي الصغير. كنت مريضا بمرض التوفيقية تجاه المنشفية وموقف عدم الثقة في المركزية اللينينية. ومباشرة بعد كونفرانس غشت بدأت الكتلة تتفكك إلى الأجزاء المكونة لها، وفي غضون بضعة أشهر لم أكن خارج الكتلة من حيث المبدأ فقط، بل ومن الناحية التنظيمية كذلك!<sup>2</sup>

في وقت لاحق، تعرض حادث ما يسمى بكتلة غشت لكل أنواع الافتراءات على يد الستالينيين مزيفي تاريخ البلشفية، مع اختراعهم الوقح لما أسموه "كتلة تروتسكي" مع التصفيين. لقد شكلت كتلة غشت بلا شك نهاية محاولات المصالحة، مما دل على استحالة التوحيد بين البلشفية والمنشفية. وقد كان تروتسكي مستاء بشكل خاص من هذه الخطوة نحو الانشقاق التي حطمت جميع خططه، فعمل على مهاجمة لينين، الذي رد بالمثل. وفي خضم الصراع قيلت بعض الكلمات القاسية من كلا الجانبين، والتي

1: Trotsky, My Life, pp: 224-226.

2: Trotsky, In Defense of Marxism, pp: 177-178.



تم تصيدها في وقت لاحق من الأرشيفات واستخدامها من قبل الستالينيين لخدمة أهداف تكتلية غير نزيهة في محاولة لتشويه سمعة تروتسكي بعد وفاة لينين، على الرغم من التعليمات الصريحة التي قالها لينين في وصيته بأنه لا ينبغي استخدام ماضي تروتسكي غير البلشفي ضده.

## نهوض جديد

بدأ عام 1912 هادئاً جداً، حيث لم يسجل مفتشو المصانع سوى 21 إضراباً في شهر يناير، والعدد نفسه في فبراير. ثم، ودون سابق إنذار، انفجرت صاعقة في سماء زرقاء صافية. كان منجم لينا للذهب، في سيبيريا، أحد أكبر مناجم الذهب في العالم، وكان من بين المساهمين فيه والدة القيصر والكونت وايت وبعض الوزراء في الحكومة. في نهاية فبراير، اندلع إضراب في المنجم بسبب انخفاض الأجور وظروف العمل الفظيعة. من المعبر أن رئيس لجنة الإضراب كان هو البلشفي: ي. ن. باتاشيف. ردت الحكومة بإرسال القوات التي قامت، يوم 04 أبريل، بإطلاق النار على حشد من 3.000 عامل، مما أسفر عن مقتل 270 وإصابة 250 آخرين. كان يوم أحد دامي آخر. وصوت الرصاص الذي تردد فوق التندرا المتجمدة حطم جليد خمسة أعوام من الردة الرجعية.

كان لخبر المذبحة تأثير محفز، ففي 07 و08 أبريل، اندلعت احتجاجات جماهيرية هائلة في مصانع سان بيترسبورغ. بعد أيام قليلة، وبقدر لا يصدق من الغباء، قال وزير الداخلية، ماكوروف، خلال إجابته على أسئلة في مجلس الدوما: "هكذا كان الأمر، وهكذا سيكون في المستقبل". انفجر سخط الجماهير في النهاية، ففي الفترة ما بين 14 و22 أبريل، انخرط 140.000 شخص في إضرابات بسان بيترسبورغ، ومن 12 إلى 30 أبريل، انخرط 70.000 شخصاً في إضرابات في موسكو. انتشرت الإضرابات الاحتجاجية إلى أوكرانيا ودول البلطيق ووسط الفولغا وبيلاروسيا وليتوانيا وبولندا والمناطق الصناعية الشمالية والوسطى. وتلت ذلك موجة جديدة من الإضرابات في 01 ماي، شارك فيها 400.000 عامل. كانت هذه الإضرابات ذات طابع سياسي متزايد. كان هناك 700 إضراباً سياسياً في أبريل، وفي 01 ماي كان هناك أكثر من 1.000 إضراب في منطقة سان بيترسبورغ - وهو رقم أعلى من الذي كان قد سجل عام 1905. لقد أعيد وصل خيط التاريخ، إذ واصل العمال من حيث توقفوا في عام 1907، لكن على مستوى أعلى. كان العمال قد تعلموا من تجربتهم. في يناير 1905 كانوا قد بدأوا بتوجيه الالتماس للقيصر، أما الآن فقد بدأوا بشعار: "تسقط حكومة القيصر!".

بعد أحداث لينا، تغير كل شيء في غضون أيام. كتب رئيس مكتب الأوخرانا بسان بيترسبورغ، م. ف. فان كوتين، إلى مسؤول قسم الشرطة قائلاً: "إن الأحداث في لينا قد عززت مزاج الجماعات الثورية المحلية وعمال المصانع"<sup>1</sup>. وفجأة تغير وضع البلاشفة. في عام 1905، كان الاشتراكيون الديمقراطيون في وضع ضعيف وكان وجودهم هزيباً داخل الطبقة العاملة، وكان وضع البلاشفة ضعيفاً داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية. أما الآن فقد تغير الحال، إذ أصبح البلاشفة بسرعة القوة الحاسمة داخل الاشتراكية الديمقراطية، وصارت الاشتراكية الديمقراطية القوة السياسية الحاسمة داخل الطبقة العاملة. استجاب البلاشفة للأحداث بسرعة، ودعوا العمال إلى اتخاذ إجراءات ثورية. وباستخدام صحيفة زفيزدا كواجهة قانونية، صاروا قادرين على توفير القيادة للحركة الجماهيرية، وإصدار شعارات وتوجيهات كفاحية. ردة الفعل السريعة للبلاشفة ومواقفهم الجذرية سهلت لهم النمو السريع في عدد الأعضاء والتأثير. كما أنها بررت بشكل كامل الانشقاق، الذي جاء، في الواقع، في الوقت المناسب. كان استمرار الارتباط بالبلاشفة في مثل تلك اللحظة سيغني الشلل.

سارع العمال إلى رفع الشعارات البلشفية في يوم عيد العمال: "عاشت الجمهورية الديمقراطية!"، "عاشت الاشتراكية!". ولم تقتصر الحركة على العمال، فقد أعطت أحداث لينا دفعة جديدة للحركة الطلابية. قدم ذلك إمكانيات جديدة لنشر الأفكار الثورية. لكن كانت هناك حاجة إلى الكثير من العمل لكسب الهيمنة الكاملة داخل الحركة الجماهيرية. إن صحوحة التطلعات الديمقراطية والوجود الحتمي للأوهام الدستورية داخل الحركة، كان سيعزز نفوذ الليبراليين البرجوازيين، الذين بدأ أنهم "في المعارضة". كانوا شخصيات عامة معروفة، لا يتورعون عن إلقاء الخطب الديماغوجية "من أجل الديمقراطية"، ويتحدثون باسم "الشعب". ولهذا السبب فقد كانت هجمات لينين الرئيسية موجهة ضدهم.

لينين، الذي استعاد نشاطه وحيويته بفضل هذا التغيير في الوضع، الذي انتظره لفترة طويلة، بدأ على الفور في تحفيز رفاقه وحثهم على العمل. وفي أواخر يونيو، انتقل هو وكروبسكايا من باريس إلى كراكوف، في الجزء النمساوي من بولندا، ليكونا أقرب إلى الثورة. تسمى كروبسكايا هذه الفترة بأنها "نصف منفي" فقط لأنه كانت لديهما آنذاك علاقات وثيقة مع الداخل. من هناك

1: R. McKean, *St. Petersburg Between the Revolutions*, p: 88.

قصف لينين الحزب بالرسائل والنداءات إلى العمل والعتاب وكلمات التشجيع. كما كان من المريح له الابتعاد عن الأجواء المفعمة بالملكائد والطعنات في الظهر والنميمة، التي كانت تميز حياة المنفيين في باريس. وقد كتب إلى غوركي في ذلك الصيف: «تسألني لماذا أنا في النمسا. (Entre nous) لقد أنشأت اللجنة المركزية مكتبًا هنا؛ نحن هنا أقرب إلى الحدود، أقرب إلى سان بيترسبورغ، تصلنا الصحف في اليوم الثالث لصدورها، ومن الأسهل بكثير كتابة المقالات للصحف داخل روسيا، والعمل التنظيمي أكثر سهولة من هنا. كما أنه توجد هنا مشاحنات أقل، وهذه أيضا ميزة أخرى. لا توجد هنا مكتبة جيدة، وهذا هو العيب؛ من الصعب العيش بدون كتب جيدة»<sup>1</sup>.

## لينين وبرافدا

شهدت الحركة الثورية طيلة تلك السنة تصاعدا متواصلًا. امتد مزاج الثورة إلى القوات المسلحة، حيث اندلعت تمردات في أسطول بحر البلطيق، إذ تأثر البحارة، ومعظمهم من أصول بوليتارية، بالمزاج السائد بين العمال في سان بيترسبورغ القريبة. ألقى القبض على 500 بحار في أسطول بحر البلطيق وأرسلوا للمحاكمة العسكرية. في 26 أكتوبر، دعا بلاشفة بيترسبورغ إلى تنظيم إضراب احتجاجا على قمع البحارة. بعد ذلك انتشرت موجة الاحتجاجات إلى موسكو وريغا وريفال ونيكولايف ونيجني نوفغورود وبيرديانسك، وغيرها من المراكز العمالية، الشيء الذي كان استباقا للوحدة المستقبلية التي حدثت بين العمال والجنود في عام 1917.

بعد سنوات طويلة محبطة من العزلة، بدأ الحزب الآن في النمو السريع. وبحلول أوائل عام 1913، كان لدى البلاشفة 22 خلية عمالية في موسكو. كان للنهوض الجديد تأثير إيجابي على المعنويات والنمو في كل مكان. بعد أن تحرر البلاشفة من التأثير السلبي والمدمر للتصويين والصراعات الداخلية التي لا نهاية لها، تقدموا بخطوات عملاقة تحت رايتهم الخاصة. هذه المرة تخلف المناشفة عن الركب. ومع ذلك، فإن الظروف المتغيرة بسرعة فرضت الحاجة إلى إجراء تحويل سريع في أساليب الحزب وتعزيز الهياكل التنظيمية بشكل عاجل. كانت لدى الليبراليين البرجوازيين القدرة على نشر صحف ذات "شعبية" مثل: "Sovremennik" (المعاصر) التي، وبسبب عدم وجود بديل، كان العمال يقرؤونها على نطاق واسع. تطلب النضال ضد التأثير البرجوازي في الجماهير إصدار جريدة بلشفية يومية. تمكنت الصحيفة البلشفية زفيدا من الوصول إلى أقلية من العمال المتقدمين، لكنها كانت غير كافية تماما في ظل الوضع المتغير. وافق كونفرانس براغ على إصدار صحيفة يومية باسم رابوتشايا غازيتا. وفي ربيع عام 1912، بدأت الاستعدادات للإصدار الجديد، فتم تشكيل فريق مكون من ن. ن باتورين وم. س. أوليمسكي ون. ج. بوليتايف، إضافة إلى عضوي اللجنة المركزية أوردزونيكيدزه وستالين.

في الوقت نفسه، كان التصويون يتحدثون عن إصدار صحيفة يومية وبدأوا في جمع المساهمات المالية، لكن بدون نجاح. في أواخر مارس صارت زفيدا تتمتع بدعم 108 من الخلايا العمالية في بيترسبورغ، بينما لم تحصل جريدة المناشفة سوى على سبع خلايا! بحلول أبريل، بعد أحداث لينا، كانت النسبة هي 227 خلية مقابل ثمان. وبحلول أواخر أبريل، تمكن البلاشفة من جمع ما يكفي من المال لإصدار الصحيفة، التي أطلقوا عليها الاسم الشهير: برافدا، الشيء الذي كان يعني، في الواقع، الاستيلاء على اسم صحيفة تروتسكي، وهي الخطوة التي زادت في تسميم العلاقات بين البلاشفة وتروتسكي، الذي كتب، في لحظة غضب، هجوما لاذعا على لينين في رسالة خاصة، غير مخصصة للنشر، تم نشرها لاحقا واستعملت بطريقة خبيثة من قبل الستالينيين لتشويه سمعة تروتسكي.

حققت برافدا الجديدة نجاحا فوريا، حيث صدر من العدد الأول 60.000 نسخة. كان ذلك سلاحا لا يقدر بثمن في وسط موجة الإضرابات الهائلة. كانت برافدا جريدة عمالية حقيقية لها علاقات في كل مصنع. كان العمال المرسلون يكتبون إليها في كل قضية، حيث يناقشون كل جانب من جوانب حياة الطبقة العاملة. في السنة الأولى تم التوصل بحوالي 5.000 رسالة من العمال. من بين الأعمدة الثابتة كان هناك عمود "إضرابات في بيترسبورغ" و"إضرابات في الأقاليم". كانت برافدا أكثر من مجرد جريدة، كانت منظما حقيقيا. تضمنت صفحاتها ليس فقط الكثير من المعلومات حول الحركة العمالية، بل أيضا التوجيهات والشعارات، والعديد من الرسائل حول حياة وظروف العمال كانت تكتب بأقلام العمال أنفسهم. لم تكن مجرد جريدة "للعمال"، بل كانت جريدة عمالية حقيقية، جريدة يمكنهم أن يجدوا أنفسهم فيها. لكن برافدا لم تقتصر على وصف الوقائع، بل تضمنت أيضا النظرية باعتبارها وسيلة ضرورية لرفع وعي قرائها إلى مستوى المهام التي يتطلبها التاريخ. وقد تضمنت بشكل منتظم مقالات لينين، التي قدمت

1: S. Payne, *The Life and Death of Lenin*, p: 248.

التعميمات النظرية والشروحات اللازمة، بالإضافة إلى الجدل ضد التيارات الأخرى، مع التركيز بشكل خاص على فضح التصفويين. أولى لينين اهتماما كبيرا لبرافدا، وكتب عددا كبيرا من المقالات لها، فمن بين 75 عددا ظهر في الفترة ما بين مارس وماي من عام 1913، احتوى 41 عددا على واحدة على الأقل من مقالات لينين. كما حاول إشراك بليخانوف وغوروكي وغيرهما من المفكرين، على الرغم من أن بليخانوف كان قد بدأ بالفعل في الابتعاد. لم تقتصر مشاركة لينين على كتابة المقالات، إذ شارك بنشاط كذلك في قراءة وتصحيح المقالات ودراسة التقارير والمراسلات من أجل الحصول على فكرة أكثر دقة عما يجري في المصانع، وكان يتتبع أرقام التوزيع، ويحلل نتائج حملات جمع المال. لم يكن هذا الاهتمام الشديد عرضيا على الإطلاق، فقد أدرك لينين الدور الرئيسي للجريدة باعتبارها منظما جماعيا. إذ بقدر ما يكون هناك تنظيم جيد، قادر على اختراق كل مصنع وإنشاء شبكة من المراسلين العماليين وجمع الأموال من العمال وإرسال تقارير منتظمة، إلى جانب الكثير جدا من المهام الأخرى التي تتطلبها الصحافة العمالية، بقدر ما يتم بالفعل وضع الأساس والإطار لإنجاز مهام أكبر بكثير.

لم تفلت الصحيفة الجديدة من انتباه السلطات. كان على برافدا أن تتعامل مع الرقابة والعقوبات وغارات الشرطة. في عام 1912، قامت الشرطة بمصادرة حوالي 17% من جميع الأعداد التي صدرت، وارتفعت النسبة إلى 40% ما بين ماي ويونيو 1913، وبحلول يوليو - شتبر صار الرقم 80% في محاولة من البلاشفة لخداع السلطات عملوا على تغيير اسمها بشكل متكرر، حيث صدرت الصحيفة باسم رابوتشاياف برافدا (الحقيقة العمالية) وبرافدا ترودا (حقيقة العمال) وسيفرنايا برافدا (الحقيقة الشمالية) وهكذا. في كل مرة كانت السلطات تفرض حظرا جديدا، وفي كل مرة كانت تظهر بعنوان جديد. هكذا استمرت لعبة القط والفأر. وبصرف النظر عن المشاكل القانونية، كان هناك كفاح دائم للحفاظ على استمرار الدعم المالي للجريدة. كانت هناك جهود متواصلة لجمع المال، فعلى عكس المناشفة الذين كانوا يحصلون على معظم تمويلهم من المتعاطفين الأثرياء، كان البلاشفة فخورين بحقيقة أنهم يجمعون معظم أموالهم اعتمادا على المبالغ الصغيرة التي يجمعها العمال أنفسهم، إذ على المدى البعيد، هذه هي القاعدة الوحيدة الحقيقية بالفعل لتمويل الحزب الثوري. في عام 1912 كانت هناك 620 مجموعة من العمال تنظم عمليات جمع المساهمات للجريدة، وبحلول عام 1913، وصل العدد إلى 2181 مجموعة. لقد استمرت برافدا بشكل رئيسي بفضل "كوبيكات العمال".

لم يكن يمكن لا للاضطهاد ولا لنقص الأموال أن يوقف تقدم الجريدة العمالية. ارتفع تأثير برافدا بسرعة فائقة. كان عشرات الآلاف من العمال يقرأون الصحيفة، غالبا في مجموعات، ويمررون النسخ من ورشة عمل إلى أخرى. تمكنت برافدا من صقل فئة واسعة من العمال غير الحزبيين ولقَّهم حول الحزب، موسعة بشكل كبير تأثيره ومحيطه. أعطيت لمنظمات الحزب المحلية أهداف لجمع الأموال لدعم برافدا. وبهذه الطريقة، بدأت الصحيفة تحتل مكانا مركزيا في بناء الحزب، باعتبارها منظما جماعيا. بحلول أوائل عام 1913، تمكنت الصحيفة ليس فقط من زيادة حجمها، بل رفعت أيضا من عدد النسخ التي تصدرها. بدأت العام بتداول 23.000 نسخة، وبحلول منتصف شهر مارس ارتفع العدد إلى ما بين 30.000 و32.000، ثم 40.000 و42.000 في أيام الأحد. بحلول فصل الصيف وصل عدد المشتركين الأفراد والجماعيين إلى 5501 مشترك! كان ذلك يعني تلقائيا زيادة في عضوية الحزب، التي ارتفعت إلى ما بين 30.000 و50.000 بحلول شتبر 1913. تم إنشاء مجموعات المؤيدين في جميع أنحاء البلاد، حتى في طشقند البعيدة في آسيا الوسطى. وفي نهاية المطاف بدأت برافدا تخترق حتى القرى.

لكن على الرغم من النجاح الباهر الذي حققته برافدا، فإن العلاقات بين لينين وهيئة تحرير الصحيفة كانت بعيدة عن أن تكون جيدة، حيث لم يوافق قسم من هيئة التحرير على هجمات لينين على التصفويين. عارض كل من ستالين، وس. س دانييلوف، ون. ن ليبيديف، وف. م. مولوتوف، وس. م ناخيمسون، وم. س. أولميسكي، كلهم استخدام الجريدة لخوض الصراع بين الفصائل. يكشف هذا التفصيل الانعدام الكامل للفهم من جانب المتعاونين مع لينين، حتى في تلك المرحلة المتأخرة. وقد حاول لينين أن "يشرح بصبر" حقائق الحياة للمتعاونين معه، كتب قائلا: «إنه لأمر ضار ومدمر وسخيف إخفاء الاختلافات عن العمال (كما تفعل برافدا)... إذا بقيت صامتا، فقد امتنعت عن اتخاذ موقف. والجريدة التي تمتنع عن اتخاذ موقف تهلك»<sup>1</sup>.

كانت علاقة لينين المتوترة مع الزعماء البلاشفة الآخرين مرتبطة بشكل مباشر بمسألة التكتيكات في مجلس الدوما. في أوائل عام 1912 نشر محررو زيزدا مقالا للبلشفي التوفيق، م. إ. فرومكين، الذي طالب بتبني برنامج انتخابي اشتراكي ديمقراطي موحد ودافع علانية عن شعارات المناشفة الانتخابية<sup>2</sup>. كان الصراع حادا لدرجة أن هيئة تحرير برافدا، التي كان ستالين عضوا فيها في ذلك

1: Lenin, *Collected Works, in Russian, vol. 48, p. 71.*

2: McKean, *St. Petersburg Between the Revolutions, p. 132.*

الوقت، رفضت بشكل قاطع نشر ولو مقال واحد للينين أو زينوفيف حول مسائل الاستراتيجية الانتخابية. تسبب ذلك في اندلاع مواجهة حادة. حتى القراءة السطحية لمراسلات لينين مع برافدا في ذلك الوقت تظهر أنه كانت هناك معركة بينه وبين المحررين. تذكر كروبسكايا ذلك قائلة: «في بعض الأحيان -لكن ليس دائماً- كانت مقالات إيليتش تضيع. وفي أحيان أخرى كان يتم إخفاؤها ونشرها بعد بعض التأخير. كان إيليتش يعبر عن قلقه، وكتب رسائل غاضبة إلى برافدا، لكن ذلك لم يساعد كثيراً»<sup>1</sup>.

خلال الحملة الانتخابية لمجلس الدوما الرابع، في عام 1912، كتب لينين إلى هيئة تحرير برافدا قائلاً: «تصرف برافدا الآن، في خضم الحملة الانتخابية، مثل خادمة عجوز نائمة. برافدا لا تعرف كيف تقاتل، إنها لا تهاجم، إنها لا تنتقد لا الكاديت ولا التصفيين». وفي وقت ما من شهر أكتوبر، كتب إلى هيئة التحرير بلغة تظهر استيائه الشديد من فشل برافدا في فضح التصفيين: «إن الموقع أدناه، الذي هو مساهم سياسي دائم في برافدا ونيفسكايا زفيزدا، يعتبر أن من واجبه التعبير عن احتجاجه على سلوك الزملاء المسؤولين عن هاتين الصحيفتين في هذا الوقت الحرج. إن الانتخابات في سان بيترسبورغ، سواء في المنطقة العمالية أو في المنطقة الحضرية الثانية، هي لحظة حرجية، لحظة لتجسيد نتائج خمس سنوات من العمل، إنها، في كثير من النواحي، لحظة لتحديد اتجاه العمل للسنوات الخمس القادمة. في مثل هذه اللحظة، يجب على الجهاز القيادي الديمقراطي للطبقة العاملة اتباع سياسة واضحة وثابتة ومحددة بدقة. لكن برافدا، التي هي في كثير من النواحي تمثل بالفعل الجهاز القيادي، لا تقوم بمثل هذه السياسة».

ويواصل قائلاً: «لقد اعترفت برافدا نفسها بأن هناك خطان رسميان واضحان، ومنصتان، وإرادتان جماعيتان (خط غشت أو التصفيون، وخط يناير). ومع ذلك فإن برافدا تخلق الرأي القائل بأنها تتبنى خطأ ثالثاً "خاصاً بها"، اخترعه بالأمس فقط شخص ما ويتمثل (كما علمنا من سان بيترسبورغ عبر قنوات أخرى، بما أن هيئة التحرير في برافدا رفضت بعناد إعطاءنا الرد) في السماح للتصفيين بأن يكونوا من بين المرشحين الثلاثة، أو تسليمهم المنطقة الحضرية الثانية بأكملها "مقابل المنطقة العمالية". إذا كانت هذه الشائعات غير صحيحة فبرافدا هي من يتحمل المسؤولية الكاملة عنها، لأنه يجب ألا تزرع بين الماركسيين هذا النوع من الشكوك...»

في هذه اللحظة الحاسمة، يتم إغلاق نيفسكايا زفيزدا، دون ولو رسالة أو تفسير، ويتم منع تبادل الرأي بشكل كلي، ويترك المساهمون السياسيون في الظلام، لا يعرفون من الذي يساعدهم في الانتخابات. ألن يكون أحد التصفيين؟ أنا مضطر للاحتجاج بشدة على هذا، ورفض أي مسؤولية عن هذا الوضع الشاذ، الذي يحبل بصراعات حامية»<sup>2</sup>.

في النهاية عيل صبر لينين، فكتب قائلاً: «تلقينا رسالة غبية ووقحة من هيئة التحرير (من برافدا). لن نقوم بالرد عليها. يجب التخلص منهم... إننا نشعر بالانزعاج الشديد من عدم وجود أخبار حول خطة لإعادة تنظيم هيئة التحرير... من الضروري للغاية إعادة تنظيمها، لكن الأفضل هو الطرد الكامل لجميع الأعضاء، هذا ضروري جداً». (التشديد من عندي: آلان وودز)

واحتج على الرقابة الممنهجة التي تتعرض لها مقالاته، قائلاً: «لماذا إذن تمنع برافدا بعناد وبشكل منهجي أي ذكر للتصفيين، سواء في مقالاتي أو في مقالات الزملاء الآخرين؟»<sup>3</sup>.

كما طالب في رسائل أخرى بإعادة المقالات غير المنشورة، التي اختفى الكثير منها دون أن يترك أثراً. في بعض الأحيان، على ما يبدو، لم يكن لينين يتلقى حتى الصحيفة، وهناك أيضاً شكاوى بأنه لم يتقاض أجره: «لماذا لا تدفعون لي المال الذي تدينون لي به؟ إن هذا التأخير يسبب لنا صعوبات كبيرة»<sup>4</sup>. وفي النهاية نفذ صبره، فكتب في رسالة غاضبة إلى سفيردوف قائلاً: «من الضروري وضع هيئة تحرير خاصة بنا في Dyen والتخلص من الهيئة الحالية. العمل المنجز في الوقت الحاضر سيء للغاية، إن الدعاية لمواقف زيب (Zeit) البوندية التصفية وجاغيللو (Jagiello) الذي ليس اشتراكياً ديمقراطياً هو عار مطلق. إن عدم وجود حملة من أجل الوحدة من الأسفل هو أمر غبي ومنحط... هل هؤلاء المحررين بشر؟ إنهم ليسوا بشراً، بل كائنات مشوهة بائسة ومخربون للقضية»<sup>5</sup>.

على الرغم من الإشارة إلى Dyen، فإن هذه الرسالة تتناول في الواقع الوضع داخل هيئة تحرير برافدا في نهاية عام 1912 وبداية

1: Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, p: 261.

2: LCW, *To the Editorial Board of Pravda, First half of October, 1912*, vol. 36, pp: 198, 194 and 195-196.

3: LCW, *To the Editors of Pravda, 1/8/1912*, vol. 35, p: 47.

4: LCW, *To the Editors of Pravda 24/11/1912*, vol. 35, p: 66.

5: LCW, *Letter to Sverdlov, 9/2/1913*, vol. 35, p: 79.

عام 1913<sup>1</sup>. وتبين إلى أي مدى تدهورت العلاقات مع لينين في ذلك الوقت. لم تعمل برافدا على تعديل موقفها إلا بعد أن مارس لينين ضغوطاً شديدة في كونفرانس كراكوف. وفي أواخر فبراير 1913، كتب، في معرض تعليقه باستحسان على التغييرات التي طرأت على هيئة تحرير برافدا، قائلاً: "لا يمكنكم أن تتخلوا إلى أي مدى استنزفنا العمل مع هيئة تحرير شديدة العداءة"<sup>2</sup>. لقد تمكن تدريجياً من تقويم الأمور. وبحلول خريف عام 1913، صار بإمكانه الكتابة إلى البرافدا تهنتتها على حملتها لدعم النواب البلاشفة في مجلس الدوما<sup>3</sup>.

### الانتخابات لمجلس الدوما الرابع

نظمت انتخابات مجلس الدوما الرابع في صيف عام 1912. في البداية، تمتع المناشفة بمزايا كثيرة، فبصرف النظر عن الهبات التي كانوا يحصلون عليها من العديد من المتعاطفين الأثرياء، حصلوا كذلك على إعانة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، وأصدروا صحيفة قانونية يومية، تحت اسم لوش (شعاع الشمس)، والتي كانت تدعو بشكل ديمagogي إلى "الوحدة" وإلى تقديم مرشحين "غير تكتلين"، إلخ. لقد وجدت تلك الدعاية بعض الصدى بين العناصر غير الحزبية. كما أن الكاديت البرجوازيين الليبراليين، من جانبهم، والذين كانوا خائفين، بحق، من تكبد الهزيمة في الانتخابات، لجأوا إلى الخداع من أجل الحصول على المزيد من الأصوات. أعلنت صحيفتهم Rech (الكلام) في 03 فبراير أنه: «لا ينبغي للمرء أن يعطي صوته لأحد الأحزاب، أو للمرشحين الأفراد، بل عليه أن يعطي صوته إما لتعزيز الفئة الدستورية داخل المجتمع الروسي، أو ضد ذلك». كانت تلك دعوة للناخبين للتصويت لصالح "القوى التقدمية" ضد "الردة الرجعية"، أي نفس الأغنية الشهيرة التي ينشدها الانتهازيون في كل زمان، والتي تحاول ابتزاز الجماهير بتهديدهم بالردة الرجعية لأجل التصويت لصالح "أهون الشرين". لقد ناضل لينين ضد هذا الخداع من أجل استقلال الطبقة العاملة والسياسة الثورية. كانت الظروف في روسيا ما تزال صعبة، قامت الشرطة بسلسلة من الاعتقالات قبل الانتخابات. وقد تم توزيع البرنامج الانتخابي للحزب الاشتراكي الديمقراطي بشكل غير قانوني في جميع المصانع. من منفاه في كراكوف، كان لينين يتابع بفارغ الصبر الحملة الانتخابية للحزب، وكان يراقب أدنى علامات الانتهازية من جانب القيادة البلشفية، وظل يعارض بشدة فكرة "الكتلة التقدمية غير الحزبية".

كتب باداييف، الذي كان مرشحاً للبلاشفة في تلك الانتخابات: «كانت مقرات الحملة الانتخابية البلشفية هي مكاتب تحرير برافدا، التي أصبحت مسرحاً للعمل الجاد والمستمر. في تلك المباني كانت تعقد الاجتماعات مع ممثلي المقاطعات والمصانع والعمال. وفي نفس الوقت تم تنظيم اجتماعات انتخابية غير شرعية في العديد من أحياء المدينة. وبسبب أن الشرطة كانت تبقي عينها بشكل متواصل على كل عامل "مشبوه"، فقد اضطررنا إلى اللجوء إلى جميع أنواع الحيل للتجمع معا ولو في مجموعات صغيرة. لتجنب عيون الشرطة كنا عادة نلجأ إلى تنظيم اجتماعات صغيرة لا تزيد عن عشرة إلى عشرين شخصاً. وقد ساعدنا الصيف، فتحت ستار حفلات الزهفة، كانت مجموعات من العمال تتوجه إلى الضواحي، غالباً إلى الغابة خارج بلدة أوتخا. كانت الغابة أفضل مخبأً من جواسيس الشرطة، الذين لم يكونوا يستطيعون المغامرة بالخروج إلى الضواحي، لأنه كان من السهل التملص منهم هناك، وكانوا يخشون التعرض للهجوم في تلك الأماكن البعيدة. خلال الاجتماعات كان النقاش يكون حاداً ضد التصويين. دعا حزبنا العمال إلى المشاركة في الانتخابات على أساس الدفاع عن المطالب الأساسية، وانتخاب البلاشفة وحدهم كمندوبين. أما التصويين فقد كانوا يتحدثون باستمرار عن "الوحدة"، وضرورة تشكيل جبهة موحدة، وضرورة التخلي عن النزاعات الفصائلية، وبطبيعة الحال انتخاب مرشحهم»<sup>4</sup>.

ويشرح باداييف الموقف الذي تبناه البلاشفة تجاه مطلب "وحدة جميع القوى التقدمية" قائلاً: «اعتقد البلاشفة أنه من الضروري تقديم مرشحين في جميع المناطق العمالية، ولم يقبلوا بأي اتفاقات مع الأحزاب والجماعات الأخرى، بما في ذلك المناشفة التصويين. كما اعتبروا أنه من الضروري تقديم مرشحين في ما يسمى "بالمناطق الثانوية لمنتخبي المدينة" (تألفت المناطق الأولى من أحياء لأصحاب الملكيات الكبيرة ولم تكن للمرشحين الديمقراطيين أي فرصة على الإطلاق للفوز فيها) وفي الانتخابات في القرى، بفعل القيمة التحريضية الكبيرة للحملة. لكن ومن أجل الحيلولة دون الانتصار المحتمل للمرشحين الرجعيين، سمح البلاشفة بعقد

1: LCW, vol. 35, p: 577.

2: LCW, To the Editorial Board of Pravda, vol. 35, p: 82.

3: LCW, To the Editorial Board of Za Pravdu, 2-11/11/1913, vol. 35, p: 115.

4: A.Ye. Badayev, *Bolsheviks in the Tsarist Duma*, p: 207.

الاتفاقات مع الديمقراطيين البرجوازيين (الترودفيك، الخ) ضد الليبراليين، ومع الليبراليين ضد الأحزاب الحكومية خلال الجولة الثانية من الاقتراع لانتخاب الناخبين في المدينة. كان للمدن الخمس الكبرى (سان بيترسبورغ وموسكو وريغا وأوديسا وكيف) نظام مباشر للانتخابات بالجولة الثانية للاقتراع. طرح الاشتراكيون الديمقراطيون في تلك المدن قوائم مستقلة، وحيث أنه لم يكن هناك احتمال لانتخاب مرشحي المائة السود، فإنه لم يتم إبرام أي اتفاقيات مع البرجوازية الليبرالية. وقد أكدت قرارات كونفرانس براغ، الذي وضع هذه التكتيكات، على أنه "يجب ألا تتضمن الاتفاقات الانتخابية تبنى أي أرضية، ويجب على الاتفاقيات ألا تقيد المرشحين الاشتراكيين الديمقراطيين بأي التزامات سياسية مهما كانت، أو تمنع الاشتراكيين الديمقراطيين من الانتقاد الصارم للطبقة المعادية للثورة لليبراليين وتخاذل وعدم انسجام الديمقراطيين البرجوازيين". ومن ثم فإن الاتفاقيات التي أبرمها البلاشفة خلال الجولة الثانية من الاقتراع لم تكن من نوع تكتلات الأحزاب السياسية<sup>1</sup>.

يبدو للوهلة الأولى أنه كانت هناك حالة لتوحيد الجهود مع القوى الأخرى من أجل الحصول على تمثيل برلماني أكبر. كان قانون الانتخابات، بالطبع، مختلا بشدة ضد الطبقة العاملة. كان التصويت في ظل النظام الانتخابي القيصري المزور يتم بشكل غير مباشر. كان العمال يصوتون لممثلين يقومون بدورهم بانتخاب 160 "ناخبا" (vyborshechiki)، شكل مرشحو الحزب الاشتراكي الديمقراطي من بينهم 60%. جنباً إلى جنب مع "التوفيقين" ومختلف المتعاطفين كان يمكن لهذا الرقم أن يصير حوالي 83%. كانت غالبية "الناخبين" في المناطق العمالية من البلاشفة. لكن في المناطق الأخرى، ساد مرشحو الطبقة الوسطى والبرجوازية وملاكو الأراضي. يشرح باداييف: «إن القانون الانتخابي، الذي أقرته الحكومة قبل انتخابات مجلس الدوما الأول، تمت صياغته من أجل ضمان الأغلبية لصالح البرجوازية وملاك الأراضي. لم يكن التصويت مباشراً بل بنظام من المراحل. كان على مختلف فئات السكان (ملاكو الأراضي وكبار الملاكين في البلدات والفلاحين والعمال، وما إلى ذلك) أن ينتخبوا أولاً ناخبهم، والذين بدورهم ينتخبون النواب من بينهم. كان النظام أكثر تعقيداً بالنسبة للفلاحين والعمال؛ كان العمال، على سبيل المثال، ينتخبون أولاً المندوبين، الذين ينتخبون بدورهم الناخبين، ووحدهم هؤلاء الأخيرين من يشاركون في الانتخابات العامة التي تنتخب أعضاء الدوما. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك عدد من الشروط المرتبطة بالملكية، إذ في المدن على سبيل المثال كان يحق لأصحاب المنازل وحدهم (مالكي الشقق) التصويت»<sup>2</sup>.

على الرغم من كل الصعوبات تمكن العمال من انتخاب 3500 ممثل عنهم في جميع روسيا. كان الاشتراكيون الديمقراطيون من بين هؤلاء يشكلون 54%، لكن إذا أضفنا المتعاطفين، فإن نصيبهم الإجمالي يصل إلى 80%. كان ذلك انتصاراً استثنائياً للبلاشفة في تلك الظروف الصعبة، حيث كانت الانتخابات أشبه بسباق للقفز على الحواجز. وبموجب قوانين الانتخابات كانت ورشات العمل الصغيرة، التي تضم أقل من 50 عاملاً، والتي كانت عادة أكثر تخلفاً وتحت سيطرة أرباب العمل، تنتخب ممثلاً واحداً. لكن المصانع الكبيرة، التي كانت تتميز بكونها أكثر تجزراً وأشد تأييداً للبلاشفة، فلم يكن لديها الحق سوى في ممثل واحد لكل 1.000 عامل. ومن بين ما مجموعه 82 مندوباً في سان بيترسبورغ، كان هناك 26 بلشفيًا و15 منشفيًا و41 من المتعاطفين مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي. ردت الشرطة على ذلك بشن سلسلة من الاعتقالات ضد ممثلي العمال، وفي بعض المصانع التي انتخب فيها البلاشفة، طالب أصحاب العمل بإعادة الانتخابات.

في 20 أكتوبر، انتخب مجلس بيترسبورغ الإقليمي للناخبين المرشح البلشفي أ. ي. باداييف، الذي يعتبر كتابه "البلاشفة في مجلس الدوما القيصري"، الذي اقتبسنا منه أعلاه، أفضل عمل كتب في هذا الموضوع. كما انتخب ف. ن. سمويلنوف في فلاديمير، ون. ر. شاغوف في كوستروما، وم. ن. مورانوف في خاركوف، وج. أ. بيتروفسكي في ييهاتيرينوسلاف، والمخبر ر. ف. مالينوفسكي، في موسكو. بشكل عام، قدم الاشتراكيون الديمقراطيون مرشحين لهم في 53 مدينة وفازوا في 32. تمكن المناشفة من انتخاب سبعة من مرشحيهم: ثلاثة في القوقاز، معقلهم التقليدي، والآخرين في كل من دون وإيركوتسك وتافريتشسك وأوفيمسك، ثلاثة منهم فقط كانوا عمالاً. كانت هذه النتيجة بمثابة انتصار مذهل للبلاشفة، لا سيما إذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن حزبهم كان قد تم تأسيسه للتو، ولم يكن هناك سوى القليل من الوقت للتضخيم للانتخابات. كان ذلك دفعة كبيرة للمنظمة.

### البلاشفة في مجلس الدوما

أول نجاح كبير للتكتيك اللينيني، المتمثل في الجمع بين العمل العلني والعمل السري، جاء في خريف عام 1912 مع انتخاب

1: Ibid., pp: 24–25.

2: Ibid., p: 22.

المقاطعات العمالية خلال انتخابات مجلس الدوما الرابع. إذ ذاك فقط بدأ البلاشفة لأول مرة في تطوير العمل في الساحة البرلمانية، أما قبل ذلك فقد كان المناشفة هم من يسيطرون على العمل داخل الدوما. في مجلس الدوما الثالث كان الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي يتألف من تسعة عشر نائبا، مقسمين على النحو التالي: أربعة من البلاشفة وخمسة من المعتدلين، مقابل عشرة من المناشفة التصفويين. من الناحية العملية كان المناشفة هم الذين يحددون المسار. لم تكن الخطوط الفاصلة بين الفصيلين واضحة بعد، ولم يكن لينين قد قرر بعد أن الانشقاق أمر حتمي. ونتيجة لذلك، استمر الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي، حتى فترة 1912-1914، بمثابة كتلة واحدة.

كان الوضع في مجلس الدوما الرابع مختلفا تماما. كان الصراع بين الفصائل قد وصل إلى نقطة تحول حاسمة، وهو ما انعكس حتما على الفريق البرلماني. في انتخابات مجلس الدوما الرابع فاز البلاشفة بأغلبية ساحقة في المقاطعة العمالية، فتألف الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي، في مجلس الدوما الرابع، من ستة بلاشفة وسبعة من المناشفة، إضافة إلى نائب بولوني، جاغيلو، كان يدعم المناشفة، وهو ما مجموعه 14 نائبا. وقد فاز البلاشفة بالأغلبية في جميع المقاطعات العمالية الست في أكبر المناطق الصناعية، بينما انتخب النواب المناشفة في مراكز غير عمالية، وبشكل رئيسي في المقاطعات الحدودية، حيث كانت أغلبية السكان من البرجوازية الصغيرة.

إن توزيع العمال في المناطق المعنية يدل على من حصل على أصوات الطبقة العاملة. يقدم باداييف أرقاما عن الأقاليم الستة التي انتخبت البلاشفة، حيث كانت تضم 1.008.000 عامل (في المصانع والمناجم)، بينما الأقاليم الثمانية التي انتخبت المناشفة، كانت تضم 214.000 عاملا. وإذا ما أضفنا مقاطعة باكو (التي كان العمال فيها محرومين من حق التصويت)، فإن الرقم سيصير 246.000 عاملا. كان النواب البلاشفة يمثلون 88,2% من الناخبين العمال، مقابل 11,8% فقط للمناشفة. كان اختلال التوازن في القوى داخل الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي نتيجة فقط لنظام انتخابي فاسد مصمم خصيصا للحد من تمثيلية الطبقة العاملة.

كان النواب البلاشفة الستة جميعهم عمال؛ كان هناك أربعة عمال من قطاع المناجم (بتروفسكي ومورانوف ومالينوفسكي وباداييف) واثان من عمال النسيج (شاغوف وسامويلوف)، وتم انتخابهم في أكبر المناطق الصناعية في روسيا؛ فقد انتخب ج. إ. بتروفسكي نائبا عن بيكاتيرينوسلاف غوبرنيا، في حين انتخب م. ك. مرانوف عن خاركوف غوبرنيا، ون. ر. شاغوف عن كوستروما غوبرنيا، وف. ن. سامويلوف عن فلاديمير غوبرنيا، ور. ف. مالينوفسكي عن موسكو غوبرنيا، وي. باداييف عن سان بيترسبورغ. أما المناشفة السبعة فقد كانوا على النقيض من ذلك كلهم تقريبا من المثقفين والمهنيين. كان العامل الوحيد بينهم، بوريانوف، من أنصار بليخانوف. كان القادة الرئيسيون كلهم من الفئة العليا للطبقة الوسطى: سكوبيلف (الذي تعاون في وقت سابق مع تروتسكي في صحيفة فيينا برافدا) كان ابن مالك لشركة نفط في باكو؛ وكان تشخيدزه صحفيا؛ وتشخينكيي محاميا؛ ومانكوف محاسبا. كان للمناشفة أغلبية نائب واحد فقط، لكنهم أصروا على أنهم حصلوا على دعم غالبية الطبقة العاملة، وهو الادعاء الذي كان خاطئا تماما، إلا أن خبرتهم الواسعة ومعرفتهم بـ"الحيل" البرلمانية سمحت لهم في البداية بالسيطرة على البلاشفة، الذين شعروا بعدم الراحة في تلك البيئة الغربية والمعادية، وبالإضافة إلى ذلك فإن المجموعة البلشفية في الدوما كانت، كما كان حال العديد من الأعضاء البارزين في فصيل لينين، متأثرة بشدة بالنزعة التوفيقية، وقاومت القطيعة مع المناشفة، مما سبب الكثير من الانزعاج للينين.

يمكن ملاحظة القوانين التي تحكم النشاط البرلماني في الكتل البرلمانية للأحزاب العمالية الإصلاحية في جميع الأوقات. ليس هناك من مكان تكون فيه ضغوط الطبقة الحاكمة وأيديولوجيتها ومؤسساتها أكثر حدة مما هي عليه في البرلمان. لقد حسنت البرجوازية على مدى فترة طويلة الآليات اللازمة لرشوة الممثلين البرلمانيين للبروليتاريا والضغط عليهم وإفسادهم. فإذا لم يكونوا مشبعين تماما بالوعي الطبقي والفهم النظري الضروري لتمكينهم من كشف حيل ومناورات العدو، فإنهم سيميلون حتما إلى الخضوع للضغط والغرق داخل المستنقع البرلماني في اللجان والإجراءات والمباحكات، وما هو أسوأ من ذلك. لا يتعلق الأمر بالضرورة بالفساد الشخصي المباشر أو الوصلية أو الرشاوى، إلخ، على الرغم من أن هذه كلها أسلحة تُستخدم بنشاط لشراء قادة العمال. الإصلاحيون اليمينيون، الذين ينتمي العديد منهم إلى الطبقة الوسطى، محامون وأطباء واقتصاديون، يقفون من حيث نمط حياتهم ونفسياتهم أقرب إلى البرجوازية أكثر مما هم إلى العمال الذين يزعمون تمثيلهم. بل حتى أكثر الإصلاحيين اليساريين نزاهة، وحتى العمال المخلصين من المصنع، الذين صقلتهم سنوات النضال، يمكنهم أن ينهاروا بسرعة في الأجواء الخائفة لهذا العالم المصطنع، بعيدا عن واقع الصراع الطبقي.

الأحزاب الإصلاحية، التي ترهن على أية حال كل شيء بمسألة انتخاب أعضاء البرلمان، تعتبر استقلالية الفريق البرلماني عن الحزب

وحق كل نائب في "اتباع ضميره"، مبدءاً طبيعياً. ليس هذا سوى طريقة أخرى للدفاع عن استقلال القادة الإصلاحيين عن الطبقة العاملة، وخضوعهم المطلق والكامل للبرجوازية. لكن بالنسبة للحزب الثوري، الذي يعتبر النضال البرلماني مجرد واجهة واحدة فقط للنضال العام الذي تخوضه الطبقة العاملة لتغيير المجتمع، لا وجود لاستقلالية الفريق البرلماني عن الحزب. يمكن للحزب، باعتباره التعبير المنظم عن أكثر عناصر البروليتاريا وعياً، أن يمارس الرقابة على ممثليه المنتخبين على جميع المستويات، وقبل كل شيء على أعضائه في البرلمان.

من الواضح أن البرلمان ليس منصة مثالية للمناضلين العماليين الثوريين. لقد خنقت أجواء البرلمان النواب البلاشفة، الذين كانوا في البداية يتبعون التيار بسلاسة. وهكذا فإنهم في الجلسة الأولى فشلوا في التصويت ضد مرشح الكاديت والأكتوبريين لرئاسة البرلمان. ورفض الفريق قراءة البيان الذي أعدته اللجنة المركزية البلشفية على أساس أن لديه بيانه الخاص، والذي لم يكن يتضمن أي نداء ثوري للجماهير خارج البرلمان. كانت هناك حالات أخرى، كما حدث، على سبيل المثال، عند التصويت على صرف اعتمادات التعليم العام أثناء النقاش حول الميزانية، حيث فشلوا في فضح التحيز الطبقي لسياسة التعليم الحكومية. وقد عبر لينين على الفور عن انزعاجه من الطريقة التي تصرف بها النواب البلاشفة الستة، إذ قال: «إذا كان كل نوابنا الستة منتخبين من المقاطعات العمالية، فلا يجب عليهم الخضوع بصمت للسبيرييين [أي المثقفين المنفيين السابقين]. يجب أن يخرج الستة باحتجاج واضح في حالة ما تعرضوا للهيمنة».

حاول المناشفة أن يخلقوا ثقلاً موازناً للجنة المركزية من خلال تشكيل "لجنة سياسية" مكونة من الوجوه البارزة للفريق البرلماني وإعطائها الحق في النظر في جميع القضايا وإصدار "توصيات"، أي بعبارة أخرى إعطاء كبار الشخصيات البرلمانية الحق في أن يقرروا في جميع القضايا المتعلقة بنشاط الفريق البرلماني دون الرجوع إلى الحزب. أثار سلوك الفريق البرلماني الكثير من النقد والسخط بين صفوف القواعد الذين شعروا بأنهم لم يعودوا يمارسون الرقابة على الفريق. قال روبرت ماكين: «اتخذ الموقف التوفيقى للبرلمانيين البلاشفة الستة شكلاً ملموساً من عدة جوانب. لقد انضموا إلى المناشفة في إدانة محاولة بعض المناضلين تنظيم إضراب يوم افتتاح مجلس الدوما؛ واتفق أربعة منهم (باستثناء مالينوفسكي ومورانوف) مع زملائهم المناشفة، في 15 دجنبر 1912، على دمج جريدي الفصيلين وإدراج أسماء النواب بشكل متبادل كمتعاونين مع لجان التحرير؛ وأثناء صياغة بيان الفريق، الذي قرأه مالينوفسكي، في 07 دجنبر 1912، توصل النواب إلى تسوية بشأن المسودات التي أرسلها كل من لينين ودان من الخارج. وخلافاً لادعاء المؤرخين السوفييت بأن البلاشفة أجبروا المناشفة على إدراج شعاراتهم في البيان، فإن قراءة متأنية للنص تكشف أن الوثيقة أقصتهم، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن المناشفة خافوا من أن يؤدي تبنيها إلى صدور تهم جنائية ضدهم. وبدلاً من ذلك أشار البيان إلى "تمثيلية شعبية سيادية" وحق الاقتراع العام، لكنه استجاب لمطالب البلاشفة باستبعاد دعوة المناشفة من أجل حرية التحالف والاستقلال الذاتي الثقافي القومي»<sup>1</sup>.

سعى النواب المناشفة، بالاعتماد على الشعارات البرلمانية البرجوازية، إلى تحرير أنفسهم من رقابة الحزب والحصول على وضع "مستقل"، لكنهم بذلك كشفوا فقط عن خضوعهم السافر للقواعد البرلمانية البرجوازية وقواعد الكاديت والأكتوبريين. وفي اجتماع للفريق عقد في 22 نوفمبر 1907، تبنى المناشفة القرار التالي: «إن الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي مجموعة مستقلة، ومع ضرورة أخذها لرأي الحزب بعين الاعتبار، يجب عليها أن تقوم في كل حالة محددة من عمل دوما بحل القضايا بشكل مستقل»<sup>2</sup>.

استقبلت هيئة تحرير الجريدة البلشفية "بروليتاري" دفقا مستمرا من رسائل الاحتجاج من طرف العمال الاشتراكيين الديمقراطيين. وأصبحت ضرورة وضع النواب تحت الرقابة الحازمة للحزب مسألة ملحة. دعا لينين إلى أنه يجب أن يوضع أعضاء الفريق البرلماني تحت الرقابة مثلهم مثل أي عضو في أي من الهيئات القيادية الأخرى (اللجنة التنفيذية واللجنة المركزية، الخ). يجب أن يتم العمل البرلماني بطريقة يصير فيها من حق أي عامل عضو في الحزب أن يشارك في العمل البرلماني العام للحزب.

بالتوازي مع نضاله ضد النزعة التوفيقية لهيئة برافدا، شن لينين نضالاً شرساً ضد النزعة التوفيقية التي لا تقل ضرراً للمجموعة البلشفية داخل الدوما. وفي بداية يناير 1912، كتب: «من الضروري أن تعملوا بدون قيد أو شرط على نشر رسالة عمال باكو التي بعثناها إليكم» (طالبت الرسالة بضرورة قيام المجموعة البلشفية في الدوما بالقطيعة مع التصفيين). كان التصفيون يشنون، من خلال جريدتهم لوش، حملة ديمagogية من أجل "الوحدة". وقد ظهرت أسماء لأربعة نواب بلاشفة في قائمة المتعاونين مع لوش. كان لينين غاضباً. وكتب: "متى سيستقبل (النواب) الأربعة من لوش؟" "هل علينا الانتظار لفترة أطول...؟ حتى من باكو البعيدة هناك 20 عاملاً يحتجون."<sup>3</sup>

1: R. McKean, St. Petersburg Between the Revolutions, pp: 140-141.

2: Istoriya KPSS, vol. 2, p: 312.

3: Trotsky, Stalin, p: 148.



وفي شتبر كتب: «إن جوهر المشكلة اليوم هو أن التصفيوين يعملون، تحت غطاء الصراخ حول الوحدة، على تجاهل إرادة أغلبية العمال الواعين في سان بيترسبورغ، ويحاولون أن يفرضوا على غالبية العمال مرشحين منشقين من أقلية من المثقفين، أي بالتحديد المثقفين التصفيوين. يرافق جميع الانتخابات في بلد برجوازي تفش كثيف للوعود الزائفة والأكاذيب. إن المبدأ الأساسي للحزب الاشتراكي الديمقراطي هو عدم الثقة بالكلمات بل الانتقال إلى صميم الموضوع. إن عبارات التصفيوين حول الوحدة في صحيفتهم لوش هي مجموعة من الأكاذيب. في الواقع، لقد تم تحقيق الوحدة بالفعل في سان بيترسبورغ من طرف غالبية العمال الواعين ضد التصفيوين. لقد تم تحقيقها من خلال مظاهرة يوم فاتح ماي، ومن خلال الدعم المقدم إلى برافدا من طرف 550 مجموعة من العمال مقابل 16 مجموعة للتصفيوين»<sup>1</sup>. وبفضل انتقادات لينين اللاذعة، بدأ النواب البلاشفة في لعب دور أكثر نشاطا في شؤون الدوما والنأي بأنفسهم عن «السيبيريين» المناشفة.

بسبب الافتقار العام للحرية من أجل القيام بالتحريض والدعاية بين العمال والفلاحين، اكتسب العمل داخل الدوما أهمية بالغة. كانت هناك بالطبع قيود شديدة. كانت لدى النواب من الناحية النظرية «حصانة برلمانية»، لكن في الواقع كان يمكن اعتقالهم في أي لحظة. بل وحتى داخل مجلس الدوما، واجه الاشتراكيون الديمقراطيون جميع أنواع العقبات.

ومع ذلك فقد تمكنوا من نقاش جميع القضايا الهامة التي تتطلب استجابة ملموسة من ممثلي العمال البرلمانيين، مثل: ميزانية الدولة وحقوق الجنود والإعانات الموجهة للكنيسة وأوضاع العمال، وفوق كل شيء مسألة الأرض. وهو ما وفر مجالا واسعا لتطوير التحريض والدعاية الجماهيريين. ما لم يكن من الممكن قوله داخل مجلس الدوما كان يقال خارجه في منشورات الحزب غير القانونية. لقد تم الجمع بين العمل الشرعي والعمل غير الشرعي. وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على المبادئ الثورية للحزب، مع الحفاظ على روابط وثيقة مع الجماهير. كانت الخطابات التحريضية الجيدة التي يقوم بها النواب الاشتراكيون الديمقراطيون تطبع وتوزع على العمال. من بين الأمثلة على ذلك خطاب سيركوف ضد الإعانات الموجهة للكنيسة، والذي أشاد به لينين، وانتهى بالكلمات التالية: «رجال الدين هم أعداء الشعب مثلهم مثل رجال البوليس... لا لتخصيص ولو فلس واحد من أموال الشعب لأعداء الشعب الدمويين هؤلاء، لهؤلاء المشوهين للوعي الشعبي».

كان لينين مسرورا بهذا الخطاب بشكل خاص لأنه فجر تماما أسطورة بناء الله بأن «الدين شأن شخصي». وخلال نقاش ميزانية 1909، فضح الفريق الاشتراكي الديمقراطي وجود احتيال بتخصيص مبلغ باهظ من أموال العمال لتسديد ديون القيصر. في كل تلك المسائل عمل الثوريون داخل الدوما على فضح كبار الملاكين العقاريين والرأسماليين والأوتوقراطيين، وانطلقوا من المشاكل الملموسة التي كانت تؤثر بشكل مباشر على حياة الجماهير، وعملوا في نفس الوقت على فضح محدودية مجلس الدوما نفسه. قال بولوفسكي في معرض تلخيصه لجدل حول أجور العمال: «إن البروليتاريا لا تتوقع بالطبع حلا للمسألة العمالية من مجلس الدوما الثالث»<sup>2</sup>.

أتاح العمل في مجلس الدوما للحزب أن يتوجه إلى الفلاحين بطريقة لا يسمح بها نشاط الدعاية والتحريض العادي. ومن خلال مشاركتهم في النقاشات البرلمانية حول مسألة الأرض، واقتراحهم لاتفاقات مع ممثلي البرجوازية الصغيرة الثورية، التزودوفيك، ومطالبتهم بالحل الأكثر جذرية لمسألة الأرض، وجه الاشتراكيون الديمقراطيون ضربة قوية للاستبداد.

وإجمالا، طرح أعضاء الفريق الاشتراكي الديمقراطي حوالي 50 سؤالاً حول جميع القضايا. كما طرحوا مشاريع قوانينهم الخاصة، معبرين بشكل ملموس ومختصر عن مختلف المطالب المأخوذة من برنامج الحزب. شكل كل هذا إضافة قيمة لعمل الحزب. لكن نشاط النواب خارج مجلس الدوما كان أكثر أهمية من خطاباتهم داخله. وهناك حدث صراع مفتوح مع التصفيوين، الذين استخدموا أغلبيتهم لمعارضة مثل ذلك النشاط. وفي دجنبر 1907، أصدرت توصية تنص على أن النواب الاشتراكيين الديمقراطيون ليسوا «مضطرين» للمشاركة في أي نشاط خارج البرلمان، وأن يترك لكل فرد حق قبول القيام به أو عدم القبول. كان النواب البلاشفة يزورون المصانع بانتظام في دوائرهم الانتخابية، ويتعرفون بأنفسهم مباشرة على مشاكل العمال، ويكتبون في الصحافة الحزبية، بل ويحضرون الاجتماعات العمالية غير الشرعية. وكانوا يعطون تقارير عن أنشطتهم في اجتماعات الناخبين. وهكذا كان النشاط داخل الدوما عملية ذات اتجاهين، كان حوارا نشطا مع الجماهير، يتم الجمع فيه بين الأساليب القانونية وغير القانونية للحفاظ على علاقة ثابتة بين أعضاء البرلمان وبين الطبقة العاملة.

1: LCW, Workers' Unity and the Elections, vol. 36, pp: 191-192.

2: Istoriya KPSS, vol. 2, p: 314

كما حافظ النواب الاشتراكيون على مراسلات مكثفة مع 54 منطقة في روسيا، حيث كانوا يردون بشكل رئيسي على رسائل يعثها العمال والفلاحون، لكن أيضا السجناء السياسيون والمنفيون والمتفقون. وبهذه الطريقة كان يمكن لصوت المضطهدين والمستغلين أن يجد في النهاية صدى له في "قدس أقداس" البرلمان. وقد أولى النواب البلشفية اهتماما خاصا لظروف عيش وعمل الجماهير التي كانت قد شهدت تدهورا رهيبا في فترة الردة الرجعية. يسوق باداييف أحد الأمثلة على ذلك: «كانت أحواض بناء السفن في بحر البلطيق تحت سيطرة وزير القوات البحرية. كانت ظروف العمل هناك غير محتملة كما هو الحال في المصانع الأخرى التابعة للجيش. كان العمال العاديون يحصلون على ما بين 12 إلى 18 كوبيك في الساعة، وكان العمل الإضافي معتادا وكان يعني أن ساعات العمل قد تضاعفت. كانت أورايش العمل غير صحية للغاية، كانت رطبة وتعريف تيارات هوائية قوية وكثافة الأدخنة، وكانت الشتاء شديدة البرودة. كان على الرجال أن يعملوا في مواقع سيئة وضيقة. كانت سبع أو ثمان سنوات من العمل هناك كافية لتحول الرجل إلى حطام بشكل كامل»<sup>1</sup>.

كان النواب يتصلون بعدد كبير من الرسائل من العمال. غالبا ما كانت تلك الرسائل تعبر عن يأس الجماهير، مثل تلك التي جاءت من عند مجموعة من العمال في جبال الأورال، والتي نُشرت في جريدة نوفي دين، في 07 ستمبر 1909، والتي كانت فكرتها الأساسية هي: «لا يمكننا الاستمرار في العيش هكذا». وقد كشفت هذه الرسائل عن وجود تيار عميق من الاستياء الذي كان يتراكم في أعماق المجتمع والذي وجد تعبيرا عنه في الفريق البرلماني. كان الاشتراكيون الديمقراطيون الثوريون في ذلك البرلمان الرجعي يطمحون إلى أن يصبحوا "منبرا للشعب"، وبالفعل نجحوا في ذلك إلى حد كبير رغم كل المشاكل والإخفاقات.

### التكتيكات في مجلس الدوما

كانت تكتيكات البلشفية في مجلس الدوما تقوم أساسا على استخدامه منبرا لممارسة الفضح والتنديد بجرائم الملاكين العقاريين والرأسماليين ونظامهم. لكنه كان من الضروري عليهم أيضا إتقان تعقيدات الإجراءات البرلمانية حتى يتمكنوا من التدخل بأكثر الطرق فعالية. بشكل عام، لم يكن البلشفية يدعمون أي اقتراح يطرحه الليبراليون، معتبرين أن واجبه الرئيسي هو فضح "أصدقاء الشعب" المزيفين هؤلاء، لكنهم كانوا يواجهون في بعض الأحيان قرارات تكتيكية معقدة حول ما إذا كان جائزا أم لا التصويت لصالح مشروع قانون يتضمن تدابير قد تفيد العمال. عادة ما كانوا، في مثل تلك الحالات، يصوتون فقط لصالح أجزاء المشروع التي تعني تحسينات حقيقية لصالح العمال. أما في الحالات الأخرى فقد كانوا يصوتون بالرفض. وفي الحالات التي تكون فيها تلك التدابير التقدمية المزعومة ذات قيمة مشكوك فيها، كانوا يمتنعون عن التصويت، وهذا مثال آخر على التكتيكات المرنة. إن عدم أخذ مثل تلك الأمور في الاعتبار، والتصويت دائما ومن حيث المبدأ ضد كل اقتراح ليبرالي، كان سيحول الحزب إلى مجرد عصابة.

يمكن إثبات التأثير الكبير الذي كان للبلشفية يمتلكونه في أوساط الجماهير من خلال مقارنة عدد النواب الذين تم انتخابهم في المقاطعات الانتخابية العمالية مع عدد الذين انتخبوا خلال مجالس الدوما السابقة. في مجلس الدوما الثاني، انتخبت مقاطعات العمال 12 من المناشفة و11 من البلشفة. أما في مجلس الدوما الثالث فقد كان هناك عدد متساو لكل من الفصيلين؛ بينما في مجلس الدوما الرابع تم انتخاب ستة نواب فقط، كانوا جميعهم من البلشفة. «في وقت انتخابات مجلس الدوما الثاني، الذي تزامن مع مؤتمر لندن لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، كان البلشفة هم من يشكلون الأغلبية داخل الحزب بالتأكيد؛ وفي مجلس الدوما الرابع، لم يكن هناك شك في أن البلشفة حظوا على الأقل بدعم ثلاثة أرباع العمال الثوريين»<sup>2</sup>.

كانت هناك مئات العقبات الإجرائية المصممة لمنع الاشتراكيين الديمقراطيين من الاستفادة من الدوما لأغراض ثورية. كانت الصعوبة الرئيسية هي أنه لكي يتمكنوا من طلب مساءلة الحكومة عليهم الحصول على توقيع ما لا يقل عن 33 عضوا في الدوما، في حين كانت توقيعات الفريق البرلماني الاشتراكي الديمقراطي 14 فقط، وحتى لو أضفنا إليها توقيعات الترووفيك العشرة، فإن ذلك لم يكن يمكنهم من العدد المطلوب. نجد هنا حالة ملموسة لاتفاق عرضي مقبول وضروري مع الأحزاب الأخرى. فمن أجل تقديم طلب المساءلة كان على الاشتراكيين الديمقراطيين "اقتراض" توقيعات من الكاديت أو التقدميين.

قال باداييف: «كانت هناك محطات تربط مختلف الأحزاب البرلمانية، بحيث أن بعض الأفراد من الكاديت والتقدميين كانوا يضيفون في بعض الأحيان توقيعاتهم إلى مطالبتنا بمساءلة الحكومة. لكن هذا كان يحدث نادرا، وفي كثير من الأحيان رفضوا بشكل

1: Badayev, Bolsheviks in the Tsarist Duma, p: 101.

2: Ibid., pp: 43-44.

قاطع مساعدتنا»<sup>1</sup>.

وللتغلب على هذه القيود الشاقة اضطروا إلى اللجوء إلى المناورات والحيل من أجل الالتفاف على قواعد الإجراءات البرلمانية. كانوا يلقون خطابا طويلا ينددون فيه بمختلف مظاهر الظلم ثم ينتهون بعبارة "هل الوزير على علم بذلك وما هي الخطوات التي يقترح أن يتخذها؟"، هذه الجملة الختامية التي كانت تصاحب كل مساء لم يكن لها معنى كبير، لأن نواب العمال كانوا يدركون تمام الإدراك أن كل حالة من حالات الاضطهاد وعنف الشرطة كانت معروفة جيدا للوزراء القيصرين وكانت تتم بمباركتهم وموجب أوامرهم، وكانوا يعرفون مسبقا أن الوزراء لن يفعلوا شيئا لمنع مثل تلك المخالفات. كما لم يكونوا يعلقون أي أهمية على الردود التي يقدمها الوزراء. كان المغزى والهدف الوحيد لهذه المساءلات هو فضح النظام الاستبدادي وبرمائه المزيف أمام الطبقة العاملة بأكملها ودعوة الجماهير إلى استخلاص النتائج الضرورية. وبهذه الطريقة تمكنت المجموعة البرلمانية من أن تلعب دور منبر ثوري حقيقي للشعب، وتكسر جزئيا حواجز الرقابة وتحمل رسالة الحزب إلى الملايين الذين لم يكن من الممكن إيصال الأفكار الاشتراكية لهم بطرق أخرى.

لكن حتى وإن نجح النواب الاشتراكيون الديمقراطيون في طرح مساءلاتهم فإن السلطات كانت تلجأ إلى أساليب أخرى لتقييد أنشطتهم في الغرفة. قال بادايف: «كان الرئيس يتابع بعناية خطاباتنا، في محاولة منه لتوقع ومنع كل خروج عن الموضوع الرسمي للمساءلة؛ بينما كنا نتجاهل دعواته إلى النظام ونواصل قول ما نعتبره ضروريا. انتهت معظم هذه المواجهات بفقدان رودزيانكو أو نائبه لصبرهما وإيقاف نواب العمال عن الكلام في منتصف خطبهم»<sup>2</sup>. وأخيرا حتى وإن تمكنوا من طرح المساءلة حتى النهاية، فإن السلطات كانت تعمل كل ما هو ضروري لكي لا تسفر عن أي شيء: «على الرغم من أن إحدى طلبات المساءلة تم قبولها من طرف مجلس الدوما فإن مصيرها لم يكن أفضل من مصير المساءلات الأخرى التي قدمتها كتلتنا. فعند تلقي مساءلاتنا تبدأ الوزارات المعنية في تشغيل كامل الجهاز البيروقراطي، وتعمل على "إجراء التحقيقات" و"انتظار التقارير"، وما إلى ذلك. وعندما يضيع طلب المساءلة تحت غبار المكاتب، ويفقد موضوعه راهنيته، عندها فقط يأتي الوقت لكي يقوم الوزير بواجبه الرسمي ويقدم "تفسيراته"<sup>3</sup>. هذه هي الأساليب البرلمانية البرجوازية الموقرة التي لم تتغير كثيرا إلى يومنا هذا، حتى في أكثر البرلمانات "ديمقراطية".

لكن على الرغم من كل الصعوبات، نجح البلاشفة في إتقان العمل في ساحة النضال غير المألوفة تلك، واستخدموها بفعالية للدفاع عن قضية العمال. كان مفتاح الاستخدام الثوري للبرلمان في كل لحظة هو ربط عمل الكتلة البرلمانية بالنضال خارج البرلمان. لقد حافظ النواب البلاشفة في مجلس الدوما على علاقات وثيقة مع العمال خارج الدوما، حيث كانوا يسافرون إلى المناطق العمالية في جميع أنحاء روسيا، ويتحدثون في اجتماعات المصانع ويقومون بتحرير المنشورات والنداءات، ويولون اهتماما كبيرا لمظالم العمال. وفي هذا السياق يتذكر بادايف كيف حافظ على مراسلات كثيفة مع العمال: «كنت أتلقى كل يوم مراسلات كثيرة ليس فقط من سان بيترسبورغ، بل أيضا من مدن أخرى، وكان العديد من العمال يطلبون اللقاء بي. ولكي تستمر هذه المشاورات مع الجماهير، نشرت في برافدا جدولا بساعات "الاستقبال" الخاصة بي في المنزل. كان بعض هؤلاء الزوار العديدين يأتون نيابة عن مختلف المنظمات، في حين جاء آخرون من أجل مسائل شخصية.

كانت المحادثات والرسائل تتطرق إلى كل جوانب حياة العمال. لقد تم إطلاعي على الأعمال المنجزة والمضايقات التي كانت تتعرض لها النقابات العمالية، والإضرابات والإغلاقات والبطالة وحالات القمع البوليسي الجديدة. كان يُطلب مني التوسط نيابة عن المعتقلين، كما كنت أتلقى العديد من الرسائل من المنفيين، الذين كانوا يطلبون مني تنظيم المساعدات المالية والمادية الأخرى لهم. أما من بين أولئك الذين جاءوا في مسائل شخصية، فقد طلب مني بعضهم حتى إذا كان بإمكانهم مساعدتهم في العثور على عمل. وفي كثير من الأحيان جاء زوار من أجل التحدث عن مجلس الدوما وعمله والتعبير عن رغباتهم وتقديم المشورة. كان من الضروري الرد على جميع الرسائل على الفور والتعامل مع الطلبات. وكان علي، في عدد من الحالات، أن أبدأ في تقديم ملتمسات وإجراء مفاوضات مع مختلف المؤسسات الحكومية. كان كل هذا يستغرق وقتا طويلا، وكان يشغل يومي بالكامل حتى قبل افتتاح أشغال مجلس الدوما»<sup>4</sup>.

كان من الواضح منذ البداية أن هذا الدوما ينعقد في جو مختلف تماما عن الأجواء السابقة، ففي اليوم الذي افتتح فيه أشغاله

1: Ibid., p: 61.

2: Ibid., p: 61.

3: Ibid., pp: 90-91.

4: Ibid., pp: 41-42.

كانت موجة ضخمة من الإضرابات تجتاح روسيا. ويتذكر بادايف المشهد في بيتسبورغ قائلا: «حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، ظهر حشد من هؤلاء العمال والطلاب في شارع كيروشنايا، وهم ينشدون أغاني ثورية ويحملون راية حمراء بحجم منديل يد تقريبا، مكتوب عليها شعار: "فليسقط الحكم الفردي"، خرجوا من شارع ليتيني وذهبوا نحو شارع نيفسكي. وفي ملتقى شوارع ليتيني وباسينايا وسيميونوفسكايا قام رجال الشرطة بتفريق المتظاهرين، والتقطوا الراية من الرصيف حيث تجمع الحشد واعتقلوا حاملها»<sup>1</sup>.

## النهوض الثوري

جاءت انتخابات مجلس الدوما الرابع في خضم نهوض ثوري هائل، وكان هذا هو السبب الحقيقي وراء النجاح الذي حققه البلاشفة. شهد عام 1912 أكثر من 3.000 إضراب، بمشاركة 1.463.000 عامل، كان بينهم منخرطون في إضرابات سياسية. وفي عام 1913 أضرب حوالي مليوني (02 مليون) عامل، كان منهم منخرطين في إضرابات سياسية لعب فيها البلاشفة دورا قياديا في كثير من الأحيان. كما اندلعت تمردات جديدة بين البحارة والجنود. قامت تكتيكات البلاشفة آنذاك على أساس توقع نهوض ثوري جديد. وفي المقتطف التالي نحصل على لمحة عن تكتيكات الاشتراكيين الديمقراطيين، الذين كانوا يشاركون في كل الإضرابات والنضالات ضد إغلاق المصانع: «تقرر أن يبقى جميع العمال الذين تعرضوا للطرده، بسبب إغلاق المصانع، على اتصال فيما بينهم، وأنه يجب طلب المساعدة من جميع عمال سان بيتسبورغ، وخوض نضال حازم ضد الإفراط في شرب الكحول أثناء الاعتصام، وأنه ينبغي دعوة الجمعيات التعليمية العمالية لتنظيم دروس مجانية للعمال، إلخ. لم يكن على أي رجل أو امرأة الاقتراب من بوابات المصنع، وتقديم طلب باسمه أو نيابة عن العمال. وعندما أعيد فتح المصنع، لم يكن لأي عامل أن يعود إلى العمل إلا إذا تمت إعادة الجميع»<sup>2</sup>.

من المستحيل فهم موقف لينين من التنظيم بمعزل عن المسائل السياسية. كان الاتجاه الحتمي نحو الانشقاق نابعا من طبيعة الوضع برمته. كان وقت الدبلوماسية والمحاولات غير المجدية لتوحيد الاتجاهات التي ثبت أنها متناقضة كليا قد مضى منذ وقت طويل، ومن هنا كانت معارضة لينين العنيدة لكل حديث عن الوحدة مع المناشفة آنذاك. كان من الضروري أن يكون الحزب الثوري مستعدا بشكل كامل قبل الوصول إلى النقطة الحرجة. لم يكن هناك مجال لإضاعة الوقت. وفي سياق الحملة الانتخابية إلى مجلس الدوما، أتيحت الفرصة للبلاشفة، خلال الاجتماعات العمالية الجماهيرية، لكي يوضحوا خطهم السياسي ويختبروا حجم الاستجابة، التي كانت كبيرة للغاية. كانت التعليمات الموجهة إلى المجموعة الاشتراكية الديمقراطية في الدوما، والتي وقعها آلاف العمال، تقوم على أسس بلشفية واضحة:

«إن مطالب الشعب الروسي، التي تقدمت بها حركة 1905، ما زالت لم تتحقق. إن تصاعد الردة الرجعية ومحاولة "تجديد النظام" لم يتسببا فقط في عدم الاستجابة لتلك المطالب، بل على العكس، جعلها أكثر إلحاحا. لا يقتصر الأمر على أن العمال محرومون من الحق في الإضراب (ليس هناك ما يضمن أنهم لن يطردوا بسبب ذلك)؛ كما لا يقتصر على أنه ليس لديهم الحق في تنظيم النقابات والاجتماعات (ليس هناك ما يضمن عدم اعتقالهم بسبب قيامهم بذلك)؛ بل ليس لديهم حتى الحق في انتخاب ممثليهم لمجلس الدوما، لأنهم سيتعرضون "لفقدان الأهلية" أو النفي إذا قاموا بذلك، مثلما حدث لعمال مصنع بوتيلوف وعمال أحواض بناء السفن في نيفسكي قبل بضعة أيام.

هذا إضافة إلى عشرات الملايين من الفلاحين الذين يتضورون جوعا، والذين تركوا تحت رحمة كبار الملاكين العقاريين ورؤساء الشرطة الريفية. كل هذا يؤكد ضرورة تحقيق مطالب عام 1905. إن الحالة الاقتصادية في روسيا، حيث بدأت تظهر بالفعل علامات اقتراب الأزمة الصناعية والتفكير المتزايد لشرائح واسعة من الفلاحين، تجعل من تحقيق الأهداف العامة لحركة 1905 مسألة ملحة أكثر من أي وقت مضى.

لذلك نعتقد أن روسيا على مشارف اندلاع حركات جماهيرية، ربما تكون أكثر عمقا من تلك التي اندلعت عام 1905. هذا ما وضحته أحداث لنا، من خلال الإضرابات التي نظمت احتجاجا على "نزع الأهلية"، إلخ. وكما كانت الحالة في عام 1905، فإن البروليتاريا الروسية، التي هي الطبقة الأكثر تقدما في المجتمع الروسي، ستكون مرة أخرى طليعة للحركة. حلفاؤها الوحيدون هم

1: Ibid., pp: 52-53.

2: Badayev, Bolsheviks in the Tsarist Duma, p: 88.

الفلاحون الذين عانوا طويلا، والذين لديهم المصلحة الفعلية في تحرير روسيا من الإقطاعية.

يجب أن يتخذ النضال الشعبي المقبل شكل معركة على جبهتين: ضد النظام الإقطاعي وضد البرجوازية الليبرالية التي تسعى إلى الاتحاد مع النظام القديم. لكن ولكي تتمكن الطبقة العاملة من أن تقوم بشكل مشرف بدورها كقائد لحركة الشعب، يجب أن تكون مسلحة بالوعي بمصالحها وبقدر أعظم من التنظيم. إن منبر الدوما، في ظل الظروف الحالية، هو واحد من أفضل الوسائل لتنوير وتنظيم جماهير البروليتاريا الواسعة»<sup>1</sup>.

غني عن القول إن لينين كان على اتصال دائم مع روسيا. كان قادة الحزب ونشاطه يذهبون إلى كراكوف للتباحث مع لينين الذي حافظ على استمرار المراسلات مع الداخل، بمساعدة كروبسكايا التي لا تعرف الكلل أو الملل. وكان يتم عقد اجتماعات رسمية في بعض الأحيان، حيث كان يتم نقاش تكتيكات وبرنامج الحزب. من بين تلك الاجتماعات كونفرانس كراكوف الذي انعقد في الفترة ما بين 28 دجنبر 1912 إلى 01 يناير 1913. ولأجل التمويه أطلق عليه اسم كونفرانس فبراير، وعلى هذا النحو عرف في الصحافة والأدب الحزبي. ترأس لينين الكونفرانس، وبالإضافة إلى النواب حضر الرفاق التالية أسماؤهم: ناديجدا كونستانتينوفنا كروبسكايا وج. زينوفيف وأ. ترويانوفسكي وفالنتينا نيكولايفنا لوبوفا وإ. روزموفيتش، وعدد قليل من الرفاق الآخرين، مندوبي المراكز العمالية الكبيرة. وكان من بين النواب، بتروفسكي ومالينوفسكي وشاغوف وبادايف.

كان العام الذي مر منذ كونفرانس براغ قد شهد تطورا قويا للحركة الثورية، والإضرابات السياسية والاقتصادية والمظاهرات الجماهيرية، وإنشاء وتدعيم الصحافة العمالية. كان الانشقاق بين الجناح الثوري وبين الجناح الإصلاحية داخل الاشتراكية الديمقراطية قد أصبح نهائيا آنذاك. كانت هيمنة النزعة التصوفية بين المناشفة قد جعلت ذلك أمرا لا مفر منه. كان الانشقاق بين البلاشفة والمناشفة ينتشر على طوال الحركة العمالية كلها وفي كل مكان كان الاتجاه الثوري يكسب المواقع، وهي الحقيقة التي تم تأكيدها من خلال الانتصار الحاسم الذي حققه البلاشفة في الدوائر الانتخابية العمالية خلال انتخابات مجلس الدوما. وقد اتضح ذلك التطور بشكل واف في ما يلي:

«1- يشير الكونفرانس إلى أنه على الرغم من الاضطهاد والتدخلات الحكومية التي لا نظير لها في الانتخابات، وعلى الرغم من تكتل المائة السود والليبراليين ضد الاشتراكيين الديمقراطيين، والذي اتخذ شكلا ملموسا بالتأكيد في العديد من المقاطعات، فإن حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي حقق نتائج عظيمة في انتخابات مجلس الدوما الرابع. لقد سجلت في كل مكان تقريبا زيادة في عدد الأصوات التي حصل عليها الاشتراكيون الديمقراطيون في الدوائر الانتخابية الثانية في المدينة، والتي تم انتزاعها من أيدي الليبراليين. وفي الدوائر الانتخابية العمالية، والتي تعتبر الأكثر أهمية بالنسبة لحزبنا، يتمتع حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي بقاعدة صلبة. ومن خلال انتخاب الطبقة العاملة للبلاشفة وحدهم نوابا عن الدوائر الانتخابية العمالية، أعلنت بالإجماع ولائها الثابت لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي القديم وتقاليد الثورية.

2- يحيي الكونفرانس العمل النشط الذي يقوم به النواب الاشتراكيون الديمقراطيون في مجلس الدوما الرابع، كما تم التعبير عنه في تقديم المساءلات وفي الإعلان الذي حدد، بشكل صحيح، المبادئ الأساسية للاشتراكية الديمقراطية.

3- يعتبر، وفقا للتقاليد الحزبية، أن السياسة الصحيحة الوحيدة هي أن تكون الكتلة الاشتراكية الديمقراطية في الدوما خاضعة للحزب ككل، ممثلا في منظماته المركزية، ويعتبر الكونفرانس أنه، من أجل التثقيف السياسي للطبقة العاملة وضمان المحافظة على سياسة حزبية صحيحة، من الضروري تتبع كل خطوات الكتلة، وبذلك ضمان رقابة الحزب على عملها»<sup>2</sup>.

بادايف في كتابه يتغاضى، لأسباب بديهية إلى حد ما، عن المغزى الحقيقي لهذا القرار، والذي يرد في الجملة الأخيرة. كان الغرض الرئيسي من اجتماع كراكوف، في الواقع، هو دعوة النواب البلاشفة في مجلس الدوما إلى الانضباط ووضع حد لنزعتهم التوفيقية والتذبذبات. لقد وضعت أنشطة نواب الدوما تحت رقابة الأجهزة القيادية للحزب، وصدرت لهم تعليمات بإنهاء تعاونهم مع هيئة تحرير جريدة "لوش" في نهاية عام 1913. وفي محاولة لإبعاد النواب البلاشفة عن المناشفة، أصدر الكونفرانس قرارا ينص على أن: «النوع الحقيقي الوحيد الممكن للتنظيم في الفترة الحالية هو حزب سري يتألف من نواة تحيط بها شبكة كاملة من المنظمات الشرعية وشبه الشرعية. يجب تكييف النواة السرية تنظيميا مع الظروف اليومية الملموسة».

وكانت المهمة الرئيسية هي إقامة لجان سرية تابعة للحزب في المصانع مع منظمة قيادية في كل مركز. في هذا الصدد يكتب

1: Badayev, Bolsheviks in the Tsarist Duma, pp: 36-37.

2: Ibid, p: 76.

بادايف: «اعتبر الكونفرانس أن أفضل نوع من أنواع التنظيم هو ذلك الذي ساد في سان بيترسبورغ. كانت لجنة سان بيترسبورغ مؤلفة من مندوبين منتخبين من قبل الدوائر وأعضاء معينين، مما أسفر عن تنظيم مرن للغاية، على اتصال وثيق مع النواة، وفي الوقت نفسه مخفي بشكل جيد عن أعين الشرطة السرية. كما تقرر أيضاً ضرورة تنظيم الأجهزة الجبهوية وضمان الاتصال بينها وبين المجموعات المحلية من ناحية، ومع اللجنة المركزية من ناحية أخرى، عن طريق نظام من المندوبين. لقد وضع القرار بشأن التنظيم نظاماً متناغماً مؤسساً بشكل صلب من الأسفل إلى الأعلى».

لكن وعلى الرغم من كل إلحاح لينين، رفضت أغلبية الفصيل البلشفي بعناد الانفصال عن المجموعة البرلمانية المنشفية، التي استمروا يحافظون معها على علاقات ودية طيلة النصف الأول من عام 1913، الأمر الذي أثار استياء لينين. وكوسيلة لضمان عدم انفصال النواب البرلمانيين عن العمال، أصر لينين على ضرورة أن يشاركوا شخصياً في أعمال برافدا. في هذا الصدد يتذكر بادايف: «بناء على توصية الرفيق لينين نفسه، تم تكليفي بمهمة تحرير برافدا. قال لي لينين إنه بصفتي نائباً عن سان بيترسبورغ، وممثلاً عن عمال سان بيترسبورغ، يجب علي أن أتولى تلك المهمة. لم تكن برافدا تقتصر على الأهداف التعليمية والدعائية فحسب، بل كانت أيضاً أهم جهاز تنظيمي. وشدد على مسألة أن من واجبي أن أعمل هناك»<sup>1</sup>.

ومن الواضح أيضاً أنه قد حدثت بعض الجدالات الحادة بين لينين وستالين فيما يتعلق بسلوك هيئة تحرير برافدا. كانت كروبسكايا، التي تم نشر كتابها عن لينين في الاتحاد السوفياتي تحت حكم ستالين، مضطرة للتعبير عن نفسها بحذر حول هذه المسألة، لكنها مع ذلك تكشف أن العلاقات بين الرجلين كانت متوترة للغاية. في ذلك الاجتماع تم تعيين سفيردولوف رئيساً لهيئة تحرير برافدا وتم إشراكه في اللجنة المركزية، شكلت تلك الخطوة ضربة لموقع ستالين. لكن اعتقال سفيردولوف، في 10 فبراير 1913، أبعده عن الميدان، فتمت إعادة تكليف ستالين مرة أخرى بالإشراف على برافدا، قبل أن يتعرض بدوره للاعتقال، لكن ليس قبل أن يظهر تحديه للينين ولغيره من القادة المنفيين. فعلى الرغم من كل ما قيل في اجتماع كراكوف، استمرت برافدا في معارضة القطيعة مع المناشفة في الدوما. وفي نوفمبر 1912، أعلنت صراحة أن «الكتلة يجب أن تكون متحدة». ثم في فبراير، قبيل وقت قصير من اعتقاله، كتب ستالين مقالة على صفحات برافدا، حث فيها العمال على الوقوف ضد محاولات تقسيم الكتلة البرلمانية «أيا كان مصدرها»، والتي هي عبارة، على الرغم من طابعها العام، موجهة بوضوح ضد لينين<sup>2</sup>.

### «الجماهير صارت ناضجة الآن»

في تلك الأثناء كانت الأحداث تتحرك بسرعة. كان الصراع الطبقي يسير بخطى متسارعة. خلال عام 1913، شارك حوالي مليون عامل في الإضرابات في عموم روسيا؛ أكثر من نصف مليون شخص من هؤلاء شاركوا في إضرابات سياسية. وبحلول صيف 1913 غرقت روسيا في خضم أزمة سياسية. خلال اجتماع للحزب في غاليسيا البولندية (التي كانت آنذاك تحت الحكم النمساوي)، تم وضع منظور لاقتراب ثورة جديدة. «إن اندلاع ثورة جديدة صار على رأس جدول الحياة السياسية للبلاد»<sup>3</sup>. وفي سياق التجذر العام آنذاك شهد تأثير المناشفة تراجعاً حاداً. أصبح البلاشفة بسرعة القوة المسيطرة بين صفوف الطبقة العاملة المنظمة في روسيا. قال بادايف: «لقد تمت تقوية عمل الحزب وتوسيعه، وتم تشكيل مجموعات جديدة وأصبحت المجموعات القديمة أكبر وأكثر فاعلية»<sup>4</sup>. بالنظر إلى الطريقة التي كان يتم بها حساب عضوية الحزب حينها، يصعب القول كم كان عدد الأعضاء البلاشفة آنذاك. حتى لينين نفسه لم يكن يعلم، كما يظهر من المقتطف التالي المكتوب في شتبر 1913:

«كان الحزب في عام 1907 يضم 150.000 عضو (وفقاً لتقدير وافق عليه مؤتمر لندن). لكن لا يمكن تحديد عددهم في الوقت الحالي... ربما أقل من ذلك بكثير، ما بين 30.000 و50.000. من المستحيل أن أكون دقيقاً... إن الحزب هو الفئة الواعية والطليلية بين صفوف الطبقة العاملة، وحارسها المتقدم. وبالتالي فإن قوة هذه الطليعة هي أكبر بعشر مرات أو مائة مرة من قوتها العددية. هل يمكن أن تكون قوة المئات أكبر من قوة الآلاف؟ نعم يمكن أن تكون أكبر، عندما يكون هؤلاء المائة منظمين. إن التنظيم يزيد قوتك عشرة أضعاف»<sup>5</sup>.

1: Ibid, p: 77.

2: Pravda, No. 167, February 26, 1913, quoted in McKean, op. cit., p: 141.

3: KPSS v. rezolyutsiakh, vol. 1, p: 302.

4: Badayev, Bolsheviks in the Tsarist Duma, p: 116.

5: Lenin, Collected Works, in Russian, vol. 24, p: 34.

صار من الملح آنذاك أن يتم حل جميع المسائل الخلافية في أسرع وقت ممكن. تم عقد كونفرانس جديد، هذه المرة في بورونينو، وهي قرية ليست بعيدة عن كراكوف، حيث كان يقيم لينين وعدد من أعضاء اللجنة المركزية. ومن أجل تضليل الشرطة، كانوا يطلقون على كونفرانس بورونينو اسم كونفرانس غشت، على الرغم من أنه انعقد بالفعل في نهاية شتبر 1913. كان هناك ما بين 25 إلى 30 مندوبا عن أكبر منظمات الحزب. وبالإضافة إلى لينين وزينوفيف وكروبسكايا، الذين كانوا يعيشون في غاليسيا، حضر أيضا كامينيف وشوتمان وإينيسا أرماند وترويانوفسكي وروزموفيتش وهانكي، وعمال حزيون آخرون، وكذلك جميع الأعضاء البلاشفة في الدوما ماعدا سامويلوف، الذي كان مريضا. تمت المصادقة في كونفرانس بورونينو على قرار بخصوص الصحافة الحزبية شكل انطلاقة جديدة:

«يعترف الكونفرانس بالأهمية الهائلة للصحافة الشرعية من أجل التحريض والتنظيم الاشتراكيين الديمقراطيين، وبالتالي فإنه يدعو جميع المنظمات الحزبية وكل العمال الواعين طبقيا إلى تقديم دعمهم الكامل لها من خلال توزيع الجرائد على أوسع نطاق ممكن ومن خلال تنظيم المساهمات الجماعية والاشتراكات ودفن المستحقات بانتظام. ويؤكد الكونفرانس مرة أخرى أن المستحقات المذكورة هي مستحقات العضوية في الحزب.

ينبغي إيلاء اهتمام خاص لتعزيز الجريدة العمالية الشرعية في موسكو والمسارعة إلى إصدار جريدة في الجنوب. يرغب المؤتمر في توثيق التعاون بين الجرائد الشرعية القائمة عن طريق تبادل المعلومات وعقد المؤتمرات المشتركة، وما إلى ذلك. وإدراكا منه لأهمية ضرورة وجود جهاز ماركسي نظري، يطلب الكونفرانس من جرائد الحزب والنقابات العمالية أن تلفت انتباه العمال إلى مجلة بروسفيشتشيني (التنوير)، وأن تناشدهم بأن يشتركوا فيها بانتظام ويدعموها بانتظام.

يشير الكونفرانس انتباه منظمات النشر الحزبية إلى ضرورة توزيع الكراريس الشعبية على نطاق أوسع لأجل التحريض والدعاية. في ضوء التطور الأخير للحركة الثورية وأهمية تحليلها بشكل كامل وبطريقة كاملة، وهو الشيء الذي من المستحيل القيام به في الصحافة الشرعية، يوجه الكونفرانس اهتماما خاصا إلى ضرورة توسيع نطاق منشوراتنا السرية ويوصي أنه بالإضافة إلى الكراريس والمنشورات غير القانونية، ينبغي في أقرب وقت إصدار جريدة حزبية مركزية غير قانونية بانتظام»<sup>1</sup>.

كان تأثير البلاشفة ينمو أسرع بكثير من سرعة نمو عضوية الحزب الفعلية. تقول كروبسكايا في إحدى الرسائل: «أثناء الكونفرانس كانت التقارير القادمة من المنظمات المحلية مثيرة للغاية. كان الجميع يقول إن الجماهير قد صارت ناضجة الآن... وخلال الانتخابات أصبح واضحا أن هناك منظمات عمالية تشكلت ذاتيا في كل مكان... كانت في أغلبها غير مرتبطة بالحزب، لكنها كانت تشتغل بروح الحزب»<sup>2</sup>.

في ظل الظروف الجديدة، ومع وصول أعداد كبيرة من العمال الجدد إلى محيط الحزب، صار من الضروري إدخال تغييرات جذرية على طريقة التجنيد وفتح أبواب الانخراط أمام العمال. نرى هنا، مرة أخرى، مدى مرونة لينين فيما يتعلق بالمسائل التنظيمية. إن الحزب هو، في آخر المطاف، كائن حي يتغير ويكيف نفسه مع الظروف المتغيرة. وهكذا فإن لينين الذي جادل في عام 1903 ضد محاولة مارتوف تمهيع الحزب عن طريق إلغاء التمييز بين العضو وبين المتعاطف، هو نفسه الذي صار ينادي الآن بتبني مقاربة مختلفة تماما، حيث دعا إلى اعتبار أي قارئ منتظم للبرافدا عضوا في الحزب (وأن الأموال المدفوعة بانتظام إلى البرافدا ينبغي أن تعتبر بمثابة «مستحقات العضوية في الحزب»). في الواقع لا يوجد أي تناقض بين الموقفين، إنهما يعكسان فقط التغيير الذي حدث في الواقع الموضوعي، بالانتقال من حزب جنيني صغير نسبيا، يجب بالضرورة أن يكون له طابع حزب كوادر، إلى حزب عمالي جماهيري.

## الانقسام في مجموعة الدوما

لقد كشف الوضع برتمته عن التناقض الهائل الموجود داخل الفريق البرلماني في الدوما، حيث كان المناشفة يستغلون أغلبيتهم الشكلية، بمقعد واحد، للسيطرة على أنشطة الفريق وعرقلة تحركات النواب البلاشفة، وهو الموقف الذين كان هؤلاء الأخيرين على استعداد لقبوله باسم الوحدة. كان لينين ينتقد بشدة المندوبين البلاشفة في الدوما بسبب ترددتهم في مسألة الانفصال عن المندوبين

1: Badayev, Bolsheviks in the Tsarist Duma, p: 120.

2: Trotsky, Stalin, p: 149.

المناشفة السبعة. قال: «لقد بدأت الحملة ضد السبعة بشكل ممتاز، لكنها الآن صارت تنفذ بدون الحزم المطلوب»<sup>1</sup>. وبما أن اجتماع كراكوف فشل في التوصل إلى حل نهائي للمسألة، فقد صار الانقسام في الفريق البرلماني مسألة غير مؤكدة. في اجتماع اللجنة المركزية الذي عقد في يوليو، كان «الستة» موضع انتقاد، على الرغم من أن مالنوفسكي وحده من كان حاضرا في الاجتماع من بين أعضاء الدوما. لم يعد من الممكن هذه المرة أن يتم قبول أي عذر. ومع ذلك فإن الطريقة التي يجب أن يتم بها تناول هذه المسألة كانت مهمة. كان من الضروري للغاية أن يفهم العمال أسباب الانقسام، وأن تقنع المسؤولية الكاملة على كاهل المناشفة. حاول باداييف شرح سلوك النواب البلاشفة بأفضل طريقة ممكنة، لكن من الواضح أن النواب البلاشفة لم يتخذوا القرار بالانشقاق عن المناشفة إلا على مضض وتحت الضغط:

«بالطبع كان واضحا لنا جميعا في تلك الفترة أن لحظة القطيعة التامة مع المناشفة كانت تقترب. لكن الرغبة في الحفاظ على وحدة صفوف الحزب الاشتراكي الديمقراطي بهذه الطريقة أو تلك كانت ما تزال قوية بين الجماهير العريضة للعمال<sup>2</sup>. بطبيعة الحال لم يكن الجمهور الواسع يعرف ما الذي كان يحدث داخل الحزب، في لجاننا أو حلقاتنا السرية، وذلك بسبب النظام البوليسي الذي كان سائدا في روسيا آنذاك. لكن فريق الدوما كان يعمل تحت أنظار الجميع؛ كان كل عامل، ليس فقط في سان بيترسبورغ بل وحتى في أكثر المناطق النائية في روسيا، يعلم بوجود الفريق وأنشطته. وعندما كانت الجماهير العريضة تشير إلى وحدة الحزب، فقد كانت تقصد في الغالب فريقنا البرلماني»<sup>3</sup>.

نظم البلاشفة حملة لجمع التوقيعات لتعبئة أكبر قدر ممكن من الدعم خلف نوابهم في مجلس الدوما. وكانت النتيجة نجاحا بارزا. بحلول الأول من نوفمبر، وفي غضون أسبوعين فقط، تلقت برافدا والمجموعة البلشفية أكثر من ثمانية قرارات دعم تحمل أكثر من 5.000 توقيع. بينما لم يتمكن المناشفة، خلال الفترة نفسها، من حشد سوى 3500 توقيع. وحتى هذه النسبة لم يتم الحفاظ عليها، حيث أن المناشفة كانوا قد استنفذوا كل جهودهم خلال الأسابيع الأولى، فبدأت القرارات المؤيدة للمناشفة تشهد تراجعا متواصلا، بينما استمر عدد القرارات لصالح «الستة» في الزيادة. صار تفوق البلاشفة أكثر وضوحا خلال الشهر الموالي، حيث توقف تدفق القرارات المؤيدة للمناشفة من المحافظات، مقابل ارتفاع تلك القادمة للبلاشفة. وبحلول الأول من دجنبر، صار من الواضح أنه في إمكان البلاشفة أن يعتمدوا على مؤيدين بين العمال الروس يزيد بما لا يقل عن ضعفين ونصف عن المناشفة. اتضحت النتيجة نفسها من خلال كمية الأموال التي جمعها كل فريق من مساهمات العمال، إذ لم يتمكن المناشفة من جمع سوى حوالي 150 روبل لكل 1.000 روبل حصل عليها البلاشفة.

على الرغم من حقيقة أن البلاشفة في ذلك الوقت كانوا قد وحدوا وراءهم الفئات الحاسمة من بين صفوف الطبقة العاملة، فإن المزاج التوفيقي استمر موجودا، كما يعترف باداييف نفسه: «بعض الدوائر الاشتراكية الديمقراطية في الخارج أيضا لم تدرك طبيعة ومعنى الانشقاق الذي عرفه الفريق، وبقيت تتردد بين المعسكرين، وتنتقل من البلشفية إلى المنشفية والعكس. من أكبر هاتين المجموعتين كانت فريود (إلى الأمام)، التي اعتقدت أن الانشقاق كان نتيجة «غياب جهاز قيادي مركزي موحد، يتمتع بثقة أغلبية أعضاء الحزب». اعترف الفريوديون أن مطالب «الستة» مشروعة، لكنهم ظنوا أن المسألة كلها كانت مجرد صدامات تنظيمية طفيفة داخل الفريق. وهكذا فقد عجزوا تماما عن فهم معنى الانقسام والاختلافات الجوهرية التي أدت إليه».

استغل المناشفة طبيعة الحال الانشقاق الذي عرفته مجموعة الدوما لإثارة ضجة في الخارج، مستفيدين من جهل الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأجنبية بالشؤون الروسية ورفضها الطبيعي للانشقاقات. وقد ساعدتهم في هذا حقيقة أن مرشحهم هو الذي كان يمثل المجموعة البرلمانية في مكتب الأمانة الاشتراكية (الأمنية الثانية). قرر المناشفة طرح المسألة أثناء اجتماع المكتب، الذي كان مقررا في الأول من دجنبر، وبعثوا كلا من تشخيدزه وسكوبيليف إلى لندن. وعلى أمل استغلال سلطة بليخانوف الكبيرة لموقف المناشفة، بعث له تشخيدزه تلغرافا إلى إيطاليا وطلب منه القدوم إلى لندن لتوضيح وجهة نظره بخصوص الانقسام خلال اجتماع المكتب.

إلا أن بليخانوف لم يكتف برفض المجيء إلى لندن، بل بعث رسالة إلى مكتب الأمانة الاشتراكية يقول فيها إنه يدعم «الستة» واعتبر أن المناشفة هم المسؤولون عن الانشقاق. وفي الوقت نفسه وبما أنه اعتبر أن هذه المسألة قد حسمت الانشقاق داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي، فقد قرر الاستقالة من المكتب، الذي كان يمثل فيه الحزب بأكمله، كما يوضح ذلك المقتطف التالي

1: LCW, To the Editorial Board of Za Pravdu, vol. 34, p: 118.

2: التشديد من آلان وودز.

3: Badayev, Bolsheviks in the Tsarist Duma, p: 112.



من رسالته، الوارد في كتاب باداييف: «لقد أدت الخلافات في الرأي، التي كانت موجودة خلال السنوات القليلة الماضية داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، إلى تقسيم فريقنا في الدوما إلى مجموعتين متنافستين. لقد حدث هذا الانشقاق نتيجة لقرارات معينة مؤسفة اتخذها رفاقنا التصفيون، الذين صادف أن كانوا أغلبية (سبعة مقابل ستة). وبسبب الضربة القوية التي تعرضت لها وحدة حزبنا، فإنه لم يبق لي، أنا الذي أمثل أمامكم الحزب بأكمله، من خيار آخر سوى الاستقالة. وهذا ما أقوم به من خلال هذه الرسالة»<sup>1</sup>.

قرب اندلاع ثورة جديدة لم يكن يعني، بأي حال من الأحوال، أنه يمكن للحزب أن يتخلى عن النضال من أجل المطالب الجزئية. بل إنه على العكس استثمر هذا النضال بإلحاح أكبر. كانت هناك ضرورة النضال من أجل كل مطلب جزئي، مهما كان صغيراً، لتحسين مستويات معيشة الطبقة العاملة وظروف عملها وحقوقها، من أجل جعل الحزب أكثر ارتباطاً بالجماهير. لا يحمل واقع الحزب البلشفي أدنى تشابه مع الصورة الكاريكاتيرية التي قدمها مارتوف عن البلشفية باعتبارها «النزعة المتطرفة والسعي إلى تحقيق نتائج قصوى فورية، والرغبة في تحقيق التحسينات الاجتماعية، دون مراعاة الظروف الموضوعية»<sup>2</sup>. لو كان الأمر كذلك بالفعل لما تمكن البلاشفة أبداً من كسب أغلبية الطبقة العاملة إلى جانبهم، كما حدث في 1912-1914، ومرة أخرى في شتبر - نوفمبر 1917.

إن ما كتبه مارتوف كمنفي بعد ثورة أكتوبر قدم بالفعل الدليل النهائي على صحة وجهات نظر لينين وسياسته وأسايبه، ومن الواضح أن حقد مارتوف كان نتاجاً للحسد الشديد وليس مجرد ضعف في الذاكرة. وكما سبق لنا أن أشرنا فإن الفرق بين الماركسية الثورية وبين ما يسمى بالإصلاحية ليس في كون الإصلاحيين يقبلون بالنضال من أجل الإصلاحات بينما ينكره الماركسيون، إن الماركسيين الثوريين يتميزون دائماً عن الإصلاحيين بكونهم المقاتلين الأكثر ثباتاً وإصراراً من أجل الإصلاحات، بينما ينتقل الإصلاحيون دائماً، وخاصة في فترات الأزمة الرأسمالية، من الإصلاحات إلى تدمير الإصلاحات وتطبيق سياسة «التقشف» تحت ضغط الرأسمال الكبير، في حين يؤكد التاريخ أن جميع الإصلاحات الجدية كانت نتيجة ثانوية للنضال الثوري لتغيير المجتمع. ولسوء حظ التصفيين، في ظل ظروف روسيا، كان حتى النضال من أجل المطالب الأكثر جزئية، إذا تم خوضه بجدية، يؤدي بشكل حتمي إلى مطلب الإطاحة بالقيصرية.

## المسألة القومية

يتضح موقف البلاشفة من المطالب الديمقراطية في موقفهم من المسألة القومية. فبدون موقف واضح ومبدئي بشأن المسألة القومية، لم يكن بإمكانهم أبداً أن يقودوا الطبقة العاملة إلى الاستيلاء على السلطة. كانت المسألة القومية ذات أهمية حاسمة بالنسبة لروسيا، حيث كان 57% من السكان يتألفون من أقليات غير روسية كانت تعاني من الاضطهاد والتمييز على أيدي 43% من الروس. أدت الردة الرجعية خلال فترة 1907-1910 إلى احتداد التناقضات القومية إلى درجة لا تحتمل، كما أجهزت الردة الرجعية المتصاعدة على كل المكاسب التي كانت القوميات المضطهدة قد حققتها خلال الفترة السابقة، إذ تم إلغاء الحكم الذاتي في فنلندا، وتم حرمان الملايين من حق التصويت بسبب «جنسيتهم».

ومرة أخرى كشفت نزعة معاداة السامية عن وجهها القبيح في قضية بيليز السيئة الذكر في كييف، عندما اتهم المائة السود اليهود باغتيال طقوسي لطفل مسيحي. كان النظام يستغل الأحكام المسبقة العنصرية لتقسيم الشعب واستعباده. قامت الصحف اليمينية بنشر مقالات مثيرة تدعي أن القتل الطقوسي للأطفال المسيحيين من طرف اليهود يشكل جزءاً من العقيدة اليهودية. كانت القضية مخيفة لدرجة أن موجة من السخط اجتاحت المجتمع الروسي. عبّر الرأي العام الليبرالي عن غضبه الأخلاقي. لكن الحقيقة هي أن أصل هذه السموم العنصرية هو النظام نفسه والنظام الاجتماعي الذي يستند إليه. ليس من قبيل المصادفة أن مشاعر معاداة السامية كانت منتشرة في بلاط نيكولا الذي كان بدوره يتبناها هو ومحيطه وكانوا يشجعونها بشكل ممنهج.

كانت الطريقة الوحيدة لمحاربة العنصرية هي توحيد العمال في النضال ضد كل أشكال الظلم والتمييز، كجزء من النضال الثوري العام لتغيير المجتمع. إلا أن هذا لا يمنع قيام الحركة العمالية باتخاذ إجراءات عملية ضد الفاشيين والعنصريين الذين يهاجمون أبناء الأقليات المضطهدة، بل يفترضه مسبقاً. من الضروري أن يتم الدفاع عن الأقلية المضطهدة من قبل الطبقة العاملة

1: Badayev, Bolsheviks in the Tsarist Duma, p: 131, 132 and 133.

2: Martov, Mirovov Bol'shevism.

المتحدة ككل، دون تمييز بسبب الاثنية أو اللغة أو اللون. في وقت محاكمة بيليز، نظم الاشتراكيون الديمقراطيون حملة احتجاج ضد المعادين للسامية. وفي شتنبير وأكتوبر أصدر البلاشفة سلسلة من المنشورات، كتبوا في إحداها: «أيها الرفاق: نحن العمال لا نحتاج إلى استعباد أمة من طرف أخرى. إن العمال الفنلنديين والبولنديين واليهود والألمان والأرمن جميعهم إخوة لنا. يجب علينا ألا نحاربهم، بل علينا أن نحارب ضد الأوتوقراطية والرأسمالية»<sup>1</sup>.

دعت المنشورات إلى تنظيم إضرابات احتجاجية، اندلعت بالفعل في بيترسبورغ وكيف وريفل وغوميل وبيلوستوك وبريست-ليتوفسك، ومناطق أخرى. أي بعبارة أخرى رد الحزب على السموم العنصرية بإطلاق نداء طبقي.

رد عمال روسيا وأوكرانيا بإضرابات للدفاع عن الشعب اليهودي المضطهد. وأخيراً، وتحت ضغط الحركة الاحتجاجية الجماهيرية، أعلن أن بيليز بريء. إن مكافحة العنصرية تتم بالضبط بتعزيز وحدة جميع العمال في خضم النضال، فوق جميع اختلافات الجنس أو الاثنية أو الدين أو اللون أو اللغة. وفي المقابل فإن التيارات القومية البرجوازية الصغيرة، التي تؤكد على الاختلافات القومية، إنما تخدم مصالح العنصريين. وهكذا فإنه في ظل روسيا القيصرية، كانت النزعة الانفصالية للبوند ضارة للغاية. لقد اتبعوا سياسة ترقى إلى تقسيم العمال على أساس قومي، من خلال مطالبتهم بالحق الحصري في تمثيل اليهود، ومطالب الراحة يوم السبت لليهود وحقوق اللغة اليهودية ومطالب أخرى تتعلق بـ «الاستقلال الذاتي الثقافي القومي».

كثيراً ما كان أبناء القوميات المضطهدة (العمال الأستونيون والفلاحون الأوكرانيون، وغيرهم) يطلبون الدعم من الفريق الاشتراكي الديمقراطي في الدوما. كان الحزب البلشفي نفسه نموذجاً لكيفية توحيد العمال من قوميات مختلفة في منظمات طبقية واحدة، حتى في الأماكن التي كانت تعرف تاريخاً من الصراع الاثني، كما كان الحال في روسيا القيصرية، حيث لم يكن النظام يكتفي بتحريض الروس والأوكرانيين ضد اليهود فقط، بل كان أيضاً يحرض الأذربيجانيين والجورجيين ضد الأرمن. إن المذابح التي ارتكبت ضد الأرمن في باكو هي الآن أقل شهرة من المذابح ضد اليهود، لكنها كانت مرعبة مثلها. ومع ذلك ففي المنظمات البلشفية كان العمال الروس والأوكرانيون واللاتيفيون والأرمن يعملون معاً. كان لينين يعارض دوما شق صفوف الطبقة العاملة ومنظماتها، كتب قائلاً: «في منظمنا الاشتراكية الديمقراطية القوقازية، كان الجورجيون والأرمن والتتار والروس يعملون معاً في منظمات ديمقراطية موحدة لأكثر من عشر سنوات. هذا ليس مجرد كلام، بل هو الحل البروليتاري للمسألة القومية. إنه الحل الوحيد. نفس الشيء في ريغا، فهناك روسيون ولاتيفيون وليتوانيون؛ الوحيدون الذين ينظمون أنفسهم بشكل مستقل هم الانفصاليون، أي البوند. هذا هو الحال أيضاً في فيلنا»<sup>2</sup>. يعتبر هذا رداً ساحقاً على جميع محاولات تقسيم منظمات العمال على أسس قومية.

كانت الشوفينية الروسية تشكل دائماً واحدة من أقوى أسلحة الردة الرجعية. وفيما يتعلق بالمسألة القومية، لم يكتف لينين بالتنديد فقط برجعية المائة السود الواضحة، بل أيضاً ندد بالبرجوازية الليبرالية كذلك. كتب قائلاً: «إن البرجوازية الليبرالية من كل الأمم -والبورجوازية الروسية على وجه الخصوص- تحارب من أجل امتيازات "أمتها"... من أجل خصوصيتها القومية، من أجل تفردتها القومي، وهي بذلك تدعم سياسة وزارة الداخلية عندنا»<sup>3</sup>.

ومرة أخرى قال: «إن النزعة القومية البرجوازية والنزعة الأممية البروليتارية متعارضتان بشكل مطلق، إنهما ينتميان إلى معسكرين طبقيين كبيرين يقسمان كل العالم الرأسمالي ويعبران عن سياستين (بل رؤيتين عالميتين) بشأن المسألة القومية»<sup>4</sup>.

كان أي ارتباك بشأن المسألة القومية سيشكل كارثة للثورة الروسية. وهذا هو السبب الذي جعلها تحتل مكاناً مركزياً في جميع المناقشات منذ عام 1903 فصاعداً. كانت هناك مشاكل خطيرة ليس فقط مع القوميين اليهود في البوند، بل أيضاً مع الاشتراكيين الديمقراطيين البولنديين والليتوانيين الذين كانوا متأثرين بأفكار روزا لوكسمبورغ التي أنكرت حق الشعوب في تقرير مصيرها. كانت روزا لوكسمبورغ بلا شك مدافعة حازمة عن الأممية، وكانت محقة في مقاومتها العنيدة للتحيز القومي البورجوازي الصغير عند الحزب الاشتراكي البولندي. لكن فكرتها عن الأممية كانت مجردة وأحادية الجانب. لقد أنكرت في الواقع حق الشعب البولندي في تقرير المصير. لو قبل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي هذا الموقف، كما طالبت هي، لكان ذلك كارثة كاملة وهدية للقوميين البولنديين. لقد كانت الاختلافات شديدة إلى درجة أنها أدت إلى انقسام الحزب الاشتراكي الديمقراطي البولندي، حيث قامت مجموعة معارضة، كانت متعاطفة مع موقف لينين، بقيادة ج. س. هانيسي وأ. م. مالكي، بالانشقاق. كان موقف لينين أكثر عمقاً وجدلية. وفي

1: Istoriya KPSS, vol. 2, p: 431.

2: Lenin, Collected Works, in Russian, vol. 48, p: 162.

3: Ibid., vol. 25, p: 71.

4: Ibid., vol. 24, p: 123.

السنوات التي سبقت مباشرة الحرب العالمية الأولى واثناها، كتب عددا كبيرا من المقالات والوثائق حول المسألة القومية، التي ما زالت تحتفظ حتى يومنا هذا بكل حيويتها وأهميتها. وكما كان معروفا عنه، ناقش لينين أفكاره حول هذا الموضوع مع الكوادر الشابة للحزب وشجعهم على الكتابة عنها، وكانت النتيجة، من بين أمور أخرى، كتيب شوميان حول الاستقلال الذاتي الثقافي القومي ومقالة ستالين في بروسفيشيني، تحت عنوان: المسألة القومية والاشتراكية الديمقراطية، والتي كانت، في الواقع، مقالة أملاها عليه لينين.

## لينين والمسألة القومية

ما هو موقف لينين من المسألة القومية؟ يناضل الماركسيون ضد كل مظاهر اللامساواة والتمييز مهما كانت صغيرة. وكمثال على ذلك نحن نقف ضد أي امتياز لصالح لغة معينة. لا يوجد أي سبب لوجود لغة "رسمية" تحتكر امتيازات على حساب لغات أخرى. كان هذا هو موقف لينين. لكن هذا لا يعني أنه يتماهى مع مزاعم التفرد الرجعية التي يتبناها البرجوازيون والبرجوازيون الصغار من القوميات المضطهدة الذين يطالبون "بالاستقلال الذاتي القومي الثقافي"، ويمجدون لغتهم وثقافتهم "الخاصين"، الشيء الذي يخفي سعيهم إلى اضطهاد الشعوب الأخرى. «إن شعار الديمقراطية العمالية ليس "الثقافة القومية" بل الثقافة الديمقراطية العمالية الأممية».

وراء النداءات إلى "الثقافة القومية" تكمن المصلحة الطبقية للمستغلين من كل أمة، أي الملاكين العقاريين والرأسماليين. إن الأفكار السائدة في أي أمة هي أفكار الطبقة السائدة، هذا موقف أساسي بالنسبة للماركسيين، وهنا أيضا حافظ لينين على موقف طبقي، حيث يقول: «إن عناصر الثقافة الديمقراطية والاشتراكية موجودة، ولو في شكل بدائي، في كل ثقافة قومية، لأنه في كل أمة توجد جماهير كادحة ومُستغلة، والتي تؤدي ظروف حياتها بشكل حتمي إلى نشوء أفكار ديمقراطية واشتراكية. لكن كل أمة تمتلك أيضا ثقافة برجوازية (وفي معظم الأمم ثقافة رجعية ودينية كذلك) باعتبارها الثقافة السائدة، وليس فقط كـ "عناصر". لذلك فإن "الثقافة القومية" هي بشكل عام ثقافة الملاكين العقاريين ورجال الدين والبرجوازية. إن هذه الحقيقة الأساسية، البديهية بالنسبة للماركسي، تم دفعها إلى الخلف من طرف البوندي، الذي "أغرقها" بكلماته المشوشة، أي أنه بدلا من كشف وتوضيح الهوية الطبقة للقارئ، قام في الواقع بإخفائها.. لقد تصرف البوندي، في الواقع، مثل البرجوازي، الذي تقتضي مصلحته نشر الاعتقاد في ثقافة قومية غير طبقية».

ووضح أن: «الثقافة القومية البرجوازية هي حقيقة (وأكرر أن البرجوازية في كل مكان تدخل في صفقات مع الملاكين العقاريين ورجال الدين). والحقيقة الأساسية في يومنا هذا هي أن النزعة القومية البرجوازية الكفاحية تبلد عقول العمال وتخدعهم وتفرقهم لكي تتمكن البرجوازية من قيادتهم بالسوط. يجب على أولئك الذين يسعون لخدمة البروليتاريا أن يوحدوا عمال جميع الأمم وأن يناضلوا بحزم ضد القومية البرجوازية المحلية والأجنبية»<sup>1</sup>.

كان لينين يعارض إنشاء مدارس منفصلة على أسس قومية، والتي من شأنها أن تقسم السكان وتعزز الأحكام المسبقة العنصرية والقومية. لقد كشف لينين الطبيعة الرجعية لهذا المطلب والمطالب الأخرى النابعة عما يسمى بسياسة "الاستقلال الذاتي الثقافي"، التي كان الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويون يدعون إليها: «إن الاستقلال الثقافي القومي» يعني ضمنا، على وجه التحديد، أصفى أشكال النزعة القومية وبالتالي أكثرها ضرا، إنها تتضمن إفساد العمال عن طريق شعار الثقافة القومية والدعاية الضارة، بل والرجعية، إلى التمييز في المدارس على أساس الانتماء القومي. باختصار إن هذا البرنامج يتناقض بدون شك مع النزعة الأممية البروليتارية، ولا يتماشى إلا مع المثل العليا للبرجوازية الصغيرة القومية».

وبدلاً من مطلب "الاستقلال الثقافي القومي"، رفع لينين مطلب الحق في تقرير المصير. وهذا مطلب ديمقراطي ينطلق من قناعة أنه لا يجب إلزام أي أمة بالبقاء ضمن حدود أمة أخرى رغما عنها. إن حق كل شعب في تقرير شؤونه الخاصة، بعيدا عن تدخل شعب آخر أقوى، هو حق أساسي يجب الدفاع عنه. لكن هذا لا يعني أن الماركسيين ملزمون بالدفاع عن الانفصال. في واقع الأمر لقد أشار لينين إلى أنه «بالنسبة إلى الماركسي بطبيعة الحال، عند تساوي جميع الشروط الأخرى، تكون الدول الكبيرة دائما أفضل من الدول الصغيرة»<sup>2</sup>. إن الدولة القومية، مثلها مثل الملكية الخاصة، مؤسسة عتيقة ورجعية تعوق التطور الحر للقوى

1: LCW, Critical Remarks on the National Question, vol. 20, pp: 22, 24, 25 (التشديد من آلان وودز)

2: LCW, The National Program of the RSDLP, vol. 19, pp: 541, 545.

المنتجة. إن هيمنة السوق العالمية، التي تنبأ بها ماركس وإنجلز منذ زمن بعيد، أصبحت الآن حقيقة. لا يمكن لأي بلد، مهما كان كبيرا وقويا، أن يهرب من الهيمنة التي لا تقاوم للسوق العالمية. ولهذا السبب تحول ما يسمى باستقلال تلك البلدان التي نجحت في التخلص من نير الاضطهاد الأجنبي المباشر، منذ عام 1945، إلى مجرد وهم. لقد صارت مستغلة ومضطهدة أكثر من ذي قبل، باستثناء أن الاستغلال صار يحدث بطريقة غير مباشرة، من خلال آلية التجارة العالمية.

كتب لينين في أكتوبر- دجنبر 1913: «البروليتاريا، في المقابل، لا تقف فقط ضد التنمية القومية لكل أمة على حدة، بل إنها كذلك تحذر الجماهير من مثل هذه الأوهام، وتدافع عن الحرية الكاملة للتبادل الاقتصادي الرأسمالي، وترحب بكل أنواع الاستيعاب القومي، باستثناء ذلك الذي يقوم على القوة أو الامتيازات»<sup>1</sup>.

إن الماركسيين لا يؤيدون إقامة حدود جديدة، بل يناضلون من أجل القضاء على جميع الحدود، وبناء الولايات الاشتراكية العالمية المتحدة. لكن هذا الموقف لا يعالج المسألة في تفاصيلها. نعم نحن نفضل الوحدات الكبيرة، عندما تكون كل الظروف الأخرى متساوية، لكن الظروف ليست متساوية. لقد قال ماركس ذات مرة إنه لا توجد كارثة أكبر بالنسبة لشعب من أن يجمع شعبا آخر. وعندما يحدث هذا يكون من واجب الماركسيين الدفاع عن الأقلية المضطهدة. نحن نعارض كل أشكال التمييز والظلم والحرمان من الحقوق القومية، وسوف نكافحها. لكن هذا غير كاف. يجب على الطبقة العاملة أن يكون لها موقفها الخاص والمستقل بشأن المسألة القومية، كما هو الحال في أي مسألة أخرى. لا يخدم قضية النضال من أجل التغيير الاشتراكي للمجتمع. لا يمكن أن نتخلى عن النضال من أجل الاشتراكية أو الصراع بين العمل المأجور والرأسمال لمصلحة أي نوع من أنواع "الوحدة القومية". وحتى أثناء الكفاح ضد الاضطهاد القومي أيضا، يجب أن يكون النضال الطبقي الثوري في المقدمة.

شرح لينين ألف مرة أن الماركسيين الروس، باعتبارهم أبناء قومية مضطهدة (القومية الروسية العظمى)، عليهم النضال ضد السياسات والممارسات القمعية التي تنفذها برجوازيتهم، والدفاع عن حقوق تلك القوميات المضطهدة من قبل القومية الروسية. كان ذلك ضروريا لكي يظهر للعمال والفلاحين من القوميات الأخرى غير الروسية أن العمال الروس ليست لديهم أي مصلحة في اضطهادها، بل إنهم المدافعون الأكثر حزما عن حقوقها. وكدليل نهائي على ذلك، أمر لينين على ضرورة أن يرفع الحزب الروسي شعار حق القوميات في تقرير مصيرها. في الواقع كان العمال الروس يقولون للعمال البولنديين والفرنليين والجورجيين والأوكرانيين وغيرهم: «ليست لدينا أي مصلحة في إبقائكم في القيود. دعونا نوحدهم جهودنا لإسقاط المستغلين، ومن ثم سنمنحكم الحرية في تقرير ما ستكون عليه علاقاتكم معنا. نريد أن نوضح لكم أنكم ستعاملون على قدم المساواة المطلقة، وأنكم ستختارون البقاء معنا، لكن إذا قررت شيئا آخر، فهذا شأنكم الخاص، وسنناضل للدفاع عن حقوقكم، حتى لو كان ذلك يعني إقامة دولتكم الخاصة».

لم يقدم لينين أبدا أدنى تنازل للنزعة القومية، بما في ذلك قومية المظلومين. لقد كان الدافع وراء موقفه من المسألة القومية هو الإيمان العميق بالأممية والمهمة الثورية للبروليتاريا. «إذا سمح الماركسي الأوكراني لنفسه بأن تدفعه كراهيته، المشروعة والطبيعية بالتأكيد، للنزعة القومية الروسية التوسعية، إلى درجة أن ينقل ولو ذرة من هذه الكراهية، حتى وإن كانت مجرد نفور، إلى الثقافة البروليتارية والقضية البروليتارية للعمال الروس، فإن هذا الماركسي ينزلق بالتالي في مستنقع النزعة القومية البرجوازية. وبالمثل فإن الماركسيين الروس سينزلون، ليس فقط في النزعة القومية البرجوازية، بل أيضا في النزعة القومية للمائة السود، إذا ما هم توقعوا، ولو للحظة واحدة، عن المطالبة بالمساواة الكاملة للأوكرانيين، أو حقهم في تشكيل دولة مستقلة»<sup>2</sup>.

إن الهدف الرئيسي لشعار الحق في تقرير المصير هو بالضبط ضمان وحدة الطبقة العاملة. لكن الوجه الآخر للعملة هو أنه على الماركسيين من القوميات المضطهدة أن يركزوا على محاربة برجوازيتهم، على محاربة سموم النزعة القومية المضطهدة البرجوازية والبرجوازية الصغيرة، وشن كفاح شرس لمحاربة هيمنة النزعة القومية بين صفوف الطبقة العاملة. وعلاوة على ذلك كان لينين يعارض دوما إقامة منظمات منفصلة لعمال القوميات المضطهدة. كان الماركسيون الروس يدافعون عن وحدة الطبقة العاملة ومنظماتها، ليس الحزب فقط بل كذلك النقابات العمالية أيضا: «في مواجهة المشاحنات القومية للأحزاب البرجوازية المختلفة حول مسائل اللغة، وما إلى ذلك، تطرح الديمقراطية العمالية مطلب الوحدة غير المشروطة والاندماج التام للعمال من جميع القوميات في كل منظمات الطبقة العاملة -النقابات العمالية والتعاونيات، وجمعيات المستهلكين والجمعيات الثقافية، وغيرها- في وجه أي نوع من أنواع القومية البرجوازية. وحده هذا النوع من الوحدة والاندماج يمكنه أن يدعم الديمقراطية ويدافع عن مصالح العمال ضد

1: LCW, Critical Remarks on the National Question, vol. 20, p: 35.

2: Ibid., p: 33.

الرأسمال-الذي صار عالميا بالفعل ويصبح كذلك أكثر فأكثر- ويشجع تطور البشرية نحو نمط حياة جديد خال من كل الامتيازات وكل استغلال»<sup>1</sup>.

وهكذا فقد كان تقرير المصير مجرد جزء واحد فقط من برنامج يهدف إلى ضمان وحدة العمال في كل من القوميات المضطهدة والمضطهدة. إنه لا يعني على الإطلاق دعم النزعة القومية والانفصالية، كما يشرح لينين عندما يقول: «إن الاعتراف بهذا الحق [في تقرير المصير] لا يستبعد الدعاية والتحرير ضد الانفصال أو فضح النزعة القومية البرجوازية»<sup>2</sup>.

## حروب البلقان

لطالما كانت المسألة القومية حقل ألغام غادر، لأن مطلب التحرر الوطني وتقرير المصير ليس مسألة بسيطة، إذ يمكن أن تكمن القوى والمصالح الأكثر رجعية وراء ما قد يبدو للوهلة الأولى مطلباً تقدماً. لهذا أكد لينين على أن مطلب تقرير المصير لا يكون بدون قيد أو شرط، بل يجب إخضاعه لمصالح البروليتاريا والثورة العالمية. ليس الماركسيون ملزمين بدعمه في كل الأحوال والظروف، كما يظن البعض. لقد سبق لماركس أن أشار منذ زمن بعيد إلى الدور الرجعي الذي لعبته «الأمم الصغيرة» التي تحولت إلى أدوات في أيدي القوى الإمبريالية الكبرى. لقد انتقد بشكل خاص النزعة السلافية، التي استغلتها روسيا القيصرية من أجل الظهور بمظهر «محررة» السلاف، واستخدمت هذا الموقف للحصول على موطن قدم في البلقان. وعلى خطى ماركس، تميز موقف لينين تجاه المسألة القومية بإصراره الدائم على الموقف الطبقي. لقد حذر باستمرار من خطر السموم القومية وكتب بسخرية عن شعار «الحرية» الذي كانت البرجوازية تسعى لاستغلاله من أجل إخفاء مؤامراتها الرجعية وخداع الشعب.

كثيراً ما استخدم لينين في كتاباته عن المسألة القومية قبل عام 1914 مثال الطريقة التي انفصلت بها النرويج عن السويد في عام 1905. كان ذلك مثالا بسيطا جدا، وربما لهذا السبب اختاره لينين. لكن لسوء الحظ لا تكون المسألة القومية بهذه البساطة دائما. إن الموقف الذي يمكن للماركسيين اتخاذه من حق تقرير المصير، من حيث الدفاع عنه أو معارضته، مرتبط بالظروف الملموسة في كل حالة على حدة.

كتب لينين قائلاً: «إن الشرط الضروري الذي تفرضه النظرية الماركسية أثناء تحليل أي مسألة اجتماعية هو أن يتم دراستها ضمن حدود تاريخية معينة؛ وإذا كانت تلك المسألة تتعلق ببلد معين (بالبرنامج القومي لبلد معين على سبيل المثال)، يجب أن تأخذ بعين الاعتبار الخصائص الملموسة التي تميز هذا البلد عن سواه في نفس الحقبة التاريخية». وأضاف: «لا يمكن للماركسيين في أي بلد أن يضعوا برنامجهم القومي دون أن يأخذوا بالاعتبار جميع هذه الظروف التاريخية العامة وجميع الأوضاع الملموسة لهذه القومية»<sup>3</sup>.

يمكن للمرء أن يعتقد أن هذا واضح. لكن وكما يقول المثل: «القليل من المعرفة شيء خطير» لسوء الحظ. ألقى بعض ممن يعتبرون أنفسهم لينينيين نظرة خاطفة على كتابات لينين ولمحوا جملة «الحق في تقرير المصير» فاستخلصوا أنه من الضروري دائما ومهما كانت الظروف دعم كل مطالب الاستقلال. فإذا بكل ما شرحه لينين بكل حرص يتحول إلى ما يشبه التشنج العصبي الذي يدفع هؤلاء الذين يعانون منه إلى القفز كلما نفخت إحدى المجموعات القومية في البوق. إن المرء يتساءل حقا لماذا كلف لينين نفسه كل تلك المجهودات لكتابة كل تلك المجلدات، في حين يبدو بوضوح أن أولئك الذين يتحدثون ويتصرفون باسمه لم يفهموا ولو سطرًا واحدا مما كتبه!

وفي ضوء التطورات الأخيرة التي تعرفها منطقة البلقان، بعد تفكك يوغوسلافيا، من المفيد التذكير بالموقف الذي كان لينين قد اتخذه خلال حروب البلقان. هل قفز على الفور للدفاع عن هذا البلد أو ذاك من البلدان المتحاربة؟ كلا، على العكس تماما. لقد أدان حروب البلقان لأن جميع الأطراف كانت رجعية. ليس من الممكن أن تدعم الطبقة العاملة أيا من الأطراف المتحاربة، على الرغم من أنها جميعا (بطبيعة الحال) تحتج بصوت عال بأنها كانت ضحية للعدوان وأن «حقها في تقرير المصير» قد انتهك. كتب لينين عن نزاع البلقان: «لم يسبق أبدا ولا في أي مكان أن حصلت شعوب مضطهدة على «الحرية» عن طريق شن الحرب

1: Ibid., p: 22.

2: LCW, The National Program of the RSDLP, vol. 19, p: 544.

3: Lenin : LCW, The Right of Nations to Self-Determination, vol. 20, pp: 400-401.

ضد شعب آخر... لا يمكن تحقيق الحرية الحقيقية للفلاحين السلاف في البلقان، وكذلك للفلاحين الأتراك إلا من خلال الحرية الكاملة داخل كل بلد...<sup>1</sup>.

هذا هو لينين الحقيقي. هذا هو صوت موقفه الأممي الطبقي الثوري الحازم. كم يتناقض هذا مع الديماغوجيا الشوفينية المشيئة لقادة الأحزاب الشيوعية السابقة، مثل زيوغانوف اليوم الذي رمى بلينين في البحر وصار يردد الدعاية السلافية المقرفة التي طالما احتقرها ماركس ولينين.

في الفترة التي تلت الثورة الروسية الأولى، كانت هناك غيوم عاصفة تتجمع فوق أوروبا، التي سرعان ما تلقت درساً في أهمية المسألة القومية. وفي حين كانت الأحداث في روسيا تتجه نحو انقسام نهائي بين قوى الماركسية الثورية والقوى الإصلاحية، فإنه على الصعيد العالمي كان هناك إطلاق العنان لقوى أخرى. كانت التناقضات بين مختلف المجموعات المتنافسة من القوى الإمبريالية -ألمانيا، النمسا، المجر، بريطانيا، فرنسا، روسيا- بدأت تثير شبح الحرب على نطاق أكثر اتساعاً وأكثر رعباً مما كان عليه الأمر في الماضي. في المؤتمر الأممي الثاني، الذي انعقد في كوبنهاغن، من 15 إلى 25 غشت 1910، والذي كان الحزب الروسي ممثلاً فيه بلينين وبلخانوف، احتل النضال ضد النزعة العسكرية ومسألة الحرب مكانة مركزية في المناقشات. وكان لينين قد أدرج منذ مؤتمر شتوتغارت (غشت 1907) عدداً من التعديلات على قرار بخصوص الحرب، حيث أكد على ضرورة الاستفادة من الأزمة الاقتصادية والسياسية، في حالة اندلاع الحرب، لإسقاط الرأسمالية.

وصلت التناقضات الحادة بين القوى العظمى إلى نقطة الانفجار في البلقان في غشت 1914. لكن حتى قبل ذلك كانت خطوط الصدع قد ظهرت واضحة في حروب البلقان. لقد تسببت حروب شعوب البلقان من أجل التحرر من الحكم التركي في تسريع الانحطاط البطيء والمؤلم للإمبراطورية العثمانية. وبعد سلسلة من الحروب تمكنت كل من اليونان وصربيا وبلغاريا من تحقيق حريتها، لكنها تحولت إلى بياض في يد مختلف القوى الأوروبية (بريطانيا وروسيا والنمسا وروسيا) وأوراق لعب للدبلوماسية الإمبريالية. كانت فرنسا تضغط على روسيا لاتخاذ موقف أكثر صرامة في البلقان ضد النمسا-المجر التي قامت فجأة، في خريف عام 1908، بتوسيع مستعمراتها في البلقان بضم البوسنة والهرسك، الشيء الذي شكل استفزازاً واضحاً لحكومة سان بيترسبورغ. لكن روسيا القيصرية كانت بدورها تلعب دور المفترس في هذه اللعبة الشرسة من أجل توسيع النفوذ السياسي. إذ استمر هدفها الرئيسي طيلة عقود هو دعم بلغاريا وصربيا ضد تركيا، تحت راية النزعة السلافية المناقفة، من أجل السيطرة ليس فقط على البلقان، بل وعلى تركيا نفسها. استمر الهدف المركزي لسياستها هو الاستيلاء على القسطنطينية، وبالتالي الحصول على منفذ إلى المياه الدافئة وممر نحو البحر الأبيض المتوسط. كان هذا هو الهدف الحقيقي وراء تأسيس "اتحاد الممالك الأربع" ضد تركيا.

كما كشفت الضجة التي تلت ضم النمسا للبوسنة عن الطموحات الإمبريالية للبراليين البرجوازيين الروس، الذين طالبوا بأن تتدخل روسيا في البلقان. أدان زعيم الكاديت اليميني، غوتشكوف، قرار الحكومة بعدم الدخول في الحرب بسبب البوسنة باعتباره خيانة للسلاف. قال إن الحكومة الروسية أبانت عن "الكسل والترهل"، في حين أن الشعب الروسي على استعداد لخوض "الحرب الحتمية مع الأعراق الجرمانية". وراء هذا العداء كانت تكمن الحسابات السياسية الباردة للبرجوازية الروسية التي كانت تتطلع إلى الأرباح التجارية الكبيرة من وراء الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البحر الأسود وطرق التجارة عبر المضائق. ندد ستروفه بالمسألة البوسنية باعتبارها "عاراً قومياً"، وأكد أن قدر روسيا هو إيصال حضارتها إلى "كامل حوض البحر الأسود". وقال رئيس مجلس الدوما، ميخائيل رودزيانكو، للقيصر، في مارس 1913: «يجب أن تصير المضائق ملكاً لنا. سيتم الترحيب بالحرب بفرح وستزيد من هيبة الحكومة»<sup>2</sup>. كان هناك أيضاً عمل غير منته في البلقان، حيث أن جزءاً كبيراً من أراضي البلقان (مقدونيا) استمرت تحت الحكم التركي. في 26 شتبر 1912 اندلعت حرب البلقان الأولى. حيث اتحدت مونتينيغرو وصربيا وبلغاريا واليونان (اتحاد الممالك الأربع) ضد تركيا. من الناحية الرسمية كانت تلك حرب تحرر وطني لشعوب البلقان ضد الأتراك المضطهدين، لكن وراء الشعارات التي طالبت بشكل ديماغوجي بالحرية وتقرير المصير، كانت هناك الطموحات التوسعية لمختلف البرجوازيات القومية، والتي كانت تقف وراء كل منها هذه أو تلك من القوى الكبرى، العازمة على شن الحرب بالوكالة ضد منافسيها. كانت كل من فرنسا وألمانيا وبريطانيا والنمسا-المجر كلها تراقب الموقف في البلقان بمزيج من الجشع والخوف والقلق.

تعرضت الإمبراطورية العثمانية المتهالكة للهزيمة في حرب البلقان الأولى. وفي النهاية تم التخلص من نير تركيا، لكن سرعان ما استُبدل بنير الملاكين العقاريين والرأسماليين "القوميين" الصرب واليونانيين والبلغاريين. وعلاوة على ذلك بدأ هؤلاء في الصراع فيما

1: Lenin, *Collected Works*, (بالروسية), vol. 22, pp: 151-152.

2: O. Figs, *A People's Tragedy*, p: 247-248.

بينهم حول غنائم النصر مثلما تتصارع الكلاب المسعورة على قطعة عظم. توصل مؤتمر لندن، في ربيع عام 1913، أخيراً إلى تحقيق "السلام" في البلقان، بعد حرب البلقان الأولى، لكن ذلك لم يضمن عدم اندلاع حرب جديدة أكثر وحشية، حرب سوف تجر إلى أتونها في النهاية ليس بلدان البلقان وحدها، بل العالم بأسره. صادق مؤتمر لندن على حق القوى العظمى في التدخل في البلقان. كان ذلك التدخل واقعا ملموسا على أي حال، إذ وراء كل طغمة حاكمة في أنظمة البلقان "المستقلة" كانت تقف هذه أو تلك من القوى الأوروبية الكبرى. وكانت كل واحدة من هذه القوى متحدة في أحد الحلفين الكبيرين: الحلف الثلاثي الذي تقوده ألمانيا، و"الوفاق" بقيادة بريطانيا. كانت لدى النمسا- المجر وألمانيا أيضا، مثلهما مثل روسيا، طموحات في البلقان والتي يمكن تلخيصها في السؤال التالي: مَنْ مِنْ حقه أن يرث الإمبراطورية العثمانية؟ أما الأنظمة الوطنية المختلفة في البلقان فقد كانوا في الحقيقة مجرد عملاء للدول الإمبريالية.

سرعان ما اتضح الدور الرجعي للبرجوازيات القومية في البلقان في نزعتها التوسعية المشؤومة، كما ظهر في سياسة "بلغاريا العظمى"، "صربيا العظمى"، "اليونان العظمى"، والذي لم يكن يعكس سوى جشع الملاكين العقاريين والرأسماليين، الذين كانوا يتآمرون مع القوى العظمى لتدمير كل شعوب البلقان.

اندلعت الحرب الجديدة في 06 يونيو 1913، عندما هاجمت بلغاريا كلا من اليونان وصربيا. ثم انضمت رومانيا التي استشعرت إمكانية تحقيق غنائم سهلة. كما هاجمت تركيا بلغاريا التي عانت من هزيمة فادحة وفقدت الكثير من الأراضي. يدل هذا على مدى فراغ مفهوم الاضطهاد "الاستعماري" عندما ينظر إليه نظرة صورية وغير دياكتيكية. إن القوميات التي كانت مستعمرة ومجموعة سابقا يمكنها أن تتحول إلى عكس ذلك. يمكن القول بأن الحرب ضد تركيا كان لها جانب تقدمي إلى حد ما، عندما كانت (نظريا على الأقل) تخاض من أجل تحرير المقدونيين من نير الأتراك، على الرغم من أن مختلف دول البلقان كانت من الناحية العملية تسعى بالفعل إلى التوسع على حساب جيرانها. لكن حرب البلقان الثانية كانت ذات طابع رجعي وإمبريالي واضح، حيث حاربت العصابات الحاكمة اليونانية والبلغارية والصربية والرومانية بعضها البعض لتقسيم الغنائم.

لم تكن هناك ذرة من المحتوى التقدمي في أي من تلك المواجهات. كما لا يمكن رفع مطلب حق تقرير المصير لحل المأزق الدموي الذي أصاب البلقان في ذلك الوقت واستمر منذ ذلك الحين. إن السبيل الوحيد للخروج من المأزق الدامي في البلقان هو انتصار الثورة بقيادة الطبقة العاملة لبناء فدرالية بلقانية ديمقراطية. كان هذا هو موقف لينين وأيضاً موقف كل الاشتراكيين والديمقراطيين في البلقان، ولا سيما أعظمهم: كريستيان راکوفسكي. كانت تلك الحروب "الوطنية"، كما أوضح لينين، أكثر كلفة من حيث الخسائر البشرية مما كانت ستكلفه الثورة. فبدون ثورة بقيادة الطبقة العاملة بتحالف مع الفلاحين الفقراء لم يكن هناك أي حل ممكن في البلقان. لقد شرح تروتسكي البرنامج الحقيقي الذي دافع عنه الماركسيون في ما يخص المسألة البلقانية في مقاله: "المسألة البلقانية والاشتراكية الديمقراطية"، الذي ظهر في البرافدا في 01 غشت 1910، حيث قال: «إن السبيل الوحيد للخروج من الفوضى القومية والارتباك الدموي في البلقان هو اتحاد جميع شعوب شبه الجزيرة في كيان اقتصادي وسياسي واحد، على أساس الحكم الذاتي لجميع المكونات. فقط في إطار دولة بلقانية واحدة سيمكن لصرب مقدونيا والسنجاك وصربيا ومونتينيغرو أن يتحدوا في جماعة ثقافية قومية واحدة، ويتمتعوا في نفس الوقت بمزايا السوق المشتركة البلقانية. وحدهم شعوب البلقان المتحدون من يمكنهم أن يتصدوا فعلا للأطماع الوقحة للنظام القيصري والإمبريالية الأوروبية»<sup>1</sup>.

وقد عبر لينين عن نفس الموقف في مقالته: "حرب البلقان والشوفينية البرجوازية"، حيث قال: «كان في مقدور شعوب البلقان أن تنجز هذه المهمة بشكل أكثر سهولة مما هو عليه الحال الآن، وبكم أقل من التضحيات من خلال تشكيل جمهورية بلقانية فدرالية. سيصير الاضطهاد القومي والمشاحنات القومية والتحرير على أساس الاختلافات الدينية أشياء مستحيلة في ظل الديمقراطية الكاملة والمتسقة. كان من الممكن أن تضمن شعوب البلقان تنمية سريعة ومكثفة وحررة»<sup>2</sup>. لقد نظر تروتسكي، مثله مثل لينين، إلى المسألة البلقانية ليس على أساس قومي، بل على أساس طبقي، حيث كتب: «إن الضمانة التاريخية لاستقلال البلقان وحرية روسيا توجد في التعاون الثوري بين عمال بيترسبورغ ووارسو وعمال بلغراد وصوفيا»<sup>3</sup>.

ما تزال هذه الأفكار صحيحة حتى اليوم، باستثناء أنه يجب استبدال شعار الفدرالية الديمقراطية بشعار الفدرالية الاشتراكية الديمقراطية لشعوب البلقان باعتبارها الحل الوحيد للتغلب على إرث البلقنة الفظيخ الذي لم تتمكن لا الرأسمالية ولا الستالينية

1: Trotsky, *The Balkan Wars 1912-13*, pp: 39-40.

2: LCW, *The Balkan War and Bourgeois Chauvinism*, vol. 19, p: 39.

3: Trotsky, *The Balkan Wars 1912-13*, pp: 41-42.

من القضاء عليه.

### اقتراب العاصفة

كانت الأهمية الحقيقية لحروب البلقان هي أنها كشفت بوضوح عن وجود ميول نحو اندلاع حرب عالمية. كانت التوترات بين القوى الإمبريالية الكبرى تتراكم بشكل متواصل لتبلغ النقطة الحرجة حيث يمكن لأي حادث أن يشعل مواجهة شاملة. كان الأمل الوحيد في تجنب الحرب ليس التصريحات السلمية، بل الحركة الثورية للطبقة العاملة. هذا هو الموقف الذي تبناه لينين وروزا لوكسمبورغ في المؤتمرات الأممية التي سبقت مباشرة الحرب العالمية الأولى. كان يبدو نظريا أن قوى الحركة الاشتراكية الأممية أكثر من كافية لوقف الحرب، ففي عام 1914، كانت الأممية الثانية منظمة جماهيرية تضم 41 حزبا في 27 بلدا ويبلغ عدد أعضائها حوالي 12 مليون عامل. وكانت القرارات التي اتخذتها الأغلبية الساحقة في مؤتمري شتوتغارت وبال قد تعهدت بمعارضة الحرب بكل الوسائل المتاحة.

لم يكن موقف لينين من الحرب قائما على "النزعة الحربية" ولا على النزعة السلمية العاطفية، بل كان موقفه ثوريا بشكل كامل. من بين أسوأ الافتراءات التي وجهت ضد لينين أنه كان "محباً للحرب". ويرتبط هذا الزعم مرارا بتفسير خاطئ لفكرته عن "الانهزامية الثورية" التي أساء فهمها الجميع تقريبا. وعندما سأل صحفي بولندي (ماجكوسين) لينين قبيل الحرب العالمية الأولى، عما إذا كانت الحرب ستعجل بالثورة وهل هو يريد الحرب، قال: «كلا، لا أريد ذلك... إني أفعل كل ما بوسعي، وسأواصل القيام بذلك حتى النهاية، لعرقلة التعبئة للحرب. لا أريد أن يضطر ملايين البروليتاريين إلى ذبح بعضهم البعض مدفوعين بعصا الرأسمالية. لا يمكن أن يكون هناك أي سوء فهم بخصوص هذه النقطة: إن التنبؤ بموضوعية باحتمال اندلاع الحرب، والسعي للاستفادة منها بأكبر ما يمكننا في حالة وقوع مثل ذلك الحدث المؤسف، شيء؛ أما الرغبة في الحرب والعمل من أجل اندلاعها، فذلك شيء مختلف تماما»<sup>1</sup>.

في نوفمبر 1912، عُقد مؤتمر بال الأممي الاستثنائي. وقد أظهر العدد الهائل للمندوبين قوة المنظمات العمالية العالمية، حيث حضر ما مجموعه 555 مندوبا يمثلون 23 بلدا لمناقشة القضية الكبرى على جدول الأعمال آنذاك. كان الاتجاه السائد في المؤتمر آنذاك هو النزعة السلمية. وقد قرأ الاشتراكي الفرنسي الكبير جان جوريس قرارا مناهضا للحرب يقول فيه: "إن البروليتاريا تطالب بالسلام بأشد العبارات حيوية". لكن مثل هذه الإعلانات العامة "من أجل السلام" لا تساوي حتى قيمة الورق الذي تكتب عليه في حالة اندلاع الحرب. هناك حاجة إلى شيء آخر من أجل تحويل مثل تلك المشاعر العامة إلى برنامج للنضال ضد الحرب. ولذلك قام لينين، خلال مؤتمر شتوتغارت، في عام 1907، باقتراح تعديل ينص على أنه في حالة اندلاع الحرب، على الطبقة العاملة أن تستغل الوضع لإسقاط الرأسمالية. تلك في الواقع هي الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها إيقاف الحرب. من المثير للدهشة أن التعديل الذي اقترحه لينين تمت الموافقة عليه بالإجماع. لكن، وكما اتضح فيما بعد، لم تكن لدى قادة الأممية الاشتراكية الديمقراطية أدنى نية على الإطلاق في تنفيذ مثل تلك القرارات.

كانت هذه هي القاعدة العامة في جميع أحزاب الأممية الثانية تقريبا. كان البرنامج الثوري يحفظ بأمان في الرفوف، مسطرا في دستور الحزب، ليتم إخراجه ونفض الغبار عنه وقراءته في اجتماعات فاتح ماي، لكي يعاد مرة أخرى إلى الرفوف لبقية العام. كانت هناك هوة لا يمكن ردمها بين النظرية والممارسة عند الحركة الاشتراكية الديمقراطية. لقد آمنت الجماهير بالأهداف الاشتراكية للحزب، لكن معظم القادة كانوا قد غرقوا في عالم السياسة البرلمانية الخانع، والتي كانت في أحسن الأحوال بدون جدوى، بل كانت عبئا هائلا. وقد لخص أب التحريفية، إدوارد برنشتاين، نظرتهم بشكل جيد في عبارته المجنحة حين قال: "الحركة كل شيء، الهدف النهائي لا شيء".

لكن في حين كان قادة الأممية الثانية ينومون العمال بمنظورات التغيير السلمي والتدريجي والإصلاحات، كان النظام الرأسمالي يستعد لكي يوقظ جميع طبقات المجتمع بشكل قاس. لم تحل حروب البلقان أي شيء، لكنها رفعت درجة حرارة العلاقات الدولية إلى مستويات عالية. تم تقسيم مقدونيا بين اليونان و صربيا، واستولت رومانيا على جزء من الأراضي البلغارية (جنوب دوبرودجا)، وفي غرب البلقان ظهرت ألبانيا مستقلة جديدة. لكن صربيا، وعلى الرغم من انتصارها، منعت من الوصول الآمن إلى البحر الأدرياتيكي، وهو الهدف الذي كانت تدعمه روسيا. كما أن بلغاريا التي كانت قد تعرضت للهزيمة والإهانة في حرب البلقان الثانية، كانت

1: V.I. Lenin. *Biography*, Moscow, 1963, p: 213.



تنتظر الفرصة لأخذ ثأرها وانضمت إلى معسكر ألمانيا والنمسا. أما تركيا، القوة المهزومة الأخرى، فقد صارت، بسبب الخوف من روسيا، أقرب إلى ألمانيا التي أبرمت معها تحالفاً في غشت 1914. ومن ناحية أخرى صارت صربيا ومونتني نيغرو أكثر قرباً من روسيا للدفاع عن نفسيهما ضد النمسا- المجر، في هذا السياق قال وزير الخارجية الروسي، سازونوف: "مهمتنا الأساسية هي ضمان التحرر السياسي والاقتصادي لصربيا"<sup>1</sup>. لقد كان العالم ينزلق بشكل جارف نحو الحرب.

في روسيا شنت الصحافة الشرعية البلشفية تحريضا حازما ضد الحرب، مركزة على فضح أهداف النظام القيصري الحقيقية من وراء الحرب في البلقان. كانت شعارات لينين هي: "لا للتدخل الأجنبي في حرب البلقان... نعم للحرب ضد الحرب! لا لأي تدخل! نعم للسلام: هذه هي شعارات العمال". وعلى عكس الانفعالات العاطفية لدعاة السلام، كان لينين دائما ينظر إلى مسألة الحرب من وجهة نظر طبقية، ويكشف المصالح التي تكمن وراء الشعارات الوطنية. كانت مقالات لينين تندد باستمرار بالرأسماليين ومصنعي الأسلحة، وتكشف عن الأهداف الحقيقية لسعي النظام القيصري الروسي إلى الحرب، وتظهر أساسها المادي ومحتواها الطبقي. طالما كان يطرح السؤال بلغة المحاماة: "cui prodest؟"، أي من يستفيد من السباق نحو التسليح؟ لم يكن هناك أي مجال لدعم أي طرف في نزاع البلقان. لم تكن الحرب لتخدم مصالح شعوب البلقان. وكانت الفكرة القائلة بأن حق تقرير المصير لهذه أو تلك من دويلات البلقان يبرر انخراط أوروبا كلها في الحرب، فكرة إجرامية. في وقت لاحق، في عام 1915، أوضح لينين أنه إذا كانت الحرب مسألة نزاع عسكري بين صربيا والنمسا وحدهما، لكان من الضروري دعم صربيا، من وجهة نظر حقوق الشعوب في تقرير مصيرها. ومع ذلك فإن هذا الحق لم يكن يعتبر من وجهة نظر لينين حقا مطلقا وفي جميع الأوقات والظروف. لا يمكن بأي حال من الأحوال لكفاح الصرب، أو أي شعب آخر، من أجل تقرير المصير أن يبرر إغراق العالم كله في الحرب. في هذه الحالة، كما هو الحال دائما، يتم إخضاع حق تقرير المصير لمصالح الطبقة العاملة والثورة العالمية.

### هو تأثير البلاشفة

لقد قام النواب البلاشفة في مجلس الدوما بواجبهم بخصوص مسألة حرب البلقان، ففي 12 يونيو 1913، أعلن باداييف في مجلس الدوما رفض البلاشفة التصويت لميزانية الحرب، ورفع شعار التحدي: "ولا كوبيك واحد لميزانية الأسلحة". كما تم تنظيم التحريض الجماهيري ضد الحرب، مع إصدار قرارات في اجتماعات المصانع تشجب حرب البلقان والتهديد المتصاعد باندلاع حرب عالمية. وفي الوقت نفسه كانت هناك مظاهرات مناهضة للحرب في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا. ومع بداية عام 1914 المشؤوم، اندلعت إضرابات كبيرة ومظاهرات تخليدا لذكرى يوم الأحد الدامي يوم 09 يناير. ففي سان بيترسبورغ وريغا وموسكو ونيكولايف ووارسو وتيفر وكيف وخيسو ودرينسك، وغيرها من المراكز العمالية، شارك 260.000 شخص في المظاهرات، وكانت تلك مجرد البداية فقط. في الفترة ما بين 17 و20 مارس في سان بيترسبورغ انخرط في الإضراب 156.000 عامل، وفي ريغا 60.000 وفي موسكو 10.000. لقد كان الجو متأججا. كانت روسيا تتجه بسرعة نحو وضع ثوري جديد. في 22 أبريل تم استبعاد النواب البلاشفة والمناشفة والترودوفيك من الدوما بتهمة "عرقلة" عمل المجلس. وشارك أكثر من 100 ألف عامل في الإضرابات السياسية الاحتجاجية في موسكو وسان بيترسبورغ.

توالت موجات الإضرابات الواحدة تلو أخرى. في 01 ماي أضرب أكثر من نصف مليون عامل عن العمل وخرجوا للتظاهر: في سان بيترسبورغ كان هناك 250.000 وفي ريغا 44.000 وفي موسكو 32.000 وفي القوقاز حوالي 20.000. لقد تجاوزت تلك الحركة، في حجمها وامتدادها، حتى ثورة عام 1905. وفي مقاله "فاتح ماي الثورة"، أشار لينين إلى أن هناك شرطين أساسيين للوضع ما قبل الثوري: أن تصير الجماهير غير قادرة على العيش كما من قبل، وأن تصير الطبقة الحاكمة غير قادرة على أن تحكم كما من قبل. كان هذا بوضوح هو الحال في روسيا، فعشية الحرب العالمية كانت روسيا تتجه بسرعة نحو ثورة جديدة. كانت الحركة العمالية في حالة من الغليان المستمر. وقد أوضح باداييف نمو نفوذ الحزب، من خلال حديثه عن هيكل منظمة سان بيترسبورغ وعمل لجنتها:

«جميع الأنشطة في منطقة سان بيترسبورغ الآن تحت رقابة اللجنة التي تعمل منذ خريف العام الماضي. تمتلك اللجنة اتصالات في جميع الورشات والمصانع ويتم إبلاغها بجميع التطورات هناك. وفيما يلي شكل تنظيم منظمة المنطقة: في المصنع، يشكل أعضاء الحزب نواة في ورشات العمل المختلفة، ويشكل مندوبو الأنوية لجنة مصنع (في المصانع الصغيرة يشكل الأعضاء أنفسهم اللجنة).

1: B.H. Sumner, *A Survey of Russian History*, p: 380.

تقوم كل لجنة مصنع، أو نواة ورشة عمل في المصانع الكبيرة، بتعيين مسؤول عن جمع الانخراطات، يقوم عند يوم قبض الراتب بجمع المستحقات وغيرها من مساهمات الصناديق واشتراكات الصحف، وما إلى ذلك. كما يتم تعيين مراقب لزيارة المؤسسات التي تم جمع الأموال فيها، للتأكد من أن المبالغ صحيحة ويقوم بجمع المال المحصل عليه. من خلال هذا النظام يتم تجنب حدوث التجاوزات في التعامل مع المال.

تنتخب كل لجنة محلية بالاقتراع السري لجنة تنفيذية مؤلفة من ثلاثة أعضاء، مع الحرص على ألا يكون جميع أعضاء اللجنة على علم بمن هم أعضاء اللجنة التنفيذية بالفعل.

ترسل اللجان التنفيذية للمنطقة مندوبين عنها إلى لجنة سان بيترسبورغ، وتحاول مرة أخرى التأكد من ألا تكون أسماؤهم معروفة من طرف كل أعضاء لجنة المنطقة. كما تنتخب لجنة سان بيترسبورغ لجنة تنفيذية من ثلاثة أعضاء. وفي بعض الأحيان، ولأسباب تتعلق بالسرية، يكون من غير الصحيح انتخاب المندوبين من طرف لجنة المنطقة بل يتم اختيارهم وفقاً لتقدير لجنة سان بيترسبورغ.

بفضل هذا النظام كان من الصعب على الشرطة السرية أن تعرف من هم أعضاء لجنة سان بيترسبورغ، الشيء الذي مكنتها بالتالي من مواصلة عملها وتوجيه أنشطة المنظمات والإعلان عن الإضرابات السياسية، إلخ.

تحظى اللجنة باحترام كبير من جانب العمال الذين ينتظرون توجيهاتها في جميع المسائل الهامة ويتبعون تعليماتها. وكانوا يولون اهتماماً خاصاً للنشرات التي تصدرها من وقت لآخر.

قررت المنظمات النقابية في سان بيترسبورغ عدم الدعوة إلى الإضرابات السياسية بمبادرة خاصة منها، بل أن تعمل فقط بناء على تعليمات لجنة سان بيترسبورغ. وقد كانت تلك اللجنة هي التي أصدرت الدعوة إلى الإضرابات في 09 يناير و04 أبريل و01 ماي. استاء العمال بشدة من القمع الذي تعرضت له جريدة برافدا وأرادوا خوض إضراب، لكن اللجنة قررت أنه من الضروري أولاً الإعداد له بشكل صحيح وإصدار نشرة توضيحية يجب أن تصل إلى الجماهير. في غضون بضعة أيام ظهرت جريدة أخرى، ولأنها كانت تتبع نفس السياسة، اطمأن العمال إلى حد ما. وعلى الرغم من عدم إصدار أي دعوة لخوض الإضراب فقد ترك حوالي 30.000 عامل عملهم.

تكتسي المنشورات أهمية كبيرة، وقد كرست اللجنة الكثير من الجهد لإتقان آلياتها لطباعتها وتوزيعها. كانت اللجنة تتكون بالكامل من العمال، وكنا نكتب المنشورات بأنفسنا ونجد صعوبة في العثور على مثقفين للمساعدة في تصحيحها.

لقد أدت الإضرابات السياسية في سان بيترسبورغ إلى تقوية المنظمة. يمكن التأكيد على أن منظمة سان بيترسبورغ قد أعيد إحيائها وتقويتها وصارت تتطور، بفضل حركة الإضرابات السياسية. ويظهر صراخ التصفيوين حول "حمى الإضرابات" أنهم منفصلون تماماً عن المنظمات العمالية وعن حياة الجماهير؛ لقد فشلوا كلياً في فهم ما يجري الآن بين العمال. من موقعي في وسط الحركة العمالية في سان بيترسبورغ، ألاحظ في كل مكان أن قوة العمال آخذة في التزايد، كما ألاحظ كيف تظهر نفسها وكيف ستتغلب على كل العراقيل.

قام العمال بقراءة قرارات كونفرانس كاراكوف ودراستها في المصانع وصارت الموجه لكل عمل منظمنا. تم إثبات صحتها بشكل كامل في الممارسة؛ وبما أنني شاركت بنشاط في العمل شعرت طوال الوقت أن الخط السياسي كان صحيحاً. نادراً ما كنت أقابل تصفويماً أو أستمع لواحد منهم؛ لكن ما فاجأني في البداية، هو أنني علمت في اجتماع لعمال المعادن أنهم صاروا غير موجودين تقريباً في سان بيترسبورغ»<sup>1</sup>.

كان تأثير البلاشفة ينتشر باستمرار إلى فئات جديدة من الطبقة العاملة: إلى الشباب والنساء. وكانت برافدا هي السلاح الرئيسي لهذا العمل. تمت مبيعاتها إلى 40.000 نسخة في اليوم، في حين كانت صحيفة المناشفة "لوش" (الشعاع) تباع 16.000 نسخة على أقصى تقدير. كان البلاشفة دائماً يأخذون مسألة العمل الثوري بين النساء العاملات على محمل الجد. وكان لينين على وجه الخصوص، يعلق أهمية كبيرة على هذه المسألة، وخاصة في فترة النهوض الثوري ما بين 1912 و1914، وخلال الحرب العالمية الأولى. كان ذلك هو الوقت الذي بدأ فيه الاحتفال باليوم العالمي للنساء، 23 فبراير (08 مارس)، بتنظيم مظاهرات عمالية جماهيرية. ليس من قبيل الصدفة أن تكون ثورة فبراير (مارس حسب التقويم الجديد) قد اندلعت على خلفية اضطرابات حدثت في اليوم العالمي

1: A.Ye. Badayev, *Bolsheviks in the Tsarist Duma*, pp: 117-118.

للنساء، عندما تظاهرن ضد الحرب وارتفاع تكاليف المعيشة.

بدأ الاشتراكيون الديمقراطيون العمل بثبات بين النساء العاملات خلال نهوض 1912-1914. نظم البلاشفة أول اجتماع لتخليد اليوم الأممي للمرأة في روسيا عام 1913. وفي العام نفسه، بدأت برافدا تنشر بانتظام صفحة مخصصة للقضايا التي تواجه النساء. كما أصدر البلاشفة صحيفة نسائية، رابوتنيستا (العاملة)، في عام 1914، والتي تزامن عددها الأول مع اليوم العالمي للمرأة، كما نظم الحزب مظاهرات أيضا. تعرضت الصحيفة للمنح في يوليو مع بقية الصحافة العمالية. كانت الجريدة البلشفية مدعومة ماليا من قبل العاملات واللائي كن يوزعنها في أماكن العمل. كانت تنشر تقارير عن ظروف عيش وعمل العاملات في روسيا والخارج ونضالاتهن، وحثت النساء على الانضمام إلى النضال مع زملائهن الرجال، كما حثتهن على رفض الحركة النسوانية التي أسستها النساء البرجوازيات بعد ثورة 1905.

كانت المسألة الرئيسية المطروحة هي النضال من أجل قيادة النقابات التي كانت تقليديا تحت سيطرة المناشفة. قبل الحرب العالمية الأولى، كانت النقابات في معظم البلدان تمثل أقلية من الطبقة العاملة، وكانت تحت هيمنة العمال المؤهلين الذين كانوا يتمتعون بأجور أعلى وظروف عمل وعيش أفضل من بقية العمال. هذه الفئة، التي وصفها ماركس بـ "الأرستقراطية العمالية"، كانت في كثير من الأحيان تحت تأثير الليبراليين، ولم يكن من قبيل المصادفة أن النقابات العمالية، ولا سيما الفئة القيادية فيها، كانت تميل عضويا نحو النزعة المحافظة والانتهازية. لم تكن روسيا استثناء للقاعدة مما يفسر لماذا كان المناشفة أقوى تقليديا من البلاشفة في هذا الوسط.

كانت نقابات عمال سان بيترسبورغ، من بين النقابات الأكثر قوة والأفضل تنظيماً، كانت تضم أكثر من 30.000 عضو في عام 1914، بينما في روسيا بأكملها لم يكن هناك أكثر من 100.000 عامل نقابي، وهي نسبة صغيرة من مجموع القوى العاملة. ومع ذلك فإن النقابات بصفقتها الهيكل القاعدية للطبقة العاملة، كانت ذات أهمية أساسية لأي تيار يتطلع إلى قيادة الجماهير. على الرغم من كل الصعوبات، قام البلاشفة بعمل ثوري صبور من أجل كسب الأغلبية حتى في أكثر النقابات بيروقراطية ورجعية. وفي نهاية المطاف تكلل هذا العمل المضني والصبور بالنجاح.

بحلول 1913-1914، كان البلاشفة في وضع يسمح لهم بتنظيم تدخل في جميع المؤتمرات النقابية والقيام بتحد ناجح للجناح اليميني. تمكنوا في صيف عام 1914، من كسب الأغلبية في نقابات موسكو وسان بيترسبورغ. ومن بين 19 نقابة عمالية في سان بيترسبورغ، دعمت 16 نقابة البلاشفة، في حين أن ثلاثة فقط (نقابات الرسامين والموظفين والصيدلة) دعمت المناشفة. أما في موسكو فقد كانت جميع النقابات العمالية الثلاث عشر تدعم البلاشفة. وبالنظر للتأثير التقليدي للمناشفة داخل النقابات، كان هذا التقدم مذهلاً بشكل خاص، وشكل مؤشراً عن تغيير كامل في مزاج الطبقة العاملة.

بفعل تنامي الحركة الجماهيرية الثورية صار الجناح اليميني يفقد قاعدة دعمه التقليدية بين فئات العمال المؤهلين داخل الطبقة العاملة والنقابات. وتعطي تصريحات قادة المناشفة في تلك الفترة اعترافاً صريحاً بعزلتهم المتنامية عن الطبقة العاملة. اشتكى أ. ل. شخنكي، عضو مجلس الدوما عن منطقة كارس وباتوم، في اجتماع لفريق المناشفة في مجلس الدوما، يناير 1914، من: "أننا فقدنا كل علاقاتنا مع الطبقة العاملة". وتلقى هذا التقييم تأكيداً رسمياً في اجتماع اللجنة المركزية في فبراير والذي اعترف بأن "فريق الدوما يقف على مسافة بعيدة من الجماهير الشعبية". ليس من الصعب العثور على سبب خسارة المناشفة للدعم الجماهيري، فقد كانت كل سياستهم تقوم على توثيق علاقاتهم مع البورجوازية الليبرالية، حيث كانوا يبحثون عن الحلول في الأعلى وليس في الأسفل. وبالتالي فقد أدى اندفاع الحركة الجماهيرية على شكل موجة إضرابات عاصفة إلى مفاجأتهم، بل إنهم اعتبروها في الواقع مصدر إزعاج، إذ كانوا يخافون أي شيء قد يؤدي إلى إخافة أصدقائهم الكاديت. كان موقف عدم الثقة في الحركة الجماهيرية هذا مرتبطاً بشكل وثيق بمفهومهم عن الثورة الروسية باعتبارها مهمة برجوازية. كان من المفترض أن تتصرف الجماهير بـ "مسؤولية"، وأن تقبل بدور العازف الثاني وراء البرجوازية وألا "تذهب بعيداً".

كتب روبرت ماكين: «بقي المناشفة أيضاً متناقضين للغاية في موقفهم من الإضرابات. وقد جاءت تحفظاتهم جزئياً من تفسيرهم للشكل الذي يجب أن تتخذه الثورة البرجوازية في الظروف الروسية وكذلك لموقفهم من طبيعة الأزمة المعاصرة... [لكن] أكبر مخاوف المثقفين المناشفة هو أن تؤدي الاضطرابات العمالية، التي يبدو أنها لا تتوقف ولا يمكن السيطرة عليها، إلى إخافة "الحلفاء البرجوازيين" المحتملين».

وفي مقال نشر في ناشا زاريا، حذر دان من أنه: "في النضال السياسي ليس دائما الإضراب هو الوسيلة الوحيدة المناسبة"<sup>1</sup>. بالطبع فبالنسبة للقادة العماليين الإصلاحيين لا يكون الإضراب، أو أي مبادرة جماهيرية أخرى تأتي من الأسفل، أبدا "سلوكا مناسباً". لكن الجماهير ترى الأمور بشكل مختلف، وسرعان ما تتعلم كيف تميز بين القادة والمنظمات الذين يدعمونهم في النضال وبين أولئك الذين يلعبون دور خراطيم إطفاء الحرائق لصالح البرجوازية.

لم يبد البلاشفة أي تحفظ من ذلك القبيل، وبالتالي سرعان ما وسعوا نفوذهم داخل النقابات، وخاصة النقابات الصناعية الرئيسية، مثل نقابة عمال التعدين. بل حتى النقابات التي كانت تقليديا تحت هيمنة المناشفة، مثل نقابة عمال المطابع، ابتعدت بدورها عن التصفيين، الذين تزايدت عزلتهم وتقلصت شعبيتهم بشكل مستمر. في صيف عام 1913 تعرضوا للهزيمة في انتخاب نقابة عمال المطابع بموسكو، وحدث نفس الشيء في منطقة بحر البلطيق خلال الخريف. وفي أبريل 1914، فاز البلاشفة بنصف المقاعد في الأجهزة القيادية لنقابة عمال المطابع في بيتربورغ. كان هذه التقدم النشط والناجح داخل النقابات تمرينا لما سيحدث لاحقا في عام 1917. إن المزج الماهر بين العمل داخل منظمات الحزب السرية وبين اختراق جميع أنواع منظمات العمال الشرعية: النقابات والتعاونيات وجمعيات التأمين (kassy)، والصحافة الشرعية والدوما، قد أبان في الواقع العملي عن أنه الطريق الصحيح الوحيد.

الأرقام الخاصة بالنقابات -التي لم تكن تضم سوى أقلية صغيرة من العمال وإن كانت مهمة- لا تمنحنا بأي حال من الأحوال صورة كاملة عن قوة الحزب في ذلك الوقت. في معظم المدن فاز البلاشفة بنفوذ كبير تقريبا في جميع الأندية والجمعيات العمالية، والتي صار لها، تحت تأثير الحزب، طابع سياسي. وفي العديد من المناطق (خاصة الأقاليم) أصبحت هذه النوادي مراكز للنشاط الثوري. ينطبق الشيء نفسه على الجمعيات التعاونية في أوكرانيا وغيرها، وجمعيات التأمين العمالية (kassy). تمكن البلاشفة من خلال المشاركة في مثل هذا العمل، والاهتمام بالمشاكل اليومية للعمال وعائلاتهم، من إقامة صلات مع فئات أخرى أيضا: كالحرفيين وأصحاب الدكاكين والمحاسبين وعمال السكك الحديدية والموظفين الحكوميين وأصحاب الورشات وغيرها من الفئات غير البروليتارية الأخرى. ففي سان بيتربورغ وموسكو وريغا وباكوا وغيرها، قام البلاشفة بالعمل الشرعي حتى في النوادي الرياضية والفرق الموسيقية والمسرحية. هذا العمل البطيء والصبور في تلك الأوساط التي تبدو غير مواتية أثمر عن نتائج رائعة في النهاية. فبعد كل شيء لا يكون العمل الثوري الحقيقي براقا على الإطلاق، بل إنه يتكون في تسعة أعشاره من مثل هذه المهمات المملة والصعبة لغرس الجذور بين صفوف الجماهير أينما كانت.

ومن أجل بناء روابط مع الفلاحين وبروليتاريي الأرياف -وهي المهمة التي تكتسي حيوية كبيرة للحزب الجماهيري في روسيا- أطلق البلاشفة شعار: "احملوا الكلمة الثورية إلى القرية". نشرت برافدا الرسائل التي كانت تصلها من الفلاحين إلى جانب الرسائل التي كانت تصلها من العمال. كما أن البلاشفة لم يهملوا العمل بين الطلاب والمثقفين. كانت مجموعة التعليم العالي في بيتربورغ (التي كانت تشمل جميع الفصائل الاشتراكية الديموقراطية) تحت قيادة البلاشفة وتضم حوالي 100 عضو، وكانت ما تزال ضعيفة نسبيا مما يعكس تراجع التأثير الثوري بين صفوف المثقفين خلال الفترة السابقة، لكنه كان قد بدأ يتوسع مرة أخرى. وهكذا فإن الحزب البلشفي، المشكل حديثا، طبق في الممارسة الشعار القديم للناوردنيين: "أذهبوا نحو الشعب!"; لكنه فعل ذلك من مستوى أعلى، مسلحا ببرنامج علمي وسياسة ثورية بروليتارية. يمكن تلخيص مجمل هذه السياسة بكل بساطة بالقول: يجب على البروليتاريا أن تكافح من أجل وضع نفسها في قيادة كل فئات المجتمع المضطهدة، ويجب على الحزب أن يكافح من أجل الفوز بقيادة البروليتاريا.

### البلاشفة عشية الحرب

مع شعورهم باقتراب الزلزال تحت أقدامهم بدأ الليبراليون البرجوازيون في الابتعاد عن الحكومة والمطالبة بالإصلاحات. كانوا هم أنفسهم خائفين ويحاولون تخويف النظام من أجل منح تنازلات. كان شعارهم هو: "الإصلاح قبل فوات الأوان!". كانوا قد تأثروا بالنزاع المتنامي داخل صفوف النظام نفسه بين "الإصلاحيين" و"الرجعيين"، والذي سار بالتوازي مع الصراع بين الكاديت والأوتوقراطية. حتى أن عام 1913 شهد "إضرابا للوزراء". وكما هو الحال دائما فإن الانشقاقات التي تحدث في القمة هي الإنذار الأول بالأزمة الثورية الوشيكة. وقد عبر وزير الداخلية، ماكلاكوف، عن قلقه في رسالة إلى القيصر، حيث قال: "المزاج السائد بين

1: R. McKean, *St. Petersburg Between the Revolutions*, p: 120 and 122.

عمال المصانع لا يبشر بخير، ودعا إلى اتخاذ إجراءات صارمة. وبالطبع لقي اقتراحه ذاك القبول من جانب القيصر، لكن رئيس الوزراء، كوكوفتسوف، رفضه -الشيء الذي كان مؤشرا آخر على التذبذبات والانشقاقات في القمة-. كانت الحكومة قد فقدت أعصابها واحتد الصراع داخلها حول ما إذا كان يتوجب استخدام القبضة الحديدية أو القفاز المخملي في التعامل مع المشكلة.

كانت الحكومة في ذلك الحين تحت سيطرة العناصر الأكثر رجعية. فمع اقتراب الحرب، صار كل شيء أكثر وضوحا وأكثر حدة وزالت جميع عناصر الارتباك والغموض. تعرض جميع الليبراليين "الوسطيين" والتوفيقيين وكل الوجوه والتنظيمات العرضية للسحق وطردوا بلا رحمة من الساحة. وفي الأخير لم يتبق هناك سوى اتجاهان فقط يقدمان للمجتمع بديلا واضحا ومستديما: الثورة أو الثورة المضادة. حاول الليبراليون في لجنة يأسهم أن يستندوا على الطبقة العاملة، ولهذا الغاية عملوا على عقد صفقة: ففي مارس 1914 أسس الكاديت ما أطلقوا عليه اسم "لجنة المعارضة"، التي ضمت حتى أحد البلاشفة (إ. إ. سكفوروتسوف- ستيبانوف). وعلى الرغم من التذبذب المعروف عن الليبراليين فقد وضع دان والمناشفة كل آمالهم على هذه الخطوة.

عندما علم لينين بهذا التطور اعتبر أن أهميته تأتي من كونه دليلا على التطورات التي تحدثت تحت السطح. نصح لينين سكفوروتسوف- ستيبانوف بالمضي قدما للحصول على معلومات دقيقة عن المدى الذي يمكن لليبراليين الوصول إليه في الممارسة، أي إلى أي مدى كانت صناديق المال جاهزة للتبرع للمساعدة في تطوير عمل الصحافة غير الشرعية وما إلى ذلك. وكما كان متوقعا جاء الرد غير واضح! لم يكن لدى الكاديت (ولا حلفاؤهم الأوكوتوبريون) نية جادة في تحدي النظام أو مساعدة الثورة. كانت نداءاتهم إلى بيروقراطية الدولة "لإصلاح نفسها" تهدف إلى الحفاظ على النظام وليس إسقاطه. لكن المناشفة ارتكبوا خطأ الخلط بين الثورة وبين الثورة المضادة بقناع ديمقراطي. لأنه في مواجهة الطبقة العاملة التحم الليبراليون والرجعيون بشكل حتمي في كتلة رجعية واحدة. كان الفرق الحقيقي الموجود بين الليبراليين وبين الحكومة هو اختلافهم في تحديد أفضل طريقة لهزيمة الطبقة العاملة. ومع ذلك فقد كان من الضروري، كما قال لينين، استخدام هذه الانقسامات بطريقة ماهرة، لكن ليس نشر الأوهام حولها كما فعل المناشفة.

كان الوضع ناضجا للثورة من الناحية الموضوعية، لكن العامل الحاسم هو العامل الذاتي -أي قدرة الطبقة العاملة وقيادتها على الاستفادة من الوضع للإطاحة بالنظام الاستبدادي والاستيلاء على السلطة. كان الحزب آنذاك قد أصبح أقوى من أي وقت مضى، بعد انفصاله عن الانتهازيين. لكن الحرب تدخلت لتقطع السيورة برمتها. بحلول ربيع عام 1914، كانت البرافدا تبيع يوميا حوالي 40.000 نسخة، إلا أن توزيعها في المصانع وقراءتها تجاوزت ذلك الرقم بكثير. في أبريل 1914 بلغ عدد المشتركين في البرافدا 8.858 مشتركا في 740 منطقة في روسيا؛ وبحلول يونيو ارتفع الرقم إلى 11.534 في 944 منطقة. تظهر هذه الزيادة الكبيرة الانتشار السريع للأفكار البلشفية وتغلغلها المتزايد بين صفوف الجماهير. ولم يبدأ التصفويون في إطلاق النداء المخادع إلى "الوحدة" إلا عندما كان البلاشفة قد تمكنوا بالفعل، في الواقع، من كسب أغلبية العمال إلى صفهم. في ربيع عام 1914 -الذكرى الثانية لإصدار البرافدا (22 أبريل)- كانت هناك حملة لجمع الأموال ("يوم الصحافة")، شاركت فيها كل المجموعات الحزبية والخلايا النقابية ومجموعات المصانع والجمعيات الثقافية وغيرها. وقد حصلت الحملة على الترحيب والتبرعات من طرف 1107 مجموعة عمالية. بالإضافة إلى برافدا، كانت هناك أيضا مجلة نظرية، اسمها بروسفيشيني (التنوير)، فضلا عن مجموعة من الصحف الإقليمية والمحلية.

لكن لينين كان قلقا على الرغم من هذا التقدم الملحوظ، عشية النهوض الثوري الجديد. إذ مع اعترافه بالعمل الرائع الذي يتحقق على الأرض، فقد رأى أن اللجنة المركزية تميل إلى التأخر عن الأحداث: «بينما تم إنجاز قدر هائل من العمل الحزبي في مجال التحريض والدعاية على مدى السنتين أو الثلاث سنوات الماضية من النهوض، فإنه لم يتم إنجاز سوى القليل جدا من العمل حتى الآن في مجال تقوية التنظيم»<sup>1</sup>.

انتقاد لينين لم يتوجه إلى اللجنة المركزية وحدها، بل توجه أيضا إلى هيئة تحرير البرافدا. لقد رأى الحاجة إلى ضخ دماء جديدة وتجديد الهيئات القيادية بفئات جديدة من العمال. كان ذلك ينطوي، إلى حد ما، على مقامرة، لكن أي شيء كان أفضل من الركود والاعتماد المفرط على "الأمجاد القديمة"، خاصة وأن بعض القادة القدماء كانوا قد سقطوا في الروتين والنزعة المحافظة. كان من الضروري تحقيق التوازن. كان لينين، بصبره المعتاد ولباقته وإخلاصه تجاه الرفاق القدامى، مستعدا دائما للحفاظ عليهم، لكنه كان يبحث دائما أيضا عن مواهب جديدة، وهي الصفة الأكثر أهمية في فن القيادة. لقد طالب لينين بإصرار بإدماج عمال جدد في الهيئات القيادية. آنذاك كان الإعداد جاريا لعقد مؤتمر جديد للحزب. ومرة أخرى عارضه التصفويون، واصفين إياه بأنه "اجتماع

1: Voprosy Istoriya KPSS, 1957, no. 4, p: 117.

خاص لزمرة لينين". لكن احتجاجاتهم لم تعد لها أي أهمية.

كان التصفيون يأتسبن بشدة، وصاروا يعلنون عن جميع أنواع الخطط، من قبيل إنشاء لجنة فدرالية تدعو إلى مؤتمر مشترك وما شابه، لكن كل مقترحاتهم قوبلت بالرفض. كان البلاشفة قد أصبحت لهم اليد العليا آنذاك. هم من كانوا يمتلكون القوات على الأرض، بينما لم يكن التصفيون يمتلكون أية قوى. كان من الواضح للغاية أن النزعة التوفيقية لم يعد لها أي أساس. أعلن البلاشفة آنذاك عن رفضهم لمقترحات الوحدة، لكنهم أوضحوا أنه ستتم دعوة أي مجموعة عمالية حسنة النية تعمل داخل روسيا لإرسال مندوبيها إلى المؤتمر، بغض النظر عن التيار الذي تنتمي إليه. كانت مسألة "الوحدة" قد تمت تسويتها في الممارسة. "كتلة غشت"، التي كانت تميزها التناقضات الداخلية منذ بدايتها، انشقت في نهاية عام 1914. انفصل عنها الاشتراكيون الديمقراطيون اللاتيفيون، الذين كانوا يشكلون المنظمة الجماهيرية الوحيدة داخل الكتلة، فتحولت الكتلة كلها إلى شظايا. كان تروتسكي قد استقال بالفعل من جرائد التصفيين، وفي فبراير 1914 حاول إنشاء جريدة "غير حزبية" جديدة، هي بوربا. لكن الوقت لمثل هذه المحاولات كان قد مضى. وبروحه الفكاهية المعتادة علق لينين على ذلك قائلاً: "إن التوحيديين عاجزون حتى عن توحيد صفوفهم". وبسبب أسهم تحول المناشفة إلى الأممية الثانية لطلب المساعدة. لكن بعد سلوك الأممية الثانية في النزاع السابق، كان لينين قد صار حذراً. اعتبر أن هذه المحاولة للبحث عن وسيط نزيه مجرد مسرحية، لكن وبسبب النفوذ الذي كانت الأممية تمتلكه فقد كان رفض عرض الوساطة سيكون غير مفهوم. قرر البلاشفة، رغم كل شيء، المشاركة في "الاجتماع التوحيدي" الذي دعا إليه المكتب الأممي، من أجل "فضح زيف كتلة غشت"<sup>1</sup>.

في الاجتماع الذي عقد في بروكسل، في يوليو 1914، تم تمثيل البلاشفة بقيادة من الصف الثاني. كما حضر الاجتماع كذلك المناشفة التصفيون، وجريدة تروتسكي بوربا، ومجموعة بليخانوف يدينستفو (الوحدة)، والنواب المناشفة في مجلس الدوما، وفريود، والبوند، والاشتراكيون الديمقراطيون الليتوانيون، وثلاث مجموعات بولندية. أشهرت الأممية أسلحتها في محاولة لفرض زواج قسري بين اتجاهين سياسيين لا يمكن التوفيق بينهما، بوسائل بيروقراطية. كانت هذه الممارسة منطقية تماماً بالنسبة لأشخاص كانوا قد أداروا ظهرهم منذ زمن بعيد للسياسة المبدئية لصالح "السياسة الواقعية". كان رئيس الاجتماع هو الزعيم الاشتراكي الديمقراطي البلجيكي فاندرفيلد، إلى جانب هويسمانز وكاوتسكي. خلال ذلك الاجتماع تحدث كاوتسكي بكلمات تنبؤية مفادها أنه: «في ألمانيا لا يوجد انقسام، على الرغم من الاختلافات الموجودة بين روزا لوكسمبورغ وبرينشتاين»، وهي العبارة التي سرعان ما سيظهر خطأها المخزي. وافق الاجتماع على اقتراح كاوتسكي بأنه لا توجد اختلافات بين صفوف الاشتراكية الديمقراطية الروسية يمكنها أن تعرقل الوحدة. لكن البلاشفة وقفوا بحزم رغم الضغوط من جميع الجهات. وخلال الاجتماع، الذي استمر ثلاثة أيام، رفض ممثلو البلاشفة رغبة الأممية لعب دور التحكيم. لم يروا أي سبب لتقديم تنازلات هذه المرة، فهدد فاندرفيلد البلاشفة بالإدانة خلال المؤتمر الأممي القادم. لكن ذلك المؤتمر لم يعقد أبداً، فقد كانت هناك أحداث واسعة النطاق توشك أن تهب في سماء الأممية القديمة، وتكشف بقسوة كل الأكاذيب وأنصاف الحقائق والخيانات التي قامت عليها.

ضعف البورجوازية الروسية واعتمادها على الرأسمال الأجنبي حدد بدوره السياسة الخارجية للنظام القيصري، الذي وجد نفسه منخرطاً، من موقع التابع الصغير، في تحالف مع الإمبريالية الأنجلو-فرنسية. منذ عام 1912 صار كل شيء، من الناحية العملية، ينذر باندلاع الحرب. كانت السياسة الخارجية لروسيا القيصرية تملبها مصالح النظام الاستبدادي وكبار مالكي الأراضي، والتي كانت متطابقة مع مصالح أصحاب الأبنك والرأسماليين الروس. كانت سياسة غزو للأراضي الأجنبية والأسواق ومصادر المواد الخام، وهي السياسة الكلاسيكية للإمبريالية. كانت البورجوازية الروسية، بما في ذلك جناحها "الليبرالي"، راضية بلعب دور خادم للحكم الفردي أملاً في الحصول على أسواق مربحة من وراء الحرب. لكن عشية الحرب كان النظام الاستبدادي قد بدأ مرة أخرى يرى الثورة القادمة.

عشية الحرب العالمية الأولى كانت الحركة الثورية قد صارت أقوى وأكثر اتساعاً مما كانت عليه عام 1905. والأهم من ذلك هو أن وعي الطبقة العاملة كان قد صار أعلى من الناحية النوعية، وهي الحقيقة التي انعكست في تمكن البلاشفة من كسب الأغلبية. وفي وقت لاحق علق تروتسكي على ذلك قائلاً: «من أجل فهم الاتجاه الرئيسيين داخل صفوف الطبقة العاملة الروسية، من المهم أن نأخذ في الاعتبار أن الاتجاه المنشفي كان قد تبلور بشكل نهائي في سنوات الانحدار والردة الرجعية. كان يعتمد بشكل رئيسي على فئة صغيرة من العمال الذين قطعوا علاقتهم مع الثورة. في حين أن البلشفية، التي كانت قد تحطمت بقسوة في فترة الردة الرجعية، بدأت في النهوض بسرعة مع تجدد المد الثوري خلال السنوات التي سبقت الحرب. «إن العناصر الأكثر حيوية وجرأة

1: Lenin, Collected Works, [بالروسية] vol. 24, p. 289.

والجاهزة للنضال الدؤوب والمقاومة والتنظيم المستمر، هي تلك العناصر وتلك المنظمات وأولئك الناس الذين يتحلقون حول لينين، بهذه الكلمات وصفت إدارة الشرطة عمل البلاشفة خلال السنوات التي سبقت الحرب»<sup>1</sup>.

لقد ظهر تفوق البلاشفة من خلال سلسلة كاملة من المعطيات، فخلال انتخابات مجلس الدوما الرابع فاز البلاشفة بستة مقاعد عمالية من أصل تسعة. وفي الحملة السياسية من أجل إنشاء فريق مستقل في مجلس الدوما، حصل النواب البلاشفة على أكثر من 69% من توقيعات العمال. بعد إنشاء الفريق البلشفي المستقل في الدوما، في أكتوبر 1913، حصل التصفيون على دعم 215 مجموعة من العمال فقط، في حين حصل النواب البلاشفة على دعم 2995 مجموعة (85,7%). كما تشير إحصاءات أخرى إلى التفوق الساحق للبلاشفة. في عام 1913 حصلت جريدة التصفيين على دعم 661 مجموعة عمالية، في حين حصلت البرافدا على دعم 2181 مجموعة (77%). وبحلول عام 1914 (حتى 13 ماي)، صارت الأرقام هي 671 إلى 8773 (أي 81%). وهكذا فبالرغم من صعوبة الوصول إلى أرقام دقيقة في ظل ظروف العمل السري وغير الشرعي، فإنه من الممكن أن نقول بدرجة كبيرة من اليقين إن البلاشفة حصلوا على الأقل على دعم ثلاثة أرباع الطبقة العاملة المنظمة.

كانت قوة الحركة العمالية في تصاعد مستمر. وكانت مناطق جديدة تنجذب باستمرار إلى النضال. في ماي 1914 بدأ إضراب 50 ألف عامل نفط في باكو. وتم تنظيم إضرابات تضامنية مع عمال باكو في سان بيترسبورغ وموسكو وخاركوف وكيف وروستوف ونيكولايف. في الأول من يوليو، دعت لجنة الحزب في سان بيترسبورغ العمال إلى النضال بشعار: "أيها الرفاق في باكو نحن معكم! إن انتصار عمال باكو هو انتصارنا!". كانت حرارة النضال ترتفع بسرعة. في ذلك اليوم قامت الشرطة بتفريق اجتماع جماهيري ضم 12 ألف عامل من عمال بوتيلوف، مما خلف 50 جريحاً ومقتلاً عاملين. هزت الأخبار القادمة من بيترسبورغ البلاد بأسرها. وبحلول الرابع من يوليو ضرب 90.000 عامل عن العمل. وجهت اللجنة المركزية البلشفية دعوة للعمال لتنظيم إضراب عام لمدة ثلاثة أيام في محاولة منها لاختبار قوتها. وبحلول السابع من يوليو، كان الإضراب شبه عام بمشاركة 130 ألف عامل.

عندما كان العمال يخوضون إضراباتهم كان الرئيس الفرنسي بوانكاريه في بيترسبورغ لمناقشة بعض الأمور الحساسة المتعلقة بالوضع الدولي مع القيصر. وبينما كان الرجلان يناقشان بهدوء الحرب القادمة، اندلع نوع آخر من الحروب في شوارع سان بيترسبورغ. كان وسط العاصمة محتلاً من طرف الشرطة والجنود الذين اشتبكوا مع العمال. وعلى الرغم من أن الدعوة إلى الإضراب كانت لثلاثة أيام فقط، فإن موجة الإضراب صارت في الواقع بلا انقطاع.

تكشف الأرقام التالية لعدد العمال المضربين عن الوضع الحقيقي خلال الأشهر التي سبقت الحرب:

08 يوليو:	150.000
09 يوليو:	117.000
10 يوليو:	111.000
11 و 12 يوليو:	أكثر من 130.000 <sup>2</sup> .

ردت الحكومة بالقمع، فتم منع البرافدا في 08 يوليو وألقي القبض على البلاشفة في كل مكان. تم إغلاق مقرات النقابات ونوادي العمال. كان ذلك بمثابة اعتراف رسمي بأن روسيا كانت مرة أخرى، خلال يوليو 1914، في خضم وضع ثوري. لم يكن من الممكن تغيير هذه الحقيقة ببعض الاعتقالات. فبحلول فصل الصيف كانت حركة الإضرابات قد تجاوزت بالفعل نظيرتها عام 1905. انخرط مليون ونصف المليون من العمال في الإضرابات التي كانت في معظمها إضرابات سياسية. لكنه كانت هناك أيضاً نقاط ضعف: فقد تركزت الحركة بشكل رئيسي في سان بيترسبورغ وموسكو والمراكز الصناعية الرئيسية الأخرى. في عام 1905، عندما كانت الحركة في ذروتها كانت أكثر انتشاراً. في عام 1905، شكلت الإضرابات في بيترسبورغ 20% من إجمالي الإضرابات، أما في 1912-1913 فقد كانت 40%، وفي عام 1914 أكثر من 50%.

تظهر هذه الإحصائيات أن هناك فجوة واسعة بين الطليعة البروليتارية، التي تتركز في سان بيترسبورغ والمراكز الصناعية الأخرى، وبين الجماهير الأكثر تخلفاً، خاصة في المدن الصغرى، والفلاحين. كان من الضروري توفر قدر معين من الوقت والخبرة حتى يتسنى لتلك المدن الصغرى اللحاق بالركب. كان من السابق لأوانه الدخول في معركة حاسمة، بالرغم من وجود قدر كبير من نفاذ الصبر والميول اليسراوية المتطرفة بين الشباب البلشفي. كانت فئات من الشباب في بيترسبورغ تطالب بشن الهجوم. وقامت مجموعة

1: Trotsky, The History of the Russian Revolution, p: 58.

2: Istoriya KPSS, vol.2, p: 463.

يسراوية متطرفة، بقيادة فئة من نقابة الخبازين، بتشكيل "لجنة بلشفية يسارية" وطالبت بشن نضال المتاريس. تسبب هؤلاء الشباب المتهورون في نكسة خطيرة. كانوا قد نظموا اجتماعا لـ 123 مندوبا من لجان المصانع، اعتقلتهم الشرطة جميعا. وفي 14 يوليو، وصل الإضراب إلى نهايته. كان من الواضح أن الأمور قد وصلت إلى نقطة حرجة، على الرغم من أن لينين كان يؤيد تأجيل المواجهة الحاسمة لفترة أطول قليلا. لقد فهم أن موقف الفلاحين كان حاسما في تحديد الموقف الذي سيتخذه الجيش. أما أولئك الذين كانوا يضغطون من أجل مواصلة الإضراب ونضال المتاريس فقد كانوا يدفعون في اتجاه الانتفاضة قبل أن تصبح شروطها ناضجة. كان في إمكان أحداث يوليو، في ظل الظروف العادية، أن تتحول إلى وضع ثوري، لكن الأحداث الدرامية على المستوى الدولي قطعت ذلك التطور.

وبينما كانت أوروبا بأسرها ترتجف على حافة الهاوية، كان النظام القيصري الروسي يخاف من الثورة الاجتماعية أكثر من خوفه من الحرب. في 28 يونيو (بالتقويم الجديد)، تعرض ولي العهد النمساوي فرانز فرديناند للاغتيال في سرايفو. وعلى الفور تم الإعلان عن التعبئة العامة في روسيا. وعندما قدمت الحكومة النمساوية في 10 يوليو (بالتقويم الجديد) تحذيرا نهائيا مهينا لصربيا، سارعت سان بيترسبورغ إلى ممارسة الضغط على "إخوانها" الصربيين للاستجابة لجميع المطالب ما عدا تلك التي تنتهك حقوقهم كدولة ذات سيادة. كان ذلك بالضبط هو ما فعله الصرب في ردهم على مذكرة 10 يوليو. لكن ذلك لم يحدث أي فرق، فقد اعتبرت حكومة فيينا أن الرد الصربي "غير كاف". في تلك المرحلة كان أي رد من صربيا سيكون غير كاف. في 15 يوليو بدأ النمساويون في قصف بلغراد. وفي وقت متأخر من مساء 18 يوليو، استدعى الكونت بورتاليس وزير الخارجية الروسي، سازونوف، وأبلغه "والدموع في عينيه" أنه ابتداء من منتصف الليل صارت ألمانيا في حالة حرب مع روسيا. كانت المذبحة الكبرى على وشك أن تبدأ.



## سنوات الحرب

### انهيار الأممية الثانية

اندلاع الحرب العالمية الأولى أثار على الفور أزمة في صفوف الأممية الاشتراكية. ففي انتهاك لكل القرارات التي كانت المنظمة الأممية قد اتخذتها، اصطف زعماء أحزاب الأممية الثانية في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا والنمسا، خلف برجوازية بلدانهم وأصبحوا أكثر الشوفيين سعارا. بدأت الصحافة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية في دعوة الطبقة العاملة "للدفاع عن الوطن". وفي اجتماع لفريق الحزب في الرايخستاغ، في 03 غشت، قرر قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي التصويت لصالح اعتمادات الحرب. كما أنهم في اليوم الموالي صوتوا مع أحزاب البرجوازية واليونكر لتخصيص خمسة مليارات مارك لأغراض الحرب. حتى "اليساريون" الذين عارضوا هذا الموقف في اجتماع الفريق صوتوا الآن بـ"الموافقة" بمبرر الانضباط الحزبي! يكشف هذا الموقف بشكل واضح تماما الدور الخسيس الذي تلعبه التيارات الإصلاحية اليسارية والوسطية، والتي، رغم العبارات الجذرية التي ترفعها، تجدها في اللحظات الحاسمة مرتبطة ارتباطا لا ينفصم مع الجناح اليميني. إنهم يعملون دائما كغطاء يساري للإصلاحيين اليمينيين.

في جميع البلدان المتحاربة دخل القادة الاشتراكيون الديمقراطيون في حكومات ائتلافية مع ممثلي البرجوازية، وبدأوا يشرون بعقيدة "الوحدة الوطنية" - التي تعتبر أكثر الشعارات فراغا- معارضين الإضرابات "طوال مدة الحرب" ومتقبلين لجميع الأعباء المفروضة على كاهل العمال والفلاحين باسم الكفاح من أجل النصر. في ألمانيا، نشرت صحيفة فوروارتز (Vorwärts) افتتاحية لهيئة التحرير وعدت فيها بأنها طوال مدة الحرب لن تنشر مقالات تعكس "الخلاص الطبقي والكراهية الطبقيّة". كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني هو الحزب الأكثر أهمية ونفوذاً في الأممية الثانية، حيث كان يضم حوالي مليون عضو، وبالتالي فقد كانت خيانتها حاسمة. لكن بقية الأحزاب الأخرى لم تكن أفضل حالا.

في 31 يوليوز 1914، تعرض الزعيم الاشتراكي الفرنسي المناهض للحرب، جان جوريس، للاغتيال على يد الرجعيين. وبعد أربعة أيام على ذلك، صوت القادة الاشتراكيون الفرنسيون لصالح اعتمادات الحرب، كما فعل البلجيكيون، ودخلوا الحكومة الائتلافية البرجوازية (أو ما سمي بـ"الاتحاد المقدس"). في بريطانيا فعل آرثر هندرسون الشيء نفسه. في فرنسا حظيت الخيانة بتأييد "قادة" النقابات الذين كانوا قبل الحرب يهددون بطريقة ديماغوجية بخوض الإضراب العام ضد الحرب. لقد عارض الماركسيون هذا الشعار حتى قبل عام 1914، حيث أن فكرة دعاة السلام والنقابيين- اللاسلطويين القائلة بأنه من الممكن الدعوة إلى إضراب عام لمنع الحرب هي فكرة تتجاهل حقيقة أنه لا يمكن الدعوة إلى الإضراب العام إلا عندما تكون الظروف الضرورية متوفرة. لكن عادة ما يكون الوضع عشية الحرب هو الأقل ملاءمة لمثل هذه الخطوة. وبالتالي ما لم يكن الأمر متعلقا بإضراب عام يكون جزءا من وضع ثوري، يهدد لاستيلاء البروليتاريا على السلطة، فإنه من المستبعد أن يشكل وسيلة لمنع الحرب. إنه في أحسن الأحوال وهم طوباوي، أما هو في أسوأ الأحوال طريقة لذر الرماد في أعين العمال المتقدمين من خلال إعطائهم الانطباع باتباع سياسة راديكالية، بينما الواقع شيء آخر تماما. وقد وصف تروتسكي ذلك بكونه: "أكثر أنواع الإضرابات العامة سوءا وأكثرها بؤسا على الإطلاق"، ويفسر سبب ذلك قائلا: «لا يمكن وضع الإضراب العام على جدول الأعمال كطريقة للنضال ضد التجنيد والحرب إلا في حالة ما إذا كانت كل التطورات السابقة في البلاد قد وضعت الثورة والانتفاضة المسلحة على جدول الأعمال. لكن استعمال الإضراب العام، كـ"صفة سحرية" للنضال ضد التجنيد، سيكون مجرد مغامرة. وباستثناء الوضع الممكن، لكن الاستثنائي، لحكومة تنخرط في الحرب من أجل النجاة من ثورة تتهددها بشكل مباشر، فإن القاعدة العامة هي أن الحكومة تشعر بنفسها قبيل فرض التجنيد، وأثناء فرضه وبعد فرضه، أشد قوة، وبالتالي تكون أقل ميلا لأن تخاف من الإضراب العام. وكقاعدة عامة فإن المزاج الشوفيني الذي يرافق التعبئة للحرب، إضافة إلى الرعب المرتبط بالحرب، يجعل من تنفيذ الإضراب العام مسألة ميؤوسا منها. والعناصر الأكثر جسارة التي تنخرط في النضال دون أخذ الظروف بعين الاعتبار يتم سحقها. من ثم فإن الهزيمة والإبادة الجزئية للفئة الطليعة تجعلان من العمل الثوري أمرا صعبا لفترة طويلة من الزمن خاصة في جو الاستياء الذي تولده الحرب. من الحتمي أن يتحول

الإضراب المصطنع إلى مجرد تمرد معزول وإلى عائق في مسار الثورة»<sup>1</sup>.

لقد تم إثبات حقيقة هذا القول في عام 1914 عندما قام الزعماء النقابيون-اللاسلطويون، مباشرة بعد يوم من إعلان الحرب، بإسقاط شعار الإضراب العام ضد الحرب جانبا وحملوا بخنوع حقائبهم الوزارية في حكومة "الاتحاد المقدس".

كل القادة الرسميين للأحزاب الاشتراكية الديمقراطية من جميع البلدان المتحاربة سقطوا بسهولة، لأنهم لم يكونوا في حاجة أصلا لمن يشجعهم على الالتحاق بصفوف الداعمين لبرجوازية "هم". إن الحرب، حسب عبارة كلاوزفيتز الشهيرة، هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى. وقد كان قادة الجناح اليميني للحركة العمالية يطبقون سياسة موالية للبرجوازية في وقت السلم، وبالتالي فإن تعاونهم مع أكثر الدوائر الإمبريالية رجعية في وقت الحرب لم يكن سوى استمرار لتلك السياسة السابقة. الفرق الوحيد هو أن الحرب تنزع بالضرورة قشرة النفاق وتكشف بلا رحمة كل تيار سياسي على حقيقته. إن الإصلاحيين اليساريين، باعتبارهم نزعة برجوازية صغيرة، يتأرجحون بشكل غير مريح بين السياسة البرجوازية والسياسة البروليتارية، ويعبرون عن ارتباكهم وعجزهم بنزعتهم المسالمة. لكن الممثلين الجديين للطبقة السائدة داخل صفوف الحركة العمالية، خدام رأس المال داخل الحركة العمالية كما كانوا يسمون في الولايات المتحدة، لا يخفون دعمهم للحرب. والفرق الوحيد بينهم هو الاختلاف حول العصابات الإمبريالية التي يدعمونها. فقد دعم القادة العماليون البريطانيون الملك والوطن في ائتلاف مع لويد جورج وتشرشل، بينما دعم الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان القيصر واليونكر الرجعيين. أما الاشتراكيون الديمقراطيون في البلدان الرأسمالية الأصغر فقد دعموا هذا المعسكر أو ذاك، مما كان يعكس تبعية بورجوازياتهم إما للإمبريالية الألمانية أو الأنغلو-فرنسية. وهكذا فقد اصطف الاشتراكيون الديمقراطيون البلجيكيون مع الحلفاء، في حين كان الزعماء الاشتراكيون الديمقراطيون الهولنديون والاسكندنافيون أكثر ميلا إلى ألمانيا.

اجتاحت موجة الشوفينية كل شيء أمامها. كان في متناول الطبقات السائدة في الدول المتحاربة كل الوسائل الضرورية لإرباك الجماهير وتسميمها بالآلاف المبررات. وبسبب التعاون الحماسي من طرف قادة الحركة العمالية، نجحوا في بداية الحرب في تضليل شريحة كبيرة من بين العمال المنظمين. كان العديد من الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان-ليس فقط قادة الجناح اليميني، بل حتى بعض العمال الشرفاء- على استعداد لتبرير الحرب، على الأقل في البداية. كانت مبرراتهم على النحو التالي: انتصار القيصر [الروسي] يعني أن قوزاقه سيدمرون حزبنا ونقاباتنا وسيمنعون صحفنا ويغلقون مقراتنا. وبنفس الطريقة استمع العامل الفرنسي العادي بثقة لنداءات رينوديل وكاشين وشركائهم لحماية الجمهورية والديمقراطية من القيصر [الألماني] واليونكر. لكن قلق العامل العادي الألماني أو الفرنسي شيء، بينما جبن ونفاق وكليية قادة الأحزاب الاشتراكية فإنه شيء آخر مختلف تماما.

إن هؤلاء الأخيرين، وعلى عكس الجماهير، لم يكن دافعهم هو الجهل. فالطابع الإمبريالي للحرب كان واضحا من أهداف القوى المتحاربة. لم تكن تلك حربا دفاعية من جانب أي من القوى المتنازعة، بل كانت فقط حربا لإعادة تقسيم العالم، من أجل امتلاك الأسواق والمواد الخام والمستعمرات ومناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وروسيا والنمسا-المجر. كانت أعين روسيا مركزة على تركيا، مما أدى مباشرة إلى اندلاع صراع بين ألمانيا وروسيا على القسطنطينية والمضايق. وكانت روسيا في صراع أيضا ضد تركيا حول أرمينيا، وضد النمسا حول البلقان وضد النمسا وإيطاليا حول ألبانيا. كما لا يمكنهم الادعاء بأن اندلاع الحرب أخذ الأهمية الاشتراكية على حين غرة، إذ أن القوى العظمى، كانت قبل 1914 بعشر سنوات على الأقل، تستعد بشكل منهجي للحرب. وبالتالي فقد كانت مسألة من سيضرب الضربة الأولى غير ذات أهمية.

كان خطر الحرب قد نوقش على نطاق واسع داخل صفوف الأهمية. وخلال مؤتمريين أميين -مؤتمر شتوتغارت (1907) ومؤتمر بال (1912)- تعهدت جميع الأحزاب الاشتراكية في العالم رسميا بمعارضة أي محاولة لإشعال حرب إمبريالية. وكانوا قد وافقوا في مؤتمر شتوتغارت على تعديل قدمه كل من لينين وروزا لوكسمبورغ يقول: «في حالة اندلاع الحرب بأي حال من الأحوال، من واجبهم التدخل لإنهائها سريعا والسعي بكل قوتهم للاستفادة من الأزمة الاقتصادية والسياسية التي خلقتها الحرب لتحرير الجماهير وبالتالي تسريع سقوط حكم الطبقة الرأسمالية». ثم إن مؤتمر بال، الذي انعقد كاستجابة طارئة لحرب البلقان، صادق بالإجماع على القرار السابق. وكما علق زينوفييف في وقت لاحق: «لم يكن قرار بال أسوأ من قرار شتوتغارت، بل كان أفضل منه. إن كل كلمة فيه هي صفة في وجه التكتيكات الحالية للأحزاب "الرائدة" داخل الأهمية الثانية»<sup>2</sup>. لأنه في لحظة الحقيقة، خانت كل الأحزاب الاشتراكية قضية الاشتراكية والطبقة العاملة. وحدهما الحزب الروسي والحزب الصربي من وقفوا ضد الحرب، بينما وقف الحزب الإيطالي في منتصف الطريق رافعا شعار: "لا تعاون ولا تخريب".

1: Trotsky, Writings, 1935-1936, pp: 140-141.

2: Lenin's Struggle for a Revolutionary International, pp: 35 and 103.

## الجدور الاجتماعية للشوفينية

كفاح الاشتراكيون في كل مكان لفهم ما حدث. لا يمكن تفسير حدث بذلك الحجم بالاكتفاء بالخصائص الشخصية للأفراد -على الرغم من أن الصفات الشخصية لعبت دورا بدون شك، كما رأينا في الموقف الشجاع الذي اتخذته كارل ليبكنخت في ألمانيا. لقد فسر كل من لينين وتروتسكي ذلك بالفترة الطويلة من الانتعاش الرأسمالي الذي سبق الحرب العالمية الأولى. كانت الأحزاب الجماهيرية للأممية الثانية قد تشكلت في ظل ظروف التشغيل الكامل والارتفاع المتزايد في مستويات المعيشة التي شكلت الأساس لسياسة "السلم الطبقي". شهدنا حالة مماثلة في البلدان الرأسمالية المتقدمة بين عامي 1948 و 1974. وقد كانت النتائج متشابهة في كلتا الحالتين. أوضح ماركس منذ زمن بعيد أن: "الوجود الاجتماعي يحدد الوعي". يميل القادة العماليون، في مثل تلك الظروف، إلى فصل أنفسهم عن الطبقة العاملة. وبسبب تعودهم على الجو الدافئ داخل البرلمان أو مكاتب النقابة المغلقة، واستمتاعهم بمستوى معيشة متميز، ينهارون تدريجيا تحت ضغط الطبقات الأخرى.

كان التعبير النظري عن ذلك الضغط هو بروز النزعة التحريفية، أي التأكيد على أن أفكار ماركس وإنجلز قد صارت قديمة ويجب تعديلها. وبدلا من السياسات الثورية، بدأوا يدافعون عن الإصلاحات البرلمانية السلمية والتدرجية. كان شعارهم هو: "اليوم أفضل من الأمس؛ وغدا سيكون أفضل من اليوم". أكدوا أنهم سيصلحون النظام الرأسمالي ببطء وبشكل سلمي وتدرجي، إلى أن يتحول بشكل سلس إلى اشتراكية. يا لها من فكرة جميلة! كم هي عملية! كم هي اقتصادية! ليس هناك من إنسان عاقل قد يفضل طريق النضال والثورة الوعر على مثل هذا المنظور الرائع للمستقبل. لكن جميع النظريات يجب عليها، لسوء الحظ، أن تواجه عاجلاً أو آجلاً محك الممارسة. لقد وضعت أحداث غشت 1914 أحلام الإصلاحيين على الميزان فوجدتها بدون قيمة. فجميع الأوهام الجميلة عن البرلمانية السلمية والتغيير التدريجي انتهت في أحوال الخنادق والدماء والغازات السامة.

من خلال فضحه لأكاذيب الديماغوجية الشوفينية والنزعة السلمية العاطفية، شرح لينين الجدور السوسيو اقتصادية للاشتراكية الشوفينية وأساسها الطبقي الذي هو الأرستقراطية العمالية. لقد تشكلت أحزاب الأممية الثانية ونقاباتها الجماهيرية في فترة طويلة من الانتعاش الرأسمالي والعمالة الكاملة التي كان من الممكن خلالها تقديم الإصلاحات والتنازلات للطبقة العاملة ولا سيما فئاتها العليا. وفي ظل هذه الظروف تشكلت قشرة بيروقراطية سميقة على رأس المنظمات العمالية، تتألف من عدد كبير من أعضاء البرلمان ومسؤولي النقابات والصحفيين، ومن شابههم، ومن بينهم شذمة من الوصوليين الراغبين في الترقى الاجتماعي، المنفصلين عن بقية الطبقة العاملة بأجورهم العالية وأسلوب حياتهم ونفسياتهم والذين تشبعوا بالأفكار البرجوازية المستمدة من مستويات معيشتهم والوسط الاجتماعي الذي انتقلوا إليه. كانت عقود من التطور البطيء والسلمي، في ظروف الازدهار وغياب الصراع الطبقي لفترات طويلة (باستثناء روسيا) تعني أن المنظمات الجماهيرية، وخاصة الفئة القيادية داخلها، قد أصبحت تحت ضغط متزايد للطبقات الأخرى. وبينما استمروا يعلنون ولاءهم للنضال الطبقي والاشتراكية أمام أنصارهم داخل الحزب، فقد كان سلوكهم في الممارسة محصورا بالكامل بحدود ما تسمح به الشرعية البرجوازية و"الرأي العام". لقد وقعوا ضحية لذلك المرض الفتاك الذي سماه ماركس "البلاهة البرلمانية". وفي مقالاته "المصير التاريخي لمذهب كارل ماركس"، حدد لينين طبيعة تلك المرحلة قائلا: «تمتاز المرحلة الثانية (1872 - 1904) عن المرحلة الأولى بطابعها "السلمي"، بانعدام الثورات. كان الغرب قد انتهى من الثورات البرجوازية، بينما لم يكن الشرق قد نضج بعد لهذه الثورات. دخل الغرب في مرحلة التحضير "السلمي" للتغيرات المقبلة: في كل مكان تشكلت أحزاب اشتراكية، بروليتارية من حيث الأساس، وأخذت تتعلم استخدام البرلمانية البرجوازية وإصدار صحافتها اليومية وإنشاء مؤسساتها التثقيفية ونقاباتها وتعاونياتها. حقق مذهب ماركس انتصارا كاملا وأخذ في الانتشار. وببطء، لكن بثبات، تطور انتقاء وحشد قوى البروليتاريا، وإعدادها للمعارك المقبلة.

سار دياكتيك التاريخ بحيث أن انتصار الماركسية في حقل النظرية أجبر أعداءها على إخفاء حقيقتهم بقناع الماركسية. وحاولت الليبرالية، التي كانت قد تعفنت، أن تستأنف نشاطها تحت ستار الانتهازية الاشتراكية. فسروا مرحلة إعداد القوى للمعارك الكبيرة بأنها عدول عن تلك المعارك، واعتبروا أن تحسين ظروف العبيد بغية النضال ضد العبودية المأجورة ينبغي أن يعني تنازل العبيد عن حقوقهم في الحرية مقابل بضعة سنتيمات. صاروا يدعون بجبن إلى "السلم الاجتماعي" (أي إلى السلم مع مالكي العبيد) والتخلي عن الصراع الطبقي، إلخ. كان لديهم الكثير من الأنصار بين البرلمانيين الاشتراكيين ومختلف المسؤولين داخل الحركة العمالية

وبين المثقفين "المتعاطفين"<sup>1</sup>.

لم يكن القادة اليمينيون هم التيار الوحيد داخل الأممية الاشتراكية الديمقراطية، بل كانت هناك أيضا تيارات وسطية -كارل كاوتسكي ورودولف هيلفريدنغ وهوغو هاس في ألمانيا؛ جان لونغيث وألفونس ميريم في فرنسا؛ رامسي ماكدونالد في بريطانيا؛ فيكتور أدلر في النمسا، وغيرهم. كانت السياسة المعتادة لهؤلاء هي الاختباء وراء النزعة السلمية، لكن مع تجنب خوض صراع حقيقي ضد الاشتراكيين الشوفينيين اليمينيين. وقد وجه لينين هجماته الأكثر حدة ضد هذا الاتجاه باعتباره العقبة الرئيسية التي تمنع العمال من سلوك الطريق الثوري. لقد كانوا، كما قال: "يساريين قولاً، يمينيين بالأفعال"، وهو الوصف الذي ينطبق على الإصلاحيين اليساريين في كل مرحلة.

ببطء بدأ الجناح الثوري في التعافي من الضربة القاتلة التي تعرض لها في غشت 1914. وبدأت عمليات التجميع تنشط تدريجياً في كل مكان. نشأت القوى الأممية الثورية، في كل مكان تقريباً، من تمايز داخلي وانشقاقات داخل المنظمات الجماهيرية القديمة، أي الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية والنقابات. ضم اليسار الأممي كلا من كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ وكلاهما زيتكن في ألمانيا؛ ديميتري بلاغوف وفاسيل كولاروف في بلغاريا؛ جون ماكلين في اسكتلندا؛ وجيمس كونولي في أيرلندا، بالإضافة إلى الاشتراكيين الديمقراطيين الصربيين الذين صوت نائبهم في البرلمان ضد ميزانية الحرب. أصدرت المنظمة الاشتراكية البلغارية "تيسنياكي" بياناً مناهضاً للحرب وصوتت ضد عسكرة البلاد. كان هذا هو الجانب الإيجابي، لكن من جانب آخر، انتقل بعض اليساريين السابقين، مثل بارفوس في ألمانيا وبلخانوف في روسيا، إلى معسكر الاشتراكية الشوفينية. كان التيار اليساري الأممي داخل الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني هو الأقوى بعد روسيا وصربيا وبلغاريا.

في 02 دجنبر 1914، صوت كارل ليبكنخت ضد ميزانية الحرب في الرايخستاغ. كان هذا العمل الشجاع نقطة تحول أعطت الأمل للعمال اليساريين ليس فقط داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، بل في جميع البلدان المتحاربة. وفي 04 دجنبر صوت اجتماع لمناضلي الحزب في هال لدعم موقف ليبكنخت. حاول البلاشفة الاتصال باليسار الألماني، لكنهم وجدوا ذلك مستحيلاً من الناحية العملية سواء عبر سويسرا أو البلدان الاسكندنافية. كان ذلك مهماً بشكل خاص بسبب المكانة الهامة التي يحتلها الحزب الألماني داخل الأممية. لقد اتخذ الأمميون الثوريون، مثل روزا لوكسمبورغ وفرانز ميهرنغ، موقفاً شجاعاً ضد الحرب. وفي النمسا كذلك بدأ اليسار في تنظيم صفوفه. كما أنه في بريطانيا، ولا سيما في اسكتلندا، كانت هناك اجتماعات مناهضة للحرب وإضرابات.

أدت الحرب إلى طرح القضايا الأساسية بطريقة حادة للغاية، فأثارت سلسلة من الأزمات والانقسامات داخل أحزاب "اليسار" في بريطانيا - الحزب الاشتراكي وحزب العمال الاشتراكي وأيضاً داخل حزب العمال المستقل - وهي الانقسامات التي تشكلت منها قوات الحزب الشيوعي في المستقبل. في فرنسا أيضاً كانت هناك معارضة يسارية متنامية داخل الحزب الاشتراكي والنقابات العمالية. قاد التيار النقابي الثوري، بزعامة ألفريد روسمر وبيير موناتي، المعارضة ضد القادة الإصلاحيين اليمينيين السابقين. ومع استمرار الحرب بدأت قاعدة دعم الشوفينيين في التفكك. انخفض تداول الصحيفة اليمينية الشوفينية "لومانيتيه" بحوالي الثلث. وفي إيطاليا برز التيار الاشتراكي الثوري، الذي كانت تمثله صحيفة أفانتي، التي كان يحررها جياشينتو سيراتي، في حين كان زعيم الجناح اليميني داخل الحزب الاشتراكي هو الدكتاتور الفاشستي المستقبلي موسوليني. كما تبنى الاشتراكيون الديمقراطيون الرومانيون بدورهم موقفاً ثورياً مناهضاً للحرب. ونظم "اليساريون" الهولنديون صفوفهم حول صحيفة تريبيون، لكن قائدهم، أنتون بانيكويك عانى، مثله مثل العديد من القادة الآخرين، من النزعة اليسراوية المتطرفة التي كانت سائدة في ذلك الوقت كرد فعل ضد سياسة القادة اليمينيين. وبشكل عام كان اليسار مؤلفاً من قوى ضعيفة إلى حد ما، معظمها من الشباب الذين كانوا يفتقرون إلى الخبرة وهو ما عبر عن نفسه في تبني مواقف يسراوية متشددة أقرب إلى النزعة اللاسلطوية النقابية.

### التيارات داخل الاشتراكية الديمقراطية الروسية

إن الحرب، وبالرغم من كل أهوالها وقسوتها، لها على الأقل ميزة فضح كل الأكاذيب التي تكون مخفية في المجتمع والسياسة. فهي تضع جميع التيارات موضع الاختبار، وتعري جميع المزاعم بقسوة، بحيث تصير المناورات الدبلوماسية مستحيلة، ويقدم التاريخ حكمه النهائي. تبحث الحروب والثورات عن أي نقطة ضعف عند الأحزاب أو البرامج أو الأفراد وتدمرها. ظهرت موجة الشوفينية القومية، التي اجتاحت المجتمع، كما لو أنها تكتسح كل شيء أمامها. لقد سقطت تحت تأثيرها الكثير من الثوريين البارزين،

1: Lenin's Struggle for a Revolutionary International, p: 101.

من فيهم منظر اللاسلطوية الشهير: كروبوتكين، بحيث أصبح ذلك المدافع عن "المساعدة المتبادلة" داعية للتدمير المتبادل، كما قال ليونيل كوشان<sup>1</sup>. كل التيارات التي ظهرت في صفوف الأممية الاشتراكية الديمقراطية كان لها امتداد في روسيا، لكن مع اختلاف مهم وهو أن تأثير الجناح الثوري في الاشتراكية الديمقراطية -البلاشفة- كان أقوى مما لا يقاس، وذلك نتيجة لكفاح لينين العنيد ضد الانتهازية طوال الفترة السابقة كلها. وفي المقابل كانت الإصلاحية، سواء في شكلها اليميني أو اليساري، قد صارت ضعيفة ومريضة. وعلى الرغم من أن البلاشفة لم يفلتوا بشكل كامل من التيهان العام وعانوا بدورهم من التذبذبات، خاصة في الفترة الأولى، فإنهم سرعان ما استعادوا رباطة جأشهم، بفضل الموقف الحازم الذي تبناه لينين منذ اللحظة الأولى.

وعلى النقيض من ذلك فقد فضحت الحرب بحدة الضعف الإيديولوجي المزمّن والتذبذب الشديد عند المناشفة الذين سرعان ما انشطروا إلى اتجاهات متصارعة. اندلاع الحرب أخذ المناشفة على حين غرة. وبسبب افتقارهم للبوصلة النظرية انقسموا إلى عدد لا يحصى من الفصائل والمجموعات حول جميع المسائل المهمة التي طرحتها الحرب، بدءاً من بليخانوف القومي المتطرف إلى اليساري الوسطي مارتوف. وبين هذا وذاك كانت هناك مجموعة من وجهات النظر الانتقالية. لقد كشفت الحرب بقسوة عجز المناشفة السياسي والتنظيمي. كما أن المثقفين المتعلقين حول المجلة الأدبية ناشا زاريا، بوتريسوف وماينسكي وشيريفانين وماسلوف، تبنا مواقف الدفاع عن الوطن.

كانت الحالة الأكثر إثارة للحزن هي حالة بليخانوف، الذي انتقل منذ البداية إلى الجناح اليميني المتطرف، حيث تبني موقفاً شوفينيا متشدداً لم يتقبله حتى المناشفة. ومثله مثل كل الشوفينيين الآخرين، حاول بليخانوف أن يغطي خيانتَه بسفستائية "بارعة"، وهو الفن الذي كان يتقنه، حيث قال: «لا يتوقف الصراع بين المستغلين والمستغلين عن كونه صراعاً طبقياً بمجرد أن يكون المستغلون على الجانب الآخر من الحدود ويتحدثون لغة أخرى. إن بروتيتاريا البلدان التي هاجمتها ألمانيا والنمسا، تخوض صراعاً طبقياً أممياً بكونها تصارع، والسلاح في يدها، ضد تحقيق الخطط الاستغلالية للإمبرياليين النمساويين والألمان»<sup>2</sup>.

لم يصدق لينين إلا بصعوبة ما حدث لمعلمه القديم، خاصة وأنه كان قد اقترب كثيراً من البلاشفة في فترة الردة الرجعية. تتذكر كروبسكايا قائلة: «اكتشفنا في أوائل أكتوبر أن بليخانوف، الذي كان قد عاد للتو من باريس، قد ألقى خطاباً في اجتماع في جنيف وأنه سيتولى قراءة بيان في لوزان. كان موقف بليخانوف يقلق إيليتش كثيراً. لم يستطع أن يصدق أن بليخانوف قد أصبح نصيراً "للنزعة الدفاعية". قال: "لا أستطيع أن أصدق ذلك"، وأضاف بعد تفكير: "لا بد أن ذلك بتأثير من ماضيه العسكري».

وبمجرد أن رأى لينين أن بليخانوف قد تجاوز الحد، قرر على الفور أن يواجهه في نقاش مفتوح. كان في البداية، كما تتذكر كروبسكايا، يشعر بالقلق من أنه لن يتم السماح له بحضور محاضرة بليخانوف ويقول ما يريد قوله، قد لا يسمح المناشفة بدخول عدد كبير من البلاشفة. «أستطيع أن أتخيل كم كان غير مرتاح لرؤية هؤلاء الناس ومتابعة محادثاتهم التافهة، ويمكنني أيضاً أن أتفهم الحيل الساذجة التي كان يبتكرها للتخلص منهم. كما يمكنني رؤيته بوضوح وسط صخب مائدة العشاء منطويًا على نفسه ومنفعلاً إلى درجة أنه لا يستطيع ابتلاع اللقمة. وعندما أعلن بليخانوف ساخراً بشكل متصنع أنه لم يكن مستعداً لمخاطبة مثل هذا الجمهور الكبير، تمت إيليتش قائلاً: "يا له من ماكر"، وسلم نفسه بالكامل لسماع ما يقوله بليخانوف. الجزء الأول من المحاضرة، الذي هاجم فيه بليخانوف الألمان، لاقى موافقته وتصفيقه. لكن بليخانوف خصص الجزء الثاني من خطابه ل طرح وجهة نظره حول "الدفاع عن الوطن". لم يعد هناك مجال للشك بعد الآن. طلب إيليتش الكلمة -وكان هو الوحيد الذي قام بذلك- وصعد إلى المنصة مع كأس بيرة في يده. لقد تكلم بهدوء، لكن شحوب وجهه كان يفضح انفعاله. قال إن الحرب لم تكن حدثاً عرضياً، وإنما كانت نتيجة لطبيعة تطور المجتمع البورجوازي نفسه»<sup>3</sup>.

لم يكن أمام لينين سوى عشر دقائق للتحدث، حيث ذُكر الحضور بقرارات المؤتمرات الأممية في شتوتغارت وكوبنهاغن وبال، ودعا الاشتراكيين الديمقراطيين إلى مكافحة السموم الشوفينية والسعي لتحويل الحرب إلى نضال حاسم من جانب البروليتاريا ضد الطبقات الحاكمة. رد بليخانوف بسخريته المعتادة، ولاقى التصفيق الحاد من جانب المناشفة، الذين كانوا يشكلون أغلبية ساحقة. لا بد أن لينين قد أحس بأنه معزول بشكل كامل.

تسببت حمى الحرب في خسائر فادحة أخرى، حيث استسلم بوتريسوف، مثله مثل بليخانوف، للنزعة الشوفينية. بل إن

1: L. Kochan, *Russia in Revolution*, p: 177.

2: G.V. Plekhanov, *Voprosy Voyny i Sotsialisma*, p: 69.

3: N.K. Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, pp: 286 and 287-288.

منشفا بارزا آخر، ج. أ. أليكسينسكي، انتقل إلى اليمين حتى أنه التحق بالجيش الأبيض بعد ثورة أكتوبر. ولم يكن الوحيد في ذلك. لكن دفاع بليخانوف الصارخ عن الاشتراكية الشوفينية لم يجد له صدى في صفوف قواعد الحركة الاشتراكية الديمقراطية، وبقي طوال فترة الحرب معزولا. كتب ماكين عن مجموعة بليخانوف قائلا: «عدد ضئيل فقط من المثقفين المناشقة في بتروغراد من تبناوا استسلام بليخانوف للنزعة القومية. ومن بين أنصاره القلائل نجد فين إنوتيفسكي، والمنشفي ومحرر مجلة سوفريميني مير الشهرية (التي أعادت طبع العديد من مقالات بليخانوف)، يوردانسكي. أوضح مخبر جهاز الأوخرانا مكلف بتتبع مواقف الاشتراكيين من الحرب، في يناير 1916، أن مؤيدي بليخانوف الروس "لم يمارسوا سوى القليل من التأثير على المزاج العام"»<sup>1</sup>.

لكن الأكثر خطورة، كما أدرك لينين على الفور، كانوا هم الشوفينيون المقتنعون، أي أولئك اليساريون السابقون مثل كاوتسكي، الذين كانوا يتمتعون بنفوذ شخصي ضخم والذين أخفوا خيانتهم وراء ستار من السفسطة "الماركسية" المنافقة.

في 17 أكتوبر 1914، كتب لينين إلى شليابنيكوف: «لقد أصبح بليخانوف، كما سبق ربما أن قلت لك، شوفينيا فرنسيا. وبين التصويين هناك ارتباك واضح. يقولون إن أليكسينسكي قد صار مناصرا للفرنسيين. بينما كوسوفسكي (البوندي اليميني، وقد استمعت لخطابه) قد صار مناصرا للألمان. يبدو كما لو أن التيار الوسطي لكل قادة "كتلة بروكسل" التصويين، إضافة إلى أليكسينسكي وبليخانوف، سيتبنى موقف كاوتسكي، الذي هو الآن أكثر ضررا من أي شخص آخر. كم هي خطيرة سفسطه التي تغطي حيل الانتهازيين القذرة بالعبارات الأكثر سلاسة ونعومة (في نيو زيت Neue Zeit). إن الانتهازيين خطر واضح، لكن "التيار الوسطي" الألماني، الذي يتزعمه كاوتسكي، خطر خفي، ملون بألوان دبلوماسية، يخدع عين وعقل وضمير العمال، والأكثر خطورة من أي شيء آخر. إن مهمتنا الآن هي النضال غير المشروط والمفتوح ضد الانتهازية العالمية وأولئك الذين يسترونها (كاوتسكي)»<sup>2</sup>.

بسبب ضغط البلاشفة، اضطر المناشقة الروس إلى الوقوف على يسار معظم المجموعات الأخرى داخل الأممية. لقد تبناوا ما يشبه موقفا وسطيا، لكنهم سرعان ما انقسموا إلى مجموعتين. كانت غالبية المناشقة أقرب إلى موقف كاوتسكي "الوسطي" من موقف بليخانوف. وخلال الحرب، وفي تناقض حاد مع موقف بليخانوف، وجه المناشقة فريقهم في البرلمان للتصويت ضد اعتمادات الحرب وحافظوا على موقف متردد من مسألة الدفاع عن الوطن. تبنت "اللجنة التنظيمية"، برئاسة ب. ب. أكسيلرود، التي انتخبت في اجتماع غشت 1912، موقفا غامضا (كاوتسكي) بشأن الحرب، ودعت، كما كانت دائما، إلى "وحدة" جميع الاشتراكيين الديمقراطيين - بمن فيهم بليخانوف وأليكسينسكي! لقد أيدت الفريق المنشفي في الدوما، الذي فشل في البداية في معارضة الحرب، لكنه صوت لاحقا ضد اعتمادات الحرب.

بعد ثلاثة أيام من صدامه مع بليخانوف وفي نفس القاعة - Maison du Peuple - ألقى لينين محاضرته. كتبت كروبسكايا قائلة: «كانت القاعة مكتظة ولاقت المحاضرة نجاحا باهرا. كان إيليتش ذا مزاج كفاحي متأجج. شرح وجهة نظره من الحرب التي وصفها بأنها حرب إمبريالية. وأشار في كلمته إلى أن اللجنة المركزية أصدرت في روسيا منشورا ضد الحرب، وأن منشورات مماثلة قد صدرت عن المنظمة القوقازية وغيرها من المجموعات. وأشار إلى أن أفضل صحيفة اشتراكية في أوروبا في ذلك الوقت هي غولوس (الصوت)، التي كان مارتوف يكتب فيها. وقال: "بقدر ما أختلف في أغلب الأحيان وبشكل جدي مع مارتوف، بقدر ما يجب علي، بكل تأكيد، أن أقول الآن إنه يقوم بما يجب على الاشتراكي الديمقراطي القيام به، إنه ينتقد حكومته ويندد ببرجوازية بلده ويناضل ضد وزراء بلده"»<sup>3</sup>.

وقف مارتوف على يسار المناشقة طوال الحرب. كان الجناح اليساري عند المناشقة في بتروغراد ممثلا من قبل مجموعة المبادرة المركزية، التي دافعت، منذ غشت 1914، عن موقف أممي راديكالي ضد الحرب. في البداية بدا كما لو أن مارتوف يسير في اتجاه البلشفية، ليس فقط في موقفه الأممي، بل أيضا في ما يخص معارضته للتكتل مع الليبراليين. كتب روبرت ماكين: «وفي تناقض حاد مع معظم المناشقة، رفضوا [المناشقة الأمميون] بشكل قاطع قبول اعتبار البرجوازية "الرجعية" و"المعادية للشعب" حليفا للطبقة العاملة»<sup>4</sup>.

أعطى ذلك للينين سببا في الأمل بإمكانية حصول تحالف بينه وبين رفيقه القديم مارتوف، الذي احتفظ له دائما، وحتى نهاية أيامه، بمشاعر تقدير حارة. لكن مارتوف توقف، كالعادة، في منتصف الطريق ولم يصل إلى درجة النضال ضد كاوتسكي. ومع ذلك

1: R.B. McKean, St. Petersburg Between the Revolutions, p: 362.

2: LCW, To A.G. Shlyapnikov, 17/10/1914, vol. 35, pp: 161-162.

3: N.K. Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 288.

4: R.B. McKean, St. Petersburg Between the Revolutions, p: 364.

فإن مارتوف ومجموعته، المناشفة الأمميون، وعلى الرغم من بعض التناقضات، احتفظوا بموقف أممي خلال الحرب.

كان بعض زعماء المناشفة، مثل نواب الدوما تشخيدزه وتولياكوف وسكوبيليف، يميلون إلى موقف "المناشفة الأميين" المارتوفيين، ودعوا إلى حملة من أجل سلام ديمقراطي بدون إلحاقات، وبعد ذلك أيدوا قرارات كونفرانس زيمروالد، كما أيدوا إعادة بناء الأممية القديمة. وفي وقت لاحق، مع ظهور الكتلة التقدمية والصدام بين مجلس الدوما وبين حكومة جورميكين، في صيف عام 1915، صارت لدى هؤلاء النواب البرلمانيين الثلاثة أوهام (تقاسمها معهم مارتوف على ما يبدو) حول إمكانية استبدال نظام الثالث من يونيو بجمهورية ديمقراطية من شأنها أن تكون بمثابة حافز لحركة السلام الأوروبية. لم تظهر الآثار الرجعية لهذا النوع من النزعة الإصلاحية اليسارية إلا بعد فبراير 1917، عندما أدت بالمناشفة إلى أن دعموا ليس فقط الحكومة البرجوازية المؤقتة، بل الحرب أيضا.

تروتسكي، الذي كان ما يزال غير منتم بشكل رسمي لأي فصيل، اتخذ موقفا ثوريا أمميا حازما وشارك بلا كلل في التحريض والدعاية ضد الحرب وضد الاشتراكية الشوفينية. ومن منفاه في باريس، نجح في القيام بشيء لم يحققه أي عضو آخر في التيار الأممي الروسي. فبال تعاون النشط مع رفيقيه موناتي وروسمر، اللذين كانا من أبرز قادة الجناح اليساري في فرنسا، نشر صحيفة يومية بعنوان ناش سلوفو (كلمتنا). قامت صحيفة تروتسكي، جنبا إلى جنب مع مارتوف وغيره من الأميين، وخاصة في فرنسا، بدور هام في الحملة من أجل عقد كونفرانس أممي، وهو ما أسفر في النهاية عن زيمروالد. اعتاد المؤرخون الستالينيون تصنيف تروتسكي في ذلك الوقت كـ "وسطي". هذا هراء. لم يكن موقف تروتسكي من الحرب يختلف من حيث الجوهر في أي شيء عن موقف لينين. حقيقة أنه لم يكن قد صار بعد عضوا رسميا في منظمة لينين لا تعكس وجود اختلافات سياسية، بل كانت نتاجا لميراث الجدل الذي حدث في الفترة السابقة. على الرغم من بعض الخلافات التكتيكية والشكوك المتبادلة الموروثة من الماضي، كان هناك في الواقع تعاون متكرر بين البلاشفة وبين ناش سلوفو التي استمرت في صراعها ضد الامبريالية حتى تم منعها في النهاية من قبل الحكومة الفرنسية عندما اندلع التمرد على متن الطراد الروسية أسكولد، الراسية في طولون، وتم العثور على نسخ من الجريدة عند بعض المتمردين.

وكما كان الحال دائما فإن ما فصل بين لينين وتروتسكي لم يكن هو الخط السياسي، بل مسألة وحدة الحزب. فنظرا للصعوبات الهائلة التي كان الجناح الثوري الأممي يواجهها، اعتبر تروتسكي أنه من الضروري، أكثر من أي وقت مضى، السعي لتوحيد جميع العناصر التي احتفظت بموقف أممي. لم يتضمن ذلك البلاشفة وحدهم، بل كذلك أولئك المناشفة الأمميون، مثل مارتوف، اللذين وقفوا بقوة ضد الاشتراكية الشوفينية منذ بداية الحرب. في الواقع كان هناك من بينهم العديد من المناضلين الجيدين، اللذين انضم جزء كبير منهم لاحقا إلى الحزب البلشفي ولعبوا دورا بارزا. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك نذكر مجموعة ما بين المقاطعات (ميزرايونتسي) في بتروغراد. كما كان هناك لوناتشارسكي، الذي صار لاحقا مفوض الشعب للثقافة والتعليم. لقد تعاون أيضا مع ناش سلوفو، ويتذكر جهود تروتسكي للتوصل إلى وحدة جميع العناصر الأممية الحقيقية، كما يتذكر تذبذب أشخاص، مثل مارتوف، تبنا موقفا أمميا لكنهم لم يكونوا مستعدين لاستخلاص كل الاستنتاجات الضرورية، حيث قال:

«لقد أردنا بإخلاص أن نتوصل، على أسس أممية جديدة، إلى التوحيد الكامل لجهة حزبنا من لينين إلى مارتوف. لقد دافعت عن هذا المسار بأكثر الطرق نشاطا، وكنت، إلى حد ما، أول من أطلق شعار "فليسقط الانهزاميون، ولتحيا الوحدة بين جميع الأميين!" وقد بنى تروتسكي بشكل كامل هذا الموقف. لقد كان ذلك حلمه منذ فترة طويلة ويبدو أنه يبرر كل مواقفه السابقة.

لم تكن لدينا أي خلافات مع البلاشفة، لكن مع المناشفة كانت الأمور تسير بشكل سيء. حاول تروتسكي بكل الوسائل إقناع مارتوف بقطع صلاته مع المدافعين [أنصار نزعة الدفاع عن الوطن]. تحولت اجتماعات هيئة التحرير إلى مناقشات مطولة، تمكن خلالها مارتوف، صاحب القدرات العقلية المذهلة، وباستعمال نوع من السفسطة الماكرة، من تجنب الإجابة بشكل مباشر عن سؤال ما إذا كان سيقطع صلاته مع المدافعين. وفي بعض الأحيان هاجمه تروتسكي بشكل مباشر. وصلت الأمور إلى نقطة انفصال شبه تام بين تروتسكي ومارتوف -الذي، بالمناسبة، كان تروتسكي يحترم ذكاه السياسي دائما- وفي نفس الوقت وقعت القطيعة بيننا، نحن الأمميون اليساريون، وبين مجموعة مارتوف»<sup>1</sup>.

لعبت لجنة ما بين المقاطعات (ميزرايونكا) دورا هاما طوال الحرب، رغم أنها لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه من جانب المؤرخين. تعود جذور ميزرايونتسي، كما كان يطلق على أعضائها، إلى عام 1913، عندما تم تأسيسها بمبادرة من بلشفي شاب يبلغ

1: A.V. Lunacharsky, Revolutionary Silhouettes, pp: 63-64.

من العمر 23 عاماً، اسمه ك. ك. يورنييف؛ وم. بيغوروف الذي كان نائباً سابقاً في مجلس الدوما الثالثة عن منطقة بيرم؛ والعامل في قطاع الصلب أ. م. نوفوسيلوف، والذي هو مناضل بلشفي منذ عام 1906، وقيادي بارز في نقابة عمال الصلب في جزيرة فاسيليفسكي. كان هدف المنظمة المعلن هو "إعادة توحيد جميع الاشتراكيين الديمقراطيين الثوريين انطلاقاً من القاعدة" (أي البلاشفة والمناشفة الموالين للحزب)، والقيام بالتحريض الحزبي بين صفوف القوات المسلحة. لقد اتخذت منذ البداية موقفاً مبدئياً فيما يتعلق بالحرب، كما أنها تبنت، بصورة مستقلة عن البلاشفة، في اجتماع عُقد في 20 يوليو، شعار "الحرب ضد الحرب".

كتب روبرت ماكين: «خلال الأشهر الستة الأولى، بعد اندلاع الأعمال العدائية، كانت المنظمة "الأكثر نجاحاً" بين الفصائل الثورية هي ميزرايونكا. ففي جزيرة فاسيليفسكي كانت إحدى لجان الإضراب البيحزبية قد نجحت بعد اضطرابات يوليو 1914. وفي وقت ما في خريف تلك السنة، تم تأسيس لجنة مقاطعة سرية تابعة للحزب الاشتراكي الديمقراطي والتي تبنت خط ميزرايونكا. عملت الخلايا في 11 شركة، بما في ذلك شركة النفط وشركة سيمنز-شوكرت. وفي أكتوبر ظهرت مجموعة في المدينة، وأسست حلقات في عدة مصانع في بيتسبورغ، من بينها شركة بتروغراد للهندسة وشركة لانجيزيين. وفي نارفا، حيث لم تكن لميزرايونكا أي جذور قبل الحرب، أسس البلاشفة والمناشفة الموالون للحزب لجنة تمكنت من كسب حوالي 130 عضواً، معظمهم في مصنع بوتيلوف. في نوفمبر صوتت هذه المنظمة المستقلة لصالح الانضمام إلى ميزرايونكا. وقد كانت هذه الأخيرة تمتلك مطبعة أصدرت خمس منشورات وطبعة واحدة من الصحيفة السرية فريود. لكن، وكما في الماضي، فشلت ميزرايونكا بشكل واضح في اختراق أحياء نيفا وفيبورغ. وبالنظر إلى الأهمية الكبيرة التي أعطتها ميزرايونكا للجيش باعتباره عاملاً حاسماً لقيام ثورة ناجحة، فقد أنشأت مجموعة دعائية عسكرية تمكنت من إصدار منشور للجنود. لكنها لم تكن تمتلك أية خلايا في وحدات بتروغراد العسكرية. وبحلول نهاية العام، تمكنت ميزرايونكا من كسب أكثر من 300 مناضل. إذا ما نظرنا إلى عضوية لجنة ميزرايونكا، سنجد أن القيادة كانت مشكلة من ثلاث مجموعات في ذلك الوقت: الطلاب وعمال الصلب المؤهلين، ثم عمال المطابع على الخصوص. لكن سرعان ما جذب توسع المنظمة انتباه البوليس. وفي أوائل فبراير 1915، تسببت حملة اعتقالات واسعة في سحقها كلياً تقريباً، مما شل نشاطها لعدة أشهر بعد ذلك»<sup>1</sup>.

وفي عام 1917، انضمت ميزرايونكا، مع تروتسكي، إلى الحزب البلشفي، ولعبت دوراً هاماً، كما سنرى لاحقاً.

## موقف لينين

لعل كتابات لينين عن الحرب هي أكثر كتاباته التي تعرضت لسوء الفهم. لقد وقف لينين في أقصى يسار التيار الأممي طوال الحرب. وقد بدا موقفه بالنسبة للكثيرين في ذلك الوقت، حتى بين صفوف البلاشفة، كما لو أنه موقف مشوب بالتطرف اليساري. أثارت حدة بعض مواقفه الكثير من الجدل، وهي المواقف التي تم تخفيف بعضها في وقت لاحق أو تم التخلي عنها تماماً. لقد تسببت تلك الخلافات في أن جعلت تحقيق الوحدة مع العديد من العناصر الأممية الحقيقية مسألة مستحيلة. لكن ذلك كانت له العديد من الأسباب. لقد تفاجأ لينين بانتهاء الأممية، وبمجرد أن فهم طبيعة المشكلة، وصل إلى استنتاج مفاده أن هناك ضرورة للقيام بقطيعة جذرية ليس فقط مع الشوفينيين اليمينيين المتطرفين، بل أيضاً مع من كانوا يسمون أنفسهم باليساريين (كاوتسكي، هاسي، لبييدور). واجه الجناح الثوري، المعزول والتائه إلى حد ما في البداية، مهمة صعبة. لم يكن يكفي "القطع مع الاشتراكية الشوفينية" بالكلمات فقط، بل كان من الضروري كسب الجماهير إلى برنامج الأممية الحقيقية. لكنه لم يكن من الممكن الوصول إلى الجماهير. كان عمل الأممين الثوريين في ذلك الوقت يقتصر، في معظم الحالات، على إعادة تثقيف الكوادر داخل حلقات صغيرة، وانتظار حدوث تغير في الوضع.

من الصعب أن نتخيل الآن حجم التأثير المدمر والمحيط للخيانة التي اقترفتها قيادة الأممية الثانية. كان ذلك وضعاً جديداً وغير مسبوق تماماً. لقد تعرضت طليعة العمال في كل مكان للشلل، وساد الارتباك لفترة من الوقت، إلى أن بدأ الأمميون تدريجياً في إعادة تجميع صفوفهم والقيام بهجوم مضاد. كان على لينين أن يعيد تثقيف الكوادر بمواقف حازمة ضد سموم الاشتراكية الشوفينية. لقد سقطت خيانة قادة الأممية الاشتراكية، في غشت 1914، كالصاعقة من سماء زرقاء صافية. كان تصويت الفريق البرلماني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني داخل الرايخستاغ لصالح ميزانية الحرب تصرفاً غير متوقع إلى درجة أن لينين عندما قرأ الخبر في الجريدة الرسمية للحزب (Vorwärts)، رفض في البداية تصديقه، واعتبر المقال مجرد خبر كاذب صادر عن هيئة أركان الحرب العامة

1: R.B. McKean, St. Petersburg Between the Revolutions., pp: 373-374.



الألمانية. ولم يكن وحده في هذا. قال تروتسكي في مؤتمر زيبرووالد: «اعتقدنا أن عدد 04 غشت من Vorwärts تم إنتاجه من قبل هيئة الأركان العامة الألمانية»<sup>1</sup>. كما لخص زينوفيف الوضع العام قائلا: «لقد تقاسم العديد من الاشتراكيين الاحساس بأن هناك شيئا ما فاسد في الدمارك. لكن علينا أن نعترف بنزاهة أنه لا أحد منا توقع أي شيء قد يشبه ولو من بعيد ما شهدناه في 04 غشت 1914»<sup>2</sup>.

وصف أكسلرود ردة فعل المناشفة قائلا: «لطالما كان الحزب الألماني معلمنا. وعندما قرأنا خطاب تصويت الفريق البرلماني الألماني لم نصدق ذلك»<sup>3</sup>.

لكن الخبر كان صحيحا. وقد كان الموقف الأكثر إثارة للصدمة هو سلوك القادة الاشتراكيين اليساريين. لم يكن من قبيل الصدفة أن لينين قد سلط أثناء الحرب أشد انتقاداته حدة على من كانوا يسمون باليساريين، وكاوتسكي على وجه الخصوص. قبل الحرب كان كاوتسكي يعتبر على نطاق واسع بأنه زعيم اليسار الأممي. وقد كان لينين يعتبر نفسه «كاوتسكيا أرثوذكسيا». بينما كانت روزا لوكسمبورغ، التي كانت تعرف كاوتسكي أفضل من لينين، أكثر انتقادا له، حيث شعرت أنه من وراء كل كتابته «الماركسية» المنمقة يكمن بيروقراطي توفيقى جبان. وقد تمكن لينين لاحقا من استيعاب صحة تحذيرات روزا، حيث قال: «لقد كانت روزا لوكسمبورغ محقة عندما كتبت، منذ زمن بعيد، أن كاوتسكي يمتلك "خضوع المنظر"، وخنوعه، أو بلغة أكثر اعتدالا موقفا عبوديا تجاه أغلبية الحزب، تجاه الانتهازية»<sup>4</sup>.

أراد كاوتسكي وأتباعه أن يفتنوا العمال بأن المنظمة الأممية لا تستطيع أن تعمل في ظل ظروف الحرب، لكنه سيعاد إحياءها مرة أخرى بعد استعادة السلام. كان هذا الموقف أشبه مظللة مليئة بالثقوب، أي أنها عديمة الفائدة على وجه التحديد عندما تمطر السماء! لم يدخر لينين أي مجهود لفضح دور «اليساريين» وتكوين رفاقه على أساس استحالة أي مصالحة مع المسؤولين عن أكبر خيانة في تاريخ الطبقة العاملة. لقد كان وقت المجاملات والصيغ الدبلوماسية قد انتهى، وصار من الضروري تسمية الأشياء باسمها الحقيقي!

لينين الذي كان يشعر بالعزلة الشديدة، صار يبحث بفارغ الصبر عما يشاركه الموقف. وكما حدث له أكثر من مرة في سياق حياته السياسية، وجه أنظاره نحو رفيقه القديم مارتوف. قالت كروبسكايا: «كان إيليتش كثيرا ما يصرح في محادثاته الخاصة أنه سيكون من الجيد لو التحق بنا مارتوف. لكنه كان يشكك في قدرة مارتوف على أن يلتزم بموقفه الحالي لفترة طويلة. لقد كان يعرف أن مارتوف سريع الاستسلام للتأثيرات الخارجية. وأضاف إيليتش: "إنه يكتب مثل هذا عندما يكون وحيدا"»<sup>5</sup>.

لكن تجربته الطويلة والمريرة مع تذبذبات مارتوف علمته أن يكون حذرا. وفي رسالة بعثها إلى شليابينيكوف، رحب لينين بموقف مارتوف ضد الاشتراكية الشوفينية، لكنه فتح على الفور المجال لشكوكه حول الرجل الذي كان يعرفه جيدا: «يتصرف مارتوف أكثر من الجميع مثل غولوس. لكن هل سيتمسك (مارتوف) بموقفه؟ أنا لا أعتقد ذلك». وقد أكدت الأيام أسوء مخاوفه في هذا الشأن.

كانت لدى لينين رؤية واضحة لما يجب القيام به. كانت الأممية الثانية قد ماتت، وكانت كل الجهود لإعادة إنعاشها بدون جدوى. كان من الضروري بناء أممية جديدة. كانت الرسالة جريئة مثلما هي بسيطة. لكن تحويل مثل هذا المشروع إلى واقع لم يكن بهذه البساطة. كان ملايين العمال من البلدان المتحاربة ما زالوا أعضاء في المنظمات القديمة، وكان الوصول إليهم، خاصة في ظل ظروف الحرب، يبدو مهمة مستحيلة، لكن عندما نأخذ بعين الاعتبار أن مجموعة لينين كانت قد تقلصت إلى حفنة صغيرة من الأعضاء، بدون أجهزة ولا مال ولا تأثير يذكر على الأحداث في روسيا أو في أي مكان آخر، فإن المهمة تبدو وكأنها مجرد جنون. لا عجب في أنه حتى أقرب الناس سياسيا من لينين كانوا مترددين في قبول كل تداعيات موقفه. ولا عجب في أنه وجد صعوبات جدية في إقناع حتى قادة حزبه. لكنه لم يتردد ولو للحظة. لم يكن لينين منظرا عظيما فقط، ولا صاحب منظور واسع فحسب، بل كان كذلك شجاعا جدا - ليس من ذلك النوع الذي يتألق لفترة مؤقتة ثم يختفي - كان شديد التصميم والعناد والحزم لاستخلاص كل الاستنتاجات الضرورية ورؤية الأشياء حتى نهايتها. وقد اتضحت هذه الصفات بشكل كبير خلال مرحلة الاختبار تلك، كما يمكننا أن نرى من خلال الفقرة التالية:

1: *Lenin's Struggle for a Revolutionary International*, p: 293.

2: *Ibid.*, p: 104.

3: *Ibid.*, p: 293.

4: *LCW, To A.G. Shlyapnikov, 271914|10|*, vol. 35, pp: 167-168.

5: N.K. Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, pp: 288-289.

«هذه مهمة أممية، وتقع على كاهلنا، لا يوجد أحد آخر غيرنا للقيام بها. يجب علينا ألا نتراجع عنها. من الخطأ رفع شعار إعادة بناء الأممية "البسيط" (لأن خطر الوقوع في حل توفيقى فاسد متوافق مع خط كاوتسكي- فاندرفيلد هو احتمال كبير جدا!). إن شعار "السلام" خاطئ: يجب أن يكون الشعار هو تحويل الحرب القومية إلى حرب أهلية. (قد يكون هذا التحويل عملا طويلا، قد يتطلب، وسيطلب، توفر عدد من الشروط المسبقة، لكن يجب أن يتم كل العمل في اتجاه هذا التحول بالتحديد، بتلك الروح وعلى ذلك الخط) لا عمليات تخريب ضد الحرب ولا أعمال فردية معزولة، بل الدعاية الجماهيرية (ليس فقط بين "المدنيين") في اتجاه تحويل الحرب إلى حرب أهلية»<sup>1</sup>.

يا له من تناقض هائل بين هذا الموقف وبين تردد وشكوك مارتوف، الشبيه بهاملت. «[المهمة] تقع على كاهلنا، لا يوجد أحد آخر غيرنا للقيام بها. يجب علينا ألا نتراجع عنها». نجد في هذه العبارات القليلة جوهر لينين الانسان والمناضل الذي بمجرد اقتناعه بصحة موقف معين لا يبقى بالنسبة له أي مجال للنظر إلى الوراء.

كانت توجد العديد من المشاكل هنا أيضا. فمعظم القوى الشابّة وغير الناضجة التي شكلت يسار زيمروالد لم تفهم حقا ماذا كان يقصده لينين، وبالتالي فقد كانت المهمة الأولى إذن هي التأكيد على المبادئ الأساسية. لطالما احتوت طريقة لينين على شيء من المبالغة الجدالية. كان دائما ما يركز على نقطة معينة، بل ويبالغ في التأكيد عليها (كما فعل في عام 1902، عندما ذكر، مخطئا، أن الطبقة العاملة لا يمكنها، إذا ما تركت لنفسها، أن تحقق سوى الوعي "النقابي الخبزي") وذلك لكي يصدّم الناس ويجعلهم يفهمون وجهة نظره. إن الحرب تدمر بلا رحمة كل الحيل والأكاذيب وتجبر الرجال والنساء على مواجهة الحقيقة. لقد اتخذ هجوم لينين الشرس على القادة القدامى، على الانتهازية والشوفينية، شكلا متطرفا لأنه كان مصمما على ألا يترك لهم ولو ثغرة صغيرة ليعودوا منها بعد الحرب. ولكي يرسخ هذه الفكرة في وعي الكوادر لم يتردد لينين في استخدام اللغة الأكثر حدة وتطرفا. صحيح أن ذلك أدى إلى خلق بعض الصعوبات، لكن لينين اعتبر أن ذلك ضروري للغاية من أجل إعادة تثقيف الطليعة البروليتارية وإعدادها للمهام العملاقة التي تنتظرها. كان هدف لينين من بيان "الحرب والاشتراكية الروسية" هو تثقيف أعضاء حزبه الذين كانوا يعانون من بعض التذبذب، كما هو متوقع في ظل تلك الظروف. لم تصل أطروحات لينين عن الحرب إلى بيترسبورغ إلا في شتبر، لكنها لم تستقبل بالكثير من الحماس. يقول شليابنيكوف إن موقف الانهزامية الثورية الذي دعا إليه لينين استقبل بنوع من "الحيرة". ووفقا لجهاز الأورخانا موسكو: «لقد فاجأت الحرب "اللينينيين" واستمروا كذلك لمدة طويلة... لم يتمكنوا من الاتفاق على الموقف الذي ينبغي لهم اتخاذه من الحرب...»<sup>2</sup>.

إن تلك التذبذبات التي ظهرت حتى بين صفوف القيادات البلشفية حول المسألة الهامة التي هي الموقف من الحرب، تفسر لنا لماذا تبنى لينين شعارات جعلتهم معرضين للاتهام بالتطرف اليساري مثل: «تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية»، وأن "هزيمة روسيا هي أهون الشرين". لقد انتقد تروتسكي شعار لينين: "تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية"، لأنه رأى أن ذلك الشعار لا يمكنه أن يوفر أساسا للقيام بحملة واسعة ضد الحرب يمكن أن تجد صدى بين الجماهير، وكان يعمل على خلق أفضية يمكنها أن توحد كل الاشتراكيين الأيمن الحقيقيين. ليس هناك من شك في أن تروتسكي كان لديه حق، إذ أن مثل تلك الشعارات لم تكن أبدا لتجد لها صدى بين الجماهير، على الأقل بذلك الشكل الذي طرحت به وفي تلك المرحلة. لقد وصف لينين موقف تروتسكي بأنه "وسطي"، بل وحتى "كاوتسكي". كان هذا غير صحيح نهائيا، إذ أن تروتسكي حافظ طوال الحرب، مثله مثل لينين، على موقف أممي حازم. وقد كان موقفه من الحرب مشابها لموقف لينين في كل شيء من حيث الجوهر. إلا أنه بفضل جريدته اليومية ناش سلوفو (كلمتنا)، التي كان يصدرها من باريس، كان بإمكانه أن يتواصل مع جمهور أوسع مما كان بإمكان لينين. كان ذلك جزئيا هو ما جعله يستعمل لغة مختلفة، حيث أكد على ضرورة خوض النضال الثوري ضد الحرب بعبارة مختلفة يمكنها أن تحدث صدى بين العمال الأكثر وعيا على الأقل، والذين كانوا قد بدأوا في البحث عن بديل يساري.

خلال الحرب العالمية الأولى كان لينين معزولا بشكل تام عن الجماهير. والشعارات التي تقدم بها في ذلك الوقت لم تكن موجهة للجماهير، لقد كان لينين يكتب للكوادر. إن عدم فهم هذه الحقيقة يمكنه أن يؤدي إلى السقوط في أخطاء فادحة. وعلاوة على ذلك فإن الطريقة التي صاغ بها لينين شعار الانهزامية تركت الكثير من الأشياء التي تحتاج إلى توضيح. لم تكن تلك هي المرة الأولى، كما سبق لنا أن رأينا، التي قام فيها لينين بالمبالغة في صياغة موقف معين من أجل جعله مفهوما من طرف رفاقه. لكنها أدت إلى ارتباك لا نهاية له عند هؤلاء الأشخاص الذين قرأوا بضعة أسطر من كتابات لينين دون أن يفهموا منهجه. من الضروري أن نفهم

1: LCW, To A.G. Shlyapnikov, 17/10/1914, vol. 35, 161 footnote, p: 62.

2: L. Trotsky, Stalin, p: 168.

الظروف الملموسة التي كتبت خلالها تلك الأعمال ومن كانت تستهدفهم. لقد فوجئ لينين بالمد الكاسح للنزعة الشوفينية التي بدت وكأنها تكتسح كل شيء أمامها. كان بعيدا عن روسيا وكان قلقا جدا من احتمال التذبذب بين أنصاره في الموقف من مسألة الحرب والأمية. لذا كان من الضروري إعادة التأكيد على المبادئ الأساسية. كانت الرهانات هامة جدا؛ كانت القضايا المطروحة على المحك هي مصير الثورة، ليس فقط في روسيا بل الثورة العالمية كذلك. ولهذا السبب لم يكن هناك أي مجال للدبلوماسية والغموض.

تقول كروبسكايا: «لقد قام إيليتش متعمدا بطرح القضية بحدة كبيرة من أجل أن يوضح بشكل كامل الموقف الذي يتوجب اتخاذه. كان الصراع مع أنصار الدفاع عن الوطن حامي الوطيس. لم يكن الصراع شأنا داخليا للحزب يتعلق بالأمور الروسية وحدها، بل كان شأنا أمميا»<sup>1</sup>.

جزء من المشكلة هو أن شعار لينين، الذي يهدف إلى تثقيف الكوادر بروح النضال الثوري الحازم ضد كل أنواع الشوفينية، كان يقدم بشكل متكرر في صورة كاريكاتيرية من قبل أنصاره. وكمثال على ذلك فقد نشر زينوفييف مقالا له في جريدة سوتسيال ديموكرات (عدد 38)، عرض فيه ذلك الموقف بطريقة فظة ومبتذلة، حيث قال: «نعم نحن نريد هزيمة "روسيا"، لأن ذلك سيسهل انتصار روسيا ويحررها، ويخلصها من قيود النظام القيصري»<sup>2</sup>. وكالعادة فقد تعرضت وجهة نظر لينين إلى التشويه على يد أنصاره، الذين أخذوا كلماته (التي كانت في الواقع مجرد مبالغة جدالية) وقلبوها رأسا على عقب. لقد كانت الفكرة القائلة بأن الهزيمة العسكرية للنظام القيصري من شأنها تسريع سيرورة الثورة في روسيا صحيحة بشكل كامل وقد أكدت الأحداث. لكن الوقوف أمام الجماهير في روسيا والقول لها بأن الثوريين يؤيدون انتصار القيصر الألماني على روسيا سيكون موقفا انتحاريا. في واقع الأمر كان من الممكن أن يتحول ذلك إلى نزعة دفاعية بشكل مقلوب، وكان من شأنه أن يعرض البلاشفة لاتهامهم بأنهم عملاء للألمان (وهو الاتهام الذي استخدمته الحكومة المؤقتة ضدهم فيما بعد).

### مزاج الطبقة العاملة

لم يكن ذلك هو المحتوى الحقيقي لشعار لينين، بل كان مجرد وسيلة للتعبير عن الحاجة إلى النضال ضد الشوفينية ومعارضة "Burgfrieden" (السلم الاجتماعي). كان جوهر الموقف هو التأكيد على أن الاشتراكيين لا يمكنهم تحمل أي مسؤولية في الحرب الإمبريالية، وأنه حتى هزيمة روسيا تعتبر "أهون شراً" من شر دعم البورجوازية الروسية وحربها التوسعية. لقد كان من الضروري غرس هذه الفكرة في عقول الكوادر، لتحصينهم ضد مرض الشوفينية. إلا أن لينين، من ناحية أخرى، كان واقعا جدا ويفهم أنه من الخطأ الفادح الخلط بين الطريقة التي يرى بها الثوريون الأمور وبين مستوى وعي الجماهير. يتمثل كامل فن بناء الحزب الثوري وترسيخ جذوره بين صفوف الجماهير على وجه الدقة في معرفة كيفية الربط بين البرنامج الماركسي العلمي الكامل وبين وعي الجماهير الذي هو بالضرورة غير مكتمل ومشوش ومتناقض. ولهذا السبب بالتحديد، قام لينين بتعديل موقفه عندما عاد إلى بتروغراد في الربيع، مشيرا إلى أنه رأى أن هناك نوعان من النزعة الدفاعية، هما نزعة الاشتراكيين الشوفينيين الخونة ونزعة "الدفاعية النزيهة" عند الجماهير. وهو عندما قال هذا لم يتخل عن موقفه السابق حول الانهزامية الثورية، بل اعترف فقط بأنه يجب عند نقل هذه الأفكار إلى الجماهير أن تأخذ في الحسبان المستوى الفعلي لوعيها. إن عدم القيام بذلك كان من شأنه أن يحول الحزب إلى مجرد عصبة.

لم تكن لخطابات لينين، التي ألقاها في ذلك الوقت، أية علاقة بالموقف الذي طرحه في بداية الحرب. ويكفي أن نقرأ خطابه الذي ألقاه في المؤتمر الأول لسوفييتات عموم روسيا لكي نرى الفرق. عندما تحدث لينين إلى العمال أنصار "الدفاع عن الوطن"-العمال المناشفة والاشتراكيين الثوريين النزهاء الذين كانوا يؤمنون فعلا بأنهم يناضلون للدفاع عن جمهورية ديمقراطية وعن الثورة-أخذ وجهات نظرهم في الحسبان. قال نحن مستعدون للقتال ضد الإمبرياليين الألمان، نحن لسنا من دعاة السلام. لكننا لا نشق في الحكومة البرجوازية المؤقتة. إننا نطالب قادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين بالقطع مع البرجوازية وأخذ السلطة بين أيديهم. عندها يمكننا شن حرب ثورية ضد الإمبريالية الألمانية، وندعو العمال الألمان إلى السير على خطانا. كان هذا هو الجوهر الحقيقي لسياسة لينين العسكرية الثورية، وليس تلك الصورة الكاريكاتيرية عن "الانهزامية الثورية" التي غالبا ما يقدمها اليساريون المتطرفون

1: N.K. Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, p: 290.

2: *Lenin's Struggle for a Revolutionary International*, p: 273.

الحمقى.

في البداية حاول العمال المنظمون، تحت تأثير البلاشفة، معارضة الحرب، لكن سرعان ما طوحت بهم جانبا جماهير الفلاحين البورجوازيين الصغار الوطنيين والفئات المتخلفة من العمال. هل صحيح أن العمال الروس كانوا مصابين بنزعة الوطنية؟ لقد أثبت الكثير من المؤرخين غير الماركسيين العكس. وقد كتب روبرت ماكين، الذي لا يمكن الاشتباه في تحيزه لصالح البلاشفة، معلقا على التكوين الطبقي للمظاهرات ذات النزعة الوطنية، قائلا: «وصفت التقارير الواردة في وسائل الإعلام البرجوازية في العاصمة كيف أن الحشود كانت تتشكل في معظمها من أفراد الشرطة والطلاب وسيدات المجتمع وأصحاب المهن، مع بعض الحرفيين وأصحاب الدكاكين. يمكن للمرء أن يستنتج أنه كانت هناك نزعة معارضة للحرب بين عمال المصانع والحرفيين الصغار ولو بشكل ضيق وغير علني»<sup>1</sup>.

يتطابق هذا تماما مع شهادة بلشفي بارز، وهو الكسندر شليابينيكوف، الذي كان شاهد عيان على تلك الأحداث. أخذ إعلان الحرب العمال على حين غرة في البداية. وقد وصف شليابينيكوف مزاج الذهول بينهم قائلا: «اجتمعت حشود من الناس حول المنشورات، يناقشون الأحداث بمزاج من القلق واليأس. واحتشدت مئات من أسر العمال أمام مراكز الشرطة، التي تم تحويلها إلى مكاتب للتجنيد. كانت النساء تبكين وتصرخن وتلعن الحرب. أما في ورشات العمل والمصانع، فقد خلقت التعبئة فوضى عارمة، حيث أنتزع ما يقرب من 40% من العمال من آلاتهم ومقاعدهم. لقد ساد العجز واليأس في كل مكان»<sup>2</sup>.

لكن بمجرد أن انتهت الصدمة الأولية، استبدلت بسرعة موجة من الغضب. كانت هناك منذ البداية، في الواقع، محاولات لتنظيم احتجاجات ضد الحرب. يقول ماكين إنه: «في يوم إعلان الحرب لاحظت الشرطة السرية أن الشبان الثوريين المتطرفين كانوا ينظمون اجتماعات في المصانع، حيث دعوا جميع التيارات الاشتراكية لمعارضة الحرب ودعوا الجنود إلى تحويل أسلحتهم ضد العدو الداخلي، أي النظام الأوتوقراطي»<sup>3</sup>. خرج العمال إلى الشوارع للتعبير عن معارضتهم للحرب. وفي 31 يوليو، تظاهر حوالي 27.000 شخص ضد الحرب في شوارع العاصمة. كانت هناك إضرابات ومظاهرات في جميع المراكز الصناعية الكبرى: في بيلاروسيا وأوكرانيا والقوقاز والأورال. وكانت هناك محاولات أولية لمقاومة التجنيد مما أدى إلى وقوع اشتباكات مع الشرطة والقوزاق قتل وجرح خلالها الكثيرون. ووفقا لأرقام حكومية رسمية، كانت هناك اضطرابات واحتجاجات مناهضة للحرب في 17 إقليما و31 مقاطعة. وقتل 505 من المجندين و106 من الضباط في 27 مقاطعة خلال الأسبوعين التاليين لإعلان الحرب. حتى الشرطة القيصرية نفسها اعترفت بواقع أن الحرب لم تكن تحظى بشعبية كبيرة بين صفوف الطبقة العاملة، بحيث كانت تؤكد في تقاريرها باستمرار أن المواقف الأممية كانت تلقى ترحيبا واسع النطاق<sup>4</sup>. لم يشهد أي بلد آخر، باستثناء أيرلندا، مثل هذه المقاومة ضد الحرب.

كانت تلك بشكل عام احتجاجات جماهيرية عفوية وغير منظمة. لكنها كانت حكومة منذ البداية بالفشل بسبب ميزان القوى الطبقي غير المتلائم وموجة الحماسة الوطنية التي اكتسحت كل شيء أمامها. ويتذكر بادايف كيف تم استخدام الفئات المتخلفة من السكان ضد العمال:

«في بيتسبورغ تميزت الأيام الأولى للحرب باندياع إضرابات وحتى ببعض المظاهرات المتفرقة. وفي اليوم الذي تمت فيه تعبئة قوات الاحتياط بالجيش، أضرِب العمال في أكثر من 20 مؤسسة في بيتسبورغ احتجاجا على الحرب. وفي بعض الأماكن التقى العمال مع جنود الاحتياط بصيحات: "تسقط الحرب" وأغاني ثورية.

لكن المظاهرات جرت بعد ذلك في ظروف مختلفة عن تلك التي حدثت قبل أسبوعين أو ثلاثة. كانت حشود المتفرجين، لا سيما في وسط المدينة، ترفع هتافات وطنية. حتى أنهم لم يكتفوا بموقف الحياد "الودي"، بل إنهم هاجموا المتظاهرين وساعدوا الشرطة على اعتقالهم وضربهم. ومن بين الحوادث التي صارت معتادة في ذلك الوقت كان الهجوم "الوطني" الذي حدث في نفس اليوم الذي تم فيه تنظيم التعبئة في وسط المدينة، أمام مبنى مجلس مدينة، في شارع نيفسكي.

ففي نفس الوقت الذي كانت فيه مجموعة من جنود الاحتياط تمر من هناك، ظهر حشد من العمال المتظاهرين، يرفعون هتافات "تسقط الحرب"، وأحاطوا بقوات الاحتياط. كان الجمهور في شارع نيفسكي، ومعظمهم من البلطجية وجميع حثالة المجتمع،

1: R.B. McKean, *St. Petersburg Between the Revolutions*, p: 358.

2: *Lenin's Struggle for a Revolutionary International*, p: 128.

3: R.B. McKean, *St. Petersburg Between the Revolutions*, p: 356.

4: *Ibid.*, p: 365.

الذين كانوا عادة ما يفرون ويختبئون في الشوارع الجانبية أثناء مرور المظاهرات العمالية. أو كانوا في بعض الأحيان يحتشدون بهدوء في الشرفات والبوابات يراقبون المتظاهرين من بعيد. لكن هذه المرة أظهر الجمهور "نشاطه"، وتولى دور الشرطة القيصريّة. وبينما كانوا يزعمون: "خونة، عملاء" هرعوا من الرصيف إلى الشارع وبدأوا يضربون العمال المتظاهرين. ثم ألقت الشرطة القبض على المتظاهرين وأرسلتهم إلى مراكز الشرطة القريبة.

في ظل تلك الظروف صار أي تطور واسع لحركة الاحتجاج ضد الحرب مسألة مستحيلة. وغرقت الأعمال البطولية الفردية للعمال في بحر واسع من النزعة الوطنية المتطرفة<sup>1</sup>.

نجا النظام بسهولة من العاصفة. لقد أدت التعبئة من أجل الحرب إلى إغراق تلك الفئة القليلة نسبيا من العمال البلاشفة الطليعيين في بحر من الجماهير المتخلفة سياسيا. كان الجيش يتكون في أغلبيته الساحقة من الفلاحين. وقد استمر العمال البلاشفة عاجزين عن أي فعل، إلى أن غيرت الأحداث من وعي "الموجيك بالبذلة العسكرية".

### تفكك الحزب

«خمد صوت الحركة الثورية بمجرد ما بدأت طبول الحرب تقرر. تم إرسال الفئات الأكثر نشاطا من بين العمال إلى التجنيد. وانتزعت العناصر الثورية من المصانع وألقي بها إلى جبهات القتال. كما تم فرض عقوبات صارمة على الإضراب وتم قمع الصحافة العمالية، وخنق النقابات. تدفق مئات الآلاف من النساء والأطفال والفلاحين إلى ورشات العمل. تسببت الحرب -إضافة إلى تحطم الأممية- في خلق تيهان سياسي كبير بين العمال، ومكنت أصحاب المصانع، الذين رفعوا رؤوسهم آنذاك، من استعمال خطابات وطنية وجرفوا معهم قسما كبيرا من العمال، وأجبروا العمال الأكثر جرأة وحزما على اتخاذ موقف التحفظ والانتظار. بقيت الأفكار الثورية موجودة بالكاد في حلقات صغيرة وصامتة. في المصانع في تلك الأيام لم يكن أحد يجروء على وصف نفسه بأنه "بلشفي"، وذلك ليس فقط خوفا من الاعتقال، بل أيضا من أن يتعرض للضرب على يد الفئات المتخلفة من العمال»<sup>2</sup>.

بمجرد ما أعلنت الحرب بدأ النظام في شن حملة قمعية شرسة. مرة أخرى عانى البلاشفة من وطأة القمع، وخلال الأشهر الأولى من الحرب أدت الاعتقالات إلى تفكك الحزب. لقد عانى الحزب بين عشية وضحاها تقريبا من تحول جد مفاجئ وقاس. اعتقل آلاف البلاشفة وأرسلوا إلى السجن والمنافي وتعرضت العديد من الفروع للتحطيم، واختفت هياكل الحزب. تم قطع الروابط مع المراكز القيادية. في سان بيترسبورغ وحدها تم اعتقال أكثر من ألف عضو في الحزب والنقابة بسبب مشاركتهم في الإضراب العام شهر يوليو. كما تسببت الموجة الأولى من التجنيد في القضاء على عدد كبير من مناصلي الحزب، وخاصة الشباب. كان حظر البرافدا بمثابة الضوء الأخضر لحملة قمع شرسة ضد كل الصحافة اليسارية والتقدمية. تم إرسال معظم أعضاء اللجنة المركزية إلى سيبيريا. وكان العديد من القادة في المنافي. عند اندلاع الحرب وجد لينين نفسه محاصرا في الجزء النمساوي لبولندا، ولكي يتجنب اعتقاله من طرف السلطات النمساوية فر إلى برن في سويسرا، حيث بقي حتى اندلاع ثورة فبراير. لكن الثورة في تلك الأيام المظلمة من عام 1915 بدت وكأنها حدث مؤجل إلى مستقبل بعيد جدا. ومن هناك شرع في المهمة الصعبة المتمثلة في إعادة تجميع قوى الحزب الممزقة، والتي كان معظمها في المهجر، وركز قبل كل شيء على إعادة التسليح الإيديولوجي للكوادر على أساس الموقف من الحرب والثورة والأممية.

لكن ما جعل الضربة أكثر إيلاما هو الانهيار غير المتوقع للأممية. لقد خلفت خيانة قادة الأممية الاشتراكية أثارا مدمرة على المعنويات. وعلاوة على ذلك فإن عزلة القادة المنفيين كانت قد صارت أكثر فظاعة من أي وقت آخر. ففي ظل ظروف الحرب تسبب إغلاق الحدود بين البلدان في استحالة وصول أي خبر من روسيا لعدة أشهر. كان لهذا عدة عواقب، فقد بقيت قيادة الحزب في الخارج معزولة تماما عما يجري في الداخل حتى شهر سبتمبر، بل حتى بعد ذلك بقي التواصل شبه مستحيل. لقد حرمت الرقابة، وغيرها من إجراءات الحرب، قوات الحزب الصغيرة التي بقيت تعمل داخل روسيا من أي معلومات. قال بادايف إن الظروف كانت أسوأ بكثير مما كانت عليه خلال أسوأ فترات الردة الرجعية. كانت الهزيمة تبدو كاملة لأسباب ليس من الصعب فهمها. ففي بداية أي حرب تكون هناك دائما تقريبا موجة من التسمم بالنزعة الوطنية التي تكتسح الناس وتجرف أمامها ليس البرجوازية الصغيرة فحسب، بل أيضا الفئات المتخلفة من الطبقة العاملة، فتجد الطليعة المتقدمة نفسها معزولة مؤقتا.

1: *Lenin's Struggle for a Revolutionary International*, pp: 129-130.

2: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, pp: 58-59.

بعد انتقالهما إلى برن، حيث انضم إليهما زينوفييف، بدأ لينين وكروبسكايا المهمة الصعبة لإعادة تنظيم العمل. كانت المشكلة الرئيسية، بصرف النظر عن النقص الدائم في الأموال، هي العزلة. ظهر بيان لينين "الحرب والاشتراكية الديمقراطية الروسية" في العدد 33 من جريدة سوتسيال ديموكرات التي كان مجموع مبيعاتها 1500 نسخة، لكن هذا الرقم لا يعطي فكرة دقيقة عن عدد الناس الذين كان لينين يأمل في الوصول إليهم بأفكاره في ذلك الوقت. كان عدد قليل فقط من الجرائد يصل إلى روسيا آنذاك. وكانت الاتصالات مع الداخل قد صارت منعقدة تقريباً. بعد يوليو 1914، كانت جميع الاتصالات بين روسيا والغرب تتم عبر الحدود السويدية الفنلندية الصعبة. وفي شتبر، تمكن النائب البلشفي في الدوما، ف. ن. سامويلوف، الذي عاد إلى روسيا بعد رحلة علاج في مصحة سويسرية في بداية الحرب، من أن يجلب معه إلى روسيا نسخة من موضوعات لينين السابع. لقد أعطى الأمل في تجديد الاتصال مع لينين دفعة إيجابية لمعنويات مناضلي الحزب، الذين كانوا قد بدأوا يتعافون تدريجياً من الضربات التي تعرضوا لها منذ يوليو.

### كتلة الدوما

«في جلسة لمجلس الدوما، بتاريخ 26 يوليو 1914، تبنى النواب بالإجماع قراراً يعلنون فيه استجابتهم "لدعوة ملكهم، للوقوف دفاعاً عن بلدهم وشرفه وممتلكاته". وكان المعارضون الوحيدون هم المناشفة الستة وخمسة من البلاشفة إضافة إلى نواب الترووفيك، حيث غادروا الجلسة ورفضوا التصويت على ميزانية الحرب (على الرغم من أن كيرينسكي عبر على موافقته على الحرب الدفاعية). كانت تلك "أيام رائعة في أوائل غشت"، وبدأ أن روسيا قد "تحولت بالكامل"، كما كتب السفير البريطاني<sup>1</sup>. بقي الفريق البرلماني لبعض الوقت نقطة محورية مهمة للعمل. كان المخبر مالمينوفسكي قد استقال فجأة قبل الحرب بقليل، وذهب إلى الخارج، فبقي خمسة نواب بلاشفة فقط هم: باداييف وبتروفسكي ومورانوف وسامويلوف وشاجوف، الذين كان موقفهم محفوظاً بالمخاطر على نحو متزايد. أدى ضغط الجماهير البرجوازية الصغيرة إلى انهيار فوري للتحالف مع الترووفيك. فقد أعلن كيرينسكي أن الترووفيك سيدعمون الحرب بنشاط، ومن هنا جاءت محاولاته فرض موقف "الدفاع عن الوطن" على الطبقة العاملة. في الواقع كان أغلب العمال معارضين للحرب، على عكس الفلاحين الذين دعموا الترووفيك. وقد اضطر النواب البلاشفة، الذين صاروا يشعرون بالعزلة، إلى الاقتراب من المناشفة، وهو الأمر الذي أثار استياء لينين. كان تشخيدزه، زعيم الفريق المنشفي في مجلس الدوما، قد بدأ يتبنى موقفاً شبه يساري، مما سهل التقارب المؤقت مع البلاشفة. وقع النواب البلاشفة داخل الدوما تحت ضغط شديد من قبل النزعة الشوفينية وحمى الحرب. لم يكن موقف النواب البلاشفة ثابتاً على الإطلاق، وكانوا يميلون إلى تجاهل الاختلافات الموجودة بينهم وبين المناشفة الذين كانوا بدورهم قد صاروا يتجهون نحو تبني موقف الدفاع عن الوطن. وتحت تأثير كامينيف، صار النواب البلاشفة يخففون من موقف الانهزامية الثورية وحاولوا أن يلففوا من حدة صياغات لينين. في البداية تبني فريقاً البلاشفة والمناشفة في الدوما نفس الموقف من الحرب. وتمت قراءة القرار المشترك بين الفصيلين في مجلس الدوما. والذي كان، على حد تعبير كروبسكايا، مصاغاً "بكلمات جد حذرة وترك الكثير من الأشياء دون أن يتحدث عنها"<sup>2</sup>. لكنه كان كافياً لإثارة هتافات الاحتجاج من باقي أعضاء المجلس.

لقد أثار سلوك الاشتراكيين الديمقراطيين الروس في مجلس الدوما انتباه قادة الأممية الاشتراكية، الذين كانوا قد بدأوا بالفعل يقومون بدور عملاء صريحين لحكوماتهم. في وقت ما من شهر غشت توصل الفريق البرلماني ببرقية من الاشتراكي البلجيكي إميل فاندرفيلد، رئيس مكتب الأممية الاشتراكية، الذي كان قد دخل الحكومة كوزير للدولة، وكان يدعو رفاقه الروس إلى اتباع خطواته. يصير نفاق الرجل أكثر إثارة للاشمئزاز إذا أخذنا في الاعتبار أنه قبل بضعة أشهر فقط، أي في ربيع 1914، كان قد زار روسيا في مهمة لتقصي الحقائق، وبالتالي كان على معرفة جيدة بالطبيعة القمعية للنظام القيصري الروسي. لكنه صار، وراء ذريعة الحاجة إلى "هزيمة النزعة العسكرية البروسية"، يدعو الاشتراكيين الديمقراطيين الروس إلى تأجيل معارضتهم للنظام القيصري إلى ما بعد الحرب: «تعتبر هزيمة النزعة العسكرية البروسية -أنا لا أقول ألمانيا التي نحيا ونحترمها- مسألة حياة وموت بالنسبة للاشتراكيين في أوروبا الغربية... لكن في هذه الحرب الرهيبة التي تلحق بأوروبا بسبب تناقضات المجتمع البورجوازي تجد البلدان الديمقراطية الحرة نفسها مجبرة على الاعتماد على الدعم العسكري من طرف الحكومة الروسية.

1: L. Kochan, *Russia in Revolution*, pp: 176-77.

2: N.K. Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, p: 285.

إن فعالية هذا الدعم أو عدم فعاليته تعتمد إلى حد كبير على البروليتاريا الثورية الروسية. بالطبع أنا لا أستطيع أن أملي عليكم ما يجب عليكم فعله، أو ما تمليه مصالحكم؛ أنتم وحدكم من يستطيع تقرير ذلك. لكنني ألتمس منكم -ولو كان فقيدنا جوريس على قيد الحياة لكان سيؤيد ملتيمي- تبني نفس الموقف المشترك للأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في أوروبا... نعتقد أنه يجب علينا جميعاً أن نتحد لدرء هذا الخطر وسنكون سعداء لو نتعرف على رأيكم حول هذه المسألة، وأكثر سعادة إذا اتفق مع موقفنا»<sup>1</sup>.

إن هذه الكلمات المراوغة، التي حملت توقيع «إميل فاندرفيلد، مندوب العمال البلجيكين إلى مكتب الأمانة الاشتراكية والوزير البلجيكي منذ إعلان حرب»، هي بالتأكيد واحدة من أبشع الأمثلة عن المكر الدبلوماسي في التاريخ. لكنها مع ذلك تسببت في جعل النواب المناشفة في مجلس الدوما يترددون في موقفهم المعارض للحرب الذي تبنيه في البداية. اندلع نقاش عنيف داخل الفصيل حول كيفية الرد على الرسالة، وفي النهاية أصدرنا بياناً يمثل تخلياً واضحاً عن الموقف السابق المناهض للحرب. وبعد أن وصفوا مظاهر معاناة الشعب الروسي في ظل القيصرية، خلصوا إلى أنه: «على الرغم من هذه الظروف، فإنه مع الأخذ في الاعتبار الأهمية الدولية للصراع الأوروبي وحقيقة أن الاشتراكيين في الدول المتقدمة يشاركون فيه (!)، مما يمكننا من الأمل (!) في أنه يمكن أن يصب في مصلحة الأمانة الاشتراكية (!!)، نعلن أننا لا نعارض الحرب بعملاً في روسيا»<sup>2</sup>.

لقد تابع لينين سلوك القادة البلاشفة في بتروغراد بقلق متزايد. كان يشعر بخيبة أمل خاصة من رد فعل نواب الدوما الضعيف على بريقة فاندرفيلد. قال ماكين في هذا الصدد: «يمكن أن نستخلص من خلال بعض الأدلة أن لينين لم يكن راضياً عن موقف رفاقه من الحرب. لقد امتنع عن انتقاد بيان الفريق البرلماني بشكل علني، لكنه قام، في مراسلات ما زالت لم تنشر حتى الآن، بانتقاد رد البلاشفة على فاندرفيلد»<sup>3</sup>.

ونظراً لشدة حمى الحرب ليس من المستغرب أن يتأثر نواب مجلس الدوما أيضاً. لكن الشيء المحدد في آخر المطاف لم يكن تلك التذبذبات، بل واقع أنه كان من الممكن تصحيحها بسرعة. إذ بعد تردددهم الأولي استعاد الفريق في مجلس الدوما رباطة جأشه وبدأ في تبني موقف مبدئي ضد الحرب. رفض النواب الاشتراكيون الديمقراطيون التصويت لصالح ميزانية الحرب وألقوا خطاباً ضدها في مجلس الدوما، وانسحبوا من القاعة احتجاجاً. بعد ذلك تصرف أعضاء الفريق بشجاعة، وقاموا بزيارة المصانع وإلقاء خطابات مناهضة للحرب في اجتماعات العمال. كان نشاطهم يمثل، خلال الأشهر الأولى للحرب، أساس عمل الحزب.

وكتب تروتسكي معلقاً على سلوك فريق الدوما قائلاً: «لم يكن الفصيل البلشفي في مجلس الدوما، الذي كان ضعيفاً بسبب طبيعة أعضائه، في مستوى المهام التي طرحتها الحرب. لقد عملوا، جنباً إلى جنب مع النواب المناشفة، على صياغة بيان وعدوا فيه "بالدفاع عن ممتلكات الشعب ضد جميع الهجمات مهما كان مصدرها". وهو الاستسلام الذي استقبله أعضاء الدوما بالتصفيق. لم تبين أي من منظمات أو مجموعات الحزب داخل روسيا موقف الانهزامية الذي دافع عنه لينين في الخارج».

لكنه في نفس الوقت يضيف: «غير أن نسبة أنصار النزعة الوطنية بين البلاشفة كانت ضئيلة. وعلى عكس النارودنيين والمناشفة، عمل البلاشفة منذ عام 1914 على نشر تحريض مطبوع وشفهي ضد الحرب بين الجماهير. وسرعان ما استعاد النواب البلاشفة رباطة جأشهم وجددوا عملهم الثوري، الذي كانت السلطات على دراية كبيرة به، بفعل نظام استخباراتي متطور للغاية. يكفيننا أن نعلم أنه عشية الحرب، كان ثلاثة، من بين سبعة أعضاء في لجنة الحزب في بيتربورغ، يعملون لصالح المخابرات»<sup>4</sup>.

كان العمل الثوري يعاني باستمرار من رقابة الشرطة التي كانت قد تسللت إلى أعلى مستويات الحزب. كانت مجرد محاولة تنظيم الاجتماعات -هما فيها الاجتماعات الصغيرة- في الداخل تؤدي إلى اعتقالات جديدة. لقد توقف الحزب عن العمل فعلياً، باستثناء نشاط محدود على المستوى المحلي. لم يتم عقد أي اجتماع وطني حتى نوفمبر 1914، حين تم تنظيم لقاء في منزل ريفي صغير خارج بيتربورغ، برئاسة كامينيف، الذي كان قد جاء من فنلندا. انعقد اللقاء في ظروف من السرية القصوى في منزل أحد العمال في ضاحية معزولة من بيتربورغ. لم يحضر الاجتماع إلا أعضاء الدوما بالإضافة إلى بعض المندوبين عن المنظمات المحلية، من بتروغراد (كما صارت سان بيتربورغ تسمى لتجنب استخدام اسم ألماني) وشاركوف وإيفانوفو-فونسينسك، إضافة إلى ممثل واحد عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي اللاتيفي. لا توجد تقارير عن ذلك اللقاء بسبب أن الشخص الذي كان يتوفر عليها تعرض للاعتقال.

1: A.Y. Badayev, *Bolsheviks in the Tsarist Duma*, p: 208.

2: *Ibid.*, pp: 208-209.

3: R.B. McKean, *St. Petersburg Between the Revolutions*, p: 366.

4: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, p: 59.

وعندما اجتمع المندوبون أخيراً، بعد قضائهم لساعات عديدة في محاولة التهرب من مراقبة الشرطة، قدمت تقاريرهم صورة قائمة عن وضع المنظمة. ويتذكر باداييف، الذي كان حاضراً في ذلك اللقاء إلى جانب بقية أعضاء الدوما البلاشفة، قائلاً: «لقد عانت خلايا الحزب بشدة وكذلك المنظمات الشرعية؛ كان حزبنا، زعيم البروليتاريا ودليلها، شبه محطم. ومع ذلك فإن الهيكل العظمي كان ما يزال قائماً، وما زال هناك بعض العمل الحزبي، والذي كانت مسألة توسيعه مرتبطة بمسألة الحفاظ على الفريق البرلماني الذي كان بمثابة مركز وأساس المنظمة بأكملها»<sup>1</sup>.

تمت مناقشة موقف لينين بشأن الحرب، ووفقاً للرواية «الرسمية»، فقد تم تبنيه بعد إدخال «تعديلات صغيرة» فحسب. لكن الواقع هو أن نواب مجلس الدوما لم يكونوا مقتنعين نهائياً بموقف لينين الانهزامي. وفي وقت لاحق، عندما تمت محاكمتهم، قاموا جميعاً، باستثناء مورانوف، بالتنكر له. كانت الضربة الأشد هي التي ستأتي بعد ذلك، فعلى الرغم من جميع الاحتياطات المتخذة، كان اللقاء معروفاً للشرطة. في اليوم الثالث [04 نوفمبر]، عندما كان المندوبون ما يزالون يناقشون أطروحات لينين عن الحرب، انكسر الباب ببركات رجال الشرطة الذين ألغوا القبض على جميع الحاضرين و«قلبوا المكان» رأساً على عقب. تم إطلاق سراح نواب مجلس الدوما بعد وقت قصير، لكنهم لم يظلوا طلقاء لفترة طويلة. لقد تمكنوا من إتلاف الوثائق، لكن في المساء كان كل الفريق البلشفي قيد الاعتقال. كانت تلك هي الضربة النهائية. وبعد القضاء على النقطة الوحيدة التي كانت تسمح بحشد قوات الحزب المبعثرة، صار الوضع ميؤوساً منه. بعد إلقاء القبض على نواب الدوما الخمسة، كتب لينين إلى أ. ج. شليابينيكوف قائلاً: «هذا مريع. من الواضح أن الحكومة قد قررت أن تنتقم من المجموعة الاشتراكية الديمقراطية العمالية الروسية، ولن تتوقف عند أي حد. يجب علينا أن نكون مستعدين للأسوأ: تزوير الوثائق وتلفيق التهم وفبركة «الأدلة» وشهادات الزور والمحاكمة خلف الأبواب المغلقة، إلخ، إلخ»<sup>2</sup>.

في ظل ذلك الجو العام للاكتئاب والخوف، لم يؤد اعتقال نواب مجلس الدوما إلى أي احتجاجات جماهيرية. كتب رئيس مكتب الأورخانا في بتروغراد في تقرير لرؤسائه أن «العمال قد تفاعلوا بشكل خامل، وحتى ببرود» مع الاعتقالات<sup>3</sup>. لم تلق المحاولات التي قام بها البلاشفة لتنظيم الاحتجاجات أي صدى، باستثناء إضراب لمدة نصف يوم في المعهد النفسي العصبي. بدت حظوظ الحزب عند أدنى مستوياتها. ومع تصفية فريق الدوما، أصبح العمل في روسيا أكثر صعوبة من ذي قبل. صار من الصعب بشكل متزايد الحصول على متعاونين ذوي خبرة في روسيا. وبحلول يناير 1915، كانت الاعتقالات قد جرفت معظم أعضاء الحزب. وكانت التهمة هي نفسها دائماً: «التحريض ضد الحرب». كانت الطرق التي يمكن من خلالها إيصال الرسائل والدعاية طويلة وخطيرة، وتزايدت قوة الرقابة البوليسية مع استمرار الحرب. عندها انتقل مركز الثقل إلى الخارج. لكن هناك أيضاً كانت المشاكل تتضاعف.

### التذبذبات بين صفوف البلاشفة

واجه لينين طوال فترة الحرب الكثير من المتاعب داخل معسكره الخاص. ولم تكن تلك المرة الأولى أو الأخيرة التي يجد فيها نفسه معزولاً داخل قيادة حزبه. فبعض البلاشفة، الذين كانوا أقلية على كل حال، فقدوا البوصلة تماماً حتى أنهم تحولوا إلى الشوفينية، مثل أعضاء جماعة المهاجرين الباريسية الذين تطوعوا بالفعل للعمل في الجيش الفرنسي. فحتى البلاشفة أنفسهم لم يكونوا محصنين ضد ضغوطات نزع الدفاع عن الوطن. وهؤلاء لم يكونوا مجرد أعضاء عاديين بل أعضاء القيادة البلشفية في المنفى. كان الحزب يعيش أوضاعاً صعبة ولم تكن لديه حتى إمكانية تنظيم مؤتمر للمنفيين. وعلى أي حال من كان سيحضر؟ وهل كان لينين سيحقق أغلبية سياسية؟ لم يكن ذلك مضموناً. كانت هناك الكثير من المشاكل مع مختلف المجموعات المحلية للمنفيين، الذين كانت تظهر عليهم بوضوح علامات الإحباط، ولم تكن قضية مثقفي مجموعة باريس سوى تعبير واحد عن ذلك الوضع.

لم يكن في ذلك، إلى حد ما، ما يثير الدهشة. إذ أن الحرب كانت قد تسببت في اندلاع الأزمة في كل أقسام الحركة العمالية. ولم يكن من الممكن ألا يجد الجو المشحون بحمى الحرب صدى له في صفوف البلاشفة. تتذكر كروبسكايا مزاج الارتباك العام الذي ساد خلال الأشهر الأولى من الحرب، قائلة: «لم تكن المسألة واضحة عند الناس، والذين كانوا يتساءلون في الغالب عن هي الجهة المسؤولة عن الهجوم. أعربت أغلبية المجموعة في باريس عن أنها ضد الحرب والتطوع للجيش، لكن بعض الرفاق: سابوزخوف

1: A.Y. Badayev, *Bolsheviks in the Tsarist Duma*, p: 212.

2: LCW, *To A.G. Shlyapnikov*, 28/11/1914, vol. 35, p: 175.

3: R.B. McKean, *St. Petersburg Between the Revolutions*, p: 370.



(كوزنيتسوف) وكازانوف (بريتمان، سفياجين) وميشا إيديشيروف (دافيدوف) ومواسيف (إليا، زيفير)، وغيرهم؛ انضموا إلى الجيش الفرنسي كمتطوعين. وقد أصدر المتطوعون المناشقة والبلاشفة والاشتراكيون الثوريون (حوالي 80 شخصا) إعلانا باسم "الجمهوريين الروس"، والذي نشر في الصحافة الفرنسية، كما ألقى بليخانوف كلمة وداع تكريما لهم قبل مغادرتهم باريس. لقد قامت أغلبية مجموعتنا في باريس بإدانة التطوع في الجيش، لكن المجموعات الأخرى أيضا لم يكن لديها وضوح كامل حول هذه المسألة. أدرك فلاديمير إيليتش مدى أهمية أن يكون لدى كل البلاشفة في مثل تلك الفترة الخطيرة فهم واضح لمعنى ما يجري. كان من الضروري القيام بتبادل رفاقي للآراء؛ إذ لم يكن من المستساغ الخروج بموقف إلا بعد نقاش المسألة بشكل مستفيض. ولهذا السبب كتب إيليتش في جوابه على رسالة كارينسكي التي طرحت وجهة نظر مجموعة جنيف: "ألا يشكل هذا 'النقد' و'النقد المضاد' الذي قمت به موضوعا جيدا للمناقشة؟". لقد أدرك إيليتش أن التوصل إلى تفاهم سيكون أسهل بواسطة النقاش الرفاعي عوض المراسلات. وبطبيعة الحال لم يكن ذلك وقتا مناسباً لإبقاء قضية كهذه محصورة في المحادثات الرفاقية البينية داخل دائرة ضيقة من البلاشفة<sup>1</sup>.

ما حدث في باريس كان حالة متطرفة معزولة. لم يسقط سوى عدد قليل من البلاشفة في مستنقع الشوفينية الصريحة. لكن البعض منهم انحرف نحو النزعة السلمية. تقدمت مجموعة الحزب في فرنسا (مونبلييه) بشعار: "فلتسقط الحرب!" و"يعيش السلام!"، وهو الموقف الذي سلط عليه لينين انتقادات حادة. لقد صب لينين، في كل كتاباته التي تعود إلى تلك الفترة، انتقادات لاذعة على النزعة المسالمة، التي اعتبر أنها تضعف عزيمة الطبقة العاملة. لم يكن شعار "السلام" هو المطلوب، بل الحرب الطباقية. وقد تكررت هذه الفكرة مراراً في عشرات الرسائل والمقالات: «إن شعار السلام، برأيي، غير صحيح في الوقت الحاضر. إنه شعار الكهنة والجبنة. أما الشعار البروليتاري فيجب أن يكون الحرب الأهلية»<sup>2</sup>.

في يوليو 1915، كتب لينين للماركسي الهولندي، ديفيد ويجنكوب، معرباً له عن سعادته بأن الرفاق الهولنديين تبنا شعار الميليشيا الشعبية، حيث قال: «إنني أرحب بفرح شديد بالموقف الذي اتخذتموه أنت وغورتر ورافستين بشأن مسألة الميليشيا الشعبية (نحن أيضاً لدينا هذه النقطة في برنامجنا). فالطبقة المستغلة التي لا تسعى إلى امتلاك السلاح ومعرفة كيفية استخدامه وإتقان الفن العسكري، ليست سوى طبقة من العبيد»<sup>3</sup>.

يتلخص جوهر موقف لينين من الحرب في أن الطريقة الوحيدة لإنهاء الحرب هي إسقاط الرأسمالية. وأي تصور آخر ليس في الجوهر سوى كذبة وخداع. لا يمكن لشعار "السلام" أن يلعب دوراً تقدماً إلا بقدر ارتباطه الوثيق بهذا المنظور.

وقد كتب تروتسكي لاحقاً: «إن النضال الحقيقي ضد الحرب هو التحضير للثورة، هذه هي مهمة الأحزاب العمالية والأمية. يطرح الماركسيون هذه المهمة العظيمة أمام أنظار الطليعة البروليتارية بوضوح شديد. وفي مواجهة شعار "نزع السلاح" المثير للشفقة، يرفع الماركسيون شعار كسب الجيش وتسليح العمال»<sup>4</sup>.

لقد أثبتت الثورة الروسية في عام 1917 صحة هذا الموقف. ولكن في البداية استقبل موقف لينين هذا بالشكوك بل وحتى الرفض. سادت الشكوك والترددات حتى بين الزعماء البلاشفة ذوي الخبرة. إن موقف لينين الحازم ضد الشوفينية، والذي ركز نيرانه على "الوسط"، لم يتقبله رفاقه إلا على مضض، خاصة وأن العديد منهم كانوا توفيقيين قبل الحرب. كان من الواضح أنه حتى كامينيف، وعلى الرغم من أنه كان يشغل منصباً قيادياً في الحزب ومكلفاً بمهمة الإشراف على العمل في روسيا، لم يكن يتفق مع سياسة لينين الانهزامية الثورية. وقد ترك سلوكه أثناء محاكمة نواب الدوما، الذين ألقى القبض عليه معهم، الكثير مما يمكن قوله وقد انتقده لينين بحدة.

قال ماكين: «يتضح بالفعل من خلال عدة مصادر أن كامينيف كان هو من أبدى أكبر الشكوك بخصوص أطروحات لينين، لا سيما حول نشر الانهزامية. والشيء الأكثر إثارة في محاكمته في فبراير 1915 هو أنه أنكر صراحة جميع نظريات لينين حول الحرب ودعا "الاشتراكي الشوفيني" يوردانسكي إلى الدفاع عنه. لم يكن ذلك السلوك مجرد محاولة لضمان عقوبة أخف، وهو ما يتأكد من حقيقة أنه عندما داهمت الشرطة كونفرانس آخر كان ينظمه نواب بلاشفة مع عمال الحزب في 04 نوفمبر، اكتشفوا عند بتروفسكي ملاحظات أملاها عليه كامينيف كانت بمثابة تعديلات على أطروحات لينين السبعة، وكانت قبل كل شيء تتلافى الدعوة

1: N.K. Krupskaya, Reminiscences of Lenin, pp: 285-286.

2: LCW, To A.G. Shlyapnikov, 17/10/1914, vol. 35, p: 164.

3: LCW, To David Wijnkoop, vol. 35, p: 195.

4: L. Trotsky, Writings 1935-1936, p: 26.

إلى الانهزامية. يبدو أن معارضة كامينيف لشعار هزيمة روسيا كان موقفاً منتشرًا على نطاق واسع بين غيره من البلشفة<sup>1</sup>. على أساس تحليل نصي قام به ماكين لـ 47 من المقالات والمناشير التي أصدرها البلشفة بشكل غير شرعي ما بين يناير 1915 و 22 فبراير 1917، وجد أنه لا يوجد ولو منشور واحد يذكر شعار هزيمة روسيا باعتبارها أهون الشرين. أشارت عشرة منشورات بعبارات قصيرة إلى ضرورة تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية وتسعة منها إلى بناء أممية ثالثة. لكن الحزب، بشكل عام، تجنب الإشارة إلى الأطروحات في كتاباته غير الشرعية، وذلك في الغالب خوفاً من أن تثير ردود فعل عدائية من جانب الجماهير، وركز، كما كان من قبل الحرب، على مهاجمة سياسات الحكومة تجاه الطبقة العاملة والدعوة إلى خوض نضال ثوري ضد الأوتوقراطية باعتباره الطريقة الوحيدة لإنهاء الحرب، وذلك على أساس الشعارات البلشفية القديمة: جمهورية ديمقراطية ويوم عمل من ثماني ساعات ومصادرة ممتلكات طبقة النبلاء ("الحيتان الثلاثة").

### البلشفة "اليساريون"

إذا كان كامينيف يمثل انحرافاً في اتجاه الانتهازية، فقد كانت هناك أيضاً انحرافات عصبوية ويسارية متطرفة، خاصة بين فئة من المنفيين. إذ تبنى بوخارين وبياتنسكي، إضافة إلى عناصر قيادية أخرى، موقفاً يسارياً متطرفاً في ما يخص المسألة القومية. وقد أصر بعض أنصار جماعة بوخارين (ن. ف. كريلينكو وف. روزميروفيتش) في سويسرا على إصدار جريدة محلية خاصة بهم، في تحد منهم للجنة المركزية التي قررت، بسبب نقص الموارد المالية، أن تمنح المجموعات المحلية (باريس، جنيف) من القيام بذلك، الشيء الذي أدى إلى خلاف كبير حول هذه القضية. لينين، الذي كان يولي بوخارين مكانة خاصة، ويعترف له بإخلاصه وقدراته كمنظر، كان مع ذلك على دراية تامة بنقاط ضعفه. لقد احتلت مسألة تقرير المصير دائماً مكانة مركزية في الترسنة النظرية للبلشفة، لكنها صارت آنذاك، في خضم الحرب الإمبريالية، أكثر أهمية بكثير. لم يكن من الممكن تقديم أية تنازلات بخصوص هذه المسألة لأنها كانت تتضمن مسألة الإلحاقات- والتي هي مسألة مركزية في زمن الحرب.

معارضة لينين للحرب الإمبريالية لم تكن تعني إطلاقاً معارضة كل الحروب بشكل عام. لقد كان يميز بحذر شديد بين مختلف أنواع الحروب. وقد وجه في جميع كتاباته نقداً شديداً للنزعة السلمية وشعارات السلام ونزع السلاح. لقد أشار دائماً إلى أنه يجب على الماركسيين الدفاع عن الحروب العادلة، أي حروب التحرر التي تخوضها الشعوب والطبقات المضطهدة. وفي رسالة كتبها لكولنتاي، في أواخر يوليو 1915، رد على حجج بوخارين قائلاً:

«كيف يمكن لطبقة مضطهدة أن تكون عموماً ضد تسليح الشعب؟ إن رفض ذلك يعني الوقوع في موقف شبه لاسلطوي تجاه الإمبريالية؛ وهو ما يمكن ملاحظته، في اعتقادي، عند بعض اليساريين حتى بين صفوفنا. يقولون إنه بما أننا دخلنا مرحلة الإمبريالية فإننا لا نحتاج إلى تقرير المصير ولا إلى تسليح الشعب! إن هذا خطأ فادح، إذ أننا من أجل الثورة الاشتراكية ضد الإمبريالية بالضبط نحتاج إلى كل من تقرير المصير وتسليح الشعب.

هل هو "قابل للتحقيق"؟ إن هذا الاعتراض غير صحيح، فبدون ثورة، يكاد أن يكون كامل الحد الأدنى للبرنامج غير قابل للتحقيق. إن اشتراط عدم تبني إلا ما يمكن تحقيقه فوراً يؤدي إلى انحطاط الواقعية إلى خيانة<sup>2</sup>.

بالنظر إلى تدهور الوضع الداخلي قرر لينين في النهاية الدعوة إلى كونفرانس لمجموعات الحزب في المنفى، والذي افتتح أشغاله في بيرن في 15 فبراير 1915. حضره ممثلو اللجنة المركزية وهيئة تحرير جريدة الحزب سوتسيال ديموكرات ومنظمة المرأة البلشفية، وفروع الحزب في المنفى - في باريس وزيورخ وبرن ولوزان وجنيف وبوغي ان كلارنس ولندن. كان من بين الحاضرين كذلك لينين وكروبسكايا وأرماند وزينوفييف وبوخارين. وبالإضافة إلى نقاش الخلاف مع مجموعة بوغي، فقد انعقد الكونفرانس لمناقشة الاختلافات حول موقف الحزب من الحرب. في الواقع كان الخلاف التنظيمي حول إصدار صحيفة محلية هو التعبير غير المباشر عن تلك الاختلافات السياسية. قدم بوخارين أطروحات تعكس رأيه بأن ظهور الإمبريالية يعني أن المطالب الديمقراطية لم تعد مهمة في البلدان الرأسمالية المتقدمة. وقد كانت ملاحظاته موجهة تحديداً ضد حق الأمم في تقرير المصير، وهو ما كان صدى لحجج روزا لوكسمبورغ واليساريين البولنديين.

1: McKean, St. Petersburg Between the Revolutions, p: 360.

2: LCW, To Alexandra Kollontai, vol. 35, p: 198.

ليست هناك سوى إشارة واحدة إلى تلك التوصية التي تقدمت بها مجموعة بوغي بشأن مهام الحزب، حيث أعربت عن تحفظات قوية على شعار لينين عن "الحرب الأهلية" وخاصة ما كان يسمى بشعار "هزيمة روسيا". وفي حين وافقت التوصية بشكل عام على فكرة أن الحرب ستثير، في مرحلة معينة، حركة ثورية وحرباً أهلية، وبينما تقبلت الأهمية الثورية التي يكتسبها الشعار في النضال ضد "البورغيزيين" ("السلام الاجتماعي"، أي توقيف النضال الطبقي طوال فترة الحرب)، فإن التوصية تقول: «ومع ذلك فإن مجموعتنا ترفض رفضاً قاطعاً أن نرفع بخصوص روسيا ما يسمى بشعار هزيمة روسيا، وخاصة بالطريقة التي تم التعبير بها عنه في العدد رقم 38 من سوتسيال ديموكرات»<sup>1</sup>. إن المقال المشار إليه هنا هو المقال الذي كتبه زينوفييف والذي وضع موقف الانهزامية الثورية بطريقة فجأة للغاية.

افتتح لينين أشغال كونفرانس بيرن بنقاش مسألة الحرب، وركز ملاحظاته على البيان. حاول لينين الوصول إلى اتفاق رفاقي مع مجموعة بوغي. لكن ومباشرة بعد نهاية الكونفرانس عاد كل من إ. ب. بوش و ج. ل. بياتاكوف (الثنائي اللذان لم يكونا ينفصلان والمعروفان باسم "اليابانيين" بسبب أنهما كانا قد فرا من المنفى عبر اليابان) وأصر على إعادة فتح النقاش حول مسألة الحرب. وسرعان ما انضم بوخارين إلى موقفهما الذي كان صادراً عن طريقة تفكير ميكانيكية مجردة وغير واقعية. لقد جادلوا بأنه منذ انتهاء مرحلة المطالب الديمقراطية (هما في ذلك حقوق الأمم في تقرير مصيرها)، فإن المطلب الوحيد الذي يمكن طرحه الآن هو استيلاء البروليتاريا على السلطة. لم يؤيد أحد أطروحات بوخارين في الكونفرانس، بينما صوتت اللجنة بالإجماع لصالح توصية لينين بخصوص الحرب. وبما أن اللجنة كانت مكونة من لينين وزينوفييف وبوخارين، فإنه من الواضح أن بوخارين قد صوت ضد موقفه!

كما نوقش في بيرن شعار "الولايات المتحدة الأوروبية". كان هذا الشعار قد ظهر في "بيان الحرب والاشتراكية الديمقراطية الروسية"، الذي كتبه لينين خلال الأيام الأولى للحرب ونشر في العدد 40 من سوتسيال ديموكرات. كان الشعار جزءاً من النضال لإسقاط الأنظمة الملكية الرجعية، في كل من روسيا وألمانيا والنمسا-المجر. لكن لينين قام في وقت لاحق بمراجعة رأيه على أساس النقاش الذي دار في بيرن، فبعد الكونفرانس كتب لينين مقاله "حول شعار الولايات المتحدة الأوروبية"، والذي شرح فيه أن شعار الولايات المتحدة الأوروبية في ظل الرأسمالية "إما مستحيل أو رجعي"، وهو الموقف الذي، على الرغم من أوهام الرأسماليين الأوروبيين اليوم، ما يزال صحيحاً في الوقت الحالي. قال لينين: «إن الرأسمالية هي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وفوضى الإنتاج. والدعوة إلى تقسيم "عادل" للدخل على هذا الأساس هي نزعة برودونية محضة وتعبير عن الغباء». يمكن لمختلف الطبقات السائدة في أوروبا أن تتوصل إلى اتفاقات مؤقتة بينها لغرض تقاسم الغنائم والاستغلال المشترك للمستعمرات، مثل الاتفاق بين الفرنسيين والألمان وغيرهم من الرأسماليين بعد الحرب العالمية الثانية، لكنهم سرعان ما سينقسمون مرة أخرى حتماً في فترات الأزمة. لقد سبق للينين أن شرح كل هذا مسبقاً.

إن لينين يشير هنا بالتحديد بطبيعة الحال إلى توحيد أوروبا على أساس رأسمالي. إن توحيد أوروبا يبقى مسألة ضرورية، لكن لا يمكن تحقيقه إلا على يد الطبقة العاملة بعد حسمها للسلطة وتأسيس الولايات المتحدة الاشتراكية الأوروبية. كان أساس تلك المقالة، وجميع كتابات لينين في تلك الفترة، هو التأكيد بالضبط على ضرورة النضال من أجل الثورة الاشتراكية، ليس فقط في روسيا، بل في جميع أنحاء أوروبا. لكن تلك المشكلة لم يتم حلها آنذاك وتم تأجيلها للمستقبل.

### الإمبريالية أقصى مراحل الرأسمالية

شرح لينين آنذاك في بحث نظري كبير للإمبريالية والذي بلغ ذروته في مؤلفه الهام "الإمبريالية أقصى مراحل الرأسمالية". من بين أسباب تأليفه لذلك الكتاب الرد على كتاب هيلفردنغ "الرأسمال المالي"، الذي نُشر في عام 1910، والذي قام فيه هذا الأخير بتجاهل التناقضات المتأصلة في الرأسمالية وحتمية الصراع بين الإمبرياليين، وتحدث عن إمكانية ظهور كارتل عالمي، واقتصاد مخطط عالمياً في ظل الرأسمالية الاحتكارية وحل النزاع بين العمل المأجور والرأسمال، أو فكرة "الرأسمالية المنظمة"، التي هي نسخة مبكرة لفكرة "الرأسمالية الموجهة" التي كانت محبوبة جداً عند القادة الإصلاحيين خلال الخمسينات والستينات. وقد اعتمد كاوتسكي في وقت لاحق على فكرة هيلفردنغ حول الرأسمالية المنظمة لبناء نظريته عن الإمبريالية العليا، وهي الفكرة التي انتقدها بوخارين في كتابه "الإمبريالية والاقتصاد العالمي"، الذي عبر لينين عن إعجابه به.

لم تكن تلك هي المحاولات الوحيدة لإعادة النظر في نظريات ماركس الاقتصادية. ففي كتابها "تراكم الرأسمال"، الذي كتب قبل

1: Lenin's Struggle for a Revolutionary International, p: 272.

فترة وجيزة من الحرب، كانت روزا لوكسمبورغ قد طرحت فكرة الانهيار التلقائي للرأسمالية، وهي الفكرة التي طالما استخدمها التحريفيون منذ ذلك الحين للتقليل من دور العامل الذاتي في إنجاز التحويل الاشتراكي للمجتمع. وكما هو الحال دائما كانت مهمة لينين الرئيسية هي تكوين الكوادر. لقد خاض نضالا إيديولوجيا شرسا على جبهتين: ضد الانتهازية وضد اللاسلطوية النقابية. وفي وقت لاحق انخرط الستالينيون في محاولات خبيثة لربط نظرية تروتسكي عن الثورة الدائمة بتصورات المناشفة والبلاشفة "اليساريين" -بوخارين، بياتاكوف، وبوش!-. في الواقع لا توجد أية علاقة على الإطلاق بين "الثورة الدائمة" وبين ذلك الرفض الطفولي للمطالب الديمقراطية الذي كان هؤلاء "اليساريون" يتبنونه. وبالتالي من المحتمل جدا أن تكون هجمات لينين على "الثورة الدائمة" في تلك الفترة إنما كانت موجهة ضد هؤلاء.

كان للتجنيد تأثير كبير على الطبقة العاملة، فقد تم استدعاء 17% من كوادر الطبقة العاملة في بتروغراد، بما في ذلك جميع الشباب تقريبا. ولتعويضهم اكتسحت المصانع حشود من الجماهير التي كانت تفتقد للوعي السياسي، ومرة أخرى جرى تميع الهوية الطبقيّة للقوى العاملة بعناصر خام وشبه بروتليارية. أرسلت الفئات الأصغر والأكثر حيوية من المدينة والقرية إلى جبهات القتال. وسحب عدد كبير من النساء والمراهقين إلى المصانع. وقد جاءت تلك العناصر الجديدة بأوهامها الطبقيّة وأحكامها المسبقة معها. أما البروليتاريا الصناعية فقد تم دفعها جانبا. اضطر العمال البلاشفة إلى أن يظأطؤوا رؤوسهم لفترة من الزمن. صارت ظروف العمل أكثر فأكثر سوءا والأجور أقل، وتم فرض "الانضباط العسكري" في المصانع. تراجع المستوى السياسي العام على المدى القصير، لكن الضغط القاسي على العمال وبلترة فئات جديدة كان بدوره يهدد الطريق لحدوث انفجار جديد. كان الحزب نفسه قد تفكك، ولم يستعد بعض مظاهر التنظيم إلا بشكل تدريجي. لكن أفكار وتقاليد البلشفية كانت ما تزال حية في المصانع والخنادق. وتنعكس إحصاءات الإضرابات، تراجع الحركة، كما يبين الجدول التالي:

#### إحصاءات الإضراب في عام 1914

الشهور	عدد الإضرابات	عدد المضربين
غشت	24 (أقل بـ 40% عن يونيو)	24.688
سنتبر	10	
أكتوبر	9	
نوفمبر	16	
دجنبر	9	

المصدر: *Istoriya KPSS*, vol. 2, p: 538.

وفقا للأرقام الرسمية، لم تشهد كل الفترة الممتدة من غشت إلى دجنبر 1914 سوى 70 إضرابا، مع 37.200 مشارك في كل روسيا. وفي إيفانوفو-فوزنسينسك، التي كانت أحد المراكز الرئيسية لنضالات العمال، توقفت الإضرابات بشكل شبه كلي، بحيث لم يتم تسجيل سوى إضراب واحد صغير طيلة تلك الأشهر. ولم تكن الأوضاع أفضل بكثير في بتروغراد.

#### محاكمة النواب البلاشفة في الدوما

تسبب اعتقال نواب الدوما في مشاكل جديدة للحزب. ورغم أن الفروع المحلية تمكنت من إصدار بعض المنشورات الاحتجاجية السرية، فإنه لم يكن من الممكن تنظيم حركة عامة باستثناء بعض الإضرابات الصغيرة. سبقت محاكمة أعضاء الدوما موجة من الاعتقالات، كما كان هناك وجود مكثف للشرطة في شوارع المدن الرئيسية من أجل "تهدئة الطبقة العاملة". وفي فبراير شارك 4.630 شخصا في الإضرابات السياسية الاحتجاجية، وهو الرقم الذي لا يعتبر سيئا بالنظر إلى الظروف الصعبة للغاية، لكنه، بالرغم من ذلك، عدد قليل جدا، كان يعكس حالة الاحباط السائدة بين غالبية العمال.

كان أداء النواب في المحاكمة غير متشابه، فقد اقتصر م. ك. مورالوف على الاعتراف بأنه عضو في الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي وكونه نائبا منتخبا من طرف العمال. لكن خطاب ج. إ. بتروفسكي "شرّفه"، حسب تعبير لينين. ومع ذلك، فقد انتقد لينين بعض ممارسات الدفاع. فعلى سبيل المثال نفى المتهمون أي مشاركة شخصية من جانبهم في المنظمات غير الشرعية للحزب. كما أن كامينيف، عضو اللجنة المركزية، الذي اعتقل وحوكم مع نواب مجلس الدوما، ألقى خطابا لم يعبر فيه عن الشجاعة التي يمكن توقعها من شخص في منصبه، وهو ما أثار استياء لينين. وفي إشارة إلى محاكمة نواب الدوما، كتب تروتسكي:

«حافظ المتهمون، في المحاكمة التي جرت في 10 فبراير، على نفس الموقف. ولم يكن إعلان كامينيف بأن الوثائق التي وجدت معه "تتناقض مع وجهات نظره الخاصة بشأن الحرب الحالية" راجعا لقلقه على سلامته الشخصية فقط، بل كان في الأساس يعكس موقف قيادة الحزب بأكملها تجاه تكتيك الانهزامية. لقد تسببت تكتيكات المتهمين الدفاعية في إضعاف الأثر التحريضي للمحاكمة، مما أثار استياء لينين الشديد. كان في مقدور الدفاع القانوني أن يسير يداً بيد مع الهجوم السياسي. لكن كامينيف، الذي بالرغم من ذكائه وثقافته، لم يكن مؤهلا لمواجهة الحالات الاستثنائية. قام المحامون من جانبهم بكل ما بوسعهم، حيث رفضوا تهمة الخيانة، وتنبأ أحدهم، بيريفريزيف، في المحاكمة قائلاً إن إخلاص النواب العماليين لطبقتهم سيسجل إلى الأبد في ذاكرة الأجيال القادمة، في حين أن نقاط ضعفهم (عدم الاستعداد واعتمادهم على مستشاريهم، وما شابه) كل ذلك سوف يسقط، مثل قذيفة فارغة، إلى جانب تهمة الخيانة الكاذبة»<sup>1</sup>.

كان لينين يتوقع شيئاً أكثر من ذلك. ففي الوقت الذي كان فيه جميع قادة الأمانة الثانية ينبطحون، كان لينين ينتظر من المحاكمة أن تكون فرصة للبلاشفة لكي يقفوا ويقدموا عرضاً علنياً واضحاً للحزم والشجاعة. كان ينبغي للمحاكمة أن تكون محطة لرفع الروح الكفاحية للعمال في روسيا وعلى الصعيد الأممي. لكن تم تضييع الفرصة. كما أن تكتيكات الدفاع المهادنة التي تبناها لم تؤد إلى تخفيف العقوبات عليهم، حيث تم الحكم على المتهمين بالنفي المؤبد إلى سيبيريا. لكن وعلى الرغم من شكوك لينين فإن المصير الذي تعرض له النواب البلاشفة ساعد على زيادة مصداقية البلاشفة في نظر الجماهير، التي لم تتمكن من فهم تفاصيل النقاط الدقيقة للدفاع، لكنها رأت أن قادتها البرلمانيين كانوا على استعداد للذهاب للسجن من أجل الدفاع عن مبادئهم. بعد المحاكمة أكد لينين أن البلاشفة لديهم دعم أربعة أضعاف العمال الواعين في روسيا. كان هذا صحيحاً بالتأكيد في عام 1914، كما رأينا. فقبل الحرب كان حوالي 40 ألف عامل يشتركون برفاداً بشكل منتظم. وكان يقرأها عدد أكبر من ذلك. وعلى الرغم من الاعتقالات والسجن والنفي، فقد استمر هذا التقليد -الذي هو تقليد بلشفي- قائماً. ورغم أن قوة المنظمة تراجعت بشكل كبير، فإنها استمرت حية في قلوب وعقول العمال. وكانت هذه هي التربة التي سمحت للتيار الثوري في النهاية أن يزدهر مرة أخرى.

لكن وضع الحزب في ذلك الوقت كان سيئاً، فقد تراجعت أعداد أعضائه مع اندلاع الحرب. كانت خلايا المصانع السرية تشكل التنظيم القاعدي البلشفي الأساسي. لكن عدد العمال النشيطين في تلك الخلايا صار قليلاً جداً في ذلك الوقت. وبسبب الاعتقالات والتجنيد، صارت نسبة الأعضاء الجدد عديمي الخبرة عالية في الحزب. كانت اللجنة المركزية البلشفية تضم لينين وزينوفيف وشيليبانيكوف، الذي كان مسؤولاً عن العمل داخل روسيا، وكروبسكايا التي كان عملها كسكرتيرة للحزب ضرورياً لا غنى عنه. كان هذا كل شيء! لم يتم تشكيل مكتب روسي للجنة المركزية إلا في خريف 1915. ومع حلول خريف العام التالي أعيد تنظيم المكتب. آلت القيادة إلى كل من زالوتسكي ومولوتوف وشيليبانيكوف وبقي الحال كذلك حتى فبراير 1917. تدريجياً وبصعوبة شديدة بدأ الحزب يعيد تنظيم صفوفه داخل روسيا. كانت المجموعة الأكثر أهمية موجودة في بتروغراد بطبيعة الحال. ويقال (في كتاب Istoriya KPSS) إن عشر لجان محلية كانت تشتغل هناك، بالرغم من الانقطاعات " (أي أن وجودها كان ضعيفاً).

لكن بحلول عام 1915، تغير المزاج وبدأت الجماهير تتخلص تدريجياً من خوفها. وبحلول النصف الثاني من عام 1915 اندلعت بالفعل بعض الإضرابات المتقطعة في موسكو ضد ارتفاع تكلفة المعيشة. وقد انعكس هذا التغيير على شكل انتعاش تدريجي لعضوية الحزب. في نوفمبر 1914، كان لدى منظمة الحزب في بتروغراد ما بين 100 و120 عضواً فقط، لكن بحلول ربيع 1915، ارتفع هذا العدد إلى 500 وإلى 1200 بحلول الخريف. وفي منتصف 1916 وأوائل 1917، صار هناك 2.000 عضو في العاصمة. حتى في المناطق النائية كانت منظمات الحزب قد بدأت بدورها في توسيع صفوفها. وبصرف النظر عن العمال، كانت هناك أيضاً مجموعات من الطلاب، بل وحتى الجنود والبحارة من أسطول بحر البلطيق. كان الوضع نفسه في أماكن أخرى. ففي خاركوف كان هناك 15 عضواً فقط في ربيع عام 1915، لكن بحلول الخريف ارتفع العدد إلى 85، وبعد عام واحد وصل إلى 120. في بيكاتيرينوسلاف كان هناك 200 عضو في نهاية عام 1915، لكن بحلول نوفمبر 1916 وصل الرقم إلى 300، ومع بداية عام 1917 ارتفع إلى 400. لقد كان الحفاظ على انتظام الاجتماعات السرية، حتى عندما كان عدد الأعضاء قليلاً، هو مفتاح النجاح الذي تحقق لاحقاً.

وتدريجياً بدأ عمل الحزب ينتعش. كان العمل يتم في المنظمات الشرعية، مثل التعاونيات والجمعيات. ومع ذلك فقد كانت ظروف هذا العمل صعبة وخطيرة. يزعم كتاب Istoriya KPSS إن الحزب كانت له مجموعات في 29 بلدة ومدينة وهي: بتروغراد وموسكو وخاركوف وبيكاتيرينوسلاف وكييف ومكيفكا وسمارة وساراتوف وريازان ونيجني نوفغورود وروستوف أون دون وأوديسا وإكاترينودار وباكوتفليس وإيفانوفو فوزنيسينك وتولا وأوريخوفو زيفو وتفير وغوميل وفيازما وريفيل ونارفا ويوريفا وإيركوتسك

1: L. Trotsky, *Stalin*, p: 169.

وزلاتوست وبيكاترييورغ وأورينبورغ. ومع ذلك ينبغي التعامل مع هذه المزاعم بحذر. فالعديد من تلك المجموعات كانت مجرد أسماء، وكان وجودها شكليا. تعرض العمل لعراقيل مستمرة بسبب اختراق البوليس والاعتقالات. في الغالب كانت العديد من تلك المنظمات تفتقر إلى الاستقرار والاستمرارية، مثلما كان حال لجنة بتروغراد التي تعرضت للتحطيم 30 مرة على الأقل، رغم أنه كانت تتم إعادة تشكيلها في كل مرة.

يتطلب العمل السري في زمن الحرب أشد أشكال المركزية والسرية صرامة. كان من المستحيل عمليا الإبقاء على مبدأ الانتخاب. كان الانتخاب هو الاستثناء وليس القاعدة. كانت اللجان تتشكل عن طريق التعيين: كانت اللجنة الإقليمية (Rayonny komitet) المشكلة من أعضاء خلايا المصانع المحلية، ترشح أعضاء اللجنة المحلية (Gorodsky' komitet) التي كان لها الحق أيضا في ضم عمال ذوي خبرة. كان من الحتمي حدوث بعض التجاوزات، إلا أن القواعد كانت تبقى، بقدر الإمكان، على علم بجديد الاجتماعات والصحافة السرية. وقد لعبت الجريدة، على الرغم من جميع الصعوبات، دورا حيويا في الحفاظ على وحدة قوى الحزب. بعد ثلاثة أشهر على اندلاع الحرب، تم اصدار جريدة بلشفية جديدة، سوتسيال ديموكرات (Sotsial Demokrat)، والتي صدر منها، في الفترة ما بين أكتوبر 1914 ويناير 1917، 26 عددا (من العدد 33 إلى 58)، بمعدل عدد واحد في الشهر - وهو الشيء الذي يعتبر إنجازا عظيما في ظل تلك الظروف.

### حدود مغلقة

كان عمل لينين في المنفى يسير بوتيرة بطيئة مثيرة للإحباط ويواجه الصعوبات عند كل خطوة. كافح لينين بموارد ضئيلة لمواصلة العمل مع مجموعة صغيرة من المتعاونين في المنفى. بالإضافة إلى زينوفايف وكروبسكايا، كان هناك إينيسا أرماند، وشكلوفسكي، وكاسباروف. كان هؤلاء فقط هم أعضاء "مكتب اللجنة المركزية في الخارج". وقد حاولوا أن يجعلوا الجريدة البلشفية سوتسيال ديموكرات تعمل كمُنظم لصفوف الحزب. تم توزيع 300 نسخة في باريس و100 في لندن وستوكهولم ونيويورك، و75 في جنيف وبيزن، و50 في زيوريخ ولوزان، كما تم بيع عدد من النسخ في ميلانو وجنوة. لكن روسيا لم يكن يصل إليها سوى عدد قليل جدا. كان جمع الأموال يحتل مكانة مركزية في انشغال المنفيين، لكن وعلى الرغم من الصعوبات الهائلة فإن الصحيفة استمرت في الظهور بشكل منتظم، بل ونجحت في أن تعكس بشكل بارع حياة الحركة العمالية داخل روسيا. كانت أعمدها تتضمن الأخبار والتقارير والتوصيات ومنشورات المنظمة السرية. ومن أجل حل المشاكل المالية الملحة تم تنظيم صندوق نضالي لمساعدة سوتسيال ديموكرات. كان الحزب يعيش ظروفًا شديدة الصعوبة، وحياة المنفيين، التي كانت أصلا مريرة بما فيه الكفاية، صارت غير محتملة بسبب عدم وجود اتصال مع الحركة في روسيا.

لكن إذا كان إنتاج منشورات منظمة صعبا للغاية، فإنه كان من الأصعب إيصالها إلى القراء المقصودين. تسببت الحدود المغلقة وظروف الحرب المرتبطة بها في جعل الاتصال المنتظم مع الداخل مهمة شبه مستحيلة. كان البوليس والجواسيس والمخبرون يحاصرون الثوريين من جميع الجهات، مما أدى إلى تفكيك جميع قوات النقل السرية القديمة. فانتقل مركز ذلك النشاط إلى ستوكهولم، وكذلك إلى مورمانسك وأرخانجيلسك. كان الاشتراكيون الديمقراطيون الاسكندنافيون يقدمون بعض المساعدة، على الرغم من موقف القيادة الموالي لألمانيا. وقد جاءت تلك المساعدة بشكل أساسي من جانب الجناح اليساري، وخاصة منظمة الشباب الاشتراكي التي كانت قد اتخذت موقفا مناهضا للحرب، رغم أنه كان مختلطا بنزعة سلمية، أي شعار "إلقاء السلاح!"; كما كان الحال في جميع الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الاسكندنافية. كان المسؤول عن النقل هو العامل البلشفي المخضرم ألكسندر شليابينيكوف، الذي توفر مذكراته مصدرا مهما عن أنشطة الحزب في تلك الفترة. وقد لعبت كروبسكايا، كما كان الحال دائما، دورا لا يقدر بثمن في تنظيم ذلك العمل بكل تفاصيله الدقيقة ومساعدة الرفاق الشباب على فهم أساليب العمل السرية. كان فريقها الصغير من المتعاونين يضم إلى جانب شليابينيكوف كولونتا، التي كانت قد انفصلت مؤخرا عن المناشفة وتبنت القضية البلشفية بحماس كبير، إضافة إلى شقيقتي لينين: أوليانوفا وإليزاروفا، وكذلك ستال وكاسباروف، لم يكن هناك كثيرون آخرون. وحقبة أنه كان من الضروري إشراك أختي لينين في العمل تشير إلى صعوبة الحصول على أشخاص موثوقين للقيام بذلك النشاط.

استمر لينين يواجه المشاكل مع رفاقه المقربين في الخارج. ففي غشت 1915، صدرت جريدة بلشفية أخرى، تحت اسم كومونيست (Kommunist)، والتي كان يحررها بوخارين. لكن سرعان ما أدت مواقف بوخارين اليسارية المتطرفة إلى إثارة حنق لينين، والذي كتب في رسالة غاضبة إلى شليابينيكوف، قائلا: «لقد أصبحت كومونيست ضارة للغاية. يجب إيقافها واستبدالها

بسبورنيك سوتسيال ديموكرات (التي كانت تحررها هيئة تحرير سوتسيال ديموكرات في المنفى). وبهذه الطريقة فقط نتجنب الشجار، ونتجنب التذبذب».

كان صبر لينين قد نفذ بعد أن قدم العديد من التنازلات لـ "الثلاثي" - بوخارين وبياتاكوف ويوجين بوش. كتب قائلاً: «نيك [نيكولاي] إيف [إيفانوفيتش] اقتصادي مجتهد، وقد دعمناه دائماً في هذا. لكنه (1) ثثار و(2) متذبذب في السياسة. لقد دفعته الحرب إلى تبني أفكار شبه لاسلطوية. وفي المؤتمر الذي اعتمد قرارات برن (في ربيع 1915) أصدر أطروحات (أمتلكها!) كانت ذروة الغباء والخزي وشبه لاسلطوية. لقد انتقدته بشدة. كان يوري وبوش يستمعان وعبرا عن رضاهما لأنني لم أتركه يسقط في التطرف اليسراوي (في ذلك الوقت كانا قد أعلننا اختلافهما التام مع نيك إيف [بوخارين]). مرت ستة أشهر، ونيك إيف يدرس الاقتصاد، ولا يولي أي اهتمام بالسياسة، فإذا به يخرج علينا، فيما يتعلق بمسألة تقرير المصير، بنفس ذلك الهراء، وقد عبر بوش ويوري عن اتفاقهما معه!!»<sup>1</sup>.

كانت أسوأ مشكلة هي العزلة عن الحركة داخل روسيا. كان العمل مع الداخل يعاني من العديد من الصعوبات والمخاطر. لم يكن من الممكن، سوى في حالات نادرة فقط، إرسال شخص موثوق به إلى روسيا لجمع معلومات مباشرة عن الحالة في الداخل. واجهت شليابينيكوف، الذي كان في ستوكهولم، مشاكل من جميع الأنواع، ليس فقط مع الرقابة البوليسية وحرس الحدود، بل أيضاً مع نقص الأموال والإحباط الناتج عن انهيار الأممية. في البداية كان من الممكن الحفاظ على بعض الاتصالات مع روسيا عن طريق رجال أعمال ومهاجرين عائدين إلى روسيا من أجل التجنيد. لكن عندما تلاشت هذه الإمكانية وأصبحت الرقابة أكثر تشدداً، مع تشديد عمليات التفتيش المنتظمة للمسافرين على الحدود، أخذت الأمور منعطفاً خطيراً نحو الأسوأ. الكثير من المهاجرين الروس، الذين كانوا مستعدين سابقاً لنقل الأدبيات السرية إلى روسيا، لم يعودوا يقبلون بالقيام بتلك المهمة، مفضلين تكريس أنفسهم لأنشطة تهريب أكثر ربحية. وقد تم التعبير عن مزاج الإحباط واليأس الذي ساد آنذاك في التعليق التالي: «إن أخبار بلاشفتنا في باريس الذين يلتحقون بالجيش، و"ثرثرة" الرجل العجوز في جنيف (بليخانوف)، والوضع ككل، ينيخ بسحابة قاتمة على رؤوسنا».

انعكس خراب التنظيم في الداخل، وخاصة بعد إلقاء القبض على أعضاء الدوما، على شكل أزمة مالية. تمكن شليابينيكوف من إيجاد بعض البحارة الذين كانوا على استعداد لتهريب بعض المنشورات السرية إلى الداخل، مقابل المال. لكن المال لم يكن متوفراً. وكتب قائلاً: «لقد أبلغت لجنة بيترسبورغ وفريق الدوما بذلك، لكنني تلقيت أبناء محزنة مفادها أنهم غير قادرين على تقديم المبلغ اللازم، حوالي 300 إلى 500 روبل في الشهر. كان من الصعب عليهم أن يرسلوا لي المال لإعالتني، وبعد أن أرسلوا لي 100 روبل، أوصاني الرفاق بأن أتكفل بجميع نفقاتي. لم أستطع حتى البدء في التفكير في العثور على عمل، لأن تلك الأشهر الأولى من الحرب تسببت في بطالة كبيرة في السويد وكانت المصانع لا تعمل سوى لبضعة أيام في الأسبوع. لم تكن هناك أي فرصة لإيجاد موارد في مجتمع المهاجرين المحليين، على الرغم من وجود الكثير من المضاربين هناك. كانت اللجنة المركزية لحزبنا في الخارج أفقر من أن تتمكن من تخصيص مثل ذلك المبلغ لتلك العملية. ومن أجل مواصلة العمل لجأت إلى القروض والاكتفاء بإرسال الأخبار بشكل متقطع فقط»<sup>2</sup>.

## الدسائس الألمانية

تصاعدت، كما هو الحال دائماً في زمن الحرب، أنشطة الأجهزة السرية التي بذلت كل الجهود الممكنة لكسب عملاء يمكنهم أن يكونوا مفيدين لها. ولم تقتصر محاولاتها على القادة الرسميين للحركة العمالية في البلدان الرئيسية. لتحقيق ذلك لجأت إلى المؤامرات والرشاوى والابتزاز. واستناداً إلى المثل الشهير "عدو عدوي صديقي"، حاولت القوى العظمى تشجيع التمردات في مؤخرة العدو، ورفعت بديماغوجية شعار "حقوق الأمم في تقرير مصيرها". وهكذا أرسلت لندن عميلها، المغامر لورنس (لورنس العرب)، لتحريض العرب ضد الأتراك، ووعدت بكلية كلا من اليهود والعرب بمنهم فلسطين (في حين لم تكن تنوي إعطائها لأي منهم)؛ كما حاولت برلين دفع الفنلنديين إلى التمرد ضد روسيا. وفي خضم هذه المؤامرات والمؤامرات المضادة، كان عملاء الإمبريالية يلجؤون حتى إلى تحريض الثوريين بهدف دفعهم إلى القيام بأعمال تخريب قد تضعف العدو. وعلى سبيل المثال فإن اليساري السابق، بارفوس (ذلك الشخص الكفو لكن المغامر في نفس الوقت) والذي انتقل إلى معسكر الاشتراكية الشوفينية، افتتح ما أسماه

1: LCW, To A.G. Shlyapnikov, 11/3/1916, vol. 35, pp: 214-215.

2: A. Shlyapnikov, On the Eve of 1917, pp: 35 and 37-38.

”معهد دراسة الآثار الاجتماعية للحرب“، في كوبنهاغن، كأداة لاستقطاب الثوريين الروس من أجل التعاون مع الألمان. وبسبب الفقر والإحباط سقط الكثيرون في الفخ.

لقد حرص البلاشفة طوال الحرب على النأي بأنفسهم بعيدا عن كل محاولات الإمبرياليين الألمان لتوريثهم في المؤامرات التي كانت ستشوه بشكل كامل سمعة الحزب في أعين الطبقة العاملة العالمية. لقد عمل لينين على توضيح موقفه في مئات المقالات والخطب سواء تجاه الحلفاء أو الألمان، حيث قال عنهم: ”جميعهم طاعون!“، وعلى الرغم من أن الحزب، كما رأينا، كان في أمس الحاجة إلى المال في ذلك الوقت، فإنه كان من المستحيل قبول أي أموال ألمانية، على الرغم من أن هذه الأخيرة قد عرضت ذلك بالفعل. كان موقف لينين من ذلك واضحا جدا، فعلى الرغم من أنه على الثوريين أن يستغلوا التناقضات الموجودة بين الإمبرياليين، فإنه يجب عليهم ألا يشاركون في مؤامراتهم أو يصبحوا معتمدين عليهم بأي شكل من الأشكال. لكن ومع ذلك فإن أعداء البلشفية في وقتنا الحالي، وفي سياق حملتهم لتشويه سمعة لينين بكل الوسائل الممكنة، استخرجوا من مزبلة التاريخ الافتراء القائل بأنه كان ”عميلا ألمانيا“. كانت هذه الكذبة البشعة من اختراع جهاز المخابرات القيصريّة من أجل تشويه سمعة البلاشفة، ثم تكررت لاحقا وتضخمت على يد الحكومة المؤقتة، خلال فترة الردة الرجعية التي تلت أيام يوليو عام 1917، لتشويه سمعة البلاشفة واضطهادهم. وها قد أعيد إحيائها مجددا، في الفترة الأخيرة، على يد ”مؤرخين“ عدميّ الضمير، مثل فولكوغونوف، والذين لا يحاولون حتى إخفاء كراهيتهم الشديدة تجاه لينين وتروتسكي والثوريين عموما.

يعيد فولكوغونوف، في كتابه عن لينين، استنساخ كل الأكاذيب القديمة التي قيلت عن لينين بكونه ”عميلا ألمانيا“، والتي تم تفتيدها منذ زمن بعيد. ولذلك أضاف إلى الكذابين القدامى بعض الكذابين الجدد، الذين يتضح بعد التدقيق أنهم مجرد نسخ مكررة عن أسلافهم. يستشهد بـ”مؤرخ روسي“، يدعى ميلغونوف، يؤكد للقارئ أنه يجب على المرء أن يبحث عن ”مفتاح الذهب الألماني في جيب بارفوس (هيلفاند)، الذي كان على اتصال دائم بالعالم الاشتراكي وجنرالات الجيش الألماني“، وأن هذا ”ما يفسر النجاح السريع وغير العادي للدعاية التي قام بها لينين“. متى كتبت هذه المادة الجديدة المذهلة؟ إنها تعود إلى عام 1940، عندما ظهر في باريس كتاب بعنوان ”المفتاح الذهبي الألماني للبلاشفة“، والذي كان جزءا من ركام ضخّم نشره منفيون روس، جميعهم كانوا معارضين متعصبين ضد البلشفية، وتحركهم دوافع الحقد والكراهية وروح الانتقام. لا يمكن للمرء أن يتوقع من هذه المصادر أي تقييم علمي لهذا الموضوع أو لأي موضوع آخر.

لكن فولكوغونوف في النهاية أثار اهتمامنا عندما أضاف قائلا: «الآن وقد درست عددا كبيرا من الوثائق التي ما زال من المستحيل الحصول عليها حتى الآن...»، مما يجعلنا نفرح بأننا أخيرا سنتمكن من أن نلقي نظرة على هذه المصادر الجديدة والمثيرة! لكن ما الذي تظهره تلك المصادر؟ صدقوا أو لا تصدقوا إنها تظهر أن ”سر الثورة“ الشهير، والذي ظل مخفيا لفترة طويلة... ”ما زال غير واضح“. (التشديد من عندي: آلان وودز). وبالتالي فإنه إما أن ”الأسرار“ انتقلت شفويا بين دائرة صغيرة من القادة البلاشفة، أو أنه قد تم تدمير الأدلة، و”لينين كان يعرف جيدا كيف يحمي الأسرار“!

لقد تمخض الجبل لكنه لم يلد فأرا، بل صرورا! لكن حتى الصرصور يمكن أن يتعرض لعملية تضخيم لحجمه حتى يصير بحجم الأرض، مثلما حدث في هذه الحالة، بفضل بعض المساعدة من أصدقاء فولكوغونوف في وسائل الإعلام، الذين سارعوا إلى طمأنة الجميع بأن هذا الكتاب يحتوي على دليل قاطع، استنادا إلى مصادر جديدة تماما (ما زال من المستحيل الحصول عليها حتى الآن!)، بأن لينين لم يكن أكثر من مجرد عميل للقيصر الألماني (تماما مثلما قيل عن تروتسكي فيما بعد بأنه عميل لهتلر).

نجد موجزا (وإن غير كاف) عن سيرة بارفوس، الذي صار، بحلول عام 1914، شخصا غنيا جدا ومقربا من هيئة الأركان العامة الألمانية. يبدو أن لينين قد التقى ببارفوس في سويسرا عام 1915. لكن لا شيء جديد في هذه المعلومات لأن كتاب شوب موجود منذ فترة طويلة جدا، وكذلك السيرة التي كتبها زيمان عن بارفوس، والتي استمد منها فولكوغونوف معظم هذا المعلومات ”الجديدة والأصلية“. بل إن هذا الاتهام (الذي اختلقته الحكومة المؤقتة خلال حملة التشهير ضد لينين والبلاشفة في يوليو عام 1917) قد تم الرد عليه بالفعل من قبل لينين نفسه حين قال: «إنهم يقحمون بارفوس، ويحاولون جاهدين إقامة علاقة ما بينه وبين البلاشفة. لكن البلاشفة في الواقع كانوا هم الذين وصفوا بارفوس، في سوتسيال-ديموكرات التي كانت تصدر في جنيف، بأنه خائن، ونددوا به بلا رحمة باعتباره بليخانوف ألماني، وقضوا إلى الأبد على كل احتمال لإقامة أي علاقة مع الاشتراكيين الشوفينيين أمثاله. كان البلاشفة هم الذين رفضوا بشكل قاطع، في اجتماع عقد في ستوكهولم، مع الاشتراكيين اليساريين السويديين، قبول بارفوس بأي صفة كانت،



ولو حتى كضيف، ناهيك عن التحدث إليه. كان هانكي يعمل مكلفا بالشؤون التجارية في الشركة التي كان بارفوس شريكاً فيها. إن المراسلات التجارية والمالية تخضع للرقابة بالطبع، وهي متوفرة الآن لمن يريد الاطلاع عليها. وقد تم بذل الكثير من الجهد لخلط هذه الشؤون التجارية بالسياسة، على الرغم من عدم تقديم أي دليل على الإطلاق!<sup>1</sup>

عندما أثار بوخارين مسألة العمل مع بارفوس، نصحه لينين بالعدول عن القيام بذلك، على الرغم من أن بعض المناشفة كانوا يعملون هناك، وهي الحقيقة التي لم يستخدمها لينين أبداً ضدهم، ولا يتم الآن ذكرها مطلقاً، نظراً لأن المفترين لا يهتمون إلا بتشويه سمعة الثوريين. في الحقيقة لقد شن لينين أشد الهجمات على بارفوس وأمثاله، حيث وصفه، على صفحات سوتسيال ديموكرات، بأنه مرتد وخائن، لكن هذه الحقيقة لا تجد أي صدى لها في كتاب فولكوغونوف. في عام 1915، كتب لينين عن بارفوس في مقال بعنوان "إلى أقصى حد":

«إنه يتملق هيندنبورغ، مؤكداً لقرائه أن "هيئة الأركان العامة الألمانية تعمل من أجل إحداث ثورة في روسيا"، ونشر مديحا ذليلاً لهذا "التجسيد لروح الشعب الألماني"، و"مشاعر ألمانيا الثورية العظيمة". لقد وعد ألمانيا بتحول غير مؤم إلى الاشتراكية من خلال تحالف بين المحافظين وبين قسم من الاشتراكيين، ومن خلال "بطاقات حصص الخبز". وباعتباره جباناً وتافهاً، فهو يوافق على مضمض على بيان مؤتمر زيمرالد، متظاهراً بأنه لم يلاحظ فيه التعبيرات الموجهة ضد كل أشكال الاشتراكية الشوفينية، بدءاً من أمثال بارفوس وبلخانوف، إلى كولب وكاوتسكي.

لا يوجد في أي من الأعداد الستة لصحيفته الصغيرة ولو فكرة واحدة نزيهة أو حجة جادة أو مقالة صادقة. إنها ليست سوى بالوعة للشوفينية الألمانية مغطاة بلافتة مرسومة بشكل سيء تدعي أنها تمثل مصالح الثورة الروسية! لذلك من الطبيعي تماماً أن تتلقى هذه البالوعة الثناء من بعض الانتهازيين مثل كولب ومحرر صحيفة Chemnitz Volksstimme.

يمتلك السيد بارفوس الوقاحة الكافية لكي يعلن أن "مهمته" هي "العمل كحلقة وصل إيديولوجية بين البروليتاريا المسلحة الألمانية والبروليتاريا الثورية الروسية". يكفي فضح هذه العبارة التهريجية أمام العمال الروس لإثارة سخريتهم<sup>2</sup>.

يشير فولكوغونوف مبتهجا إلى وجود العديد من الرسائل المكتوبة بالرموز التي كتبها لينين وتلقاها. لكن وبما أنه لا يمكن فك رموزها، للأسف، فإنه لا يمكننا معرفة أي شيء عن محتواها. ومع ذلك، على حد تعبير فولكوغونوف (الذي لم يتمكن بدوره من معرفة ما يوجد فيها)، يمكننا أن نفترض أنها تتحدث عن "الذهب الألماني" (ومن يدري كم من الأشياء الأخرى التي يمكنها أن تتضمنها؟). الكثير من الأشياء التي قام بها لينين كانت، لسوء الحظ، سرية مثل النشاط اللاشعري، أي 90% من عمل الحزب في ذلك الوقت! خلال حملة الحكومة المؤقتة للتشهير بالبلشفة، أشارت هذه الأخيرة إلى وجود الكثير من الرسائل، التي زعمت أنها تعود للبلشفة، والتي كانت إما ملفقة أو مشوهة بشكل متعمد من قبل الصحافة الألمانية لأغراض الدعاية. ولا شك أن الرسائل التي أشار إليها فولكوغونوف تندرج ضمن هذه الفئة. وفي سياق تنفيذ هذه الافتراءات، وخاصة المتعلقة "بالرسائل المشفرة"، يقول تروتسكي: «تتعلق شهادة التاجر بورستين، بالعمليات التجارية التي قام بها هانكي وكوزلوفسكي بين بتروغراد وستوكهولم. لكن تلك العمليات التجارية التي تعود لزمن الحرب، والتي من البديهي أنها كانت تلجأ في بعض الأحيان إلى المراسلات المشفرة، لم تكن لها أي علاقة بالسياسة. لم يكن للحزب البلشفي أي علاقة بتلك التجارة. لقد ندد كل من لينين وتروتسكي علانية ببارفوس، الذي كان بارعا في التجارة سيئاً في السياسة، وناشداً الثوريين الروس بقطع جميع العلاقات معه»<sup>3</sup>.

وبعد أن صار فولكوغونوف أكثر فأكثر يأساً، استنجد أخيراً ب... كيرينسكي! عند هذه النقطة تكون العجلة قد أكملت دورة كاملة، وعدنا إلى حملة الأكاذيب الأصلية ضد البلشفة على لسان "أكبر كذاب"، كما كان تروتسكي يسميه. يقتبس من سيده تدعى ييفجيفيا مافريكينا سمنسن والتي هي مصدر آخر "جديد وأصلي". يقال إنها أكدت وجود حساب خاص في بنك سيبيريا يضم "حوالي مليون روبل"، قيل إنه تم سحب مبلغ 800.000 روبل منه عشية الثورة. من هي هذه الأنسة سمنسن؟ إنها شاهدة أثناء محاكمات البلشفة التي تمت خلال الحملة ضدهم في يوليو 1917. من أين حصل فولكوغونوف على هذا الاقتباس؟ ليس من تلك "المصادر التي ما زال من المستحيل الحصول عليها حتى الآن"، بل من كتاب ميلغونوف الذي نشر في باريس عام 1940. وهلم جرا...

1: LCW, *Dreyfusiad*, vol. 25, p: 167.

2: LCW, *At the Uttermost Limit*, vol. 21, pp: 421-422.

3: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, pp: 599-600.

أليس من الممكن أن تكون بعض الأموال التي وزعتها هيئة الأركان العامة الألمانية، من خلال عملائها في الخارج، قد وجدت طريقها، بطريقة أو بأخرى، إلى حسابات البلاشفة؟ خلال الحرب استخدم الألمان، والحلفاء أيضاً، عملاءهم داخل الحركة العمالية لشراء دعم الجماعات اليسارية في البلدان الأخرى. لكن الادعاء بأن الألمان قد اشترتوا البلاشفة بالذهب وأن هناك تحالفاً فعلياً بين البلاشفة والإمبريالية الألمانية كذبة ليست فاحشة فحسب، بل وغبية للغاية أيضاً. يعلم الجميع السلوك السياسي للبلاشفة أثناء الحرب وبعدها. وعلى سبيل المثال، يحاول فولكوغونوف إظهار أن الألمان قد حولوا الأموال إلى البلاشفة عبر السويد. كان ممثل الحزب البلشفي في السويد هو ألكسندر شليابنيكوف. وفي مذكراته، يشرح أن المخابرات الألمانية كانت بالفعل نشطة للغاية في السويد، واخترقت الاشتراكية الديمقراطية السويدية، وحاولت رشوة الثوريين الروس لخدمتها. فما هو الموقف الذي اتخذته؟

الجواب موجود في مذكرات شليابنيكوف. في أكتوبر 1914، وصل الزعيم الاشتراكي الديمقراطي الهولندي ترويلسترا، الذي كان مؤيداً لألمانيا، إلى ستوكهولم في مهمة باسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي، أي باسم هيئة الأركان العامة الألمانية. كان يريد حشد التعاطف مع ألمانيا من جانب الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين السويديين، ودافع عن فكرة نقل المكتب الأممي إلى أمستردام. انتهز الزعيم الهولندي الفرصة لسؤال البلاشفة عن موقفهم من الحرب. وقد أجابه شليابنيكوف في خطاب ألقاه أمام مؤتمر الاشتراكيين الديمقراطيين السويديين. حيث أنه بعد إدانته للحلفاء وفضح أهداف روسيا الرجعية من وراء الحرب، التفت إلى ترويلسترا قائلاً: «إن تفاجئ الاشتراكيين الألمان من أننا لا نشعر بالبهجة إزاء تحالفهم المعلن مؤخراً مع حكومتهم من أجل خوض "حرب مقدسة على النظام القيصري الروسي"، ليس سوى ستار منافق لإخفاء خيانتهم للأمية والاشتراكية عن أعين الجماهير. لقد كنا دائماً سعداء بقبول يد العون من جانب رفاقنا في الكدح والأفكار في كفاحنا الشاق ضد النظام القيصري، لكننا لم نطلب أبداً ولم نتظر أبداً مساعدة الثورة الروسية من جانب الإقطاعيين الألمان، أو من جانب مستشار وصديق القيصر الروسي الرجعي ويلهلم الثاني. نحن لا نتخلى عن كفاحنا ضد النظام القيصري الروسي، لكننا لا نعتمد في هذا الكفاح إلا على قواتنا الخاصة.

إننا نطلب من الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان ألا يرسلوا ويلهلم الثاني بمدافعه لمساعدتنا، بل أن يحاولوا استخدام تلك المعدات الحربية ضد أمراءهم الإقطاعيين، تماماً كما نأمل أن نستخدمها نحن ضد النظام القيصري الروسي. الفنلنديون، إخواننا في الكدح، رفضوا بدورهم جميع مناورات الرأسمالية الألمانية واتخذوا نفس الموقف. إن البروليتاريا الثورية في روسيا، إلى جانب جميع القوميات المضطهدة، تأمل في تحقيق الانتصار دون عقد صفقات مع أي حكومة على الإطلاق»!

أثار الهجوم على الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، الذي شنه شليابنيكوف (الذي ظهر في المحاضر باسم أ. بيلينين لأسباب أمنية)، سخط القيادي السويدي برانتنغ، وأثار صراعاً بين الجناحين اليميني واليساري للحزب: «أخذ برانتنغ الكلمة حول مسألة ما إذا كان من الضروري اتخاذ قرار. كان قد توصل للتو بنص تهنئة من أحد الأحزاب الروسية، تتحدث عن خيانة الحزب الألماني. وأشار المتحدث إلى أنه ليس من المناسب أن يقوم المؤتمر بتوجيه الإدانة إلى الأحزاب الأخرى، وقال إنه يرى أنه من الضروري إصدار توصية اعتذار بشكل رسمي بسبب الفقرة المدرجة في التهئة.

يعتبر هوغلاند (ستوكهولم) أنه من غير المناسب أن يتخذ المؤتمر مثل هذا القرار لأنه يوجد داخل حزبنا أيضاً رفاق يعتبرون سلوك الألمان خيانة. أقتراح على المؤتمر ألا يصدر حكماً، وأن يكتفي بإدراج بيان برانتنغ في المحاضر. وقال فينبرغ (ستوكهولم) إنه علينا فقط أن نذكر أن الحكم المعبر عنه يظل مسؤولية الروس وحدهم. وقد كرر برانتنغ مطلبه وأكد أنه في حالة رفضه سينشأ سوء فهم بأن المندوبين إلى المؤتمر يتعاطفون مع الحكم السالف الذكر».

وفي النهاية أسقط المؤتمر اقتراح فينبرغ وصادق على توصية برانتنغ، لكن بفارق ضئيل، 54 صوتاً مقابل 50. لقد تكرر مثل هذا الوضع في جميع أحزاب الأممية الثانية، مما مهد الطريق لحدوث انشقاقات هائلة وتشكيل أممية جديدة، لكن بعد خمس سنوات، وبعد المرور من أشد المحن فظاعة.

وعلى عكس المزاعم التي تتحدث عن تمتع البلاشفة بمبالغ غير محدودة على شكل "ذهب ألماني"، فإنهم كانوا في الواقع يعانون من صعوبات مالية مستمرة. ويعد نقص الأموال موضوعاً ثابتاً في مذكرات شليابنيكوف: «لقد شرعت في تعزيز فريق العمل البلشفي في ستوكهولم وتدريب العديد من البروليتاريين على العمل السري لتهديب الجرائد، وما إلى ذلك. لم يبد البيترسبورغيون أي مبادرة لتنظيم الاتصالات. وقد واجهت محاولاتي في هذا الاتجاه عقبات بسبب نقص الأموال. كان من الممكن تنظيم التهريب، لكن مقابل مبالغ كبيرة، إلا أنه لم يكن لدي أي مال ولا أمل في الحصول على أي أموال. كان علينا الارتجال. كان هذا غير مرض على

الإطلاق، خاصة أنه كان بإمكانه، لو توفرت له حوالي 500 روبل شهريا، إغراق منظماتنا في روسيا بالأدبيات ولحافظت على اتصال شهري منتظم مع كل ركن من أركان البلاد. لكن لم يكن من الممكن الحصول على هذا المبلغ البسيط، هكذا كانت الأوضاع».

لو أن البلاشفة كانوا على استعداد لقبول أموال من الألمان، لما كانوا في مثل تلك الظروف المالية البائسة خلال الحرب. لكنهم لو قبلوا مثل تلك المساعدات من ذلك المصدر لكانوا قد حكموا على أنفسهم بالانحطاط. ويتذكر شليابينيكوف الصعوبات التي واجهوها قائلا: «لم تكن هناك أية روابط دائمة ثابتة مع روسيا. كان علينا استخدام المساعي الحميدة للمهاجرين المغتربين، وكذلك الرفاق الفنلنديين، لنقل المال. وكانت العديد من الشركات التجارية والصناعية تقوم بتهريب البضائع والبشر. كان على رأس بعض تلك المؤسسات مهندسون روس اشتراكيون ديمقراطيون سابقون، لكن هؤلاء السادة كانوا يخشون من فقدان مناصبهم المريحة ولا يرغبون في تقديم أي مساعدة للعمل الثوري في روسيا»<sup>1</sup>.

### كيف تمكن الحزب من الاستمرار؟

نشطت خلال السنوات الأخيرة محاولات عديدة للتقليل من أهمية الدور الذي لعبه البلاشفة في الحركة العمالية في روسيا. ومن بين الدراسات الأكثر جدية في هذا المجال هناك كتاب روبرت ماكين، الموثق بشكل جيد، والذي يقول إن هدفه تصحيح الصورة الوردية والمبتذلة التي قدمها المؤرخون الستالينيون عن تاريخ البلشفية والتي تصوره كمسيرة مظفرة من الانتصارات المتواصلة، وكأن الحزب لم يرتكب أي أخطاء، وكان دائما في صعود، ودائما في قيادة كل إضراب وكل مظاهرة، وما إلى ذلك. لا يمكن لهذه القصص الخيالية أن تعلم المرء أي شيء عن الطريقة التي تم بها في الواقع بناء الحزب البلشفي. وهكذا فإن الطريق تصير مغلقة، ليس فقط إلى الماضي، بل وإلى المستقبل أيضا. من الضروري فهم حقيقة الماضي من أجل التعلم منه. وفي حين أن محاولة ماكين ربما تكون مبالغا فيها، فإنه لا يوجد سبب للشك في أن الحزب قد كان في حالة سيئة للغاية في بداية الحرب، وذلك طبيعي، فالظروف الموضوعية كانت صعبة للغاية في ذلك الوقت. يقول ماكين:

«تذكر إحدى المذكرات أن العمال في مصانع الصلب في بتروغراد تعاملوا خلال السنة الأولى للحرب بلامبالاة تجاه موقف البلاشفة المناهض للحرب. وفي بعض مؤسسات الدفاع الأساسية الأخرى، مثل إريكسون وبوتيلوف، قدم العمال بشكل طوعي ما يعادل خمس أجرهم الأسبوعي من أجل دعم العائلات التي تم استدعاء معيها للخدمة العسكرية. بقيت الإضرابات من الأحداث النادرة للغاية حتى صيف 1915. وقد اعترف القادة البلاشفة في نقاشاتهم الداخلية بوجود هذا العائق. وفي ربيع 1915، على سبيل المثال، أقرروا "بعدم قدرتهم على جذب الجماهير إلى المعسكر الاشتراكي من خلال المظاهرات ضد الحرب"».

يستشهد ماكين بعامل من منطقة فيبورغ الحمراء في بتروغراد، والذي قال إن: «المزاج في المصانع... خلال السنة الأولى للحرب، لم يكن ثوريا جدا». ويخلص إلى أنه: «لم يتجاوز عدد أعضاء الحزب [في بتروغراد] 500 على الأكثر. وبفعل الغياب شبه الكامل لأي تنظيم على صعيد المدن أو حتى المقاطعات، فإنه لم يكن من الممكن القيام بأي نشاط مخطط منسجم أو صياغة استراتيجية متفق عليها. لم يكن من الممكن القيام بالعمل التحريضي إلا على نطاق ضيق جدا. من المرجح أنه بسبب كل هذه الظروف الصعبة كان توزيع نسخ سوتسيال ديموكرات، إضافة إلى المنشورات المناهضة للحرب، التي بلغ عددها 25 منشورا، محصورا للغاية، حتى صيف عام 1915».

وفي رده على المؤرخين السوفييتيين الذين ادعوا أن النواب البلاشفة الخمسة، إلى جانب كامينيف، قد أعادوا، في بداية الحرب، بناء المكتب الروسي للجنة المركزية، يقول ماكين إنه: لم يجد أي تأكيد على هذا الادعاء في ملفات الأورخانا ذات الصلة بالموضوع. لا يوجد سبب للشك في ما يقوله ماكين لأن اعتقال كامينيف، إلى جانب نواب الدوما، والاضطراب العام الذي أصاب لجان الحزب، كان من شأنه أن يوقف أنشطة الحزب، إن كان له أي نشاط أصلا. إن غياب القيادة، سواء من الهيئات القيادية في روسيا أو من الخارج، كان يعني أن كل شيء صار يعتمد على مبادرة العمال البلاشفة في المصانع. إن صعوبة الحصول على معلومات دقيقة حول عمل هؤلاء الأبطال والبطلات، الذين لم يكشف التاريخ عن هويتهم، أمر بديهي خاصة في ظروف السرية الصارمة التي كانوا يشتغلون في ظلها. لكن هذا النقص في المعلومات لا يعني أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا موجودين. وهي النقطة التي يؤكد عليها ماكين قائلا: «في ظل غياب قيادة فعالة من الخارج، أو من لجنة بيترسبورغ، صار وضع الاستراتيجية والتكتيكات الثورية، طوال السنة الأولى من الحرب، يعتمد على تقدير المناضلين الاشتراكيين القاعديين».

1: Ibid., pp: 44, 51 and 47.

في سياق الاستعداد لتخليد ذكرى يوم الأحد الدامي، في 09 يناير 1915، نجحت لجنة بيترسبورغ في إصدار منشور يدعو إلى الإضراب في تلك المناسبة. يقوم ماكين بمقارنة الاستجابة الضعيفة لتلك الدعوة بالاستجابة التي لاقتها دعوة الإضراب بعد إطلاق النار على عمال لينا في عام 1912. لكن محطة 1912 كانت بداية نهوض في الصراع الطبقي، عندما كان العمال قد بدأوا يتعافون من آثار هزيمة ثورة 1905. أما في سياق الحرب وتصادم النزعة الوطنية، يصير مجرد إنتاج منشور إنجازا في حد ذاته. لقد استجاب 2.000 عامل لنداء الإضراب، وهو عدد ضئيل مقارنة بأرقام ما قبل الحرب، لكنه شكل خطوة مهمة في تلك الظرفية. يظهر ذلك أن الجماهير كانت ما تزال مستسلمة وأن عريضة الردة الرجعية ما تزال متأججة. يقول ماكين: «وضعت غارات الشرطة وحملة الاعتقالات الواسعة، خلال نهاية شهر أبريل، حدا لما كان الشوار يخططون للقيام به للاحتفال بفاتح ماي. ذكرت تقارير الشرطة في ذلك الوقت أن «عمل اللينينيين المحليين في الوقت الحاضر تفكك بالكامل». وعلى الرغم من أن من تبقوا من أعضاء لجنة بيترسبورغ قد نجحوا في إصدار منشور عشية «عطلة» العمال، فإن معظم النسخ لم توزع. ولم يضرب في ذلك اليوم سوى 600 عامل»<sup>1</sup>.

ومع ذلك فإن عملاء الأورخانا قد احتفلوا قبل الأوان. فالتيار اللينيني لم يكن قد سحق بأي حال من الأحوال. لقد كان إنشاء منظمة مركزية قوية ومنضبطة مؤلفة من كوادر ثورية هو ما سمح للبلاشفة بالبقاء على قيد الحياة رغم كل الصعاب. كانوا وحدهم من تمكنوا من مواصلة العمل الثوري في ظل ظروف العمل السري القاسية، بينما أدت الحرب إلى تحطيم المناشفة بالكامل. وبحلول يناير 1916، وجد مارتوف نفسه مجبرا على أن يكتب بنبرة حزينة أن: «الأمر في روسيا تسير بشكل سيء بالنسبة لنا... يخشى فد (دان) أن كل القوى الشيطة تنتقل إلى صفوف اللينينيين»<sup>2</sup>. لم يكن هذا مصادفة، فالضعف التنظيمي والسياسي للمناشفة (واللذان يعتبران وجهان للعملة نفسها) جعلهم غير مهئين للتعامل مع الظروف الشاقة للعمل السري في زمن الحرب. وعلى أي حال فقد كانوا قد تبنوا مبدأ تصفية المنظمة السرية لصالح الأنشطة القانونية البحتة. كيف يمكن تبرير مثل هذا الموقف؟

في الواقع، كانت المنظمة المنشفية بالكاد موجودة في روسيا في ذلك الوقت. هذا ما يعترف به حتى الكتاب غير الماركسيين، مثل روبرت ماكين، الذي يقول: «لم تقدم اللجنة التنظيمية ومجموعة المبادرة المركزية أي دليل على وجودها في تلك الفترة». ويضيف: «لقد أدت ندرة المنظمات المنشفية وكذا تدمير المثقفين «التصفيين» من الإضرابات كشكل من أشكال الاحتجاج، إلى عدم اكترائهم الكامل بإمكانية الاستفادة من المناسبات السياسية»<sup>3</sup>.

عدم امتلاك البلاشفة لجهاز منظم آنذاك لم يكن يعني موتهم. إذ كيف كان من الممكن للحزب البلشفي أن يتعافى بسرعة بعد فبراير، لو أنه كان قد تعرض للتصفية بالكامل خلال الحرب؟ كيف نجح في حسم السلطة خلال تسعة أشهر فقط؟ لن يكون المرء قادرا على الإجابة على هذا اللغز، إذا قبل بفكرة ماكين كحقيقة مطلقة. لكنه يوجد في الواقع جواب بسيط للغاية: ففي الفترة التي سبقت الحرب، كان أربعة أخماس العمال المنظمين يدعمون البلاشفة. لم يكن الكثير منهم ناشطين في لجان الحزب، لكنهم كانوا قراء للبرافدا ويتعاونون مع البلاشفة بطريقة أو بأخرى. كما أنه كان هناك مئات الآلاف من الأشخاص الآخرين الذين يتأثرون بشعارات البلاشفة. لقد استمرت فكرة الحزب حية في أذهانهم على الرغم من أن رؤوسهم كانت مطأطة. كان هؤلاء هم الرصيد الحقيقي للحزب، الذي عاود الظهور مع تغير الظروف ولعب دورا رئيسيا في أحداث فبراير 1917. وفي نفس الرسالة إلى شليابنيكوف، التي أكد فيها على الموقف الصعب الذي وجد الحزب نفسه فيه بعد اعتقال نواب مجلس الدوما، يشير لينين إلى أن القوة الحقيقية للبلشفية هي تلك الفئة من العمال الثوريين الذين تلقوا تكوينهم على يد الحزب في الفترة ما بين 1912 و1914، إذ يقول: «لقد أصبح عمل حزبنا أصعب 100 مرة على جميع الأصعدة. لكن علينا رغم ذلك أن نواصله! لقد دربت برافدا آلاف العمال الواعيين طبقيًا، والذين من بينهم سيتم، على الرغم من كل الصعوبات، تشكيل مجموعة جديدة من القادة، وبناء اللجنة المركزية للحزب في روسيا»<sup>4</sup>.

لقد أثبتت الأحداث اللاحقة أن لينين كان محقا، على الرغم من محاولات روبرت ماكين إظهار العكس. وفي غشت 1915، عندما بدأ المد في التصاعد داخل روسيا، كتب لينين إلى شليابنيكوف، مطالبا بإعادة بناء المنظمة، حيث قال: «سيكون من المهم للغاية بالنسبة للمجموعات القيادية أن تتجمع في مركزين أو ثلاثة (في السرية بشكل أساسي)، وإقامة الاتصال معنا، وإعادة بناء مكتب اللجنة المركزية (يوجد واحد بالفعل في بيترسبورغ، على ما أعتقد) وبناء اللجنة المركزية نفسها في روسيا. عليهم أن يقيموا علاقات

1: McKean, St. Petersburg Between the Revolutions. pp: 368, 369, 367 and 370.

2: Pis'ima P.B. Aksel'rod Yu. O. Martova 1901-1916, p: 355.

3: R.B. McKean, St. Petersburg Between the Revolutions, p: 371.

4: LCW, To A.G. Shlyapnikov, 28/11/1914, vol. 35, p: 175. (التشديد من آلان وودز)

قوية معنا (وإذا لزم الأمر يجب إحضار شخص أو شخصين منهم إلى السويد لهذا الغرض). سوف نرسل لهم نشرات إخبارية ومنشورات، إلخ. إن الشيء الأكثر أهمية هو العلاقات القوية والمستمرة»<sup>1</sup>.

كان الحزب ما يزال يواجه صراعا شاقا. فمنظمات الحزب داخل روسيا كانت مفككة بشكل كبير وكانت الاتصالات مع الخارج صعبة للغاية. لكن الشيء الأكثر أهمية، كما أشار لينين في هذه الرسالة، هو أن الحزب قد نجح، على الرغم من كل شيء: «من الواضح أن القطاعات المتقدمة من العمال البرافديين، الذين يشكلون حصن حزبنا، قد نجت، على الرغم من الدمار الهائل الذي لحق بصوفها».

تذهب تعليقات لينين مباشرة إلى صميم الموضوع. فبغض النظر عن المتابعات وبغض النظر عن عدد الاعتقالات، وبغض النظر عن عدد المخبرين الذين نجحوا في التسلل إلى الحزب، فإنه كان من المستحيل القضاء على البلشفية. إذ طالما بقيت هناك نواة صلبة من الكوادر المدربة والمتعلمة على أساس أفكار الحزب وتقاليد وأساليب عمله، فإن البلشفية ستستمر لا تقهر. كتب تروتسكي:

«لقد تسببت الحرب في خراب مروع للحركة السرية. فبعد اعتقال فريق الدوما، لم تعد لدى البلاشفة أي منظمة حزبية مركزية على الإطلاق. كان للجان المحلية وجود عرضي، وغالبا ما كانت مفصولة عن المقاطعات العمالية. كانت المجموعات والحلقات المنعزلة والأفراد بالكاد يفعلون أي شيء. لكن عودة النشاط إلى حركة الإضرابات أعادت لهم بعض الروح وبعض القوة في المصانع. لقد بدأوا تدريجيا في العثور على بعضهم البعض وبناء علاقات على الصعيد المحلي. عاد العمل السري إلى الحياة مجددا. ونجد في تقارير الشرطة لاحقا أنه: "منذ بداية الحرب، كان اللينينيون، الذين تدعمهم في روسيا أغلبية ساحقة من المنظمات الاشتراكية الديمقراطية السرية، يصرون في مراكزهم الكبرى (مثل بتروغراد وموسكو وباركوف وكيف وتولا وكوستروما ومقاطعة فلاديمير وسمارة) أعداد كبيرة من النداءات الثورية التي تدعو إلى وقف الحرب والإطاحة بالحكومة الحالية وتأسيس جمهورية. ولهذا العمل نتائج واضحة في إضرابات العمال وتحركاتهم»<sup>2</sup>.

### كارثة في الجبهة

ظهر الجيش الروسي، في بداية الحرب، كآلة عسكرية هائلة: كتلة لا حصر لها من المقاتلين المستعدين لتقديم حياتهم من أجل القيصر. لقد أعجب الضباط الألمان، ثم شعروا بالذهول، لمشاهدتهم تلك الأعداد الهائلة من المعاطف الرمادية التي تتقدم بلا هوادة في الميادين المفتوحة، فقط لتحصدها الرشاشات الألمانية. كان ذلك هو الجيش الروسي القديم الشهير الذي وصفه تولستوي في روايته "الحرب والسلام"، الذي يتألف من فلاحين جهلة مستعدين لتنفيذ أوامر رؤسائهم بطاعة عمياء، والخضوع بصبر وتسليم مطلق لأقصى التكاليف. إن الأسطورة التي ما تزال، على الرغم من طابعها غير العلمي والعنصري، تقال حتى اليوم عن الشعب الروسي، كـ "تفسير" مفترض للوضع الحالي، قد تعرضت للتفنيد بشكل كامل على محك التجربة التاريخية الواقعية في 1914-1917. لم يستفد الجيش الروسي من العدد الهائل للقوات الموجودة تحت تصرفه. لقد كان يعاني من سوء التجهيز في كل شيء. وحتى الأدوات الأساسية مثل الأحذية والبنادق كانت قليلة، ناهيك عن الدبابات والطائرات والقذائف والرشاشات. ففي عام 1914 لم يكن هناك سوى 679 سيارة (وسيارتي إسعاف آليتين) للجيش بأكمله.

كان من المتوقع للجيش الروسي أن يلعب خلال الحرب دور لحم للمدافع لصالح الحلفاء. وهكذا فقد كانت الخطة الأصلية لهيئة الأركان الروسية هي شن هجوم على الجبهة الجنوبية الغربية ضد القوات النمساوية الأضعف، مع الدفاع عن الجبهة الشمالية الغربية ضد ألمانيا الأكثر قوة. لكن وتحت ضغط فرنسا، تم تغيير هذه الخطة إلى القيام بهجوم شامل على كلتا الجبهتين لإجبار الألمان على نقل قواتهم من الغرب، وبالتالي تخفيف الضغط على الفرنسيين. إن الهجوم، الذي ظهر وكأنه بدأ بشكل جيد، انتهى بكارثة تانينبرغ الدامية، حيث تعرض جيش سامسونوف، في نهاية غشت، للحصار والتدمير خلال أربعة أيام في واحدة من أكثر المجازر فظاعة. قُتل أو جُرح 70.000 جندي روسي وأسر 100.000 آخرين. بينما بلغت خسائر الألمان 15.000 جندي. وفي رده على التعازي التي قدمها له مسؤول فرنسي، أجاب القائد الأعلى للقوات الروسية، الدوق الأكبر نيكولاي، بلا مبالاة: "Nous sommes heureux de faire de tels sacrifices pour nos alliés" ("نحن سعداء بتقديم هذه التضحيات لأجل حلفائنا"). وبحلول نهاية 1914، كانت الخسائر الروسية قد بلغت حوالي 1,8 مليون قتيل.

1: LCW, To A.G. Shlyapnikov, 23/8/1915, vol. 35, p: 205.

2: L. Trotsky, The History of the Russian Revolution, p: 62.

كان لكل هذا تأثير تدريجي على سيكولوجية الجنود ومعنوياتهم، بنفس الشكل الذي تحطم به قطرات الماء أكثر الصخور صلابة. ومثلما كانت الطبقة العاملة الروسية بشكل عام متخلصة من النزعة الوطنية، فإن جماهير الفلاحين بالزي العسكري كانوا غير متحمسين لحرب لم يفهموها ولم يتمكنوا من التماهي معها. وسرعان ما وصلت طاعة الموجيك الروسي إلى حدودها القصوى بسبب أشهر وسنوات من المشقة والمعاناة والموت. يؤكد أورلاندو فيجيس أن: "الجنود الروس كانوا في أغلبهم متخلصين من النزعة الوطنية". ولتأكيد هذه النقطة يقتبس العديد من الأمثلة المفيدة:

«خلال الأسابيع الأولى من الحرب، سمع عامل مزرعة من سمولينسك، خدم في الحاميات الخلفية، جنودا فلاحين يقولون:  
"أي شيطان جلب علينا هذه الحرب؟ نحن نتدخل في شؤون الآخرين".»

"كنا نقول فيما بيننا إنه إذا كان الألمان يريدون الدفع، فسيكون من الأفضل لو يؤدوا عشرة روبلات للرأس بدلا من قتل الناس".

"أليس القياصرة متشابهون؟ لا يمكن أن يكون الأمر أسوأ في ظل [القيصر] الألماني".

"فليذهبوا ويقاتلوا بأنفسهم. سيأتي الوقت الذي سنقوم فيه بتصفية الحسابات معكم".

ومع استمرار الحرب أصبحت هذه المواقف أكثر شيوعا في صفوف القوات، كما اشتكى من ذلك بروسيلوف: "ليست للقيادة في روسيا أدنى فكرة عن كيف يرى الجنود الحرب. كثيرا ما أسأل رجالي في الخنادق لماذا نحن في حالة حرب؛ فيكون الجواب دائما هو أن أحد الأرشيدوقات وزوجته تعرضوا للقتل، وعندها قرر النمساويون إذلال الصرب. عمليا لم يكن أحد يعرف من هم هؤلاء الصربيون؛ وقد كانوا متشككين بنفس القدر فيما يتعلق بمن هم السلافيون. لماذا تريد ألمانيا شن الحرب علينا بسبب هؤلاء الصرب، لا يمكن لأحد أن يجيب... لم يسمعوا أبدا بطموحات ألمانيا؛ بل لم يكونوا يعرفون حتى بوجود مثل هذا البلد".

إن الجيش يعكس دائما المجتمع الذي يتشكل منه. إن الانقسامات الطبقيّة داخل الجيش القيصري، والنظام العسكري القاسي، والفساد وعدم الكفاءة، واللامبالاة القاسية للضباط تجاه معاناة وقتلى جنودهم، صارت واضحة حتى للجندي الفلاح الجاهل سياسيا. بل حتى قادة الحلفاء أنفسهم صدموا بحجم الفساد المستشري في هيئة الأركان العامة الروسية، التي كانت مجرد صورة طبق الأصل لفساد نظام القيصر وراسبوتين. إن القائد الأعلى نفسه، الدوق الأكبر نيكولاي، لم يشارك أبدا في أي قتال ولم يكن أكثر من صورة، كما يكتب فيجيس: «لم يكن لرئيس أركانه، الجنرال يانوشكوفيتش، أي ميزة سوى أن القيصر منّ عليه بالمنصب بعد أن اكتشفه عندما كان حارسا شابا في القصر. لم يسبق له أن قاد ولو حتى كتيبة. وقد قال عنه الملحق العسكري البريطاني في ستافكا، العقيد نوكس، إنه كان يعطي "الانطباع بأنه خادم بلاط أكثر من كونه جنديا"». كان العفن منتشرا من أعلى إلى أسفل. «لقد ارتكب الجنرالات الأرسقراطيون أخطاء لا حصر لها (حتى أن أحدهم كان يمتاز بإصدار أوامر لمدفعيته بإطلاق النار على خنادق مشاته)».

وينعكس المزاج الثوري بين الجنود في تصريحاتهم، حيث كتب أحد الجنود الفلاحين لصحيفة محلية في الوطن: «انظر إلى الطريقة التي يعيش بها ضباطنا الكبار، أصحاب الأراضي الذين طالما خدمناهم. إنهم يحصلون على طعام جيد وتحصل عائلاتهم على كل ما تحتاج إليه، وعلى الرغم من أنهم قد يعيشون في الجبهة، فإنهم لا يعيشون في الخنادق حيث نعيش نحن، بل على بعد أربعة أو خمسة فيرستات»<sup>1</sup>.

سوف تُظهر أي دراسة عن تمرد الجيش أن قادة التمرد هم في الغالب ضباط الصف. لأنه عادة ما يتم اختيار هؤلاء "القادة الطبيعيين للرجال" من بين أكثر فئات الجنود حيوية وذكاء. وبسبب مسؤوليتهم عن معظم العمليات اليومية التي يقوم بها الجيش، تجدهم في كثير من الأحيان يعادون ويزدرون أصحاب الرتب العليا. كان ستون في المائة من ضباط الصف في الجيش القيصري من أصول فلاحية، معظمهم في أوائل العشرينات من العمر ولم يتلقوا سوى القليل من التعليم. لكن، كما يشير فيجيس: «كانت الحرب... أداة عظيمة للدمقرطة، إذ فتحت قنوات الترقى للملايين من أبناء الفلاحين. كانوا متعاطفين بقوة مع الجنود العاديين، ولم يكن هناك أي أمل في أن يشكلوا جسرا بين الضباط النبلاء وبين الجنود العاديين. كان هذا القطاع العسكري الراديكالي -المتعلم والنشط والمربك اجتماعيا والذي صلبته الحرب- هو الذي سيقود تمرد فبراير، ولجان الجنود الثوريين، ويدعم أخيرا قيام السلطة السوفياتية عام 1917. كان العديد من أفضل قادة الجيش الأحمر (على سبيل المثال: تشاباييف وجوكوف وروكوسوفسكي)

1: الفيرست وحدة قياس مسافات روسية قديمة تبلغ حوالي 1.000 متر -المترجم-

ضباط صف في الجيش القيصري، مثلما كان جنرالات جيش نابليون قد بدأوا حياتهم جنوداً في جيش الملك».

كتب أحد ضباط الجيش القيصري، الفلاح ديمتري أوسكين، الذي أصبح فيما بعد عضواً في الحزب الاشتراكي الثوري، في مذكراته في أبريل 1915: «ماذا فعلت في هذه الحرب؟ لقد مر عدة مئات من الرجال من خلال فصيلتي وحدها وانتهى نصفهم على الأقل إما قتلى أو جرحى في ميادين المعركة. ما الذي سيحصلون عليه في نهاية الحرب؟... لقد منعنتني سنة ونصف من الخدمة العسكرية، مع ما يقرب من عام في الجبهة، من التفكير في هذا الأمر، لأن مهمة قائد الفصيلة تتطلب انضباطاً صارماً، وهذا يعني، قبل كل شيء، عدم السماح للجندي بالتفكير بحرية. لكن هذه هي الأشياء التي يجب أن نفكر فيها»<sup>1</sup>.

هذه هي العناصر التي يتم بها صنع الثورات.

من ماي إلى شتبر 1915، وجه الألمان سلسلة من الضربات الساحقة ضد القوات القيصرية. لقد تم طرد الروس لمسافة 300 ميل، وتخلوا عن مساحة من الأرض أكبر من مساحة فرنسا. كان ثلاثة أرباع مليون جندي روسي في معسكرات أسرى الحرب، وأصبح عشرة ملايين شخص لاجئين. وبلغت خسائر الجيش من القتلى والجرحى والمفقودين ما بين 7,2 و 8,5 مليون شخص، أي ما بين 45% و 53% من مجموع القوى التي تمت تعبئتها. كما استسلم مليون شخص للقوات الألمانية والنمساوية خلال مرحلة التراجع الكبير. «لم يعد الجيش يتراجع بل كان يهرب بكل بساطة»، هذا ما قاله بوليفانوف، وزير الحرب. «ثقة الجيش في قوته تحطمت بالكامل... لقد فقد قيادته بالكامل. وتسببت الأوامر المتناقضة، التي كانت تتردد هنا وهناك، والتغييرات المتوالية لضباط القيادة، والارتباك العام، في تحطيم أعصاب حتى أكثر الرجال شجاعة... لم يعد ارتباك قيادة الأركان سرا وهو ما زاد في إحباط الجيش».

وفي نهاية شهر يوليو، أبلغ وزير الزراعة، كريفوشين، مجلس الوزراء أن: «الناس الجياع والمعدمين ينشرون الذعر في كل مكان، ويطفئون كل آثار الحماس الذي كان خلال الأشهر الأولى من الحرب. يتحرك [اللاجئون] في كتلة صلبة، وهم يسحقون الحقول، ويدمرون المروج والغابات... خطوط السكك الحديدية مزدحمة؛ وحتى تحركات القطارات العسكرية وشحنات المواد الغذائية سوف تصبح مستحيلة قريباً. لا أدري ما الذي يجري في المناطق التي تقع في أيدي العدو، لكنني أعرف أنه ليس فقط خطوط جيشنا القريبة، بل حتى تلك البعيدة أيضاً، مدمرة... إنه من صميم اختصاصي، كعضو في مجلس الوزراء، أن أعلن أن ثاني أكبر هجرة للشعوب، والتي تسببت فيها هيئة الأركان العامة، ستدفع روسيا إلى الهاوية، وإلى الثورة والدمار»<sup>2</sup>.

## البلاشفة في القوات المسلحة

كانت إمكانيات القيام بعمل ثوري داخل صفوف القوات المسلحة محدودة أكثر من أي مكان آخر بطبيعة الحال، وذلك على الرغم من أن الوضع بدأ يتغير بعد 1915. لم تكن سياسة الحزب تقوم أبداً على رفض الانضمام إلى الجيش أو القتال، بل كان الموقف هو الذهاب مع بقية أبناء طبقة العمال والفلاحين والقيام بالعمل الثوري بينهم في الثكنات والخنادق. إلا أن التكوين الطبقي للجيش الروسي، الذي كان يتشكل في أغلبيته الساحقة من أبناء الفلاحين، خلق في البداية ظروفاً غير مواتية للنشاط الثوري. قام البلاشفة بعملهم داخل القوات المسلحة، خاصة بين البحارة، حيث أن سلاح البحرية كان مشكلاً من أبناء الطبقة العاملة. وكانت المراحل الأخيرة من الحرب قد شهدت تصاعد نوع من التجذر والغليان في الأسطول الحربي. تسبب سوء التغذية والظروف السيئة والعمل القاسي في اندلاع تمرد بين البحارة في أكتوبر 1915 تم إخماده بوحشية. تشبه السفن الحربية مصانع عائمة وكانت طواقمها تضم عدداً لا بأس به من العمال المهرة -المهندسين والوقادة<sup>3</sup> والكهربائيين وما إلى ذلك- الذين تم استقطابهم من المصانع نفسها. كان العديد من هؤلاء البحارة قد شاركوا في الحركات الثورية قبل الحرب وكانوا من البلاشفة، أو على الأقل كانوا قد تأثروا بالدعاية البلشفية. ففي أسطول بحر البلطيق، كانت لكل سفينة كبيرة مجموعتها من الاشتراكيين الديمقراطيين. لم يكن من قبيل المصادفة أن البحارة لعبوا دوراً رئيسياً في ثورة عام 1917، أو في أن الغالبية العظمى منهم دعموا البلاشفة.

من بين الناشطين في أسطول البلطيق كان هناك ف. ف. إ. إيان -المعروف في التاريخ باسم راسكولنيكوف- والذي لعب دوراً مهماً في الثورة. سيرة حياته السياسية نموذجية إلى حد كبير، فقد ولد لعائلة فقيرة، اكتشف أفكار ماركس وإنجلز في سن المراهقة، وانضم إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي في عام 1910 أثناء دراسته في معهد سان بيترسبورغ للعلوم التطبيقية، حيث كان

1: O. Figs, *A People's Tragedy: The Russian Revolution 1891-1924*. pp: 257, 258, 259, 260, 264 and 265.

2: L. Kochan, *Russia in Revolution*, pp: 181-182.

3: الوقاد هو الشخص المكلف بالفرن على متن الباخرة البخارية -المتجم-.

فياتشيسلاف مولوتوف أحد رفاقه في المنظمة الطلابية البلشفية. عندما صدرت برافدا في عام 1912، كان راسكولنيكوف أحد أعضاء هيئة التحرير، حيث عمل سكرتيراً لها. بعد ذلك أُلقي عليه القبض وحُكم بالنفي لثلاث سنوات في ولاية أرخانجيلسك الشمالية. وبفضل طلب الاستعفاف الذي قدمته والدته الأرملة، تم تخفيض الحكم عليه إلى النفي من روسيا. عندها حاول السفر إلى باريس حيث كان يأمل في مواصلة عمله الثوري مع البلاشفة، لكنه اعتقل في ألمانيا بتهمة الجاسوسية وأعيد إلى روسيا. وفي عام 1913 تم العفو عنه وعاد إلى بيتسبورغ حيث واصل العمل في برافدا حتى اندلاع الحرب، فانضم إلى البحرية كتلميذ عسكري. كانت تلك هي الصفة التي وجد راسكولنيكوف نفسه عليها عندما اندلعت ثورة فبراير. وقد كان هناك العديد من أمثاله في الأسطول القيصري.

من المستحيل أن نعرف كم كان بالضبط عدد البلاشفة الذين كانوا ناشطين في صفوف الجيش، وذلك لأسباب واضحة. كان ذلك العمل سريعاً للغاية. يزعم المؤرخون الخروتشوفيون (في كتاب Istoriya) أنه كانت هناك أكثر من 80 خلية حزبية في أسطول البلطيق، و30 أو أكثر على الجبهة الغربية. هذه مبالغه بالتأكيد. لكن وجود بلاشفة ناشطين داخل صفوف الجيش، وخاصة في الأسطول، واقع لا يمكن إنكاره. لا يمكن الاستخفاف بأهمية الدور الذي لعبه هؤلاء المحرضون الجنود البحارة البلاشفة، لكن الأرقام الواردة في Istoriya، والتي وصفت بأنها "تقريبية"، بدون تقديم أي مصدر لها، يجب أن تعامل بحذر. كان الوضع الفعلي أكثر تعقيداً من هذا بلا شك. يوضح ألكساندر شليابينيكوف، الذي لعب دوراً قيادياً في الحزب البلشفي في روسيا خلال الحرب، أنه بينما كان هناك بالفعل العديد من البلاشفة ومنظمات الحزب داخل الأسطول، فإن صلاتهم بقيادة الحزب كانت، في أحسن الأحوال، ضعيفة. في ظل ظروف الحرب القاسية عملت لجان البحارة الحزبية كهيئات مستقلة، على الرغم من أن أنشطتها أثارت قلق السلطات التي بذلت أقصى الجهود للقضاء عليها من خلال الاعتقالات والقمع.

إن القوة المتزايدة للتيار الثوري بين البحارة، وخاصة في أسطول بحر البلطيق، ظهرت بشكل غير مباشر من خلال موجة اعتقالات البحارة التي وقعت في بيتسبورغ وكرونشتاد وهلسنكي، بالتزامن مع موجة الإضرابات التي شهدتها بيتسبورغ أوائل عام 1916. عُقدت محاكمة كبرى لـ "المنظمة العسكرية للجنة بيتسبورغ للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي". ويصف ملف الاتهام الضخم الذي أعدته الأورخانا، الذي يضم 50 صفحة، أعمال الاشتراكيين الديمقراطيين في البحرية بتفصيل كبير. تقول تقارير الشرطة السرية، التي كان عملاؤها يراقبون عن كثب جميع الأنشطة الثورية داخل القوات المسلحة، ما يلي: «منذ خريف عام 1915، بدأت تقارير تصل إلى مقر الدرك بكرونشتاد بأن هناك زيادة ملحوظة في نشاط المنظمات الثورية، ذات الميول الاشتراكية الديمقراطية، بين أطقم سفن أسطول البلطيق. يسعى هؤلاء إلى وضع أكبر عدد ممكن من مؤيديهم داخل الأسطول لكي يقوموا بتدريب أطقم السفن على القيام بمجموعة من التحركات حول عدد من المطالب عندما تنتهي الحرب. إن النشاط المذكور أعلاه، ورغم أنه لم ينجح في تنظيم دعاية منهجية، قد كان له، كما أثبتت الأحداث، تأثير قوي على مزاج الطاقم المتحمس، وهذا ما أسفر في النهاية عن اندلاع اضطرابات كبيرة على سفينة هانغوت الحربية، في 19 أكتوبر 1915، والتي مثل المشاركون فيها أمام محكمة البحرية العسكرية، في 17 دجنبر من نفس العام، وحكم على 26 بحاراً منهم بالعقوبات الملائمة. كما اندلعت اضطرابات مماثلة على متن الطراد ريوريك.

وقد أكد المشاركون وجود نشاط الدعاية وكذلك أكدته الاضطرابات التي اندلعت على السفن الأخرى، والتي نشأت عن استياء الطاقم من سوء التغذية ومن حمل الضباط لأسماء ألمانية. كما تلقت إدارة الأمن في بيتسبورغ تقارير مماثلة لهذه، حول ظهور منظمة عسكرية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي بين أطقم سفن الأسطول البلطقي وبين العاملين على الشاطئ.

تقول هذه التقارير إنه قد تم تشكيل حلقات اشتراكية ديمقراطية على متن كل السفن الحربية، وعين أفرادها البارزون في لجنة قيادة عامة. ومن خلال ترتيب هذه الأخيرة للتجمعات على الشاطئ في محلات بيع الشاي والمطاعم، وجهت طاقتها بشكل رئيسي نحو شرح الأحداث الجارية للبحارة بشكل يؤدي إلى خلق مناخ من الاستياء بينهم.»

وبتلك الفكاهة غير الواعية التي تميز تصريحات الشرطة حول المسائل السياسية، يستمر التقرير بلهجته البيروقراطية قائلاً: «يبدو أن هذا النهج قد نجح في كسب بعض التأثير على البحارة، مما خلق بينهم مزاجاً من الاضطراب الشديد بدون سبب معروف». بالحكمة هؤلاء البيروقراطيين! لقد واجه البحارة في أسطول بحر البلطيق ظروفًا شنيعة، وطعاماً سيئاً، وضباطاً مستبدين، وحرباً دموية ورجعية، ومع ذلك لم يكن في مقدور رؤوس البوليس الصلبة أن تفهم السبب وراء "مزاجهم المضطرب" سوى "النشاط الخبيث" للمحرّضين. نفس "السبب الخبيث" يكمن وراء كل إضراب وكل مظهر من مظاهر السخط الاجتماعي، لأنه من المفترض أن يكون العمال سعداء بالعمل لساعات طويلة في ظروف سيئة للحصول على أجور منخفضة، في سبيل الله وفي سبيل النظام الرأسمالي!



وبعد أن يقوم التقرير بهذا الاكتشاف العميق للقانون الذي يفسر كل شيء، من وجهة نظر البوليس، ينتقل إلى مناقضة نفسه قائلاً: «على الرغم من أن الحلقات على السفن قد نشأت بشكل مستقل وبدون تأثير من المجموعة التي تعمل في بيترسبورغ، والتي تسمى نفسها لجنة بيترسبورغ للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي، فإن اللجنة القيادية في المنظمة البحرية قد سعت منذ تأسيسها إلى إيجاد فرص لتوحيد جهودها مع "لجنة بتروغراد"، وهو ما تحقق في الواقع من خلال عمل أحد القادة النشطين في الحركة العمالية، وهو الفلاح إيفان فيدوروفيتش أورلوف، الذي كان ممثلاً لمنطقة فيبورغ في لجنة بتروغراد»<sup>1</sup>.

يصف هذا التقرير بدقة، إلى حد ما، وإن عن غير قصد، العلاقة الحقيقية التي كانت بين الحزب البلشفي وبين الحركة الثورية المتنامية. كان سبب "المزاج المضطرب للغاية" بين البحارة هو الظروف الموضوعية التي لم يخلقها الثوار، بل خلقها النظام القيصري والحرب الإمبريالية، والتي كانت بدورها نتاج التناقضات العميقة للرأسمالية العالمية. وفي مرحلة معينة وجد ذلك الشعور المتزايد من السخط السائد بين الجماهير تعبيرا واعيا عنه بفضل أقلية كانت قد راكمت بعض الخبرة السياسية قبل الحرب، والتي استطاعت أن تحول التطلعات اللاواعية للأغلبية إلى شعارات. وبشكل حتمي يسعى ذلك المزاج إلى التعبير عن نفسه بشكل منظم، وهو ما وجده في النهاية في المنظمات السرية التي أنشأها البحارة الثوريون، الذين حاولوا، بدورهم، إقامة اتصالات مع الحزب، الذي كان هو المرجع الوحيد لديهم. عند هذه النقطة فقط تحصل الأورخانا على المعلومات التي تقنعهم بوجود مؤامرة كبرى وشريفة لبعض المنظمات الثورية التي تتمكن، بطريقة سحرية، من أن تحول بحارة مخلصين يخافون الله إلى أشخاص متمردين "دون سبب معروف".

وجد صعود الحركة العمالية في سان بيترسبورغ صدى له في أسطول بحر البلطيق. بحلول خريف 1915، ظهر أن هناك منظمة اشتراكية ديمقراطية قوية إلى حد ما، مع لجان تشمل جميع السفن الحربية الكبرى وشركات الشاطئ في كرونشتاد وهلسنغفورز وبيترسبورغ، وغيرها من النقاط الأخرى على ساحل بحر البلطيق، والتي كانت كلها مرتبطة بـ "لجنة منظمة كرونشتاد العسكرية". في 19 أكتوبر، انفجر الغضب من الطعام السيء والنظام القاسي، على شكل احتجاج على متن السفينة الحربية هانغوت. اعتقل البحارة بعض الضباط واتصلوا بالسفن الأخرى طلبا للمساعدة. هذا النوع من الغضب غير المنظم هو بالضبط ما كان البلاشفة يحاولون منع وقوعه. سرعان ما عزلت السلطات تلك الحركة وأخمدتها بعمليات قمع انتقامية وحشية. تمت محاكمة 26 شخصا وتم حل المجموعة بأكملها ونقلها إلى الخدمة في الساحل. في المحاكمة، التي جرت في دجنبر 1915، تم الحكم على رجلين بالإعدام وعلى 14 آخرين بالأشغال الشاقة. لكن تلك الأحكام لم تستطع إطفاء شعلة التمرد، حيث اندلعت احتجاجات أخرى، مما أثار قلقا متزايدا عند السلطات. نجد في تقرير للشرطة ما يلي: «توجد على متن كل سفينة خلايا اشتراكية ديمقراطية تنتخب لجانها الخاصة، ولكل لجنة ممثلها في اللجنة القيادية. لقد نشأت الخلايا المذكورة أعلاه بشكل مستقل تماما، نظرا لوجود تربة مواتية، بسبب ارتفاع درجة التأهيل بين المجندين ووجود أفراد منهم كانوا، قبل الدخول إلى الخدمة العسكرية، قد صاروا ماهرين في العمل السري».

يوضح التقرير كيف كان الاشتراكيون الديمقراطيون يقومون بالتحريض والدعاية في المقاصف والمقاهي، حيث يوضحون الأحداث الجارية للبحارة ويستخلصون استنتاجات ثورية، ويضيف: «إن القادة الأيديولوجيين للعمل السري داخل السفن الحربية حاولوا بكل الطرق كبح البحارة عن الاضطرابات المتقطعة، من أجل خلق موقف يمكن فيه القيام بتحريك عام يأخذ في الاعتبار ضرورة وجود حركة نشطة من جانب الطبقة العاملة، قادر على إحداث تأثير حاسم يؤدي إلى تغيير النظام السياسي...»<sup>2</sup>.

على الرغم من عنصر المبالغة الذي يميز هذا التقرير، فإن هذه الشهادة، من جانب عملاء النظام المخلصين، تتضمن بعض الصدق في بعض الجوانب على الأقل.

لكن على الرغم من استحالة التحديد الدقيق لطبيعة ومدى النشاط الثوري الذي كان في صفوف القوات المسلحة في وقت الحرب، فإنه لا يمكن الشك في أنه مع مرور الوقت وتدهور الظروف، بدأ مزاج الجنود في التغيير وأصبح أكثر انفتاحا على الأفكار الثورية، وبدأوا يتطلعون نحو الاشتراكيين الديمقراطيين، وخاصة الجناح الأكثر جذرية، أي البلاشفة. وقد قام تروتسكي بوصف هذه السيرورة بشكل جيد في تاريخه، حيث قال: «إن العناصر الثورية، التي كانت مبعثرة في البداية، غرقت في الجيش دون أي أثر تقريبا، لكنها مع نمو الاستياء العام تمكنت من الارتفاع إلى السطح. لقد أدى إرسال العمال المضربين إلى الجبهة كعقوبة لهم، إلى زيادة عدد المحرضين وأعطتهم الهزيمة جمهورا متجاوبا. جاء في تقرير لعميل سري: "إن الجيش، وخاصة في الجبهة، مليء بالعناصر التي يمكن

1: A. Shlyapnikov, On the Eve of 1917. pp:138-139 and 139-140 (التمديد من الآن وودز)

2: A. Shlyapnikov, On the Eve of 1917, pp: 191 and 192.

لبعضها أن يصبح قوة فاعلة في التمرد، وبعضها الآخر قد يرفض المشاركة في حملات عقابية“. وأعلنت إدارة مقاطعة بتروغراد، في أكتوبر 1916، استنادا إلى تقرير قدمه ممثل اتحاد الأرض، أن ”الحالة المزاجية داخل الجيش مقلقة، والعلاقات بين الضباط والجنود متوترة للغاية، بل وتحدث حتى المواجهات الدموية. كان الفارون من الجبهة بالآلاف في كل مكان. وكل من يقرب من الجيش يحمل انطبعا كاملا وأكيدا عن التفكك الأخلاقي التام للقوات“<sup>1</sup>.

## الليبراليون يبدأون في التحرك

تسببت الكارثة العسكرية في إخراج الليبراليين من حالة الجمود. وبفعل الضغط المتزايد وافق القيصر أخيرا على استدعاء مجلس الدوما، في 19 يوليو 1915. كانت تلك فرصتهم لنزع مقاليد السلطة من قبضة الزمرة الحاكمة المهزوزة دون ثورة! كان النظام ممزقا بالانشقاقات. تشكلت ”الكتلة التقدمية“ في أواخر الصيف، عندما كانت روسيا في خضم أزمة عميقة. وقد جمعت بين القوميين المعتدلين والأكتوبريين والكاديت، وكانت لها أغلبية واضحة في مجلس الدوما: 241 مقعدا من إجمالي 407. قال سولغين، وهو نائب قومي، عن هذا الوضع: «نحن القوميون صرنا، منذ 1915، كاديت تقريبا، لأن الكاديت صاروا قوميين تقريبا». لكنهم لم يحصلوا في مجلس الشيوخ، الأكثر محافظة، إلا على 89 صوتا من إجمالي 196 صوتا. وقد أعلن أول بيان للكتلة أنه: «لا يمكن أن يقود الوطن الأم إلى النصر إلا سلطة قوية وحازمة ونشيطة».

المناشفة والترودوفيك -رغم أنهم كانوا رسميا خارج الكتلة- دعموا الليبراليين البرجوازيين. ومرة أخرى حاول تشخيدزه دفع البرجوازية لتولي السلطة بتهديدها بالجمهير. أما النظام القيصري الأوتوقراطي، الذي كان قد قدم بعض التنازلات للبرجوازيين (إعادة تشكيل بعض الوزارات وتغيير عدد قليل من الجنرالات)، فإنه عاد وتراجع مرة أخرى. لكن كل مناورات القصر هذه، ولعبة تبادل الكراسي المرتبطة بها، لم تعد ذات معنى. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه بينما كان كل هذا يحدث، كان القيصر قد دخل، رغما عن إرادة البرجوازية، في اتصالات سرية مع برلين بهدف إبرام سلام أحادي مع ألمانيا. لم يكن هذا صدفة، فقد كان الوضع يزداد خطورة: الأزمة والانقسامات في القمة، والهزائم العسكرية في الجبهة، والإضرابات والمظاهرات والمعارضة البرجوازية في الداخل. حتى نيكولا الغبي صار قادرا على أن يفهم أن الأرض بدأت تهتز تحت قدميه. لم تكن لدى القيصر أي نية في ”تقاسم السلطة“ مع الليبراليين البرجوازيين، الذين كانوا في ذلك الوقت قد بدأوا يفكرون في إحداث انقلاب داخل القصر لوضع شقيق نيكولا، ميخائيل، على العرش. لكن هذه الخطة، مثلها مثل كل مخططات الليبراليين الأخرى، لم تصل إلى أي نتيجة.

إن البرجوازية، التي كانت تسعى جاهدة للحصول على مكان تحت الشمس وانتزاع الحكم من يد النظام الاستبدادي الفاسد والملفلس، عاشت في خوف من الثورة واستمرت تنظر بقلق إلى ”تحركات الغوغاء“. اقتبس ليونيل كوشان بعض تعليقات مدير إدارة الشرطة حول أن موجة الإضرابات تسببت في بث الرعب في الكاديت. ولما كانت الحكومة تدرك تماما عجز الليبراليين، فقد عاملتهم باحتقار واضح ومستحق. أخبر وزير الشؤون الخارجية، سazonوف، زملائه الوزراء بازدراء أنه إذا تم عرض بعض الفتات على الكاديت فسيسارعون فوراً إلى التوصل إلى اتفاق مع الحكومة. وأضاف: «ميليوكوف هو أكبر برجوازي على الإطلاق ويخشى حدوث ثورة اجتماعية أكثر من أي شيء آخر. كما أن غالبية الكاديت يرتجفون خوفا من ضياع استثماراتهم». كان على سazonوف أن يخاف بدوره على استثماراته...

«حدد شولجين هدف الكتلة بعبارات واضحة، حيث قال إنها: ”محاولة تهدئة الجماهير“».

شرح ف. أ. ملاكوف بشكل بارع معضلة الكاديت -التي هي وعيهم بضرورة التحرك، مع خوفهم من التحرك- في مقال له بعنوان: ”الموقف المأساوي“. حيث قارن روسيا بسيارة عهد بها إلى سائق عاجز إلى درجة أنه سيودي بالسيارة إلى كارثة حتمية، بينما الركاب القادرين على القيادة لا يجرؤون على ذلك. لا يمكن ترك السيارة بدون سائق ولو لثانية واحدة وإلا فإنها ستسقط في الهاوية. السائق يعرف ذلك لكنه يكتفي باستعمال المنبه وسعيد بعجز الركاب.

«وهكذا فإن الكتلة التي ترتجف خوفا، تعترف في السر بخلافاتها مع القيصر، وتقضي وقتها في مناقشات لا تؤدي إلى اتخاذ أي إجراء. ومثلها مثل أوبلوموف، تستمر في النقاش، حول اليأس المتزايد في البلاد والخوف من الثورة والحاجة إلى 11 مارس أخرى وأزمة السكك الحديدية وأزمة الوقود... وبالعودة إلى الوراء يتذكر ميليوكوف أن خريف عام 1915 كان ”اللحظة بالضبط“ التي صارت

1: L. Trotsky, The History of the Russian Revolution, p: 44.

الثورة فيها حتمية»<sup>1</sup>.

طرح الجناح اليساري للكاديت وكيرنسكي اقتراح تشكيل حكومة برلمانية مسؤولة أمام مجلس الدوما. دعم المناشقة هذا الاقتراح، لكن ميليكوف، زعيم الكاديت والقيادي البارز داخل الكتلة، لم يوافق على ذلك. تراجع الكاديت إلى الورا لصياغة مقترحات تكون مقبولة لدى القيصر. لكن كل تلك التنازلات كانت بدون جدوى. كان لزوجة القيصر وعصابة راسبوتين تأثير على نيكولا أكبر بكثير من تأثير "المعتدلين". قالت الملكة لزوجها الضعيف: "أظهر قبضتك، أنت الحاكم المطلق وعليهم ألا يجروا على نسيان هذا"<sup>2</sup>. وقد تصرف نيكولا وفقا لذلك. ففي 03 شتبر أمر بحل مجلس الدوما حتى نوفمبر، وبدأ في طرد الوزراء الذين رأى أنهم غير جديرين بالثقة. وفي بداية أكتوبر استبدل وزير الداخلية بالوكالة، شرباتوف، وعوضه بالرجعي اليكسي ن. خفوستوف. عن ذلك كتب كيرنسكي بمرارة قائلاً: «وهكذا قامت الملكة، التي تشارك القيصر في الحكم، بإشعار الأمة بأكملها بأنه لن يكون هناك مزيد من التردد في الدفاع عن مبادئ النظام الاستبدادي الروسي العريقة. لقد تم سحق كل آمال التوصل إلى اتفاق مع التاج، وهو الأمر الذي أدركه قادة الكتلة التقدمية الآن. ماذا عليهم أن يفعلوا الآن؟»<sup>3</sup>.

ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ كانت الطريقة الوحيدة لإسقاط النظام هي تعبئة الجماهير لشن هجوم مباشر. لكن مجرد التفكير في ذلك كان يصيب هؤلاء السادة بالرعب. رد العمال على حل مجلس الدوما بإضراب عام احتجاجي. لكن شعارهم لم يكن "إعادة الدوما"، بل "فلتسقط الحكومة". كان من المفترض أن يستمر الإضراب لمدة ثلاثة أيام، لكن عندما أصدر الجنرال فرولوف أمراً بمثول المضربين أمام المحكمة العسكرية وغيرها من الإجراءات، قررت لجنة بيترسبورغ تمديد الإضراب ليوم واحد إضافي لإثبات أن العمال لم ينهوا الإضراب امتثالاً لأوامر الجنرال. عارض التصفيون ذلك وعاد مؤيدوهم إلى العمل؛ بينما عاد العمال البلاشفة إلى العمل بعد مرور يوم آخر، كما تقرر. وإجمالاً فقد أضرب 150 ألف شخص في بيترسبورغ، و25 ألف شخص في نيجني نوفغورود (حيث أضربوا ليوم واحد فقط)؛ كانت هناك إضرابات كبيرة أيضاً في موسكو وخاركوف وإيكاتيرينوسلاف. وقد أفادت صحيفة سوتسيال ديموكرات أنه «بعد هذه الإضرابات انخرط الليبراليون في حملة "تهدئة"، لكن العمال لم يكونوا مستعدين لأي تهدئة على الإطلاق. فقد أدى القمع الذي مورس ضدهم والارتفاع المذهل للتضخم، وما إلى ذلك، إلى اشتداد المزاج الثوري بينهم»<sup>4</sup>.

لقد كان ذلك الإضراب بمثابة إشعار بأن البروليتاريا قد تعافت من النكسات السابقة وعادت إلى التحرك مجدداً. ملأ هذا الاحتمال نفوس الليبراليين بالفزع. إذ من الأفضل لهم أن يعيشوا الإذلال تحت الحكم الاستبدادي من أن تندلع ثورة شبيهة بما حدث سنة 1905! كان خوف الليبراليين من الجماهير يعني أنه لن يكون هناك أي رد من جانبهم على هجمات القيصر. أرسل الليبراليون وفداً، بزعامة الأمير لفوف، ليلتمس من القيصر "وضع عبء السلطة الثقيل على أكتاف أناس تعززت قوتهم بثقة الأمة فيهم". لكن نيكولا رفض استقبالهم. وبدلاً من ذلك تم استدعائهم إلى وزارة الداخلية حيث قيل لهم إن "تدخلهم في سياسة الدولة" وقاحة.

حل مجلس الدوما فضح بقسوة عجز الليبراليين. وسيطر نظام رومانوف - راسبوتين على السلطة بقوة. بينما صار الليبراليون يائسين. قال أحد قادة الكاديت لزملائه، في خريف عام 1916: «أخاف من أن سياسة الحكومة ستؤدي إلى وضع سيصير فيه مجلس الدوما عاجزاً عن فعل أي شيء لتهدئة الجماهير».

عندما أعيد فتح مجلس الدوما، في 01 نوفمبر، كان في مقدور حتى المعتدل ميليكوف أن يفهم أخيراً أن وقت التعاون مع الحكومة قد بدأ ينفذ. وقد شن في كلمته الافتتاحية أمام مجلس الدوما هجوماً على مختلف أشكال شطط الحكومة في استعمال السلطة، وفي النهاية طرح السؤال التالي: "هل هذه حماقة أم خيانة؟". لم تكن لدى ميليكوف، بالطبع، أية نية في إثارة الثورة، بل كان يريد فقط تخويف النظام الاستبدادي لكي يعمل على تقديم تنازلات من أجل إنقاذ نفسه. لكن في تلك الأجواء المشحونة، كان لكلماه تأثير مختلف تماماً، عكس ما كان يريده. وما أن القانون كان يحظر نشر الخطاب، فقد تم نسخه وتوزيعه بوسائل غير قانونية. وقد استفاد العمال من محتوياته للتنديد بالنظام الاستبدادي ووزرائه وجميع ممارساته. «لقد اكتسب خطابي سمعة التحريض على الثورة»، هذا ما قاله ميليكوف المرتبك فيما بعد. وأضاف: "لم تكن تلك نيتي. لكن المزاج السائد في البلاد كان بمثابة

1: L. Kochan, *Russia in Revolution*, pp: 184, 185 and 186.

2: O. Figes, *A People's Tragedy: The Russian Revolution 1891-1924*, p: 276.

3: A. Kerensky, *The Kerensky Memoirs: Russia and History's Turning Point*, p: 142.

4: John Riddel : *Lenin's Struggle for a Revolutionary International*

مكبر الصوت لكلماتي»<sup>1</sup>.

## بداية المد

أشار تروتسكي ذات مرة أن النظرية هي تفوق التبصر على الدهشة. وهذا ما نجده عند لينين الذي أكدت الأحداث صحة توقعه، إذ أن الهزائم العسكرية الروسية أعطت الثورة قوة دفع عظيمة. في بداية الحرب كان لينين معزولا بشكل كامل. لم يكن العديد من رفاقه المقربين أنفسهم يشاركونه آرائه بشأن الحرب. لكن الأمور صارت مختلفة الآن. إذ أن الأحداث بدأت تثبت أخيرا أنه على حق. كانت نقطة التحول ربما في أبريل- يونيو 1915. وصارت رسائله تعكس ثقة وتفاؤلا جديدين: «لقد أكدت الأحداث في روسيا بشكل كامل موقفنا، الذي أطلق عليه حمير الاشتراكية الوطنية (من أليكسينسكي إلى تشخيدزه) اسم الانهزامية. لقد أثبتت الوقائع أننا على صواب!! تساعد الانتكاسات العسكرية في هز أسس القيصرية، وتسهل التحالف بين العمال الثوريين في روسيا وعمال البلدان الأخرى. يقول البعض: "ما الذي ستفعلونه، إذا تمكنتم أيها الثوريون من هزم النظام القيصري؟". أجيبهم: (1) سيشعل انتصارنا لهيب حركة "اليسار" في ألمانيا مائة ضعف؛ (2) إذا هزمنا النظام القيصري بالكامل، سنقترح السلام على جميع القوى المتحاربة بشروط ديمقراطية، وإذا تم رفض ذلك سنخوض حربا ثورية»<sup>2</sup>.

كان فساد النظام واضحا على جميع المستويات، في القضاء والجيش والاقتصاد. وكانت هناك علاقة حميمة بين الحكومة وبين شركات صناعة الأسلحة. «تلقى مصنع بوتيلوف الضخم، على سبيل المثال، طلبات قذائف بقيمة 113 مليون روبل -أي أكثر بكثير مما كان يمكنه تسليمه في الوقت المحدد- وذلك بسعر أعلى بستة أضعاف من متوسط سعر السوق. استخدم بوتيلوف تلك الأموال لدعم مشاريعه التي كانت تعاني من صعوبات، والاستمرار في أسلوب حياته الرائع، إلى أن أفلست شركته في نهاية المطاف واضطرت الدولة إلى تصفيتها في عام 1916»<sup>3</sup>. لذلك رد لينين بسخرية على شكاوى المسلمين الحزينة: «هل الحرب شيء "رهيب"؟ نعم، بالتأكيد. لكنها شيء مربح للغاية»<sup>4</sup>.

لقد جلبت الحرب ارتفاع الأسعار ونقص الخبز والمضاربات والسوق السوداء. حققت الشركات المصنعة للأسلحة أرباحا هائلة. وقد أدت الظروف القاسية التي كانت تعيشها الجماهير إلى اندلاع موجة من الإضرابات. في عام 1915 كان هناك 1063 إضراب، أي مرة أكثر مما كان عليه الحال خلال النصف الثاني من عام 1914 (أي الأشهر الستة الأولى من الحرب). وبلغ عدد المضربين 569.999 مضرب، أي أكثر بـ 15 مرة. أثرت الإضرابات بشكل خاص على المصانع الكبيرة. كما شهدت حركة الإضرابات صعودا متواصلا خلال الفترة الممتدة من أبريل إلى يونيو 1915. ففي هذه الأشهر الثلاثة وحدها كان هناك 440 إضرابا بمشاركة 181.600 مضرب، أي ضعف العدد الذي سجل خلال الشهور الثمانية السابقة للحرب. كان الرسم البياني المتصاعد لحركة الإضراب بمثابة تحذير للنظام بأن صبر الطبقة العاملة قد بلغ حدوده. وقد لعب عمال الغزل والنسيج في مصنع إيفانوفو فونزيسك وكوستروما دورا رئيسيا في ذلك. إذ كانوا أول من تحرك.

وعلى الرغم من كل شيء فقد حققت تلك الإضرابات بعض الانتصارات. في يوليو تمكّن البلاشفة من عقد كونفرانس لمنظمة بتروغراد في أورانيباوم، بمشاركة 50 مندوبا يمثلون 500 عضو. كان هذا إنجازا كبيرا في ظل تلك الظروف. كان هناك أيضا كونفرانس في كييف. وتدرجيا بدأت الاتصالات بين المدن تتحسن. وفر إطلاق الشرطة النار على عمال إيفانوفو فونزيسك الأساس للدعوة إلى إضراب سياسي عام لعمال النسيج. بدأ هذا في 08 غشت، وانطلق في البداية بمطالب اقتصادية. في ليلة 10 غشت تم اعتقال 19 من قادة العمال، وفي اليوم الموالي شارك أكثر من 25.000 عامل من 32 مصنعا في مظاهرة احتجاجية. وعندما وصل العمال أمام السجن، للمطالبة بالإفراج عن رفاقهم المعتقلين، فتحت القوات النار عليهم، مما أسفر عن مقتل 100 شخص وإصابة 40 آخرين. وكان من بين القتلى أعضاء في الحزب البلشفي. لكن لم يكن في مقدور الرصاص أن يوقف الحركة. لقد كانت، مثل وحش هيدر، كلما تمكّن النظام من قطع أحد رؤوسه ينمو آخر في مكانه. كما اندلعت إضرابات في مناطق أخرى: في بيتربورغ وتفير وتولا وخاركوف ونيجني نوفغورود ويكاترينوسلاف، وغيرها من المناطق. لقد أعلنت عاصفة الإضرابات عن استيقاظ البروليتاريا.

1: O. Figs, *A People's Tragedy: The Russian Revolution 1891-1924*, p: 285 and 287.

2: LCW, *To A.G. Shlyapnikov*, 23/8/1915, vol. 35, pp: 204-205.

3: O. Figs, *A People's Tragedy: The Russian Revolution 1891-1924*, p: 273.

4: LCW, *May Day and the War*, 1915, vol. 36, p: 325.

واصل منحى الإضراب مساره التصاعدي. فمن غشت إلى أكتوبر 1915 كان هناك حسب المعطيات الرسمية، 340 إضرابا، بمشاركة 246.000 مضرب. لعب المناضلون العماليون البلاشفة دورا رئيسيا في الحركة، بعد أن تدريبوا في مدرسة النضال خلال الفترة ما بين 1912 و1914. وبالتالي فإن دروس التاريخ لا تضيع سدى. فعلى الرغم من الحرب وعلى الرغم من اعتقال ونفي القادة وعلى الرغم من تعطل هياكل الحزب وتقلص منظماته إلى الحد الأدنى، وعلى الرغم من كل شيء آخر، فقد بقي هناك شيء ما. كان ذلك "الشيء" هو الوعي الثوري الذي تشرته البروليتاريا من تجاربها السابقة واستمر من خلال فئاتها الأكثر نشاطا وتطورا التي كانت تقضي وقتها في العمل بصبر في انتظار أيام أفضل. والآن، بعد إحساسهم بتغيير مزاج العمال، عاد هؤلاء المناضلون -وأغلبهم من البلاشفة- مرة أخرى للظهور في مقدمة الصفوف. لعب أنصار الدفاع عن الوطن دور كاسري الإضرابات مما أدى إلى تزايد الرفض ضدهم في المصانع. وقد أصدر عمال العديد من المصانع قرارات تطالب بعزل ممثليهم من لجان مصانع الحرب.

شارك في إضراب شنتبر في بتروغراد 150 ألف عامل، احتجاجا على اعتقال 30 عاملا بلشفيا من عمال مصنع بوتيلوف. كانت هناك أيضا إضرابات أخرى في موسكو وغيرها. تحركت الجماهير وتذكرت الشعارات القديمة، التي لم تعد، منذ صيف 1914 المشؤوم، تسمع في المصانع إلا بصوت خافت، فإذا بها صارت الآن على كل الشفاه مجددا. وهي تلك الشعارات التي أصبحت معروفة باسم: "حيثان لينين الثالث"، أي: «من أجل جمهورية ديمقراطية! من أجل مصادرة كل أراضي الملاكين العقاريين! من أجل يوم عمل من ثماني ساعات!»، كما رفعوا ضد المذبحة العالمية شعار: "التضامن الأممي للطبقة العاملة العالمية!" و"لتسقط الحرب!" و"الخزي لكل المسؤولين عنها!".

في ماي 1915، انتقلت البرجوازية إلى تشكيل "لجان الصناعة الحربية" (VPK)، وذلك جزئيا لمحاولة تحقيق بعض السيطرة على صناعات الحرب المربحة، وفي نفس الوقت تقديم أوراق اعتمادها باعتبارها المنقذ المحتمل لروسيا، على أمل الفوز بتنازلات من القيصر. وكجزء من هذا التكتيك حاولت إشراك العمال في المجهود الحربي وزيادة الإنتاج.

قال كيرنسكي: «في ماي 1915، تم عقد لقاء للتجارة والصناعة وعموم روسيا بمبادرة من كبار رجال الصناعة ورجال الأعمال في موسكو، دون إشعار مسبق للحكومة. كان الهدف الرئيسي لهذا الاجتماع هو إنشاء لجنة مركزية للصناعات الحربية وعدد من الهياكل الفرعية التابعة لها. لقد تمت تعبئة كل القطاع الصناعي من أجل إرسال الذخيرة والملابس والمعدات فورا إلى الجبهة. وأصبحت كل القوى الحية في روسيا نشطة في هذه القضية»<sup>1</sup>.

وفي يونيو 1915، تقرر في مؤتمر لهذه اللجان تشكيل "مجموعات عمالية". نرى هنا مرة أخرى الفرق الموجود بين البلشفية والمنشفية. لقد أعاد المناشفة مرة أخرى إحياء فكرة "مؤتمر عمالي"، محاولين العمل في ظروف "قانونية" في زمن الحرب. إن هذا الموقف يظهر، أكثر من أي شيء آخر، مدى انفصال هؤلاء القادة "الواقعيين" عن الواقع. ففي ظل ظروف الحرب لم يكن النظام القيصري مستعدا لأي تساهل مع المنظمات الحقيقية للطبقة العاملة.

لقد تبنى المناشفة والاشتراكيون الثوريون موقف المشاركة في تلك اللجان، وقالوا بديماغوجية إنها تمثل "الرقابة العمالية" ويمكن استخدامها للدفاع عن مصالح العمال ضد رأس المال. شبهوها بالسوفييتات، متناسين عن قصد حقيقة أن السوفييتات الحقيقية هي أدوات للنضال وليست نوادي للثرثرة تهدف إلى تحقيق التوفيق بين الطبقات. وفي هذا السياق قال لينين: «يجب اعتبار سوفييتات نواب العمال والمنظمات المماثلة أجهزة للانتفاضة، أجهزة للحكم الثوري. لا يمكن لهذه المنظمات أن تكون ذات قيمة دائمة إلا بارتباط مع تطور إضراب سياسي جماهيري وانتفاضة، وبدرجة التحضير لهذه الأخيرة وتطورها ونجاحها».

لقد عارض البلاشفة بشكل جذري المشاركة في تلك اللجان، والتي كانت منظمات للبرجوازية أنشئت لمساعدة المجهود الحربي الإمبريالي. لكن هذه المسألة كانت تتضمن العديد من الأسئلة التكتيكية المعقدة والتي لا يمكن اختزالها ببساطة في موقف سلبي. أوضح لينين أنه في ظل الحاجة إلى الاستفادة من كل فرصة للعمل الشرعي، سيكون من الصحيح المشاركة في الجولة الأولى من الانتخابات لتلك اللجان، وذلك فقط من أجل غرض التحريض والدعاية وبناء المنظمة، وقال: «نحن نعارض المشاركة في لجان الصناعات الحربية، التي تساعد في أعمال الحرب الإمبريالية والرجعية. لكننا نؤيد استخدام الحملة الانتخابية؛ نحن، على سبيل المثال، مع المشاركة في المرحلة الأولى من الانتخابات لغرض وحيد هو التحريض والتنظيم»<sup>2</sup>.

دعت لجنة بتروغراد العمال إلى المشاركة بكثافة في الجولة الأولى من الانتخابات، وعقدت اجتماعات في المصانع حيث كانت

1: A. Kerensky, *The Kerensky Memoirs: Russia and History's Turning Point*, p: 136.

2: LCW, *Several Theses*, vol. 21, pp: 401, 402.

تعمل على شرح موقف الحزب بشكل واضح وعلني ومحاولة انتخاب أعضائه من أجل الذهاب إلى الاجتماع على مستوى المدينة. وهناك ينبغي عليهم قراءة خطاب يدين الحرب ويدعو إلى مقاطعة لجان الصناعة الحربية. ومن أجل إجراء انتخابات لجان الصناعة الحربية، اضطر النظام بالفعل إلى السماح بعقد اجتماعات جماهيرية مفتوحة في المصانع. لكنه لم يسمح سوى للمصانع التي يزيد عددها عن 500 شخص بالمشاركة في الانتخابات. وقد شارك البلاشفة، الذين كانت قاعدتهم الرئيسية في المصانع الكبرى، بشكل نشيط فيها، كما ناضل البلاشفة والمناشفة من أجل التأثير في تلك الحملات الانتخابية، وحملوا رسائلهم المختلفة إلى الجماهير. تم انتخاب بعض المناشفة، لكن البلاشفة كانوا هم المستفيد الرئيسي. كان لينين سعيداً بالفوز الذي اعتبره مهماً جداً. وبعد نجاح البلاشفة في الحملة الانتخابية، طالب البرجوازي غوزفيديف بغضب بإجراء انتخابات جديدة، وهو المطلب الذي دعمه التصفيون بكل سرور.

تميزت الجولة الثانية من الانتخابات بسيادة الإرهاب البوليسي. كانت الحكومة مصممة على عدم السماح بتكرار ما حدث واتخذت الاحتياطات اللازمة للقبض على البلاشفة البارزين. وفي ظل تلك الظروف، نظم البلاشفة -الذين كانوا في "كتلة يسارية" مع الجناح اليساري للاشتراكيين الثوريين- اجتماعات في المصانع لإدانة الخونة وأعلنوا انسحابهم. كانت هناك اجتماعات احتجاجية في عدد من المصانع. وبعد تجربة بتروغراد لم تكرر الحكومة خطأها في انتخابات موسكو، حيث نظمت غارات بوليسية ضخمة. لكن ومع ذلك فإن حملة دعاء الدفاع عن الوطن لم تكن ناجحة. فمن بين ما مجموعه 244 لجنة للصناعة الحربية، لم يتم تشكيل "مجموعات عمالية" إلا في 58 لجنة فقط، كان معظمها في مصانع صغيرة متخلفة. أما في المراكز العمالية الرئيسية فقد انتصر تكتيك المقاطعة النشطة. كتب رئيس الأورخانا في موسكو في تقريره قائلاً: «جميع مبادرات هذه المجموعة تعاني حرقاً تقريباً من التخريب بسبب الموقف العدائي تجاهها من جانب الأغلبية الساحقة من العمال المتأثرين بالبلاشفة»<sup>1</sup>.

طيلة الحرب واجه البلاشفة داخل روسيا ظروفاً صعبة للغاية. وعلى النقيض من ذلك تمتع المناشفة اليمينيون (أنصار نزعة الدفاع عن الوطن) بمكانة متميزة بسبب انتهازيتهم واستعدادهم لإخضاع مصالح العمال للبرجوازية. وعلى الرغم من أن البلاشفة كانوا يتمتعون بالدعم بين العمال الأكثر نشاطاً ووعياً، فإن أنصار نزعة الدفاع عن الوطن استفادوا من وضعهم القانوني. وبالإضافة إلى امتلاكهم لممثلين عنهم في لجان الصناعة الحربية، فقد كانوا يحصلون على أموال كثيرة من أصدقائهم الليبراليين، وكانت لديهم صحف قانونية دبلو (القضية) وإيكونوميشفسكو أوبوزرني (الصحيفة الاقتصادية). بل إن "مجموعة العمل" التابعة لهم كان لها مقر في أحد الشوارع الرئيسية في بيتربورغ، حيث كان في إمكانهم الاجتماع بحرية وتلقي تقارير من مجلس الدوما من تشخيدزه وكيرنسي. كانت تلك الاجتماعات القانونية تعرف حضوراً مهماً، وقد اعتاد البلاشفة على حضورها من أجل فضح سياسات أنصار نزعة الدفاع عن الوطن، الشيء الذي أدى، في مناسبة واحدة على الأقل، إلى اعتقال "الضيف" الثقيل. ومع ذلك فقد كانت السلطات القيصرية تشك فيهم، وفي النهاية، فقد طال القمع مجموعة العمل أيضاً، على الرغم من نزعتها الوطنية.

إن هذه الصعوبات الموضوعية جعلت من الضروري والصحيح محاولة التوصل إلى اتفاقات عمل مع التيارات الأخرى داخل الحركة العمالية. لقد حاول البلاشفة تشكيل جبهة موحدة مع تلك الجماعات الاشتراكية الديمقراطية التي كانت تدافع عن موقف أممي. خلال الحرب شارك المكتب البلشفي في عدة مناسبات في مفاوضات مع التيارات العمالية الأخرى في بتروغراد، ولا سيما مع اللجنة المشتركة لما بين المقاطعات (Mezhraiontsy) التي، كما يقول شليابنيكوف، لم يكن يمكن تمييزها سياسياً عن البلاشفة، لكنها رغم ذلك بقيت متمسكة بعناد بموقف "غير تكتلي"، حال بينها وبين الاتحاد مع البلاشفة<sup>2</sup>. وبحلول دجنبر 1916، كانت هناك اتصالات وثيقة للغاية بالفعل بين البلاشفة وبين أعضاء لجنة ميزرايونتسي، الذين أقتنعهم تروتسكي، في صيف عام 1917، بالانضمام إلى البلاشفة. في الواقع كان هناك دائماً عدد كبير من العمال الاشتراكيين الديمقراطيين -أفراداً وجماعات- الذين لم ينضموا رسمياً لا إلى البلاشفة ولا إلى المناشفة. أدت الصعوبات الهائلة خلال سنوات الحرب وضعف التنظيم المركزي للحزب، إلى وضع بقيت فيه العديد من المجموعات المحلية في عزلة. وفي هذا السياق كتب شليابنيكوف: «لقد تواجدت في بيتربورغ مجموعات كثيرة من الاشتراكيين الديمقراطيين الذين لم تكن لهم أي صلة دائمة مع منظمة المدينة. وقد بقيت العديد من تلك الحلقات منغلقة ومعزولة بسبب خوفها من تسلل المخبرين»<sup>3</sup>.

لم تكن محاولة تشكيل جبهة موحدة مقتصرة على لجنة ميزرايونتسي. فقد كانت هناك أيضاً مقترحات من البلاشفة لإقامة جبهة موحدة مع المناشفة اليساريين ("مجموعة المبادرة")، كما قدموا اقتراحات اتفاقات عملية ليسار المعارض لنزعة الدفاع عن

1: *Istoriya KPSS*, vol. 2, p: 581.

2: A. Shlyapnikov, *On the Eve of 1917*, p: 164.

3: *Ibid.*, p: 152.

الوطن، والذي كان يمثله تشخيدزه، الزعيم اليساري لمجموعة المناشفة في مجلس الدوما، وحتى لكبرنسكي زعيم مجموعة التروودوفيك في مجلس الدوما. كان هذا الأخير قد سمى نفسه في ذلك الوقت أمميا ومؤيدا لمقررات مؤتمر زيمروالد (!). لكن هؤلاء رفضوا القطع مع الإصلاحيين اليمينيين أنصار نزعة الدفاع عن الوطن. لقد كانوا مهوسين بفكرة العمل البرلماني، وكانوا، قبل كل شيء، يخشون الانفصال عن البرجوازية الليبرالية. وفي العمق كانوا جميعهم يخشون من الحركة الجماهيرية مثلما يخشون الطاعون.

إن محاولة تأمين اتفاقات عملية أو تشكيل تكتلات عرضية من أجل أهداف محددة لا تعني على الإطلاق إخفاء الاختلافات، بل على العكس تماما. إن الشرط المسبق لتكتيك الجبهة الموحدة هو الحرية الكاملة في النقد. لقد تعامل لينين باحتقار مبرر مع الفكرة القائلة بأن الوحدة تعني خلط البرامج والرايات. وفي مقاله "هزيمة روسيا والأزمة الثورية"، الذي كتبه في نوفمبر 1915، قال: «لا يوجد ما هو أكثر صبيانية وخطورة وضررا من الفكرة السائدة حاليا بين الانتهازيين، التي تقول إنه ينبغي "نسيان" الاختلافات "لأجل" توحيد العمل المشترك على مشارف الثورة الوشيكية. إن هؤلاء الذين لم تعلمهم تجربة العقد الممتد من 1905 إلى 1914 حماقة هذه الفكرة هم أناس ميؤوس منهم من الناحية الثورية»<sup>1</sup>.

لم تكن سياسة لينين تتمثل في اللعب بشعار الوحدة، بل النضال العلني المفتوح من أجل قيادة الطبقة العاملة.

### أزمة النظام القيصري

«تندلع الثورة عندما تصل جميع تناقضات المجتمع إلى أقصى درجة الغليان. لكن ذلك يجعل الوضع غير محتمل حتى بالنسبة للطبقات السائدة في النظام القديم، أي أولئك الذين صار محكوما عليهم بالسقوط»<sup>2</sup>.

فضحت الأحداث بقسوة ضعف النظام القيصري الروسي والفساد المستشري في أحشاءه. كانت الكارثة العسكرية وارتفاع تكاليف المعيشة والاستغلال والمضاربات وتعفن النخبة الحاكمة، قد عبرت عن نفسها في أزمة شاملة. في ماي 1916 اندلعت اضطرابات متفرقة بين المجندين في المحافظات. بدأت انتفاضات الجوع في الجنوب وانتشرت إلى قلعة كرونشتاد البحرية. وبحلول أواخر الخريف، صارت بتروغراد مرة أخرى مسرحا لاضطرابات اجتماعية عاصفة وموجة إضرابات هائلة. أدت الهزائم العسكرية وعجز الحكومة وفوضى فساد نظام راسبوتين وارتفاع الأسعار والقمع المستمر، إلى إثارة شعور حارق من الغضب والظلم في أعماق المجتمع. وبحلول عام 1916، وصلت موجة الإضراب إلى آفاق جديدة وغير مسبوقة. تم تسجيل عدد كبير من الإضرابات، بلغ 1542 إضرابا، شارك فيها ما يصل إلى 1.172.000 عامل - أي أكثر بكثير من عام 1905. لم يشهد أي بلد آخر، أثناء الحرب العالمية الأولى، مثل هذا الكم من الإضرابات. رفع العمال في البداية مطالب اقتصادية أساسا. لكن عدد الإضرابات السياسية زاد بشكل مطرد: ففي عام 1915 تم تسجيل 216 إضراب سياسي؛ و273 عام 1916. كما ازداد عدد المشاركين أيضا: ففي عام 1915 شارك 156.900؛ و310.300 في عام 1916. وبحلول خريف عام 1916، كان مزاج السخط قد بلغ أبعادا منذرة بالانفجار.

ازداد قلق النظام مع اقتراب ذكرى الأحد الدامي. تصاعدت حملة القمع والاعتقالات، خاصة ما بين دجنبر 1915 ويناير 1916. وعلى الرغم من كل الإجراءات الوقائية التي قامت بها الشرطة، فقد نظم العمال في 09 يناير 1916، وفقا للأرقام الرسمية، اجتماعات احتجاجية جماهيرية في 55 مصنعا في بتروغراد وحدها. كانت هناك إضرابات في موسكو وخنكوف وريفيل وتفير وإيكاتيرينوسلاف. وقد استلم عمال قطاع الصلب -الذين يشكلون الكتائب الرئيسية للبروليتاريا- مشعل قيادة الإضرابات من عمال النسيج. كان أكثر ما يندى النظام بالخطر هو بداية التأخي بين الجنود في الجبهة. بدأت أخبار تمرد الجيش تصل إلى السلطات من خاركوف واليونان وفرنسا. وكان الفلاحون قد بدأوا في التحرك مما يعكس مزاج الغضب الذي كان يتصاعد في القرى، وخاصة بين أفقر الفئات التي تحملت أكثر من غيرها وطأة الحرب. اندلعت الانتفاضات في كازاخستان وآسيا الوسطى واستمرت عدة أشهر خلال صيف 1916.

كانت تلك نقطة تحول حاسمة. وبحلول 17 أكتوبر، انخرط 45 مصنعا في الإضراب احتجاجا على ارتفاع تكاليف المعيشة والحرب والاستبداد. وفي تطور مبهر انقلبت قوات الجيش ضد الشرطة ودعمت العمال. كما أن القوزاق، الذين أرسلوا لاستعادة النظام، رفضوا إطلاق النار على الجنود. ولم تتمكن السلطات من إعادة الجنود إلى الثكنات في ذلك المساء إلا بصعوبة بالغة. كانت تلك مؤشرات واضحة عن ثورة وشيكة. وقعت إضرابات أخرى في وقت لاحق من شهر أكتوبر، رد عليها الرأسماليون بحملة إغلاقات، فرد عليهم العمال من خلال إضراب عام. خلال شهر أكتوبر بأكمله شارك حوالي 250.000 من عمال بتروغراد في إضرابات سياسية.

1: LCW, *The Defeat of Russia and the Revolutionary Crisis*, vol. 21, p: 379.

2: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, p: 97.

فضحت عملية اغتيال راسبوتين عمق الأزمة التي يعيشها النظام. إن الواقع البشع المتمثل في وجود "رجل دين" سكير مهتك يتآمر مع زمرة حاكمة منحطة ويملي على ملكة مؤمنة بالخرافات ما الذي عليها القيام به، ويوزع العطايا، بل ويقرر حتى السياسة العسكرية، كل ذلك أوصل التناقضات المستعصية بين مختلف أجنحة الدولة إلى ذروتها. قرر قسم من الأرستقراطية ضرورة القضاء على راسبوتين كوسيلة لتجديد النظام وتجنب الكارثة الوشيكة. ونظرا لفشل جميع محاولات إبعاده (بما في ذلك عرض رشوة بقيمة 200.000 روبل نقدا ليعود إلى سيبيريا) بسبب معارضة الملكة، صار الحل الوحيد هو قتله. قام السياسي الرجعي وعدو راسبوتين اللدود، بوريشكيفيتش، إلى جانب زمرة من النبلاء، بتنظيم مؤامرة لاغتياله ووضع الملكة في مصحة للأمراض النفسية، كوسيلة لتحرير القيصر من التأثير الخبيث للطغمة الحاكمة، لكي يتحول بأعجوبة إلى ملك دستوري!

لقد صاحبت مثل هذه الأعلام جميع الملكيات المطلقة خلال فترة احتضارها. لكن العيب الأساسي فيها جميعا هو نفسه: استحالة فصل الأنظمة الملكية، لا سيما المطلقة منها، عن مؤامرات الطغم الحاكمة. ولم يكن نظام راسبوتين سوى مثال أكثر بشاعة عن هذه الظاهرة. إن تفاصيل اغتيال راسبوتين، التي جمعت بين الأحداث المروعة والأحداث الكوميديّة، معروفة وليست بحاجة إلى أن نوليها حيزا كبيرا هنا. فبعد أن تلقى جرعة كبيرة من السيانيد الممزوج في خمرة المفضلة، وتعرض لعدة طلقات نارية، والكثير من الضربات على رأسه، مات راسبوتين فتم ربط جثته بسلاسل حديدية وألقيت في نهر نيفا. احتفل النبلاء بخبر مقتله بشرب كاسات الشمبانيا. وتلقى القاتل الرئيسي، الدوق الأكبر ديميتري، ترحيبا حارا في مسرح البولشوي. لكن القيصر لم يكن راضيا عما حدث. تم نفي ديميتري إلى بلاد فارس، وعلى عكس كل التوقعات صار نيكولا أكثر خضوعا من ذي قبل لسيطرة زوجته المكلومة. وهكذا فإن محاولة إصلاح النظام الملكي عن طريق إجراء عملية جراحية تجميلية كان لها تأثير معاكس عما كان مأمولا.

لم تقدم فكرة ثورة القصر أي حل لروسيا. كانت الأمور قد تفاقمت بشكل كبير. كانت المؤامرات والمناورات التي تدور في القمة شبيهة برجل يرقص على حافة بركان. وفي الوقت نفسه كان المجتمع في حالة من الهيجان المستمر الذي لا يمكن السيطرة عليه. لم تكن لتلك المؤامرات التي تتم في القمة أية علاقة بمعاناة الجماهير التي تزداد سوءا باستمرار. بينما كان المضاربون ومصنعو الأسلحة الأثرياء يزدادون ثراء، كانت الجماهير تعاني من ارتفاع مستمر في الأسعار. ولدفع ديونها الضخمة لجأت الحكومة لطباعة الأوراق النقدية، فزاد عرض النقود ثمانية أضعاف بين عامي 1914 و 1917. وارتفعت الأسعار وأصبح الطعام شحيحا. في موسكو ارتفع سعر الذرة -التي كان يصنع منها الخبز الأسود الروسي- بنسبة 47% خلال السنتين الأوليتين للحرب. وفي نفس الفترة ارتفع سعر زوج من الأحذية بنسبة 334%، وصندوق أعواد الثقاب بنسبة 500%. بحلول نوفمبر 1916 وصلت إمدادات الغذاء للجيش والمدن إلى مستوى حرج. وعشية ثورة فبراير كان على المرأة العاملة المتوسطة في بتروغراد أن تقضي حوالي 40 ساعة أسبوعيا في طابور للحصول على الضروريات الأساسية للحياة. في ظل تلك الظروف لم يكن في مقدور الطغمة الحاكمة أن تثير أي اهتمام عند جماهير العمال والفلاحين الذين يكافحون من أجل البقاء. لكن رائحة الفساد والانحطاط التي كانت تنبعث من النظام ساعدت على تعميق الشعور بالغضب والكراهية والازدراء الذي كان ينضج في أعماق المجتمع. لقد أفلس النظام من جميع النواحي، ليس فقط من الناحية الاقتصادية، بل أيضا من الناحية السياسية والأخلاقية كذلك.

## تغير المزاج

مع تواصل الحرب وبداية التغيير في مزاج الجماهير، بدأ وضع الحزب يتغير، ببطء في البداية، ثم بسرعة متزايدة لاحقا. ولأول مرة بدأت الفرص في الانفتاح أمام الشوار. في بداية الحرب بدا وضع الحركة الثورية ميؤوسا منه، وخلال السنتين الأوليتين، كانت الاحتمالات أمامها ضئيلة. كان اعتقال ومحاكمة أعضاء فريق الحزب في مجلس الدوما قد قضى على أحد الإمكانيات القليلة المتبقية للنشاط الشرعي. ووضعت النقابات التي نجت من الحظر تحت رقابة الشرطة الصارمة، كما تم إغلاق معظم المراكز العمالية الثقافية والتعليمية. كان العمال الذين يشاركون في الإضراب يسلمون إلى الشرطة التي كانت تحرص على إرسالهم إلى الجبهة مع رسالة تضمن أنهم لن يعودوا منها مجددا. وكان معظم المناضلين العماليين إما في السجن أو مختبئين. قوات الحزب انخفضت إلى الحد الأدنى، واضطرت الجماهير إلى التزام الصمت. وتم إصدار عدد قليل من الصحف غير الشرعية داخل روسيا، مثل صحيفة بتروجراد بروليتارسكي جولوس، التي ظهرت أربعة أعداد منها فقط، على فترات زمنية متباعدة.

وفقًا لكتاب تاريخ الحزب الشيوعي<sup>1</sup> كانت عند البلاشفة في ذلك الوقت منظمات في 29 مدينة وبلدة: بيتربورغ وموسكو

1: *Istoriya KPSS*, vol. 2, p: 547.



وآركوف وبيكاتيرينوسلاف وكيف ومكاييفسك وسمارة وساراتوف وريازان ونيزني نوفغورود وروستوف أون دون وأوديسا وبيكاتيرينودار وباكوف وتيفليس وإيفانوفو-فوزنيسينسك وتولا وأوريخوفو وزويفو وتفير وغوميل وفيازما وريفيل ونارفا ويوريفا وإيركوتسك وزلاتاوست وبيكاتيرينبرج وأورينبورغ. لكن الكتاب لا يعطي أي تفاصيل عن تلك المنظمات. من الممكن أن تكون هناك مجموعات صغيرة قد وجدت في وقت أو آخر في كل تلك الأماكن وأكثر. ويشير الكتاب إلى أن البلاشفة كان لهم في أوقات مختلفة وجود في أكثر من 200 مكان مختلف. قد تكون هذه مبالغة. لكن وجودهم في ظل تلك الظروف الصعبة كان محفوظا بالمخاطر وسريع الزوال في معظم الحالات. يبدو أن الاشتراكيين الديمقراطيين اللاتيفيين، الذين كانت لديهم تقاليدهم الصارمة في التنظيم، هم وحدهم من كانوا قادرين على إصدار جريدة سرية منتظمة، بينما الجرائد الأخرى كانت، في أحسن الأحوال، تصدر بشكل غير منتظم. لقد شهدت سنوات الحرب ظهور 11 جريدة سرية، لكنها في مجموعها بلغت 17 إصدارا فقط. أما اللاتيفيون فقد أصدروا 26 عددا، باللغة اللاتفية وبلغت مبيعاتهم رقما مثيرا للإعجاب وصل 80.000، كما أصدروا، بالإضافة إلى ذلك، جرائد باللغتين الليتوانية والإستونية. إلا أن هذا كان استثناءا جدا.

ويعطينا تقرير من مدينة تفير لمحة عن طبيعة الموقف الذي كان سائدا في معظم منظمات الحزب المحلية: «تم انتخاب لجنة المدينة في اجتماع الخريف لعمال المنظمة المحلية للحزب في عام 1915، لكنها لم تتمكن من البدء في العمل النشط إلا في مارس 1916، عندما وصلت مجموعة من عمال الحزب الجدد لمساعدة اللجنة المعطوبة. بدأت مجموعة النقاش عملها على الفور، لكن لم يكن هناك تنسيق في العمل بسبب عدم وجود مركز قيادي. لم يتم حل اللجنة لكنها لم تكن تفعل شيئا. الإضرابات التي اندلعت في النصف الثاني من أبريل انتهت بانتصار العمال في مناسبتين. وانتهت حركة الإضراب في نهاية ماي بهزيمة المنظمة. وخلال تلك الفترة تمكنت المنظمة من إصدار ثلاثة منشورات عن الحرب، وعن لجان الصناعات الحربية، وعن يوم فاتح ماي. تم استئناف العمل في بداية يونيو. وتم تشكيل مركز جديد ووضع خطة عمل (كانت النقطة الرئيسية هي تنظيم التحرير). لقد أصبح العمل أكثر صعوبة بسبب افتقار المركز لأشخاص ذوي معارف وخبرة كبيرة».

من خلال هذه السطور يظهر بوضوح أن الجهاز الحزبي في تفير لم يبدأ في العمل إلا نهاية عام 1915. وحتى ذلك الحين كان ضعيفا جدا (لم يتم تقديم أي أرقام عن عدد الأعضاء) وكان عبارة عن حلقة نقاش أكثر من أي شيء آخر. كان معظم الأعضاء يفقدون إلى الخبرة والتكوين السياسي لإحداث تأثير كبير، وكان نفوذ اللجنة القيادية ضعيفا. وتظهر صورة مماثلة في تقرير من منطقة نيجني نوفغورود. يقدم هذا التقرير أرقاما عن عدد الأعضاء (ما بين 150 و200)، ويقول إنه كانت هناك أربع حلقات نشطة في ضواحي المدينة و14 حلقة أخرى في المصانع، مع لجتين مسؤولتين عن مناطق مختلفة. يبدو أن العمل هناك كان يقوم على أسس أسلم مما كان في تفير. ومع ذلك فقد كان هناك «نقص رهيب في الأدبيات».

«لم نحصل حتى الآن سوى على عدد قليل من نسخ الجريدة. صدرت المنشورات عن الحرب وعن ارتفاع تكاليف المعيشة بنسخ قليلة ومن الصعب الحصول عليها. لم تتمكن حتى من رؤية جريدة كومينست. جميع الأعمال داخل المنظمة، بما في ذلك أعمال الدعاية البحتة (توجد خلية للدعاية من ستة أعضاء) يتم تنفيذها حاليا من قبل العمال. إن العيب الرئيسي للمنظمة هو النقص شبه الكامل في الأشخاص ذوي المعرفة النظرية والخبرة. ولا تشارك القوى الفكرية المحلية في العمل بشكل وثيق وذلك لأسباب مختلفة»<sup>1</sup>.

تشير تقارير لجنة كازان إلى مظاهرة للطلاب ضد الحرب، لكنها لا تقول شيئا عن حجم المشاركة فيها. ومن ناحية أخرى ادعت منظمة آركوف أن «حوالي 120 عضوا» يدفعون المستحقات المالية بانتظام. لكن هذا كان في لاتفيا حيث كانت درجة التنظيم، كما سبق لنا أن أشرنا، أعلى بكثير من أي مكان آخر. بل لقد نجحت منظمة آركوف في طبع جريدتها الأسبوعية (غولوس سوتسيال ديموكراتا) بواسطة الهكتوغراف. كان الجهاز المركزي للمنظمة ضعيفا إلى أقصى الحدود، وكان «مقر» اللجنة المركزية في بتروغراد هو شقة لزوجين، حيث كانت الزوجة هي المسؤولة عن «حماية الصحيفة» والأرشيف الصغير. كانت هناك العديد من نقاط الالتقاء في المدينة حيث يمكن للرفاق الحصول على الصحافة الحزبية، وهو العمل الذي يكتسي خطورة بالغة إذ كان المكان يعج بعملاء الشرطة والجواسيس. كان فاديم (تيخوميروف) مسؤولا عن الشحن السري لأدبيات الحزب من فنلندا إلى المقاطعات، وكذلك تخزينه وتوزيعه في بتروغراد. ولهذا قام بتنظيم مجموعة من الشابات اللواتي يسافرن إلى فنلندا ويسلمن تلك المواد الخطيرة إلى عناوين معينة .

1: A. Shlyapnikov, *On the Eve of 1917*, pp: 181-82.

صحيح أن مزاج اللامبالاة والتشاؤم كان قد بدأ يتبدد تدريجياً. وبدأ عدد متزايد من العمال، الذين كانوا قبل الحرب أعضاء في الحزب، في العودة إليه مجدداً. لكن المشاكل استمرت كثيرة. كانت أقوى المنظمات هي منظمة سان بيترسبورغ. عانت منظمة موسكو طوال الحرب من غياب مركز قيادي حقيقي ولم تتعاف إلا عام 1917 مع تدفق عدد من الرفاق الشباب الجدد. كما عانت موسكو كثيراً من أنشطة المخبرين المندسين. وكانت المشكلة الخطيرة هي الافتقار إلى الأموال، مما منع الجهاز المركزي البلشفي في بيترسبورغ من دعم منظمات المقاطعات. كانت الزيارات العرضية هي كل ما يمكن القيام به. ويتذكر شليابينيكوف ببعض المرارة كيف كان الرفاق السابقون، الذين كانت لديهم وظائف بأجور جيدة، يترددون في التبرع للحزب السري، رغم أن العديد منهم انضموا إليه لاحقاً. يمكننا أن نتفهم تلك النبرة المريرة إذا أخذنا في الاعتبار المخاطر والمصاعب التي كان المناضلون يقاسونها في العمل السري كل يوم:

«كان علينا أن نعمل في ظل ظروف صعبة للغاية. لقد أثبتنا قدرتنا على تجميع العديد من الرفاق النشيطين من حولنا. لكننا، وبسبب نقص الموارد، لم ننجح في توسيع العمل على نطاق أكبر. لقد كنا فقراء جداً. ومن 02 دجنبر 1916 إلى 01 فبراير 1917، لم يدخل إلى صندوق اللجنة المركزية سوى 1117 روبل و50 كوبيكا فقط. كان علينا أن ننجز جميع الأعمال بهذه الإمكانيات. وإذا أرسلنا منظماً إلى المحافظات، لم يكن يمكننا أن نضمن دعمه حتى ولو لشهر واحد؛ وبالتالي كان علينا الاعتماد على الزيارات العابرة من قبل الرفاق لمختلف المناطق أو على ضربات الحظ. أنفق المكتب القليل من المال لدعم موظفيه. كان الأغلبية يحصلون على أجورهم لكن المشتغلين في السرية لم يكونوا يحصلون حتى فبراير 1917 على أكثر من 100 روبل في الشهر. كان توفير الأدبيات يتطلب الكثير من الأموال، لكننا لم نتمكن من تخصيص الكثير لها.

لم تكن ظروف البقاء الشخصي أقل صعوبة. فمنذ الأيام الأولى لوصولي، عندما أصبحت هدفاً لأعين الجواسيس، كان من الواضح لي أن الاستقرار في شقتي الخاصة، والحصول على جواز سفر ساري المفعول، وغير ذلك من أشكال الرفاهية، في مثل حالتي تلك، بمثابة وصفة لكارثة حقيقية. لكي أتمكن من مراوغة المخبرين كان علي التوفر على أكبر عدد ممكن من المنازل. لقد ساعدني الرفاق في العثور على أماكن، وكان علي أن أغير مكاني في كل ليلة. كانت تلك المنازل مشتتة في أجزاء مختلفة من بيترسبورغ، بما في ذلك أطرافها؛ كان هناك على سبيل المثال منزل في غرازدانكا وآخر في غالي هاربور، وكذلك آخر بينهما في وسط المدينة. كانت حياتي قد تحولت إلى تجوال دائم. كان من الصعب علي الكتابة والقراءة، بل وفي بعض الأحيان كان من الصعب علي حتى أن أفكر عندما كان بعض الرفاق المضيفين يشاركونني، في كثير من الأحيان، في نقاش برامجهم السياسية ومحادثاتهم الممتعة في أعماق الليل. يمكنك أن تستمر في القيام بهذا لمدة شهرين أو ثلاثة، لكن طاقتي البدنية لم تسمح لي بأكثر من ذلك»<sup>1</sup>.

إلا أن النهوض الذي كانت الحركة العمالية قد بدأت تعرفه كان بمثابة محفز لاستعادة البلاشفة لنشاطهم. وقد ظهرت أولى علامات التعافي في المقاطعات. ففي فبراير ومارس 1916، ظهرت في حوض دونتس، وهي منطقة رئيسية لإنتاج الفحم، منشورات تدعو العمال إلى تنظيم صفوفهم وترفع شعارات البلاشفة. وفي أوائل شهر أبريل، اندلع أول إضراب في زمن الحرب في حقل دونتس للفحم، شارك فيه حوالي 50.000 عامل. انطلقت الإشارة إلى الإضراب من المنجم الذي ظهرت فيه المنشورات البلشفية. وقد تم انتخاب لجنة إضراب في منجم واحد على الأقل. فقامت السلطات بإرسال كتبتين من الجنود إلى حقل الفحم، لكن الجنود رفضوا قمع المضربين، بل حتى الشرطة أبدت ترددها في التحرك. محاولة الإدارة لتحويل الإضراب إلى مسارات معادية للسامية تم التصدي لها بقوة من قبل العمال. وفي الأخير تمكنت السلطات من «استعادة النظام»، لكن فقط بعد مقتل أربعة عمال وجرح 20 آخرين. انهزم الإضراب لكن مزاج العمال تغير. وقد انعكس هذا الواقع في نمو التنظيم الثوري:

«بالتزامن مع موجة الإضراب بدأت تشكل مجموعات سياسية قوية، واكتسبت الخلايا العمالية بسرعة قوة كما لو أن العمال يريدون تعويض الوقت الثمين الضائع. بدأوا في البحث عن روابط بين بعضهم البعض. وكان ذلك قد صار سهلاً آنذاك، خلال الإضرابات أصبحت كل تلك المجموعات والخلايا تعرف بعضها البعض. وفي تلك اللحظة اتحدوا جميعاً لتشكيل المنظمات الاشتراكية الديمقراطية في حوض دونتس، والتي كانت قوانينها وبرامجها مستمدة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي».

وهكذا بدأ البلاشفة، شيئاً فشيئاً، يعيدون تنظيم صفوفهم ويحققون النمو: «على الرغم من تصاعد القمع والاعتقالات الجماعية وفقدان عمال الحزب، تطورت منظمنا السرية وتعززت قواها. كانت أقوى منظمة غير شرعية في بيترسبورغ هي لجنة بيترسبورغ التابعة لحزبنا والتي ضمت حوالي 3 آلاف عضو، ويمكن اعتبار غالبية عمال بيترسبورغ متعاطفين مع سياستنا المناهضة للحزب. ومن

بين المنظمات الشرعية لحزبنا لم تتبق سوى لجنة التأمين العمالي، والتي كانت تشكل أيضا المركز الروسي لصناديق المستشفيات وجريدته فوبروسي ستراخوفانيا. كان قد تم منع نشاط هذه المؤسسات وصار العديد من أعضاء مجموعة التأمين في السجن أو المنفى»<sup>1</sup>.

وعلى الرغم من أوجه القصور المزمنة التي كان يعاني منها الجهاز، فإنه من نهاية يوليو 1916 إلى 01 مارس 1917، أنتجت المنظمات البلشفية المحلية أكثر من 600 منشور مختلف بإجمالي نسخ بلغ حوالي مليوني نسخة طبعت في حوالي 80 بلدة ومدينة مختلفة، مما ساهم في تعويد جماهير العمال والجنود على الشعارات البلشفية. وعلى الرغم من الطبيعة غير المنتظمة وغير المستقرة لهذه المنشورات السرية، فإنها لعبت دورا مهما في ظرفية كان من غير الممكن عمليا خلالها نشر الأفكار الاشتراكية الديمقراطية بطريقة شرعية. كان لا بد من استخدام كل ثغرة قانونية، على الرغم من أنها كانت محدودة للغاية. كانت النقابات العمالية في بتروغراد قد أغلقت، على الرغم من السماح لبعض "الجمعيات المهنية" بالوجود. في موسكو كانت النقابات مسموحا بها من الناحية النظرية، لكنه كان في الإمكان تعرض العمال الذين يشاركون فيها للعقاب بموجب القانون. وفي ظل تلك الظروف كانت الثغرات مثل مجموعات التأمين الصحي وما شابهها تكتسي أهمية كبرى. وقد استخدمها الثوار بأفضل ما في وسعهم للحفاظ على العلاقات مع الجماهير، بما في ذلك الفئات الجديدة من النساء والشباب.

### العمل بين النساء

واجه العمل الاشتراكي الديمقراطي الثوري في روسيا صعوبات هائلة خلال الحرب العالمية الأولى. كان الحزب والنقابات منظمات محظورة. لكن بحلول 1915 بدأت الحركة تتعافى من الضربات التي كانت قد تلقتها خلال الأشهر الأولى من الحرب. ومن بين المجالات التي بدأت تتحقق فيها مكاسب مهمة مجال العمل بين النساء، اللاتي كن قد ولجن سوق العمل الصناعي بأعداد كبيرة. شكلت النساء عند اندلاع الحرب ما يقرب من ثلث العمال الصناعيين، وكان القسم الأكبر منهن يعملن في صناعة النسيج. وقد ارتفع هذا العدد أكثر مع استمرار الحرب بسبب تعبئة الرجال للخدمة العسكرية. ازدادت حالة النساء سوءا خلال الحرب، حيث أصبحت العديد منهن العائل الوحيد لأسرهن وصارت ضروريات الحياة أكثر ندرة وأكثر تكلفة. وقد شاركت النساء العاملات في العديد من الإضرابات والمظاهرات ضد المصاعب الاقتصادية الناجمة عن تورط روسيا في الحرب.

«وضع الطبقة العاملة صعب، لكن وضع المرأة العاملة أسوأ بكثير. فهي في المصنع والورشة، تعمل لصالح رب العمل الرأسمالي، وفي المنزل تعمل لصالح العائلة.

تبيع آلاف النساء عملهن لرأس المال؛ الآلاف منهن يدفعن إلى لجة العمل المأجور؛ والآلاف ومئات الآلاف منهن يعانين تحت نير الأسرة والاضطهاد الاجتماعي. إن الغالبية العظمى من النساء العاملات تعتقدن أن هذا هو ما يجب أن يكون عليه الوضع. لكن هل صحيح حقا أن المرأة العاملة لا يمكنها أن تأمل بمستقبل أفضل، وأن القدر حكم عليها بأن تعيش كل حياتها في الكدح والكدح، ليلا ونهارا دون راحة؟»<sup>2</sup>.

الفقرة السابقة مأخوذة من منشور بعنوان: "إلى النساء العاملات في كييف"، والذي تم توزيعه من قبل البلاشفة في كييف (أوكرانيا)، في 08 مارس (اليوم العالمي للمرأة)، 1915. يعطينا المنشور فكرة عن كيف كان البلاشفة يطرحون المسألة النسائية في تحريضهم العام. كان نداءهم يربط اضطهاد النساء بمعاناة العمال الذكور، وبرنامج لتحرير الطبقة العاملة بأكملها.

كانت الحرب كارثة على شعب روسيا. فمنذ بدايتها وجه الألمان ضربات مدمرة متتالية للقوات الروسية. وفي الحملة الصيفية لعام 1915، تم طرد الروس من غاليسيا<sup>3</sup> وكان الجيش الألماني على وشك الاستيلاء على كل بولندا ودول البلطيق وبييلاروسيا. لقد عانت الجيوش القيصرية الضعيفة من هزائم مذلة متتالية. ومع حلول صيف 1914، كان هناك 150 ألف روسي بين أسرى الحرب. ومع نهاية الحرب ارتفع عدد الروس الذين قتلوا في الجبهة إلى 1,8 مليون. جيوش القيصر التي كانت في السابق تبدو وكأنها لا تقهر، بدأت تتحول تدريجيا إلى أشلاء. لتعويض تلك الخسائر الفظيعة، تم استدعاء ملايين العمال والفلاحين (ما يقرب من 16 مليون بحلول نهاية الحرب). ولتعويض اليد العاملة المفقودة في الصناعة، تم سحب فئات جديدة إلى المصانع -النساء والشباب

1: Ibid., pp: 163, 164.

2: John Riddel : *Lenin's Struggle for a Revolutionary International*, p: 268.

3: كانت غاليسيا جزءا من بولندا التي كانت تحت الحكم النمساوي قبل الحرب العالمية الأولى.

والفلاحين- والتي كانت بدون أي خبرة سابقة في حياة المصنع أو النضال الطبقي. تسبب ذلك في مزيد من الصعوبات للثوريين. لكن ظروف الحرب القاسية سرعان ما قامت بتعليم تلك الفئات الجديدة.

كانت النساء هن الضحايا الرئيسيات للحرب. لم تكن المعاناة والموت في الجبهة سوى أحد وجهي الحرب، أما الوجه الآخر، الذي هو أقل شهرة لكنه ليس أقل رعباً، فقد كان مصير تلك الملايين من نساء الطبقة العاملة والفلاحين اللائي رأين عالمهم ينهار إلى أنقاض كما لو كان بأمر من إله قاس وجبار. بعد أن تم تجنيدهن في المصانع لاستبدال رجالهن الذين تم إرسالهم إلى الجبهة، كان على النساء البروليتاريات تحمل العبء الأكبر من المشاكل الاجتماعية للحرب. تلك النساء، اللائي كن في السابق متخلفات وغير منظمات، سرعان ما تعلمن درسا قاسيا في مدرسة حياة المصنع، وتغيرن. كن يتعرضن للاستغلال والقمع في المصنع والمنزل، ويعملن لساعات طويلة في ظل ظروف سيئة، وذلك فقط لكي يجدن في نهاية الشهر أن أجورهن قد تآكلت بسبب الارتفاع الحاد في الأسعار، كن يرين أن أرباب العمل الأثرياء يسرقون حرفيا لقمة الخبز من أفواه أبنائهن. وبعد أن نحين جانبنا كل الأفكار المسبقة التقليدية حول دور المرأة، قمنا باحتلال الخط الأمامي للمعركة.

«وجد تحقيق أجراه المجلس الخاص للدفاع بين 700.000 من العاملين في مجال الصناعة الحربية، في عام 1917، أن 17% من العمال كن نساء و12,5% من المراهقين. وفي الصناعة التحويلية عموما ارتفعت نسبة النساء من 27,4% عام 1914، إلى 34,2% في يناير 1917؛ بينما ارتفعت نسبة المراهقين والأحداث (من الجنسين) من 10,9% إلى 14%. وفي صناعة الهندسة، كانت النساء العاملات، عام 1913، لا تشكلن سوى 1,1% من إجمالي عدد العمال، لكن النسبة ارتفعت إلى 14,3% في يناير 1917؛ بينما ارتفعت النسبة المئوية للمراهقين والأحداث من 9,4% إلى 11,7%. وفي صناعة النسيج، حيث كانت النساء تقمن دائما بدور مهم للغاية، تضاعفت نسبتهن الآن [1917] لتصل إلى 43,4%. تم تشغيل النساء للعمل حتى تحت سطح الأرض في المناجم. وقد أظهرت سجلات تفتيش المصانع أن عدد النساء والشباب كان مساويا لعدد الرجال»<sup>1</sup>.

لقد أكد لينين باستمرار على الإمكانات الثورية لهؤلاء النساء البروليتاريات وأصر على أن يتخذ الحزب تدابير خاصة لكسبهن للقضية الثورية. ومن أجل هذه الغاية قام البلاشفة، في عام 1914، بإصدار صحيفة نسائية تدعى رابوتنيتسا (المرأة العاملة). وكان الحزب خلال النهوض الثوري لسنوات 1912-1914، قد بدأ بالفعل في القيام بعمل ثابت بين النساء، ونظم أول نشاط لتخليد اليوم العالمي للمرأة في روسيا في عام 1913. وفي الوقت نفسه بدأت برافدا في نشر صفحة ثابتة مكرسة للقضايا التي تؤثر على النساء. صدر العدد الأول من رابوتنيتسا في اليوم العالمي للمرأة، ليتزامن مع مظاهرة نظمها الحزب. كان تمويل رابوتنيتسا يتم، على غرار برافدا، بفضل المساهمات التي كانت النساء تجمعهن في المصانع. وقد تضمنت مقالات عن ظروف النساء العاملات وأخبارا عن نضالاتهن. كما تضمنت مقالات عن وضع النساء في البلدان الأخرى. وفي نفس العام الذي ظهرت فيه رابوتنيتسا، كان المناشفة قد بدأوا بدورهم في نشر صحيفة نسائية. لكن هذه المنشورات شاطرت نفس المصير الذي عرفته بقية الصحافة العمالية في روسيا بعد يوليو 1914.

لم يكن لعمل الحزب البلشفي بين النساء أي علاقة على الإطلاق مع النزعة النسوية البرجوازية أو البرجوازية الصغيرة، فقد كان مشبعا بروح ثورية وطبقية حازمة. ومنذ البداية شجع البلاشفة النساء على تنظيم صفوفهن والانضمام إلى نضال العمال الرجال، وحثوهن على مقاطعة الحركات التي أنشأتها النساء البرجوازيات بعد هزيمة ثورة 1905. وفي النشرة التي أشرنا إليها مسبقا نقرأ ما يلي:

«أيتها الرفيقات! أيتها النساء العاملات! إن رفاقنا الرجال يكدحون معنا. مصيرهم ومصيرنا واحد. لكنهم وجدوا منذ فترة طويلة الطريق الوحيد نحو حياة أفضل: طريق النضال العمالي المنظم ضد رأس المال، طريق الكفاح ضد كل أشكال القمع والشر والعنف. أيتها النساء العاملات، لا يوجد طريق آخر أمانا. إن مصالح رجال ونساء الطبقة العاملة متشابهة، إنها مصلحة واحدة. ولن نحصل على حقوقنا ونكسب حياة أفضل إلا من خلال خوض صراع موحد إلى جانب العمال الرجال، وفي المنظمات العمالية المشتركة، في الحزب الاشتراكي الديمقراطي والنقابات والنوادي العمالية والتعاونيات».

لقد تبنى الحزب بالطبع المطالب ذات الأهمية الخاصة بالنسبة للنساء، مثل عطلة الحمل والأمومة والمساواة الكاملة في الحقوق المدنية والعائلية بين الرجال والنساء، وما إلى ذلك. لكن كل هذه المطالب أخذت كجزء من النضال العام للطبقة العاملة ككل وربطت بشكل لا ينفصل بمنظور الثورة الاشتراكية: «أيتها الرفيقات! أيتها النساء العاملات، لنذهب إلى العمل! فلنوظف كل من ما

1: J.L.H. Keep, *The Rise of Social Democracy in Russia*, p: 49.

زالوا نائمين؛ فلنتحد في النضال من أجل مطالب الطبقة العاملة بأكملها»<sup>1</sup>.

ومع تدهور الأوضاع بدأت النساء في المشاركة أكثر فأكثر في الإضرابات والمظاهرات ضد الظروف المرعبة التي تسببت فيها الحرب، ولم يتوقفن عند المطالب الاقتصادية فقط. قامت العاملات في صناعة النسيج في كوستروما بتوزيع منشور بين الجنود بعنوان: "من المرأة الروسية إلى الجندي الروسي". فقام النظام المذعور بشن حملة قمع، حيث تم إرسال القوات والقوزاق إلى كوستروما، وفي 05 يوليو وقعت اشتباكات دموية قتل فيها 12 شخصا وجرح 45 آخرون. في عام 1915 شكلت الإضرابات السياسية 20% من بين جميع الإضرابات، في حين كانت النسبة خلال 1914 هي 11% فقط. وقد أسفر عمل الحزب البلشفي بين النساء عن نتائج باهرة. وخلال أيام الحرب المظلمة لعبت النساء البلشفيات دورا رئيسيا في التحريض ضد الحرب وضد الشوفينية. ليس من قبيل المصادفة أن الثورة الروسية في فبراير 1917 بدأت في اليوم العالمي للنساء، وأن المبادرة الأولى جاءت من جانب العاملات اللاتي كن قد صقلن بنار الحرب.

### تحركات سلمية

كانت مشاعر الاستياء ضد الحرب أكثر حدة بين النساء بالطبع، لأنهن كن من نواح كثيرة الضحايا الرئيسيات لها. أخذت الصحيفة النسائية البلشفية (رابوتنيستا) مبادرة الدعوة إلى تنظيم كونفرانس أممي للنساء الاشتراكيات اليساريات، وقدمت مقترحا بذلك لكلا زيتكين، التي كانت آنذاك سكرتيرة المكتب الأممي للنساء، والتي عبرت فوراً عن موافقتها عليه. في مارس 1915 اندلعت في أوسلو مظاهرات حاشدة للنساء ضد الحرب. وفي نفس الشهر انعقد في بيرن كونفرانس آخر للنساء الاشتراكيات الألمانيات والنمساويات والمجريات، بدعوة من القياديات الاشتراكيات الديمقراطيات في الكتلة الألمانية، وذلك حرصاً منهن على ألا يتفوق عليهن نظرائهن في بلدان الوفاق. انتبه لينين سريعا إلى أن تلك فرصة من أجل الدعاية للأفكار الأممية الثورية. لقد كانت تلك فرصة للقيام بعمل مهم بين النساء.

حضرت الكونفرانس 25 منتدبة من ثمانية بلدان. كان البلاشفة ممثلين بأربع منتدبات، من بينهن إينيسا أرماند وكروبسكايا. كما دافعت المنتدبة عن الحزب الاشتراكي البولندي، كامينسكايا، بدورها عن موقف لينين ثوري. لكن أغلبية المشاركين كن إصلاحيات متذبذبات وسطييات مسالمات.

لو أن روزا لوكسمبورغ كانت حاضرة، لكانت قد أحدثت فرقا، على الأقل في طبيعة النقاشات إن لم يكن في النتيجة النهائية. لكن روزا كانت معتقلة في سجن ألماني، واحتلت مكانها كلارا زيتكين، التي، كما توقع لينين، قدمت كل أنواع التنازلات لصالح الأغلبية من أنصار النزعة السلمية، وميعة موقف لينين وأفرغته من جوهره الثوري.

لو أن ذلك الكونفرانس تبنى موقفا شجاعا بشأن الحرب لكان بمثابة دعوة لحشد اليسار على الصعيد الأممي. كتب لينين إعلانا لذلك الاجتماع لكن لم يتم إقراره، وعوض ذلك اتخذت الأغلبية موقفا يقول: "لا يمكننا انتقاد الأحزاب"، ويجب علينا أن نقتصر على "دعم السلام". وعندما عارضت المندوبات البلشفيات هذا الأمر وتمسكن بموقفهن، تعرضن لسيل من الانتقادات، ووصفن بأنهن عصبويات وانشقاقيات لوقفهن في طريق الوحدة. كان لينين قد توقع مسبقا مثل هذه الاتهامات التي سبق له أن سمعها مرارا. فلطالما اتهم الإصلاحيون والوسطيون اليساريين الثوريين الحقيقيين بكونهم "عصبويين" لأنهم يرفضون المساومة على المسائل المبدئية. وفي هذا الصدد، كتب لينين إلى ألكسندرا كولونتاي قائلاً: «تؤكدين على أن "ما يجب علينا أن نطرحه هو شعار يوحدنا جميعا". بصراحة، إن ما أخشاه أكثر من أي شيء آخر، في الوقت الحالي، هو هذا النوع من الوحدة العشوائية، والتي هي في رأبي الشيء الأخطر والأكثر ضرا على البروليتاريا».

كان لينين غاضبا ولم يدخر أي عبارة في سياق إدانته لمبادرات السلام المزعومة تلك. وبالرغم من أن كلارا زيتكين كانت صديقة له، فإنه ركز نقده بشكل خاص على الدور الذي لعبته. وقال: «كان يتعين عليها أن ترى أن الانزلاق إلى النزعة السلمية في مثل هذا الوقت شيء مستحيل. لابد من التأكيد بشدة على جميع القضايا التي هي على المحك».

لم يول لينين أي اهتمام لتهم "الانشقاق" التي وجهت له. وقال ذات مرة: «بغض النظر عن قلة عدونا، فإن الملايين سيكونون

1: *Lenin's Struggle for a Revolutionary International*, pp: 268, 269.

معنا»<sup>1</sup>. وفي رسالة أخرى إلى ألكسندرا كولونتاي، كتبها في يوليو 1915، أكد على عدم جواز إبرام اتفاقات غير مبدئية مع كاوتسكي و"اليمن" بداعي الحفاظ على الوحدة: «في ما يتعلق بالقضايا الأممية علينا ألا نقبل بالتقارب مع هاس- برنشتاين- كاوتسكي (لأنهم في الواقع يريدون الوحدة مع أمثال زوديكوم<sup>2</sup> وحمائهم، إنهم يريدون الاختباء وراء عبارات يسارية وعدم تغيير أي شيء في الحزب الفاسد القديم). لا يمكننا أن ندافع عن شعار السلام، لأننا نعتبره في أقصى الحالات شعارا مخادعا مسالما برجوازيا صغيرا، في خدمة الحكومات (التي تريد الآن أن تكون جزئيا "مع السلام" من أجل الخروج من الصعوبات التي تواجهها) وتعرقل النضال الثوري.

في رأينا، ينبغي على اليسار أن يصدر إعلان مبادئ مشترك: (1) يدين بلا موارد الاشتراكيين الشوفينيين والانتهازيين، (2) يطرح برنامجا للعمل الثوري (سواء أطلق عليه الحزب الأهلية أو النضال الجماهيري الثوري، فهذا ليس مهما جدا)، (3) يقف ضد شعار "الدفاع عن الوطن"، إلخ. سيكون لإصدار "اليسار" لإعلان مبادئ، باسم عدة بلدان، أهمية هائلة (بالطبع ليس بنفس العبارات الجبنة التي تبنتها زيتكن في كونفرانس النساء في بيرن؛ حيث تهربت من مسألة إدانة الاشتراكية الشوفينية!! بدافع الرغبة في "سلام" مع زوديكوم وكاوتسكي؟؟)<sup>3</sup>.

أيما قليلة بعد ذلك انعقد كونفرانس الشباب الاشتراكي الأممي في مدينة برن أيضا، بدعوة من الأمين العام للشبيبة الاشتراكية السويسرية، ويلي مونزينبرغ. رفضت الشبيبة الاشتراكية الألمانية والفرنسية المشاركة، بحجة أن مسألة الحرب خارج اختصاصهم. نفس الموقف عبرت عنه الشبيبة الاشتراكية النمساوية. لكن وعلى الرغم من ذلك جاء مندوبون من ألمانيا وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ممثلا من قبل إينيسا أرماند وج. إ. سافاروف. وهنا أيضا كانت الأغلبية لصالح "الوسطيين". خسر مقترح القرار البلشفي بـ13 صوتا مقابل 03 وتم تبني قرار سلمي، كما كان الحال في اجتماع النساء. إلا أن الكونفرانس قرر الاحتفال سنويا بـ"يوم أممي للشباب" (المناهض للنزعة العسكرية) وأصدر جريدة "الشباب الأممي"، التي نشرت مقالات كتبها لينين وليكنخت.

قال لينين عن كونفرانس الشباب إنه مفعم بالنوايا الحسنة، لكنه تجنب المسألة الأساسية أي القطع الحاسم مع الاشتراكيين الشوفينيين. لم تذهب هذه الجهود بعيدا، فالوقت لم يكن قد حان بعد. ولم تكن الظروف ناضجة بما فيه الكفاية لحدوث تحول كبير في اتجاه اليسار. قد يقال، من جهة أخرى، إن موقف لينين لم يكن يحصل على الأغلبية لأنه كان يذهب أبعد وأسرع مما يسمح به الوضع، لكن ومع استمرار الحرب بدون نهاية في الأفق تغير الواقع. بدأ التيار في العديد من البلدان يتدفق في اتجاه اليسار، وفي النهاية انعكس هذا داخل المنظمات الجماهيرية، بدءا بالنقابات التي بدأت تعكس مزاج الغضب المتنامي بين صفوف الجماهير ضد الارتفاع الرهيب في الضرائب والاستغلال والتضخم، وهو ما تم التعبير عنه في موجة من الإضرابات. في بريطانيا كان ميلاد حركة مندوبي المصانع نتيجة مباشرة لتجذر العمال من جهة، والتعاون الطبقي والبيروقراطية النقابية من جهة أخرى.

كانت أول نتيجة لهذا الغليان الثوري هو تقوية التيارات الإصلاحية اليسارية والنزعة الوسطية في قيادة الأحزاب الاشتراكية. كانت التصريحات المساملة لهؤلاء القادة تعكس بطريقة مشوهة وبائسة الرغبة الشديدة في السلام وكرهية الحرب الإمبريالية عند جماهير العمال والفلاحين والجنود والنساء. وفي يونيو 1915، نشر كاوتسكي وهاس وبرنشتاين بيانا ظهر في جريدة لايبزيغر فولكسزيتونغ، بعنوان "مطالب اللحظة"، للاحتجاج على "حرب الإلحاقات" والدعوة إلى إبرام السلام بسرعة. كان هذا الموقف المتأخر من جانب القادة الانتهازيين انعكاسا مشوها للمزاج السائد بين الجماهير. وقد حرص لينين، كلما سنحت له الفرصة، على تسليط نقد شديد للنزعة السلمية للوسطيين.

## مؤتمر زيموالد

على الرغم من أن البلاشفة لم تكن لديهم، من الناحية الرسمية، أي منظمة أممية، فإنهم لم يتوقفوا عن اعتبار أنفسهم جزءا من تيار أممي. لم يتخل لينين أبدا عن فكرة إعادة بناء أممية ثورية حقيقية. كان البلاشفة يتابعون عن قرب الحياة الداخلية لجميع الأحزاب الاشتراكية. وكان لينين كل يوم ينقب بشغف في الصحف الاشتراكية الأجنبية، ويرحب بحماس بكل هجوم تشنه

1: N.K. Krupskaya, Reminiscences of Lenin, pp: 301, 303.

2: ألبرت أوسكار ويلهلم زوديكوم (1871-1944) قيادي في الحزب الاشتراكي الألماني، من أنصار الدفوع عن الوطن خلال الحرب العالمية وتحالف الحزب الاشتراكي مع البرجوازية. -المترجم-

3: LCW, To Alexandra Kollontai, 11/7/1915, vol. 35, pp: 193-194.

على الاشتراكية الشوفينية. وبينما كان ينادي بضرورة إجراء قطيعة سياسية حاسمة مع اليمين، فإنه لم يقترح أبدا مغادرة المنظمات الجماهيرية للطبقة العاملة، بل العكس هو الصحيح، فقد أصدر المكتب السياسي تعليمات إلى جميع البلاشفة الذين يعيشون في الخارج بإنشاء "أندية أممية" محلية. وصدرت التعليمات لأولئك الذين لديهم معرفة بلغة البلد الذي يوجدون فيه بالمشاركة في الحركة العمالية لذلك البلد، وخاصة في الأحزاب الاشتراكية. كان التأكيد بشكل كبير على ذلك ليس فقط باعتباره وسيلة لكسب علاقات جديدة مع الأميين في البلدان الأخرى، بل أيضا من أجل تفادي الإحباط الذي قد ينشأ حتما عن العزلة عن الحركة العمالية، التي تميز منظمات المنفى في كثير من الأحيان. إلا أنه كان هناك بعد آخر لهذا العمل.

كانت فكرة إنشاء أممية جديدة قد بدأت بالفعل تتشكل في ذهن لينين. لكنه كان يدرك تمام الإدراك أن مثل تلك المنظمة لا يمكن أن تأتي إلى الوجود بمجرد إعلانها. كان لابد من بنائها من خلال النضال ضد الاشتراكيين الشوفينيين وبلورة تيار أممي ثوري. كان انفصال البلاشفة عن المناشفة قد استغرق عشر سنوات، ولم يتحقق إلا عندما تمكن البلاشفة من كسب أكثر من أربعة أخماس الطبقة العاملة المنظمة إلى رأيهم. لكن البلاشفة والمناشفة تعايشا لفترة طويلة، حتى عام 1912، كفصيلين متصارعين داخل حزب واحد. كان البلاشفة يشاركون بنشاط مع التيارات اليسارية لمختلف الأحزاب الاشتراكية في الخارج. كان كل من إينيسا أرماند وغوبنر وستال يشتغلون داخل الحزب الاشتراكي الفرنسي وكان أبراموفيتش وآخرون يشتغلون داخل الحزب الاشتراكي السويسري، الذي كان لينين بدوره يساهم فيه بالمحاضرات. كما حافظ شليابنيكوف على اتصال وثيق مع الاشتراكيين الديمقراطيين السويديين والنرويجيين، الخ. لقد وضع هذا العمل الأساس لنشوء اليسار الزيمروالدي، وبالتالي الأممية الشيوعية مستقبلا. لكنه لم يكن من الكافي القيام بالعمل الثوري المعزول في كل بلد على حدة، بل كان من الضروري الدعوة إلى عقد كونفرانس أممي للييسار.

جرت المحاولات الأولى لعقد اجتماع أممي في خريف عام 1914، في لوغانو (سويسرا). آنذاك أصدر الاشتراكيون الديمقراطيون الإيطاليون والسويسريون توصيات مناهضة للحرب، لكنهم أفسدوها بمناشدهم لمكتب السكرتارية الأممية بأن تدعو لعقد اجتماع في أقرب وقت ممكن لمناقشة الأوضاع العالمية. وبطبيعة الحال فإن البلاشفة، الذين شاركوا في اللقاء بأطروحات لينين حول الحرب، لم يدعموا تلك المناشدة. وكما كان متوقعا جاءت قرارات لوغانو مشوبة عموما بالنزعة السلمية. وفي الأخير انتهى بالفشل، إلا أنه مع ذلك يمكن اعتباره نصف خطوة إلى الأمام، وأفضل من لا شيء على أي حال. استخدمه البلاشفة كنقطة انطلاق للدعوة لعقد كونفرانس أممي حقيقي للجنح الثوري.

في نوفمبر 1914، حضر شليابنيكوف مؤتمر الاشتراكيين الديمقراطيين السويديين، في ستوكهولم، حيث دافع عن الموقف البلشفي، مما تسبب في خلق عاصفة من النقاشات. كان لارين حاضرا في ذلك اللقاء باسم المناشفة. وكما كان متوقعا فقد اتخذ القيادي السويدي، كارل برانتنج، موقف الامتناع عن التصويت ("لا يمكننا التدخل في شؤون الأحزاب الأخرى"). لكن شليابنيكوف تلقى الدعم من زعيم التيار اليساري داخل الحزب الاشتراكي السويدي، كارل هولوند. كانت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في البلدان الصغيرة المحايدة تميل إلى تبني موقف مهادن قلق "مسالم"، كان لينين يكرهه بشدة. لم يكلف البلاشفة أنفسهم عناء حضور الكونفرانس الذي دعا إليه اشتراكيو الدول "المحايدة" (السويد والنرويج والدنمارك وهولندا) في كوبنهاجن، في يناير 1915، وقال لينين باستخفاف: «لن نتعلم أي شيء. لا يمكنك أن تحقق أي شيء هناك. سنكتفي بإرسال بياننا فقط. هذا كل ما يتعين علينا القيام به»<sup>1</sup>.

والأسوأ من ذلك كان هو مناورات القادة "الاشتراكيين" من الدول المتحاربة، الذين كانوا عملاء واعين للطبقة السائدة. في فبراير 1915، انعقد في لندن، كونفرانس لاشتراكيي بلدان الوفاق (بريطانيا وفرنسا وبلجيكا). ومن روسيا تمت دعوة المناشفة والاشتراكيين الثوريين. احتج البلاشفة في لندن ضد اقتصار الدعوة على اشتراكيي بلدان الوفاق وحدهم وأيضا ضد دعوة المناشفة. دعت صحيفة ناشي سلوفو البلاشفة إلى تنظيم مظاهرة في الكونفرانس ضد "النزعة الاشتراكية الوطنية" ومواجهة كونفرانس لندن بالموقف الأممي الحقيقي. وقد قام لينين، بعد فترة تردد، بإرسال مشروع قرار إلى هيئة تحرير ناشي سلوفو ليقرأوه في الكونفرانس<sup>2</sup>. لكنه كانت بين البلاشفة اختلافات حول كيفية التعبير عن الموقف. وفي النهاية حاول ليتفينوف أن يقرأ في الاجتماع توصية مناهضة للحرب، باسم البلاشفة، لكن رئيس الجلسة أوقفه. لذا فإنه بعد أن انتهى من توزيع نسخ من البيان على الحاضرين انسحب من الاجتماع.

كانت الظروف قد بدأت تنضج لعقد كونفرانس أممي للتيارات اليسارية. وكان الحزبان الإيطالي والسويسري (اللدان كان يسود صفوفهما مزاج قوي مناهض للحرب) في وضع أفضل لتنظيم ذلك الكونفرانس. كان قائدا هذه المبادرة (غريم وبابانوف) ينتميان إلى التيار الوسطي. قاما بتنظيم كونفرانس في بيرن، في يوليو 1915، لكنهما لم يدعوا أيا من المجموعات اليسارية الحقيقية، واكتفيا

1: V.I. Lenin, *Collected Works*, (بالروسية), vol. 49, p: 51.

2: V.I. Lenin, *Collected Works*, (بالروسية), vol. 26, p: 128.

بدعوة قادة "الوسط": هوغو هاس وكارل برانتنغ وبيتر ترويلسترا، وهو ما احتج عليه البلاشفة. كان الشغل الشاغل لغريم هو إثبات أن الظروف غير مناسبة لتأسيس أممية جديدة.

كان لينين على اتصال دائم مع التيارات اليسارية في العديد من الأحزاب الاشتراكية في السويد والنرويج وهولندا وألمانيا وبلغاريا وسويسرا. وقد لعب تروتسكي أيضا دورا مهما في تنظيم كونفرانس زيمروالد، الذي انعقد أخيرا في شتبر 1915. وصل لينين مبكرا إلى القرية السويسرية الصغيرة النائمة لإجراء مناقشات طويلة مع المندوبين الآخرين. كان المندوبون متحمسين لعقد الكونفرانس، وهو الشيء الذي كان منطوقا بعد الفترة الطويلة التي بقي فيها الاشتراكيون المناهضون للحرب معزولين في ظل ظروف صعبة. لكن لينين كان حريصا على أن يقوم الكونفرانس بتسوية القضايا الأساسية، وألا يبحث عن حل وسط للخلافات. وقام باقتراح تعديلات على البيان الأصلي، الذي اعتبره أكاديميا جدا وغير جذري بما يكفي.

عند وصوله وبعدهما جال ببصره في أرجاء الغرفة، ورأى ذلك العدد القليل في الحضور، ألقى مزحة، حيث قال: «يمكنك أن تجمع كل أممي العالم في عربتين». ومع ذلك فإن غالبية المندوبين كانوا بعيدين كل البعد عن الانسجام في المواقف، وكانوا يميلون إلى النزعة الوسطية. في زيمروالد قام لينين بتنظيم "اليسار الزيمروالدي". وقد كان أقلية ضمن الأقلية (ثمانية من أصل 38)، ومؤلفا من لينين وزينويفيف وج. بيرزين (لاتفيا) وكارل راديك (بولندا) وجوليان بورخات (ألمانيا) وفريتز بلاتن (سويسرا) وكارل هوغلاند (السويد) وتوري نورمان (النرويج). كان حزب البوند قد اكتفى بإرسال مراقبين. وقد تشكل مكتب الكونفرانس من روبرت غريم وكونستانتينو لازاري والاشتراكي البلقاني الشهير كريستيان راكوفسكي.

أرسل كارل ليبكنخت خطابا من زنزانته في السجن تمت قراءته في الكونفرانس، الشيء الذي هيج المشاعر خلال اللقاء. وقد قال في كلمته: «أنا أسير في يد النزعة العسكرية، أنا مقيد بالسلاسل، لذلك لا أستطيع أن أخطبكم مباشرة، لكن قلبي وأفكاري وكل كياني معكم». وأنهى ليبكنخت رسالته بإدانة شديدة لخيانة الأممية، التي اقترتها قادة الأحزاب الاشتراكية في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، وبشعار: "نعم للحرب الطبقيّة، لا للسلام الاجتماعي!". وهو الشعار الذي ردد صدى شعار لينين. فكرة تأسيس "أممية ثالثة" أصابت الوسطيين بالرعب. فقام جورج ليبيدور للدفاع بحرارة عن "وحدة" الأممية! وهذا هو الدور الكلاسيكي للنزعة الوسطية، أي الحفاظ على الوحدة مع الجناح اليميني. كان هؤلاء الأشخاص يمثلون الجناح اليميني لزيمروالد. قال غريم، وكان محقا إلى حد ما، إن مشروع القرار الذي تقدم به لينين، "إلى عمال أوروبا"، كان موجها إلى أعضاء الأحزاب الاشتراكية أكثر مما هو إلى الجماهير.

بعد سنوات عديدة على ذلك، كتب تروتسكي عن تلك الفترة قائلا: «أذكر الفترة ما بين 1908 و1913 في روسيا. لقد كانت فترة ردة رجعية. في عام 1905 كان لدينا انغراس في صفوف العمال، لكن في عام 1908، بل وحتى في عام 1907، كانت الردة الرجعية قد بدأت تنتصر. اخترع الجميع شعارات وأساليب لكسب الجماهير لكن لا أحد تمكن من كسبها، لقد كانت يائسة. كان الشيء الوحيد الذي يمكننا القيام به، في ذلك الوقت، هو تعليم الكوادر وحتى هؤلاء كانوا ينهارون. كانت هناك سلسلة من الانقسات في اتجاه اليمين أو في اتجاه اليسار أو في اتجاه النزعة النقابوية، وما إلى ذلك. بقي لينين مع مجموعة صغيرة، مع عصابة، في باريس، لكنه كان واثقا من أن فرصا جديدة سوف تبرز. جاء عام 1913، فبرزت أمامنا موجة مد جديدة، لكن الحرب جاءت فقطعت ذلك التطور. خلال الحرب كان هناك صمت رهيب داخل الحركة العمالية. كان كونفرانس زيمروالد في أغلبيته لقاء لعناصر مشوشة للغاية. في أعماق الجماهير وفي الخنادق، وما إلى ذلك، كان هناك مزاج جديد يغلي، لكنه كان عميقا جدا ومرتبعا لدرجة أننا لم نتمكن من الوصول إليه وإعطائه تعبيرا. هذا هو السبب في أن الحركة بدت لنفسها سيئة للغاية، وحتى تلك العناصر التي التقت في زيمروالد، انتقلت، في أغلبيتها، إلى اليمين في العام الموالي أو في الشهر الموالي. لن أبرئهم من مسؤوليتهم الشخصية، لكن التفسير العام هو أن الحركة كان مجبرة على السباحة ضد التيار»<sup>1</sup>.

أنشأ زيمروالد لجنة اشتراكية أممية عملت على التنسيق بين التيارات اليسارية، لكنها كانت تتألف بشكل أساسي من الوسطيين مثل غريم وبابانوف. كان معظم الحاضرين في زيمروالد، بشكل عام، مرتبكين ووسطيين متذبذبين. لم تكن لدى لينين أوهام فيهم، لكنه رأى في الكونفرانس خطوة إلى الأمام. وعلى الرغم من تحفظاته، فقد وقع على بيان زيمروالد، الذي كان تروتسكي هو من كتبه. لخص لينين موقفه تجاه زيمروالد في مقالته "الخطوة الأولى"، حيث كتب: «إن البيان يعني، من الناحية العملية، خطوة نحو الانفصال الأيديولوجي والعملي عن الانتهازية والاشتراكية الشوفينية. لكنه، وفي الوقت نفسه، يحتوي، كما يظهر تحليله، العديد من النواقص، ولا يقول كل ما يجب قوله»<sup>2</sup>. أي أن لينين، بعبارة أخرى، ينتقد البيان ليس بسبب ما يقوله، بسبب ما لا يقوله.

1: L. Trotsky, *Fighting Against the Stream*, in *Writings:1938-1939*, pp: 252-253.

2: : LCW, "The First Step", vol. 21, p: 384.



لقد كان الشيء الأساسي هو تطوير اليسار الزيمروالدي كتيار مستقل. ومع ذلك فإن العديد من "اليساريين" سرعان ما بدأوا يتذبذبون. وقد واجه لينين المشاكل بالخصوص مع رولاند هولست ورايديك حول الخط الذي يجب أن تتبعه الجريدة الرسمية للييسار، فوربوت (البشير)، التي كانت تصدر في هولندا بمساعدة بانيكوك.

بفضل مشاركته في زيمروالدي صارت كتابات لينين عن الحرب والأمية معروفة على نطاق واسع وبلغات مختلفة. وضع اليسار الزيمروالدي أسس دعم مهمة لبناء الأممية الثالثة في المستقبل. كانت رسالة زيمروالدي، على الرغم من أوجه القصور فيها، قد بدأت تنتشر. لا يميل العمال عادة إلى قراءة "التفاصيل الصغيرة" في الوثائق السياسية، بل يتجهون مباشرة إلى ما يرون أنها الفكرة الرئيسية ويمثلونها بمحتواهم الخاص. ويوضح شليابينيكوف، في مذكراته، كيف وصلت أخبار مؤتمر زيمروالدي تدريجياً إلى العمال في روسيا والتأثير الإيجابي للغاية الذي كان لها في تشجيع المجموعات العمالية، وعلى وجه الخصوص تلك التي لم تكن مرتبطة بشكل مباشر بالبلاشفة. «وكما اتضح فيما بعد فقد صارت كل تلك الخلايا تتبع قرارات زيمروالدي. يجب أن نلاحظ أن تلك المجموعات الصغيرة لم تكن على اتصال فيما بينها، كما أنها لم تكن تعرف حتى بوجود مجموعات أخرى تشبهها»<sup>1</sup>.

لم يكن رد الفعل هذا مقتصرًا على روسيا، فقد كانت هناك بدايات غليان داخل الأحزاب الجماهيرية للأممية الثانية. كانت ألمانيا نفسها تتجه آنذاك نحو وضع ما قبل ثوري. وفي أوائل عام 1916، دعا أوتو روهل، الذي كان أحد نواب الرايخستاغ، إلى القطيعة مع الاشتراكيين الشوفيين. كان اليسار الألماني قد بدأ، بشكل مستقل، في رؤية الحاجة إلى أممية جديدة. وقد تتبع لينين عن كثب سلسلة "الرسائل" التي كان ينشرها اليسار الألماني، والتي كانت تحمل توقيع "سبارتاكوس". كانت الشبيبة الاشتراكية التي أسسها كارل ليبكنخت هي القاعدة الرئيسية للييسار. كانت الأمور تتحرك في النمسا أيضاً، ففي خريف عام 1916، تشكل جناح يساري داخل الحزب الاشتراكي النمساوي بالاعتماد على الشباب. وانطلق التحريض ضد الحرب من "نادي كارل ماركس" في فيينا. وفي فرنسا، تم تشكيل مجموعة يسارية من بين أعضاء البرلمان والذين تلقوا خطابات دعم من الخنادق. كما شهدت بريطانيا، في شهر أبريل، طرد مجموعة هيندلمان الشوفينية من الحزب الاشتراكي البريطاني في مؤتمر سالفورد. أما في إيطاليا، فقد كان سيراتي، "الأكثر يسارية" بين قادة الحزب، ما زال مرتبطاً بالوسطيين، بينما كان غرامشي، الذي كان ما يزال شاباً، يدعم أفكار لينين. وفي سويسرا رفض الحزب الاشتراكي قرارات زيمروالدي باعتبارها "متطرفة جداً"، لكن قطاعاً كبيراً من القواعد دعموا تلك القرارات. في بلغاريا كان لدى تيسنياكي (الاشتراكيون "المتشددون") موقف ثوري مناهض للحرب. لقد كان هناك تيار ثوري أو شبه ثوري قد بدأ يتبلور داخل المنظمات الجماهيرية في كل مكان.

## كونفرانس كينثال

كانت أعراض الأزمة الثورية المتنامية واضحة للعيان. ومن بين الأمثلة: حشد من الناس في ألمانيا يستقبل الزعيم الاشتراكي اليميني شيدمان بصيحات الاستهجان؛ إضراب مستأجرين في غلاسكو؛ مظاهرات ضد ارتفاع تكلفة المعيشة في العديد من البلدان... إلا أن أبرز طريقة عبر بها عن نفسه ذلك الغليان الاجتماعي الذي كان موجوداً في جميع البلدان المتحاربة، هي ارتفاع ملحوظ في عدد الإضرابات، كما يتضح من خلال الجدول التالي<sup>2</sup>:

جدول يوضح ارتفاع عدد الإضرابات في أوروبا 1915 - 1916:

البلد	السنة	عدد الإضرابات	عدد المضرين
ألمانيا	1915	137	14.000
	1916	240	129.000
فرنسا	1915	98	9.000
	1916	314	41.000
روسيا	1915	928	539.000
	1916	1.410	1.086.000

1: A. Shlyapnikov, *On the Eve of 1917*, p: 160.

2: Istoriya KPSS, vol. 2, p: 624.

كان لينين يراقب بعناية أي علامة على حدوث تحول في مزاج البروليتاريا الأوروبية. كان ذلك عنصرا محمدا بشكل حاسم لمنظوراته للثورة في روسيا. في أكتوبر 1915، كتب قائلا: «إن المهمة التي تواجه البروليتاريا في روسيا هي إكمال الثورة البرجوازية الديمقراطية في روسيا من أجل إشعال الثورة الاشتراكية في أوروبا. إن هاتين المهمتين تقفان الآن جنبا إلى جنب...»<sup>1</sup>.

لقد وجدت الأزمة الاجتماعية المتنامية صدى متأخرا لها داخل المنظمات الجماهيرية المنتمة للأممية الثانية، حيث عبّر سخط القواعد عن نفسه من خلال تزايد التأييد للجناح اليساري. وفي سياق سعيهم إلى ضرب اليسار، لجأ قادة الأممية الثانية إلى مناورة جديدة. كان المكتب الاشتراكي الأممي معطلا بشكل كامل منذ بداية الحرب. لكن وبشكل مفاجئ أعلن سكرتير المكتب، كميل هيسمانز، خلال مؤتمر للحزب الهولندي، في يناير 1916، أن «المنظمة الأممية لم تمت». وكرد فعل من جانب اليسار انعقد اجتماع لـ «اللجنة الموسعة»، في فبراير 1916 في بيرن، بحضور مندوبين من النمسا وألمانيا وإيطاليا وروسيا ورومانيا وسويسرا وبلدان أخرى، لفضح مناورة هيسمانز باعتبارها «مؤامرة ضد الاشتراكية». تم الاتفاق هناك على الدعوة لعقد كونفرانس أممي آخر للييسار. وهو ما تحقق في أوائل شهر ماي في كينثال، حيث تم عقد كونفرانس ثان بمشاركة 43 مندوبا من روسيا وبولندا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا وسويسرا والنمسا وصربيا والبرتغال. حضر ويلى مونزينبرغ ممثلا عن فرع الشبيبة الأممية. وكان البلاشفة ممثلين بكل من لينين وزينوفيف وإينيسا أرماند. بالنسبة للبولونيين كان راديك (وحضرت مجموعة بولونية أخرى مثلها كل من ف. دومبروفسكي وميخيسلاف برونسكي)؛ وثلاثة اشتراكيين سويسريين: إرنست نوبز وفريتز بلاتن وأغنيس توممان؛ ومثل الصرب تريشا كانتسليفوفيتش؛ وعن مجموعة يسارية في برين جاء بول فروهليش، بالإضافة إلى مونزينبرغ وثالهييمر، وغيرهم. كان اليسار أقوى هنا عما كان عليه الحال في زيمروالد. لكن وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يتفقوا على قرار بشأن السلام. كان مزاج الأغلبية ما يزال وسطيا. جاءت النتيجة النهائية حلا وسطا، لكنها مع ذلك شكلت تقدما بالنسبة لزيمروالد.

كانت التوترات بين اليمين واليسار في تصاعد مستمر داخل حركة زيمروالد، التي أقل ما يقال عنها إنها كانت حركة غير متجانسة. كان لينين مستعدا للتعايش المؤقت مع الوسطيين، لكن ذلك لم يكن ليستمر طويلا. الانشقاق داخل الأممية، الذي كان لينين وحده من فهمه، كان موجودا بالفعل على أرض الواقع. ففي ظل ظروف الحرب والثورة تكون جميع التيارات الوسطية محكومة بالزوال. ولم يبق لينين سوى بتسريع زوالهم من خلال تأكيده على ضرورة الوضوح. إن الغموض أمر غير مقبول خلال الفترات التاريخية الحرجة، عندما تكون هناك ضرورة حسم الاختيارات. كان الظرف الموضوعي يدفع الجماهير نحو اليسار، نحو طريق الثورة. وكان تيار زيمروالد الوسطي يقف مكتوف الأيدي. وبالتالي فقد كانت هناك طريقتان فقط للمضي قدما: إما السير حتى النهاية والقطع بشكل نهائي مع الإصلاحية والانتقال إلى الموقف الثوري الواضح، أو العودة إلى مستنقع الإصلاحية. لقد جعل لينين، بالكلمة والفعل، هذا الأمر واضحا للغاية، ولهذا كرهه الوسطيون، إذ كما هو الحال تاريخيا دائما ما يكره الشخص المرتبكُ الشخص الذي تكون لديه أفكار واضحة.

كان روبرت غريم هو أول من انتقل إلى معسكر اليمين. فبحلول صيف 1916، كان قد استسلم. كان لينين صارما في انتقاده للوسطيين الذين كانوا ثوريين بالأقوال، لكنهم إصلاحيون برجوازيين في الممارسة. كان ذلك السلوك بالضبط هو ما يكرهه لينين. بعد ذلك سار كل من توراتي وميريم وبوردون، وسائر الوسطيين الآخرين، على نفس الدرب. وفي النهاية لم يتبق شيء من زيمروالد، باستثناء الذاكرة، واليسار! لم يكن ليسار زيمروالد نفسه أهمية مستقلة إلا باعتباره نقطة انطلاق لبناء الأممية الجديدة. لكن بناء تلك الأممية كان يحتاج لأحداث كبرى كانت ما تزال على بعد بضعة أشهر فقط. من خلال تجربة زيمروالد اكتسب لينين خبرة لا تقدر بثمن ومجموعة واسعة من العلاقات مع التيارات اليسارية الألمانية (مجموعة سبارتاكوس ومجموعة برين أريبتيربوليتيك)، ومجموعة فردناند لوريوت في فرنسا، وجون ماكلين في بريطانيا، وأوجين ديبس في الولايات المتحدة الأمريكية، وبانيكوك وغورتر في هولندا، وسيراتي وغرامشي في إيطاليا، وفريتز بلاتن في سويسرا، وهانبيكي وراديك في بولونيا. كانت هناك أيضا مشاكل داخل يسار زيمروالد. إذ لم تكن المواقف السياسية موحدة بين كل من سبقت الإشارة إليهم. بل حتى أشخاص بارزين في دائرة لينين، مثل راديك وبوخارين وبياتاكوف وغيرهم، لم يكونوا يتبنون موقفا بلشفيا لينينيا واضحا. حتى اليسار كان مفتقرا للتجانس إلى حد ما. كانت تلك، أيضا، مرحلة ضرورية في الرحلة نحو ثورة أكتوبر. لكن هذا المنظور كان يبدو بعيد المنال في ذلك الوقت.

كان لينين المحاصر في منفاه السويسري يجب أن يرجع أرجاء غرفته مثل عمر محبوس. ألن ينتهي كابوس الردة الرجعية هذا؟ كانت مشاعر العزلة والإحباط المميزة لحياة المنفيين بمثابة سم ينخر ببطء حتى أقوى الشخصيات. حتى لينين لم يكن محصنا ضد هذا السم. ففي بعض الأحيان كانت تعذبه فكرة أنه قد لا يعيش ليرى الثورة. وفي خطاب كتبه لإينيسا أرماند، مطلع عام 1916، عبر

1: LCW, Several Theses, vol. 21, p: 402.

عن قلقه قائلاً: «إن الحركة الثورية تنمو ببطء شديد وبصعوبة هائلة». وأضاف بنبرة حزينة: «ما علينا إلا أن نتحمل». وفي أحد أكثر أشكال سخرية التاريخ غرابة، نجد لينين في خطاب ألقاه أمام الشباب الاشتراكيين السويسريين، في يناير 1917، يقول: «نحن الجيل الأكبر سناً قد لا نعيش لرؤية المعارك الحاسمة لهذه الثورة القادمة»<sup>1</sup>. لكن وبعد شهر واحد اندلعت ثورة أطاحت بالقيصر. وبعد أقل من عام تمكن البلاشفة من الوصول إلى السلطة.

---

1: N.K. Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 335.



## سنة الثورة

### ثورة فبراير

استهل عام 1917 موجة من الإضرابات في بتروغراد، بعد فترة هدوء قصيرة في نوفمبر وديسمبر 1916. وفقا لأرقام مفتشية المصانع شارك في الإضرابات، في شهر يناير وحده، 270.000 عامل، من بينهم 177.000 في بتروغراد وحدها. كانت الحرب قد خلقت وضعا لا يطاق بالنسبة للجماهير، وانضفت إلى كابوس الحرب أهوال الأزمة الاقتصادية العميقة. فبحلول ديسمبر 1916، كان 39 مصنعا في بتروغراد متوقفا عن العمل بسبب نقص الوقود و11 مصنعا آخر بسبب انقطاع التيار الكهربائي. كان قطاع السكك الحديدية على وشك الانهيار. ولم يكن هناك لحم وكان هناك نقص مهول في الدقيق. اجتاح الجوع البلد وأصبحت طوابير الخبز مظهرا طبيعيا للحياة اليومية. وإلى كل هذا يجب أن نضيف توالي أخبار الهزائم العسكرية وروائح الفضاخ التي تأتي من البلاط وعصابة راسبوتين وحكومة النبلاء- الملكيين والمائة السود. النظام الذي يسيطر عليه الأرستقراطيون الجشعون والمضاربون المحتالون وكل أنواع الطفيليات، وقف عاريا بفساده أمام شعب مستاء بشكل متزايد. أمام هذا الوضع ناشد الليبراليون البرجوازيون، من "الكتلة التقدمية"، القيصر نيكولا بأن يقوم بإصلاحات، وحاولوا تخويله بالثورة.

تحت السطح كان مزاج الجماهير يتغير ببطء. وصف تروتسكي تلك السيورة بأنها "السيورة الجزئية للثورة". إنها سيورة تتقدم بشكل تدريجي بحيث تكون غير محسوسة في غالب الأحيان، حتى بالنسبة للشوار، الذين يستخلصون أحيانا الاستنتاجات الخاطئة من مظاهر اللامبالاة وعدم وجود تعبيرات ملموسة عن الإحباط المتراكم والغضب والمرارة. إنها تشبه إلى حد كبير الارتفاع التدريجي للضغط تحت سطح الأرض قبل وقوع الزلزال. فهذه السيورة بدورها تكون غير مرئية بالنسبة للمراقب السطحي الذي لا ينظر إلى ما هو أعمق، ولا يأخذ في الاعتبار سيورات الضغط التي تتراكم في أعماق الأرض. لكن عندما يحدث الانفجار يؤدي إلى دهشة عامة. يتقدم مختلف أنواع "المتعلمين" بتفسيرات كثيرة، عادة ما لا تتجاوز السبب المباشر، ولا تفسر شيئا على الإطلاق. وهكذا فإنه يقال إن ثورة فبراير ناجمة عن ندرة الخبز. لكن هذا التفسير يتجاهل حقيقة أن النقص في الخبز، خلال السنوات التي تلت ثورة أكتوبر، كان أسوأ بكثير من ذي قبل، نتيجة للحرب الأهلية التي أثارها الثورة المضادة وغزو روسيا من طرف واحد وعشرين جيشا أجنبيا. لماذا لم تنتج عن ذلك ثورة جديدة؟ لم يتم طرح هذا السؤال مطلقا، ولا يمكن الإجابة عليه إذا ما وصلنا الخلط بين السبب المباشر الذي أشعل الحركة وبين أسبابها الكامنة الأعمق؛ أي الخلط بين الحدث العرضي وبين الضرورة. مثل تلك الكتب المدرسية القديمة التي كانت تؤكد أن الحرب العالمية الأولى اندلعت بسبب اغتيال الأرشيدوق فرديناند في سرايفو، وليس بسبب تراكم التناقضات بين القوى الإمبريالية الرئيسية قبل عام 1914.

كان إضراب 09 يناير 1917 أكبر إضراب شهدته بتروغراد منذ اندلاع الحرب. كان الإضراب عاما في مقاطعتي فيبورغ ونيفسكي، وضرب قطاع الصناعات الحربية بشدة. شارك فيه حوالي 145.000 عامل، كشكل من أشكال "الحركات التسخينية" السابقة للثورة. كان الإضراب مصحوبا باجتماعات ومظاهرات جماهيرية. صارت بتروغراد تشبه معسكرا مسلحا بفعل احتلالها من طرف قوات الجيش والشرطة، لكن إجراءات القمع لم تعد كافية لكبح الثورة. حاول الليبراليون البورجوازيون درء الثورة من خلال تقديم التماس للقيصر لكي يقوم بإصلاحات. توسل رودزيانكو للقيصر لكي يطيل عمر مجلس الدوما ويقوم بتعديل حكومي. وقد دعت مجموعة العمل في لجان الصناعة الحربية، التي كان يهيمن عليها المناشفة، عمال بتروغراد إلى الذهاب في 14 فبراير -يوم افتتاح الدوما- إلى قصر توريد لإظهار "تضامنهم" مع الدوما ودعم المعارضة الليبرالية. بينما ندد المكتب البلشفي بسياسة التعاون الطبقي ودعا إلى إضراب ليوم واحد في ذكرى محاكمة النواب البلاشفة. وقد استجاب لدعوة الإضراب 90.000 عامل في 58 مصنعا. كما تظاهر عمال بوتيلوف بشعارات: "تسقط الحرب!"، "تسقط الحكومة!"، "عاشت الجمهورية!". ولم يكلف أحد نفسه عناء الذهاب إلى قصر توريد. اعترف رودزيانكو بأن مجلس الدوما تحول إلى مجرد "متفرج سلبي تقريبا"، في حين كان المتظاهرون يمررون تحت أنظار النواب على طول شارع نيفسكي.

أظهرت هذه الأحداث المتعاقبة أن مزاج الجماهير قد وصل إلى نقطة الغليان. زار مندوبون عن عمال مصنع بوتيلوف جميع المصانع الأخرى في مقاطعتي نارفا وفيبورغ، مما أدى إلى اندلاع حركة إضراب عام. كما حدثت انتفاضات خبز شارك فيها عدد كبير من النساء.

إضراب عمال مصنع بوتيلوف العملاق، الذي اندلع في البداية في 18 فبراير بمبادرة من بضع مئات من العمال في إحدى الورشات، والذي كان على خلفية المطالبة برفع الأجور وإعادة بعض زملائهم المفصولين إلى مناصبهم، فاجأ العمال المنظمين والثوريين على حد سواء. قام 30.000 عامل في هذا المصنع العملاق بتشكيل لجنة إضراب، وخرجوا إلى الشوارع وناشدوا العمال الآخرين من أجل الدعم. في 22 فبراير ردت إدارة بوتيلوف بإغلاق المصنع. تبين لاحقاً أن هذا القرار كان خطأً كبيراً، حيث خرج آلاف العمال الغاضبين إلى الشوارع، في الوقت الذي كانت فيه العديد من نساء الطبقة العاملة يصطفن في الشوارع المتجمدة للحصول على حصص ضئيلة من الخبز. اتضح أن هذا المزيج أكثر انفجاراً من تلك القذائف التي ينتجها مصنع بوتيلوف. وبالصدفة كان اليوم التالي، 23 فبراير، هو اليوم الأممي للنساء. أعطى هذا زخماً إضافياً للحركة الجماهيرية. إن السرعة الهائلة التي تحركت بها النساء والشباب، الذين كانوا في السابق فئات متخلفة وغير منظمة، فاجأت حتى المناضلين. وكما قال المؤرخ السوفييتي، بيردزوف، فإن شباب الطبقة العاملة «ساروا في الصفوف الأولى للمتظاهرين وكانوا حاضرين في الاجتماعات وشاركوا في الاشتباكات مع الشرطة، [و]... قاموا بدور كشافي الثورة إذ كانوا أول من يخبر العمال [الكبار] عن مكان تجمع قوات الجيش والشرطة، إلخ»<sup>1</sup>.

في 24 فبراير، انخرط 200.000 عامل -أكثر من نصف عمال بتروغراد- في الإضراب. كانت هناك لقاءات وتظاهرات ضخمة في المصانع، حيث بدأ العمال يتخلصون من خوفهم القديم ويقفون في مواجهة مضطهدهم. لقد بدأت الثورة. ومجرد أن بدأت، اكتسبت الحركة زخماً خاصاً بها، واجتاحت كل ما يوجد أمامها. رافقت الإضرابات مظاهرات حاشدة انتشرت كالنار في الهشيم من منطقة فيبورغ إلى المناطق الصناعية الأخرى. وكنت حشود المتظاهرين قوات الشرطة والجيش للوصول إلى وسط المدينة، حتى عبروا نهر نيفا المتجمد، وهم يهتفون: «الخبز!»، «السلام!»، و«ليسقط الاستبداد!».

في يوم الخميس 23 فبراير، عقدت اجتماعات للاحتجاج على الحرب وارتفاع تكاليف المعيشة والظروف السيئة التي تعيشها العاملات. وهذا بدوره تطور إلى موجة إضرابات جديدة. لقد لعبت النساء دوراً رئيسياً في الحركة، فقد سرن إلى المصانع وطالبن العمال بأن يوقفوا العمل ويخرجوا. تلت ذلك مظاهرات حاشدة في الشوارع. وظهرت الأعلام واللافتات بشعارات ثورية: «تسقط الحرب!»، «يسقط الجوع!»، «عاشت الثورة!». وفجأة ظهر المحرضون في الشوارع. كثير منهم كانوا بلاشفة، لكن آخرين كانوا عمالاً عاديين، رجالاً ونساءً، اكتشفوا فجأة، وبعد سنوات من الصمت القسري، أن لديهم عقل يفكر ولسان ينطق.

في صباح ذلك اليوم، أطل فيودور فيودوروفيتش إيلين (راسكولنيكوف)، وهو بحار يبلغ من العمر 25 عاماً، من النافذة وتساءل: «اليوم هو يوم النساء. هل سيحدث شيء ما في الشوارع اليوم؟». وبالفعل كان هناك شيء يحدث، فقد كان 128.000 عامل في إضراب. وكانت المدينة كلها تغلي بالحياة.

«لقد تطورت الأحداث بحيث أن يوم النساء صادف اليوم الأول للثورة. كانت النساء العاملات، اللائي دفعهن اليأس بسبب ظروفهن القاسية وعذابات الجوع، أول من خرج إلى الشوارع للمطالبة بـ«الخبز والحرية والسلام». في ذلك اليوم، عندما كنا محجوزين في ثكناتنا، تمكنا من أن نرى من النوافذ مشهداً غير عادي. كانت حافلات النقل العام متوقفة عن العمل، مما يعني أن الشوارع كانت فارغة وهادئة بشكل غير معهود. لكن في زاوية شارع بولشوي وغافانسكايا، استمرت مجموعات من النساء العاملات في التجمع. حاول رجال الشرطة تفريقهن، وكانوا يدفعونهن بقسوة باستعمال خيولهم ويضربوهن بالطرف المسطح لسيوفهم. عندما يصعد الحرس القيصري الأوبريشنيكي<sup>2</sup> إلى الرصيف، كانت المتظاهرات يتفرقن مؤقتاً، دون أن يفقدن رباطة جأشهن، وهن يوجهن للقوات اللعنات والتهديد؛ لكن بمجرد عودة رجال الشرطة إلى الطريق، كان الحشد يتحول مرة أخرى إلى كتلة صلبة. كان هناك بعض الرجال، لكن الغالبية العظمى كانت تتألف من نساء عاملات وزوجات عمال»<sup>3</sup>.

في 25 فبراير، التقى ما بين 30 و35 من قادة العمال في مقر اتحاد بتروغراد لتعاونيات العمال من أجل إنشاء مجلس سوفييت. وعلى الرغم من أن نصف هؤلاء العمال تعرضوا للاعتقال في نفس الليلة، فإنه بعد يومين فقط، عندما ارتفع مد الحركة، أعلن

1: J.L.H. Keep, *The Rise of the Social Democracy in Russia*, p: 59.

2: الأوبريشنيكي هي قوات الأمن الخاصة التي أسسها إيفان الرهيب، حاكم موسكو الدموي خلال القرن 15، وكانت مشهورة بجرائمها الدموية.

3: F.F. Raskolnikov, *Kronstadt and Petrograd in 1917*, p: 1.

عدد منهم أنفسهم بكونهم اللجنة التنفيذية المؤقتة لسوفييت بتروغراد. تم انتخاب عضو الدوما المنشفي تشخيدزه رئيساً للجنة، رغم أنه لم يكن يمثل أي مصنع. لكن وعلى كل حال فإن أغلبية الـ150 شخصاً الذين حضروا الجلسة الافتتاحية للسوفييت قدموا أوراق اعتماد مشكوك فيها. وقد حددت اللجنة أهدافها بأنها "تنظيم قوات الشعب والنضال من أجل تعزيز الحرية السياسية والحكومة الشعبية". وفي مساء اليوم نفسه أصدر نيكولا أمرا قاطعا لخابالوف يأمره بـ"وضع حد للاضطرابات في العاصمة بحلول يوم غد". في المساء فتحت القوات النار على المحتجين. وذكر تقرير للشرطة أنه «وحده إطلاق النار مباشرة على قلب الحشود، هو ما مكن من تفريق الغوغاء، الذين كانوا في معظم الأحيان يختبئون في أفنية المنازل القريبة، ثم يعودون إلى الشوارع عندما يتوقف إطلاق النيران». عندما تتخلص الجماهير من خوفها من الموت، تكون اللعبة قد انتهت. لكن وحتى تلك اللحظة بقي قادة البلاشفة في بتروغراد عاجزين عن فهم الطبيعة الحقيقية للوضع. قال عضو اللجنة البلشفية في منطقة فيبورغ، ف. كايوروف، "الشيء الوحيد الأكيد هو أن التمرد يخبو"<sup>1</sup>. لكن في الواقع كانت تلك مجرد البداية.

استمرت بتروغراد لبضعة أيام (من 25 إلى 27 فبراير) في قبضة إضراب عام. يطرح الإضراب العام مسألة السلطة على جدول الأعمال، لكنه في حد ذاته لا يمكنه حلها. إنه يطرح السؤال التالي: من يحكم؟ من هو رب المنزل؟ والشيء الحتمي هو أن الإجابة النهائية تحسم بالقوة. النظام الذي كان قد بدأ يتعافى من الصدمة الأولى، صار ينظم رد الفعل. أصدر القيصر شخصياً الأمر التالي: "أطلب منكم أن تضعوا حداً للاضطراب في العاصمة بحلول يوم غد ودون تأخير". وقد تلقى الجنود والشرطة الأمر مباشرة من نيكولا الدموي بإطلاق النار على المتظاهرين. في 26 فبراير بدأ إطلاق النار. معظم الجنود أطلقوا النار في الهواء، لكن الشرطة، التي هي دائماً أكثر تخلفاً ورجعية من الجنود، أطلقت النار على الحشود. سقط الكثير من القتلى والجرحى. وقد كانت هذه نقطة تحول حاسمة في وعي الجنود، ففي ذلك اليوم بالذات قام جنود فوج بافلوفسك، الذين تلقوا الأمر بإطلاق النار على العمال، بإطلاق النار على الشرطة عوض ذلك. على الورق كانت لدى النظام قوى وافرة تحت تصرفه، لكن في لحظة الحقيقة تبخرت تلك القوى. ذهبت الدعوات اليائسة بإرسال التعزيزات أدراج الرياح. وفي هذا السياق يستشهد تروتسكي باستيبان أرسله الجنرال إيفانوف إلى الجنرال خابالوف، جاء فيه:

«سؤال إيفانوف: كم تحت تصرفك من القوات المنضبطة وكم هو عدد الجنود الذين سيئون التصرف؟

جواب خابالوف: لدي تحت تصرفي أربع كتائب من الحرس، وخمسة أسراب من سلاح الفرسان والقوزاق، وفريقين من المدفعية؛ أما بقية القوات فقد انتقلت إلى صفوف الثوار، أو أنها، بالاتفاق معهم، بقيت على الحياد. والجنود يتجولون في المدن منفردين أو في فرق ويعملون على تجريد الضباط من سلاحهم.

س: ما هي محطات السكك الحديدية التي تخضع للحراسة؟

ج: جميع المحطات هي في أيدي الثوار وهم يحرسونها بعناية.

س: أي جزء من المدينة يخضع للنظام؟

ج: المدينة كلها في أيدي الثوار. الهاتف لا يعمل، ولا يوجد اتصال بين مختلف أطراف المدينة.

س: ما هي السلطات التي تحكم مختلف أطراف المدينة؟

ج: لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال.

س: هل جميع الوزارات تعمل بشكل صحيح؟

ج: لقد تم اعتقال الوزراء من طرف الثوار.

س: ما هي قوات الشرطة التي توجد تحت تصرفكم في الوقت الحاضر؟

ج: لا شيء على الإطلاق.

س: ما هي المؤسسات التقنية والتمويلية التابعة لوزارة الحرب التي تسيطرون عليها الآن؟

ج: ليس لدي شيء.

1: J.L.H. Keep, *The Rise of the Social Democracy in Russia*, p: 60.

س: ما هي كمية المؤونة التي هي تحت تصرفكم؟

ج: لا توجد تحت تصرفي أي مؤونة. يوم 05 فبراير كان في المدينة 5.600.000 رطل من الدقيق في المخازن.

س: هل سقطت العديد من الأسلحة والمدفعية والمخازن العسكرية في أيدي المتمردين؟

ج: كل المدفعية في أيدي الثوار.

س: ما هي القوات ومن هم الضباط الذين ما زالوا تحت سيطرتك؟

ج: ما زال رئيس قائد المنطقة تحت إمرتي. لكن لم تعد لي أي اتصالات مع بقية الإدارات المحلية الأخرى<sup>1</sup>.

كان هناك تأخي واسع النطاق بين القوات والمضربين. اتجه العمال إلى الثكنات لمناشدة الدعم من إخوانهم بالزي العسكري. وكان المقر الرئيسي للبلاشفة يشهد مناقشات مستمرة وغالبا حادة حول التكتيكات، في ظل وضع كان يتغير ليس كل يوم بل كل ساعة. عارض شليابينيكوف إنشاء فصائل مسلحة، وركز على ضرورة كسب قوات الجيش. بينما جادل تشوغورين وآخرون بأن كلتا المهمتين ضروريتان، الخ. كان الوضع يتحرك بشكل أسرع بكثير من مناقشات القادة البلاشفة في بتروغراد. كان العمال قد بدأوا في الواقع يسيطرون على المدينة، وعضوا النقص في الأسلحة والتدريب العسكري بالأعمال البطولية والأعداد الكبيرة.

بعد 27 فبراير صارت معظم أنحاء العاصمة في أيدي العمال والجنود، بما في ذلك الجسور ومخازن الأسلحة ومحطات السكك الحديدية والتلغراف ومكتب البريد. فعندما دقت ساعة الحقيقة تبخرت في الهواء كل القوة الجبارة التي كان النظام يمتلكها على الورق. وبحلول ليلة الثامن والعشرين، وجد خابالوف نفسه بدون أي قوات تحت تصرفه، صار جنرالا بدون جيش. وتم نقل وزراء حكومة القيصر الأخيرة إلى قلعة بطرس وبولس، باعتبارهم أسرى الثورة! وبالاستناد إلى تجربة عام 1905، قام العمال بإنشاء السوفييتات لتولي إدارة المجتمع. لقد صارت السلطة في أيدي الطبقة العاملة والجنود.

كان هناك شيء واحد واضح تماما: وهو أن الإطاحة بالنظام القيصري كان بفضل الطبقة العاملة، التي قادت خلفها الفلاحين بالزي العسكري. وقد أنجزت الثورة، في الواقع، في مدينة واحدة فقط -بتروغراد- والتي كانت لا تمثل سوى 1,75% من سكان روسيا. نرى هنا، بأكثر الصور وضوحا، الثقل الحاسم للبروليتاريا مقارنة بالفلاحين، وللمدينة مقارنة مع القرية. لقد كانت ثورة فبراير سلمية نسبيا لأنه لم تكن هناك أي قوة جادة مستعدة للدفاع عن النظام القديم. وبمجرد أن بدأت البروليتاريا في التحرك، لم يكن هناك شيء قادر على إيقافها. وعن ثورة فبراير كتب تروتسكي:

«لن يكون من المبالغة القول إن بتروغراد هي من حققت ثورة فبراير. بينما بقية البلاد التحقت بها. لم تكن هناك أي مواجهات في أي مكان إلا في بتروغراد. لم يكن من الممكن العثور في أي مكان في البلد على أي مجموعة من السكان أو أي أحزاب أو مؤسسات أو وحدات عسكرية مستعدة للقتال من أجل النظام القديم. وهذا يوضح تفاهة مزاعم الرجعيين، التي ظهرت لاحقا، حول أنه لو كانت هناك قوات فرسان في حامية بيتسبورغ، أو لو أن إيفانوف قام بإحضار لواء موثوق فيه من الجبهة، لكان مصير النظام الملكي مختلفا. لم يكن لا في الجبهة ولا في الخلف أي لواء أو كتيبة على استعداد لخوض المعركة من أجل نيكولا الثاني»<sup>2</sup>.

لقد صارت السلطة الآن في يد العمال، لكنهم، كما أوضح لينين لاحقا، لم يكونوا منظمين بما فيه الكفاية ولا واعين بما فيه الكفاية لإنجاز الثورة حتى النهاية. كانت تلك هي المفارقة الرئيسية لثورة فبراير. كانت الطبقة العاملة هي التي قامت بالثورة، وقادت خلفها الفلاحين بالزي العسكري الرمادي. لماذا كانت إذن ثورة برجوازية؟ صحيح أن مضمونها الموضوعي، من حيث برنامجها ومطالبها المباشرة، كان برجوازيا ديموقراطيا. لكن ما هو الدور الذي لعبته البرجوازية فيها؟ لقد لعبت دورا معاديا للثورة، ولم تفشل في مساعيها الرجعية إلا لأن السياسيين الليبراليين، مثلهم مثل قوى الاستبداد نفسها، افتقروا إلى الوسائل المادية لوضع التنفيذ. وبعد إدراكهم لاستحالة إغراق الثورة في الدم، سارعوا إلى فبركة "حكومة مؤقتة" لمحاولة السيطرة على الحركة وإخراجها عن مسارها. انبثقت الحكومة المؤقتة عن اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما التي أطلقت على نفسها لقب: "لجنة إعادة النظام والعلاقات مع المؤسسات والشخصيات العامة". ترأس اللجنة رئيس مجلس الدوما السابق، ميخائيل رودزيانكو، الذي أعترف بأنه استقبل تنازل القيصر بـ"حزن لا يوصف". ومن أعضائها البارزين أيضا كان هناك شولجين، عضو الكتلة التقدمية، الذي تمنى لو أتاحت له فرصة الحصول على البنادق "من أجل تصفية الحساب مع هؤلاء الغوغاء". وقد فضح شولجين، عن غير قصد، الأسباب

1: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, pp: 105-106.

2: Ibid., p: 158.

الحقيقية وراء تشكيل الحكومة المؤقتة، عندما قال: «إذا لم نأخذ السلطة، فسوف يأخذها الآخرون بدلا منا، سيأخذها هؤلاء الرعاة الذين قد انتخبوا بالفعل جميع أنواع الأوغاد في المصانع»<sup>1</sup>.

كان يقصد بـ «الأوغاد في المصانع» أعضاء مجالس العمال («السوفييتات»)، أي لجان النضال التي كانت ذات قاعدة عريضة، وكانت منتخبة ديمقراطياً في أماكن العمل، والتي ظهرت بسرعة على الساحة. لقد بدأ العمال من النقطة التي توقفوا عندها في عام 1906. وخلال مسار الثورة أعادوا اكتشاف كل التقاليد القديمة وأنشأوا مجالس منتخبة في كل المصانع. في الواقع لقد كانت السلطة في أيديهم بالفعل منذ فبراير. لكن المشكلة كانت هي عدم وجود حزب وقيادة يقفان إلى جانب الثورة. القادة الإصلاحيون، الذين وجدوا أنفسهم في الخط الأمامي عند بداية الثورة، والذين شكلوا الجزء الأكبر من اللجنة التنفيذية السوفياتية، لم يكن لديهم أي منظور للاستيلاء على السلطة، بل كانوا مستعجلين لتسليم السلطة للبرجوازية، على الرغم من أن هذه الأخيرة لم تلعب أي دور في الثورة وكانت خائفة منها.

لم تكن لدى الليبراليين قاعدة دعم جماهيرية حقيقية داخل المجتمع. وقد كان السبب الوحيد لقدرة الحكومة المؤقتة على البقاء هو الدعم الذي تلقته من زعماء المناشفة والاشتراكيين الثوريين. أدرك ممثلو الشركات الكبرى أنهم لا يستطيعون الصمود إلا من خلال الاعتماد على دعم القادة السوفييت، خاصة وأن هذا سيكون، على كل حال، مجرد إجراء مؤقت. فالجماهير سوف تتعب قريباً من هذا الجنون، وسوف تخبو الحركة تدريجياً، ومن ثم يمكنهم ببساطة توجيه رصاصة الرحمة لهؤلاء «الاشتراكيين». لكنهم في الوقت الحالي كانوا شرا لا بد منه، لتفادي الأسوأ. لذلك فإن ممثلي الرأسماليين ابتلعوا سخطهم وقاموا بالمبادرات اللازمة. عقد القادة الإصلاحيون اجتماعاً عاجلاً في قصر توريد مع أعضاء مجموعة العمل التابعة للجان الصناعة الحربية ونواب الدوما المناشفة ومختلف أشكال الصحفيين والمثقفين من المعسكر المنشفي. وسرعان ما خرج المناشفة بموقف التعاون الطبقي. كان ذلك متوقفاً بالتأكيد لأنه كان النتيجة المنطقية لكل مسار تطورههم السابق. نشرت صحيفتهم الرسمية بياناً في 01 مارس يدعو إلى تشكيل حكومة مؤقتة «توفر الظروف اللازمة لبناء روسيا حرة جديدة». كان العمال قد ضحوا بدمائهم لأجل الاستيلاء على السلطة، في حين كانت البرجوازية في الهامش تراقب برعب. لكن وبالرغم من ذلك فإن المناشفة -الممثلين المنتخبين لهؤلاء «الأوغاد في المصانع»- أرادوا تسليم السلطة للبرجوازية!

لم يكن العمال والجنود يثقون في البرجوازية، لكنهم كانوا يثقون في قادتهم، وخاصة أولئك الذين كانت لديهم صورة القادة «اليساريين» الأكثر جذرية، مثل كيرنسكي. كان ذلك الوصولي المنحدر من الطبقة المتوسطة بخطابه القانوني وميله إلى الديمقراطية المسرحية، يجسد بشكل مثالي المرحلة الأولى لاستيقاظ الجماهير بما تميزت به من تشوش وارتباك وسذاجة. سمح السوفييات لكيرنسكي بالمشاركة في الحكومة المؤقتة. وهنا تكمن المفارقة الرئيسية لثورة فبراير وهي أنها جلبت إلى السلطة أولئك الذين لم يلعبوا أي دور على الإطلاق في نجاحها والذين كانوا يخشونها مثلما يخشى الشيطان الماء المقدس، أي الكاديت وحلفاؤهم الأكتوبريين. تم تشكيل الحكومة المؤقتة في 02 مارس، وكانت مكونة أساساً من كبار الملاكين العقاريين والرأسماليين. تم تعيين الأمير لفوف رئيساً لمجلس الوزراء. وكان رئيس حزب الكاديت، ميلوكوف، هو وزير الخارجية. كان وزير المالية هو بارون صناعة السكر والملاك العقاري الثري، تيريشنكو. كانت وزارة التجارة والصناعة في يد صاحب مصنع النسيج، كونوفالوف. وذهبت وزارة الحرب والبحرية إلى الأوتوبري غوتشكوف. بينما أعطيت وزارة الزراعة إلى الكاديتي شينغارييف. كانت هذه العصابة الرجعية من المحتالين، هي من سلم لهم السوفييت زمام الحكم في روسيا!

لم يكن لدى قادة السوفييت البرجوازيين الصغار الثقة في قدرة الجماهير على إنجاز الثورة. وبسبب اقتناعهم الراسخ بأن البرجوازية هي الطبقة الوحيدة المؤهلة للحكم، فقد كانوا حريصين على تسليم تلك السلطة، التي انتزعها العمال والجنود، إلى القسم «المستنير» من الرأسماليين في أقرب فرصة ممكنة. وقد سعى المناشفة والاشتراكيون الثوريون بكل جهدهم لإقناع الجماهير بأن الحكم دون الرأسماليين كان يعني «تدمير ثورة الشعب»<sup>2</sup> (!). لقد استمروا في تكرار أن الطبقة العاملة أضعف من أن تتمكن من إنجاز الثورة وأنه عليها ألا «تعزل» نفسها. وقد أوضح بوتريسوف الموقف المنشفي بشكل كامل عندما قال: «البرجوازية هي (الطبقة) الأكثر استعداداً اجتماعياً ونفسياً لحل المشكلات الوطنية، خلال مرحلة الثورة البرجوازية». وفي 07 مارس، كتبت جريدة المناشفة في بتروغراد، رابوتشاي غازيتا: «يا أعضاء الحكومة المؤقتة! إن البروليتاريا والجيش ينتظرون أوامرهم لتوطيد الثورة وجعل

1: Marcel Liebman, Leninism under Lenin, pp. 119-20.

2: Izvestiya 2/3/17



روسيا ديمقراطية»<sup>1</sup>.

لم تكن هذه الأفكار تتعارض مع ما كان الزعماء البرجوازيون في الحكومة المؤقتة يفكرون فيه. لقد كانت غريزتهم تحثهم، كما رأينا، إلى اللجوء إلى القمع، لكن ذلك كان مستحيلا في ظل الظروف القائمة، فاضطروا إلى المناورة واللعب على الوقت. لذلك "أعطوا" للجماهير ما كان العمال والجنود قد حققوه بالفعل في خضم النضال. كان الهدف الوحيد لليبراليين هو وقف الثورة عن طريق إجراء تغييرات شكلية من فوق تحافظ على أكبر قدر ممكن من النظام القديم. كان النظام القديم، رغم أنه تقوض وتداعى بشدة، ما يزال قائما وذلك بفعل استمرار القوة الاقتصادية لكبار الملاكين العقاريين وأصحاب الأبنك والرأسماليين، والجهاز البيروقراطي الضخم، وقيادة الجيش والدوما، والنظام الملكي. كانت البرجوازية الليبرالية مرعوبة للغاية من الثورة إلى درجة أنها تشبثت مثل غريق بالنظام الملكي باعتباره أقوى حصن للملكية الخاصة والنظام. ومن أجل الحفاظ على النظام الملكي، لجأت الحكومة المؤقتة إلى المناورة من أجل استبدال نيكولا الثاني بابنه، تحت وصاية شقيقه الأمير ميخائيل، على أمل تعويض أحد أعضاء آل رومانوف بآخر. في هذه الكوميديا البشعة من الأخطاء، قام العمال، الذين قدموا دعاءهم للإطاحة بآل رومانوف، بتسليم السلطة لزعمائهم، الذين سلموها بدورهم إلى الليبراليين البرجوازيين، الذين قاموا بدورهم بإعادتها إلى آل رومانوف!

لم يكن ذلك بسبب العمال والجنود، وخاصة النشطاء منهم، الذين تميز موقفهم بعدم الثقة تجاه السياسيين البرجوازيين في الحكومة المؤقتة. لكنهم وثقوا في قادتهم، المناشفة والاشتراكيين الثوريين، هؤلاء "الاشتراكيين المعتدلين" الذين شكلوا غالبية اللجنة التنفيذية السوفياتية والذين استمروا يقولون لهم إنه عليهم التحلي بالصبر، وإن المهمة الأولى هي توطيد الديمقراطية، والاستعداد لعقد الجمعية التأسيسية، وهلم جرا. كانت الجماهير تنصت وتفكر. وكانوا يقولون لأنفسهم ربما يجب علينا أن ننتظر لنرى؛ إن قادتنا يعرفون أفضل منا. ومع ذلك فإن الشعور بعدم الثقة كان ينمو أكثر فأكثر مع مرور كل يوم.

### البلاشفة في فبراير

كان البلاشفة قد فقدوا الكثير من المواقع منذ عام 1914، وكانوا قد تعرضوا مؤخرا للقمع الشديد. يوضح الجدول 6.1، المأخوذ من *Istoriya*، كيف كانت قوة الحزب في فبراير.

(6.1) العدد التقريبي لأعضاء الحزب البلشفي حسب المناطق، في فبراير 1917

العدد	المنطقة
2.000	بتروغراد
600	موسكو
500	الأورال
400	بيكاترينوسلاف
300	نيجنني - نوفوغورود
170	روستوف أريا
120 - 150	تفير
150 - 200	إيفانوفو - فوزنيسينسك
200	خاركوف
150	سامارا
200	كيبف
180 - 200	ماكيفسك

المصدر: *Istoriya KPSS*

عندما نضع في اعتبارنا أننا نتحدث عن بلد ضخم، يبلغ عدد سكانه حوالي 150 مليون نسمة، نرى أن الحزب في بداية الثورة كان متناهي الصغر. لكن من الواجب علينا هنا أن نأخذ عوامل أخرى في الاعتبار: لقد كانت جودة الكوادر البلشفية أعلى بلا شك من بقية التيارات الأخرى. كانوا في معظمهم من الطبقة العاملة، وكانوا قد تلقوا تدريبا أفضل، وأكثر انضباطا من المناشفة

1: M. Liebman, *Leninism Under Lenin*, pp: 121, 120.

والاشتراكيين الثوريين. كانت نسبة عالية منهم تتكون ممن يمكن أن نسميهم بـ "القادة الطبيعيين" في أماكن عملهم، أي تلك العناصر الأكثر وعياً ونضالية الذين يتمتعون بثقة زملائهم العمال. كان كل واحد منهم على اتصال مع عدد أكبر من العلاقات. وكان في إمكانهم، قبل كل شيء، أن يعتمدوا على التقاليد البلشفية التي خلفتها فترة 1912-1914، وخاصة في المراكز الصناعية الكبرى. من الناحية التنظيمية كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون في حالة أسوأ بكثير. كان البلاشفة من حيث المبدأ متفوقين على بقية التيارات الأخرى. سوخانوف، الذي كان منشقياً، يشير إلى البلاشفة بأنهم التيار العمالي الرئيسي في بتروغراد في فبراير. لكن ينبغي أن نأخذ في الاعتبار هنا نوعية القيادة البلشفية في بتروغراد. ففي فبراير كان قادة البلاشفة في المدينة هم شليابنيكوف وزالوتسكي والطالب الشاب مولوتوف.

في المجلد الأول من تاريخه الزاخر بالمعلومات، يقدم المنشق اليساري، سوخانوف، الذي كان حاضراً بدوره في الاجتماعات، الصورة التالية عن القيادة البلاشفة في بتروغراد: «لقد كان لجمودهم، أو بعبارة أصح عدم قدرتهم على التفكير بطريقة صحيحة في المشاكل السياسية وصياغتها، تأثير محبط علينا».

ويعطي سوخانوف التقييم التالي لشليابنيكوف، الذي كان أحد العناصر القيادية: «شديد الدفاع عن الحزب. يمكن القول إنه متعصب، ومستعد لتقييم الثورة بأكملها من وجهة نظر نجاح الحزب البلشفي. إنه مناضل متمرس في العمل السري، ومنظم تقني ممتاز وعضو عملي جيد في الحركة العمالية، لكنه بالتأكيد ليس سياسياً قادراً على استيعاب وتعميم دروس الظروف الراهنة. فإذا وجدنا أي أفكار سياسية هنا، فإنها تعود إلى تلك القرارات الحزبية القديمة ذات الطابع العام، لكن هذا الزعيم المسؤول عن أكثر المنظمات العمالية نفوذاً لم يكن لديه أي فكر مستقل، ولا القدرة أو الرغبة في العمل على أساس التحليل الملموس للحظة الحالية»<sup>1</sup>.

لا شك أن المنشق سوخانوف يستهين بميزات شليابنيكوف، التي يقدمها بطريقة أحادية الجانب. ومع ذلك فإن هناك ذرة من الحقيقة، على الأقل، في هذه اللوحة التي تلخص العديد من الصفات النفسية لمحتري الحزب البلشفي. وكما حدث في عام 1905، سرعان ما فقد أعضاء اللجان هؤلاء بوصلتهم عندما واجهوا موقفاً جديداً وتخلفوا عن الحركة إلى أن أعاد لينين تسليح الحزب بمنظور ثوري جديد. لطالما تم إخفاء هذه الحقيقة من خلال كتب التاريخ السوفياتية. فهي تزعم، على سبيل المثال، أن الحزب أصدر منشوراً في 26 فبراير. لكن التحريات الجديدة أظهرت أن لجنة بتروغراد أصدرت أول نشرة لها في 27 فبراير. إلا أنه بحلول ذلك الوقت كانت بتروغراد في قبضة إضراب عام وكان انتشار التمرد داخل صفوف الجيش والبحرية قد حسم مصير النظام. أي، بعبارة أخرى، كانت القيادة البلشفية في بتروغراد تتبع الحركة ولا تقودها.

كيف كان رد فعل الحزب تجاه أحداث فبراير؟ يقول كتاب التاريخ الضخم للحزب الشيوعي، الذي صدر في عهد خروتشوف، إن المكتب البلشفي اجتمع، في صباح يوم 25 فبراير، وقرر اتخاذ خطوات نشيطة لنشر الحركة في جميع أنحاء البلاد. لكن تحقيقات أخرى تقدم صورة مختلفة بعض الشيء. ثورة فبراير لم تفاجئ لينين وحده، بل فاجأت الحزب بأكمله. في بداية الثورة كان الحزب ما يزال في وضع ضعيف للغاية. كان ضعيفاً لدرجة أن لجنة بتروغراد، كما يشير مارسيل ليبمان في دراسته، لم تكن قادرة حتى على إصدار منشور بمناسبة ذكرى يوم الأحد الدامي في يناير 1917. ومع ذلك ففي غضون بضعة أشهر ارتفع عدد أعضاء الحزب البلشفي أكثر من عشر مرات، مما حوله إلى قوة حاسمة داخل الطبقة العاملة. يعتبر النمو الذي حققه الحزب البلشفي في عام 1917 الأكبر من نوعه في تاريخ الأحزاب السياسية بأكمله. لكن، ومع ذلك، ففي بداية الثورة أظهر الحزب أنه كان غير مستعد. لقد أخذه النهوض الجماهيري على حين غرة. قال مارسيل ليبمان: «بسبب افتقار البلاشفة إلى قيادة قوية وواضحة الرؤية، تعاملوا مع المظاهرات العمالية الأولى في العاصمة بقدر كبير من الاحتياط، بل وحتى الشكوك التي تذكرنا بموقفهم في يناير 1905. لقد كانوا معزولين إلى حد ما في المصانع التي كانوا يعملون فيها».

في بداية الثورة لم يقدم البلاشفة صورة جيدة عن أنفسهم. لقد تجاوزتهم الحركة إلى درجة أن بلاشفة بتروغراد حاولوا في البداية كبح الحركة في اليوم العالمي للنساء. ويتذكر ف. ن. كايوروف، وهو عضو في اللجنة الرئيسية لمقاطعة فيبورغ، كيف تدخل في اجتماع للعمليات في 22 فبراير: «شرحت معنى "اليوم العالمي للنساء" والحركة النسائية بشكل عام، وعندما توجب علي الحديث عن اللحظة الراهنة، سعيت أولاً وقبل كل شيء إلى حث النساء على الامتناع عن أي مظاهرات والتصرف بناءً على تعليمات لجنة الحزب». لكن العمليات لم يكن في مزاج الانتظار. فرأى كايوروف "بدهشة" و"سخط" كيف تم تجاهل شعارات الحزب. «لقد غضبت من سلوك المظاهرات. فقد كان من الواضح، في المقام الأول، أنهن تجاهلن القرارات التي اتخذتها لجنة المقاطعة التابعة

1: N. Sukhanov, Zapiski o revolutsii, vol. 1, pp: 50 and 94.

للحزب، ومقترحاتي. كنت في الليلة السابقة قد دعوت النساء العاملات إلى التحلي بضبط النفس والانضباط - فإذا بنا الآن أمام هذا الإضراب»<sup>1</sup>.

يؤكد تروتسكي في تاريخه أنه «بالنسبة إلى البلاشفة كانت الأشهر الأولى من الثورة فترة من الحيرة والتذبذب»<sup>2</sup>. وهناك الكثير من الأدلة لدعم هذا القول. كان أكثر القادة خبرة والأكثر نضجا من الناحية السياسية إما في السجن أو في سيبيريا أو في الخارج. وكانت قيادة بتروغراد، كما رأينا، غير مستعدة للمهام المطروحة عليها. كان المكتب الروسي مؤلفا من شليابينيكوف ومولوتوف وزالوتسكي، والذين كانوا على اتصال مع لينين من خلال المراسلات. يتذكر عضو لجنة مقاطعة فيبورغ، كايوروف، أنهم «لم يتلقوا على الإطلاق أي توجيهات من الأجهزة القيادية للحزب. كان أعضاء لجنة بتروغراد قد تعرضوا للاعتقال، ولم يتمكن الرفيق شليابينيكوف، الذي يمثل اللجنة المركزية، من إعطاء توجيهات للنشاط المستقبلي»<sup>3</sup>.

بعد أن تجاوزوا الصدمة الأولى وبمجرد أن أصبحت آفاق النضال العمالي واضحة، بدأ البلاشفة في الرد بشكل صحيح، من خلال دعم الإضرابات والعمل على توسيع مداها. بدأ المزيد من العمال ينخرطون في حركة الإضرابات، وبحلول 25 فبراير وصل عدد المضربين في بتروغراد إلى 300.000. وبمبادرة من العاملات تحولت موجة الإضرابات تدريجيا إلى إضراب سياسي عام انخرط فيه عمال الترام والورشات الصغيرة والمطابع والمحللات التجارية. صدرت منشورات تحمل شعارات من قبيل: «فلننخرط جميعا في النضال!»، «فلنخرج إلى الشوارع!»، «فلتسقط الملكية القيصرية!»، «فلتسقط الحرب!».

وتدرجيا بدأ البلاشفة في بتروغراد يتعافون من ارتباكهم الأول وانخرطوا في العمل. في اليوم الذي بدأ فيه إطلاق النار، تم إلقاء القبض على ثلاثة أعضاء في اللجنة المركزية البلشفية، فتولت اللجنة المحلية في فيبورغ مهمة قيادة العمل في بتروغراد. وابتداء من صباح يوم 27 فبراير، تم إرسال جميع قوى منظمة بتروغراد إلى المصانع والثكنات. تم الاستيلاء على مخازن الأسلحة. نظم البلشفي الكسيف العمال الشباب مصنع بوتيلوف في مجموعة هجومية لمهاجمة رجال الشرطة والاستيلاء على أسلحتهم. وفي مساء يوم 27، اجتمعت القيادة البلشفية، التي كانت مشكلة أساسا من أعضاء لجنة فيبورغ، لمناقشة الإجراءات اللازمة لتحويل الإضراب العام إلى انتفاضة مسلحة. وصدر الأمر بالتأخي مع الجنود ونزع سلاح الشرطة ومداومة مخازن الأسلحة والعتاد وتسليح العمال.

وبمجرد تعافهم من عدم استعدادهم الأولي، اتخذ بلاشفة بتروغراد موقفا أكثر هجومية. نددوا بالاتفاقيات مع الليبراليين البرجوازيين، وانتقدوا دعاة الدفاع عن الوطن وطالبوا العمال بالتحرك الفوري. ذهب العمال إلى الثكنات وتأخوا مع الجنود وكانوا يستقبلون في كل مكان بتضامن حماسي. الجنود، الذين كان بعضهم من عمال بوتيلوف السابقين، كانوا في مزاج ثوري. وكانت القوات تأتي تباعا فوجا تلو آخر. نفس الشيء كان يحدث في موسكو. وجنبا إلى جنب مع العمال استولى الجنود المتمردون على الترسانة المركزية في بتروغراد. وسرعان ما صارت 40.000 بندقية و30.000 مسدس تحت تصرف العمال. لم يكن انتقال الجيش إلى صف الثورة من قبيل الصدفة، بل كان نتيجة سنوات من الخبرة القاسية في الخنادق، وكذلك نتيجة الاستياء المتراكم للفلاح الروسي الذي طالت معاناته، والذي أوصلته الحرب إلى أقصى حدود تحمله. لكن لا يمكن إنكار الدور الذي قام به عدد هائل من الأبطال المجهولين.

الرواية التي عادة ما يحكيها المؤرخون البرجوازيون هي أنه بينما كانت ثورة أكتوبر مجرد «انقلاب»، فإن ثورة فبراير كانت حركة بدائية عفوية للجماهير. الاستنتاج الضمني لهذا الزعم هو أن «ثورة أكتوبر كان شيئا سيئا»، «مؤامرة أقلية صغيرة، أدت بشكل حتمي إلى الديكتاتورية، في حين أن ثورة فبراير... حسنا، فباعتبارها ثورة فإنه لا ينبغي للمرء، بالطبع، أن يوافق على حدوثها، لكن النظام القيصري لم يكن جيدا، لذا فقد مثلت حركة ديمقراطية، حركة للأغلبية». هذين التصريحين كلاهما خاطئ. فتورة أكتوبر لم تكن انقلابا ولا مؤامرة، بل كانت تعبيرا منظما عن إرادة الأغلبية الساحقة التي ناضلت لمدة تسعة أشهر لإيجاد حل لمشاكلها من خلال سلطة السوفييتات. ومن ناحية أخرى فإن وصف ثورة فبراير بأنها مجرد حركة «عفوية»، تصور سطحي أحادي الجانب. لا يمكن للمرء أن يقول عنها ذلك إلا بمعنى أنه لم يقم أي حزب بتنظيمها. لكن هذا غير كاف. إذ أنه يعطي الانطباع بوجود نوع من النهوض الأعمى، مثل تدافع قطيع من الثيران بدون نظام أو سبب. إن استخدام كلمة «عفوية» في هذا السياق لا يفسر شيئا، وهو مجرد غطاء لعدم وجود تفسير، أو لما هو أسوأ من ذلك، أي احتقار «الجماهير الجاهلة» التي تعزى أفعالها إلى مجرد «غريزة القطيع».

1: M. Liebman, Leninism Under Lenin, p: 117 and 118.

2: L. Trotsky, The History of the Russian Revolution, p: 300.

3: M. Liebman, Leninism Under Lenin, p: 117.

لا يمكن القول بأي حال من الأحوال إن الحزب البلشفي قد قاد ثورة فبراير. لكن ومع ذلك فإن هناك من قادهما. أحد ما أخذ زمام المبادرة، ودعا إلى الإضرابات ونظم المظاهرات. يعرف كل عامل أنه حتى الإضراب لمدة ساعتين لا بد له من قيادة. هناك دائما شخص ما يأخذ زمام المبادرة. يتعين على شخص ما الدخول إلى مكتب المدير لتقديم مطالب العمال. وذلك الشخص يتم اختياره من طرف العمال. والاختيار ليس "عفويا" (أي عرضيا). يختار العمال ممثليهم من بين الأكثر وعيا والأكثر شجاعة، يختارون الرجل أو المرأة الأكثر التزاما لتمثيلهم. ويكون لهذا الشخص تاريخ لم يبدأ بالأمس فقط. يكون أو تكون شخصا معروفا عند العمال بكونه يعرف جيدا وضعهم ومطالبهم. هؤلاء هم القادة الطبيعيون للطبقة العاملة. ويكونون غالبا، لكن ليس دائما، أعضاء في النقابات والأحزاب السياسية اليسارية. وفي حالة روسيا، كانوا أساسا من البلاشفة.

على الرغم من أن البلاشفة كانوا ما يزالون أقلية صغيرة من الناحية العددية، فإنهم بحلول ذلك الوقت كان لديهم مئات الأعضاء في المصانع الرئيسية: ما بين 75 و80 عضوا في مصنع ليسنز، وحوالي 30 عضوا في أحواض بناء السفن "روسو- بلطيق" و"إيجورسكي"، ومجموعات أصغر في مصانع أخرى. وفي مصنع بوتيلوف، بعماله البالغ عددهم 26.000، كان هناك 150 بلشفيًا. كانت تلك أعداد صغيرة جدا، لكن وبفضل سياساتهم الطبقيّة الثورية الحازمة، فإن البلاشفة الأفراد لعبوا في أحداث فبراير دورا أكبر بكثير من قوتهم العددية. وبدون انتظار توجيهات من الحزب، تحرك العمال البلاشفة في المصانع والثكنات، حيث وفروا قيادة حاسمة للمضربين والمتظاهرين. لقد زودهم نشاطهم السياسي السابق برصيد سياسي وضعهم في قيادة الجماهير التي التفت حولهم.

ليس هناك شك في أن العمال البلاشفة الأفراد، الذين كانوا أكثر العناصر تنظيما وكفاحية في المصانع، قد لعبوا دورا رئيسيا في الثورة، حيث أعطوا لشعارات الحركة محتوى طبقيًا ثوريا وأعطوها شكلا منظما، وذلك دون انتظار أوامر القيادة البلشفية. لم يكونوا قد قرأوا الكثير من النظرية، وفي معظم الحالات كانوا بالكاد يتذكرون الشعارات الحزبية الأساسية حول الحرب والأرض والجمهورية ويوم العمل من ثماني ساعات. لكن هذا القدر المحدود من الأفكار، المرتبط بالغريزة الطبقيّة الأساسية والروح الثورية، كان كافيا لمنحهم تفوقا هائلا وجعلهم يتحولون إلى عمالقة في أماكن عملهم وفي الشوارع. لقد عاد المحرض الحزبي الآن إلى وسطه الطبيعي.

كان هؤلاء القادة المحليون قادرين بما يكفي على قيادة العمال للإطاحة بالقيصر، لكن ليس أكثر من ذلك. ومن أجل المضي قدما، كانوا في حاجة إلى توجيهات حازمة وواضحة من طرف قيادة الحزب. لكن القيادة البلشفية في بيتسبورغ، التي كانت ما تزال متمسكة بشعار "الديكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين"، الخاطئ والمتجاوز، لم يكن لديها أي منظور لمساعدة الطبقة العاملة على حسم السلطة. حتى أكثرهم راديكالية لم يكن ينظر إلى أبعد من إقامة جمهورية برجوازية. وبالتالي فإن الإطاحة بالقيصر تركتهم في حيرة من أمرهم. وهكذا فرغم أن الدور القيادي في انتفاضة فبراير كان للعمال البلاشفة أساسا، فإن قادة البلاشفة في بتوغراد فقدوا المبادرة نتيجة ترددهم. لقد أثبت العمال والقواعد، كما كرر لينين في كثير من الأحيان، أنهم أكثر ثورية بكثير من الحزب الأكثر ثورية.

في الثكنات، كما الحال في المصانع، كان العديد من "القادة الطبيعيين" للجنود من البلاشفة الذين عادوا إلى وسطهم الطبيعي، مثل عمال بوتيلوف السابقين الذين كانوا قد انضموا إلى الجيش خلال الحرب. كانت الأقسام الرئيسية الأكثر تقدما بين صفوف الحرس تحت تأثير البلاشفة. لم تمر دروس السنوات سدى. كان معظم هؤلاء من البلاشفة الذين تدرّبوا في المدرسة الثورية لسنوات 1905 و1912-1914. لكن الجماهير كانت مختلفة تماما. لقد غيرت الحرب تكوين العاملين في المصانع، لكونها جرت إلى المصانع عددا كبيرا من الفئات المتخلفة وغير المنظمة والتي تفتقر إلى الخبرة. لذلك فإنه لكي تستخلص تلك الجماهير، المشكلة من عشرات الملايين، جميع الاستنتاجات الضرورية، كان من الضروري لها المرور من تجربة أخرى. من الطبيعي أن يبحث الناس عن الطريق الأسهل والأقل مقاومة، حتى خلال الثورة. ولهذا السبب بالذات دائما ما تشبث الجماهير بعناد بمنظمتها الجماهيرية التقليدية. إن تفكير الجماهير الاقتصادي للغاية: لماذا نتخلص من أداة قديمة قبل محاولة استعمالها؟ كان الاختلاف الوحيد الذي يميز روسيا في عام 1917 عن بقية البلدان هو أن الجماهير العريضة لم يكن لديها أي حزب معترف به ولا نقابة عمالية جماهيرية، بل كانت لديها فقط فكرة غامضة عن "الاشتراكيين الديمقراطيين". صحيح أن أكثر العمال تقدما كانوا بلاشفة، وقد كانوا في الفترة التي سبقت الحرب مباشرة يشكلون غالبية العمال، المنظمين منهم على الأقل. لكن الجماهير التي كانت قد استيقظت للتو على الحياة السياسية لم تكن تستطيع بعد التمييز بين اليسار واليمين. لم يكونوا مهتمين بعد بالتفاصيل البرنامجية، بل تحركوا بفعل رغبة عامة في التغيير. لقد كانوا قادرين على القيام بالثورة لكنهم لم يكونوا قادرين على منع السلطة من الانزلاق من بين أيديهم. كانت ممارساتهم أكثر تقدما من وعيهم. لقد تطلب الأمر المرور من تجربة الأحداث العظيمة إضافة إلى العمل الصبور من جانب

البلاشفة لرفع وعي الجماهير إلى المستوى الذي يتطلبه الوضع الحقيقي.

وهذا ما يفسر أيضا لماذا لم تكن الحدود التي تفصل بين العمال البلاشفة والعمال المناشفة واضحة تماما. فجأة بدت الاختلافات بينهم أقل أهمية. ألم يدافع كلا التياران عن جمهورية برجوازية ديموقراطية؟ وعلى أي حال فقد كانت هناك رغبة قوية في توحيد صفوف نتيجة للثورة نفسها. لقد ناضل العمال المناشفة، الذين جرفتهم الموجة الثورية، جنبا إلى جنب مع البلاشفة. وكانت فكرة الوحدة الميدانية بين جميع المجموعات الثورية واسعة الانتشار في ذلك الوقت. على مستوى القواعد كان العمال البلاشفة والمناشفة وحتى الاشتراكيين الثوريين يتعاونون ميدانيا دون أية صعوبات. بل في العديد من المناطق اندمجت المجموعات الاشتراكية الديمقراطية بشكل تلقائي. هذه الحقيقة مهمة للغاية. إنها توضح مدى قوة فكرة الوحدة داخل الطبقة العاملة كما توضح مدى تعقيد مهمة بناء حزب ثوري.

على الرغم من أن البلاشفة كانوا قد نجحوا خلال سنوات 1912-1914 في كسب أكثر من أربعة أخماس العمال المنظمين في روسيا، وعلى الرغم من أن المناشفة لم يلعبوا أي دور خلال فترة الحرب، فإنه خلال أيام فبراير- أبريل العاصفة، اندمج التياران مرة أخرى في منظمة واحدة في كل المقاطعات، باستثناء موسكو وبتروغراد. بل إنهم في الواقع استمروا متحدين، في العديد من المناطق، حتى اندلاع ثورة أكتوبر. هذا دليل على قوة اليازية القديمة للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي، على الرغم من كل ما حدث سابقا. حتى في روسيا عام 1917، لم يحقق كفاح لينين من أجل فصل التيار الثوري الحقيقي النجاح بسهولة أو بضربة واحدة. في روسيا، كما هو الحال في كل بلد آخر، لم تنزل القوات البلشفية والأمية الشيوعية المستقبلية من السماء، بل تشكلت في خضم الصراع بين التيارات المتناقضة داخل المنظمات التقليدية للطبقة العاملة (الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية) وأسفرت، بعد فترة طويلة من الصراع مع العديد من التقلبات، عن حدوث الانشقاق وتشكيل حزب جديد. هذه السيرورة، التي حاولنا شرح خطوطها العريضة في كتابنا هذا، لم تنته إلا في أكتوبر 1917، عندما تمكن الجناح الثوري أخيرا من كسب أغلبية حاسمة داخل السوفييتات وقاد الطبقة العاملة إلى الاستيلاء على السلطة.

### المناشفة وثورة فبراير

الثورة، بطبيعتها، حدث يحرك المجتمع من أعماقه، ويوقظ ملايين الجماهير المتخلفة سياسيا والخاملة إلى العمل السياسي. وفي بلد متخلف، يغلب عليه الفلاحون مثل روسيا، كان هذا يعني إيقاظ الفلاحين وغيرهم من فئات البرجوازية الصغيرة في المدينة والريف. وقد لعب ضغط الجماهير البرجوازية الصغيرة دورا هائلا خلال المراحل الأولى للثورة. انعكس ذلك في نظام الانتخاب داخل السوفييتات. في البداية، كان يحق للعمال في بتروغراد الحصول على ممثل واحد مقابل كل 1.000 ناخب، بينما كان الجنود ينتخبون ممثلا واحدا عن كل سرية. وقد أعطى نظام التصويت هذا غلبة ساحقة للجنود، أي الفلاحين، على ممثلي العمال داخل السوفييتات. كان هناك 2.000 ممثل عن الجنود مقابل 800 عن العمال. غرق البلاشفة في بداية الثورة في هذا البحر من الفلاحين المفتقدين لأي تكوين سياسي والذين كانوا أميين في أغلبهم. وبدافع من عقليتهم البرجوازية الصغيرة كانوا يميلون إلى انتخاب ممثليهم من بين "المتقفين" و"السادة الذين يعرفون كيف يتحدثون"، والذين كانوا في أغليبتهم الساحقة من أبناء الطبقة الوسطى الديمقراطية (كان كثير منهم من صغار الضباط) الذين انجذبوا على نطاق واسع إلى الأحزاب الاشتراكية والإصلاحية المعتدلة، أي المناشفة والاشتراكيين الثوريين.

كان أبرز قادة المناشفة -دان وتشخيدزه و تسيريتيلي- من أنصار الدفاع عن الوطن، إلا أنه كانت هناك مجموعة صغيرة من المناشفة الأميين -مارتوف ومارتينوف وغيرهما- الذين عارضوا الحرب. في البداية انتقلت هذه العناصر الإصلاحية اليسارية أو "الوسطية" (الوسطية بمعنى أنها تقف بين الماركسية والإصلاحية) إلى معسكر اليسار، لكنها، كما هي العادة دائما، لم تكن تريد القطيعة التامة مع أنصار الدفاع عن الوطن، وبالتالي انتقلت لاحقا إلى معسكر اليمين. كان الجناح اليميني للمناشفة هو الذي حدد خطهم السياسي في عام 1917، على عكس ما كان عليه الحال في عام 1905. لم يلعب "اليسار" عندهم أي دور مستقل، ولم يكن يمكنه ذلك. كان التيار الثوري الوحيد المنسجم هو الحزب البلشفي، الذي استقطب إلى صفوفه، كما لاحظ لينين لاحقا، أفضل العناصر داخل الحركة العمالية الروسية. وقد وجد أفضل الإصلاحيين اليساريين طريقهم، بشكل أو بآخر، إلى صفوف الحزب البلشفي. بينما اختفى الآخرون دون أن يتركوا أي أثر.

الزعماء المناشفة والاشتراكيون الثوريون، الذين سيطروا على السوفييتات في البداية، كانوا من الناحية العملية قد وصلوا إلى

القيادة دون أن ينتخبهم أحد. لكنهم في البداية تفوقوا على البلاشفة بفعل مجموعة من المزايا: كانت لديهم "الأسماء الكبيرة" من برلمانيي الدوما، والأشخاص المعروفين عند الجماهير من خلال الصحافة الشرعية خلال سنوات الحرب. كما أنهم عرضوا ما بدا وكأنه "الطريق الأسهل للحل" على جماهير العمال والفلاحين المفتقدين للوعي السياسي والذين تدفقوا للتو على الساحة وهم مشبعون بالأوهام بخصوص الديمقراطية البرجوازية. كان هؤلاء الزعماء البرجوازيين الصغار مرعوبين من الثورة وكانوا منذ الوهلة الأولى حريصين على تسليم السلطة إلى القادة "الطبيعيين" للمجتمع، أي البرجوازية<sup>1</sup>.

كانت هناك أسباب أخرى لتمكن المناشفة والاشتراكيين الثوريين من احتلال الصدارة بعد فبراير. فبروليتاريا بتروغراد، التي كانت متأثرة بشدة بالبلشفية سنوات 1912-1916، تعرضت لتغيير عميق في تكوينها خلال الحرب، فلم يكن لتلك الفئات التي دخلت المصانع مؤخرا نفس مستوى الوعي أو التقاليد الذي كان يتمتع به عمال عام 1905 الذين حلت محلهم. يشرح تروتسكي ذلك قائلا: «كانت هيمنة مثقفي الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى انعكاسا لحقيقة أن الفلاحين، الذين استدعوا فجأة إلى المشاركة في الحياة السياسية المنظمة، من خلال آلية الجيش، قد اكتسحوا بأعدادهم الهائلة البروليتاريا ودفعوها جانبا. والأكثر من ذلك هو أنه عندما ارتفع قادة الطبقة الوسطى إلى الذروة على يد جماهير الجيش القوية، فإن الطبقة العاملة نفسها، باستثناء أقسامها المتقدمة، صارت بشكل حتمي مشبعة بنوع من الاحترام السياسي لهم وحاولت الحفاظ على العلاقات السياسية معهم خوفا من أن تجد نفسها منفصلة عن الفلاحين، وهو الشيء الذي كان خطيرا للغاية، لأن الجيل الأكبر سنا ما يزال يتذكر درس 1905، عندما تعرضت البروليتاريا للسحق، بسبب أن جماهير الفلاحين الهائلة لم تأت في الوقت المناسب للمشاركة في المعارك الحاسمة. هذا هو السبب الذي جعل الجماهير البروليتارية، خلال المرحلة الأولى من الثورة الجديدة، تظهر قبولها للأيديولوجيا السياسية للاشتراكيين الثوريين والمناشفة، خاصة وأن الثورة كانت قد أيقظت الجماهير المتخلفة من العمال، وبذلك جعلت من التجذر اللفظي للمثقفين ما يشبه مدرسة إعدادية لها»<sup>2</sup>.

كانت الشخصيات البارزة في سوفيت بتروغراد: تشخيدزه، وكيرنسي -رئيس مجلس السوفييت- وسكوبيليف، جميعها من المناشفة وأصار الدفاع عن الوطن. وفي اللجنة التنفيذية للسوفييت، كان هناك 12 آخرين، إلى جانب اثنين فقط من البلاشفة: شليابينيكوف وزالوتسكي. وبناء على اقتراح من البلاشفة تم توسيع اللجنة التنفيذية لتشمل ثلاثة ممثلين من كل حزب: المناشفة والبلاشفة والاشتراكيين الثوريين. وبهذه الطريقة تمت إضافة مولوتوف وك. إ. شتوكو، للبلاشفة وب. إ. شتوخا عن الاشتراكيين الديمقراطيون اللاتيفيين. في 09 مارس، صار العدد الإجمالي للبلاشفة داخل السوفييت هو 40. كان الجيش بدوره ممثلا داخل السوفييت. أرسل الجنود مندوبين عنهم إلى قصر توريد، بمن فيهم ممثلون عن الجنود في الجبهة. كان ذلك يعني، في الواقع، أنه لأول مرة يجلس ممثلو الفلاحين إلى جانب إخوانهم البروليتاريين. وكان هذا بالفعل تطبيقا عمليا للوحدة الثورية بين البروليتاريا والفلاحين.

أصدر السوفييت جريدته الخاصة، إيزفستيا (الخبر)، والتي صدر العدد الأول منها في 28 فبراير تحت إشراف ي. م. ستيكولوف. وهكذا تشكل أخيرا برلمان الشعب الثوري المسلح! لم يكن في إمكان أي قوة على الأرض أن تمنعه من الاستيلاء على الأرض والمصانع وإنشاء جمهورية ديمقراطية حقيقية للكادحين. كان يكفيه أن يقرر فعل ذلك. لكن كانت هناك عقبة واحدة فقط وهي أنه تعين على العمال والفلاحين أن يكونوا واعين بقوتهم. إلا أن هذا الوعي كان ما يزال مفقودا. وبهذه الطريقة ظهر وضع "ازدواجية السلطة" الغريب.

شرح تروتسكي أسباب ازدواجية السلطة قائلا: «كانت "الجبهة الموحدة" المشكلة من المناشفة والاشتراكيين الثوريين تسيطر على السوفييات وكانت السلطة في أيديها في الواقع. كانت البرجوازية مصابة بالشلل السياسي التام لأن العشرة ملايين جندي، الذين أرهقتهم الحرب، وقفوا بأسلحتهم إلى جانب العمال والفلاحين. لكن أكثر ما كان قادة "الجبهة الموحدة" يخشونه هو "إخافة" البرجوازية و"دفعها" إلى معسكر الردة الرجعية. لم تجرؤ الجبهة الموحدة على معارضة الحرب الإمبريالية ولا على مس البنوك أو الملكية الإقطاعية للأراضي أو المتاجر أو الشركات. كانت تضيع الوقت وتطلق الجمل العامة بينما كانت الجماهير تفقد صبرها. بل وأكثر من ذلك، فقد قام المناشفة والاشتراكيون الثوريون بنقل السلطة مباشرة إلى حزب الكاديت، الذي كان الكادحون يرفضونه ويحتقرونه»<sup>3</sup>.

1: كتاب Istoriya الذي يصف انتفاضة فبراير، دون أي أساس، بأنها كانت مبادرة بلشفية بحتة، يقف عاجزا عن تفسير لماذا كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون هم المستفيدين الرئيسيين منها!

2: L. Trotsky, The Russian Revolution, in The Essential Trotsky, pp: 27-28.

3: L. Trotsky, Lessons of October, in Writings 1935-1936, pp: 167-68.

تشبث المناشفة والاشتراكيون الثوريون بالليبراليين البرجوازيين، بينما تشبث هؤلاء الآخرون بما تبقى من النظام القديم. العمال والفلاحون، الذين كانوا قد استيقظوا للتو على الحياة السياسية، كانوا يسعون جاهدين لإيجاد طريقهم، وكانوا ما يزالون يفتقرون إلى الخبرة والثقة بالنفس للاعتماد على قوتهم الخاصة. لقد أدرك لينين على الفور أهمية السوفييت باعتباره "حكومة شعبية حقيقية"، لكن هذا التصور كان كتابا مغلقا بالنسبة لقادة جميع الأحزاب، بمن فيهم البلاشفة أنفسهم في البداية. كانت الأولوية الرئيسية بالنسبة لليبراليين البرجوازيين هي استعادة "النظام" و"إعادة الأمور إلى طبيعتها". إلا أن العمال والجنود رفضوا بشكل غريزي إلقاء سلاحهم أو التراجع خطوة إلى الوراء، بعد أن قطعوا شوطا طويلا، واتجهوا نحو السوفييت بحثا عن التوجيه والقيادة. ومع تزايد الشكوك، جاء وفد من الجنود ونواب البحارة إلى قصر توريد لتقديم مطالبهم إلى السوفييت. كان اثنان من أعضاء هذا الوفد (أ. م. باديرين وأ. د. سادوفسكي) من البلاشفة.

لم تكن تقلبات قادة البلاشفة في بتروغراد تعكس موقف العمال البلاشفة الذين كانوا على اتصال أكثر بالمزاج السائد داخل المصانع والثكنات. طالب البلاشفة في منطقة فيبورغ باستيلاء السوفييت على السلطة. وبطبيعة الحال رفض قادة السوفييت ذلك مبرر أن الثورة كانت "برجوازية" وأن الطبقة العاملة "غير مستعدة" بعد لتولي السلطة. كان السياسيون البرجوازيون يناورون من أجل هزيمة الثورة. وبينما دعا الشوفينيون الصريحون إلى انضمام قادة السوفييت إلى حكومة مع البرجوازية، فضل المتسترون منهم (تشخيدزه وسوخانوف وستيكوف) البقاء خارج الائتلاف، لكنهم عارضوا في نفس الوقت استيلاء السوفييت على السلطة، وعض ذلك قالوا بأنه على السوفييت أن "يراقب" الحكومة البرجوازية من الخارج. كانت هذه المحاولة للجمع بين النار والماء استباقا للموقف الذي اتخذته فيما بعد الوسطيون الألمان الذين دافعوا عن خلق نظام مختلط تتواجد فيه مجالس العمال (السوفييتات) جنبا إلى جنب مع الحكومة البرجوازية. وهو نفس الموقف الذي دافع عنه ستالين وكامينيف.

كانت سياسة المناشفة تتعارض مع رغبة الجماهير، لكن هذه الأخيرة كانت ما تزال تفتقر إلى الخبرة السياسية وساذجة وشديدة الثقة في قادتها. كان الخطباء المناشفة و"الأسماء الكبيرة" يثيرون الرهبة عندها ويسكتون شكوكها. وباسم "الوحدة" و"الدفاع عن الديمقراطية" ووحدة جميع "القوى التقدمية"، وما إلى ذلك، أكدوا على أن الطبقة العاملة لا يمكنها أن تحول المجتمع "من تلقاء نفسها"، وكل تلك السلسلة من الخزعبلات التي يستعملها بشكل دائم القادة الإصلاحيون لإقناع العمال بأنهم عاجزون عن تغيير المجتمع، وأنه يجب عليهم أن يتحملوا إلى الأبد حكم رأس المال. لقد جادلوا بأن السوفييت سوف "يضغط على الليبراليين البرجوازيين" من أجل أن يعملوا لمصلحة العمال.

### البلاشفة والحكومة المؤقتة

في مواجهة تحول جديد وغير متوقع للأحداث، شعر قادة البلاشفة في بتروغراد بالضياع التام. وبدأوا ينتظرون بفارغ الصبر وصول القادة المنفيين ليوفروا لهم التوجيه الضروري. يعترف شليابنيكوف بأن البلاشفة، الذين ركزوا كل جهودهم على كسب المعركة المباشرة من أجل السلطة، لم يفكروا كثيرا في مسألة معنى السلطة وكيف سيتم بشكل ملموس تشكيل "الحكومة الثورية المؤقتة". كان ذلك، في آخر التحليل، نتيجة للنظرية الخاطئة التي لخصتها صيغة "الدكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين"، والتي تسببت في شل قادة البلاشفة وإرباكهم بشكل كامل بعد الإطاحة بالقيصر. لم يكن حتى لأكثرهم تجذرا منظور آخر سوى تعزيز النظام البرجوازي. كتب أولمنسكي قائلا: "يجب أن تكون الثورة القادمة ثورة برجوازية فقط"، مضيفا إن: «ذلك كان موقفا إلزاميا لكل عضو في الحزب، كان المبدأ الرسمي للحزب وشعاره الدائم الذي لم يتغير حتى ثورة فبراير 1917، بل ولفترة من الزمن بعد ذلك». وقد عبرت برافدا عن نفس تلك الفكرة بشكل أكثر فظاظة، في عددها الصادر يوم 07 مارس 1917، أي حتى قبل أن يعطيها ستالين وكامينيف توجهها أكثر يمينية، حيث كتبت: «بالطبع ليس لدينا أي وهم بخصوص راهنية سقوط حكم رأس المال، إن ما يجب أن يسقط هو فقط الحكم الاستبدادي والإقطاع»<sup>1</sup>.

وعلى عكس هؤلاء القادة فقد أظهر العمال البلاشفة في المصانع موقفا صحيا تمثل في عدم الثقة في الحكومة المؤقتة منذ البداية. لم يقيم منظورهم للثورة على الشعارات القديمة، بل على غريزتهم الطبقيّة والثورية. لقد كانوا في كل مرحلة يقفون على يسار اللجنة المركزية، التي كانت تتأرجح كثيرا قبل أن يتولى لينين زمامها. ومن المفارقات هي أن غياب القادة في بتروغراد في البداية سمح لصوت القواعد أن يصير مسموعا بشكل أكثر وضوحا. كانوا بمجرد ما يتجاوزون فترة الارتباك الأولي، يعودون فيتبنون موقفا

1: M. Liebman, Leninism Under Lenin, p: 127.

صحيحاً إلى حد ما. وهكذا فقد أصدر بلاشفة بتروغراد بياناً، رحب به لينين بحرارة، تحت عنوان "إلى جميع مواطني روسيا"، حيث طالبوا بإقامة جمهورية ديمقراطية وإقرار يوم عمل من ثماني ساعات، والاستيلاء على ممتلكات الملاكين العقاريين ووضع حد فوري للحرب الامبريالية.

كان من شأن ذلك الموقف أن يضع البلاشفة في مواجهة جميع التيارات الأخرى داخل "المعسكر التقدمي" الذي كان يحاول كبح الثورة من أجل الوصول إلى تسوية مع الليبراليين البرجوازيين. وعلى الرغم من أنه لم يشر إلى السوفييت، فإنه قال: «يجب على عمال المصانع والجنود الثوريين انتخاب ممثليهم على الفور لتشكيل حكومة ثورية مؤقتة، والتي يجب أن تقوم تحت حماية الشعب والجيش الثوري».

كما دعا البيان إلى إنشاء السوفييتات، حيث قال: «انتقلوا مباشرة إلى انتخابات لجان الإضراب في المصانع. ممثلو تلك اللجان سوف يشكلون سوفييت نواب العمال، الذي سيتولى الدور التنظيمي داخل الحركة والذي سيشكل حكومة ثورية مؤقتة».

لقد انعكس الموقف الثوري الغريزي للقواعد البلشفية ومعارضتها للتعاون الطبقي في ذلك الموقف الجذري الذي تبنته برافدا خلال الأيام الأولى للثورة، قبل وصول ستالين وكامينيف. كتبت برافدا يوم 1917/03/09: «يجب على سوفييت نواب العمال والجنود أن يتخلص فوراً من هذه الحكومة المؤقتة البرجوازية الليبرالية ويعلن نفسه أنه الحكومة الثورية المؤقتة»<sup>1</sup>.

لكن وصول القادة المنفيين غير الأمور على الفور إلى الأسوأ. فنظراً لأن لينين كان قد تقطعت به السبل في سويسرا حيث كان محاصراً، بسبب رفض الحلفاء السماح له بالسفر إلى روسيا عبر أراضيهم، فقد كان أول من عاد إلى روسيا هم أولئك الذين كانوا منفيين في سيبيريا، ومن بينهم كامينيف وستالين، اللذان قاما على الفور بتوجيه الحزب في اتجاه اليمين، مما جعله يقترب من المناشفة.

انضم زعماء البلاشفة في روسيا إلى المناشفة والاشتراكيين الثوريين في دعم الحكومة المؤقتة، برئاسة الأمير لفوف، على الرغم من كل تحذيرات لينين ضد التكتل مع البرجوازية الليبرالية. كانت هناك اختلافات حادة بين بلاشفة الداخل حتى قبل عودة ستالين وكامينيف. وعندما عرض مولوتوف على لجنة بتروغراد، قراراً باسم اللجنة المركزية، ينتقد الحكومة المؤقتة ويدين سياستها المناهضة للثورة ويدعو إلى استبدالها بـ "حكومة ديمقراطية"، تم رفضه. وبدلاً من ذلك أصدرت لجنة بتروغراد قراراً تعلن فيه الامتناع عن شن أي هجمات على الحكومة المؤقتة «طالما كانت ممارساتها تتوافق مع مصالح البروليتاريا وعموم جماهير الشعب الديمقراطية»<sup>2</sup>. وعوض أن يعملوا على الظهور كقوة ثورية مستقلة، اكتفى قادة البلاشفة في بتروغراد بلعب دور العجلة الخامسة في عربة "الديمقراطيين التقدميين". كان ذلك يعكس ضغط الرأي العام البرجوازي الصغير. كان المزاج العام السائد في أعقاب الإطاحة بالقيصر شهر فبراير هو النشوة والابتهاج العام. ازداد الضغط المكثف من أجل وحدة جميع "القوى التقدمية"، ونزل بثقله على كاهل الشريحة القيادية للجناح الأكثر راديكالية، الذي كان يتم حثه باستمرار على تعديل مواقفه والتوافق مع الأغلبية. لقد أدى ذلك إلى إرباك القادة البلاشفة، وجعلهم يتجهون نحو التقارب مع المناشفة. حيث شهدت العديد من المناطق دمج اللجان المحلية البلشفية والمنشفية بشكل تلقائي. يتذكر تروتسكي ذلك قائلاً: «لقد سقطت الحواجز بين البلاشفة والمناشفة، بين الأميين وبين الوطنيين. واجتاحت البلد بأسره نزعاً توفيقية نشيطة لكنها قصيرة النظر وكثيرة الاطناب. كان تخبط الناس في فوضى من العبارات البطولية هو الميزة الرئيسية لثورة فبراير خاصة خلال الأسابيع الأولى. كانت مجموعات المنفيين قد بدأت تصل من جميع أطراف سيبيريا وانددمجت في تيار واحد تدفق غرباً في جو من العدوى السامة»<sup>3</sup>.

أدى وصول المنفيين من سيبيريا على الفور إلى إضفاء ميل يميني حاد على المواقف السياسية التي اتخذتها القيادة البلشفية في بتروغراد. حتى ذلك الوقت كانت القيادة المحلية، المؤلفة من شليابنيكوف وزالوتسكي ومولوتوف، قد سلكت مساراً أكثر راديكالية. لقد وقف هؤلاء القادة الثلاثة في الجناح اليساري للحزب. لكن القادمين الجدد، كامينيف وستالين، استخدموا منصبهما لدفع خط الحزب بحدوة نحو اليمين، وهو ما انعكس على الفور في صفحات الجريدة المركزية للحزب. ففي مقال افتتاحي في برافدا، يوم 14 مارس، أي بعد يومين على عودته، كتب كامينيف متسائلاً: «ما الغرض من تسريع الأمور أكثر، في حين أنها تسير بالفعل بسرعة كبيرة»<sup>4</sup>. وفي اليوم التالي كتب مقالة أخرى علق فيها على بيان كيرينسكي قائلاً بأن روسيا "ستدافع بكل فخر عن حرياتها" وأنها

1: Istoriya KPSS, vol. 2, pp: 674 and 688.

2: M. Liebman, Leninism Under Lenin, p: 122.

3: L. Trotsky, Stalin, p: 181.

4: M. Liebman, Leninism Under Lenin, p: 123.



لن «تراجع أمام حراب المعتدين». وأضاف بحماس، وبلغته ناقضت بشكل مطلق سياسة لينين المعارضة للحرب: «عندما يواجه جيش جيشا آخر، يكون من أكثر السياسات جنونا أن يقترح المرء على أحدهما أن يلقي سلاحه ويعود إلى المنزل. لن تكون تلك سياسة سلام، بل سياسة عبودية، سيتم رفضها باشمئزاز من قبل أي شعب حر»<sup>1</sup>.

وقد تبنى ستالين نفس موقف كامينيف، لكن بحذر أكبر. نشر مقالا يوافق فيه على الموقف الذي عبر عنه السوفييت في بيانه (الذي انتقده لينين بشدة) وقال إن المطلوب هو «الضغط على الحكومة المؤقتة لجعلها تعلن موافقتها على بدء مفاوضات السلام على الفور». ووفقا لستالين فإنه «مما لا جدال فيه» أن «الشعار المتصلب "فلتسقط الحرب!"، شعار غير مناسب على الإطلاق من الناحية العملية»<sup>2</sup>.

انعقد أول كونفرانس لسوفييتات عموم روسيا لنواب العمال والجنود في نهاية مارس 1917. وفي نفس الوقت أصدرت اللجنة المركزية البلشفية دعوة لكونفرانس لعموم روسيا لعمال الحزب، والذي افتتح في 28 مارس. كان ذلك أول كونفرانس تمثيلي حقا للحزب يعقد منذ الإطاحة بالقيصر. كان لينين ما يزال يكافح من أجل العودة من منفاه السويسري، وبالتالي فقد كان غائبا. لذلك فإن المواقف السياسية المعبر عنها فيه تمثل انعكاسا دقيقا لرؤية القادة البلاشفة في بتروغراد للثورة. من بين القضايا الرئيسية التي نوقشت في الكونفرانس كان الموقف من الحرب والحكومة المؤقتة، وكذلك العلاقات مع الأحزاب الأخرى. قدم ستالين التقرير عن الموقف من الحكومة المؤقتة، وهو التقرير الذي جاء بأكمله مشبعا بنزعة التكيف والتوفيقية الانتهازية، ومعارضاً بشكل جذري للخط الذي دعا إليه لينين بإصرار.

الفكرة الأساسية لموقف ستالين هي أنه على البلاشفة أن يقدموا دعماً نقدياً للحكومة المؤقتة البرجوازية، وأن يشتغلوا كنوع من المعارضة الشرعية التي، رغم بقائها خارج الحكومة، وإبدائها لبعض التحفظات، تستمر في تقديم الدعم لها: «يجب علينا أن ندعم الحكومة المؤقتة طالما استمرت تحضن خطوات الثورة؛ لكن وبمجرد ما تصير معادية للثورة يصير دعمها غير مقبول».

لم يحظ هذا الموقف بالإجماع في الكونفرانس. في الواقع إن القرار الذي اتخذته اللجنة المركزية، وعلى الرغم من أنه غير مرضٍ بشكل كاف، قدم على الأقل بعض النقاط الصحيحة: «إن الحكومة المؤقتة، التي أقامتها الطبقات البرجوازية المعتدلة في مجتمعنا والتي كل مصالحها مرتبطة بالرأسمالية الأنجلو-فرنسية، غير قادرة على حل المهام التي تفرضها الثورة».

ويضيف القرار: «وبالتالي فإن المهمة الآتية هي: توحيد جميع القوى حول سوفييت نواب العمال والجنود باعتباره جنين السلطة الثورية، التي هي وحدها القادرة على التصدي لمحاولات الردة الرجعية القيصرية والبرجوازية وكذلك تحقيق مطالب الديمقراطية الثورية وشرح الطبيعة الطبقيّة الحقيقية للحكومة الحالية».

إن المهمة الأكثر إلحاحاً والأكثر أهمية للسوفييت، والتي فقط تحقيقها ما سيضمن الانتصار على جميع قوى الثورة المضادة ومواصلة تطوير الثورة وتعميقها، هي من وجهة نظر الحزب التسليح الشامل للشعب، وعلى وجه الخصوص التشكيل الفوري للحرس الأحمر العمالي في كل أنحاء البلد».

وتذكر المحاضر أن ستالين قد أعلن صراحة معارضته لقرار اللجنة المركزية هذا: «لقد قرأ الرفيق ستالين القرار الخاص بالحكومة المؤقتة الذي اعتمده مكتب اللجنة المركزية، لكنه أكد على أنه لا يتفق معه بشكل كامل، وأنه يتفق بالأحرى مع قرار نواب سوفييت كراسنويارسك للعمال والجنود».

كان قرار كراسنويارسك، الذي يعكس تفكير المقاطعات الأكثر تخلفاً، ذا طابع انتهازي كامل، حيث استند على فكرة أن السوفييتات يمكنها أن تتعايش مع الحكومة البرجوازية المؤقتة، وتدفعها، عن طريق الضغط، إلى الخضوع لإرادتها، حيث جاء فيه: «(2) أن نوضح بشكل كامل أن المصدر الوحيد لسلطة الحكومة المؤقتة وسيادتها هو إرادة الشعب الذي أنجز هذه الثورة والذي يتعين على الحكومة المؤقتة الخضوع له بالكامل».

(3) أن نوضح بالمثل أن خضوع الحكومة المؤقتة للمطالب الأساسية للثورة لا يمكن تأمينه إلا من خلال الضغط المتواصل من طرف البروليتاريا والفلاحين والجيش الثوري، الذين عليهم أن يحافظوا بكل حيوية على التفاهم حول سوفييتات نواب العمال والجنود النابعة من الثورة، من أجل تحويلها إلى سلطة حقيقية للشعب الثوري.

1: E.H. Carr, The Bolshevik Revolution, vol. 1, p: 75.

2: J.V. Stalin, Works, vol. 3, p: 8.

4) أننا ندعم الحكومة المؤقتة في أنشطتها فقط بقدر ما تتبع مسار الاستجابة لمطالب الطبقة العاملة والفلاحين الثوريين خلال هذه الثورة».

وفي تدخل لا يصدق في سياق النقاش، جعل ستالين الوضع السيء يزداد سوءاً، حيث قال: «هل يمكن للمرء، في مثل هذه الحالة، أن يتحدث عن دعمنا لمثل هذه الحكومة؟ على المرء بالأحرى أن يتحدث عن دعم هذه الحكومة لنا. ليس من المنطقي التحدث عن دعم الحكومة المؤقتة، بل على العكس من الأنسب الحديث عن عدم قيام الحكومة بإعاقتنا عن تنفيذ برنامجنا».

كيف يمكن للبلاشفة "تنفيذ برنامجهم" مع السماح لحكومة برجوازية بالبقاء في السلطة؟ كيف كان من الممكن الحصول على السلام من حكومة مقيدة الأيدي والأرجل بالرأسمال البريطاني والفرنسي؟ كيف يمكن نقل الأرض إلى الفلاحين من قبل حكومة يسيطر عليها "أصحاب الملكية"؟ لقد كانت الفكرة القائلة بأنه يمكن لسوفييتات العمال والجنود أن تتعايش لفترة طويلة مع حكومة الرأسماليين، ناهيك عن إلزامها بالعمل ضد مصالحها الحيوية الخاصة، تتناقض بشكل صارخ ليس فقط مع أجديات الماركسية، بل ومع بديهيات التفكير السليم. وقد استخدمت هذه الصيغة نفسها في وقت لاحق من قبل القادة الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان لعرقلة وتدمير الثورة الألمانية في نوفمبر 1918. لو أن خط ستالين وكامينيف انتصر، لكانت الثورة الروسية ستنتهي بالتأكيد إلى هزيمة مماثلة.

إن الطبيعة المشوشة لهذه الخطب والقرارات والارتباك الذي عاشه البلاشفة في ذلك الوقت، يجد جذوره في الطبيعة المشوشة والمتناقضة للشعار البلشفي القديم: "الديكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين"، وهو ما كان تروتسكي قد نبه إليه قبل زمن بعيد. حيث أن تعريف البلاشفة للطبقة الطبقية للثورة بأنها ديمقراطية برجوازية، جعلهم يواجهون معضلة ما الذي يجب عليهم فعله، إذ لم يكن من المفترض أن تستولي الطبقة العاملة على السلطة. استنتج ستالين وكامينيف أنه على الطبقة العاملة أن تدعم البرجوازية "التقدمية"، على الرغم من كل عبارات "الإلا" و"حتى".

لقد تسببت سياسة الاستسلام للطبقة الوسطى "الديمقراطية"، التي دعا إليها ستالين وكامينيف، في تمييع الحدود بين البلاشفة والمناشفة، إلى درجة أن كونفرانس مارس ناقش بالفعل مسألة الاندماج بين الحزبين. في الواقع لو تم القبول بسياسة ستالين-كامينيف، لما كان هناك أي سبب وجيه للإبقاء على وجود حزبين منفصلين. وفي جلسة 30 مارس، قدم كامينيف تقريراً عن اتصالاته بالمناشفة، كما يظهر في المحاضر: «قدم كامينيف تقريراً عن أنه دخل في مفاوضات مع الاشتراكيين الثوريين الأيمن والمناشفة الأيمن. وطالما من الواضح أنه سيتم تمرير قرار غير مقبول مطلقاً من طرف اللجنة التنفيذية [للسوفييت]، فمن الضروري معارضته بقرار مشترك من جانب الأيمن. الاشتراكيون الثوريون (22) يشكلون أقلية، ولن يصوتوا ضد قرار البلاشفة وسيسحبون قرارهم. بينما المناشفة يسعون إلى تقديم قرار موحد ومؤيدون للاتفاق على قرار مشترك. وفي حالة ما تم فرض الانضباط لإجبار الأقلية على الخضوع للأغلبية، فإن الأيمن سيؤيدون قرارنا».

لكن هؤلاء المتدخلين من يسار الحزب الذين عارضوا هذه التحركات نحو الوحدة والذين تجرأوا على إثارة مسألة استيلاء العمال على السلطة، لم يتم إعطائهم سوى فترة قصيرة للحديث خلال النقاش. وهكذا فإنه عندما تدخل كراسيكوف على هذا الأساس، منعه رئيس الجلسة من مواصلة الحديث:

«قال كراسيكوف: إن جوهر المسألة ليس في التعديلات وليس في عرض توضيحي للشعارات الاشتراكية الديمقراطية، بل في اللحظة الراهنة. فإذا اعترفنا بالسوفييتات باعتبارها الأجهزة التي تعبر عن إرادة الشعب، فإن السؤال المطروح أمامنا لن يكون هو النظر في التدابير الملموسة التي يجب اتخاذها بشأن هذه القضية أو تلك. إذا كنا نعتقد أن الوقت قد حان الآن لإقامة ديكتاتورية البروليتاريا، فعلياً أن نطرح المسألة بهذه الطريقة. لدينا بلا شك القوة المادية للاستيلاء على السلطة. وأعتقد أنه ستكون لدينا القوى المادية الكافية في بتروغراد وكذلك في مدن أخرى. [ضجة في القاعة. صراخ: "هذا غير صحيح".] كنت حاضراً...»

الرئيس (مقاطعاً): إن السؤال قيد المناقشة يتضمن الخطوات العملية لهذا اليوم. أما مسألة ديكتاتورية البروليتاريا فليست مطروحة للنقاش.

كراسيكوف (يتابع): إذا لم نطرح المسألة بهذه الطريقة، فعلياً أن نتخذ خطوات فيما يتعلق بالحكومة المؤقتة التي... الرئيس يحرمه من الكلمة».

على الرغم من أن مقترح كامينيف كان يبدو وكأنه يهدف إلى ربط الاتصال مع الجناح اليساري (الأممي) للمناشفة، فإن النية

الحقيقية كانت هي تحقيق الاندماج في حزب واحد. كان هناك قادة مناشفة بارزون، مثل ليبر، حاضرين في الكونغرانس وشاركوا في أشغاله. وفي جلسة 01 أبريل، تم تقديم قرار، في الكونغرانس، بشأن الوحدة، كتبه الزعيم المنشفي الجورجي، تسيريتيلي. وعلى الرغم من أن ممثلي الجناح اليساري البلشفي، بمن فيهم آنذاك الطالب مولوتوف، عارضوا ذلك القرار، فإن ستالين أعرب عن اتفاقه مع القرار بعبارات إيجابية:

«جدول أعمال اليوم: مناقشة اقتراح تسيريتيلي عن التوحيد.

ستالين: يجب أن نذهب. من الضروري تحديد مقترحاتنا فيما يتعلق بشروط التوحيد. إن التوحيد ممكن على أساس قرارات زيمروالد-كينثال.

لوغانوفسكي: إن لجنة خاركوف تجري مفاوضات على هذا الأساس بالضبط.

مولوتوف: إن تسيريتيلي يريد توحيد عناصر غير متجانسة. يسمى تسيريتيلي نفسه "زيمروالديا" و"كينثاليا" ولهذا السبب فإن التوحيد على هذا الأساس غير صحيح من الناحيتين السياسية والتنظيمية. سيكون من الأصح طرح برنامج اشتراكي أممي محدد. سنقوم بتوحيد أقلية منسجمة.

قال لوغانوفسكي (في سياق دحضه للرفيق مولوتوف): في الوقت الحاضر لسنا على علم بأي خلافات. لقد امتنع المناشفة داخل السوفييت وتحذروا بقوة أكبر مما فعل... البلاشفة الذين عارضوا. خلافات كثيرة صارت متجاوزة. ومن غير الصحيح التركيز على الاختلافات التكتيكية. إنه يمكننا عقد مؤتمر مشترك مع المناشفة والزيمروالديين والكنثالين».

وعلى إثر الجدل الذي أثاره هذا الاقتراح، تدخل ستالين مرة أخرى في النقاش للدفاع عن الوحدة بعبارات لا لبس فيها، والتي على الرغم من حذره المعتاد، جاءت صدى لتعليقاته السابقة، التي وصف فيها الاختلافات بين البلشفية والمنشفية بأنها "عاصفة في كوب شاي": «ستالين: لا فائدة من التسرع واستباق الخلافات. لا وجود لحياة حزبية دون خلافات. سوف نحل الخلافات التافهة داخل الحزب. لكن هناك مسألة واحدة مهمة: من المستحيل توحيد ما لا يمكن تويده. سيكون لدينا حزب واحد مع أولئك الذين يتفقون على قرارات زيمروالد وكينثال...»<sup>1</sup>.

إن وصف الاختلافات بين البلشفية والمنشفية بأنها "خلافات تافهة"، بعد كل الأحداث الكبرى، يدل على أن ستالين، "موظف الحزب"، لم يكن لديه أي استيعاب حقيقي للأفكار الأساسية للبلشفية. لقد كانت تلك "الخلافات التافهة" هي الاختلاف بين الإصلاح والثورة، وبين سياسة التعاون الطبقي والسياسة الطبقة المستقلة. وفي النهاية صوت الكونغرانس لصالح السماح للمفاوضات بالمضي قدما، وانتخب لجنة تفاوضية مؤلفة من ستالين وكامينيف ونوغين وتيودوروفيتش.

## لينين وتروتسكي عام 1917

من منفاه البعيد في سويسرا، كان لينين يراقب بقلق متزايد تطور الخط الذي يتبعه قادة البلاشفة في بتروغراد. وفور سماعه نبأ الإطاحة بالقيصر، أرسل برقية إلى بتروغراد في 06 مارس، قال فيها: «تكتيكا: لا ثقة ولا دعم للحكومة الجديدة؛ يجب الحذر من كيرينسكي بشكل خاص؛ إن تسليح البروليتاريا هو الضمانة الوحيدة؛ انتخابات فورية لمجلس مدينة بتروغراد؛ لا تقارب مع الأحزاب الأخرى».

وبمجرد أن عادت برافدا إلى الظهور مجددا، بدأ لينين يبعث رسائله الشهيرة "رسائل من بعيد". عند قراءة تلك المقالات ومقارنتها بخطب كونفرانس مارس، يتضح أننا أمام عالمين مختلفين. لا عجب أنها وقعت مثل قنبلة على أعضاء اللجنة المركزية المدهوشين! قصف لينين برافدا بالرسائل والمقالات التي تطالب العمال بالقطيعة مع الليبراليين البرجوازيين والاستيلاء على السلطة بأنفسهم. تظهر "رسائل من بعيد" عبقرية لينين الثورية في أوضح صورها. تظهر قدرته على تلخيص جوهر الموقف في لمحة، وحماسه وطريقته في التحديد الدقيق للشعارات الملموسة التي تنطبق على الوضع، وكيفية الانتقال من نقطة إلى أخرى. أشار في رسالته الأولى إلى أن ثورة فبراير وضعت "في الوقت الحاضر" غوتشكوف وميلوكوف في السلطة، لكن الحكومة الرأسمالية لم تستطع

1: L. Trotsky, The Stalin School of Falsification, pp: 239, 240, 241, 242, 255, 256, 258, 274, 275.

التي تعيد نشر المحاضر الرسمية للكونفرانس، (التشديد من آلان وودز).

حل مشاكل الشعب الروسي.

”لقد تم اسقاط الملكية القيصرية، لكن لم يتم تحطيمها كليا“.

«وإلى جانب هذه الحكومة... ظهرت الحكومة العمالية غير الرسمية وغير المتطورة بعد والضعيفة نسبيا، والتي تعبر عن مصالح البروليتاريا وكل العناصر الفقيرة من سكان المدن والأرياف، أي سوفييت نواب العمال في بتروغراد، الذي يسعى إلى التواصل مع الجنود والفلاحين، وكذلك مع العمال الزراعيين، وخاصة، بالطبع وفي المقام الأول، مع هؤلاء الأخيرين، أكثر مما مع الفلاحين». على حل هذا التناقض علق نظام ”ازدواجية السلطة“ مصير الثورة. ما هو الموقف الذي يجب على البلاشفة اتخاذه تجاه الحكومة المؤقتة؟

كتب لينين: «إن من يقول إنه على العمال أن يدعموا الحكومة الجديدة لصالح النضال ضد الرجعية القيصرية (وهذا ما يقوله، على ما يبدو، أمثال بوتريشوف وغفوزديوف وتشخينكيلي، وأيضا تشخيدزه رغم كل لفه ودورانه) هو خائن للعمال وخائن لقضية البروليتاريا ولقضية السلام والحرية».

وهو هنا يصل إلى موقف مماثل للموقف الذي دافع عنه تروتسكي منذ أكثر من عقد، حيث يقول: «إن ثورتنا هي ثورة برجوازية، لذا يجب على العمال أن يفتحوا أعين الشعب على الخداع الذي يمارسه السياسيون البرجوازيون، ويعلمونه ألا يثق في الكلمات، وألا يعتمد إلا على قوته الخاصة، وتنظيمه الخاص، ووحدته الخاصة، وأسلحته الخاصة».

وفي الرسالة الثانية وجه لينين انتقادات حادة للبيان الذي أصدره قادة السوفييت، الذي يختبئ وراء عبارات سلمية، ويعلن أن جميع الديمقراطيين يجب أن يدعموا الحكومة المؤقتة، ويأذن لكرنسكي بالمشاركة فيها. رد لينين على ذلك قائلا: «ليست المهمة هي ”إقناع“ الليبراليين، بل هي أن نشرح للعمال لماذا يجد الليبراليون أنفسهم في مأزق، ولماذا هم مقيدو الأيدي والأقدام، ولماذا يخفون كلا من المعاهدات التي أبرمتها القيصرية مع إنجلترا وبلدان أخرى والصفقات بين الرأسمال الروسي والرأسمال الأنجلو - فرنسي، وما إلى ذلك»<sup>1</sup>.

عندما وصلت رسائل لينين إلى زعماء البلاشفة في بتروغراد، شعروا بالصدمة. لقد ظنوا أن قائدهم قد جن تماما! أو أنه، على الأقل، بعيدا جدا بحيث لا يفهم الجوانب العملية للوضع في روسيا. فاندلع آنذاك صراع مرير بين لينين وبين أقرب رفاقه. كتب كامينيف في برافدا، عدد 27، قائلا: «بالنسبة للمخطط العام للرفيق لينين فإنه يبدو لنا غير مقبول، لأنه ينطلق من الافتراض بأن الثورة البرجوازية الديمقراطية قد اكتملت، ويستند إلى التحويل الفوري لهذه الثورة إلى ثورة اشتراكية»<sup>2</sup>.

يبين هذا التصريح بدقة آراء كامينيف وستالين ومعظم ”البلاشفة القدامى“ الآخرين في ربيع عام 1917.

من بين جميع قادة الحركة الاشتراكية الديمقراطية، في ذلك الوقت، كان هناك واحد فقط من التقى موقفه مع الموقف الذي دافع عنه لينين. وكان ذلك الشخص هو ليون تروتسكي، الذي كثيرا ما اشتبك معه لينين في الماضي. عندما سمع تروتسكي لأول مرة عن ثورة فبراير، كان ما يزال في المنفى في الولايات المتحدة. وقد بدأ فوراً في كتابة سلسلة من المقالات لجريدة ”نوفي مير“ (العالم الجديد)، والتي نُشرت في أعدادها لأيام 13 و17 و19 و20 مارس 1917.

الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو حقيقة أنه وعلى الرغم من عدم وجود أي اتصال بين تروتسكي ولينين، الذي كان في سويسرا على بعد آلاف الأميال، فإن محتوى هذه المقالات كان مطابقا لمحتوى مقالات لينين ”رسائل من بعيد“، التي كتبت في نفس الوقت. دعونا نتذكر أن رسائل لينين هذه قد صدمت القادة البلاشفة في بتروغراد لدرجة أن كامينيف وستالين قاما بحضرها أو نشرها في صورة مشوهة. في الوقت الذي كان فيه ”البلاشفة القدامى“ يعملون، على عكس نصيحة لينين، على التقارب مع المناشفة، بدت أفكار لينين لهم وكأنها ”تروتسكية“ خالصة، ولم يكونوا مخطئين في ذلك. لقد دفع منطق الأحداث لينين وتروتسكي إلى التقارب معا. لقد توصلا، بشكل مستقل، وانطلاقا من اتجاهات مختلفة، إلى نفس النتيجة وهي أنه: لا يمكن للبرجوازية أن تحل مشاكل روسيا. ويجب على العمال أن يستولوا على السلطة.

كتب تروتسكي في مقالته: ”وجهان - القوى الداخلية للثورة الروسية“ قائلا: «من الناحية الرسمية، أي بالأقوال، وافقت البرجوازية

1: LCW, Telegram to the Bolsheviks Leaving for Russia, 6 (19) March 1917, vol. 23, p: 292, 298, 304, 305, 306 and 317 (خط التأكيد في الأصل)

2: LCW, Letters on Tactics, vol. 24, p: 50.

على ترك مسألة الشكل الذي ستكون عليه الحكومة لتقدير الجمعية التأسيسية. لكن من الناحية العملية، ستحول حكومة الأكتوبريين-الكاديت المؤقتة جميع الأنشطة التحضيرية لتشكيل الجمعية التأسيسية إلى حملة لصالح الملكية ضد الجمهورية. سوف تعتمد طبيعة الجمعية التأسيسية إلى حد كبير على طبيعة أولئك الذين سيدعون إليها. بالتالي فإنه من الواضح أنه يتعين على البروليتاريا الثورية الآن أن تنشئ أجهزتها الخاصة، أي مجالس العمال ونواب الجنود والفلاحين، ضد الأجهزة التنفيذية للحكومة المؤقتة. وفي خضم هذا الصراع يجب على البروليتاريا أن توحد حولها جماهير الشعب المنتفضة بهدف واحد وهو الاستيلاء على السلطة الحكومية. وحدها حكومة عمالية ثورية من ستكون لديها الرغبة والقدرة على تمكين البلد من تطهير ديمقراطي شامل خلال العمل التحضيري لتشكيل الجمعية التأسيسية، وإعادة بناء الجيش من أعلى إلى أسفل، لتحويله إلى ميليشيا ثورية، وإقناع الفلاحين الفقراء، في الممارسة العملية، أن خلاصهم الوحيد هو دعم النظام العمالي الثوري. إن الجمعية التأسيسية التي سيتم تشكيلها بعد هذا العمل التحضيري ستعكس بشكل حقيقي القوى الثورية والإبداعية للبلد وستصبح عاملاً قوياً في المزيد من تطوير الثورة»<sup>1</sup>.

تعيد هذه الأسطر، التي هي مثال نموذجي عن الموقف الذي اتخذته تروتسكي في ذلك الوقت، إنتاج موقف لينين بالضبط. لكن لينين لم يكن على علم بذلك. لقد ضلته تلك التقارير الكاذبة عن موقف تروتسكي، التي أرسلتها له من أمريكا ألكسندرا كولونتاي، التي كانت قد انفصلت مؤخراً عن المناشفة، وبالتالي كانت حريصة على تقديم نفسها إلى لينين باعتبارها راديكالية متطرفة، وصورت تروتسكي كذبا بكونه "وسطياً". صدق لينين ذلك الهراء وكتب في ردوده على كولونتاي، بعض الأشياء القاسية للغاية عن تروتسكي، والتي استخدمها الستالينيون بنذالة فيما بعد. لكن عندما عاد تروتسكي إلى روسيا وبدأ على الفور يلعب دورا بارزا في الجناح الثوري، غير لينين رأيه فيه، وقال عنه إنه: "ليس هناك بلشفي أفضل منه". أما بالنسبة لكولونتاي، فإنها أوصلت نزعتها اليسارية المتطرفة إلى نهايتها المنطقية، حيث دخلت في صراع مع كل من لينين وتروتسكي، قبل أن تصبح أخيراً خادمة خاضعة لنظام ستالين الشمولي.

إن التقارب التام لوجهات النظر بين لينين وتروتسكي، عندما دقت ساعة الحقيقة، لم يكن مصادفة. فمنذ عام 1909، كان ليون تروتسكي -الذي كان الوحيد من توقع أن الثورة إما ستنتصر كثورة عمالية أو أنها لن تنتصر على الإطلاق- قد حذر من أن الطبيعة المعادية للثورة لشعار "الديكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين" لن تصبح واضحة إلا في اللحظة التي ستطرح فيها مسألة السلطة على جدول الأعمال. والآن اتضح أنه كان على صواب. كان الجانب الضعيف لنظرية لينين، وأثرها في الممارسة العملية، سببا في الأخطاء الجسيمة للغاية التي ارتكبتها قادة البلاشفة في وقت ثورة فبراير، والتي لم يصححها لينين إلا بعد عودته وعلى أساس صراع داخلي حاد. حتى زينوفييف يعترف بذلك في كتابه المخادع "تاريخ الحزب البلشفي"، الذي نُشر عام 1923 كجزء من الحملة ضد "التروتسكية"، على الرغم من أن اعترافه جاء، كما هي عاداته دائماً، ملتبسا وغير نزيه، حيث يقول: «لا يمكن إنكار هذا التطور الذي عرفته وجهات نظرنا على مدار الأعوام من 1905 إلى 1917، كما لا يمكن إنكار حقيقة أنها تطورت عبر تناقضات محددة أدت إلى خلق اختلافات خطيرة للغاية بيننا عشية أكتوبر 1917. البعض منا (بمن فيهم أنا) أيد لفترة طويلة فكرة أنه في بلدنا الفلاحي لا يمكننا أن نتقل مباشرة إلى الثورة الاشتراكية، وأن نأمل فقط أنه إذا تزامنت ثورتنا مع بداية الثورة البروليتارية الأممية، فقد تصبح شرارة لها»<sup>2</sup>.

تبين هذه الأسطر، وعلى الرغم من طابعها المراوغ، كل ما حدث داخل الحزب البلشفي خلال الأشهر القليلة الأولى بعد ثورة فبراير 1917. إن ما حدث لرسائل لينين يلقي الكثير من الضوء على علاقاته مع "البلاشفة القدامى". لقد كانت صورة طبق الأصل لما حدث في 1912-1913. بل حتى الجهات الفاعلة كانت هي نفسها. فقد كان ستالين وكامينيف هما رئيسي التحرير مرة أخرى. ومرة أخرى اختاروا الطريق الأقل مقاومة عبر ما يسمى بالتوفيقية. ومرة أخرى ردا على انتقادات لينين واحتجاجاته من خلال مقص الرقابة الصارمة. كان قادة البلاشفة يشعرون بالحرج الشديد من خطابات لينين لدرجة أنهم عندما أحضرت كولونتاي أول رسالتين إلى بتروغراد، في أواخر مارس، ترددوا لعدة أيام قبل النشر. وحتى في ذلك الحين لم ينشروا له سوى واحدة فقط من الرسالتين، وذلك بعد حذف كل تلك المقاطع التي يوضح فيها معارضته لأي اتفاق مع المناشفة. وكان نفس المصير ينتظر بقية مقالاته، كانوا إما يمنعون نشرها أو ينشرونها في شكل مشوه. وفي هذا السياق تقول كروبسكايا: «تم نشر الرسالة الأولى فقط في اليوم الذي وصل فيه لينين إلى سان بيترسبورغ، وكانت الرسائل الثلاثة الأخرى ترقد في مكتب المحررين، أما الخامسة فلم يكن قد تم إرسالها بعد

1: L. Trotsky, *Leon Trotsky Speaks*, pp: 46-47.

2: G. Zinoviev, *History of the Bolshevik Party*, pp: 177-178.

إلى برافدا، حيث أن لينين كان قد بدأ في كتابتها قبيل رحيله إلى روسيا»<sup>1</sup>.

كما يتذكر تروتسكي في سيرته الذاتية قائلاً: «في نيويورك، في بداية شهر مارس عام 1917، كتبت سلسلة من المقالات تتناول القوى الطبقيّة للثورة الروسية ومنظوراتها. وفي ذلك الوقت بالذات كان لينين، في جنيف، يرسل إلى بتروغراد رسائله من بعيد. وكلانا، على الرغم من أننا كنا نكتب في أجزاء مختلفة من العالم ويفصلنا المحيط، قدمنا نفس التحليل ونفس التوقعات. كانت وجهات نظرنا متطابقة تماماً حول كل مسألة من المسائل الرئيسية، مثل الموقف من الفلاحين والموقف تجاه البرجوازية والحكومة المؤقتة والحرب والثورة العالمية. هنا تم اختبار العلاقات بين «التروتسكية» وبين اللينينية على محك التاريخ. ونفذ الاختبار في ظروف تجريبية نموذجية. في ذلك الوقت لم أكن أعرف شيئاً عن موقف لينين؛ لقد جادلت على أساس منطقي الخاص وتجربتي الثورية الخاصة، ورسمت نفس المنظور واقترحت نفس الخط الاستراتيجي الذين اقترحهما لينين.

لكن ربما كانت المسألة واضحة للجميع في ذلك الوقت، وكان الحل مقبولاً من طرف الجميع؟ كلا، على العكس تماماً؛ لقد كان موقف لينين في تلك الفترة، أي قبل 04 أبريل 1917، عندما ظهر لأول مرة على مسرح بتروغراد، موقفه الشخصي ولم يكن يشاركه فيه أحد. لم يكن لدى أي من قادة الحزب، الذين كانوا في روسيا، أي نية في جعل ديكتاتورية البروليتاريا - الثورة الاشتراكية - الهدف المباشر لسياسته. لقد أظهر كونفرانس الحزب، الذي انعقد عشية وصول لينين، وحضره حوالي 30 من البلاشفة، أن لا أحد منهم كان يتخيل شيئاً آخر أبعد من الديمقراطية البرجوازية. لا عجب في أن محاضر هذا الكونفرانس ما تزال سرا لحد الآن! لقد كان ستالين مؤيداً لدعم حكومة غوتشكوف وميلوكوف المؤقتة، ومؤيداً لدمج البلاشفة مع المناشفة»<sup>2</sup>.

### لينين يعيد تسليح الحزب

يوم 03 أبريل، وبعد أسابيع من المفاوضات المرهقة لترتيب عودته عبر ألمانيا، وصل لينين أخيراً إلى محطة فنلندا في بتروغراد الثائرة. وقد تبنى منذ اللحظة الأولى لوصوله موقفاً عدائياً تجاه الحكومة البرجوازية المؤقتة والسياسيين الإصلاحيين الشوفينيين الذين كانوا يدعمونها.

فور عودته إلى روسيا، شن لينين نضالاً حازماً ضد القادة البلاشفة الذين استسلموا لضغوط «الرأي العام» البرجوازي الصغير، وخرجوا لدعم الحكومة المؤقتة البرجوازية. لكنه لم ينجح في إعادة تسليح البلاشفة وتوجيههم إلا بعد معركة داخلية حادة للغاية. لقد اعتمد في هذا الصراع على الدعم من جانب قواعد الحزب والطبقة العاملة التي كانت، كما كان يكرر دائماً، أكثر ثورية بمائة مرة من الحزب الأكثر ثورية. في الواقع لم تتقبل قواعد الحزب في بتروغراد مواقف كامينيف، الذي دعوا إلى طرده. كما طالبت قواعد الحزب في فيبورغ، التي كانت معقل البلشفية، بطرد ستالين أيضاً<sup>3</sup>.

وفي لحظة وصوله إلى محطة فنلندا، قدم لينين إشارة إلى نواياه الحقيقية. لقد تعمد إدارة ظهره للشخصيات البارزة الذين حضروا لاستقباله، وتوجه نحو العمال بالعبارات التالية: «عاشت الثورة الاشتراكية العالمية!». أكدت هذه الجملة الافتتاحية على الفور أسوأ مخاوف قادة الحزب: لقد تحول لينين إلى... «التروتسكية». تلا ذلك اندلاع معركة فصائلية شرسة، بلغت ذروتها في كونفرانس أبريل الذي انتصر فيه لينين على طول الخط. وتذكر كروبسكايا قائلة: «لقد تفاجأ الرفاق إلى حد ما. اعتقد الكثير منهم أن إيليتش كان يعرض القضية بطريقة فظة للغاية، وأنه من السابق جداً لأوانه الحديث عن ثورة اشتراكية»<sup>4</sup>.

من الواضح أن كروبسكايا تعبر عن نفسها هنا بطريقة دبلوماسية. لقد كانت الاختلافات أكثر خطورة وكان الصراع، رغم أنه لم يستمر طويلاً، مريراً جداً. وعندما دافع لينين عن موقفه بشكل علني لأول مرة، بقي الحاضرون مصدومين.

راسكولنيكوف، الذي كان شاهداً على ما حدث عندما دخل كامينيف إلى مقصورة لينين، كتب في مذكراته: «بمجرد ما دخل كامينيف المقصورة وجلس بادره فلاديمير إيليتش قائلاً: «ما هذا الذي تكتبه في برافدا؟ لقد رأينا العديد من الأعداد وأقسم لك...»، وواصل لينين كلامه بنبرة تأنيب أبوية، خالية من أي إهانة».

1: N.K. Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, p: 338.

2: L. Trotsky, *My Life*, pp: 329-330.

3: M. Liebman, *Leninism Under Lenin*, p: 123.

4: N.K. Krupskaya, *Reminiscences of Lenin*, pp: 347 and 348.

ومباشرة بعد وصوله إلى محطة فنلندا، تم نقله إلى إقامة راقية، في ملكية راقصة باليه شهيرة، حيث تم استقباله في غرفة فسيحة تضم بيانو كبير، بخطابات ترحيبية، وهو الشيء الذي يكرهه. «أقيم هناك احتفال تكريم لإيليتش. وقد أعرب المتكلمون تباعاً عن شعورهم بالفرح الكبير بعودة زعيم الحزب، الذي صقلته المعارك، إلى روسيا. جلس إيليتش واستمع إلى كل الخطب وهو يتسّم، منتظراً بفارغ الصبر أن ينتهو. وعندما انتهت قائمة المتحدثين، عادت الحياة إلى إيليتش، ووقف على قدميه وبدأ العمل. هاجم بحزم التكتيكات التي كانت تتبعها المجموعات القيادية للحزب والرفاق الأفراد قبل عودته. وسخر بشدة من الصيغة السيئة السمعة حول دعم الحكومة المؤقتة القائمة على: "بقدر ما... وإلى هذا الحد"، ورفع شعار: "لا دعم من أي نوع لحكومة الرأسماليين"، وفي الوقت نفسه دعا الحزب إلى النضال من أجل حسم السلطة من طرف السوفييتات، ومن أجل الثورة الاشتراكية.

وباستخدام بعض الأمثلة البارزة، أظهر الرفيق لينين براءة الزيف الكامل لسياسة الحكومة المؤقتة، والتناقض الصارخ بين وعودها وأفعالها، بين الأقوال والأفعال، مؤكداً أنه من واجبنا أن نكشف بلا رحمة ذرائعها وسلوكياتها المعادية للثورة والمعادية للديمقراطية. استمر خطاب الرفيق لينين قرابة الساعة، وقد بقي الجمهور يتابع باهتمام وقلق شديد. كان أبرز عمال الحزب حاضرين هنا، لكن حتى بالنسبة إليهم كان ما قاله إيليتش بمثابة وحي جديد بشكل كامل. لقد أقام "روبيكون" بين تكتيكات الأمس وتكتيكات اليوم.

طرح الرفيق لينين السؤال بوضوح وصراحة: "ما العمل؟" ودعانا إلى التخلي عن موقف نصف الاعتراف ونصف الدعم للحكومة وتبني موقف عدم الاعتراف النهائي بها والكفاح الحازم ضدها.

الانتصار النهائي للسلطة السوفياتية، الذي كان الكثيرون ينظرون إليه كشيء ضبابي وينتمي لمستقبل غير محدد، اعتبره الرفيق لينين المكسب الملمح والضروري للثورة، يجب تحقيقه في غضون فترة زمنية قصيرة للغاية. كان خطابه هذا تاريخياً بكل معنى الكلمة. قدم الرفيق لينين هنا لأول مرة برنامجه السياسي، الذي صاغه في اليوم التالي في أطروحات 04 أبريل الشهيرة. لقد أنتج هذا الخطاب ثورة كاملة في تفكير قادة الحزب، وشكل أساس كل عمل البلاشفة لاحقاً. لم يكن من قبيل الصدفة أن تكتيكات حزبنا لم تتبع خطأ مستقيماً، لكنها تحولت بعد عودة لينين نحو اليسار<sup>1</sup>.

فوجئ المناشفة بمواقف الزعيم البلشفي، التي تختلف تماماً عن مواقف رفاقه في بتروغراد، واتهموه بمحاولة إثارة العنف والحرب الأهلية. وعلى صفحات جريدته ييدنيستفو، وصف بليخانوف أطروحات لينين بأنها "هذيان". لكن مواقف القادة البلاشفة لم تكن مختلفة كثيراً، فعندما نُشرت أطروحات أبريل على صفحات برافدا، في 07 أبريل، ظهرت بتوقيع فرد واحد: توقيع لينين. لم يكن أي من القادة الآخرين على استعداد لربط اسمه بموقف لينين. ومباشرة في اليوم التالي نشرت برافدا مقالاً لكامينيف بعنوان "خلافاتنا"، والذي يبرئ القيادة البلشفية من موقف لينين، موضحاً أن تلك الآراء تخص لينين وحده ولا تشترك معه فيها لا هيئة تحرير برافدا ولا مكتب اللجنة المركزية.

لكن وعلى الرغم من ردود فعل المناشفة والقادة البلاشفة في بتروغراد، فإن لينين لم يكن مجنوناً، بل كان في الواقع أكثر اتصالاً بالوضع الحقيقي من رفاقه في روسيا. كان جوهر المسألة بالنسبة له بسيطاً للغاية: كان من الضروري إعداد الطبقة العاملة للاستيلاء على السلطة، ليس على الفور بطبيعة الحال، إذ أن لينين لم يكن مغامراً ومن أشد المعارضين لفكرة استيلاء أقلية على السلطة. كلا، لقد كانت مهمة الساعة بالنسبة له هي تسليح طبقة الطبقة العاملة -الفئات الأكثر تقدماً بين العمال والشباب- بهدف كسب الجماهير إلى برنامج الثورة الاشتراكية باعتباره السبيل الوحيد للحل. كان هذا يلخص بشكل صحيح جوهر الوضع، لكنه تصادم بشكل كامل مع شعار "ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين" التي كان الجميع يعرف أنه ليس شعار الثورة الاشتراكية.

تم حسم الأمر أخيراً في كونفرانس على مستوى المدينة، استمر ثمانية أيام، من 02 إلى 10 أبريل، والذي صار يعرف في التاريخ باسم كونفرانس أبريل. حضر الكونفرانس 149 مندوباً يمثلون 79.000 عضو - 15.000 منهم في بتروغراد. كانت تلك في حد ذاتها نتيجة رائعة بالفعل لحزب خرج للتو من السرية ويقف الآن في معارضة القادة العماليين الرئيسيين. نادراً ما كان لنتيجة اجتماع واحد أن تحدد مصير الكثير من الأمور، مثلما كان ذلك الاجتماع. دخل لينين في صراع مفتوح مع رفاقه القدماء الذين وقفوا إلى جانبه لسنوات عديدة، والذين تبين في اللحظة الحاسمة أنهم ألد خصومه. ومن المفارقات أن هؤلاء "البلاشفة القدماء" كانوا قد احتشدوا تحت شعار اللينينية! لقد قدموا أنفسهم كمدافعين عن الأرثوذكسية اللينينية كما تم تلخيصها في شعار "الديكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين"، الذي كان لينين نفسه هو من رفعه عام 1905. لكن ذلك الشعار كان قد صار متجاوزاً، وكان

1: F.F. Raskolnikov, *Kronstadt and Petrograd in 1917*, pp: 71 and 76-77.

تطور الثورة ذاته قد جعل منه شيئاً بلا قيمة.

لقد توصل كل من لينين وتروتسكي، كما رأينا، إلى نفس النتيجة. لقد أدركا أن حكومة كيرنسكي لا تستطيع تقديم حلول حقيقية للمشاكل التي تواجه العمال والفلاحين، وذلك بالتحديد لأنها كانت حكومة البرجوازية، وليست حكومة العمال والفلاحين. وحدها ديكتاتورية البروليتاريا، بالتحالف مع الفلاحين الفقراء، بإمكانها أن تبدأ في حل مهام الثورة الديمقراطية البرجوازية في روسيا. قال تروتسكي: «كان محكوماً على "البلاشفة القدماء" -الذين تباهاوا بهذه التسمية في أبريل 1917- بالهزيمة، وذلك على وجه التحديد لأنهم كانوا يدافعون عن ذلك الجزء من تراث الحزب الذي لم يتمكن من اجتياز الاختبار التاريخي».

كان الصراع داخل الحزب قصيراً لكنه كان حاداً. كانت أكبر قوة تمتع بها لينين هي دعم العمال البلاشفة، الذين وقفوا على يسار القيادة. لقد شعروا منذ البداية بوجود خطأ ما في سياسة كانت، ضد فطرتهم الطبقيّة وكل تقاليدهم، تؤيد المصالحة مع المناشفة وتتبنى موقفاً مهادناً تجاه الحكومة البرجوازية المؤقتة. لكن العمال لم يتمكنوا من الإجابة على الحجج "الذكية" للقادة، مثل كامينيف وستالين، الذين استخدموا سلطتهم لإسكات شكوك القواعد. أما لينين، فعلى النقيض من ذلك، اعتمد على دعم القواعد العمالية داخل الحزب الذين تقبلوا بشكل فطري أطروحته الثورية: «كان هؤلاء العمال الثوريون يفتقرون فقط إلى الموارد النظرية للدفاع عن موقفهم. لكنهم كانوا على استعداد للاستجابة لأول دعوة واضحة. هذه الفئة من العمال، التي كانت قد نهضت بشكل حاسم خلال سنوات الصعود من 1912-1914، هي التي صار لينين يعتمد عليها الآن»<sup>1</sup>.

بحلول الوقت الذي انعقد فيه كونفرانس أبريل، كان لينين وقواعد الحزب قد ربّحوا المعركة بكل المقاييس. يقول زاليزكي، الذي كان عضواً في لجنة بتروغراد، "لقد صارت المقاطعات الواحدة تلو الأخرى تلتحق بها [أطروحات لينين]".

أكد خطاب لينين الافتتاحي على البعد الأممي للثورة: «لقد نالت البروليتاريا الروسية الشرف العظيم لبدء الثورة. لكن يجب على البروليتاريا الروسية ألا تنسى أن حركتها وثورتها ليستا سوى جزء من حركة بروليتارية ثورية عالمية، والتي صارت في ألمانيا، على سبيل المثال، تكتسب زخماً متزايداً مع مرور الأيام. من هذه الزاوية فقط يمكننا تحديد مهامنا».

كانت هذه هي النقطة الافتتاحية في النقاش وكان لينين يزن كل كلمة يقولها. ماذا كان يعني؟ لقد كان يرد على حجة المناشفة وكامينيف وستالين القائلة بأن العمال الروس لا يستطيعون تولي السلطة لأن الظروف الموضوعية في روسيا المتخلفة والإقطاعية لا تسمح بذلك. والجواب كان ما يلي: صحيح أن الشروط الموضوعية للاشتراكية غير موجودة في روسيا، لكنها موجودة على نطاق عالمي. ثورتنا ليست عملاً مستقلاً، بل هي جزء من الثورة العالمية. إذا كانت لدينا إمكانية تولي السلطة قبل العمال الألمان والفرنسيين والبريطانيين، فعلينا القيام بذلك. يمكننا أن نبدأ الثورة ونستولي على السلطة ونبدء في تحويل المجتمع على أسس اشتراكية، وهو ما سيعطي دفعة قوية للثورة التي تنضج بالفعل في أوروبا. يمكننا أن نبدأ، وبمساعدة عمال ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، سنكمل المهمة. بالطبع إذا لم يكن لدينا منظور للثورة الأممية، فإن مهمتنا ستكون بلا أمل. لكن هذا ليس هو الموقف. "من هذه الزاوية فقط يمكننا تحديد مهامنا". وقد كرر لينين طرح نفس الموضوع طيلة أشغال الكونفرانس. «أجل نحن أقلية. حسناً، ماذا الضرر في ذلك؟ فأن تكون اشتراكية في زمن الجنون الشوفيني، يعني أن تكون أقلية. أن تكون أغلبية يعني أن تكون شوفينياً».

وقال في توصيته بشأن الوضع الراهن: «إن البروليتاريا الروسية، التي تعمل في واحدة من أكثر البلدان تخلفاً في أوروبا وسط عدد كبير من الفلاحين الصغار، لا يمكنها أن تهدف إلى تطبيق التغييرات الاشتراكية على الفور. لكن سيكون من الخطأ الجسيم، بل سيكون في الواقع استسلاماً كاملاً للبرجوازية، أن نستنتج من ذلك أن الطبقة العاملة يجب أن تدعم البرجوازية، أو أن تبقي أنشطتها ضمن حدود مقبولة للبرجوازية الصغيرة، أو أنه يجب على البروليتاريا أن تتخلى عن دورها القيادي في مسألة أن تشرح للشعب ضرورة الملحة لاتخاذ عدد من الخطوات العملية نحو الاشتراكية».

«كان من المعتاد التوصل، انطلاقاً من الفرضية الأولى، إلى استنتاج مفاده أن "روسيا بلد متخلف، وبلد برجوازي صغير، وبالتالي لا يمكن أن تكون هناك أي ثورة اشتراكية". لكن الناس ينسون أن الحرب وضعتنا في ظروف غير عادية، وإلى جانب البرجوازية الصغيرة لدينا رأس مال كبير. لكن ما الذي يجب على سوفياتات نواب العمال والجنود فعله عندما تتولى السلطة؟ هل عليها الانتقال إلى جانب البرجوازية؟ جوابنا هو: سوف تستمر الطبقة العاملة في صراعها الطبقي»<sup>2</sup>.

«لكننا في هذه المرحلة نسمع احتجاجات من جانب أناس يطلقون على أنفسهم اسم "البلاشفة القدماء". يقولون: ألم نكن دائماً

1: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, pp: 338 and 339.

2: LCW, *The Seventh (April) All-Russia Conference of the RSDLP(B)*, vol. 24, pp: 227, 245 and 306. (التشديد من آلان وودز).



نقول إن الثورة البرجوازية الديمقراطية ستكملها فقط "ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية الثورية"؟ هل انتهت الثورة الزراعية، التي هي أيضا ثورة برجوازية ديموقراطية؟ أليست الحقيقة، على العكس من ذلك، هي أنها لم تبدأ بعد؟

جوابي هو أن الشعارات والأفكار البلشفية قد أكدها التاريخ، على وجه العموم؛ لكن التطورات الملموسة سارت بشكل مختلف؛ فهي أكثر أصالة وأكثر غرابة وأكثر تنوعا مما كان في إمكان أي شخص أن يتوقع.

إن تجاهل هذه الحقيقة أو التغاضي عنها سيعني التشبه بهؤلاء "البلاشفة القدماء" الذين لعبوا أكثر من مرة دورا مؤسفا جدا في تاريخ حزبنا من خلال ترديدهم الصيغ التي حفظوها بغباء عن ظهر قلب، بدلا من دراسة المميزات الملموسة للواقع الجديد والحي<sup>1</sup>.

وردا على تلك العناصر التي أكدت أنه على البروليتاريا أن تطيح "قانون المراحل التاريخية الحديدي" وأنه لا يمكنها "تخطي فبراير" وأنه عليها أن "تمر مرحلة الثورة البرجوازية"، والذين حاولوا بالتالي التستر على جبنهم وارتباكهم وعجزهم عن طريق التعلل بـ"العوامل الموضوعية"، قال لينين بسخرية: «لماذا لم يأخذوا السلطة؟ يقول ستيكولوف: "لهذا السبب وذاك". هذا هراء. الحقيقة هي أن البروليتاريا ليست منظمة بما فيه الكفاية وليست واعية طبقيًا بما فيه الكفاية. يجب الاعتراف بهذا؛ إن القوة المادية في أيدي البروليتاريا، لكن البرجوازية بدت أكثر استعدادا وأكثر وعيا. هذه حقيقة مروعة، لكن يجب الاعتراف بها بصراحة ووضوح، ويجب إخبار الشعب بأنه لم يستول على السلطة لأنه كان غير منظم بما فيه الكفاية وغير واع بما فيه الكفاية»<sup>2</sup>.

لم يكن هناك أي سبب موضوعي لعدم تمكن العمال -الذين كانوا يمسكون بالسلطة بين أيديهم- من دفع البرجوازية جانبا في فبراير 1917، لم يكن هناك من سبب سوى عدم الاستعداد وعدم التنظيم والافتقار إلى الوعي. لكن هذا، كما أوضح لينين، كان مجرد نتيجة لخيانة الثورة من جانب جميع الأحزاب العمالية والفلاحية المزعومة. فبدون تواطؤ المناشفة والاشتراكيين الثوريين داخل السوفييتات، ما كانت الحكومة المؤقتة لتستمر ولو ساعة. كان هذا هو السبب الذي جعل لينين يسلط أشد الانتقادات على تلك العناصر من بين القيادة البلشفية التي ربطت الحزب البلشفي نفسه بعربة المناشفة والاشتراكيين الثوريين، والتي أربكت الجماهير وذللتها، وابتعدت بها عن طريق السلطة.

«إن من لا يتحدث الآن إلا عن "ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية الثورية"، إنما يتأخر عن موكب الحياة، وبالتالي فإنه قد انتقل عمليا إلى صف البرجوازية الصغيرة ضد النضال الطبقي البروليتاري؛ ويجب إرساله إلى أرشيف التحف "البلشفية" لما قبل الثورة (والتي يمكن أن نطلق عليه أرشيف "البلاشفة القدماء")».

وبالإشارة إلى قوة الطبقة العاملة وعجز الحكومة المؤقتة، قال لينين إن: «هذه الحقيقة لا تنسجم مع المخططات القديمة. يجب على المرء أن يعرف كيف يكيف المخططات مع الحقائق، بدلا من تكرار الكلمات التي صارت الآن بدون معنى حول "ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين" عموما». وأضاف: «هل تعكس صيغة الرفيق كامينيف البلشفية القديمة، التي تقول إن "الثورة البرجوازية الديمقراطية لم تكتمل" هذا الواقع [واقع ازدواجية السلطة]؟ كلا. إن تلك الصيغة قد عفا عليها الزمن. ولم تعد صالحة على الإطلاق. إنها صيغة ميتة. وليس هناك من فائدة في محاولة إحياءها»<sup>3</sup>.

كان لينين يؤكد بشكل خاص على نقطة واحدة، وهي أنه من الضروري على البلاشفة أن يحافظوا على استقلالهم التام عن جميع التيارات الأخرى. كان لينين يدرك تمام الإدراك أنه في تلك الأجواء العامة المفعمة بالنشوة، سيكون هناك ضغط قوي في اتجاه توحيد "جميع التيارات التقدمية". لقد كان تاريخ النزعة التوفيقية بين البلاشفة القدماء، وخاصة كامينيف، يشعر لينين بالقلق. لهذا السبب كتب في برقيته الأولى: "لا تقارب مع الأحزاب الأخرى". ومن ناحية أخرى كان ستالين قد اقترح، في كونفرانس مارس، التغلب على "الاختلافات التافهة" في إطار حزب موحد بين البلاشفة والمناشفة. كان ستالين بعقلية "الموظف الحزبي" الضيقة الأفق يفكر في كل شيء من وجهة النظر التنظيمية. حزب أكبر يعني عددا أكبر من الأعضاء والمزيد من الأموال وجهازا أكبر، وبالتالي ساحة أوسع لتطوير أنشطته. وبالمقارنة مع هذا لم تكن الاختلافات النظرية سوى "تفاهات". نرى هنا بشكل واضح جدا الفرق بين سيكولوجية الثوري وسيكولوجية البيروقراطي.

لقد اعتقد البلاشفة القدماء أنه في إمكانهم تحقيق الوحدة مع المناشفة على أساس "مبادئ زيمرولد - كينثال"، وذلك بالتحديد

1: LCW, Letters on Tactics, vol. 24, p: 44.

2: LCW, Report at a Meeting of Bolshevik Delegates, vol. 36, p: 437.

3: LCW, Letters on Tactics, vol. 24, pp: 45, 46 and 50. (التشديد من آلان وودز)

عندما كانت حركة زهروالد قد استنفذت مهمتها التاريخية وكانت في طور الانحلال. وعلى أي حال فقد كانت منذ البداية مجرد حد أدنى وخطوة انتقالية في اتجاه بناء أممية جديدة حقا وثرورية حقا. كان لينين قد اتخذ قراره بالفعل. كان شعاره هو: لا "عودة إلى زهروالد"، بل "إلى الأمام نحو الأممية الثالثة". وقد كتب في رسالة إلى راديك، بتاريخ 29 ماي: «أنفق معك تماما على أن زهروالد قد أصبح عائقًا وأنا كلما سارعنا بالانفصال عنه كلما كان ذلك أفضل (أنت تعرف أنني لا أنفق مع الكونفرانس حول هذه النقطة). يجب علينا تسريع عملية تنظيم اجتماع للتيارات اليسارية، لقاء أممي للتيارات اليسارية فقط».

وبعد أسبوع واحد كتب: «إذا كان صحيحا أن ذلك البائس المشوش غريم (لا عجب في أننا لم نثق أبدا في ذلك البيروقراطي الوغد!) قد سلّم جميع شؤون زهروالد إلى اليسار السويدي وأن هؤلاء الأخيرين يحضرون لعقد كونفرانس زهروالد خلال الأيام القليلة المقبلة، فعندئذٍ أنا شخصياً (أنا أكتب هذا باسمي فقط) سأنبه بشدة إلى عدم وجود أي علاقة لنا مع زهروالد. قال غريغوري اليوم: "يا لها من فرصة جيدة للاستيلاء على أممية زهروالد الآن". وهذا، في رأيي، تكتيك انتهازي للغاية وضار للغاية»<sup>1</sup>.

### الحكومة الائتلافية الأولى

كانت الحرب ومزاج السخط المتزايد بين صفوف الجنود هي القضية الأكثر إلحاحا التي واجهت الثورة. بعد انهيار النظام القديم تحرك الجنود بشكل تلقائي لتطهير الجيش من الضباط الذين عارضوا الثورة. طالب الجنود بحقهم في أن يعاملوا معاملة البشر، وليس الحيوانات. ومن هنا جاء "الأمر رقم واحد" الشهير، الذي وصفه تروتسكي بأنه "الوثيقة الوحيدة الجديرة بالاحترام لثورة فبراير"<sup>2</sup>. جاءت مبادرة صياغة هذه الوثيقة الرائعة من جانب الجنود أنفسهم. ويمكن للمرء أن يسمع فيها صوت الجبهة الحقيقي، صوت غضب وأمل الرجال الذين يحرقون في عين الموت مباشرة، والذين لم يفقدوا شعلة الكرامة الإنسانية والرغبة في أن يعاملوا مثل البشر. كما أنها كانت الوجه الحقيقي لثورة فبراير: ليس خطابات السياسيين المدروسة والمصطنعة، بل مطالب الجماهير التي استيقظت للتو على الحياة السياسية بحثا عن الحقوق الديمقراطية والحرية، بدل النظام القديم والعبودية. كان "الأمر رقم واحد" يعبر بشكل أفضل من أي شيء آخر عن التطلعات الديمقراطية والثورية للجماهير.

مثلت المطالب المطروحة في البيان ميثاق جنود حقيقي:

«لجان منتخبة على جميع مستويات الجيش والبحرية.

انتخاب ممثلين للسوفييت في الأماكن التي لم تشهد هذه الانتخابات.

لن يمثل الجنود سوى للسوفييت ولجانه فقط.

لن يتم الامتثال لأوامر الحكومة المؤقتة إلا في حالة عدم تعارضها مع أوامر السوفييت.

يجب أن تكون جميع الأسلحة تحت رقابة لجان الجنود المنتخبة، ولن يتم منحها للضباط بأي حال من الأحوال.

لا بد من التحلي بالالتزام والانضباط الصارمين في أوقات الخدمة، أما عند الانتهاء من الخدمة والخروج من الثكنات فللجنود كل الحرية والحقوق المدنية.

إلغاء ألقاب الضباط؛ يُحظر على الضباط التصرف بوقاحة مع الجنود، وخاصة استخدام عبارة ("ty") عند مخاطبتهم».

سمى الجنود مطالبهم هذه "الأمر رقم واحد". وقد سقطت كقنبلة على الضباط الرجعيين وأصدقائهم السياسيين في الحكومة المؤقتة. كان ذلك تحديا لفئة الضباط "وحقهم المقدس" الاستبدادي في التحكم في الجنود، وبالتالي كان تحديا لأركان النظام البرجوازي القائم. وسرعان ما دخلت "لجنة الدوما المؤقتة" في المواجهة مع نواب الجنود الذين وضعوا "الأمر رقم واحد" لحماية بتروغراد. حاول الضباط الرجعيون، الذين صاروا الآن يرفعون شارات الجمهورية على صدورهم، منع تنفيذها في الجبهة، زاعمين أنها "مسألة خاصة بتروغراد فقط". وقد تلقوا في هذا الصدد الدعم من جانب الاشتراكيين الثوريين والمناشقة، الذين كانوا حريصين على وضع حد "للجنون" الثوري واستعادة النظام (البرجوازي). لكن محاولتهم ذهبت سدى. انتشرت المطالبة بالحقوق الديمقراطية، الواردة في "ميثاق الجنود"، بين صفوف الجيش كانتشار النار في الهشيم. وقد كان الصراع حول "الأمر رقم واحد" صورة للتطورات التي

1: LCW, To Karl Radek, 29 May (11 June), 1917, vol. 43, p: 632 and 634-635.

2: L. Trotsky, The History of the Russian Revolution, p: 291.

ستحدث لاحقا.

كان مطلب الجيش هو التوصل إلى سلام فوري دون إلحاقات أو تعويضات. كان قادة السوفييتات يلقون خطابات حول "السلام العادل"، لكن طالما بقيت السلطة في أيدي أصحاب الأبنك والصناعيين، المرتبطين بالمصالح الأنجلو-فرنسية، فإن ذلك السلام كان مجرد حلم. خلال فصل الربيع ازداد استياء الجنود، لأن الحكومة استمرت تماطل بخصوص مسألة السلام. وقد أعلنت البرجوازية، من خلال كبير ممثليها في الحكومة، مليوكوف، اعتزامها مواصلة الحرب حتى "تحقيق النصر"، وهو ما أغضب الجنود وخلق وضعاً متفجراً في بتروغراد.

يمكن ملاحظة السيرورات التي شهدتها ثورة فبراير في كل الثورات الأخرى. فقد استقبلت الجماهير سقوط النظام القديم بحماس، كانت هناك فرحة عامة، حيث استمتع الرجال والنساء بالحريات الجديدة. هذه هي مرحلة الأوهام الديمقراطية، وهي كرنفال يسكر فيه الشعب بإحساس التحرر والآمال التي لا تعرف حدوداً. لكن للأسف ليس مقدرًا لعيد الحب الجميل هذا أن يستمر. وسرعان ما يتحول الوهم إلى خيبة أمل عميقة حيث تصطم التطلعات بجدار الواقع. "لقد جرحنا الثعبان، لكننا لم نهز عليه"، هكذا صرخ ماكث في مسرحية شكسبير. وبالتدريج بدأت الجماهير تفهم أنه وراء البهجة والخطب لا شيء تغير فعلاً. لم يقم النظام القديم سوى بتبديل مظهره، لكن نفس السادة القدامى استمروا في أماكنهم، وكذلك المشاكل القديمة نفسها.

لم يؤثر هذا المزاج على جميع الفئات في وقت واحد، بل ظهر أولاً بين صفوف القسم الأكثر تطوراً من الجماهير. وعندما بدأت تلك الطليعة تدرك، ولو بشكل غير واضح، أن السلطة التي حققوها بالكثير من الجهد والتضحية قد بدأت تفلت من بين أيديهم، قاموا برد فعل فطري. كانت تلك لحظة خطر شديد على الثورة. كانت الطليعة المتقدمة تفهم أكثر من بقية الجماهير، وكانت تدفع بفارغ الصبر إلى الأمام من أجل إجراءات متسارعة. لكنه كان من الضروري كسب بقية المجتمع، التي تتخلف عن الركب ولم تكن قد استخلصت النتائج الضرورية بعد. إذا انفصلت الطليعة المتقدمة عن بقية الطبقة، يمكن أن تصبح معزولة وتعرض للهزيمة على يد قوى الثورة المضادة. وفي ظل هذه الظروف يكون من واجب الحزب أن يحاول كبح العناصر المتقدمة، لتجنب خوض المعركة إلى أن تتم تعبئة بقية القوى.

بمجرد ما بدأت الثورة بدأت سيرورة الاختبارات المتتالية التي كانت تبحث الجماهير بواسطتها عن الحزب السياسي الذي يعبر بشكل أفضل عن تطلعاتها. كان هناك تعاقب لما يمكن أن نشبهه بالدوريات الاستطلاعية في المعركة، حيث كانت الجماهير تختبر دفاعات العدو وقوته. اتخذت تلك الدوريات شكل مظاهرات حاشدة، ابتداءً من أبريل، عندما تدفق الآلاف من العمال والجنود والبحارة على شوارع بتروغراد، حاملين لافتات بشعارات من قبيل: "فليسقط مليوكوف!"، "فلتسقط سياسة الإلحاقات!"، بل وحتى شعار "فلتسقط الحكومة المؤقتة!". كانت تلك بلا شك شعارات البلاشفة، لكن المظاهرات نفسها لم تكن بدعوة من الحزب، كما يشرح ألكسندر رابينوفيتش قائلاً: «مما لا شك فيه أن قواعد الحزب من الجنود والعمال ساعدوا في إثارة مظاهرات الشوارع في المقام الأول، رغم أن اللجنة المركزية لم تنخرط إلا بعد أن تطورت الحركة فعلياً؛ بعد ذلك بدأت قيادة الحزب تؤيد المظاهرات. سارعت العناصر الكفاحية في منظمة الحزب ببتروغراد وفي المنظمة العسكرية البلشفية، مدفوعة بفطرتها الكفاحية والخوف من فقدان المواقع أمام اللاسلطويين، إلى اتخاذ مقاربة أكثر راديكالية؛ وقد نشر بعض المسؤولين في لجنة بطرسبرغ على نطاق واسع نداء باسم الحزب، يدعوا للإطاحة الفورية بالحكومة المؤقتة واعتقال الوزراء»<sup>1</sup>.

كان الهدف المباشر للمظاهرة هو الاحتجاج ضد مخططات مواصلة الحرب. لكن هذه المسألة أثارَت مسألة السلطة. كانت تحركات أبريل المظاهرات الجماهيرية الأولى من نوعها التي حاولت فيها الجماهير إجبار الحكومة وقادة السوفييتات على تنفيذ وعودهم. لقد لعبت من حيث الجوهر دوراً مشابهاً لمهمة دورية الاستطلاع في الحرب، إذ قامت باكتشاف نقاط ضعف العدو والسماح للعمال والجنود باختبار قوتهم في الشوارع. ومن المعبر أن المتظاهرين لم يتفرقوا إلا عندما طلب منهم ذلك سوفيت بتروغراد، بعد أن كانوا قد تحدوا صراحة أوامر الحكومة لهم بالتفرق. هذا التفصيل لوحده يقول كل شيء. لم تكن السلطة الحقيقية في أيدي الحكومة المؤقتة، التي كانت الجماهير تكرهها ولا تثق فيها، بل في أيدي القادة الإصلاحيين، "الاشتراكيين المعتدلين" في اللجنة التنفيذية السوفياتية، الذين كانوا يخشونها مثلما يخشى المرء الطاعون. كانت الجماهير مجبرة على أخذ الإصلاحيين من أعناقهم ودفعهم إلى سدة الحكم. هذا هو المعنى الحقيقي لمظاهرات أبريل. كان للانفجار المفاجئ للمظاهرات الجماهيرية في الشوارع نتيجة فورية، حيث دخلت الحكومة في أزمة، إذ اضطرت البرجوازية على تمرير الجمرة المشتعلة إلى القادة الإصلاحيين.

1: A. Rabinowitch, *The Bolsheviks Come to Power*, p: xxxii.

كانت مظاهرة أبريل أول اختبار جاد للقوة بين العمال وبين الحكومة المؤقتة ومؤيديها الاشتراكيين اليمينيين. وقد كان اختيارا ناجحا. فقد تم إجبار اثنين من الوزراء البرجوازيين الممقوتين أكثر من غيرهم بسبب سياساتهم المؤيدة للحرب، أي غوتشكوف ومليوكوف، على الاستقالة، ودخل العديد من قادة السوفييتات إلى الحكومة. صار المنشفي الجيورجي، إراكي تسيريتيلي، وزيرا للبريد والتلغراف، وأصبح الاشتراكي الثوري المخضرم، فيكتور تشيرنوف، وزيرا للزراعة، ورئيس الحزب الاشتراكي الشعبي، أليكسي بيشيكونوف، وزيرا للإمدادات الغذائية. كما شغل بافل بيرفيريزيف منصب وزير العدل، وأصبح كيرنسيكي وزيرا للحرب والبحرية. وبهذه الطريقة صار قادة السوفييتات يتحملون المسؤولية المباشرة داخل الحكومة المؤقتة، بدلا من دعمها من الخارج. فتم تشكيل أول ائتلاف.

رحبت أغلبية الجماهير بهذه الخطوة أملا في أن يحدث وزراء "هم" تغييرا بطريقة ما داخل الحكومة. لكن لينين ندد على الفور بمشاركة المناشفة والاشتراكيين الثوريين في الحكومة، مشيرا إلى أنهم من خلال انضمامهم إلى الحكومة المؤقتة البرجوازية، «قد أنقذوها من الانهيار وسمحوا لأنفسهم بأن يصبحوا خادمين لها ومدافعين عنها»<sup>1</sup>. لقد كان قادة السوفييتات، في الواقع، مجرد رهائن في يد الوزراء البرجوازيين الذين حددوا كل السياسات. لقد قبلوا بالحقائب الوزارية في حين استمرت السلطة الحقيقية في يد الملاكين العقاريين والرأسماليين، باستثناء أنه كانت هناك قوة بديلة أخرى تنتظر بقلق شديد حل مشاكلها الأكثر إلحاحا، لكن بدون جدوى! لقد شكل القادة الإصلاحيون، المرعوبون من الإساءة إلى البرجوازية، التي كانت هي من يجب أن يحكم وفقا لعقيدة "الثورة عبر مرحلتين"، مجرد غطاء يساري للحكومة المؤقتة، التي كانت بدورها مجرد واجهة تقوم قوى الردة الرجعية ورائها بإعادة تجميع صفوفها والاستعداد لهجوم مضاد، بمجرد أن تتعرض الجماهير للإحباط وخيبة الأمل بسبب سياسات الائتلاف.

واجه هذا الائتلاف بين القادة العماليين والبرجوازية تناقضات مستعصية أدت إلى شله منذ البداية. لقد كان يشبه إلى حد كبير كل الحكومات الائتلافية المماثلة من حكومة ميليراند في فرنسا، مروراً بتحالف اللبراليين والعماليين في بريطانيا، إلى ما سمي بحكومات الجبهة الشعبية في فرنسا وإسبانيا خلال ثلاثينيات القرن الماضي. لقد تم تبريرها جميعا بشعار "وحدة القوى التقدمية" و"الوحدة الوطنية"، الذي هو أكثر الشعارات فراغا، والذي يعني "وحدة" الحصان مع راكبه. تستغل البرجوازية، في الواقع، هذه التحالفات من أجل استخدام القادة العماليين وتشويه سمعتهم لإحباط معنويات الجماهير، بينما تنظم وراء الكواليس صفوفها من أجل الهجوم المضاد. كانت الحكومة المؤقتة بعد أبريل نموذجا مثاليا لهذا النوع من الائتلافات. تم وضع القادة السوفييت في تلك الوزارات التي من شأنها أن تجعلهم في صراع مع تطلعات العمال والفلاحين، أي وزارات العمل والزراعة، وهلم جرا. كما تم تكليف كيرنسيكي، الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة في البداية، بضبط الجنود وجعلهم يتقبلون استمرار الحرب تحت اسم "السلام والتقدم والديمقراطية"، بالطبع.

كان دخول الوزراء "الاشتراكيين" إلى الحكومة المؤقتة نقطة تحول. إذ من الآن فصاعدا صار في إمكان العمال والفلاحين أن يقارنوا الكلمات بالأفعال. كانت الظروف تتحضر لكي يتم فضح القادة العماليين الإصلاحيين في الممارسة. كان ذلك أحد جوانب المسألة. لكن العنصر الأكثر أهمية كان هو أن البلاشفة ظلوا، بفضل توجيهات لينين، خارج الائتلاف وحافظوا على موقف معارضة شديدة تجاهه. وما بدا للبعض وكأنه موقف طوباوي وعصبي، اتضح الآن أنه الموقف الواقعي الوحيد الذي على الحزب الثوري أن يتبناه. كان ذلك هو مفتاح نجاح البلاشفة والسبب الذي جعلهم يتطورون بسرعة كبيرة على حساب المناشفة والاشتراكيين الثوريين في الأشهر التالية. يقول راينوفيتش: «بمجرد انضمامهم إلى الائتلاف الأول، أصبح الاشتراكيون المعتدلون مرتبطين في ذهن الشعب بأوجه قصور الحكومة المؤقتة. وحدهم البلاشفة، من بين كل المجموعات السياسية الروسية الرئيسية الأخرى، من بقوا بمنأى عن الحكومة، وبالتالي كانوا أحرارا بشكل كامل في تنظيم المعارضة لها، وهو الوضع الذي استفاد منه الحزب بشكل كامل»<sup>2</sup>.

لكن الجناح الثوري واجه صراعا شاقا لا بد أنه بدأ مستحيلا في البداية. كانت شعاراتهم تبدو متقدمة جدا بالنسبة للجماهير، بينما قدم لها زعماء المناشفة والاشتراكيين الثوريين، من ناحية أخرى، ما كان يبدو وكأنه الخيار الأسهل. فالثورة انتصرت، وصارت روسيا الآن أكثر البلدان حرية في العالم، وبالتالي فمع القليل من الصبر، سيتم حل كل المشاكل. الشيء المطلوب هو أن يتحد الجميع ويتجاوزوا خلافاتهم وكل شيء سيكون على ما يرام. كان الضغط الهائل من أجل الوحدة أحد أسباب استسلام كامينيف وستالين للمناشفة قبل عودة لينين. كان خطأهما هو اقتصارهما على رؤية الموقف المائل أمامهما فقط، وعدم رؤية السيرة العميقة التي ستقلب كل هذا رأسا على عقب. إن الأساس الفلسفي لجميع أنواع الإصلاحية هو التجريبية المبتذلة التي تختبئ تحت قناع "الواقعية"، أو كما أسماها تروتسكي ذات مرة، العبادة الخنوعة للواقع القائم. لكن ما هو "واقع" في لحظة ما، يمكن أن يصبح

1: LCW, vol. 25, p: 237.

2: A. Rabinowitch, *The Bolsheviks Come to Power*, p: xxviii.

وهما في لحظة أخرى. ومن أجل أن تستخلص الجماهير الاستنتاجات الضرورية، هناك أمران ضروريان: أولاً أن تصل الطبقة العاملة إلى أن تفهم، من خلال تجربتها الخاصة، وضعها الحقيقي، وثانياً وجود حزب ثوري له قيادة بعيدة النظر قادرة على خوض التجربة معهم وشرح أهميتها في كل مرحلة.

لكن الجماهير لا تستخلص جميعها نفس الاستنتاجات في نفس الوقت. فبحلول يونيو ويوليو، كانت شريحة من العمال المتقدمين والبحارة في بتروغراد قد توصلت إلى تقييم للحكومة المؤقتة والزعماء السوفييت ووجدوا أنهم مفلسين. كما أراد قسم من أعضاء الحزب البلشفي، تحت تأثير نفاذ الصبر، المضي أبعد مما تسمح به الظروف وقبل الأوان؛ فقاموا تحت تأثير اليساريين المتطرفين واللاسلطويين، برفع الشعار الثوري: "فلتسقط الحكومة المؤقتة". كان هذا شعار الانتفاضة. ما هو الموقف الذي اتخذه لينين آنذاك؟ لقد رفض ذلك الشعار بالكامل. لماذا؟ لأن ذلك الشعار لم يكن يتطابق مطلقاً مع المستوى الحقيقي الذي كانت قد بلغته الحركة. إن لينين، الذي كان ثورياً حتى النخاع، عارض ذلك الشعار بشدة، وبدلاً من ذلك وجه الحزب نحو كسب الجماهير، وأصر على ضرورة "الشرح بصبر". كانت المشكلة هي أن الجماهير الواسعة من الطبقة العاملة في المقاطعات الأكثر تخلفاً لم تكن قد توصلت بعد لفهم الدور الحقيقي للقادة الإصلاحيين في السوفييتات، ناهيك عن الفلاحين الذين كانوا أكثر تخلفاً. كان البلاشفة قد نجحوا في كسب الفئات الأكثر تقدماً داخل الطبقة العاملة، لكنه كان من الخطأ الفادح أن يتم دفع هؤلاء إلى الاصطدام مع الأغلبية الأقل وعياً والتي كانت ما تزال لديها أوهام في المناشفة والاشتراكيين الثوريين. واستناداً إلى العمال المتقدمين كان على البلاشفة الآن أن يجدوا الطريق لكسب الأغلبية.

كان النمو العظيم الذي حققه الحزب البلشفي في الأشهر التسعة، من فبراير إلى أكتوبر، ظاهرة يصعب إيجاد أي شبيه لها في تاريخ الأحزاب السياسية. لقد لخص عام 1917 بشكل تام جوهر ومعنى تاريخ البلشفية. آنذاك خضعت جميع البرامج والسياسات والتكتيكات والاستراتيجيات أخيراً لمحك الاختبار في الممارسة. ليس هناك من تأكيد لصحة النظريات أفضل مما يحدث خلال الثورة.

وعن تجربة الثورة الروسية، قال تروتسكي: «علينا أن نتذكر أنه في بداية عام 1917، كان الحزب البلشفي يقود عدداً ضئيلاً فقط من الكادحين. لم يكن البلاشفة يشكلون عموماً، ليس فقط في سوفييتات الجنود، بل أيضاً في السوفييتات العمالية، سوى ما بين 01 إلى 02%، وفي أفضل الحالات 05%. كان لدى الأحزاب الرئيسية للبرجوازية الصغيرة الديمقراطية (المناشفة ومن يسمون بالاشتراكيين الثوريين) ما لا يقل عن 95% من العمال والجنود والفلاحين المشاركين في النضال. أطلق قادة تلك الأحزاب على البلاشفة تسمية عسوبيين في البداية ثم... اسم عملاء القيصر الألماني. لكن كلاً، لم يكن البلاشفة عسوبيين! لقد كان كل انتباههم موجهاً إلى الجماهير، وعلو على ذلك ليس الفئة العليا منها فقط، بل تلك الملايين وعشرات الملايين من الجماهير الأكثر انسحاقاً والأكثر اضطهاداً، والتي عادة ما ينساها الثرثارون البرلمانيون. ومن أجل قيادة البروليتاريين وشبه البروليتاريين في المدينة والريف على وجه التحديد، رأى البلاشفة أنه من الضروري أن يميزوا أنفسهم بوضوح عن جميع الفصائل والمجموعات البرجوازية، بدءاً من هؤلاء "الاشتراكيين" المزيفين الذين هم في الواقع عملاء للبرجوازية»<sup>1</sup>.

كان الحزب البلشفي قبل الحرب قد نجح، كما رأينا، في كسب الأغلبية الحاسمة بين العمال المنظمين. لقد كان هو الحزب التقليدي للطبقة العاملة في روسيا. لكن ميزان القوى الطبقي تعرض خلال الحرب إلى تغيير كبير. كان الشباب، الذين يشكلون القاعدة الطبيعية للبلشفية قد ذهبوا إلى الجيش. كما أن جزءاً كبيراً من الكوادر العمالية ذات الخبرة، كانوا في الجبهة بدورهم، حيث غرقوا في بحر من الفلاحين المتخلفين والأميين سياسياً. كانت المنظمات العمالية قد سحقت بفعل الاعتقالات. واضطر العمال إلى طأطأة رؤوسهم. وقد أدى تدفق عدد كبير من العناصر المفتقرة إلى الخبرة إلى المصانع -من الفلاحين والنساء والشباب الأميين- إلى جعل الأمور أسوأ في البداية. لم يكن من الممكن، في ظل تلك الظروف، تحقيق أي تقدم جدي. كان يكفي الحفاظ على ما تبقى من الكوادر مجتمعة معاً وانتظار انفراج في الوضع.

من الصعب تقديم حساب دقيق لعضوية الحزب البلشفي في عام 1917. يقدم مؤلفون مختلفون تقديرات مختلفة. الرقم "الرسمي" الذي تقدمه موسوعة بولشوييا سوفيتسكايا هو 23.600، في يناير 1917، قبل بداية الثورة، ولكن هذا التخمين هو بالتأكيد مبالغ. ربما يكون رقم 8.000 عضو في روسيا كلها ليس بعيداً عن الرقم الحقيقي. يدعي رايبنوفيتش أنه في فبراير كان هناك 2.000 عضو في بتروغراد، وأن عضوية الحزب على الصعيد الوطني تضاعفت إلى 16.000 بحلول أبريل: «في شهر فبراير، كان هناك حوالي 2.000 من البلاشفة في بتروغراد. وعند افتتاح كونفرانس أبريل، ارتفعت عضوية الحزب إلى 16.000. وبحلول أواخر

1: L. Trotsky, *Writings 1935-1936*, pp: 166-167.

يونيو وصل العدد إلى 32.000، بينما انضم 2.000 جندي إلى المنظمة العسكرية البلشفية وانضم 4.000 جندي إلى "نادي برفادا"...». كانت الغالبية الساحقة من المجندين الجدد في شكل خام للغاية، كما يشير المؤلف نفسه: «لقد أدى النمو السريع للحزب منذ شهر فبراير إلى إغراق قاعدة الحزب بمناضلين لم يكونوا يعرفون شيئاً تقريباً عن الماركسية، والذين لم يكن يوحدهم تقريباً سوى نفاذ الصبر للقيام بعمل ثوري فوري»<sup>1</sup>.

كان التدفق السريع للمجندين الجدد، والذين كان الكثير منهم من الشباب اليافعين (كان المناشفة يطلقون على البلاشفة بازدراف اسم "حزب الأطفال")، أحد الأسباب التي مكنت لينين من أن ينجح في التغلب على مقاومة "البلاشفة القدماء" المحافظين. وقد أدى هذا إلى تغيير الحزب. يقول مارسيل ليبمان: «ابتداءً من أبريل 1917، بدأ الحزب البلشفي يتعزز بتدفق مستمر وواسع النطاق للأعضاء الجدد. أدى ذلك التدفق إلى سحق نواة "البلاشفة القدماء" الذين ادعوا أنهم حماة الأرثوذكسية اللينينية، حيث غرقوا تحت ثقل أعضاء جدد تجذروا بفعل الأحداث الثورية ولم تشلهم مبادئ تلك الأرثوذكسية»<sup>2</sup>.

كانت أهم ميزة للحزب البلشفي في عام 1917 هي شبابه. فعلى سبيل المثال، كان سن جميع أعضاء مكتب الحزب في موسكو، باستثناء عضو واحد، أقل من 30 عاماً. كان هناك تعارض بين المكتب وبين لجنة الحزب في موسكو، التي كانت مؤلفة من أعضاء أكبر سناً وأكثر محافظة. يصف ستيفن ف. كوهين في سيرته عن بوخارين وضع البلاشفة في موسكو قائلاً: «في حين أن غالبية لجنة موسكو أيدت الانتفاضة في النهاية، فإن استجابتها للمسار الراديكالي الذي حدده لينين واليسار كانت بطيئة وبدون حماس. كان معظم أعضائها يعتقدون، كما أكد أحدهم، أنه: "لا توجد القوى، والظروف الموضوعية غير ناضجة لذلك". قادة المكتب، الذين كانوا يحثون شيوخهم باستمرار، بقوا قلقين إلى وقت متأخر من شهر أكتوبر من أن المزاج "المحب للسلام" و"التذبذب الشديد" في لجنة موسكو سيكون قاتلاً "عندما تحين اللحظة الحاسمة". وبالتالي فعلى الرغم من الدعم الكبير من جانب بعض كبار السن من البلاشفة في موسكو، فإن شباب موسكو يميلون إلى اعتبار النصر النهائي في موسكو إنجازاً شخصياً لهم، ودليلاً على بطولة جيلهم. وكما قال أوسينسكي عنهم لاحقاً، إنهم قادوا النضال من أجل السلطة "ضد مقاومة كبيرة من جانب جزء كبير من الجيل الأكبر سناً من مسؤولي الحزب في موسكو»<sup>3</sup>.

### كل السلطة للسوفييتات

بعد أن تمكن لينين من كسب الحزب إلى منظور ثورة جديدة بقيادة الطبقة العاملة، انتقل إلى توضيح الخطوة التالية وهي كسب الجماهير. ليس هناك من ادعاء أبعد عن الحقيقة من ذلك الافتراء الذي يتكرر كثيراً حول أن لينين كان متآمراً مصمماً على الاستيلاء على السلطة من طرف أقلية من الثوريين، على النحو الذي دعا إليه الثوري الفرنسي العظيم، بلانكي، خلال القرن التاسع عشر. فلينين رغم أنه كان يقدر صدق وبطولة بلانكي، الذي طور رؤى مهمة حول أسلوب الانتفاضة، لم يكن يرى أبداً أن الثورة الاشتراكية يمكن أن تحدثها أقلية من الثوريين المصممين. وعلى النقيض من ذلك فقد حافظ لينين طوال حياته على إيمان قوي بالقدرات الثورية والإبداعية للطبقة العاملة. يجب أن تستند الاشتراكية إلى الحركة الذاتية للبروليتاريا، ومشاركتها النشطة ورقابتها على المجتمع منذ اللحظة الأولى. حتى قبل عودته إلى روسيا كان هناك عدد من البلاشفة الذين رفعوا، بدافع من نفاذ الصبر، شعار: "فلتسقط الحكومة المؤقتة". كان هذا شعاراً يسراوياً متطرفاً، لأن جماهير العمال كانت ما تزال تحت تأثير القادة الإصلاحيين للسوفييتات، الذين كانوا يدعمون الحكومة المؤقتة. لم تكن المهمة المطروحة على الحزب البلشفي في تلك المرحلة هي الاستيلاء على السلطة، بل كانت المهمة هي كسب الجماهير. وقد لخص لينين هذه الفكرة في وصيته الشهيرة: "اشرح بصبر!".

كان الحزب البلشفي قد نجح في كسب عدد كبير من العمال الأكثر وعياً وتقدماً. وكان نفوذهم، خاصة في بتروغراد، ينمو كل ساعة. لكن ذلك لم يكن كافياً، فمن أجل تغيير المجتمع لا يكفي الحصول على دعم الطليعة وحدها، أو أن يضم الحزب بضع عشرات من الآلاف. بل من الضروري كسب ملايين العمال المتخلفين سياسياً، وفي حالة روسيا لا بد أيضاً من كسب قطاع كبير، على الأقل، من الفلاحين، بدءاً من الفلاحين الفقراء والبروليتاريا وشبه البروليتاريا الريفية. وفي ربيع عام 1917، كانت هذه المهمة العملاقة ما تزال في بداياتها المبكرة. كان من الضروري أن يفتح العمال البلاشفة طريقاً نحو بقية الطبقة العاملة، وخاصةً في الأقاليم

1: A. Rabinowitch, *The Bolsheviks Come to Power*, pp: xxi and xxxi.

2: M. Liebman, *Leninism Under Lenin*, p: 134.

3: S.F. Cohen, *Bukharin and the Bolshevik Revolution*, p: 50.

النائية، التي كانت ما تزال لديها أوهام حول القادة الإصلاحيين. كان من الضروري التحدث إليها بلغة تفهمها، وتجنب الممارسات اليسارية المتطرفة التي من شأنها تنفيرها.

كان لينين يفهم أن الطبقة العاملة تتعلم من التجربة، وخاصة تجربة الأحداث الكبرى. والطريقة الوحيدة التي يمكن بها للتيار الثوري، الذي ما يزال أقلية، كسب الجماهير إلى صفه هي اتباع مجريات الأحداث إلى جانب الجماهير، والمشاركة معها في النضال اليومي الجاري، وطرح شعارات تتوافق مع المستوى الحقيقي لتطور الحركة، ويشرح بصر الحاجة إلى إحداث تغيير كامل للمجتمع باعتباره السبيل الوحيد للحل. أما الدعوات المتطرفة إلى الانتفاضة والحرب الأهلية فلن تكسب الجماهير، ولا حتى الفئات المتقدمة، بل ستؤدي فقط إلى تنفيرها. يصدق هذا، كما رأينا أعلاه، حتى في خضم الثورة. وعلى العكس من ذلك من الضروري تحميل مسؤولية حدوث العنف والحرب الأهلية للقادة الإصلاحيين الذين يملكون القدرة على الاستيلاء على السلطة بطريقة سلمية، وبسبب رفضهم القيام بذلك يجعلون إراقة الدماء أمراً حتمياً.

لينين، الذي أدرك أن الطبقة الحاكمة تريد استفزاز العمال لارتكاب أعمال عنف سابقة لأوانها، ندد بأولئك الذين زعموا أنه يدعو إلى الحرب الأهلية. وقد نفى مرارا وتكرارا تهمة دعم البلاشفة للعنف، وألقى المسؤولية الكاملة عن العنف على كاهل الطبقة الحاكمة. لم يكن ذلك يعجب اليساريين المتطرفين الذين عجزوا عن فهم أن تسعة أعشار مهام الثورة الاشتراكية هي العمل من أجل كسب الجماهير عن طريق الدعاية والتحرير والشرح والتنظيم. بدون ذلك، يصير كل حديث عن الحرب الأهلية والانتفاضة مجرد مغامرة غير مسؤولة، أو بلانكية، كما تسمى في المصطلحات العلمية للماركسية.

إليكم ما قاله لينين حول هذا الموضوع: «إن الحديث عن الحرب الأهلية قبل أن يدرك الشعب الحاجة إليها هو بلا شك سقوط في البلانكية»<sup>1</sup>.

لم يكن البلاشفة هم الذين أثاروا باستمرار شبح العنف والحرب الأهلية، بل البرجوازية وحلفاؤها الإصلاحيون هم من كانوا يقومون بذلك. لقد أنكر لينين مرارا أي تلميح إلى أن البلاشفة يؤيدون العنف. وفي 25 أبريل، احتج في برافدا على "التلميحات الخبيثة" التي أطلقها "الوزير نيكراشوف" حول أن البلاشفة "يدعون للعنف"، وقال: «أنت تكذب، أيها السيد الوزير والعضو الجدير بحزب "حرية الشعب". إن السيد غوتشكوف هو الذي يبشر بالعنف عندما يهدد بمعاكبة الجنود لتمردهم على السلطات. إن "روسكايا فوليا"، التي هي صحيفة محرصة على الشغب ولسان حال "الجمهوريين" الذين يروجون لأعمال الشغب، وهي صحيفة موالية لك، هي التي تدعو إلى العنف. أما برافدا وأنصارها فلا يدعون إلى العنف، بل على العكس من ذلك، إننا نعلن بوضوح تام، وبالتأكيد أن جهودنا الرئيسية ينبغي أن تتركز الآن على أن نشرح للجماهير البروليتارية مشاكلها البروليتارية، المتميزة عن البرجوازية الصغيرة التي استسلمت للسموم الشوفينية»<sup>2</sup>.

يوم 21 أبريل (04 ماي - بالتقويم الجديد-)، أصدرت اللجنة المركزية البلشفية قرارا كتبه لينين، كان الهدف منه كبح جماح قيادة بتروغراد المحلية التي كانت تسبق الأحداث. وكان الهدف من ذلك تحميل المسؤولية في حدوث أي عنف للحكومة المؤقتة ومؤيديها، واتهام "الأقلية الرأسمالية برفض الخضوع لإرادة الأغلبية". وفيما يلي فقرتان من ذلك القرار:

«1- يجب على دعاة الحزب والمتحدثين باسمه أن يدحضوا الأكاذيب الدنيئة التي تنشرها الصحف الرأسمالية والصحف الداعمة للرأسماليين بأننا ندعو إلى الحرب الأهلية. هذه كذبة حقيرة، لأنه في الوقت الحالي، طالما أن الرأسماليين وحكومتهم لا يستطيعون ولا يجروؤن على استخدام القوة ضد الجماهير، طالما أن جماهير الجنود والعمال يعبرون بحرية عن إرادتهم وينتخبون ويعزلون بحرية جميع السلطات- سيكون في مثل هذه الظرفية أي تفكير في الحرب الأهلية ساذجا ولا معنى له، ولا فائدة منه؛ في مثل هذه الظرفية يجب أن يكون هناك الامتثال لإرادة غالبية السكان والانتقاد الحر لهذه الإرادة من قبل الأقلية الساخطة؛ وإذا ما تم اللجوء إلى العنف، فستقع مسؤولية ذلك على عاتق الحكومة المؤقتة ومؤيديها.

2- من خلال الاحتجاج ضد الحرب الأهلية تحاول حكومة الرأسماليين وصحفها إخفاء امتناع الرأسماليين، الذين يشكلون، باعتبارهم الجميع، أقلية ضئيلة من الشعب، عن الخضوع لإرادة الأغلبية»<sup>3</sup>.

وقد أكد لينين في كل خطبه ومقالاته، التي كتبها في النصف الأول من عام 1917، على إمكانية وأفضلية الانتقال السلمي للسلطة

1: LCW, The 7th (April) All-Russia Conference of the RSDLP(B), vol. 24, p: 236. (التشديد من آلان وودز)

2: LCW, A Shameless Lie of the Capitalists, vol. 24, pp: 110-111.

3: LCW, Resolution of the CC of the RSDLP(B) Adopted 21 April (4 May), 1917, vol. 24, p: 201.

إلى السوفييتات. بل إنه أشار حتى إلى إمكانية دفع تعويضات للرأسماليين الذين يتم الاستيلاء على مشاريعهم، شريطة أن يسلموا المصانع دون أي تخريب، والتعاون في عملية إعادة تنظيم الإنتاج: «لا تحاول تخويفنا، أيها السيد شولجين. فحتى عندما سنكون في السلطة، لن نأخذ منك قميصك "الأخير"، بل سنضمن أن تحصل على ملابس جيدة وطعام جيد، بشرط أن تقوم بالعمل الذي يتناسب مع قدراتك ومؤهلاتك!»<sup>1</sup>.

يعلم الجميع أن هذا كان هو الشعار المركزي للينين والبلاشفة في عام 1917. لكن قلة قليلة من الناس فقط هم من فهموا المحتوى الحقيقي لهذا الشعار. ما هو المعنى الحقيقي لشعار: «كل السلطة للسوفييتات»؟ هل كان يعني الحرب الأهلية؟ الانتفاضة؟ الاستيلاء على السلطة من طرف البلاشفة؟ كلا على الإطلاق. لقد كان البلاشفة يمثلون أقلية داخل السوفييتات، التي كانت تسيطر عليها الأحزاب الإصلاحية، الاشتراكيون الثوريون والمناشفة. لم تكن المهمة المركزية هي الاستيلاء على السلطة، بل كسب الأغلبية التي كانت ما تزال لديها أوهام في الإصلاحين. أقام البلاشفة "شرحهم الصبور" على أساس الفكرة، التي تكررت باستمرار في كتابات وخطب لينين، من مارس حتى عشية ثورة أكتوبر، بأن الزعماء الإصلاحيين يجب أن يأخذوا السلطة بأيديهم، وأن هذا سيضمن التغيير السلمي للمجتمع، وأن البلاشفة يؤيدون هذا بكل إخلاص، وأنه إذا قام القادة الإصلاحيون بالاستيلاء على السلطة، فإن البلاشفة سيقفون على النضال السلمي من أجل كسب الأغلبية داخل السوفييتات.

وفيما يلي بعض الأمثلة عن الكيفية التي طرح بها لينين المسألة (وهناك الكثير منها): «لم يكن جميع مؤيدي شعار "يجب نقل كل السلطة إلى السوفييتات" قد فكروا مليا، على ما يبدو، في حقيقة أنه كان شعارا للتقدم السلمي للثورة، سلميا ليس فقط بمعنى أنه لم يكن هناك أي أحد، ولا أي طبقة ولا أي قوة ذات أهمية، آنذاك (بين 27 فبراير و04 يوليو) في إمكانه مقاومة ومنع نقل السلطة إلى السوفييتات. هذا ليس كل شيء. كان من الممكن أن يكون التطور سلميا حتى بمعنى إمكانية اتخاذ صراع الطبقات والأحزاب داخل السوفييتات لشكل أكثر سلمية وبدون ألم، بشرط انتقال كامل سلطة الدولة إلى السوفييتات في الوقت المناسب»<sup>2</sup>.

بعد فشل انتفاضة كورنيلوف، تبنى لينين مرة أخرى شعار "كل السلطة للسوفييتات"، في مقال بعنوان "بصد المسامات"، ودعا إلى إجراء مساومة مع الزعماء الإصلاحيين، بحيث لا يقوم البلاشفة بالتحريض لفكرة الانتفاضة، شريطة أن يقطع قادة السوفييتات مع البرجوازية ويأخذون السلطة بأيديهم. كان هذا ممكنا جدا بعد هزيمة الهجوم المعادي للثورة. كان الرجعيون محبطين ومشوشين، بينما كان العمال واثقين في أنفسهم وأيدت الغالبية العظمى نقل السلطة إلى السوفييتات. كان من الممكن، في ظل تلك الظروف، تنفيذ الثورة بطريقة سلمية، دون عنف ولا حرب أهلية. لم يكن هناك شيء ليمنع ذلك. كانت كلمة واحدة من قيادة السوفييتات كافية لتحقيق ذلك، وبعد ذلك كان من الممكن تسوية مسألة من هو الحزب الذي سيحكم من خلال النقاش السلمي داخل السوفييتات. قال لينين: «لن يطرح البلاشفة، على ما أعتقد، أي شروط أخرى، واثقين من أن الثورة ستمضي بسلا وأنها الصراع الحزبي داخل السوفييتات سيتم بطريقة سلمية بفضل الحرية الكاملة للدعاية والتطبيق الفوري للديمقراطية الجديدة في تكوين السوفييتات (انتخابات جديدة) وفي أدائها. ربما قد صار هذا مستحيلا؟ ربما. لكن إذا كانت هناك ولو فرصة واحدة في المائة، فإن محاولة تحقيق مثل هذا الاحتمال تبقى جديرة بالاهتمام»<sup>3</sup>.

كان لينين مقتنعا تماما بأن الثورة السلمية كانت ليس فقط ممكنة، بل مرجحة، بشرط واحد وهو أن يقوم الزعماء الإصلاحيون في السوفييتات بالاستيلاء على السلطة، بدلا من تكريس كل طاقتهم لدعم حكم الملاكين العقاريين والرأسماليين. لكن رفضهم تولي السلطة، خاصة بعد هزيمة كورنيلوف، هدد روسيا بالكوارث. هذا هو التناقض الأبدي للإصلاحية، وهو أنه من خلال تمسكهم بمفهوم التحول البطيء التدريجي والسلمي للمجتمع، دائما ما يخلقون أكثر الأوضاع تشنجا وكارثية وعنفا، ويهددون الطريق للانتصار الردة الرجعية. كان لينين ينتقد بشدة ترددات وتذبذبات المناشفة والاشتراكيين الثوريين الذين كانوا يرفضون الانفصال عن البرجوازية والاستيلاء على السلطة. وكما هو الحال دائما، حاول الإصلاحيون تخويف الجماهير بخطر الحرب الأهلية، وهو المبرر الذي تعامل معه لينين بكل احتقار وسخرية. وفي مقاله المعنون بـ "الثورة الروسية والحرب الأهلية" قام بالرد على هذه المبررات الواحدة منها تلو الأخرى، قائلا: «إذا كان هناك من درس أكيد بشكل مطلق للثورة، درس أثبتته الحقائق تماما، فهو أنه فقط التحالف بين البلاشفة والاشتراكيين-الثوريين والمناشفة، فقط النقل الفوري لكل السلطة إلى السوفييتات، ما يمكنه أن يجعل من احتمال حرب أهلية في روسيا مسألة مستحيلا، لأن البرجوازية عاجزة عن شن حرب أهلية ضد هذا التحالف، ضد سوفييتات نواب العمال

1: LCW, *Titbits for the 'Newborn' Government*, vol. 24, p: 363.

2: LCW, *On Slogans*, vol. 25, p: 184.

3: LCW, *'On Compromises'*, vol. 25, p: 307.



والجنود والفلاحين؛ فمثل تلك "الحرب" لن تستمر ولو لمعركة واحدة؛ لن تتمكن البرجوازية من أن تحرك، للمرة الثانية منذ تمرد كورنيلوف، ولو "كتيبة همجية"، أو حتى ذلك العدد السابق من وحدات القوزاق لمهاجمة الحكومة السوفياتية!<sup>1</sup>

لقد أكد أن أي حكومة تستند على جماهير العمال والفلاحين، حكومة تضع حداً للحرب، وتمنح الأرض للفلاحين وتتصرف لصالح الشعب العامل، سيكون في إمكانها أن تقضي على مقاومة الطبقات المالكة، وأنه على هذا الأساس سيكون: «تحقيق تطور سلمي للثورة مسألة ممكنة ومرجحة إذا تم نقل كل السلطة إلى السوفييتات. يمكن لنضال الأحزاب من أجل السلطة داخل السوفييتات أن يجري بطريقة سلمية، إذا كانت السوفييتات ديمقراطية بالكامل، وتم القضاء على تلك "السرققات الصغيرة" والانتهاكات ضد المبادئ الديمقراطية، مثل إعطاء الجنود الحق في ممثل واحد لكل 500 ناخب، في حين أن العمال لديهم ممثل واحد لكل 1.000 ناخب. يجب أن تختفي مثل هذه السرققات الصغيرة في ظل جمهورية ديمقراطية.

ليس هناك ما تخشاه السوفييتات التي تكون قد قدمت كل الأرض للفلاحين دون مقابل، وأعطت السلام العادل لجميع الشعوب، عندما تواجه تحالف البريطانيين والفرنسيين والبرجوازيين الروس والكورنيلوفيين والبوشانانيين والريابوشينسكيين والميلوكوفيين والبليخانوفيين والبولتريسيين.

إنه لأمر حتمي طبعاً أن تقاوم البرجوازية نقل الأرض إلى الفلاحين دون مقابل، وبقيّة الإصلاحات المماثلة في مجالات أخرى من الحياة، والسلام العادل والقطع مع الإمبريالية. لكن لكي تصل هذه المقاومة إلى مرحلة الحرب الأهلية، يجب أن تتوفر جماهير من نوع ما، قادرة على القتال ضد السوفييتات وهزيمتها. إن البرجوازية لا تمتلك هذه الجماهير، ولا يمكنها أن تحصل عليها من أي مكان».

من المثير للدهشة أنه حتى الآن، لم يتم فهم مقاربة لينين تجاه مسألة السلطة. ليس فقط أعداء البلشفية البرجوازيون هم وحدهم من يسعون بإصرار إلى أن يصوروا لينين بكونه متعصباً عنيفاً، محباً لسفك الدماء والفوضى (يعتبر أورلاندو فيغز آخر مثال عن هذا التشويه المثير للاشمئزاز)، بل، ويا للعجب، هناك العديد من العنصريين الذين يتخيلون، لسبب ما، أنهم لينينيون عظماء، والذين يكررون نفس الهراء الطفولي حول حتمية العنف والحرب الأهلية، دون حتى أن يدركوا أن موقف لينين كان هو عكس ذلك تماماً. لقد أوضح لينين في عشرات المقالات والخطب خلال عام 1917، أن الفكرة القائلة بأن الثورة تعني بالضرورة إراقة الدماء هي مجرد كذبة رجعية، ينشرها البرجوازيون والإصلاحيون بشكل مقصود من أجل تخويف الجماهير: «يتحدث البعض عن "أنهار الدم" خلال حرب أهلية. هذا مذكور في قرار الكاديت الكورنيلوفي المذكور أعلاه. وتتكرر هذه العبارة بألف طريقة من قبل جميع البرجوازيين والانتهازيين. لكن ومنذ تمرد كورنيلوف صار جميع العمال الواعين طبقياً يضحكون من ذلك، وسوف يستمرون في الضحك ولا يمكنهم أن يتوقفوا عن الضحك»<sup>2</sup>.

إذا درسنا تاريخ العالم على مدار المائة عام الماضية، سنرى أنه كان في إمكان الطبقة العاملة، في مناسبات لا حصر لها وفي العديد من البلدان، أن تستولي على السلطة بطريقة سلمية، كما حدث في عام 1917، لو أن قادة النقابات العمالية والأحزاب الاشتراكية والشيوعية أرادوا ذلك. لكنهم، مثلهم مثل المناشفة والاشتراكيين الثوريين، لم تكن لديهم أي نية للاستيلاء على السلطة. لقد وجدوا ألف حجة "ذكية" لإثبات أن "الوقت لم يحن بعد"، وأن "موازين القوى غير مواتية"، وبالطبع أن هناك خطر نشوب الحرب الأهلية والعنف، وإراقة الدماء في الشوارع وما إلى ذلك. كانت تلك هي حجة الزعماء العماليين الألمان في عام 1933، عندما تفاخر هتلر بأنه وصل إلى السلطة "دون أن تنكسر ولو نافذة زجاجية"، على الرغم من أن المنظمات العمالية الألمانية كانت الأقوى في العالم. إنها دائماً نفس القصة مع هؤلاء السيدات والسادة، حيث أن "تدرجهم" الإصلاحية يؤدي دائماً إلى الكارثة. إذا كانت هناك إراقة دماء، فإنها تكون دائماً نتيجة لسياسات التعاون الطبقي، والغباء البرلماني، والجبهات الشعبية، التي تعتبر نفسها "واقعية" و"عملية"، لكنه يتضح دائماً في النهاية أنها أسوأ أنواع اليوتوبيا.

قال لينين: «إن مهمتنا تتمثل في المساعدة على بذل كل ما هو ممكن من أجل تأمين الفرصة "الأخيرة" لتحقيق تطور سلمي للثورة، والمساعدة في ذلك من خلال طرح برنامجنا وتوضيح طابعه الوطني العام وتناغمه المطلق مع مصالح ومطالب الغالبية العظمى من السكان.

بعد الاستيلاء على السلطة، ما يزال بإمكان السوفييتات في الوقت الحاضر -وربما تكون هذه هي فرصتها الأخيرة- تأمين تطور

1: LCW, 'The Russian Revolution and Civil War', vol. 26, p: 36.

2: Ibid., pp: 37 and 38.

سلمي للثورة، وإجراء انتخابات سلمية للنواب من قبل الشعب، والصراع السلمي للأحزاب داخل السوفييتات، واختبار برامج مختلف الأحزاب في الممارسة العملية، والتميرير السلمي للسلطة من حزب إلى آخر»<sup>1</sup>.

وقد لخص تروتسكي ذلك الموقف في كتابه تاريخ الثورة الروسية، بالطريقة التالية: «نقل السلطة إلى السوفييتات كان يعني، بمعناه الفوري، نقل السلطة إلى المتنازلين. كان في إمكان ذلك أن يتم بطريقة سلمية، ببساطة عن طريق إقالة الحكومة البرجوازية، التي استمرت في الوجود فقط بسبب حسن نية المتنازلين وبقايا ثقة الجماهير بهم. لقد كانت دكتاتورية العمال والجنود واقعا حقيقيا منذ 27 فبراير. لكن العمال والجنود لم يكونوا [وهذا حتمي في تلك المرحلة] على علم بهذه الحقيقة. لقد سلموا السلطة للمتنازلين الذين قاموا بدورهم بتسليمها للبرجوازية. لقد استندت مساعي البلاشفة للتطور السلمي للثورة ليس على أمل أن تقوم البرجوازية بتسليم السلطة طواعية للعمال والجنود، بل على قيام العمال والجنود بمنع المتنازلين من تسليم السلطة للبرجوازية.

كان تركيز السلطة في يد السوفييتات، في ظل نظام الديمقراطية السوفياتية، سيفتح أمام البلاشفة الفرصة ليصبحوا أغلبية داخل السوفييتات، وبالتالي تشكيل حكومة على أساس برنامجهم. ولتحقيق هذه الغاية لم تكن الانتفاضة المسلحة ضرورية. كان بالإمكان أن يتم تداول السلطة بين الأحزاب بطريقة سلمية. كل الجهود التي بذلها الحزب من أبريل إلى يوليو كانت موجهة نحو ضمان تطور سلمي للثورة من خلال السوفييتات. «إشرح بصبر»، كان هذا هو مفتاح السياسة البلشفية»<sup>2</sup>.

لكن ربما كان لينين وتروتسكي مجرد مخادعين؟ ربما طرحا فكرة الانتقال السلمي فقط من أجل كسب ثقة العمال، من خلال استغلال أو هامهم الإصلاحية السلمية؟ إن تخيل مثل هذا الشيء يعني عدم فهم أي شيء عن نهج لينين وتروتسكي، الذي كان مبنيا على أساس الصدق الثوري. شرح تروتسكي، في شهادته أمام لجنة ديوي، هذا الأمر بوضوح شديد قائلا: «أعتقد أن السياسة الماركسية، والثورية عموما، هي سياسة بسيطة للغاية: "كن صريحا! لا تكذب! قل الحقيقة!" إنها سياسة بسيطة للغاية»<sup>3</sup>.

لم يكن لدى الحزب البلشفي برنامجان مختلفان، أحدهما للأقلية المثقفة والآخر للعمال "الجاهلين". لقد كان لينين وتروتسكي دائما يقولان الحقيقة للطبقة العاملة، حتى عندما كانت هذه الحقيقة مريرة وغير مستساغة. وبالتالي فإنهما عندما أكدا في عام 1917، في خضم الثورة، وعندما كانت مسألة السلطة على رأس جدول الأعمال، على فكرة أن التحول السلمي ممكن (ليس "من الناحية النظرية" بل ممكن فعليا)، بشرط أن يتخذ القادة الإصلاحيون إجراءات حاسمة، فإنهما قاما بذلك لأن تلك هي الحقيقة بالفعل. وقد كانت كذلك. فلو تصرف القيادة السوفياتية بشكل حاسم، لكانت الثورة ستتم بطريقة سلمية، دون حرب أهلية، لأنها كانت تحظى بدعم الأغلبية الساحقة من المجتمع. ومن خلال قولهما هذه الحقيقة البسيطة للعمال والفلاحين، لم يكن لينين وتروتسكي ينشران الأكاذيب، أو يتخليان عن النظرية الماركسية للدولة، بل كانا فقط يقولان ما كان واضحا لجماهير العمال والفلاحين.

من خلال إبراز التناقض الموجود بين أقوال الزعماء الإصلاحيين وأفعالهم، أعد البلاشفة الطريق لكي يكسبوا إلى صفوفهم الأغلبية الحاسمة داخل السوفييتات، وأيضا داخل الجيش (الذي كان ممثلا بدوره في السوفييتات). كانت هذه هي الطريقة الحقيقية التي استعد بها الحزب البلشفي للانتفاضة 1917، ليس من خلال الحديث عنها، بل من خلال التغلغل فعليا داخل صفوف الجماهير ومنظمتها بواسطة تكتيكات وشعارات مرنة تتوافق حقا مع متطلبات الوضع ومتصلة مع وعي الجماهير، وليس من خلال أفكار مجردة منحطة تم تعلمها عن ظهر قلب من كتب الطبخ الثوري. لقد كان السبب الوحيد لعدم تحقيق ثورة سلمية على الفور في روسيا، كما أوضح لينين وتروتسكي مرارا، هو جبن وخيانة القادة الإصلاحيين داخل السوفييتات.

طالما لم يتمكن الحزب الثوري من كسب الجماهير، وإلى أن يتمكن من ذلك، سيكون من غير المجدي والمضر التأكيد على الحتمية المزعومة للعنف والحرب الأهلية. إن مثل هذا النهج، وعض أن يعمل على "تثقيف" الكوادر أو إعدادهم للعمل الثوري الجاد (الذي في تلك المرحلة يقوم بالكامل تقريبا على العمل التحضيري الصبور لاكتساب نقاط الدعم بين صفوف العمال والشباب والحركة العمالية)، فإنه يؤدي إلى إرباك الكوادر وإحباطهم وتنفير العمال الذين نحاول كسبهم. لم يكن هذا أبدا نهج المفكرين الماركسيين العظماء في الماضي، بل كان دائما من سمات العصب اليسراوية المتطرفة الموجودة على هامش الحركة العمالية، والتي تعيش في عالم "ثوري" خيالي لا علاقة له بالعالم الحقيقي. في ذلك البيت الدافئ، بعيدا عن الواقع، يمكن لتلك المجموعات الصغيرة

1: LCW, vol. 21, book I, pp: 257 and 263-264.

2: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, p: 816, (التشديد من آلان وودز)

3: *The Case of Leon Trotsky*, p: 384.

أن تضيع الوقت في نقاشات لا تنتهي عن "الانتفاضة" و"تحضير" أنفسهم معنويًا لـ"حتمية الحرب الأهلية"، بينما لا ينتبهون نهائياً للمهمة الحقيقية المتمثلة في بناء المنظمة الثورية.

بأي طريقة يستعد التيار الماركسي بشكل ملموس لحسم السلطة؟ من خلال كسب الجماهير. كيف يمكن تحقيق هذه المهمة؟ من خلال وضع برنامج للمطالب الانتقالية التي تنطلق من الوضع الحقيقي للمجتمع والاحتياجات الموضوعية للطبقة العاملة والشباب، وترتبط بالمطالب الفورية بالمطلب المركزي المتمثل في مصادرة ممتلكات الرأسماليين وتغيير المجتمع. إن تسعة أعشار مهمة الثورة تتمثل بالضبط في هذا، كما أوضح لينين وتروتسكي مرات عديدة. وما لم يتم فهم هذه الحقيقة سيبقى كل حديث عن الكفاح المسلح و"الاستعدادات العسكرية"، والحرب الأهلية مجرد ديمagogية غير مسؤولة.

وكما أشرنا أعلاه، عندما كان البلاشفة أقلية صغيرة داخل السوفييتات، (التي كانت تسيطر عليها بالكامل الأحزاب الإصلاحية، أي المناشفة والاشتراكيون الثوريون، الذين كانوا يسعون من أجل التحالف مع البرجوازية) لم يلعبوا بالانتفاضة، بل شددوا على ضرورة كسب الأغلبية داخل السوفييتات، كان شعارهم: "إشرح بصبر". تميل الجماهير إلى البحث عن ما يبدو أنه أسهل الحلول لمشاكلها وأكثرها اقتصادية. ولهذا السبب كان العمال والفلاحون الروس، آنذاك كما هو الحال الآن، يثقون بالقادة الإصلاحيين. وهي الحقيقة التي كان على البلاشفة أن يأخذوها نقطة انطلاق لهم. كان لينين يفهم بشكل عميق نفسية الجماهير. وفي 08 يوليو، كتب: «ما تزال الجماهير تبحث عن "أسهل" مخرج، من خلال كتلة الكاديت مع كتلة الاشتراكيين الثوريين والمناشفة. لكن لا يوجد أي مخرج»<sup>1</sup>.

## أيام يونيو

كان لينين قد رفع، منذ عام 1905، شعار بناء الميليشيات العمالية كمطلب رئيسي للثورة، وبالتالي فإنه لم يكن من قبيل المصادفة أن كان مطلب تسليح العمال أحد المطالب الأولى التي طرحها في برقيته التي بعثها إلى البلاشفة من سويسرا. لكن العمال الروس كانوا في الواقع قد شرعوا بالفعل بتنفيذ هذه المهمة دون انتظار أن يقولها لهم أحد.

خلال المصادمات المسلحة التي اندلعت في فبراير، قام العمال، بدءاً من النشطاء، بالاستيلاء على كمية كبيرة من الأسلحة: تم الاستيلاء على 40.000 بندقية و30.000 مسدس من المخازن، كما سلمتهم اللجنة العسكرية للحكومة المؤقتة، على مضض، 24.000 بندقية و400.000 خرطوشة ما بين 02 و03 مارس. وعلى هذا الأساس تم تشكيل الميليشيات العمالية، من أجل القيام أولاً بدوريات في المناطق العمالية والحفاظ على النظام ومنع المذابح ونزع سلاح العناصر الإجرامية والمشغبين. إلا أنها سرعان ما انتقلت إلى شن الهجومات ضد العناصر المعادية للثورة، بمن في ذلك مسؤولو الدولة القمعيون الممقوتون. لم تكن للميليشيات العمالية أي علاقة مع الإرهاب الفردي وحرب العصابات، بل نبعت من الحركة الجماهيرية وكانت تابعة لها، حيث كانت مرتبطة بشكل وثيق بالسوفييتات ولجان المصانع التي بدأت تظهر في كل مكان بعد ثورة فبراير. وإذا وافقنا على أن جهاز الدولة هو "هيئة لأناس مسلحين"، فإن السلطة في بتروغراد كانت في أيدي الشعب المسلح. بحلول 19 مارس، صارت هناك 85 مجموعة ميليشيا تعمل في المدينة، 20 منها تحت رقابة لجان المصانع أو الهيئات المماثلة. وكانت تضم حوالي 10.000 أو 12.000 عضو مقابل 8.000 عضو في الميليشيات النظامية. وعن ذلك قال الشعبوي أ. بيشيكونوف: "إن السلطة في الواقع توجد بالكامل في أيدي الحشود".

في 28 أبريل، ومبادرة من المنشفي ن. روستوف، تم تنظيم كونفرانس لممثلين منتخبين من 156 مؤسسة من أجل إنشاء الحرس الأحمر. نص النظام الأساسي، الذي صاغه شليابينيكوف ووافق عليه سوفييت منطقة فيبورغ، التي يسيطر عليها البلاشفة، على أن أهداف هذه القوة الجديدة هي: «الكفاح ضد المؤامرات المعادية للثورة التي تقوم بها الطبقة الحاكمة [و] الدفاع، بواسطة الأسلحة، عن كل مكتسبات الطبقة العاملة»، لكن وفي الوقت نفسه «حماية حياة وأمن وممتلكات جميع المواطنين دون تمييز بسبب الجنس أو السن أو الجنسية». كانت العضوية مفتوحة لأي رجل أو امرأة يمكنه/ها إثبات عضويته/ها في أحد الأحزاب الاشتراكية أو النقابات، وتم انتخابه/ها أو التوصية به/ها في اجتماع عام لزملائه/ها في العمل. كانت الوحدة الأساسية هي فرقة العشرة (ديسياتوك) والتي كان من المفترض أن تجتمع فيما بينها لتشكيل "سوتنيا"، أو فرقة المائة، وكانت عشر فرق من هذه الأخيرة تتجمع لتشكيل كتيبة. كانت القوة بأكملها تحت رقابة سوفييت المنطقة (الذي كان في معظمه تحت رقابة البلاشفة). كان جميع الضباط منتخبين من طرف القواعد.

1: LCW, A Disorderly Revolution, vol. 25, p: 129.

وهكذا اعتبرت الميليشيات العمالية دورها في البداية دورا دفاعيا بحتا. لكن ومن خلال التجربة، أصبح دورها يتحول، بشكل غير محسوس تقريبا، من الدفاع إلى الهجوم، حتى تمكنت بحلول نوفمبر، وتحت قيادة البلاشفة، من أن تطرح مطلب الاستيلاء على السلطة على رأس جدول الأعمال. قدر أحد المحللين المعاصرين أن تلك الميليشيات ضمت في صفوفها، عشية ثورة أكتوبر، ما بين 70.000 و100.000 عضو. ومن بين هؤلاء كان هناك ما يقرب من 15.000 و20.000 عضو في بتروغراد والمنطقة المحيطة بها، وما بين 10.000 و15.000 في موسكو والمنطقة الصناعية الوسطى<sup>1</sup>.

ومع كل يوم يمر كان دور القادة الإصلاحيين للسوفييتات ينكشف أكثر فأكثر. أصدر المؤتمر الأول لسوفييتات عموم روسيا، الذي عقد في بتروغراد في الفترة من 03 يونيو إلى 24 يونيو، قرارا يتعهد فيه بتقديم الدعم الكامل للحكومة. كان البلاشفة يمثلون أقلية صغيرة في المؤتمر: 105 مندوبا، مقابل 533 مندوبا للمناشفة والاشتراكيين الثوريين. لكن المزاج في المصانع والحاميات العسكرية بالعاصمة كان يصير أكثر فأكثر راديكالية. وقد مكنت تلك الأعداد الكبيرة من المنخرطين الجدد في الحزب البلشفي من إيصال هذا الشعور إلى داخل الحزب. في أوائل يونيو، وتحت تأثير هذه الحالة المزاجية، قررت المنظمة العسكرية البلشفية تنظيم مظاهرة مسلحة في بتروغراد لتتزامن مع انعقاد المؤتمر. كان الغرض من المظاهرة هو ممارسة الضغط على المؤتمر، لكنها كانت أيضا استجابة للضغط المتزايد من قبل العمال الطليعيين في بتروغراد والذين كانوا يتوقون للاستيلاء على السلطة. لو أن البلاشفة لم يتقدموا لقيادة العمال آنذاك، لكانت كل أنواع العناصر اليسارية المتطرفة الفوضوية قد استغلت الوضع لإثارة مواجهات مسلحة سابقة لأوانها مع نتائج كارثية.

وجه عمال بتروغراد رسالة واضحة للزعماء السوفييتات: «استولوا على سلطة الدولة! اقطعوا مع البرجوازية! أنهوا الائتلاف وقوموا بالاستيلاء على السلطة بأيديكم!»، لكن قادة السوفييتات البرجوازيين الصغار لم يكونوا يريدون السلطة، كما أن حركة عمال بتروغراد أربعتهم. كانوا مقتنعين بأن البلاشفة يستخدمون المظاهرة المسلحة وسيلة للاستيلاء على السلطة. لكن هذه الفكرة كانت بعيدة كل البعد عن تفكير لينين في تلك المرحلة. وعلى العكس من ذلك، كان البلاشفة يحاولون كبح جماح عمال بتروغراد، مدركين أن وقت المواجهة الحاسمة لم يحن بعد. صحيح أن العمال كان بإمكانهم الاستيلاء على السلطة في بتروغراد في يونيو. لكن المقاطعات لم تكن قد وصلت إلى مستوى العاصمة. كانت جماهير العمال والفلاحين ستفسر ذلك بأنه هجوم على حكومتهم "ها"، وكانت ستلتف حول قادة السوفييتات الذين ما كانوا ليترددوا في إغراق الحركة في الدماء. كانت الثورة الروسية ستنتهي بهزيمة بطولية، مثلما كان حال كومونة باريس. لكن لينين لم يكن ينوي السير في هذا الطريق.

وكرر فعل شن قادة السوفييتات المدعورون حملة وحشية ضد المظاهرة المرتقبة. وبما أن البلاشفة فهموا ما يعنيه ذلك، فقد قرروا التراجع وتم إلغاء المظاهرة. لقد كانوا ما يزالون أقلية صغيرة داخل المؤتمر، وتصرفوا على ذلك الأساس. كانت المهمة الرئيسية ما تزال هي كسب الأغلبية داخل السوفييتات من خلال العمل الصبور والدعاية والتحرير. لم يطرح الحزب نهائيا مسألة الاستيلاء على السلطة عندما كان ما يزال أقلية صغيرة. وقد تبينت صحة قرار البلاشفة بتنظيم تراجع تكتيكي من خلال الأحداث التي وقعت بعد ذلك.

لرد على إلغاء مظاهرة البلاشفة، دعا الزعماء الإصلاحيون إلى مظاهرة "رسمية" خاصة بهم، وتلقوا صدمة حياتهم. في 01 يوليو، تدفقت الجماهير على شوارع بتروغراد استجابة لدعوة القادة السوفييتات، لكنهم حملوا في أيديهم لافتات بشعارات بلشفية: فلتسقط المعاهدات السرية! فلتسقط سياسة الهجمات الإستراتيجية! من أجل سلام مشرف! فليسقط الوزراء الرأسماليون العشرة! وكل السلطة للسوفييتات!

لم تكن في المظاهرة بأكملها سوى ثلاث لافتات تعبر عن الثقة في الحكومة المؤقتة: واحدة لفوج من القوزاق، وواحدة لمجموعة بليخانوف الصغيرة، وواحدة للبوند. لقد أثبتت هذه المظاهرة ليس للقادة الإصلاحيين فحسب، بل وأيضا للبلاشفة أنفسهم، بأنهم في بتروغراد أقوى بكثير مما كانوا يتصورون.

بذل لينين وتروتسكي، عندما كانا ما يزالان أقلية، قصارى جهدهما لكبح جماح العمال والجنود من أجل تجنب مواجهة سابقة لأوانها مع الدولة. كان كل تركيزهما منصبا على التحريض والدعاية السلميين. لم يكن هذا بالأمر السهل، حيث كثيرا ما تعرضا لغضب تلك القطاعات من العمال التي تقدمت أكثر من بقية الطبقة. وقد تعرضا لتهمة الانتهازية بسبب عدم طرحهما لمسألة الانتفاضة المسلحة على رأس جدول الأعمال. كان موقفهما من مثل تلك الانتقادات هو التجاهل. لقد كانا يدركان أن المهمة الأكثر

1: J.L.H. Keep, *The Rise of Social Democracy in Russia*, pp: 91 and 95.

إلحاحا هي كسب أغلبية العمال والجنود الذين ما زالوا تحت تأثير المناشفة والاشتراكيين الثوريين. كان ذلك هو الهدف الحقيقي من وراء شعار "كل السلطة للسوفييتات". وقد حافظ لينين على هذا الموقف حتى يوليو، عندما دعا إلى التخلي عنه لصالح شعار "كل السلطة للجان المصانع".

ألقى لينين في مؤتمر السوفييتات، خطابا يلخص كل منهجيته في مسألة كسب العمال داخل السوفييتات. لم يتضمن خطابه أي أثر للاتهامات أو الشتائم، بل تضمن نداء بنبرة صبورة إيجابية للعمال، يأخذ في الاعتبار أوهامهم في القادة الإصلاحيين، لكنه في الوقت نفسه يقول الحقيقة كما هي. لقد نبه إلى أنه لا يوجد سوى اختياران ممكنان: «إما هذا الخيار أو ذلك: إما الحكومة البرجوازية المعتادة، وفي هذه الحالة فإن الفلاحين والعمال والجنود وأعضاء السوفييتات الآخرين سيكونون عديمي الجدوى، وبالتالي إما سيتم سحقهم على يد الجنرالات، الجنرالات المعادين للثورة، الذين يسيطرون على القوات المسلحة ولا يأبهون بخطب الوزير كيرينسكي الرنانة، أو أنهم سيتعرضون لميتة مذلة. ليس لديهم خيار آخر. فلكي تستمر هذه المؤسسات في الوجود لا يمكنها لا التراجع ولا الوقوف ساكنة، ليس أمامها إلا مواصلة التقدم»<sup>1</sup>.

ثم وجه انتباهه إلى قضية الحرب الملهمة. كان تحليله للوضع واضحا للغاية، ورسالته مباشرة، لدرجة أنه لم يكن من الممكن ألا تجد لها صدى عند المندوبين، على الرغم من أنهم كانوا في أغلبهم، آنذاك، مؤيدين للمناشفة والاشتراكيين الثوريين. وبدون أي أثر للأساليب البلاغية أو الديماغوجية، وبقوة المنطق الحديدي، شَرَحَ لينين بلا رحمة كل الكلام الدبلوماسي لإظهار المصالح الطبقيّة التي تكمن تحته، حيث قال: «يواصل الرأسماليون نهب ممتلكات الشعب. الحرب الامبريالية ما زالت مستمرة. ومع ذلك فإنهم يعدوننا بالإصلاحات، والإصلاحات، والمزيد من الإصلاحات، التي لا يمكن تحقيقها على الإطلاق في ظل الظروف الحالية. لأن الحرب تسحق وتحدد كل شيء. لماذا لا تتفوق مع أولئك الذين يقولون إن الحرب لا تشن من أجل الأرباح الرأسمالية؟ ما هو المعيار؟ المعيار هو، أولا وقبل كل شيء، مسألة من هي الطبقة الموجودة في السلطة، من هي الطبقة التي ما زالت مسيطرة، من هي الطبقة التي ما زالت تجني مئات الآلاف من الملايين من العمليات المصرفية والمالية. إنها نفس الطبقة الرأسمالية، وبالتالي فإن الحرب ما تزال حربا إمبريالية. لم تغير لا الحكومة المؤقتة الأولى، ولا الحكومة الجديدة بمشاركة الوزراء شبه الاشتراكيين، أي شيء في جوهر المسألة. المعاهدات السرية ما زالت سرية. وروسيا تقاتل من أجل المضايق وتقاتل من أجل مواصلة سياسة ليخوف في بلاد فارس، وهلم جرا.

أعلم أنكم لا تريدون ذلك، أن معظمكم لا يريدون ذلك، وأن الوزراء لا يريدون ذلك، لأنه لا يمكن لأحد أن يريد ذلك، لأنه يعني ذبح مئات الملايين من الناس. لكن خذوا الهجوم الذي يتحدث عنه كثيرا المليونكوفيون والملاكوفيون. إنهم يعرفون تمام المعرفة ماذا يعني ذلك. إنهم يعلمون أن ذلك مرتبط بمسألة السلطة، بمسألة الثورة. يقال لنا إنه يجب علينا التمييز بين القضايا السياسية والاستراتيجية. إنه من السخيف طرح هذه المسألة أصلا. إن الكاديت يفهمون تماما أن المسألة المطروحة للنقاش هي مسألة سياسية.

من الافتراء القول إن الكفاح الثوري من أجل السلام الذي بدأ من الأسفل قد يؤدي إلى معاهدة سلام منفصلة. إن الخطوة الأولى التي يجب أن نتخذها إذا كنا في السلطة هي إلقاء القبض على الرأسماليين الكبار وقطع كل خيوط مؤامراتهم. بدون القيام بذلك سيبقى كل الكلام عن السلام دون إلحاقات أو تعويضات كلاما بدون معنى على الإطلاق. ستكون خطوتنا الثانية هي أن نعلن لجميع الشعوب فوق رأس حكوماتهم إننا نعتبر جميع الرأسماليين لصوصا: بدءا من تيريشنكو، الذي ليس أفضل من مليونكوف، بل فقط أقل غباء منه بقليل، وكذا الرأسماليين الفرنسيين والرأسماليين البريطانيين، وكل الآخرين.

لقد تورطت جريدتكم إيزفيسستيا في حالة من التشوش وتقترح الحفاظ على الوضع الراهن بدلا من السلام دون إلحاقات وتعويضات. إن فكرتنا عن السلام "بدون إلحاقات" مختلفة، حتى مؤتمر الفلاحين اقترب من الحقيقة عندما تحدث عن جمهورية "فيدرالية"، وبذلك عبر عن فكرة أن الجمهورية الروسية لا تريد قمع أي أمة، سواء بالطريقة الجديدة أو القديمة، ولا ترغب في إخضاع أي أمة، لا فنلندا ولا أوكرانيا، واللذان يتم خلق صراعات غير مقبولة وغير محتملة معهما. إننا نريد جمهورية روسيا واحدة غير مقسمة وحكومة ثابتة. لكنه لا يمكن تأمين حكومة ثابتة إلا بالاتفاق الطوعي لجميع الشعوب المعنية. إن "الديمقراطية الثورية" كلمة عظيمة، إلا أنه يتم تطبيقها على حكومة تتسبب بأخطائها في تعقيد مشكلة أوكرانيا وفنلندا، اللتان لا تريدان الانفصال. إنهما تقولان فقط: "لا توجّلوا تطبيق المبادئ الأساسية للديمقراطية حتى الجمعية التأسيسية!".

1: LCW, *First All-Russia Congress of Soviets*, vol. 25, p: 18.

لا يمكن إبرام معاهدة سلام بدون إلحاقات أو تعويضات حتى تتخلوا عن الإلحاقات التي قمتم بها. إنه أمر مثير للسخرية، إنها مهزلة، كل عمال أوروبا يضحكون علينا، قائلين: إنكم تتحدثون ببلاغة شديدة وتدعون الشعوب إلى الإطاحة برؤسمايهم، لكنكم ترسلون رؤسمايكم إلى الوزارة. اقبضوا عليهم، افضحوا حيلهم، اكشفوا مؤامراتهم! لكنكم لا تقومون بذلك رغم امتلاككم لمنظمات قوية لا يمكن مقاومتها. لقد مررتم من تجربة 1905 و1917. وتعلمون أن الثورة لا تصنع تحت الطلب، وأن الثورات في البلدان الأخرى قد تمت بطريقة الانتفاضة الشاقة الدموية، وأنه لا توجد في روسيا أي جماعة أو طبقة، قد تقاوم سلطة السوفييتات. في روسيا، وبفضل ظروف استثنائية، يمكن لهذه الثورة أن تكون ثورة سلمية. وإذا ما قامت هذه الثورة اليوم أو غدا، باقتراح السلام على جميع الشعوب عن طريق القطع مع كل الطبقات الرأسمالية، فإن كلا من فرنسا وألمانيا، أي شعبيهما، سيقبلان فوراً لأن هذين البلدين قد هلكا، ولأن موقف ألمانيا ميؤوس منه، ولأنه لا يمكنها أن تنقذ نفسها ولأن فرنسا... [رئيس الجلسة: "وقتك قد انتهى"] سأنتهي في نصف دقيقة. (ضجة؛ صيحات من الجمهور تطالب بالسماح للمتحدث بمواصلة كلامه؛ احتجاجات وتصفيق.)».

من المعبر أن الأغلبية قررت منح المتحدث مزيداً من الوقت، فواصل لينين خطابه، حيث قام بفضح الطبيعة الإمبريالية للحرب، لكنه أخذ في الاعتبار النزعة "الدفاعية النزيهة" لجمهوره، فعمل على تفسير الانهزامية الثورية بلغة يمكن أن تلقى صدى لها بين العمال والجنود. قال: نحن لسنا سلميين، نحن على استعداد للقتال ضد القيصر [الألماني]، الذي هو أيضاً عدونا. لكننا لا نثق بالرؤسماييين. تخلصوا من الوزراء الرأسماليين العشرة! اجعلوا القادة السوفييت يستولون على السلطة، عندها سنشن حرباً ثورية ضد الإمبريالية الألمانية، في الوقت الذي سنحارب من أجل مد الثورة إلى ألمانيا وجميع القوى المتحاربة الأخرى. هذه هي الطريقة الوحيدة للحصول على السلام:

«عندما سنأخذ السلطة بين أيدينا، سننقيد الرأسماليين، عندها لن تكون الحرب من نوع الحرب التي تدور الآن، لأن طبيعة الحرب تحدها الطبقة التي تخوضها، وليس ما هو مكتوب على الورق. يمكنكم أن تكتبوا على الورق أي شيء تريدونه، لكن طالما بقيت للطبقة الرأسمالية أغلبية داخل الحكومة، فإن الحرب ستبقى حرباً إمبريالية بغض النظر عما تكتبونه، وبغض النظر عن بلاغتك، وبغض النظر عن عدد الوزراء شبه الاشتراكيين الذين لديكم...»

ما تزال الحرب حرباً إمبريالية، ومهما كانت رغبتكم في السلام، ومهما كان صدق تعاطفكم مع الشعب العامل ورغبتكم في السلام -أنا مقتنع تماماً أنها صادقة إلى حد بعيد- فإنكم بلا حول ولا قوة، لأنه لا يمكن إنهاء الحرب إلا بالمزيد من دفع الثورة إلى الأمام. عندما بدأت الثورة في روسيا، بدأ كذلك من الأسفل صراع ثوري من أجل السلام. إذا أخذتم السلطة بين أيديكم، وإذا ما تم نقل السلطة إلى المنظمات الثورية لاستخدامها في محاربة الرأسماليين الروس، فإن الشعوب العاملة في بعض البلدان سيصدقونكم ويمكنكم اقتراح السلام. بعد ذلك سيصير سلامنا مضموناً على الأقل مع طرفين، مع البلدين اللذان ينزفان وقصيتهما ميؤوس منها: ألمانيا وفرنسا. وإذا أجرنا الظروف آنذاك على شن حرب ثورية -لا أحد يدري، ونحن لا نستبعد هذا الاحتمال- سوف نقول: "نحن لسنا مسلمين، نحن لا ننبذ الحرب عندما تكون الطبقة الثورية في السلطة وتكون قد قامت بالفعل بحرمان الرأسماليين من أي فرصة للتأثير على الأمور من خلال مفاصلة الخراب الاقتصادي الذي مكّنهم من جني مئات الملايين". إن الحكومة الثورية ستشرح لكل الأمم بالتأكيد أنه يجب أن تكون كل الأمم حرة، وذلك بالأحرى الأمانة من أجل الحفاظ على الأناضال واللورين، كما أنه يجب على الأمة الفرنسية ألا تقاوم من أجل مستعمراتها. لأنه إذا قاومت فرنسا من أجل مستعمراتها، فإن روسيا تمتلك خيفا وبخاري، اللتان هما أيضاً بمثابة مستعمرتين. عندها سيبدأ تقسيم المستعمرات. كيف سيتم تقسيمها؟ على أي أساس؟ على أساس موازين القوى. لكن موازين القوى تغيرت. إن الرأسماليين في وضع حيث مخرجهم الوحيد هو الحرب. وعندما ستستولون على السلطة الثورية، سيكون بمقدوركم ضمان السلام بطريقة ثورية، أي عن طريق توجيه نداء ثوري إلى جميع الأمم وشرح تكتيكاتكم من خلال إعطاء المثال بأنفسكم!¹.

إن الأمر الأكثر إثارة للدهشة هنا هو الغياب التام لصيغة لينين السابقة حول "الانهزامية الثورية"، كما أنه لا توجد أي إشارة إلى الحرب الأهلية ولا دعوة الجنود لتحويل حراهم ضد ضباطهم، وبالتأكيد لا تلميح إلى أن هزيمة روسيا ستكون "أهون الشرين"! هذا التغيير يعكس تحولا مهما في تفكير لينين بخصوص التكتيكات منذ فبراير. إن مسألة الدفاع عن الوطن مقابل الانهزامية الثورية، التي كثيرا ما طرحها بعبارات شديدة الوضوح في الفترة السابقة، تبين أنها ليست بتلك البساطة. إن موقف لينين من الحرب لم يتغير من حيث الجوهر بالطبع. لم يكن تغيير النظام من الاستبداد القيصري إلى الجمهورية البرجوازية الديمقراطية يعني أن الحرب من جانب روسيا صارت أقل إمبريالية من ذي قبل. لكنه عندما عاد إلى روسيا وجد، كما قال، إلى جانب الحشد الاشتراكي الشوفيني

المعتاد، فئة واسعة من العمال النزيهين من أنصار الدفاع عن الوطن داخل السوفييتات والذين كان عليهم أن يتعلموا عن طريق التجربة والحجة ليفهموا الطبيعة الرجعية للحرب. إن مجرد تكرار الشعارات القديمة كان سيعني فصل البلاشفة تماما عن الطبقة العاملة. كانت هناك حاجة إلى مقارنة جديدة، مما يعكس الفرق بين الكتابة والتحدث لمجموعات صغيرة من نشطاء الحزب، وبين مخاطبة الجماهير الواسعة من العمال الذين استيقظوا للتو على الحياة السياسية.

## أيام يوليو

استقبل القادة الإصلاحيون للسوفييتات تلك النداءات بأذان صماء. وكان جين المناشفة والاشتراكيين الثوريين ورفضهم تولى السلطة، يعني أن المبادرة ستنتقل حتما إلى معسكر الردة الرجعية. النظام القيصري لم يكن قد هزم بشكل حاسم، على الرغم من التغيير الذي كان قد حدث في شهر فبراير. وخلف ستار الجبهة الشعبية الروسية (الحكومة المؤقتة)، كانت الطبقة الحاكمة تعيد تجميع صفوفها وتستعد للانتقام. وكانت النتيجة هي ردة "أيام يوليو" الرجعية. كانت النتيجة هي هجوم فاتح يوليو. ففي نفس اليوم الذي تظاهر فيه العمال والجنود في شوارع بتروغراد مطالبين بالسلام ونشر المعاهدات السرية، شن كيرنسكي هجوما جديدا. نظمت مظاهرات وطنية "عفوية" في شارع نيفسكي، حيث تنافست السيدات والسادة البرجوازيين الأنيقين مع الضباط والصحفيين في الهجوم على البلاشفة. وعاد الرجعيون يزحفون مرة أخرى بعد أن استعادوا شجاعتهم بأبناء الهجوم.

في مؤتمر السوفييتات، احتجت الأقلية البلشفية بشدة على ذلك الهجوم، مشيرة إلى أنه سيؤدي إلى تقوية العناصر الرجعية داخل القوات المسلحة، التي ستستفيد من الموقف لمحاولة إعادة فرض الانضباط واستعادة السيطرة. وأن الثورة ستقع في خطر كبير. كتب لينين قائلا: «إن الهجوم، مهما كانت نتائجه من وجهة النظر العسكرية، سيعني تقوية المعنويات الإمبريالية سياسيا، وتعزيز المشاعر الإمبريالية، وترسيخ الافتتان بالإمبريالية. وهذا يعني تقوية موقف قادة الجيش القدامى الذين لم يتغيروا ("شن الحرب كما كنا نشنها حتى الآن")، وتعزيز الموقف الرئيسي للثورة المضادة»<sup>1</sup>.

وقد وجدت هذه التحذيرات تأكيدا لها في شخص الجنرال كورنيلوف. لو نجح الهجوم لكان سيشرح القوى الرجعية ويدفع بفئة من البرجوازيين الصغار والفلاحين نحو معسكر البرجوازية، ويعزل البروليتاريا الثورية. أما إذا فشل، فقد يؤدي إلى الانهيار التام للجيش، مما سينتج عنه إحباط معنويات الجماهير. وقد كان هذا الاحتمال هو ما حدث فعلا.

في 02 يوليو اندلعت أزمة وزارية حول المسألة الأوكرانية، والتي كشفت عن عجز الحكومة المؤقتة المطلق عن حل القضية الوطنية. صارت ضرورة كسر الائتلاف وطرد الوزراء البرجوازيين أكثر وضوحا. لكن كلما ازدادت الأزمة تعمقا، كلما تمسك الوزراء "الاشتراكيون" بالليبراليين البرجوازيين. كان كيرنسكي يتحرك بسرعة نحو اليمين وأصبح من المستحيل تمييزه عن وزراء حزب الكاديت. كان القادة الإصلاحيون مرعوبين من الجماهير. وقد زادتهم مظاهرة يونيو رعبا، وكلما كانوا يرون زيادة تأثير البلاشفة، وكلما كانوا يرون تزايد الخطر على موقفهم من جهة اليسار، كلما تشبثوا بحماس باليمين. بينما قام البلاشفة، من جانبهم، بتكثيف حملتهم للمطالبة بأن ينفصل المناشفة والاشتراكيون الثوريون عن الرأسماليين وأن يأخذوا السلطة بأيديهم. كان موقف البلاشفة هذا هو الطريقة الوحيدة في الواقع لكي يتمكنوا من كسب الجماهير. حتى أن لينين أخبر قادة السوفييتات بأنهم إذا استولوا على السلطة، سيضمن لهم البلاشفة أن النضال من أجل السلطة سيقصر على النضال السلمي لكسب الأغلبية داخل السوفييتات. يشرح تروتسكي ذلك قائلا: «بعد كل تجارب التحالف، صار يبدو أنه لا يمكن أن يكون هناك سوى مخرج واحد، أي القطع مع الكاديت وتشكيل حكومة سوفياتية بحتة. كان من شأن مطلب تشكيل حكومة سوفياتية في ظل موازين القوى التي كانت سائدة داخل السوفييتات آنذاك أن يعني، من وجهة النظر الحزبية، تركيز السلطة في أيدي الاشتراكيين الثوريين والمناشفة. كنا ندفع بشكل مقصود من أجل تحقيق هذه النتيجة، لأن إعادة انتخاب السوفييتات بشكل متكرر وفرت الآلية اللازمة لضمان تعبير صادق بما فيه الكفاية عن مزاج التجذر المتزايد لجماهير العمال والجنود. لقد توقعنا أن انهيار الائتلاف مع البرجوازية سوف يؤدي بالضرورة إلى تمكين التيارات الراديكالية من أن تكتسب الهيمنة داخل السوفييتات. وفي مثل هذه الظروف سوف يتحول نضال البروليتاريا من أجل السلطة بشكل طبيعي إلى نضال داخل المنظمات السوفياتية، وسيستمر بطريقة سلمية».

كان الضغط من أجل القيام بتحريك حاسم يتصاعد من جانب العمال والجنود في بتروغراد. ومرة أخرى دعا البلاشفة إلى تنظيم مظاهرة مسلحة للضغط على القادة السوفياتيين. يشرح تروتسكي دوافع البلاشفة قائلا: «كان ما يزال هناك بعض الأمل في أن تؤدي

1: LCW, *An Alliance to Stop the Revolution*, vol. 25, p: 53.

مظاهرة الجماهير الثورية إلى انهيار العناد العقائدي لأنصار الائتلاف وتجبرهم على أن يدركوا أخيراً أنهم لا يستطيعون البقاء في السلطة إلا إذا قطعوا بشكل كامل مع البرجوازية. وعلى عكس كل ما قيل وكتب في الصحافة البرجوازية آنذاك، لم تكن لدى حزبنا أي نية في الاستيلاء على مقاليد السلطة عن طريق تمرد مسلح. لقد كانت مجرد مظاهرة ثورية اندلعت بشكل عفوي على الرغم من أنها استرشدت سياسياً بنا»<sup>1</sup>.

كان الجنود هم الأكثر سخطاً. استقبل فوج المدفعية الأول، الذي يتمركز في حي فيبورغ العمالي، الأخبار التي تشير إلى أنه سيتم إرسال 500 من أفراد طاقم المدفعية إلى الجبهة بغضب عارم. عندها استخلص أعضاء الفوج، الذي كان تأثير البلاشفة عليهم قوياً، النتيجة بأنفسهم: لا بد من الإطاحة بالحكومة المؤقتة. تعاطف العديد من البلاشفة - وخاصة منهم أعضاء المنظمة العسكرية - مع هذا الهدف. يميل العسكريون دائماً إلى الإفراط في تقدير قوة السلاح. لكن اللجنة المركزية البلشفية عارضت بشدة أي محاولة للاستيلاء على السلطة في بتروغراد في تلك المرحلة. لم تكن الأقاليم الأخرى جاهزة بعد، وبالتالي فإن الاستيلاء على العاصمة سيكون بمثابة انقلاب. قال لينين: «يمكن لخطوة واحدة خاطئة من جانبنا أن تدمر كل شيء. إذا تمكنا الآن من الاستيلاء على السلطة، فمن السذاجة الاعتقاد بأننا سنكون قادرين على الاحتفاظ بها... ما زلنا أقلية ضئيلة حتى في سوفيتات العاصمة، ناهيك عن بقية السوفيتات الأخرى... هذه حقيقة أساسية، وتحدد سلوك حزبنا... ينبغي ألا نستبق الأحداث. إن الوقت في صالحنا»<sup>2</sup>.

لكن البلاشفة لم يتمكنوا من منع الانفجار الذي كان على وشك الحدوث. ففي 03 يوليو، اندفع الجنود والبحارة والعمال، الغاضبين من سعي الحكومة لإرسالهم ليكونوا لحماً للمدافع في الجبهة، إلى شوارع العاصمة. كانت تلك انتفاضة عفوية شارك فيها عدد كبير من الناس دون هدف أو استراتيجية واضحة. بدأ القادة الإصلاحيون في حالة ذهول عندما حاصر حشد كبير من العمال والبحارة قصر توريد حيث كانت تجتمع اللجنة التنفيذية للسوفييت. جاءت المظاهرة بمبادرة من أسفل، من عمال وجنود بتروغراد، الذين أغضبهم تردد قادة السوفييتات، والذين زاد من سخطهم إعلان الحكومة عن هجوم يوليو. لم يسع البلاشفة آنذاك للاستيلاء على السلطة بل بذلوا قصارى جهدهم لكبح جماح الجماهير، خوفاً من عزل بتروغراد عن بقية روسيا.

كتب لونا تشارسكي إلى زوجته في اليوم الموالي: «لقد تطورت الحركة بشكل عفوي. وقد بثت المئات السود ومثيرو الشغب والعملاء المندسون واللاسلطويون واليائسون قدراً كبيراً من الفوضى والعبث في المظاهرة»<sup>3</sup>. حاول اللاسلطويون وأعضاء المئات السود دفع المتظاهرين إلى مهاجمة المبنى واعتقال قادة السوفييت، وكانت هناك محاولة فعلية لإلقاء القبض على القيادي الاشتراكي الثوري تشيرنوف. مكن هذا الحدث الصحافة الرجعية لاحقاً من وصف مظاهرة يوليو بكونها محاولة انقلاب قام بها البلاشفة ضد الثورة والأغلبية السوفياتية. لا توجد ذرة حقيقة في هذه المزاعم. حيث أن اللجنة المركزية البلشفية كانت قد اجتمعت على الساعة الرابعة بعد زوال يوم 03 يوليو وقررت أن تفعل كل ما هو ممكن لكبح الحركة التي كانت على وشك التحول إلى انتفاضة شاملة. تم إرسال المندوبين على عجل إلى المصانع والثكنات لإقناع الجماهير بالعدول عن الخروج إلى الشوارع، لكن بعد فوات الأوان. كانت الحركة قد بدأت ولم يكن هناك شيء يمكنه أن يوقفها.

وفي وقت متأخر من ليلة ذلك اليوم، قررت اللجنة المركزية، مع لجنة بتروغراد والمنظمة العسكرية، المشاركة في المظاهرة، مراعاة للحالة المزاجية للجماهير، وذلك من أجل منحها طابعاً منظماً وسلمياً. كان لينين آنذاك في عطلة نقاهة لاستعادة قواه بعد الإرهاق الذي عاناه خلال الأشهر القليلة الماضية. لكنه بعد أن علم بالتحول المفاجئ للأحداث، سارع إلى العاصمة حيث وجد حالة من الفوضى المنذر بالخطر. في 04 يوليو شارك عدد كبير من الناس في المظاهرات. احتشد أكثر من نصف مليون في شوارع بتروغراد دون دعوة ولا هدف ولا قيادة. كان ذلك العدد القليل من اللاسلطويين في بتروغراد مسرورين وكان شعارهم: «الشوارع ستنظمننا!». لكن الأمور لم تكن بهذه البساطة، كما أظهرت الأحداث اللاحقة.

بحلول 04 يوليو، اتخذت المظاهرة طابعاً ضخماً ومهدداً. وكان البلاشفة يبذلون كل قواهم لإبقاء الأمور تحت السيطرة. يتذكر تروتسكي ذلك قائلاً: «قمنا، نحن البلاشفة، باستقبال كل مجموعة جديدة من المتظاهرين، سواء في الشارع أو في القصر، بالخطابات الثورية ندعوهم إلى الهدوء مؤكدين لهم أنه ما دامت الجماهير في مزاجها الحالي، سيكون أنصار التسويات غير قادرين على تشكيل حكومة ائتلافية جديدة. كان بحارة كرونشتادت هم الأشد عزمًا، وكان من الصعب علينا أن نبقيهم داخل حدود مظاهرة عادية».

1: L. Trotsky, *The Russian Revolution*, in *The Essential Trotsky*, pp: 35-36 and 37.

2: A. Rabinowitch, *Prelude to Revolution: The Petrograd Bolsheviks and the July 1917 Uprising*, pp. 117-8 and 121-2.

3: O. Figes, *A People's Tragedy: The Russian Revolution 1891-1924*, p: 424.



تم إرسال تروتسكي لإنقاذ القيادي الاشتراكي الثوري تشيرنوف الذي "اعتقل" من قبل بحارة كرونشتادت. خلال "اعتقاله"، هز أحد العمال الغاضبين قبضته في وجه تشيرنوف وصاح فيه: "عليك أن تستولي على السلطة، يا ابن العاهرة، عندما تسلم إليك!". ويتذكر تروتسكي مشاعر الشك والتجهم التي حاصرتة من جميع الجوانب وهو يشق طريقه عبر صفوف البحارة المتمردين. كانوا ينتظرون من تروتسكي أن يعطيهم الأمر بالاستيلاء على السلطة، لكنه بدلا من ذلك طلب منهم إطلاق سراح سجينهم. صرخ البحارة بغضب في وجه تروتسكي، الذي شعر أنه كان من شأن أدنى كلمة خاطئة أو عمل خاطئ أن يعرضه للاعتداء أو حتى القتل. في الساعة السابعة مساء، اقتحم حشد من عمال مصنع بوتيلوف، المسلحين والغاضبين، اجتماعا للقادة السوفيات المرعوبين. صعد عامل يرتدي زيا أزرق اللون المنصة، ولوح بندقيته في الهواء، وصاح في النواب: «أيها الرفاق! كم من الوقت يجب أن نتحمل نحن العمال الخيانة؟ أنتم هنا جميعا تناقشون وتجرون الصفقات مع البرجوازية والملاكين العقاريين... أنتم منشغلون بخيانة الطبقة العاملة. حسنا عليكم فقط أن تفهموا أن الطبقة العاملة لن تتحمل ذلك! نحن هنا نمثل 30.000 عامل من مصنع بوتيلوف. وسنواصل طريقنا. كل السلطة للسوفييتات! إننا نتمسك بقوة ببنادقنا! أيها الكيرينسكيون والتسيريتيليون لن نخدعونا!»<sup>1</sup>.

اضطر قادة السوفييت للتفاوض من أجل كسب الوقت، بينما كان كيرنسي يعمل على جلب قوات "موالية" من الجبهة. لكن وصول القوات من الجبهة كان إشارة إلى انطلاق الردة الرجعية. لقد سعى البرجوازيون للانتقام من الخوف الذي عانوا منه. كان الهجوم المضاد من تنظيم قادة السوفييت، الذين استعادوا رباطة جأشهم لحظة وصول فيلق فولهنيان، وأحسوا أنه لم يعد لديهم أي سبب للتفاوض مع المتورطين المزعومين في "التمرد المسلح". تم إعلان البلاشفة "حزبا معاديا للثورة". وقامت قوات القوزاق والشرطة بإطلاق النار على المتظاهرين من أسطح المنازل، مما تسبب في حالة من الذعر. وفي وقت لاحق، عندما وصلت القوات الموالية للحكومة ونزعت سلاح المتمردين، نفثت الطبقة الوسطى سموم غضبها. تعرض العمال للضرب على يد السيدات والسادة المحترمين في شارع نيفسكي. كانت هناك حملة من الغارات والاعتقالات والضرب وحتى القتل. في ليلة 04-05 يوليو، أعطى وزير العدل، ب. ن. بيريفيرجيف، للصحف وثائق تصور لينين كعميل ألماني. وفي ليلة 05 يوليو، تعرض مقر برافدا للتحطيم من قبل القوات الحكومية، ومنعت الصحف البلشفية، وتم إرسال الفيالق المتمردة إلى الجبهة لكي تتعرض للذبح. وفجأة تأرجح البندول بعنف في اتجاه اليمين.

## بعد أحداث يوليو

كشفت مظاهرة يومي 02 و03 يوليو أشياء كثيرة. لقد كشفت أن القادة الإصلاحيين فقدوا بشكل حاسم قاعدتهم في بتروغراد، لكنها كشفت أيضا أن بتروغراد، وكما سبق للبلاشفة أن أكدوا، ليست روسيا، وأن المناشفة والاشتراكيين الثوريين ما زالوا يمتلكون احتياطات ضخمة من الدعم بين العمال والفلاحين في الأقاليم. بل وحتى في بتروغراد لم يكن الجنود على مزاج واحد. فعلى الرغم من أن غالبية الجنود، وخاصة البحارة، كانوا إلى جانب البلاشفة في ذلك الوقت، فإن بعض الوحدات بقيت سلبية أو أنها لم تحدد موقفها. ومع ذلك فإنه لم تكن في بتروغراد أي حامية عسكرية على استعداد للقتال دفاعا عن الحكومة المؤقتة أو حتى القيادة السوفيات.

لكن العمال والجنود لم يخرجوا سالمين بشكل كامل. إذ لا بد دائما من أداء ثمن الأخطاء. سقط مئات القتلى، لكن لو أن البلاشفة لم يضعوا أنفسهم في قيادة المظاهرة من أجل إعطاءها طابعا منظما وسلميا، لسالت وديان من الدماء، وعلاوة على ذلك كان تأثير الحزب على العمال الأكثر تقدما سيتحطم كليا. في بعض الأحيان يكون من الضروري الذهاب مع العمال حتى عندما يكونون مخطئين، لكي يتعلموا بتجربتهم الخاصة ويستخلصوا النتائج الضرورية. كانت تجربة أيام يوليو مؤلمة، لكن العمال تعلموا أن يثقوا في تقديرات البلاشفة الذين حذروهم مسبقا مما سوف يحدث، ثم لم يتخلوا عنهم بل وقفوا إلى جانبهم.

في 02 يوليو، ونتيجة للانقسام الذي حدث داخل الحكومة حول المسألة الأوكرانية، استقال ثلاثة وزراء من الكاديت، تلاهم في وقت لاحق بيريفيرزيف، وفي 07 يوليو استقال رئيس الوزراء الأمير لفوف. اتفق الوزراء المتبقون في الحكومة على تعيين كيرنسي وعهدوا إليه بتشكيل حكومة جديدة - الائتلاف الثاني. لقد أدى الهجوم على اليسار إلى تقوية المعسكر المعادي للثورة الذي بدأ يشعر بأنه يمتلك المبادرة. وبعد قمع الحركة في بتروغراد، شعر البرجوازيون أن الوقت قد حان لـ"استعادة النظام". طالب حزب الكاديت الوزراء الاشتراكيين بقطع علاقاتهم مع السوفييتات، وضرورة سحق الجناح اليساري، في شخص البلاشفة. يقدم أورلاندو

1: Ibid., pp: 38-39 and 431.

فيغز صورة عن مزاج الهستيريا المعادية للبلشفية الذي كان موجودا في ذلك الوقت، حيث يقول: «بحلول صباح يوم 05 يوليو، استولت على العاصمة هستيريا مناهضة للبلشفية. شرعت الصحف اليمينية الصفراء بالنجاح طلبا للدم البلشفي، وصارت تُحْمَلُ «العملاء الألمان» المسؤولة في الهزائم التي كانت تحدث في الجبهة. كما اتهمت البلشفية بأنهم خططوا للانتفاضة لكي تتزامن مع التقدم الألماني. وقد أقر الجنرال بولوفتسوف، الذي كان مسؤولا عن عمليات القمع لأنه كان رئيس الدائرة العسكرية ببتروغراد، بأن الهجوم على البلشفية تضمن «نزعة قوية من معاداة السامية»؛ لكن وبالطريقة المعتادة التي يبرر بها أمثاله من الروس المذابح ضد اليهود قال إن: «اليهود يتحملون المسؤولية، لأن النسبة المئوية لليهود بين القادة البلشفية كانت أقرب من مائة في المائة. وقد كان الجنود منزعجين من رؤية اليهود يتحكمون في كل شيء، والملاحظات التي سمعتها في الثكنات أظهرت بوضوح ما كان الجنود يفكرون فيه»<sup>1</sup>.

وفي اليوم الذي تلا المظاهرات شنت الصحافة حملة هستيرية على لينين و«العملاء الألمان»، في حين أن الاشتراكيين الثوريين والمناشفة، الذين كانوا يعرفون أن تلك مجرد أكاذيب، التزموا الصمت بحسن. لكن تواطؤهم مع الثورة المضادة لم ينته عند ذلك الحد، فقد دعا المناشفة والاشتراكيون الثوريون لينين والقادة البلشفية الآخرين إلى «تسليم أنفسهم إلى العدالة». كانت تلك بمثابة دعوة مفتوحة لهم لكي يضعوا رقابهم تحت مقصلة الجلاد. كان الرجعيون آنذاك يطالبون بالدم.

في 06 يوليو، أصدرت الحكومة أمرا بالقبض على لينين وكامينيف وزينوفيف. بعض الكتاب (ومن بين أحدثهم نجد أورلاندو فيغز) يحاولون اتهام لينين بالجن. هذا هراء. تظهر التقارير أن لينين كان قد قرر تسليم نفسه، لكنه تراجع عن ذلك بعد النقاش مع بقية قادة الحزب الآخرين. في اليوم التالي لإصدار أمر الاعتقال، وعلى إثر مدهامة الشرطة لبيت شقيقته، كتب لينين مذكرة موجهة إلى اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييت، يطلب منها فتح تحقيق وعرض عليها تقديم نفسه للسلطات، شريطة أن تقر السلطة التنفيذية للسوفييت باعتقاله، إذ قال: «الآن فقط، في الساعة 15:15، من يوم 07 يوليو، علمت أنه قد جرت عملية تفتيش في شقتي الليلة الماضية، على الرغم من احتجاجات زوجتي، وذلك على أيدي رجال مسلحين ودون أن يقدموا أي أمر بالتفتيش. إني أسجل احتجاجي على هذا وأطلب من مكتب السوفييت ومن لجنته التنفيذية التحقيق في هذا الانتهاك الصارخ للقانون.

وفي الوقت نفسه أعتقد أنه من واجبي أن أؤكد رسميا وخطيا ما لا يمكن لأي عضو من أعضاء اللجنة التنفيذية المركزية أن يشك فيه، وذلك أنه في حالة إصدار الحكومة أمرا بالقبض علي، وكان ذلك القرار مدعوما من طرف اللجنة التنفيذية للسوفييت، فإني سأقدم نفسي لاعتقالي في المكان الذي تحدده لي اللجنة التنفيذية المركزية.

فلاديمير إيليتش أوليانوف (ن. لينين)، عضو اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييت<sup>2</sup>.

وفي مذكراتها عن لينين تشير كروبسكايا إلى أنه: «جادل بضرورة المثل أمام المحكمة. احتجت ماريا إليشنا [أخت لينين] بحرارة ضد ذلك. قال لي إيليتش: «لقد قررنا غريغوري [زينوفيف] وأنا الظهور، اذهبي وأخبري كامينيف». كان كامينيف يقيم في شقة أخرى ليست بعيدة. نهضت على عجل. فضمني إيليتش وقال لي: «فلنقل وداعا، إذ قد لا نرى بعضنا مرة أخرى»<sup>3</sup>.

حاول أعضاء اللجنة المركزية إقناع لينين بأن ذلك غير وارد. وما جعل لينين يغير رأيه أخيرا هو قرار اللجنة التنفيذية السوفياتية إلغاء تحقيقها في أحداث يوليو. عندما ذهب أوردجونيكيدزه ونوغين إلى قصر تورايد يحملان رسالة لينين وللتفاوض بشأن شروط اعتقاله، رفض ممثل السوفييت تقديم أي تأكيدات لهما، واكتفى بوعدهما بأنه «سيعمل ما في وسعه». ووفقا لأوردجونيكيدزه، فحتى المعتدل نوغين «كان غير مرتاح لمصير لينين لو أنه سلم نفسه». كان قد أصبح من الواضح آنذاك أن السوفييت لم يعد له أي نفوذ على الحكومة وأن القضاء، الذي كان ما زال تحت سيطرة العناصر القيصرية، سيكون بمثابة خادم مطيع للثورة المضادة. وقد أوضح لينين ذلك في خطاب كتبه للنشر، حيث قال: «لقد غيرنا رأينا بشأن تسليم أنفسنا للحكومة لأنه... من الواضح أن تهمة التجسس ضد لينين وغيره قد تم اختلاقها من طرف قوى الثورة المضادة بشكل متعمد... في هذا الوقت لا يمكن أن تكون هناك أي ضمانات محاكمة عادلة. شكلت اللجنة التنفيذية المركزية... لجنة للتحقيق في تهمة التجسس لكن هذه اللجنة تم حلها تحت ضغط قوى الثورة المضادة... إن تسليم أنفسنا إلى السلطات الآن سيكون بمثابة وضع أنفسنا في أيدي الميلوكوفيين والأليكسينسكيين والبيريفيرزييفين، أي في أيدي أشرس أعداء الثورة والذين ليست الاتهامات الموجهة ضدنا بالنسبة لهم سوى حلقة في الحرب الأهلية»<sup>4</sup>.

1: Ibid., p: 433.

2: LCW, To the Bureau of the Central Executive Committee, vol. 43, p: 636.

3: N.K. Krupskaya, Reminiscences of Lenin, p: 366.

4: A. Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, p: 34

في النهاية تمكن قادة الحزب من إقناع لينين بالاختباء. كان ذلك هو الموقف الصحيح بلا شك. كان لينين أكثر فائدة للثورة وهو على قيد الحياة مما لو قتل أو اعتقل. صحيح أن قسما من الحزب كان يؤيد ذهاب لينين إلى المحكمة، حيث يقوم بالدفاع عن نفسه ضد التهم التي لفتت له، كما كان تروتسكي قد فعل في عام 1906. لكن تلك الفكرة كانت جنونية. وفي وقت لاحق، خلصت أغلبية مؤتمر الحزب السادس، الذي اجتمع في بتروغراد في نهاية يوليو، إلى القرار الصحيح وقررت أن لينين لن يصل أبدا إلى قاعة المحكمة، إذ كانت قوات الثورة المضادة ستقتله برصاصة قاتلة، «أثناء محاولة فرار». وحتى لو كان ذلك مجرد احتمال، فإنه لم يكن للحزب أن يخاطر بحياة لينين بتلك الطريقة.

لا شك في أن حياة لينين كانت في خطر في تلك اللحظة. كانت الثورة المضادة قد انتقلت إلى الهجوم. في سوفييت بتروغراد قال أحد النواب المناشفة: «إن المواطنين الذين يبدو عليهم أنهم عمال أو يشتبه في كونهم من البلاشفة هم معرضون بشكل دائم لخطر الضرب». وأضاف آخر إن: «أشخاصا أذكيا للغاية يقومون بالتحريض على أفعال معادية للسامية»<sup>1</sup>. تعرضت العديد من مقرات الحزب البلشفي للمداهمة والتحطيم. حدث ذلك لمطبعة تروود، التي كانت تطبع الكثير من الأدبيات لصالح النقابات والبلاشفة. وتعرض إيفان فوينوف، البلشفي البالغ من العمر 23 عاما، للاعتقال أثناء توزيعه لجريدة ليستوك برافدي (المنشور البرافدي، الذي هو أحد الأسماء العديدة التي اضطرت جريدة الحزب لاستعمالها من أجل مراوغة الحظر). وأثناء «استجوابه»، تعرض السجن للضرب على رأسه بعنف، مما أدى إلى مقتله على الفور. وبالنظر إلى ذلك الجو المسموم بالهستيريا والاتهامات الموجهة ضد لينين شخصيا بأنه «عميل ألماني»، فقد كان من الجريمة تقديمه لعناية «القانون» الحنونة بينما الثورة المضادة في أوجها.

بعد ذلك بعامين، وأثناء انتفاضة سبارتاكوس في برلين -وهي حركة تشبه بشكل لافت للنظر أيام يوليو- فشلت روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت في اتخاذ الاحتياطات اللازمة فتم اعتقالهما من قبل ضباط معادين للثورة. لم يتصورا أنهما سيقتلان بدم بارد، لكن هذا بالضبط ما حدث لهما. لقد كان لمقتل اثنين من أبرز قادة الطبقة العاملة الألمانية تأثير كارثي على كل الثورة الألمانية وتاريخ العالم. نعم لقد أظهرنا شجاعة شخصية، لكن يا له من ثمن فظيع ذلك الذي تم تقديمه مقابل هذا العمل الخاطئ! لو أنهما كانا قد تحولا إلى السرية، كما فعل لينين، لكان مستقبل الثورة الألمانية سيكون في أيد أمينه، لكنها بدلا من ذلك تعرضت للإجهاض. لم تكن الطبقة العاملة الألمانية وحدها هي من دفعت ثمن تلك الكارثة، بل العالم بأسره دفع الثمن مع صعود هتلر وكل أهوال الفاشية والحرب التي تلت ذلك. يجب أن يتم اتخاذ كل هذه الاعتبارات بالحسبان قبل التفكير في الكلام التافه عن «الشجاعة الشخصية» وما إلى ذلك.

قادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين، الذين طالبهم لينين بضمانات بشأن اعتقاله، لعبوا دورا مثيرا للاشمئزاز. حيث اقترح دان إصدار قرار، أيده غالبية الأحزاب الإصلاحية في السوفييتات، يتهم البلاشفة بارتكاب جرائم ضد الشعب والثورة، ووصف تهرب لينين من الاعتقال بأنه «غير مقبول». وهو نفس الدور الذي لعبه الزعيمان الاشتراكيان الديمقراطيان الألمانيان نوسك وشيدمان، عام 1919، كشريكين لهيئة الأركان العامة والقوات شبه العسكرية في مقتل ليبكنخت ولوكسمبورغ. كما طالبوا البلاشفة بإدانة سلوك لينين، وقرروا تعليق عضوية اللجنة التنفيذية للسوفييت لجميع الأشخاص الخاضعين للتحقيق. وقد احتج نوغين قائلا: «يُطلب منكم تبني قرار بشأن البلاشفة قبل محاكمتهم. يطلب منكم أن تضعوا خارج القانون قادة الفصيل الذي شارك في الثورة معكم»<sup>2</sup>. لكن الجناح اليميني داخل السوفييت لم يكن مهتما باحتجاجات نوغين، فتمت المصادقة على قرار دان بأغلبية ساحقة. وفي القاعة كانت الهجمات على البلاشفة أكثر حقا.

الآن وبعد أن ازدادت شهية أعداء الثورة، بدأوا ينفثون غضبهم ضد الحركة العمالية بشكل عام، ولم يعودوا يهتمون بالتمييز بين يسارها ويمينها. خلال اجتماع للجنة المؤقتة لمجلس الدوما، يوم 05 يوليو، قام نواب مجلس الدوما اليمينيين من أمثال أ. م. ماسلينيكوف وفلاديمير بوريشكيفيتش (المعروف بدوره في اغتيال راسبوتين) بشن حملة ضد قادة السوفييتات المعتدلين، الذين وصفوهم بأنهم «حامون»، و«مجانين يصورون أنفسهم على أنهم دعاة سلام»، و«الوصوليين الصغار»، و«مجموعة من المتعصبين، الغرباء [أي اليهود]، والخونة». كما طالب ماسلينيكوف بإعادة السلطة لمجلس الدوما وبأن تكون الحكومة مسؤولة أمامه وحده. كان ذلك طلبا بتصفية ازدواجية السلطة، وبأن تتوقف السوفييتات عن لعب أي دور. بل ذهب بوريشكيفيتش أبعد من ذلك، حيث عبر صراحة عن النوايا الحقيقية للثورة المضادة قائلا: «لو أنه تمت تصفية ألف أو ألفين أو خمسة آلاف من الأوغاد في

1: Ibid., p: 41.

2: Ibid., p: 36.

الجبهة، وبضعة عشرات من الأوغاد في الداخل، لما كنا لنعاني من هذا الخزي غير المسبوق»<sup>1</sup>.

كما طالب بإعادة تطبيق عقوبة الإعدام، ليس في الجبهة فقط، بل وفي الداخل أيضا. وقد تصاعدت الأصوات المطالبة بهذا الإجراء بشكل سريع خلال الأسابيع التي تلت هزيمة يوليو. كان معنى ذلك واضحا، حيث كانت البرجوازية تسعى جاهدة لإعادة "النظام" -أي استعادة سيطرتها على المجتمع والدولة التي هي، في آخر المطاف، كما أوضح لينين، هيئة من الأشخاص المسلحين-. كانت إعادة فرض الانضباط داخل صفوف الجيش باستعمال أكثر الوسائل وحشية، بما في ذلك عقوبة الإعدام، هي الشرط المسبق لتصفية ازدواجية السلطة وإعادة بناء الدولة القديمة. وكان ذلك يعني بناء نظام ديكتاتوري، كما أثبتت الأحداث اللاحقة.

غيرت هزيمة يوليو موازين القوى الطبقيّة. ومع كل خطوة كانت تخطوها الثورة إلى الوراء، كانت الثورة المضادة تصير أكثر فأكثر جرأة. كما أن مزاج العمال والجنود في العاصمة كان يصير أكثر فأكثر تشاؤما. كانوا قد تعلموا درسا قاسيا. كانت الأقاليم الأخرى تقف ضدهم. وكان الشعور بالعزلة والعجز يسيطر على العاصمة. اضطر العمال إلى طأطأة رؤوسهم وانتظار الفرصة التالية. وفي خضم كرنفال الردة الرجعية هذا، وعندما كان البلاشفة يتعرضون للمطاردة والاضطهاد من جميع الجهات، ارتفع صوت واحد جريء وواضح: صوت ليون تروتسكي، الذي أصدر رسالة مفتوحة إلى الحكومة المؤقتة، بتاريخ 10 (23) يوليو 1917، كتب فيها:

«الوزراء المواطنين:

لقد علمت أنه في علاقة مع أحداث 16-17 يوليو، صدر أمر قضائي بالقبض على لينين وزينوفيف وكامينيف، لكن ليس علي. وأود، بالتالي، أن ألفت انتباهكم إلى ما يلي:

أنا أتفق مع الأطروحات الرئيسية للينين وزينوفيف وكامينيف، ودعوت لها في جريدة "فريود" وفي خطاباتي العامة.

كان موقفي تجاه أحداث 16-17 يوليو نفس موقفهم.

لم نعلم، كامينيف وزينوفيف وأنا، بالخطط المقترحة لفرقة سلاح المدفعية وغيرها من الفرق إلا خلال الاجتماع المشترك للمكاتب [اللجان التنفيذية] في 16 يوليو. وقد اتخذنا خطوات فورية لمنع الجنود من الخروج. أبلغ زينوفيف وكامينيف البلاشفة، وأبلغت أنا تنظيم ما بين الجهات [أي مجموعة ميزرايونتسي] الذي أنتمي إليه.

لكن عندما خرجت المظاهرات، على الرغم من الجهود التي بذلناها، ألقينا، رفاقي البلاشفة وأنا، العديد من الخطب أمام قصر تورايد، والتي دافعنا خلالها عن الشعار الرئيسي للجماهير: "كل السلطة للسوفييتات"، لكننا، في الوقت نفسه، دعونا هؤلاء المتظاهرين، سواء منهم الجنود أو المدنيين، إلى العودة إلى ديارهم وثكناتهم بطريقة سلمية ومنظمة.

وخلال كونفرانس انعقد في قصر تورايد، في وقت متأخر من ليلة 16-17 يوليو، بين بعض البلاشفة ومنظمات الأحياء، دعمت فكرة كامينيف بأنه ينبغي القيام بكل شيء لمنع تكرار التظاهر يوم 17 يوليو. لكن عندما علمنا من المحرضين، الذين وصلوا من مختلف الأحياء، أن الفيالق وعمال المصانع قد قرروا بالفعل أن يخرجوا، وأنه كان من المستحيل منع الحشود من الخروج حتى انتهاء الأزمة الحكومية، اتفق جميع الحاضرين على أن أفضل شيء يفعلونه هو توجيه المظاهرة في مسارات سلمية، وأن يطلبوا من الجماهير ترك أسلحتهم في المنزل.

خلال يوم 17 يوليو، والذي قضيته في قصر تورايد، قمنا، أنا والرفاق البلاشفة، أكثر من مرة بحث الجماهير في هذا الاتجاه.

واقع أنني لست مرتبطا بـ "برافدا" ولست عضوا في الحزب البلشفي لا يعود إلى وجود خلافات سياسية بيننا، بل لظروف معينة في تاريخ حزبنا فقدت الآن كل معنى.

محاولة الصحف خلق الانطباع بأنني "لا علاقة لي" بالبلاشفة لا تملك من الحقيقة إلا ما يملكه ذلك التقرير الذي يزعم أنني طلبت من السلطات حمايتي من "عنف الغوغاء"، ومئات الشائعات الكاذبة الأخرى التي تنشرها تلك الصحافة نفسها.

بناء على كل ما قلته، من الواضح أنه لا يمكنكم منطقيا استبعادني من أمر القبض الذي أصدرتموه على لينين وكامينيف وزينوفيف. ولا يمكن أيضا أن يخامر أذهانكم أي شك في أي معارض سياسي عنيد مثل هؤلاء الرفاق المذكورين أعلاه. إن تركي في الخارج يؤكد فقط على الطغيان المعادي للثورة الذي يكمن وراء الهجوم على لينين وزينوفيف وكامينيف»<sup>2</sup>.

1: Ibid., p: 45.

2: *The Age of Permanent Revolution*, pp: 98-99 (الشدديد من آلان وودز)

وبالتالي وجدت السلطات نفسها ملزمة باعتقاله، فاعتقلته وسجنته في قلعة كريستي.

## لينين يغير رأيه

كان لينين وهو في مكان اختبائه في قرية رازيليف الصغيرة على خليج فنلندا، على بعد حوالي 30 كيلومترا إلى الشمال الغربي من العاصمة، يتتبع الأحداث بمزاج كئيب. لقد تركت أحداث يوليو وما أعقبها انطباعا قويا عليه. وسيكون من المفيد لأولئك الذين يتخيلون أن الثورة الروسية، عام 1917، قد اتبعت مسارا تصاعديا نحو النصر تحت القيادة المطلقة لرجل لم يكن يخامر أي شك في نجاحه، أن يدرسوا تطور فكره في ذلك الوقت. لم يكن ذلك معروفا بشكل عام، لكن لينين في البداية كان يميل إلى المبالغة في تقدير قوة الثورة المضادة واستخلص استنتاجات متشائمة.

أشار ألكسندر راينوفيتش في كتابه المهم عن الثورة البلشفية، الذي كتبه بالاعتماد على مذكرات كل من شوتمان وزينوفيف، إلى ما يلي: «يتذكر شوتمان أن لينين قد بالغ لفترة من الزمن في تقدير مدى قوة وتأثير الردة الرجعية وكان متشائما بشأن الآفاق المباشرة للثورة في روسيا. لقد اعتبر أنه لم تعد هناك فائدة من الحديث عن الجمعية التأسيسية لأن «المنتصرين» لن يعقدوها؛ وبالتالي يجب على الحزب أن ينظم القوى التي ما زال يمتلكها ويستعد للعمل السري «على محمل الجد ولفترة طويلة». وقد عززت التقارير الكئيبة التي نقلها شوتمان في البداية إلى لينين في رازيليف من هذه القناعات. مرت عدة أسابيع قبل أن تبدأ الأخبار في التحسن. وقد أكد زينوفيف تشاؤم لينين في أعقاب أيام يوليو، حيث كتب في أواخر العشرينات أن لينين في ذلك الوقت افترض بداية فترة ردة رجعية أطول وأعمق مما حدث بالفعل»<sup>1</sup>.

وقالت ماريا سوليموفا، وهي عاملة بلشفية استقر عندها لينين يوم 06 يوليو، إنها عندما أبلغته آخر الأخبار، رد قائلا: «أنت، أيتها الرفيقة سوليموفا، قد يعقلونك، أما أنا فسيشبقونني». والدليل على أن تلك الفكرة كانت تخامرته هو الرسالة التي بعثها لكامينيف حيث كتب: «Entre nous [بينك وبينك]: إذا اعتقلوني، أطلب منك أن تشر دفتر ملاحظاتي «الماركسية والدولة»»<sup>2</sup>.

دفتر الملاحظات المشار إليه هنا هو كتابه الشهير «الدولة والثورة»، الذي هو أحد أهم الأعمال النظرية الماركسية وأكثرها تأثيرا، والذي كتبه في ذلك الوقت. ظل لينين على اتصال وثيق بالعاصمة من خلال الرسائل، وكتب العديد من المقالات والبيانات، ونُقِب في الصحف بحثا عن الأخبار. لكن ذلك لم يكن كافيا لإبقائه على اتصال بنبض الحركة في ذلك الموقف الذي كان يتغير بسرعة كل يوم، وأحيانا كل ساعة. وقد دفعه الانطباع العميق الذي تركته أحداث يوليو عليه إلى الدعوة إلى تغيير التكتيكات، مما أدى إلى اندلاع جدال حاد آخر داخل الحزب.

توصل لينين، على أساس أيام يوليو، إلى استنتاج مفاده أن المسار السلمي للثورة صار مستحيلا الآن، وأن الحرب الأهلية أصبحت حتمية، وأنه كان من الضروري على الحزب أن يضع الانتفاضة على رأس جدول الأعمال على الفور. كتب يقول: «كل الآمال في التطور السلمي للثورة الروسية قد اختفت إلى الأبد». وخلص إلى أن هزيمة يوليو قد أدت إلى تصفية نظام ازدواجية السلطة. كانت السوفييتات، تحت قيادة الجناح اليميني، قد انتقلت في الواقع إلى جانب الثورة المضادة. ولذلك صار من المستبعد تحويلها واستخدامها لحسم السلطة. وهو ما يعني أن المنظور السابق للتحويل السلمي لم يعد ممكنا. لذلك دعا إلى التخلي عن شعار: «كل السلطة للسوفييتات»، وقال إنه على الحزب بدلا من ذلك أن يركز كل جهوده على الإعداد للانتفاضة، بالاستناد إلى لجان المصانع، كتب قائلا: «لقد كان شعار «كل السلطة للسوفييتات!» شعارا من أجل التطور السلمي للثورة، وكان ذلك ممكنا في أبريل وماي ويونيو وحتى 05 - 09 يوليو، أي حتى ذلك الوقت الذي انتقلت فيه السلطة الفعلية إلى أيدي الديكتاتورية العسكرية. لم يعد هذا الشعار صحيحا، لأنه لا يأخذ في الاعتبار أن السلطة قد انتقلت من يد إلى يد أخرى وأن الثورة قد تعرضت في الواقع للخيانة التامة من طرف الاشتراكيين الثوريين والمناشفة. ولن تساعد الإجراءات المغامراتية ولا التمردات ولا المقاومة الجزئية ولا المحاولات اليائسة لمواجهة الردة الرجعية»<sup>3</sup>.

اتضح لاحقا أن هذا التقييم كان سابقا لأوانه، وقد قام لينين بتصحيحه بعد ذلك. لكن من الممكن تفهمه في ظل الظروف التي كانت سائدة في ذلك الوقت. إن ما كان يميز لينين هو التفكير في المرحلة التالية، والتنبؤ بحتمية الانتفاضة في ذلك الوقت بالضبط

1: A. Rabinowitch, *Bolsheviks Come to Power*, p: 37.

2: *LCW, Note to L.B. Kamenev*, vol. 36, p: 454.

3: *LCW, The Political Situation*, vol. 25, pp: 177-178.

الذي بدا فيه كما لو أن الثورة المضادة قد انتصرت بشكل كامل. لقد رأى أن موجة الثورة المضادة سوف تنحسر في النهاية، وأنه على البلاشفة أن يضعوا على كاهلهم مهمة الاستيلاء على السلطة. وقد تبين أن هذا صحيح، لكن بمعنى آخر، إذ كان لينين متشامها للغاية. لم يكن انتصار الجناح اليميني داخل السوفييتات حاسما كما كان لينين يعتقد، بل وعلى العكس من ذلك كان من شأن الاستقطاب والتجذر المتنامين داخل المجتمع أن يعبرا عن نفسيهما حتما داخل السوفييتات باعتبارها المنظمات الجماهيرية الرئيسية للطبقة العاملة.

بالطبع ليست السوفييتات حلا سحريا في حد ذاتها. صحيح أنها مناسبة جدا للتعبير عن تطلعات ومزاج الجماهير بسبب شكلها الديمقراطي والمرن للغاية. لكن في خضم الثورة، حين تتغير أمزجة الجماهير بسرعة البرق، تتخلف حتى تلك المنظمات عن الركب، وتصير انعكاسا للوضع الذي كان بالأمس، وليس اليوم. كان لينين قد حذر منذ بداية أبريل من خطأ النظرة الصنمية للسوفييتات. ففي كونفرانس أبريل قال: «إن السوفييتات مهمة لنا ليس كهيكل؛ المهم بالنسبة لنا هو ما هي الطبقات التي تمثلها». لم تكن المسألة متعلقة بالمشاركة في «برلمانية سوفييتية»، والمناورة مع القادة في القمة، بل إيجاد طريق نحو العمال الذين كانوا يتطلعون إلى السوفييتات.

بعد يوليوز تغير ميزان القوى الطبقي بشكل كبير. القادة الإصلاحيون لم يفهموا شيئا. كانوا يشبهون شخصا يقطع الغصن الذي يجلس عليه. ومع كل ضربة كانت توجه ضد البلاشفة، كانت ثقة اليمين تزداد وعدوانيته تشتد. لم يكن ذلك موجها ضد البلاشفة فقط بل ضد السوفييتات نفسها. لم يقتصر المناشفة والاشتراكيون الثوريون على رفض تولي السلطة، بل إنهم من خلال تصرفاتهم، كانوا يشجعون الثورة المضادة، وكانوا، كما قال لينين، يجعلون من اندلاع العنف والحرب الأهلية مستقبلا حتميا. وبهذا المعنى فقد كانت تلك سوفييتات معادية للثورة، حيث كانت القيادة الإصلاحية اليمينية، التي تستند إلى السوفييتات، تساعد بنشاط البرجوازية على استعادة سيطرتها على الدولة.

وفي وقت لاحق كتب لينين قائلا: «كل تجربة الثورتين، تجربة عام 1905 و عام 1917، وجميع قرارات الحزب البلشفي، وجميع تصريحاته السياسية طيلة سنوات عديدة، يمكن أن تختزل في أن سوفييتات نواب العمال والجنود ليست كذلك في الواقع إلا باعتبارها جهازا للانتفاضة، جهازا للسلطة الثورية. لكن بخلاف ذلك ليست السوفييتات سوى لعبة لا معنى لها يمكنها أن تؤدي فقط إلى اللامبالاة والسلبية وخيبة الأمل بين الجماهير، التي تشعر بالاشمئزاز المشروع من التكرار اللامتناهي للقرارات والاحتجاجات»<sup>1</sup>.

وعلى الرغم من كل شيء تمكن البلاشفة من التعافي بسرعة إلى حد ما من آثار هزيمة يوليوز. اتضح أن انتصار الثورة المضادة أكثر ضحالة وأقل وزنا مما افترض لينين. من المثير للدهشة أن القليل فقط من الأعضاء غادروا الحزب بعد يوليوز، على الرغم من حقيقة أن البلاشفة مروا بوقت عصيب، وذلك حتى في بعض المصانع التي تأثر فيها العمال المتخلفون بوابل الدعاية المعادية للبلاشفة. وفي غضون أسابيع قليلة، بدأ الحزب يستعيد نفوذه وموهه. كانت الأسباب متجذرة في الظروف الموضوعية. فالحكومة المؤقتة، وعلى الرغم من نجاحها المؤقت، لم تحظ بسياساتها بالشعبية مطلقا. كانت الأخبار القادمة من الجبهة تتحول من سيء إلى أسوأ. ديماغوجية كيرنسكي «الوطنية» لم تنفعه مع الجنود الذين كان كل ما يريدونه هو تسريحهم والعودة إلى المنزل. وقد أدت محاولات استعادة الانضباط في ظل تلك الظروف إلى جعل الأمور أسوأ. لاحظ الجنود بقلق متزايد عودة ظهور العناصر المعادية للثورة بين صفوف الضباط. كان الضباط الموالون للقيصر قد طأطأوا رؤوسهم منذ فبراير، لكنهم بدأوا الآن في إعادة تجميع صفوفهم وفرض أنفسهم بثقة أكبر.

وعلى عكس توقع لينين بدأت السوفييتات تصير أكثر تقبلا للدعاية البلشفية. هذا على الرغم من أنه وحتى غشت كان السوفييتان الوحيدان في بتروغراد اللذان كان البلاشفة يتمتعون فيهما بنفوذ قوي هما سوفييت كولبينسكي وسوفييت منطقة فيبورغ التي كانت معقل الحركة العمالية، بينما كانت جميع السوفييتات المحلية الأخرى في العاصمة تؤيد المناشفة والاشتراكيين الثوريين. كانت بعض تلك السوفييتات قد تبنت، بعد أيام يوليوز، موقفا عدائيا ضد البلشفية حيث أصدرت قرارات تدين «منظمي المظاهرة». لكن المزاج بدأ يتغير، وأصبح العمال المناشفة والاشتراكيون الثوريون أكثر انتقادا تجاه قادتهم.

انطلقت آنذاك سيرورة متناقضة: حيث كان القادة الإصلاحيون داخل اللجنة التنفيذية لسوفييت عموم روسيا يتعهدون بالدعم غير المشروط لكيرنسكي، بينما كان شك السوفييتات المحلية في الحكومة يتزايد سريعا بمرور الوقت. تجلى ذلك في النمو المستمر للتيار اليساري الذي كان يمثله المناشفة الأمميون (مارتوف)، ولجنة ما بين الجهات (ميزرايونتسي) والبلاشفة. وبحلول منتصف

1: LCW, *Theses for a Report at the 8 October Conference of the Petrograd Organisation*, vol. 26, p: 143.

الصيف، صارت القرارات البلشفية تصدر بالإضافة إلى فيبورغ وكولبنيكي، في جزيرة فاسيلفسكي وكولومنسكي والمقاطعة الأولى للمدينة. فعلى الرغم من أن تلك السوفييتات كانت ما تزال رسمياً تحت سيطرة المناشفة والاشتراكيين الثوريين، فإن العمال كانوا أكثر ميلاً للاستماع إلى أفكار الأشخاص الوحيدين الذين كانوا يعبرون بشكل صحيح عما يدور في أذهانهم، أي البلاشفة. ويشير ألكساندر رابينوفيتش إلى أنه: «مع ذلك فباستثناء سوفييت منطقة فيبورغ ربما، يبدو أن أياً من تلك السوفييتات لم يكن تحت السيطرة الفعلية للبلاشفة، حيث احتفظ المناشفة والاشتراكيون الثوريون، أو بالأصح المناشفة الأمميون ويسار الاشتراكيين الثوريين، بنفوذهم في معظم سوفييتات المقاطعات حتى أواخر خريف عام 1917»<sup>1</sup>.

## تروتسكي والحزب البلشفي

كانت أحداث 1917 لحظة حاسمة بالنسبة للحركة الثورية في روسيا. ففي تلك السنة، أخيراً، تم وضع جميع النظريات والبرامج والأفراد على محك الاختبار الحاسم: محك الممارسة. كثيرون لم ينجحوا في الاختبار. فحتى أقرب المتعاونين مع لينين استسلموا لضغوط اللحظة وفشلوا في الوفاء لمسؤولياتهم التاريخية. لم يكن ذلك يعود بالكامل إلى خصائصهم الشخصية، على الرغم من أن هذه الأخيرة تلعب دوراً، بل ودوراً مهماً. إن الفكرة القائلة بأنه يمكن اختزال التاريخ إلى مجرد لعبة للقوى الاقتصادية العمياء لا يشكل فيها الرجال والنساء سوى دمي مصيرها محدد سلفاً، مثل شخصيات مأساة يونانية، فكرة ليس لها أية علاقة مع الماركسية. لم ينكر ماركس وإنجلز أبداً دور الفرد في التاريخ، لقد أوضحوا فقط أن البشر ليسوا فاعلين أحرار بشكل كامل، بل إنهم محكومون بالواقع الاجتماعي القائم، والقوى الطبقيّة، ووعي الجماهير، والاتجاهات السياسية والتحيزات والأوهام، والتي كلها عوامل تلعب دوراً حاسماً، لكن في التحليل الأخير (و**فقط** في التحليل الأخير) هي نفسها تتحدد من خلال أمط تطوّر وسائل الإنتاج. تعتبر القاعدة الاقتصادية حاسمة في نهاية المطاف، لكن العلاقة بين «القاعدة» (القوى المنتجة) و«البنية الفوقية» (الدولة، السياسة، الدين، الفلسفة، الأخلاق، إلخ) ليست مباشرة وميكانيكية، بل غير مباشرة وديالكتيكية. هناك مجال واسع لتصرفات الأفراد لإحداث تغيير، وحتى تغيير حاسم في مجرى التاريخ، كما أثبتت ذلك الثورة الروسية بشكل واضح.

لاحظ ماركس ذات مرة أن النظرية تصبح قوة مادية عندما تتبناها عقول الجماهير. إن النظرية الصحيحة هي تلك التي تتوقع، إلى حد ما من الصحة، المسار الرئيسي للأحداث. وعند التسلح بهذه النظرية يصير من الممكن وضع منظور يوضح مسبقاً الخط العام للتطور حتى قبل أن تتوفر لنا الوقائع التي تدعمه. ذلك يمكن التيار الثوري من توجيه قوائمه بشكل صحيح وتوقع الاتجاهات الحقيقية قبل ظهورها. وفي هذا الصدد لا يمكن لأي شخص يدرس الجدال الذي شهدته الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية خلال العقد الذي سبق عام 1917، إلا أن يفاجأ بتفوق إحدى النظريات التي تنبأت بدقة مدهشة بما حدث بالفعل عام 1917، وهي نظرية تروتسكي للثورة الدائمة. بينما على النقيض من ذلك سرعان ما كشفت نظرية «المرحلة البرجوازية الديمقراطية»، التي تنبأها المناشفة، عن طبيعتها الرجعية بعد فبراير مباشرة، عندما استخدمت لتبرير دعم المناشفة والاشتراكيين الثوريين للحكومة البرجوازية المؤقتة، في حين شكلت صيغة لينين «دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية» ذريعة لكامنيف وستالين للاستسلام للمناشفة والتخلي عن الثورة الاشتراكية لصالح الديمقراطية البورجوازية.

خلال عام 1917 اختفت كل الخلافات التي فصلت بين لينين وتروتسكي، كما لو أنها لم تكن موجودة. ونشأ بين الرجلين شعور صادق بالتضامن والتقارب استمر حتى وفاة لينين. وفي بداية أكتوبر، في وثيقة موجهة إلى كونفرانس البلاشفة في بتروغراد، والذي كان يناقش قائمة المرشحين إلى الجمعية التأسيسية، أيد لينين إدراج تروتسكي في القائمة، وكتب ما يلي: «لأحد سيعارض ترشيح تروتسكي، لأنه أولاً قد اتخذ فور وصوله موقفاً أممياً؛ وثانياً، لأنه عمل داخل ميزرايونتسي من أجل الاندماج [مع البلاشفة]؛ وثالثاً، لأنه أثبت خلال أيام يوليو الصعبة أنه في حجم المهمة ومؤيد مخلص لحزب البروليتاريا الثورية»<sup>2</sup>.

كتب راسكولنيكوف في مذكراته قائلاً: «كان موقف تروتسكي تجاه فلاديمير إيليتش (لينين) موقف تقدير عظيم. لقد وضعه في مكانة أعلى من أي ممن قابلهم، سواء في روسيا أو في الخارج. وفي النبرة التي يتكلم بها تروتسكي عن لينين تشعر باحترام المتعلم لأستاذه. في تلك الأوقات كان لينين يمتلك رصيدها من 30 سنة في خدمة البروليتاريا، وكانت لتروتسكي 20 سنة. وقد تلاشت أصداء خلافاتهم خلال فترة ما قبل الحرب بشكل كامل. لم يكن هناك فرق بين تكتيكات لينين وتروتسكي. ومنذ لحظة عودة ليف

1: A. Rabinowitch, *Bolsheviks Come to Power*, p: 77.

2: LCW, *From the Theses for a Report at the 8 October Conference of the St. Petersburg Organisation*, vol. 41, p: 447.

دافيدوفيتش (تروتسكي) إلى روسيا صار تقاربهما، الذي كان قد أصبح ملحوظا بالفعل خلال الحرب، كاملا وواضحا. منذ خطابه الأولى شعرنا جميعا، نحن اللينينيون القدامى، أنه واحد منا!<sup>1</sup>

بمجرد انضمام تروتسكي رسميا إلى الحزب، في المؤتمر السادس، تم انتخابه لعضوية اللجنة المركزية. لقد أثارت شعبية تروتسكي الهائلة بين العمال البلشفية وتقدمه السريع، استياء "البلشفة القدامى" الذين أظهروا غضبهم من خلال معارضتهم لمقترح لينين إدراجه في هيئة تحرير برافدا، وهو المقترح الذي تم إقراره لاحقا في شتبر عندما انتخب عضوا في هيئة التحرير. وكما ذكر لينين في الوثيقة المشار إليها أعلاه (والتي، بالمناسبة، لم تنشر في الاتحاد السوفياتي إلا عام 1962)، لم يدخل تروتسكي إلى الحزب البلشفي لوحده، بل جاءت معه مجموعة مهمة، ميزرايونتسي (أو مجموعة ما بين المقاطعات). لقد عمل تروتسكي في الواقع، وباتفاق مع لينين، على تأجيل انضمامه إلى الحزب البلشفي من أجل كسب تلك المجموعة، التي انضمت أخيرا إلى البلشفة بعد أيام يوليو. وفي المؤتمر السادس، حين انضمت ميزرايونتسي إلى الحزب البلشفي، وانتخب تروتسكي إلى اللجنة المركزية، وكان هو واحدا من الأسماء الأربعة (إلى جانب لينين وكامينيف وزينوفيف) التي تمكنت من الحصول على أكبر عدد من الأصوات (131 من أصل 134).

السبب الوحيد لتأخر تروتسكي في الانضمام إلى البلشفة بشكل رسمي بعد عودته، هو أنه، باتفاق كامل مع لينين، كان يعمل على كسب مجموعة ميزرايونتسي. مجموعة ميزدوراويوني كوميتيت ('Mezhdurayonny komitet')، أو ميزرايونكا، كما كانت معروفة شعبيا، تعني "لجنة ما بين المقاطعات". لم تكن منظمة جديدة، كما رأينا بالفعل، بل كانت قد تشكلت في عام 1913، واستمرت في نشاطها الثوري طوال الحرب. كانت عضويتها مكونة بشكل أساسي من ثوريين لم يشعروا، لأسباب مختلفة، بالميل إلى الانضمام إلى حزب لينين. كان من بينهم المناشفة الأمميون، والفريوديون، والبلشفة التوفيقيون، وأنصار تروتسكي، وأفراد يساريون، وكان الكثير منهم من المهووبين الذين لعبوا فيما بعد دورا مهما في الثورة وشغلوا مناصب قيادية في الحكومة السوفياتية. من بين هؤلاء كان لوناتشارسكي، أول مفوض شعبي للتعليم والثقافة؛ وأدولف جوفي، الدبلوماسي السوفياتي الذي انتحر لاحقا احتجاجا على استيلاء ستالين على السلطة؛ وفولودارسكي وأوريتسكي، وهما زعيمان بلشفيان مهمان في بتروغراد، واللذان ليسا معروفين بشكل واسع لأنهما تعرضا للاغتيال في وقت مبكر على أيدي إرهابيين من الاشتراكيين الثوريين اليساريين؛ وريازانوف، الكاتب المعروف؛ وبوكروفسكي، المؤرخ، ومانويلسكي ويورينيف، والكثير من الآخرين. كانت تلك المجموعة في فبراير 1917 قوة كبيرة تضم 4.000 عضو في بتروغراد<sup>2</sup>. وقد كان التحاقهم بالحزب تطورا مهما، كما اعترف لينين لاحقا.

رأى لينين، منذ اللحظة الأولى لعودة تروتسكي، في شهر ماي، وبمجرد أن رأى التشابه الجوهرية في وجهات النظر، رأى إمكانية وجود شراكة معه من شأنها أن تؤتي نتائج مهمة. أجرى الرجلان مناقشات، تقرر خلالها أنه يترتب على تروتسكي تأجيل انضمامه إلى البلشفة حتى يتمكن أولا من كسب مجموعة ميزرايونتسي. لم تكن تلك مهمة سهلة، بالنظر إلى كل الاحتكاكات والشكوك القديمة. وفي وقت لاحق، خلال شهادته أمام لجنة ديوي، أوضح تروتسكي تلك الظروف قائلا:

«تروتسكي: كنت أعمل مع الحزب البلشفي. كانت توجد في بتروغراد مجموعة كانت مشابهة برنامجيا لحزب البلشفة، لكنها كانت مستقلة من الناحية التنظيمية. لقد استشرت لينين حول ما إذا كان من الأفضل أن ألتحق بالحزب البلشفي على الفور، أم أنه سيكون من الأفضل أن أدخل مع هذه المنظمة العمالية الجيدة التي تضم ثلاثة أو أربعة عمال ثوريين.

غولدمان: ثلاثة أو أربعة؟

تروتسكي: ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف عامل ثوري. اتفقنا على أنه من الأفضل التحضير لدمج المنظمتين في مؤتمر للحزب الشيوعي. من الناحية الرسمية بقيت في تلك المنظمة وليس في الحزب البلشفي، حتى غشت 1917. لكن النشاط كان متطابقا تماما. لقد تم ذلك فقط من أجل التحضير لعملية الاندماج على نطاق أوسع<sup>3</sup>.

وفي 10 ماي، ومن أجل التأكيد على الأهمية التي يعلقها لينين على هذه المسألة، حضر بنفسه اجتماعا لمجموعة ميزرايونتسي

1: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, p: 814.

2: يعطي بعض المؤلفين تقديرا أقل، ربما لكونهم يعتمدون على معطيات شليابنيكوف. ومع ذلك فإن تقديرات شليابنيكوف مشكوك فيها، لكونه كان يعبر عن موقف معادي تجاه ميزرايونتسي، ربما بسبب ترددها في الانضمام إلى البلشفة قبل ثورة فبراير. أما رقم حوالي 4.000 عضو الذي ذكره تروتسكي، قد أكده كل من إ. ه كار في كتابه عن الثورة البلشفية، المجلد 01، 102 وفي إشارة توضيحية لأعمال لينين المختارة، المجلد 24، 601. (الطبعة الانجليزية).

3: *The Case of Leon Trotsky*, p: 21.



وقام بخطوة استثنائية تمثلت في منحهم مقعدا داخل هيئة تحرير برافدا وداخل اللجنة التنظيمية لمؤتمر الحزب<sup>1</sup>. وفي هذا الصدد كتب قائلاً: «امتثالا لقرار مؤتمر عموم روسيا، تقدمت اللجنة المركزية لحزبنا، إدراكا منها للرغبة الشديدة في الاتحاد مع منظمة ما بين المقاطعات، بالمقترحات التالية (والتي تم تقديمها لمنظمة ما بين المقاطعات في البداية باسم الرفيق لينين وعدد قليل من أعضاء اللجنة المركزية فقط، إلا أنه تمت الموافقة عليها فيما بعد من قبل غالبية أعضاء اللجنة المركزية): الوحدة المطلوبة على الفور.

سيطلب من اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ضم ممثل عن منظمة بين المقاطعات إلى هيئة تحرير جريدتي الحزب (برافدا الحالية، التي سيتم تحويلها إلى جريدة شعبية لعموم روسيا، والجهاز المركزي المزمع إنشاؤه في المستقبل القريب).

سيطلب من اللجنة المركزية تشكيل لجنة تنظيمية خاصة للتضخيم لمؤتمر الحزب (في غضون ستة أسابيع). سيحق لكونفرانس ما بين المقاطعات أن يعين مندوبين اثنين لهذه اللجنة. وإذا ما انشق المناشفة، أنصار مارتوف، عن أنصار الدفاع عن الوطن، فسيكون من المرغوب فيه ومن الضروري إشراك مندوبيهم في اللجنة المذكورة أعلاه. يجب ضمان النقاش الحر للقضايا الخلافية من خلال منشورات للنقاش تصدرها هيئة بريوفا ومن خلال النقاش الحر في جريدة بروسفيشيني (كومينيست)، التي سيتم استئناف نشرها<sup>2</sup>.

لم يكن اهتمام لينين بكسب مجموعة ما بين المقاطعات شيئا عرضيا على الإطلاق. لقد أقنعتة تجربة الأسابيع القليلة التي تلت انتفاضة فبراير بضرورة التجديد الجذري للحزب البلشفي من الأعلى إلى الأسفل. لقد كان بحاجة إلى حلفاء من اليسار من شأنهم أن يلعبوا دور وزن مقابل للنزعة المحافظة «للبلاشفة القدامى». كان أملة الرئيسي في العمال البلاشفة في القاعدة، وخاصة في تدفق عناصر جديدة من الشباب وعمال المصانع والجنود. لكن ذلك لم يكن كافيا. لقد كان بحاجة إلى أشخاص ذوي خبرة، ومنظرين ودعاة وكتاب، قادرين على أن يلعبون دورا في هز القيادة، ومحاربة الروتين، وطبع نشاط الحزب بخط ثوري واضح.

في البداية استجابت منظمة ميزرايونتسي لمبادرات لينين بنوع من الاحتياط. لم تصر الأرضية مهيأة بما يكفي لانضمام ميزرايونتسي إلى البلاشفة إلا خلال الصيف فقط، وهو ما قاموا به أخيرا في المؤتمر السادس. ومع ذلك فحتى قبل الاندماج الرسمي، كانت المنظمتان تعملان معا بشكل وثيق. وقد كتب المؤرخ الإنجليزي الشهير للثورة الروسية، إ. هـ. كار، إنه خلال مؤتمر سوفيات عموم روسيا، الذي انعقد في بداية يونيو، والذي كان يسيطر عليه بقوة المناشفة والاشتراكيون الثوريون: «كان تروتسكي ولوناتشارسكي من بين المندوبين العشرة لـ "الاشتراكيين الديمقراطيين المتحدين" الذين أيدوا البلاشفة بقوة خلال الأسابيع الثلاثة للمؤتمر»<sup>3</sup>.

ومن أجل تسريع انضمام ميزرايونتسي إلى الحزب البلشفي، وهو ما عارضه بعض قادة ميزرايونتسي، كتب تروتسكي في برافدا البيان التالي: «لا يوجد، في رأيي، في الوقت الحالي [في يوليو] أي اختلافات من حيث المبدأ أو في التكتيكات بين ميزرايونتسي وبين المنظمة البلشفية. وبالتالي فإنه لا توجد دوافع تبرر الوجود المنفصل لهاتين المنظمتين»<sup>4</sup>.

أما كتاب تاريخ الحزب الشيوعي (Istoriya KPSS)، وسيرا منه على خطى التقليد الستاليني في تزوير التاريخ، فقد وصف ميزرايونتسي بأنها مجموعة «تتأرجح بين المنشفية والبلشفية»، لكنه يضيف، دون أي تفسير، أنها «في صيف 1917، التحقت بصوف الحزب البلشفي»<sup>5</sup>. بعد عامين من الثورة، كتب لينين، أنه في عام 1917 «تمكنت البلشفية من أن تكسب إلى صفوفها أفضل العناصر بين تيارات الفكر الاشتراكي التي كانت الأقرب إليها». لمن تشير هذه السطور؟ الاحتمال الآخر الوحيد هو مجموعة المناشفة اليساريين، بزعامة لارين، والتي تقدمت بطلب الانضمام إلى البلاشفة في نفس الوقت الذي انضمت فيه مجموعة ميزرايونتسي. لكن موقف لينين من تلك المجموعة كان معروفا بأنه نقدي للغاية. وفي نفس الخطاب الذي ألقاه أمام كونفرانس 08 أكتوبر، رفض لينين بسخط مقترح انتخاب لارين كمرشح للبلاشفة إلى الجمعية التأسيسية، واصفا المقترح بأنه «فضيحة حقيقية»<sup>6</sup>.

وبالتالي فإن الإشارة إلى أفضل العناصر لا يمكن أن تكون إلا لتروتسكي وميزرايونتسي. لقد اتضحت حقيقة أنه لا توجد فروق

1: E.H. Carr, *The Bolshevik Revolution*, vol. 1, p. 99.

2: LCW, *The Question of the Internationalists*, 31 (18) May, 1917, vol. 24, pp: 431-432.

3: E.H. Carr, *The Bolshevik Revolution*, vol. 1, p. 89.

4: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, p. 811.

5: *Istoriya KPSS*, vol. 2, pp. 657-8, note.

6: LCW, *From the Thesis for a Report at the 8 October Conference of the St. Petersburg Organisation*, vol. 41, p. 447.

سياسية حقيقية بين البلشفة وبين ميزرايونتسي في واقع أنه عند انضمامهم إلى الحزب، تقرر اعتبار فترة عضويتهم في مجموعة بين المقاطعات كأقدمية تعادل الانضمام إلى الحزب البلشفي. يشير هذا إلى أن الخط السياسي للمنظمتين كان هو نفسه من حيث الجوهر، وهي النقطة التي تم التأكيد عليها في إشارة كتبت في مختارات لينين نشرت خلال حياته والتي نصت على أنه: «فيما يتعلق بمسألة الحرب تبنت ميزرايونتسي موقفاً أممياً، وكانت في تكتيكاتها قريبة من البلشفة».

## تمرد كورنيلوف

بدأ البلشفة، ببطء في البداية، لكن بنشاط يتزايد أكثر فأكثر، يعيدون تجميع صفوفهم. وتحت قيادة ياكوف سفيردلوف، المنظم البار الذي لا يعرف الكلل، المنحدر من جبال الأورال، سرعان ما عادت الأمور إلى نصابها في بتروغراد. لم ينجح القمع في تدمير الحزب، وهذا لم يكن صدفة. كانت الثورة المضادة ما تزال تتلمس طريقها وكانت ما تزال مضطرة لتمويه تصرفاتها من خلال التحدث باسم الثورة والسوفييتات. وحتى القوات التي أخدمت مظاهرة يوليو قامت بذلك باسم الدفاع عن السوفييتات. كان من شأن الهجوم الصريح أن يتسبب لهم في المشاكل، على الرغم من أن ذلك هو ما أرادته كيرينسكي. كانوا مضطرين للتقدم بحذر. وحتى محاكمات «العملاء الألمان» اضطروا إلى تأجيلها، جزئياً بسبب الافتقار الكامل لأي دليل. لكن ورغم ذلك كانت الظروف ما تزال صعبة بالطبع. لقد أدى فقدان المقرات والسجلات إلى تعطيل العمل مؤقتاً. اشتكى أحد أعضاء اللجنة التنفيذية قائلاً: «لقد فقدنا كل شيء تقريباً، مستنداتنا وحساباتنا وأموالنا، فقدنا حرفياً كل شيء!». كان منع برافدا ضربة موجعة، واضطر الحزب إلى إصدار منشورات تنسخ بطابعة يدوية متداخلة تعود إلى فترة النظام القيصري. ولم يتمكن البلشفة من استئناف نشر جريدتهم بشكل عادي إلا مع مطلع شهر غشت. ومع ذلك فقد كانت المعنويات تتعافى بسرعة. تمكن سفيردلوف من إرسال تلغراف إلى المنظمات الحزبية في المقاطعات ليخبرها أن «المزاج العام في بيتر [الاسم العامي لبتروغراد] ممتاز. لقد مررنا من المحنة. المنظمة لم تتحطم»<sup>1</sup>.

اجتمعت القيادة البلشفية خلال الفترة من 13 إلى 14 يوليو لمناقشة مقترح لينين بتغيير التكتيكات، وهو ما رفضه أغلبهم. صوت عشرة قادة من بين الخمسة عشر الحاضرين، ضد المقترح. كما أن القرار الذي اعتمده اللجنة المركزية في الأخير لم يشر إلى نهاية فترة التطور السلمي للثورة أو إلى الحاجة للاستعداد للانتفاضة المسلحة. عندما اكتشف لينين ذلك في اليوم الموالي، شعر بقلق شديد. تساءل عما تعنيه هذه الانتظارية؟ وقد شن، في مقاله «عن الشعارات»، هجوماً مباشراً على ميل رفاقه إلى تأجيل العمل الثوري وتقديم تنازلات للإصلاحين. كان الوضع قد شهد منعطفاً حاداً بعد أحداث يوليو، وكانت الردة الرجعية قد بدأت تأخذ المبادرة، وقال: «يجب، في المقام الأول، وقبل كل شيء، أن يعرف الشعب الحقيقة، يجب أن يعرف من الذي يمتلك بالفعل سلطة الدولة. يجب إخبار الشعب بالحقيقة الكاملة، ألا وهي أن السلطة توجد في أيدي زمرة عسكرية من الكافينياكيين<sup>2</sup> (كيرينسكي وبعض الجنرالات والضباط، إلخ)، الذين تدعمهم الطبقة البرجوازية التي يرأسها حزب الكاديت، وجميع أنصار النظام الملكي، الذين يتحركون من خلال جرائد المئات السود نوفوي فريميا وجيفوي سلوفو، إلخ، إلخ».

اتضح لاحقاً صدق هذه التوقعات، حيث أن الضباط الكافينياكيين كانوا يحضرون بالفعل لهجوم مضاد ساحق. لذا فقد كان من الضروري تحضير الحزب وتحذير الجماهير من أن المواجهة وشيكة. أما عن دور السوفييتات فقد كتب لينين: «قد تعود السوفييتات إلى الظهور في هذه الثورة الجديدة، وسوف تظهر حتماً، لكن ليست هذه السوفييتات القائمة الآن، ليست الأجهزة التي تتعاون مع البرجوازية، بل أجهزة النضال الثوري ضد البرجوازية. صحيح أنه سيكون علينا حتى في ذلك الوقت أن نؤيد بناء الدولة بأكملها على نموذج السوفييتات. ليست المسألة متعلقة بالسوفييتات عموماً، بل هي مسألة النضال ضد الثورة المضادة الحالية وضد خيانة السوفييتات الحالية»<sup>3</sup>.

خلال الكونغرس الثاني لمنظمة الحزب بمدينة بتروغراد، عبر فولودارسكي (الذي جاء مع منظمة ميزرايونتسي ولعب دوراً بارزاً داخل المنظمة البلشفية في بتروغراد، حتى اغتياله على يد إرهابي من الاشتراكيين الثوريين اليساريين، عام 1918) عن آراء العديد من الحاضرين عندما قال: «إن الأشخاص الذين يزعمون أن الثورة المضادة منتصرة إنما يصرون الأحكام على الجماهير بناء على ممارسات قادتها. لكن بينما يتجه الزعماء [المناشئة والاشتراكيون الثوريون] نحو اليمين، فإن الجماهير تتحرك نحو اليسار. كيرينسكي

1: A. Rabinowitch, *The Bolsheviks Come to Power*, pp: 59, 62.

2: لويس كافينياك جنرال فرنسي شغل منصب وزير الحربية في الحكومة المؤقتة التي جاءت بعد ثورة فبراير 1848 في فرنسا، قام بقمع انتفاضة عمال باريس في يونيو من تلك السنة.

3: LCW, *On Slogans*, vol. 25, pp: 188, 189.

وتسيرييتيلي وأفكسنيتيف نهايتهم قريبة... سوف تتأرجح البرجوازية الصغيرة إلى جانبنا. وبأخذنا لهذا في الاعتبار يصير من الواضح أن شعار "كل السلطة للسوفييتات" مازال صحيحا».

وأضاف مندوب آخر -فينبرغ- قائلا: «الحكومة الحالية لن تكون قادرة على فعل أي شيء حيال الأزمة الاقتصادية؛ سوف تتأرجح السوفييتات والأحزاب السياسية نحو اليسار. غالبية القوى الديمقراطية تتجمع حول السوفييتات وبالتالي فإن رفض شعار: "كل السلطة للسوفييتات" يمكن أن تكون له عواقب وخيمة للغاية»<sup>1</sup>.

كان لينين مخطئا في واقع الأمر، وهو ما اعترف به هو نفسه لاحقا. كان يعيش في ظروف السرية ومعزولا عن الوضع الملموس، لذا لم يتمكن من قراءته بشكل صحيح. وقد أظهرت التطورات اللاحقة أنه كان ما يزال في إمكان البلاشفة كسب الأغلبية داخل السوفييتات وإلحاق الهزيمة بالزعماء الإصلاحيين اليمينيين، وهذا بالضبط هو ما ضمن نجاح ثورة أكتوبر. يبدو ذلك واضحا جدا الآن إلى درجة أنه من غير الضروري إضافة أي تعليق. ومع ذلك فإنه لم يكن أي شيء مضمون آنذاك. استمر الكر والفر طوال الصيف، وكان لمخاوف لينين ما يبررها.

كانت نقطة التحول الحاسمة هي بالضبط تلك اللحظة التي بدا فيها كما لو أن البلاشفة تعرضوا لهزيمة حاسمة وأن المبادرة انتقلت إلى يد الثورة المضادة. طوال صيف عام 1917، واصل البندول التآرجح نحو اليمين. في 18 يوليو، تم استبدال الجنرال بروسيلوف بالجنرال لافار كورنيلوف، وهو مغامر لم يكن ينحدر من الأرستقراطية، على عكس معظم أعضاء فئة الضباط الآخرين، بل كان ابنا لملاك عقاري قوزاقي صغير. كان كورنيلوف إنسانا شجاعا وكان أيضا متمردا مجبولا على عدم الامتثال للأوامر. وبسبب ضيق نظرتة وأميته السياسية، كان لديه حل عسكري لجميع المشاكل: فليس هناك في روسيا من مشكلة لا يمكن حلها بوابل من الرصاص وضربة من سوط ضابط. كان يقال عنه إنه "بقلب أسد ودماغ خروف".

وتأكد منه على المطلب الرئيسي لقوى الثورة المضادة، أصر كورنيلوف على إعادة تطبيق عقوبة الإعدام في الجبهة، حيث قام، عمليا، بتطبيقها بالفعل من خلال إصدار الأوامر بإطلاق النار على الجنود الفارين. ولقبول تولي القيادة العليا، أملى كورنيلوف شروطه على كيرينسكي. فبالإضافة إلى إعادة فرض عقوبة الإعدام، طالب بحظر الاجتماعات في الجبهة، وحل الفيالق الثورية ووضع حد لسلطات لجان الجنود. وفي وقت لاحق تم توسيع هذه المطالب لتشمل إعادة فرض عقوبة الإعدام على المدنيين وفرض الأحكام العرفية وحظر الإضرابات في مصانع السلاح والسكك الحديدية، تحت طائلة الإعدام. كان هذا برنامجا مكتملا لفرض دكتاتورية رجعية صريحة.

كيرينسكي، من جانبه، لم يعترض على أي من هذه الإجراءات، باستثناء توقيت فرضها ربما. كان خلافه الرئيسي مع كورنيلوف هو أنه لا يمكن أن يكون هناك سوى بونايرت واحد، وكان كيرينسكي مصمما على الاحتفاظ بهذا الدور لنفسه. ومع ذلك فإن الصراعات الشخصية لم تمنع كيرينسكي من الاتصال بكورنيلوف والمشاركة في المؤامرة. لقد دفع هذا بالمؤرخين، أمثال أورلاندو فيغز، إلى الافتراض أن كورنيلوف لم يكن أبدا ينوي الإطاحة بكيرينسكي وتنصيب نفسه ديكتاتورا، بل فقط إنقاذ الحكومة المؤقتة من البلاشفة. لكن أبحاث فيغز نفسها تتناقض مع هذا الادعاء، حيث يقول: «ليس هناك من ينكر أن الكثير من أنصار كورنيلوف كانوا يحثونه على التخلص من الحكومة المؤقتة بالكامل. فنقابة الضباط، على سبيل المثال، وضعت مخططات لانقلاب عسكري، في حين أن "كونفرانس المسؤولين العموميين"، الذي انعقد في منتصف غشت، والذي كان يتشكل في معظمه من أعضاء حزب الكاديت ورجال أعمال يمينيين، قد شجع كورنيلوف بوضوح على السير في هذا الاتجاه. وفي مركز هذه الأوساط اليمينية كان هناك فاسيلي زافويكو، وهو شخصية غامضة إلى حد ما -مضارب وصناعي وصحفي ومتآمر سياسي- كان، حسب الجنرال مارتينوف، بمثابة "المستشار الشخصي لكورنيلوف، بل ويمكن للمرء أن يقول مرشده فيما يتعلق بمسائل الدولة". كانت خطط زافويكو الانقلابية معروفة على نطاق واسع لدرجة أنه حتى وايت هول سمع عنها: ففي وقت مبكر من يوم 08 غشت، أبلغت وزارة الخارجية في لندن سفيرها في بتروغراد، بوكانان، أنه وفقا لمصادرها العسكرية فإن زافويكو يخطط للإطاحة بالحكومة المؤقتة. كما لا ينبغي أن ينكر المرء أن كورنيلوف نفسه كانت لديه طموحاته الخاصة في المجال السياسي -نزعة تمجيد كورنيلوف، التي ساهم في خلقها، كانت تجسيدا واضحا لذلك- ولا بد أن يكون قد أحس بالإغراء من خلال الإلحاح المستمر لأنصاره، من أمثال زافويكو، لاستغلال شعبيته الهائلة من أجل تنصيب نفسه ديكتاتورا»<sup>2</sup>.

1: A. Rabinowitch, *Bolsheviks Come to Power*, p: 68.

2: O. Figs, *A People's Tragedy: The Russian Revolution 1891-1824*, pp: 445-46.

طريقة فيغز في التحليل مثيرة للشفقة، حيث يعتمد على أن كورنيلوف كان يزعم أن زحف جيشه على بتروغراد لم يكن إلا من أجل "إنقاذ" الحكومة من "الانقلاب البلشفي"، الذي قيل إنهم يخططون للقيام به في نهاية غشت. كان "الانقلاب البلشفي" مجرد افتراء، وكان من الواضح أن اختلاقه كان مبررا لقيام كورنيلوف بتوجيه الأمر للجنرال كرميوف بالزحف على بتروغراد. ولا يتعين على المرء أن يكون عبقريا لكي يرى أن كورنيلوف كان يستخدم فقط التكتيك المعروف المتمثل في إخفاء العمل الهجومي تحت ستار إجراء دفاعي. فمن خلال التظاهر بأنه يسعى "لإنقاذ" الحكومة الحالية، كان سوف يضعها تحت رحمته، ثم سيكنسها جانبا وينصب نفسه ديكتاتورا. هذا السيناريو ليس جديدا. إنه نفس الطريق القديم الذي يجتازه كل البونابرتيون، بدء من نابليون.

حاول البونابرتي الطموح الآخر، كيرينسكي، عقد صفقة مع كورنيلوف من خلال مبعوثه، النائب الأكتوبري ف. ن. لفوف. لكن كورنيلوف أخبر لفوف أنه يطالب بصلاحيات ديكتاتورية لنفسه. لم يكن هناك مجال لبونابرت ثان! عندها فقط بدأ كيرينسكي يندد بـ"مؤامرة كورنيلوف المضادة للثورة" ضد الحكومة. أصدر الأمر لكورنيلوف بسحب قواته. لو أنه كان بالفعل يعمل لإنقاذ الحكومة المؤقتة، لكان خضع للأوامر وتراجع إلى الثكنات. لكنه، بدلا من ذلك، أعلن عزمه على "إنقاذ روسيا" من حكومة أصبحت الآن تحت سيطرة البلاشفة!

في 25 غشت بدأ الجنرال كورنيلوف زحفه على بتروغراد. كان ذلك بمثابة تحول مفاجئ وحاد في الأحداث، وهو ما يعد أحد الخصائص الرئيسية للفترة الثورية. نرى هنا أهمية التكتيكات، التي بطبيعتها يجب أن تكون مرنة، بحيث يمكن للحزب الثوري تغيير المسار في غضون أيام، أو حتى ساعات إذا لزم الأمر. كان السؤال المطروح هو: ما هو الموقف الذي يجب على البلاشفة أن يتخذوه في الصراع بين كيرينسكي وكورنيلوف؟ على الرغم من السياسة القمعية والمعادية للثورة التي نهجتها الحكومة، كان من الضروري الانضمام إلى الكفاح ضد قوى الردة الرجعية المفتوحة التي كان يمثلها كورنيلوف. لقد فهم العمال ذلك بشكل غريزي، بمن فيهم العمال البلشفيون في منطقة فيبورغ، الذين كانوا أول من سارعوا إلى الدفاع عن بتروغراد.

كان القادة الإصلاحيون في اللجنة التنفيذية السوفياتية، الذين شعروا بالقلق من هذا التحول في الأحداث، مضطرين إلى إصدار الدعوة للعمال للدفاع عن الثورة. تمت دعوة البلاشفة للمشاركة في لجنة الكفاح ضد الثورة المضادة. تم إطلاق سراح القادة البلاشفة، بمن فيهم تروتسكي، من السجون التي كانوا يقبعون فيها منذ أحداث يوليو. وعلى الفور قبل البلاشفة بعرض تشكيل جبهة موحدة، وانخرطوا بقوة في الكفاح ضد الثورة المضادة. ومع ذلك فإن السياسة البلشفية لم تكن تعني بأي حال من الأحوال دعم الحكومة المؤقتة، كما أوضح لينين قائلا: «حتى في الوقت الحالي يجب علينا ألا ندعم حكومة كيرينسكي. هذا غير مبدئي. قد يطرح علينا السؤال التالي: ألن نحارب كورنيلوف؟ بالطبع يجب علينا ذلك! لكن هذا ليس الشيء نفسه؛ يوجد خط فاصل هنا، خط تخطاه بعض البلاشفة الذين سقطوا في التوفيقية وسمحوا لأنفسهم بأن يجرفهم مسار الأحداث. سنقاتل ضد كورنيلوف، ونحن نقاتل ضده، تماما مثلما تفعل قوات كيرينسكي، لكننا لا ندعم كيرينسكي. وعلى العكس من ذلك، نحن نكشف ضعفه. هنا يوجد الفرق. إنه بالأحرى فرق بسيط، لكنه ضروري للغاية ويجب عدم نسيانه»<sup>1</sup>.

صرح لينين بأن البلاشفة سوف يستخدمون كيرينسكي "كمسدس احتياطي" للقتال ضد كورنيلوف، وبعد ذلك، عندما سيصيرون أقوياء بدرجة كافية، سيعودون لتصفية الحساب معه: «نحن نغير شكل كفاحنا ضد كيرينسكي. وبدون التخفيف من عداءنا تجاهه، ودون التراجع عن أي كلمة قلناها ضده، ودون التخلي عن مهمة الإطاحة به، نقول إنه يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار الوضع الحالي. يجب علينا ألا نعمل على الإطاحة بكيرينسكي الآن. علينا أن نخوض الكفاح ضده بطريقة مختلفة، أي أنه يجب علينا أن نوضح للشعب (الذي يقاتل ضد كورنيلوف) ضعف كيرينسكي وتذبذبه. لقد تم القيام بذلك في الماضي أيضا. لكنه صار الآن الشيء الأكثر أهمية وهذا ما يشكل التغيير»<sup>2</sup>.

هذا هو جوهر تكتيك لينين طوال عام 1917: عدم مهاجمة القادة الإصلاحيين مباشرة، بل التغلب عليهم. العمل على مهاجمة العدو الرئيسي: كبار ملاكي الأراضي والرأسماليين وقوى الردة الرجعية، وإعطاء الدليل في الممارسة على أن الإصلاحيين عاجزون عن خوض النضال ضد الرجعية، وغير قادرين على التصرف بحزم لصالح العمال والفلاحين.

كان ذلك مثالا كلاسيكيا للسياسة اللينينية للجبهة الموحدة في الممارسة. ألقى البلاشفة بثقلهم في النضال إلى جانب العمال والجنود المناشقة والاشتراكيين الثوريين، الذين كانوا قد صدقوا في وقت سابق التشهير القائل بأن البلاشفة "عملاء ألمان". لقد أثبتوا

1: LCW, To the CC of the RSDLP, vol. 25, pp: 285-286.

2: LCW, To the CC of the RSDLP, vol. 25, 286.

في الممارسة أنهم كانوا أفضل المقاتلين ضد الثورة المضادة، وبالتالي وضعوا الأساس لكسب جماهير العمال والجنود الذين كانوا حتى ذلك الوقت يساندون القادة الإصلاحيين.

لا شك في أن مشاركة البلاشفة كانت حاسمة في إلحاق الهزيمة بكونريلوف، وهو ما يعترف به حتى فيغز المناهض للبلاشفة، حيث يقول: «مثلت لجنة النضال جبهة موحدة للحركة السوفياتية بأكملها، لكنها كانت تعتمد فعليا على المنظمة العسكرية البلشفية، والتي بدونها، على حد تعبير سوخانوف، "كان يمكن أن يمر الوقت في إصدار النداءات وإلقاء الخطب الفارغة من قبل خطباء فقدوا سلطتهم". وحدهم البلاشفة من كانت لديهم القدرة على تعبئة وتسليح جماهير العمال والجنود، وقد عملوا بتعاون وثيق مع خصومهم داخل السوفييتات»<sup>1</sup>.

عمل البلاشفة باستخدام الأساليب الثورية على تعبئة العمال ضد الكورنيلوفيين. كان الكورنيلوفيون من الناحية النظرية يمتلكون قوة هائلة. كانت قواتهم الصدامية تسمى الفرقة الهمجية، وتم تجنيدها من بين القبائل الجبلية المحاربة في شمال القوقاز. لكن سرعان ما توقفت حركة القوات الرجعية، بقيادة الجنرال كرموف. قام عمال السكك الحديدية بتخريب حركة القطارات حيث أخرجوها عن مسارها وأطاحوا بها جانبا، كما لو بأيدي خفية. ومجرد ما تم إيقاف تقدم القوات، اخترق المحرضون البلاشفة صفوف القوات المتمردة وأقنعوا القوزاق بعدم القتال. قام وفد من مسلمي القوقاز الذين تصادف وجودهم في مؤتمر السوفييتات في بتروغراد وقت التمرد بمخاطبة أعضاء الفرقة الهمجية بلغتهم الأصلية. وسرعان ما بدأ الجنود أنفسهم يلقون القبض على الضباط المتمردين، في حين انتحر كرموف، وتحطمت ثورة كورنيلوف مثلما تنكسر الموجة على صخر الشاطئ.

كتب ماركس ذات مرة أن الثورة تحتاج إلى سوط الثورة المضادة لكي تتقدم، وقد أكدت الأحداث أن ذلك صحيح. وما كان من المفترض منه أن يكون الخطوة الحاسمة للثورة المضادة تحول إلى نقيضه. لقد أعطت هزيمة كورنيلوف دفعة قوية للثورة. انقلب الجنود في كل مكان ضد ضباطهم، وتم القبض على الكثير منهم على يد جنودهم. تعرض الضباط الممقوتون منهم للإعدام. وصوتت مجالس الجنود لصالح التوقيع الفوري على السلام، ونقل السلطة إلى السوفييتات. كما أنهم صوتوا بأقدامهم، حيث تفككت وحدات كاملة، وعاد الجنود الفلاحون إلى قرأهم. وبدوره كان وصول الكثير من العناصر الراديكالية من الجبهة بمثابة حافز لاندلاع ثورات الفلاحين التي شهدتها شهر شتبر. لقد دخلت الثورة مرحلتها الحاسمة.

### النضال من أجل كسب الجماهير

كانت السوفييتات، دون شك، هي الساحة الحاسمة للنضال. ومنذ اللحظة الأولى لعودة لينين، صار الحزب البلشفي موجها بحزم نحو هدف الاستيلاء على السلطة. لكن الشرط المسبق لذلك كان هو كسب الأغلبية الساحقة من الطبقة العاملة. وكان هذا يعني كسب الأغلبية داخل تلك المنظمات التي تتمتع بولاء جماهير العمال والجنود، أي السوفييتات. لكن العائق الكبير كان هو هيمنة الزعماء الإصلاحيين، المناشقة والاشتراكيين الثوريين، عليها. فمن فبراير حتى الصيف، استمرت الأغلبية في يد المناشقة والاشتراكيين الثوريين الذين فضلوا التحالف مع الليبراليين البرجوازيين، رغم أنهم اضطروا إلى تغطية هذه السياسة باستخدام الصيغة القديمة، «دعم الحكومة المؤقتة "بقدر" ما طبقت هذه السياسة أو تلك». كان هذا الإسكات انتقادات العمال السوفييتاتيين الذين كانوا بطبيعتهم لا يثقون في الحكومة البرجوازية، لكنهم كانوا يثقون في قادتهم وما كانوا ليتخلوا عنهم بشكل تلقائي، رغم أنهم لم يكونوا يتفقون مع بعض سياساتهم. كان وضع البلاشفة في البداية سيئا للغاية. كان ضعفهم داخل السوفييتات، بعد فبراير مباشرة، أكبر مما تشير إليه الأرقام. كانت لديهم تمثيلية كبيرة في بعض السوفييتات لأنهم تعاونوا مع المناشقة لتقديم قوائم مشتركة. وهكذا تمكن البلاشفة، في ساراتوف، من الحصول على ثلاثة مقاعد من أصل خمسة في هيئة رئاسة السوفييت، بينما لم يكن لديهم سوى 28 نائبا من أصل 248 نائبا في الجلسة العامة<sup>2</sup>.

منذ الربيع فصاعدا شن البلاشفة حملة نشطة لإجراء انتخابات جديدة للسوفييتات. خلال الثورة تتعلم الجماهير بسرعة من تجربتها الخاصة. صحيح أن السوفييتات معبر أكثر صدقا عن الحالة المزاجية المتغيرة للجماهير ووعيا أكثر من أي برلمان. لكن حتى السوفييتات تخلفت عن الوضع المتغير بسرعة، وكانت في أغلب الأحيان تعكس أفكار وتطلعات الجماهير بالأمس وليس أفكارها وتطلعاتها اليوم. كان البلاشفة أقوىاء دائما في لجان المصانع لأنها كانت الأقرب إلى العمال في القواعد ومن ثم كانت تعكس

1: O. Figs, *A People's Tragedy: The Russian Revolution 1891-1924*, p: 452.

2: J.L.H. Keep, *The Rise of Social Democracy in Russia*, p: 142.

بسرعة أكبر المزاج الحقيقي الموجود في القاع.

شهد تكوين السوفييتات تحولا جذريا بين شهري غشت وشتنبر. وقد شكلت قضية كورنيلوف، مرة أخرى، نقطة التحول الحاسمة. فتهديد الثورة المضادة دفع السوفييتات إلى المطالبة باتخاذ إجراءات حاسمة، وبدأت الشعارات البلشفية بخصوص القطيعة مع البرجوازية و"كل السلطة للسوفييتات" تتغلغل بين صفوف الجماهير. بدأت اللجنة التنفيذية السوفييتية تغرق تحت جبال البرقيات التي تطالبها بالاستيلاء على السلطة. وعلى الرغم من أن السيرورة لم تكن بوتيرة واحدة، فإن الاتجاه العام صار، من ذلك الوقت فصاعدا، في صالح البلاشفة بشكل واضح. كانت اللجنة التنفيذية السوفييتية ما تزال متمسكة بسياستها المشؤومة في دعم الحكومة المؤقتة، لكنها لم تكن تحظى سوى بأغلبية ضئيلة. كان هناك 86 مندوبا لصالح إعطاء السلطة للسوفييتات، مقابل 97 معارضا فقط. لكن الوضع كان يتغير كل يوم، بل وكل ساعة تقريبا.

حدث تحول حاسم في الأسبوع الأول من شهر شتنبر، عندما انتقلت السيطرة على سوفييت بتروغراد إلى أيدي البلاشفة. ظهر ميزان القوى الجديد عندما حصل قرار اقتراحه البلاشفة، يطالب بتشكيل حكومة من العمال والفلاحين، على 229 صوتا لصالحه مقابل 115 صوتا ضده وامتناع 51 عن التصويت، مما أظهر أن العديد من العمال المناشفة والاشتراكيين الثوريين قد صوتوا لصالح البلاشفة. نتيجة لذلك أعلنت القيادة الإصلاحية المصدومة استقالته. شعر الإصلاحيون بالذعر إزاء فقدانهم لهذا السوفييت الرئيسي، فبدأوا على الفور حملة غاضبة على صفحات إزفستيا، زاعمين، كما هي العادة في مثل هذه الحالات، أن الاجتماع لم يكن تمثيلا، ودعوا جميع المندوبين إلى حضور الاجتماع الموالي من أجل إسقاط القرار<sup>1</sup>.

كانت جلسة 09 شتنبر ساخنة جدا. كان الجميع يدرك الأهمية الحيوية للنتيجة. عملت جميع الفصائل على أن يحضر جميع مندوبيها. حضر حوالي 1.000 مندوب. خشي الوفد البلشفي من عدم تمكنهم من الحصول على الأغلبية بمفردهم لأجل الإطاحة بالرئاسة، فاقترحوا أن يكون التصويت على أساس نسبي. أدان لينين هذه الخطوة الإجرائية، التي كان يخشى أن تشوش على جوهر القضية التي يدافع عنها البلاشفة. كانت القضية هي مسألة سلطة العمال، ولا ينبغي السماح لأي قدر من المشاحنات الدستورية بإخفاء ذلك. لكنه لم يكن هناك ما يبرر قلق لينين، فالقضايا كانت واضحة بما فيه الكفاية للجميع، وكان لذلك الاقتراح الإجرائي ميزة أنه ساعد في كسب العناصر المترددة، أي مجموعة مارتوف وحتى الاشتراكيين الشعبيين الأكثر يمينية. وعلى أي حال، فقد قام رئيس الجلسة، تسيريتيلي، برفض التسوية لكونها خارج جدول الأعمال. لكن اليمين أخطأ حساباته. فمن خلال رفضهم للحل الوسط وإلزام المندوبين بالتصويت على قرار مباشر طرحه الإصلاحيون، يقول بأن التصويت السابق في 01 شتنبر لا يتوافق مع خط السوفييتات، ويجدد الدعم للقيادة القديمة، أجبروا البلاشفة على الانتقال إلى الهجوم ورفع حدة الاستقطاب داخل الاجتماع. لقد صارت المسألة: "إما هذا... أو ذاك".

كان تروتسكي هو المتحدث الرئيسي باسم البلاشفة، في أول ظهور علني له منذ إطلاق سراحه. تم استقباله بتصفيق حار من جانب جزء من القاعة، قبل أن يشن هجوما عنيفا على الرئاسة. سألهم هل ما يزال كيرينسكي عضوا في هيئة الرئاسة، نعم أم لا؟ وضع السؤال هيئة الرئاسة في موقف جد حرج. وبعد تردددهم للحظة، جاء الجواب بالإيجاب، وهو ما استغله تروتسكي إلى أقصى الحدود، حيث قال: «لقد اعتقدنا اعتقادا راسخا أنه لن يُسمح لكيرينسكي بالجلوس في منصة الرئاسة. لكننا كنا مخطئين. إن شبح كيرينسكي يجلس الآن بين دان وتشيدز... وبالتالي فإنه عندما يقترحون عليكم الموافقة على الخط السياسي للرئاسة، لا تنسوا أنكم ستوافقون بذلك على سياسات كيرينسكي»<sup>2</sup>.

حتى في هذه المرحلة كان البلاشفة لا يوجهون نيرانهم بشكل رئيسي نحو الإصلاحيين، بل كانوا يركزون دائما على البرجوازيين وكيرينسكي الذي كان قد صار متماهيا بشكل كامل مع البرجوازية. ومن خلال هذه الدعاية الماهرة، نجحوا في كسب العمال الذين كانوا حتى وقت قريب يقفون بحزم خلف المناشفة والاشتراكيين الثوريين. ومن خلال تركيز هجماتهم على العدو الطبقي، تمكنوا من أن يفضحوا بشكل منهجي سياسات التعاون الطبقي التي يتبناها الإصلاحيون وجنهم وعدم رغبتهم في مواجهة أعداء العمال والفلاحين، وبالتالي دقوا إسفينًا بين الإصلاحيين وبين مؤيديهم.

جاءت نتيجة التصويت واضحة جدا: 414 صوتا لصالح التحالف؛ 519 صوتا ضد التحالف؛ وامتناع 67. كان انتصار البلاشفة هذا عظيما لكون الإصلاحيين لم يدخروا أي جهد في إغراق الاجتماع بمؤيديهم وأصروا على تحويل التصويت إلى استفتاء حول هذه

1: O. Anweiler, Los Soviets en Rusia: 1905-1921, p: 189.

2: L. Trotsky, The History of the Russian Revolution, p: 805.

القضية: التحالف أو السلطة للسوفييتات؟ الإصلاحية أو البلشفية؟ وكانت الهزيمة ضربة قوية للجناح اليميني. كانوا قد استثمروا الكثير من أجل الفوز في هذا الاجتماع إلى درجة أن خسارتهم للأصوات حطمتهم تماما. ومن ناحية أخرى شعر الجناح اليساري بالثقة واستغل الوضع لصالحه. في 11 شتبر عندما دافع دان، في سوفييت بتروغراد، عن التحالف ضد موقف تروتسكي الذي دافع عن تشكيل حكومة سوفييتية، تم رفض التحالف بعشرة أصوات فقط، وامتناع سبعة عن التصويت، أما الآن فقد حسمت المعركة في بتروغراد بشكل كامل.

صار المد يتدفق بقوة لصالح البلاشفة في كل مكان. يوم 05 شتبر، أعلن مؤتمر سوفييت وسط سيبيريا دعمه الكامل للبلاشفة. وسرعان ما حذت موسكو حذوه، حيث فاز البلاشفة بالأغلبية ليس فقط في مجلس السوفييت، بل كذلك في لجنة الجنود التي كانت موجودة بشكل منفصل عنه. وفي انتخابات اللجنة التنفيذية السوفييتية لعمال موسكو، التي جرت في 19 شتبر، فاز البلاشفة بـ 32 مقعدا مقابل 16 مقعدا للمناشفة. تم انتخاب نوغين رئيسا. وفي 05 أكتوبر، قدم البلاشفة قرارا بشأن الوضع الراهن في جلسة سوفييت العمال والجنود وكانت النتيجة 335 صوتا مع القرار، مقابل 254 صوتا ضده. لكن الوضع في اللجنة التنفيذية لسوفييت الجنود كان مختلفا، فهنا استمر البلاشفة أقلية، حيث حصلوا على 16 مقعدا مقابل 26 مقعدا للاشتراكيين الثوريين وتسعة للمناشفة - وهو الوضع الذي استمر حتى ثورة أكتوبر. لهذا السبب كانت الاجتماعات العامة المشتركة بين اللجنتين التنفيذيتين تشهد توازن القوى بين الفصائل المتصارعة وكان البلاشفة يجدون أنفسهم في بعض الأحيان في موقع الأقلية، على الرغم من أنهم عادة ما كانوا يتمكنون من تمرير توصياتهم. من جهة أخرى تمكن البلاشفة منذ شهر ماي من كسب الأغلبية في منطقة موسكو ككل<sup>1</sup>.

كان للبلاشفة موقع قوي في المناطق الشمالية المحيطة ببتروغراد. ففي سوفييت كرونشتاد كان لديهم 100 مندوب، بينما كان للاشتراكيين الثوريين اليساريين 75 مندوبا، و12 للمناشفة الأميين و07 مناديب للاسلطويين، بقية المناديب (90) كانوا مستقلين. كما حصل البلاشفة على الأغلبية في فنلندا - خاصة في هيلسينغفورس وفيبورغ، حيث كانت سلطة الحكومة المؤقتة قد سقطت فعلا منذ شتبر. في إستونيا أيضا كان فوز اليسار واضحا. ففي شتبر كانت الغالبية العظمى في ريفال ودوربات وويندن إلى جانب البلاشفة والاشتراكيين الثوريين اليساريين. وفي اللجنة الإقليمية المنتخبة في أكتوبر، كان هناك ستة بلاشفة وأربعة اشتراكيين ثوريين يساريين ومنشفي أممي واحد واشتراكي ثوري يميني واحد. قطع مجلس أسطول البلطيق - سنتروبالت - جميع العلاقات مع الحكومة المؤقتة وبدأ يسير شؤونها الخاصة بنفسه. وفي منتصف أكتوبر صوت الفيلق الخامس، الذي كان يعتبر من أرقى أفواج الخطوط الأمامية، لتشكيل لجنة جديدة ضمت أغلبية بلشفية. وهكذا لم تقف بتروغراد وحدها إلى جانب البلاشفة، بل جميع المناطق المحيطة بها أيضا.

إن الكفاح من أجل كسب النفوذ داخل النقابات، التي هي الأجهزة الأساسية لتنظيم الطبقة العاملة، احتل تاريخيا مكانة مركزية في استراتيجية الحزب البلشفي وتكتيكاته. ومع ذلك فخلال الثورة الروسية، وبينما استمر النضال من أجل السيطرة على النقابات بلا هوادة، صار في المركز الثاني خلف النضال الموازي داخل السوفييتات ولجان المصانع. كانت هناك عدة أسباب لذلك. ففي روسيا القيصرية عاشت النقابات العمالية حياة محفوفة بالمخاطر في ظل نظام استبدادي عرض أعضائها، في كثير من الأحيان، للاعتقالات وجميع أنواع الحظر التي قيدت بشدة حريتها في الحركة. وهكذا ففي عام 1917 كانت النقابات في حالة ضعيفة نسبيا، حيث كانت لا تضم سوى أقلية صغيرة من العمال، معظمهم من العمال الأكثر تأهيلا والأفضل أجرا. أما أغلبية العمال غير المنظمين الذين تدفقوا إلى ساحة النضال بعد شهر فبراير، فقد نظموا أنفسهم بشكل تلقائي في السوفييتات ولجان المصانع التي كانت أكثر مرونة وأكثر تمثيلية من النقابات التي غالبا ما كانت تحت سيطرة العناصر المحافظة التي كانت تميل بشكل طبيعي إلى المناشفة وليس إلى الجناح الثوري.

كانت لجان المصانع من بين المؤسسات الأولى التي التحقت بالبلاشفة. وبحلول يونيو- يوليو كانت لجان مصانع بتروغراد قد صارت بالفعل تحت سيطرة البلاشفة. خلال كونفرانس لجان المصانع الثالث لعموم روسيا (22-17 أكتوبر)، كان أكثر من نصف المندوبين ذوي الحق في التصويت (البالغ عددهم 167 عضوا) من البلاشفة الذين تمتعوا أيضا بدعم 24 مندوبا اشتراكيًا ثوريا، بينما كانت المعارضة تتألف من سبعة مناشفة و13 من النقبائين اللاسلطويين. كان ذلك كما قال تروتسكي بفخر: «أوضح تعبير عن الدعم البروليتاري المباشر والأكيد في البلد بأسره»<sup>2</sup>.

بطبيعة الحال لم يكن العمل في السوفييتات ولجان المصانع يعني أن البلاشفة أهملوا النقابات. بل على العكس تماما، إذ طيلة

1: O. Anweiler, Los Soviets en Rusia: 1905-1921, pp: 190-191.

2: L. Kochan, Russia in Revolution, p: 269.

عام 1917 كانت النقابات العمالية ميدانا للصراع المستمر بين التيار الثوري والقادة الإصلاحيين. كان تقدم البلشفة أسرع بين عمال الصلب في بتروغراد، حيث حققوا بشكل سريع نجاحا ساحقا. كان العمال يلتحقون بشكل جماعي بالبلشفة خلال اجتماعات المصانع التي كانت جميع القرارات الرئيسية تتخذ فيها بالتصويت عبر رفع الأيدي. وهناك أيضا كانت فئات شابة جديدة تنجذب على الفور نحو الجناح الثوري. وقد كانت تلك الفئات بالذات هي التي غيرت الوضع الداخلي للحزب البلشفي نفسه. في أبريل كان جميع أعضاء اللجنة التنفيذية في نقابة عمال الصلب في بتروغراد، باستثناء أربعة منهم، من البلشفة. وبحلول يونيو كان لمنظمة بتروغراد جهاز كامل يضم أكثر من مائة شخص يتلقون أجورهم من صندوق النقابة. ومن بتروغراد امتد تأثير الحزب في النقابات إلى مناطق أخرى. بحلول شهر ماي، صارت نقابات عمال الصلب تضم 54.000 عضو، وبحلول غشت صارت تضم 138.000 عضوا<sup>1</sup>. وبالنظر إلى أن إجمالي القوى العاملة في صناعة الصلب كان في يناير 1917، يبلغ 546.100 عامل، فإن ذلك يمثل نسبة كبيرة من بين إحدى الفئات الرئيسية من البروليتاريا. وبحلول نهاية العام صرحت تلك النقابات أنها صارت تضم 544.527 عضوا في 236 فرعا.

أما في نقابة عمال النسيج، الذين كانوا يشكلون ثاني أهم مجموعة، فقد كانت الصورة أكثر اختلاطا. في يونيو صرحت النقابة أنها تضم 240.000 عضو، ويمكن أن تكون قد وصلت إلى 400.000 عضو بحلول أكتوبر. كان ذلك الرقم نصف إجمالي العاملين في القطاع. كانت النساء تشكلن الجزء الأكبر من القوى العاملة فيه. وقد تأثر القطاع بالبطالة بشدة، لذلك كان المطلب الرئيسي في البداية هو إيجاد حلول للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية الملحة بدلا من السياسة الثورية. وهذا ما يفسر سبب سيطرة المناشفة والاشتراكيين الثوريين على النقابة في الفترة التي تلت فبراير (باستثناء بتروغراد، حيث كانت للبلشفة مجموعة صغيرة قبل ثورة فبراير، سرعان ما أصبحت القوة المهيمنة). لكن البلشفة، الذين استخدموا مرة أخرى قاعدتهم في بتروغراد كمنصة انطلاق، شرعوا في كسب المواقع الواحد تلو الآخر، بدءا بالمناطق الصناعية الرئيسية. في يونيو دعوا إلى كونفرانس جهوي تم فيه إصدار عدد من القرارات المستوحاة من توصيات بلشفية، طالبت، من بين أمور أخرى، بفرض الرقابة العمالية على الصناعة. زعم قادة المناشفة، بنفس الطريقة التي تلجأ إليها جميع البيروقراطيات النقابية عندما تتعرض للهزيمة، أن الكونفرانس "غير شرعي". لكنه في الواقع كان يعكس التحول العام نحو اليسار بين العمال الذين بدأوا في التحرر من تأثير القادة الإصلاحيين. اتضحت الحالة المزاجية السائدة بين العمال في حقيقة أن الكونفرانس انتخب لجنة تنفيذية جديدة احتل البلشفة فيها موقع القيادة.

وهكذا، خطوة بخطوة، بدأ العمل الدؤوب والمنهجي الذي قام به التيار الثوري، ينتزع المواقع الواحد منها تلو الآخر من يد المناشفة والاشتراكيين الثوريين. وبحلول غشت تمكن البلشفة من الحصول على موقع قوي في النقابات الصناعية الرئيسية. يشرح أنويلر نمو البلشفة في النقابات قائلا: «بينما لم يحصل البلشفة في مؤتمر عموم روسيا لنقابات العمال (يونيو 1917) سوى على 36,4% فقط من الأصوات، من أصل 117 مندوبا، فإن الكونفرانس الديمقراطي الذي انعقد في شتبر، شهد وقوف 58% إلى جانب البلشفة، مقابل 38% للمناشفة والاشتراكيين الثوريين اليمينيين».

وحدث تغير في الوعي حتى في نقابات العمال ذوي الياقات البيضاء والحرفيين التي عادة ما تكون محافظة. تمكن البلشفة من كسب العديد من الأنصار داخلها، رغم أنهم استمروا أقلية. ومع ذلك فإن الأمور كانت مختلفة في الهياكل القيادية للنقابات. أدى ببطء حركية الهياكل النقابية إلى أن التغيرات التي شهدتها القواعد استغرقت وقتا طويلا قبل أن تنعكس في القمة. وفي العديد من النقابات لم يتمكن البلشفة من الحصول على القيادة إلا بعد ثورة أكتوبر. بل إن بعضها لعب دورا معاديا للثورة بشكل صريح، لا سيما نقابة موظفي البنوك ونقابة عمال السكك الحديدية لعموم روسيا، وحاولت عرقلة عمل الحكومة السوفياتية بعد الثورة.

بقي البلشفة، حتى شهر غشت، أقلية صغيرة داخل الطبقة العاملة. كانوا أصغر مجموعة في السوفييتات. وينطبق الشيء نفسه على المجالس المحلية والنقابات. في أبريل بلغ عدد أعضاء الحزب حوالي 80.000. وبحلول غشت وصل العدد إلى 240.000<sup>2</sup>. لكن نفوذ الحزب بين الطبقة العاملة كان ينمو، لا سيما منذ تمرد كورنيلوف. في بعض المناطق، مثل إيفانوفو- فونزيسينك، كان البلشفة قد صاروا أغلبية منذ الربيع، لكن تلك الحالات كانت استثنائية. أما في الأقاليم، ولا سيما في المناطق الريفية، فقد كانت الهوة التي تفصل البلشفة عن الأحزاب الإصلاحية هائلة.

بدأت أحداث يوليو كما لو أنها وقعت شهادة وفاة البلشفة. لكن الحزب تمكن، في غضون أسابيع قليلة، من استعادة كل المواقع التي فقدتها. كانت تكتيكات البلشفة في النضال ضد كورنيلوف هي نقطة التحول الحاسمة، حيث حققت للبلشفة شعبية كبيرة باعتبارهم المقاتلين الأكثر حزما وحيوية ضد الثورة المضادة، وقضت نهائيا على الافتراءات ضدهم بكونهم "معادين للثورة"

1: J.L.H. Keep, The Rise of the Social Democracy in Russia, p: 101.

2: O. Anweiler, Los Soviets en Rusia, pp: 187, 186.



و"عملاء للألمان". بدأ المد يتدفق بقوة لصالح البلاشفة لدرجة أصبح من الواضح أن الحكومة المؤقتة عاجزة عن حل أي مشكلة من المشاكل الملحة التي تواجه الشعب الروسي، وأن القادة الإصلاحيين كانوا مجرد عملاء للرأسماليين. اكتسب شعار البلاشفة: "السلام والخبز والأرض" قاعدة أوسع من أي وقت مضى.

بحلول أواخر غشت وأوائل شتنبر، أصبح البلاشفة القوة الجماهيرية الرئيسية، ليس فقط في بتروغراد وموسكو، بل وفي الأقاليم أيضا. وعلى الرغم من أن الحزب استمر صغيرا نسبيا في ما يخص العضوية، فقد كان لكل عضو علاقة مع 20 أو 30 أو 50 عاملا وجنديا يعتبرون أنفسهم بلاشفة. في ظل تلك الظروف، عندما كان المد يتدفق بقوة لصالح التيار الثوري، كان حتى الاضطهاد يخدمه كحافز للنمو. والعمال الذين ينظمون الإضرابات من أجل الحصول على أجور أعلى، مما يعرضهم لحملة من الاستهجان من قبل الصحافة البرجوازية التي كانت تهاجمهم باعتبارهم بلاشفة، بدأوا يقتنعون تماما بعدالة قضية البلاشفة، على الرغم من أنهم لم يكونوا قد قرأوا ولو سطرا واحدا من كتابات لينين. كان التيار البلشفي ينمو لسبب بسيط هو أن سياساته وشعاراته كانت تتوافق بشكل وثيق مع احتياجات وتطلعات العمال والفلاحين.

«خلال الكونغرس السابع لعموم روسيا، في الأسبوع الأول من شهر ماي<sup>1</sup>، حضر 149 مندوبا يمثلون 79.204 عضو حزبي. كانت أكبر التجمعات هي تلك القادمة من إقليم بتروغراد والأورال (أكثر من 14.000 لكل منهما)، مع حضور مهم لإقليم موسكو (7.000 عضو) وحوض دونيتس (5.000 عضو). زادت قوة الحزب بسرعة خلال الأشهر القليلة التالية. وفي غشت أخبر سفيردولوف المؤتمر السادس أن عدد المنظمات ارتفع من 78 إلى 162، وقدرة القوة الكلية للحزب بـ200.000 عضو. لا تتوفر معلومات حول عدد أعضاء الحزب بحلول نوفمبر، لكن من المفترض أنه قد حدثت زيادة أخرى، حيث إن البيانات غير المكتملة المتاحة لسكرتارية اللجنة المركزية حول عضوية المنظمات تظهر حدوث زيادة في عدد من المنظمات بعد شهر غشت<sup>2</sup>».

انعكس نمو الحزب في عدد كبير من الإحصائيات. تحقق النصر الأول في لجان المصانع. كان ذلك الأمر مهما لأن لجان المصانع هي المنظمات التي تعكس بشكل وثيق المزاج الحقيقي للعمال في أماكن العمل. ازدهرت لجان المصانع بشكل فوري بعد ثورة فبراير، باعتبارها استمرارا للجان الإضراب. كانت في طليعة النضال من أجل يوم عمل من ثماني ساعات، والذي كثيرا ما نفذه العمال بمبادرة ذاتية منهم. لقد استقبلت لجان المصانع مطلب الرقابة العمالية الذي رفعه البلاشفة بتأييد كبير، وعملت على فرضه في العديد من الشركات حيث مارست الرقابة على عمليات التوظيف والتسريح وتشكيل ميليشيات عمالية ومكافحة محاولات أرباب العمل تخريب الإنتاج.

انعقد أول مؤتمر للجان المصانع في بتروغراد، خلال الفترة الممتدة ما بين 30 ماي و03 يونيو. شهد ذلك المؤتمر صداما مريرا بين البلاشفة والمناشفة حول دور ومهام اللجان. كان المناشفة يعارضون بطبيعة الحال الرقابة العمالية التي تتعارض مع كامل مفهومهم عن الطبيعة البرجوازية للثورة وحق البرجوازيين في الحكم. لكن المؤتمر صادق على القرار البلشفي. شارك لينين في ذلك المؤتمر وصاغ القرار "حول تدابير مواجهة الاضطراب الاقتصادي"، الذي تمت المصادقة عليه بأغلبية كبيرة. ابتداء من صيف 1917 صارت لجان المصانع في بتروغراد وموسكو والأورال بلشفية بشكل راسخ.

كانت هناك الكثير من الأدلة الأخرى على أن البلاشفة يكسبون المواقع. فحتى في انتخابات المجالس البلدية، كان البلاشفة يحصلون على نتائج مذهلة. خلال الانتخابات المحلية التي أجريت في غشت، في بتروغراد، زادوا عدد مقاعدهم من 37 إلى 67، واحتلوا المركز الثاني خلف الاشتراكيين الثوريين الذين حققوا 75 مقعدا. حصل الكاديت على 42 مقعدا، لكن المناشفة شهدوا انخفاض عدد مقاعدهم من 40 إلى 08 فقط. هذا يظهر بوضوح الميل القوي نحو اليسار. والشيء الأكثر إثارة للدهشة كان هو نتائج الانتخابات المحلية في موسكو. يقارن الجدول التالي تلك النتائج بنتائج انتخابات يونيو:

جدول يوضح نتائج الانتخابات المحلية بموسكو حسب الشهور

الأحزاب	عدد الأصوات		النسبة المئوية	
	يونيو	شتنبر	يونيو	شتنبر
الاشتراكيون الثوريون	374.885	54.374	58%	14%
المناشفة	76.407	15.887	12%	04%

1: شهر ماي في التقويم الجديد، ويقصد به شابيرو كونفرانس أبريل.

2: L. Schapiro, The Communist Party of the Soviet Union, p: 171.

26%	17%	101.106	168.781	الكاديت
51%	12%	198.230	75.409	البلشفية

(المصدر: O. Anweiler, *Los Soviets en Rusia: 1905-1921*, p: 188.)

هذا مهم لأنه كانت تلك أول مرة يحصل فيها البلشفية على أغلبية مطلقة من الأصوات. تشير أرقام شهر يونيو إلى انتخابات مجلس دوما مدينة موسكو، في حين تشير أرقام شهر شتنبر إلى انتخابات المقاطعات. وفي هذه الأخيرة لم تكن المشاركة عالية جدا (50%). ومع ذلك فإن هذا لا يقلل من أهمية النتيجة المحققة. يجب ألا ننسى أن انتخابات البرلمان والمجالس المحلية ليست المجال الأكثر ملاءمة بالنسبة للحزب الثوري. يكون من الأسهل على الحزب الثوري عموما الحصول على نتائج أفضل في انتخابات النقابات أو لجان المصانع. وقد كان هذا هو الحال بشكل خاص في روسيا عام 1917، عندما كان انتباه الجماهير مركزا على السوفييتات. لكن ورغم ذلك، فإنه من أجل الوصول إلى أوسع فئات المجتمع، لم يتجاهل البلشفية حتى الانتخابات المحلية. كانت نتيجة انتخابات موسكو ذات أهمية كبيرة لأنهم تمكنوا لأول مرة من الفوز بأغلبية مطلقة في مركز حضري مهم.

في بيتربوغ كان نفس الاتجاه واضحا، وإن لم يكن بنفس الدرجة التي كان عليها في موسكو. ما بين غشت ونوفمبر ارتفعت الأصوات التي حصل عليها البلشفية من 184.000 إلى 424.000؛ في حين انخفضت أصوات الاشتراكيين الثوريين من 206.000 إلى 152.000، وارتفعت أصوات الكاديت من 114.000 إلى 274.000. المثير للدهشة هو أن المناشفة زادوا بدورهم من عدد أصواتهم من 24.000 إلى 29.000، لكن هذا التقدم النسبي لم يكن ليخفي حقيقة أنهم كانوا قد أصبحوا أقلية صغيرة آنذاك وأنهم توقفوا عمليا عن أن يكونوا قوة حقيقية داخل الطبقة العاملة في العاصمة.

### تكتيكات الانتفاضة

من كوخه في رازليف، كان لينين يتابع باهتمام شديد سيرورة الثورة، ويلتهم جميع التقارير والإحصاءات والروايات، وأي شيء يمكنه أن يساعد في فهم المسألة الأكثر أهمية وهي متى يجب على الحزب أن يضرب؟ وباستخدامه لطريقته الدقيقة المعتادة قام لينين بدراسة نتائج كل الانتخابات وكل الأصوات في السوفييتات والنقابات ومجالس المدن. في محاولة منه لمعرفة ما الذي تعنيه بالنسبة لميزان القوى الطبقيّة. لم ينس لينين ولو للحظة أن إحصاءات الانتخابات تقدم علاقة القوى بطريقة جزئية ومشوهة، لكن كل شيء كان يشير إلى تقدم سريع للحزب الثوري. كانت ذكرى تمرد كورنيلوف ما تزال حية في أذهان العمال والجنود، وكان خطر الثورة المضادة قد أثار استقطابا وتجذرا سريعين داخل السوفييتات. في كل مكان كانت هناك انتخابات جديدة في السوفييتات ومنظمات الجنود في الجبهة. وفي جميعها تقريبا، سجل التصويت لصالح البلشفية تقدما مذهلا. كانت السلطة تنزلق من بين أيدي الزعماء اليمينيّين الذين أظهروا عجزهم الكامل خلال حالة الطوارئ. بدأت السوفييتات في المراكز الصناعية الرئيسية (بتروغراد، فنلندا، الأسطول، الجيوش الشمالية، موسكو والمنطقة الصناعية الوسطى، الأورال) تغير، الواحد منها تلو الآخر، ولاءها من المناشفة والاشتراكيين الثوريين نحو البلشفية.

صحيح أن الصورة لم تكن منسجمة. فالاشتراكيون الثوريون استمروا مسيطرين على سوفييتات الفلاحين والجنود في الجبهة. لكن هناك أيضا بدأت تتطور سيرورة فرز داخلي. بدأ تيار يساري يتطور بسرعة داخل الحزب الاشتراكي الثوري، وصار يتجه نحو الانشقاق والاصطفاف إلى جانب البلشفية. كان الجناح اليميني للحزب الاشتراكي الثوري أقوى في منطقة الأرض السوداء ومنطقة الفولغا الوسطى. أما في أوكرانيا فقد تقاسموا السيطرة مع القوميّين اليساريين. أما المناشفة فقد كانوا يفقدون المواقع في كل مكان. لم يتمكنوا من الحفاظ على النفوذ الذي كان لديهم على سوفييتات عموم روسيا عند بداية الثورة، سوى في معقلهم التقليدي، القوقاز. كان هذا هو ميزان القوى الذي حدد خطوة لينين التالية. لقد أصبح البلشفية الآن القوة الحاسمة داخل السوفييتات. كان القادة الإصلاحيون معزولين ومحاصرين في ملجأهم الأخير، أي اللجنة التنفيذية السوفياتية. ألم يحن الوقت لحسم الأمور، لتوجيه الضربة الحاسمة؟

كان لينين مقتنعا بأن الوقت قد حان، وأن أي تأخير قد يكون قاتلا. لكن بقية قادة الحزب الآخرين لم يكونوا يفكرون على نفس المنوال. كانت قيادة الحزب ما تزال متأثرة بشدة بهزيمة يوليو، وتميل إلى الحذر المفرط. وزينوفيف، الذي كان يتبع خط لينين دائما، اهتز بشدة وصار يتشبث الآن بكامينييف، الذي سلك، كالعادة، طريق "الاعتدال". بدأ لينين منذ بداية شتنبر يقصف

اللجنة المركزية بالرسائل، مطالبا إياها بإصرار البدء في تنظيم الانتفاضة. وفي رسالة له إلى اللجنة المركزية، بتاريخ 12-14 (25-27) شتبر، افتتح بالكلمات التالية: «إن البلاشفة، بعد حصولهم على الأغلبية في سوفيات نواب العمال والجنود في كلا العاصمتين، يمكنهم ويجب عليهم أن يأخذوا سلطة الدولة بأيديهم»<sup>1</sup>.

سقطت رسالة لينين كالقنبلة. شعر أعضاء اللجنة المركزية بالصدمة من محتواها ونبرتها إلى درجة أنهم قرروا اتلافها، كما ذكر بوخارين لاحقا: «عندما دخلت، جاء ميلوتين فجأة لمقابلتي وقال: "أنت تعلم، أيها الرفيق بوخارين، لقد تلقينا رسالة صغيرة هنا". قمنا بقراءة الرسالة. جميعنا بدأنا نلهث. لم يكن أحد قد طرح المسألة بهذه الحدة بعد. لا أحد كان يعلم ما الذي ينبغي فعله. كان الجميع في حيرة لفترة من الوقت. ثم تداولنا وتوصلنا إلى قرار. وربما كانت هذه هي المرة الوحيدة في تاريخ حزبنا التي قررت فيها اللجنة المركزية حرق رسالة للرفيق لينين»<sup>2</sup>.

وتتالت الرسائل، وكانت كل واحدة منها أكثر إلحاحا من سابقتها: «ماذا نفعل؟ نحن نكتفي فقط بإصدار القرارات. نحن نضيع الوقت. لقد حددنا "تواريخ" (20 أكتوبر، مؤتمر السوفييتات. أليس من السخيف تأجيله لفترة طويلة؟ أليس من السخيف الاعتماد على ذلك؟). في ظل هذه الظروف سيكون "انتظار" مؤتمر السوفييتات وما شابه، بمثابة خيانة للأمية، وخيانة لقضية الثورة الاشتراكية العالمية.

يجب علينا... أن نعترف بحقيقة أن هناك تيارا، أو رأيا، داخل لجنتنا المركزية وبين قادة حزبنا يفضل انتظار مؤتمر السوفييتات، ويعارض الاستيلاء على السلطة على الفور، يعارض انتفاضة فورية. يجب التغلب على هذا التيار، أو الرأي، وإلا فإن البلاشفة سوف يغطون أنفسهم بالعار الأبدي ويدمرون أنفسهم كحزب. إن تفويت مثل هذه اللحظة و"انتظار" مؤتمر السوفييتات سيكون حماقة مطلقة أو خيانة محضة».

وأخيرا اضطر لينين، المستاء من تكتيكات التأخير داخل اللجنة المركزية، إلى التهديد بالاستقالة منها وحمل النضال إلى قواعد الحزب: «حيث أن اللجنة المركزية لم تجب على تلك النداءات المستمرة التي أطلقناها لمثل هذه السياسة منذ بداية المؤتمر الديمقراطي، وبالنظر إلى حقيقة أن اللجنة المركزية تحذف من مقالاتي كل الإشارات إلى تلك الأخطاء الصارخة التي ارتكبتها البلاشفة، مثل القرار المخزي بالمشاركة في البرلمان التمهيدي، وقبول المناشفة في رئاسة مجلس السوفييتات، إلخ.. إلخ. فإني مضطر إلى اعتبار ذلك تلميحا "خفيا" لعدم رغبة اللجنة المركزية حتى ولو النظر في هذه المسألة، وتلميح خفي إلى أنه يجب علي أن أغلق فمي، وكأقترح لي بأن أتقاعد.

أنا مجبر على تقديم استقالتي من اللجنة المركزية، وإذ أقوم بذلك أحفظ لنفسي بحرية ممارسة الحملة بين قواعد الحزب وفي مؤتمر الحزب. لأنني مقتنع عميق الاقتناع بأنه إذا "انتظرنا" حتى مؤتمر السوفييتات وتركنا اللحظة الحالية تمر، فسوف نتسبب في تدمير الثورة»<sup>3</sup>.

## أزمة القيادة

كان السبب الحقيقي وراء إصرار لينين على ضرورة اتخاذ إجراءات فورية هو خوفه من تردد قادة الحزب وامتناعهم عن التحضير للاستيلاء على السلطة وبالتالي إضاعة الفرصة. وبمجرد ما ستضيع الفرصة قد يستغرق الأمر سنوات عديدة لكي تسنح مجددا. وهذا بالضبط هو سبب ضرورة وجود الحزب والقيادة الثورية. ربما كان لينين يشك في عضوي اللجنة المركزية الجديدين، يوفي وأوريتسكي، اللذان جاءا مع ميزرايونتسي ولم يكن يعرفهما. كان يتساءل ما إذا كانا من أنصار النزعة التوفيقية؟ وما إذا كان تروتسكي سيتفق مع كامينيف وزينوفيف؟ إلا أنه كان مخطئا في عدم ثقته في عضوي اللجنة المركزية الجديدين، إذ أنهما، مثل تروتسكي، وقفوا بثبات على اليسار. لكن المقاومة الشرسة التي خاضها رفاقه القدامى كامينيف وزينوفيف، وكذلك ستالين وإن بحذر أكبر، كانت ضربة موجعة له.

عند كل نقطة تحول حاسمة كانت تحدث خلافات حادة وجدال شديد بين أعضاء القيادة. وقد اندلع مثل ذلك الجدل حول

1: LCW, *The Bolsheviks Must Assume Power*, vol. 26, p: 19.

2: M. Liebman, *Leninism Under Lenin*, pp. 137, 69, 81 and 82.

3: LCW, *The Crisis has Matured*, vol. 26, p: 84.

مسألة المشاركة في الكونفرانس الديمقراطي. كان ذلك الكونفرانس مناورة من جانب المناشفة والاشتراكيين الثوريين داخل اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات عندما شعروا بأن السلطة بدأت تنزلق من بين أيديهم. من الناحية النظرية كان السبب وراء دعوة اللجنة التنفيذية لعقد الكونفرانس هو البت في مسألة السلطة، لكنه في الواقع كان يرمي لذر الرماد في أعين الجماهير وتحويل الانتباه عن المد الثوري المتصاعد وتحريف المسار نحو الخطب والمشاريع العقيمة. بذل القادة الإصلاحيون قصارى جهدهم لتقليص تمثيلية العمال والفلاحين، وأغرقوا الكونفرانس بالعناصر البرجوازية الصغيرة. كانوا يحاولون إنشاء بديل للسوفييتات التي كان نفوذهم فيها يتراجع كل ساعة. ومما أثار اشمئزاز لينين أن اللجنة المركزية البلشفية صوتت لصالح المشاركة في تلك المسرحية وحثت المنظمات الحزبية على «بذل قصارى جهدها لتشكيل أكبر مجموعة ممكنة من المندوبين من أعضاء حزبنا»<sup>1</sup>.

كان لينين متشككاً جداً في هذا القرار، لكنه وافق عليه على مضض، شريطة أن ينفصل البلاشفة بشكل واضح عن جميع التيارات الأخرى ويقرأوا بياناً يفصحون فيه قادة السوفييتات. وقد جاء في ذلك البيان: «إن حزبنا، في سياق نضاله من أجل السلطة من أجل تحقيق برنامجه، لم يرغب أبداً ولا يرغب في أن يستولي على السلطة ضد الإرادة المنظمة لأغلبية الجماهير الكادحة في البلد».

وعن هذا البيان كتب تروتسكي قائلاً: «هذا يعني أننا سنأخذ السلطة باعتبارنا حزب الأغلبية داخل السوفييتات. وتشير تلك الكلمات حول "الإرادة المنظمة للجماهير الكادحة" إلى مؤتمر السوفييتات القادم. وقال البيان: "وحدها قرارات ومقترحات الكونفرانس الحالي... هي التي يمكن أن تجد طريقها إلى التنفيذ، كما يعترف بذلك مؤتمر سوفييتات عموم روسيا...»<sup>2</sup>.

في الواقع لقد كان قرار المشاركة في الكونفرانس الديمقراطي خطأً، كما أكد لينين لاحقاً، لكنه كان خطأً بسيطاً نسبياً، ويمكن تصحيحه بسهولة. كان الخطأ الأخطر هو موافقة الوفد البلشفي في الكونفرانس على المشاركة في ما سمي بجهاز "ما قبل البرلمان" (Pre-parliament) الذي تم الاتفاق على إنشائه هناك. كان ذلك خطأً فادحاً. كانت تلك الخطوة الهادفة لإنشاء "حكومة تصريف أعمال" محاولة مفضوحة من قبل القادة الإصلاحيين لخلق الانطباع بأن روسيا قد صار لديها الآن نظام برلماني، في حين أن جهاز "ما قبل البرلمان" كان مجرد ملحق للحكومة البرجوازية المؤقتة مع حقوق استشارية فقط. كان من الواضح أنها مناورة رجعية، ومع ذلك فقد صوت المندوبون البلاشفة بأغلبية 77 مقابل 50 لصالح المشاركة فيه. تسببت هذه الخطوة في حدوث انقسام داخل اللجنة المركزية، حيث قاد تروتسكي النضال من أجل مقاطعة "ما قبل البرلمان". أما لينين، الذي كان قلقاً بالفعل من أن القادة البلاشفة يضيعون الوقت، فقد أصيب بالغضب والإحباط الشديدين. أصر بشدة على أن ينسحب البلاشفة من "ما قبل البرلمان" ويكرسوا كل طاقتهم للإعداد الانتفاضة.

وكتب في حاشية المقالة التي أعلن فيها عن أن المشاركة في الكونفرانس الديمقراطي كانت خطأً وطالب بانسحاب البلاشفة من "ما قبل البرلمان": «لقد دعا تروتسكي إلى المقاطعة. أحسنت أيها الرفيق تروتسكي! لكن المقاطعة هُزمت داخل المجموعة البلشفية بالكونفرانس الديمقراطي. تعيش المقاطعة!»

لا يمكننا أن نوافق ويجب علينا ألا نوافق، تحت أي ظرف من الظروف، على المشاركة. إن المجموعة المشاركة في أحد الكونفرانسات ليست هي أعلى جهاز للحزب، بل وحتى قرارات الهيئات العليا للحزب يمكنها أن تخضع للمراجعة على أساس التجربة.

يجب علينا أن نسعى جاهدين وبأي ثمن إلى حل مسألة المقاطعة في جلسة عامة للجنة التنفيذية وفي مؤتمر استثنائي للحزب. يجب أن تصبح مسألة المقاطعة الآن أرضية لانتخابات المؤتمر ولجميع الانتخابات داخل الحزب. يجب أن نجذب الجماهير إلى مناقشة هذه المسألة، يجب على العمال الواعين طبقياً أن يأخذوا الأمر بين أيديهم وأن ينظموا المناقشة ويمارسوا الضغط على "من هم في القمة".

ليس هناك أدنى شك في أنه توجد في "قمة" حزبنا تذبذبات ملحوظة قد تصبح مدمرة، لأن الصراع يتطور. وفي ظل ظروف معينة، عند لحظة معينة، قد تؤدي التذبذبات إلى تدمير القضية. يجب علينا أن نعبئ كل قوائنا للنضال، يجب علينا أن نتمسك بالخط الصحيح لحزب البروليتاريا الثورية قبل فوات الأوان.

ليس كل شيء على ما يرام مع القادة "البرلمانيين" لحزبنا؛ يجب إيلاء اهتمام أكبر لهم، يجب أن يكون هناك إشراف أكبر عليهم من جانب العمال؛ يجب تحديد كفاءة المجموعات البرلمانية بشكل أوضح.

1: LCW, vol. 26, p: 530, note 4.

2: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, p: 836.

إن خطأ حزبنا واضح. ينبغي على حزب الطبقة الطليعية المكافح ألا يخاف من الأخطاء. ما ينبغي عليه أن يخشاه هو الإصرار على الخطأ، ورفض الاعتراف بالخطأ ورفض تصحيحه بدافع من الإحساس الزائف بالعار»<sup>1</sup>.

وأخيراً (لكن ليس من دون صراع حاد داخل اللجنة المركزية حيث عارض كامينيف الانسحاب من "ما قبل البرلمان") تم القبول بتوصية لينين وانسحب البلاشفة منذ اليوم الأول، بعد أن قرأوا أولاً بياناً انتهى بشعار: "عاش النضال المباشر والمفتوح من أجل السلطة الثورية في البلد!".

في اليوم السابق على قيادة تروتسكي للبلاشفة خارج "ما قبل البرلمان"، اجتمعت اللجنة المركزية، بضغط من لينين، لمناقشة مسألة الانتفاضة مرة أخرى. وبالنظر إلى الأهمية البالغة للوضع، فإن لينين جاء من فنلندا، متنكراً بشعر مستعار، لكن لم يكن هناك أي شيء كوميدي أو مسرحي في ذلك النقاش، الذي عليه كان يتعلق مصير الثورة. شن لينين هجوماً ساحقاً على أنصار النزعة التوفيقية داخل اللجنة المركزية، وقد جاء في المحضر ما يلي: «يؤكد الرفيق لينين على أن نوعاً من اللامبالاة تجاه مسألة الانتفاضة كان ملحوظاً منذ بداية شتبر. لكن هذا غير مقبول إذا كنا قد رفعنا شعار استيلاء السوفييتات على السلطة بكل جدية. لذا فقد حان الوقت للانتباه إلى الجانب التقني للمسألة. يبدو أن الكثير من الوقت قد ضاع بالفعل»<sup>2</sup>.

ويتابع سرد الأسباب التي تدعو البلاشفة إلى حسم السلطة دون تأخير. من المعبر أنه قد أشار أولاً إلى الوضع الأممي، حيث أخبار التمردات في الأسطول الألماني وإضرابات العمال التشيكيين والمظاهرات والتمارين في إيطاليا، تشير إلى أن ظروف الثورة بدأت تنضج على نطاق عالمي. كتب لينين في "رسالة إلى الرفاق البلاشفة" قائلاً: «ألقوا نظرة على الوضع الأممي. إن تطور الثورة العالمية أمر لا خلاف عليه»<sup>3</sup>.

كان التأخير غير مسموح به لأن مصير الثورة كان على المحك، إما أن يستولي البلاشفة على السلطة، أو أن كيرينسكي سينتقل إلى الهجوم على السوفييتات. قد تتعرض بتروغراد الحمراء للحصار من جانب الألمان، وسيتم تأجيل الجمعية التأسيسية إلى أجل غير مسمى: «إن ما يتم القيام به لتسليم الأراضي بنارفاً ومن أجل استسلام بتروغراد يجعل الأمر أكثر إلحاحاً بالنسبة لنا لاتخاذ إجراءات حاسمة». ومرة أخرى وجه نفس التحذير: إن الجماهير قد سئمت من الكلمات والقرارات، وستبدأ في اعتبار البلاشفة وكأنهم مثلهم مثل جميع الأحزاب الأخرى إذا هم لم يتحركوا لحسم السلطة: «الغياب واللامبالاة من جانب الجماهير راجع لتعبها من الكلمات والقرارات. لدينا الآن الأغلبية ورائنا. ومن الناحية السياسية الوضع ناضج تماماً لحسم السلطة»<sup>4</sup>.

كيف يمكن أن نفسر الأزمات والتذبذبات التي ظهرت بين صفوف القيادة البلشفية خلال عام 1917؟ لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إذا ما انطلقنا من تصور مثالي عن الحزب البلشفي. قال تروتسكي: «كيف يعقل أن لينين، الذي سبق لنا أن رأيناه في بداية أبريل معزولاً بين قادة حزبه، يجد نفسه مرة أخرى وحيداً بين نفس المجموعة في شتبر وأوائل أكتوبر؟ لا يمكنك فهم هذا إذا كنت تصدق تلك الأسطورة الغبية التي تصور تاريخ البلشفية وكأنه انبثاق للفكرة الثورية المطلقة. لقد تطورت البلشفية، في الواقع، في بيئة اجتماعية محددة تخضع لتأثيراتها غير المتجانسة ومن بينها تأثير البيئة البرجوازية الصغيرة والتخلف الثقافي. وعند كل موقف جديد لم يكن الحزب يكتف نفسه إلا من خلال المرور بأزمة داخلية»<sup>5</sup>.

إنه بمثابة قانون أنه مع اقتراب موعد الانتفاضة تتعرض قيادة الحزب الثوري لضغوط شديدة من جانب الطبقات الأخرى، ويبدأ قسم من تلك القيادة في التذبذب. وليس من الصعب العثور على سبب ذلك. إذ ليس من السهل القيام بتقييم دقيق لمزاج الجماهير. وبالنظر إلى المسؤولية الهائلة التي تقع على كاهل القيادة في مثل هذه اللحظة، والمخاطر الكبرى التي ينطوي عليها كل قرار وضغط "الرأي العام" البرجوازي وشد الأعصاب إلى نقطة الانهيار، تظهر جميع نقاط الضعف عارية. لكنه من غير المسموح بالضعف والتذبذب عشية الانتفاضة.

1: LCW, *From a Publicist's Diary*, vol. 26, pp: 57-58.

2: LCW, *Meeting of the Central Committee of the RSDLP(B) 10 (23) October, 1917*, vol. 26, p: 188.

3: LCW, *Letter to the Bolshevik Comrades Attending the Congress of Soviets of the Northern Region*, vol. 26, p: 182.

4: LCW, *Meeting of the Central Committee of the RSDLP(B) 10 (23) October, 1917*, vol. 26, p: 188.

5: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, p: 989.

## مؤتمر السوفييتات

الدفاع والهجوم، من وجهة نظر المنطق السوري، متناقضان بشكل مطلق. لكنهما، في الممارسة العملية، غالباً ما يتحولان إلى بعضهما البعض، حيث يمكن لنضال دفاعي أن يتحول، في ظل ظروف معينة، إلى نضال هجومي، والعكس صحيح. هناك العديد من نقاط التشابه بين الحروب بين الأمم وبين الحروب بين الطبقات. لكن هناك اختلافات أيضاً. الجيش البرجوازي الدائم يتم إعداده وتمويله وتسليحه طيلة عقود استعداداً للحرب. ويمكن لهيئة الأركان العامة اختيار متى وأين تبدأ المواجهات. لكن حتى في هذا النوع من الحروب لا تكون المسألة مسألة عسكرية بحتة. لقد سبق لكلاوزفيتز أن أوضح أن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى. إن الأعمال العسكرية للحكومات البرجوازية تحددها المصالح الطبقيّة للبرجوازية. ولهذا السبب يؤكد الماركسيون دائماً أنه لا أهمية للبحث في مسألة من أطلق الرصاصة الأولى لفهم طبيعة حرب ما.

تحاول كل حكومة دائماً في كل حرب تحميل مسؤولية اندلاعها للعدو. ليس هذا حادثاً عرضياً ولا نزوة. ليست الحرب مجرد مسألة عسكرية فقط، بل هي مسألة سياسية أيضاً. إن حشد الرأي العام في الداخل والخارج لدعم الحرب مسألة أساسية لا يمكن حلها إلا على المستوى السياسي. وقد سبق لنا بليون أن أوضح أن أهمية الروح المعنوية في الحروب مقارنة مع أهمية الجوانب المادية هي ثلاثة إلى واحد. وبالتالي فإن المهمة الأساسية للدبلوماسية هي إقناع الرأي العام بأن جيشه قد تحرك للدفاع عن النفس فقط ورداً على استفزاز غير محتمل واعتداء من جانب العدو، وما إلى ذلك. الحكومة التي لا تتصرف بهذه الطريقة ترتكب خطأ فادحاً، وتتسبب في أضرار جسيمة لجهودها الحربية.

يصدق هذا أكثر بألف مرة عندما يتعلق الأمر بالثورة الاشتراكية. إن البروليتاريا، على عكس الطبقة السائدة، لا تمتلك جيشاً، ولا يمكنها أن تمتلك قوة مسلحة قادرة على إلحاق الهزيمة بقوات الدولة البرجوازية ما دامت هذه الأخيرة سليمة. وفي حين أن الحرب التقليدية تكون في الأساس مسألة عسكرية، حيث لا تلعب الدبلوماسية إلا دوراً ثانوياً رغم أهميته، فإن مهمة الثورة الاشتراكية هي في الأساس مهمة سياسية لكسب الجماهير والقوات المسلحة. الأدوار معكوسة هنا.

تبدأ الغالبية العظمى من نضالات الطبقة العاملة، في الواقع، باعتبارها نضالات دفاعية: نضالات للدفاع عن مستويات المعيشة، عن مناصب الشغل، عن الحقوق الديمقراطية، إلخ. لكن في ظل ظروف معينة، وخاصة مع وجود القيادة الصحيحة، يمكن لهذه النضالات الدفاعية أن تمهد الطريق لنضال هجومي، بما في ذلك الإضراب العام، الذي يطرح مسألة السلطة. ومع ذلك فحتى في سياق الثورة، من الضروري تحميل الطبقة السائدة كل المسؤولية عن أعمال العنف، من أجل كسب الجماهير، ليس فقط الطبقة العاملة، بل أيضاً البرجوازية الصغيرة. وبالتالي فإنه ليس من الصحيح فحسب، بل ومن الضروري للغاية أن يتم تقديم الحركة في صورة دفاعية. وقد كتب لينين في يونيو، قائلاً: «يجب أن تكون البروليتاريا الاشتراكية وحزبنا رزينين ومتحدين قدر الإمكان، ويجب أن يظهروا أكبر قدر من الصبر واليقظة. فلنترك كافيناكيي المستقبل يبادرون أولاً. كونفرانس حزبنا كان قد حذر بالفعل من وصولهم. لن يمنحهم عمال بتروغراد أي فرصة للتوصل من المسؤولية. إن العمال سيستغلون وقتهم ويجمعون قواتهم، ويستعدون للمقاومة عندما سيقرر هؤلاء السادة التحول من الأقوال إلى الأفعال»<sup>1</sup>.

وتاريخ الثورة الروسية، قبل وأثناء وبعد أكتوبر، يكفي لإثبات ذلك. عشية ثورة أكتوبر كان هناك اختلاف في الرأي بين لينين وتروتسكي بشأن التاريخ المناسب للانتفاضة. أراد لينين الانتقال مباشرة إلى الاستيلاء على السلطة في شتنبر، في حين كان تروتسكي يؤيد تأجيل الانتفاضة حتى مؤتمر السوفييتات. لماذا اتخذ تروتسكي هذا الموقف؟ هل كان يعاني من نقص في الجرأة؟ كلا على الإطلاق. لقد فهم تروتسكي أنه حتى في الثورة تكون مسألة الشرعية مهمة للغاية بالنسبة للجماهير. كان تروتسكي على يقين من أن البلاشفة سيحصلون على الأغلبية في المؤتمر، وبالتالي يمكنهم أن يظهروا أمام الجماهير بكونهم سلطة شرعية في المجتمع. لم تكن تلك مسألة ثانوية، بل كانت عاملاً حاسماً في تحقيق انتقال سلمي للسلطة. ومرة أخرى لم يكن العنصر الحاسم عسكرياً، بل سياسياً. وبالمناسبة فقد قدم البلاشفة انتفاضة أكتوبر كعمل دفاعي للحيلولة دون انزلاق روسيا إلى الفوضى والحرب الأهلية. وهذا ليس مصادفة. فحتى عندما تكون في وضع يسمح لك بالهجوم (وهو الشيء الذي لا يتسنى دائماً، بل العكس)، يكون من الضروري دائماً التصرف والتحدث كما لو كنت تخوض نضالاً دفاعياً، وتحميل كل المسؤولية للعدو.

عارض كامينيف وزينوفييف الاستيلاء على السلطة لأنهما تأثرا بضغط الرأي العام البرجوازي وفقدوا أعصابهما. إن الميل إلى المبالغة في تقدير قوة العدو والتقييم المتشائم للإمكانات الكفاحية للطبقة العاملة، سمة مميزة لهذا النوع من العقليات. كان

1: LCW, *The Turning Point*, vol. 25, p: 83.

التأجيل بالنسبة لهم، يعني التأجيل إلى الأبد. وقد اتضح موقف كامينيف من خلال محادثة كان قد أجراها مع راسكولنيكوف قبل أسابيع قليلة من الانتفاضة: «عندما التقيت بصديقي القديم ل. ب. كامينيف، انخرطت على الفور في مناقشة معه حول "خلافاتنا". كانت نقطة انطلاق حجة ليف بوريوسفيتش هي أن حزبنا لم يكن مستعداً بعد لقيادة الانتفاضة. صحيح أنه لدينا جماهير كبيرة من مختلف الشرائح ورائنا، ويصادقون بسهولة على قراراتنا، لكن ما يزال هناك طريق طويل لقطعه للانتقال من التصويت "الورقي" إلى المشاركة النشطة في الانتفاضة المسلحة. لم يكن من المؤكد أن حامية بتروغراد ستظهر حازمة في المعركة، ومستعدة للقتال أو الموت. وعند أول ظرف خرج سيهجرنا الجنود وسيهربون.

وأضاف الرفيق كامينيف: أما الحكومة، من جهة أخرى، فتمتلك قوات رائعة التنظيم تحت تصرفها، مخصصة لقميبتها، من القوزاق والكاديت الذين تمت تعبئتهم بشكل جيد ضدنا وسيقاتلون بحماس حتى النهاية.

وبالاعتماد على كل هذه الاستنتاجات المتشائمة حول فرصنا في النصر، توصل الرفيق كامينيف إلى وجهة النظر القائلة بأن محاولة فاشلة للانتفاضة ستؤدي إلى الهزيمة وانهيار حزبنا، الأمر الذي سيعيدنا إلى الوراثة وسيؤخر لفترة طويلة تطور الثورة»<sup>1</sup>.

كان لينين شديد الإصرار على ضرورة الاستيلاء على السلطة على الفور، لأنه كان يخشى، لأسباب وجيهة، من أن يتسبب البلاشفة التوفيقيون في إضاعة الفرصة تماماً. لكن اعتراضه على تأجيل الانتفاضة حتى مؤتمر السوفييتات لم يكن صحيحاً. لقد دعم تروتسكي هذا التأجيل ليس فقط لكسب العناصر المتذبذبة داخل اللجنة المركزية، بل كذلك لأسباب تكتيكية وجيهة. كان غالبية العمال والجنود ما يزالون يثقون في سلطة السوفييتات. كانوا سيدعمون الاستيلاء على السلطة إذا ما تم باسم السوفييتات، لكنهم لم يكونوا ليدعموه بالضرورة لو تم باسم البلاشفة وحدهم. لذلك كان يجب أن تتزامن الانتفاضة مع مؤتمر السوفييتات، حيث كان البلاشفة وحلفاؤهم متأكدين من الفوز بالأغلبية. كان لينين يشك في هذا التكتيك. كان يتساءل ما إذا لم يكن مجرد مثال آخر لسياسة المراوغة والغباء البرلماني الشرعي؟

ومع ذلك فقد كان موقف تروتسكي صحيحاً بلا شك. لقد أدرك الحاجة لمواصلة العمل من أجل كسب السوفييتات حتى لحظة الانتفاضة، وذلك من أجل حشد أقصى القوى للانتفاضة، وتقليل المقاومة. لذلك أيد، رغم معارضة لينين، تأجيل الانتفاضة لتتزامن مع مؤتمر السوفييتات حيث سيفوز البلاشفة بالأغلبية. وهكذا فتحت في سياق الانتفاضة نفسها، يبقى لمسألة الشرعية موقع جد مهم، وتلعب دوراً حاسماً في كسب الفئات الخاملة من الجماهير. اندلعت الانتفاضة، كما اقترح تروتسكي، بالتزامن مع المؤتمر. لكن هذا لم يمنع بالطبع الستالينيين من الادعاء بأن اقتراح تروتسكي «يعني في الممارسة تخريب الانتفاضة والسماح للحكومة المؤقتة بتعبئة قواتها لسحق الانتفاضة خلال اليوم الذي افتتح فيه المؤتمر»<sup>2</sup>.

بناء على إصرار لينين اتخذت اللجنة المركزية قرار تنظيم الانتفاضة في 10 أكتوبر. يبدو من الواضح أن لينين كان ينوي الاستفادة من مؤتمر سوفييتات المنطقة الشمالية، الذي انعقد في بتروغراد في الفترة من 11 إلى 13 أكتوبر، لبدء الانتفاضة. وبحسب البلشفي اللاتفي، لاتسيس، فإن الخطة كانت أن يعلن المؤتمر الشمالي نفسه بكونه حكومة، وهذه ستكون البداية. كان ذلك واحداً من العديد من المؤتمرات الإقليمية للسوفييتات التي عقدت للتضيق لمؤتمر سوفييتات عموم روسيا. سيطر اليسار على المؤتمر: 51 البلاشفة، 24 من الاشتراكيين الثوريين اليساريين، أربعة من الماكسيماليين (منظمة إرهابية صغيرة منشقة عن الاشتراكيين الثوريين)، ومنشفي أممي واحد، و فقط عشرة اشتراكيين ثوريين وأربعة مناشفة، والذين سرعان ما انسحبوا. كان من المقرر في البداية عقد المؤتمر في هيلسينجفورس بفنلندا، فتم نقله إلى العاصمة باعتبارها مكاناً أكثر ملاءمة لبدء الانتفاضة.

كتب لينين في رسالة إلى مندوبي البلاشفة في مؤتمر المنطقة الشمالية، أنهم سيكونون "خونة للأمية" إذا اقتصرنا على "مجرد قرارات". لكن المؤتمر لم يصوت لصالح انتفاضة فورية. وبدلاً من ذلك مرر قراراً طالب بحكومة سوفييتية، لكنه ربطها بمؤتمر لعموم روسيا. كان هذا هو المزاج السائد في ذلك الوقت. وقد أظهرت التقارير الواردة من العديد من المناطق نفس الصورة، وهي أن العمال سيكونون مستعدين للقتال من أجل إقامة حكومة سوفييتية إذا أعلنها مؤتمر السوفييتات، لكن ليس بالضرورة إذا أعلنها حزب واحد، أي البلاشفة، بدون توقيع من سلطة السوفييتات. وعلاوة على ذلك، كشفت التقارير الداخلية، وخاصة من المنظمة العسكرية البلشفية، عن حالة مخيبة للأمال من عدم الاستعداد و"أوجه القصور الصارخة". ربما كانت تلك التقارير مبالغاً فيها. كانت المنظمة العسكرية تميل دائماً إلى إيلاء أهمية مفرطة للجانب العسكري التقني البحث، بينما في الواقع كانت المسائل

1: F.F. Raskolnikov, *Kronstadt and Petrograd in 1917*, pp: 256-257.

2: LCW, vol. 26, p: 547, note 79.

السياسية هي الحاسمة. ومع ذلك فإن هذه التقارير كشفت شيئاً ما. فبعد التجربة المريرة التي عاشها المناضلون البلاشفة خلال أيام يوليو، صاروا يخافون من العزلة وصاروا يميلون إلى توخي الحذر، وربما المبالغة في الحذر. ومع ذلك فقد أصبح من الواضح بشكل متزايد أن الحزب لم يكن مستعداً بعد نفسياً أو تنظيمياً للقفزة الحاسمة. كانت هناك حاجة لبضعة أسابيع أخرى. وهذا كان يعني بالفعل أن الانتفاضة سوف تتزامن مع المؤتمر الثاني لسوفييتات عموم روسيا.

## الفصل الأخير

خلال الأشهر التي سبقت أكتوبر، نجح البلاشفة، بفضل تكتيكات متقنة ومرنة، في زيادة نفوذهم بشكل كبير داخل السوفييتات إلى درجة أنه صارت لديهم، مع حلفائهم، الأغلبية في مؤتمر السوفييتات. وهذا وحده ما يفسر الطابع السلمي نسبياً للانتفاضة أكتوبر. لم يكن السبب عسكرياً في المقام الأول، بل لأنه كان قد تم إنجاز تسعة أعشار العمل مسبقاً. كانت ساحة النضال الأكثر أهمية هي السوفييتات نفسها. يقدم أنويلر الوصف التالي لميزان القوى بين الأحزاب داخل السوفييتات عشية الانتفاضة:

«(1) في السوفييتات العمالية، في معظم المدن الصناعية الكبرى، حصل البلاشفة على الأغلبية، وينطبق الشيء نفسه على غالبية سوفييتات الجنود. كانت النقاط الأساسية لنفوذهم هي:

أ- فنلندا، إستلاند [إستونيا]، بيتربورغ والمنطقة المحيطة بها، وجزء من الجبهة الشمالية وسلاح البحرية؛ ب- المنطقة الصناعية المركزية حول موسكو؛ ج- جبال الأورال؛ د- سيبيريا حيث كانت قوتهم متوازنة مع الاشتراكيين الثوريين.

(2) في سوفييتات الفلاحين وسوفييتات الخطوط الأمامية، كان الاشتراكيون الثوريون ما يزالون القوة المهيمنة. كان هناك جناح يساري قوي، انفصل أخيراً عن حزب الاشتراكيين الثوريين خلال الأسابيع التي سبقت أكتوبر، وقف إلى جانب البلاشفة وكثيراً ما ساعدهم في الحصول على الأغلبية في معظم السوفييتات. كان الاشتراكيون الثوريون المعتدلون يمتلكون قوة أكبر في:

أ- منطقة البحر الأسود ووسط الفولغا؛ ب- أوكرانيا (مع الأحزاب الاشتراكية القومية)؛ ج- الجبهات الشرقية والجنوبية الشرقية والرومانية.

(3) فقد المناشفة مركزهم المهيمن في السوفييتات العمالية في كل مكان تقريباً بعد الأشهر الأولى من الثورة. فقط في القوقاز، وخاصة في جورجيا، حيث كان ما يزال في إمكانهم أن يستندوا إلى الفلاحين، وحيث كانوا أقوى بكثير من البلاشفة في أكتوبر 1917.

(4) ولأول مرة لعبت مجموعات من الماكسيماليين واللاسلطويين دوراً مهماً في بعض السوفييتات. لقد دعموا البلاشفة في أكتوبر وساهموا بشكل كبير في تجذر الجماهير<sup>1</sup>.

يبالغ أنويلر في تقدير الدور الذي لعبه اللاسلطويون والماكسيماليون، والذين كانوا أقلية صغيرة تمثل الميول اليسارية المتطرفة الموجودة دائماً، لكنها لا تستطيع أن تلعب أي دور حقيقي. من الممكن أن تحقق تلك التيارات بعض النمو خلال الثورة. وقد أوضح لينين نفسه أن الجماهير قد سئمت من الانتظار. ويمكن أن يسقط بعض العمال الأفراد، أو حتى بعض المجموعات الصغيرة من العمال، الذين تقدموا كثيراً عن بقية الطبقة، في شبك الشعارات اليسارية المتطرفة التي تبدو جذرية. لكن مقابل كل واحد من هؤلاء هناك 50 أو 100 أو 1.000 ممن سيتجهون نحو المنظمات الجماهيرية التقليدية، حتى عندما تكون هذه الأخيرة ما تزال تحت قيادة الإصلاحيين. إن السبب في أن اللاسلطويين لم يلعبوا دوراً مهماً في الثورة الروسية كان هو وجود الحزب البلشفي. في كتابه "الدولة والثورة"، كتب لينين عن العمال اللاسلطويين بعبارات متعاطفة، عندما انتقد مفاهيمهم الخاطئة عن الدولة وأشار إلى أن اللاسلطوية (والنزعة اليسارية المتطرفة بشكل عام) هي الثمن الذي يجب على الحركة أن تدفعه مقابل انتهازية القادة الإصلاحيين.

في ظل الظروف الروسية، كانت الإصلاحية دائماً مجرد نبتة ضعيفة ومريضة. لم تكن هناك نقابات عمالية إصلاحية قوية أو أحزاب عمالية إصلاحية كما هو الحال في أوروبا الغربية. ومع ذلك، وللأسباب التي سبق شرحها، فقد بحث العمال الروس في فبراير، حتى عندما أسسوا السوفييتات، عن السبل الأقل وعورة ودعموا الأحزاب الإصلاحية داخل السوفييتات. وحدها تجربة الأحداث العظيمة ما مكن الجماهير من رفض هؤلاء القادة والتحرك في اتجاه البلشفية. لكن هذه السيورة لم تكن سهلة ولا تلقائية. لم تكن ممكنة إلا بفضل سياسات وتكتيكات البلاشفة الصحيحة بشكل عام، وقبل كل شيء بفضل توجههم الواضح نحو تلك المنظمات

1: O. Anweiler, *Los Soviets en Rusia: 1905-1921*, p: 194.



الجمهورية، التي أنشأها العمال والتي كانت لها قوة جذب هائلة، على الرغم من سياسات القادة، أي: السوفييتات والنقابات. لقد اتضحت الطريقة التي يتمسك بها العمال بالمنظمات الجماهيرية القائمة عشية أكتوبر في ذلك الجدل الذي دار حول موعد الانتفاضة ومؤتمر السوفييتات. كان لينين قلقا جدا، لأسباب وجيهة، بشأن الغباء الدستوري والبرلماني للقادة البلاشفة من أمثال كامينيف وزينوفيف. كان يخشى التأخير، لأن كل يوم يمر كان يعطى الوقت والفرصة للأعداء لكي يعيدوا تجميع صفوفهم وشن هجوم جديد. كانت هناك شائعات مستمرة (تبين لاحقا أنها صحيحة) حول أن كرينسكي كان يخطط لنقل مقر الحكومة إلى موسكو. كان هناك احتمال كبير بأن الحكومة المؤقتة ستسمح بسقوط بتروغراد في أيدي الألمان، عوض أن تراها تنضم إلى البلاشفة. كانت هناك أدلة كثيرة على أن البرجوازية في العاصمة [بتروغراد] كانت تنتظر جيوش القيصر [الألماني] لاستقبالهم كمنقذين. كان الألمان قد استولوا على ريغا في وقت تمرد كورنيلوف. وفي وقت لاحق احتلوا جزيرتين استراتيجيتين في بحر البلطيق، الشيء الذي وضعهم على مسافة قصيرة من بتروغراد. لقد كان الخطر حقيقيا بما فيه الكفاية.

اعترف الرئيس السابق لمجلس الدوما، ميخائيل رودزيانكو، بكلمات واضحة أنه سيكون من الأفضل لو قام الألمان بالاستيلاء على بتروغراد، حيث قال: «يبدو أن بتروغراد مهددة (من قبل الألمان)... أقول فلتذهب بتروغراد إلى الجحيم... يخشى الناس أن تتعرض مؤسساتنا المركزية في بتروغراد للتدمير. وردا على هذا اسمحوا لي أن أقول إنني سأكون سعيدا لو تم تدمير تلك المؤسسات لأنها لم تجلب لروسيا سوى الحزن»<sup>1</sup>.

كان كرينسكي يستعد للتخلص من حامية بتروغراد المتمردة، باستخدام مبرر التهديد الألماني. ومع ازدياد الفجوة بين الطبقات في الاتساع، ازداد بشكل كبير خطر حل القوات السوفياتية على يد قوى الردة الرجعية.

كانت الحجة الرئيسية التي استخدمت ضد لينين هي: «يجب علينا أن ننتظر مؤتمر السوفييتات». لكن لينين كان يخشى أن يتم تأجيل المؤتمر. كان قادة السوفييتات قد أجلوه بالفعل في مرة سابقة خوفا من فقدانهم للسيطرة. وبالتالي ما الذي سيمنعهم من تكرار ذلك مرة أخرى؟ ثم كان لمعارضى الانتفاضة حجة أخرى وهي: لماذا لا ننتظر انعقاد الجمعية التأسيسية الموعودة؟ كانوا يبحثون دائما عن الذرائع لتأجيل الانتفاضة. وهنا أيضا كان لينين يعتقد أنه من المحتمل جدا أن تقوم الحكومة المؤقتة بتأجيل، أو حتى إلغاء، عقد انتخابات الجمعية التأسيسية. وهذا ما يفسر معارضته العنيدة لانتظار مؤتمر السوفييتات، أو أي شيء آخر.

نفاذ صبر لينين وخوفه المستمر من أن القادة البلاشفة يماطلون، كان سببه جزئيا تذبذبات كامينيف وزينوفيف، الذين لم يكونا معزولين داخل القيادة البلشفية. لكنه كان أيضا نتيجة لعزلة لينين. تروتسكي، الذي كان على اتصال أكبر بالوضع على الأرض، كان يؤيد التحضير للانتفاضة، لكن جعلها تتزامن مع انعقاد مؤتمر السوفييتات، الشيء الذي سيعطيها الشرعية اللازمة في أعين الجماهير. لقد أظهر بذلك الموقف امتلاكه لنظرة ثاقبة عن نفسية العمال. كان البلاشفة قد حققوا بالتأكيد تقدما عظيما منذ الصيف. كان نمو عدد الأعضاء سريعا جدا لدرجة أنه أغرق القدرة الهزيلة لأجهزة الحزب، التي لم تتمكن من مواكبة ذلك. في غشت، وقت انعقاد المؤتمر السادس، بلغ عدد الأعضاء حوالي 240.000<sup>2</sup>. وخلال اجتماع اللجنة المركزية، في 16 أكتوبر، أفاد سفيردولوف أن «نمو الحزب وصل أبعادا هائلة: وقد صار عدد أعضائه في الوقت الحالي يقدر بـ 400.000 على الأقل»<sup>3</sup>.

من المستحيل، في الواقع، الوصول إلى رقم دقيق لعدد أعضاء الحزب في ذلك الوقت. لقد كان جهاز الحزب البلشفي ما يزال ضعيفا نسبيا وغارقا في العمل باستمرار. وخلال الثورة تصير لمتطلبات الساعة الأسبقية على مهام أخرى مثل التدقيق في أرقام العضوية. ولذلك فإن أي تقدير يجب بالضرورة أن يكون ذا طابع تقريبي. لينين نفسه اعترف بأنه كان من المستحيل تقريبا الحصول على فكرة دقيقة عن عدد الأعضاء في شتنبر، لكنه أشار إلى الزيادة التي عرفتها مساهمات العمال المالية كدليل على النمو السريع للحزب، حيث قال: «أمام غياب أي إحصائيات تتعلق بالتقلبات التي تعرفها عضوية الحزب، وعدد الحضور والاجتماعات، وما إلى ذلك، لا يمكن الحكم على حجم الدعم الواعي للحزب من طرف الجماهير إلا من خلال البيانات المنشورة بشأن المساهمات النقدية لصالح الحزب. تُظهر هذه البيانات عملا طويلا عظيما من جانب العمال البلاشفة في جمع الأموال لصالح برافدا، والجرائد التي تم منعها، وما إلى ذلك. وتقارير هذه المساهمات كانت تنشر بشكل دائم»<sup>4</sup>.

1: A. Rabinowitch, *The Bolsheviks Come to Power*, p: 226.

2: ليبمان هو من يعطي هذا الرقم، أما شابيرو فإنه، بالاعتماد على مصادر مختلفة، يقدر العدد بـ 200.000 عضو.

3: M. Liebman, *Leninism Under Lenin*, p: 158.

4: LCW, *The Russian Revolution and Civil War*, vol. 26, p: 32.

الشيء الأكيد هو حقيقة أن البلاشفة، الذين بدأوا العام وهم منظمة صغيرة جداً، نموا بسرعة إلى أن أصبحوا القوة المهيمنة داخل الطبقة العاملة. لكن وحتى مع عضوية تقدر بـ400.000، فإن البلاشفة لم يكونوا قادرين على قيادة ملايين العمال والجنود نحو الاستيلاء على السلطة، لو لم يطبقوا تكتيكات وأساليب مرنة ولو لم يكن لديهم توجه صحيح نحو المنظمات الجماهيرية. لقد سبقت الإشارة إلى التقدم الذي كان الحزب يحققه داخل السوفييتات. لكن هذا لا يروي القصة الكاملة. فبينما كانت الشعارات البلشفية تجد لها صدى كبيرا بين العمال، فإن هؤلاء الآخرين كانوا ما يزالون يتطلعون إلى السوفييتات لكي تعمل على تطبيق هذه الشعارات في الواقع. لقد كانت العلاقة ديالكتيكية: فبدون سياسات الحزب البلشفي كانت السوفييتات عديمة الفائدة. بل إنها تحت قيادة الإصلاحيين اليمينيين صارت في الواقع أجهزة معادية للثورة. لكن ومن جهة أخرى، فإن سياسات البلاشفة بدون السوفييتات لم تكن لتتمكن بالضرورة من كسب انتباه الجماهير، التي كانت ما تزال لديها أوهام عميقة حول تلك المنظمات التي بنتها بنفسها، والتي اعتادت على التوجه إليها للبحث عن حل لمشاكلها. لم تكتسب أفكار البلاشفة قوة لا تقاوم إلا عندما ارتبطت في أذهان الجماهير بالمنظمات التي أعطتها ولاءها، أي: السوفييتات.

### الاستيلاء على السلطة

لقد وصلت ساعة العمل الحاسم. وبحلول ذلك الوقت كان صبر العمال البلاشفة في القاعدة قد بدأ ينفذ بسبب عدم اتخاذ القيادة لإجراءات حاسمة. في 19 أكتوبر (01 نوفمبر)، وخلال اجتماع سري للجنة المركزية، قرأ لينين مرة أخرى بياناً يؤكد على ضرورة تنظيم الانتفاضة فوراً. ومع معارضة صوتين اثنين فقط -كامينيف وزينوفييف- تقرر أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ الثورة من الخراب هي الانتفاضة المسلحة. لكن رفيقي لينين القديسين، كامينيف وزينوفييف، المقتنعين بأن الانتفاضة ستكون كارثية بالنسبة للحزب والثورة، شنا حملة محمومة لوقفها. وفي 18 أكتوبر وصلا إلى أقصى حد بنشرهما لمقال في جريدة غير حزبية، جريدة غوركي نوفايا جيزن، يعارض بشكل صريح تنظيم الانتفاضة باعتبارها "عملاً يائساً" من شأنه أن يؤدي إلى «العواقب الأكثر تدميراً على الحزب وعلى البروليتاريا وعلى مصير الثورة».

والجدير بالذكر أن المقالة، التي صدرت بتوقيع كامينيف، أعلنت أنها لا تتحدث باسم عضوين فقط داخل اللجنة المركزية، بل باسم عدد كبير (لم يتم تسميتهم) من "قادة الحزب"، تقول المقالة: «ليس فقط أنا والرفيق زينوفييف، بل وكذلك عدد من الرفاق قادة الحزب، نعتقد أن أخذنا المبادرة في شن انتفاضة مسلحة في الوقت الحاضر، في ظل موازين القوى الطبقيّة الحالية، وبشكل مستقل عن مؤتمر السوفييتات، وقبل بضعة أيام على انعقاده، ستكون خطوة غير مقبولة، وكارثية على البروليتاريا»<sup>1</sup>.

أقل ما يمكن أن نقول عن ذلك التصرف هو أنه انتهاك خطير للانضباط الحزبي. فمن خلال تصريحهما العلني ضد الانتفاضة المسلحة، أفشى كامينيف وزينوفييف للعدو بأسرار قرارات الحزب الرئيسية بشأن الانتفاضة، التي كان من المفترض أن تبقى سرية للغاية. لينين الذي أشار عنده هذا التصرف غضبا شديدا كتب، في إجراء غير مسبوق، رسالة حانقة إلى اللجنة المركزية يدين فيها كامينيف وزينوفييف باعتبارهما كاسري إضرابات وطالب بطردهما من الحزب<sup>2</sup>. في الواقع لم تصادق اللجنة المركزية على اقتراح لينين. وقد استقال كامينيف (لكن ليس زينوفييف) من اللجنة المركزية، وتم منع كلا الرجلين من الإدلاء بأي تصريحات أخرى تتعارض مع قرارات اللجنة. لكنهما لم يُطردا ولم يُطلب منهما إدانة أفعالهما. لم تكن محاكم الاعترافات الستالينية وعمليات الإدانة القسرية قد ظهرت بعد. وعلى الرغم من الطبيعة الخطيرة للخطأ الذي ارتكبه فإنه لم يستعمل ضدهما. وفي اليوم التالي للانتفاضة، حضر كامينيف وزينوفييف إلى مقر الحزب البلشفي وتم تقليدهما مناصب مسؤولة داخل الحزب والدولة السوفياتية.

لم تتسبب قضية كامينيف-زينوفييف في ضرر دائم. لقد كان المد يتدفق بقوة في اتجاه الانتفاضة. وفي مثل تلك الظروف يكون من الممكن عادة تصحيح أخطاء الثوار إذا توفرت قيادة ذكية تحافظ على رباطة جأشها. لكن العكس صحيح في معسكر الردة الرجعية، فبفعل غرقهم في مشاكل من جميع الجهات، ومحاصرتهم بمجموعة من التناقضات، صار السياسيون الرجعيون، الذين لم يكونوا بالأمس يرتكبون أي خطأ، فجأة لا يستطيعون فعل أي شيء صحيح. هذا هو تفسير التعليقات المتكررة حول "عجز" و"تصلب" و"غباء" كيرينسكي والقيصر نيكولا والملوك لويس وماري أنطوانيت وتشارلز الأول، وقائمة طويلة من الشخصيات المماثلة الأخرى. كان الإغريق يقولون: "من ترد الآلهة تدميره، تجعل منه في البداية أحمقا"، لكن إذا دققنا في المسألة سنجد أن ذلك الحمق

1: *Protokoly Tsentral'nogo Komitera RSDRP b*, p: 116.

2: *LCW, Letter to the CC of the RSDLP(B)*, vol. 26, p: 223-227.

متجذر في الواقع الموضوعي. يؤدي النظام الاجتماعي المفلس إلى وضع مأزوم، وفي مثل ذلك الوضع المأزوم تكون الخيارات محدودة وتتضاعف احتمالات الخطأ ألف مرة. في ظل الظروف التاريخية المواتية يكون من الممكن حتى للحمقى والتافهين أن يحكموا بنجاح (وكثيرا ما يفعلون). لكن عندما يمرض النظام السياسي والاجتماعي ويشرف على الموت، لا تكون حتى لأكثر الوزراء موهبة وبراعة القدرة الكافية لإنقاذ النظام. تكون مثل تلك الأنظمة ممزقة بالأزمات الداخلية والانقسامات في القمة. يحاول أحد أقسام الطبقة السائدة درء الكارثة من خلال تقديم التنازلات، بينما يحاول القسم الآخر وقف موجة التمرد المتصاعدة بنهج سياسة القمع. وتكون النتيجة هي ظهور التذبذبات وقلة الكفاءة. هذا كله لا يعني أن نوعية القيادة الثورية غير مهمة. بل على العكس. فحتى أفضل الظروف المواتية يمكن أن تضيع خلال الحروب والثورات. لو أن زينوفييف وكامينيف وستالين هم من كانوا على رأس الحزب البلشفي، بدلا من لينين وتروتسكي، لكانت الفرصة قد ضاعت كلياً بلا شك. عندها كان كل هؤلاء المؤرخين الأذكى الذين يتحدثون الآن عن غباء كيرينسكي ونيكولا لعدم قيامهما بهذا الإجراء أو ذاك، سيكتبون اليوم أطروحات دكتوراه حول مدى ذكائهما وبُعد نظرهما، وحول كم كان لينين وتروتسكي طوباويان لتخيلهما أنه يمكن للعمال الاستيلاء على السلطة.

يمكن للصدف أن تلعب بالتأكيد دورا في التاريخ، بما في ذلك الأخطاء، والنظام الذي يكون على حافة الهاوية يكون أكثر عرضة لارتكاب الأخطاء. ارتكبت الحكومة المؤقتة خطأ من الدرجة الأولى عندما طالبت بإرسال ثلثي حامية بتروغراد إلى الجبهة. كانت تلك محاولة خرقاء لإضعاف الحامية الثورية في العاصمة، لكنها كانت هدية للبلاشفة، لسببين: أولاً، لأنها تسببت في خلق موجة من السخط داخل الثكنات، مما دفع حتى أكثر الفئات تخلفاً نحو البلاشفة. بدأت حتى تلك الفيالق التي شاركت في قمع مظاهرات يوليو في إصدار قرارات تدين الحكومة المؤقتة وتدعو السوفييتات إلى الاستيلاء على السلطة. وثانياً، لأنها أظهرت أن الحكومة كانت تستعد لشن الهجوم ضد بتروغراد الحمراء، فصار من حق الثورة اتخاذ إجراءات للدفاع عن نفسها. كان ذلك شيئاً يمكن لأي عامل وجندي أن يفهمه. كما أنها أسكتت المتذبذبين بين صفوف البلاشفة. بل حتى القادة الإصلاحيون اضطروا على مضض أن يعلنوا مواقف شبه معارضة للحكومة.

حتى اللجنة التنفيذية السوفياتية اضطرت لرفض التوقيع على ذلك الطلب. وقاد البلاشفة التحريض ضده، وطالبوا بإنشاء لجنة بتروغراد العسكرية الثورية، وهي هيئة سوفياتية رسمية سرعان ما اكتسبت قوة هائلة وأصبحت عملياً رأس حربة ثورة أكتوبر. عينت لجنة بتروغراد العسكرية الثورية مفوضين عنها في كل متجر ومستودع أسلحة دون أن تواجه أي معارضة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يعد من الممكن نقل الأسلحة دون إذن من اللجنة. أثار الأمر الذي وجهه تروتسكي لمصنع سيستورويتسكي للأسلحة بأن يقدم 5.000 بندقية للحرس الأحمر الذعر في الأوساط البرجوازية، الأمر الذي أثار بعض العويل بشأن نية البلاشفة ذبح البرجوازيين؛ لكن البنادق وصلت على أي حال. وهكذا فقد كانت الاستعدادات للانتفاضة تجري تحت أنظار السلطات نفسها والتي كانت عاجزة عن منعها.

ومع ذلك فقد كان عدد الحرس الأحمر في بتروغراد قليلاً جداً. تتراوح التقديرات ما بين 23.000 وأقل من 12.000. لم يكن في مقدور مثل تلك القوة الصغيرة أن تهزم القوة الهائلة لجهاز الدولة القديم. لكن جوهر الأمر كان هو أن العمل السياسي الذي قام به البلاشفة خلال الأشهر التسعة التي سبقت أكتوبر، قد نجح في كسب الجماهير، وبالتالي الأقسام الحاسمة داخل الجيش أيضاً. وبكونه قائد لجنة بتروغراد العسكرية الثورية، كان تروتسكي مسؤولاً شخصياً عن كسب حامية بتروغراد، كما يشير مارسيل لييمان قائلاً:

«في 23 أكتوبر، علم قادة الانتفاضة أن حامية القلعة رفضت الاعتراف بسلطة اللجنة العسكرية الثورية. اقترح أنتونوف-أوفسينكو إرسال كتيبة ثورية لنزع سلاح الحامية والحلول محلها. لكن تروتسكي اقترح عوض هذه العملية الخطرة، استخدام أسلوب بلشفي واشتراكي نموذجي، وهو أسلوب التحريض السياسي. ذهب شخصياً إلى القلعة، ودعا إلى عقد اجتماع عام للجنود، وخطبهم، وتمكن من كسبهم، وأقنعهم بالمصادقة على قرار يعلن استعدادهم للإطاحة بالحكومة المؤقتة.

في حين أن التحضير العسكري للانتفاضة كان ناقصاً من بعض الجوانب، فإن الإعداد السياسي لها، خلال الأيام القليلة الماضية وقبل ساعات من بدايتها، كان مكثفاً ومثالياً. انضمت الفيالق المتمركزة في العاصمة إلى الانتفاضة بعد الاستماع إلى الخطابات النارية التي ألقاها المندوبون البلاشفة؛ كانت قاعات الاجتماعات الكبرى في بتروغراد، مثل قاعة السيرك الحديث، مليئة دائماً، وقد استخدمها الخطباء البلاشفة (وفي مقدمتهم تروتسكي) لإبقاء الحماس الثوري مشتتاً عند العمال والبحارة والجنود. كان شهر أكتوبر كله، سواء في بتروغراد أو في المقاطعات على حد سواء، شهر النشاط السياسي المتواصل: نظمت السوفييتات في مختلف المناطق الكونغرانسات والمؤتمرات. نفس الشيء فعله الحزب البلشفي، الذي كان قد اضطر إلى تأجيل مؤتمر استثنائي تم تحديده في نهاية

الشهر. في أكتوبر 1917، أخذت الثورة الدائمة شكلا ملموسا في نقاش دائم. وإذا كانت الجماهير لم تشارك بشكل مباشر في الانتفاضة، فذلك لأنها لم تكن بحاجة للقيام بذلك. لقد عبر دعمهم لسياسة البلاشفة عن نفسه من خلال وسائل أخرى للتعبير، تتناسب مع الطابع البروليتاري والديمقراطي للمشروع، وللتقاليد الاشتراكية<sup>1</sup>.

من المفارقة أن الاستيلاء الفعلي على السلطة بدا وكأنه مهمة ثانوية مقارنة بجميع الأعمال التحضيرية التي جرت من قبل. وفي عمله الضخم، تاريخ الثورة الروسية، يصف تروتسكي بالتفصيل السهولة التي تم بها الاستيلاء على بتروغراد. لقد تم ضمان الطبيعة السلمية للثورة من خلال حقيقة أن البلاشفة، تحت قيادة تروتسكي، كانوا قد كسبوا بالفعل حامية بتروغراد إلى صفوفهم. وفي الفصل الذي عنوانه بـ"الاستيلاء على العاصمة"، يشرح الطريقة التي سيطر بها العمال على قلعة بيتر وبولس الرئيسية، قائلا: «جميع جنود حامية القلعة وافقوا بارتياح كامل على القبض على القائد، لكن رجال الدراجات احتفظوا بموقف مراوغ. ما الذي يخفيه صمتهم الغامض: عداؤ خفي أم نزعة تمرد أخيرة؟ كتب بلاغونرافوف: "لقد قررنا عقد اجتماع خاص لرجال الدراجات، ودعوة أفضل المحرضين لدينا، وعلى رأسهم تروتسكي، الذي كان له سلطة ونفوذ هائلين على جماهير الجنود". على الساعة الرابعة بعد الظهر، التقت الكتيبة بأكملها في المبنى المجاور للسيرك الحديث. قام الجنرال بوراديلوف بأخذ الكلمة بصفته معارضا للحكومة، واشتراكيا ثوريا. كانت اعتراضاته حذرة لدرجة أنها بدت ملتبسة، ولذلك كان هجوم ممثلي اللجنة أكثر تدميرا. انتهت هذه المعركة الخطابية من أجل الفوز بقلعة بيتر وبولس كما كان متوقعا لها: صوت أغلبية الجنود، باستثناء ثلاثين جنديا، لصالح قرار تروتسكي. وهكذا تمت تسوية صراع دموي محتمل آخر قبل اندلاع القتال ودون إراقة الدماء. هكذا كانت انتفاضة أكتوبر وهكذا كان أسلوبها»<sup>2</sup>.

أصر لينين منذ البداية على أنه يجب أن تتم الانتفاضة على أساس الحركة الجماهيرية. وقبل ثورة أكتوبر بقليل كتب قائلا: «يجب ألا تعتمد الانتفاضة على مؤامرة أو على حزب، بل على الطبقة الطليعية... يجب أن تعتمد الانتفاضة على هبة ثورية للشعب»<sup>3</sup>.

## هل كان أكتوبر انقلابا؟

كثيرا ما يصف نقاد البلشفية البرجوازيون ثورة أكتوبر بأنها انقلاب. هذا الادعاء كاذب حتى النخاع. لقد استمرت الثورة على مدى تسعة أشهر، تمكن خلالها الحزب البلشفي، باستخدام أكثر الوسائل ديمقراطية، من كسب الأغلبية الحاسمة من العمال والفلاحين الفقراء. هذا الواقع وحده هو ما يفسر قدرتهم على التغلب بسهولة على مقاومة قوات كيرينسكي. وعلاوة على ذلك، كما سنرى لاحقا، لم تكن هناك من طريقة لكي يتمكن البلاشفة من الاحتفاظ بالسلطة لولا دعم الأغلبية الساحقة في المجتمع. كان التدخل الفعال للجماهير هو العامل الحاسم في كل مرحلة من مراحل الثورة. وقد ترك ذلك التدخل بصمته الواضحة على السيرورة برمتها. لم يكن بإمكان الطبقة السائدة وممثليها السياسيين والعسكريين سوى عض شفاهم وهم يشاهدون عاجزين انزلاق السلطة من بين أيديهم. صحيح أنهم كانوا متورطين في مؤامرات مستمرة ضد الثورة، بما في ذلك الانتفاضة المسلحة التي قادها الجنرال كورنيلوف، التي كانت تهدف إلى الإطاحة بكيرينسكي وإرساء ديكتاتورية عسكرية، لكن كل ذلك تحطم على صخرة الحركة الجماهيرية.

كان دعم الجماهير للبلاشفة حقيقة مقبولة من طرف الجميع في ذلك الوقت، بمن في ذلك أعداء الثورة. لقد قدموا لذلك، بطبيعة الحال، جميع أنواع التفسيرات مثل التأثيرات الخبيثة و"الديماغوجية" وعدم نضج العمال والفلاحين وجهلهم وجميع الادعاءات الأخرى الموجهة بشكل أساسي ضد الديمقراطية نفسها. أما مسألة كيف صارت الجماهير فجأة جاهلة وغير ناضجة بمجرد ما توقفت عن دعم الحكومة المؤقتة، فهو لغز من أعظم الألغاز على الإطلاق. لكن إذا تركنا جانبا الادعاءات المدفوعة بالحقد المفضوح والخبث والغضب، سيمكنا أن نرى في المقطع التالي، المقتطف من جريدة يمينية، اعترافا قيما بأن البلاشفة قد تمتعوا بالفعل بدعم الجماهير، فيوم 28 أكتوبر، كتبت روسكايا فوليا ما يلي: «ما هي فرص نجاح البلاشفة؟ من الصعب الإجابة على هذا السؤال، لأن قاعد دعمهم الأساس هي... جهل الجماهير الشعبية. إنهم يراهنون عليها ويعملون عليها من خلال الديماغوجيا

1: M. Liebman, *Leninism Under Lenin*, pp: 179-180.

2: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, vol. 3, pp: 211-212, (التشديد من آلان وودز)

3: LCW, *Marxism and Insurrection*, vol. 26, p: 22.

التي لا يمكن لأي شيء أن يوقفها»<sup>1</sup>.

من المستحيل فهم ما حدث عام 1917 دون رؤية الدور الأساسي للجماهير. وينطبق الشيء نفسه على الثورة الفرنسية 1789-1794، وهي الحقيقة التي يفشل المؤرخون في كثير من الأحيان في فهمها (مع بعض الاستثناءات، ولا سيما اللاسلطوي كروبوتكين، وفي وقتنا الحالي جورج رودي). لكن هنا وللمرة الأولى في التاريخ، إذا استثنينا حلقة كومونة باريس القصيرة والمجيدة، نجحت الطبقة العاملة بالفعل في الاستيلاء على السلطة والبدء، على الأقل، في التحويل الاشتراكي للمجتمع. هذا بالضبط هو السبب الذي يضطر أعداء الاشتراكية إلى الكذب بشأن ثورة أكتوبر وتشويه سمعتها. لا يمكنهم أن يغفروا للينين والبلاشفة كونهم تمكنوا من قيادة أول ثورة اشتراكية ناجحة، وإثبات أن مثل هذا الشيء ممكن، وبالتالي رسم الطريق للأجيال القادمة. كانت تلك سابقة خطيرة! لذلك من الضروري "إثبات" (بمساعدة الطاقم المعتاد من الأكاديميين "الموضوعيين") أن هذا كله كان عملاً سيئاً للغاية، ويجب ألا يتكرر.

إن الادعاء بأن ثورة أكتوبر كانت مجرد انقلاب غالباً ما يتم تبريره بالإشارة إلى الأعداد الصغيرة نسبياً التي شاركت فعلياً في الانتفاضة. لكن هذه الحجة التي تبدو عميقة، لا تصمد أمام أبسط تحليل. إنها في المقام الأول تخلط بين الانتفاضة المسلحة وبين الثورة، أي أنها تخلط بين الجزء والكل. إن الانتفاضة ليست في الواقع سوى جزء من الثورة، رغم أنه جزء مهم جداً. يشبهها تروتسكي بقمة الموجة. في الواقع لقد كانت المواجهات المسلحة في بتروغراد قليلة جداً، بل يمكن للمرء أن يقول إن الانتفاضة كانت بدون إراقة دماء. وكان السبب وراء ذلك هو أن تسعة أعشار المهام كان قد تم إنجازها مسبقاً، من خلال كسب الأغلبية الساحقة من العمال والجنود. كان ما يزال من الضروري استخدام القوة المسلحة للتغلب على مقاومة أنصار النظام القديم، إذ لم يشهد التاريخ استسلام أي طبقة حاكمة دون قتال، لكن المقاومة كانت ضئيلة. وقد انهارت الحكومة مثل بيت من ورق، لأنه لم يكن هناك أحد مستعد للدفاع عنها.

في موسكو، وأساساً بسبب أخطاء البلاشفة المحليين الذين لم يتصرفوا بالدقة الكافية، تمكنت قوات الثورة المضادة في البداية من المبادرة إلى الهجوم ونفذت مذبحة. وعلى الرغم من ذلك فقد سمح لهم، بشكل لا يصدق، بأن يذهبوا إلى حال سبيلهم على أساس وعد منهم بأنهم لن يشاركوا في أي أعمال عنف أخرى ضد السلطة السوفياتية. لقد كانت مثل هذه التصرفات ممارسات مميزة للأيام الأولى للثورة، التي اتسمت بنوع من السذاجة من جانب الجماهير، التي لم تكن قد فهمت بعد مستوى العنف الرهيب الذي كان المدافعون عن النظام القديم قادرين عليه. إن الثورة لم تكن أبداً نظاماً إرهابياً متعطشاً للدماء، بل على العكس من ذلك كانت متساهلة بشكل غير عادي، إلى أن أبان معسكر الثورة المضادة عن طبيعته الحقيقية. كان الجنرال الأبيض، كراسنوف، من أوائل من قادوا التمرد ضد البلاشفة على رأس جيش من القوزاق. هزمه الحرس الأحمر وسلمه القوزاق أنفسهم، لكن ومرة أخرى تم إطلاق سراحه على أساس كلمة شرف منه. وعن هذا كتب فيكتور سيرج محققاً: «لقد ارتكبت الثورة خطأً إظهار الشهامة تجاه قائد الهجوم القوزاقي. كان يجب إعدامه على الفور. لكنه بعد بضعة أيام استعاد حريته، بعد أن أعطى كلمة شرف بعدم حمل السلاح مرة أخرى ضد الثورة. لكن ما قيمة وعود الشرف تجاه أعداء الوطن والملكية الخاصة؟ فانطلق ليغرق منطقة الدون بالنار والحديد»<sup>2</sup>.

هل مشاركة قوى قليلة نسبياً في عمليات القتال الفعلي تعني أن انتفاضة أكتوبر كانت انقلاباً؟ هناك العديد من أوجه التشابه بين الحرب الطبقيّة وبين الحرب بين الأمم. ففي هذه الأخيرة أيضاً، لا تكون سوى نسبة صغيرة جداً من السكان مشاركة في القوات المسلحة. فقط أقلية صغيرة من الجيش هي التي تكون في الخطوط الأمامية. ومن بين هؤلاء، حتى في سياق معركة كبيرة، لا تشارك سوى أقلية من الجنود عادة في القتال. يعرف الجنود ذوو الخبرة أن الكثير من الوقت يمضي في الانتظار والخمول، حتى أثناء المعركة. وفي كثير من الأحيان لا يتم استدعاء قوات الاحتياط إلى العمل. لكن دون توفر قوات الاحتياط، لا يمكن لأي جنرال مسؤول أن يأمر جنوده بالتقدم. وعلاوة على ذلك لا يمكن شن الحرب بنجاح دون وجود دعم مخلص من جانب المواطنين في الداخل، على الرغم من أنهم لا يشاركون بشكل مباشر في القتال. لقد نقش هذا الدرس في جمجمة البنتاغون خلال المراحل الأخيرة من حرب فيتنام.

إن استيقاظ الجماهير ومشاركتها النشطة ومبادرتها وقوتها الإبداعية هي ما يشكل جوهر كل ثورة عظيمة. وقد اتضح ذلك بطريقة مذهلة حقاً خلال الأشهر التسعة ما بين ثورتي فبراير وأكتوبر. لقد تحركت الجماهير مراراً وتكراراً، في فبراير وماي ويونيو ويوليو وشتنبر، من أجل تغيير المجتمع. فإذا كانوا لم ينجحوا على الفور في ذلك، فهذا ليس لعدم المحاولة من جانبهم، بل لأنهم

1: J. Reed, *Ten Days that Shook the World*, p: 298 (التشديد من آلان وودز)

2: V. Serge, *Year One of the Russian Revolution*, p. 87.

في كل مرة كانوا يكبحون من قبل قادتهم، الذين رفضوا بعناد أن يأخذوا السلطة عندما تم تقديمها لهم على طبق من ذهب. كم مرة رأينا نفس الشيء منذ ذلك الحين؟ في ألمانيا أعوام 1918 و1920 و1923؛ في بريطانيا عامي 1926 و1945؛ في إسبانيا عام 1936؛ في فرنسا عام 1936 ومرة أخرى عام 1968؛ في البرتغال في 1974-1975؛ في إيطاليا في 1919-1920 وفي 1943 و1969، وطوال السبعينيات؛ في باكستان في 1968-1969؛ في تشيلي في 1970-1973، وفي العديد من البلدان الأخرى في جميع أنحاء العالم. في كل تلك الحالات، بعد أن تخلت القيادة عن إمكانية تغيير المجتمع ولو بالوسائل السلمية وعبدت الطريق لانتصار الردة الرجعية، خرج نفس هؤلاء المتشائمين بنفس الحجج المحبطة القديمة حول أن: الظرف الموضوعي لم يكن ناضجا؛ وأن موازين القوى كانت غير مواتية؛ وأن الجماهير لم تكن جاهزة؛ وأن الدولة كانت قوية للغاية؛ وما إلى ذلك. دائما ما يتم إلقاء اللوم على الجنود الذين حاربوا بالفعل، لكن ليس على الجنرالات الذين رفضوا القيادة. ولو أن قيادة الحزب البلشفي كانت في أيدي ستالين وزينوفيف وكامينيف، بدلا من لينين وتروتسكي، لكان نفس هؤلاء السيدات والسادة سيكتبون الآن، بالاعتماد على مجموعة كبيرة من الوقائع، كيف أن مصير الثورة الروسية كان هو الهزيمة منذ البداية، بسبب عدم نضج الظرف الموضوعي وموازن القوى الطبقيّة غير المواتية و"عدم نضج" الجماهير.

لقد أظهرت الجماهير، في الواقع، عن أكبر قدر من النضج والمبادرة، كما فعلت في كل ثورة. صحة الجماهير ومستوى وعيهم العالي وكرامتهم التي اكتشفوها للتو باعتبارهم بشرا يمتلكون عقلا يفكر، تجلت بألف طريقة وطريقة. وأفضل طريقة للكشف عنها ليس من خلال الإحصاءات الجافة، بل بالتحديد من خلال الأحداث التي تضخ الحياة في الإحصاءات، مثل تلك التي استشهد بها ذلك المراقب النبیه للثورة الروسية، جون ريد، حيث يقول: «في كل مكان حولهم كانت روسيا العظمى في حالة مخاض تلد عالما جديدا. فالخدم الذين كانوا من قبل يعاملون مثل البهائم، وما كانوا يحصلون على أي أجر تقريبا، صاروا يحققون استقلالهم. ولما كان زوج من الأحذية يكلف أكثر من مائة روبل، في حين كانت الأجرة الشهرية لا تزيد وسطيا عن خمسة وثلاثين روبلا، فقد كان الخدم يرفضون الوقوف في الطابور وإتلاف أحذيتهم. ولكن الأكثر أهمية من ذلك هو أنه في روسيا الجديدة صار لكل الرجال والنساء الحق في التصويت. وظهرت جرائد عمالية تتحدث عن أشياء جديدة مدهشة؛ وظهرت السوفييتات؛ وظهرت النقابات. حتى الإيزفوتشيكي (سائقو العربات) كانت لهم نقابتهم، وكان لهم أيضا من يمثلهم في سوفييت بتروغراد. ونظم مستخدمو الفنادق والمطاعم صفوفهم وصاروا يرفضون البقشيش. علقوا على جدران المطاعم لافتات تقول: "لا نقبل البقشيش هنا" أو "أن يكون عمل الإنسان هو خدمة المائدة لكسب عيشه، ليس مبررا لإهانتته بتقديم البقشيش له"<sup>1</sup>.

إن الحجة القائلة بأن البلاشفة قد استولوا على السلطة بدون الجماهير (أي نفذوا انقلابا) تقوم عادة على فكرة أن السلطة لم تحسم من طرف الطبقة العاملة بل من طرف الحزب. ومرة أخرى هذه الحجة خاطئة تماما. إن الطبقة العاملة بدون تنظيم -أي النقابات والحزب- ليست سوى مادة خام للاستغلال. لقد أشار ماركس إلى ذلك منذ وقت طويل. صحيح أن البروليتاريا تمتلك قوة هائلة، فلا يمكن لأي عجلة أن تدور ولا لأي مصباح أن يضيء، بدون إذهنها. لكن بدون تنظيم تبقى هذه القوة مجرد إمكانية. وبنفس الطريقة يعد البخار قوة هائلة، لكنه بدون مكبس سيتبدد في الهواء. وبالتالي فمن أجل أن تتوقف قوة الطبقة العاملة عن أن تكون مجرد إمكانية وتصبح حقيقة، يجب تنظيمها وتركيزها في نقطة واحدة. لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال حزب سياسي بقيادة شجاعة وبعيدة النظر وبرنامج صحيح. كان الحزب البلشفي، بقيادة لينين وتروتسكي، هو ذلك الحزب. فاستند على الحركة الجماهيرية الرائعة، وأعطاهما شكلا محددًا وهدفا وصوتا. كانت هذه هي خطيتهم الأساسية من وجهة نظر الطبقة السائدة وخدمها الأوفياء داخل الحركة العمالية. هذا هو السبب وراء كراهيتهم للبلشفية وحقدهم عليها، وموقفهم العدائي والحنق تجاهها، والذي ما زال يحدد موقفهم منها حتى بعد ثلاثة أجيال.

أبدا لم يكن البلاشفة يتحركون خلف ظهور الجماهير، بل كانوا هم الحزب الذي أعطى تعبيرا واعيا لسعي الطبقة العاملة لتغيير المجتمع. إذا كنا لنقول شيئا عن الحزب خلال عام 1917، فهو أنه غالبا ما تخلف عن مواكبة المزاج الثوري للجماهير، وهي حقيقة أدركها لينين بسرعة، وتبدو واضحة في مصادر لا حصر لها، مثل المقتطف التالي من مذكرات الناشط البلشفي البارز، جندي البحرية راسكولنيكوف، الذي يتذكر لقاء جماهيريا للجنود، خاطبهم قبل فترة قصيرة من الانتفاضة، حيث يقول: «لقد اندهشت من حالة نفاذ الصبر الثوري الذي وجدته في ذلك الاجتماع. شعرت أن كل واحد من هؤلاء الآلاف من الجنود والعمال كان مستعدا في أي لحظة للنزول إلى الشوارع وفي يده الأسلحة. مشاعرهم المليئة بالحقد، وكراهيتهم الشديدة تجاه الحكومة المؤقتة لم تكن تدفع في اتجاه السلبية على الإطلاق. لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا الشغف الثوري والشوق الشديد للفعل إلا في كرونشتاد عشية أحداث

1: J. Reed, *Ten Days That Shook the World*, p: 14.

يوليو. ما يزال هذا يعزز إيماني العميق بأن قضية الثورة البروليتارية تسير على الطريق الصحيح»<sup>1</sup>.

ومن الضروري أن نضيف أنه في كل مرحلة من مراحل الثورة كان البلاشفة يضعون نصب أعينهم منظور الثورة العالمية. لم يعتقدوا أبداً أنه بإمكانهم الاحتفاظ بالسلطة في روسيا وحدها. إن هذه الروح الأمامية المتأججة تظهر مثل خيط ناظم في جميع كتابات وخطب لينين. في 24 أكتوبر، كتب إلى قادة الحزب دعوة حماسية للفعل، قال فيها: «إنني أحث الرفاق بكل قوة على إدراك أن كل شيء الآن معلق بخيط؛ وأنا نواجه مشاكل لا تحلها الكونفرانسات أو المؤتمرات (هما في ذلك مؤتمرات السوفييتات)، بل تحلها الشعوب وحدها، تحلها الجماهير، يحلها نضال الشعب المسلح»<sup>2</sup>.

## انتصار البلشفية

تم الاستيلاء الفعلي على السلطة بسلاسة حتى أن الكثيرين لم يعرفوا أنه حدث. ولهذا السبب فإن أعداء ثورة أكتوبر يصورونها على أنها كانت انقلاباً. في الواقع هناك سببان وراء تلك السلاسة: أحدهما تقني والآخر سياسي. لقد تم تنفيذ الاستعدادات التقنية للهجوم النهائي بدقة كبيرة من قبل اللجنة العسكرية الثورية، بقيادة تروتسكي. كانت القاعدة الأساسية، كما هو الحال دائماً في الحروب، هي تركيز القوى، في اللحظة الحاسمة وعند النقطة الحاسمة، بما يخلق تفوقاً ساحقاً للقوى، ثم الضرب بقوة. لكن هذا ليس كافياً أثناء الانتفاضة، إذ لعب عنصر المفاجأة والمناورة، لخداع العدو فيما يتعلق بالنوايا الحقيقية للثوار، دوراً مهماً هنا، كما في أي نوع آخر من العمليات العسكرية. لقد تم تقديم كل خطوة على أنها خطوة دفاعية، لكن طبيعة الانتفاضة كانت في الواقع ومن الناحية العملية، هجومية بالضرورة، حيث تحركت بسرعة لتحتل المواقع الواحد منها تلو الآخر، ومداخلة العدو على حين غرة.

لكن السبب الحقيقي وراء تنفيذ الانتفاضة بتلك السرعة ودون ألم تقريبا، لم يكن عسكرياً ولا تقنياً، بل كان سياسياً. كانت تسعة أعشار مهام الانتفاضة قد تم إنجازها مسبقاً - من خلال كسب أغلبية ساحقة في سوفييتات العمال والجنود. وعندما دقت ساعة الحقيقة، لم تجد الحكومة المؤقتة، مثلما حدث للنظام القيصري في فبراير، من يدافع عنها. يظهر الموقف الحقيقي في لحظة الانتفاضة من خلال تصريحات أحد الفاعلين الرئيسيين في الأحداث - كيرينسكي، الذي كتب في مقتطف مليء بالسخرية والحسرة: «كانت ليلة 24-25 أكتوبر ليلة توقعات محمومة. كنا ننتظر وصول القوات من الجبهة. لقد استدعيتهم في الوقت المناسب وكان من المقرر أن يصلوا إلى بتروغراد صباح 25 أكتوبر. لكن وبدلاً من وصول القوات، كل ما حصلنا عليه هو برقيات ومكالمات هاتفية تقول إن السكك الحديدية تتعرض للتخريب».

في الصباح (25 أكتوبر)، لم تكن القوات قد وصلت بعد. كان مقر الهاتف المركزي ومكتب البريد ومعظم المكاتب الحكومية قد احتلت من قبل فيالق من الحرس الأحمر. كما أن المبنى الذي كان يضم مجلس الجمهورية، والذي كان في اليوم السابق فقط مسرحاً لمناقشات غبية ولا نهائية، قد احتل أيضاً من قبل الحرس الأحمر»<sup>3</sup>.

نفس كيرينسكي، الذي كان في وقت سابق يتباهى أمام السفير البريطاني بأنه ينتظر فقط أن يقوم البلاشفة بالتحرك لكي يسحقهم، وجد نفسه الآن بدون قوات تقوم بالمهمة واضطر للفرار من بتروغراد في سيارة تكرمت السفارة الأمريكية بتوفيرها له.

ليس هذا هو المكان المناسب لتكرار تاريخ الانتفاضة بالتفصيل، فقد تم التطرق إلى ذلك بما فيه الكفاية في كتابات جون ريد وليون تروتسكي. إن ما يثير الدهشة في ثورة أكتوبر هو كيف تمكنت من أن تعمل تحت الأنظار المركزة للرأي العام. لو أن الناس لم يكونوا على علم بأن البلاشفة ينوون الاستيلاء على السلطة، فإن التصريحات العلنية التي قام بها كامينيف وزينوفييف كانت ستنبههم إلى الحقيقة. الجريدة الفرنسية "Entente"، التي كانت تصدر في بتروغراد، كتبت في 15 نوفمبر، أي بعد أسبوع على الثورة: «حكومة كيرينسكي تناقش وتتردد، بينما حكومة لينين وتروتسكي تهاجم وتعمل. يطلق على هذه الأخيرة اسم حكومة المتآمرين، لكن هذا خطأ. إنها حكومة المغتصبين، أجل، مثلها في ذلك مثل جميع الحكومات الثورية التي تنتصر على خصومها. أما المتآمرين فلا! كلا! إنهم لم يتآمروا. بل على العكس من ذلك تماماً، لقد تحركوا علناً وبجرأة ودون تلاعب بالكلمات ودون إخفاء لنواياهم، وضاعفوا من تحريضهم وكثفوا دعايتهم في المصانع والثكنات وعلى الجبهة وداخل البلد، وفي كل مكان، حتى أنهم حددوا مسبقاً

1: F.F. Raskolnikov, *Kronstadt and Petrograd in 1917*, p: 266.

2: LCW, *Letter to the Central Committee Members*, vol. 26, p: 234.

3: A. Kerensky, *Memoirs*, p: 437.

موعد حملهم للسلاح وموعد استيلائهم على السلطة... هل هم متأرون؟ أبدا...<sup>1</sup>!

في مساء 24 أكتوبر، بدأت مجموعات من الحرس الأحمر في احتلال مطابع الصحافة البرجوازية، حيث طبعوا أعدادا كبيرة من الإعلانات الثورية وكذلك الجرائد البلشفية، مثل رابوتشي بوت وسولدات. الجنود الذي تلقوا الأمر بمهاجمة تلك المطابع رفضوا الامتثال. كانت هذه هي الصورة العامة في بتروغراد. كانت المقاومة غير موجودة عمليا. بينما كان المندوبون إلى المؤتمر يراقبون من الداخل -بعضهم يحذر، والبعض الآخر بشغف- خروج فيالق الجنود والبحارة من قصر سمولني إلى النقاط الرئيسية في المدينة. وفي الساعة الواحدة صباحا، احتلوا وكالة التلغراف. بعد نصف ساعة، تم الاستيلاء على مكتب البريد. وفي الساعة الخامسة تم الاستيلاء على مكتب الهاتف. بحلول العاشرة صباحا تم ضرب طوق حول قصر الشتاء، حيث كان من المتوقع أن تكون بعض المقاومة. لكنه في الواقع سقط بسهولة.

لم تعمل انتفاضة أكتوبر إلا أعلى تأكيد الشيء الذي كان واقعا بديهيا. كان الجميع يعلم أن البلاشفة وحلفاؤهم سيحصلون على أغلبية حاسمة في مؤتمر السوفييتات. لذلك اتخذ القرار بأن تتزامن الانتفاضة مع افتتاح أشغال المؤتمر. كان من الواضح أن الجانب الرسمي هنا يجب أن يأخذ المركز الثاني وراء متطلبات العملية العسكرية. إن الفكرة القائلة بأن مسألة الانتفاضة المسلحة يجب تحديدها من خلال نقاش عام في المؤتمر سخيطة مثل سخافة المطالبة بمناقشة خطط معركة حربية في جلسة علنية في البرلمان خلال زمن الحرب. أي شخص يطالب بمثل هذا الأمر سيُصنّف بلا شك خائنا وربما يُحتجز في ملجأ للمجرمين المجانين. ومع ذلك فإن هذه الاعتبارات لم تمنع منتقدي ثورة أكتوبر من الشكوى من أن لينين وتروتسكي لم ينتظرا الموافقة الرسمية من طرف مؤتمر السوفييتات قبل شن الهجوم. ليس لمثل هذه الحجج أي منطق. لقد كان رأي الأغلبية الساحقة من العمال والجنود معروفا جيدا: يجب أن تستولي السوفييتات على السلطة. وقد تمت تسوية هذا بشكل مسبق، وجاء المؤتمر لكي يضع توقعه عليه. وبمجرد أن تم حل هذه المسألة المركزية، صارت مهمة تحديد متى وكيف يجب القيام بالانتفاضة -والذي هو قرار تقني وعسكري بحت- مهمة الهيئات المختصة، وقد كانت في هذه الحالة هي اللجنة العسكرية الثورية، وفقا لقوانين الحرب وليس وفقا للديمقراطية الشكلية.

في الساعة 14:35، افتتح تروتسكي جلسة طارئة لمجلس سوفييت بتروغراد. وعند صعوده إلى المنصة، صاح بالكلمات التي كان الجميع ينتظرونها: «نيابة عن اللجنة العسكرية الثورية، أعلن أن الحكومة المؤقتة لم تعد موجودة! عاشت اللجنة العسكرية الثورية!».

وبدأ يسرد مكتسبات الانتفاضة تباعا، ولم يتوقف إلا لكي يشرح الوضع في قصر الشتاء، حيث قال: «لم يتم الاستيلاء على قصر الشتاء بعد، لكن مصيره سيتقرر قريبا... في تاريخ الحركات الثورية، لا أعرف أي أمثلة عن حركة شهدت مشاركة مثل هذا العدد الهائل من الجماهير وتطورت دون سفك دماء. لقد كانت سلطة الحكومة المؤقتة، برئاسة كيرينسكي، قد ماتت، وتنتظر ضربة مكنتة التاريخ للتخلص منها... نام السكان بسلام ولم يعرفوا أنه في ذلك الوقت تم استبدال سلطة بأخرى»<sup>2</sup>.

عند هذه اللحظة دخل لينين إلى القاعة، وهو ما يزال متنكرا في زي عامل. وفي منتصف خطابه، توقف تروتسكي مؤقتا وتوجه إلى الرجل الذي كان قد صار متحدا معه بشكل كامل كرفيق سلاح. كانت كل خلافات الماضي قد نسيت في خضم النضال. «عاش الرفيق لينين، الذي عاد إلينا مرة أخرى»، كانت هذه هي كلمات تروتسكي وهو يترك المنصة للينين، الذي خاطب المندوبين لأول مرة. وفي خطابه التاريخي أمام مؤتمر السوفييتات، في 25 أكتوبر 1917، قال:

«أيها الرفاق، إن ثورة العمال والفلاحين، التي كان البلاشفة يتحدثون دائما عن ضرورتها قد أنجزت.

ما هي أهمية ثورة العمال والفلاحين؟ إن أهميتها هي، أولا وقبل كل شيء، أنه ستكون لدينا حكومة سوفييتية، سيكون لدينا جهاز السلطة الخاص بنا، حيث لن يكون للبرجوازية أي نصيب على الإطلاق. الجماهير المضطهدة نفسها هي من ستصنع السلطة. سيتم تحطيم جهاز الدولة القديم من أسسه وسيتم إنشاء جهاز إداري جديد على شكل منظمات سوفييتية.

تبدأ من الآن فصاعدا مرحلة جديدة في تاريخ روسيا، وهذه الثورة الروسية الثالثة يجب أن تؤدي في النهاية إلى انتصار الاشتراكية.

إن إحدى مهامنا الملحة هي وضع حد فوري للحرب. من الواضح للجميع أنه من أجل إنهاء هذه الحرب، المرتبطة ارتباطا وثيقا بالنظام الرأسمالي الحالي، يجب النضال ضد رأس المال نفسه.

1: J. Reed in *Ten Days That Shook the World*, p. 107.

2: A. Rabinowitch, *The Bolsheviks Come to Power*, p. 278.



وستساعدنا في ذلك حركة الطبقة العاملة العالمية، التي بدأت بالفعل تتطور في إيطاليا وبريطانيا وألمانيا. إن الاقتراح الذي تقدمه للديمقراطية الأممية من أجل سلام عادل وفوري، سوف يوقظ في كل مكان استجابة حماسية بين الجماهير البروليتارية الأممية. يجب نشر جميع المعاهدات السرية على الفور من أجل تعزيز ثقة البروليتاريا. داخل روسيا، قال قسم كبير من الفلاحين إنهم راهنوا على الرأسماليين فترة طويلة بما يكفي، وإنهم سوف يسرون الآن مع العمال. إن مرسوم واحد يضع حدا للملكية العقارية سيكسبنا ثقة الفلاحين. سيفهم الفلاحون أن خلاصهم ممكن فقط بالتحالف مع العمال. سوف ننشئ رقابة عمالية حقيقية على الإنتاج. لقد تعلمنا الآن بذل جهود متضافرة. والثورة التي تم تحقيقها للتو هي دليل على ذلك. إننا نمتلك قوة التنظيم الجماهيري الذي سيتغلب على كل شيء وسيقود البروليتاريا إلى الثورة العالمية. يجب أن نبدأ الآن في بناء دولة اشتراكية بروليتارية في روسيا. عاشت الثورة الاشتراكية العالمية! (تصفيق عاصف)»<sup>1</sup>.

### النضال داخل المؤتمر

لقد انتصرت الانتفاضة بكل المقاييس. الهدف الوحيد الذي لم يكن قد تحقق بعد هو الاستيلاء على قصر الشتاء، الذي ظل في أيدي القوات الموالية للحكومة. عبر لينين، الذي كان يأمل في أن تنتهي الانتفاضة قبل افتتاح مؤتمر السوفييتات، عن نفاذ صبره من ذلك التأخير، الذي نتج عن قلة خبرة الثوار. تم التحضير السياسي للانتفاضة باحترافية أكبر بكثير من التحضير التقني، الذي كان أبعد ما يكون عن الكمال. كانت هناك العديد من العيوب التنظيمية. وصلت القوات في وقت متأخر بسبب انفجار أنابيب إحدى القاطرات، واتضح أن قذائف مدفع الهجوم كان حجمها خاطئاً، كما لم يتمكنوا من العثور على فانوس أحمر للإشارة إلى بداية الهجوم، وما إلى ذلك. لكن في النهاية، لم يكن أي من هذه الأشياء حاسماً. مثل تلك المفارقات تنتمي إلى صنف الحوادث التاريخية. كان الأمر الحاسم هو كسب الجماهير مما ترك الحكومة المؤقتة معزولة ومشلولة عندما دقت ساعة الحقيقة. وهكذا فعلى الرغم من وجود ثلاثة آلاف مدافع داخل قصر الشتاء، فإنهم فروا ببساطة أثناء الليل. كان الضباط القادة في الداخل يفهمون الوضع الحقيقي. وقد تم عقد مجلس حرب، أدلى فيه الأدميرال فيرديريفسكي بملاحظة ذكية حين قال: «لا أعرف لماذا تم عقد هذه الجلسة، ليست لدينا قوة عسكرية حقيقية وبالتالي فنحن غير قادرين على اتخاذ أي إجراء مهما كان».

تم الاستيلاء على قصر الشتاء بدون إراقة دماء، وفي عملية أقرب إلى مدهامة بوليسية عادية. عندما أطلق الطراد أورورا طلقات تحذيرية تبخرت حامية القصر ببساطة أثناء الليل. وقد خاطب وزير الزراعة الاشتراكي الثوري اليميني، سيميون ماسلوف، مجلس الدوما بياس: «لقد أرسلتنا الديمقراطية إلى الحكومة المؤقتة. لم نكن نريد أي مناصب، لكننا ذهبنا. لكن الآن، عندما وقعت المأساة، عندما بدأ يتم إطلاق النار علينا، لا أحد يدعمنا»<sup>2</sup>.

وعندما انطلق الهجوم في النهاية، لم تكن هناك أي مقاومة. في حوالي الساعة الثانية صباحاً، وبينما كان أعضاء الحكومة المؤقتة المرهقون والمحبطون جالسين حول الطاولة ينتظرون، انفتح الباب بقوة، وكان هذا ما وقع حسب أحد الحاضرين: «دخل رجل صغير إلى الغرفة، مثل قشة تقذفها موجة، تحت ضغط الغوغاء الذين تدفقوا وانتشروا بسرعة، ومثل الماء ملأوا كل أركان الغرفة». كان الرجل الصغير هو أنتونوف أوفسينكو من اللجنة العسكرية الثورية. قال الوزير كونوفالوف: «الحكومة المؤقتة هنا، ماذا تريدون؟». فجاء الجواب القطعي: «أنتم جميعاً رهين الاعتقال».

كان من المقرر بدء أشغال مؤتمر السوفييتات على الساعة الثانية مساءً، لكن تم تأجيله، وفتح أبوابه أخيراً على الساعة 10:40 مساءً، بينما كان حصار قصر الشتاء ما يزال مستمراً. وقد تخللت المناقشات أصوات إطلاق النار أحياناً. وداخل المؤتمر كان هناك عرض درامي.

لقد كانت جلسة بالغة الأهمية. أعلن تروتسكي، باسم اللجنة العسكرية الثورية، أن الحكومة المؤقتة لم تعد موجودة. وقال:

1: LCW, *Meeting of the Petrograd Soviet of Workers' and Soldiers Deputies, 25 October (7 November), 1917*, vol. 26, pp: 239-240.

2: A. Rabinowitch, *The Bolsheviks Come to Power*, p: 284 and 290 (التشديد من آلان وودز)

”إن طبيعة الحكومات البرجوازية هي خداع الشعب، نحن سوفيات نواب العمال والجنود والفلاحين، سنخوض تجربة فريدة من نوعها في التاريخ؛ سنبنّي سلطة لن يكون لها أي هدف آخر سوى تلبية احتياجات الجنود والعمال والفلاحين“.

أعطى التصويت في المؤتمر أغلبية واضحة للبلاشفة وحلفاءهم الاشتراكيين الثوريين اليساريين. فمن أصل 670 مندوباً، كان هناك 300 من البلاشفة و193 من الاشتراكيين الثوريين -أكثر من نصفهم من اليسار- و82 من المناشفة - من بينهم 14 مناشفة أمميون. وكما رأينا فقد كان البلاشفة يتمتعون بنفوذ قوي في المراكز الصناعية الرئيسية في الشمال والغرب. وكانت قاعدة دعمهم ما تزال تنمو. افتتح المؤتمر أشغاله بانتخاب هيئة رئاسة السوفييت. قدم البلاشفة قائمة مشتركة مع الاشتراكيين الثوريين اليساريين والمناشفة الأميين. وكانت النتيجة: 14 بلاشفة، 07 اشتراكيين ثوريين، 04 مناشفة، إلا أن هؤلاء الآخرين رفضوا شغل المقاعد المخصصة لهم. وقد صوتت الغالبية العظمى داخل المؤتمر لصالح تشكيل حكومة سوفيائية.

كان سخط المناشفة والاشتراكيين الثوريين لا حدود له. وعندما أعلن تروتسكي أن الانتفاضة قد انتصرت، وأن القوات الموالية للحكومة المؤقتة كانت تقترب من بتروغراد، وأنه يجب إرسال وفد إليهم لإخبارهم بالحقيقة، كان هناك صراخ ”أنت تستبق إرادة مؤتمر السوفييتات!“، لكن وقت المجاملات الشكلية كان قد انتهى، فأجاب تروتسكي ببرود: «لقد تم استباق إرادة مؤتمر سوفييتات عموم روسيا من خلال انتفاضة عمال وجنود بتروغراد».

لم يكن المناشفة والاشتراكيون الثوريون وحدهم من يعارض الانتفاضة. فحتى في تلك الساعة المتأخرة كان البلاشفة التوفيقيون ما يزالون يعارضون الاستيلاء على السلطة. سرد جون ريد حكاية عن لقاء مؤقت جمعه مع ريزانوف، نائب رئيس النقابات العمالية حيث قال: «كان يبدو أسوداً ويعض لحيته الرمادية. وصرخ: ”هذا جنون! جنون!“». ”إن الطبقة العاملة الأوروبية لن تتحرك! وكل روسيا“ - ثم لوح بيده بشكل عشوائي وهرب». مارتوف الذي كان آنذاك مريضاً جداً، حافظ على تذبذبه حتى النهاية. وآمال لينين في أنه سيجد طريقه أخيراً إلى المعسكر الثوري كانت عقيمة. أصر مارتوف على تشكيل حكومة ائتلافية مع القادة الاشتراكيين اليمينيين ”من أجل منع الحرب الأهلية“. كان ذلك الاقتراح، في الواقع، سيبطل الانتفاضة وسيعيد عقارب الساعة إلى وضعها السابق. مثل ذلك الخيار كان غير وارد على الإطلاق. كان كل من لينين وتروتسكي يعارضانه، لكن التوفيقيين كانوا مؤيدين له. أعلن لوناتشارسكي، نيابة عن الفريق البلشفي، أنه ليس لديه أي اعتراض على ذلك الاقتراح، والذي تم تمريره بالفعل. لكن المناشفة سرعان ما كشفوا إفلاس ذلك الاقتراح من خلال تنديدهم بالإطاحة بالحكومة المؤقتة، ثم انسحبوا من المؤتمر. وأثناء خروجهم، وسط السخرية والصفير من جانب المندوبين، قصفهم صوت تروتسكي قائلاً: «كل هؤلاء الذين يسمون بالاشتراكيين المساومين، هؤلاء المرعوبين المناشفة والاشتراكيين الثوريين والبوند، دعوهم يذهبون! إنهم مجرد نفايات سيتم رميها في مزبلة التاريخ!»<sup>1</sup>.

لم يكن انتصار الانتفاضة هو الحلقة الأخيرة للثورة البلشفية. فقد احتشدت قوى الردة الرجعية وحاولت شن هجوم مضاد، لكنها تعرضت للهزيمة. ثم اندلعت حرب أهلية دامية ضد البلاشفة استمرت أربع سنوات أخرى. في ذلك الصراع واجهت السلطة السوفيائية قوى الإمبريالية العالمية، على شكل 21 جيشاً غازياً أجنبياً. في إحدى المراحل كان كل ما تبقى في أيدي البلاشفة من أراض هي المنطقة المحيطة بموسكو وبتروغراد، والتي تعادل تقريباً مسكوفي القديمة. ومع ذلك تم هزم أعداء الثورة الواحد منهم تلو الآخر. ومن شطايا الجيش القيصري القديم، تمكن تروتسكي من بناء قوة بروليتارية جديدة، هي الجيش الأحمر، الذي أدهش العالم بانتصاراته. كانت بسالة وتنظيم وانضباط الجيش الأحمر هي مفتاح النصر، لكنه لم يكن لينجح بدون النداء الأممي للثورة البلشفية. فمن خلال الأممية الشيوعية وجه لينين وتروتسكي نداء إلى عمال العالم، تم استقباله بحماس شديد. فقد رفض عمال الموانئ البريطانيون تحميل سفن الأسلحة المتجهة إلى القوات المعادية للثورة في بولندا. وكانت هناك تمردات في كل الجيوش التي أرسلت للقتال ضد البلاشفة. وعلى عكس كل التوقعات تمكنت السلطة السوفيائية من النجاة لتظهر للعالم للمرة الأولى أنه من الممكن إدارة المجتمع بدون رأسماليين ومصرفيين وملاك أراض. صحيح أن الثورة الروسية، في ظل ظروف التخلف الاقتصادي والثقافي الفظيع، عانت من انحطاط بيروقراطي، لكن ليس قبل أن تقدم دليلاً مذهلاً على الإمكانيات الهائلة للاقتصاد المخطط المؤمم.

«يمكننا تلخيص التطور التاريخي للبشرية في مجمله على أنه سلسلة من انتصارات الوعي على القوى العمياء، في الطبيعة وفي المجتمع وفي الإنسان نفسه. يمكن للفكر النقدي والإبداعي أن يتباهى بتحقيقه حتى الآن لأعظم الانتصارات في الصراع مع الطبيعة. لقد وصلت العلوم الفيزيائية والكيميائية بالفعل إلى درجة أن الإنسان صار على وشك أن يصبح سيد المادة. لكن العلاقات الاجتماعية ما تزال تنمو بشكل بطيء جداً. الديمقراطية البرلمانية مجرد ديمقراطية شكلية. إنها بالمقارنة مع الأنظمة الملكية وغيرها

1: J. Reed, *Ten Days That Shook the World*, pp: 122-123 and 131.

من بقايا الماضي، تمثل بالطبع مكتسبا مهما، لكنها لا تمس القوى العمياء للعلاقات الاجتماعية بين الطبقات في المجتمع. وقد كانت ثورة أكتوبر أول من وقف في مواجهة هذه القوى العمياء. أراد النظام السوفيياتي أن يضع هدفا وخطا وتنظيما للمجتمع الذي بقي حتى الآن محكوما بتراكم الأفعال وردود الأفعال»<sup>1</sup>.

سنترك الكلمة الأخيرة للثورية العظيمة التي طالما تم تصويرها، زورا هي أيضا، بأنها كانت معارضة عنيدة لينين ولبلشفية. فمن زنانتها في ألمانيا، رحبت روزا لوكسمبورغ بثورة أكتوبر بالكلمات التالية: «فقط الحزب الذي يعرف كيف يقود، أي يعرف كيف يدفع الأشياء إلى الأمام، هو من يكسب الدعم في الأوقات العصيبة. إن العزيمة التي قدم بها لينين ورفاقه، في اللحظة الحاسمة، الحل الوحيد الذي يمكن أن يدفع الأشياء ("كل السلطة في يد البروليتاريا والفلاحين")، حولتهم، بين عشية وضحاها تقريبا، من أقلية مضطهدة ومفتري عليها ومحظورة، كان على قائدها أن يختبئ مثل مارات في الأقبية، إلى متحكمين بشكل مطلق في الموقف. وعلاوة على ذلك فقد حدد البلاشفة على الفور هدف الاستيلاء على السلطة في برنامج ثوري كامل وبعيد المدى: ليس حماية الديمقراطية البرجوازية، بل إقامة ديكتاتورية البروليتاريا لغرض تحقيق الاشتراكية. وبذلك كسبوا لأنفسهم التميز التاريخي الخالد بكونهم أول من وضع الهدف النهائي للاشتراكية كبرنامج مباشر للسياسة العملية.

إن كل ما يمكن للحزب أن يقدمه، في لحظة تاريخية، من شجاعة وتُعد نظر ثوري وثبات، قد قدمه بشكل جيد لينين وتروتسكي وغيرهما من الرفاق. لقد مثل البلاشفة كل الشرف الثوري والكفاءة الثورية اللذان افتقرت إليهما الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الغربية. لم تكن انتفاضتهم في أكتوبر إنفاذا للثورة الروسية فقط، بل إنفاذا لشرف الحركة الاشتراكية الأممية».

يمكن لحكم روزا لوكسمبورغ النهائي على الحزب البلشفي أن يكون الكلمة الأخيرة للتاريخ في حق أعظم حزب ثوري في التاريخ: «إن المطلوب هو التمييز بين ما هو جوهري وما هو ثانوي، بين الثابت والعرضي في سياسات البلاشفة. في الفترة الحالية، حيث تواجه صراعات نهائية حاسمة في كل أنحاء العالم، صارت مسألة الاشتراكية هي المسألة الأكثر ملحاوية في عصرنا. لا يتعلق الأمر بهذه المسألة التكتيكية الثانوية أو تلك، بل بقدرة البروليتاريا على الفعل، وقوة الفعل، والرغبة في حسم الاشتراكية للسلطة. وفي هذا الصدد كان لينين وتروتسكي ورفاقهما هم الأولون، هم من قدموا المثال للبروليتاريا العالمية؛ وما زالوا الوحيدين حتى الآن الذين يمكنهم القول مع هوتن: "لقد تجرأت؟".

هذا هو الشيء الأساسي والثابت في السياسة البلشفية. وبهذا المعنى فإن لهم الفضل في خدمتهم التاريخية الخالدة بسيرهم في طليعة البروليتاريا الأممية لحسم السلطة السياسية ووضعهم لمسألة تحقيق الاشتراكية على أرض الممارسة العملية، ولكونهم طرحوا بحزم مسألة حسم الصراع بين رأس المال والعمل في العالم كله. في روسيا لا يمكن إلا طرح المسألة فقط، لكن لا يمكن حلها في روسيا وحدها. وبهذا المعنى، فإن المستقبل في كل مكان ينتمي إلى "البلشفية"<sup>2</sup>.

1: L. Trotsky, *The History of the Russian Revolution*, p: 1191.

2: R. Luxemburg, *The Russian Revolution*, pp: 39-40 and 80.



Akimov, V., *A Short History of the RSDLP - On the Dilemmas of Russian Marxism 1895-1903*, in one volume, Cambridge, 1969.

Anweiler, O., *Los Soviets en Rusia: 1905-1921*, Madrid, 1975.

Ascher, A., *Paul Axelrod and the Development of Menshevism*, Cambridge, Mass., 1972.

Axelrod, P.B., *Pezhitoe i Peredumannoe*, Berlin, 1923.

- *Pis'ma P.B. Aksel'rod Yu. O. Martova 1901-1916*, Berlin, 1924.

Badayev, A.Y., *Bolsheviks in the Tsarist Duma*, London, 1987.

Baron, S.H., *Plejánov: El Padre del Marxismo Ruso*, Madrid, 1976.

Bobrovskaya, C., *Provocateurs I Have Known*, London, 1932.

Borodin, N.A., *The State Duma in Figures*, St Petersburg, 1909.

Broido, E., *Memoirs of a Revolutionary*, New York, 1967.

Broué, P., *El Partido Bolchevique*, Madrid, 1973.

Bukharin, N.I., *Imperialism and World Economy*, London, 1972.

Carr, E.H., *The Bolshevik Revolution*, vol. 1, London, 1966.

Cohen, S.F., *Bukharin and the Bolshevik Revolution*, Oxford University Press, 1965.

Dan, F., *The Origins of Bolshevism*, London, 1964.

Deutscher, I., *Stalin: A Political Biography*, London, 1950.

- *The Profit Armed: Trotsky 1879-1921*, New York, Oxford University Press, 1954.

Figes, O., *A People's Tragedy: The Russian Revolution 1891-1924*, London, 1996.

Footman, D., *Red Prelude*.

Frölich, P., *Rosa Luxemburg: Her Life and Works*, London, 1940.

Garbi, P.A., *Vospominaniya Sotsial-Demokrata*, New York, 1946.

Getzler, I., *Martov: A Political Biography of a Russian Social Democrat*, Cambridge, 1967.

Gorky, M., *Days With Lenin*, London, Martin Laurence.

Grinko, V.A. et al, *The Bolshevik Party's Struggle Against Trotskyism (1903-February 1917)*, Moscow, 1969.

Hegel, G.W.F., *The Phenomenology of Mind*, London-New York, 1961.

*Istoriya KPSS*, vols. 1 and 2, Moscow, 1964.

- Kautsky, K., *Selected Political Writings*, London, 1983.
- Keep, J.L.H., *The Rise of Social Democracy in Russia*.
- Kerensky, A., *The Kerensky Memoirs: Russia and History's Turning Point*, London, 1966.
- Kochan, L., *Russia in Revolution*, London, 1970.
- KPSS v rezolyutsiyakh i resheniyakh s'yezdov. konferentsii y plenumov tsk, volumes 1 and 2, Moscow, 1970.
- Krassin, L., *Leonid Krassin: His Life and Work*, London, 1929.
- Kropotkin, P., *Memoirs of a Revolutionary*, in two volumes, Boston, 1899.
- Krupskaya, N.K., *Memories of Lenin (1893-1917)*, Bournemouth, 1942.
- *O Vladimirye Ilyiche*, in two volumes, Moscow, 1924.
  - *Reminiscences of Lenin*, Moscow, 1959.
- Lane, D., *The Roots of Russian Communism*, Assen, 1975.
- Lenin's Struggle for a Revolutionary International*, New York, 1986.
- Lenin, V.I., *Collected Works*, in English (referred to as *LCW*), 45 volumes, Moscow, 1963-80
- *Polnoye Sobraniye Sochinenii*, (Fifth Russian edition), Moscow.
- Leninskiy Sbornik*, ed. Kamenev from 1924, in 20 vols.
- Lezhava, O.A., *Ol'minskii*, Moscow, 1973.
- Levin, N., *Jewish Socialist Movements 1871-1917*.
- Liebman, M., *Leninism Under Lenin*, London, 1975.
- Lockhart, R.H.B., *Memoirs of a British Agent*, London-New York, 1932.
- Lunacharsky, A.V., *Revolutionary Silhouettes*, London, 1967.
- Luxemburg, R., *The Russian Revolution and Leninism or Marxism?* University of Michigan Press, 1961.
- Malishev, S., *The Unemployed Councils in St Petersburg 1906*, London, 1931.
- Martov, J., *Mirovoy Bol'shevism*, Berlin, 1923.
- *Obshchestvennoe i Umstvennoe Techeniye v Rossii 1870-1905*, Petrograd-Moscow, 1921.
  - *Spasiteli ili Uprazdniteli?* Paris, 1911.
- Martov, J. et al, *Obshchestvennoe Dvizhenie v Rossii v Nachale 20 Veka*, 3 volumes, St Petersburg, 1909-14.
- Marx, K. and Engels, F., *Selected Correspondence*, London, 1936.
- *Selected Works*, 3 volumes, Moscow, 1969.
- McKean, R.B., *St. Petersburg Between the Revolutions*, Yale University Press, New Haven and London, 1990.
- Nachalo Rabocheho Dvizheniya i Rapostranie Markisma v Rossii (1883-1894)*.
- Nettle, J.P., *Rosa Luxemburg*, vol. 1, New York-Toronto, 1966.
- O Vladimire Ilyiche Lenine. Vospminaniya, 1900-1922*, Moscow, 1963.
- Pares, B., *A History of Russia*, London, 1962.
- Payne, R., *The Life and Death of Lenin*, London, 1964.

Piatnitsky, O., *Zapiski Bol'shevika (Memoirs of a Bolshevik)*, Moscow, 1956.

*Perepiska GV Plekhanova i PB Aksel'roda*, in two volumes, Moscow, 1925.

Plekhanov, G.V., *Sochineniya*, Collected Works in 24 volumes, Moscow, 1923-7.

- *Voprosy Voyny i Sotsializma*, Petrograd, no date.

Preliminary Commission of Inquiry, *The Case of Leon Trotsky*, New York, 1969.

Rabinowitch, A., *The Bolsheviks Come to Power*, New York-London, 1979.

Rashin, A.G., *Formirovaniye Rabocheho Klassa Rossiy*, Moscow, 1958.

Raskolnikov, F.F., *Kronstadt and Petrograd in 1917*, London, 1982.

Reed, J., *Ten Days that Shook the World*, New York, 1960.

Schapiro, L., *History of the CPSU*, London, 1963.

Schwarz, S.S., *The Russian Revolution of 1905, the Workers' Movement and the Formation of Bolshevism and Menshevism*, Chicago/London, 1967.

Semenikov, V.P. and Pankratova, A.M., *Revolutsiya 1905 goda - A Collection of Government Documents*, Moscow-Leningrad, 1928.

Serge, V., *Year One of the Russian Revolution*, London-New York, 1992.

Service, R., *Lenin: A Political Life*, London, 1991.

Shlyapnikov, A., *On the Eve of 1917*, London, 1982.

Sholokhov, M., *And Quiet Flows the Don*, Moscow, 1960.

Shub, D., *Lenin*, London, 1966.

Stalin, J.V., *History of the Communist Party of the Soviet Union [Bolsheviks]*, Short Course, Moscow, 1938.

- *Marxism and the National Question*, Moscow-London, no date.
- *Works*, Moscow, 1953.

Stasova, Y.D., *Vospominaniya*, Moscow, 1962.

Struve, P., *My Meeting with Lenin*, in the Slavonic and East European Review, July 1934, vol. 13, no. 37.

Sukhanov, N., *Zapiski o revolutsii*, Berlin-Petersburg-Moscow, 1922.

Sumner, B.H., *A Survey of Russian History*, London, 1961.

Surh, G.D., *1905 in St. Petersburg: Labour, Society and Revolution*, Stanford, California, 1989.

*The Age of the Permanent Revolution: A Trotsky Anthology*, (ed. I. Deutscher), New York, 1964.

Trotsky, L., *1905*, London, 1973.

- *In Defence of Marxism*, London, 1971.
- *Lenin*, London.
- *Leon Trotsky Speaks*, New York, 1972.
- *My Life*, New York, 1960.
- *Our Political Tasks*, London, no date.
- *Political Profiles*, London, 1972.
- *Sochineniya*, (Works in Russian), Moscow, 1925-27.

- *Stalin*, London, 1947.
- *The Balkan Wars 1912-13*, New York, 1980.
- *The First Five Years of the Comintern*, vol. 1, New York, 1945.
- *The History of the Russian Revolution*, London, 1965.
- *The Permanent Revolution and Results and Prospects*, London, 1962.
- *The Essential Trotsky*, London, 1963.
- *The Stalin School of Falsification*, New York, 1962.
- *The Young Lenin*, London, 1972.
- *Writings: 1929-40*, in 12 volumes, New York, 1975-79.

*V.I. Lenin: Biography*, Moscow, 1963.

Verkhovstev, I., (ed.), *Bor'ba za Sozdanie Marksistkoi partii v Rossii (1894-1904)*, Moscow, 1965.

Valentinov, N.V., *Encounters with Lenin*, London, 1968.

Venturi, F., *The Roots of Revolution*, New York, 1960.

Volkogonov, D., *Le Vrai Lénine*, Paris, 1995.

- *Trotsky: The Eternal Revolutionary*, London, 1996.

Volsky, N.V., (Valentinov), *Encounters with Lenin*, Oxford, 1968.

Wildman, A.R., *The Making of a Workers' Revolution - Russian Social Democracy 1891-1903*, Chicago-London, 1967.

Woods, A. and Grant, E., *Lenin and Trotsky: What they Really Stood For*, London, 1969.

Zeman, Z.A.B. and Scharlau, W.B., *The Merchant of Revolution: The Life of A.I. Helphand (Parvus), 1867-1924*, London, 1965.

Zinoviev, G., *The History of the Bolshevik Party*, London, 1973.

### Minutes

Minutes of the Second Congress of the RSDLP, 1903, *Vtoroi S'yezd RSDRP (Protokoly)*, Moscow, 1959.

Minutes of the Third Congress of the RSDLP, *Tretiy s'yezd RSDRP (Protokoly)*, Moscow, 1959.

Minutes of the Fourth Congress of the RSDLP, *Chetvyorti S'yezd RSDRP (Protokoly)*, Moscow, 1959.

Minutes of the Fifth Congress of the RSDLP, *Pyatyi S'yezd RSDRP (Protokoly)*, Moscow, 1963.

Minutes of the Extended Editorial Board of Proletary: *Protokoly soveshchaniya rasshirennoy redaksii Proletariya*, Moscow, 1934.

Minutes of the Central Committee of the RSDLP, August 1917-February 1918, *Protokoly Tsentral'nogo Komiteta RSDRP b*, Moscow, 1958.

Minutes of the Petrograd Military-Revolutionary Committee in 3 vols, September-December 1917, *Petrogradskii Voyemmo - Revolyutsionniy Komitet, Protokoly*, Moscow, 1966-7.

### Periodicals Consulted

*Iskra*.

*Sotsial Demokrat.*

*Pravda.*

*Pod Znanem Marksizma*, no. 9-10.

*Voprosy Istoriya KPSS*, 1957, no. 4.

*Die Neue Zeit.*

*Slavonic and East European Review.*

*Militant International Review*





# البلشفية الطريق نحو الثورة

آلان وودز